

المركز القومي للترجمة

رؤية جديدة لمصر

1919 - 1952

تحرير:
آرثر جولد شميدت
إيمى ج. جونسون
باراك أ. سالموني

ترجمة: عايدة الباجورى

1977



رؤية جديدة لمصر

(١٩٥٢-١٩١٩)

**المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور**

- العدد: 1977
- رؤية جديدة لمصر (١٩١٩ - ١٩٥٢)
- آرثر جولدشميدت، وإيمي ج. جونسن، وباراك أ. سالموني
- عائدة الباجوري
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

Re-Envisioning Egypt 1919-1952
Edited by: Arthur Goldschmidt, Amy Johnson & Barak Salmoni
Copyright © 2005 by the American University in Cairo Press
113 Sharia Kasr El Aini, Cairo, 11511 Egypt
420 Fifth Avenue, New York, NY 10018 USA
www.aucpress.com
Arabic Translation © 2012, National Center for Translation
Translated into Arabic with permission of the
American University in Cairo Press
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

رؤية جديدة لمصر (١٩١٩-١٩٥٢)

تحرير: آرثر جولد شميدت
إيمى ج. جونسون
باراك أ. سالمونى
ترجمة: عايدة الباجورى



بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية	
<p>رؤية جديدة لمصر (١٩١٩-١٩٥٢)، تحرير: آرثر جولد شמידت؛ إيمي ج. جونسن؛ باراك أ. سالوتى، ترجمة: عايدة الباجورى ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٢ ٧٤٨ ص: ٢٤ سم</p> <p>١- مصدر تاريخ - العصر الحديث (أ) جولد شמידت، آرثر (محرر) (ب) جونسن، إيمي ج (محرر مشارك) (ج) سالوتى، باراك أ (محرر مشارك) (د) الباجورى، عايدة (مترجم) (هـ) العنوان</p> <p>٩٦٢</p>	<p>رقم الإيداع ٢٠١٢/١٦٣٦٥ الترقيم الدولى 9-757-704-977-978 I.S.B.N. طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية</p>

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

قائمة المحتويات

7	الرسوم التوضيحية
9	مقدمة المترجم
13	تصدير
15	مقدمة
(الجزء الأول: إعادة تقييم السياسة والدبلوماسية)	
41	١- جيل ١٩١٩ - جيمس ويدن
	٢- إعادة تقييم سياسة مصر الخارجية خلال العشرينيات والثلاثينيات
77	من القرن الماضى - فرد إتش. لوسون
107	٣- إعادة النظر فى تاريخ الجيش المصرى - توفيق إكلميندوس
	٤- حيوية الرقابة المالية فى البرلمان المصرى، من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٥٢ -
143	ملاك بدراوى
(الجزء الثانى: إعادة بناء المجتمع، وإعادة صياغة التاريخ)	
	٥- تمصير الحداثة من خلال "الأفندية الجدد" البناء الاجتماعى والثقافى للطبقة
181	المتوسطة فى مصر خلال فترة الحكم الملكى - لوسى ريزوفا
	٦- الوعى التاريخى بالمواطنة الحديثة التعليم المصرى ودروس التاريخ خلال
233	الحكم الملكى الدستورى - باراك سالمونى
273	٧- حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ والتفسير التاريخى - أن كلير كربوف ...

(الجزء الثالث: السلوك الاجتماعى والخطاب الاجتماعى)

- ٨- نحو ديمقراطية التعليم العام (المناقشات التى دارت فى آخر برلمان مصرى
١٩٤٣-١٩٥٢) - ميساكو إيكيدا 307
- ٩- تمكين المرأة وإحداث التغيير عزيزة حسين والإصلاح الاجتماعى فى مصر -
إيمى جى، جونسون وسكوت دافيد ماكنتوش 347
- ١٠- الفلاحون: حملة الطين فى العصر الليبرالى فى مصر - سامية خلوصى .. 383

(الجزء الرابع: نشأة أمة حديثة)

- ١١- تنظيم الزواج وتقنيته فى مصر الملكية - حنان خلوصى 435
- ١٢- تسجيل لنشاطات المرأة الطبية فى تاريخ مصر الحديثة -
نانسى جالاجر 499
- ١٣- القوادات، والجريمة، ووسائل الإعلام أخبار الحوادث وظهور الثقافة
الجماهيرية فى مصر فى العشرينيات - شون تى، لوباز 527
- ١٤- ثورة ١٩١٩، والبنية القومية لحياة وأعمال الرواد من الكاتبات -
مرفت حاتم 561

(الجزء الخامس: الفن والسينما والأدب والذاكرة التاريخية)

- ١٥- الفن المصرى فى القرن العشرين: الرواد ١٩٢٠ - ١٩٥٢ -
كارولين ويليامز 595
- ١٦- الدولة والسينما فى مصر ما قبل الثورة ١٩٢٧-٥٢ أندرو فليبر 627
- ١٧- التأريخ لمصر، ١٩١٩-٥٢ - آرثر جولد شميدت 653
- ١٨- الخاتمة - روجر أوين 705
- مراجع مختارة 721

الرسوم التوضيحية

- شكل ١، ١ : النواب الأميون يؤدون امتحان دخول البرلمان
- شكل ١، ٥ : سجناء محمد على الضخمة
- شكل ٢، ٥ : المصري أفندي يركل السفير الإنجليزي
- شكل ٣، ٥ : عائلة الرشيدى الحلوانى
- شكل ٤، ٥ : الطلبة يقبلون بعضهم بعضاً تيمناً بعودة الدستور
- شكل ٥، ٥ : الطلبة الشهداء و "السرقه القومية الأكثر روعة"
- شكل ١، ٧ : تخريب السيارات فى وسط القاهرة
- شكل ٢، ٧ : تخريب واجهات المحلات فى الأزهر
- شكل ١، ١٣ : ريا وسكينة
- شكل ٢، ١٣ : ريا على شكل وحش
- شكل ١، ١٥ : محمود مختار، صحوة مصر
- شكل ٢، ١٥ : يوسف كامل: درب اللبانة
- شكل ٣، ١٥ : رجب عياد: الساقية
- شكل ٤، ١٥ : رجب عياد: الأم والابن
- شكل ٥، ١٥ : رجب عياد: مقهى فى أسوان
- شكل ٦، ١٥ : رجب عياد: الدير
- شكل ٧، ١٥ : محمد ناجى: معبد الكرنك

- شكل ٨، ١٥ : محمد ناجى: صورة ذاتية
- شكل ٩، ١٥ : محمد ناجى: راعٍ ممسك بخروف
- شكل ١٠، ١٥ : محمد ناجى: قسم الولاء
- شكل ١١، ١٥ : محمود سعيد: صورة ذاتية
- شكل ١٢، ١٥ : محمود سعيد: الصلاة
- شكل ١٣، ١٥ : محمود سعيد: حياة المدينة
- شكل ١٤، ١٥ : محمود سعيد: خادمة حامل
- شكل ١٥، ١٥ : عبد الهادى الجزار: القدر
- شكل ١٦، ١٥ : عبد الهادى الجزار: الأحمق الأخضر
- شكل ١٧، ١٥ : حامد ندا: مصباح من الكأبة
- شكل ١٨، ١٥ : حامد ندا: سيدة وسمك
- شكل ١٩، ١٥ : محمود سعيد: افتتاح قناة السويس
- شكل ٢٠، ١٥ : عبد الهادى الجزار: حفر قناة السويس

مقدمة المترجم

هذا الكتاب يتضمن سبع عشرة مقالة تتناول عدة موضوعات قام بتحريرها عدد من كبار الكتاب والمثقفين من التخصصات والخلفيات المختلفة. وتستند المقالات - على حد تعبير المحررين- إيمى ج. جونسون وباراك سالمنى إلى الإشارة لأن فترة ١٩١٩-١٩٥٢، كانت حقبة مهمة من "الحيوية الثقافية" و"الديناميكية المجتمعية"، وربما أكثر أهمية للقرن الحادى والعشرين وأيضاً لمصر ما قبل - ١٩٥٢ من أى حقبة أخرى، رغمًا عن كون دراسة تلك الفترة لا تزال غير مستوفاة ويساء تفسيرها، كما توصف بأنها وقت من "التسوس الزاحف".

ويجادل جيمى ويدان قائلاً: وقد اختار حزب الوفد فى بادئ الأمر - بسبب التناحرات الحزبية والأفكار الأيديولوجية وليس بسبب الديمقراطية والتمصير - نخبة للمشاركة فى الحياة السياسية. وتؤكد جونسون أن عزيزة حسين قد جسدت نشاط المرأة، بينما تقول كارولين ويليامز إن فنانى فترة تحرير الفن المصرى من المواضيع والتقنيات الغربية، كانوا رواداً فى البحث عن الجنور العربية والفن الإسلامى والتخطيط للعهد القادم.

ويتضمن الكتاب أيضاً مناقشة منقحة للقضايا السياسية الداخلية والخارجية، وكذا العسكرية، والتعليم، والإصلاح الاجتماعى، كما يستشهد الكتاب بمائة مرجع فى نفس المجال، ويدعو القراء لإعادة النظر فى الحكم الذى كان مستقراً فى مصر خلال الفترة من ١٩١٩-٥٢. فبدلاً من أن تكون فترة زحف نحو الاضمحلال، تظهر هذه

السنوات وكأنها جزء لا يتجزأ من تشكيل الدولة الحديثة والتحول الاجتماعي. ومن المرجح أن نظام الحكم والتحول الاجتماعي كان مثقلاً بالأعباء بسبب غياب الضغوط الناتجة عن الحرب العالمية الثانية والقضية الفلسطينية.

وعلى الرغم من أن أيام مجد مصر ربما تكون قد ولت، فإنها وما يقرب من ثمانين مليون نسمة وهو تعدادها، مضاف إليها العدد الأكبر من السكان العرب لا تزال تعتبر لاعباً مهماً في السياسة الإقليمية، وحتى إذا كان الإسلاميون يشككون في شرعية العديد من الدول العربية التي تشكلت في أعقاب الحرب العالمية الأولى، فإن تراث مصر معترف به منذ آلاف السنين. ورغم أن كون مصر هي واحدة من ضمن ثلاث دول عربية أقامت علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل، فإنها مع ذلك تحتفظ لنفسها بمكانة عالية باعتبارها وسيطاً دبلوماسياً مهماً على الساحة العربية. ومع ذلك فعلى الرغم من أهميتها فإن ما يكتب عنها يعد نادراً.

رؤية جديدة لمصر ١٩١٩-١٩٥٢ هو كتاب يعرض جوانب جديدة يتم تجاهلها في معظم الأحيان عن عصر الملكية الدستورية في تاريخ مصر. كما يدل على أن الكثير من التغييرات الاجتماعية والسياسية والثقافية المحلية والإقليمية التي تحسب لثورة ١٩٥٢ كانت قد بدأت فعلاً في العقود التي سبقت ثورة يوليو. مما يعارض الرأي السائد بأن عصر ما قبل الثورة كان يزحف عليه الاضمحلال، ويعمل الكتاب على استعادة إدراك أن السنوات ١٩١٩-١٩٥٢ هي جزء لا يتجزأ من تكوين الدولة القومية الحديثة والتحول الاجتماعي. أما المساهمون في الكتاب فهم يعملون على إظهار أن ثورة مصر الحقيقية كانت عملية طويلة الأجل نشأت على مدى عدة عقود قبل ثورة ١٩٥٢، وأن التغييرات التي حدثت في وقت سابق في المجتمع المصري هي التي سهلت وبشكل أساسي إجراءات الثورة وسياساتها؟ فواقع الأمر هو أن قادة ثورة ١٩٥٢ قد استفادوا من هذه التطورات.

كما يتضمن الكتاب طريقة إدخال نهج جديد من التحليل والاستكشاف لبعض الفئات المهمشة في المجتمع ويعيد النظر في القضايا السياسية الداخلية والخارجية والجيش والتعليم والإصلاح الاجتماعي والطبقي والفن الشعبي وكذلك وسائل الإعلام والأدب.

في مجمله فإن كتاب رؤية جديدة لمصر ١٩١٩-١٩٥٢ يقترح منهجيات مبتكرة لفهم هذه الفترة الحاسمة في التاريخ المصري، ناظراً إلى هذه السنوات باعتبارها عنصراً أساسياً لمسار البلاد في القرن العشرين.

تصدير

بقلم: باراك أ. سالموني وآرثر جولد شميدت

يود محررو "رؤية جديدة لمصر" التعبير عن شكرهم للدعم الذي قدم لهم من عدة أفراد هم روبرت فيتاليس، مدير مركز الشرق الأوسط بجامعة بنسلفانيا، الذي كان من مشجعي مشروع الكتاب منذ بدايته، كذلك كان أيضاً جيمس يانكوفسكي، من جامعة ولاية كولورادو وقد تقاعد مؤخراً. بالإضافة إلى منى راسل من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وجامعة ولاية فرامنجهام ستيت يونيفرستى، وليزا بولارد من جامعة كارولينا الشمالية فى ويلمينجتون، اللتين كان لهما الفضل فى لفت أنظارنا إلى توافر باحثين فى المجالات المختلفة، وتشجيع على المساهمة فى العمل معنا، كما أنهما قامتا بقراءة مسودات الفصول، إضافة إلى المساهمة فى كتابة الخاتمة، وقد كان روجر أوين يؤكد باستمرار للمحررين على وجود حاجة إلى مثل هذا الكتاب، كما أنه اقترح مساهمين محتملين للمشاركة فى العمل، بالإضافة إلى قيامه بقراءة مسودات فصول المشروع.

كما يقدم المحرران الشكر إلى لوسى ريزوفا لسماحها لنا بمشاطرة مجموعتها الهائلة من الصور المصرية ١٩٣٩-٥٢، ويعد غلاف الكتاب واحداً من تلك الصور. كما نود أيضاً أن نقدم الشكر إلى مساعدي إيمي جونسون. ومن الباحثين فى كلية بيرى جنيفر كارمان وزخارى غرين، اللذين ساهما فى إنهاء هذا الكتاب. كما نوجه عظيم امتناننا إلى زوجة باراك سالموني "أليسيا سالموني"، التى عملت على تشجيع زوجها باستمرار، أثناء ما كان يحرق فى فترة زمنية قصيرة جداً الفصل الخاص به، والعديد من الفصول الأخرى.

كتاب "رؤية جديدة لمصر" نشأ في بدايته من سلسلة من المحادثات عبر الهاتف بين المحررين في مؤتمرات علمية وفي قاعات مركز جامعة هارفارد للدراسات الشرق أوسطية. ومع ذلك، فإن هذا الكتاب هو في نواح كثيرة من بنات أفكار إيمي جونسون، التي كانت أول من اقترح التعاون بين العلماء وكذا موضوع الكتاب. وبالتالي، فبشعور عميق من الحزن ننعى وفاتها المبكرة في ليلة ٢ ديسمبر ٢٠٠٤، متأثرة بجروح أصيبت بها في حادث سيارة بينما كانت عائدة لبيري،/جورجيا من مؤتمر رابطة دراسات الشرق الأوسط. كانت إيمي زميلة بارعة، منتبهة، ومثابرة، تهتم بالجميع وتقدم المساعدة لغيرها من العلماء طوال الوقت. كانت أيضاً الباحثة الفذة التي لا تبخل بالجهد والاهتمام في تثقيف طلابها داخل الفصول الدراسية وخارجها. ويظهر ذلك في مساهمتها في هذا الكتاب مع سكوت ماكنتوش، وقد أخذت إيمي مهمتها في التوجيه الأكاديمي والتعليمي مأخذ الجد. وبالمثل، فإن اختيارها موضوع البحث الأكاديمي الإصلاح الاجتماعي، والجهود المجتمعية للتخفيف من معاناة الجماهير المصرية وحرمانهم لهو دليل واضح على التزامها باستخدام براعتها العلمية لمواصلة مهمتها الفكرية الحساسة.

مع ذلك، فإن صداقتها الثمينة كان لها أكبر قدر من التأثير علينا وما سوف نفتقده. وقد تمكنت إيمي من أن توازن بين الطموح الفكري والشخصية البسيطة المتواضعة، دون أن يحدوها السعى وراء المكانة أو الرؤية، أو الترويج الذاتي. كانت إيمي دائماً صديقة حقيقية، غير أنانية، وبالتالي داعمة لكل على حد سواء محبوبة من الآخرين. وسوف يكون إرثها بذل جهود جديدة من جانبنا لنكون صادقين وأكثر إنسانية، نعمل لمصلحة أصدقائنا حتى الذين لم نقابلهم بعد.

رؤية جديدة لمصر مكرس لذكرى إيمي جونسون، ١٩٦٩-٢٠٠٤.

مقدمة

بقلم: باراك أ. سالموني وإيمى ج. جونسون

من بين ما يتعلمه كل من يزور مصر، سواء من لوحات الإعلانات أو من سائقي سيارات الأجرة، أن "مصر أم الدنيا"^(١). وبطبيعة الحال، فإن هذا الزعم المصرى عليه أن يتنافس مع تلك البلدان الشرق أوسطية الأخرى: حيث يدعى بعض الإيرانيين أن بلدهم هي "محور الكون"، في حين أن الأتراك قد يؤكدون أن أسلافهم نشروا الحضارة من آسيا حتى جميع النقاط الموجودة على البوصلة^(٢) ومع ذلك، فإن مصر قد أثبتت مركزية وضعها مما يفيد أنها كانت القوى المحركة الرئيسية لمنطقة الشرق الأوسط في المائتين وخمسين سنة الماضية. فقد كانت أول منطقة شرق أوسطية تتعرض للتعدي الأوروبي على أراضيها الإقليمية وذلك أثناء غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨-١٨٠١، ثم جاء حكم محمد على (حكم ١٨٠٨-٤٨) فوضعت مصر نمطاً لنظام ناجح نسبياً للإصلاح البيروقراطي تحت قيادة عسكرية استبدادية. وهذا الإصلاح كافح أيضاً من أجل إقامة دولة يحركها اقتصاد اكتفاء ذاتي ذو سلطة سياسية جلبت إيرادات مربحة.

نتيجة لذلك، فقد جذب وادي النيل اهتمام الأوروبيين مرة أخرى وأخذوا يستعرضون عضلاتهم العسكرية في التلاعب بالزعماء الوطنيين مما أدى إلى تحديد مسار السياسة الإقليمية، مع التأثير على توازن القوة الأوروبية. ومرة أخرى لم تكتف هذه التجارب في مصر بالتأثير على الاتجاهات المستقبلية، ولكن أيضاً بالتأثير في ديناميكيات التحديث المدنية في ١٨٥٠-٥٨، وما صاحب ذلك من المديونية لبعض الغربيين والإفلاس في نهاية المطاف، وقد تجلى ذلك أيضاً في أماكن أخرى مثل شمال

إفريقيا، والمركز العثماني وإيران، وإلى حدٍّ أقل - بسبب الوسائل المحدودة - المسلمين المغول في آسيا الوسطى المسلمة^(٢).

جاءت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالاحتلال الأوروبي. وشهدت مصر خلالها حركة ديناميكية ظهرت فيما بعد في أجزاء أخرى من شمال إفريقيا والمشرق العربي. وشملت العلاقات بين القوى المحلية والمتقنين الوطنيين المناهضين للاستعمار والأسياد الأجانب، والنخبة المحلية التي توافقت معهم، وساعدت كذلك على انبثاق درجة عالية من التنوع الاجتماعي السياسي، والصحافة التعليمية، وازدهار الحركة من أجل الإصلاح، وزيادة الطلب المجتمعي على تطبيق تحديث الإسلام^(٤). وبالنسبة للحالتين الأخيرتين، فقد قامت مصر بتأدية دورها كمركز تجمع للأفراد من ذوي التفكير المماثل الذين جاءوا من أراضٍ أخرى في الشرق الأوسط، لتصبح بذلك مركز إشعاع لمثل تلك الأفكار^(٥).

وبقفزة إلى الأمام - فقد أصبح من الشائع عند القيام بمناقشة الفترة التاريخية والسياسية والتغيير الاجتماعي والاقتصادي في الشرق الأوسط، أن تبدأ تلك المناقشات بمصر. حيث إن انقلاب الضباط الأحرار الذي تحول إلى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - جاء إلى العالم العربي بعصر التحرر الوطني، ليحل محل السياسة غير الفعالة، وحكم النخبة التي أهملت الجوانب الاجتماعية ليضع بدلاً منها أنظمة واعية وتقدمية من نتائج الطبقات الاجتماعية الشعبية التي جاءت عبر الأكاديميات العسكرية^(٦) أخذة من دور جمال عبد الناصر والعسكريين الشباب في العراق وسوريا وليبيا وأماكن أخرى نماذج لها في سعيها لإعادة تشكيل المجتمعات والسياسات والاقتصاد.

وبالمثل، كان فشل مصر في حرب يونيو ١٩٦٧ رمزاً لمدي احتياج بقية العالم العربي إلى إعادة تقييم أسس المفاهيم والأخلاق في السياسة. وفي حين أن تجربة مصر ما بعد ١٩٧٣ وإن كانت تختلف في بعض الجوانب عنها في سوريا والعراق وبقية دول شمال إفريقيا، فإنها لا تزال تجسد أنماطاً شرق أوسطية أكبر. وفي نهاية المطاف فقد تحاشى أنور السادات الدخول في صراع عسكري مباشر مع إسرائيل

وقد احتذت به الدول العربية الأخرى، تماماً مثل ما فعلت فيما يتعلق بخطوات الانفتاح الاقتصادي والخصخصة، التي طبقت في اقتصاديات^(٧) دول شرق أوسطية أخرى. وفي الآونة الأخيرة، وربما الأكثر أهمية، فقد أدى تحجر النظم السياسية إلى ظهور طائفة إسلامية نشطة تعمل على تحدى الدول غير الكفاء في جميع أنحاء العالم العربى، وإن ظهرت أكثر تلك الطوائف ضراوة في مصر^(٨).

وإذا كان صحيحاً أن مصر تجسد الاتجاهات في الشرق الأوسط، فإنه من الصحيح أيضاً أن هذه الرؤية تتجاهل فترة بالغة الأهمية من تاريخ مصر، وربما تفوق في أهميتها مراحل أخرى مرت بها مصر، ونعنى بذلك فترة أعوام ١٩١٩-١٩٥٢، عندما تشكلت نخبة من المصريين (الوفد) وقامت بزيارة المندوب السامى البريطانى وكانت حافزاً لإشعال ثورة، ثم انقلاب ١٩٥٢ بعد ذلك. وغالباً ما يفسر الانقلاب على أنه مؤشر على فشل النظام الملكى الاجتماعى والسياسى والفكرى والاقتصادى فى مصر. ومع أن فترة ١٩١٩ حتى ١٩٥٢، التى يشار إليها بأشكال مختلفة على أنها "التجربة الليبرالية" و"الحقبة البرلمانية" والفترة الملكية أو "سنوات الملكية الدستورية"، ما زالت لا تتلقى ما يكفى من اهتمام العلماء فإن هذه الفترة تعرض ثقافة تنبض بالحياة والديناميكية المجتمعية، بجانب إرث فكرى سياسى يتطلب كثافة متجددة من التركيز^(٩). ويقدم هذا الكتاب عرضاً لهذه الكثافة المتجددة، مع التركيز على الوسائل التى جعلت من تلك الفترة مرحلة مهمة بالنسبة لأحداث لاحقة فى القرن العشرين.

وإذا نظرنا إليه من زاوية أخرى، فإن ما كان يحظى بشعبية كبيرة بين الكتاب الغربيين فى وقت ما، والذي قام نظام ما قبل ١٩١٩ - ١٩٥٢ بتنميته، نجد أنه كان فى واقع الأمر وليد الفشل منذ البداية. ومسايرة لوجهة النظر هذه فإن السياسة المصرية كانت غارقة فى الفساد وعدم الكفاءة من جهة، والجدل الداخلى من جهة أخرى. وكانت مكائد الأحزاب السياسية والسياسيين، والملك، والإنجليز تؤكد عدم تمكين أى حكومة من استكمال فترة ولايتها بالكامل. ونتيجة لهذا الانطلاق السريع من أجل الثراء الشخصى لم يتبق سوى القليل من الوقت، والرغبة، أو الجهد لتخصيصه لمصر فى

مواجهة التحديات الكبيرة فى مجال التنمية الاقتصادية، والتعليم، والرعاية الاجتماعية. أما من الناحية الديموغرافية فقد وقفت النخبة الثقافية الأوروبية عديمة التناغم مع عقلية الناس فى مواجهة نمو القطاعات الحضرية من السكان. كما كان الاستبعاد الاجتماعى السياسى قد أدى إلى تعبئة قانونية إضافية. وفى الوقت نفسه، فإن تقلص السلطة البريطانية لم يحدث إلا زيادة خلال خمسة وعشرين عاماً، حتى إن الفشل فى فلسطين عام ١٩٤٨ وتصاعد العنف فى الشوارع خلال السنوات الأربع التالية رمز إلى إفلاس النظام الاجتماعى السياسى القائم، وإلى الحاجة إلى يد قوية لتجنب السياسة لفترة من الوقت^(١٠).

وإذا نظرنا من منظور آخر، فإن فترة الملكية الدستورية تعد أكثر أهمية، وتظهر إنجازات رئيسية، إضافة إلى تحديات مستمرة. وإذا قارنا بين الدول التى انضمت إلى جامعة الدول العربية فى عام ١٩٤٥، ومقرها القاهرة، فإن مصر الملكية كانت أكثر الدول سيادة، وعلى وجه الخصوص بعد إنهاء المعاهدة الإنجليزية المصرية "معاهدة ١٩٣٦" الأمر الذى زاد من تقليص الدور البريطانى فى السياسة المصرية. فمنذ عام ١٩٢٢ كانت بريطانيا قد منحت مصر استقلالاً محدوداً - بموجب تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ - بما يعنى أن جميع مجالات الشؤون الداخلية والتى لا علاقة لها بالأمن والاتصالات الاستراتيجية أصبحت حكراً على المصريين أنفسهم. وهكذا أصبحت مصر تختلف تماماً عن غيرها من الدول العربية باستثناء المملكة العربية السعودية، وبالمثل، وعلى الرغم من أن الثالث الحاكم المتمثل فى الملك وبريطانيا والأحزاب السياسية، جعل من الحكم النيابى حكماً مختلاً، فإنه كان يوجد بالفعل نظام برلمانى. ومن بين الخصائص الأخرى ظهرت مناقشات حية، صاخبة وتحديات للوزراء، ورفض للتشريعات^(١١). وهناك عدة فصول من (رؤية جديدة لمصر) تشهد على هذه الحيوية البرلمانية، ولا سيما مقالات ملاك بدراوى، وحنان خلوصى، وميساكو إيكيدا^(١٢) وفى حين ما كان بعض النواب والوزراء يلجئون كثيراً إلى المحسوبية ومحاباة الأقارب وتحقيق المصالح الضيقة لبعض القطاعات - وهى ممارسات عادية فى السياسة - فإن التزام معظم النخبة السياسية بالحفاظ على حكومة برلمانية كان واضحاً بالإضافة إلى محاولة الحد من

القرارات الملكية ودعم الدستور^(١٣) باعتبار ذلك وسيلة اختبار لنضج الحياة السياسية. إضافة إلى ذلك فإن تزايد الفعالية القضائية والتمسك باستقلال المحاكم كان من الأهمية بمكان^(١٤). وفي بداية القرن الحادى والعشرين، وبينما المصريون يفكرون فى حياة سياسية أكثر انفتاحاً فى العقود القادمة، كان البعض يرجع إلى النظام الدستورى بشئ من الحنين، سواء كان ذلك صواباً أو خطأ، وقد أوضحت آن كليز كيربوف ذلك فى الفصل الذى قامت بكتابته.

وفى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى واصلت مصر تقدمها بتواضع، وإن كان حقيقياً، وقاد القطاع الخاص عملية التنمية الاقتصادية، مع الحفاظ على مبدأ الكفاية المالية^(١٥). وعلى نقيض من وضعها الحالى فقد استمرت مصر خالية من الديون نظراً للظروف العالمية ونشاط السكان الأصليين، إضافة إلى ذلك فقد نبتت مجموعة صغيرة من رجال الأعمال المصريين، بجانب بعض الصناعات الوليدة التى لبّت الاحتياجات المحلية والإقليمية. وقد نتج عن التوجهات الاقتصادية الجديدة وما صاحبها من التنقل عبر الحدود الجغرافية لبعض المصريين، مزيداً من تشكيلات اجتماعية جديدة برزت على الساحة شملت الطبقة العاملة الحضرية، والقطاع العمالى فى المناطق الريفية، وحديثاً المثقفين ذوى الياقات البيضاء الذين سعوا لتشكيل مفاهيمهم الخاصة بالنسبة للتقاليد والحدائق^(١٦). وقد عملت كل من لوسى ريزوفا وسامية خلوصى على تحليل كل من هذه الطبقات الاجتماعية الجديدة، وأهم المواقف تجاهها، فى حين أن الفصل الذى كتبه أندرو فليبر يستكشف جانباً واحداً من مشاريع توسع الأعمال فى تلك الآفاق الجديدة.

وربما توجد بعض الإنجازات التى لم تأخذ حقها فى الدراسة فى الفترة من ١٩١٩- وحتى ١٩٥٢ وكانت معنية بالتعليم بسبب قصورها الظاهر خلال الثلاثين سنة الماضية؛ فبعد عقود من الإهمال البريطانى مرت الجهود المعنية بالتعليم الحكومى بثورة تدريجية فى ظل الملكية الدستورية، وتضمن ذلك التوسع فى إعداد المدارس وتوزيعها الجغرافى وتوفير تعليم للإناث^(١٧) وبالمثل استمرت المهنة التربوية فى الزيادة

حتى إنه بحلول ١٩٤٠ كان خبراء التعليم قد أدمجوا بقوة في اتجاه النشاط العالمى، وازداد إدراكهم للأيدىولوجية المحتملة للتعليم المدرسى كما يظهر ذلك فى الفصل الذى كتبه باراك أ. سالمونى. فمما هو مؤكد أن المشكلات والخلافات استمرت وخاصة من حيث المساواة فى الفرص التعليمية بين الجنسين وبين الطبقات الاجتماعية والمناطق الجغرافية المختلفة. بالإضافة إلى أن الغرض من تعليم هذه المجموعات، وكذا مضمون المناهج الدراسية الملائمة فى المدارس، لم يكن قد تحدد تماماً. ومع ذلك، فإن نفس هذه القضايا التى أعلنها نظام ما بعد ١٩٥٢ على أنها من أولويات واهتمامات النظام الجديد، كانت قد تصدرت على حد سواء جدول أعمال كل من المربين المتخصصين والمشرعين قبل عام ١٩٥٢ ونتج عنها بعض الإنجازات الواضحة كما تظهره بوضوح دراسة ميساكو إيكيدا.

وتعد المبادرة التى وقعت فى مجال السياسة الخارجية والإصلاح الاجتماعى ذات دلالة على أهمية تلك الحقبة من التاريخ المصرى والتى أهملها معظم الكتاب، ورغم أن القادة المصريين لم يمتنعوا باستقلال غير مقيد فى هذا المجال فإن فريد لوسن يشير إلى أنهم بدءاً من الثلاثينيات كانوا يبدون على وجه الخصوص اهتماماً متزايداً بالأحداث فى شمال إفريقيا والمشرق والخليج العربى. وبالتالى فمع تأسيس الجامعة العربية بالقاهرة فى منتصف الأربعينيات كانت الحقبة الملكية قد أرست معالم نظام ما بعد ١٩٥٢ الذى كان يبحث عن التدخل والهيمنة الإقليمية.

وكان الانتقاد الذى لا يتغير لمصر البرلمانية قد تركز على عدم اهتمامها الواضح بالشئون الاجتماعية والاندماج الاجتماعى الكامل للقطاعات المختلفة من السكان^(١٨). ورغم أن النخبة المصرية كانت فى معظم الأحيان تعتبر مقصرة فى هذا الصدد، فإن التعرض لهذا التاريخ يحتاج إلى رؤية معتدلة. وكما ذكرنا سابقاً، فمنذ العشرينيات، تحدث المُربون المصريون عن الحاجة لأن يستهدف التعليم احتياجات المصريين فى المناطق الريفية والفقيرة على وجه الخصوص، وذلك لمصلحة الأمة ككل. كما أن الاشتراكية واتجاهات الفكر الماركسى، كما درسته سامية خلوصى، تدل على أن مثل

هذه المخاوف كانت واضحة خارج الوسط التربوى. ونتج عن ذلك تأسيس وزارة الشئون الاجتماعية فى عام ١٩٢٩، بالإضافة إلى تشريعات أساسية فى الأربعينيات وبداية الخمسينيات، اهتمام متجدد بهذه القضايا. وكما يبين كلٌّ من إيمى جونسون وسكوت دافيد ماكينتوش فى الفصل الخاص بهما، فإن النخبة الاجتماعية نفسها بدأت بطرح مبادرات نشطة بالتعاون مع الدولة للنهوض بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى بين جميع شرائح المجتمع المصرى. وهنا أيضاً يجد المرء أن الأنماط التى تبناها نظام عام ١٩٥٢ استعان فيها ببعض هؤلاء الأشخاص.

وكما أبرز ماكنتوش وجونسون، وبمساهمة نانسى جالاجر، كان ازدياد الفرص أمام المرأة، وتنامى قوتها المستقلة متمماً للإصلاح الاجتماعى. وعلى الرغم من انعكاس التقدم النشط فى الدراسات الخاصة بالنوع (ذكر/أنثى) فقد كان أكثر التركيز على الفترة ١٩١٩ - ٥٢ نفسها، فالحركة النسائية فى مصر خلال هذه الفترة نالت اهتماماً كبيراً^(٢٠). وفى هذا السياق كانت مصر تعتبر كذلك رائدة فى هذا المجال خلال النصف الأول من القرن العشرين. وكان الجدل دائراً بين الرجال والنساء حول دور كل منهما وهويته فى بلد حديث يقع تحت السيطرة الاستعمارية الأوروبية. وفى وقت لاحق بذلت النخبة الحضرية فى العهد البرلمانى جهوداً متواصلة من أجل التوصل إلى صيغة حديثة للمرأة الوطنية العصرية التى فى إمكانها المساهمة فى رفع مستوى مصر، بينما هى تتأرجح بين الحرية فى المجال العام والتمسك بالتقاليد، ودورها فى خدمة الرجل. وعلى هذا النحو، ومن خلال توافق الآراء الدستورية، لم يتحقق أبداً الوصول إلى معنى المرأة الحديثة، الوطنية والوقورة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، خاصة أن المدافعين عن المرأة كانوا غالباً ما يتقدمون بمفاهيم مختلطة، كما يكشف الفصل الخاص بكل من ميرفت حاتم ونانسى جالاجر. وطوال هذه الفترة استمرت محاولات كثيرة من أجل صياغة آليات جديدة للأئوثة المصرية، تشمل من بين أمور أخرى، التعليم، والثقافة الجماهيرية كما ذكر شون لوبيز. وبجانب جهود الأدب والإصلاح الاجتماعى والقانونى التى قام بتغطيتها كل من ماكينتوش وجونسون وحاتم، كما سلطت حنان خلوصى الأضواء عليها.

وهناك سمة دائمة في مصر منذ القرن التاسع عشر وهي تنوع التعبير الثقافي والفكري، إما من خلال مصادرها أو من المجالات المحلية، وفي الواقع فإن كل فصل في هذا الكتاب يكشف أن الحقبة الدستورية في مصر هي بالتأكيد الأكثر حيوية في هذا الصدد. وقد أظهرت التأكيدات والمصادر التي استخدمتها ريزوفا، وخلوصي، ولوبيز وآخرون أن حرية الصحافة واستمرار ظهور وسائل إعلام جديدة هيأت الساحة لتنوع المجالات الاقتصادية، السياسية والاجتماعية والسلوك الثقافي الديني. كما خدمت هذه السبل الجديدة عدداً كبيراً من القطاعات المجتمعية، حيث أظهرت مجموعة من الكتاب من نوى الخلفيات الأكثر اتساعاً. وكذلك الدوريات والمجلات، التي على الرغم من أنها كانت مثيرة للجدل إلى حد بعيد فإنها عبرت عن تزايد حدة الفكر، خاصة فيما يتعلق بمسائل التعليم والرعاية الاجتماعية والعلوم. وكما بين آرثر جولد شميدت فإن المؤرخين المصريين كانوا أيضاً نشيطين خلال هذه الفترة وورثوا الطلبة اللاحقين لهم مجموعة غنية من المعرفة، وأيضاً نظرة ثاقبة في الاتجاهات للمفكرين الوطنيين.

صاحبت وسائل الإعلام المطبوعة ازدهار حياة الإنسان المجتمعية، ما عدا ما منعه الدولة بشكل متقطع في فترة ما قبل أواخر الأربعينيات. وعلى الرغم من بعض التظاهرات - من جماعة مصر الفتاة، وجماعة الإخوان المسلمين - التي أصبحت في وقت ما عقبة للنظام العام، فرفاهية الإنسان المصري كانت عالية، وقد أشار إليها العلماء في التسعينيات "بالمجتمع المدني"، وهو ما يفتقر إليه الشرق الأوسط المعاصر. ويبو هنا الفكر والثقافة والتعددية التنظيمية على أنه قناعة إيجابية. وبالتالي ففي ضوء الصورة التي رسمناها باختصار يدعو هذا الكتاب القراء لإعادة النظر في الحكم الذي كان مقبولاً في مصر خلال الفترة من ١٩١٩-٥٢. فبدلاً من أن تكون فترة زحف للاضمحلال، تظهر هذه السنوات وكأنها جزء لا يتجزأ من تشكيل الدولة الحديثة والتحول الاجتماعي. ومع ذلك فربما يكون نظام الحكم والتحول الاجتماعي قبل الخمسينيات مثقلاً بالأعباء، فإنه من المرجح أنه نتيجة غياب الضغوط الناتجة عن الحرب العالمية الثانية وحرب فلسطين وهي قضايا خارجية لها أصداء داخلية - كان يمكن لمصر أن تنتقل أكثر من ذلك بكثير تدريجياً نحو المشاركة السياسية والتنمية

الاقتصادية والتقدم الاجتماعى الذى طمح إليه قادة انقلاب ١٩٥٢، دون أن يستطيعوا تفعيله. ومن وجهة النظر هذه فإن مصر كانت تنتمى لفئة أكثر الدول سيادة فى الشرق الأوسط^(٢١) بين ١٩٢٠ وأوائل الخمسينيات، مثل جمهورية تركيا وإيران رضا خان. فى حين كانت أقرب إلى تركيا من منظور ثبات السيادة والحيوية الاقتصادية وتطوير البنية التحتية. ومع ذلك، ومثل إيران، كانت مصر ما زالت مطوقة من القوات البريطانية ولديها العاهل الذى حاول السيطرة على سياسة البرلمان بينما اختار التعاون مع النخبة الاقتصادية - التى حقق رضا خان نجاحاً أكبر فيها. ومع ذلك فقد تباينت مصر عن كل من تركيا وإيران بانفتاح أكبر فى الساحة الاجتماعية والسياسية والاقتصاد الرأسمالى^(٢٢).

إذاً رؤية جديدة لمصر ١٩١٩-١٩٥٢ تتضمن مجموعة متزايدة من المؤلفات التى تعيد تقييم التحولات السياسية والاجتماعية فى الشرق الأوسط^(٢٣) لأولى الدول ذات السيادة فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى. وكما فعلت الأعمال الأخرى يقوم هذا الكتاب ضمناً وصراحة بإظهار أن الكثير مما هو مرتبط بمصر ما بعد ١٩٥٢ مثل الانطلاق من الماضى ترجع جذور عملياته إلى الثلاثينيات. وبالمثل فإن أعوام ١٩١٩-٥٢ تملك كثيراً من الموروثات التى يجب أن يُعاد تصورهما فى مصر اليوم؛ فالفكر الديناميكي لثورة ١٩١٩ نفسها، كما حلله جيمس ويدان، واصل تردد صداه خلال الخمس وثمانين سنة الماضية، كما جاء فى تغطية لوسون للعلاقات الخارجية المصرية التى تكشف عن نواة لنهج أكثر تطوراً فى الفترات الأخيرة^(٢٤). وكان معظم جدول أعمال وأيديولوجية المربين فى مصر منذ الثلاثينيات قد استقاهم معلمو الضباط الأحرار - الذين كانوا هم أنفسهم معلمى عهد الخمسينيات والستينيات^(٢٥). هذه الاستمرارية من العهد الدستورى إلى الناصرية واضحة فى أولوية القضايا الريفية كما هو واضح أيضاً فى أعمال جونسون، سواء هنا أو فى مكان آخر^(٢٦). وبالطبع كما حقق فيها جيداً توفيق إكليمندوس، فإن تحول فيلق الضباط المصريين ليصبحوا أداة حركة انقلاب جاهزة كانت عملية طويلة الأجل، وذات خلفية اجتماعية تعود إلى الثلاثينيات. وأخيراً كما ذكرنا سابقاً فإن كربوف تشير إلى أن الأحداث التى أدت إلى انقلاب ١٩٥٢ نفسه،

مثل حريق القاهرة الكبير، ما زالت تلقى صدى عند الطبقات الاجتماعية الرئيسية في مصر اليوم.

يتناول هذا الكتاب موضوعات أهملها من قبل كل من تناول تاريخ مصر، وذلك باستخدام مصادر وطرق جديدة لتقييم الاتجاهات المألوفة في التأريخ لمصر، كما يضاعف من المؤلفات حول الموضوعات التي جذبت اهتمام كبار العلماء في العقد الماضي، وبذلك فهو يجمع معاً اهتمام مجموعة بولية من العلماء الكبار والصغار من مختلف التخصصات، فالجزء الأول: إعادة تقييم السياسة والدبلوماسية يبدأ بفصل عن الأيديولوجيات السياسية وتشكيلها في العشرينيات والثلاثينيات، ويركز جيمس ويدان على الإعلان الذاتي المجسد في ١٩١٩ والروح الوطنية المصرية، أي حزب الوفد. فهو ضد وجهة النظر أن الوفد كان من النخبة، وإنما كان تجمعاً ليبرالياً سطحياً فقط. ويبحثه في مستندات الحزب السياسى المصرى، ومذكرات وأرشيف الحكومة البريطانية، وبعض المذكرات فإنه يلقي الضوء على الطبيعة الأيديولوجية الديناميكية للعشرينيات، عندما كانت أفكار الأمة، والمواطنة، والتوجه الثقافى، والعمل والمساواة بين الجنسين لا تزال تشهد تنافساً شديداً. وفى النهاية، بدلاً من الاعتماد على آراء النخبة السياسية خلال العقد الأول لاستقلال مصر يجد ويدان أن الوفد تبني نهج الوطنية المصرية لما قبل الحرب العالمية الأولى، وبالتالي كان أكثر راديكالية مما افترضه العلماء.

وفى الفصل الثانى يقدم فريد لوسون للقراء الأرض البكر العريضة المجهولة للعلاقات الخارجية المصرية خلال العشرينيات والثلاثينيات، مناقشاً مصداقية افتراض العلماء التقليديين قلة اهتمام القاهرة بالدول المحيطة بها خلال هذه الأعوام. وعلى النقيض يحدد لوسون عدة مناسبات قامت فيها الحكومة المصرية بعرض مبادرات إقليمية مهمة، بما فى ذلك التعامل مع القضية الفلسطينية وفى تحقيقه لاعتراض القاهرة على محاولات إيطاليا إعادة رسم الحدود مع ليبيا فى أوائل ١٩٢٥ وكذلك جهودها فى الوساطة بين اليمن والسعودية خلال أزمة ١٩٣٤-٣٥، يوضح النشاط

الدبلوماسية المصرية فى ذروة النظام الملكى، كما يلقى الضوء على الحسابات الاستراتيجية التى اتسمت بها الدبلوماسية المصرية على الرغم من محدودية استقلالها عن بريطانيا.

الفصل الثالث، لتوفيق إكليمندوس "نشاط فى الجيش المصرى، ١٩٣٦-٥٢"، يعد مساهمة كبيرة فى إعادة تشكيل وجهة نظرنا حول موضوع بالغ الأهمية بالنسبة للحقبة الملكية ومرحلة أعوام ما بعد ١٩٥٢. فقد سهلت الإصلاحات العسكرية عام ١٩٣٦ لجمال عبد الناصر وأنور السادات الالتحاق بالأكاديمية العسكرية. وبدراسة تمهيدية عن الأثر طويل المدى لهذه الإصلاحات على الضباط المصريين يتحدى إكليمندوس القول المسلم به من أن الجيش قبل ١٩٣٦ كان مؤسسة شركسية - تركية، تولتها فيما بعد البرجوازية المصرية الصغيرة. ويكشف أنه حتى قبل ١٩٣٦، وفر المواطنون المصريون من العائلات الغنية، وكذلك الجنود من الأصول المتواضعة العنصر الأكبر من الضباط. وعلى هذا النحو أفرزت إصلاحات ١٩٣٦ نسبة من الديمقراطية فى القبول فى الأكاديمية العسكرية، ولكن ليس بالقدر الكافى لتعزيز صفوفها، وما يقابله من ارتفاع قابلية الضباط للانغماس فى السياسة. كذلك درس إكليمندوس ديناميكية التنظيم السرى لمجموعة الضباط التى أدت فى نهاية المطاف إلى سقوط النظام الملكى فى ١٩٥٢. وبينما أشار العلماء إلى وجود مجموعة كبيرة واحدة، يكشف إكليمندوس عن مجموعات أخرى تكتلت مع الضباط الأحرار الذين قادوا انقلاب ١٩٥٢ ليشكلوا فى نهاية الأمر مجموعة تضم القوميين والضباط الموالين للإخوان المسلمين. وهكذا، بالإضافة إلى توفير معلومات تصحيحية تشد الحاجة إليها، يحل الكاتب آثار الديناميكية العسكرية لما قبل ١٩٥٢ التى ميزت النضال فى السنوات الأولى لنظام عبد الناصر بعد ١٩٥٢.

يختتم الجزء الأول بفصل ملاك بدرأوى عن الوضع المالى العام فى مصر خلال الحقبة الدستورية. وبدراسة موضوع عادة ما يُغفل فإن الفصل الذى كتبه بدرأوى يطرح فكرة أن الإدارة والسياسيين المصريين وعوا جيداً الدروس المستفادة من

الإفلاس الوطنى فى فترة ١٨٧٦-٨٢. وقد أكد القادة الأساسيون طوال تلك الفترة أن الإدارة المالية الناجحة كانت مطلباً لإثبات أن مصر لم تعد فى حاجة إلى وصاية أجنبية. ومن خلال المناقشات البرلمانية ووجهة نظر الرأى العام المصرى فإنه يمكن للمصريين إدارة أموالهم والحفاظ على الانضباط فى الميزانية، حيث كانوا مدفوعين بأهداف اقتصادية وطنية - حتى إن صانعى انقلاب ١٩٥٢ دهشوا للحالة الجيدة للوضع المالى المصرى، مع وجود فائض فى العملات الأجنبية فى الخزانة. ومع ذلك فإن المناورات السياسية بين القصر والكتل البرلمانية غالباً ما كانت تحدد دوافع المناورات على الاقتصاد والميزانية. وقد انضمت الاهتمامات السياسية الأكثر دنيوية أو ذاتية إلى الرغبة الوطنية فى الإبقاء على قدرتها على الوفاء بالتزاماتها. كما أن التضييق المالى - الذى اعتبر السبب الحقيقى وراء التوسع غير الكافى للخدمات التعليمية والاجتماعية - أخذ يظهر فى ضوء جديد.

الجزء الثانى: يبدأ "إعادة بناء المجتمع، وإعادة صياغة التاريخ" بتحريات لوسى ريزوفا عن ظاهرة الأفندية الجدد فى الثلاثينيات والأربعينيات، التى غالباً ما تصور على أنها نظام حضرى جديد وطبقة متوسطة مثقفة، بجانب مزيد من النهج التقليدى للدين والهوية الثقافية. ولأول مرة تسلط الأضواء على هذه المجموعة، وتوضح ريزوفا أنهم لم يكونوا طبقة متوسطة مثقفة، بل كانوا يشكلون جمهوراً جديداً من الشباب المتعلم من خلفيات متواضعة، وكانوا ينظرون إلى الحداثة من خلال أعين المسلمين والعرب. ومع ذلك، وبنفس القدر من الأهمية كانوا يرون أنفسهم متميزين عن كل من التقليديين والطبقة العليا المتفرجة. وفى تعريف أنفسهم بهذه الطريقة روجوا لمفهوم جديد لمصر كمجتمع قومى. وسلطت دراسة ريزوفا للروايات والذكرات والسينما والصحافة الشعبية وغيرها الضوء على الثورة المزبوجة للأفندية الجدد، ضد العالم التقليدى حيث نشأوا والطبقة العليا المصرية التى أدانوها على أسس قومية واجتماعية واقتصادية. ويتسلط الضوء على الحداثة المصرية "من أسفل" تحديداً، يوضح هذا الفصل بشكل بارز الأسس الاجتماعية فى مصر لمرحلة ما بعد الثورة. وبالتالي فإنه يدخل فى حوار مثير ينتقد الأدب الذى ظهر فى العقد الماضى.

يشير باراك سالمنى فى الفصل السادس إلى المكونات الأيديولوجية فى مشروع تحديث الدولة المصرية قبل ١٩٥٢ وكيفية قيام المربين القوميين باستخدام التعليم لتنمية الوعى بالواجب المدنى وعظمة المصرى المبنية على تفسيرات خاصة لتاريخ مصر القديم والمعاصر. وعلى العموم، فما زال على العلماء عمل دراسة منهجية لفحص الرسالة التعليمية الأيديولوجية للأجيال الصاعدة خلال فترة النظام الملكى الدستورى. ويفيد المؤرخون الرئيسيون بأن الادعاءات حول قيام ثورة تركّز على النخبة ولا تبالى بالأيديولوجية وتتطور التوجهات القومية خلال الثلاثينيات والأربعينيات نحو الشرق والإسلام، لا تزال غير مختبرة فى المساحة الأساسية للجماهير. ومع ذلك، يوضح التحقيق التربوى أن الدولة كانت بالفعل مهتمة بالوصول إلى الجماهير العريضة، باستخدام وسيلة اتصال أيديولوجية واعية لتوفير الدروس المناسبة من تاريخ ركز معظم وقته خلال فترة ١٩٢٠-٥٢ على العصر الفرعونى وحكم محمد على، بوصفه مكملًا للمجد التاريخى المصرى الذى أثر فى الشباب المصرى ليحذو حذوه.

فى الفصل السابع تنتقل أن كلير كاربوف من توظيف مؤسسات الدولة لخلق ذاكرة جماعية إلى الدور السياسى والأيديولوجى لحدث حاسم، وهو حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢. هذا الحريق الذى أفقد النظام مصداقيته ومهد الطريق للانقلاب الذى حدث بعد ستة أشهر وأصبح مادة لمناقشات حامية للصحفيين والمؤرخين المصريين، إلا أن الحدث ما زال يفتقر إلى البحث الأكاديمى المفصل. ومن خلال أدلة جديدة وتفسير جديد تشير بأنه كان أكثر من تأمر سياسى أو دسيسة من النخبة، فحريق القاهرة يجسد احتجاجاً قومياً شاملاً، وكان أول ضربة للنظام لأسباب مازالت محل جدل. ومع ذلك فهذه فقط إحدى مكونات القصة. ومن خلال نظرة ثاقبة لرؤية مصر فى سنوات ما قبل عبد الناصر، تشير كاربوف إلى أن حنين النخبة الليبرالية للزمن الماضى الجميل يحفزهما إلى إحياء ذكرى الحريق كنهاية درامية للملكية، وليس بوصفه يوماً ثورياً شاملاً نزعَ شرعية النخبة المصرية نفسها.

الفصول فى الجزء الثالث: "العمل الاجتماعى، والخطاب الاجتماعى" تعيد توجيه نظرتنا إلى مصر قبل ١٩٥٢ وذلك بتسليط الضوء على اهتمام المصريين بالإصلاح الاجتماعى والاقتصادى وحقوق الاقتراع. وتعود ميساكو إيكيدا فى الفصل الثامن إلى مجال التعليم، بحجة أنه على الرغم من سياسات عهد عبد الناصر بشأن مجانية التعليم وتوحيد برامج التعليم الابتدائى التى نالت الكثير من الاهتمام، فإن جنود هذه الاتجاهات قد ظهرت فى الثلاثينيات والأربعينيات. وكانت مناقشات البرلمان والصحافة والتربويين المهنيين تجادل لتحقيق المساواة فى فرص التعليم واستخدام التعليم فى التقليل من الفجوات الاجتماعية والاقتصادية، كذلك تبين إيكيدا التنوع اللافت للنظر فى الآراء، بينما تذكر القارئ بدينامكية تعبير التربويين المهنيين فضلاً عن دور الوفد فى هذه المناقشات. وكما أن نظام الحكم بعد ١٩٥٢ استفاد فى كثير من الأحيان من الجهود السابقة، فهذا الفصل يجبرنا على إعادة تقييم الحقبة الملكية الدستورية.

وفى نفس السياق يتحدى فصل "تمكين المرأة، يولد التغيير: عزيزة حسين والإصلاح الاجتماعى فى مصر" لكل من إيمى جونسون وسكوت دافيد ماكنتوش ما قيل من أن فترة ما قبل ١٩٥٢ هى فترة مجردة من برامج إصلاح حكومية ذات مغزى، بينما يكشف أن نشاط المرأة فى الإصلاح الاجتماعى فى مصر خلال هذه الأعوام تجاوز قضايا الطبقة العليا الحضرية. وفى إعادة النظر فى النهج المبني على البحث الدعوى ومقابلات جونسون المكثفة مع عزيزة حسين وزملائها، يقوم الكتاب بدراسة نادى سيدات القاهرة تحت رئاسة عزيزة حسين التى أسست أول مركز يومية للرعاية الصحية الريفية كما قادت حملات محو الأمية، وتنظيم الأسرة والصناعة الريفية. وفى فترة اضمحلت فيها الهيئات الاجتماعية بينما الحكومة غير مبالية، جسد هذا المشروع التعاون بين القطاعين الخاص والعام، حيث وضع معياراً جديداً لنشاط المرأة من خلال تمكين المرأة الريفية كعامل من عوامل التنمية. ولا يقتصر هذا الفصل على تقديم عزيزة حسين للقراء كرائدة فى مجال الإصلاح الاجتماعى المصرى، ولكنه يظهر أيضاً كيف أن هذه الأنشطة تشكل نموذجاً للإصلاح الاجتماعى الذى تم اتباعه بعد ١٩٥٢.

وللانتقال إلى شريحة أخرى من المجتمع يركز الفصل العاشر بقلم سامية خلوصى على "حملة الطين في عصر الليبرالية المصرية". وهو تعبير يشير إلى سكان المناطق الريفية في البلاد، والمعروفين باسم "الفلاحين". وفي خلال فترة العشرينيات وحتى الأربعينيات جسدوا لكثير من الناس أشياء كثيرة في الخيال الأدبي والأكاديمي والسينمائي. فبالنسبة للبعض كان الفلاح المصرى يجسد التواصل الحقيقى للشخصية المصرية، منذ أيام الفراعنة وحتى القرن العشرين، وفي نظر آخرين كانت الصعوبات التى يواجهها الفلاحون تمثل كل ما هو خطأ اجتماعى واقتصادى فى مصر، كاشفاً الافتقار بالاهتمام من جانب مجتمع النخبة. بينما تظل الساحة الريفية عند آخرين مكاناً للتصور وإعادة تصور ديناميكية الدين والنوع والتنمية، وتدرس خلوصى كل هذه الأوجه وكيف تخيل وقدم الكتاب والفنانون الفلاحين خلال العصر الملكى الدستورى، كما تسلط الضوء على ما انتهوا إليه وما استبعدوه. وقد شجعنا عملها على تخيل فئة الفلاحين وتصورات النخبة عنهم بطريقة أكثر من مقارنة إقليمية^(٢٧).

الجزء الرابع: "نشأة أمة حديثة" يمتد تجريبياً وفكرياً ليكون واحداً من الرؤى الأكثر ديناميكية فى التأريخ المصرى المرتبط بدور الجنس. وعلى الرغم من أن الدراسات القومية المصرية تثبت معارضة مزدوجة بين "العام" وهو السيطرة القومية للرجل على السياسة و"الخاص" وهو المنزلة الاجتماعية الثقافية للزواج والأسرة، فإن حنان خلوصى فى الفصل الحادى عشر توجه انتباهنا إلى التدخل غير المسبوق من قبل الدولة بعد ١٩١٩ فى العلاقات الزوجية. واستفادة من المناقشات واسعة النطاق فى الصحافة والمجلس التشريعى وبين المثقفين تفحص خلوصى كيف أن الإصلاحيين القوميين المصريين سعوا إلى إعادة تعريف الزواج، من أجل خلق أسرة نووية باعتبارها أساساً لدولة خالية من الأمراض الاجتماعية المعروفة من تعدد الزوجات وانفراد الرجل بالحق فى الطلاق. وأيضاً، فهى تكشف كيف أن الكتاب المصريين استخدموا الزواج لنقد مجتمعهم من خلال وصفات لتحديثه. هذا الفصل يساهم فى فهمنا التاريخى للزواج فى العصر الملكى، كذلك يوضح كيف أن هذه المؤسسة

الاجتماعية المهمة يمكن استخدامها لإعادة فهم القومية المصرية، مع نتائج نظرية لسياقات وطنية أخرى.

ساهمت نانسي جالاجر فى الفصل الثانى عشر "مساهمة مهمة فى تاريخ مصر الاجتماعى قبل وأثناء الحقبة البرلمانية" فى كشف الدور المهم للمرأة العاملة فى المجال الطبى (الحكيمات) فى مصر الحديثة ويرتبط ذلك بالموضوعات التى عالجها جونسون وماكينتوش. فقد دخلت المرأة فى مصر مجال المهن الطبية والصحية فى وقت مبكر عن نظيراتها فى البلدان الأخرى بالشرق الأوسط باعتبارها نتاجاً ثانوياً لبرنامج محمد على للتحديث، وفى وقت لاحق، وفى النصف الأول من القرن العشرين، وبنفس الالتزام الاجتماعى عملت عزيزة حسين فى العيادات والمستشفيات وبرامج الصحة العامة. وفى سياق المراجعة العريضة للأدب ذى الصلة، قيّمت جالاجر المساهمات الطبية للمرأة المصرية، مدافعة عن هذه الإنجازات التى تحتل مكاناً أكثر بروزاً فى القالب الجديد المعاصر للديناميكية الاجتماعية المصرية فى الفترة ١٩١٩-٥٢.

ومثل عمل كيربوف، قام شون لوبيز "القوادات والجريمة ووسائل الإعلام" (الفصل الثالث عشر) بتقييم الآثار العميقة لحادث معين، من خلال إلقاء الضوء على دور الصحافة فى كل من تعزيز الاهتمام المصرى الواسع بالأحداث اليومية، والمساعدة فى صياغة ثقافة جماهيرية نوعية. فقد جذبت سلسلة جرائم ريا وسكينة فى ١٩٢٠ الاهتمام القومى، والعدد الكبير من المصريين الذين تابعوا التغطية الصحفية للجرائم وخضعوا لإعادة النظر فى النوع والطبقة الاجتماعية والهوية الوطنية. ورغم أن الثقافة الإعلامية الجماهيرية عادة ما تناقش فى سياق ما بعد ١٩٥٢، فإنها منذ بداية ١٩٢٠ بدأت تنتشر فى مصر على أساس المفاهيم المقبولة من السلوك العام.

وفى مضمون التحول إلى نوع مختلف من الصور الأدبية تفحص ميرفت حاتم فى الفصل الرابع عشر السيرة الذاتية التى كتبتها مى زيادة عن ملك حفنى ناصف وعائشة تيمور التى استهدفت فيها تعبئة الجمهور لتذكره بمساهمات المرأة للأمة. ومع ذلك فهى تعزز زيادة المواقف المتناقضة تجاه المرأة، حيث إن سيرتها الذاتية قسمت

أدوار المرأة فى التاريخ الوطنى المصرى. وعن طريق إعادة النظر من الناحية النقدية لنتائج وأنشطة مواضيعها المختارة، تنبه حاتم القراء إلى صعوبة اندماج المرأة فى الأمة المصرية، من خلال تقليلها فى تقييم الفوارق بين الجنسين والتأكيد على التجانس الوطنى. وتعد مساهمتها فى حد ذاتها مهمة، ولكنها تضع ثقلًا كبيراً على أهمية تسليط الضوء على ضرورة النظر إلى سياقات جغرافية أخرى فى الشرق الأوسط وما وراءه من خلال مختارات تحليلية ومنهجية مماثلة.

الجزء الخامس عشر: "الفن، السينما والذاكرة التاريخية" يدمج موضوعات مهمة فى الاتجاه السائد للتاريخ المصرى فى أوائل القرن العشرين. وتلقى كارولين ويليامز نظرة مهمة على التعبير الفنى المرئى فى ١٩١٩-٥٢ وكيف أن أسلوب التعبير فى الرسم والنحت كان حاسماً فى وصف الصورة الوطنية. كما أنها توفر معلومات قيمة فى قائمة الشرف للفنانين المصريين، الذين يبرزون كشخصيات دولية خلال هذه الأعوام. وكانت نظرة رواد الفن لمصر فى العشرينيات والثلاثينيات متميزة عن المستشرقين الذين سبقوهم، وجعلوا من مصر دولة فريدة بين الدول العربية. كذلك بفحص التوجهات التى عكست نفسية جموع الجماهير فى الأربعينيات، توضح، ويليامز أن الفنانين المصريين كثفوا اهتماماتهم الاجتماعية فى نهاية النظام الملكى، مما جعل الفنون المرئية مقياساً رئيسياً للديناميكية الاجتماعية.

تركز معظم الدراسات عن السينما المصرية على السنوات التى تلت عام ١٩٥٢، وبالتالي فإن الدارسين لا يعرفون سوى القليل عن صناعة السينما المصرية^(٢٨). ومع ذلك فإن العصر الذهبى للسينما المصرية سبق إلى حد ما الخمسينيات، التى لا تزال أفلامها تحظى بشعبية حتى يومنا هذا باستخدام واحدة من أكبر المجموعات الشخصية كمصدر ذى علاقة بالأفلام خارج مصر، وفى الفصل السادس عشر يلقى أندرو فليبر الضوء على إشكاليات صناعة السينما على وجه الخصوص خارج نطاق أوروبا وأمريكا، فهو يركز على العلاقة بين أجهزة الدولة وصناعة الفيلم، بالإضافة إلى دور الأجانب المقيمين فى السينما المصرية، حتى يمكن الإشارة إلى مصادر النجاح المبكر لهذه الصناعة. ومن خلال السياسة الاقتصادية للسينما يتساءل فليبر عن القول التقليدى

بأن النظام الملكي المصرى كان غير مهتم بالفيلم، ويراجع التاريخ المعاصر الذى قلل من أهمية الأجانب. وأخيراً يكشف فليبير عن أصل أزمة صناعة السينما فى مصر فى الأربعينيات، وقد أظهر الصلة بين الثقافة الجماهيرية، والاقتصاد والسياسة فى مصر فى العشرينيات وحتى الأربعينيات من خلال مجال لم يعط قدره حتى الآن.

فى الفصل الأخير من الجزء النهائى، يضع آرثر جولد شميثد المقالات السابقة فى منظور تاريخى واسع وذلك من خلال مناقشة أكثر المؤرخين البارزين فى تلك الفترة ويلقى الضوء على الأفكار المهيمنة على التغطية الثقافية للتاريخ المصرى فى ١٩١٩-٥٢، من خلال الأعمال التى جاءت باللغة الإنجليزية والفرنسية والعربية. ويفحص المواضيع الرئيسية طبقاً لتطورها على مر الزمن، كذلك يوفر جولد شميثد دليلاً مهماً للدارسين المبتدئين والمتقدمين على حد سواء مقترحاً مسارات البحث فى المستقبل. وذكروا بأن كلاً من الأعمال السابقة واللاحقة للدارسين، والمذكرات، والتاريخ الشعبى هى على نفس القدر من الأهمية لإجراء البحوث اليوم. وعلى هذا النحو فإن فصل جولد شميثد يجسد الغرض من الكتاب ككل. ومع أن كتاباً واحداً لا يمكنه أن يدرس كل الجوانب لجيل كامل فى تاريخ مصر، فإن هذا الكتاب بتقديمه لنهج تحليلى جديد (لكل من الفئات المهمشة والشعبية) يشمل السياسة الداخلية، والسياسة الخارجية، والجيش، والتعليم، والإصلاح الاجتماعى، والنوع، والطبقة، ووسائل الإعلام الشعبية، والفن والأدب، وأن رؤية جديدة لمصر تطرح فترة ١٩١٩-١٩٥٢ كأساس لمنحى البلاد فى القرن العشرين، مشجعاً على مزيد من الدراسة لهذه الفترة.

هوامش المقدمة

(١) انظر: نيللى حنا، "مصر أم الدنيا: قصة القاهرة في ١٢٠٠ عام" (القاهرة: دار الفتى العربى، ١٩٩٢).

(٢) انظر: عباس أمانات

Pivot of the Universe: Nasir al-Din Shah and the Qajar Monarchy, 1831-1896.

(بركيلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٧)؛ جراهام عى. فوللير

Center of the Universe: The Geopolitics of Iran.

(بولدر، مطبعة ويست فيو، ١٩٩١)، بوسرا إرسائلى بنهار

Iktidar ve Tarih: Turkiyelde ResmiTarih Tezinin Olusumu, 1929-1937.

(إسطنبول: أ ف أ، ١٩٩٢) هوف بولتون

Top Hat, Grey Wolf and Crescent: Turkish Nationalism and The Turkish Republic.

(نيويورك: مطبعة جامعة نيويورك، ١٩٩٧).

(٣) حول جوانب توضيح هذه العمليات المركزية المصرية بالنسبة لباقي دول الشرق الأوسط، انظر: عفاف لطفى السيد مارسو:

Egypt in the Reign of Muhammad Ali.

(كمبريدج: مطبعة جامعة كمبريدج، ١٩٨٤)؛ وايهوارد ر. توليدانو

State and Society in Mid-Nineteenth-Century Egypt.

(كمبريدج: مطبعة جامعة كمبريدج، ١٩٩٠)؛ وخالد فهمى

All the Pasha's Men: Mohamed Ali, His Army, and the Making of Modern Egypt.

(كمبريدج: مطبعة جامعة كمبريدج، ١٩٩٧) وكينيث م. كونو

The Pasha's Peasants: Land, Society, and Economy in Lower Egypt, 1740-1858.

(كمبريدج: مطبعة جامعة كمبريدج، ١٩٩٢)؛ وطبعة نيللى حنا

The State and Its Servants: Administration in Egypt from Ottoman Times to the Present.

(القاهرة، مطبعة الجامعة الأمريكية، ١٩٩٥). بالنسبة للجوانب الدبلوماسية فى العلاقات الدولية... والقضية الشرقية، انظر: ل. كارل براون.

International Politics in the Middle East: Old Rules, Dangerous Game.

(برينستون، مطبعة جامعة برين ستون، ١٩٨٤)، وفريد لوسون،

The Social Origins of Egyptian Expansionism during the Muhammad Ali Period.

(نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٩٢)؛ وديفيد س. لاندس،

Bankers and Pashas: International Finance and Economic Imperialism in Egypt.

(كمبريدج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٧٩)؛ وجوان ر. كولي،

Colonialism and Revolution in the Middle East: Social and Cultural Origins of Egypt's Urabi Movement.

(برينكتون: مطبعة جامعة برينكتون، ١٩٩٢).

(٤) فيما يخص الصحافة، انظر: أمي أيالون

The Press in the Arab Middle East: A History.

(نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٥) وبيث بارون،

The Women's Awakening in Egypt: Culture, Society, and the Press.

(نيو هافين: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩٤)؛ من أجل التغيير الفكري، انظر: ألبرت حوراني classic Arabic

Thought in the Liberal Age, 1798-1939 (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٢) وكذلك لويس

عوض، The Literature of Ideas in Egypt (أطلنطا: مطبعة سكولارس، ١٩٨٦).

(٥) على الرغم من كونه مكتوباً في زويا، روسيا، فإن البيان الرسمي للوطني التركي، يوسف أکورا

Yusuf Acura's Üç Tarz-i Siyaset ("Three Styles of Politics").

كان قد نشر في الدورية التركية في القاهرة عام ١٩٠٤.

(٦) انظر: جويل جور دون

Nasser's Blessed Movement: Egypt's Free Officers and the July Revolution.

(لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٢)، وكيرك بياتي

Egypt during the Nasser Years: Ideology, Politics, and Civil Society.

(بولدر: مطبعة ويستفيو، ١٩٩٤)؛ جيمس جانكوفسكي،

Nasser's Egypt, Arab Nationalism and the United Arab Republic.

(بولدر: الناشر لاني رينير، ٢٠٠٢)؛ وب.ج. فاتيكويتيس

Nasser and His Generation.

(نيويورك: س.ت. مارتينس، ١٩٧٨).

(٧) كيرك ج. بياتي Egypt During the Sadat Years (نيويورك: الجراف، ٢٠٠٠).

(٨) أوبرهارد كاينلي

A Grand Delusion: Democracy and Economic Reform in Egypt.

(نيويورك: أ. ب. توريس، ٢٠٠١)؛ وكاري روسفسكي وكهام

Mobilizing Islam: Religion, Activism, and Political Change in Egypt.

(نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ٢٠٠٢).

(٩) عفاف لطفى السيد مارسو Egypt's Liberal Experiment 1922-1936 (بيركيلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٧٧).

(١٠) جويل جوردان قد أعرب عن هذا الشعور بطريقة جيدة في

Nasser's Blessed Movement.

بالنسبة لمصر في حرب فلسطين ١٩٤٨، انظر: فواز أ. جرجس

Egypt and the 1948 War: Internal Conflict and Regional Ambition.

في طبعة روجين ل. روجان

Rewriting the History of 1948.

لندن. مطبعة جامعة كمبريدج، (٢٠٠١)، ١٥١-٧٧.

(١١) ماريوس ديب

Party Politics in Egypt: The Wafd and its Rivals, 1919-1939.

(لندن: مطبعة ايثاكا، ١٩٧٩).

(١٢) ميساكو إيكيدا،

Sociopolitical Debates in Late Parliamentary Egypt.

(مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة هارفارد، ١٩٩٨).

(١٣) بالنسبة للنقطة الفاصلة في فترة حكم إسماعيل صدقي الحكم بالقانون، انظر: ملاك بدرأوى

Ismail Sidqi, 1875-1950: Pragmatism and Vision in Twentieth-Century Egypt.

(ريشموند: كورزون، ١٩٩٦).

(١٤) انظر: ناثن ج. براون

The Rule of Law in the Arab World- Courts in Egypt and the Gulf

(لندن: مطبعة جامعة كامبردج، ١٩٩٧).

(١٥) انظر: روجر أوين وسافكين باموك

A History of Middle East Economies in the Twentieth Century.

(كمبريدج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٩٨)، ٣٠-٥٠، ١٢٧-٣٠.

(١٦) إريك دافيس

Challenging Colonialism: Bank Misr and Egyptian Industrialization, 1920-1941.

- (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٨٢)، روبرت فيتاليس
When Capitalists Collide: Business, Conflict and the End of Empire in Egypt.
- (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٥): روجر أوين وسافكييت باموك
A History of Middle East Economies in the Twentieth Century.
- (كمبريدج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٩٨)، وروبرت ل. تيجنور
Capitalism and Nationalism at the End of Empire: State and Business in Decolonizing Egypt, Nigeria, and Kenya, 1945-1963.
- (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٨): وكذلك
State, Private Enterprise, and Economic Change in Egypt, 1918-1952.
- (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٨٤): وزاخاري لوكمان وجويل بينين
Workers on the Nile: Nationalism, Communism, Islam and the Egyptian Working Class, 1882-1954.
- (برينكتون: مطبعة جامعة برينكتون، ١٩٨٧).
(١٧) انظر: باراك أ. سالموني
Pedagogies of Patriotism: Teaching Socio-Political Community in Twentieth-Century Turkish and Egyptian Education.
- (مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة هارفارد، ٢٠٠٢).
(١٨) جويل بينين Egypt: Society and Economy, 1923-1952 في طبعة م. و. دالي The Cambridge History of Egypt الجزء الثاني.
Modern Egypt, from 1517 to the End of the Twentieth Century.
- (كمبريدج: مطبعة جامعة كمبريدج، ١٩٩٨)، ٢٠٩-٢٣.
(١٩) إيمي ج. جونسون
Reconstructing Rural Egypt: Ahmed Hussein and the History of Egyptian Development.
- (سيراكيز: مطبعة جامعة سيراكيز، ٢٠٠٤).
(٢٠) مارجو بدران
Feminists, Islam, and Nation: Gender and the Making of Modern Egypt.
- (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٥): وبارون
The Women's Awakening in Egypt.
- (بيركلي، مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠١): ومارلسين بوث
May Her Likes be Multiplied' Biography and Gender Politics in Egypt.

- (بيركلى: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠١) وطبعة لين هانى وليزا بولارد
Families of a New World: Gender, Politics, and State Development in a Global Context
- (نيويورك: روتلج، ٢٠٠٢)، وكلايسا لى بولارد
Nurturing the Nation: The Family Politics of the 1919 Egyptian Revolution.
- (مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة كاليفورنيا فى بيركلى، ١٩٩٧)؛ ومنى ل. راسل
Creating the New Woman: Consumerism, Education, and National Identity in Egypt, 1863-1922.
- (مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة جورج تاون، ١٩٩٧).
- (٢١) طبعة أوجست ريتشارد نورتن Civil Society in the Middle East (نيويورك: ي. ج. بريل، ١٩٩٦)،
ريتشارد ب. ميشيل The Society of Muslim Brothers (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٩)؛
وجيميس جانكوفسكى.
- Egypt's Young Rebels: "Young Egypt," 1933-1952.
- (ستانفورد، س أ: مطبعة مؤسسة هووفر، ١٩٧٥).
- (٢٢) للحصول على الدراسة التى طال انتظارها عن حملة التحديث لكمال أتاتورك للتقرب من رزا شاه،
انظر: توراج أتاباكى وإيريك ج. زور شار.
Men of Order: Authoritarian Modernization under Ataturk and Reza Shah.
- (لندن: أ. ب. توريس، ٢٠٠٤).
- (٢٣) طبعة سيبيل بوزدوجان وريسات كاسبا
Rethinking Modernity and National Identity in Turkey.
- (سياتل: مطبعة جامعة واشنطن، ١٩٩٧)؛ وطبعة ستيفان كرونين
The Making of Modern Iran: State and Society under Riza Shah, 1921-1941.
- (نيويورك: راوتليدج كورزون، ٢٠٠٣).
- (٢٤) انظر: يوهوشوا بوراث In Search of Arab Unity, 1930-1945 (لندن: كاس، ١٩٨٦)، وبارى
م. روبن The Arab States and the Palestine Conflict (سييراكيوز، مطبعة جامعة سييراكيوز،
١٩٨١).
- (٢٥) من أجل عبور الموظفين التربويين من هذا النوع، انظر: م. خيرى حريى.
Education in Egypt (U.A.R.) in the Twentieth Century.
- (القاهرة: هيئة المطابع الأميرية، ١٩٦٠)، وأبو الفتوح أحمد رضوان.
Old and New Forces in Egyptian Education.

(نيويورك: مكتب نشر، كلية المعلمين، جامعة كولومبيا، ١٩٥١)، إسماعيل م. القباني "دراسات في مسائل التعليم" (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١)، كذلك "دراسات في تنظيم التعليم بمصر" (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨)؛ أمير بقطر

School and Society in the valley of the Nile.

(القاهرة، مطبعة الياس الحديثة، ١٩٣٦).

(٢٦) جونسون. Reconstructing Rural Egypt.

(٢٧) لإجراء المقارنات داخل الاقليم خلال هذه الفترة، انظر: م. عاصم كاراميرليوجلو

The People's Houses and the Cult of the Peasant in Turkey.

دراسات الشرق الأوسط ٣٤: ٤ (أكتوبر، ١٩٩٨)، ٦٧-٩١.

(٢٨) لسنوات ما بعد ١٩٥٢ انظر: جويل جورنون.

Revolutionary Melodrama: Popular Film and Civic Identity in Nasser's Egypt.

(شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ٢٠٠١).

الجزء الأول

إعادة تقييم السياسة والدبلوماسية

١- جيل ١٩١٩

جيمس ويدن

كان عام ١٩١٩ عاماً حاسماً في التاريخ المصري. وفي بداية العام أصدر وفد وطني (الوفد) إعلاناً ثورياً يطالب بالاستقلال التام عن الحماية البريطانية. ولم يقتصر هذا الإعلان على تحدى الوفد للاحتلال البريطاني، بل شك أيضاً في سلطة وشرعية السلالة الحاكمة، والممثلة في السلطان أحمد فؤاد. وقامت مظاهرات حاشدة في مارس وأبريل ١٩١٩ تضيف الشرعية على مطلب الوفد وتمثيله للإرادة الوطنية، فبدأت معركة سياسية بين القوميين الليبراليين والديمقراطيين والملكيين المحافظين. وفي ١٩٢٤ قدم الملكيون الأيديولوجية الإسلامية في السياسة، محولين بذلك المشهد السياسي والثقافي المصري.

وبالمثل، فقد غيرت الأحداث التي وقعت في ١٩١٩ من العلاقات بين البريطانيين والمصريين؛ فقد فوضت بريطانيا لورد ميلنر، وزير المستعمرات، لرئاسة لجنة تحقيق في أسباب ما كان يشار إليه شعبياً بـ"ثورة ١٩١٩". وفي خطوة جريئة لافتة للنظر، بدأ ميلنر في مفاوضات بشأن معاهدة تعترف باستقلال مصر، مع الحفاظ على مصالح بريطانيا الاستراتيجية^(١). ومع ذلك عندما قسمت المفاوضات المجتمع السياسي المصري إلى معتدلين ومتطرفين، كان رد فعل بريطانيا هو إعلان استقلال مصر من جانب واحد في عام ١٩٢٢. وتلا ذلك بفترة قصيرة عقد لجنة دستورية من قبل السياسيين المعتدلين المقبولين لدى بريطانيا. وأعلن "الدستور الليبرالي" عام ١٩٢٣ سيادة مصر الوطنية، وكذا سيادة الإرادة الوطنية من خلال برلمانات منتخبة.

بالإضافة إلى تقرير مبادئ حقوق الفرد المدنية والسياسية. ونتيجة لذلك لاحظت الدراسات لهذه الفترة التحول الجذري للوجود السياسى المصرى من النظام القديم ممثلاً فى سلالة محمد على إلى فكرة مصر كدولة. ووفقاً لهذه التفسيرات عن "الثورة" شهدت العشرينيات ذروة التوافق السياسى على الليبرالية الوطنية قبل ظهور الإسلاميين والقومية العربية فى الثلاثينيات والأربعينيات^(٢)، وكان ظهور هذه الأشكال القومية فى وقت لاحق يعزى إلى السياق الدولى، لاسيما مع استمرار وجود الاستعمار الفرنسى والبريطانى فى المنطقة^(٣).

مع بداية تشكيل مجتمع سياسى حديث على مدى ثلاثة أجيال يتتبع هذا الفصل تطور التنافس الأيديولوجى للأحزاب بعد ١٩١٩. وكان تشكيل الشخصية المعتدلة لحزب الأحرار الدستوريين عام ١٩٢٢ قد عزز من استمرارية فترة ما قبل الحرب. وتؤكد هذه الاستمرارية فى هذا الجزء من الفصل على راديكالية حزب الوفد الذى فجر خلال الجلسات الأولى للبرلمان فى ١٩٢٤ قضايا مثل الطبقية والنوع (ذكر/أنثى)، كذلك المفاوضات المتعلقة بالمعاهدة، مما جعل الخلاف السياسى أكثر حدة. أما القسم الأخير فقد خصص لدراسة حزب الاتحاد الذى عمق الانقسام الأيديولوجى عن طريق جعل من الملكية والإسلام رموزاً للأمة المصرية الجديدة.

قل التركيز على الأيديولوجية أكثر من العوامل الأخرى فى تحليل السياسات المصرية خلال هذه الفترة^(٤). فقد جادل القوميون بأن هذا النوع من استراتيجية "فرق تسد" البريطانية قد عزز موقف الأسرة الحاكمة المصرية لإضعاف الوفد وبالتالي مساهمة بريطانيا فى تشكيل حزب الدستوريين الليبرالى وحزب الاتحاد لنفس الغرض^(٥). وقد ظهر صدى هذه الحجة فى كتابات المثقفين التى أشارت إلى سحق "آمال ١٩١٩" بتحالف القوى الاستعمارية مع الأحزاب التى تمثل مصالح أصحاب الحيازات الكبيرة من الأراضى والأسرة الحاكمة^(٦). ومع ذلك لم تكن السلطة البريطانية ساحقة، فلم يستغل البريطانيون إلا الاختلافات الأيديولوجية الموجودة بالفعل داخل

المجتمع السياسى المصرى. فالبريطانيون لم يخترعوا ولم يسيطروا حتى على هذه القوى. ثانياً: قيل إن الأحزاب السياسية كانت مجرد وسيلة لتحقيق المصالح السياسية للنخبة من السياسيين، بدون أى أساس للسياسات الأيديولوجية. وبالتالي فالوفد لم يمثل برنامجاً سياسياً ثورياً، بل إن شخصيته كمنظمة للنخبة كانت عقبة فى حركته نحو تغيير راديكالى. وكان التركيز على سياسة النخبة يقلل من أهمية اعتبار ١٩١٩ لحظة تغيير سياسى^(٧). وفى الواقع، فإن مناقشة كيف اختير تنظيم قومى هو نصير جماعات الطبقة الدنيا، والمرأة والشباب فى ١٩١٩ ليكون ضمن النخبة السياسية، وإلى أى مدى كانت هذه النتيجة محددة بهيكل النخبة فى مجتمع السياسة المصرية جديرة بالاعتبار، وسوف يناقش هذا الفصل أن ذلك التوافق كان نتيجة التناحر والصراع الأيديولوجى للأحزاب السياسية وليس بسبب تدخل الاستعمار أو تنظيمات النخبة السياسية. كما أن هذه الاستنتاجات تطرح تساؤلاً عن افتراض أن ثورة ١٩١٩ أنشأت توافق آراء أيديولوجى فى المجتمع السياسى المصرى. إلا أنه بدلاً من ذلك، فقد كثفت جدلاً واسعاً حول هوية مصر السياسية التى حددت رؤية جيل ١٩١٩ بعدم قدرته على إيجاد إجماع بشأن ما ينبغى أن تكون عليه الهوية السياسية لمصر الحديثة. وهكذا كانت ١٩١٩ نقطة تحول مهمة بعدها أخذت صياغة هوية مصر تدور حول قضايا عن الإسلام والعلمانية والديمقراطية والفاشية.

أجيال سياسية

تدل البحوث التاريخية فى القرن التاسع عشر على أن المجتمع السياسى الحديث فى مصر قد تطور على مدى ثلاثة أجيال، وتوسع وأدمج فئات اجتماعية جديدة طوال القرن. وقد تشكل الجيل الأول من المجتمع السياسى فى مصر الحديثة فى عهد محمد على بشكل آمن تحت رعاية الحاكم وبالتالي اتسم بدرجة عالية من الولاء له. أما الجيل الثانى فقد تشكل مع تطور الطبقة المالكة للأراضى التى اكتسبت مزيداً من الاستقلالية

عن الحاكم^(٨). فى حين أن الجيل الثالث نشأ مع ظهور نوع من بيروقراطية الدولة الحديثة التى شملت القطاعات المهنية والإدارية. وكما تبين لوسى ريزوفا فى الفقرات الافتتاحية للفصل الخامس، فإن هذا الجيل الثالث من المجتمع السياسى عرف باسم مجتمع الأفندية، وهو مرتبط جزئياً بالطبقات المتوسطة، ولكنه وعلى وجه الخصوص يرتبط بالمهن الليبرالية^(٩). وكان هذا الجيل الثالث من "المتطربشين"، أو لابسى الطرابيش، منفتحين على التغيير الفكرى والثقافى ومستولين بشكل كبير عن المناداة بثورة ١٩١٩ .

كان كارل منهايم قد تذكر أن الجماعات فى أعمار مختلفة تجزأت إلى "وحدات جيلية" متنافسة وأن هذه الوحدات كانت تتنافس على الهيمنة الثقافية^(١٠). وقد خلقت التغييرات فى تكوين المجتمع السياسى المصرى على مدى ثلاثة أجيال مجموعات سياسية وأيديولوجيات مختلفة منذ أوائل القرن العشرين. كما حصل العديد من أعضاء المجتمع السياسى الأكثر نفوذاً فى عام ١٩١٩ على نفوذ ومراكز فى السلطة نتيجة ارتباطهم الوثيق بالنظام الملكى. وفى واقع الأمر فإن أحد الممثلين الرئيسيين للمجتمع السياسى فى عام ١٩١٩، عدلى يكن، كان ينحدر من الجيل الأول لعائلة سياسية. أما الإصلاحيون والليبراليون القوميون فقد كان أغلبهم من سلالة الجيل الثانى والثالث لأسر استفادت من الإصلاح الزراعى فى منتصف القرن التاسع عشر، وكذلك من بيع الأراضى المملوكة للمنتمين إلى الأسرة الحاكمة بعد الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ . ومع ظهور الجيل الثالث المصرى دخلت عائلات الطبقة المتوسطة فى المجتمع السياسى، فاستفادت هذه الأسر من التوسع فى البيروقراطية، والمهن، والنظام التعليمى. وأنتج الجيل الثالث فى أوائل القرن العشرين أنواعاً من التكتيكات السياسية والأيديولوجيات الأكثر تطرفاً ومعاداة للاستعمار. وكانت عملية التغيير هذه تعنى أن انشقاق الأيديولوجية الأساسية قسم المجتمع السياسى. وتشير المظاهرات الشعبية عام ١٩١٩، والتى تلتها بعد ذلك الإصلاحات الدستورية، إلى حدة هذه الانشقاقات.

الجيل الأول	الجيل الثاني	الجيل الثالث
سلالة محمد على أسرة يكن	أحمد فؤاد: (مواليد ١٨٦٨) عدلى يكن (مواليد ١٨٦٤)	سعد زغلول (مواليد ١٨٦٠) لطفى السيد (مواليد ١٨٧٢) مصطفى كامل (مواليد ١٨٧٤)
١٨٠٠	١٨٢٥	١٨٥٠
		١٨٧٥
		١٩٠٠

الأجيال السياسية خلال عصر أسرة محمد على

وقد شمل الجيل السياسى المصرى الثالث الرجال الذين ولدوا فى ١٨٦٠ مثل سعد زغلول، وعدلى يكن، وحسين رشدى، ومحمد سعيد، الذين تعلموا فى المدارس ذات الطابع الغربى الجديد وتقلدوا وظائف مهنية أو داخل جهاز الدولة. هؤلاء الرجال شاهدوا خلع الحاكم المصرى، الخديوى إسماعيل، فى عام ١٨٧٩ وفرض الحاكم الجديد، الخديوى توفيق، تحت ضغط من الفرنسيين والبريطانيين. وأثناء فترة الاستعمار (١٨٨٢-١٩٢٢) دعا بعض من هؤلاء الرجال إلى استعادة وضع فترة ما قبل الاستعمار، كما كانت موجودة خلال المراحل الأخيرة من حكم إسماعيل عندما كانت مصر جزءاً مستقلاً بذاته عن الإمبراطورية العثمانية. وكان آخرون يتطلعون إلى إنشاء "مصر جديدة"، وهذا يعنى دولة قومية إقليمية تحكم وفقاً للمبادئ الليبرالية القومية. وقد ظهرت هذه الحقيقة واضحة خاصة بين الشباب المولودين فى ١٨٧٠، مثل مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد^(١١). ولكن حتى كامل وطفى السيد تباينت أساليبهم بشأن الطرق الممكنة لتحقيق هذا الهدف. فيقول المؤرخ القومى عبد الرحمن الرافعى إن الاختلاف كان وارداً ضمناً فى البرامج السياسية التى تراوحت على التوالى بين مفاهيم التطور (النهضة) والثورة^(١٢). وعادة ما تترجم بالنهضة أو اليقظة، وقد ذكر الرفاعى النهضة هنا لتأكيد التوافق بين التغير الثقافى فى مصر والنهضة الثقافية فى

أوروبا، ولا سيما الداروينية الاجتماعية. وربما كان الأكثر أهمية بالنسبة للرفاعى هو الاختلاف التكتيكى. وفى فترة ما قبل عام ١٩١٩ كان حزب الشعب (الأمة) يمثل الاتجاه المتطور، داعياً إلى التقدم الاجتماعى المنظم بدلاً من التغيير الثورى. وهذا يعنى تكتيكياً قبول الاحتلال البريطانى كمرحلة ضرورية لتطور مصر. أما مصطفى كامل والحزب الوطنى فقد طالبا بالاستقلال الفورى، وبالتالي كان مصطفى كامل يمثل البديل الثورى، على الرغم من أنه اختار تكتيكاً الإقناع الأيديولوجى بدلاً من القوة.

وفى عام ١٩١٩ لم تكن المسارات السياسية المتباينة بين التطور والثورة تندرج تحت عملية واحدة وهى "الحركة" الوطنية، بل ظلت تمثل التوجهات الأيديولوجية البديلة. وكان سعد زغلول بوصفه ممثلاً بارزاً فى مصر من جيل الساسة الثالث، من أنصار حزب الأمة ومؤيداً للبرالية القومية. وفى يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ زار كل من سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى، المفوض السامى البريطانى السير ريجينالد وينجيت، مطالبين بعرض قضية استقلال مصر فى مؤتمر السلام الذى عقد بعد الحرب فى باريس. وكان رد وينجيت أن ارتفاع معدل الأمية فى مصر يجعلها غير مهيأة للحكم الذاتى، فرد فهمى أنه حتى فى بريطانيا لا يوجد سوى حفنة من الوزراء تثق فيهم الأمة. وبالمثل، ففى مصر يمكن أن تشكل حكومة من وسط النخبة، التى وصفها بأن بها ألف رجل مؤهل^(١٣). وبالتالي جرت المناقشات بين السياسيين المصريين وممثلى الحكومة البريطانية فى مصر فى ضوء هذه الرؤية. وهناك مؤشر آخر على اختيار التطور، وليس الثورة، أن حزب الوفد فى البداية حصل على دعم ممثلين عن عائلات الجيل الأول، مثل رئيس الوزراء حسين رشدى ووزرائه، وعدلى يكن وعبد الخالق ثروت. وقد اضطلعت عائلات هؤلاء الرجال بدور نشط فى تشكيل الدولة المصرية المستقلة منذ أوائل القرن التاسع عشر. أما الساسة من الأصول التى تعود إلى أسر الجيل الأول فقد كانوا من المحافظين المهتمين بأن سلطات الحاكم لا يجب أن تكون رمزية بحتة، حيث إن نفوذهم القوى كان مرتبطاً بالسلالة الحاكمة^(١٤).

بعد المظاهرات الحاشدة فى عام ١٩١٩ استبدلت الحكومة البريطانية وينجيت بالجنرال إدموند اللنبى. وفى بداية عام ١٩٢٠ قدم اللنبى تقريراً لوزير الخارجية، اللورد كيرزون، بأن سعد زغلول وطنى ملتزم بالاستقلال وبوجود حكومة برلمانية. وقارن اللنبى بين سعد زغلول ومحمد سعيد، الذى شغل منصب رئيس الوزراء من مايو إلى نوفمبر ١٩١٩. "الأول محمد سعيد تركى متعاطف مع الوحدة الإسلامية، أما الآخر سعد زغلول فقد أسس حركة مصرية صميمة وتظاهر بعدم اهتمامه بمستقبل تركيا"^(١٥). وأشار تقرير اللنبى إلى أن سعد زغلول يمثل تحولاً من الدولة العثمانية والإسلام إلى الهوية الليبرالية والسياسية القومية. ولكن هذا التحول لم يكن مكتملاً؛ فمواقف سعد تشير إلى أن بعض الأعضاء البارزين فى المجتمع السياسى كانوا موالين للأسرة الحاكمة ولديهم شكوك فى القوميين الأكثر تطرفاً. وفى إبريل ١٩١٩ برز كل من حسين رشدى وعدلى يكن كقادة محافظين معارضين لسعد زغلول. وعندما بدأت المفاوضات مع البريطانيين فى ١٩٢٠ رفض كل من حسين رشدى وعدلى يكن، أثناء المفاوضات، موقف سعد زغلول القومى الذى لا لين فيه ولا هوادة. وعندما شكل عدلى يكن الوزارة فى ١٩٢١ وبدأ مفاوضات إبرام معاهدة مع البريطانيين، اتهم سعد زغلول عدلى يكن بأنه من أسرة أصولها تركية، وأن مثل هذه الأسر سوف تخسر فى النهاية^(١٦).

كانت أحد المصادر المهمة من مصادر الصراع السياسى داخل المجتمع المصرى قضية مفاوضات المعاهدة مع البريطانيين. وتجاوزت الخلافات السياسية القضية القومية. فكان جيل العائلات الأول والثالث يمثلان مختلف المبادئ السياسية والتكتيكية. ومن الانتقادات العامة التى وجهت لسعد زغلول هى محاولته للوصول للسلطة عن طريق مغازلة مجموعات الطبقات الدنيا، الذى اعتبره السياسيون الأكثر تحفظاً سلوكاً منحرفاً. وقد اتهم محمد سعيد سعد زغلول بخيانة كل من شكل معهم تحالفاً فى الأوقات الماضية، وهو رأى شارك فيه العديد من القوميين الليبراليين^(١٧). فقد سجل الليبرالى والمفكر البارز طه حسين فى مذكراته أن سعد زغلول لم يكن مدفوعاً بأى مبدأ سياسى، بل كانت تحركه رغبة شخصية فى السلطة. ومن الناحية التكتيكية رفض

سعد زغلول التسوية والمفاوضات الثنائية مع بريطانيا في الوقت الذي كان يغازل فيه الجماهير^(١٨). ونتيجة لهذه التكتيكات تحالف عدلى يكن وحسين رشدى مع شباب الليبراليين لتشكيل معارضة قوية لحزب الوفد. ولم تكن المعارضة تسعى إلى إعادة توجيه مصر تجاه الإمبراطورية العثمانية، حيث إن الإمبراطورية كانت تحتضر بانتصار زعيم القومية التركية مصطفى كمال أتاتورك، وبدلاً من ذلك كان هدفها هو إقامة دولة مصرية جديدة تقوم على مبادئ مقبولة لدى المحافظين وأسرة محمد على، مع وضع أساس للمفاوضات الثنائية مع بريطانيا للحصول على الاستقلال.

انتهى تحالف المحافظين والليبراليين بإعلان بريطانيا من جانبها استقلال مصر فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . وإنشاء دولة مصرية ذات سيادة تحت قيادة حفيد الخديوى إسماعيل، أحمد فؤاد، الذى اتخذ اللقب الجديد "ملك". وفى الوقت نفسه سمح الإعلان لليبراليين والمحافظين بالعمل على وضع تفاصيل النظام السياسى من خلال لجنة دستورية. كما حافظ الإعلان على حماية المصالح البريطانية، المعروفة "بنقاط التحفظ الأربع" (سياسة الدفاع الخارجية المصرية، وقناة السويس، والسودان، وحقوق الأجانب والأقليات فى مصر)، التى وضعت جانباً فى ذلك الوقت على أن تناقش فى المفاوضات المقبلة.

حزب الأحرار الدستوريين

كانت ليبرالية العشرينيات استمراراً لأيدولوجية بدأها حزب الأمة فى فترة ما قبل الحرب. وكان قائد أيدولوجية حزب الأمة، أحمد لطفى السيد قد تبنى ليبرالية جون ستيوارت ميل كنموذج للتقدم من "التقليدية" إلى "المجتمع الحديث ونظامه السياسى"^(١٩). وكما أظهر تشارلز د. سميث فإن الليبراليين المصريين كانوا مهتمين بالتقدم الاجتماعى المنظم من أجل تأسيس دولة قومية حديثة^(٢٠). ومن ثم اتحدوا مع ممثلى الحكومة البريطانية حول قضية مشتركة مؤسسة على مبدأ تقدم "متطور". وكانت السلطات الاستعمارية تتطلع بشكل إيجابى للوطنية الليبرالية من منطلق

مساندتها للتحديث، والثقافة الغربية وإبعاد الخصائص الدينية والعرقية للبلاد، التي كانت السلطات البريطانية تعتبرها تهديداً للاحتلال البريطاني. ومن خلال افتراضاتهم السعى وراء التطور أكدت السلطات الاستعمارية في مصر الحاجة إلى بناء "مجتمع حديث مستقل". وقد أشار المستشرق إدوارد سعيد إلى أن هذه الوصفات المتنوعة للمستشرقين مكنت الأوروبيين من تمثيل الحداثة الغربية بطريقة مختلفة جوهرياً ومتفوقة على الحضارات غير الغربية^(٢٢). كما ادعى اللورد كرومر، القنصل البريطاني العام في مصر بين عامي ١٨٨٣ و ١٩٠٧ أن العقلية المصرية كانت غير منطقية بالمقارنة "بالعقل الغربي"، وقارنها أيضاً بالنظم السياسية. أما لورد بوفرين الذي كتب "القانون الوضعي" في عام ١٨٨٣، فقد أظهر التناقض بين "الحكومات الدستورية" الأوروبية و"الحكم المطلق" في الشرق الأوسط^(٢٣). ومع ذلك، ينبغي التأكيد بأن بعض المصريين نادوا بأنه على المجتمع تطوير المؤسسات الاجتماعية والسياسية قبل تطبيق الحكم الذاتي عملياً. ومثل كثير من الملكيين المحافظين تخلى كثير من الأحرار عن الوفد بعد تبنيه وسائل عنيفة شكلت خطراً على النظام السياسي والاجتماعي.

بعد عام ١٩١٩ واصلت قيادات "التقدم والتطور" إعلام المحليين البريطانيين بالمجتمع والسياسة المصرية. وفي تقرير اللورد ميلنر عن الأسباب التي أدت إلى المظاهرات في عام ١٩١٩ ادعى بأن التطور الاجتماعي في مصر كان "هزئياً" حيث إن اثنين وتسعين في المائة من السكان كانوا من الأميين ويفتقرون إلى "التدريب الاجتماعي والأخلاقي". لذلك، فإن وجود "حكومة برلمانية في ظل الظروف الاجتماعية الحالية يعنى حكومة أقلية"، فإذا كانت الفئة المسيطرة من الأقلية فسوف تبدى القليل من الاعتبار لمصالح الأغلبية من الشعب المصري^(٢٤). ومع ذلك نصح تقرير ميلنر إعادة إحياء الحكم الذاتي للحكومة المصرية، مدعياً أن القوميين المتطرفين من الوفد قد كسبوا تأييد أغلبية السكان. وقد أيد اللنبي وممثلو الحكومة البريطانية الآخرين في القاهرة تحليلات ميلنر للوضع السياسي. وقال ريجينلد باترسون، مستشار وزارة المعارف، إن سياسة تعليم الفلاحين في فترة ما قبل الحرب (المصريين من أصول ريفية) قد قوضت من سلطة "الباشاوات" (الورثة من السياسيين من نوى الأصول العثمانية).

وعن إشارته للفلاحين كان يقصد الجيل الثانى والثالث، من أمثال سعد زغلول، الذى كان قد اندمج فى مجموعة من العائلات الحاكمة من الجيل الأول. وبالمثل وصف مستشار وزارة العدل، موريس أموس، سعد زغلول بأنه ممثل لطبقة متوسطة جديدة^(٢٥). وقد رأى بترسون وأموس أن سياسات اللورد كرومر فى فترة ما قبل الحرب قد أحدثت فى نهاية المطاف تغييراً اجتماعياً وسياسياً، الأمر الذى قوض السياسة الاستبدادية لأسر الجيل السياسى الأول، ولا سيما، فى رأى أموس، أنه بالنسبة للأسرة الحاكمة نفسها، فإن المجتمع السياسى المصرى لم يعد منقسماً بين أمتين "التركية" و"المصرية"، والأرستقراطيين والفلاحين، ولكن أمة منقسمة إلى حزبين سياسيين. ووفقاً لأموس فإن حزب عدلى يكن يضم "الأكثر تعليماً وكبار السن من الأعضاء المهنيين" فى حين أن حزب سعد زغلول يتألف من العلماء الأزهريين والطلاب والأعضاء الأصغر سناً والأقل تأثيراً فى نقابة المحامين والمهن الأخرى^(٢٦). وبالنظر إلى هذه التقارير من مستشاريه، حذر اللبى وزارة الخارجية من وجود خطر حقيقى لقيام ثورة إذا لم يتم تقديم تنازلات للقوميين. وعندما قدم اللبى استقالته لانت وزارة الخارجية فى لندن وسمحت له بإصدار إعلان الاستقلال من جانب واحد فى فبراير ١٩٢٢^(٢٧).

ومن المهم أن نعترف أن اللبى ومستشاريه قد أعادوا تعريف السياسة المصرية من حيث الأحزاب والأيدولوجية السياسية. وبأخذ ذلك جنباً إلى جنب مع مفاوضات المعاهدة، كان هذا إيذاناً ببدء مرحلة جديدة فى العلاقات البريطانية المصرية. ومع ذلك فإن تكتيكات اللبى بعد ١٩٢٢ أظهرت كذلك بعض الاستمرارية المؤثرة لما قبل الفترة السابقة لعام ١٩٢٢. ووفقاً لبترسون وأموس، فإن الاحتلال البريطانى لمصر اعتمد دائماً على التعاون مع السياسيين المصريين. إلا أن المشكلة كانت كيفية استعادة العلاقات المصرية البريطانية على ما كانت عليه قبل ١٩٢٢ فى ضوء النظام الدستورى للحكم النيابى والسياسة الانتخابية بعد ١٩٢٢. وقد اقترحت تقارير اللبى إلى وزارة الخارجية فى عام ١٩٢٢ تشكيل حزب نظامى مكون من المعتدلين من "الطبقات المهنية" وملوك الأراضى، الكبيرة والصغيرة، من الطبقة التى ليس لها ميول سياسية. إن الجمع بين المهنيين وملوك الأراضى فى المناطق الريفية من شأنه، وفقاً لللبى، أن يؤدى

فى الانتخابات القادمة إلى "انتخاب مرشح قوى فى معظم الدوائر الانتخابية فى المناطق الريفية"^(٢٨). وتشير هذه التقارير إلى أن اللبى دعم نشاط تشكيل حزب من ملاك الأراضى والمهنيين، اتخذ اسم حزب الأحرار الدستوريين عندما تم تأسيسه فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢. وقد ضم الحزب أعضاء بارزين من جيل السياسيين الجدد، مثل عبد العزيز فهمى، وأحمد لطفى السيد، ومحمد محمود وعلى ماهر، بالإضافة إلى ممثلى النخبة التركية القديمة ولا سيما عدلى يكن.

ويمكن اعتبار الدعم البريطانى لتشكيل حزب جديد للتصدي لحزب الوفد فى الانتخابات على أنه يدخل فى إطار الاستراتيجية الاستعمارية "فرق تسد". ومع ذلك يمكن القول أيضاً إن السياسة الحزبية كانت نتاج الخلافات الأيديولوجية الأساسية بين المصريين، فقد كان على الليبراليين المصريين مواجهة نفس النوع من المشاكل التى كانت تقلق ممثلى الاستعمار، وهى مشكلة الحفاظ على النظام السياسى فى سياق التغير الاجتماعى والسياسى. وقد وصف اللبى قانون الانتخابات الجديد لعام ١٩٢٣ (الذى صاغه المصريون مع مستشارين قانونيين أوروبيين)، بأنه يهدف إلى ترك الاختيار "النهائى لأعضاء البرلمان" فى أيدى عدد قليل من الذين سيكونون عرضة لضغوط الرجعيين الأغنياء^(٢٩). ولم يكن قانون الانتخابات مصمماً لإعطاء حرية التعبير للإرادة الشعبية، ولكن للسيطرة على المشاركة فى الحياة السياسية ونتائج الانتخابات. ووفقاً للنبى فإن النظام الانتخابى الجديد انحاز إلى طبقة الملاك فى الريف التى كانت، طبقاً لوصف اللبى، "جاهلة ورجعية"، فى حين أن المثقفين والراديكاليين تمركزوا فى المدن^(٣٠). وتشير تعليقات اللبى إلى أن الأيديولوجيات المتطرفة كانت نتاج الطبقة الوسطى الحضرية، التى أراد كل من الممثلين البريطانيين والليبراليين المصريين توازنها مع التصويت فى المناطق الريفية حيث يؤثر الملاك تأثيراً كبيراً على المستأجرين وصغار ملاك الأراضى. ولأن الممثلين البريطانيين والسياسيين المصريين سعوا إلى التوفيق بين تحقيق انتخابات ديمقراطية مع المحسوبية السياسية فقد كان ذلك مؤشراً إلى وجود جدل فى الخطاب السياسى فى بريطانيا ومصر ساد فى العشرينيات. وفى كل من البلدين نشأت أحزاب سياسية جديدة تتحدى أنواع الهياكل التاريخية للسلطة.

وفى مصر كان الوفد ممثلاً هذا التحدى، وفى إنجلترا حزب العمال. ولمواجهة هذا التحدى فى مصر أخذ حزب الأحرار الدستوريين فكرة الرعاية كأساس للحزب، كما سبق وحددها اللبى فى تقريره.

ومن الواضح أن بعض المصريين أرادوا تقييد المشاركة السياسية فى يد الأقلية، كما حدث فى رد فعل حزب الأحرار الدستوريين لفوز حزب الوفد فى الانتخابات عام ١٩٢٤ . فقد تحالف ضده عام ١٩٢٥ بعد اغتيال الحاكم العام البريطانى فى السودان سير لى ستاك عام ١٩٢٤، ونتج عن ذلك انهيار حكومة الوفد. بعد ذلك أخذ الأحرار المواقع الحكومية فى حكومة أحمد زيوار، المناصرة للملكية، وقد اعتمد عليهم فى إعادة صياغة قانون الانتخابات. وتم تشكيل لجنة انتخابية تضمنت عبد العزيز فهمى، رئيس حزب الأحرار الدستوريين، ومحمد علوبة، وتوفيق دوس. وكان مشروع القانون الذى وضعته اللجنة يشبه القوانين الانتخابية فى إيطاليا وإسبانيا وهولندا والدانمارك وبالتالي كان مصمماً ليتماشى مع أكثر الدول المحافظة فى أوروبا. واقترح القانون زيادة الحد الأدنى لأعمار من لهم حق التصويت من واحد وعشرين إلى خمسة وعشرين عاماً، وتطبيق مؤهلات ملكية مقيدة، كان من شأنها حرمان من عشرة إلى خمسة عشرة فى المائة من الذكور الذين لهم حق التصويت^(٣١).

وقعت مهمة مناقشة قضية الإصلاح الانتخابى على عبد العزيز فهمى فى كلمة ألقاها فى نقابة المحامين لمحكمة الاستئناف فى ١٧ مارس ١٩٢٥ . وفى تعليق أعاد صياغة وأيد مناقشة عبد العزيز فهمى، ادعى محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة "السياسة" الناطقة بلسان حزب الأحرار الدستوريين أن "الديموقراطية الغربية قد ثبت أنها "ثقيلة جداً" على بطون المصريين"^(٣٢). وطالب أن يتم تعديل القانون الانتخابى ليتوافق مع "طبيعة الأمة المصرية". وتشير هذه الفكرة إلى تأثير الاجتماعية الداروينية لهبرت سبنسر وكذلك نظرية هيولايت تين عن "المذهب الطبيعى" حيث ناقش تين كون المجتمعات والثقافات تتحدد بواسطة القوى الطبيعية. وتشير دراسة مهمة لمحمد حسين هيكل روجعت من جانب إسرائيل جيرشونى وجيمس جانكوفسكى إلى أن هيكل طور

فهمه عن المذهب الطبيعي لتأسيس الصلة بين الأراضى المصرية والعقلية المصرية على وجه التحديد. ووفقاً لتفسيرهما جادل هيكل بأن البيئة "الطبيعية" لوادى النيل ثرية ومتجانسة "السلالة"، تتميز بالهدوء والخير والطاعة، التى ولدت ثقافة اجتماعية وسياسية لا تتغير^(٣٣). ولكن الطبيعة خدمت غرضاً مختلفاً تماماً فى عام ١٩٢٥، فقد بلغت حد الدفاع عن السياسة الاستبدادية. وادعى هيكل وعبد العزيز فهمى أن قانون الانتخابات الذى يقتصر التصويت فيه على عدد قليل هو الأنسب لمرحلة النمو الاجتماعى والسياسى فى مصر^(٣٤). وبتطبيق التطور والطبيعية فى قضية تطوير الانتخابات ناقش هيكل فكرة أن قانوناً انتخابياً جديداً يمكنه "ضمان تمثيل العناصر الأساسية للأمة المصرية" وتمكين الشعب من التمتع بحقوقه الدستورية وفقاً لنظامها المادى والطبيعى^(٣٥). وقد أظهر المذهب الطبيعى، مثل الداروينية الاجتماعية، أن السياسة يجب أن تكون مناسبة للطبيعة "الحقيقية" والتطور التاريخى لمصر. وفهم هذه "الطبيعة" أعاد هيكل صياغة السؤال الاستعماري القديم: ما مرحلة التطور للمجتمع المصرى، وما أفضل النظم السياسية لمقابلتها؟ وقد أدلى عبد العزيز فهمى بملاحظة مماثلة فى خطابه أمام نقابة المحامين الوطنية "لقد عملت مع لجنة دستورية... ولكن الممارسة العملية أثبتت أن الحكومة كبيرة جداً على الدولة"^(٣٦).

وقد سلطت صحيفة حزب الوفد اليومية، البلاغ، الضوء على التوافق بين الليبرالية المصرية والاستعمار البريطانى زاعمة بأن مناقشة عبد العزيز فهمى لوضع قانون انتخابى جديد ما هى إلا صدى لرد فعل ريجينلد وينجيت فى استجابة للطلب الذى تقدم به حزب الوفد من أجل الحكم الذاتى فى عام ١٩١٨. وقد قال وينجيت: "إذا أعطيت رضيعاً غذاءً أكثر من اللازم فسوف يعانى من عسر الهضم"^(٣٧). وقد طرحت هذه المقالة فى صحيفة البلاغ سؤالاً عما إذا كانت "القوى الأساسية" فى الأمة تتألف من الطبقة المتعلمة وحدها، مشيرة إلى أن قانون الانتخابات الجديد سوف يحرم طبقة المزارعين والعمال من التصويت، وهذا يعنى ٩٠ فى المائة من السكان^(٣٨). وقد صاغت جريدة البلاغ مناقشتها بلغة اشتراكية، محاولة أن تبرهن بأن السياسة ليست وسيلة النخبة لتثبيت هيمنتها، ولكنها صراع بين الطبقات. فالمجتمع، فى ضوء هذا الجدل،

لم يكن نتاج الطبيعة، ولكن نتيجة صراع سياسى، ووفقاً لانتقادات صحيفة البلاغ فإن لجنة الانتخابات خططت لتقييد حق التصويت فى حدود أضيق "دائرة اجتماعية" ممكنة، والتخلص من ممثلى الطبقات الدنيا تماماً فى المرحلة الأخيرة من التصويت^(٣٩). كما أن هذا القانون الانتخابى من شأنه أن يقوض "النظام الاجتماعى" وحسب رأى الكاتب فى جريدة البلاغ، فهو إحياء لنظام "التمييز بين الطبقات" فى هذه "الأوقات التى تنتشر فيها الشيوعية". وبالتالى، فإن "الأرستقراطيين" من حزب الأحرار الدستوريين كانوا متورطين فى نوع من "الحرب الطبقة"، عن طريق التمييز فى "نص الدستور" بين الأغنياء والفقراء^(٤٠). وأيضاً كانت الحجة فى جريدة البلاغ هى توضيح أن أرستقراطية الأحرار ليست وراثية، ولكنها نتاج جيل اكتسب أهمية اجتماعية فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر مع تشكيل نظام تعليمى جديد وبيروقراطية موسعة. كما ذكرت جريدة الوفد لقرائها أن عبد العزيز فهمى لم يكن ينتمى إلى الطبقة الأرستقراطية. فقد كان ابناً لقاضٍ مصرح له بكتابة عقود الزواج. وبالمثل، كان محمد علوبة ابن سكرتير قانونى وتوفيق دوس ابن بائع كتب فى أسيوط^(٤١).

وعلى الرغم من أن الأحرار الدستوريين كانوا يمثلون جيلاً جديداً من السياسيين، فإنهم دافعوا عن امتيازات النخبة. ويشير مضمون أيديولوجيتهم إلى أنهم اندمجوا فى مجتمع النخبة السياسية، وبالتالى كانوا مدافعين عن امتيازاتها ومصالحها. أما نظريات محمد حسين هيكى عن النظام الاجتماعى، سواء كان التعبير عن ذلك بلغة الطبيعيين أو من خلال مذهب التطور، فقد كان لغرض سياسى يهدف إلى عرقلة انتخاب حكومة وفدية ونوع الديمقراطية السياسية التى تمثلها. وبالمثل، عندما وظفت أيديولوجية الوفد مفهوم "الأرستقراطية"، لم تكن تعنى وصف طبقة اجتماعية لأن معظم أعضاء حزب الأحرار الدستوريين وحزب الوفد كانوا من نفس "الطبقة". وبدلاً من ذلك فإن مصطلح "أرستقراطية" كان يرمز إلى أسلوب سياسى. وبالتالى فإن المزج بين الأرستقراطية والديمقراطية كان يمثل المنافسة السياسية بين "أفراد الأجيال".

حزب الوفد

بغض النظر عن الطبقة العليا أو الوضع الاجتماعي للنخبة من قيادات الوفد السياسية، فالوفد كان يمثل برنامجاً أساسه طبقي وبرنامج ديمقراطي سياسى فى مواجهة النخبة من حزب الأحرار الدستوريين. وعلى الرغم من أن الوفد طالب بوضع خاص باعتباره وفداً وطنياً فإن اختلافه الفكرى والتكتيكى مع الليبراليين كان يعنى أن الوفد أخذ شكل حزب سياسى متميز منذ عام ١٩٢٣ . أما بشأن القضايا الدستورية فقد كان الوفد إلى اليسار من حزب الأحرار الدستوريين، على الرغم من أن الأحرار نفوا ذلك وادعوا أن الوفد لم يكن لديه موقف أيديولوجى، بل إنه استغل الرموز الدينية للسيطرة على رأى العام. وبترديد انتقادات الأحرار حاولت الأبحاث التاريخية عن حزب الوفد أن تثبت أن تكتيكاته كانت مصممة لتناسب الهيكل الطائفى، أو السلالات، أو التكوين الاجتماعى القائم. وقد قيل إن هذه التكتيكات أفرغت الأيديولوجية القومية من محتواها الليبرالى^(٤٢). ووفقاً لهذه الانتقادات أصبح حزب الوفد وسيلة لمصالح مختلفة لطبقة أو مجموعة توصف بالنخبة، والبرجوازية، وملاك الأراضى. ومع ذلك لم يكن الوفد بين عامى ١٩١٩ و ١٩٢٦ يمثل مصالح النخبة صراحة، فكما أظهر هذا الفصل كانت هذه سمة مميزة للأحرار الدستوريين. ولم يكن حزب الوفد يمثل صراحة الاتجاه الدينى، بل مثل هذا الاتجاه حزب الاتحاد، كما سنبين فيما بعد.

وعلى الرغم من أن الوفد انتصر فى الانتخابات الوطنية لعامى ١٩٢٣ و ١٩٢٤، فإن قضية المفاوضات المتعلقة بالمعاهدة، وكذلك الاختلافات الثقافية والأيديولوجية، واصلت تقسيم المجتمع السياسى. وكان البريطانيون غير مهتمين باحتمال نشوب خلاف سياسى، فبعد وقت قصير من فوز حزب الوفد فى الانتخابات، تنبأت الصحف الصادرة باللغة الإنجليزية أن حزب الوفد سوف ينقسم بين "المستأئين من الأمور الراهنة، والمرتابين غريزياً فى التغيير". وذكرت جريدة الإيجيبشن جازيت التى كانت صوت الجالية البريطانية فى مصر، أن انتخاب "الفلاحين" و"المصريين من أصول حضرية" يهدد وضع "الطبقة الحاكمة" التركية^(٤٣). وكان رئيس الوزراء الجديد وزعيم حزب الوفد،

سعد زغلول، على علم أيضاً بمشكلة الانقسام السياسى. وبالتالي فقد سعى إلى تشكيل حكومة ائتلافية للحفاظ على مصالح المناصرين للملكية. وعين محمد سعيد فى مجلس الوزراء كما سمح للملك بعرقلة تعيين القوميين الأكثر تطرفاً، مثل على الشمسى، الذى كان عضواً سابقاً فى الحزب الوطنى. ومع ذلك فمن اللافت للنظر تفكك حكومة الوفد بعد اجتماع البرلمان فى مارس ١٩٢٤.

استاء الشمسى من تنازلات سعد زغلول لنظام الحكم الملكى، مما أحبط تحقيق طموحاته السياسية الشخصية. ونتيجة لذلك قاد عصابة فى البرلمان لتنظيم انتخاب أحمد محمد خشبة نائباً لرئيس مجلس النواب. وقد بلغت نتيجة التصويت حد الهزيمة الشخصية لسعد زغلول، الذى كان قد أيد ترشيح ويصا واصف. أما شمسى وخشبة فقد حشدا تأييد نواب الوفد من المناطق الريفية بصعيد مصر، وشكل هؤلاء الملاك فى المناطق الريفية (الفلاحين) مجموعة متماسكة ذات نفوذ كبير داخل البرلمان^(٤٤). علاوة على ذلك كانوا يشعرون بالاستياء إزاء سلطة الأفندية فى قلب حزب الوفد، وكثير منهم، مثل واصف، كانوا من المسيحيين الأقباط. وبالتالي كانت القضايا الثقافية من الاعتبارات المهمة. وفى الوقت نفسه كان النواب من صعيد مصر يتمتعون بإحساس قومى عالٍ. وبذلك مكنت المطالب الخاصة بالمصالح القومية لمصر التى استسلم فيها سعد زغلول فى المفاوضات مع البريطانيين، الشمسى من السيطرة على البرلمان بعيداً عن سعد زغلول. كما أن أعضاء الحزب الوطنى كان لهم نفوذ سابق وانتهزوا الفرصة لإحياء نصيبهم السياسى، فعلى سبيل المثال انضم أمين الرفاعى إلى معارضة سعد زغلول بطلب بيان عن المبادئ فى قضية المفاوضات مع البريطانيين^(٤٥). وهاجم شمسى والرفاعى سعد زغلول خاصة فى قضية النقاط المتحفظ عليها، التى وصفت بأنها فرض غير قانونى على الأمة فى حقها الطبيعى فى تقرير المصير. كذلك فجر الملك هذه القضية عندما دخل هذه المنافسة وأشار إلى استقلال مصر والسودان فى خطاب العرش. وقد انتزع خطاب الملك هتافاً مدوياً من البرلمانين المجتمعين: "يحيا ملك مصر والسودان". وأظهرت وثيقة فى تقرير لوزارة الخارجية البريطانية أن الملك قد عرض قضية السودان "لتقويض حكومة الوفد على صخرة الإمبريالية البريطانية"^(٤٦).

أسفرت جلسات البرلمان التي أعقبت خطاب العرش عن مناقشات صاخبة، قادها الرفاعي، بشأن لغة الخطاب وأثارها على المفاوضات. كان رد فعل سعد زغلول الأول هو إلقاء محاضرة على النواب عن الإجراءات البرلمانية، ثم هدد بالاستقالة من منصبه في ١٩ مارس. وفي رسم كاريكاتيراً بعنوان "النواب الأميون يؤنون الامتحان في البرلمان" في المجلة الساخرة "كشكول" صورت المجلة البرلمان باعتباره أحد الفصول الدراسية، في حين ارتدى سعد زغلول زى الأفندى (البذلة والطربوش) وهو يحاضر فصلاً عنيداً من وجهاء الريف يرتدون الجلابية والعمامة (شكل ١/٨)^(٤٧). وقد لعب الكاريكاتير على الاختلاف بين ثقافة الأفنديات بزيهم الغربى والريفيين الوجهاء وهم يرتدون زيهم المصرى، ويبدو عليهم الشك في الأفندية. وأوحت الأحداث بأن السياسيين يمكنهم التلاعب بالاختلافات الثقافية بين الأفندية وجهاء المناطق الريفية بهدف بناء فصائل سياسية، حتى بعد الانتصار المدوى لحزب الوفد في الانتخابات الشعبية.

طريقة أخرى لتقييم تأثير القيم الثقافية على السياسة الوطنية وهى الأخذ فى الاعتبار رد فعل حزب الوفد لمطالب المرأة، فقد كان فى إمكان هدى شعراوى، العضو المؤسس للجنة المرأة فى الوفد واتحاد المرأة المصرى فى عام ١٩٢٢، أن تتقدم بمطالب المرأة فى حق الاقتراع فى إطار الحقوق المدنية والسياسية العالمية المنصوص عليها فى دستور ١٩٢٢. ومع ذلك فمطالبها كان لها تشعب ثقافى وسياسى معقد؛ فقد أشارت فى مذكراتها إلى أن واصف غالى حاول إقناعها بالعدول عن خلع النقاب أمام الجمهور فى ميناء الإسكندرية فى يوليو ١٩٢٣ لأن الشعب، كما جاء فى تحذيره، "لن يتقبل كشف وجه (وليس شعر) هدى شعراوى" الذى حدث على متن السفينة التى عاد بها سعد زغلول إلى مصر من منفاه. ولكن بينما أيد سعد زغلول مظاهرة هدى شعراوى وكان شخصياً مع تحرير المرأة، فإن زوجته، صفية، نزلت من السفينة وهى ترتدى الحجاب^(٤٨). وأشارت مذكرات هدى شعراوى إلى أن سعد زغلول وواصف غالى كانوا يدركون أن القيم الثقافية السائدة لا تتوافق مع قيمهم الثقافية، فقد يكون خلع الحجاب مقبولاً من حيث المبدأ، ولكنه ليس مقبولاً فى المجتمع. لذا، وعلى الرغم من قيادة هدى شعراوى لمظاهرة المرأة أثناء الجلسة الافتتاحية للبرلمان فى مارس ١٩٢٤ للمطالبة

بحق المرأة فى التصويت، ماطل حزب الوفد فى عملية إصلاح الامتيازات الانتخابية وفى نهاية المطاف انتهى قانون الانتخابات فى أغسطس ١٩٢٤ إلى استبعاد المرأة. وكان من الواضح أن حزب الوفد لديه حساسية للقيم الثقافية السائدة بشأن هذه المسألة، حتى لو كان هذا يعنى أنه انسحاب تكتيكى من القومية الليبرالية.

أبعدت سياسة سعد زغلول هدى شعراوى عنه، ونتيجة لذلك، وبعد مناقشة فى البرلمان فى ٢٥ مايو بشأن المفاوضات الخاصة بالمعاهدة، وبخت هدى شعراوى سعد زغلول لفشله فى إلقاء بيان لا لبس فيه فيما يتعلق بالوضع فى السودان. وعلى الرغم من أنها أعربت عن معارضتها لمفاوضات المعاهدة، فإنها كانت متأثرة بالتأكيد بموقف سعد زغلول بشأن حقوق المرأة السياسية. ولكنها لم تتخل عن التزامها بالقضية الوطنية نتيجة لموقف حزب الوفد من قضية المرأة. وبدلاً من ذلك أصبحت من أشد منتقدى سعد زغلول حول القضايا القومية، فوضعت الحركة النسائية فى جانب وطنيتها التى لا تتزعزع بينما كانت تتحدى مصداقية سعد زغلول الوطنية. وقد صورت مجلة الكشكول هذا الصراع بين سعد زغلول وهدى شعراوى برسم كاريكاتيرى يظهر سعد زغلول كشخص عجوز متعب ومقهور يطوف فى الشارع، فى حين تتكى هدى شعراوى على نافذة منزلها لإفراغ دلو يندلق على رأسه. وقد أغضبت هذه الصورة سعد زغلول، الذى أمر بالقبض على رئيس تحرير المجلة وسجنه. وكان الكاريكاتير جديراً بالتقدير لأن الصورة نفسها عززت المفاهيم الأبوية الخاصة بمكانة المرأة داخل المنزل، فى مقابل الأبوة الشائخة، التى كانت تذرع الشوارع العامة^(٤٩). ومع ذلك يشير الكاريكاتير إلى أن هدى شعراوى جعلت سعد زغلول يدفع ثمناً سياسياً لتراجعته عن مبدأ الليبرالية فى قضايا المساواة بين الجنسين. وبالتالي، فإن الرسوم دلت على أن السياسة جعلت النظام الأبوى أكثر من مجرد نظام للقيم الثقافية، فقد حولته إلى قضية سياسية تدخل فى نطاق المناقشات الوطنية.

وقد أظهرت خيانة سعد زغلول للمرأة التنازلات التى قدمها الوفد من أجل حشد الإجماع داخل الحزب السياسى. وفى حين ما بدا ظاهرياً وكأنه يتجه نحو قضية الاستقلال الوطنى، فإن التنافس السياسى كشف عن معنى ضمنى للقيم الثقافية.

ومثل الشمسى والرافعى، كان لهدى شعراوى دوافعها الخاصة، إلا أنها هاجمت سعد زغلول فى شأن مفاوضات المعاهدة. هذا النهج دفع بسعد زغلول إلى اتخاذ موقف من جانب واحد فى مفاوضاته مع البريطانيين. وعودة إلى التكتيكات المميزة للمتشددين خلال السنوات بين ١٩١٩ و١٩٢١، فقد نظم الوفد هجوماً فى مارس وإبريل من عام ١٩٢٤ على ممتلكات المسؤولين الحكوميين السابقين فى محافظات الغربية والمنوفية. وكان الثوار يحملون لافتات كتب عليها شعارات لإعادة توزيع الأرض على الفئات الأقل حظاً. وفى الإسكندرية كذلك، كانت هناك اضطرابات صناعية معلنة فى بيان رسمى ذى لهجة جمهورية وشيوعية^(٥٠).

ومن الصعب تحديد مدى سيطرة سعد زغلول على هذه الأحداث. وقد ادعت تقارير المخابرات البريطانية أن سعد زغلول وصف المعارضة البرلمانية بأنها (حمراء جداً) وأن الثوريين "كبلوا يديه" بالنسبة لأى تفاوض على المعاهدة مستقبلاً^(٥١). وقد أبلغ اللبى وزارة الخارجية بأنه من الممكن أن يتغلب سعد زغلول على المتطرفين الخبثاء فى البرلمان إذا ما سحبت الحكومة البريطانية القوات البريطانية من مصر ومنحتها السيادة على السودان. ومع ذلك، فإن الخارجية نفت أن المناقشات الخاصة بين اللبى وسعد زغلول الخاصة بمفاوضات المعاهدة قد يكون لها أى تأثير على سياسة الحكومة. وفى الوقت نفسه نصحت لجنة من وزارة الدفاع بإقامة قواعد جوية فى كل من هليوبوليس وحلوان، وهما من ضواحي القاهرة^(٥٢). وبدون أى تنازلات ذات مغزى من جانب البريطانيين يبدو أن سعد زغلول دافع عن موقفه السياسى كزعيم وطنى، وذلك بتطرفه فى موقفه.

كانت الأحداث التى وقعت فى صيف ١٩٢٤ مؤشراً لهذا الاتجاه، فقبل مغادرة سعد زغلول إلى لندن لإجراء مفاوضات المعاهدة فى يوليو من عام ١٩٢٤، ألقى خطاباً لتكريم قادة نقابة العاملين بالنقل، وعلى الأخص عبد الرحمن فهمى، الذى منح مسئولية تنظيم المنظمات العمالية. كما حضر أيضاً حسن نافع، وهو محام مشارك فى السياسة العمالية. وقد وصف جويل بنين وزخارى لقمان عبد الرحمن فهمى وحسن نافع بأنهما مؤثران على "تطور العلاقة بين القومية البرجوازية فى الوفد والطبقة العاملة الناشئة"^(٥٣).

وبينما قد يكون هذا تقييماً دقيقاً للفئات الاجتماعية المشتركة، فإنه لا يكاد ينصف اللعبة السياسية. ويظهر سعد زغلول في هذا الاحتفال ووضع حزبه مع الطبقات العاملة، عرف نفسه مع "الحرر". ولأن هذا اللقاء كان سياسياً، فلم يحضره عمال. بل كان تجمعاً للمسؤولين الحكوميين والوجهاء والتجار والطلاب للثناء على الطبقة العاملة، (أو طبقة الرعايا)، كما ورد في الترجمة الفرنسية) للتأكيد على الراديكالية النسبية، والمبادئ الديمقراطية لحزب الوفد. وكان الهدف هو إعادة توطيد مكانة سعد زغلول قائداً لحزب ثوري الغرض منه القضاء على الاستعمار في مصر، وبالتالي تحييد معارضيهِ اليساريين. وفي خطابه أعاد سعد زغلول شرح تعريف مصطلح (الرعايا)، الذي كان له معنى ازدرائى في الخطاب السياسى العرفى فى مصر. وفى خطابه جاء المصطلح ليشرح حزب الوفد على أنه حزب تأسس على طبقة معينة. وادعى سعد زغلول أن هذه الطبقة كانت لها صلة "طبيعية" بمبدأ الوطنية. وفى تصريحاته المنمقة التى قال فيها: "أنا واحد منكم"، حدد هوية حزبه بأنه مع التغيير الثورى، والالتزام الثابت بالاستقلال الوطنى^(٥٤).

وفى نهاية المطاف توصل سعد زغلول إلى تسوية مع السياسيين من النخبة ابتداءً من يناير ١٩٢٤ بهدف تحسين فرصه إجراء مفاوضات ثنائية مع البريطانيين. ولكن كان من الصعب عليه التمسك بهذا الموقف المعتدل بعد انعقاد البرلمان. وبدأ الخلاف داخل حزب الوفد عندما قام القوميون الثوريون، مثل شمسى، باستغلال قضية المفاوضات حول المعاهدة لتقويض سلطة سعد زغلول. وقد حصلت هذه الاستراتيجية كذلك على تأييد الإصلاحيين الراديكاليين، مثل هدى شعراوي، وذلك كما كشفت الأحداث اللاحقة، التى حققت فائدة خصوصاً لليبراليين والمحافظين، الذين قادوا دعم الذين يغارون من سلطة حزب الوفد ويخافون من تطرف العمال والجماعات النسائية المرتبطتين بحزب الوفد. ولم يقلل الليبراليون والمحافظون من الآثار المترتبة على الخطاب الذى ألقاه سعد زغلول أمام قادة نقابة العاملين بالنقل. حتى توحده مع الطبقة العاملة اعتبره المحافظون الملكيون والليبراليون شاذاً، نظراً للمظاهرات التى اندلعت فى الإسكندرية وفى محافظات الغربية والمنوفية خلال ربيع عام ١٩٢٤. كما لاحظ اللنبى

كذلك الآثار الثورية لخطاب سعد زغلول، مشيراً إلى ما أشار إليه سعد زغلول عن الأدوار المتباينة "لطبقة الباشاوات" و"العمال" في النضال القومي^(٥٥). وفي صحف المعارضة كان يطلق على سعد زغلول اسم "ملك حثالة القوم"^(٥٦) وصورت جريدة السياسة خطاب سعد زغلول على أنه "تحريض مباشر على البلشفية وبأنه يهدف إلى تحفيز الحقد الطبقي"^(٥٧). وبعد ذلك بوقت قصير حاول شخص مجهول الهوية اغتيال سعد زغلول.

حزب الاتحاد

قبل عام ١٩٢٢ كانت السلطة الاستعمارية هي التي تحدد إلى حد كبير السياسة المصرية، طبقاً لردود الفعل التطورية أو الثورية تجاهها. وبينما تراجعت بريطانيا من الساحة السياسية، ظهرت قضايا أساسية، مثل قانون الانتخابات والدستور عملت هي الأخرى على تقسيم المجتمع السياسى المصرى. وبينما كان هناك دستور تمت كتابته فى عام ١٩٢٣، فإن ذلك لم يكن سوى بداية العملية. وقد ألقى تعريف النظام السياسى وفقاً لمبادئ الليبرالية الضوء على الانقسامات العميقة حول قضايا مثل الانتخابات الديمقراطية، ونوع الجنس، والطبقة الاجتماعية. وبمحاولة حزب الأحرار الدستوريين إعادة تعريف النظام الانتخابى فى عام ١٩٢٥ كان ذلك إشارة إلى أن القضايا الدستورية لم تحل بعد. وبالمثل فإن الموقف المتناقض لحزب الوفد تجاه قضايا المساواة بين الجنسين كان ينم عن نوع المشاكل التى يواجهها من قبل العقول السياسية المتحررة. فقد خلقت التوترات داخل صفوف حزب الوفد فرصة أمام المحافظين الملكيين، الذين استغلوها جيداً بعد اغتيال سير لى ستاك فى نوفمبر ١٩٢٤، وادعت تقارير صحفية أن القتلة كانوا رجالاً يرتدون زى الأفندية. وفى الثقافة المصرية يرمز الأفندى لقادة حزب الوفد. وبإلقاء اللوم على حزب الوفد، أجبر اللبى سعد زغلول على الاستقالة وفرض عليه عقوبات مالية وإقليمية قاسية (السودان أصبح منفصلاً حقيقة عن مصر)^(٥٨)، مما يشير إلى قوة السلطة الاستعمارية^(٥٩). ومع ذلك، فإنه من المرجح

أن الجناح اليميني القومى المتطرف بدأ الأزمة من خلال تخطيط وتنفيذ عملية الاغتيال وقد أشارت الأدلة التى جمعت فى محاكمة لاحقة للقتلة إلى وجود مؤامرة دبرها مستشار الملك السياسى حسن نشأت، والتى ناقشها ملاك بدرأوى فى الفصل الرابع على أنها دسيصة اقتصادية^(٦٠). وقد تسبب هذا الهياج الأيديولوجى الشديد فى انهيار حكومة حزب الوفد فى ١٩٢٤، وليس دبلوماسية التهديد التى كانت بمثابة رد فعل على ذلك.

وفى الواقع فإن حادثة الاغتيال كانت تالية للمنافسة المثيرة بين حزب الوفد والنظام الملكى، ولتعزيز الدور السياسى للنظام الملكى، بنى الملك أحمد فؤاد قاعدة دعم من "علماء الدين"، خاصة من جامعة الأزهر الدينية. وقد استغل مستشارو الملك المظالم المقدمة من طلبة العلوم الدينية من الأزهر ضد طلاب المدارس الحكومية، الذين كانوا يمثلون مجموعة أساسية فى حزب الوفد. وقد أسفرت تكتيكات الملكيين عن اشتباكات مستمرة بين الحكومة والطلاب الدينيين. فى هذا الوقت بدأ حسن نشأت فى تشكيل حزب سياسى ملكى، وهو حزب الاتحاد، من خلال تشجيع بعض النواب الوفديين فى البرلمان للتنديد بسعد زغلول والتخلى عن الحزب بحلول نوفمبر ١٩٢٤^(٦١). وكان العديد من هؤلاء الذين نقضوا الولاء من كبار ملاك الأراضى مما يدعم الفكرة القائلة بأن حزب الاتحاد كان يمثل فقط مجموعة النخبة. وبالمثل، فإن دور العلماء ربما يشير إلى أن الحزب كان له أساس من "الثقافة التقليدية". وقد لعب صغار السن من الأفندية دوراً بارزاً فى هذا الحزب، فقد كان نشأت، وعلى ماهر، ومحمود أبو النصر نماذج من الجيل الثالث فى مصر. وقد تلقى هؤلاء الرجال تعليمهم فى المدارس الحكومية وبدعوا حياتهم السياسية فى أحزاب الوطنى أو الوفد. كما أن نشأت ومحمود أبو النصر كانا قد شاركا فى الجماعات المتشددة التى عباها الوفد فى عام ١٩١٩، فى حين أن على ماهر كان قد سافر إلى باريس مع سعد زغلول فى عام ١٩١٩.

ومن المهم أن نلاحظ التنوع فى عضوية حزب الاتحاد، ولو كان ذلك تحسباً فقط لوصفه حزباً من ملاك الأراضى مرتبطاً بملكية سهل التلاعب بها من العملاء البريطانيين. وفى الواقع، بينما كان اللبى والمسئولون بوزارة الخارجية البريطانية

يؤيدون تشكيل "منظمة منافسة" بقاعدة صلبة مؤيدة من وجهاء المناطق الريفية، إلا أن ذلك لم يوفر فرصة للتلاعب بحزب الاتحاد. فقد سعى لاستقلال السلطة السياسية من خلال تعبئة الناخبين في مظاهرات في الشوارع^(٦٢) والمنافسة الانتخابية. كما تزايد المحتوى الدينى فى أيديولوجية الحزب، فضلاً عن أن الحملة الملكية لحشد العلماء وطلبة العلوم الدينية كانت سبباً فى عدم استقرار الأنشطة التى يضطلع بها المتطرفون اليساريون. وهكذا، فبينما أفسد المتطرفون محاولة سعد زغلول لبناء توافق فى الآراء وتحالف فى عام ١٩٢٤، فإن التوجه الدينى لحزب الاتحاد أفسد محاولة بناء إجماع وطنى على مبادئ المحافظين فى عام ١٩٢٥ .

وقد دعا برنامج حزب الاتحاد إلى إجراء إصلاح شامل لجامعة وجامع الأزهر لإعداد خريجيهما لاحتلال مراكز مهمة فى وزارتى العدل والتعليم^(٦٣). كذلك وسع الملك نطاق سيطرته على وزارة الأوقاف. واحتكرت الدولة توزيع أوقاف القطاعين العام والخاص (الوقف الأهلى والوقف الخيرى) ووفرت موارد هائلة لرعاية النظام الملكى، حيث إن الأوقاف تتكون تقريباً من واحد إلى عشرة من الأراضى الصالحة للزراعة فى مصر. وكان للسيطرة على الأوقاف تأثير على القيم الاجتماعية، لأنها كانت تشمل المساجد والجمعيات الخيرية. وفى عام ١٩٢٥ شارك الملك فى إقامة ملجأ، ومكان للمشردين واللقطاء، ومستوصف للعمال فى بولاق، التى كانت حى الطبقة العاملة فى القاهرة. وفى وقت لاحق جذبت الجمعيات الخيرية الإسلاميين، مثل حسن البنا من جماعة الإخوان المسلمين، وكان يتم تعيينهم من خلال جمعيات الشبان المسلمين. وقد تأسست جمعية الشبان المسلمين تحت الرعاية الملكية السامية، من خلال العلاقات الملكية (الواسطة) فى وزارتى الأوقاف والتعليم^(٦٤).

مد الملك نفوذه ومارسها فى تعيين شيخ الأزهر من أجل التوصل إلى إعادة تنظيم المجلس الأعلى للأزهر. وقد أعاد المجلس للأزهر الإشراف على مدرسة القضاة الإسلاميين وتنافس مع وزارة المعارف للحصول على عقد للإشراف على المدارس الحكومية فى عام ١٩٢٥، وانتصر "العلماء" مرة أخرى على البيروقراطيين. ثم تم تأسيس مدارس جديدة تحت الرعاية الملكية، وعادة ما كانت تقام فى المناطق

التي يكون مرشحها من حزب الاتحاد، الذين استفادوا بالطبع من مثل هذه الرعاية الملكية السامية. وتم إعادة صياغة قواعد الحصول على معاشات الدولة على أن يكون لعلماء الدين الذين خدموا في المؤسسات الدينية الحق في الحصول على معاشات التقاعد الحكومية. بهذه التدابير عزز الملك نور العلماء في بيروقراطية الدولة ضد الامتيازات الراسخة للأفندية. وفي وقت قصير ظهرت الآثار الثقافية جلية عندما حاول العلماء تقييد امتداد ثقافة الأفندية في النظام المدرسي؛ فعلى سبيل المثال تم تحذير الطلاب في كلية المعلمين بأنهم سيطردون وسوف يحتل مواقعهم طلاب من الأزهر إذا لم يختاروا الزي المصري. وقد استفزت هذه الجملة الطلاب في المدارس الحكومية ودارت مناقشة عما إذا كان ينبغي ارتداء القبعة، بدلاً من الطربوش، كرمز للأفندي الحقيقي. وقد أيد الملك الحملة ضد كل من الطربوش والقبعة، مما أسفر عن فتوى "إنذار من يتخذ موقف تشبه بالأجانب"، وقالت الفتوى إن القبعة رداء رأس غير لائق. كما أن المرأة المسلمة لا يجب أن تتزوج من غير المسلمين، وأنها لا يجب أن تعطى حقوقاً متساوية للرجل في مسائل الميراث^(٦٥). وهكذا، فإن السياسات الملكية اتجهت ضد اتجاهات التغريب التي تبناها أفنديات حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين من الإصلاحيين، مما يشير إلى وجود اختلاف أساسي في التوجهات الثقافية والأيدولوجية. وكانت الاختلافات الأساسية أكثر وضوحاً بشأن قضايا المساواة بين الجنسين؛ فقد أعلن الوفد أن تحسين وضع المرأة (وخاصة في مجال الأمومة والطفولة) هو حجر الأساس في برنامجه السياسي^(٦٦). وفي الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب وصفت حنان خلوصي بمزيد من التفاصيل تقنين أو تسييس الأسرة في هذه الفترة، وكما أشرنا سابقاً في هذا الفصل، اتخذ حزب الوفد موقفاً معتدلاً بشأن نوع الجنس وغيرها من القضايا الثقافية، رافضاً تحدى الفتاوى الصادرة بعد تولى حزب الاتحاد السلطة. وفي الواقع قاد حسن ياسين، زعيم الطلبة في حزب الوفد الحملة الرامية إلى حظر ارتداء القبعات لصالح الطربوش في دار العلوم^(٦٧).

كانت الحملة الملكية أيديولوجية بصورة واضحة فقد تطرقت إلى القضايا الأساسية للدستور المصري والهوية الوطنية. كما شجعت الحملة الدينية للقصر

النشطاء المسلمين على تحدى الحكومة فى القضايا السياسية، فضلاً عن القضايا الثقافية. فعلى سبيل المثال، فى يناير ١٩٢٦^(٦٨) قام طلبة من الأزهر بالتوقيع على عريضة من أجل التطبيق الشامل للشريعة الإسلامية (القانون الإسلامى) بدلاً من القانون المدنى. وجاءت هذه المطالب بناء على الجدل الذى تلا نشر كتاب على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) الذى كان واضح المعالم فى بحض الأفكار الإسلامية للتوفيق بين المجتمع السياسى والشريعة. وقد اعترض على عبد الرازق صراحة على فكرة إقامة دولة إسلامية، وضمنياً على البرنامج الملكى الثقافى من خلال تطبيق منطق طه حسين فى رسالته للدكتوراه عام ١٩٢٥، التى أثار فيها أيضاً قضية الخلافة. ومثل طه حسين رفض على عبد الرازق فكرة أن الدين هو مبدأ الشرعية للسلطة السياسية، واستخدم التحليل التاريخى لإظهار أن الخلافة لم تكن دينية أو عادلة. واتخذ على عبد الرازق أبوبكر، الخليفة الأول، كمثال حيث قال إنه أسس الدولة على أساس "العصبية العربية" (التضامن العرقى). كما ذكر أيضاً أن النبى محمداً لم يكن يقصد تأسيس دولة إسلامية وإن الإسلام يشكل وحدة الإيمان وليس السياسة. وقال "إذا جمعنا كل ما قدمه (النبى) من تعاليم مباشرة عن مسألة الحكومة، فسوف نحصل على ما يزيد قليلاً عن جزء ضئيل من مبادئ القانون والمؤسسات اللازمة للحفاظ على الدولة"^(٦٩). وبهذه الطريقة طالب على عبد الرازق بوجود مجتمع ليبرالى وسياسى مستقل وإبعاد الدين فعلياً عن السياسة^(٧٠). وقد ذكرت الإدارة الأوروبية فى وزارة الداخلية فى تقريرها أن ثقافة على عبد الرازق "أدت به إلى تجاهل الأفكار المقبولة بشأن المسائل الدينية والسعى للحقائق من خلال العودة إلى المصادر الرئيسية وهى القرآن والتقاليد. وفى الخلط بين السلطة المدنية والسياسية حيث تكون الغلبة دائماً مع الأخيرة فى الدول الإسلامية، وعلى مر العصور يرى الشيخ على أن ذلك هو السبب الرئيسى لفشل الدول المحمدية فى التقدم كما فعلت الدول المسيحية"^(٧١).

أعطى نشر كتاب على عبد الرازق الملك فرصة ممتازة لتأسيس حزب الاتحاد بحيث يكون هو والنظام الملكى المدافعين عن التقاليد، فبالنسبة للملك، ربما كان هذا ذريعة لأنه تمكن من تعزيز سلطته من خلال إضعاف دستور ١٩٢٣، بالإضافة إلى بناء

قاعدة عريضة من الدعم الشعبى ضد حزب الوفد. ومع ذلك فإن استراتيجية الملك سلطت الضوء على الحرب الثقافية بين العلمانيين والإسلاميين. واعتماداً على دعم "الكتلة الكبيرة من السكان الأميين" فى أى مسألة دينية، شجع الملك ونشأت إدانة على عبد الرازق من قبل "العلماء". وكان هذا رأى المفوض السامى بالوكالة، نيفل هندرسون، والذي قال إن التأييد المتزايد لحزب الاتحاد فى الدوائر الانتخابية فى المناطق الريفية شجع الملكيين^(٧٢). وكانت إدانة على عبد الرازق من لجنة الخلافة فى الأزهر، التى كانت تشكل جماعة ضغط لترشيح الملك كخليفة للمسلمين بعد أن ألغى القوميون الأتراك الخلافة العثمانية فى عام ١٩٢٤. وقد طالبت لجنة الخلافة بالأزهر مجلس الأزهر بإدانة على عبد الرازق. ونتيجة لذلك، فإن المجلس أصدر فتوى فى ١٤ أغسطس ١٩٢٥ بمقارنة على عبد الرازق بالخوارج، الذين انفصلوا عن "الغالبية السنية" بعد مقتل الخليفة عثمان^(٧٣).

وتبدو الفتوى، ككتاب على عبد الرازق محملة بالرسائل السياسية، حيث قارنت بين الفتنة، أو الحرب الأهلية بين السنة والشيعة فى التاريخ الإسلامى، والصراعات الحزبية الحالية فى مصر. واتهم المجلس على عبد الرازق بتبنيه آراء معارضة للتقاليد وتم طرده من "العلماء"، فضلاً عن حرمانه من منصبه كقاضٍ فى المحكمة الشرعية فى الإسكندرية. إلا أن على عبد الرازق استأنف الدعوى على أساس مبدأ "إن حرية الاعتقاد مطلقة" ومكفولة فى دستور عام ١٩٢٢^(٧٤). لكن المجلس استند فى قراره على الحق القانونى للأزهر بتأديب أى عضو من أعضائه "العلماء"، وبالتالي يمكنه أن يعلن أن الحق الدستورى فى حرية الرأى لا يمكن أن يحل محل الأحكام الدينية للأزهر. وبهذه الطريقة تحولت مسألة الخلافة إلى صراع على المبادئ السياسية بين القوميين الليبراليين والإسلاميين، والذي انقلب فى وقت قصير إلى صراع بين الأحرار القوميين ووزراء حزب الاتحاد فى حكومة زيوار، وإلى حد كبير وضع الخلاف الدينى فى قلب المناقشات السياسية.

وصل هذا الخلاف إلى ذروته حين كان رئيس الوزراء زيوار يقضى عطلة فى أوروبا. وهنا قام رئيس الوزراء بالإتابة، يحيى إبراهيم، بإرسال قرار مجلس الأزهر

إلى عبد العزيز فهمى، وزير العدل. وكان تفسير عبد العزيز فهمى لقانون الأزهر هو أن الأنظمة الحاكمة "للعلماء" فى هذه المسألة تتعارض مع سلطة وزير العدل. وادعى فهمى أن العاملين فى المحاكم الدينية والوطنية من المسؤولين الحكوميين، وبالتالي يقعون تحت سلطة وزارة العدل. وفى اجتماع لمجلس الوزراء رفض فهمى إقالة عبد الرازق، وبدلاً من ذلك أحال القضية إلى الإدارة القانونية فى وزارة العدل لتحديد ما إذا كان الدستور يحمى المواطنين من تهمة "الرأى الكاذب"، واحتج يحيى إبراهيم حيث إن الإدارة القانونية بها أوروبيون، وهم غير مؤهلين فى المسائل الدينية، وهدد بالاستقالة^(٧٥).

بعد التشاور مع مدرسون فى محل الإقامة البريطانى، الذى حذره حفاظاً على الائتلاف الحكومى، زار يحيى إبراهيم الملك. وعلى الرغم من أن عبد العزيز فهمى فى ذلك الوقت كان قد وافق على عدم تقديم القضية إلى الإدارة القانونية، فإن يحيى إبراهيم وبدون سابق إنذار أقال عبد العزيز فهمى، وعين على ماهر وزيراً للعدل مكانه. وكان المبدأ السياسى الذى دافع عنه يحيى إبراهيم، الذى كان مدعوماً من الملك وحزب الاتحاد، هو أن الإعلان الليبرالى للدستور لم يحل محل الدور التاريخى للدين فى المجتمع السياسى المصرى. وذكر الشيخ محمد شاکر، وكان نائب مستشار سابق فى الأزهر، استقال من حزب الوفد وانضم لحزب الاتحاد، فى مجلة الاتحاد: "من غير المقبول أن قراراً من كبار العلماء يحال إلى محامين مسيحيين. وفى اعتراض وزير العدل على حكم الزعماء الدينيين المسلمين، وهو دين الدولة، هاجم الإسلام والدستور، إننا نشعر بالدهشة لأنه لم يطلب من الإدارة القانونية رأيهم فى الإسلام كدين للدولة"^(٧٦).

وانضماماً للمناقشة ردت السياسة فى مقال افتتاحى أن شاکر ينبغى أن يصب جام غضبه على المشرع "المصرى الذى وضع جانباً العقوبات التى تنص عليها الشريعة الإسلامية واستبدلها بالقوانين الجنائية والمدنية التى أخذت من القانون الفرنسى"^(٧٧). وفى يوم ٨ سبتمبر اجتمع حزب الأحرار الدستوريين وأعلن أن إقالة فهمى "غير دستورية ولا تتفق مع التقاليد السياسية"^(٧٨). وهذا الرأى يشير إلى أن المبادئ السياسية التى قسمت بين الليبراليين وأنصار الملكية لجأت إلى الأسس التى يقوم

عليها النظام الدستوري. ونتيجة لذلك استقال الوزراء الليبراليون من الحكومة في أوائل سبتمبر.

وقد مكن الجدل الذي أثاره عبد الرازق حزب الاتحاد من التمسك بالحقوق التاريخية للعلماء وأمن مكانة الإسلام كرمز للدولة المصرية الجديدة. كما أعلن الشيخ محمد بخيت في الصحافة في أكتوبر أن الدستور يتعارض مع الشريعة^(٧٩). وقاد محمد أبو النصر الأمين العام لحزب الاتحاد، حملة واضحة بشأن هذه القضية الدينية. وفي خطاب ألقاه يوم ١١ نوفمبر ١٩٢٥ أدان محمد أبو النصر عبد الرازق ووصفه بالمضلل والمتشكك في تفسير التقاليد القانونية الإسلامية (الأحاديث)، من جهة أخرى، ادعى أن فتوى العلماء ضد عبد الرازق، محققة ومثبتة في (الحديث). وزعم محمد أبو النصر أن الشريعة الإسلامية لا يمكن، طبقاً لتعريفها، أن تكون غير دستورية. وعلى العكس، فعندما ادعى عبد الرازق وعبد العزيز فهمي أن القرآن ملئ بالمتناقضات ويتطلب تفسيراً فقد خلقوا اضطرابات داخل المجتمع الإسلامى. وختم أبو النصر قوله "ينبغي علينا أن نتمسك بالدين أولاً". وفي خطابه تلا خطاباً آخر ألقاه محام من المحاكم الشرعية في الإسكندرية وأشاد فيه بكلمات نصر كمثال "للقومىة الحقيقية"^(٨٠).

أشارت الحملة الانتخابية لحزب الاتحاد إلى أن النظام الملكى تولى مركز الصدارة فى المنافسة الثقافية والسياسية. وتاماً كما تمسك كل من عبد العزيز فهمي وعبد الرازق بالعلمانية، والتفسير الليبرالى للدستور، فقد أعطى الملكيون دفعة قوية للإسلاميين. ومن خلال حملة ثقافية شارك فيها مناصرون من المؤسسات الدينية والتعليمية، والأعمال الأدبية، أعاد النظام الملكى تعريف المجتمع السياسى المصرى الحديث على أسس دينية. وقد نشر زكى فهمي، أحد الملكيين بحثه عن أمير الإسلام، (صفوة العصر) يعارض الأفكار العلمانية لليبراليين^(٨١). وفى الفصل الذى كتبه باراك سالمنى الخاص بالمدارس يكشف عن أن النظام الملكى مارس سلطته أيضاً على محتوى المناهج المدرسية، فضلاً عن المنحة المصرية لأول المؤرخين المحترفين، بما فى ذلك محمد شفيق غريال. وإجمالاً، فإن النظام الملكى تولى دوراً رئيسياً^(٨٢) فى تشكيل السياسة والهوية الوطنية.

الخاتمة

كانت هزيمة حكومة الوفد فى عام ١٩٢٤ وحالة الضعف التى انتابتها بعد ذلك تبدو للناظر إليها على أنها نتيجة للتدخل الاستعماري أو المناورات التكتيكية داخل مجتمع النخبة السياسية. وبالتأكيد، لا يمكن استبعاد هذه العوامل استبعاداً كلياً. نعم، لقد تحطمت حكومة سعد زغلول الوطنية على صخرة الإمبريالية البريطانية، ومع ذلك كانت مسيرتها موجهة من جانب القوميين المتطرفين. وهذا يشير إلى أنه ينبغي علينا أن ننظر بعناية للعوامل الثقافية والعقائدية فى تحليلنا للسياسة المصرية فى فترة ما بعد عام ١٩١٩. وهناك أمثلة أخرى تؤكد هذا الاستنتاج. فعلى سبيل المثال، تم تقويض التحالف بين الملكيين والليبراليين فى عام ١٩٢٥ بسبب الالتزامات الدينية لحزب الاتحاد. وكان التوجه الليبرالى نحو تطور التقدم الاجتماعى يعنى أن الليبراليين واجهوا صعوبة فى استيعاب السياسيين الدينيين فى حزب الاتحاد، مثل ما وجدوا نفس الصعوبة مع السياسة الطبقية لحزب الوفد. وكانت كل من هذه الأحزاب؛ حزب الوفد، والأحرار، والاتحاد، قد أسسها السياسيون من الجيل الثالث. ولأن هذا الجيل بشكل خاص كان متفتحاً للتغيير وعلى دراية بالنماذج الثقافية والسياسية الغربية، كانت الصراعات الأيديولوجية أكثر حدة. هذه الصراعات التى أثبتت أن المصريين فشلوا فى تحقيق توافق فى الآراء حتى بشأن أبسط المبادئ الأساسية للهوية الوطنية فى مصر، مثل وضع تعريف واضح لحدود مصر الإقليمية، والحقوق المدنية والسياسية، وسيادة القانون المدنى على القانون الدينى. فالجيل السياسى لعام ١٩١٩ كان بعيداً عن التماسك، وكان منقسماً ثقافياً وفكرياً، ومن ثم، فالليبرالية القومية والنخبة السياسية كان من الصعب تحديدها أو توحيدها فى العشرينيات. وبدلاً من ذلك كان هناك تنافر أيديولوجى شديد يمثله جيل عام ١٩١٩.

الهوامش

(١) مايلز لامبسون كيليارن، Politics and Diplomacy in Egypt, The Diaries of Sir Miles Lampson 1935-1937 طبعة مالكولم ياب (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٧)، ٨١.

(٢) ألبرت حوراني، Arabic Thought in the Liberal Age الطبعة الثانية. (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٣)، فى مواضع مختلفة من النص المذكور. لحوراني:

Liberal nationalism in Egypt reflected the cultural dominance of Europe in the liberal age (1798-1939).

(٣) إسرائيل جيرشونى وجيميس ب. جانكوفسكى،

Egypt, Islam and the Arabs: The Search for Nationhood 1900-1930

(نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٨٦)، ٢٧١. جيرشونى وجانكوفسكى يؤكدان على التحول الجذرى فى التوجهات الثقافية والسياسية من الإمبراطورية العثمانية والإسلام إلى الأمة المصرية بعد عام ١٩١٩.

(٤) على الرغم من أن الأعمال النظرية خلال تلك الفترة غالباً ما تعبر عن تقديرها لواحد من المذاهب العقائدية التى أناقشها هنا، فهناك بعض الأعمال التى تعطى النظر المتوازن فى كل اتجاه عقائدى. ولإعطاء مثالين فقط: ماريوس ديب،

Party Politics in Egypt: the Wafd and its Rivals

(لندن: مطبعة إيثاكا، ١٩٧٩)، التى تبين أن حزب الوفد كان دوره لا يتعدى مجرد وسيلة للاتصال بين النخب السياسية المصرية. وكان إلى حد ما يعتبر أعلى تنظيم حزبى متطور مع النواثر الانتخابية داخل المجتمع. وعلى الرغم من ذلك، لم يراع ديب الحزب الليبرالى الدستورى أو حزب الاتحاد بأى شكل من أشكال المقارنة. ثانياً، عفاف لطفى السيد - مار سوت، Egypt's Liberal Experiment 1922-1936 (بيركلى: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٧٧)، منح تقدير زائد لليبراليين، ومع ذلك يجادل أنه فى ١٩١٩ لم تكن البنية الاجتماعية لمصر توصل إلى سياسة حزبية، كما انصرف عن رئيس حزب الوفد سعد زغلول قائلاً إنه غوغائى.

(٥) وهذا بالطبع يشير إلى موضوع التعاون، الذى يعد السمة المميزة للخطاب السياسى والأدبى. التى بدأت فى وقت مبكر جداً فى السياق المصرى. ففي عام ١٩٢١ فى البيان الصادر عن حزب الوفد أشير إلى السياسيين المعتدلين المشاركين فى المفاوضات مع البريطانيين على أنهم كفار (المرتدون). وعلى الرغم من أن استخدام المصطلحات الدينية فى هذا النص كانت ضخمة فإنه يجب فهم هذا المصطلح بالمعنى القومى له وهو خيانة القضية. انظر Parliamentary Papers المجلد رقم ٤٢، ورقم ٢٤، مصر رقم ٣ (١٩٢١)، المحكمة العسكرية للتحقيق فى أعمال الشغب بالإسكندرية.

(٦) قد نجد العديد من الأمثلة التي يمكن أن توجد في المنح الدراسية الأكاديمية المتأثرة بالسرد القومي. وقد وردت الإشارة هنا إلى جاك برك،

Egypt: Imperialism and Revolution

(لندن: فيبر، ١٩٧٠)، ٢١٢ - ٢٤، ٢٦٣ - ٤٠٢.

(٧) لويس جوزيف كانتوري،

The Organizational Basis of an Elite Political Party: The Egyptian Wafd

(رسالة كتورة، جامعة شيكاغو، ١٩٦٦)، ٢١٥ و ٤٢٢ - ٢٥. انظر أيضاً: إلى مالكولم ياب،

The Near East since the First World War

(لندن: لو نيمان، ١٩١٩)، ٥٥. لقد كان النموذج النخبوي للسياسيين هو الأكثر نفوذاً في الدراسة التاريخية لمصر الحديثة. انظر أيضاً: على سبيل المثال، ليونارد بيندر،

In a Moment of Enthusiasm: Political Power and the Second Stratum.

(شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٧٨) وروبرت سبرنجبورج،

Sayyid Marei' : Family, Power and Politics in Egypt.

(فلاديليفيا، مطبعة جامعة بنسلفانيا، ١٩٨٢).

(٨) روبرت ف. هانت، Egypt Under the Khedives: From Household Government to Modern Bureaucracy.

(بيتسبرج: مطبعة جامعة بيتسبرج، ١٩٨٤)، ٨٢-٨٣.

(٩) إيهود توليدانو Social and economic change in the 'long nineteenth century

في The Cambridge History of Egypt.

الجزء الثاني طبعة أم. دبليو. دالي (نيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٨)، ٢: ٢٦٤-٦٥.

(١٠) كارل مانهيم، Ideology and Utopia: An Introduction to the Sociology of Knowledge

(نيويورك: هاركوت، بريس وش، ١٩٣٦)، ٢٢٧-٨٠.

(١١) حوراني، Arabic Thought 193 - 221. انظر أيضاً: جيرشوني جاكوفسكي، Egypt, Islam and the Arabs94.

(١٢) عبد الرحمن الرافعي، "ثورة سنة ١٩١٩: تاريخ مصر القومي من ١٩١٤ إلى ١٩٢١" (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧)، ٢٦٣.

(١٣) كانتوري، Organizational Basis 174. وقد كان فهمي على علم تام؛ فعلى سبيل المثال قال بارينجتون

موود ج. ر. إن الطبقة الحاكمة في بريطانيا في أوائل القرن التاسع عشر تكونت من أكثر من ١٢٠٠ شخص. معظمهم من النبلاء والأرستقراطيين. بارينجتون موود،

The Social Origins of Dictatorship and Democracy: Lord and Peasant in the Making of the Modern World.

(بوسطن، مطبعة بيكون، ١٩٦٦)، ٢٣.

(١٤) عندما أعلنت الحماية البريطانية عام ١٩١٤ جعلوا لهم ممثلين من سلالة سلاطين محمد علي باشا، بدلاً من الخديوى، لإضفاء الشرعية على الإمبراطورية العثمانية. فى وقت الحرب قبلت حكومات كل من رشدى، ويكن، وثروت هذا الاتفاق الجديد على الرغم من الانتقادات السياسية التى قد وجهت إليه فى حين قام محمد سعيد بتقديم استقالته من رئاسة الوزراء عام ١٩١٤، سلسلة من المذكرات فى عام ١٩١٧، عندما انضم أحمد فؤاد إلى العرش باعتباره سلطاناً، والتى تشير إلى أن حكومة رشدى كان المقصود منها هيمنة الحكم، والتى ينبغى أن تقتصر على وزرائه دون المساس بسلطة الحكام. انظر: Accession of Ahmad Fuad وزارة الخارجية ١٤١ / ٦٢٠ / ٥٦٠٣ / ٦ / وزارة الخارجية ١٤١ / ٦٢٠ / ٥٦٠٣ / ٢١ وزارة الخارجية ١٤١ / ٦٢٠ / ٥٦٠٣ / ٢٩. انظر أيضاً: الجريدة الرسمية، ٨٦ (١٠ أكتوبر ١٩٢٧).

(١٥) من اللبى إلى كيرزون، فبراير ١٩٢٠، وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ٤٣١٤٩٧٨ / ٩٣ / ١٦.

(١٦) وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ٦٢٩٤٦.٣٧ / ٢٦٠ / ٦١.

(١٧) وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ٧٧٤١١١.٣٩ / ٦١ / ١٦.

(١٨) طه حسين، The Days (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية، ١٩٩٧)، ٤٠٠-٤٠٢. والتى نشرت أصلاً فى الفترة ما بين ١٩٢٩-١٩٣٩.

(١٩) حورانى، Arabic Thought 171-73.

(٢٠) تشارلز د. سميث،

Islam and the Search for Social Order in Modern Egypt.

(ألبانى: مطبعة جامعة ولاية نيويورك، ١٩٨٣)، ٢٣-٢٤.

(٢١) إيوارد و. سيد، Orientalism (لندن: راندج، ١٩٧٨)، ١.

(٢٢) المرجع نفسه، ٤٠.

(٢٣) وزارة الخارجية البريطانية، ٢٦ إبريل ١٨٨٣، ملف وزارة الخارجية ٧٨ / ٣٥٦٨، اللورد بوفيرنس تيم.

(٢٤) تقرير البعثة الخاصة لمصر، فبراير ١٩٢٠، وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ٤٩٧٨٥١٦٨ / ١٦.

(٢٥) مورس أموس، The Constitutional History of Egypt. نشرة جمعية جروتوريوس ١٤ (١٩٢٩): ١٣١:٣٥.

(٢٦) اللبى إلى كيرزون، إبريل ١٩٢٠، وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ٦٢٩٥٤٩١٩ / ٢٦٠ / ١٦.

(٢٧) فى نوفمبر ١٩٢١ قام اللبى بتحذير وزارة الخارجية من أن هناك خطراً جدياً يهدد بانهيار الثورة وإدارتها الشاملة، إذا لم تقم بتقديم تنازلات للقوميين، وزارة الخارجية ٣٧١ / ٦٣.٧١٢٦٥٦ / ٢٦٠ / ١٦.

وزارة الخارجية ٣٧١ / ٦٣.٧١٢٦٦٦ / ٢٦٠ / ١٦. وقد قدم اللبى استقالته فى يناير ووافق عليها

كوزان، وزارة الخارجية ٣٧١ / ٧٧٣.٤٦٦ / ١ / ١٦ ووزارة الخارجية ٣٧١ / ٧٧٣.٤٦٧ / ١ / ١٦.

وزارة الخارجية ٣٧١ / ٧٧٣.٤٦٧ / ١ / ١٦ ووزارة الخارجية ٣٧١ / ٧٧٣١١٤٨٢ / ١ / ١٦.

(٢٨) وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ٧٧٣.١١٤٧٧ / ١ / ١٦.

(٢٩) وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ٨٩٦٣١.٣٨٣ / ١٠ / ١٦.

- (٣٠) وزارة الخارجية البريطانية ٢٧١ / ٨٩٧٣٤٥٩١ / ٢٥١ / ١٦ .
- (٣١) وزارة الخارجية البريطانية ٢٧١ / ١٠٨٨٩٣٦٢٨ / ٢٩ / ١٦ .
- (٣٢) الوقائع المصرية (١ إبريل ١٩٥٢) .
- (٣٣) جيوشوني جانكوفسكى، Egypt, Islam and the Arabs، ٢٥-٢٩ . فى دراسة تحليلية لأفكار هيكل .
انظر: سميث، الإسلام والبحث، مواضع مختلفة من النص المذكور .
- (٣٤) تشارلز دى . سميث:
- The Crisis of Orientation: The Shift of Egyptian Intellectuals to Islamic Subjects
in the 1930".
- الجريدة النولية لدراسات الشرق الأوسط .
- (٣٥) الجريدة (الوقائع) المصرية (١ إبريل ١٩٢٥) .
- (٣٦) المرجع نفسه .
- (٣٧) المرجع نفسه .
- (٣٨) المرجع نفسه .
- (٣٩) الوقائع المصرية (٢ إبريل ١٩٢٥) .
- (٤٠) استعراض للصحافة، اللنبى، ٢٠ إبريل ١٩٢٥، وزارة الخارجية البريطانية (٢٧١ / ١٠٠٨٧١١٨٢ / ٢٩ / ١٦) .
- (٤١) الوقائع المصرية (١ إبريل ١٩٢٥) .
- (٤٢) كانتورى، Organizational Basis 2 و ٧٩ .
- (٤٣) الوقائع المصرية (١٤ يناير ١٩٢٤) .
- (٤٤) غلاف، In a Moment of Enthusiasm 248 و ٢٠٠ .
- (٤٥) وزارة الخارجية ٢٧١ / ١٠٠٢٠ / ٢١٠٢ / ٢٢ / ١٦ اللنبى، ٢٩ مارس ١٩٢٤، يشير إلى توتر فى البرلمان حول قضية السودان . وخارج البرلمان قام أنصار زغلول بمهاجمة مكاتب الأخبار وجريدة الحزب الوطنى، منادين "الخائن" أمين الرافعى .
- (٤٦) من مارى إلى وانجرام، ٥ يناير ١٩٢٤، وزارة الخارجية البريطانية ٢٧١ / ١٠٠٢٠٣٥٣٢ / ٢٢ / ١٦ .
- (٤٧) من اللنبى إلى مارى، ١٢ إبريل ١٩٢٤، وزارة الخارجية البريطانية ٢٧١ / ١٠٠٢٠٣٥٣٢ / ٢٢ / ١٦ .
كشكول والتى وصفت باعتبارها أشهر جريدة شعبية مصرية، مع ضعف التداول اليومى فى أى منهم .
- (٤٨) مارجو بدران، Feminists, Islam, and Nation: Gender and the Making of Modern Egypt (برينكتون: مطبعة جامعة برينكتون، ١٩٩٥) . ٨٠-٨١ .
- (٤٩) اللنبى إلى وزارة الخارجية البريطانية ١٢ إبريل ١٩٢٤، وزارة الخارجية البريطانية ٢٧١ / ١٠٠٢٠٣٥٣٢ / ٢٢ / ١٦ .
- (٥٠) اللنبى، ١٢ إبريل ١٩٢٤، وزارة الخارجية البريطانية ٢٧١ / ١٠٠٢٠٣٥٣٤ / ٢٢ / ١٦ .

- (٥١) اللنبى، ٢٢ إبريل ١٩٢٤، وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ١٠٠٤٠٣٦٥١ / ٣٦٨ / ١٦.
- (٥٢) من الواضح أن مسئولى وزارة الخارجية كانوا يؤمنون بأن اللنبى داعٍ من دعاة سياسة الانسحاب، وعلى الرغم من ذلك تشير الأدلة إلى أن اللنبى عجز عن الدعوة علناً بشأن هذه السياسة. وبالتأكيد كان اللنبى يعتبر بعض السياسيين البريطانيين يتخذون خطأ أكثر اتفاقاً مع القوميين. انظر: مارى، أوليفان وانجرام، ٢٢ إبريل ١٩٢٤، وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٠٠٤٠٣٥٦٣ / ٣٦٨ / ١٦. بشأن أهداف مكتب الحرب لزيادة الوجود العسكرى فى وادى النيل انظر: مجلس الوزراء، ١٦ إبريل ١٩٢٤، وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٠٠٤٠٣٧٨٥ / ٣٦٨ / ١٦.
- (٥٣) جويل بينين وذاكارى لوكمان، Workers on the Nile (برينسيتون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٨٧)، ١٢٧، ١٥٧-٥٨.
- (٥٤) الأهرام (٥ يوليو ١٩٢٤).
- (٥٥) اللنبى، ١٤ يوليو ١٩٢٤، وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ١٠٠٢١٦٠٨١ / ٢٢ / ١٦.
- (٥٦) التقارير الصحفية، وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ١٠٠٢٢١١٥٢٤ / ٢٢ / ١٦.
- (٥٧) اللنبى، ٢١ يوليو ١٩٢٤، وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ١٠٠٢١٦٢٤٩ / ٢٢ / ١٦.
- (٥٨) التطورات السياسية فى مصر قبل اغتيال السير لى ستاك، وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ١٠٤٤١٠٢٠٨ / ٣٦٨ / ١٦.
- (٥٩) سيلما بوتمان، The Liberal Age, 1923-1952 فى طبعة دالى. Cambridge History 2:291.
- (٦٠) ليوييد، ١٢ مارس ١٩٢٦، وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ١١٥٨٢٦٣٧ / ٢٥ / ١٦ ووزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ١٠٨٨٧٢٣٣٧ / ٢٩ / ١٦. التقرير الأخير يدعى أن شفيق منصور، الذى أُدين فى الجريمة، كان "يصرخ فى زنازنته" بأن نشأت هو العقل المدبر للاغتيال.
- (٦١) الخطاب المؤرخ يناير ١٩٢٥، الأرشيفات الوطنية المصرية، ملفات عابدين، استعراض الأطراف، حزب الاتحاد، صندوق رقم ٢١٨ ووزارة الخارجية ٣٧١ / ١٠٨٨٧١٢٥٧ / ٢٩ / ١٦.
- (٦٢) هندرسون، ٦ ديسمبر ١٩٢٤، وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١ / ١٠٠٢٢١١٦١٤ / ٢٢ / ١٦.
- (٦٣) الأرشيفات الوطنية المصرية، ملفات عابدين، صندوق ٢١٩، "ملاحظة".
- (٦٤) الأرشيفات الوطنية المصرية، ملفات عابدين، صندوق ٢٠٧ ووزارة الخارجية (٣٧١ / ١٠٨٨٨٢٦٧٤ / ٢٩ / ١٦).
- (٦٥) ليوييد، ١٩ إبريل ١٩٢٦، وزارة الخارجية ٣٧١ / ١١٥٨٢٩٠٨ / ٢٥ / ١٦، الفتوة الصادرة ٢٨ مارس ١٩٢٦.
- (٦٦) الأرشيفات الوطنية المصرية، ملفات عابدين، صندوق ٢١٩، "ملاحظة" غير موقعة.
- (٦٧) ليوييد، ١٢ مارس ١٩٢٦، وزارة الخارجية ٣٧١ / ١١٥٨٢٦٩٣ / ٢٥ / ١٦.
- (٦٨) ليوييد، ٢٣ فبراير ١٩٢٦، وزارة الخارجية ٣٧١ / ١١٥٨٢٦٣٧ / ٢٥ / ١٦.
- (٦٩) جمال محمد أحمد، The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٠)، ١١٨.

(٧٠) ليونارد بيندر، Islamic Liberalism: A Critique of Development Ideologies.

(لندن: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٨٨)، ١٢١-٣٦.

(٧١) تقرير من الإدارة الأوروبية، وزارة الداخلية، ٢٨ سبتمبر ١٩٢٥، وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٠٨٨٨٢٨٢٥ / ١٦ / ٢٩.

(٧٢) نيفل هندرسون، ١١ سبتمبر ١٩٢٥، وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٠٨٨٧٢٦٦٤ / ١٦ / ٢٩.

(٧٣) س. س. آدم،

Islam and Modernism: A Study of the Reform Movement Inaugurated by Muhammad 'Abdo.

(لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٢٣)، ٢٦٦.

(٧٤) وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٠٨٨٨٢٨٢٥ / ١٦ / ٢٩.

(٧٥) وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٠٨٨٨٢٩٩٠ / ١٦ / ٢٩.

(٧٦) هندرسون، ٢١ سبتمبر ١٩٢٥، وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٠٨٨٨٢٧٤٨ / ١٦ / ٢٩.

(٧٧) وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٠٨٨٨٢٨٢٥ / ١٦ / ٢٩.

(٧٨) هندرسون، ١٢ سبتمبر ١٩٢٥، وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٠٨٨٨٢٧٤٦ / ١٦ / ٢٩.

(٧٩) وزارة الخارجية ٣٧١ / ١٠٨٨٨٢٩١٩ / ١٦ / ٢٩.

(٨٠) الاتحاد، ١١ نوفمبر ١٩٢٥.

(٨١) زكي فهمي، "صفوة العصر" (القاهرة: مطبعة الاعتماد، ١٩٢٦). إن زكي فهمي أعاد تفكير ابن خلدون ويقول إن حجته مصممة للرد على رسالة الدكتوراه لطف حسين ونقد عبد الرازق للخليفة. وبينما انتقد طه حسين وعبد الرازق مطالب ابن خلدون بأن التضامن العرقي والديني مقولة مفيدة للتحليل السياسي، وقد جعل زكي فهمي هذه المفاهيم أساساً لنظريته عن الملكية الإسلامية.

(٨٢) انظر أيضاً: يواف دي كاتو،

Jabarti of the 20th Century': The National Epic of Abd al-Rahman al-Rafi'i and other Egyptian Histories

المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ٦٣ (٢٠٠٤): ٤٢٩-٥٠.

٢ - إعادة تقييم سياسة مصر الخارجية خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي

فرد إتش. لوسون

ظلت سياسة مصر الخارجية فى الفترة ما بين ثورة ١٩١٩ و ثورة ١٩٥٢ غير معروفة إلى حد كبير. كما تؤكد المنح الدراسية الحالية أن الزعماء السياسيين فى القاهرة فى فترة ما قبل توقيع معاهدة التحالف البريطانى المصرى فى أغسطس ١٩٣٦^(١) لم يولوا أى اهتمام للعلاقات الدبلوماسية والاستراتيجية مع الدول المحيطة بها. وكانت الحالة الاستثنائية الوحيدة لهذه القاعدة العامة هى المتعلقة بالنزاع المتصاعد بين الحركة الصهيونية والسكان العرب فى فلسطين.

وعندما أشرف عام ١٩٢٠ على نهايته، أظهر المسئولون المصريون اهتماماً متزايداً بالتطورات فى فلسطين^(٢)، إضافة إلى ذلك، أخذوا على عاتقهم مهمة لعب دور أكثر حيوية أثناء الجدل الذى أثير خلال المؤتمر الإسلامى العام المنعقد فى القدس^(٣). إلا أن هذا الاهتمام والنشاط الموجه للشئون الخارجية بدا مثيراً للارتباك.

وبشكل أكثر نمطية ومن وجهة نظر تقليدية ظهرت سلبية السلطات المصرية حين قامت فصائل من الجيش العثمانى بإحكام قبضتها على الميناء الاستراتيجى بطابا فى أوائل عام ١٩٠٦^(٤). وفى هذا السياق أيضاً رفض المسئولون المصريون تماماً التدخل فى الحرب التى اندلعت بين السلطان عبد العزيز آل سعود وجيرانه من الشمال والغرب والتي استمرت طيلة فترة العشرينيات^(٥). كما ظلت الحكومة المصرية متكئة وممتنعة

عن التصريح بأى نقد ضد الإجراءات الوحشية التى اتخذها الفرنسيون فى سبيل إخماد ثورة ١٩٢٥ فى سوريا^(٦). وقد تم تبرير تفشى سلبية الحكومة المصرية فى المواقف السابقة بأنه مؤشر لامتناع الحكم الملكى عن الانخراط فى العلاقات الخارجية بدرجة تتناسب مع قوة ومكانة مصر فى العالم العربى، هذا الضعف الذى تم التغلب عليه بشكل سريع من خلال دور القيادة الجديدة بعد عام ١٩٥٢.

وقد تجاهل هذا الرأى السائد بالنسبة للدبلوماسية المصرية عدداً من الفرص التى أتاحت أثناء العقدين التاليين لعام ١٩١٩ والذين قامت الحكومة خلالهما بنشاط ضخم فيما يتعلق بالشئون الإقليمية، فعلى سبيل المثال، فى شتاء عامى ١٩٣١، ١٩٣٢ وجهت القاهرة احتجاجاً شديداً ضد الاقتراح التركى باعتبار الخديوى السابق عباس مرشحاً لمنصب ملك سوريا. فقد أشار انمار رابينوفيتش إلى أن الملك فؤاد صرح باستنكاره الواضح لهذا الاقتراح مما ولد احتقاناً فى العلاقات بين مصر وتركيا وتحول بعد ذلك إلى تبادل رسائل غاضبة بين الطرفين فى أوائل عام ١٩٣٢^(٧). وبعد ستة أعوام قام المسئولون المصريون بتسديد ضربة قوية لسوريا حين انحازوا إلى الأمير عبد المنعم المرشح لهذا المنصب. وقد عبر رابينوفيتش عن رأيه فى هذا الموقف بقوله "إن هذا الاقتراح لم يكن حادثة منفردة ولكنه جزء من سياسة عربية جديدة ذات حيوية أكبر أطلقها الملك الشاب فاروق تحت إشراف على ماهر وعبد الرحمن عزام". ونتيجة لهذه السياسة أصبحت مصر شريكاً شقيقاً ونشطاً فى النظام الجديد للعلاقات بين الدول العربية. إضافة إلى إعطائها مزيداً من الاهتمام لما يتعلق بالسياسة السورية^(٨).

ومما كان أكثر إثارة للفضول - حسب ما يشير إيلى بوديه - هو أن الملك فاروق فى أوائل عام ١٩٢٩ أطلق حملة لتحسين العلاقات مع الإمام يحيى، إمام اليمن، الذى رحب بهذه المبادرة وطرح على الفور فكرة إبرام معاهدة صداقة رسمية مع مصر على غرار اتفاقية الصداقة الإيطالية اليمنية عام ١٩٢٦^(٩). وفى منتصف شهر يوليو حضر إلى مصر وفد مكون من خمسة أفراد من وجهاء اليمن لوضع اللمسات الأخيرة للاتفاقية^(١٠).

توحى مثل هذه الأحداث بأن السياسة الخارجية المصرية خلال العشرينيات والثلاثينيات كان بإمكانها فى بعض الأوقات أن تكون إيجابية بشكل أكبر مما يبدو عادة. ولكن السؤال هو لماذا اتخذت مصر موقفاً إيجابياً فى بعض الأحيان بينما فى أحيان أخرى كان موقفها أكثر سلبية؟ يلقي الضوء على هذا اللغز مثالان مختلفان لشئون مصر الخارجية فى الأعوام السابقة لعام ١٩٣٦: ففى عام ١٩٢٤ و ١٩٢٥ كانت مقاومة القاهرة راسخة أمام المحاولات الإيطالية لإعادة رسم حدود مصر مع ليبيا التى تمر حول واحة الجغبوب، ثم إحجامها عن التورط فى الوساطة بين السعودية واليمن أثناء أزمة عسير ١٩٢٣-١٩٢٤ وسعيها إلى الإصلاح بينهما حيث توضح كلتا الحالتين - إذا ما أخذنا بالحكمة التقليدية - تبايناً حاداً فى موقف الحكومة المصرية السابق تجاه القضية المطروحة. علاوة على ذلك فإن كلا منهما يوضح الديناميكية المعقدة والحسابات الاستراتيجية التى ميزت سياسة مصر الخارجية فى ذروة النظام الملكى.

وسوف يبرز هذا الفصل أهم جوانب هذه السلسلة من الأحداث المختلفة، ثم يعرض شرحاً وافياً للسياسة المصرية فى الحالتين من زاوية الصراع بين لاعبين أقوياء للسيطرة على الساحة الداخلية. وفى النهاية سوف يقترح تفسيرين لهذا التحليل حتى يتسنى لنا تكوين رؤية شاملة لعلاقات مصر الخارجية خلال عهد الحكم الملكى وهى فترة من الإهمال امتدت من بداية سلسلة المفاوضات التى صاحبت نهاية الحرب العالمية الأولى إلى أن هبت بواورها خلال الحرب العالمية الثانية لتنتهى بتأسيس جامعة الدول العربية^(١١).

الدفاع عن واحة الجغبوب عامى ١٩٢٤/١٩٢٥

تقع واحة الجغبوب على بعد ١٠٠ ميل جنوباً غرب السلوم على ساحل البحر المتوسط. وقد اشتهرت هذه الواحة فى بداية القرن العشرين بوجود ضريح سيد محمد بن على السنوسى وهو مؤسس أخوية السنوسية ذات النفوذ الكبير. وفى غضون غزو ليبيا كان لقادة الجيش الإيطالى نفوذ كبير على منطقة برقة بأكملها حتى خط طول

سبع وعشرين درجة شرقاً. وقد اعترض على ذلك المسؤولون البريطانيون فى القاهرة قائلين إن ميناء السلوم الاستراتيجى يقع ضمن نطاق الأراضى المصرية، وعلى الفور تم إرسال سرية عسكرية من الجنود لتحسين البلدة. وقد أعلن البريطانيون للسلطات الإيطالية أن الجغبوب هى الأخرى تقع داخل حدود مصر. ومع ذلك وبعد مرور أربع أعوام، ووفقاً لمعاهدة إبريل عام ١٩١٥ تحالفت إيطاليا مع كل من مملكة بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا فى حرب ضد ألمانيا والنمسا والمجر والإمبراطورية العثمانية واشترطت لندن أنه إذا انتقلت ملكية الأراضى الألمانية المهمة نتيجة للحرب فإن بإمكان روما أن تطالب بتعويض عادل، ولا سيما فيما يتعلق بالمستعمرات المرتبطة بمصالح مع حدود المستعمرات الإيطالية مثل إريتريا والصومال وليبيا بالإضافة إلى المستعمرات المجاورة التابعة لفرنسا وبريطانيا العظمى^(١٢). وقد تم التأكيد على هذا الاتفاق فى يوليو عام ١٩١٦ حين أشار ممثلو بريطانيا مرة أخرى إلى تأجيل الفصل النهائى فى النزاع الدائر بين مصر وبرقة حول الحدود الإقليمية بينهما إلى ما بعد الحرب.

أثناء مؤتمر باريس عام ١٩١٩ اقترح اللورد ميلنر أن تنتقل ملكية واحة الجغبوب إلى إيطاليا فى مقابل أن تتعهد روما من جانبها بالاعتراف بالسيادة المصرية على السلوم، فردت الحكومة الإيطالية على ذلك بالموافقة على الاعتراف بحق مصر فى حكم السلوم إذا أدخلت الجغبوب ضمن الأراضى الإيطالية^(١٣). وأشارت وزارة الخارجية البريطانية إلى استعدادها للمضى قدماً وأدرجت هذه الصفقة فى مشروع المعاهدة الذى قدم إلى وزير الخارجية الإيطالى الكونت فيتوريو فى إبريل عام ١٩٢١. ولم يتم اطلاع المسؤولين المصريين على شروط المعاهدة إلا بعد شهرين، ومن ثم امتنعوا عن الإدلاء بأى تعليق علنى بصدد اقتراح تبادل الأراضى. ومن ناحية أخرى لم تقدم روما أى رد بخصوص مشروع الاتفاقية حتى شهر إبريل عام ١٩٢٢، فى الوقت الذى كانت لندن قد منحت فيه مصر الاستقلال الرسمى بالفعل. وبالتالي رفض المسؤولون البريطانيون قبول معارضة الجانب الإيطالى على الاتفاقية وذلك على أساس أن مسألة إعادة رسم الحدود ما هى إلا قضية تقع مسئولية حلها على عاتق السلطات فى القاهرة وروما.

أثناء ربيع عام ١٩٢٤ ركزت الاضطرابات الشعبية العنيفة التي وقعت في برقة الاهتمام على الجغبوب. واتهم قادة الجيش الإيطالي القبائل البدوية المتمركزة في واحة الجغبوب بأنها منظمة للمقاومة الشعبية ضد الحكم الإيطالي. فضلاً عن قيامها بتهريب كميات كبيرة من الأسلحة عبر الحدود لدعم قضية المتمردين. ووقعت سلسلة من المناوشات المسلحة في شرق برقة أثناء شهري يونيو ويوليو مما جذب الزحف الإيطالي والدفاع الجوي إلى مناطق متاخمة للواحة. ومن ثم قام الضباط المسؤولون عن وحدات حراسة الحدود بتسوية مؤقتة مع الإيطاليين، تسمح لهم بالتوغل المحدود داخل الأراضي المصرية في مقابل مشاركة القوات الإيطالية في المطاردة العنيفة للبدو المسلحين^(١٤). وفي غضون ذلك أقنع السفير الإيطالي بباريس رئيس الوزراء المصري سعد زغلول خلال زيارته العلاجية الأخيرة في أوروبا في الصيف بإعادة النظر في مسألة رسم حدود دائمة، لكن حكومة سعد زغلول انهارت قبل اتخاذ أي خطوة حاسمة في مسألة الحدود. وقبل نهاية الشهر أعرب وزير المستعمرات الإيطالية عن قلقه من أن يتم التعامل مع المسألة بدون ترو. ومع ذلك لم يتم استئناف المحادثات بين الحكومتين حتى فبراير ١٩٢٥، وذلك في سياق التصاعد الحاد للعمليات العسكرية الإيطالية في الصحراء الجنوبية بالسلوم^(١٥). وخلال هذه العمليات تواترت أنباء أن القوات الإيطالية اتخذت مواقع داخل الأراضي المصرية، وعلى وجه الخصوص في "منطقة الشقا".

في ٢٠ فبراير تقدم السفير الإيطالي بطلب رسمي لكي تتنازل مصر عن الجغبوب، مما أدى إلى انعقاد سلسلة من الاجتماعات الطارئة المنفصلة لمجلس الوزراء في حضور رئيس الوزراء أحمد زيوار باشا^(١٦). وقد خرج رئيس الوزراء عقب هذه الاجتماعات ليعلن أنه لم يتم الوصول هذه المرة إلى تسويات نهائية فيما يتعلق بمسألة الحدود، وذلك بسبب الانتخابات البرلمانية المقبلة وظروف البلاد غير المستقرة بشكل عام على المستويين الداخلي والخارجي. كما أوصى قائلاً إنه على الجانبين - بدلاً من ذلك - القيام برسم حدود مؤقتة تفصل بين مصر وطرابلس في انتظار الوصول إلى تسوية نهائية للمسألة وفقاً لما جاء في فاتحة ما يطلق عليه اتفاقية ميلنر - سيلوجا (إبريل ١٩٢١)^(١٧). وقد ثارت الصحف المصرية متسائلة حول ما حصلوا عليه بالمقابل من الجانب الإيطالي، ونشرت المقالات والمناشيطات العريضة التي تعلن الرفض الشديد

لأى محاولة لإعادة رسم الحدود، كما انتشرت الشائعات فى القاهرة بأن الاحتلال الفعلى للواحة تم من قبل القوات الإيطالية^(١٨)، ونتج عن ذلك احتجاج عنيف من الرأى العام مما دفع وزارة الخارجية فى روما إلى إصدار بيان ينفى أنها اقترحت أى شىء آخر بخلاف استئناف المفاوضات المتعلقة بعمل تخطيط نهائى للحدود^(١٩).

مع بداية شهر مارس بدأت الصحافة المصرية تطالب الحكومة بإرسال قوات التدخل السريع لحماية الجغبوب. كما أفادت التقارير - على نحو موسع - بأن سكان الواحة يطالبون السلطات المصرية بشكل ملح بسرعة إنشاء مواقع عسكرية داخل الواحة، ولكن لم تستمع السلطات لأى من هذه الاستغاثات^(٢٠). وأثناء ذلك نشرت جريدة الأهرام أن البدو المحليين هاجموا المواقع العسكرية المصرية فى السلوم، وطالبت بسرعة نشر فرق عسكرية جديدة فى المنطقة^(٢١). وقد صاحبت هذه التحركات تصاعد الضغط الإيطالى للوصول إلى قرار ينهى هذا النزاع. ورداً على ذلك عين مجلس الوزراء المصرى لجنة خاصة للتحقيق فى هذه المشكلة. وقد أفادت التقارير أن أعضاء اللجنة يستعدون للتوجه نحو الجغبوب "من أجل زيارة جميع قادة المنطقة لاستطلاع رأيهم فيما يتعلق بمستقبل الواحة". وقد انتقدت صحيفة حزب الوفد "البلاغ"^(٢٢) هذه الخطة بشدة وهاجمت حكومة زيوار واتهمتها بأنها تسير فى طريق تحفه المخاطر. وتساءلت الجريدة ما هى جدوى استشارة أهل الواحة بشأن مصير المنطقة؟ فهذا التشاور لا محل له إلا إذا اعترفنا بأن الحكومة الحالية ليس لديها إجابة قاطعة بشأن هذا السؤال^(٢٣). وقد أضافت صحيفة كوكب الشرق - صحيفة حزب الوفد اليومية ما بين ١٩٢٠-١٩٣٠ - للمحرر أحمد حافظ عواد أنه إذا قبلت الحكومة مبدأ التنازل عن الواحة لإيطاليا فسوف يكون ذلك انحيازاً ضد المجاهدين الذين طالما كافحوا ضد السلطة الاستبدادية فى برقة. وبهذه الطريقة ستكون مصر قد ساعدت فى إخضاع هؤلاء المقاتلين الشجعان لتخرج بذلك عن دورها الحيادى الذى ظلت تلعبه منذ بدأ القتال بين الجانبين الطرابلسى والإيطالى^(٢٤). وقد أدت هذه التقارير إلى قيام وكيل وزارة الداخلية، السيد جمال الدين باشا، باستدعاء مجموعة من الصحفيين البارزين وتوجيه اللوم لهم قائلاً: "لا تفعلوا شيئاً يزيد من صعوبة الموقف"^(٢٥).

وعلى العكس من ذلك كان الشعور العام فى لندن متحيزاً للموقف الإيطالى، فقد أعربت الصحف المؤثرة عن أملها فى أن تمضى المفاوضات بين مصر وإيطاليا قدماً بانتظام وبشكل ودى، وأن تسود وجهة نظر روما فى نهاية المطاف. وقد تبادلت جريدة ديلى ميل حين أكدت أن مصر لم تمتلك أبداً واحة الجغبوب، فالواحة لم تكن سوى أرض بلا مالك احتلها بوضع اليد بعض السنوسية^(٢٦). كما أشارت صحف أكثر اعتدالاً إلى أن مصر كانت تحاول التنصل من النقاط التى تم التوصل لها أثناء المداولات بشأن واحة الجغبوب وفى نفس الوقت تطالب بدعم بريطانيا فى هذا الصراع. وبالتالى تكون مصر هى الفائزة فى كلتا الحالتين، إلا أن إنجلترا ليست على استعداد لأن تكون مقلب القط فى هذا الصراع^(٢٧). وقد شرح المسئولون الإنجليز بالتفصيل للمراسل الإنجليزى لجريدة الأهرام أن مصر لم تبد أى اهتمام حقيقى بواحة الجغبوب، وأن بإمكانها الاستفادة فقط إذا ما تبادلت السيطرة على الواحة للحصول على "حق واضح فى أن يكون لها منفذ على ساحل البحر فى منطقة السلوم". واستطردوا فى القول إنه "رغم عدم وجود أية اعتراضات من جانب الحكومة البريطانية على حصول الحكومة المصرية على حق تنفيذ بعض التغييرات فى الحدود لصالحها من خلال المفاوضات، فإنها ترى أن الحدود المقترحة من قبل اتفاقية ميلنر - سيالوجا هى العنصر الوحيد القائم الذى سيتم الاتفاق عليه فى نهاية المطاف، فضلاً عن أنها رأت أن الحكومة المصرية لا يجب أن تواجه مشكلة فى عرض مثل هذا الأمر أمام الشعب المصرى لكى تمكنه من إدراك الفوائد الملموسة الناجمة عن هذه التسوية^(٢٨)".

رفض القوميون المصريون منطق وجهة النظر البريطانية رفضاً تاماً، وحين نشر فى نهاية شهر إبريل ١٩٢٥ أن الوحدات العسكرية المصرية التى أمرت بالانسحاب من السودان سوف تتمركز فى العريش، انطلقت الصيحات تطالب بنشر هذه الفرق على الحدود الغربية المهددة^(٢٩). وانتهت كل من صحيفتى البلاغ وكوكب الشرق إلى أن لندن كانت تتعامل مع القضية وهى واضحة نصب أعينها مصالحها الاستراتيجية الشخصية التى تختلف عن مصالح مصر الاستراتيجية^(٣٠). وقد تأكد هذا الرأى حين أعلن عن النتائج التى توصلت إليها اللجنة الخاصة بشأن مسألة الحدود فى أوائل مايو ١٩٢٥.

حيث توصلت اللجنة إلى أن واحة الجغبوب لا غنى عنها بالنسبة لمصر من الناحية الاستراتيجية؛ فالأراضي الواقعة في هذه المنطقة الساحلية والمقرر إعطاؤها لمصر لا تمثل قيمة كبيرة تذكر لتلك البلد لأجل أغراضها العسكرية^(٣١). وقد أدت هذه النتائج إلى تفاقم الأزمات التي تواجه حكومة زيوار التي وجدت نفسها بين كفى الرحى: فمن ناحية الإصرار الشعبى المتزايد على الإبقاء على الواحة ومن ناحية أخرى الضغط البريطانى القوى فى سبيل إرضاء روما. وبالماطلة ومن أجل كسب المزيد من الوقت، طلب مجلس الوزراء من اللجنة أن تقوم بالمزيد من التوضيحات بشأن عدد من النقاط التى تناولها التقرير^(٣٢).

وفى مواجهة تردد القاهرة الظاهر، والإشارات التشجيعية التى تدعم بها لندن حكومته، صرح بنيتو موسيليني فى ٢١ مايو أن الجغبوب تنتمى إلى الأراضي الإيطالية عن استحقاق^(٣٣). وفى المقابل لهذا القول أعلنت وزارة الخارجية المصرية أن مصر على استعداد للدخول معها فى مفاوضات حول هذه القضية، بشرط أن تكون تلك المفاوضات دون أى قيود وتعرض نتائجها على البرلمان المصرى^(٣٤). وحين أدت هذه المبادرة إلى إصدار تصريح قاطع بأحقية إيطاليا فى ملكية الأرض المتنازع عليها، ورد وزير المستعمرات على دعوة مصر لإجراء مفاوضات بأن "أحقية إيطاليا فى ملكية الجغبوب لا تقبل الجدل" وجهت الصحف المصرية نقداً لاذعاً لانحياز بريطانيا لرغبة إيطاليا، وكان رد المسئولين البريطانيين ترديد الأهمية الاستراتيجية للسلوم والتحقيق من أهمية واحة الجغبوب الضئيلة المختبئة فى صحرائها البعيدة. وفى الحالتين لم يكن هناك شك فى أى من المنطقتين تتركز الأهمية - فعلى حد قول واحد من المخططين العسكريين "فى هذه الأيام التى تسود فيها المواصلات الميكانيكية فإن الذى سيضع يده على منطقة السلوم سوف يسيطر على سيوة التى تعيق الدخول إلى مصر عن طريق سلسلة من الواحات الجنوبية"^(٣٥).

أعربت بريطانيا عن تفضيلها الوصول إلى تسوية تقتضى بأن تتخلى مصر عن سيطرتها على الجغبوب، وبذلك أضعفت موقف مصر فى مواجهة روما. وفى الوقت نفسه كان اقتراب موعد الانتخابات البرلمانية قد جعل من المستحيل أن تركز حكومة

زيوار - التى لا تحظى بشعبية كافية - على المفاوضات مع إيطاليا. ونتيجة لذلك قدم مسئولون فى وزارة الخارجية المصرية اقتراحاً عبقرياً، وهو أن تقام منطقة حرة على طول الحدود المصرية الليبية ويتعهد الطرفان بعدم الدخول فيها^(٣٦). إلا أن هذا الاقتراح لم يلق استحساناً من الإيطاليين، وهكذا استمر النزاع خلال فصل الصيف.

بحلول منتصف شهر أغسطس سافر إسماعيل صدقى - وزير الداخلية المصرى اللامع - فى زيارة إلى روما، فى محاولة لاستئناف المحادثات بين البلدين. والتقى صدقى بموسيليني شخصياً وشرح كل منهما موقف حكومته فيما يتعلق بهذه المسألة^(٣٧). وفى ختام الجلسة أصدر صدقى بياناً صحفياً أعلن فيه أنه سيتم تشكيل لجنة ترسم الحدود المصرية الإيطالية المشتركة فى شهر أكتوبر بهدف التعامل مع مشكلة الحدود. وعند اجتماع اللجنة طرح الوفد المصرى ثلاثة مقترحات: أن ترسم الحدود على بعد سبعة أميال غرب الجغبوب، وأن تحدد مواقع معينة داخل الواحة كمناطق مفتوحة يسمح للمسلمين فى مصر وليبيا بدخولها ولكن يحرم على الإيطاليين دخولها، وأن تتحمل إيطاليا المسئولية الكاملة فى الحفاظ على الأمن على طول الحدود. وافق ممثلو إيطاليا فى هذه اللجنة على البند الثانى والثالث ولكن على مضمّن بينما رفضوا البند الأول رفضاً تاماً.

فى أواخر شهر نوفمبر زادت الاضطرابات الشعبية نتيجة الانتخابات البرلمانية المصرية، مما دفع المفوض السامى البريطانى فى القاهرة، السير جورج لويد، إلى القيام بزيارة رسمية للملك فؤاد وتحذيره بأنه سيتحمل شخصياً مسئولية فشل المفاوضات^(٣٨). وعلى الفور أمر الملك رئيس الوزراء زيوار بأن يعيد صدقى إلى وزارة الداخلية، وأن يعجل من سير المفاوضات مع إيطاليا ليصل بها إلى قرار نهائى، ولم يضيع زيوار أى وقت فى تنفيذ أوامر الملك. وهكذا، ووفقاً لشروط البروتوكول الموقع فى السادس من أكتوبر عام ١٩٢٥ اعترفت مصر بسيادة إيطاليا على واحة الجغبوب، وفى المقابل حصلت مصر على حق السيطرة الكاملة على قطاع ذى موقع استراتيجى - وهى الأراضى شمال غرب السلوم وأعفت قوافل البدو من دفع الرسوم الجمركية

التي تفرضها أى من الدولتين. كما أصبحت حرية زيارة ضريح سيد محمد مكفولة لجميع المسلمين. أما بالنسبة للمسألة المعقدة المتعلقة بمنح الجنسية للبدو الرحل الذين يترددون على الواحة، فقد تركت لمزيد من المداولات من جانب لجنة ترسيم الحدود المشتركة^(٣٩).

كرد فعل لهذا الاتفاق أدلى القوميون المصريون بخطب شديدة اللهجة فى البرلمان، وكذلك فى مقالات نشرت فى الصحف، وأكدت جريدة البلاغ على أن واحة الجغبوب ما هى إلا جزء لا يتجزأ من مصر مثل محافظتى الإسكندرية والقاهرة. وأدانت جريدة كوكب الشرق هذا الاتفاق لأنه عار على مصر أمام العالم الإسلامى^(٤٠). وفى الأيام التى تلت الاتفاق مباشرة قام الطلاب فى عدد من المدارس الثانوية المرموقة فى العاصمة كذلك طلاب الجامعة من كلية الآداب بإظهار احتجاجهم فى شوارع العاصمة. وقد أقنع حجم المقاومة الشعبية مجلس الوزراء بعدم التصديق على البروتوكول قبل البرلمان. وفى الوقت نفسه اعتمدت حكومة زيوار قانوناً انتخابياً منقحاً يهدف إلى إضعاف حزب الوفد وتقوية الأحزاب المنافسة، مثل الأحرار الدستوريين، والاتحاديين الذين تتفق برامجهم الانتخابية مع مصالح القصر^(٤١). وسرعان ما غطت صرخات الجماهير ضد لوائح التصويت على استياء القوميين لفقدان واحة الجغبوب.

فى نهاية الأمر غادر ألفا جندى إيطالى الواحة فى أوائل شهر فبراير. وفى حين تحرك طابور من السيارات نحو الجنوب، ألقت الطائرات العسكرية الإيطالية فوق منطقة الجغبوب منشورات تعهدت فيها باحترام جميع الأماكن المقدسة^(٤٢). ولم تواجه هذه الحملة الضخمة أى مقاومة على طول الطريق، فقد وصلت إلى واحة المصلى المجاورة بعد خمسة أيام فقط. وهنا قام شيوخ العشائر بتقديم أنفسهم لقائد الحملة وتعهدوا هم وأتباعهم بالولاء له. وفى صبيحة اليوم التالى الموافق ٧ فبراير، سار الجنود الإيطاليون داخل الجغبوب نفسها حيث استقبلهم وفد من الأعيان المحليين الذين أعلنوا بشكل رسمى ولاءهم للسلطات فى روما، وانتهت الاحتفالات برفع العلم الوطنى لإيطاليا فى الواحة.

انتهز عبد الرحمن عزام أهمية هذا التوقيت وكتب تعليقاً بجريدة الأهرام قال فيه: "مع اختفاء الجغبوب من خريطة مصر انتهى السلام والأمن من مصر. الآن أصبح علينا الاعتماد على المساعدة^(٤٣) البريطانية أكثر من أى وقت مضى". وانتهى الأمر بأن أصبحت وزارة أحمد زيوار باشا وحلفاؤها السياسيون فى الأحزاب فى موقف مشين، وأضعف من أى وقت مضى فيما يتعلق بالإدارة البريطانية والقصر.

عدم وضع جزيرة العرب فى الاعتبار ١٩٣٣-٣٤

خلال صيف عام ١٩٣١ ومرة أخرى فى نوفمبر عام ١٩٣٢ كان التسابق بين أتباع الملك عبد العزيز آل سعود فى نجد والحجاز، والقوات الموالية للإمام الزيدى يحيى حميد الدين فى اليمن من أجل السيطرة على المناطق الجنوبية المتاخمة لعسير قد تحولت إلى مناوشات مسلحة. وفى كلتا الحالتين أسفرت المفاوضات المباشرة بين الطرفين عن بعض الاتفاقيات المؤقتة التى لم توقف فقط القتال الدائر بل أثارت أيضاً احتمال سلام مستقبلى بين دولهم^(٤٤)، إلا أنه فى مايو ١٩٣٣ اجتاحت قوات الزيدى مناطق استراتيجية مهمة فى شمال غرب نجران على مقربة من مرتفعات عسير التى كانت قد ثارت ضد السيطرة السعودية. وحين رفض الإمام يحيى إصدار أمر بسحب هذه القوات عبأ الملك عبد العزيز القوات والإمدادات ونقلها شمال عسير^(٤٥). وفى نوفمبر اتخذ عدد كبير من القوات السعودية مواقع لها فى شرقى نجران وعلى طول ساحل تهامة.

فى فبراير ١٩٣٤ انهارت محاولة أخيرة لحل الأزمة من خلال محادثات ثنائية، وفى ٢٠-٢١ مارس بدأت القوات السعودية هجوماً من شقين تستهدف به جنوب عسير وشمال نجران وعزل هذه المناطق عن معقل الإمام فى الجبال المحيطة بصعدة وصنعاء^(٤٦). وفى نهاية الخطبة التى ألقاها الملك عبد العزيز فى مكة المكرمة والتى حددت بوضوح أسباب الهجوم، قال الملك:

"أكثر من عشرة أشهر انقضت خلال فترة تفاوضنا مع يحيى حول نقاط الخلاف. وقد انتشر في العالم بأكمله خبر عدم وصولنا إلى اتفاق. إلا أنه لم يصدر عن المسلمين أى تحرك فيما يتعلق بهذا الأمر. سواء من جانب ملوكهم أو أمرائهم أو الأحزاب السياسية. ولم يتدخل أحد في سبيل الصلح بين الطرفين أو بغرض دراسة نقط الخلاف بيننا وبين الإمام يحيى لمعرفة من كان كاذباً ومن كان صادقاً. لم نتلق سوى برقيات التمنيات الطيبة التى لا تجلب أى نتائج مادية. فى حين أنه عندما وقعت الحادثة النمساوية تدخلت بعض القوى العظمى على الفور، وقامت بكل ما فى وسعها لتجنب كارثة الحرب، أما المسلمون والعرب فقد وقفوا موقف المتفرج واقتصرت أفعالهم على مجرد رغبات"^(٤٧).

وفى نفس الوقت تقريباً الذى كان الحاكم السعودى يشجب ما بدا من عدم القلق أو الاهتمام إزاء القتال بين المسلمين، قرر الاتحاد العربى فى القاهرة عقد جلسة علنية لمناقشة التدابير التى يمكن اتخاذها لنزع فتيل هذا الصراع^(٤٨). وكان الاجتماع المقرر عقده قد تحدد فى منتصف مارس، ولكنه أُلغى نتيجة للأخبار التى جاءت بأن ممثلى السعودية واليمن كانا مجتمعين للتشاور فى أبها. إلا أن انهيار المحادثات الثانوية أذكت القلق بين أعضاء الاتحاد، الذى أوصى بتشكيل لجنتين منفصلتين للتحقيق فى أسباب الحرب والسبل الممكنة للرد. ومن بين الأسماء التى اقترحت أن تكون ضمن أعضاء اللجان الثنائية كان اسم محمد على علوبة باشا الذى كان قد استقال للتو من حزب الأحرار الدستوريين، والشيخ محمد مصطفى المراغى الذى كان قد حاول التوسط بين القاهرة والرياض خلال العشرينيات بخصوص المنازعات الخاصة بالقوافل المصرية التى تذهب للحج فى مكة، وأيضاً عبد الرحمن عزام باشا وكان واحداً من أكثر المناصرين لفكرة التعاون بين البلدان العربية.

بعد قيام المحامى البارز مرتضى عثمان باشا بإخطار المجتمعين أنهم "ليس لديهم الحق القانونى لمناقشة هذا الموضوع من الناحية القانونية، حيث إنه لم يعرف بعد أى من الملوك كان مسئولاً عن الخلاف القائم،" قرر الاتحاد كتابة برقيات إلى الحاكمين،

مقترحاً إحالة نقاط الخلاف إلى لجنة تحكيم، على غرار محكمة لاهاي، على أن يتم اختيار أعضاء لجنة التحكيم من بين ملوك المسلمين". وبعد نقاش مستفيض تمت الموافقة على بيان أقل دقة مفاده: "إن الاجتماع يعرب عن سخطه في أن تقع حرب بين اثنتين من مجموعتين مسلمتين، خاصة في الأشهر الحرم، وهو ما يتعارض مع وصايا الله ورسوله، وهي حرب سوف يقتل فيها المسلمون بعضهم بعضاً بينما هم إخوة يعتقدون في كتاب الله. ويطالب الاجتماع الملكين بتقوى الله في أنفسهم وفي المسلمين لتجنب إراقة الدماء، وأن يقبلوا حكم الله فيما يتعلق بالتحكيم"^(٤٩). ثم تكون وفد من ثمانية أشخاص لتسليم الوثيقة إلى الحكومتين السعودية واليمنية. وأجاب السكرتير الخاص بالملك على الفور: "لقد تحلى جلالة الملك بالصبر لمدة عشرة أشهر بذل خلالها المساعي للحفاظ على السلام، ولكن الإمام يحيى استمر في عدوانه. ولم تقع أية وساطة من المسلمين لتحقيق المصالحة بين الجانبين. وبما أن جلالتهم قد لجأ إلى كل الوسائل السلمية ولكن دون جدوى، فليس أمامه إلا الدفاع عن البلاد ومنع أي عدوان عليه"^(٥٠). إلا أن إجابة الإمام كانت توحى أكثر بالأمل، فقد أوصى بأن يعين الاتحاد ممثلاً لمرافقة الوفد اليمنى إلى مكة لمناقشة الموقف. وفي الحال تم تعيين الدكتور عبد الحميد سعيد لتلك المهمة^(٥١)، إلا أن مهمته أحبطت عندما نفت السلطات السعودية وجود ذلك الوفد^(٥٢).

في الثالث من إبريل بعث مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد، ببرقيات إلى الحاكمين وحثهما باسم "الشعب المصري بشكل خاص والمسلمين بشكل عام" لبذل كل ما في وسعهما "لتجنب إراقة دماء المسلمين وتجنب الحرب بين بلدين مسلمتين متجاورتين"^(٥٣). وقام الملك عبد العزيز آل سعود بشكر النحاس على رسالته، ولكنه كرر التأكيد على أن اليمنيين قد استخدموا القوة وأن من واجبه الدفاع عن "موقف بلاده"^(٥٤)، ورد الإمام بدفاع مذهب ولكن بلا تنازلات دفاعية عن أفعاله.

وفي غضون ذلك بدأ المؤتمر الإسلامي العام في القدس اتخاذ الخطوات اللازمة للتدخل في النزاع؛ فقام السيد محمد أمين الحسيني بإرسال برقية إلى الأمير عمر طوسون، وطلب منه الاتصال بحكام السعودية واليمن^(٥٥). وفي بداية إبريل عينت اللجنة

التنفيذية للمؤتمر وفداً للسلام للتوسط بين المتنازعين^(٥٦)، وكان الفريق يتألف من أربعة أشخاص هم الحسيني، ومحمد علوبة، والأمير شكيب أرسلان وهاشم الأتاسي. ووصل الفريق إلى مكة في الرابع عشر من إبريل. وقد رحب الملك عبد العزيز به ولم يكتف بالترحيب بنواياهم الطيبة بل سمح لهم أيضاً باستخدام خطوط التلغراف الحكومية من أجل الاتصال بالإمام. وقد سهل تبادل البرقيات تحت رعاية الوفد حدوث تنازلات من كلا الجانبين، مما أدى إلى عمل مسودة مشروع معاهدة سلام. وتم الإعلان عن الوثيقة في الثاني عشر من مايو، الأمر الذي مهد الطريق لقيام الحاكم السعودي بعمل نائب احتفالية ضخمة في الطائف في الثاني عشر والثالث عشر من الشهر حيث استمرت المفاوضات المغلقة بشأن الشروط المحددة للاتفاق التي بدأت في الخامس عشر من مايو.

إلا أن المشاحنات بين ممثلي السعودية واليمن حول قضية التعويضات مدت في أجل المحادثات لأكثر من أسبوع^(٥٧). ومع مرور الأيام أخذت هواجس الملك عبد العزيز تزداد، وفي ٢٢ مايو أمر قاداته باتخاذ خطوات لاستئناف العمليات العسكرية إذا لم يعد الإمام بتنفيذ بنود مشروع المعاهدة وذلك بحلول الرابع والعشرين^(٥٨). وفي ذلك اليوم كانت هناك تقارير تفيد بأن الحاكم اليمني قد أعطى أوامر لضباطه للاستعداد لاستئناف الأعمال العدائية مما أثار سخط العاهل السعودي، وقال لمراسل خاص لجريدة "الجهاد": "هذه المرة لن أوقف المسيرة نحو صنعاء، ولن أغمد السيف: إما النصر مع إرادة الله أو الهزيمة لا قدر الله. ويعرض الأمر بعد ذلك على العالم الإسلامي لإعطاء الحكم النهائي، ولا أحد يستطيع أن يتهمني بعدم استخدام الحكمة والصبر والتسامح والتساهل والصراحة في تسوية الخلافات بيني وبين الإمام يحيى"^(٥٩). ومع ذلك لم يقدم الإمام أي رد مباشر. وبدلاً من ذلك اقترح أن يتم تعيين لجنة خاصة مؤلفة من ممثلين من الدول الإسلامية لتنسيق فك الاشتباك، وأن يشرف ضباط مصريون وعراقيون على انسحاب القوات السعودية من تهامة والقوات اليمنية من عسير. وقالت جريدة المقطم إن الإمام يحيى كان قد كتب رسالة إلى أحد الجنرالات المصريين المتقاعدين الذي كان قد خدم سابقاً في الجيش العثماني في اليمن، يدعو فيه إلى تولى مسئولية القوات المسلحة اليمنية^(٦٠).

واندلعت الاشتباكات شمال الحديدة فى ٢٦ مايو. وذكرت جريدة الجهاد أن وحدات متقدمة من الجيش السعودى بدأت القتال بشن هجمات على المواقع اليمنية المحصنة فى الممرات الجبلية على طول الطريق المؤدى إلى صنعاء. وتلقت الصحيفة برقية من مكة المكرمة فى الثامن والعشرين تشير إلى أن حملة واسعة النطاق من العاصمة اليمنية ستبدأ فى اليوم التالى^(٦١). ولكن فى تحول حاد أصدرت وكالة الأنباء السعودية فى القاهرة بياناً لها يوم ٣٠ مايو جاء فيه أن الإمام يحيى قد وافق على الشروط المحددة فى مشروع المعاهدة واتخذ الخطوات التنفيذية اللازمة. وعزا الإمام تأخير وصول أوامره إلى جبهة القتال بسبب ظروف خاصة فرضت هذا التأخير، وأضاف البيان أنه فى ضوء هذه الظروف طلب الملك عبد العزيز تمديد الهدنة لبضعة أيام إضافية. وعلاوة على ذلك، كان الملك قد تلقى برقية من الحاكم اليمنى "حيث أعرب عن استيائه من الهجوم العنيف الذى قام به جيش الأمير سعود على المنطقة البعيدة. وفى رد جلالته الملك أكد للإمام أنه أيضاً غير راضٍ عن أى انتهاك الهدنة وأكد له أن التدابير قد اتخذت لتفادى تكرار ذلك"^(٦٢).

فى الحادى عشر من شهر يونيو ١٩٣٤ تلقى الملك عبد العزيز برقية أخرى من الإمام يحيى يبلغه بأن المعاهدة ستصل صنعاء للتصديق عليها فى اليوم التالى. وفى ضوء توقع الانتهاء من الاتفاق فى المستقبل القريب، غادر المفاوض اليمنى الرئيسى الطائف متوجهاً إلى الحديدة، حيث كان يعتزم الاجتماع مع كل من وفد السلام فى المؤتمر الإسلامى العام وقائد القوات السعودية فى تهامة. ومن ناحية أخرى وصل الأمير محمد بن عبد العزيز آل سعود إلى أبها فى شمال عسير مع وحدة جديدة من القوات السعودية^(٦٣). وفى الرابع عشر من يونيو قال مراسل الأهرام فى جدة إنه من المتوقع أن يقوم الإمام بالتوقيع على المعاهدة فى غضون أسبوع^(٦٤). ثم أعلنت وثيقة المعاهدة للجمهور بعد التصديق عليها فى ٢٣ يونيو^(٦٥).

سافر المستشار الأعلى للإمام يحيى إلى القاهرة فى مطلع يوليو، حاملاً معه رسالة إلى الملك فؤاد معرباً عن اهتمام الحاكم اليمنى بإقامة علاقات دبلوماسية رسمية بين صنعاء والقاهرة^(٦٦)، إلا أن تلك المبادرة لم تسفر عن أى رد. وفى الواقع

فإن صمت حكومة القاهرة طوال أشهر الأزمة أصم الآذان، ففي مناسبتين منفصلتين ناشد الإمام الملك فؤاد مباشرة التدخل كوسيط، وتم تجاهل كلا الطلبين، إلا أن بعض القوميين البارزين، بما فيهم عبد الرحمن عزام، قاموا بنشر تعليقات مملوءة بالعواطف في الصحافة المحلية وحثوا مجلس الوزراء على القيام بدور نشط في حل النزاع، ولكن دون جدوى. غير أن المجتمعات المدنية والثقافية، وعلى الأخص رابطة الشبان المسلمين قاموا بحملة من أجل فرض نوع من التدخل المصرى الرسمى، ولكن لم يكن لها تأثير فى دوائر صناع السياسات^(٦٧).

وفى ضوء كل ذلك النشاط يكون من الخطأ الاستنتاج بأن مصر كانت لا مبالية بالأزمة السعودية اليمنية خلال الأعوام من ١٩٢٣-١٩٢٤. فما منع القاهرة من القيام بدور نشط فى الوساطة فى ذلك النزاع لم يكن بسبب عدم وجود مصلحة استراتيجية أو شعبية، بل بسبب مجموعة المصالح المتضاربة التى ترعاها العناصر السياسية الفاعلة فى البلاد. ولكن عندما تقاربت هذه المصالح بحيث لم يبلغ بعضها بعضا وجدت الحكومة المصرية نفسها قادرة على الاضطلاع بمبادرات مهمة فى السياسة الخارجية.

شرح للسياسة الخارجية فى ظل النظام الملكى

كانت سياسة مصر الخارجية فى عهد النظام الملكى تحدد من التقاء عدة نقاط متداخلة، بالإضافة إلى عدة مصالح تتعارض فى كثير من الأحيان، وكانت الخطوط العريضة لما كان يمكن للحكومة فى القاهرة القيام به قد وضعتها السلطات الاستعمارية البريطانية. ومن ١٨٨٢ حتى الحرب العالمية الثانية، كانت القوة السياسية والعسكرية البريطانية تمارس رقابة مشددة على المكونات الرئيسية للإدارة المصرية، مع إعطاء اهتمام خاص إلى المسائل الأمنية الخارجية والداخلية. وليس معنى ذلك افتراض أن اختيارات لندن أملت على مصر كيفية التعامل مع الشئون الدبلوماسية والاستراتيجية فى إطار ما ترسمه من حدود خصوصاً بعد منح البلاد الاستقلال الشرعى فى ١٩٢٢.

ويمكن تفسير رد فعل مصر على التحديات الخارجية خلال العشرينيات والثلاثينيات من خلال تضارب المصالح بين الجهات الفاعلة الرئيسية الأربعة: القصر والوفد، والمنافسين الرئيسيين لحزب الوفد، والبريطانيين. أما القصر، فكانت الأولوية القصوى له هي تعزيز نفوذ وهيبة المؤسسة الملكية، ثم بعد ذلك استرضاء محتلى البلاد من البريطانيين، حيث كان بقاء الملك فى منصبه يخضع لرغباتهم^(٦٨). أما الوفد، فبصفته يمثل المنظمة الوطنية التى تتمتع بأكبر قدر من التأييد الشعبى، كان اهتمامه الأكبر بتعزيز استقلال مصر عن بريطانيا، واهتمام ثانوى بفرض سيطرته على مجلس الوزراء. أما الأطراف السياسية الأخرى مثل الدستوريين الليبراليين والاتحاديين فكانت تُعنى فى المقام الأول بالوقوف فى وجه حزب الوفد لمنع من تدعيم سلطته، أما اهتمامهم الثانى فكان يتركز فى تنفيذ إصلاحات جوهرية فى النظام السياسى الداخلى، وتعديل دستور ١٩٢٣ الذى يقوم النظام على أساسه. وأخيراً، فإن الاهتمام الرئيسى للمسئولين البريطانيين، سواء فى لندن أو فى القاهرة، كان الحفاظ على النظام داخل البلد، ومصلحة ثانوية لدعم مصالح الإمبراطورية الاستراتيجية فى شئون الشرق الأوسط.

لماذا وقفت مصر فى وجه إيطاليا فى موضوع الجغبوب

بينما تصاعدت المواجهة بين القاهرة وروما من أجل السيطرة على واحة الجغبوب خلال أواخر ربيع ١٩٢٤، ساندت الظروف فى مصر حكومة سعد زغلول للاستجابة بطريقة تكيفت مع مطالب إيطاليا. وكان الوفد قد انتصر بسهولة فى الانتخابات البرلمانية التى جرت خلال شهر يناير، بينما تلقى رئيس الوزراء دفعة أخرى عززت من مكانته وشعبيته نتيجة لمحاولة فاشلة لاغتياله فى شهر يوليو^(٦٩). وقد شرعت قيادة المنظمة فوراً فى استخدام لهجة معتدلة لتبسيط مطالبها على أمل إقناع بريطانيا أنها يمكن أن تكون بمثابة شريك مسئول فى العملية المعقدة والمحفوفة بالمخاطر من التخلص من الحكم الإمبراطورى. وعلى النقيض من ذلك غيرت أحزاب المعارضة من

لهجتها فى تصريحاتهم، فندبوا بالوفد بسبب ليونة موقفه من الاستقلال التام، وشكا مسئولون بريطانيون أن الجهود التى تبذلها أحزاب صغيرة لتقويض الوفد تهدد استقرار البلاد، إلا أنها بصفة عامة تقبلت بتسامح الاحتكاك المتزايد الذى ساد السياسة المصرية خلال الصيف والخريف. وفى مواجهة قوة سعد زغلول غير المسبوقة ظل القصر صامتاً.

وفى ضوء تفضيل بريطانيا الواضح للتسوية التى ضحت بالجغوب فى مقابل الأراضى حول السلوم، أعرب الوفد عن استعداده لإرضاء روما. ولم تساعد هذه السياسة فقط تجنب معاداة الإيطاليين الذين كانوا قد أرسلوا قوة عسكرية كبيرة على طول حدود مصر الغربية، ولكن أيضاً والأهم من ذلك أنها كانت إشارة إلى لندن أن مصر المستقلة تماماً لا تشكل خطراً يتعارض مع مصالح بريطانيا الاستراتيجية. أما الأحزاب الصغيرة، التى كان من الممكن أن تعترض على الصفقة، فقد كانت حركتها مقيدة من الإدارة البريطانية، فى حين أن القصر لا يرى أى ميزة يمكن أن يجنيها من الخروج ضد تعديلات طفيفة فى حدود البلاد القانونية.

ومع ذلك، وقبل أن يتم التوصل إلى تسوية، تغيرت الظروف فى مصر بشكل كبير حيث وصل سعد زغلول إلى نقطة الانهيار من قبل خصومه واكتوى بنيران الاتهامات البريطانية التى أشارت إلى توأته فى اغتيال قائد القوات المسلحة المصرية (السردار)، فاستقال فجأة فى نوفمبر من رئاسة الوزارة مما أعطى فرصة للقصر لتأكيد نفوذ الملك، فرشح القصر رئيس حزب صغير ليكون رئيساً للوزراء. ولم يكن هناك فى مجلس الوزراء الجديد أحد من أعضاء الوفد، ولكنه تألف بالكامل من الدستوريين الليبراليين والقوميين والمستقلين، وسرعان ما أعلن صدقى وزير الداخلية أن أولوية الحكومة ستكون استعادة النظام الداخلى^(٧٠)، وفى الوقت نفسه وافقت حكومة زيوار على المطالب البريطانية بسحب القوات المصرية من السودان ودفع تعويض ثقيل جزاء وفاة السردار^(٧١). واستعاد الوفد دوره القديم كمعارض للقصر والبريطانيين على حد سواء. وارتفع عداؤهم تجاه الحكومة فى أعقاب انتخابات مارس ١٩٢٥، عندما أعاد

القصر فى بادئ الأمر تعيين زيوار رئيساً للوزراء (على الرغم من انتصار ساحق آخر للوفد فى الانتخابات) ثم حل البرلمان.

فى ظل تلك الظروف اتخذت قيادة الوفد خطأ متشددًا استثنائيًا تجاه النظام القائم ودعمه لبريطانيا. وأصرت الصحف المرتبطة بالوفد أن يتم الدفاع عن حقوق الأمة وسلامتها الإقليمية فى جميع الأحوال، فعمدت المكاتب المحلية للحزب إلى تعبئة مظاهرات شعبية ضد الحكومة ودعمًا للاستقلال. ولم تعد المصالح الاستراتيجية بين لندن وروما سبباً لقبول مطالب إيطاليا بل أسباباً لمقاومته بالقوة. ومع هذا التحول المفاجئ اندفعت الأحزاب الصغيرة الممثلة فى مجلس الوزراء لتوازن رأى العام بشأن التصرف فى واحة الجغبوب. وقد تأخر الوزراء فى اتخاذ قرار لأطول فترة ممكنة، مما سمح للوفد بأن يضع شروطه فى المناقشات. وبالمثل امتنع الملك عن أخذ موقف معن حول هذه القضية، حتى إن المندوب السامى البريطانى (يطلق عليه السفير الآن)، شعر بالقلق من انتشار اضطرابات شعبية وأحس بالقلق من أن قيادة الوفد تستعد للسيطرة على الحكومة بدعم من الأحرار الدستوريين^(٧٢)، فأصدر فى نوفمبر عام ١٩٢٥ الإنذار البريطانى لإجبار الملك على التصرف.

عند هذه النقطة انهارت مقاومة القاهرة بالنسبة للحملة الإيطالية للاستيلاء على الجغبوب. أما مجلس وزراء الذى كان معتمداً اعتماداً كلياً على القصر للاستمرار فى وظيفته فسرعان ما استسلم ووافق على رغبات بريطانيا التى أعربت عنها. وفى بادئ الأمر كان الأحرار الدستوريون قد اعترضوا على التسوية المقترحة، ولكنهم افتقروا للتأييد الشعبى اللازم الذى يمكنهم من أن يكون لهم تأثير على صنع السياسات. فى حين أن الوفد، الذى كان المنتسبون إليه من أعلى الأصوات صخباً ونشاطاً فى معارضة نقل السيادة على الواحة، كان قد حول انتباهه بعيداً عن الاهتمام بالشئون الخارجية إلى التركيز على التغييرات المقترحة فى قانون الانتخابات. وبالتالى انتهت الأزمة افتراضياً لصالح إيطاليا، حتى إن الحكومة وجدت نفسها أضعف من أن تقدم مشروع المعاهدة إلى البرلمان للتصديق رسمياً عليها.

لماذا أصبح من العسير على مصر التدخل بين المملكة السعودية واليمن

صاحب تصاعد حدة التوتر بين السعوديين واليمنيين تعديل كبير فى السياسة المصرية، حيث سقطت حكومة إسماعيل صدقى الصارمة فى سبتمبر ١٩٢٣ واستبدلت بوزارة يرأسها وزير الخارجية السابق، عبد الفتاح يحيى، الذى كان فى وقت ما واحداً من أبرز الشخصيات فى حزب الشعب^(٧٣)، وكان مجلس الوزراء يفتقر القدرة على الوقوف فى وجه القصر الذى أعاد بسرعة السيطرة على الحكومة^(٧٤). وفى لفتة غير عادية من القدر، بدأ السفير البريطانى السير مايلز لامبسون الذى كان قد وصل حديثاً، فرض قيود صارمة على الامتيازات التى يتمتع بها الملك. وفى الوقت نفسه وجد حزب الوفد نفسه منقسماً بشكل متزايد تجاه مجموعة واسعة من القضايا الأساسية، بما فى ذلك المشاركة من عدمه فى ائتلاف مع الأحزاب الصغيرة، وعن تسامحه فى استخدام العنف من أجل تعزيز الاستقلال الكامل^(٧٥). وقد منعت التصدعات الداخلية الحزب من الاستفادة من الانهيار المفاجئ لحكومة صدقى من أجل زيادة نفوذها فى عملية صنع السياسات.

اضطرت السياسة المصرية طوال خريف وشتاء ١٩٢٣-١٩٢٤، وتحت ضغط مجلس الوزراء الذى كان يبذل جهوداً لمقاومة الضغوط البريطانية، والمطالب المتكررة من جانب الوفد إلى إجراء انتخابات برلمان جديد. وكان تنامى الخلاف بين رئيس الوزراء والمندوب السامى قد دفع مجلس الوزراء إلى اعتماد مواقف متشددة تجاه مجموعة متنوعة من القضايا^(٧٦)، ومع ذلك وجدوا أنفسهم غير قادرين على خلق علاقات مع أى من الأحزاب السياسية القائمة، الذين اعتبروا اختيار وتعيين رئيس الوزراء وزملائه خطوة غير شرعية. وحين وجدت حكومة عبد الفتاح يحيى نفسها مهمشة على نحو متزايد لم تجد بداخلها الرغبة فى بناء الجسور مع حليف بريطانيا الجديد فى شبه الجزيرة العربية الملك عبد العزيز، أو مع حليف الملك فؤاد الإمام يحيى. وفى أحسن الأحوال كانت الحكومة تميل تجاه محاولات إيطاليا الفاترة للتدخل فى القتال: فوجود حضور أكبر وأكثر نشاطاً لإيطاليا فى البحر الأحمر يمكنه إضعاف هيمنة بريطانيا فى

المنطقة وفي الوقت نفسه احتواء الدولة السعودية البازغة. وقد ساهمت هذه المشاعر في زيادة عدااء الحكومة البريطانية لوزارة يحيى بحيث اضطر رئيس الوزراء إلى تقديم استقالته في وقت مبكر من مايو ١٩٣٤^(٧٧).

كان القصر يشارك في التعاطف مع إيطاليا حيث كان يئن تحت مراقبة وتدخل بريطانيا^(٧٨)، وبما أن روما قد قدمت مساعدات عسكرية إلى اليمن، فليس من المستغرب أن الإمام لجأ إلى الملك فؤاد عندما تحولت الأزمة إلى حرب. ولكن رغم ازدياد حدة الاستياء من تصرفات المندوب السامي فإن هذه المشاعر لم تتمكن من إغراء الملك ومستشاريه للاستجابة للمبادرات اليمنية، حيث كان ذلك من شأنه أن يضع القصر على خلاف مع مصالح بريطانيا في المنطقة. وكانت لندن بالفعل مرتابة من الملك فؤاد لإقالته صدقي بون إذن من الحكومة البريطانية. وعلاوة على ذلك، كما لفت نقاد الوفد النظر، فإن أي جهد من جانب مصر للتوسط بين الأطراف المتحاربة كان عديم الفائدة مع عدم وجود علاقات عمل مع الملك عبد العزيز، حيث إن علاقة القاهرة مع الرياض، التي كان يبدو أنها ودية في بداية العقد، قد تعرضت لعدد من النكسات بمرور عام ١٩٢٠، وذلك بسبب الصراعات المتكررة حول شروط كيفية مشاركة القافلة المصرية الرسمية في الحج السنوي إلى مكة^(٧٩). ونتيجة لذلك علقت جريدة الجهاد أن القاهرة وجدت نفسها في موقف لا تحسد عليه فقالت:

"لقد أعرب جميع المسلمين في العالم بالإجماع عن رغبتهم في تسوية الخلافات القائمة بين الملك ابن سعود وإمام اليمن ودياً من أجل تجنب إراقة دماء المسلمين. وفي الوقت نفسه شعروا بالخطر من تدخل غير المسلمين في هذه الخلافات وحذروا الدول المسيحية من التدخل في هذه المسألة التي تتعلق بالمسلمين وحدهم. فالعالم العربي يريد أن يرى مصر تأخذ زمام المبادرة في الوساطة لتسوية الخلافات بين اثنين من ملوك العرب، والعالم الإسلامي يرغب في رؤيتها تحتل الموقف الذي يتفق مع صفتها واحدة من قادة الدول الإسلامية، ومن ناحية أخرى فإن مصر تقر بأن الإسلام هو الدين الرسمي لها وأن اللغة العربية هي لغة رسمية لها. كما يوجد في مصر الجامع الأزهر الذي يؤكد أنه أعظم حارس للإسلام. ومن ثم كان من المتوقع والمعقول أن مصر

تكون أول من يستجيب لنداء المسلمين في جميع أنحاء العالم للتوسط لدى اثنين من الملوك العرب في محاولة لتسوية خلافاتهم ودياً، وكسب بذلك الارتياح والتقدير والإعجاب من العالم الإسلامي. ولكن لأن الحكومة في مصر لا تعترف بالحكومة في مكة المكرمة، فقد استمرت مصر في صمتها وامتنعت عن الاهتمام بالمسألة التي تشغل اهتمام المسلمين والعرب في جميع أنحاء العالم، وتحتل حتى انتباه المصريين أنفسهم^(٨٠).

وفي ضوء هذه الظروف ركز الملك فؤاد انتباهه على الشؤون الداخلية. وظهر - في مفاجأة للجمهور - كمُدافع قوى لاستعادة دستور ١٩٢٣^(٨١). بالإضافة إلى ذلك، اتخذ الملك خطوات لم يسبق لها مثيل للحد من المكائد السياسية والفساد^(٨٢). إلا أن الصراع في وقت واحد مع مستشاريه والبريطانيين والوفد استنزف حالته الصحية بشكل مطرد، وفي أغسطس ١٩٣٤ وقع الملك ضحية لمرض شديد، وتم استدعاء الأطباء المتخصصين الذين قدموا تقريراً قاتماً بأنه من المتوقع وفاته في غضون أسابيع^(٨٣). وبالتالي فقد كان أي أمل متبقٍ في أن يلعب القصر دوراً نشطاً في التوسط في الحرب في المملكة العربية قد تبخر.

الخاتمة

تخطى الدراسات الحالية للدبلوماسية المصرية في العشرينيات والثلاثينيات القول في أن القاهرة كانت تقف بمعزل عن العالم الخارجي قبل معاهدة عام ١٩٣٦ مع بريطانيا. فقد اهتم المسئولون الحكوميون والزعماء الوطنيون وغيرهم من الشخصيات العامة المؤثرة بالشؤون الدولية، وكثيراً ما أشعلت المناقشات في البرلمان والصحافة حول دور الدولة في العالمين العربي والإسلامي جدلاً ساخناً. وعلاوة على ذلك، وضمن الأطر العريضة التي وضعتها السلطات البريطانية الاستعمارية، فقد واصلت الحكومات المصرية المتعاقبة القيام بعدد من المبادرات الدبلوماسية والاستراتيجية رغم أن بعضها كان يتعارض مباشرة مع الآراء المفضلة لمحتلي البلاد.

وعلاوة على ذلك، فتفسير السياسة الخارجية المصرية خلال تلك الفترة من منظور ما يطلق عليه الباحثون في العلاقات الدولية "نموذج الفاعل العقلاني" قد تكون مضللة؛ فلم يقرر مسئول واحد طريقة استجابة البلاد أو تطبيقها لمواجهة التحديات الخارجية خلال سنوات الحكم الملكي. وبدلاً من ذلك كانت السياسة الخارجية نتيجة التفاعل المعقد بين ما لا يقل عن أربعة من الجهات الفاعلة المؤثرة: القصر والوفد والأحزاب الصغيرة التي تنافس الوفد والإدارة البريطانية. وكانت تعاملات القاهرة مع العالم الخارجى نادراً ما تعكس تفضيل أى واحد أو مجموعة منهم بل كانت تمثل النتائج غير المعتمدة للاشتباكات بين هؤلاء الأربعة مما يجعل من المستحيل افتراض أساس منطقي وراء الدبلوماسية المصرية فى العشرينيات والثلاثينيات، ولا حتى السعى من أجل الاستقلال الكامل.

تمخض عن تلك النتائج مؤشران لكيفية دراسة السياسة الخارجية المصرية فى المستقبل؛ فأولاً: تبدو مهمة إيجاد منطق وراء تعاملات الدولة المختلفة مع العالم الخارجى التى بدت صعبة أو خاضعة للمغالاة فى تبسيطها أكثر إلحاحاً فى أحسن أحوالها. ولو فرضنا أنه يمكن النظر إلى السياسة الخارجية كأنها نتيجة غير مقصودة للصراعات الداخلية فإن ذلك سوف يظل افتراضاً غير تقليدى أو بديهي رغم تزايد الدراسات التى تشير إلى نجاح هذا الاتجاه. إلى جانب أن ربط السياسة الخارجية بمصالح وأهداف، أو تصورات من طرف واحد يبدو أن تتفق مع مبدأ المنهجية المقبولة على نطاق واسع التى تعرف باسم "شفرة أوكام"، إلا أن أبسط الإجابات ليس أعمقها دائماً، بل إن وضوحها ربما يؤدى إلى استنتاجات شتى المشاكل.

ثانياً: سوف تستفيد دراسات العلاقات الخارجية لمصر خلال العشرينيات والثلاثينيات كثيراً من خلال الاهتمام بعناية بمجموعة واسعة من التطورات الداخلية التى لا ترتبط عادة بالتاريخ الدبلوماسى، فالاتجاه فى العلاقة بين الجنسين التى ناقشتها حنان خلوصى وشون لوبيز فى هذا الكتاب، أو المسائل لتربوية التى أشارت إليها ميساكو إيكيدا فى الفصل الثامن وكل ما يبدو غير ذى صلة بالدبلوماسية

فى سياقات أخرى، من المتوقع أن يوفر معلومات مهمة عن الصراع المجتمعى الذى كان له تأثير كبير على السياسة الخارجية المصرية خلال العقود الثلاثة الأخيرة من الحكم الملكى، وكبلد - بقيت تحت السيطرة الفعلية للإمبراطورية رغم أنها افتخرت بحشد المواطنين المقاتلين باستمرار من أجل الاستقلال - فإن مصر الملكية كدولة احتوت تغييرات فى كتب التاريخ كما جاء فى وصف باراك سالونى فى الفصل السادس، أو الصور المنحوتة كما جاءت فى الفصل الخامس عشر لكارولين وليمز - كانت لها اتجاهات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلاقات الخارجية. كما سيحتاج الدارسون المستقبليون أيضاً إلى التوصل إلى الصلة بين المبادرات الدبلوماسية من جهة والسياسات الداخلية للمجموعات الاجتماعية فى مصر من ناحية أخرى وأيضاً ضباط الجيش الذين ناقش توفيق إكليمندوس وضعهم فى الفصل التالى، وكذلك الأفندية الجدد الذين سلطت لوسى ريزوفا الأضواء عليهم فى الفصل الخامس. وفى نهاية الأمر فإن التفسيرات التى تركز على وجه الخصوص على السفارات وقاعات الاجتماعات حيث تتخذ السياسات العليا، من المرجح أن تغفل ديناميكيات خفية تعتبر حاسمة فى فهمنا لكيفية تفاعل مصر مع جيرانها خلال هذه الحقبة الطويلة المهمة.

الهوامش

(١) جيمس جانكوفسكى The Egyptian Wafd and Arab Nationalism, 1918-1944 في طبعة إدوارد إنجرام.

National and International Politics in the Middle East.

(لندن: فرانك كاس، ١٩٨٦)؛ إسرائيل جيرشوني جيمس ب. جانكوفسكى،

Redefining the Egyptian Nation 1930-1945.

(كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٥)، ١٤٧؛ رالف م. كورى،

The Making of an Egyptian Arab Nationalist: The Early Years of Azzam Pasha, 1893-1936.

(اقرأ: مطبعة إيثاكا، ١٩٩٨)، ٣٩٢ - ٩٣ و ٤٤١ - ٤٢؛ نبيه بيومي عبدالله، "قضايا عربية في البرلمان المصرى ١٩٢٤ - ١٩٥٨" (القاهرة: الحياة المصرية الأمة للكتاب، ١٩٩٦). القضية العرضية التي جذبت انتباه الحكام المصريين المتعاقبين، هي: ما يمكن القيام به فيما يتعلق بالخلافة الإسلامية، خاصة بعد إلغاء هذه المؤسسات على يد القوميين الأتراك في مارس ١٩٢٤: انظر: إيلي كابورى، Egypt and the Caliphate, 1915-1952 في إصدار تشاتم هاوس ودراسات شرق أوسطية أخرى (هانوفر، نيو هامبشير: مطبعة جامعة نيو إنجلاند، ١٩٨٤).

(٢) جيمس جانكوفسكى، Egyptian Responses to the Palestine Problem in the Interwar Period.

الجريدة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ١٢: ٣ (أغسطس ١٩٨٠)؛ عبد الفتاح محمد العويسى،

The Muslim Brothers and the Palestine Question 1928-1947.

(لندن: أكاديمية توريس، ١٩٩٨)، الفصل ٢؛ بشير م. تافى،

Arabism, Islamism and the Palestine Question 1908-1941.

(اقرأ: مطبعة إيثاكا، ١٩٩٨) الفصل ٤؛ رفعت السيد، "اليسار المصرى والقضية الفلسطينية" (بيروت: مطبعة الفرابى، ١٩٧٤).

(٣) توماس ماير، Egypt and the General Islamic Conference of Jerusalem in 1931 الدراسات الشرق أوسطية ١٨: ٣ (يوليو ١٩٨٢)؛ أورى م. كويفرشميدت،

The General Muslim Congress of 1931 in Jerusalem.

دراسات آسيوية وإفريقية ١٢ (مارس ١٩٧٨)؛ ه. أ. ر. جيب،

The Islamic Congress at Jerusalem in December 1931.

في أرنولد ي. توينبي، Survey of International Affairs 1934 (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٣٥)؛
والف. م. كـوردى، Egyptians in Jerusalem: Their Role in the General Islamic Conference of 1931.

العالم الإسلامي ٨٢ (يناير - إبريل ١٩٩٢).

(٤) انظر: جبريل ر. واربرج The Sinai Peninsula Borders, 1906-47 مجلة التاريخ المعاصر ١٤ (أكتوبر ١٩٧٩).

(٥) جانكوفسكى، Egyptian Wafd and Arab Nationalism 167؛ مارتين كرامر، Sheikh Maraghi's Mission to the Hijaz, 1925 دراسات آسيوية وإفريقية ١٦ (مارس ١٩٨٢)؛ إسرائيل جيرشوني وجيميس ب. جانكوفسكى، Egypt, Islam and the Arabs (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٦)، ٢٣٩ - ٤٥.

(٦) جانكوفسكى Egyptian Wafd and Arab Nationalism 167-168؛ جيرشوني جانكوفسكى، Egypt, Islam and the Arabs 245-47.

(٧) إيتامار رابينوفيتش،

Inter-Arab Relations Foreshadowed The Question of the Syrian Throne in the 1920S and 1930S

في كتاب تذكاري تكريماً للدكتور جورج س. وايس (تل أبيب: جامعة تل أبيب، ١٩٨١)، ٢٤٦، انظر أيضاً: إيلي بوديه،

The Emergence of the Arab State System Reconsidered.

الدبلوماسية وفن الحكم ٩ (نوفمبر ١٩٩٨)، ٦١-٦٢.

(٨) رابينوفيتش، Inter-Arab Relations Foreshadowed 246.

(٩) بوديه 54، Emergence of the Arab State System.

(١٠) أرشيفات الولايات الأمريكية، سجل المجموعة رقم ٥٩، ٧٨٣، ٩٠ ج/٣، ١٧ يوليو ١٩٢٩. سبقت معاهدة الصداقة مع مصر الاتفاقات مع اليمن. ويون فويسيناغ مع العراق منذ ما يقارب عامين. جيرشوني جانكوفسكى.

Redefining the Egyptian Nation 147.

(١١) وهوشوا بوراث، In Search of Arab Unity 1930-1945 (لندن: فرانك كاس، ١٩٨٦).

(١٢) أرنولد ي. توينبي،

Survey of International Affairs 1925: The Islamic World since the Peace Settlement.

(لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٢٧)، ١٨٥.

(١٢) يونان ليب رزق، *A Deal That Was Never Ratified* الأهرام ويكلي، ٣٠ نوفمبر - ٦ ديسمبر ٢٠٠٠.

١٤- الوقائع المصرية، ٢٠ فبراير ١٩٢٥ .

(١٥) الوقائع المصرية، ١٣ و ١٦ و ١٧ فبراير ١٩٢٥ .

(١٦) الوقائع المصرية، ٢٠ و ٢١ فبراير ١٩٢٥ .

(١٧) نيويورك تايمز، ٢١ فبراير ١٩٢٥ .

(١٨) الوقائع المصرية، ٢ مارس ١٩٢٥ .

(١٩) الوقائع المصرية، ٢٣ فبراير ١٩٢٥ .

(٢٠) الوقائع المصرية، ٣ مارس ١٩٢٥ .

(٢١) الوقائع المصرية، ٣ مارس ١٩٢٥ .

(٢٢) الوقائع المصرية، ٧ إبريل ١٩٢٥ .

(٢٣) الوقائع المصرية، ٩ إبريل ١٩٢٥ .

(٢٤) الوقائع المصرية، ١٢ إبريل ١٩٢٥ .

(٢٥) الوقائع المصرية، ١٦ إبريل ١٩٢٥ .

(٢٦) الوقائع المصرية، ١٧ إبريل ١٩٢٥ .

(٢٧) الوقائع المصرية، ١٨ إبريل ١٩٢٥ .

(٢٨) الوقائع المصرية، ٢٨ إبريل ١٩٢٥ .

(٢٩) الوقائع المصرية، ٢٩ إبريل ١٩٢٥ .

(٣٠) الوقائع المصرية، ١ و ٧ مايو ١٩٢٥ .

(٣١) الوقائع المصرية، ٩ مايو ١٩٢٥ .

(٣٢) الوقائع المصرية، ٩ و ٢٠ مايو ١٩٢٥ .

(٣٣) الوقائع المصرية، ٢٢ مايو ١٩٢٥ .

(٣٤) الوقائع المصرية، ٢٥ مايو ١٩٢٥ .

(٣٥) الوقائع المصرية، ٢٦ مايو ١٩٢٥ .

(٣٦) الوقائع المصرية، ٢٩ يوليو ١٩٢٥ .

(٣٧) ملاك بدرأوى،

Ismail Sidqi (1875-1950): Pragmatism and Vision in Twentieth Century Egypt.

(ريشموند: كورزون، ١٩٩٦)، ٤١-٤٢ .

(٢٨) عفاف لطفى السيد مارسو، *Egypt's Liberal Experiment: 1922-1936* (بيركلي: مطبعة جامعة

كاليفورنيا، ١٩٧٧)، ٨٨ .

(٢٩) توينبى، *Survey of International Affairs 1925*، ١٨٧ .

- (٤٠) جيرشونى جانكوفسكى، Egypt, Islam and the Arabs 239.
- (٤١) السيد - مارسو، Egypt's Liberal Experiment 89.
- (٤٢) نيويورك تيمز، ٩ فبراير ١٩٢٦ .
- (٤٣) رزق، A Deal That Was Never Ratified .
- (٤٤) توينبى، 17 - 316 Survey of International Affairs 1934.
- (٤٥) أرشيفيات الولايات المتحدة الأمريكية، سجل المجموعة ٨٤، المراسلات السرية، أدين، ١٩٢٣ - ٣٩، المجلد ١٦٣، من فوكس إلى وزيرة الخارجية، ٣١ يوليو ١٩٢٣ .
- (٤٦) توينبى، مسح للشئون الدولية، ١٩٢٤، ٣١٦ - ١٧ .
- (٤٧) أرشيف الأمة الأمريكية، سجل المجموعة ٨٤، المراسلات السرية، أدين، ١٩٢٣ - ٣٩، المجلد ١٦٣، من كنايبنشوى إلى وزيرة الخارجية، ٣ مايو ١٩٢٤ .
- (٤٨) الوقائع المصرية، ٣٠ مارس ١٩٢٤ .
- (٤٩) المرجع نفسه.
- (٥٠) الوقائع المصرية، ١ إبريل ١٩٢٤ .
- (٥١) الوقائع المصرية، ٣ إبريل ١٩٢٤ .
- (٥٢) الوقائع المصرية، ٤ إبريل ١٩٢٤ .
- (٥٣) الوقائع المصرية، ٩ إبريل ١٩٢٤ .
- (٥٤) المرجع نفسه.
- (٥٥) الوقائع المصرية، ١ إبريل ١٩٢٤ .
- (٥٦) جيب 109 Islamic Congress at Jerusalem.
- (٥٧) الوقائع المصرية، ٢٤ مايو ١٩٢٤ .
- (٥٨) الوقائع المصرية، ٢٥ مايو ١٩٢٤ .
- (٥٩) الوقائع المصرية، ٢٦ مايو ١٩٢٤ .
- (٦٠) الوقائع المصرية، ٢٨ مايو ١٩٢٤ .
- (٦١) الوقائع المصرية، ٢٩ مايو ١٩٢٤ .
- (٦٢) الوقائع المصرية، ٣١ مايو ١٩٢٤ .
- (٦٣) الوقائع المصرية، ١٣ يونيو ١٩٢٤ .
- (٦٤) الوقائع المصرية، ١٦ يونيو ١٩٢٤ .
- (٦٥) الوقائع المصرية، ٢٥ يونيو ١٩٢٤ .
- (٦٦) الوقائع المصرية، ٦ يوليو ١٩٢٤ .
- (٦٧) كورى، Making of an Egyptian Arab Nationalist 330.

(٦٨) انظر: تشارلز د. سميث، 4 February 1942: Its Causes and Its Influences on Egyptian Politics.

الجريدة الرسمية للدراسات فى الشرق الأوسط ١٠: ٤ (نوفمبر ١٩٧٩).

(٦٩) الوقائع المصرية، ١٥ يوليو ١٩٢٤ .

(٧٠) الوقائع المصرية، ١٥ ديسمبر ١٩٢٤ .

(٧١) السيد - مارسو، تجربة الليبرالية المصرية، ٨٢ .

(٧٢) المرجع نفسه، ٨٨ .

(٧٣) بدرأوى، إسماعيل صدقى، ١٠٩ .

(٧٤) السيد مارسو، Egypt's Liberal Experiment 171-72.

(٧٥) المرجع نفسه، ١٦١؛ ماريوس ديب، Party Politics in Egypt: The Wafd and its Rivals 1919-1939.

(لندن: مطبعة ايثاكا، ١٩٧٩)، ٤٨-٢٤٦ .

(٧٦) ديب، Party Politics in Egypt، ٢٥٢ .

(٧٧) جاكيس بار كوى، Egypt: Imperialism and Revolution (نيويورك: برايجر، ١٩٧٢)، ٤٥٣ .

(٧٨) السيد مارسو، Egypt's Liberal Experiment 172-73 .

(٧٩) توينبى، Survey of International Affairs 1925 319: بيركوى، Egypt: Imperialism and Revolution 447..

(٨٠) الوقائع المصرية، ٢ مايو ١٩٢٤ .

(٨١) بيركوى، Egypt: Imperialism and Revolution 454.

(٨٢) ديب، Party Politics in Egypt 252-53.

(٨٣) السيد مارسو، Egypt's Liberal Experiment 172.

٣- إعادة النظر فى تاريخ

الجيش المصرى

توفيق إكلميندوس

يعيد هذا الفصل صياغة النشاط السياسى فى الجيش المصرى بين الأعوام ١٩٤٠ و ١٩٥٢، كما يوضح أيضاً تطور التكوين الاجتماعى للسلك العسكرى، حيث إنه حتى الآن لم يقد المؤرخون بمعاملة هذين الموضوعين بشكل مقنع. ولم يتم تدوين التاريخ الاجتماعى للجيش المصرى بنجاح، كما أن المحاولات الأولى للقيام بذلك قد ضلت طريقها عن الأخرى، وتم اعتبار قواعد سلوك المعتقدات التقليدية المرعية عام ١٩٣٦ نقطة تحول حاسمة. ويعتقد معظم العلماء أن الغالبية العظمى من الضباط قبل ذلك العام، كانت تتكون من أصول تركية - شركسية، أو أنهم جاءوا من نسل أسر ميسورة الحال^(١). ووفقاً لهذا الإجماع العام فإنه فى أعقاب معاهدة ١٩٣٦ المصرية - الإنجليزية، خضعت الأكاديمية العسكرية للإصلاح، وأصبحت معايير القبول بها أكثر ديمقراطية، واعتمدت كذلك استراتيجىة جديدة للتجنيد، وتمشياً مع ذلك فقد تغير التكوين الاجتماعى للسلك العسكرى، وللمرة الأولى تم قبول أشخاص من نوى الأصول المصرية جاءوا من الطبقات الدنيا والبرجوازية المتوسطة، أو من أسر متوسطة أو صغيرة من ملاك الأراضى. وتمشياً مع وجهات النظر تلك فقد أدى هذا التطور إلى ظهور النزعة الوطنية فى الجيش، التى أدت فى نهاية المطاف إلى سقوط الملكية.

وقد خضعت وجهات النظر تلك فى الآونة الأخيرة للتدقيق. والدلالة على ذلك، فقد اعترف المؤرخ المصرى روف عباس فى مؤتمر عقد فى عام ٢٠٠٣ بأن وجهات النظر

تلك كانت غير مقبولة، ذلك لعدم توافر أدلة لدعم الانقسام الحاد القائم على العرق، وفى محاولة منه لإنقاذ فكرة نقطة التحول الحاسمة والجذرية القائمة فى عام ١٩٣٦ فقد اقترح تفسيراً أكثر تهذيباً، ربما عن طريق قياس نتائج البحوث التى أجراها حول تاريخ تلك الجامعة المصرية. ويمكن تلخيص فكرته على النحو التالى: قبل عام ١٩٣٦ كان المواطن المصرى من ذوى الخلفية الاجتماعية المتواضعة الذى يرغب فى العثور على وظيفة، أو يقبل فى العمل لدى أية مؤسسة حكومية، عليه أن يستجدى للوصول إلى ذلك وأن يتوسل للعثور على وسيط^(٢) من الطبقة العليا. أما بعد عام ١٩٣٦ فلم يعد هذا ضرورياً حيث إن المصريين من ذوى الخلفية المتواضعة كانوا قد اكتسبوا حق الانضمام إلى الكليات العسكرية، لذا، فلم يعد فى إمكان النظام الملكى أن يغلق باب القبول فى الوظائف الحكومية فى وجه الشباب الوطنى (حتى لو لم يكونوا جزءاً من هذا النظام).

ويبدو هذا النهج أكثر معقولة، إلا أنه لا يزال يشكل معضلة. فمثلاً، بما أنه كان من الواضح أن الفارق بين "صاحب الحق" والمتسول، - ورغماً عن كون ذلك يعتبر مثيراً للاهتمام من الناحية النظرية - فإنه ينهار أثناء الممارسة؛ فحتى بعد عام ١٩٣٦ ظل المتقدم فى حاجة إلى تدخل وسيط قوى، فقد كان على عبد الناصر والسادات أن يسعياً للحصول على وساطة، ولم يكن ذلك حالهما وحدهما - فحتى الطامحون من الطبقات الأعلى كان عليهم اللجوء إلى تدخل وسيط قوى. بما أن الإجراءات المنظمةة للقبول قد أعطت للسلطات قوى تقديرية كبيرة تمكّنها من استبعاد المرشح غير المرغوب فيه، بينما الاختبار المسمى "كشف الهيئة" فقد كان بالطبع، بمثابة اختبار لمدى الاستعداد النفسى والثقافة العامة^(٣) للمتقدم. إلا أن الغرض الرئيسى منه كان التحقق من الخلفية الاجتماعية للطالب، من أجل التخلص ممن لا يستحق ذلك الشرف. ومع ذلك، فإن ملاحظات رءوف عباس^(٤) تشير إلى وجود تغيير فى القدرة على التفهم بعد ١٩٣٦، وبدا قبول الشباب من الطبقة الوسطى وذوى الخلفيات البرجوازية ممكناً فى الأكاديمية العسكرية، وإن كان لا يزال صعباً، فإنه كان لذلك الإدراك عواقبه حيث لا يزال هناك عوامل أخرى ربما تكون على نفس المستوى من الأهمية، منها

أن أى فحص دقيق يمكنه أن يؤكد أن الطلب المتزايد من الجيش على العاملين قد دفع السلطات للتخلي عن الشروط السياسية الضمنية للقبول، أو إلى تخفيف الضوابط المفروضة على الخلفية السياسية للطلاب (وهذا ينطبق بشكل كبير خاصة بعد انتفاضة ١٩٣٥، التى عبأت الأغلبية من الشباب المتعلم). ومن الضرورى علينا أيضاً أن نتذكر أنه بعد عام ١٩٣٦ كان النظام الملكى يسعى للتحالف مع الوطنيين من الشباب المتعلم ضد المعارضة السياسية المحلية.

اعتبار المعتقدات التقليدية لعام ١٩٣٦ الحد الفاصل للتغيير كان أمراً يتعارض مع ذكريات المشاركين. فقبل عشر سنوات، سألت أكثر من عشرة ضباط من كبار السن، وبعضهم من أبناء الضباط، هل كان السلك العسكرى قبل عام ١٩٣٦ فى مجمله أو فى أغلبه "تركياً"، وسألت أيضاً هل كان كبار الضباط ينحدرون من أصل تركى فى بداية حياتهم المهنية، ووجد كل من شملهم الاستطلاع أن الأسئلة مضحكة. فقد قال وفاق دراز وهو من الضباط الأحرار (المولود فى ١٩٣١) وابن أحد كبار الضباط - (الأميرلاى أبو الفتوح دراز) قال لكاتب هذه السطور إن جميع زملاء والده وأصدقائه - بقدر ما يتذكر - كانوا من أصل مصرى، وتساءل كيف يمكن لمؤرخ أن يكون غير قادر على التفرقة بين جيش محمد على وجيش فؤاد. أما عبد الرعوف نافع (ضابط حر، من مواليد عام ١٩١٦)، فقد أجاب بطريقة ألطف: "مثلنا، نحن المصريين، فربما كان بعضهم لأم تركية، وهذا صحيح أيضاً لجيلنا".

وليتسنى لنا تناول هذا السؤال يجب علينا أولاً معالجة بعض القضايا المنهجية؛ فبادئ ذى بدء، فإنه من المستحيل علمياً تحديد الأصول العرقية للشخص، وخاصة إذا كانت العينة الخاضعة للدراسة كبيرة. لنأخذ ضابطاً نمطياً كمثال على ذلك، فمن الضرورى تحديد أصول والديه وهذا ليس أمراً سهلاً وغير كاف إذ يستتبع ذلك بالضرورة تحديد أصول جدوده أيضاً. وفى مواجهة هذه المشكلة حاول الخبراء من النازيين (الذين تعمقوا فى القضايا العنصرية) اعتماد عدة معايير^(٥)، فنظروا إلى ديانات الأشخاص ثم قرروا أن مجموعة من الأسماء فى الأسرة يمكن أن تثبت

أصولهم العرقية. وهذا المعيار الأول لا يساعد؛ فالأتراك - الشراكسة كانوا من المسلمين، تماماً كالمصريين، فالاسم المتناقض ظاهرياً يشير فقط إلى وجود أقباط في الجيش. أما معيار الاسم فهو ذو أهمية بسيطة، فغالبيتهم المصريين ليس لديهم اسم عائلة. وكان يمكن الاستناد إلى وجود ضباط أسماؤهم الأولى مميزة، مثل "خميس"، كونهم مصريين محضاً، أو تقتصر على تلك القلة التي لديها أسماء عائلات. ولكن من الواضح أن عينة مختارة حسب ذلك المعيار لا تمثل سلك الضباط بأكمله، لأنها ستكون مكونة من أشخاص نوى مراكز عليا. وبدلاً من ذلك يمكن للمرء فحص عينة من حاملي الأسماء العائلية، من خلال استجواب المصادر، والرجوع إلى الصحافة، وجمع الأمثلة. على الرغم من أن النتيجة ستظل جزئية وقابلة لمزيد من التدقيق، فإنه في هذا الفصل سوف تعتبر مبدأً أساسياً للاختيار.

وهناك مشكلة أخرى هي أن انقسام فترة ما قبل عام ١٩٣٦ مقابل فترة ما بعد ١٩٣٦ تحجب حقيقة مفادها أن الفترتين ليستا متجانستين، فسواء بعد أو قبل ذلك العام الحاسم لم يعد التاريخ مستقراً، كما لا يمكن لنا استبعاد بعض التطورات المهمة أو التناقض الواضح بين هذين العصرين. إلا أنه للأسف فإن بياناتنا لا تكفى لرسم صورة شاملة. ومع ذلك فهذا مثال توضيحي: شخصان على الأقل من خلفيات متواضعة نسبياً، وكلاهما قبل في الأكاديمية العسكرية في عام ١٩٣٨، وكلاهما من الضباط الأحرار، وفي وقت لاحق أعضاء بمجلس قيادة الثورة، وقد قررا في تصريحات علنية أنهما التحقا بالأكاديمية على الرغم من الفقر وعدم وجود واسطة. قد يبدو ذلك مستحيلاً، لأنه حتى الشبان الأثرياء كان عليهم البحث عن من يدعمهم، ولكن أحد هذه المصادر (حسن إبراهيم) كان له تفسير مقنع: فقبل بضعة أيام من بدأ العام الدراسي الجديد، انتشرت شائعات عن اندلاع حرب عالمية وشيكة^(٦). وكنتيجة لذلك فإن كثيراً من الطلاب الجدد من أبناء الذوات خافوا وسحبوا ترشيحاتهم. ولم يكن لدى السلطات الوقت الكافي للإعداد لامتحان قبول آخر، فلم يكن أمامهم سوى قبول أول المتقدمين أو الذين اجتازوا كل الاختبارات ما عدا كشف الهيئة. وسيكون من المثير معرفة

هل الكتيبة (التي تخرجت في نوفمبر ١٩٣٩) كانت استثناءً أو شكلت فئة من الرواد في عملية تحقيق مزيد من الديمقراطية التي تحققت خلال سنوات الحرب، فالبيانات غير كافية، وإن كانت الأدلة المتوافرة تشير إلى التفسير الأول.

كما يمكن تحديد المشكلة المنهجية الثالثة باختصار: في مصر الثلاثينيات من القرن، وخاصة خلال سنوات الأزمة، لم تكن هناك علاقة بين الوضع الاجتماعي والثروة، أو بين الثروة ويسر الحال. وعلى سبيل المثال فإن دخل والد عبد الناصر كان من الممكن أن يكون كافياً لضمان تحقيق مستوى حياة لائق لأسرة صغيرة^(٧)، ولكن لسوء الحظ، كان لديه العديد من الأطفال.

ومن خلال عينة عشوائية من الضباط، يمكن للمرء استخلاص ثلاث نتائج^(٨) أولاً، لا يجب المبالغة في إضفاء الطابع الديمقراطي على إجراءات القبول بعد إصلاحات ١٩٣٦، فالشرعون الوفديون ربما كانوا يريدون قطيعة جذرية مع الماضي ولكن الحقائق كانت أكثر مرونة ودهاء. فمثلاً، كان جيش ما قبل عام ١٩٣٦ بالكاد أرسقراطياً، وكان سلك الضباط من مكون مصري مهم حيث جاء بعض الضباط من خلفيات متواضعة، وبدعوا كمجندين أو ضباط صف ثم تم ترقيتهم. وفي الواقع يجب على المرء ألا ينسى أنه قبل عام ١٩٣٦، لم تكن الأكاديمية العسكرية هي المكان الوحيد لتخريج الضباط، فبعد عام ١٩٣٦ في الغالب كان الضباط من خلفيات ميسورة الحال، أي من عائلات الطبقتين المتوسطة وفوق المتوسطة، بدلاً من صغار البرجوازيين، الذين أصبحوا الغلبة السائدة في أوائل الستينيات. وكان عبد الناصر والسادات استثناء، وليسوا ممثلين لنمط معين، فبعد عشرين عاماً من العمل الميداني، فإن كاتب هذه السطور لم يعثر على ابن أي أحد من الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً أو عامل في كتائب فترة ما بعد عام ١٩٣٦ .

وإذا كانت العينة المتوفرة في هذا الفصل من الضباط الأحرار تمثل الأصول الاجتماعية للسلك العسكري ككل، فهم في الغالب ينتمون إلى الطبقتين المتوسطة وفوق المتوسطة. ووفقاً للمعتقدات التقليدية للضباط، جاء عموم أقرانهم في هذا الجيل من

”أسر ميسورة الحال“^(٩). كانت رسوم الأكاديمية عالية (٦٠ جنيهاً، وفقاً لحمروش)^(١٠). وهناك قصص عديدة تشير إلى أن الطلاب من خلفية فقيرة نسبياً (مثل عبد الناصر، على الرغم من أنه لم يكن فقيراً فعلياً) كانوا عرضة للسخرية. وقد فاق عدد المرشحين للقبول عدد الأماكن المتاحة^(١١)، ولعب اثنا عشرة معياراً مثل اللياقة البدنية والصحة الجيدة دوراً مهماً^(١٢)، كما كانت القرابة (الواسطة) غالباً ما تحسم الموقف. وعادة ما يفاضل مثل هذا الوضع، أبناء الأسر الغنية واسعة المدارك.

وبعد عام ١٩٣٦ أصبح القبول في الأكاديمية أسهل وواقعياً، وإن كان محدوداً، كما إن درجة الديمقراطية أصبحت محسوسة. ومثال على ذلك، فإن المتطلبات المعنية بالوضع المالي للأب المدنى للمرشح أصبحت أقل صرامة. ولكن من الصعب قياس الأثر الحقيقى لهذا التغيير لأنه كان يقابله تغيير آخر حد من الحراك الاجتماعى: فقد أصبحت الأكاديمية هى المنتج الرئيسى للضباط، حيث ترقى عدد أقل من الضباط من بين المجندين. إلا أن البيانات لا تكفى لتحديد وزن الاتجاهين رغم كون ثلاثة من الضباط قالوا لكاتب هذه السطور إن إصلاحات عام ١٩٣٦ تسببت فى تحسين حدة متطلب الأصول الاجتماعية للسلك العسكرى، والتي لم تكن الهدف المفترض من التشريع. وأقل ما يقال، فإن الاتجاهات لم تكن واضحة كما كان يعتقد سابقاً. وكما سنبين فيما بعد، فإن وجود ضباط من أبناء الضباط يتحدى فكرة زلزال عرقى اجتماعى فى جيش فترة ما بعد عام ١٩٣٦ .

والاستنتاج الثانى هو أنه من المشكوك فيه أن ”التمصير“ المزعوم للسلك العسكرى أدى إلى تزايد النشاط السياسى، بالإضافة إلى كون فكرة ”المصراوية“ غامضة ويصعب التحقق من صحتها، وكما ذكر سابقاً، فإن الجيش كان لديه بالفعل مكون مصرى قوى جداً قبل عام ١٩٣٦ . وكانت هناك طريقتان مختلفتان لتفسير هذا التقسيم العرقى^(١٣): المصري مقابل التركي والشركسى. كما يمكننا أن نفهمه على أنه تعارض بين الطبقة الأرستقراطية وبقية الشعب. وإذا كان الأمر كذلك، فلدينا مقترحات من الممكن اختبارها، ولكنها تعتبر بكل بساطة خطأ؛ فقبل عام ١٩٣٦، وحتى فى عام ١٩٠٠،

لم يكن السلك العسكرى يتكون من الأرستقراطيين. ولكن الطريقة الأخرى لبناء الانقسام العرقى هي أكثر فساداً، ولا يمكن اختبارها علمياً. فهي تدل ضمناً على أن العراقة المصرية الخالصة هم فقط الوطنيون، أو أنهم أكثر وطنية من الآخرين. ولأول وهلة تبدو هذه الأطروحة العنصرية خطأ، فقد سبق لهذا الفصل أن سلط الضوء على وجود عنصر مصرى مهم فى الجيش، فعلى سبيل المثال كان كل من الآتى أسماؤهم من المصريين: محمد نجيب، رشاد مهنا، محمد حيدر، المواوى، سيف اليزل خليفة، الرمالى، متولى الصاوى وأبناؤه، وعبد المنعم عبد الرؤوف، والرحمانى. ولم يكن هناك ترابط بين المكون المصرى والنشاط السياسى. كما أن هناك دلالة كبيرة على أن مصر لديها قائمة شرف من الوطنيين المرموقين الذين لم يكونوا من من عرق مصرى خالص مثل عبد الرحمن فهمى^(١٤)، وهو أحد أبطال انتفاضة عام ١٩١٩، وعزيز على المصرى، الأب الروحى للنشطاء^(١٥)، وأحمد عبد العزيز، البطل الأسطورى لحرب ١٩٤٨. أما فى الجيل الأصغر سناً، فكان هناك وجيه أباطة وهو من عرقية مصرية غير خالصة^(١٦).

علاوة على ذلك، فإنه من المستحيل إثبات أصل الفرد، حيث إن عدد المشاكل العملية والمنطقية التى يتعين حلها صاعقة. فلا يمكننا افتراض أن أى شخص من خلفية ريفية هو مصرى خالص: فمثل هذا الشخص يمكن أن يكون من العرب، أو من أصول تركية أو سورية، أو قوقازية. فهناك عبد الناصر وصلاح نصر كمثال لذلك، فهم من دم عربى. وأخيراً وليس آخراً، هذا التصنيف العرقى يهمل جغرافية مصر الاجتماعية والزيادة المهمة للزيجات بين الأعراق خلال الخمسين سنة السابقة لعام ١٩٣٦. كما أن تصنيف ابن أحد الفلاحين البارزين من أم تركية، هى حالة شائعة نوعاً ما وتثير جدلاً فى نفس الوقت. مثال آخر وثيق الصلة بالموضوع، فهناك فرع من عائلة الشاهد وهى أسرة تركية دأبت على منح العديد من أبنائها للجيش كانت جذورها سودانية^(١٨).

فى بقية هذا الفصل سوف نجد أن أى شخص مولود فى مصر ولا ينتمى إلى أسرة تعرف على أنها تركية أو تنتمى إلى الأرستقراطية التركية، ويكون أحد والديه

على الأقل - سواء خطأ أو صواباً -، طبقاً للمعتقدات التقليدية "مصرياً صرفاً"، وتكون لغته الأم هي اللغة العربية سوف يتم اعتباره مصرياً خالصاً، علاوة على ذلك فإنه من الخطأ الادعاء ببساطة بأن الريف المصرى لم يكن ممثلاً فى الجيش قبل عام ١٩٣٦ .

والنتيجة الثالثة هي أن ارتفاع النشطاء السياسيين فى الجيش لا يمكن أن ينسب إلى "التمصير". فالبنية الطبقية نادراً ما تفسر الاختيارات الأيديولوجية والسياسية. ولكن يمكننا اختبار فكرة التغيير فى الأصول الطبقية للسلك العسكرى، مع توضيح أن الزيادة فى النشاط الوطنى نتجت عن بقاء استعاضة الضباط ذوى الخلفيات المتواضعة بضباط صفار من أصول طبقية متوسطة. ففي الواقع، سوف يكون بزوغ التسييس ناتجا عن عكس الديمقراطية. إلا أن البيانات، فى الوقت الحاضر، غير متوفرة: فلا نعرف حقيقة أهمية ظاهرة ارتفاع ضباط فى الرتب، سواء قبل أو بعد عام ١٩٣٦، وبالتالي فلا يمكننا قياس مدى تأثير انهياره كما يبدو الادعاء القائل إن إحدى الفئات ليست وطنية يعتبر غير عادل؛ وهكذا تصبح التفسيرات الأخرى هي الأكثر تصديقاً.

التكاثر الاجتماعى

دعونا الآن نركز بإيجاز على عملية التكاثر الاجتماعى فى المؤسسة العسكرية، وذلك عن طريق تقييم دقيق لما جرت عليه المعتقدات التقليدية وقد غال حمروش فى قلة تقييمه للظاهرة، وكتب على سبيل المثال فى هذا الصدد قائلاً إنه لم يوجد ضابط من الأحرار والده ضابط باستثناء نجيب. وهو جزم خاطئ، فرغم اعترافه بوجود عائلات عسكرية، فإنها لم تُدمج فى نطاق تحليله. وهو يقر بأن أبناء الضباط لم يسلكوا مهنة آبائهم، لكنه أعطى هنا مثلاً واحداً فقط، وهو أبناء محمد ماهر وهو رجل عسكرى، وكان عليهم اختيار مهنتهم فى مطلع القرن العشرين، فى فترة من تاريخ مصر كان فيها السلك العسكرى غير جاذب للشباب الطامحين^(١٩).

وكان هناك عدد يثير الدهشة من الطلبة المقبولين في الأكاديمية العسكرية بعد إصلاحات ١٩٣٦، وكانوا ينحدرون من أب أو لهم أخ أكبر، أو ابن عم ينتمى إلى السلك العسكرى.

وكان ينبغى أن تسترعى هذه الحقيقة انتباه المؤرخين ومنعهم من قبول أطروحة "التمصير". وهناك أمثلة قليلة منها: زكريا محى الدين (أول المقبولين بعد الإصلاحات) وكان عدد غير قليل من دفعته من أبناء الضباط^(٢٠)، وإذا أخذنا الضباط الأحرار كعينة سنجد عدداً محدداً من أبناء الضباط، ولكن كثير منهم كان لديهم أعمام أو إخوة كبار أو أبناء عمومة فى السلك العسكرى. كان من ضمن أبناء الضباط نجيب ويوسف منصور صديق (كلاهما تم قبوله فى الأكاديمية قبل عام ١٩٣٦)، وثروت عكاشة، وأحمد كامل، وأمين شاكى، ومعروف الخضرى، ورشدان، ومصطفى كمال لطفى، ووفيق دراز، وكثير من الضباط الأحرار كان لهم أقارب كبار السن فى السلك العسكرى: صديق كان له خال، وكان صلاح نصر ابن شقيق ضابط آخر وابن عمه اللواء عثمان المهدي^(٢١)، وكانت والدته عبد الحكيم عامر ابنة عم حيدر باشا^(٢٢)، وعبد الرؤف نافع كان ابن عم عمر طنطاوى^(٢٣)، وأبو الفضل الجزاوى كان له عم من الضباط، كما كان لعلى فهمى شريف شقيق أكبر يتولى قيادة فرع المدفعية^(٢٤)، كما كان للشاب حسن محمود صالح شقيق أكبر من الضباط^(٢٥).

وإذا أردنا توسيعاً لنطاق دراستنا لتغطية بقية أعضاء هذا الجيل، فستكون النتائج أكثر إثارة للإعجاب. فكل من الآتى أسماؤهم من أبناء الضباط: رئيس المخابرات فى فترة لاحقة، حافظ إسماعيل (التحق بالأكاديمية قبل عام ١٩٣٦)؛ عبد المنعم عبد الرؤف (التحق كذلك قبل عام ١٩٣٦)، عبد المنعم رياض، رئيس الأركان الشهير الذى لقي حتفه فى عام ١٩٦٩ على خط المواجهة^(٢٦)، جمال عسكر، مؤسس الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء^(٢٧) محمد أحمد الصادق، وزير الدفاع الثانى فى عهد السادات^(٢٨)، اللواء عبد الرحمن فهمى، ومصطفى مختار، الذى أصبح دبلوماسياً بعد الثورة، ويحيى خضير^(٢٩)، وسعد متولى وجميعهم من أبناء الضباط^(٣٠).

وعلاوة على ذلك، يكشف النعى، الذى ينشر فى جريدة الأهرام، عن وجود سلالات عسكرية مصرية قديمة من أصل تركى. ويتضمن الجانب المصرى سلالة البطوطى، والصاوى، وفهمى، وخضير، وحميدة، والموجى، وحجاج، وقوصى، وشكرى، والرمالى. وقد كتب عبد المنعم عبد الرؤوف فى سيرته الذاتية، أنه ولد فى عائلة من علماء الدين والضباط وكان والده، وعدد كبير من الأعمام، وأخ أكبر ينتمون إلى السلك العسكرى. وفى تقريره الذى أهمل دراسة الأصول الاجتماعية للضباط الذين سقطوا فى حرب ١٩٤٨، أظهر اليازى برى أن القتلى كانوا فى كثير من الأحيان أبناء، وأبناء أخ، أو أبناء عمومة ضباط من ذوى الرتب العالية^(٣١).

يلى ذلك دليل آخر لا يجب الاستهانة به، يدل على الوجود المصرى فى الجيش. وهو أولاً، أن الغالبية من قادة الجيش خلال حرب ١٩٤٨ لم يكونوا من الأتراك، وأنهم اختاروا مهنتهم قبل عام ١٩٢٠ (وتشمل الأمثلة حيدر، والمناوى، وصديق، وعثمان المهدى، وسعد الدين صبور، وسيف اليزل خليفة، ونجيب، والسيد طه، وحافظ بكرى). ثانياً، كان يوجد على الأقل اثنان من نجوم هيئة التدريس بالأكاديمية العسكرية هما "عمر طنطاوى، ومحمد فتوح، لم يكونا من الأتراك، ولهما جذور عائلية فى الأرياف"^(٣٢). ثالثاً، إن واحداً من أكثر الشعراء المصريين شهرة منذ بداية القرن، حافظ إبراهيم، كان ضابطاً من أصل مصرى بحت كما كان أقرانه (الشعراء والضباط) محمد توفيق على، وعبد الحليم حلمى المصرى، ومحمد فاضل، من المصريين أيضاً. وكان محمد بيومى، وهو أول منتج أفلام مصرى، ضابطاً من أصل مصرى ذا جذور ريفية^(٣٣). رابعاً، وعلى الرغم من أن على وأحمد ماهر، كانا من أبناء ضابط تركى - شركسى، فإن جده لأمه كان ضابطاً مصرياً (تزوج من امرأة تركية)^(٣٤). كما أن صالح حرب ومحمود لبيب، وكلاهما أكبر سنّاً من نجيب، ضابطان من أصل مصرى. خامساً، نشر الأمير عمر طوسون قائمة بأسماء الضباط الذين كانوا يخدمون فى السودان واحتج على الحكومة البريطانية للتدابير التى اتخذتها عقب اغتيال السردار فى نوفمبر عام ١٩٢٤. وبطبيعة الحال، فإنه من المستحيل تحديد "الأصول العرقية" للأغلبية، إلا بالنسبة لأولئك الذين يمكن أن تكون أصولهم موثقة (كما هو الحال بالنسبة لعدد كبير من الأقلية)

من الضباط المصريين^(٣٥). وأخيراً، كان محمد نجيب^(٣٦)، وأحمد شوقي، ويوسف الصديق، وعبد المنعم أمين، الذى لعب دوراً حاسماً خلال انقلاب ١٩٥٢؛ ورشاد مهنا، الوصى على العرش فيما بعد؛ وعبد المنعم عبد الرؤوف وشقيقه عبد القادر، وصدقى محمود (قائد سلاح الجو فى أثناء حروب ١٩٥٦ و١٩٦٧)، وعبد الخالق كامل (الأسماء الأربعة المذكورة كانوا كذلك مثل صديق أبناء ضباط)^(٣٧)، وعبد الوهاب البشرى (وزير دفاع عبد الناصر)، وأحمد فهيم بيومى كانوا جميعاً من أصل مصرى، والتحقوا بالأكاديمية قبل عام ١٩٣٦ .

دعونا نختتم هذه المناقشة بنقطتين عامتين؛ أولاً، أنه فى عام ١٨٨٢، عندما بدأ اللورد دوفرين إعادة تنظيم الجيش بعد "هزيمة عرابى"، قرر منع العناصر الأجنبية، بما فى ذلك الألبان، والأناضول، والشراكسة، من الانخراط فى هذه المهنة، إلا أنه سمح للمصريين (أى المتشبهين) من الأتراك والمصريين من أصل تركى بذلك. وكان لنوى الأصول العرقية المصرية وجود قوى ولم يعرقل البريطانيون أبداً ترقيتهم، خشية من عودة انتفاضة عرابى^(٣٨). وقد استمرت هذه السياسة طوال فترة الاحتلال البريطانى. وبالتالي فمن المستحيل التحدث عن النخبة التركية الشركسية قبل عام ١٩٢٣. وثانياً، على حد تعبير الراحل حافظ إسماعيل وهو من الحكماء المراقبين فى المسائل العسكرية: "لقد انضم أبى إلى السلك العسكرى عندما تم إعادة بنائه من جديد فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر... وعندما حان الوقت أرسل عدد كبير من الضباط أبناءهم إلى الأكاديمية العسكرية، وهكذا أرسوا تقليداً جديداً فى صفوف الجيش المصرى"^(٣٩).

كانت إصلاحات عام ١٩٣٦ مهمة جداً، لكن لا بد من وصفها بشكل صحيح. فمن خلال الأدلة المتاحة يمكن تلخيص التغييرات الحقيقية فى ثلاث نقاط رئيسية؛ الأولى، تم زيادة متطلبات الحصول على مؤهل، وهو اتجاه سبق إصلاحات عام ١٩٣٦، وفى ١٩٢٨ نص مرسوم على أن الطالب العسكرى يجب أن يكون قد أتم بعض الدراسات الثانوية، حيث كان يكفى الحصول قبل ذلك على مؤهل المدرسة الابتدائية. وفى عام ١٩١٧،

كانت اختبارات القبول بدائية للغاية: بعض التمارين الرياضية، واختبارات فى الحساب، والإملاء. ولكن بحلول نهاية الأربعينيات كانت معايير القبول أكثر سهولة إذا ما قورنت بالمعايير الغربية، إلا أنها كانت متشددة طبقاً للمعايير المحلية^(٤٠).

النقطة الثانية، إن السلك العسكرى كان أكثر مهنية، فبعد عام ١٩٣٦ تحسنت نوعية التعليم والتدريب ببطء ولكن بشكل ملحوظ. وقد تأسست مدرسة أركان الحرب فى عام ١٩٣٨. وحتى عام ١٩٤٠، كان المدربون ذو الكفاءات العالية من الضباط البريطانيين، وكان عميد الأكاديمية هو العميد جى. استن^(٤١)، ومن الناحية النظرية كانت الدراسة تستغرق ثلاث سنوات، ولكن لم يكن هذا هو الحال بالنسبة للسنوات الأولى حيث تم اختصار الدراسة لتلبية الاحتياجات الملحة للجيش^(٤٢). ومن المثير للاهتمام أيضاً أن الضباط من الطلبة الذين ينتمون إلى جيل عام ١٩٣٦، عندما كانوا ينتقدون الخريجين الذين سبقوهم قبل عام ١٩٣٦، كانوا يلومونهم لعدم كفاءتهم^(٤٣)، وتهاونهم تجاه البريطانيين^(٤٤)، وأحياناً لإدمانهم الكحول^(٤٥)، ولكن لم ينتقدوهم أبداً لأسباب عرقية.

وأخيراً، كان هناك زيادة ملحوظة فى سوق تجنيد الطلاب، الذين قدموا أساساً من عائلات الطبقة المتوسطة، والذين كانوا ممثلين تمثيلاً جيداً فى الجيش، ولكن مع وجود أقلية ربما متزايدة من أبناء الطبقة الأقل من المتوسطة، فقد ظل تمثيل هذه الفئة فى السلك العسكرى ضعيفاً حتى عام ١٩٥٢، وربما حتى عام ١٩٦١^(٤٦). ووفقاً للواء إبراهيم شكيب، كان عدد الضباط فى الجيش ٦٠٧ فى عام ١٩٣٦؛ و٦٦٤ فى عام ١٩٣٨؛ ١,٤٢١ فى عام ١٩٣٩؛ ١,٦٣٣ فى يناير ١٩٤٢؛ و١,٩٦٢ فى أكتوبر ١٩٤٢؛ و٢,٠٢٩ فى يناير ١٩٤٤؛ و٢,٢٠٦ فى يناير عام ١٩٤٦، بنسبة زيادة تصل إلى ٢٠٠ فى المائة فى عشر سنوات. وقد أصبحت المهنة العسكرية خياراً جاداً بالنسبة للشبان من الطبقة المتوسطة. كما أن بعض الأسر المصرية التى لم يكن لديها ضابط واحد فى العائلة قبل ١٩٣٦ شاهدوا أبناءهم يُقبلون فى الأكاديمية العسكرية، شقيق يوجه الآخر

للمهنة، وشاب آخر يقنع زملاءه للانضمام للسلك العسكرى^(٤٧). ونورد فى هذا الفصل عينة عن ذلك، فقد تكرر ذلك فى كثير من الأحيان، كما فى المثالين التاليين: كمال الدين حسين، الذى أصبح فيما بعد عضو مجلس قيادة الثورة، كان من طلاب مدرسة الإبراهيمية الثانوية التى كان يدرس بها عشرون طالباً، أصبح عشرة منهم ضباط^(٤٨). وفى سيرته الذاتية يشير حمروش إلى أن سبعة عشر طالباً من مدرسة التوفيقية، وجميعهم ينتمون إلى الفرق التى سبقته، قبلوا فى الأكاديمية^(٤٩).

كانت الأغلبية الساحقة من الطلبة الجدد هم عرقياً من المصريين.

فبعد إصلاحات ١٩٣٦ أصبح لدى الوطنيين الشباب الذين كانوا غالباً من الطبقة المتوسطة الأمل فى مستقبل أفضل. وأصبح الانضمام إلى الجيش خياراً ممتعاً؛ وظيفة جيدة الأجر فى خدمة الوطن، والمساهمة فى قوته وتحديثه. ومن الصعب معرفة ما إذا كان الجيش قبل عام ١٩٣٦، قد أصبح ملجأً للأبناء التافهين من الأسر النبيلة^(٥٠) ولكن بعد عام ١٩٣٦، شمل السلك العسكرى العديد من الضباط الشباب المتألقين مهنياً، والمتحمسين وطنياً - وكان كثير منهم يكرهون الممارسات السياسية وواقع ذلك العصر^(٥١).

وهكذا، فبعد عام ١٩٣٦، نرى ديمقراطية محدودة فى القبول فى الأكاديمية (مثل تخفيف الشروط المالية المعلنة للقبول)، بالإضافة إلى إصلاح المناهج. وقد نما دور الأكاديمية فى تأهيل ضباط فى حين قل معدل ترقية الضباط من الخدمة. ولا تكفى الأدلة المتاحة لوصف تلك الإجراءات من حيث إحداث تغييرات عميقة فى التركيبة العرقية، أو إضفاء الطابع الديمقراطى على "الأصول الاجتماعية" لتلك الفئة. فما تغير فعلاً هو الإطار المؤسسى والهيكلى، فقد كان على الجيش الآن أن يكون جاهزاً للدفاع عن الأرض ومحاولة تقوية نفسه لهذا الغرض. ومن أجل تحقيق ذلك، تم تجنيد المزيد والمزيد من الطلبة، وربما من نفس المصادر، وقدم تعليمًا أفضل. ربما ظهرت فرصة نهائية للطبقات الدنيا، ولكن يتبقى إثباتها، فقد كانت إمكانية قبول أحد أبناء البرجوازية الصغيرة فى الأكاديمية يتوازن مع إعفاء ضباط من الخدمة.

شرح النشاط السياسى

لذا، فعلينا أن نسعى إلى تفسير ظهور النشاط السياسى. دعونا نأخذ فى الاعتبار وبإيجاز بعض نظريات الإحباط؛ فالدوافع الاقتصادية والمادية لم تكن لها الدرجة الأولى من الأهمية، فقد كان الضباط يتقاضون رواتب جيدة وكان النظام يهتم بطلباتهم المادية ومظالمهم^(٥٢). كما تودد لهم الملك فاروق ورجاله. ومع ذلك، ففى هذا الصدد يجوز لنا قبول أطروحة "الإحباط المهنى" جزئياً: فإن اكتشاف العالم الحقيقى، الذى يختلف اختلافاً جذرياً عن المثالية التى تدرس فى المناهج الدراسية، والذى نصت عليه قيم النظام، كان يمثل فى كثير من الأحيان صدمة كبيرة^(٥٣). كما كان هناك أيضاً مشكلة هيكلية: فالأكاديمية العسكرية كانت تقوم بتخريج ضباط وهى تتبع فى ذلك خطة مبنية على احتياجات الجيش وليس مواردها^(٥٤). وكانت الخطة تفترض أن البريطانيين يريدون أن يكون لمصر جيش وأنهم سوف يساعدون مصر لتحقيق هذا الهدف. ومع ذلك، فإن اهتمام بريطانيا بهذا المشروع كان متنوعاً ويعتمد على حسن النية (احتياجات الجيش البريطانى حصلت على أولوية والملك الذى كان يميل إلى المحور وصغار الضباط كانوا مخيفين)، وعن النية السيئة (الإدارات الاستعمارية كانت ببساطة عاجزة عن أن تكون سخية)، وعلى مستوى تطور الوضع، والنتيجة العملية هى أن السلك العسكرى نما بسرعة كبيرة جداً، بينما توريد الأسلحة وغيرها من الوسائل كانت نادرة جداً.

وظل ذلك عاملاً ثانوياً. كما أن جميع ما تمت روايته بجانب الأدلة المتاحة يشير بقوة إلى النزعة القومية باعتبارها السبب الرئيسى للمشاركة السياسية، على الرغم من أن العلماء يميلون إلى البحث عن تفسيرات مادية وتفكيك أية مقولات. كما يجب علينا ألا نغفل حقيقة أنه إذا ما تمت إعادة تكوين كل ما يقال فمن الممكن تصديق بعضها واعتباره شرعياً. كما، لا يجب أن ننسى أن الدوافع وراء تصرفات البشر، وخاصة فى المجتمعات الدينية، ليست دائماً على أساس المصلحة الذاتية. وأن كثيراً من أحاديث الجنود تروى تجارب، قد تكون شخصية أو تستند على أقوال آخرين تظهر الأجانب،

أو البريطانيين، أو اليونانيين، أو الفرنسيين، أو غيرهم، في صورة عنصرية ويتصفون بالجشع والتعالى. هذه التجربة السيئة تشكل وجهة نظر الراوى، وتؤدى به فى نهاية المطاف إلى أن يصبح وطنياً متشدداً. ومن المغرى هنا ومن السهولة بمكان تفكيك هذه الأحداث، والإشارة إلى أن الطبقة العليا المصرية والفاعلين أنفسهم مننبون لنفس السلوك، ولكن ما يهم حقاً هو وجهة نظر الفاعل: فى أن المصرى (الراوى أو ضحية أخرى) يعامل بطريقة سيئة لأنه مصرى. وما له صلة وثيقة بالموضوع هو ظاهرة التوحد الذاتى مع الضحية، التى يتدمج معها مع خبرات محددة للحياة تحت الاحتلال والإذلال اليومى من الأجانب الذى يتعرض له السكان الأصليون^(٥٥).

إلا أن الأجيال الشابة والناشطين السياسيين لم يحتكروا الوطنية، كما أن تجربة المشاعر القومية الوطنية لم تكن حكراً عليهم وحدهم، وللتدليل على ذلك، فإنه من الواضح أن محمد نجيب، ومحمد حيدر، وعزيز المصرى، وأحمد فؤاد صادق، وسعد الدين صبور، وصالح حرب، وأحمد عبد العزيز، محمد كامل رحمانى، ومحمود لبيب، ورشاد مهنا^(٥٦) كان يشاركونهم نفس المشاعر. إذن لماذا أصبح هذا العامل (الوطنى) فجأة عنصراً حاسماً يؤدى إلى طرح سؤالين مختلفين: ماذا حدث قبل عام ١٩٣٦؟ ولماذا تغير الوضع فى أواخر الثلاثينيات؟ وللإجابة على السؤال الأول، فعلى الرغم من أن الفترة بين عامى ١٩٢٢-١٩٣٦ يمكن تناولها بإيجاز فقط، فإن لدينا أدلة تشير إلى نشاط سياسى فى نهاية القرن التاسع عشر بعد إعلان الحماية فى عام ١٩١٤، وخلال انتفاضة عام ١٩١٩، بمشاركة نشطة من جانب الضباط، تصاحبه بعض آثار مقاومة سلبية أو الإعراب عن استياء واضح خلال هذه الفترة^(٥٧).

علاوة على ذلك، فإن الفترة ١٩٢٢-١٩٣٦ لم تكن هادئة تماماً. ففي عام ١٩٢٤، قبل وبعد اغتيال السردار فى نوفمبر، زاد الاحتكاك فى السودان بين الضباط المصريين والضباط البريطانيين، واندلع صراع حقيقى بين الجانبين بعد عملية الاغتيال. وفى شهر يوليو تظاهر الضباط المصريون بعد أن تم حبس أحدهم فى سجن بدلاً من احتجازه فى ثكنة عسكرية. وأعربوا عن أسفهم للحظر المفاجئ من قبل

البريطانيين. وكتبوا رسائل احتجاج ضد القاضى البريطانى، الذى اتهموه باستخدام عبارات مهينة ضد الملك المصرى. وبعد اغتيال السردار والإنذار البريطانى تمردت بعض الكتائب المصرية^(٥٨)، فى حادثة معروفة. وفى حادث مرتبط بنفس الموضوع وصف العميد رفعت مشاعر الضباط بأنها "وطنية صادقة وحقيقية". وعلى الرغم من إبداء المقاومة أحياناً أو التعبير عن عدم الرضا، فإن التمرد فى السودان كان استثناء. فقد ظهرت بعض المبادرات الفردية. وكتب شكيب أن بعض الضباط المصريين تعرضوا لمحاكمات عسكرية، بعد أن رفضوا الانصياع للأوامر البريطانية^(٥٩). ولكن لم يكن هذا جهاداً سياسياً.

وقد علل مفكر مصرى هذه السلبية قبل عام ١٩٣٦ بالوجود البريطانى القوى فى الجيش، بالإضافة إلى غياب المصريين عن المناصب فى الإدارة العليا^(٦٠). ووفقاً لما قاله، فالوضع جعل من المستحيل على الضباط المصريين الوطنيين أن يتحركوا بفاعلية. هذا تفسير غريب. فوجود أجنبى قوى وعرقلة مسارات الترقية كان لابد أن يؤدى إلى جهاد سياسى. وربما يكون المؤرخ قد خلط هنا بين نشاط الجيش وبين نشاط ضباطه. أو أنه افترض أن البريطانيين يمارسون سيطرة سياسية محكمة. ووفقاً لحمروش فإن الضباط البريطانيين كانوا يراقبون عن كثب نشاطات الجيش السياسية^(٦١). وهذا يبدو معقولاً جداً، ولكن نجيب، الذى ادعى علناً أنه ناشط سياسى، لا يذكر مثل هذه السيطرة. فلا يمكن لسيطرة، مهما كانت صارمة، أن تحظر النشاط السياسى. بالإضافة إلى أن الجيش المصرى لم يهدد البريطانيين وفى أحسن الأحوال، كان يمكنه فقط أن يبطئ الغزى. وعلاوة على ذلك، فإن احتمال وقوع انقلاب عسكرى كانت شبه معدومة، نظراً للوجود الساحق للقوات البريطانية والذكريات الحية عن محاولة عراقى.

ربما يكون التفسير المعقول هو عدم وجود دعم من المدنيين. وقد كتب نجيب فى سيرته الذاتية، أنه فى عام ١٩٢٩، وبعد أن حل الملك فؤاد البرلمان الوفدى ومنع النواب من التجمع، التقى مع الزعيم الوفدى مصطفى النحاس باشا وقال له إن الجيش يدعمه ومستعد "لعمل أى شىء يأمر به". حتى إنه قدم اقتراحاً محدداً:

"إن كتائب حماية ومراقبة مجلس النواب واجتماعات الجمعية لن يمنعوك من الدخول. بل إنهم على استعداد لمساعدتك على فتح الباب بالقوة". إلا أن النحاس رفض العرض، قائلاً إنه "يريد المحافظة على بقاء الجيش بعيداً عن الحياة السياسية، وأن الأمة ينبغي أن تكون المصدر الوحيد للسيادة. وبالتالي كانت أكبر الأحزاب المصرية، الذي يمكن أن يدعى أنه يمثل الأمة، كان متمسكاً بالقانون^(٦٢)."

ومما كان لافتاً للنظر في الأربعينيات أن الجناح الراديكالي في الحزب الوطني والإخوان المسلمين، والمنظمات الماركسية، وربما حزب مصر الفتاة فضل أو حتى رحب ترحيباً حاراً بعرض التعاون من قبل الضباط. وبمرور الوقت أصبح ذلك عنصراً مهماً، حيث إن المجاهدين السياسيين في الجيش أدركوا أنهم يتصرفون وفقاً لمعتقدات قطاعات مهمة من الشعب. وبالتالي تأكد لهم الحصول على دعم ومساعدة المدنيين، بجانب مصادر معلومات قيمة يمكن الاعتماد عليها، وحتى في بعض الحالات الاعتماد أيضاً على جنود المشاة. وهكذا فإن الجمع بين مختلف هذه العناصر وروح العصر المضطربة في خلال العشرينيات، وتمسك الوفد بالقانون بالإضافة إلى الأجندة السياسية في ذلك الوقت وهي (تأمين جلاء البريطانيين بالطرق السلمية والقانونية)، وأيضاً العواقب الوخيمة على القومية المصرية نتيجة لاغتيال السير لي سبتاك، واستحالة تأمين قوة أجنبية لدعم القضية المصرية كل ذلك أدى إلى استبعاد فكرة قيام الضباط المصريين بأي نشاط سياسي.

تغير الوضع كثيراً بعد عام ١٩٣٦، فقد كانت القوى السياسية التي تتحدى (إذا لزم الأمر بالقوة) الوضع الراهن في مصر عديدة وقوية. وأظهر كل من تشارلز تريب وجورج كيرك ببراعة أن النظام الملكي في مصر حاول الحصول على تأييد هذه القوى الجديدة وجمهور شباب الناخبين للمزايدة على الوفد، ولاكتساب شرعية جديدة وإسلامية^(٦٣)، وكذلك فرض أنماط جديدة من الأنشطة. وقد استخدم الملك فاروق ورجاله، وحلفاؤه في كثير من الأحيان الدماء الوطنيين، في محاولة الاستفادة من نقاط الضعف في معاهدة عام ١٩٣٦. ولم يعد القصر عنصراً معتدلاً، وبعد الحرب

العالمية الثانية وظهور قوات المحور، اعتبرت هما قوى كثيرة فرصة متاحة لمصر ومنها بعض الساسة الحكماء. وأخيراً وليس آخراً، فقد كان للحرب عواقب غير مقصودة وغير مرحب بها: وهى توافر العديد من الأسلحة المتاحة والمتطورة للغاية فى مصر بحيث أصبحت قوة سياسية واحدة على الأقل والعديد من المنظمات السرية أكثر تسليحاً من قوات الشرطة. وأصبح استخدام القوة^(٦٤) وبطريقة أسرع من الخيارات المتاحة فى تلك الفترة.

قصة موجزة عن الجهاد السياسى فى الجيش

كان أول الشباب المقبولين فى الأكاديمية العسكرية بعد ١٩٣٦ ينتمى إلى جيل تميز بتجربة سياسية قوية: انتفاضة عام ١٩٣٥^(٦٥). كما كان لديهم مثل أعلى: وهو الفريق عزيز المصرى، الذى أصبح رئيس هيئة الأركان قبل اندلاع الحرب^(٦٦) بوقت قصير. كما سعى البعض منهم أيضاً للحصول على توجيهات من العسكريين الوطنيين. ومثل العديد من المصريين، كانوا منتشين بالنجاحات الأولية للنازيين. أما موقفهم من الملك فاروق فلم يكن واضحاً، فسيرهم الذاتية وغيرها من الشهادات تقدم أدلة متناقضة^(٦٧). والضباط الذين أصبحوا ناشطين اعتنقوا تقديس القوة، والرياضة، والوطنية. وكانوا يتمتعون بقراءة الكتب التاريخية، ويبحثون عن الإلهام، ويدرسون سير الرجال العظماء وحركات التحرير الوطنية (مثل الحركة الأيرلندية)^(٦٨). ومن الناحية السياسية كان الناشطون ضد الوفد ومعادين للبريطانيين، وإن كانت هناك اختلافات بين الضباط، فمعظمهم كانوا على وعى عميق بالمشاكل الاجتماعية فى الريف، ويفضلون حلاً فاشستياً للعلل المصرية. ومع ذلك، كان من المستبعد أن يكون العمل السياسى ضد النظام على جدول أعمالهم. وكان هناك عاملان من الممكن أن يكونا أثرا عليهم: الأول فشل عزيز المصرى، والذى كان له تأثير قوى. والثانى هو التعبئة الجماعية فى مرسى مطروح (سبتمبر ١٩٤٠)، لإعداد المقاومة ضد محاولة، حقيقية أو متخيلة، من البريطانيين لنزع سلاح القوات المصرية^(٦٩). وخلال فترة ١٩٤٠-١٩٤٢،

ظهر عاملان رئيسيان أحدهما كان تنظيمياً، أسسه أربعة ضباط من القوات الجوية، بقيادة عبد اللطيف البغدادي ووجيه أباطة. هذه المجموعة جندت من ١٦ إلى ٢٥ ضابطاً من القوات الجوية، بالإضافة إلى السادات. وكان هذا مثيراً للإعجاب: فقد كان يعنى أن ثلث أو أكثر من نصف ضباط سلاح الجو انضموا إلى المنظمة. والآخر هو مجموعة مشتتة من الضباط الشبان، انجذبت إلى عزيز المصري. كان أكثرهم أهمية ووجيه خليل (الذى توفى في ١٩٤٨)، وأنور السادات، وعبد المنعم عبد الرؤوف (الذى، على الرغم من كونه ضابطاً في القوات الجوية، لم يكن ينتمى إلى منظمة البغدادي).

وهنا توجد نقطتان تستحقان التركيز: الأولى أنه قبل عام ١٩٤٤، لم يكن عبد الناصر ناشطاً سياسياً. الثانية، وهي أكثر حسماً، إن زمرة عزيز المصري، التي كانت تعمل بتعليمات من على ماهر، وأسست منظمة ضخمة كان الغرض منها خلق نظام جديد لدعم فاروق لاقت دعماً محدوداً للغاية^(٧٠). حتى الفحص السطحي للأدلة يشير إلى صورة مختلفة: فلم يكن هناك تنظيم ضخم؛ فالضباط الشبان أسسوا مجموعات صغيرة خاصة بهم، ثم طلبوا توجيهات من عزيز المصري. وقد لعب الفريق لعبة معقدة، وربما بدون أى استراتيجية حقيقية؛ فقد حاول تجنب الالتزامات التنظيمية غير المرغوب فيها ولعب الدور السهل الذى لا يكلف شيئاً وهو دور الأب الروحي. بل كان أحياناً يستخدمهم. فمن المستبعد أنه كان يعمل نيابة عن على ماهر.

قام هؤلاء الضباط بمحاولتى انقلاب، فى المحاولة الثانية حاول السادات وعبد الرؤوف ترتيب هروب عزيز المصري، ولكنهما فشلا^(٧١). وحاولت مجموعة القوات الجوية تسليم خرائط القواعد البريطانية فى مصر إلى النازيين، ونجحوا فى ذلك^(٧٢). وقد عانت هذه المجموعات من انتكاسات حادة، أولها فى عام ١٩٤١ عندما تم القبض على عبد المنعم عبد الرؤوف ثم فى عام ١٩٤٢ حين وفاة سعودى أبو على، الذى حاول الوصول للقوات النازية بطائرته، وأخيراً باعتقال السادات وحسن عزت، فى عام ١٩٤٢. وبعد انتصار بريطانيا فى معركة العلمين، فقدوا الأمل وعلقوا أنشطتهم.

بعد انتصار بريطانيا كان من المستحيل الحصول على دعم من قوة أجنبية (فيما عدا عدد قليل جداً كان على استعداد لاعتناق الشيوعية). وبدلاً من ذلك ظهر نمطان: الخيار الإرهابي بدون هدف سياسي واضح - قتل الخونة المصريين أو الجنود البريطانيين، وخيار بناء تحالف، إما عن طريق الانضمام إلى أهم قوة سياسية على الساحة (الإخوان المسلمين) أو من خلال تنظيم جماعي للعمل على تعبئة أكبر عدد ممكن من الضباط الوطنيين. وقد تأرجح بعض الضباط بين الخيارين.

كان الإخوان المسلمون هم المحرك الرئيسي لبناء خيار التحالف، وفي محاولة لتجنيد أكبر عدد من الضباط حاولوا مع القوات الجوية والسادات ولكنهم فشلوا في ذلك. وكان عزيز المصري قد حذر الضباط الشبان من الأجندة الخفية للمرشد العام حسن البنا^(٧٣)، فكان إعجابهم الشخصي به يتساوى مع شكوكهم في دوافعه. كما كانت لديهم مشكلة مع شخصيته: فربوده لم تكن واضحة وكان يطلب الطاعة. ولكن في عام ١٩٤٢ نجحت جماعة الإخوان المسلمين في ضم عبد المنعم عبد الرؤوف بعد بضعة أشهر من الإفراج عنه ونقله من القوات الجوية للجيش. جند عبد الرؤوف في السنتين ونصف التاليتين، سبعة ضباط آخرين: عبد الناصر وخالد محيي الدين، وكمال الدين حسين، وسعد توفيق، وصالح خليفة، وحسين حمودة، هؤلاء السبعة شكوا أول ارتباط بمنظمة البنا. وتجدر الإشارة إلى أن الاثنين الآخرين (وعبد الرؤوف) كانوا إسلاميين حقيقيين. بينما كان الآخرون وطنيين في الأساس، وقد انبهروا بقوة الإخوان، وتفانى أعضائه، ونكران البنا لذاته. وكان محمود لبيب أحد مستشاري المرشد العام، عصرياً، وله شعبية، ومحبباً، وقد أقنع رئيسه بالتخلي عن الشروط المسيقة لقبول الضباط الوطنيين، شريطة أن يكونوا على استعداد للعمل.

إن قصة هذه العلاقة المعقدة لا يمكن سردها كاملة هنا؛ فهؤلاء الضباط السبعة جنّدوا من خمسين إلى خمسة وسبعين من أقرانهم. وفي فبراير ١٩٤٦ انضم أعضاء الخلية الأولى إلى الجهاز السري للجماعة الإسلامية وأقسموا اليمين. وكان لدى "عبد الناصر"، الرجل الثاني في الجناح العسكري (وربما الرجل القوي)، وخالد محيي الدين شكوك قوية. ووفقاً لخالد فإن الوعد بالطاعة العمياء لشخص مجهول بدون استشارة

أحد، الذي قد يأمر بالاغتيال، لم يكن بالأمر الهين. وبدأت العلاقة بين الضباط والإخوان تتوتر ببطء وكان دعم البنا لرئيس الوزراء صدقي باشا، وقطع علاقته بطريقة فظة مع السكرى (كلاهما في عام ١٩٤٦)، واستخدام الإسلاميين القوة بدون تمييز خلال ١٩٤٧-١٩٤٨، قد أبعد الكثير من الضباط عنه. وبعد حرب فلسطين، وبشكل أكثر تحديداً، في سبتمبر ١٩٤٩، وقع خلاف قوى بين عبد الناصر والتنظيم حول استراتيجياتها للتجنيد (مع طلب عبد الناصر مزيد من المرونة) وعقلية الإخوان المسلمين الشديدة التعصب. هذا الخلاف أدى إلى قطيعة بين الأغلبية من الضباط والمنظمة الإسلامية^(٧٤).

بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٨، كان هناك ما بين ستين ومائة من الضباط الوطنيين الناشطين، وظهر منهم مجموعات مفككة، على الأقل ثلاث مجموعات مختلفة من الأصدقاء (لا تشمل السادات وحسن عزت، اللذين كانا في ذلك الوقت قد سرّحا من القوات المسلحة) اعتمدت الخيار الإرهابي، في محاولة إما لقتل جنود بريطانيين أو تهريب أو اغتيال الزعماء السياسيين المصريين المؤيدين للبريطانيين. أما الخلايا الأخرى، التي ولدت بشكل مستقل خلال عامي ١٩٤٥-١٩٤٦، فقد حاولت أن تتكور معاً لتشكيل مجموعة جديدة. واتفق أعضاؤها على تأسيس منظمة أطلقوا عليها "حركة الضباط"^(٧٥). وقبلوا وجندوا ضباطاً، بغض النظر عن انتمائهم الأيديولوجي. كان الكل يريد نظاماً قوياً، وفرض إصلاحات لتحسين أحوال الفقراء، واستعادة عظمة الأمة، وتنقية الحياة السياسية. وكان السؤال الرئيسي المطروح هو هل يمكن تحقيق هذه الإصلاحات مع الملك فاروق أو بدونه. واتفقوا على ألا يتفقوا.

في عام ١٩٤٧ تم اعتقال حوالي خمسة عشر ضابطاً وثلاثة من ضباط الصف ينتمون إلى عدد مختلف من المنظمات، بما في ذلك جماعة الإخوان المسلمين. إذ يبدو أنهم قد حضروا اجتماعاً لمناقشة توحيد بعض الحركات، وأن أحد ضباط الصف مجند في واحدة من هذه المنظمات قد وشى بهم^(٧٦)، وكان معظمهم ينتمون إلى حركة الضباط. ولم يستمر حبسهم طويلاً: فقد استخدم بعض أعداء رئيس الأركان، إبراهيم عطا الله،

هذه القضية لإقناع الملك أن عطا الله له شعبية كبيرة تشكل خطراً متزايداً على النظام، وأنه سيكون من الأفضل اتباع استراتيجية لإرضاء الوطنيين فتم الإفراج عن الضباط المعتقلين، ومنهم من جندهم الملك للانضمام إلى ما أصبح يطلق عليه "الحرس الحديدي"^(٧٧). وبإقناعهم بأن الملك هو أفضل حليف ضد الوطنيين الوفديين والماركسيين، وافقوا على قتل أعدائه من أجل المال. وفي وقت ما ضموا السادات إليهم، الذي ربما يكون قد تم إضافته منذ ١٩٤٥ على كشف رواتب الملك. كما شهدت هذه الفترة أول محاولات للتسلل الشيوعي في الجيش، ولكن بنجاح محدود جداً. وكان على الماركسيين التغلب على الاعتراض على إلحاحهم ونمط حياتهم (لاسيما، سمعتهم في عدم الاعتراض على إقامة العلاقات الجنسية السهلة). إلا أن الكثير من عملهم دمره دعمهم للصهاينة في فلسطين.

أسس عبد الناصر تنظيم الضباط الأحرار في نهاية عام ١٩٤٩، الذي كان نتيجة التحالف بين أصدقاء عبد الناصر (المنشقين عن جماعة الإخوان المسلمين وبعض الضباط الذين خدموا في الفالوجة) والجزء الأكبر من حركة الضباط. وسرعان ما انضم إليهم البغدادي وزملاؤه من القوات الجوية، وقد سجل العديد من الضباط الصغار أنفسهم في وقت لاحق في حركة الضباط الأحرار. وفي ليلة الانقلاب كان التنظيم، وفقاً للتقديرات الرسمية، به ٢٨٠ عضواً، وفي تقدير آخر بلغ العدد أكثر من ٣٤٠. ويوضح غموض إعادة التوحيد الاختلافات الكبيرة بين الآراء المختلفة، فالبعض افترض (خطأ) أن مجموعة من الناشطين من كبار السن استولت على حركة الضباط. ووفقاً لهذه النسخة من القصة، فإن المنظمة التي قامت بالانقلاب عام ١٩٥٢ تأسست في عام ١٩٤٥، وقبلت زعيماً جديداً وأصدقاءه في عام ١٩٤٩، وغيّرت اسمها في عام ١٩٥٠. إلا أن الكاتب يفضل القصة غير الرسمية التي تشير إلى أن مجموعة كبار الضباط هم الذين نجحوا في خلق تنظيم منظم بدلاً من تحالف مفكك، وأظهروا مهارة رائعة في التعامل مع القوى السياسية الأخرى. ومع ذلك فالقصة الأخرى تشير إلى رؤية مهمة تحدد سلوك بعض الأشخاص^(٧٨).

تكمن عبقرية عبد الناصر فى تصويره أن خيار الإرهاب كان عقيماً، وأن التغيير يمكن أن يأتى فقط من خلال مسار بناء التحالفات المجهدة للأعصاب، وربما بهدف الإطاحة بالنظام. كان يحتاج قدراً كبيراً من المهارة والحظ، كما أن التحديات كانت هائلة. وأهم هذه العوامل كانت الضغوط القادمة من قاعدة الحركة، التى كانت تريد اتخاذ إجراءات فورية بالنسبة لتجنيد الشباب، وسرعان ما أصبحت الحالة لا تطاق؛ فالشباب ينضم إلى منظمة سرية، فيها مخاطر كبيرة، بل ربما يعرض حياته العسكرية للخطر، وقيادة الحركة تريد منه أن يبقى هادئاً وينتظر الفرصة المناسبة، التى يبدو أنها لا تجىء أبداً. وكثيراً ما بدا خيار الخروج من الحركة وكأنه خيار عقلانى للشباب. وكان على عبد الناصر أن يجد توازناً دقيقاً بين تجنب الدخول فى مواجهة مبكرة مع النظام والحفاظ على انشغال الضباط الشباب. ونتج عن ذلك التورط فى قرارات يبدو أنها بدت غريبة؛ نشر دعاية سياسية، والمشاركة فى الانتخابات، والتضليل على محاولة اغتيال سرى، والتى كان يمكن أن يترتب عليها عواقب وخيمة بالنسبة لصغار الضباط. مشكلة أخرى هى الحاجة إلى تأمين دعم ضابط كبير، له اسم من الممكن أن يجذب الشبان أو الضباط من الرتب المتوسطة الأكبر قليلاً فى السن من "عبد الناصر" (مثل يوسف منصور صديق، على سبيل المثال). وبالتالي كانت سرية القيادة وبحثها المحموم عن ضابط كبير فى السن، واختيارهم محمد نجيب فى نهاية المطاف.

مشكلة أخرى كانت تحييد مراقبة الأجهزة الأمنية. وليس من الواضح كيف استطاع عبد الناصر ورفاقه تحقيق ذلك. فإن هذه المشكلة لم تلق اهتماماً دقيقاً، وقد تم توثيق تسلل الضباط الأحرار داخل المخابرات العسكرية، لكن ذلك لا يقدم تفسيراً كاملاً. وعلى الرغم من تلك الانشقاقات، فإن أحداً على الإطلاق لم يتهم ضابطاً من الأحرار حتى الـ ٢٤ ساعة الأخيرة من الحكم الملكى. وكان كثير من كبار الضباط يعرفون على الأقل واحداً من الضباط الأحرار: محمد نجيب، وحيدر باشا نفسه، وفؤاد صديق، والرحمانى، والصواف. بعض الكتاب يعزون هذه الحقيقة إلى خيانة من معاونى الملك المقربين، إما ناهد رشاد أو حيدر باشا، اللذين تعرضا للأذى من فاروق فانتقما منه (أو على الأقل غضا الطرف). ولكن الواقع أكثر تعقيداً. فقد اختار حيدر بالفعل

الدخول في حوار مع قادة الحركة، وقدم تنازلات من أجل استخدامهم. ولا يمكن إنكار أن استراتيجيته تجاه الحركة لعبت دوراً في زوال نظامه، لكنها كانت منطقية؛ فمن ناحية، ربما كان يعتقد أن الحركة السرية كانت أضعف من أن تشكل تهديداً خطيراً، ويجب علينا ألا ننسى أن تشخيص عبد الناصر كان مطابقاً لرأيه، وأنه أجبر على التحرك. ومن ناحية أخرى، كان اعتقال عدد غير معروف من الضباط الذين كانوا ينشرون فقط دعاية سياسية صعباً وخطراً من الناحية السياسية. علاوة على ذلك، كانت الدعاية لها شعبية كبيرة، لأنها عكست مشاعر الضباط. أما الاعتقالات فقد تؤدي إلى نتائج عكسية. والأهم من ذلك، يبدو أن ضباط الجيش كانوا مدافعين عن محتوى الدعاية السياسية. أما صمت أولئك الذين كانوا على علم بما يدور والذين كان يجب أن يطلقوا تحذيراً، بالإضافة إلى عدم وجود أي استنكار منهم، فهو يعتبر شهادة مروعة على السنة الأخيرة لحكم فاروق.

كانت الأشهر الست التي سبقت الانقلاب حاسمة. القائمة التي قدمتها الحركة حققت فوزاً ساحقاً في انتخابات مجلس إدارة نادي الضباط التي أجريت في ديسمبر ١٩٥١. والملاحظ أنه من السهل تجاوز أن الحركة تلقت دعماً من كبار الضباط، فلقد كانت هذه الانتخابات تعبر عن "الجيش ضد تصرفات الملك" أكثر منها تحدى الحركة لسلطات الجيش. وكان لهذا النجاح أثره الإيجابي في جذب أعضاء جدد، مما عجل الأمور وأصبحت أسهل بعد ذلك.

في الفصل السابع أظهرت أن كلير كيريوف أن حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ كان نقطة مهمة في صحة قيام ثورة ١٩٥٢، فمن الناحية العملية حث الحريق الضباط الأحرار في الإسراع بالتحضيرات للانقلاب والتفكير في التنفيذ في وقت أقرب مما سبق التخطيط له. وفي هذا السياق كان عبد الناصر^(٨٦) متأكداً تماماً من الحياد الأمريكي: فقد أجرى اتصالات غير مباشرة مع ضباط من المخابرات الأمريكية، الذين كانوا قد لاحظوا وجود الحركة، وربما خلال انتخابات ديسمبر. كما حاولت الحركة أيضاً مضاعفة الاتصالات والتفاوض على اتفاق مع الإخوان المسلمين^(٨٧).

وفى وقت ما بين فبراير ومارس ١٩٥٢، أبرم عبد الناصر صفقة مع الإخوان، بالتفاوض مع صلاح شادى وحسن العشماوى، كانت الشروط فى صالح عبد الناصر: ووافق مفاوضو الإخوان المسلمين على دعم نظام عسكري وقبلوا حجته بطلب تأجيل اعتماد تطبيق الشريعة الإسلامية إلى أجل غير مسمى، بما أن القيود الدولية والمحلية كانت عديدة. ويبدو هذا غريباً، إما أن المفاوضين كانوا غير أكفاء، أو اعتقدوا أنه بعد نجاح الانقلاب سوف يسيطر الإخوان على السلطة إن عاجلاً أو آجلاً، أو كان من بين الإخوان من أعطوا الأولوية لسقوط النظام الملكى وإجلاء البريطانيين، بغض النظر عن الوسائل والتكلفة.

بعد تأمين هذه الصفقة، انتظر عبد الناصر اللحظة المناسبة. كان لديه قيدان، الأول، أنه كان يحتاج إلى التقليل من مخاطر التدخل البريطانى، وبالتالي اضطّر للانتظار حتى تتم التهدة السياسية. والثانى، أنه كان بحاجة إلى عدد كاف من وحدات الجيش بقيادة الضباط الأحرار فى القاهرة، وكان هذا يتوقف على فرص التنقلات فى الكتائب والأقسام.

فى نهاية المطاف قررت السلطات فى مارس، بعد أن لاحظت أن المخابرات العسكرية تحقق تقدماً قليلاً فى التحريات عن منظمة الضباط الأحرار، وتحويل المسألة برمتها إلى البوليس السياسى^(٨٨). وفى غضون أشهر قليلة نجحت هذه القوة فى تحديد بعض الضباط الأحرار، بما فى ذلك عبد الناصر^(٨٩). علاوة على ذلك، فى بداية الصيف، وردت تقارير لعبد الناصر مثيرة للقلق بشكل متزايد بأن حيدر قد خسر المعركة السياسية لصالح الملك، وأن وقت القمع يقترب، مع احتمال ترشيح عدو للمنظمة، وهو حسين سرى عمرو، وزيراً للحربية. ثم اتخذ الملك قراراً بحل مجلس إدارة نادى الضباط. فلم يكن يستطيع السماح لخطب الضباط الملتهبة أن تمر دون عقاب ودون تعريض مصداقيته. وقد كلفه هذا القرار العرش، أما بالنسبة للحركة، التى أصبحت غضبية، فقد قامت بعمل حسابات مماثلة بالنسبة لاختيار التوقيت، فتأخير رد الفعل من شأنه أن يقوض مكانة المنظمة ويمكن أن يؤدي إلى ردة كبرى^(٩٠).

لذلك حاولت الحركة حشد قواتها والتحقق من صلاحية الاتفاق مع الإخوان المسلمين. وعلى الرغم من انشقاق لا مفر منه وصعوبات غير متوقعة، فقد نجحت نجاحاً كبيراً في تحقيق الهدف الأول. ومع ذلك، كانت في انتظار عبد الناصر مفاجأة غير سارة، فقد طلب مفاوضو الإخوان موافقة حسن الهضيبي، المرشد العام. وعندما اكتشف مدى غموض التزامات الضباط طلب الهضيبي تفاصيل أكثر. ووقع عبد الناصر في مأزق، وشعر بأنه عليه قبول شروط جديدة، ولكنه لم يعتبر نفسه ملتزماً بها^(٩١).

بعد ظهر اليوم الأخير قبل الانقلاب، أبلغ عبد الناصر الضباط الماركسي أحمد حمروش أن هذه الليلة تحددت للقيام بالانقلاب وطلب منه أن يرسل تعليمات محددة لبعض الضباط الأحرار الذين يخدمون في الإسكندرية. كان يعلم أنه من الضروري أن يبلغ حمروش التنظيم الماركسي. واجتمع حمروش مع قادته، ورغم كل ما قاله بعد ذلك، فقد تأخر على آخر قطار ولم ينقل أوامر عبد الناصر. وربما يكون حمروش قد تلقى تعليمات من قيادته الشيوعية بعدم الالتزام وهو ما يبدو الأكثر احتمالاً. فمن الممكن أن يكون مثل هذا القرار قراراً رشيداً، لأن العملية كانت محفوفة بالمخاطر، مع فرصة ضعيفة في النجاح، وكانت مصادر الضباط الماركسيين شحيحة، وليست لاستخدامها لصالح منظمة أخرى^(٩٢).

ما تبقى فهو التاريخ، فعلى الرغم من أن قوات الحركة كانت محدودة، فقد نجحت محاولة الانقلاب، فلا أحد كان يريد أن يدافع عن النظام. ونجح الضباط الأحرار في منع معظم الضباط ذوي الرتب العالية من الوصول إلى قواتهم، وفي إقناع القلة الذين تمكنوا من الوصول بالسماح لهم بإتمام المهمة. وبطبيعة الحال فقد كانت الحركة محظوظة. ولكنها ساعدت أيضاً في تأمين هذا الحظ حيث شعر الضباط الأحرار بأن قضيتهم هي حق، واعتبروا حظهم الحسن دليلاً على صحة قناعتهم، ولم يعيروا أى اهتمام لسوء الحظ. وكان سرد جميع الأطراف المعنية للأحداث يبالغ في التأكيد على دور حسن الحظ، كما فعل الضباط الأحرار، فبالنسبة لهم، كانت الثورة اختباراً إلهياً.

الهوامش

- (١) أحمد حمروش "قصة ثورة ٢٣ يوليو" المجلد ٨، ٨٥؛ البلى، "الصفوة العسكرية والبنية السياسية في مصر" (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٢)، ٢٧٦؛ ب. ي. فاتيكيوتيس، Nasser and his Generation: The Egyptian Army in Politics Pattern (لندن: كروم هيلم، ١٩٧٨)؛ فاتيكيوتيس، "هلومينجتون: مطبعة جامعة أنديانا، ١٩٦١). محمد صابر عرب، "هجوم على" for New Nations? (القصر الملكي: حديث ٤ فبراير ١٩٤٢" (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣)، ٣٠١ .
- (٢) لم يوسع عباس وجهات نظره ولكن أعطى أمثلة على تدخل "ابن النوات" لصالح أشخاص من أصول متواضعة، مستمدة من دراساته في الجامعة المصرية. وقد يكون مبالغاً في وجهة نظره، ولكن يبدو أنه يعتقد أن الشباب المصري كان يجب عليه أن يبادر بإعطاء ضمانات الولاء للأنظمة إذا كانوا يريدون الحصول على تأييد الوصي.
- (٣) انظر: المصدر، ٢٩ أكتوبر ١٩٤٨، ١٨، للحصول على وصف لهذا الاختبار ومتطلباته.
- (٤) حمروش، "قصة، ٨٥، صلاح نصر، ثورة ٢٣ يوليو بين المصير واللامصير" (القاهرة: مؤسسات الاتحاد للصحافة والنشر، ١٩٨٦)، ٢١ .
- (٥) وليغية ريبول، Langage et ideologies (باريس: مطبعة جامعة فرنسا، ١٩٨٠)، ١٠٧ .
- (٦) مقابلة حسن إبراهيم في مجلة الجيل، ٦ يونيو ١٩٥٤ . المصدر الآخر هو صلاح سالم، انظر على سبيل المثال محمد المعتصم، "صلاح سالم" (القاهرة: دار القومية للطباعة والنشر، ن. د.)، ١٠ .
- (٧) بخصوص دخل والده، انظر: مقابلة عبد الناصر مع مرجان (للصانداي تيمز في ١٩٦٢)، ونقلت إلى عبد الله إمام، "الناصرية: دراسات في فكر جمال عبد الناصر" (القاهرة: دار الشعب، ١٩٧١).
- (٨) وقد استخدم لهذه العينة العشوائية:
- (أ) الوفيات في الأهرام.
- (ب) الدراسات والحسابات ونشر السير الذاتية، جمع كل المعلومات المتاحة عن أسماء الضباط.
- (ج) العلاقات الشخصية للمؤلف.
- (د) النشر، دراسات عن الأسس التنظيمية.
- (٩) وفريق دراز وسعيد حلیم (من الضباط الأحرار) مقابلات مع الكاتب. وقد جمع كيرك بياتي معلومات مماثلة. انظر: كيرك بياتي، Egypt during the Nasser Years: Ideology, Politics and Civil Society (باولدرز: مطبعة ويست فيو، ١٩٩٤).

- (١٠) حمروش، "تسيج العمر" (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢).
- (١١) مصطفى بهجت بدوي، "حكايات سبتمبر ٤٢: على هامش عهد فاروق، عبد الناصر والسادات" (القاهرة: الأهرام، ١٩٩٠)، ٦١، مقابلة عبد الرؤوف نافع مع المؤلف.
- (١٢) على سبيل المثال، بالنسبة للفئة العمرية للسادات / زكريا محي الدين، أكثر من ١٠٠٠ تقدموا، قبل منهم ٥٢ فقط.
- (١٣) انظر: أسفل تكوين كبار ضباط الجيش خلال حرب ١٩٤٨. وقد بدأ هؤلاء الضباط في تولي مناصبهم قبل ١٩٣٦. حمروش. "قصة ثورة ٢٣ يوليو" ٢ : ٤١. فقد كتب أنه خلال الأربعينيات كان هناك عضو واحد من العائلة المالكة وكان ضابطاً. ولم يكن هناك ضابطاً واحد من الرتب الكبيرة قد جاء من عائلة "أقطاعية". انظر أيضاً: عبد العظيم رمضان، "الجيش المصري في السياسة: ١٨٨٢ - ١٩٣٦" (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧)، ٧٤ (فرق تدريب القوات في مطلع القرن). فقد كتب أن الضباط المصريين قد جاءوا من عائلات الطبقة المتوسطة وفيهم ذو أصول تركية وكردية وشركسية.
- (١٤) عن الخلفية الأسرية لعبد الرحمن فهمي، انظر: عبد العليم خلاف، "الحياة الصعيدية" (القاهرة: عن الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٩)، ٢٠٧ (ملاحظة ٢)، ولكن أيضاً ٢١٥-١٦، حيث يوضح خلاف خلفية أحمد ماهر (والذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء). لقد كان ماهر ابن أخ / أخت فهمي.
- (١٥) انظر: صبرى أبو المجد، "عزيز على المصري وصحبته: بناء الوحدة العربية والإسلامية" (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠)، ٣٠، ٧١.
- (١٦) المعلومات التي أعطت للمؤلف من قبل نجل عبد العزيز، أحمد عبد العزيز أيضاً كان نودم مصري.
- (١٧) وفقاً لشقيقه (المسلم به على أنه لا يمكن الاعتماد عليه)، أن السادات لم يكن "مصرياً خالصاً". فهو بالطبع كان من أم سودانية، ولكن والده أيضاً كانت جنوره سورية. انظر: عصمت السادات، الحقيقة الغائبة (القاهرة، ١٩٩١)، ١٥٣.
- (١٨) المعلومات المعطاة من نجل العقيد فؤاد الشاهد (١٩٢٠-٦٠). حيث أضاف أن الملك فؤاد كان يعزح ذات مرة مع حاجبه، وهو أحد أفراد الأسرة أيضاً، قائلاً إن آل الشاهد كثير العدد داخل الجيش حتى إنه يخشى أن يقوموا بمحاولة انقلاب. مع الملاحظة أيضاً أن واحداً من ضباط عائلة الشاهد عمل بالسودان وتزوج هناك.
- (١٩) حمروش، "قصة ثورة ٢: ٤٠-٤٢.
- (٢٠) زكريا محي الدين وعماد عسكر في مقابلتهم مع المؤلف.
- (٢١) حمروش، "شهود ثورة" (لصديق عكاشة وكميل): حلمي سلام، "أنا وثوار يوليو" (القاهرة: دار ثابت، ١٩٨٦)، ٢٠٣ (الحيدري، الذي كان ابن، وحفيد، وأخ لضباط): مقابلة أمين شاكر مع طارق حبيب؛ نصر، "ثورة ٢٣ يوليو بين المصير واللامصير"، ٩١ (لرشدان). نعى رثاء لأخت وفيق دراز مارس ٢٠٠٢ ومقابلة وفيق دراز مع المؤلف، ومقابلة نافع مع المؤلف (للطفى). وقد تزوج يوسف منصور صديق ابنة عمه، عالية. وكان والده، منصور يوسف حسن الأزهرى، ضابطاً في الجيش، ابناً لقاضٍ، وحفيداً علامة.

وقد كانت والدة صديق من عائلة ذات (دماء عربية خالصة)، منشأها من قبيلة الأثيرات. ووالد صديق، الذى كان أيضاً خالاً للضابط الحر المشهور، وابن عم والده الأكبر، تخرج فى الأكاديمية العسكرية عام ١٨٩٩، انظر: عليّة توفيق "يوسف صديق، جمال عبد الناصر وأنا" (القاهرة: الأهرام، ٢٠٠٠)، ٧-٩، محمد توفيق الأزهرى، "يوسف منصور صديق، منقذ ثورة يوليو: أنكره الزيف، وأنصفه الشعب" (القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠)، ١٨. وقد كان عم صلاح نصر أكبر منه بسنوات قليلة، وهذا ما جعل بعض أقاربه يفترضون خطأ أنه هو الأخ الأكبر. انظر: نصر، ١٩. وقد كان نصر حفيد لاثني من العمدة وعائلة ذات أصول عربية، دخلت مصر بعد الفتح العربى بفترة قصيرة. نصر، ١١.

(٢٢) مقابلة سعيد حليم وعبد الرؤوف نافع مع المؤلف.

(٢٣) مقابلة عبد الرؤوف نافع مع المؤلف، طنطاوى، خلال الثلاثينيات، كان رئيس الأركان فى الأكاديمية العسكرية.

(٢٤) نصر، ٣٠: أحمد كميل، "من أوراق رئيس المخابرات المصرية الأسبق: أحمد كميل يتذكر، بقلم أحمد عز الدين" (القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٠)، ١١١.

(٢٥) مقابلة سعيد حليم مع المؤلف.

(٢٦) حافظ إسماعيل، "أمن مصر القومى فى عصر التحديات" (القاهرة: الأهرام، ١٩٨٧)، ١٥؛ عبد المنعم عبد الرؤوف، "أرغمت فاروق على التنازل عن العرش: مذكرات عبد المنعم عبد الرؤوف" (القاهرة: الزهرة للقلم العربى، ١٩٨٨)، ١٥؛ عبد التواب عبد الحى. نصر مصر عبد المنعم رياض، بيان وشاهدان (القاهرة: دار الهلال، ١٩٧١)، ٥٢. كان جد رياض موظف من الطبقة المتوسطة.

(٢٧) مقابلة عماد عسكر (الأخ لجمال) مع المؤلف.

(٢٨) نعى بالأهرام.

(٢٩) بهجت بدوى، ١٧، ٩٩، ٦٣.

(٣٠) مقابلة عبد الرؤوف نافع مع المؤلف، يمكن الاستشهاد بالعديد من الأمثلة، فعلى سبيل المثال صرحت مجلة الجيل، خلال حرب ١٩٥٦، بأن الكثير من الأسر الكبيرة كان لديهم أعضاء مجندون فى الجيش. انظر: الجيل، رقم ٢٥٩، ١٠ ديسمبر ١٩٥٦، وهى تصف ملحمة عائلة عسكرية، والذى قيل إن الجد، الأب، العم، والأولاد كانوا ضباطاً وخدموا فى الحروب. الأكبر، بهجت محمد أبو الحسين، كان الضابط الأول. وقد بدأ تدرجه الوظيفى خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وكان لديه ولدان، كلاهما ضابط، عبد الماجد بهجت ومحمد بهجت. محمد بهجت كان لديه أربعة أولاد، اثنان منهم ضباط، وبناته الثلاث تزوجوا ضباطاً. وشرحت أرملته بأن الإنتاج الاجتماعى عن طريق استحضار الفضائل العسكرية (الوطنية، القوة، النظام، والقيام فى وقت مبكر، غالباً ما يرجع إلى الفرق الكبير بين البيت والمدرسة). انظر حمدي لطفى "العسكرية المصرية فوق سيناء" (القاهرة: كتاب الهلال، ١٩٧٦)، ٢٢٢-٢٣. هذا المفهوم للتعليم العسكرى يستخدم فى سياق آخر، وهو العلاقة بين الضباط والجنود، فى عبد الرحمن زكى "التربية العسكرية: الخلق العسكرى وروح القيادة" (القاهرة، ١٩٤٤). هنا، هو تعلم حب الوطن الأم، والحياة العسكرية، والانضباط والنظام، وعدم الأنانية، والفضائل المفيدة سواء فى الحياة العسكرية أو المدنية، وغرسها فى الأطفال. وفقاً لأرملة بهجت، فإن زوجها المتوفى أمضى أربعين عاماً بشكل

الضباط وفعل نفس الشيء في المنزل. أزواج البنات كانوا اللواء عبد المجيد أحمد والعميد عبد الرحمن أمين، ومصطفى بهجت (ابن شقيق الضابط). والابن الثاني عبد المجيد اختار أبناءه الثلاثة السلك العسكري. وابتناه تزوجتا من ضباط، الملازم سيد وزخاري والكابتن محمد الصافي. قضية أخرى في الجيل (فقدت الصفحة الأولى ولكنها في الغالب صدرت عام ١٩٥٦ أو أوائل ١٩٥٧) تصف سلالة المصري، الأب محمد المصري عميد متقاعد يبلغ من العمر ٧٧ عاماً، ترك الجيش عام ١٩٣٣. قال للكاتب إن سلالة عائلة المصري كلها من العسكريين. ابنه الأكبر كان في تلك الفترة (١٩٥٦) بكباشي والأصغر برتبة ملازم، أحدهم يخدم في سلاح الطيران، وآخر في المشاة، والآخر في سلاح الفرسان. وبناته متزوجات من ضباط، عميد وعقيد قال كذلك للكاتب بأنه ابن شقيق ضابط بحري.

(٣١) عبد الرؤوف، ١٢٥؛ اليزير بيرى، Army Officers in Arab Politics and Society (نيويورك: بريجير ١٩٧٠)، ٤٨٤.

(٣٢) معلومات عن طنطاوى من ابن أخيه ومن عبد الرؤوف نافع. لفتوح، ولد في قرية بالقرب من قويسنا، انظر: أمين هويدى، "٥٠ عاماً من العواصف: ما رأيته قلته" (القاهرة: الأهرام، ٢٠٠٢)، ١٨.

(٣٣) علياء توفيق، "يوسف صديق، جمال عبد الناصر وأنا" (القاهرة، الأهرام، ٢٠٠٠)، ٩-١٠. انظر أيضاً: الفيلم الوثائقي المنتج عن بيومي. وانظر على وجه الخصوص: محمد عبد الفتاح إبراهيم، (القاهرة، مطبعة عبد الحليم حسنى، ١٩٣٥). المؤلف، الضابط، وابن الضابط، والذي أصبح بعد سنوات جزءاً من الصف الأول داخل الكلية الحربية، مع نجيب الرحمان، على على عامر، شوقي عبد الرحمن، وعبد القادر عبد الرؤوف (أخ عبد المنعم). انظر: المصور، ٢٣ يوليو ١٩٥٣.

(٣٤) خلاف، ٢١٦.

(٣٥) اللواء محمد باشا لبيب الشاهد، والعميد أحمد بك رفعت، "مذكرتان عن أعمال الجيش المصري في السودان ومأساة خروجها منه" (الإسكندرية: مطبعة المستقبل، ١٩٣٦). يمكننا أن نجد قوائم أخرى لضباط خدموا في الجيش خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر في: عبد الرحمن زكي، "معارك مصرية في القرن العشرين" (القاهرة: مطبعة وزارة الدفاع الوطنى، ١٩٤٣)، ٢١؛ وهنا أيضاً يبدو من الأسماء أنهم لمصريين خالصين مع قليل من الاستثناء.

(٣٦) في مذكراته، قدم نجيب معلومات عن السير الذاتية لأصدقائه، والذين كانوا مصريين، محمد نجيب، "كنت رئيساً لمصر" (القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٨٤)، ١٢.

(٣٧) نعى صديق محمود في الأهرام؛ معلومات عامة؛ وخالد محي الدين، "والآن أتكلم" (القاهرة: الأهرام، ١٩٩٢)، ٤٦ (لكميل).

(٣٨) رمضان، الجيش المصري، ٣٢، ٣٤، ٣٠. رفض بوفرين الاقتراحات الخديوية لتجنيد المرتزقة كما عارض أيضاً ويشدة تكوين جيش مصري خالص.

(٣٩) إسماعيل، ١٥.

(٤٠) حمروش، "قصة ثورة"، ٦٩:١؛ نجيب، "كنت رئيساً لمصر"، ٢٢؛ (أميرالاي) محمد إبراهيم، "طلبات الكليات الحربية في صحيفة الكلية الحربية الملكية، رقم ٨، يونيو ١٩٥١، ٦٩؛ التوافق العام في الآراء يتمثل في أن مهارة الضباط غير جيدة. وعلى الرأي المخالف، انظر إلى كتاب: رفعت، والذي على الغالب تمت كتابته في أواخر العشرينيات أو ١٩٣٠، واستشهد به في وقت سابق. وواضح أن رفعت كان في

موقف دفاعي ويتأرجح بين إنكار أو وجود مشكلة والاعتراف بها. فهو يعترف بوجود قدرة سلبية للضباط على الفهم ويستنكر هذه الفكرة. ويقر بأن القيادة فنٌ يحتاج لممارسة، وليس دراسة. ويدعى بأن الضباط عادة يكونوا إداريين أفضل من المدنيين ويعطى عدة أمثلة على ذلك Cf. رفعت الشهيد، ٧٦. ويكتب أن الجيش لا يمكنه التقدم طالما أن الذي يقوده البريطانيون، ٧٧ ويقدم بعض الاقتراحات ليحسن من تدريب الضباط. إنه يفضل تنمية الإبداع والاعتماد على النفس للضباط. يجب أن يتعلموا فن القيادة ووضع الخطط (III). ويكرر أن الفنون العسكرية والمهارات تكتسب بالممارسة (III). ثم ينكر أن الضباط جهلة. وتعتقد جميع المصادر أن القاعدة العامة تتهم عدم كفاءة الجيل الأكبر سنًا لعدم تأسيسه تأسيساً سليماً، مع بعض الاستثناءات المضيئة، وبعدد أكبر مما كان يعتقد.

(٤١) شكيب، "حرب فلسطين ١٩٤٨، رؤية مصرية" (القاهرة، مكتبة الزهراء للأعلام العربي، ١٩٨٦)، ١٤١، مستعينا بوثائق بريطانية ولقاء مع محمد كميل الرحمانى. زكريا محي الدين، فى لقاء له مع هذا الكاتب، وقد اعتنق كلاهما نفس الرأي، مع بعض الفوارق البسيطة. انظر أيضاً: عبد الوهاب بكر محمد، "الوجود البريطانى فى الجيش المصرى: ١٩٣٦ - ١٩٤٧" (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢)، ١٧٢.

(٤٢) انظر على سبيل المثال: مصطفى بهجت بدوى، ٢٠.

(٤٣) يوسف منصور صديق، "أوراق يوسف صديق" (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨)، ٦١: أنور السادات، "أسرار الثورة المصرية: بواعثها الخفية وأسبابها السيكلوجية" (القاهرة: كتاب الهلال، ن.د)، ١٥٢.

(٤٤) نصر، ٣٠، سادات، "أسرار"، ١٥٢.

(٤٥) نصر، ٣٠، سادات، "أسرار"، ١٥٢.

(٤٦) رمزى حنا ومحمد عبد الحليم الزرقا، فى مقابلات مع المؤلف، أبناء البرجوازية الصغرى والتي نادراً ما تظهر فى العينات العشوائية لهذا الكاتب. انظر أيضاً: مناقشتى الموجودة أعلاه وكانت الحواجز الحائلة دون حدوث ذلك عالية جداً.

(٤٧) انظر: بدوى، ١٣٣، الذى يعطيهم كمثال على أحد رفاقه، وأخ لثلاثة ضباط. مجلة الجيل، خلال النصف الثانى من ١٩٥٦، والتي نشرت على سلسلة حلقات، تقدم كل منها عائلة مع العديد من الأخوة الذين ينتمون إلى فرقة الضباط. انظر، على سبيل المثال، رقم ٢٥٦، ١٩ نوفمبر ١٩٥٦، عن عائلة رفاعى: حيث كان ثلاثة من الأربع أخوة ضباط. للحصول على تفاصيل عن نفس العائلة، بالإضافة إلى مهنة الأب (رجل بوليس)، انظر لطفى، العسكرية، ٣١٤. فعلى سبيل المثال، فنحن ندرس التمرينات الحربية، تأثيرات العيش فى بيئة بها الرجال أكثر رسمية، وقصص أخرى رويت عن طريق جده، الذى كان ضابطاً، والتي أثرت فى اختيار الابن لوظيفته. وموضوع آخر، رقم ٢٥٨، بتاريخ ٣ ديسمبر ١٩٥٦، تعامل مع عائلة مهدى، حيث كان الجد وأولاد أعمامه ضباط. وقد درس للجيل عن طريق المقال المتضمن للأخ الأكبر، البكباشى عيد الله مهدى. وقد كانوا أخوة آخرون ضباط أيضاً. لقد شرحت الأم لأبنائها اختيارهم بواسطة قيمهم الوطنية وعن طريق الأمثلة السابقة، واحدة من بناتها تزوجت من ضابط أيضاً. الموضوع رقم ٢٦٠، بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٥٦، الذى قدم ستة من الأبناء بوظائفهم الإدارية. الثلاثة الأوائل كانوا ضباط والثلاثة الآخرون كانوا ما زالوا بالتعليم العالى. وقد اعتقد الأب ان اختيار أبنائه قائم على قيمهم الوطنية وحبهم للرياضة. وقد قالت الأم إن انتقال القيم الوطنية هو أفضل تفسير.

(٤٨) انظر: المقال في أفواج كمال الدين حسين من مدرسة الإبراهيمية الثانوية، المنشور بمجلة الجيل، ٢٣ يناير ١٩٦١ .

(٤٩) حمروش، "تسيج العمر"، ٢٠ .

(٥٠) حمروش، "قصة ثورة"، ٢: ٤٢ .

(٥١) مقابلة زكريا محي الدين مع المؤلف، في تشخيصه، "ظاهرة مميزة لهذا الجيل"، حيث تقاسمها العديد من الجهات الفاعلة، فعلى سبيل المثال "على صبرى"، في محمد عروق "قراءة في أوراق على صبرى" (القاهرة: دار المستقبل العربى، ١٩٩٢)، ٢٣ . انظر أيضاً: خالد محي الدين، ٢٥ - ٢٦، عن أسباب طلبه الموافقة على انتسابه للكلية الحربية؛ وعبد الفتاح أبو الفضل، "كنت نائباً لرئيس المخابرات" (القاهرة، كتاب الحرية، ١٩٨٦)، ٢٩ - ٣٠ . دوافع أبو الفضل: ١- إعجابه بعرابى ٢- اعتقاد بأن الجيش تمكن من قبول الرجل الشاب الخدمة في بلده، في إطار مؤسسى خلف السياسات، على صبرى، في "اعترافات" المنشورة بواسطة غالى شكرى، قال شيئاً مماثلاً، حيث كان والده وطنى وصوت للوفد، ولكنه مع ذلك كان يكره الطائفية في النظام التعددى الحزبى. انظر: غالى شكرى، "المثقفون والسلطة في مصر" (١): "ناصر، السادات، خالد محي الدين، على صبرى، فتحى رضوان، توفيق الحكيم، زكى نجيب محفوظ، لويس عوض" (القاهرة: أخبار اليوم، ١٩٩١)، ١٤٨. ولحسابات مماثلة أخرى، انظر نصر. حيث أكتشف، خلال دراسته في المدرسة الثانوية، أن القيادات السياسية الذين دفعت بهم الأحزاب السياسية وقراراتهم لم تكن بأى حال من الأحوال ذات صلة بالمصلحة الوطنية. كذلك أرهقت أعصابه من الفساد في الخدمات المدنية وسلوك البوليس الحزبى. فالشخص ينظر إلى الفلاحين ويحترم رأيا القادة. كذلك كره نصر الأجانب الذين استفادوا من الأزمة الاقتصادية، وبالتالي اقتنع بأن الجيش هو الحل لأمتل، أما النقطة التالية فيجب وضع عدة خطوط تحتها: ليس كل الضباط من كبار السن فاسدين، فمعظمهم يساند التطورات الجديدة التى تخص هيكل القوة والتعليم العسكرى. فعلى سبيل المثال، يستشهد حافظ إسماعيل بسعادة عمر طنطاوى بتخريج الدفعة الأولى من الطلبة بعد إصلاحات عام ١٩٢٦ . انظر إسماعيل، ١٩ . ويروى سيد فرج فكاهة أخرى: كان يريد دراسة القانون، ولكنه غير رأيه بعد لقاء مع طنطاوى، الذى بادره بالحديث أثناء قيامه بواجب عزاء: "جلس بجانبى وسألنى عن وظيفتى. (أجبت) فقاطعتنى بصوت مدو: "محامى؟" هذه البلد مملوءة بالمحاميين! وشاب مثلك، رياضى وسريع البديهة، يجب أن يكون ضابط فى الجيش! تعال وقابلنى غداً...." انظر: فراج "حياتى بين السيف والكلام" (القاهرة: الدار النولية للنشر والتوزيع، ١٩٩٤)، ٧٩ .

(٥٢) فى مقالة ملاحظة - مهمة وقليلة أكد عبد الناصر على هذه النقطة. انظر: المصور، ٢٣ يوليو ١٩٥٣ .

(٥٣) زكريا محي الدين وجمال منصور، فى مقابلة مع المؤلف.

(٥٤) انظر: استشهاد أعمال بكر محمود المبكرة، أو جبر على جبر، اللواء الجوية بين السياسة المصرية والإسرائيلية، الجزء الأول: ١٩٢٢ - ١٩٥٢ (القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٣).

(٥٥) انظر: أنور السادات، "البحث عن الذات" الطبعة الثالثة. (القاهرة: المكتبة المصرية الحديثة، ١٩٧٩)، ١٨، ٢٠، ... إلخ. الرجل الإنجليزى لديه كان قبيحاً وممجياً. انظر: عروق على صبرى، ١٨ حيث الموضوع الرئيسى هو ازدياد من الأجانب الأغنياء تجاه المصريين المحرومين. عبد الله إمام "وجيه أباطة: صفحات من النضال الوطنى"

الجزء الأول (القاهرة: عربية للطباعة والنشر، ١٩٩٥)، ١١٠. خالد محيي الدين، ٢٥-٢٥، يدين بشدة الاحتلال البريطاني، ويرى من جديد قصة استيلاء القوات البريطانية على الدبابات المصرية، ويصفها بأنها صدمة كبرى. حسين حمودة "أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمين" (القاهرة: مكتبة الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٥)، ١٩. عبد المغنى سعيد "أسرار السياسة المصرية فى ربع قرن" (القاهرة: كتاب الحرية، ١٩٨٥) وأعمال نصر، التى نكزت من قبل، مثيرة للاهتمام: فعداء المؤلف نحو البريطانيين كان على النقيض إعجاب بهم. ووفقاً لجون لوك وتور، هذه أيضاً حقيقة بالنسبة لعبد الناصر. انظر: لاکوتور Nasser (باريس: إصدارات دى سوى، ١٩٧١)، ٣١٤.

(٥٦) هذا واضح بالنسبة لنجيب، وعزيز المصرى، ولبيب وحرب، الذين كانوا متورطين فى الأنشطة المعادية للبريطانيين. ومن المعروف كذلك أن صديق ورحماني تم حبسهم أثناء الحرب العالمية الثانية بسبب نشاطهم ضد الوفد والبريطانيين. وقد ساعد صبور المقاومة ضد الإنجليز فى منطقة القناة فى خريف وشتاء ١٩٥١-٥٢. وكان منها حذراً لأنه كان قريباً من الوطنيين وكان يتجنب أية التزامات جادة.

(٥٧) إسلام ضياء الدين الصغير، الحزب الوطنى والنضال السرى: ١٩٠٧-١٩١٥ (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٧)، ١٩. أشارت إلى، على سبيل المثال، صالح حرب ومحمود لبيب ثاروا وانضموا للقوات العثمانية. انظر: معلومات السيرة الذاتية عند حسين حمودة، ٢٨، أو مقدمة أحمد عطية الله لصالح حرب "الوطن والجيش" (القاهرة: مكتبة لأنجلو مصرية، ١٩٤٠). ومن المهم كذلك، أن كثير من العمليات ضد القوات البريطانية أظهرت مهارات تكتيكية تدل على تورط ضباط فيها. انظر: رمضان، ص ١٢٧-١٢٨، وحمروش "قصة ثورة ١:٧٥"، وفتحي "مذكرات عبد الرحمن فهمي" (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ونجيب كنت رئيساً، ٢٥.

(٥٨) الشاهد، ٢٧ - ٣٢؛ رمضان، "الجيش المصرى" ١٧١.

(٥٩) حمروش، قصت، ١: ٧٧. نجيب كنت رئيساً ٢٨، شكيب، ١٤١.

(٦٠) البيالى، ٢٤٦، كتبت تقريباً فى السنوات ١٨٨٢ - ١٩٣٦.

(٦١) حمروش، "قصة"، ١: ٧٧.

(٦٢) نجيب، وآخرون وما يليهم. الخوف من النشاط الجماعى أصبح التفسير المفضل لدى الماركسيين. انظر على سبيل المثال: حسن رياض، L'Égypte nassérienne (باريس، مطبعة دى مينويت، ١٩٦٤)، ٢٠٤. وأيضاً، العواقب الوخيمة لجمعية ستاك حيث كانت حافزاً قوياً لتوخي الحذر.

(٦٣) شارلز تريب، "على ماهر وسياسات الجيش المصرى" فى تريب، طبعة،

Contemporary Egypt through Egyptian Eyes: Essays in Honor of J. Vatikiotis.

(لندن: روتليدج، ١٩٩٣)، ٤٥؛ جورج كيرك، The Middle East in the War، الطبعة الثالثة.

(لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٥٤)، ٣٤.

(٦٤) محسن محمد، "من قتل حسن البنا؟" (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٧)، ٩٣، الذى قال إنه كان يقتبس البرقيات الدبلوماسية البريطانية.

(٦٥) مقدمة جيدة للانتفاضة هو صبرى أبو المجد، "سنوات ما قبل الثورة: ١٩٣٠-١٩٥٢" المجلد ١ (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٧)، ٣٩٣-٤٧٩، ٥٠٨-٥١٦، ٦٠٥-٦٧٣.

(٦٦) انظر على سبيل المثال: "مذكرات البغدادي" المجلد ١ (القاهرة، المكتبة المصرية الحديثة، ١٩٧٧)، السادات، "أسرار"، إمام، "وجيه أباظة: صفحات" حمدي لطفى، "ثوار يوليو: الوجه الآخر" (القاهرة: كتاب الليل، ١٩٧٧).

(٦٧) قارن على سبيل المثال رواية أباظة، في خطاب لزوجته، المنشور في عبد الله إمام، "وجيه أباظة والأمل الفدائي" (القاهرة: المكتبة العربية للطباعة والنشر) ١٨١، حسن عزت، "قصتي مع العمالة والأقزام السبعة وثامنهم هيك" (روما ولندن، ١٩٨٥)، ١٨٦، فر رواية بغدادي في بغدادي، ١٠، أو مع قصة السادات في "أسرار".

(٦٨) انظر على سبيل المثال: مقابلة بغدادي مع لطفى، "ثوار" ٥٩؛ وأيضاً عزت، "قصتي" ١٨٦.

(٦٩) في هذه الحلقة، انظر: إسماعيل، ٢٣. انظر أيضاً: شهادة عبد المنعم أمين في حمروش، "قصة ثورة ٢٣ يوليو" (٤): شهود ثورة يوليو، الطبعة الثانية. (القاهرة: مكتبات مديولي، ١٩٨٤)، ٢٤٧. أبو الفضل، "كنت نائباً" ٤٢. مقابلة مجدي حسنين في السياسي، ٧ أغسطس ١٩٨٨، وشهادة في حمروش، "شهود" ٣٥٨. انظر: نسخة سادات الهزلية، "البحث عن الذات" ٣٦، والواحدة الأكثر خطورة في السادات، "أسرار" ٣٩.

(٧٠) المجموعة الرابعة في تشارلز تريبي، "على ماهر والسياسات في الجيش المصري" في تريبي، طبعة.

Contemporary Egypt through Egyptian Eyes 45.

(٧١) انظر على سبيل المثال: السادات، أسرار، ٩٨؛ عبد الرؤوف، ٢٩؛ بغدادي، ١٦. أبو المجد في "سنوات ما قبل الثورة: ١٩٣٠-١٩٥٢" المجلد ٣ (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٩)، ٣٩٥، ٤٣٣.

(٧٢) إمام، "وجيه أباظة: صفحات" ١١٧-٢٠؛ بغدادي، ٢١-٢٣. شهادة بغدادي في حمروش، "شهود" ٢١٥؛ عزت، "قصتي" ١٧٧.

(٧٣) انظر: خطاب أباظة المنشور عن طريق إمام، "وجيه أباظة والأمل" ١٨٩. في دراسة عن العلاقة بين

Officiers et Freres Musulmans.

انظر: توفيق إكليماندوس، ٢٠٠٢).

(٧٤) مقابلة خالد محي الدين مع المؤلف.

(٧٥) في هذا الائتلاف، انظر على سبيل المثال: أبو الفضل، التي استشهد بها في وقت سابق، أو مصطفى نصير؛ عبد الحميد كفاقي، سعد عبد الحافظ، جلال منصور، "ثورة يوليو والحقيقة الفائبة" (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٧)، ولكن هذين الكتابين قد بالغوا في مدى تعاسك الجماعة. انظر في حسابات أخرى، مثل هذان، محسن عبد الخالق. انظر: شهادته المطولة في رشاد كميل، "عبد الناصر الذي لا تعرفوه" (القاهرة: الجدوى للنشر، ١٩٩٠).

(٧٦) نصير، كفاقي، عبد الحافظ، ومنصور، ٤٥ - ٦؛ انظر: جمال حمد في أكتوبر، ١٩ إبريل ١٩٩٢. مصادر أخرى تعطي تقديرات مختلفة، ولكن حمد قد تمكن من الوصول للملفات.

(٧٧) في أيرون جوا رد، انظر شهادة عبد المجيد في حمروش، شهود أو سعيد جاد، "الحرس الحديدي: كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه" (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٢).

(٧٨) لتفاصيل أخرى حول هذه القضية، انظر: توفيق إكليماندوس،

Regard retrospectif sur la Révolution de juillet 1952," in EMA 4-5: L'Egypte dans le siècle: 1901-2000.

(القاهرة: CEDEJ، ٢٠٠٢)، حيث قمت بتقييم نسخ متعددة من القصص. خاصة الخاطئة منها التي تتحول لتصبح تصوراتها الشرعية هي الحاسمة، فكما يوضح تبعاً لسلوك بعض الممثلين، والتي تكشف عن التعقيد والغموض في الموقف.

(٧٩) مقابلة خالد محي الدين مع المؤلف.

(٨٠) سعد توفيق، عضو داخل الحركة، وكان ضابطاً في المخابرات الاستخبارية. على صبرى وعبد المنعم النجار غالباً ما كانوا يساعدون الحركة. انظر: عروق، وشهادة النجار في حمروش، "شهود".

(٨١) انظر على سبيل المثال: رشاد كميل، "المرأة التي هزت عرش مصر" (القاهرة، مركز الراية للنشر والإعلام، ١٩٩٤).

(٨٢) كان حيدر ذا شعبية كبيرة في معسكرات الضباط، حتى بين الأنشطة الوطنية.

(٨٣) مقابلة خالد محي الدين مع المؤلف.

(٨٤) انظر: حسين الشافعي، التحرير، ٨ أبريل ١٩٥٣.

(٨٥) مقابلة سعيد حليم مع المؤلف. انظر أيضاً: عكاشة، ٨٠.

(٨٦) على سبيل المثال، صلاح شادي، "صفحات من التاريخ، حصاد العمر" الطبعة الثالثة. (القاهرة، مركز الراية للنشر والإعلام، ١٩٨٧)، ٢١٦.

(٨٧) انظر: أكليماندوس، Officiers et Frères Musulmans.

(٨٨) ذكريات المراغى، نقلاً من محمد الجوادى، "على مشارف الثورة، وزراء نهاية الملكية ١٩٤٩-١٩٥٢" (القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠١)، ١٥٥.

(٨٩) مقابلة جمال منصور مع المؤلف.

(٩٠) محمد حسنين هيكل، في "وجهات نظر" نوفمبر ١٩٥٢؛ خالد محي الدين، في المصور، ٢٥ يوليو ١٩٥٨، ومقابلة مع المؤلف.

(٩١) أكليماندوس Officiers et Frères Musulmans.

(٩٢) سعيد حليم وعبد الرؤف نافع في مقابلات مع المؤلف. الراحل حمدي لطفى جمع العديد من الحسابات، مع استنتاجات مماثلة. انظر حمدي لطفى، ثوار، في القسم المخصص للضباط الأحرار للإسكندرية. وآخر الضباط الماركسيين، خالد محي الدين، يوسف منصور صديق، وعثمان فوزى (في مجمل الأمور) لم يبلغ HADETO، حقيقة التأييد القوي لمطالبهم والتي لم تكن تابعة لهذا التنظيم.

٤- حيوية الرقابة المالية فى

البرلمان المصرى من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٥٢

ملاك بدرأوى

على الرغم من الكم الكبير الذى كتب عن تاريخ مصر السياسى ما بين أعوام ١٩٢٣ و ١٩٥٢ فإن قلة من العلماء هم الذين كتبوا عن البرلمان المصرى خلال تلك السنوات أو عن كيفية تعامله مع احدى الموضوعات الجوهرية الحساسة وهى الرقابة المالية ، وسوف يبين لنا هذا الفصل الكيفية التى تناول بها أعضاء البرلمان ما بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٥٢ هذه القضية من خلال استجواب الحكومة حول سوء استخدام أو اختلاس الأموال العامة^(١). كما سوف يناقش الدافع وراء تلك الأسئلة التى طرحت حول هذا الموضوع، أخذين فى الاعتبار ما إذا كانت مجردة تماما من أى دوافع خفية، أو انها مستوحاة من التحزب أو التحيز، وبالتالي كيف أن توقيت تلك الأسئلة والآثار المترتبة عليها له صلة بتلك الدوافع، بالإضافة إلى اللهجة المستخدمة فى تنديد النواب بالنفقات الحكومية الباهظة وذلك فى محاولة لحماية سمعة البرلمان ونزاهته والمحافظة على مسئوليته المدنية.

تم افتتاح البرلمان المنتخب الأول يوم الخامس عشر من شهر مارس عام ١٩٢٤ . وقام رئيس الوزراء سعد زغلول بإلقاء خطاب العرش. ولم يكن شعور سعد زغلول بالقلق إزاء الإنفاق العام وتجاوز الميزانية بالشىء المستغرب، حيث كان يشارك مخاوف معظم المثقفين المصريين الذين شهدوا إفلاس مصر، وما تلاه فى عام ١٨٧٦ من إنشاء صندوق الدين ثم احتلال بريطانيا العظمى للبلد، ولذلك فقد أكد فى خطابه على أن

الخطة المالية للسنة التالية ١٩٢٤-٢٥ كانت محسوبة بعناية، وإن ما فى الخزانة من احتياطي كافياً لتحسين سمعة البلاد، إلا أنه حذر طوال تلك الدورة^(٢) من النفقات غير الضرورية.

وكما وضع من الأسئلة التي طرحت على الحكومة خلال تلك الدورة فيما يتعلق بالفساد يعد دليلاً كافياً على أن أعضاء البرلمان قد وعوا ما يستوجب عليهم عمله. ففي إحدى المناسبات وجه النائب، محمد أمين نور استجواباً إلى نائب وزير الداخلية عما إذا كان قد قرأ ما جاء في إحدى الصحف بخصوص قيام المفتش العام للسجون بشق طريق من سجن أبى زعبل وحتى ملكية خاصة لأحد أصدقائه وذلك على حساب إدارة السجن. وأضاف النائب قائلاً إنه فى حالة ثبوت صحة التقرير الصحفي، فإن ذلك سوف يؤثر ليس فقط على سمعة الإدارة بل أيضاً على المسؤولين الحكوميين الذين يعملون بها. وأضاف النائب أن المفتش العام قام بتركيب خط هاتفى خاص بين سجن أبوزعبل، وأملاكه فى الريف، مما يوفر للمالك تكلفة خط هاتف من القاهرة، وإذا ثبت أيضاً صحة ذلك فهو يعتبر دليلاً على إهدار المال العام، واستمر موجهها كلامه للحكومة، وهل تم إجراء تحقيق؟ وماذا كانت نتيجة هذا التحقيق، وما هى الإجراءات التى اتخذت لمعاقبة المفتش وضمان عدم تكرار ذلك مرة أخرى؟

وكان جواب نائب وزير الداخلية أن وزارته قد بدأت تحقيقاً بالفعل، وأن القضية قد وضعت بين يدي المدعى العام الذى من شأنه أن يحدد الطرف المذنب؛ وعلاوة على ذلك، فإن بعض موظفى السجون الذين كانوا قد قرأوا تلك الاتهامات الموجهة ضد الإدارة طالبوا بالتحقيق كذلك، حيث إنهم يرون أن هذه الاتهامات تؤثر فى سمعتهم كذلك^(٣).

وفى مناسبة أخرى، طرح سؤال على وزير المالية بخصوص ما جاء فى إحدى الصحف من أن مصلحة المساحة التى قامت بشراء وتركيب لوحات معدنية، وقد ادعى تقرير الصحيفة أن هذه اللوحات مصنوعة من حديد الزهر وتكلفت ثلاثمائة ألف جنيه مصرياً، وأن مصير هذه اللوحات كان المخازن بعد أن ثبت عدم صلاحيتها للاستعمال

واستمرت الصحيفة قائلة إن التكلفة الفعلية لكل لوحة قدرت بجوالى ٨٠ قرشاً، فى حين كانت تكلفة الطن فى ذلك الحين ٢٠ قرشاً. وهنا طالب النائب مقدم الاستجواب بمعرفة من هو المسئول عن هذه المضاربة بالأموال العامة، وطالب معرفة ما إذا كان هناك تحقيق يجرى فى هذا الأمر، وما إذا كان الشخص المسئول قد تمت محاسبته رسمياً أم لا، وأخيراً إذا كان من الممكن إن تعيد المصلحة تلك الصفائح للمورد. وكان الرد على النائب بأن بمصلحة المساحة قد اشترت صفائح للشوارع غير مصنعة من الحديد الزهر وتكلفت ٦١٠٠٠ جنيهاً وليس ٣٠٠٠٠٠ جنيهاً. وكان مكتب مصلحة المساحة يحتاج إلى هذه اللوحات لتثبت فى الأرض لقياس قطع من الأرض مخصصة للبيع. وكانت الحكومة قد قامت بشراء تلك الصفائح المعدنية لكونها رخيصة وعند تثبيتها فى الأرض يصعب خلعها. وكان تكلفت كل صفيحة معدنية هو ٤٦, ٥ قرشاً للوحدة مقارنة بصفائح أخرى تم شرائها قبل ذلك بمبلغ ١١٤ قرش للقطعة الواحدة^(٤).

وربما كانت تلك الاستجابات البسيطة ترجع إلى قدرة سعد زغلول فى السيطرة على الأغلبية البرلمانية، أو ربما لضعف المعارضة خلال الانعقاد الأول للبرلمان، أو أن واقع الأمر أن الميزانية قد تم تخطيطها بعناية، بحيث لم تثر أى نقاش خطير خلال انعقاد الجلسة الأولى، باستثناء ما أثير حول السودان. أما المعارضة فقد تألفت أساساً من أعضاء الحزب الوطنى الذين كانوا من المصريين ومصرين على التعبير عن أفكارهم، وعلى تأدية واجباتهم البرلمانية على نحو فعال رغماً عن سخرية الأغلبية^(٥). وربما كان تعنت الوطنيين هو الذى دفع عبد اللطيف الصوفانى، وهو عضو بارز فى الحزب، فى طلب تفسير لمبلغ ٧٥٠,٠٠٠ جنيهاً مصرياً من مشروع ميزانية عام ١٩٢٤-٢٥ كرواتب للموظفين الحكوميين العاملين فى السودان^(٦). وقد أوضح هذا النائب أن كلا من الجمعية الاستشارية، والجمعية التشريعية، قد تلقت ميزانية مفصلة للسودان، وأضاف أنه لا يستطيع أن يفهم لماذا لم تكن هذه الميزانية مبررة تماماً كما كانت فى المراحل السابقة. أما الصوفانى الذى كان موقفه يتناسب تماماً مع موقف حزبه فقد اعترض قائلاً إنه لم يكن للمصريين أى إشراف على السودان، على الرغم من أن ميزانيتها جاءت من الخزانة المصرية. وعلى ما يبدو أن سعد زغلول نفذ صبره مع صوفانى،

فسأل النائب إذا كان يريد من الحكومة المصرية التفاوض مع الإدارة فى السودان، وأن يحيطها علماً بأن المصريين لهم الحق فى معرفة الهدف المحدد لهذه الأموال التى يجرى إرسالها إلى هناك. وقد قوبلت سخرية زغلول بالضحك من الأغلبية الوفدية. أما أحمد مظلوم رئيس المجلس، فقد اقترح أنه ينبغى على زغلول الذهاب إلى السودان، وأن يأخذ الصوفانى معه.

وربما كان الحس الوطنى، أو العدالة هى التى أدت إلى سؤال أحد النواب عن سبب عدم اتخاذ إجراءات تأديبية ضد السيد/ أنتونى، مدير مصلحة الأملاك الأميرية حيث كانت هناك إجراءات تأديبية قد اتخذت ضد وكيل وزارة الزراعة المصرى، عندما تم اكتشاف أن قطعة من الأرض قد استبدلت بأخرى عمداً خلال أحد العمليات. فكان الجواب إن التحقيق أظهر أن المسئولين عن هذا التزوير قد غشوا السيد أنتونى، وذلك لتسهيل إتمام الصفقة، وأضاف زغلول أنه -على أية حال- بصفته أجنبياً سوف يكون التحقيق معه فقط أمام لجنة خاصة فضلاً عن أن اتخاذ أى إجراء قانونى ضده يكون مسئولية لجنة الستة، وجميع أعضائها من الأجانب^(٧).

كان هناك أيضاً سؤال من عضو من حزب الأحرار الدستوريين وجهه إلى وزير الدفاع، مستفسراً عن سبب قيام وزارته بشراء أرز هندى، وهو أكثر تكلفة وأقل امتيازاً من الأرز المصرى. وربما كان هذا السؤال بدافع من المصلحة الشخصية حيث إن النائب الذى طرح السؤال هو عبد الحليم العلايلى من دمياط، وهى معروفة بزراعة الأرز وكان الرد أنه على الرغم من أن وزير الدفاع عبر عن رغبته فى تشجيع الإنتاج المصرى، إلا أن الأرز الراجون نمرة ٣ وهو الأرز المستورد من نوعية جيدة كما أنه أرخص من الأرز المصرى^(٨).

هنا تجدر الملاحظة أن بعض الأسئلة البرلمانية كانت تعبر عن الروح الوطنية أكثر منها عن الوعى الاقتصادى، وعلى القارئ الحديث ملاحظة أن الأعضاء كانوا ينظرون لأنفسهم على أنهم الأكثر مسئولية تجاه الشعب المصرى وخاصة ناخبهم. وطبيعة الحال فإن أسئلتهم كانت تتبع من التقارير الصحفية أو الإشاعات عن مصروفات القصر أو الجيش أو المجموعات الأخرى التى لا تقع تحت طائلة المحاسبة.

قلق البرلمان إزاء ميزانية الخاصة الملكية

تم تدشين دورة جديدة للبرلمان فى الخامس عشر من شهر نوفمبر ١٩٢٤ .
وحيث إن شعبية سعد زغلول بالإضافة إلى التشريعات البرلمانية كانت تزعج الملك، فقد حاول القصر الإطاحة بزغلول وتعليق البرلمان لأجل غير مسمى، وبعد اغتيال السير لى ستاك قامت بريطانيا بتوجيه إنذار إلى رئيس الوزراء، مطالبة باستقالته. ومع ذلك، فإنه ثبت استحالة تحقيق الرغبتين. ونظرا للضغط الشعبى القوي، وقعت انتخابات برلمانية جديدة شملت مرشحين من حزب الاتحاد الجديد، الذى أنشأه القصر لمعارضة زغلول وحزب الوفد. وكانت النتيجة تشكيل حكومة ائتلافية واستمر الوفد يحتفظ بالأغلبية؛ ونجاح سعد زغلول فى الحصول على رئاسة مجلس النواب، وأصبح هناك أعضاء فصحاء من جميع الأحزاب يتميزون ببلاغة التعبير، بمن فيهم أعضاء من حزب الأحرار الدستوريين.

ربما كان تعليق البرلمان لعدة شهور قد أزعج الأعضاء. وبالقالى، نجد أن واحدة من الخصائص الأكثر بروزاً فى هذه الدورة هو الجهد المشترك للحد من مصروفات القصر^(٩). وقد بدأ ذلك بانتقادات من جانب مجلس النواب "اللجنة المالية" خلال عرض تقريرها المالى عن الميزانية المقترحة للفترة ١٩٢٦-٢٧ . وكان يرأس هذه اللجنة الوزير السابق إسماعيل صدقى، الذى لفت الانتباه إلى أن تقديرات ميزانية الخاصة الملكية بلغ ٨٦٦,٩٧٩ جنيهاً مصرياً بزيادة قدرها ٥٦,٩١٧ جنيهاً عن عام ١٩٢٥، وبزيادة ٦١,٦٥٠ عن عام ١٩٢٤ .

وبدأ صدقى فى عرض عدة ملاحظات حول المبالغ التى يصرفها الملك فؤاد على ديوانه الخاص مبيناً أن هذه المصروفات قد زادت بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٩ بشكل مطرد من ٨٢,٦٠٣ جنيهاً إلى ١٦٩,٣٠٨ جنيهاً. وإضافة إلى ذلك، كانت هناك زيادة ملحوظة اعتباراً من عام ١٩٢٠، حتى عام ١٩٢٦ وقد بلغت هذه التكاليف ٦٠٣,٦٩٩ جنيهاً. وعلاوة على ذلك، كانت هناك زيادة غير مبررة فى مصروفات الحرس الملكى، الذين تزايد عددهم من ٥٣٦ من الحراس والضباط فى عام ١٩١٤ إلى ١١١٩ فى ١٩٢٦^(١٠).

كان رد وزير المالية لصدقي أنه خلال سنوات الحرب كانت زيادة أفراد الحرس الملكي ضرورية لتأمين القصور الملكية، وبعد ذلك لم تتم أية تعيينات حتى عام ١٩٢٥، ولكن رئيس اللجنة المالية اعتبر هذا الجواب غير مقبول، بما أنه في ١٩١٤ لم يكن هناك سوى قصرين يتم حراستهما، وبالتالي أوصت اللجنة المالية بخفض عدد أفراد الحرس الملكي، وبدلاً منه زيادة عدد الجنود في الجيش حيث إن ذلك كان أقل تكلفة وعبئاً على الميزانية^(١١) وأن استخدام مجندى الجيش سيكون أكثر اقتصادياً؛ وعلاوة على ذلك، فإن الملك لم يكن فقط القائد العام للجيش، ولكن كلا من الفرسان والمشاة كانوا تحت تصرفه المطلق.. واقترح صدقي ذكر هذا الأمر للملك عند إثارة تدابير خفض المصروفات. وقد أدى إصرار صدقي على خفض الاعتمادات المخصصة للقصر إلى إسهام الملك فؤاد في محاولات الإطاحة به بعد ذلك.

يضاف إلى ذلك، أن رواتب المسؤولين في الديوان الملكي تتجاوز رواتب العاملين في الإدارات الحكومية الأخرى. ومن ناحية أخرى، فقد تركت السلطة التقديرية لتعيين وترقية المسؤولين في الديوان الملكي، لصاحب الجلالة، إلا أن هذا النظام لم يكن ليتفق مع لوائح صياغة الميزانية. لذلك، فإن اللجنة أوصت بأن تكون قواعد توظيف موظفي الخدمة المدنية مماثلة للوائح موظفي القصر. وفي هذه الحالة فإن نقل موظفين من القصر الملكي إلى إدارات أخرى، لن ينتج عنه خفض معاشاتهم التقاعدية أو التأثير على نظم ترقيةاتهم.

وكانت اللجنة قد لاحظت كذلك وجود صناديق احتياطية تم إنشاؤها لكل فئة من فئات العاملين في القصر، وفي عام ١٩٢٦، وصلت أرصدها إلى ٦,٣٠٢ جنيهاً إلا أن هذا النظام لم يكن موجوداً قبل عام ١٩٢١، وأوضحت وزارة المالية أنه في فترة ما احتاج الموقف إلى رفع الرواتب من أجل تحديث وظائف جديدة، وهكذا فقد اتبعت الخاصة الملكية تضمين صندوق احتياطي في ميزانيتها التقديرية بغرض دفع المصروفات الناتجة عن زيادة الرواتب أو التعيينات الجديدة وكان ذلك استجابة للأوامر الملكية (الايادة ألسانية) ومع ذلك فقد رأت اللجنة أن جميع المسؤولين والموظفين يجب معاملتهم على قدم المساواة، سواء أكانوا يعملون لدى القصر أو الحكومة. كما دعت كذلك إلى إلغاء الائتمان الإضافي.

أما البند الثانى الذى ورد ذكره فكان خاصاً بالباخرة الملكية، ففى بادئ الأمر كان من المفترض بناء هيكل الباخرة فى مصر، وشراء الآلات من إنجلترا ثم إحضارها إلى مصر ليتم التجميع وقد تم فتح خط ائتمانى بمبلغ ٢٠,٠٠٠ جنيهاً لهذا الغرض، ثم تقرر بعد ذلك وعلى الأرجح من قبل القصر، بناء الباخرة بأكملها فى إنجلترا، وبالتالي رفع السعر إلى ٨٨,٠٠٠ جنيهاً، بفارق ٥٨,٠٠٠ جنيهاً، ثم أضيف مبلغ ٢٦,٠٠٠ جنيهاً قيمة شراء أثاث وأكسسوارات وهكذا وصل السعر إلى ١١٤,٠٠٠ جنيهاً ولذا كان مطلوب دراسة متأنية لهذه العناصر الجديدة، ونظراً لعظم الفروق بين التقديرات الأولى والأخيرة فى تكاليف هذه الباخرة فقد اقترحت اللجنة استخدام موظفين من اليخت الملكى، بدلاً من تعيين أشخاص جدد.

شملت قائمة النفقات الملكية المتعلقة عمل إصلاحات فى القصور الملكية، قدرت بمبلغ ٤٠٢,٧٥٩ جنيهاً مصرياً، على أن يتم تسديد هذه المبالغ على مدار خمس سنوات، ابتداء من عام ١٩٢٠. وقد قبلت اللجنة دفع هذه المبالغ التقريبية ووجهت مذكرة إلى مجلس النواب توصى فيها بأن تدفع هذه المبالغ، ومع ذلك فقد دفعت مبالغ إضافية من قبل وزارة المالية وصلت إلى ١١٣,٠٠٠ جنيهاً فى عام ١٩٢٦ وكانت هذه النفقات الجديدة نتيجة للتغيرات فى سعر الأرض التى شيدت عليها هذه المباني، فضلاً عن التعديلات التى أدخلت على الخطة الأصلية لعام ١٩٢٠، مما يعنى أنها قد تجاوزت التقدير الأصلى، وأخيراً، وجب إجراء إصلاحات للواجهات الخارجية لقصرى المنتزه والقبة على حد سواء بحيث تصلح كإقامة مناسبة للملك. وقد رأى صدقى الحاجة إلى تحويل المسؤولية عن هذه المباني من الديوان الملكى إلى الإدارة العامة للمباني الحكومية فى وزارة الأشغال.

عند انتهاء صدقى من قراءة تقرير اللجنة المالية، اقترح ثلاثة نواب هم عبد الرحمن عزام، وأحمد عبد الغفار وعبد الخالق عطية تقديم المذكرة التالية إلى الملك:

"يرى مجلس النواب أن النفقات الملكية قد تزايدت بسرعة كبيرة خلال السنوات القليلة الماضية، بحيث تجاوزت إلى حد كبير أحكام الميزانية السنوية، وذهبت إلى أبعد من التكاليف المقدرة بالنسبة لثروة البلاد، ومكانتها بين الدول الأخرى. لكن مع ذلك،

وبدافع من الولاء للوطن واحترام مكانة الملك، وانطلاقاً من الرغبة فى تفهم جلالة الملك وشعوره بالعدالة قد قرر المجلس عدم إنقاصها. وبدلاً من ذلك، يناشد المجلس جلالة الملك إلقاء نظرة محايدة على هذه النفقات، وذلك للحد من الأعباء على خزينة الدولة، وإتاحة الفرصة لها لتكون مثلاً تحتذى به الأمة فى الإدارة السليمة والاقتصاد الجيد^(١٢).

وكان تعليق أحد النواب أنه من الضرورى التعامل مع هذا الموضوع بحذر شديد، وأن الرسالة ينبغى أن تتضمن بندا يؤكد على ولاء النواب للملك. وكان هذا التعلق الظاهر يخفى أمل النائب فى الحد من الميزانية المخصصة للملك. ولذلك قال صدقى لمجلس النواب أن اللجنة وافقت على عدم منح الائتمان المقدر بمبلغ ٦,٣٠٢ جنيهاً اللازم لصندوق الاحتياطى المذكور، وأن وزارة المالية خصمت ٢,٥٠٠ جنيه مصرى من اعتماد السفر، والزى الرسمى، وما إلى ذلك. وتم تمرير المذكرة إلى الملك، وكان الاعتراض الوحيد من قبل النائب الذى يريد فرض تخفيضات^(١٣) انه من الممكن أن تؤدى مهاجمة الملك فؤاد شخصياً إلى عواقب وخيمة ضد عضو البرلمان المعارض.

كان لهذه النتيجة الحد الأدنى من الفعالية، لأنه أثناء مناقشة الميزانية للسنة المالية التالية ١٩٢٧-٢٨ قال النائب محمد العبد إن الأموال المخصصة للأسرة المالكة قد أصبحت عبئاً على الميزانية، وإنه كان من الأفضل استخدام هذه الأموال لصالح المستشفيات والمدارس، وغيرها من الخدمات والمرافق^(١٤) أما أحمد محمد عبد الغفار، وهو عضو فى حزب الأحرار الدستوريين، فقد أشار إلى أنه فى السنة الماضية، عندما قدمت هذه الميزانية إلى المجلس متضمنة محفظة الخاصة الملكية، وكذلك نفقات العائلة المالكة، رأى أغلبية أعضاء المجلس أن هذه التكاليف تتعارض مع الإيرادات والموازنة العامة للدولة. ومع ذلك، وانطلاقاً من الاحترام الشخص الجالس على العرش تمت الموافقة على عدم تعديل الخطة المقترحة وأنه فى العام التالى سوف تعكس الميزانية الملكية على نحو أفضل الحالة المالية للدولة^(١٥).

علق عبد الغفار مظهرًا خيبة أمه، قائلاً إن رسالة رئيس الديوان الملكى هذا العام، والتي عادة ما تظهر براعة تقليدية أو ليونة، فشلت فى إظهار حتى قليل من الكياسة أو احترام لسلطة الدولة، مما يعنى ضمناً أن ميزانية القصر لم تكن من مسئولية المجلس ولم توفر أية معلومات عن تقديرات إصلاح وصيانة القصور، كما أن رئيس الديوان الملكى، توفيق نسيم، لم ينظر حتى فى اقتراح المجلس تخفيض اثنين وسبع من عشرة من عدد الحرس الملكى. وقد أشار النائب أن هذه الخطة المالية تميزت بتبديد وإسراف لا حدود له، مما يتبين منه أن الحالة المالية للدولة لم يكن لها تأثير على واضعى تلك الخطة. بل إن هذا البند من الميزانية الذى تصل قيمته إلى ٤٧٨, ٧٤٣ جنيهًا مصرياً كان لا يزال يتعارض مع المبالغ التى تحصلها الدولة بفارق حوالى ٣٦ مليون جنيه مصرى، وخصوصاً عند مقارنته بالميزانية البريطانية، والتي لم تتجاوز ٥٦٣, ٠٠٠ جنيه إسترلينى، على الرغم من أن هذا كان ناتج عائدات تبلغ ٨٠١ مليون جنيه إسترلينى^(١٦).

وقارن عبد الغفار تكاليف إصلاحات قصرى المنتزه والقبة، والتي بلغت تسعة آلاف ومائة جنيه وألفين وخمسمائة جنيه على التوالى^(١٧) مع التكاليف المقابلة فى عام ١٩٢٠، عندما عرضت مناقصة لترميم وصيانة جميع القصور لتصل إلى ٤٠٠, ٠٠٢ جنيه مصرياً. كذلك، ارتفعت النفقات التى تكبدتها الحكومة فيما يخص الديوان الملكى من ٨٢, ٠٠٠ جنيه فى عام ١٩١٤ إلى ٦٢٠, ٠٠٠ جنيه فى عام ١٩٢٦ وهى زيادة هائلة. وفى عام ١٩٢٧، كانت ميزانية الديوان ٤٨٠, ٠٠٠ جنيه مصرى. ثم كانت هناك زيادة فى رواتب العاملين بالقصر وتكاليف المعدات. وبالتالى، فكيف يمكن للشخص الجالس على العرش أن يسمح للدولة بتغطية هذه النفقات؟ مثل هذا الوضع ربما كان يكون مقبولاً فى عام ١٩١٩ عندما كان الدخل الملكى غير مناسب، ولكنه غير ملائم لنظام دستورى سليم^(١٨) وقد ألقى عبد الغفار باللوم على حسن نشأت، نائب رئيس الديوان الملكى، حيث إنه كان "يريد أن يظهر للناس أن وزراء الحكومة هم وزراء للبلاد، بينما القصر كان له حكومة أخرى"^(١٩).

وقد خُصَّ النائب إلى القول بأنه لا يمكنه تقديم اقتراحات إلى مجلس النواب، وأن ما قد دفعه إلى تقديم ملاحظاته كان التزامه للملك، الذي كان قد منح مصر دستورها. عند هذه الكلمات المخادعة حدثت جلبة فأضاف أن بعض الناس من ذوى الآراء حول صياغة الميزانية يعتبرون الانضمام إلى الحكم الدستوري يتعارض مع الولاء للعرش: "نحن نقول لهم من أعلى هذا المنبر إننا الأكثر ولاء للعرش، والأكثر تأييداً ومساندة له، ولكن فى نفس الوقت نحن من أشد المؤمنين بالدستور، لأنه من خلاله تنبع كل سلطة من الأمة"^(٢٠). وكان الكل يعلم أن الملك يكره دستور ١٩٢٣، الذى كان يعتقد أنه اضطر لقبوله من قبل البريطانيين.

أعلن نائب آخر، هو محمد كامل الأسيوطى، عن أسفه لأن السياسة الحالية كانت تركز على الاستهلاك الوظيفى وكانت الميزانية التى يجرى النظر فيها قد جاءت فى وقت كانت فيه رواتب موظفى الحكومة قد تم تجميدها، ومع ذلك كانت حقوق المسؤولين فى حاجة لان تؤخذ فى الاعتبار وأضاف أنه يريد أن يعرف ما إذا كانت المسئولية عن هذا العبء الثقيل تقع على عاتق وزارة المالية؛ أو المجلس، أو الاثنين معاً؛ وأضاف أنه "مقتنع تماماً أنه إذا تم إبلاغ صاحب الجلالة بالمخاطر المحيطة بالميزانية الوطنية سيكون أكثر سخاء أو شرفاً مثل هؤلاء الملوك الذين تخلوا عن جزء من مخصصاتهم المالية لتفادى الخطر على أمتهم". ومع ذلك، كان الأسيوطى يعتقد أنه بما أن البرلمان لديه السلطة والمسئولية عن هذا البلد فقد كان من الواجب أن يتصرف بقوة مع القيود المالية واقترح خفض مبلغ ٢٥,٧٨٠ جنيهاً المخصصة لأثاث القصر والبندوات الصلة من الميزانية الملكية.

وكان هناك نواب آخرون أضافوا تعليقاتهم ومعظمهم ناقش موضوع المسؤولين بالقصر الملكى وعبر العضو مصطفى الشورى من الحزب الوطنى، عن أسفه لكون ثمن حاصل ضريبة الدخل الزراعى تبدد على مصروفات الديوان الملكى. وقد انتقد هذا النائب بشدة المصروفات المدفوعة لصيانة اليخوت الملكية، التى كانت عاطلة بين عامى ١٩٢١ و١٩٢٦، على الرغم من أن أكثر من نصف مليون جنيه أنفقت عليها^(٢١).

من بين الاقتراحات قيد البحث كان هناك اقتراح لتقديم التعليقات التى أدلى بها المجلس إلى الملك، الذى سوف يتصرف حسبما يرى، فى حين يتكفل المجلس فى السنة التالية بصيانة وإصلاح القصور واقتراح عضو آخر إعادة مشروع الموازنة إلى لجنة الشئون المالية بالمجلس، التى من شأنها تخفيض الميزانية الملكية إلى ما كانت عليه بين عامى ١٩١٥ و ١٩١٨^(٢٢). كان إسراف القصر قد أغضب العديد من النواب فى وقت كانت فيه إيرادات الدولة لا تزال صغيرة جداً (على سبيل المثال، كانت التعريفات الجمركية على البضائع المستوردة منخفضة)، ونفقات الدولة كثيرة (مثل عدم السيطرة على الاحتلال العسكرى البريطانى وحكومة السودان من قبل البرلمان).

تضييق الخناق على المؤسسة الدينية

كان اسم نشأت قد أثير قبل بضعة أيام من المناقشة أعلاه. وبهذه المناسبة، قدم استجواباً، جاد اللهجة يتضمن تساؤلات قاسية موجهاً إلى وزير الأوقاف الذى كان يدير الأوقاف الخيرية أيضاً. وقد سئل الوزير عما إذا كان قد قرأ تقرير نشرته إحدى الصحف بشأن استلام رئيس جامعة الأزهر عدة دفعات من النقود من المؤسسات الخيرية ما بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٥، تقدر قيمتها بنحو ٣,٠٠٠ جنيه وهل راجع الوزير السجلات الرسمية لمعرفة ما إذا كان رئيس الجامعة قد حصل بالفعل على تلك الأموال؟ وإذا كان الأمر كذلك، فأين صرفها، ومن الذى أذن له باستخدام أموال الأوقاف الخيرية؟ علاوة على ذلك، هل كان رئيس الجامعة يتمتع بسلطة إنفاق مبالغ من هذا القبيل، وهل سبق له فعل ذلك قبل عام ١٩٢٤، أى منذ الوقت الذى تم تعيينه لرئاسة الأزهر؟

وإذا كان الرد بالإيجاب، ألم يكن من واجب الوزير محاسبة رئيس جامعة الأزهر؟ وأن يطلب منه تسوية الحسابات كما كان أيضاً على الوزير التحقيق لمعرفة من ذا الذى خول رئيس الأزهر بإنفاق هذا المبلغ دون سبب فعال^(٢٣)؟

ومعتلياً المنصة أكد النائب خليل إبراهيم أبو رحاب على خطورة استجوابه: حيث كان عميد الأزهر قد طلب رسمياً مبلغاً وقدره ٢,٥٠٠ جنيه من وزارة الأوقاف ، كتكاليف تشغيل المعاهد الدينية. كما طلب رئيس الجامعة كذلك أن يتم خصم ذلك المبلغ من حساب تلك المعاهد.

ومع ذلك فإن المعاهد الدينية لم تكن فى حاجة لتلك المبالغ، فقد استخدمها رئيس الجامعة كمبرر لإنفاق المال دون إبلاغ وزارة الأوقاف. وحقيقة الأمر هو أن رئيس الجامعة أراد أن ينفق تلك المبالغ بحرية على مؤتمر كان يشار إليه تحت اسم، "مؤتمر الخلافة" فهل يعلم النواب الشرفاء تفصيلاً كيفية إنفاق هذا المبلغ؟

"لقد أنفق المبلغ للصرف على قمة بانخة استفاد منها عدد قليل من غير المستحقين ولأغراض كانت محيرة للعقل، وهكذا حصل السيد رشيد رضا على مبلغ ٥٦٨,٨٦٠ جنيهاً كمكافأة على جهوده خلال الأشهر القليلة الماضية فى الإشراف على المجلة التى تغطى المؤتمر فهل يعلم النواب الشرفاء كم عدد من المجلة تم نشره ؟ وهل هم على علم بما قد استتبع هذا الإشراف؟ فلم يطبع سوى تسعة أعداد من هذه المجلة، مما يعنى أن الإشراف على كل عدد قد كلف الدولة ٦٥ جنيهاً".

وكان النائب قد أحضر معه نسخاً من تلك المجلة وقال إن عدداً واحداً منها نشر قبل عامين، أى فى عام ١٩٢٥، كان قد خصص لموضوع الشيخ على عبد الرازق مؤلف الكتاب الجدلى "أصول الحكم فى الاسلام". كما تم الدفع أيضاً لرشيد رضا للإشراف على إعادة طبع تلك النسخة، وعلق النائب بسخرية قائلاً إنه من المؤكد أن مثل هذا الحمل الثقيل من العمل كان مرهقا لرشيد رضا^(٢٤). وهنا تجدر الإشارة إلى أن القراء يتذكرون كيف أن الأحزاب السياسية كانت منهمكة بشدة فى الخلاف الدائر حول الجدل الذى أثاره عبد الرازق فى عام ١٩٢٥ فى بحثه، حيث إن عبد الرازق أشار فى دراسته إلى أن الإسلام لم يكن بحاجة إلى خلافة - فى وقت كان فيه الملك فؤاد يرغب فى المنصب لنفسه - رغم تظاهره بغير ذلك. كما كان العديد من المسلمين المصريين، وخاصة الأزهريين، يريدون استعادة تلك المؤسسة العريقة والعودة بها إلى القاهرة.

وقد فصل النائب غيرها من النفقات التي صرفت خلال المؤتمر، ومنها ١٦٤ جنيهاً و٢٥٨ مليمًا واحد وصلت الشيخ أبو العيون لتأجير ركائب أو (خيول أو على الأرجح حمير)، وهناك ١١٦ جنيهاً و٧٨٦ مليمًا أخذها شيخ آخر لنفس الغرض. وطالب النائب بتهكم لاذع من المجلس عدم تجاهل الملايم لأنها ترمز إلى الصدق والدقة من قبل الشيخين المذكورين أنفًا، والذي يمنعهم من قبول مليم واحد أكثر من المبلغ المستحق لهم . كما أنه كان على استعداد لأن "يقسم" أن كلا الشيخين لم يصرفا نصف هذا المبلغ على الركائب. كما أن نفس تلك "الأمانة" أثرت على العديد من النواب الآخرين الذين كانوا قد عرضوا خدماتهم مجانًا كأمناء للمؤتمر. ثم حدد أبو رحاب اثنين، هم: عبد الباقي سرور ومحمد فرج المنيأوي، أولهم حصل على مبلغ ١٧٢ جنيهاً للتنقل بمركبة، والثاني حصل على مبلغ ٦٤, ١٧٠ جنيهاً بغرض استئجار خيول، وكان هناك أيضاً مبلغ ١٥٦, ٤٩٠ جنيهاً لطباعة مجلة المؤتمر. وأخيراً كان هناك الشيخ عبد ربه الذي أخذ ٣٠ جنيهاً دون أي مبرر.

وواصل النائب قائلاً إن مما كان مثيراً للدهشة، هو أن مبلغ ٢, ٥١٩ ومليم واحد قد تم إنفاقه على هذا المؤتمر من أجل الخلافة، ولكن المبلغ الذي استلمه عميد الأزهر كان بالضبط ٢, ٥٠٠ جنيهاً مما يدل على أن أمين المؤتمر الشيخ حسين والي، قد دفع شخصياً مبلغاً إضافياً هو ١٩, ٠٠ جنيهاً، وقد قارن النائب بين هذا الشيخ الذي حاول تعويض العجز في تكاليف المؤتمر من جيبه الخاص، وبين الآخرين الذين استولوا على هذا المال بأعذار واهية. وكنتيجة لسرد تلك المعلومات، يتضح للسادة النواب الشرفاء المبالغ الكثيرة من أموال الأوقاف التي أهدرت في خدمة الخلافة. وأليس النواب الذين أخذوا تلك النقود، ألم يكن هذا الحادث دامغاً بما يكفي لتوجيه الاتهام إلى أولئك الذين استولوا على الأموال العامة، وتقديمهما إلى مكتب المدعى العام؟ كان الدين هو ذريعة لإنفاق هذه الأموال، في حين أنها كانت تنفق على الولائم والشراب والعيش المترف لأمثال الشيخ أبو العيون والشيخ محمد قنديل الرحمانى محامى الشريعة^(٢٥)، وبالتالي ناشد نائب الدائرة وزير الأوقاف إجراء تحقيق مع عميد الأزهر ومشايخ آخرين ، أو أن يطلب من رئيس مجلس الوزراء تقديم تقرير عن هذه الأنشطة إلى مكتب المدعى العام.

وكان شرح النائب المليء بالاستهزاء قد قوبل بالمرح من البداية، فى حين أن وزير الأوقاف، محمد نجيب الغرابلى استاء من استخفاف النائب وقال الغرابلى إنه أبلغ بالفعل عن هذا الحدث خلال الجلسة فى وقت سابق مستشهداً بمراسلاته رئيس جامعة الأزهر. وأكد كذلك أن خليل إبراهيم أبو رحاب تحدث عن مؤسسة، هى جديرة بالاحترام والتكريم بصرف النظر عن سلوك أعضائها. إلا يوافقه بقية الأعضاء على ذلك؟ وهل ينتظرون منه شرحاً إضافياً، ولأسف الوزير عبر النواب أنهم بالفعل كانوا فى انتظار شرح منه^(٢٦).

هنا قال الغرابلى إنه سيوضح ما قام به رئيس جامعة الأزهر دون أن يكون من الضرورة موافقاً عليه، أن ما يؤخذ على العميد فى اعتقاده، أنه كان قد طلب مبالغ من أجل المعاهد الدينية، فى حين أنه كان واضحاً من السجلات أنه قدم إلى وزارة الأوقاف ما يثبت أنه أنفق المال على المؤتمر. إلا أن رئيس الجامعة لا يرى أى تناقض فى هذا. ففي الواقع، قد أصبحت مسألة الخلافة مهمة للمسلمين فى جميع أنحاء العالم فى خلال الأعوام ١٩٢٤-٢٥، كما أنه من واجب كل مسلم أن يعرب عن قلقه إزاء هذه القضية بعد إلغاء مكتب المفوضية فى تركيا، ووفقاً لرئيس الجامعة فلم يعد المسلمون خليفة، والشريعة تلزم المسلمين بالالتقاء ومناقشة هذه المسألة المهمة، بالإضافة إلى أنه يعتقد أنه على العلماء قيادة تلك الجهود الدينية.

وحيث إن علماء الأزهر ينظر إليهم على أنهم طليعة الفكر الإسلامى فقد قرروا تنظيم مؤتمر حول الخلافة مع المسلمين القادمين من مناطق أخرى، وكانت المبالغ المذكورة قد أنفقت على هذا الاجتماع. وكان ذلك هو الرأى الذى أورده رئيس جامعة الأزهر، أى أنه أنفق المال فى المؤتمر انطلاقاً من الأيمان الصادق إنه يساعد المعاهد الدينية. وقد أكد الغرابلى على الدهشة الفائقة لرئيس الجامعة من هذا الاتهام لا اعتقاده بصدق أن إنفاق هذا المبلغ له ما يبرره.

أما بالنسبة للاقتراح الذى يفيد أنه على وزير الأوقاف أن يقدم رئيس الجامعة للمحاكمة بسبب تصرفه فقد أشار الغرابلى إلى أن المؤسسات الدينية لا تتبع وزارته

حتى لو تبين أن أحد العاملين كان مذبذباً فليس من حق الغرابلي أو أى شخص آخر أن يعاقبه، كما أنه ذكر المجلس أنه على الرغم من عن كون إعداد المراسلات من أعمال رئيس الأزهر فإنه كان فقط يشرف على آخرين كانوا بالفعل يعدون تلك المراسلات. يضاف إلى ذلك أنه كان رجلاً مسناً وأن متطلبات مهنته كانت تحول دون قيامه بكتابة المراسلات الرسمية. وبكلام مطاط، أضاف الغرابلي أنه عندما كان وزيراً للأوقاف فى وزارة سعد زغلول^(٢٧) لم يخبره أحد البتة أن النقود المخصصة للمعاهد الدينية كانت ترتبط بمؤتمر الخلافة. وأضاف بصفة رسمية أنه لم يجد أية مستندات فى الوزارة تنم عن مثل ذلك الارتباط. فى ذلك النزاع نزاع بين الوزارة وإدارة المعاهد الدينية حول تلك الأموال. ورغم أن الوزارة توافق على أن هذه الأموال تم تبديدها إلا أن إدارة المعاهد الدينية تصر من جانبها أنها استعملت للغرض المطلوب.

وأضاف الغرابلي قائلاً: إذا كان الشاغل الرئيسى للمجلس هو إعادة تنظيم المؤسسات الدينية ومن ثم تحسينها فمن الممكن تحقيق هذا الهدف من خلال تعليمات وتوجيهات جديدة تعطى للحكومة، ومن ثم للبرلمان الحق فى الإدارة والإشراف على ميزانية تلك المؤسسات. كما أن هذا سيكون أكثر نفعاً فى رأيه للوصول إلى الإصلاح المطلوب بدلاً من ملاحقة الأشخاص المذنبين^(٢٨).

أما أحمد رمزى وهو النائب الذى تحدث بعد الغرابلي فقد قال إن خطة إعادة تأسيس الخلافة بدأت أول ما بدأت فى عام ١٩٢٤ بدون أى مقاومة. ولقلقه من هذا الموضوع، فقد سأل رئيس الوزراء سعد زغلول عن ما هو مفهوم الخلافة بما أنه فى واقع الأمر لم يكن هناك من يرغب فى ذريعة أخرى - مثل قناة السويس - لإطالة الاحتلال البريطانى لمصر. وكانت إجابة سعد زغلول أن الملك فؤاد قد تخلى عن فكرة أن يصبح خليفة. ومع ذلك، فإن الفقهاء المسلمين استمروا فى عقد لقاءات مطولة فى البلاد حتى حُلَّ البرلمان فى نوفمبر ١٩٢٤. ونتيجة لذلك، فإن أعضاء البرلمان وجدوا أنفسهم بدون منصة تمكنهم من التعبير عن آرائهم. ومن ثم، فقد لجأ رمزى إلى الصحافة من أجل مهاجمة فكرة الخلافة. وأنه تذكر هجوماً عنيفاً من قبل حافظ عوض

وهو أحد الزملاء وكان يشغل منصب رئيس تحرير صحيفة "المحرسة"، الذي أصر على أن الخلافة أمراً ضرورياً ومن الأفضل أن يكون مقرها هو القاهرة، وشعر رمزي بالقلق، مشيراً إلى أنها لن تفيد البلاد من أى جهة. وقد ذكر رمزي كل ذلك حتى ليبين للمجلس أنه على الرغم من كون البرلمان متزعزع الرأى بالنسبة للخلافة فإن رئيس الجامعة لم يتوان عن طلب أموال تحت ستار معين وصرفها فى مجال آخر. وانتقد رمزي الوزير بسبب ما جاء على لسانه من وجوب شرح الموضوع من وجهة نظر رئيس الأزهر، فقد تم صرف الأموال، والسؤال هو: هل يتم طلبها من رئيس الجامعة أم من الأفضل السكوت خوفاً من الاتهامات التى يتم غرسها فى الصحافة^(٢٩).

وكان النائب الثانى الذى تكلم هو المحامى يوسف الجندى الذى قرأ كل ما كتب عن ذلك الموضوع لتحديد مسئولية النقود التى أسىء إنفاقها. وكان الجندى قد توصل إلى أن الخطاب الأول المؤرخ ٢١ مارس ١٩٢٤ المعنى بمطالبة مبلغ خمسمائة جنيه فى صورة قرض كان قد أرسلها رئيس جامعة الأزهر ولكن ليس بتلك الصفة ولكن بصفته رئيس المجلس الأعلى للأزهر، وأن ذلك وثيق الصلة بالموضوع كما سوف يبين جندى للسادة النواب. فحسبما جاء فى الخطاب، فإن رئيس الأزهر كان فى حاجة إلى ذلك المبلغ حتى يغطى مصروفات المؤسسات الدينية. ولكن ما يثير الدهشة هو أن من وقّع على هذا الخطاب كان حسن نشأت وكيل وزارة الأوقاف الذى أصبح حالياً ناظر الخاصة الملكية. وحصل نشأت على المبلغ من وزارة الأوقاف. وقد لفت الجندى نظر النواب إلى السرعة التى تم بها الموضوع، ويتبين من ذلك وجود عوامل خفية لعبت دوراً كما وأن رئيس الأزهر لم يكن المخطط الوحيد. كما لم يكن من الممكن اعتبار الغرابلى مسئولاً عما حدث ذلك لأن الوزير كان قد تم نقله للتو من وزارة العدل إلى وزارة الأوقاف. على ذلك فإن المسئولية تقع برمتها على نشأت وحده^(٣٠).

كون رئيس الأزهر قد أساء استخدام النقود يعد فى حد ذاته أمراً خطيراً، بما أن القانون الداخلى للأزهر يمنع رئيسه أو رئيس المجلس الأعلى للأزهر من طلب نقود من أجل مشروع معين وصرفها فى مشروع آخر. فقد كانت القوانين الداخلية تنص أنه

المسئول عن أخلاقيات العاملين وعليه المحافظة على سمعتهم. كما كان صحيحاً كذلك أن تصرف رئيس الجامعة لم يكن له أى تأثير سبب على الدين أو على أى مؤسسة دينية. إلا أن الذى أثر على الدين كان السماح بوقوع تصرفات خاطئة. فقد كان من غير اللائق بالنسبة لشخص فى مكانة رئيس الجامعة أن يتصرف بمثل ذلك التصرف. كما أن الرغبة فى إنقاذ مؤسسة الخلافة كان عملاً شرعياً، واعتقد رئيس الجامعة أنه كان ضرورياً، إلا أنه كان يجب فى هذه الحالة أن يكون صرف الأموال على نفقته الخاصة، وعلى ذلك فإن استعمال أموال من أموال الوقف كان أمراً لا يمكن قبوله. ومع ذلك فمما يخفف من مسئولية رئيس الجامعة هو أن الخطابات الموجهة إلى وزارة الأوقاف كانت موقعة من قبل رئيس المجلس الأعلى مما يفيد أن قرار المجلس وليس فقط قرار رئيس الجامعة هو السارى. وعلاوة على ذلك، فإن الأموال المطلوبة قد وضعت فى الحال فى خزانة الأوقاف، كما أن النواب الآخرين قد أخذوا جزءاً منها. وهكذا، وفى ١٦ ديسمبر ١٩٢٤ تم أخذ مبلغ ٥٠٠ جنيه من أموال الأوقاف بناءً على طلب رئيس المجلس الأعلى للأزهر، ولكن فى ٧ ديسمبر سئل نشأت بصفتة وكيل وزارة الأوقاف عما إذا كانت هناك نقود من أموال الوقف، مما يفيد أن آخرين كانوا يحاولون الحصول على نقود من الوقف من أجل مؤتمر الخلافة^(٢١). واقترح النواب^(٢٢) خطة عمل صوت المجلس عليها بالإجماع:

أولاً: الطلب من الحكومة التحقيق فى الأمر ومتابعته قانونياً، ثم الطلب من رئيس الجامعة إعادة المبلغ وذلك بعد أن يثبت التحقيق مسئوليته.

ثانياً: وضع المؤسسات الدينية تحت مراقبة وإشراف رئيس الوزراء ثم الطلب من الحكومة البحث فى تحسين إدارة تلك المؤسسات حتى يفوا بمتطلبات الإصلاح^(٢٣). ولا يبدو من تلك المناقشات درجة احترام النواب وهم من ملاك الأراضى ومن الرجال المهنيين لهؤلاء "العلماء" ولكن مما لاشك فيه أنهم كانوا ينظرون إليهم على أن القصر كان يتلاعب بهم.

ورغمًا عن عدم ذكر ذلك مباشرة، فإنه كان بالكاد يمكن اعتبار الملك ألعوبة حيث إن النواب الذين يعرفونه شخصيًا كانوا يعلمون أن فؤاد كان بارعا ومستغلا ويميل إلى إحاطة نفسه بالمتذللين. وكان نشأت أحدهم، وتوفيق نسيم مدير الخاصة الملكية الثانى. ولم يكن أيا منهما محبوبا من الشعب، ولكن مما لاشك فيه أن نشأت كان أكثر مراوغة وخداعًا ونشاطا سياسيا. وكانت نهاية الإمبراطورية العثمانية فى ١٩٢٣ قد أشعلت طموح الملك فؤاد ليصبح خليفة. ورغم أن معظم المثقفين من الشعب المصرى قد عارضوا فكرة الخلافة إلا أن نشأت كان نشطا فى الترويج لفكرة الملك. وبسبب منصبه كوكيل وزارة الأوقاف كان على اتصال بأهم العلماء. وقد تقرب من هؤلاء العلماء فى محاولة لجعلهم يتبنون فكرة الخلافة. وهكذا بدأ المؤتمر حيث تم دعوة أكثر العلماء تأثيراً تساندهم حملة صحفية كبيرة.

كان من المعروف أن مصر بأكملها تكره نشأت كما كانت واجهته المنمقة تخفى نزعة طبيعية نحو المخادعة والكيد^(٣٤)، وعلى ما يبدو فقد قال له سعد زغلول إنه بصفته وكيل وزارة الأوقاف فإنه يعتبر موظفًا عامًا ذا وجبات محددة وحذره من عدم تخطى تلك الواجبات. وأضاف أن البلد بأكملها تكرهه وأنه من الأفضل له أن يعالج ذلك الوضع^(٣٥). وقد كان سعد زغلول نفسه ضد الخلافة، وربما لأنه كان من التقدميين فقد كان يؤمن بأن إعادة الخلافة لا نفع فيه، كما أنه قد شعر أن الطموحات الاستبدادية للملك فؤاد، مثل سلطته المطلقة ينبغي الحد منها. وقد أدلى سعد زغلول برأيه فى هذا الموضوع للملك، الذى أعلن فى وقت لاحق أنه قد تخلى عن فكرة أن يصبح الخليفة. فى غضون ذلك، تسببت شعبية سعد زغلول وتعبته تجاه الملك فى قيام نشأت بترتيب مظاهرة طلابية من طلاب الأزهر لصالح الملك فؤاد. وكان ذلك أمراً يخرج عن المألوف. حيث تعود المتظاهرون الخروج إلى الشوارع مرددين شعار "زغلول أو الثورة". ثم تلا ذلك، قيام سعد زغلول بالعمل على تقاعد نشأت، فعين مساعدا لمدير الخاصة الملكية وقال زغلول فيما بعد لحزبه إنه لا يرغب فى أن يُطعن من الخلف^(٣٦) وكحل غير حاسم لهذا الوضع، تم إقناع الملك بتعيين نشأت وزيراً فى الوفد المصرى فى طهران.

بعد سعد زغلول

على الرغم من تعنت سعد زغلول، ومحاولاته الأولية للحد من الأطراف الأخرى المشاركة في كل من الحكومة والبرلمان واقتناعه بأنه هو فقط دائماً على حق، إلا أنه فهم في نهاية المطاف أنه من الأفضل مشاركة تنافسية معه، وحتى وفاته في عام ١٩٢٧، والمراقبون الأجانب يعلقون على أسلوب ونظام وهدوء أعضاء البرلمان المصري في السنوات القليلة الأولى من أدائهم^(٣٧). وفي المقابل، كان خليفته مصطفى النحاس، دائماً ما يميل إلى أن يكون حزبه هو الأهم دون النظر إلى أن عدم وجود معارضة فعالة في البرلمان تقوض العملية التشريعية والأكثر أهمية في هذا الفصل هو تأثير المراقبة المالية للبرلمان. وعلاوة على ذلك فإن الشعبية طويلة الأمد لحزب الوفد تحت قيادة النحاس قادت الأحزاب الأخرى إلى الاعتقاد أن هيمنة الحزب في البرلمان تعبر عن طغيان الأغلبية. ونتج عن ذلك أنه كان على المصريين البارزين المدعومين من قبل الملك، إما أن يعملوا على تعليق البرلمان، أو تعديل الدستور. وكان إسماعيل صدقي أحد هؤلاء.

سوء إدارة كورنيش الإسكندرية

أول رد فعل ملكي عنيف ضد صدقي

لم يكن لصدقي انتماء حزبي محدد، وقد احتدم الصراع طويلاً بينه وبين سعد زغلول وكان دائماً ما يذكر بأساليبه القوية المتشددة عندما كان وزيراً للداخلية في عام ١٩٢٥ وقد أصبح صدقي رئيساً للوزراء في سبتمبر ١٩٣٠، وجاء تعيينه ملازماً للضرورة المالية العالمية ورغمما عن عدم ثقة السياسيين المصريين في صدقي، إلا أن مواهبه كخبير في الشؤون المالية، بجانب مواهبه كإقتصادي، وفهمه في الاقتصاد المصري، وقدرته على تحقيق توازن الميزانية الوطنية كان أمراً معترفاً به أدى إلى تعيينه في منصب رئاسة الوزراء، مع احتفاظه بحقيقتي المالية والداخلية. وقد استمر في منصبه

لمدة ثلاث سنوات، وأثنائها أعيد كتابة الدستور، ووقع حزب الوفد تحت الحظر. وحينما انقلب عليه حزب الأحرار الدستوريين، اتخذ تدابير قمعية ضده. وقام بتأسيس حزبه الخاص "الشعب"، ولفق منه أعضاء البرلمان، كما أضاف إليهم ممثلين عن الحزب الوطنى وحزب الاتحاد الذى كان متحالفًا مع الملك. وفى سبتمبر ١٩٣٢، استقال من منصبه بسبب ما أشيع عن خيانتة للملك. إلا أنه رفض أن يتلاشى فى الظل، وانضم إلى المعارضة فى البرلمان.

وعقب ذلك بقليل، انطلقت شائعات عن فساد، ربما من قبل الملك، ثم ألقت الحكومة الجديدة باللوم عليه فى موضوع صفقة القطن التى كان قد أشرف عليها، ثم أيضاً لمنعه المضاربات فى السوق عندما كان وزيراً للمالية حيث قام ببيع إجمالى القطن الحكومى سرّاً بدون الاستماع إلى نصيحة وزرائه، ولكن بموافقة ملكى مطلقة وقد كلفت مضاربة صدقى البلاد ٢٠,٠٠٠ جنيه، رغماً عن كون رفع سعر القطن قد حقق لمصر فى سوق القطن ربحاً قدره ٢٠٠,٠٠٠ جنيه. وقد سمح له هذا النجاح أن يبرىء نفسه أمام البرلمان، إلا أن الهجوم لطخ اسمه. ومما زاد فى قلقه، أن كلاً من الملك ورئيس الوزراء اعتبروه مسئولاً عن تكاليف كورنيش الإسكندرية الباهظة، حيث كان تقدير بناء الطريق على طول ساحل الإسكندرية قد ارتفع من ٨٠,٠٠٠ إلى ٤٥٠,٠٠٠ جنيه، وانتشرت شائعات مفادها أن لجنة الكورنيش انتقدت فى تقريرها تلك التكلفة^(٣٨). وتهمة أخرى ألصقت به ألا وهى تقديم أراضى الدولة بأسعار مخفضة لاثنتين من كبار المسئولين الحكوميين فى مقابل القيمة الرأس مالية لمعاشهم. وقد نفى هذا الادعاء بازدراء^(٣٩). كان الملك يعرف تمام المعرفة أن صدقى لا يحظى بشعبية، وربما استمر فى الانتقام منه لما بذله من جهود فى الماضى لكبح جماح الإنفاق المشكوك فيه للقصر.

وقد خلفه عبد الفتاح يحيى فى منصب رئيس الوزراء، وكان اختياره بسبب التأكد من أنه سوف يطيع الملك طاعة عمياء. فعندما كان يحيى رئيساً للوزراء بالإناابة فى صيف عام ١٩٣٢، كان الكورنيش قد بدأ فى لفت انتباه الرأى العام ورغبة من يحيى فى الحصول على الدعم الملكى لتحقيق مآرب شخصية، فقد اهتم بهذه المسألة،

وبعد استقالة صدقي^(٤٠)، استمر يحيى فى مهاجمته يقيناً منه أن هذا من شأنه أن يرضى الملك الذى كان يرغب فى رؤية رئيس الوزراء الأسبق متهماً بالفساد.

أما أعضاء الحزب الوطنى الجالسون بجانب المعارضة البرلمانية مع صدقي، فقد هاجموا حكومة يحيى مراراً. كما لعب حافظ رمضان، رئيس الحزب الوطنى، دور "الضمير البرلمانى" مذكراً زملاءه الأعضاء أنه انتقد وعارض سياسات صدقي عندما كان الجميع راضين عنه. إلا أنه، لم يشكك فى قدرات الرجل بعد ذلك، كما أنه لم يكن مثل من يهاجمونه فى الوقت الحالى لأنه لم يعد فى الحكم^(٤١). وربما كانت حالة صدقي هى الوحيدة التى اتخذت فيها المعارضة البرلمانية موقف الدفاع عن حزبٍ ما ضد الاتهامات المقدمة من الحكومة. ويرجع ذلك إلى الشك الكبير فى دور موظفى القصر تجاه مهاجمة رئيس الوزراء الأسبق وخاصة من ناحية الإبراشى الذى كان مثله مثل نشأت من قبل تابعاً أمين للملك.

وقد انزعج صدقي؛ لأنه بدلاً من التحقيق فى أسباب التكاليف الاستثنائية للكورنيش، فإن لجنة التحقيق أخذت تجمع الاتهامات ضده بصفته وزير الداخلية الأسبق. وقد كان غرضه هو تجميل الإسكندرية، وخصوصاً من الجانب المطل على البحر حيث الهواء المنعش. وعندما جاءت وزارته إلى الحكم كان العمل يجرى فى المرحلة الخامسة من الكورنيش، وهو الجزء قيد التحريات فى ذلك الوقت. كان ذلك المشروع قد خلق الآلاف من فرص العمل بجانب قيام صدقي بإقناع الأثرياء من المصريين بإنفاق أموالهم داخل البلد. وقد دعت تلك الرغبة إلى التركيز على الإسكندرية كنموذج لمصيف مثالى^(٤٢). إضافة إلى ذلك كان يأمل أيضاً فى تحقيق طموحات الملك فؤاد فى أن يرى الكورنيش يمتد من محطة ستانلى إلى قصر المنتزه^(٤٣). وكخاتمة للأحداث ففى يوم ٢٥ مايو عام ١٩٣٤، أدانت افتتاحية إحدى الصحف بمرارة التحقيق فى تكاليف إقامة الكورنيش كذلك عدم السماح لصدقي بالدفاع عن نفسه، واستمرت الصحيفة قائلة إن هذا الوضع يشكل خطراً على المواطنين البسطاء الذين تشهر بهم الصحف. وعلاوة على ذلك، كانت "الأدلة" التى جمعتها اللجنة تتألف فقط من تسجيلات للبيانات، والتى كان قد تم نشر مقتطفات منها^(٤٤).

النحاس والكتاب الأسود

سهلت سنوات الحرب، والتي شهدت هجوماً على الإمبراطورية البريطانية ووجود جنود أجنب، ونقص فى الأغذية، وتضخم الأسعار، انتشار الفساد فى مصر. ومن أجل حماية المصالح البريطانية فى المنطقة، بجانب الاشتباه فى أن الملك الجديد فاروق يتعاطف مع النازى، قررت الحكومة البريطانية فرض حكومة وفدية على مصر. وفى حادثة الرابع من فبراير ١٩٤٢ والتي سجلت ذاكرة التاريخ عواقبها ونتائجها، أعطى السفير البريطانى مايلز لامبسون تعليمات لفاروق بالموافقة على حكومة وفدية، رغما عن معارضة الملك فى أن يصبح النحاس رئيساً للوزراء. وإقناع فاروق أصدر لامبسون أوامره بأن تقوم الدبابات البريطانية بمحاولة قصر عابدين، وعندها قبل الملك الإنذار. وعندما اتهم السياسيون وآخرون النحاس بالموافقة على تشكيل حكومة تحت الحماية البريطانية ادعى زعيم حزب الوفد أن الوضع أجبره على القبول. وقد قام النحاس فى وقت لاحق بتعليق البرلمان لحين أجرا انتخبات جديدة، وبالتالي تكميم الجلسة آنذاك^(٤٥)؛ وقد عمل الوفد على حشد أنصاره لضمان عدم معرفة الرأى العام بظروف تعيينه. كما رفض النحاس رفضاً قاطعاً السماح لحزب الأحرار الدستوريين المعارض بأكثر من ربع المقاعد فى البرلمان. وكنتيجة لذلك فإن وجود الحزب الذى يمكنه كبح جماح حزب الوفد قرر مقاطعة الانتخابات^(٤٦).

يتفق المؤرخون والشهود المعاصرون الذين لم يساندوا الوفد على أنه حتى وقت سقوط حكومة النحاس كان الفساد قد تفشى فى الحكومة والحزب^(٤٧)، وإضافة إلى ذلك فقد اتسمت فترة رئاسة النحاس للوزارة بفضيحة الكتاب الأسود، وهى حادثة بدأت مع تصدع العلاقات بين النحاس ومكرم عبيد، وزير مالىته وكان عبيد مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بسعد زغلول، كما كان عضوا منذ فترة طويلة فى الوفد. حتى إن اختيار النحاس كخليفة لسعد زغلول يرجع إلى جهود مكرم عبيد. فقد كان الرجلان صديقين حميمين، كما نمت الثقة المتبادلة فيما بينها بعد إبعادهما إلى جزر سيشل مع سعد زغلول فى أوائل العشرينيات وأصبح الرجلان بعد ذلك لا ينفصلان، حتى إن مكرم عبيد كان هو

الذى ساعد النحاس فى اختيار زوجته، وأصبح الاثنان صديقين حميمين وقد استمر هذا الوضع حتى مايو ١٩٤٢، عندما جرت شائعة بأن النحاس طلب من مكرم عبيد الاستقالة، وأن هذا الأخير قد رفض. وقد حاول الملك فاروق شخصياً حل النزاع، ولكن دون جدوى. وقدم النحاس استقالة حكومته، وعلى الفور شكل وزارة جديدة لم تتضمن اسم مكرم عبيد. ووفقاً لمحمد حسين هيكل، وهو عضو فى حزب الأحرار الدستوريين بجانب كونه شاهداً على تلك الأحداث، فإن هذا التغير قد فاجأ الجميع^(٤٨) وبعد أن ترك مكرم عبيد منصبه كتب موضوعاً فضح فيه زملاءه السابقين فى الوفد، واتهمهم بالفساد وسوء استغلال السلطة، وقام بنشر ذلك فى كتاب أسود.

(الكتاب الأسود) وعندما بدأ تداول الكتاب الأسود سئل النحاس فى إبريل ١٩٤٣ - خلال جلسة برلمانية حين كان رئيساً للوزراء - عما إذا كانت الادعاءات المقدمة ضده من قبل مكرم عبيد صحيحة. وسأله أحد أعضاء مجلس النواب عن صحة ما ورد فى الكتاب الأسود من أن نمط حياته أصبح الإسراف والتبذير، حيث كان النحاس قد قام بشراء سيارة باكارد بمبلغ ٣,٠٠٠ جنيه تنازل له عنها المليونير اليونانى كوتسيكا^(٤٩) وعلاوة على ذلك، فإن رئيس الوزراء كان قد انتقل للإقامة فى فندق مينا هاوس، وقد كلفه ذلك أكثر من ألف جنيه وإضافة إلى ذلك فقد استأجر فيلا فى جاردن سيتى بينما كان يسكن فى هليوبوليس، وأن تلك المصروفات ونمط الحياة الجديد قد تكلف مما لا شك فيه أموالاً كثيرة، إذا فما هى إجابته على اتهامات مكرم عبيد.

توجه النحاس إلى المنصة مصحوباً بالتصفيق^(٥٠) مما يدفع المرء إلى الاعتقاد بأن النحاس نفسه قد حرض على السؤال من أجل إحراج مكرم عبيد من خلال إظهار مدى دعم الوفد له. وعندها أعلن أن عبيد كان قد شوه الحقائق، واخترع الأرقام، وسود كتابه بالخيالات والهلاوس وهلل النواب لهذه الطعنة. ثم قال النحاس إنه بحكم منصبه كرئيس الوزراء، ووزير الداخلية، ووزير للخارجية، فقد تم تخصيص ثلاث سيارات له ليستخدمها لأغراضه الخاصة والعامة، ولكنه قرر أن يشتري سيارة واحدة باكارد بعد موافقة مجلس الوزراء، بما أن السيارات المخصصة له تتعطل باستمرار،

بينما الباكارد تتميز عن بقية السيارات الأخرى الأكثر "ديمقراطية". كان هذا في إبريل ١٩٤٢، ونصحه وزير المالية مكرم عبيد بالحصول على تقييم للسيارات المخصصة له من قبل الحكومة . وعندما قال النحاس لتاجر السيارات إنه يريد سيارة أخرى لاستعماله الخاص، كانت السيارة الوحيدة المتاحة هي سيارة المليونير اليوناني، وقد قال هذا الأخير إنه على استعداد للتنازل عنها ونصح عبيد النحاس مناشدة التاجر للحفاظ على السيارة حتى تدفع الحكومة قيمة السيارة الأولى وهنا قرر النحاس أنه سيبقى السيارة لاستعماله الخاص، والسيارة الثانية سوف تصبح السيارة الحكومية. كما نفى النحاس اتهامه بالبذخ بما أن السيارة ليس بها ما يميزها عن غيرها من السيارات، سوى أن نوافذها تفتح آلياً، وأنها لا تتعطل في منتصف الطريق.

أما عن الأربع وتسعين يوماً التي قضاها في فندق مينا هاوس، فكان هذا بسبب إجراء تجديد لمنزله في مصر الجديدة وأنه لم يتكلف ١٠٠٠ جنيه، كما ادعى مكرم عبيد، وإنما ٣١٥, ٢٢٣ جنيه، بالإضافة إلى ٤٠ جنيهاً للإكراميات. إلى جانب ذلك، أنه اعتاد الإقامة في الفنادق والمنتجعات السياحية الكبيرة في القاهرة والإسكندرية وصعيد مصر، وأوروبا، مما يعكس ويتناسب مع وضعه واحترام ذاته وكرامته وكان هذا أسلوب حياته في الاسترخاء كمطلب صحي. فهل في هذا إساءة لاستخدام سلطته، وهل يلام لأنه يحيا حياة شريفة بآرك الله له فيها؟ وأضاف أن مكرم عبيد قد زعم أيضاً أنه قد استأجر منزلاً في جاردن سيتي لقاء مبلغ ضخم وهو خمسون جنيهاً شهرياً. وكان من الممكن له التماس العذر لاي شخص غير مكرم عبيد، مؤلف الكتاب، لقوله هذا، لأنه لا يمكن لأحد أن يعرف شيئاً عن الحياة الخاصة للنحاس مثل مكرم عبيد وهو المطلع على شئونه الخاصة، عن طريق زوجاتهم، وهو بالتأكيد على علم بأن النحاس جاء من أصول متواضعة. والنحاس من شأنه أن يدرك أن عبيد وهو قبطي، يفتقر إلى دعم القاعدة الشعبية له وفي إثراء رده كان النحاس يستشهد بالفواتير التي تؤيد سداده للمبلغ ويقول إنها متاحة للمراجعة والفحص من مجلس النواب. وقد قوبل قوله هذا بعاصفة من التصفيق، مما يوحي أن كلامه كان مصدقاً على نطاق واسع وأنه برىء من الفساد، بغض النظر عن خطورة الاتهامات التي وجهت إليه وأن الوفد سيقف إلى جانب زعيمه ضد أية اتهامات بعد هذا الاستجواب^(٥١).

بعد هذا الاستجواب لم يمر يوم من دون أسئلة من مجلس النواب إلى رئيس الوزراء أو أعضاء حكومته حول الاتهامات الواردة في الكتاب الأسود فعلى سبيل المثال، سئل النحاس عن المشروع الخيري "مشروع البر" الذي بدأت زوجته زينب الوكيل، وكان هناك أكثر من إشارة واحدة داخل صفحات الكتاب إلى حقيقة أن الدافع وراء هذا المشروع الخيري هو الإكراه على دفع ضرائب غير رسمية، وأيضا لمنح الألقاب والميداليات على المساهمين من الأغنياء ثم من أجل سداد رواتب الموظفين العاملين في هذا المشروع الخيري". وأجاب النحاس شاجباً أكاذيب مكرم عبيد، وموضحاً أنه في عام ١٩٤٢، بمناسبة الذكرى السنوية لاعتلاء الملك العرش في (١١ فبراير)، اعتُبروا أنه من واجبهم دعوة المصريين والأجانب الأثرياء للمساهمة في عمل قيم وعظيم من شأنه تخفيف العبء على الفقراء الذين كانوا يسعون للحصول على خبزهم اليومي، ويواجهون مصاعب الحياة". والمشروع ينطوي على جمع التبرعات ورسوم العضوية، وتوزيع الطوابع التي يطلق عليها "قرش البر"، وإقامة حفلات باهظة الثمن، وبيع البطاقات والورود. وفي ٢٠ يناير ١٩٤٢ كانت مساهمات مختلف الأنشطة قد بلغت ١٤٤,٠٤١,٠٩٨ جنيهاً، تم إيداعها في بنك مصر فرع القاهرة، وقد كانت مصروفات المشروع هي ٥٨٤,٣٤٠ جنيهاً. وأفاد النحاس أن عشرين شخصاً فقط من ضمن كافة المساهمين قاموا بالشكوى من كون مساهمتهم لم تذكر واستطرد قائلاً إن تلك المسألة قد حلت. كما وأن نجاح المشروع كان جيداً جداً بحيث قررت زوجته أن تجعل منه مشروعاً دائماً. وكان من بين الأعضاء الدائمين في لجنة المشروع أمين عثمان والدكتور عبد الواحد الوكيل وهو والد زوجة النحاس والسفير البريطاني وزوجته الليدي لامبسون^(٥٢).

وقد انتقد العديد من المراقبين ذلك العقل الخيري: ويشير هيك في "مذكراته" أن زينب الوكيل زوجة النحاس، قد أقامت المشروع بغرض ملء جيوبها^(٥٣) ومع ذلك، فإن عبد المجيد الرمالى، عضو المجلس الذى طرح السؤال، قام بشكر النحاس على إجابته المفصلة^(٥٤) وكون النحاس نجح فى الخروج وسماعته وشعبيته سلیمتان یبین کیف أن موضوع الأخلاق الشخصية أصبحت لا تأثير لها فى مجال الخدمة العامة المصرية. كما وأن هذا الاتجاه سوف ينمو.

إن موقف التملق الذى أظهره أعضاء مجلس النواب تجاه حكومة الوفد وزعيمها خلال تلك الدورة قد يساعد على تفسير سبب فشل عبيد فى نهاية هذا الاستجواب فى التأثير على المجلس^(٥٥). وقد تحدث الأمين العام السابق لحزب الوفد، الذى أبدى قدراً كبيراً من الشجاعة فى الصمود فى وجه تلك الاتهامات، تكلم خلال ما يقرب من دورتين. ومع ذلك، فإن طريقة النحاس وأسلوبه السيئ دفع المجلس إلى رفض الاستجواب المقدم من مكرم عبيد^(٥٦) ومن الغريب أيضاً أن المعارضة (الحزب الوطنى) لم تتدخل قط فى النقاش حول الكتاب الأسود، كما أنها لم تستجوب الحكومة حول الكتاب الأسود أو الفساد وقد أدى كتاب مكرم عبيد فى النهاية إلى طرده من البرلمان بعد فترة قصيرة. وبعد ذلك قرر النحاس أن أنشطة مكرم عبيد كانت مضرّة، وأنه لا يستطيع أن يبقيه طليقاً. ولما كانت مصر تطبق قانون الأحكام العرفية؛ فإن النحاس تمكن من اعتقال عبيد وقد بقى هذا الأخير فى السجن حتى شهر أكتوبر عام ١٩٤٤، عندما تم تأليف حكومة ائتلافية جديدة برئاسة أحمد ماهر^(٥٧).

وقد أجبرت حكومة النحاس على الاستقالة فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤، وسرعان ما أصبح هدفاً لأسئلة البرلمان^(٥٨) وبعض تلك الأسئلة كانت بخصوص أمين عثمان، المدقق الحكومى الرئيسى فى حكومة النحاس^(٥٩). وكانت الأسئلة التى طرحت فى مجلس النواب معنية بالتقارير التى تفيد بأن عثمان كان قد سافر مع زوجته فى رحلات خاصة إلى فلسطين على نفقة الحكومة المصرية، وأن النحاس قد أخذ زوجته وشقيقها وموكب من المرافقين إلى فلسطين على متن طائرة تابعة لبنك مصر فى عام ١٩٤٣ مستخدمين أموالاً رسمية. كما كانت هناك أيضاً مزاعم بأن النحاس قد أمر بإعداد طائرة عسكرية لنقل ممرضة من بورسعيد إلى الإسكندرية لرعاية والدته زوجته، وإذا صح كل ذلك، فقد تساءل أعضاء البرلمان عن الكيفية التى يمكن للحكومة أن تعيد بها الأموال التى أخذت من الخزنة العامة للدولة. وبطبيعة الحال، فإن النحاس وعثمان كانا مستهدفين على حد سواء بعد خروج الوفد من السلطة، ولكن عثمان كان قد أصبح مكروهاً من المصريين بعد أن صرح علناً إن مصر وبريطانيا كانتا مقيدتين معاً فى "زواج كاثوليكي".

وبعد أن أصبح مكرم عبيد وزيراً للمالية فى وزارة محمود فهمى النقراشى أشار إلى أن جميع الأسئلة الثلاثة السابقة تفيد إساءة استخدام أموال الدولة لأغراض خاصة. وأضاف أن المسألة تتجاوز سلطة النائب بما أن أمين عثمان قد تجاوز إحسان الحكومة المصرية ليشمل أفراد عائلته، الذين عادوا معه على نفس الطائرة، وكانت الحكومة قد دفعت مصاريف انتقالهم. كانت رحلة الوزير السابق مع أسرته قد تكلفت ٢٥٠ جنيهاً وقد بعث مكرم عبيد بصفته وزيراً للمالية برسالة يسأل فيها عثمان عما إذا كان على الوزارة أن تعتبر رحلاته رسمية، وإذا كان الأمر كذلك، فأى جهة إدارية تصبح مسئولة عن تسديد هذه الأموال ؟ وقد رد عثمان على ذلك قائلاً إن زيارته كانت رسمية وسرية، وإنه ليس من حق عبيد أن يعرف، لأن هذه المسائل كان من الضرورى أن تبقى غير معلنة للحكومة الحالية^(٦٠).

كان على مكرم عبيد العودة إلى السجلات الرسمية، وقد وجد أن عثمان قد كذب فى الثانى من يوليو عام ١٩٤٢، ركب أربعة ركاب، أى أمين عثمان وعائلته، على متن طائرة متجهة إلى إسرائيل^(٦١) وبعد أربعة أيام، غادرت مصر طائرة بدون ركاب وعادت فى ٧ يوليو، وبها راكب واحد وهو أمين عثمان وقد كلفت هذه الرحلات الحكومة المصرية ١٢٧ جنيهاً. وفى ١١ أغسطس، خرج عثمان مرة أخرى من القاهرة على متن طائرة فارغة، وعاد فى ١٥ أغسطس مع زوجته وابنته وأخت زوجته. وقد تكلفت تلك الرحلات ١١٣ جنيهاً. وقد أظهرت السجلات الرسمية أن عثمان كان قد سافر بجواز سفر عادى، وليس جوازاً دبلوماسياً. عندئذ قال مكرم عبيد إنه بدأ بالفعل إجراءاته، حيث إنه وفقاً للقانون رقم ١٧ لسنة (١٩١٨)، فإن ربيع معاش المراجع السابق سيتم الحجز عليه لاستيفاء مال الدولة^(٦٢).

أما موضوع النحاس وزوجته فكان يمثل وقاحة الموضوع الأول. فقد سافرت زوجته مع أخيها إلى فلسطين فى نهاية مايو ١٩٤٣. وانضم النحاس إليهم فى وقت لاحق فى بداية يونيو. وقد أمضوا جميعاً بضعة أيام معاً، ومن ثم عادوا إلى القاهرة. وبعد عودتهم، طالبت هيئة السكك الحديدية فى فلسطين بدفع مبلغ ١٥٦ جنيهاً.

وبدلاً من دفع تكاليف رحلته، فإن النحاس قد حصل على المبلغ من وزارة المالية. أما الرسالة التي بعث بها إلى وزارة المالية فلم تذكر سوى النحاس نفسه في قسيمة السفر. وقد تم دفع هذا المبلغ في مجموعه من خزينة الدولة، من دون حق شرعى أو سبب. ومن ثم بدأ مكرم عبيد فى إجراءات ضد النحاس. وبالإضافة إلى ذلك، قد كلف رئيس الوزراء السابق طائرة عسكرية بالسفر من القاهرة إلى بور سعيد والإسكندرية ثم العودة فى نفس اليوم، لجلب ممرضة لرعاية والدته زوجته وكان ينبغى على النحاس أن يعثر على ممرضة فى الإسكندرية، ولكن عبيد لاحظ أن رئيس الوزراء السابق كان بحاجة إلى التباهى وإظهار سخاء الدولة وقد اتخذت بالفعل الإجراءات لمقاضاة النحاس.

ثم قال وزير المالية للمجلس إن النحاس قد استأجر قطارات دون دفع تكاليف تصل قيمتها إلى ٨٨٢,٤ جنيهًا. وقد لفت النظر إلى أنه عندما يرتكب مسئول صغير فى الحكومة جريمة طفيفة فإنه يطرد من وظيفته، فى حين أن هؤلاء السادة البارزين الذين كانوا فى السلطة قد ركزوا اهتمامهم على تمويل شئونهم الخاصة بأموال الدولة، وهى أموال تعتبر أمانة عندهم. وكإهانة أخرى للشعب فإنهم يدعون الشرف والاستقامة^(٦٣).

فى نهاية الملكية

عاد الوفد إلى السلطة فى يناير ١٩٥٠، وكانت استراتيجيته الجديدة هى استرضاء القصر. وقد انعكس ذلك على أعمال البرلمان، فقد كان يكفى استجواب واحد ليكون له عواقب وخيمة من قبل النظام الملكى. وفى مايو ١٩٥٠، كان عضواً من المستقلين المنتخبين فى مجلس النواب، وهو مصطفى مرعى، قد وجه سؤال لرئيس الوزراء، مفاده معرفة دوافع استقالة محمود محمد، وهو رجل نو سمعة لا يرقى إليها الشك وكان يشغل منصب رئيس المراجعة بالحكومة^(٦٤) وبالتالي، حذر النحاس رئيس مجلس النواب محمد حسين هيكل، من التعامل مع هذه القضية على الملأ^(٦٥)، إلا أن هيكل الذى كان ملتزماً بالإجراءات البرلمانية لم يدرك تحذير النحاس، وظن أن رئيس الوزراء يحذره من المساس بالملك بأى حال من الأحوال.

وفى ٢٩ مايو عام ١٩٥٠، أعرب عضو مجلس النواب، مصطفى مرعى، عن عدم رضائه، موضحاً أنه سبق أن سأل رئيس الحكومة عن سبب استقالة مراجع الحسابات، وذلك لأن محمود محمد لم يعط أى دوافع لاستقالته، ولأن مرعى كان يعرف محمد معرفة شخصية، كما كان معروف أيضاً لدى غيره من النواب، وكان مستقلاً وعقلانياً ومتوازناً فى آرائه، فإنه من غير المرجح أن يكون قد استقال من منصبه من دون سبب. لذا فقد وجه مرعى سؤاله هذا إلى الحكومة، التى وفرت له جواباً فى جزأين: الأول، أعلنت الحكومة أن محمد قد أشار فقط إلى ظروف خاصة، جعلت من الصعب عليه أن يبقى رئيساً لمكتب مراجعة الحسابات. هنا توصل مرعى إلى أن كلمة "الخاصة" لا تعنى شخصية، ولكن أن الاستقالة كانت بسبب عمله كرئيس لمكتب مراجعة الحسابات. كان تخمين مرعى مدعوماً ببيان من جانب الحكومة تفيد بأن مكتب المراجعة سوف يواصل الإشراف قانونياً على موارد الدولة ونفقاتها. وعلاوة على ذلك، كان محمد قد ذكر فى مقابلة أن استقالته لم تكن بسبب شخصى^(٦٦) ولفت مرعى النظر إلى أن الحكومة، وأيضاً، قد أهملت فى أداء واجبها، لأنه كان من الواجب عليها أن تدعم وتحمى الرجل عندما حاول القيام بعمله.

أما بالنسبة للجزء الثانى من رد الحكومة، فإنه أشار إلى أن استقالة محمود محمد كانت لها علاقة بالملاحظات التى أدلى بها رئيس مكتب مراجعة الحسابات عن نفقات الحكومة فى حملة فلسطين، وحول الدعم المالى لمستشفى المواساة. وهنا أشار مرعى إلى أن المادة التاسعة من القانون رقم ٥٢ (١٩٤٢) أدت إلى إنشاء مكتب المراجعة هذا ونصت على أن لديه السلطة الكاملة لتقديم وجهات نظره فى الإنفاق من الاعتمادات. كما نص القانون على أن أى اختلاف فى رأى بين مكتب مراجعة الحسابات والإدارات الحكومية يحال إلى مجلس الوزراء^(٦٧) وعندئذ، سأل أحد أعضاء مجلس النواب عن وقت حدوث هذه المخالفات، فأجاب مرعى إن التحزب والوزران المختلفتان التى جاءت وذهبت ليس لها علاقة بهذه المسألة، لأن البلاد كانت هى الخاسرة بسبب هذا التحزب. ثم إنه طلب من أعضاء مجلس النواب تحمل واجباتهم بكل جدية عند نظر هذا الاستجواب^(٦٨).

ثم أوضح أن أحمد النقيب، مدير مستشفى المواساة، قدم لكريم ثابت الملحق الصحفى للملك، وهو رجل ذو سمعة مشكوك فيها، والذي كان يشتبه فى أنه يشجع تجاوزات الملك فاروق، مبلغ ٥,٠٠٠ جنيه. وكان ذلك فى يناير عام ١٩٤٨، عندما كان ثابت رئيساً لتحرير جريدة المقطم. ولم يتم إعطاء تفسير عن سبب إعطاء هذه الهدية. وقد انتقد مكتب مراجعة الحسابات هذا فى تقريره السنوى^(٦٩) فطلبت حكومة النحاس من رئيس مكتب مراجعة الحسابات حذف بعض العبارات من التقرير، ولكن محمود محمد رفض ذلك. ونتج عن ذلك أزمة وصلت إلى القصر. وعندما أشار نائب رئيس مجلس الوزراء إلى أن إدارة مكتب المراجعة قد أساءت إلى الملك فاروق، قدم محمود محمد استقالته من منصبه، وقد قبلت فوراً.

وأكد مرعى أن الشيك بمبلغ ٥,٠٠٠ جنيه قدم لثابت دون الحصول على موافقة من إدارة المستشفى، بل وأن مجلس الإدارة قد أعطى موافقته فقط بعد الاستجواب المقدم. وهنا علق مرعى بأن مجلس إدارة المستشفى يجب أن يدرك أن الموافقة على جريمة لا يعنى حذفها. وعلاوة على ذلك، إذا كان مبلغ ٥,٠٠٠ جنيه قد أعطيت لشخص، فهل كان ذلك كرسوم عام، أو بوصفه عمولة؟ فإذا كانت قد أعطيت كرسوم، عندها يجب دفع ضريبة عنه، أما إذا كانت قد دفعت بوصفها عمولة فهي تخضع أيضاً لضرائب تجارية وصناعية. وبالتالي فلماذا لا يطلب من النقيب باشا الذى دفع النقود لثابت باشا دفع ضرائب كما يحدث مع النواب، وأين حق الدولة فى ذلك^(٧٠)؟

وردت الحكومة فى اليوم التالى. وكان الوزير الموجود فى مجلس النواب ممثلاً عن النحاس هو فؤاد سراج الدين، وزير الداخلية. وقد أشار سراج الدين فى كلمته نيابة عن الحكومة أن حزبه ليس له علاقة بهذه القضية، حيث إن حكومة أخرى كانت وفى خلال المناقشات هى المسئولة فى ذلك الوقت. وأكد أيضاً على أن الرئيس السابق لمكتب مراجعة الحسابات قد أصر على تقديم استقالته، على الرغم من أن النحاس وسراج الدين حاولوا إثنائه عن الاستقالة، وفى خلال المناقشات أضاف سراج الدين أن مقعد رئيس مجلس النواب كان يهتز، وقد فهم الرئيس هيكل من هذا أنه يعنى أن موقفه كان فى خطر بسبب الاستجواب الذى اتخذ منعطفاً حرجاً^(٧١).

فى اليوم التالى، وفقاً لما ذكرته إحدى الصحف قدم كريم ثابت استقالته من منصبه كملحق صحفى لدى الملك، إلا أن الملك رفض قبولها، لأنه كان يثق ثقة تامة فى كريم ثابت^(٧٢) وعندما ذهب سراج الدين لرؤية هيكل عاتبه رئيس مجلس النواب لدفاعه عن ثابت فى خطابه وهنا رضى سراج الدين، وانتقد ثابت بسبب تدخله المستمر فى شئون الدولة؛ وأضاف أن الوفد كان لعدة سنوات بعيداً عن الأجواء السياسية، وهو وضع كاد أن يقضى على الحزب. ولذلك كان لديهم كل العذر لمحاولة التوصل إلى اتفاق مع القصر والقبول بسياساته^(٧٣). وبعد ذلك بوقت قصير، علم هيكل وأعضاء المجلس المشاركين فى هذا الاستجواب الخاص بالمستشار الصحفى للملك أن مدة ولايتهم فى مجلس النواب لن تجدد بناء على أوامر من الملك^(٧٤).

وعلى الرغم من أن حكومة النحاس لم تستمر فى السلطة لمدة طويلة، فإنه من الجدير بالذكر أنه فى عام ١٩٥٣، وبعد وقت قصير من انقلاب الضباط الأحرار، تم فتح قضية كريم ثابت وحوكم أمام محكمة مؤلفة من مدنيين وعسكريين على حد سواء. وعندما سئل عن السبب فى أن القضية اتخذت هذا المنعطف، أشار أحد الشهود، وهو النائب السابق إبراهيم اليومى مد كور قائلاً "لم تكن معنيين باستقالة رئيس مكتب مراجعة الحسابات، وإنما كانت المبادئ هى الأهم، ونحن علقنا أهمية على ما حدث، وكانت كارثة^(٧٥)"، إلا أن كلا من محامى ثابت والنقيب تمكنا من النجاح فى تحويل المسؤولية عن أى مخالفات وقعت على الملك فاروق، الذى كان الآن فى المنفى^(٧٦).

الخاتمة

إن صياغة الدستور وعقد البرلمان كانت تمثل حلمًا مصرياً طال أمده، بسبب الاعتقاد بأن إفلاس مصر فى القرن التاسع عشر كان من الممكن منعه فى حالة وجود نظام تشريعى معقول. ومع ذلك، فقد تبين أن البرلمان المصرى بين عامى ١٩١٩ و١٩٥٢ كان هيئة رقابية فعالة إذا كان أعضاؤه مستقلين تماماً عن الاعتبارات الحزبية أو غيرها. وفى البداية كان الوفد يعرف باسم حزب الشعب، وتحت الزعامة القوية

لسعد زغلول تحدث أعضاؤه في البرلمان عن مكافحة الفساد وعن اختلاس الأموال العامة ومع ذلك، ففي ظل النحاس، والاستقالات المتعاقبة لمعظم أعضاء الحزب من النواب الشجعان الأكفاء، من الأعضاء الذين كرسوا أنفسهم للعمل حدث فراغ مدوٍ. وأصبح الوفد بعده أكثر انطواءً، معتبراً أى معارضة لسياساته في البرلمان مثيرة للشك. ومن ثم انتهى الأمر إلى أن أصبح أنصاره منشغلين بتملق النحاس زعيمهم، حتى إنهم لم ينتقدوا أو يندبوا بالحكومة، بصرف النظر عن فظاعة أفعالها. وهكذا، فإن الدور الرقابى لأعضاء الوفد في البرلمان تلاشى. أما الحزب الوطنى وهو الطرف الأكثر فاعلية - ورغمما عن تواجده في جميع نورات البرلمان - إلا أنه كان منهمكا في برنامج المعنى بمعارضة وجود بريطانيا العظمى في مصر، بدلاً من أن يكرس أى وقت لمهاجمة الفساد. أما حزب الأحرار الدستوريين فقد كان الأكثر فاعلية ولكن لم تكن له شعبية تذكر، وعلاوة على ذلك، ورغم أن زعيمه محمد حسين هيكل، كان ضليعاً في الإجراءات البرلمانية، إلا أنه لم يكن قوياً بما يكفى للسيطرة على مجلس النواب.

ويعنى أكثر عمقاً فإن هذه الأحداث إن دلت على شىء، فهي تدل على أن صراعاً كامناً في توجهات الأعضاء الذين كانوا يعتقدون أنه بموجب دستور عام ١٩٢٣، كانوا قادرين على تحديد ميزانية الحكومة. أما أولئك الذين انتخبوا بأمانة، ولا سيما الوفديين، فكانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم حراس المصلحة الوطنية. في حين أن كلا من الملك فؤاد وفاروق كانا يحتقران الدستور وأظهروا استياءهما من النواب لتدخلهم في حقهم الموروث كحكام البلاد. أما المعينين من قبلهم، مثل نشأت، والإبراشى، وثابت، فقد كانوا يتقاسمون نفس هذه المشاعر. ويسبب تنافس الملوك والبرلمان على شعبيتهم، فإن الاستجابات مثل تلك التى وصفت في هذا الفصل أثارت غضب القصر وأدت إلى أعمال انتقامية ضد النواب السائلين. إلا أن تأثيرهم الهدام على هيئة القصر ساهم في انقلاب ١٩٥٢ العسكرى.

الهوامش

- (١) أود أن أشكر وولتر أرمبراست على مساعدته الفياضة خلال كل مراحل كتابة هذا العمل.
- (٢) الدولة المصرية، مضابط مجلس النواب، ١٥ مارس ١٩٢٤ .
- (٣) مضابط مجلس النواب، ٧ إبريل ١٩٢٤ .
- (٤) مضابط مجلس النواب، ١٩ إبريل ١٩٢٤ .
- (٥) فاز الوفد بـ ٩٠ في المائة من الـ ٢١٤ مقعد في مجلس النواب، فضلاً عن الغالبية العظمى للواحد والسبعين من مقاعد مجلس الشيوخ. خصوم زغلول، والمعارضين لسياساته، لم ينجح منهم أحد في الانتخابات، فالمؤرخ عبد الرحمن الرافعي، والذي كان عضواً في الحزب الوطني، أشار إلى أن إخفاق يحيى إبراهيم، رئيس الوزراء الأسبق، في فوزه بمقعد داخل مجلس النواب يعتبر مؤشراً على نزاهة هذا الرجل، وعلى حرية الانتخابات. وقد فاز حزب الأحرار الدستوريين بستة مقاعد فقط، في حين فاز الحزب الوطني بأربعة مقاعد. عبد الرحمن الرافعي "في أعقاب الثورة المصرية: ثورة ١٩١٩"، المجلد ١ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧)، ٧٢، ١٨٥. قبل الانتخابات، اعتقد محمد حسين هيكل، رئيس تحرير جريدة حزب الأحرار "السياسة" والمتحمس للبرالية الدستورية، أنه على الرغم من شعبية الوفد فإن الليبراليين سيفوزون بعدد معقول من المقاعد. وليس من الضروري ذكر مدى خيبة أمله لنتيجة هذه الانتخابات. محمد حسنين هيكل "مذكرات في السياسة وبالفعل يقول الرافعي إن هدف النواب الأربعة الممثلون للحزب الوطني هو استخدام معارضتهم لدعم الحقوق الوطنية ولتوجيه الحكومة لإجراء إصلاحات في كافة المجالات.
- (٦) مضابط مجلس النواب، ٧ يونيو ١٩٢٤ .
- (٧) المرجع نفسه.
- (٨) مضابط مجلس النواب، ١٣ إبريل ١٩٢٤ .
- (٩) عندما انعقد البرلمان في ١٥ نوفمبر ١٩٢٤، ظهرت شائعات عن ازدياد حدة الأزمة المعلقة في الحكومية، وأن سعد زغلول قدم استقالة وزارته، وأن القصر قد صعب من مهمتهم، فشجع المظاهرات داخل الأزهر والمؤسسات الدينية، فقد لاحظ أحد المراقبين أنه لم يكن في استطاعتهم المشاركة في المظاهرات بدون تحريض من القصر. وقد كان الدافع الثاني لسعد زغلول هو تعيين حسن نشأت في ٨ نوفمبر ١٩٢٤ في منصب مساعد لرئيس الديوان الملكي دون أخذ رأي سعد زغلول، أو مجلس الوزراء. أيضاً، فقد كان القصر دافعاً لاستقالة توفيق نسيم وزير مالية سعد زغلول، في منتصف نوفمبر. وقد أيد القصر استقالة توفيق نسيم، وزير مالية زغلول، في منتصف نوفمبر. وكان خنوع نسيم للملك معروفاً، وقد عرف أن نشأت هو مصدر المؤامرات التي تدبر ضد الحكومة. وبالتالي اعتبرت وزارة سعد زغلول أن تعيينه من قبل الملك فؤاد هو تشجيع له لتخطيط المؤامرات. عبد الرحمن الرافعي "في أعقاب الثورة المصرية" ٢٢٧-٢٩ .

- (١٠) مضبطة مجلس النواب، ١١ أغسطس ١٩٢٦ .
- (١١) وضع صدقي أن تكلفة الجندي في العام تبلغ ٢٧ جنيهاً، بينما تكلفة جندي السوارى أو الخيالة كانت ٥٠ جنيهاً.
- (١٢) مضبطة مجلس النواب، ١١ أغسطس ١٩٢٦ .
- (١٣) المرجع نفسه.
- (١٤) مضبطة مجلس النواب، ١٦ مايو ١٩٢٧ .
- (١٥) المرجع نفسه.
- (١٦) المرجع نفسه.
- (١٧) المرجع نفسه.
- (١٨) المرجع نفسه.
- (١٩) المرجع نفسه.
- (٢٠) المرجع نفسه.
- (٢١) المرجع نفسه.
- (٢٢) المرجع نفسه.
- (٢٣) المرجع نفسه.
- (٢٤) الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) كان صاحب بحث عن الخلافة "ال خليفة أو الإمامة العظمى" نشر في عام ١٩٢٢ ، انظر: محمود حداد،
- Arab Religious Nationalism in the Colonial Era: Rereading Rashid Rida's Ideas on the Caliphate.
- جريدة الجمعية الأمريكية الشرقية ١١٧: ٢ (إبريل - يونيو ١٩٩٧)، ٢٥٣-٥٤ .
- (٢٥) مضبطة مجلس النواب، ١١ مايو ١٩٢٧ .
- (٢٦) المرجع نفسه.
- (٢٧) المرجع نفسه.
- (٢٨) المرجع نفسه.
- (٢٩) المرجع نفسه.
- (٣٠) المرجع نفسه.
- (٣١) المرجع نفسه.
- (٣٢) المرجع نفسه.
- (٣٣) المرجع نفسه.
- (٣٤) السياسة الأسبوعية، ١٠ مارس ١٩٢٦ .

- (٢٥) وزارة الخارجية ١٤١ / ٧٨٩ / ١٧٣٢٩ / ٢٠ وجهة نظر إميل خولى فى محاولة اغتيال سعد زغلول، ١٨ يوليو ١٩٢٤ .
- (٢٦) إيجيپشن جازيت، ١٨ نوفمبر ١٩٢٤ .
- (٢٧) إميل سليم عماد، La question d'egypte (1841-1938) باريس: الطبقات الدولية، ١٩٣٨ (١٠٥) مستشهد بمارسيل كولومب revolution de d'egypte 1924-1950 (باريس: ج. ب. ميزون نوف وشركاه ١٩٥١)، ١٩ .
- (٢٨) وزارة الخارجية ٢٧١ / ١٧٩٧٧، القنصل العام البريطانى هينكوت سميث (الإسكندرية) لسعادة المفوض السامى لى مصر والسودان (القاهرة). سرى. رقم ر. ٥٤ . ٢٠ أبريل ١٩٣٤ . ج. ١٠٩٥ / ٩ / ١٦ .
- (٢٩) مضبطة مجلس النواب، ١١ أبريل ١٩٣٤ .
- (٤٠) المرجع نفسه.
- (٤١) مضبطة مجلس النواب، ٨ يناير ١٩٣٤ .
- (٤٢) إسماعيل صدقى "مسألة الكورنيش" الأهرام ١٤ ديسمبر ١٩٣٣ .
- (٤٣) وزارة الخارجية ٢٧١ / ١٧٩٩٧ . صفحة ١٥٦؛ وزارة الخارجية ٢٧١ / ١٧٩٩٦، هينكوت سميث إلى لامبسون. رقم ر. ٢٧، ٤ أبريل ١٩٣٤، ج. ٩٠٠ / ٧١ / ١٦ .
- (٤٤) الوقائع المصرية، ٢٥ مايو ١٩٣٤ .
- (٤٥) هيك، ٢ : ٢١١ .
- (٤٦) هيك "مذكرات" ٢ : ٢١٤ شارك حزب الأحرار الدستورى فى مقاطعة الانتخابات مع جبهة مجموعة أحمد ماهر السعدية.
- (٤٧) عبد الرحمن أرافعى "فى أعقاب الثورة" المجلد ٣ .
- (٤٨) هيك "مذكرات" ٢ : ٢٢٥ .
- (٤٩) كان كوتسيكا مؤسس مستشفى ضخمة بالإسكندرية.
- (٥٠) مضابط مجلس النواب، ٢١ أبريل ١٩٤٣ .
- (٥١) تم حظر تداول الكتاب الأسود تطبيقاً للأحكام العرفية.
- (٥٢) مضابط مجلس الشيوخ، ١٧ مايو ١٩٤٣ .
- (٥٣) هيك "مذكرات" ٢ : ٢٢٦ .
- (٥٤) مضابط مجلس الشيوخ، ١٧ مايو ١٩٤٣ .
- (٥٥) مضابط مجلس الشيوخ، ١٨ - ١٩ مايو ١٩٤٣ .
- (٥٦) المرجع نفسه.
- (٥٧) هيك "مذكرات" ٢ : ٢٢٦ .

(٥٨) يبدو أن النحاس كان عنده عادة عرض رعايته لأي عدد من الناس. وعلى الرغم من أنه كان يفعل ذلك لتعزيز شعبيته، فلم يخطر بباله أن ذلك شيء يستحق الشجب، أو حتى أنه غير أخلاقي، أن يستخدم أموال الدولة في دفع مرتبات لمسؤولين سوف يقومون في وقت لاحق بالوقوف خلفه وتقديم عونهم له. وقد أراد أعضاء المعارضة لفت نظر المجلس لذلك. وقد ذكر كذلك كل من محمد حسين هيكل وعبد الرحمن الرافعي أن الوفد كان من عاداته التخلص من المسؤولين الحكوميين الذين يعارضون الحزب.

(٥٩) درس أمين عثمان في بريطانيا العظمى، وكان متزوجاً من بريطانية، وكان صديقاً لمايلز لامبسون. وقد ساعد السفير البريطاني في إعداد الإنذار الذي أرسله للملك فاروق في ٤ فبراير: وفي آخر الأمر دفع حياته ثمناً لذلك، وتم إطلاق الرصاص عليه في يناير ١٩٤٩. ويقول عبد الرحمن الرافعي أن المحكمة اتبعت اتجاهها لتشجيع الاغتيالات والجريمة، فقد حكمت على القاتل ومعاونيه بأحكام تجعلهم دائماً بعيدين عن أي لوم. الرافعي، ٣:٢٧٣.

(٦٠) مضابط مجلس النواب، ٢، ٣، ٤ يوليو ١٩٤٥.

(٦١) ورغم أن إسرائيل كدولة لم يكن قد تم تأسيسها بعد، كانت هذه هي الكلمة المستخدمة في النص.

(٦٢) مضابط مجلس النواب، ٢، ٣، ٤ يوليو ١٩٤٥.

(٦٣) المرجع نفسه.

(٦٤) محمود محمد كان نجل رئيس الوزراء الأسبق محمد محمود (١٨٧٧ - ١٩٤١) جاء من عائلة ثرية في صعيد مصر.

(٦٥) هيكل، مذكرات، ٣: ٨٩.

(٦٦) المرجع نفسه، ٣: ٩٠.

(٦٧) المرجع نفسه، ٣: ٩٢.

(٦٨) المرجع نفسه، ٣: ٩٣.

(٦٩) كان التقرير عن المبالغ التي صرفتها الحكومة في عام ١٩٤٨ لشراء أسلحة ومعدات أثناء حرب فلسطين خطيراً. ومع ذلك، نظراً لضيق المساحة، لن يكون هناك أي ذكر في هذا المقال عن الاستجواب في مجلس النواب.

(٧٠) مضابط مجلس الشيوخ، ٢٩ مايو ١٩٥٠.

(٧١) المرجع نفسه.

(٧٢) الأهرام، ٣١ مايو ١٩٥٠.

(٧٣) هيكل "مذكرات" ٢: ٢٩٩.

(٧٤) هيكل "مذكرات" ٢: ٣٠٠.

(٧٥) "في محكمة الغدر" المصور ١٤٩٤، ٢٩ مايو ١٩٥٣، ١٦.

(٧٦) "في محكمة الغدر" المصور ١٤٩٦، ١٢ يونيو ١٩٥٣، ١٩.

الجزء الثانى

إعادة بناء المجتمع ،

وإعادة صياغة التاريخ

٥- تمصير الحداثة من خلال

"الأفندية الجدد"

البناء الاجتماعي والثقافي للطبقة المتوسطة
في مصر خلال فترة الحكم الملكي.

لوسى ريزوفا

يظهر تعبير "الأفندية" بصورة بارزة في كل ما يكتب عن التطور السياسي في مصر الحديثة وهو يشير إلى مجموعة كان لها دوراً رئيسياً في الحركة الوطنية^(١) أو الحركات الراديكالية التي بزغت في الثلاثينيات والأربعينيات^(٢). إلا أنه قلما ما يشار إليهم "كأفندية" فقط، بل أيضاً تحت مسميات أخرى مثل "الطلبة" و"النخبة الحديثة" أو "الحركات الراديكالية"، رغم ما في ذلك من عدم دقة وإساءة فهم. والواقع أن مفهوم الأفندي يستحق الاهتمام به، فلم تركز أى دراسات سابقة على ظاهرة الأفندية الجدد أو الأفندي نفسه بصفة عامة كظاهرة اجتماعية مميزة ترتبط بعمليات واسعة من التحديث والتحول الاجتماعي^(٣).

كان غياب الأفندية عن الكتابات التاريخية كطبقة اجتماعية ثقافية راجعاً إلى مشكلة تعريف هذا المصطلح. وإن كانت كلمة أفندي متفق على أنها تعنى تلك الطبقة من سكان المدن التي تلقت تعليماً غريباً. أما في صورتها الجماعية^(٤) فهي تُستخدم إشارة إلى فئة من الطبقة الوسطى، وأحياناً - إذا بالغنا في الوصف - تكون الفئة القارئة^(٥)، أو إذا قللنا من شأنها فهي الطبقة البيروقراطية^(٦). فلو أخذنا بتعريفها باعتبارها

الطبقة المتوسطة فإن الأمر يحتمل النقاش والجدل وكذلك التعريفان الآخران اللذان يقوداننا إلى إساءة فهمها.

يعنى مصطلح الأفندى شيئين؛ فمن جهة كان مفهوماً طبقياً يشير إلى فئة تتميز ظاهرياً بملامح معينة فى الملبس أو السلوك، ومن هذا المنطلق فإن الأفندى يقترب كثيراً من مكانة معينة تتحدد بثقافتها التى كانت غالباً نتاج تعليم رسمى (غربى)، وغالباً أيضاً - ولكن ليس بالضرورة - له وضعه فى بيروقراطية الدولة. أما الجانب الآخر لهذا المصطلح فهو يتعلق بالفئة الاجتماعية التى ترتبط به. إلا أن هذه الفئة من الأفندية تغيرت كثيراً عبر الأزمنة، كما تغير أيضاً مفهوم هذا التعبير فى معناه الثقافى. ويأخذ المؤرخون به كأمر مفروغ منه، فهو يظهر فى المصادر التاريخية من خلال الصور والجرائد والمجلات (شكل ١/٥).

وأكبر مثال صارخ هو استخدام لقب الأفندى فى الأسماء فى جميع المصادر التاريخية التقليدية. فالأفندى مفهوم مرئى، ومضمون كتابى... فهو فى كل مكان... بل هو واضح تماماً فى تمثيله لروح الشعب ومزاجه فى أغلب الروايات سواء الأدبية أو الثقافية أو السياسية فى مرحلة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية.

تغير مفهوم الأفندى كثيراً بمرور الوقت. فقد كان فى البداية لقباً شرفياً يشير فى القرن التاسع عشر إلى طبقة البيروقراطيين نوى التعليم الغربى والذين ينحدرون من أسر على قدر من الثراء وتلقوا تعليمهم فى المدارس الخديوية العامة أو فى أوروبا. ومع بداية القرن، لعب الأفندية دور محررى الوطن. فمئذ أوائل الثلاثينيات، يذكر الأدب الأكاديمى "الأفندية الجدد"^(٧)، ويربط بينهم وبين ظهور فئة من الطبقة الوسطى المحلية، أو بينهم وبين الحركات الراديكالية التى أفرغت من طياتها النقاد الذين شنوا الحرب على المؤسسات الليبرالية. ورغم ما كان يعنيه هذا المصطلح فى تلك الفترة من وضع اجتماعى معين، فإنه مع مرور الوقت بدأ يفقد بريقه، ويرتبط أكثر بالرجل الفقير المفوه الذى يتميز ببلاغة التعبير ويعيش فى المدينة^(٨)، وبدأت الكلمة نفسها تؤخذ على أنها إهانة أكثر من كونها تعبيراً عن الاحترام.

وليس تغير المعنى أو استخدامه الاجتماعى فقط هو الذى يثير المشكلة فى مفهوم مصطلح الأفندى، فقد ارتبطت به أيضاً مشكلة أخرى وهى أن طبقة الأفندية بدأت تتجاوز بقية الطبقات الاجتماعية الأخرى مثل التجار، والطبقة الوسطى الريفية، والمهنيين، والبيروقراطيين والتلاميذ أيضاً. بل ويمكن القول بأن الأفندية كانوا دائماً فى طريق التحول إلى شىء آخر. وربما كان يجمعهم بكل الطبقات الأخرى شىء واحد دون أن يكون واحداً منهم، فتلك الفئة تقع ما بين التجار والبيروقراطيين، والطبقة الوسطى الريفية والمهنيين، أو حتى النخبة الوطنية، إلا أنها كانت دائماً مميزة بصفاتها كطبقة الأفندية، وما كان يبعدها عن بقية الطبقات الأخرى هو كونها "أفندية" على وجه التحديد.

إن مفهوم "الأفندى" ليس وضعاً طبقياً، بل هو مصطلح ثقافى، يرتبط بالحراك الاجتماعى، بل والأكثر أهمية أنه يرتبط بالتحرك من عدم الحداثة إلى الحداثة فى أشكالها المختلفة. ورغم أن "الطبقة الوسطى" تعتبر أحياناً ذات فائدة فى تحديد موقع بعض الأجيال من الأفندية فى محيطها الاجتماعى والاقتصادى، إلا أنها تقيد من محاولاتنا لفهم الأفندية كظاهرة، وكجماعة جديدة نشأت فى المجتمع. وبالتالى يجب فهمها فى ضوء اللحظة التاريخية التى تحدد موقعها، وفى ضوء الطبقات الاجتماعية الأخرى التى حددت ظهورها. فالأفندية طائفة من المجتمع متعددة الخواص والعناصر، ولكنها توحدت من خلال ما تميزت به ثقافياً بعيداً عن مجتمع المدينة وبعيداً عن آبائهم "التقليديين"، فقد كانوا يمارسون أنماطاً جديدة من السلوك الاجتماعى والاستهلاكى نتج عنه أشكال جديدة من الهوية التصقت بهم.

يرتبط الأفندى فى عمله ومفهومه بالحداثة. فصناعة الأفندى تشكلت فى البداية من خلال رغبة الدولة فى التحديث. ومع ذلك فإن التحول إلى الحداثة له أشكاله العديدة. ففى مصر - بصفة عامة - كان انطلاقها من خلال مصدرين - الأول هو الدولة الخديوية، ثم من عملية تغيير اجتماعى تصاعدى من أسفل إلى أعلى وضح فى ظهور الثقافة الجماهيرية ومقوماتها، ومع اهتمام الكتلة الكبيرة من الشعب بالسياسة،

والتحولات التى طرأت على القيم والممارسات الثقافية أصبح "الفرد التابع" "مواطننا عصرياً". وشكل الأفندية - فى مرحلة ما بين الحرب الأولى والثانية - شريحة نامية تكونت من فئات من مجتمع المدينة ومجتمع الريف من نوى الدخل المحدود - وليس المعدمين - كانت نتاج الكفاح من أجل التعليم ومعرفة القراءة والكتابة... وليست نابعة من السلطة الفوقية.

ويمكننا القول بأن معنى "الأفندية" يرتبط بموقعهم من الدولة الحديثة - التى كانت المنتج والمستهلك لهم - بالإضافة إلى أنهم أيضاً جزء من البناء الاجتماعى للبلد بعد التحولات التى طرأت عليه نتيجة لتأثير التحديث. وهذان "التحديثان" - التحديث من أعلى إلى أسفل كتقنية مستوردة ومفروضة، ومن أسفل إلى أعلى كممارسات جديدة لأفراد المجتمع - يتفاعلان سوياً، بحيث يؤديان إلى التناقض الذى يشكل معنى مفهوم الأفندى.

ويشير التناقض بين الأفندية كمكون ثقافى، والأفندية كفئة اجتماعية إلى عمليتين مختلفتين، واحدة منها كانت محور المناقشات الدائرة التى عكست مشروعات الدولة فى التحديث، والثانية حددها توزيع الدخل فى الدولة بعد عام ١٩٢٣ والذى نتج عنه فئة اجتماعية عانت الكثير من الإحباط. وتشكلت صورة الأفندى من خلال رؤية خيالية متناسقة للطبقة الوسطى القائمة، أما صورة الأفندى الاجتماعية والاقتصادية فقد تشكلت من خلال الصراع حول من يدخل ضمن مشروع التحديث إلا أن هاتين العمليتين اللتين يظهر فيهما التناقض بوضوح أحدث حالة حراك ثقافية، كما كانتا ضروريتين لخلق الثقافة البرجوازية المصرية الحديثة والهوية الوطنية.

ويتناول هذا الفصل من الكتاب بصفة أساسية العناصر التى تشكل مواصفات الأفندى، وكيف يؤثر كونه أفندياً على هويته الاجتماعية والثقافية. ويبدأ هذا الفصل بشرح الخطوط العريضة للتطور التاريخى لهذا المفهوم ثم يركز على هوية الأفندى الثقافية ورؤيته لذاته. كما سيحاول تفسير الأبعاد الاجتماعية لمفهوم الأفندى - سواء لهؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم هذا اللقب، أو الذين يلصقونه بالآخرين.

وسوف أستخدم مجموعة متنوعة من المصادر الثقافية مثل المجلات والسينما الذى كان الأفندى هو المؤلف الرئيسى لها أو مستهلكها. وتكشف هذه المصادر عن رؤية للمجتمع المصرى الحديث من خلال عدسة المواطن المدنى محدود الدخل وإن كان قادراً على بلاغة التعبير.

التطور التاريخى لمفهوم الأفندى

من منفذى الحداثة إلى صانعى مصر الحديثة

يعنى مصطلح الأفندى - نو الأصل اليونانى - "السيد" أو "الإقطاعى"، وكان العثمانيون يطلقونه على نوى المكانة الرفيعة والموظفين المهمين^(٩). وفى مصر فى القرن التاسع عشر، اتخذ لقب الأفندى معنى خاصاً ارتبط أساساً ببناء الدولة الحديثة، وبزوغ البيروقراطية الجديدة بالإضافة إلى الشخصية المصرية المدنية للنخبة فيها.

وفى حين ما كانت النخبة فى عصر محمد على تتشكل أساساً من "المعية السنية التى كانت تلتف حوله"^(١٠) كان التحول المستقبلى لتلك النخبة مرده إلى السياسات التى انتهجها محمد على وهى: بناء المدارس الحديثة على النموذج الغربى، وإرسال البعثات إلى الخارج والسماح لأطفال الأعيان من الريف بالالتحاق بتلك المدارس. وكان ذلك تعبيراً عن رؤية واضحة لدور الدولة^(١١)، فضلاً عن كونها مشروعاً للتحديث استمر بعد ذلك بشكل قوى متجدد مع خلفائه وخاصة إسماعيل.

ورغم أن هذا التغيير كان بطيئاً وتدرجياً فإنه كما يقول هانتر:

"فى خلال عصر محمد على ظهرت طبقة من "الرجال الجدد" - من الأطباء والمهندسين والجغرافيين وعلماء المعادن والطباعين. وقد استخدمهم محمد على فى وظائف عدة ابتداء من ترجمة القوانين الفرنسية إلى إدارة المستوصفات فى الريف، وقد استطاعوا بعد ذلك أن يتبوءوا مكانة فى البيروقراطية المصرية حتى جاءت سنة ١٨٦٠ ليصبحوا جزءاً من النخبة الإدارية والقوى المؤثرة فى المجتمع الجديد"^(١٢).

التحق هؤلاء "الرجال الجدد" بالعمل بناء على مهاراتهم المهنية، أو معرفتهم بإحدى اللغات الأوروبية^(١٣)، ونشأت صلة حميمة بين الخدمة الإدارية، والمعرفة العلمية وأيضاً بينهم وبين مشروعات الدولة الحديثة، فقد كانوا جميعاً ملتزمين بهدف الإصلاح والذي يعنى بمفهومه العام إدخال المعرفة الأوروبية ومهارة استخدامها^(١٤).

وقد استغرق توظيف وتدريب هؤلاء الرجال الجدد عدة عقود لإمكانية تنظيمهم وتصنيفهم. وارتبطت عملية خلق تلك الفئة بالأفندية الذين كانوا نتاج المنهج الغربى الذى تبنته الدولة. وكان أغلبهم من أعيان الريف^(١٥) الذين تولوا مناصبهم فى خدمة الدولة وكانوا فى المرتبة التى تلى مباشرة فئة الباشاوات والبكوات^(١٦). وكانوا يتميزون - ليس فقط بوظائفهم - ولكن "بثقافتهم" الخاصة: سلوكهم الغربى والذي تشير إليه أزيائهم لأول وهلة، ثم نظرتهم الخاصة للمجتمع الذى يعيشون فيه. وحوالى عام ١٩١٠ يصف سيد عويس - الذى أصبح فيما بعد من رواد علماء الاجتماع - زوجة عمه التى كانت ابنة لواحد من الأفندية كظاهرة لم يرها قط فى عائلته:

"كانت زوجة عمى محمود تنحدر من خلفية اجتماعية واقتصادية مختلفة عن عائلة أبواى. فجلبت معها ثقافة وخبرات إنسانية مختلفة عنا، وكانت فخورة جداً بأبيها على أفندى لأنه كان أفندياً... وقد اعتادت أن تمتزج بأصدقاء والدها الأفندية وتعلمت الكثير مما كانت تسمعه منهم، وكانت على وعى بأسلوب حياتهم، ولذلك كان والدها يمثل النموذج الأمثل للسلوك والعلاقات الاجتماعية، وكانت تعتبر نمط حياة الأفندية هو النموذج المثالى مما اختلف كثيراً عما رآته بعد زواجها. ولكن ماذا كانت ستفعل؟"^(١٧)

وربما لم تكن هذه السيدة بالضرورة أكثر ثراء من عائلة سيد عويس، ولكن الاختلاف كان يكمن فى ثقافتها. ونجد هذه الشهادة أيضاً فى الصورة التى رسمها المولى للمجتمع المصرى فى نهاية القرن العشرين حيث وصفهم ساخراً بأنهم: "تربوا فى المدينة، وتعلم أغلبهم فى أوروبا، واعتنقوا الأفكار والسلوكيات الأوروبية وكانوا يؤمنون بأنهم يتميزون عن الطبقات الأخرى بونهم"^(١٨). وتتبع هذه الخصائص من المكانة التى كانوا يتمتعون بها داخل مجتمعهم، ومن نوعية التعليم والوظائف التى

وضعتهم فى مرتبة "أعلى" من بقية أفراد المجتمع، بالإضافة إلى علاقتهم الهيكلية بالدولة الحديثة بصفقتهم نتاج عملية التحديث وأدواتها. ومع تقدم هذه العملية تعقدت علاقتهم بالدولة وأصبحت أكثر تناقضاً وازدواجية.

وفى حين ما كان لقب الأفندى فى منتصف القرن التاسع عشر يعنى ببساطة البيروقراطى الذى ينفذ أجندة التحديث فى الدولة، أصبح طريق الأفندية فى نهاية القرن تسلكه غالباً العائلات الريفية فى صعودها إلى مستوى النخبة^(١٩). وفى مرحلة حكم الخديوى إسماعيل كان من الممكن أن يطلق لقب بك وأحياناً باشا - وهى قمة المرتبة الإدارية - على كبار أعيان الريف الذين صعدوا إلى السلطة مثل المليونير الأمى محمد سلطان باشا. وبدءاً من القرن الجديد، تأسس نظام جديد تدريجياً حيث أصبح الطريق إلى البكوية والباشاوية - وصولاً إلى النخبة الاجتماعية والسياسية - من خلال الأفندية الذين تخرجوا من المعاهد الحكومية العليا^(٢٠). وفى حين ما كان الكثيرون عام ١٨٨٠ يترددون فى إرسال أبنائهم إلى الأزهر أو المعاهد الدينية أو الجمع بين الاثنين، شهدت مرحلة أوائل القرن العشرين اتجاه أغلب الأسر الثرية الابتعاد عن التعليم الأزهرى وانخراط أبنائهم فى المدارس الثانوية الحكومية والمعاهد العليا التى وفرت لهم مستقبلاً أكثر ازدهاراً بل وطريقاً إلى بوابة الدخول إلى "السلطة والنفوذ"^(٢١).

كان صعود الأسر الريفية إلى مكانة عالية، وانخراطهم فى النخبة التى تتولى السلطة، يتمثل فى حصولهم على الألقاب التى كانت بعيدة عنهم سابقاً إلا باستثناءات قليلة مثل على بك مبارك الذى كان يمثل نخبة الأتراك - الجراكسة^(٢٢)، ومع ازدياد قوة الرابطة بين العائلات الريفية والوظائف الرسمية والأرض بدأت المصاهرة مع النخبة الأرستقراطية من الأتراك - الجراكسة^(٢٣). وفى نفس الوقت كان بعض الأفندية من العائلات الريفية المصرية قد بدءوا يشغلون مناصب مهمة فى المواقع السياسية على المستوى الوطنى^(٢٤).

ومع مطلع القرن العشرين تغيرت صورة الأفندية من جوانب عدة. فثولاً مع ظهور وظائف جديدة، وإنشاء المدارس المهنية، لم يصبح الأفندى هو الشخص الوحيد المرتبط

بيروقراطية الدولة، ورغم أن أغلب هؤلاء المهنيين الجدد كان يتم تعيينهم من قبل الدولة، فإنهم لم يظلوا مجرد بيروقراطيين بل أصبحوا يمثلون مجتمع المدينة الجديد، والمؤسسات الاجتماعية الجديدة، بالإضافة إلى نمط جديد للحياة. فأصبح الأفندي مهندساً، ومحامياً، وطبيباً بل وصحفيّاً وأيضاً ناشطاً سياسياً^(٢٥).

أصبحت هذه النخبة المدنية التى نشأت حديثاً تمثل طبقة اجتماعية جديدة عرفت باسم "المطربشين" الذين سرعان ما تصارعوا مع فئة "المعممين" - والذين كانوا غالباً من خريجي الأزهر - حول قضايا المهنة^(٢٦). بل وأكثر من ذلك كان صراعاً بين سلطتين إحداهما دينية والأخرى علمانية بمعنى من الذى يمكن استخدامه ومن الذى يتعين إبعاده فى مضمون اهتمامات المجتمع الجديد: مثلاً من هو الطبيب الممارس الذى يجب التوجه إليه، هل هو أحد الشيوخ أم أحد خريجي كلية الطب؟ وما هى المدرسة التى يجب أن يلحق الشخص بها أبناءه... هل هو الأزهر أم مدرسة أخرى حديثة؟ ومرة ثانية يمكننا أن نلمح هذا التقسيم من خلال وجهة نظر أحد خريجي الأزهر حيث يقول طه حسين فى سيرته الذاتية:

"حقق الشاب الصغير حلم حياته بالدخول إلى عالم الطبوش حين ضاق ذرعاً بالعمامة وكل ما توحى به، ولكنه فى هذا المجتمع تقابل مع أغنى الرجال وأكثرهم نفوذاً فى حين كان هو رجلاً فقيراً ينحدر من أسرة من الطبقة المتوسطة، وكان وضعه فى القاهرة سيئاً للغاية"^(٢٧).

وثانياً - ولكن مع ارتباطها بالنقطة الأولى - اتخذت صورة الأفندية بعداً آخر مع بداية القرن، وهى صورة "المصريين" فى مضمونها الوطنى^(٢٨). فقد ظهرت فئة الأفندية فى الأزمات كمدافعين عن استقلال مصر والمتحدثين بصوت الأمة^(٢٩). وكان العامل الحاسم فى هذه الهوية الجديدة لهم هو الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢، فبعد انتهاء العقد الأول، بدأ الاحتلال يتبنى نظرة ثابتة واضحة، انعكست - ضمن أشياء أخرى - فى اختراقهم مؤسسات الدولة، وتدفق الأعداد الكبيرة من الموظفين المدربين على يد

الإنجليز على مواقع الرقابة والسلطة^(٣٠). وبالتالي فقد وجدت النخبة من الأفندية المصريين العلمانيين من مجتمع المدينة الأبواب مغلقة أمامهم. حيث كان الإنجليز يشغلون أرفع المناصب فى التسلسل الهرمى الإدارى الذى يحتاج إلى مهارة، فى حين كان الشرقيون يشغلون المهن الحرة^(٣١). فإذا ما أرادوا ممارسة الأعمال الخاصة كان التمييز واضحاً بينهم وبين المؤسسات الأجنبية التى كانت تدفع ضرائب أقل فى ظل نظام الامتيازات الأجنبية^(٣٢). ويصف كتاب "حديث عيسى بن هشام" للمويلحى مشاعر الإحباط التى كانت تستولى على تلك الفئة المدنية المتعلمة من المصريين فيقول:

"إن البريطانيين يتقاضون أجوراً ضخمة، ولهم سلطات واسعة فقد أمسكوا بزمام السلطة، وأغلقوا أبواب الترقى أمامنا، وانقطع المال الضرورى للتقدم... فليت فرنسا تستعيد سلطتها وقوتها القديمة... فربما يمكننا حينئذ أن ندير حكومتنا بأيدينا"^(٣٣).

"المواطنون الجدد" و"المشاغبون"

جاء الاستقلال عام ١٩٢٢ ومعه نوع جديد من نظام الحكم^(٣٤)، لا يشمل فقط إطاراً مؤسسياً وقانونياً جديداً، بل إعادة تجميع القوى الاجتماعية التى تشكلت فى تحالفات جديدة، فأصبحت النخبة السياسية والمؤسسات مصرية، وتوسعت بيروقراطية الدولة وتحضرت بصورة واضحة^(٣٥). ومع أفول النخبة الأجنبية من الحياة العامة – وليس من السلطة الاقتصادية أو السياسية، استولى المصريون على كثير من المواقع المهمة التى كانوا يشغلونها^(٣٦).

وكان نقل السلطة عام ١٩٢٣ قد تمخض عنه تحول الذين ألقوا القنابل عام ١٩١٩ إلى صناع دولة، وأصبح الأفندية "القدامى" بكوات وباشاوات. وهو ما مثل الجيل الثالث من المجتمع المصرى السياسى الحديث الذى يشير إليه جيمس ويدن فى الفصل الأول من هذا الكتاب^(٣٧). ولكن ماذا عن الأفندية الجدد... هؤلاء الذين نشأوا فى الدولة الجديدة.

إن مشروع بناء دولة تتأسس على أيديولوجية ليبرالية ومؤسسات تحتاج إلى الطبقة الوسطى. وبالتالي أصبح الأفندى هو المواطن النموذجى فى الدولة الذى يمكنه أن يؤدي دور المواطن الحديث "إن مؤسسة الدولة الوطنية الحديثة... تستوجب خلق مواطنين سياسيين جدد... وحقوق سياسية جديدة"^(٣٨). ولأن إهمال التعليم كان أحد المظالم الرئيسية التى تعرض لها المصريون إبان الاحتلال البريطانى^(٣٩)، فبالطالى أصبح أحد الأولويات فى الدولة المصرية بعد ١٩٢٣^(٤٠). وكما شرحت ميساكو إيكيذا فى الفصل الثامن كان التوسع العدى والإدارى فى التعليم واضحاً بالمقارنة بفترة الحكم البريطانى. ويقول بينين بأن التعليم على النمط الغربى لم يوسع فقط فى طبقة الأفندية، بل إنه أضاف مفردات إلى اللغة تصور مصر كساحة سياسية يمكن مقارنتها بدول أوروبية أخرى. ومن منطلق تلك السيطرة الجديدة للقوة "قدم الأفندية أنفسهم على أنهم يحملون على عاتقهم مهمة وطنية"^(٤١). وكانت مناهج المدارس التى أطلقتها المؤسسات الليبرالية متخمة بأفكار عن حقوق وواجبات المواطن وكل ما يوحى به مفهوم المشاركة السياسية^(٤٢). ولم يكن هذا صحيحاً فقط بالنسبة للمناهج، بل شمل أيضاً الروح الليبرالية التى سادت الشعب وتمثلت فى اللغة القانونية التى كانت النخبة تستخدمها، وفى الدور الأساسى الذى لعبه الدستور الذى حدد أن الأمة هى "مصدر السلطات"^(٤٣). وكما كشف باراك سالمنى فى الفصل السادس من هذا الكتاب من خلال مواد التاريخ التى كانت تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية، إن المنهج كان يعكس مفهوم سلطة الشعب ومشاركته وحقوقه وواجباته السياسية على أنها "قيم أخلاقية"^(٤٤). وكان "المصرى أفندى" وهو شخصية كاريكاتورية برزت فى صفحات العديد من المجلات خلال الثلاثينيات والأربعينيات^(٤٥)، رمزاً لهذا المواطن الجديد. وكان دائماً يصور كشخص يقف جانباً ويعلق على الأحداث السياسية الجارية، وكان يمثل المواطن المصرى العادى فى شكله كما كان بملابسه الأوروبية والسبحة التى يحملها فى يده - يعبر عن الحداثة والإسلام.

كانت السياسات والمناقشات الدائرة في مصر بعد عام ١٩٢٢ متناقضة. فقد كانت لغة النخبة السياسية تنادى بحقوق وواجبات جميع المواطنين، وكانت أولوية الدولة هو انتشار التعليم، في حين أن المثقفين الأساسيين في الحكم كانوا ينشرون صورة لمجتمع يتولى فيه المثقفون المستثيرون الذين يملكون المعرفة الصحيحة قيادة الشعب في خطواته نحو التقدم والحداثة^(٤٦). وكانوا يمثلون نخبة واضحة تسيطر على المؤسسات السياسية والموارد الاقتصادية^(٤٧). وفي هذا العالم الثقافي، كانت هذه الفئة أقرب ما يكون إلى صورة تمتزج فيها الهوية الفرعونية مع الهوية الغربية أكثر من كونها تمثل الجوانب العربية والإسلامية في مصر^(٤٨).

خضعت مصر في مرحلة ما بين الحرب الأولى والثانية لعمليات تحول اجتماعية واقتصادية مهمة تمثلت في نمو عدد السكان، وفي عمليات تحضر، واتساع مجال التعليم الحديث^(٤٩). وبحلول عام ١٩٤٦ كان أعداد الطلاب في المدارس الثانوية والجامعات قد زاد أربعة أضعاف عما كان عليه في العشرينيات من القرن^(٥٠). واتخذ بعض المؤلفين ومنهم جيرشوني، وجانكونسكي من هذه المعلومة دليلاً على بزوغ طبقة وسطى في مصر. وكان ارتفاع أعداد التلاميذ في المدن له أهمية كبرى في السياسة^(٥١)، إلا أن ذلك لم يشكل دلالة عددية فقط. فبدلاً من أن يؤدي التعليم - على نحو لا يرقى إليه شك - إلى وجود طبقة وسطى كما حدث في عقدين سابقين قبل هذه الفترة، أصبح يمثل مصدراً للطبقة الوسطى وتحديداً لمكانها، وتختلف المكانة هنا عن الوجود الفعلي المادي لتلك الطبقة. فبالنسبة إلى التعليم، يجب النظر بعين الاعتبار إلى قضايا أخرى منها مثلاً زيادة الفوارق بين مستويات التعليم المختلفة ومعرفة القراءة والكتابة خاصة بعد ظهور وسائل تعليم جديدة ارتبطت بالإعلام والراديو والسينما بالإضافة إلى ممارسة القراءة. في حين عبرت ممارسات التعليم الجديدة عن نمط الاستهلاك الجديد وسلوكيات المجتمع والسياسة والتي أصبحت لا تقتصر فقط على النخبة المتعلمة.

كان النمو الاقتصادي عنصراً حاسماً آخر في تلك المعادلة. ففي العشرينيات من القرن حقق بعض النجاح، إلا أنه في أوائل الثلاثينيات بدأ الاقتصاد المصري في التدهور بصورة مستمرة^(٥٢)، وكما يقول أوين كانت البلاد تعاني من "التطور دون

النمو". إشارة إلى هبوط مستوى المعيشة العام للجميع فيما عدا النخبة^(٥٣). وفى حين ما كان الخريجون فى عقود الثلاثينيات والأربعينيات يكافحون البطالة، كانت أوضاع الأسر والطبقة الوسطى الناهضة تعاني بما يمكن وصفه بأنه عدم استقرار مزمن^(٥٤). وبدلاً من تعزيزها تعاون الاتجاه إلى التصنيع ثم الكساد والحرب العالمية الثانية فى ازدياد المكاسب والخسارة للجانبين من طبقتى المجتمع على حد سواء. ورغم أهمية أعداد الجامعات وخريجي المدارس التى ذكرناها سابقاً، فإن هذه الأهمية لا تكمن فى كونها إحدى المحددات للطبقة الاجتماعية، بل لأنها تشير إلى عدد متنامى من المحاولات لإيجاد طبقة وسطى، لذلك يجب أن نضع فى اعتبارنا الفروق الحاسمة بين التسوق لإعداد طبقة متوسطة، وبين شراء ما يلزم هذه الطبقة - بين أن تكون شيئاً ما وأن تطمح فى أن تكون هذا الشيء، أو أن تملك مكانة الشيء دون أن تكون أنت هذا الشيء^(٥٥).

وعودة إلى "المصرى أفندى" - الكاريكاتير الذى يمثل المواطن المصرى العادى - نجد أن هذا النموذج لا يمثل بالضرورة الطبقة الوسطى كطبقة اجتماعية واقتصادية فحسب بل هو يمثل مفهوم الهوية الوطنية التى تتبلور فى كونه "أفندياً". "فمجتمع الوسط"، الذى تتجمع فيه الطبقة الوسطى وهويتها، يمكن النظر إليه كحاصل مجموع عمليات اجتماعية واقتصادية وثقافية تتميز بالتفتت والتجانس معاً. فمن وجهة النظر الاجتماعية كان موقع الطبقة الوسطى دائماً غير مستقر فى ضوء دخول مجموعات وأسر وأفراد بداخلها أو خروجها منها. وعلى الجانب الآخر نجد أن "الوسط" يعبر عن شريحة لها مفاهيم معينة لا تفرق فقط بين الغنى والفقر، ولا تُحدد بشكل نموذجى بحياة الطبقة الوسطى، ولكنها تتحدد وبصورة مجردة بموقع بناء هوية وثقافة وطنية حديثة^(٥٦). وربما يمكن اعتبار الأفندية هم الذين ينتمون أساساً إلى "الوسط" بمفهومه الاجتماعى والثقافى بصفته الفئة التى سوف تتكون منها الطبقة المتوسطة فى المستقبل والتى سوف تجسد ثقافتها الوطنية.

ومع ذلك فنتيجة للعوامل الاجتماعية والاقتصادية السالف ذكرها، كان الأفندية يصدمون دائماً بالتغيير، فمن ناحية لم يكن الأفندية من الطبقة الوسطى تماماً، بل كانوا يمثلون "الفكرة" عنها. ومن ناحية أخرى يجب أن نضع في اعتبارنا أنه من وجه نظر الأفندي نفسه فإن الملمح الحاسم في هويته لم يكن الرغبة في خلق تصور للوسط، ولكن الرغبة في التحرك إلى أعلى سواء بالنسبة لمكانته في المجتمع أو حالته المادية. أما الوطنيون الليبراليون فقد كانوا يحتاجون إلى طبقة وسطى، وكان الأفندية أنفسهم من الوطنيين الليبراليين المحتملين وفئة النخبة المتوقعة في نفس الوقت.

رؤية خارجية

يمكن لنا تكوين فكرة مشوقة ومفيدة عن ظهور الأفندية في الثلاثينيات من القرن من خلال وثائق السفارة البريطانية. فقد كان المسئولون في القاهرة والشرق الأوسط قد تزايد اهتمامهم بما أطلقوا عليه "مشكلة الأفندية"^(٥٧). فالأفندية كما لخص سمارة وكان السكرتير الشرقي في السفارة البريطانية في القاهرة في إحدى تقاريره "هم تلك الطبقة التي يجب عليها أن تمارس التأثير الأقوى في التطور السياسى المستقبلى للوطن"^(٥٨). وقد رد عليه بيفين - الذى كان يتلقى تلك التقارير بقوله:

"لقد كنت أفكر في مشكلة الأفندية... وأعتقد أن هذا المصطلح له ما يبرره، فالتقارير توحى بأن الأفندية (وأعنى بهم ناتج المدارس والجامعات الشرقية من المتعلمين وأنصاف المتعلمين) في حالة تحول... ويبدو أنهم يتطورون ليشكلوا طبقة وسطى مهنية مقدر لها أن تطالب بموقع محدد واضح في النظام الاجتماعى في العالم العربى، وأن تلعب دوراً مهماً متزايداً في تشكيل المقدرات السياسية في الشرق الأوسط"^(٥٩).

وقد اهتم الضباط البريطانيون بشدة بما لاحظوه من بزوغ "طبقة الأفندية" ووصفوه بالظاهرة "الجديدة" التى نتجت أساساً عن التعليم الحديث. وأنهم في مرحلة "تحول" عبر عنها التوتر بين توقعاتهم (كانوا "يطالبون" بدور لهم) و"الفرص الفقيرة" التى سمحت بها الدولة. كما كانت مشاعر "الشك" و"العداء" تجاه الإنجليز واضحة،

بالإضافة إلى انتشار الدعاية الشيوعية فيما بينهم. ولأنهم كانت لهم مهاراتهم وتعليمهم وثقافتهم الغربية، فقد اعتبرهم الإنجليز قوة سياسية وبالتالي كان من الأهمية القصوى لمصالح البريطانيين في الشرق الأوسط أن تتسم علاقتها بهم بمشاعر الصداقة والمودة.

وفى خلفية الجدل حول كيفية "التعامل" مع هؤلاء الأفندية، وجذب صداقتهم، تشمل تقارير الضباط البريطانيين معلومات مشوقة تحليلية قيمة عنهم. ففي الرسائل المتبادلة بين لندن والسفارات البريطانية في الشرق الأوسط، كان كل شخص من المسؤولين يركز على فئة الأفندية "الخاصة به". ولم يكن لدى لبنان نفس المشكلة، وكذلك السعودية التي كان بها العدد القليل من الأفندية بسبب نقص عدد جامعاتها، وقهاويها، والأندية الاجتماعية بها^(٦٠). أما في العراق فإن الفكر التحليلي لبيرد يميز بين ثلاثة أنواع من الأفندية، وهي رؤية لها قيمتها لمصر. فالأفندية الذين ينحدرون من العائلات الثرية كان من السهل عليهم الحصول على وظائف جيدة في الحكومة أو في مجال التجارة؛ ومن هذه الفئة ظهرت فئة الوزراء ومديرى العموم، والمسؤولين وحافظوا الأقاليم. أما النوع الثانى فكان يتشكل من ضباط الجيش "والذين يتبادلون معنا علاقات طيبة" كما يقول بيرد. ويمثل النوع الثالث "وهو الجزء الحيوى فى رأيه" مجتمع المدينة المثقف من المدرسين والكتبة والعاملين فى المتاجر والمحامين والصحفيين" بالإضافة - كما يقول بيرد من بغداد - إلى أن المشكلة كانت تتركز أكثر فى توفير المال: "ليت الإنجليز يستطيعون أن يمدونا بالكتب الكافية، حيث إن الأفندية مولعون بالقراءة، ولكن على شريطة أن تكون هذه الكتب رخيصة الثمن، حيث إنهم لا يملكون على ما يبدو نقوداً كافية"^(٦١).

ونظرة أخرى نافذة تأتى إلينا من بيروت. حيث لا يمكن أن يوصف الأفندى بأنه يرمز إلى "الطبقة الوسطى المهنية"، فقد كان هذا المصطلح يستخدم بنوع من التحقير أو الازدراء مثلما كان يشار إليه فى بعض النصوص المصرية. "فالأطباء الناجحون، والمحامون، والمهنيون الآخرون لن يشعروا أنهم محل إطراء إذا ما حُشروا فى زمرة الأفندية -

وهى فئة من أنصاف المتعلمين وتتضمن أيضاً رجالاً مهنيين غير ناجحين، كما تشمل الطبقة الدنيا من الموظفين، والكتبة فى الأعمال التجارية وإلى حد ما فئة التلاميذ". وكان الأفندى الحقيقى هو من لا يملك شيئاً، ومرتبته قليل وأمله ضعيف فى المستقبل^(٦٢). ومن ضمن الاقتراحات التى كان هوستون بوزويل قد أرسلها من بيروت إلى لندن ليتعلم كيفية استمالة هؤلاء الأفندية "الذين لا يملكون شيئاً" اقتراح بتوفير كتب رخيصة باللغة العربية ومحاضرات بالإضافة إلى منح للسفر إلى بريطانيا. فضلاً عن اقتراح بأن تكون الأفلام البريطانية أقل قيمة لتنافس الأفلام الأمريكية والفرنسية فى ضوء ولع الشعب اللبنانى بالسينما.

أما التقارير من مصر فكانت لا تمس العادات كثيراً، ولكنها ركزت أكثر على العوامل الاجتماعية والاقتصادية التى تشكل الأفندية، ويصف والتر سميث المصريين الأفندية بأنهم "يرزحون تحت ظلم اجتماعى فادح"، يتواكب مع "إدراكهم المتنامى بعدم المساواة فى المجتمع الذى يعيشون فيه"^(٦٣). فى حين يتعامل دبليو أف. كروفورد الذى يكتب من القاهرة - مع البعد الاقتصادى للأفندية فيقول "إن مشكلة الأفندى الحقيقية هى المرتبات البسيطة التى يتقاضاها موظفو الدولة، والكتبة فى المحال التجارية، بالإضافة إلى الخريجين العاطلين عن العمل مع ملاحظة أنه يوجد الكثيرون منهم بسبب زيادة أعداد الخريجين من الجامعة عن الاحتياجات الفعلية... فهذه الدولة لا تملك البنية الاقتصادية والصناعية والاجتماعية التى يمكنها استيعاب الخريجين وأصحاب الدبلومات... فالجامعات مسممة من السياسة... وتكاليف المعيشة مرتفعة." وينهى كروفورد رسالته باقتراح أن حفلات التنس فى السفارة، وأيضاً الكتب الرخيصة الثمن قد تحل المشكلة^(٦٤).

ولتلخيص ما سبق وذكرناه، فإن ما هو معلوم عن الأفندى من هذه المصادر - رغم ما فيه من الدعابة - فإنه يوحى بالكثير ويرجع صدى ما ذكرناه عن الأفندية فى مصر. فرغم التشابه مع الطبقة العليا فى وجهة النظر والتعليم فإن "الأفندى الحقيقى" لم يكن يملك شيئاً مما يصعب معه ارتباطه بالطبقة الوسطى المهنية. ولكنهم كانوا

كما ذكر بيفين في مرحلة انتقال للوصول إليها . ولم يكن الأفندى يعيش تحت "ظلم اجتماعى فادح" ومهدد دائماً بالبطالة والفقر وارتفاع مستوى المعيشة فقط ولكنه كان واعياً أيضاً لأحواله. كما يجب أن نفهم الأفندى أيضاً كشخصية سياسية، وهى حقيقة انعكست فى اهتمام الإنجليز باستمالاته إليهم. وأخيراً فإن ثقافته وأنماط استهلاكه كانت أيضاً عاملاً حاسماً: الجامعة والقهاوى، أو النوادى. فقد كان يقرأ، ويلعب الرياضة ويذهب إلى السينما^(٦٥).

وإذا نظرنا إلى هؤلاء الأفندية الذين برزوا فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى من خلال المصادر المصرية، نجد افتراضات مماثلة قدمها منتجو وسائل الإعلام المصرية فى تصورهم لهؤلاء الأفندية الذين يمثلون الطبقة الوسطى المتوقعة. إلا أن أهدافهم كانت مغايرة لتلك التى استهدفها البريطانيون حيث إنهم أخضعوا هوية الأفندى إلى المفهوم التجارى.

استقراء الأفندى فى الثلاثينيات والأربعينيات

فى قصة "قنديل أم هاشم" ليحيى حقى - وهى سيرة ذاتية - نرى الشيخ رجب وهو فلاح مهاجر من الريف - يستقر بجوار مسجد السيدة زينب، ويفتح محلاً صغيراً ينمو بعد ذلك مما يتيح للجد أن يرسل ابنه الثالث إلى المدرسة:

"ويبقى الابن الأصغر وهو عمى إسماعيل الذى يعتبر الجوهرة الأخيرة فى العائلة، والذى كان القدر يعد له - مع مكاسب جدى - مستقبلاً باهراً. وحين شجعه الأب على حفظ القرآن، تصور أنه سيذهب إلى الأزهر فشعر بالخوف، لأنه كان يتذكر الأطفال فى الميدان وهم يجرون وراء الشباب المعمم ويصيحون بالكلمات البذيئة "شد العمة شد - تحت العمة قرد"^(٦٦).

إلا أن الشيخ رجب - وقد امتلأ قلبه أملاً - نجح فى إلحاق الولد بالمدرسة الأميرية. ورغم العقبات التى صادفته فى البداية بسبب تعليمه الدينى، وأصله الريفى، فإنه سرعان ما تميز بين أقرانه بسلوكه الطيب، وطبيعته المستغرقة فى التأمل الروحى،

فاكتسب احترام مدرسيه لأدبه وصبره. وربما كانت تنقصه الأناقة ولكنه كان دوماً نظيفاً، بالإضافة إلى كونه يجيد الحديث بالفاظ واضحة أكثر من أقرانه - أولاد الأفندية - والذين كانوا ضعافاً في اللغة العربية. ولذلك سرعان ما تفوق عليهم وتركزت فيه آمال كل أفراد العائلة^(٦٧). وتتكرر هذه الأحداث في كثير من السير الذاتية، والقصص، والأفلام، والمذكرات والتي أسميها أنا قصص "التحول" إلى أفندى. ويسير هذا النمط من الروايات على النسق التالي: أولاً عائلة ريفية أو من المدينة، لا يميزها أى ثراء أو فقر، بل هى تقليدية ومحدودة الدخل تكافح لكى ترسل أحد أبنائها إلى المدرسة - وعلى وجه التحديد مدرسة حكومية أو "أميرية" يسود فيها المنهج الأوروبى^(٦٨). ثانياً يتحول الابن إلى أفندى. وبعد ذلك يبدأ حلم العائلة فى مستقبل أحسن له، يتجسد عادة فى وظيفة "ميرى" رغم أن هذه الصورة كانت قد بدأت تتغير فى الفترة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية. وأخيراً يبرز الأفندى فى مجتمعه أو يصبح عكس ذلك ويتحول إلى شخص فاقد الوظيفة (فى فترة الثلاثينيات والأربعينيات)، وينتهى به الأمر إلى أن يصبح ناشطاً سياسياً. ولكن تظل أولى هذه المراحل هى عملية التحول إلى أفندى.

وفى الرواية السابقة كان مجرد إرسال الصبى إلى مدرسة حكومية كافياً بأن يزرع "آمال عريضة" فى نفوس عائلته. وبالتالي يتمتع الفتى أيضاً بقدر كبير من الاحترام كان يوجه إلى كبار العائلة بصفة عامة^(٦٩). وحين حصل إسماعيل على دبلوم المدرسة العليا وأصبح أفندياً أرسله أبوه إلى أوروبا على حساب تضحيات كبيرة قدمتها العائلة فى سبيل تحقيق حلمه فى أن يصبح ابنه الأصغر فى مكانة عالية^(٧٠).

كانت فكرة أن تصبح أفندياً، أو أن تجعل من ابنك أفندياً ترتبط بمخزون من المعانى ينعكس فى أسلوب حياة الناس، سواء فى ملابسهم وأزيائهم مثل ارتداء العمة فى مقابل الطربوش كما قال طه حسين، أو الجلابية فى مقابل البذلة الأوروبية وهو اتجاه ظهر فى فترة ما بين الحرب الأولى والثانية، أو فى سلوكهم، ووظائفهم، ومناطقهم السكنية وحتى لغتهم. وكانت حوارى المدينة - وهى مكان تقليدى يمثله حى السيدة زينب التى سبق ذكرها تعتبر واحدة من المناطق المحلية التى ترتبط "بعدم الحداثة"

و"التخلف" فى أسلوب الحياة، كما كان "الريف" أيضاً موحياً بنفس المعنى. ولكن أولاد البلد (وهم سكان المدينة التقليديين الذين ينتمون إلى الطبقة الدنيا) يعيشون فى هذه الحارات فى حين كان الفلاحون يعيشون فى الريف^(٧١). ولا يشير ذلك إلى طبقات مجتمعية بقدر ما يشير إلى مضمون ثقافى، حيث كانوا ينتمون إلى المستوى الأدنى من التسلسل الهرمى الذى كان بناؤه يتشكل فى تلك الفترة - رغم أن سامية خلوصى تشير فى الفصل العاشر من هذا الكتاب إلى أن الوطنيين، والنقاد الاجتماعيين والمثقفين كانوا يتمسكون بالفلاحين بصفاتهم مستودع الحقيقة المصرية الخالدة، والاختلال الوظيفى المعاصر. وتتساءل لماذا رفض الشيخ إشراك ابنه معه فى عمله العائلى الذى كان من الواضح أنه عمل ناجح للدرجة التى مكنته من إرساله إلى أوروبا رغم ما فى ذلك من صعوبة. ولكن من الواضح أن فكرة التحول إلى أفندى كاستراتيجية من جانب العديد من العائلات ذوات الدخل المتوسط والخلفية الحضرية أو الريفية والذين يوصفون أساساً "بالمحافظين" أو "التقليديين" - كانت نوعاً من الحراك الاجتماعى الذى يمكن تفسيره مادياً فى العثور على "وظيفة" فى المستقبل. ولكن لأن تلك العائلات لم تكن فقيرة بالدرجة الأولى أو فى حالة احتياج، فيمكن أن يفسر هذا الاتجاه على أنه مرتبط أكثر بالمكانة فى المجتمع والتى تتمثل فى التحول من الهامشية إلى المركزية.

ويظهر هذا المفهوم الأخير واضحاً فى فيلم "الدكتور" لنيازى مصطفى عام ١٩٣٩. وهى قصة عاشقين عجزا عن الزواج بسبب الفجوة الاجتماعية التى تفصلهما. فالفتاة هى ابنة أحد الباشاوات، أما الشاب فهو طبيب ناجح يعيش فى القاهرة، ولكنه من أصل ريفى ولذلك تعتبره أسرة الفتاة "فلاحاً" رغم أنه ليس فقيراً، بل إن أبويه يندرجان تحت الطبقة التى تقف بين ملاك الأراضى المتوسطة وأثريائها. فالصراع الذى يفرق بين العاشقين ليس بسبب الثروة، بل بسبب تفاوت الثقافة التى تتمثل هنا فى مفهوم جغرافى يتحدد فى فكرة الريف مقابل المدينة. وفى أحد المشاهد يزور الشيخ "والد الفتى الباشا فى القاهرة. وحين يخبره الباشا باستحالة الزواج بسبب الفارق الاجتماعى بينهما، يرد الشيخ قائلاً: "اسمح لى بسؤال يا باشا... من كان أبوك أو جدك

ألم يكن فلاحاً بدوره، ثم رباك وعلمك حتى أصبحت من طائفة الباشاوات، أنا أيضاً كذلك ، فقد رببت ولدى وعلمته، وصرفت عليه من "دم قلبي" حتى أصبح طبيباً. وغدا سوف يكون باشا أيضاً^(٧٢)!

إن بطل هذا الفيلم وهو "الدكتور حلمي" أفنديا^(٧٣) وأبوه فلاحاً، ولكنه كان على وشك أن يدخل عالم القاهرة وهو عالم السلطة والنفوذ (كما يقول طه حسين). وسوف يتزوج في آخر الأمر الفتاة بعد مفاوضات حول الوضع الاجتماعي بين الاثنين لتأتي النهاية آخر الأمر لصالح العاشقين... وتتكرر هذه الورطة أيضاً في فيلم "ليلي بنت الريف" لتوجو مزراحي ١٩٤١، حيث يزور طبيب شاب من القاهرة - ويلعب دوره يوسف وهبي - والدته في الريف، وهي فلاحه ثرية ترغب في تزويج ابنها من ابنة عمه ليلي (تلعب الدور ليلي مراد) وحين يصر على رفض الزواج بحجة أنه رجل له مكانته في مجتمع القاهرة ولا يستطيع أن يتزوج فلاحه، ترد عليه والدته بغضب "ومن أنت؟ أليست أمك فلاحه أيضاً؟" وتوحى هذه الأنواع من الأفلام أنه مع التطور الذي حدث والذي يشير إليه أندرو فلوبيرت في الفصل السادس عشر، كانت التطلعات الطبقيّة - أو بمعنى أصح المكانة في المجتمع - تشكل في مصر الاقتصاد السياسي لصناعة السينما في الفترة ما بين ١٩٢٠-١٩٤٠ .

وصورة أخرى للتقدم الاجتماعي كحراك في المكانة داخل المجتمع تظهر في هذا الإعلان الذي نشر عام ١٩٤٥ لعائلة "الرشيدى الحلوانى" وهو أحد أصحاب محال الحلوى والذي يحمل عنوانه مغزى كبيراً. فالصورة تمثل الجد المعمم، ثم الأب وهو يرتدى الطربوش، وأخيراً الابن وهو عارى الرأس في إشارة إلى الرجل العصري في منتصف الأربعينيات (شكل ٥-٣).

هذه الروايات تذكرنا بأن المجتمع البرجوازي المصرى المحلى - والذي دعمته الأوضاع الجديدة كان قد بدأ خطواته نحو التحضر منذ فترة بسيطة. وكانت طبقة الباشاوات من سعد زغلول إلى صدقي باشا يشكلون النخبة المحلية من طبقة الأفندية

فى وقت سابق حيث كانوا من أبناء وجهاء الريف^(٧٤). أما مجتمع البرجوازية الجديد فقد كان ينأى بنفسه عن عمد بعيداً عن الريف الذى كان يعتبره كأنه بلد أجنبى^(٧٥). وبالتالي نجد أن الريف والطبقة الدنيا فى الحضر شكلت الآخرين بالنسبة للأفندى.

وتشير قصة "الدكتور" إلى دور الأفندى كمرحلة انتقالية بين "التخلف" أو الريف القديم، والعالم الحديث الذى تمثله شخصية الباشا، وهذا التسلسل الثقافى الذى يعبر عن التضاد بين الفلاح أو ابن البلد وبين الأفندى والبيه والباشا، كان ترجمة للمناقشات الدائرة فى مجالات أخرى والتى تداخلت بعد ذلك فى اقتصاد هذه الفئة الناهضة فى المجتمع المصرى وعبرت عنها وسائل الإعلام الحديثة. وكانت الرسائل التى تبثها هذه المناقشات والجدل الدائر سواء كان سياسياً أو اجتماعياً أو تعليمياً أو ثقافياً يحمل مضموناً واحداً للشعب: إنه من خلال الثقافة وحدها يمكن للمرء تغيير مصيره، ومن خلال التعليم يمكن إحداث التقدم. ومن ثم ظل الريف وحوارى المدينة بمعزل عن العالم الحديث، ومحكوم عليها بالتخلف إلا إذا تم صقلها وتهذيبها من خلال منهج "الأفندى". فارتبطت ظاهرة التحول إلى "أفندى"، أو الصراع لأن تصبح واحداً من تلك الفئة بجمعية الانسلاخ من التخلف والدخول إلى عالم المعرفة والمجتمع الجديد^(٧٦).

وتتشابه قصة فيلم "الدكتور" الذى حظى بشعبية كبيرة مع فكرة طه حسين التى سبق وذكرناها حين كان يحلم بهجر عالم "العمة" الذى كان "يصيبه بالغثيان" ليدخل عالم "الطربوش" حيث يمكنه أن يلتقى بأغلب "أصحاب النفوذ". ويؤكد الشيخ رجب - الأب فى رواية "قنديل أم هاشم" - هذا المعنى من خلال رغبته فى رؤية ابنه يصل إلى مرتبة نوى الوجاهة والنفوذ، وأيضاً ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة، والتى هى أيضاً مثل "قنديل أم هاشم" من السير الذاتية. وتؤرخ ملحمة نجيب محفوظ لحياة عائلة قاهرية فى الفترة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية، فنجد شخصية سيد عبد الجواد التاجر الثرى، والذى تتمحور حوله القصة يمثل النخبة الاجتماعية فى مجتمعه، وإن كان يقع على حافة هذه الطبقة رغم ثرائه وما له من تقدير، فهو ما زال يرتدى الجلابية بدلاً من البذلة، ويركب "الكارتة"^(٧٧) بدلاً من "السيارة" ويحتفظ بنقوده فى

خزانة فى منزله عوضاً عن البنك. أما أولاده الثلاثة فسوف يصبحون أفندية، ولن تخامرهم أى رغبة فى الاستمرار فى عمله رغم أنه كان ناجحاً، ومن ثم ففى نهاية الثلاثية نجد أن السيد عبد الجواد بعد أن أصبح كهلاً مريضاً يضطر إلى غلق متجره^(٧٨). وتشير الرواية بوضوح إلى أنه رغم أن أولاده الثلاثة قد أصبحوا أفندية، فأحدهم يشغل وظيفة حكومية، والثانى يعمل مدرساً، أما الثالث فقد توفى وهو طالب خلال ثورة ١٩١٩. فإنهم فى واقع الأمر كانوا أفقر من والدهم ورغم ذلك فمن المنظور الوطنى كانوا أكثر "مركزية" منه: فقد تحول الشهيد فهمى أفندى بن السيد عبد الجواد إلى بطل وطنى.

وبالمثل لم يكن الشيخ رجب فى "قنديل أم هاشم" كما ذكرنا فقيراً، ولكنه كان على هامش المشروع الوطنى ومثله مثل غيره كانت شخصية الأفندى تمثل لهم الصعود إلى أعلى والطريق إلى ما يتصورونه السلطة الاجتماعية والسياسية. ولا يعنى الحراك الاجتماعى هنا تحسين مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية بصفة أساسية ولكنها كانت حركة تستهدف الصعود إلى مكانة أعلى، ودخول مجموعات مهمشة متزايدة فى أعدادها داخل منظومة الثقافة الوطنية واقتصاد الحداثة. وكان التحول من مهنة "الفلاح" أو التاجر إلى الموظف الناجح أو البيروقراطى ومنه إلى الباشا الذى يمثل مرتبة لا يدانيها مرتبة أخرى لم تكن لتتحقق إلا من خلال سلوك طريق الأفندى الذى كان يملك الأنوات الصحيحة للاندماج فى مشروع الحداثة الوطنى الذى كان يمثل الثقافة "المناسبة له" ورأس ماله الثقافى الذى تبلور فى ملبسه والذى كان نابعاً فى أغلب الأحوال من دراسته لمناهج غربية. وبناء عليه أصبح يُعرف ليس من خلال وصوله إلى تلك المرتبة، ولكن عن طريق العادات والممارسات الحديثة التى ترتبط بكونه أفندياً - وأولها ارتداء الطربوش. وتصبح ثقافة الحداثة هنا هى محك الحكم عليه بالإضافة إلى كونها الحارس على مكانته الاجتماعية وعملية الحراك القائمة. وقد مكنت العاصمة الثقافية الأفندية - على الأقل نظرياً - من الوصول إلى مجالات لم يكن لأى تاجر أو شيخ معمم - كما يذكر طه حسين - أن يتطلع إليها^(٧٩). وتتضاعف هذه الحالة بالنسبة للفلاحين الذى من سخرية القول أن يعتبرهم البعض جوهر مصر الأصيلة كما ترى فى الفصل الذى كتبته سامية خلوصى.

غموض مفهوم الحداثة:

أصبح مصطلح الأفندى مرادفًا لتبنى خصائص الحداثة، وتزايدت أعداد من يرغبون في الحصول على هذه الجائزة، وبالتالي أصبحت الحداثة اختياراً واعياً للاعبين الذين يقفون على الهامش. فإذا كان الأفندى قد ظهر منذ البداية كإفراز لمشروع الحداثة الذي كانت الدولة قد بدأت، فيمكننا القول بأن هذه الروايات تعبر عن استمرارية هذا المشروع وتطوره. ونلاحظ هنا تحولاً من الأفندية الذين أطلقته الدولة وبين هؤلاء الذين أنشأهم المجتمع - وهو جيل سياسى رابع إذا استعرنا الرمز الذي أشار إليه ويدن في الفصل الأول. ورغم أن مشروع الحداثة كان قد بدأ أساساً كمشروع فوقى ذاع وانتشر من خلال حوارات السلطة الرسمية، فإننا نلاحظ أنه في فترة ما بين الحرب الأولى والثانية قامت الجماعات من غير الأثرياء بإعادة تشكيل هذا المشروع كما وضع من اختياراتهم لنمط حياتهم اليومية والتي تمثلت في تعليمهم واختيارهم لمهنتهم.

وعودة مرة ثانية إلى الكاريكاتير الشهير "المصرى أفندى" والذي سبق وذكرناه. فقد اختفت الشخصية تماماً من صفحات مجلة "الاثنين" عام ١٩٤١ بعد أن كانت تعبر عن أدنى طبقة من موظفى الحكومة - وهى طبقة الأفندية - أو البيروقراطيين ضيقى الأفق والتفكير^(٨٠). إلا أن المصرى أفندى فى الواقع لم يكن يمثل فقط هؤلاء البيروقراطيين التافهين، بل كان يرمز لأعداد متنامية من خريجي المدارس على المستويات المختلفة من التعليم^(٨١).

أصبح الأفندى فى أواخر الثلاثينيات شخصية مثيرة للجدل بالإضافة إلى غموض وضعها الاجتماعى، وتكشف الروايات التى كتبت فى تلك المرحلة أن الأفندى بدلاً من أن يتمتع بثمرة الحراك الاجتماعى الذى حدث فى الجيل السابق أصبح أكثر فقراً من جيرانه المتهمين "بالتخلف" الذين يعيشون فى الحارة. وإذا كان معنى الأفندى فى الربع الأول من القرن العشرين يعنى الطريق إلى عالم "الثروة والنفوذ" كما عبرت عنه قصص طه حسين أو رواية قنديل أم هاشم، إلا أن الأمر اختلف تماماً فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن.

وعلى الجانب الآخر لم يوجد أى خيار أمام الأفندى، فقد كان طريقه اتجاهًا واحدًا فقط مثلما أوردت هذه الروايات. فمثلاً نجد أولاد السيد عبد الجواد الثلاثة فى ثلاثية نجيب محفوظ يرفضون العودة إلى مهنة أبيهم. وسواء كانت أصول الأفندية من الريف، أو من المدن فلم يكونوا من الطبقات الفقيرة. بل كان أغلبهم أبناء تجار أو ملاك أراضى من الطبقة الوسطى، إلا أن نزوحهم إلى المدينة للدراسة وما تلاها من بطالتهم أوصلهم فى أغلب الأحيان إلى حالة من التدهور فى مستوى معيشتهم.

مهنة الأفندى: من الوظيفة إلى الجيش:

يقول أحد الأمثال المعروفة: "إن فاك الميرى اتمرغ فى ترابه". وتعنى الميرى هنا موظف الحكومة ذا النفوذ والسلطة، أو بمعنى آخر الأفندى حيث كان "الميرى" هو رمز سلطة الدولة. وتؤكد وظيفة الأفندى "التقليدية" هذا المعنى. فالأفندى عادة هو "بيروقراطى"، أى موظف فى الحكومة مثل محصل الضرائب أو موظف فى مصلحة المساحة، وهذه الوظائف تقع فى نقطة تقاطع أو تداخل الدولة فى الحياة اليومية للأشخاص العاديين. أما رؤية الطبقة الأقل مستوى من النخبة للأفندى فهى ترسم ردود أفعال وصور واسعة المجال تتضمن مشاعر الاحترام والتعاون من منطلق أن صورة الأفندى كانت مطمئناً لهم يستتبع بالتالى إيجاد صلة طيبة بهم، وإن كان قد مازجها شئ من الخوف والسخرية التى تعبر عنها أغنية سيد درويش: "استعجبوا يا أفندية، لتر جاز بروبية، ثمن لتر زمان بصفيحة، واللى يطولوا اليوم بفضيحة"^(٨٢).

وتعود النظرة إلى الأفندى بصفته "ميرى"، لرؤية الأفندى السابقة بأنه يمثل يد "الحكومة أو الدولة". والمصطلح نفسه تركى الأصل، وفى مرحلة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية، إن لم يكن قبل ذلك، حل محله تعبير جديد وهو "الموظف"، الذى يعنى شخص له وظيفة. إلا أن لفظ "ميرى" ما زال يظهر فى الأفلام السينمائية، وإن كانت له تداعيات قديمة ترتبط بالعصر العثمانى. وفى الثلاثينيات، فقد الموظف مكانته أيضاً

كما هو واضح فى الاستغناء عن شخصية المصرى أفندى الكاريكاتورية. وأصبح الأشخاص الذين يعتمدون فى معيشتهم على رواتب ثابتة من أكثر الناس تعرضاً للأزمة الاقتصادية، ولتدهور عام فى مستوى المعيشة. وبالتالي فلم تصبح الوظيفة فى الثلاثينيات والأربعينيات حلم الشباب كما كانت، بل تحول الحلم إلى "الزى العسكرى" سواء البوليس أو الجيش.

فى عام ١٩٣٩، أخبرتنى إحدى الصديقات واسمها عزيزة، وهى ابنة تاجر غنى فى بنها أنها تزوجت من ضابط بوليس يعمل هناك. وبررت اختيار عائلتها له بقولها "لم يكن من الممكن أن أتزوج أفندياً، ولكنه كان ضابطاً، وهذا شىء مختلف تماماً"^(٨٣). ولا يختلف الضابط عن الأفندى فى جوهره، ولكن الاختلاف هو فى مكانة الاثنين فى المجتمع، رغم أنه يمكن اعتبار الضباط فئة خاصة تدخل فى شريحة الأفندية بصفة عامة. فبعد عام ١٩٣٦، كان تعيينهم يتم من خريجي المدارس الثانوية، وكانوا يعتبرون أفندية لحين حصولهم على رتبة عسكرية معينة، ولكنهم كانوا جماعة مميزة وسط فئة الأفندية. وفى حين انخفضت مكانة الأفندى العادى، كانت مكانة الضابط ومرتبته قد زادت مع زيادة حجم اهتمام الرأى العام بالجيش^(٨٤). وكما أشرنا فى الفصل الثالث من هذا الكتاب كان الالتحاق بالكليات العسكرية - فعلياً وليس نظرياً - قاصراً على أولاد العائلات الثرية^(٨٥). وباختصار كان الزى العسكرى يوفر ما سبق أن فعلته الوظيفة "الميرى" أو المدارس الثانوية الحكومية سابقاً فى أوائل القرن: "حيث كان الطريق الوحيد إلى الصعود الاجتماعى بالنسبة لأبناء العائلات المتوسطة الدخل وليست الفقيرة"^(٨٦). هذا بالإضافة إلى أن الوطنية العسكرية فى المرحلة ما بين الثلاثينيات والأربعينيات كانت تمثل للشباب واجباً وطنياً لتحرير مصر كما يقول عبد اللطيف البغدادى "إن الشباب فى سن الخامسة عشرة أو أكبر كانت لهم أحلام كبار وأمال واسعة، وكانوا يمضون أوقاتاً كثيرة فى ممارسة الرياضة لبناء أجسادهم... لقد حلمنا جميعاً أن نلتحق بالجيش ونصبح ضباطاً"^(٨٧).

وفى حين ما كان الأفندى بصفته "ميرى" فى أوائل القرن العشرين يمثل الدولة التى تفرض النظام على رعاياها، فإن الأفندى... الضابط أصبح صورة لهوية وطنية مميزة. فالدولة أصبحت الوطن، وأخذ الأفندى على عاتقه مسئولية شئونها. وفى نفس الوقت أصبحت الدولة - بمؤسساتها ونخبها - بعيدة عن الأمة حيث لم تعد الدولة تمثل الأمة، ولكن الأفندية - الذين انفصلوا عن فئة الفلاحين - كانوا يعتقدون أنهم أجدر من يدافع عن الأخطاء التى قد ترتكبها النخبة فى الدولة. وسوف تتضح هذه الفكرة أكثر فى الجزء الأخير حيث تتلاقى فكرة وصاية الأفندية على مصالح الدولة مع اتجاه آخر مهم وهو التعبير عن هوية الأفندى الجديد وتعريف الذات.

تمصير الحداثة

الحداثة تبدأ من الحارة:

إذا كان التحول إلى طبقة الأفندية فى الربع الأول من القرن العشرين يعنى الحراك إلى طبقة أعلى فى المجتمع، وفى الربع الثانى من القرن أصبح الأفندى يمثل مرحلة الدخول إلى حالة انتقالية أولية ومنها إلى حالة انتقالية أخرى. وبدلاً من أن تؤدى الحالة الانتقالية الأولى إلى القوة والنفوذ قادته إلى طريق مسدود لا يؤدى إلى الوصول إلى مستوى مريح من المعيشة. وفى أواخر الثلاثينيات والأربعينيات، بدأ الأفندى فى بناء هوية له، مستغلاً ظهور الإنتاج الثقافى العام متمثلاً فى السينما، والصحافة والذى كان هو المستهلك الرئيسى لهما.

ويتضمن فيلم "ابن الحداد" ليوسف وهبى ١٩٤٤ قصة طه أفندى وهو ابن حداد يملك ورشة فى أحد الأحياء الشعبية فى القاهرة. وكان الأب قد أرسل ابنه طه لإحدى المدارس الحديثة، ويعدّها أتم تعليمه فى الخارج وحصل على شهادة فى الهندسة. وبعد عودته إلى الوطن أقامت عائلته وجيرانه حفل استقبال "لطه أفندى" وبعد الحفل دار حديث حاد بين طه ووالده:

"الوالد: والآن يمكنك الحصول على وظيفة محترمة بمرتب ١٢ جنيهاً شهرياً على الأقل.

طه: لا يا أبى... أنا لا أتطلع إلى وظيفة... أنا أريد عملاً خاصاً بى وحدى.

الأب: ماذا؟... هل جننت؟ لقد صرفت عليك "دم قلبي" حتى أكون فخوراً بك... حتى أرى طه أفندي ابن المعلم صلاح^(٨٨) وهو يدخل ويخرج من الديوان... لقد صرفت كل قرش معى وأرسلتك إلى أوروبا لتتمكن من أن تعمل فى الميرى.

طه: ولكن هذه وجهة نظر قديمة... فأنا أريد أن أكون حراً... أن أكسب النقود "بكدى وعرقى (بعرق جبينى)" وأن أكون سيد نفسى.

الأب: هل تريد أن يضحك علينا الناس؟

طه: لقد تغير العالم من حولنا يا أبى، فمن يملكه الآن هم الذين يعملون^(٨٩).... تعال معى وسوف أريك المباني الشاهقة، والكبارى الضخمة... من الذى بناها؟ إنهم هؤلاء الذين يعملون، أنا ابن حداد وأريد أن أظل كذلك.

الأب: وماذا عن كل الشهادات التى حصلت عليها؟

طه: سوف أستغل المعرفة التى حصلت عليها لأفيد الآخرين... انظر إلى هذه الورشة الصغيرة التى نشأت فيها وتعلمت أصول الصنعة. لقد كانت هى مدرستى الأولى وكنت أنت معلمى الأول... أما الآن فسوف أمزج أنا المعرفة التى حصلت عليها بعملى الشاق وغداً سوف يبدأ كفاحى. وسوف يكون إيمانى والتزامى هو نصف عملى^(٩٠). وسوف ترى غداً يا والدى أن هذه الورشة الصغيرة سوف تكبر وتكبر حتى تصبح مصنعاً كبيراً يستخدم الآلاف منى، ومن أبناء مهنتى. وسوف تتحسن أحوالهم ويشاركونتنى نجاحى. ولن أنسى أبداً أن أقبل يد كل من علمنى كل ذلك المدرس وأنت يا أبى.

إن قصة طه أفندى تبدأ مثل غيرها من تحول التجار، والفنيين، وأولاد ملاك الأراضي المتوسطين إلى فئة الأفندية التي أشرنا إليها سابقاً. فقد نشأ طه في الحارة حيث كان والده يمثل النخبة فيها، وأرسله إلى الخارج لإتمام تعليمه على حساب تضحيات كثيرة في حياته، وحلم بأن يمتهن بعد ذلك وظيفة ميرى ولكن طه يرفض ويعتبر ذلك فكرة قديمة عفا عليها الزمن.

وما يحدث بعد ذلك لطله أفندى بعد عودته إلى القاهرة وبعد الحوار الذي دار بينه وبين والده لا يقترب كثيراً من الحقائق الاجتماعية التي واجهت الأفندية بل هو يعبر عن صورة الأفندى المثالية. فطله أفندى ينجح في مشروعه المستقل محدثاً بذلك توازن في قوى المجتمع، ويخلق هوية أفندى جديد تتساوى فيه الحقائق المادية مع الصورة المثالية الخيالية.

يهدم طه حسين الورشة ويبني محلها مصنعاً حديثاً. وتتوالى نجاحاته ليصبح بعد ذلك أحد كبار رجال الصناعة، ويؤدى به نجاحه إلى حياة مريحة، ومع ذلك فهو يرفض أن يكتفى بالجلوس في مكتبه، بل هو يباشر العمل في المصنع بنفسه مرتدياً زى عماله الذى يقيم معهم علاقة ودية، بل إنه يقدم لهم دروساً مسائية تعليمية يدرس لهم فيها التكنولوجيا الحديثة، مشيراً إلى أقوال الرسول:

"والآن يا أصدقائي الأعزاء سوف أشرح لكم طبيعة هذه الآلة. ولكن قبل كل شيء أقول لكم "إن ربنا خلق المعلم ليعلم غيره" وغداً أريد أن أراكم جميعاً متعاونين مع بعضكم البعض، وقد قال الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) "يد الله مع الجماعة"... إن الآلة تتكون من ستة أجزاء..."

وتكشف هذه المقولة عن فكرتين رئيسيتين: العدالة الاجتماعية والهوية الإسلامية. والأهم من ذلك اعتماد كل منهما على الأخرى، فالمعرفة لا ترجع أصولها إلى الغرب رغم أن طه حصل على شهادته في ثقافة التكنولوجيا في أوروبا، فإنه يرجعها إلى الإسلام، فالإسلام في جوهر تفسيره قاعدة العدالة الاجتماعية، وبذلك تكون أخلاقيات

الإسلام كما هو واضح فى المضمون السابق قد تحولت إلى صورة لأخلاقيات العمل تخدم فى النهاية عملية التصنيع. بل أن طه نفسه يشير فى إحدى مؤلفاته أيضاً إلى "النهضة الصناعية"^(٩١).

ويجد طه أفندى نفسه... والذى رفعه نجاحه إلى الطبقة العليا فى المجتمع وهى طبقة البهوات - رعاية منهم فيتزوج ابنة أحد الباشاوات. ويصبح أصهاره الجدد صورة نموذجية لرؤية الأفلام السينمائية لهذه الطبقة فى المجتمع فهى فئة تتميز بالكسل والطمع والانغماس فى الملذات مما يتعارض مع أخلاقيات طه فى العمل^(٩٢). ثم هم يتكلمون أيضاً اللغة الفرنسية فيما بينهم ويلومون طه لأنه يتحدث العربية مع ابنه. أما زوجة طه فهى تشرب الخمر وترقص مع رجال أجنبى حتى ساعات متأخرة من الليل مهملة ابنها تماماً. ويتحول منزل طه إلى حفلات وسهرات راقصة يتناول فيها الخمر. ويظهر هذا الصراع الدائم بينهما فى الحوار التالى فيقول:

الصهر المستهتر: "ألن نحتفل بعيد الكريسماس (عيد الميلاد) هذا العام؟

طه: "لقد أمضيت حياتك كلها فى هذا البلد... ومع ذلك فأنت تحتفل بأعياد الديانات الأخرى... أما هذا العام فسوف نحتفل بمولد النبى".

ويشير البناء الدرامى فى هذه القصة - والذى لا يعد استثناءً فى السينما المصرية فى الأربعينيات - إلى مسار طه أفندى فى حياته^(٩٣). فهدف الأب الذى يتميز بالتقوى والورع رغم سلبيته، بل وهدف الحارة نفسها - هو التأكيد على جذور الحداثة فى نفس طه. فقد قبل طه يد والده فى الحوار الأول الذى دار بينهما، وهى إشارة صريحة إلى الثقافة الأبوية التى لا يمكن أن تتوافق مع الحداثة فى المضمون الغربى، ولكنها ضرورة للفصل بين الحداثة وما يرتبط بها من مفاهيم غربية فى المضمون المصرى. وهنا نجد أن طه ينتقل بعالم أبيه المستغرق فى النوم إلى نجاحات مرجعها الخبرة التى جاء بها من أوروبا. إلا أن ما مكفه حقيقة من هذا النجاح بجانب روحه الملتزمة هو طبيعة أصالته: الإسلام كتجسيد للعدالة الاجتماعية والبحث عن المعرفة، وهى تشكل مكونات متكاملة لعملية التحديث، وكلها امتزجت مع بعضها البعض لتصينغ تطوراً قومياً عصريةً فى روح الشعب قاربت أحياناً من الدعاية الصناعية.

ولكن لا يعنى ما سبق وذكرناه أن نتخيل طه أفندى كمجرد شخصية "إسلامية". فقد كان طه على معرفة تامة بسلوك الطبقة البرجوازية، بل كان يستخدم أيضاً فى أحاديثه بعض الألفاظ باللغة الفرنسية. إلا أن الخاصية الواضحة هنا أن يوسف وهبى هو الذى لعب دور طه أفندى، والمعروف أنه كان رمزاً للبرجوازية وبطل السينما المصرية الذى يثير المشاعر، إلى جانب تعبيره عن الشخصيات نوى الثقافة الرفيعة بل الأرستقراطية أيضاً^(٩٤)، وقد ربطته هذه الشخصية بشخصية أفلامه الأخرى التى خلقت تداعيات برجوازية امتلأت بها السينما المصرية التجارية فى تلك الفترة.

أما الدور الذى يلعبه أصهار طه أفندى فى الفيلم فهو يرمز للحكم الأخلاقى على مفهوم الحداثة. فزعم أنهم يشاركون طه فى السمات المميزة لها إلا أن الاختلاف يتجلى فى صورة تعارض تفسيرات مضمونها. فالتوتر الذى يسود العلاقات بينهما ليس بسبب كون طه عصرياً أم لا، ولكن بسبب تصحيح مفهومها الذى تحول إلى إفساد تحت مسمى الاستمتاع بالحياة، وإلى الانحراف والتطرف فى السلوكيات وعدم تحمل المسؤولية وإساءة التصرف مع الآخرين. أما المفهوم الصحيح للعصرية، فى نظر طه، فهو ليس مستوى معين مناسب من التفريب بل إنه يخضع للموائمة، والمحلية والتبرير تستند إلى مراجع محلية إسلامية عربية مصرية. وبالتالي يشكل مفهوم العصرية عند طه أفندى نقداً لصورة أسلوب الحياة الغربية عند الباشاوات حيث إنها من وجهة نظره تتمحور حول الأصالة الثقافية والعدالة الاجتماعية^(٩٥). وتصبح العصرية التى سلكت الطريق الخطأ وتم تفسيرها على أنها متعة الحياة صدى لما أصبح معروفاً للجميع فى أنها السبب المفترض للفشل السياسى والاقتصادى للنخبة. ويقترح طه هنا الحل من خلال ظهور أيديولوجية البرجوازية الوطنية. ويتحول الصراع بينه وبين أصهاره من النوات - والذى يصوره الفيلم كصراعات حول الحداثة "ومن الذى يملكها"، إلى تعبير مجازى عن صراع آخر هو "من يملك الدولة".

جيل الشباب

فى نوفمبر ١٩٣٥ شهدت مصر موجة من المظاهرات لم يكن لها سابق عهد بها منذ ثورة ١٩١٩ اجتاحت المدن الرئيسية وحقت ما لم تستطع القوى السياسية بها تحقيقه. وكان فى مقدمة المتظاهرين اللجنة التنفيذية بالجامعة وطلبة المدارس الثانوية. وقد أجبرت هذه المجموعة - والتي تضم التلاميذ فى أغلبها - القادة السياسيين على تشكيل الجبهة الوطنية المتحدة التى طالبت بتعديل دستور ١٩٢٣، والبدء فى مفاوضات مع الإنجليز. وقد قتل فى هذه المظاهرات العديد من الطلبة، إلا أنهم نجحوا فى تحقيق أهدافهم.

وفى ديسمبر عام ١٩٣٥ أصدرت إحدى المجلات واسمها "كل شىء والدنيا" عدداً خاصاً خصصته للطلبة، ونشر على غلاف المجلة صورة طالبين يعانقان بعضهما بمناسبة تعديل الدستور (شكل ٥-٤)، وقد تضمنت عدد من المقالات عن حياة الطلبة وعن شهدائهم فى مظاهرات نوفمبر ١٩٣٥ بالإضافة إلى أنشطتهم السياسية ومن ضمنها مشروع "القرش" والاحتفالات الخاصة بهم والمؤتمرات التى كان الطلبة ينظمونها أو التى كانت تنظم لهم. وتبعها بعد ذلك مجلات أخرى فأصدرت "الهلل" فى إبريل ١٩٣٦ كتاباً مهماً مكوناً من ١٣٠ صفحة خصص للطلبة أيضاً وضم مقالات عن أنشطتهم واهتماماتهم، وفى نفس الوقت مناقشات عن فضائلهم وقضاياهم^(٩٦).

وكان سبب هذا التركيز والاهتمام من الصحافة على الشباب وخاصة الطلبة هو التأكيد على بروز الشباب فى الثلاثينيات كقوة اجتماعية مميزة يعمل لها ألف حساب. وكانت تلك هى "مشكلة الأفندية" التى أقلقّت المخابرات البريطانية التى تضمنتها الوثائق التى ناقشناها فى بداية هذا الفصل. وربما كان البريطانيون من السذاجة بحيث ظنوا أنه يمكنهم حصار الهوية الوطنية المصرية الناهضة عن طريق توفير أنشطة اجتماعية وثقافية ملائمة لهم، إلا أنهم كانوا على صواب فى اعتبار الأفندية شريحة مميزة، ورغم أنها كانت فئة فضفاضة اجتماعياً فإنها كانت لها ملامحها

العامة المميزة بالإضافة إلى دورها النشط في الشئون العامة في مصر. وفيما يلي شهادة واحد من هذا الجيل وردت تحت عنوان "بيان مهمة":

"كان عام ١٩٣٥، وكنت تلميذا في مدرسة المنصورة الثانوية، كنا جيلاً أكبر من سنه، جيل تميز بالجدية، والخشونة وياهتمامه بالوطنية منذ بلوغنا سن المراهقة. وكنا نستمتع إلى القصص حول ثورة ١٩١٩ وهي الفترة التي شهدت ميلاد أغلبنا، وعن المحاكم التي نصبها البريطانيون ضد الثوار، وأحكام السجن والإعدام التي أصدروها، وضرب المئات من أفراد الشعب على امتداد الصعيد إلى الإسكندرية. كل ذلك ولد في نفوسنا كراهية للإنجليز وملأ قلوبنا بمشاعر الوطنية"^(٩٧).

ويسجل خالد محيي الدين مشاعر مشابهة تعكس صدى لما ذكرناه سابقاً عن الاتجاه إلى الجيش "كان الحافز لنا نحن، شباب تلك المرحلة، هو المشاعر الوطنية القومية. كنا واثقين أن مصر تحتاج لجيش قوى يدافع عنها، جيش يخدم الأمة ولا يخدم أى قوى أخرى. كانت فكرة الالتحاق بالكلية العسكرية قد استحوذت على، وبعد معارضة طويلة من والدي وتصميم واضح مني، أمكنني ذلك"^(٩٨).

هذا الملمح العام للأفندية الجدد عبر عنه على مستويات مختلفة. فظهرت هوية متميزة واضحة جمع مضمونها الثقافي بين الأصالة المحلية والحدثة كممارسة اجتماعية تمثلت في سلوك وشخصية طه أفندي الذي كان واحداً منهم. ملمح آخر عبر عن اتجاه جديد ظهر في "الهجوم على الآباء". وإذا كان طه أفندي يعبر عن جيله الذي حاول إنقاذ بلده من الفشل الذي عانت عليه أيدي الباشاوات إلا أنه كان يتعين عليه أيضاً أن يبدي احترامه لأبيه المعلم صلاح المسلم السلبي ويحرر نفسه منه في نفس الوقت. وما تشير إليه مظاهرات ١٩٣٥ التي ذكرناها سابقاً هو أنه رغم أن أصالة الآباء تعتبر مكوناً حاسماً في مفهوم الحدثة فإن نوعية السياسات التي مارسها جيل الآباء كانت فاشلة^(٩٩). فقد شهدت سنوات منتصف الثلاثينيات صعوداً مستمراً لأعداد الشهداء من الطلبة وأيضاً الاحتفالات بكل ما هو شباب - كما وضع في الأفلام السينمائية والقصص والروايات والملصقات التي كانت توزع مع المجلات المصورة. (شكل ٥-٥).

كانت الأزمة التي تصورها تلك القصص هي كيفية النظر إلى "الآباء"، هل باعتبارهم السياسيين الكبار من أولاد الذوات الذين يسيئون التصرف، أم مثل المعلم صلاح التقى الورع والد طه أفندى. ففي فيلم ابن الحداد يصل طه أفندى إلى حل المشكلة برفضه فكرة والده في الالتحاق بوظيفة في الميرى ثم تقبيل يده في نفس الوقت... ويتناول نجيب محفوظ أزمة الأفندى الذي يقع فريسة الصراع بين ولائه لوالده أى للسلطة الذكورية الأكبر، وبين اعتقاده الراسخ بأنهم غير عصريين، مما يعنى بالتالى وجودهم كعقبة فى طريق التقدم فيصورها من خلال الحوار بين حفيد عبد الجواد وخاله كمال حين يعلن أحمد أنه التحق بإحدى الجرائد الشيوعية "الرجل الجديد":

افعل ما يحلو لك... ولكن لا تغضب والديك.

ضحك أحمد وعلق بقوله "أنا أحبهم وأحترمهم... ولكن..."

- "ولكن ماذا؟"

- "إنها غلطة أن يكون للرجل أبوان..."

ضحك كمال وسأله: "كيف تقول ذلك بمنتهى البساطة؟"

- "أنا لا أعنى ما أقول حرفياً... ولكن من وجهة نظرى فإنهم يمثلون تقاليد قديمة. وبصفة عامة فإن الأبوة تمثل نوعاً من الفرامل... ونحن لا نحتاج إلى فرامل ومصر نتقدم إلى الأمام بخطى عرجاء تقيد السلاسل رجليها"^(١٠٠).

كان الأفندية فى الثلاثينيات والأربعينيات يبنون هويتهم ضد آبائهم متهمينهم بالتقليد والتخلف والسلبية فى مواجهة الجيل الموجود وسياساته: القديم ضد الجديد، أو بنظرة محلية أكثر كبار السن فى مقابل الشباب. فقد آمن هذا الجيل بأنه يجب عليه أن يضع قوانينه الخاصة بسبب فشل قوانين آبائهم^(١٠١). وتم دمج فكرة الشباب مع شخصية الأفندى، فكان يكفى أن تكون شاباً فى تلك الأيام لكى تتخذ هذه الحقيقة أبعاداً ثورية. وكما قال البعض كان المتظاهرون فى الأربعينيات يغنون البيت الشعرى لأم كلثوم الذى تقول فيه: "وما نيل المطالب بالتمنى، ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً"^(١٠٢).

الخاتمة

لم يكن مثيراً للدهشة أن فئة من الدولة تتميز بثقافة وهوية مشتركة وتنتسب إلى مؤسسات الدولة الحديثة أن تشكل آخر الأمر قوة سياسية محتملة، وكان المسئولون البريطانيون يعلمون ذلك جيداً، وبالتالي كانت عملية تحييدهم لها أهمية كبرى، وكانت ثقافة الأفندية الرئيسية ترتبط بالدولة التي كانت المصدر والمستهلك لهم. أما غموض موقع الأفندية فكان يكمن في وضعهم المتصور كطليعة للحدث من جانب، ومن جانب آخر في مواجهة دولة غير قادرة أو غير راغبة في امتصاص هذه الكتلة الكبيرة من الخريجين بالإضافة إلى وجود وضع اقتصادي لا يسمح ببزوغ طبقة وسطى حقيقية. وبالتالي فيمكننا أن نتفهم صعود هذا المد السياسي ليس بالضرورة من خلال بزوغ فئة في المجتمع تتميز بأعدادها الغفيرة ولكن بصورة أكثر حسماً من خلال هويتها السياسية الجديدة وممارستها التي طالبت لنفسها بدور في مؤسسة الدولة بعد عام ١٩٢٣، وبمعنى آخر فإن الأفندية الجدد الذين ظهرت في الثلاثينيات والأربعينيات لم يكونوا نتاجاً للأعداد المتزايدة من الخريجين، ولكنهم كانوا نتاجاً لصياغة هوية محددة للأفندي تتقارب مع المعاني الوطنية، وتتخذ شكل التزام وطني.

وإذا ما نظرنا إلى الأفندية كفئة اجتماعية فإن التزامن التاريخي وعلاقتهم بمركز القوة يعتبر حاسماً في هذا الفهم. فالساحة الاجتماعية والثقافية في العقود الثلاثة للحكم الملكي يمكن فهمها كصراع بين جيلين من الأفندية، الأول هو الأفندية الذين ظهرت في أوائل القرن العشرين والذين "حملوا الرسالة الوطنية"^(١٠٣)، والذين أصبحت الغالبية العظمى منهم بعد عام ١٩٢٣ صناع الدولة والباشاوات والبكوات أو كما عرفوا أيضاً "بجيل الأحرار" وهو جيل ١٩١٩ الذي أشرنا إليه في الفصل الأول من هذا الكتاب. أما الجيل الثاني فهو جيل "الأفندية الجدد" من المشاغبين في الثلاثينيات، والتأثرين في الأربعينيات والذين عملوا جاهدين لإزاحة النظام الليبرالي. ولذلك يجب أن نتفهم الآن الفروق بين الجيلين ليس من منظور "الأفندية الجدد" الذين نشأوا

فى الرف وبالتالى كانت لهم تقاليدهم وربود أفعالهم حيث إن الأفندية "الليبراليين" أيضاً لهم نفس الجذور، ولكن من منظور موقعهم من الدولة الحديثة والنخبة منها^(١٠٤). وكانت ظاهرة الأفندى تعنى تبنى خصائص الحداثة كاختيار واع من أفراد المجتمع. مما قد يعنى بالنسبة للمؤرخين لمصر الحديثة أن الليبرالية من جانب ونشاط الطبقة العاملة من جانب آخر لم يكونا الإشكال الوحيدة الممكنة للحداثة. فقد كان الأفندية الجدد يتميزون فى حقيقة الأمر بالحداثة من منظور أنهم كانوا يمثلون جيلاً نشأ وشب فى ظل الدولة الحديثة. ومن هذا المنطلق فإن التحدى الذى واجه به هؤلاء الأفندية الجدد المؤسسة الليبرالية لم يكن هجوماً على مشروعات التحديث - أو إمكانية التحديث، بل كان محاولة من هؤلاء الذين رأوا أنهم "طليلة" التحديث، وأن عليهم إعادة التعريف بالمجتمع المصرى الحديث بمفهوم "لمن سيكون هذا المجتمع، ولمن ستكون تلك الدولة".

الهوامش

- (١) جويل بينين، Egypt: Society and Economy، ١٩٢٣-١٩٥٢، في كتاب The Cambridge History of Egypt، طبعة سي. إف. بيتري (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٨)، ٣٠٩؛ وروبرت تيجنور، Modernization and British Colonial Rule in Egypt 1882-1914 (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٦٦)، الفصل ٨.
- (٢) جويل بينين ووزخاري لوكمان، Workers on the Nile: Nationalism, Communism, and the Egyptian Working Class (لندن: توريس، ١٩٨٨)، ٦٧؛ ريتشارد ميتشل، Society of the Muslim Brothers (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٩)، ٢١٦، ٢٣٩. عن الحركات الراديكالية - الإخوان المسلمون، وحزب مصر الفتاة والشيوعيون، انظر أيضاً: جيمس ب. يانكوفسكي، Egypt's Young Rebels: Young Egypt 1933-1952 (ستانفورد، كاليفورنيا: مطبعة مؤسسة هوفر، ١٩٧٥)؛ وسلمى بوتمان، The Rise of Egyptian Communism 1939-1970 (سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ١٩٨٨).
- (٣) مع استثناء جزئي لكتاب Redefining the Egyptian Nation، ١٩٢٠-٤٥ (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٥) يعرف إسرائيل جر يشوني ويانكوفسكي جيمس بشكل مباشر الأفندية كطبقة وسطى، ويرى أنهم في الغالب محترقون. وفكرة أن الأفندي ليس في المقام الأول مفهوماً طبقياً، تم مناقشتها في هذا الفصل.
- (٤) لا تستخدم دائماً كلمة الأفندية Effendiya فقط كصيغة الجمع لكلمة أفندي effendi. فأنا أميل إلى استخدام الأفندية effendis في اللغة الإنجليزية كصيغة الجمع للدلالة على مجموعة من الأفراد الأفندية effendis. وجمع الأفندية effendiya باللغة العربية، وخاصة في العقد الأول من القرن العشرين، كان يرتبط في كثير من الأحيان بصورة الأفندية من البيروقراطيين، والمهن الحرة أو الضباط، وفي الثلاثينيات والأربعينيات أصبحت كلمة أفندية تميل إلى معنى محدد وهو "الجيل المتمرد".
- (٥) جريشوني ويانكوفسكي، ١.
- (٦) سوسن المسيري، ابن البلد: مفهوم الهوية المصرية (لندن: إي. جي. بريل، ١٩٧٨)، ٥.
- (٧) مصطلح يستخدمه، على سبيل المثال، كل من جريشوني ويانكوفسكي، Redefining the Egyptian Nation ومايكل إيبيل، The Elite, the Effendiya, and the Growth of Nationalism and Pan-Arabism in Hashemite Iraq 1921-1958. والمجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ١٢/٣٠ (١٩٩٨): ٢٢٧-٥٠.

(٨) من الناحية التقنية كلمة أفندى تشير دائماً للذكور. بل هي في الواقع الفئة الاجتماعية الوحيدة في مصر الحديثة التي تفتقر إلى نظيرها من الإناث: فكل من ابن البلد (الطبقة التي تعيش في المناطق الحضرية، والتي تخط في كثير من الأحيان مع الطبقات الدنيا)، والفلاح، والخواجة (الأجنبي)، أو أولاد الذوات (البيه والباشا - النخبة) لديهم صيغ مؤنثة (بنت البلد، الفلاح، الخواجة، وبنت الباشا أو الهانم). والأفندية هم من الذكور بحكم تعريف الكلمة، لأن الكلمة تشير إلى درجة التعليم ونوعيته الوطنية مما يشكل إشكالية بالنسبة للمرأة. وتعتبر علاقة "الأفندية" بنظرائهم من الإناث، وزوجاتهم، وأمهاتهم، وأخواتهم، وكذلك استراتيجياتهم الزوجية - وأي نوع من النساء يتكون في خيالهم، ومن يتزوجون، قضية لافتة للنظر، والتي، على أي حال، لا يمكن مناقشتها هنا. هذه الأطروحة هي موضوع هذا الفصل، وهي التعامل مع المرأة "كأفندي" (تفهم على أنها امرأة من الطبقة الوسطى الحديثة) من خلال القنوات الثقافية وهي عملية موازية ومرادفة إلى حد كبير مع الجدل حول "المرأة الجديدة" في مصر.

(٩) هذا المفهوم باستخدامه الأصلي والعثماني، والذي كان في القرن التاسع عشر يستخدم بمعنى مختلف عنه في مصر، انظر: بي. لويس، "أفندي"، The Encyclopedia of Islam الكتاب الثاني (لندن: إي. جي. بريل، ١٩٦٥)، ٦٨٧. ففي مصر، أصبح مصطلح "أفندي" مرتبط على نحو متزايد بالمرتبة الثالثة في بيروقراطية الدولة ومع خريجي المدارس الحديثة (أي أولئك الذين لا يستخدمون المنهج الأزهرى). ومع ذلك، استمر استخدام المصطلح كذلك في سياقات أخرى: بمعنى "السيد أو الإقطاعي" للإشارة إلى شخصيات مهمة، مثل حالة محمد شريف باشا أفندي، التي ورد ذكرها في مؤلف روبرت ف. هنتر،

Egypt under the Khedives, 1805-1879: From Household Government to Modern Bureaucracy.

(بيتسبرغ: مطبعة جامعة بيتسبرغ، ١٩٨٤)، ٨١. واستمر معنى "السيد أو الإقطاعي" أيضاً كلقب للخديوي، الذي كان يطلق عليه عادة أفندينا (على سبيل المثال الخديوي إسماعيل) والمشار إليه مرة أخرى في مؤلف هنتر، ٧٥، أو (في هذه المرة حول عباس الثاني) في قصة نجيب محفوظ، قصر الشوق (لندن: بلاك سوان، ١٩٩١)، ١٨٦. كما تم استخدام مصطلح "أفندي" في القرن العشرين على الحاخامات المعينين والشخصيات المهمة من الجالية اليهودية (مثل مؤسس المنشأة التجارية الكبيرة "عمر أفندي")، وأخيراً، وليس آخراً، في الماضي، كان يستخدم في الماضي أيضاً إشارة إلى أعضاء الطريقة الصوفية، راجع خالد محيي الدين، مذكرات الثورة (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة، ١٩٩٥)، ٧. وجميع هذه الحالات هي حالات استثنائية، بمعنى أنها مستمدة من الاستخدام الأصلي العثماني للكلمة (سيد أو إقطاعي) وبالتالي يختلف معناها في جوهره عما كان سائداً في المجتمع في ذلك الوقت. ويناقش هذا الفصل الاتجاه الاجتماعي والثقافي لاستخدام هذا المصطلح.

(١٠) "حاشية الأعيان" شكلت من أفراد الأسرة والعبيد المالكين السابقين. وعن النخبة في عصر محمد علي وتحولها. انظر: هنتر، ص ٢٢ وما بعدها.

(١١) هنتر، ١٧.

(١٢) هانتز، ١١٣، وفقاً لما كتبه، لم يكن هؤلاء الرجال الجدد تحت قيادة محمد على ظاهرة نادرة فقط، بل كانوا خاضعين للنخبة السنية التي احتلت أعلى الرتب. وتحول هذا التوازن على نحو متزايد في صالح "الرجال الجدد" والذين كانوا مدعومين من وحدة وتماسك ملاك الأراضي، وظهور نخبة جديدة من الأتراك المتعلمين. والتي أدت في أواخر القرن التاسع عشر، إلى محو التفرقة بين العنصر التركي والمصري في النخبة من النوات. وعن ظاهرة "الرجل الجديد" انظر أيضاً: تيجنور، Modernization، ٢٥، ٢٤-٥، وإريك ديفيز،

Challenging Colonialism: Bank Misr and Egyptian Industrialization، ١٩٤١-١٩٢٠ (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٨٢) في الفصل ٢، يتفق الكتاب على أن تطوير الإدارة، والتعليم الحديث، وتملك العقارات كانت جميعها نتائج مترتبة على العمليات التي ترتبط بزراعة القطن في تكامل مصر مع النظام الاقتصادي العالمي.

(١٣) هنتز، ٨٣.

(١٤) هنتز، ص ٤٤، وأيضاً تيجنور، ٢٥. ما نراه هنا هو ظهور رؤية الأفندي الخاصة للمشاكل، مغلفة بخطاب إصلاحى سوف يعبر عن نفسه في الأجيال اللاحقة من "الأفندية": منهج علماني (وإن لم تكن معادياً للدين)، متميز بتكنوقراطية - علمية قريبة للواقع، من خلال الدعوة إلى تغيير تدريجي للتعليم، والتأكيد على الحفاظ على النظام الاجتماعي القائم. انظر على سبيل المثال: حياة وأعمال محمد حسين هيكل، في كتاب تشارلز سميث،

Islam and the Search for Social Order in Modern Egypt. A Biography of Muhammad Husain Haykal.

(ألباني: مطبعة جامعة ولاية نيويورك، ١٩٨٣).

(١٥) بعضهم جاء من خلفيات حضرية، ولكن يبدو أن عددهم كان قليلاً. وناقش ديفيس في كتابه تعيين المسؤولين من وجهاء الأقاليم بدلاً من طبقة الحضر (من العلماء والأعيان) ١٩-٢٠، و ٢٨-٣١. انظر أيضاً: هنتز ٣٩، ٤١، ٨٥-٨. وعلى الرغم من أن وجهاء الأقاليم افتقروا، في كثير من الأحيان، للتعليم الأساسي، فقد تم تعيينهم أيضاً في المناصب الإدارية، كما استطاع بعضهم الوصول إلى وظيفة في غرفة الاستشارات والهيئات الملحقة "بالبرلمان". وفي حين ما فقد خدم وجهاء الأقاليم في إدارة الإقليم خدم أبنائهم، من "الأفندية" في الإدارات المركزية، أي على المستوى "الوطني". هنتز، ٨٨.

(١٦) جاءت الهيمنة على الوظائف لتكون مرتبطة على نحو متزايد بملكية الأرض، وتم تعزيز العلاقة بين الوظيفة الكبيرة والأرض إلى حد بعيد. اهتم هؤلاء المسؤولون بمصالحهم الخاصة، كما يقول هانتز، ٦٧. وفي الواقع، عملت الدولة الناهضة على جذب النخبة الريفية لأغراض محددة. فتراكمت لديهم الأرض كمكافئة، وسرعان ما بدءوا في إرسال أبنائهم إلى المدارس لكي يحصلوا على لقب "أفندي". وبالتالي ارتقت الدولة والنخبة من المواطنين وتماسك بعضهم مع بعض. انظر: هنتز، ٧٢-٧٤، عن كيفية منح الخديوي إسماعيل الأرض لموظفيه الجدد في إطار صراعه من أجل الخلافة.

(١٧) سيد عويس، L'histoire que je porte sur mon dos (القاهرة: مركز البحوث والوثائق الاقتصادية، والقانونية والاجتماعية لـ CEDEJ، ١٩٨٩)، ٤٢.

(١٨) روجر ألن، A Period of time دراسة وترجمة حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي (القراءة: مطبعة إيثاكا، ١٩٩٢) ٧٧. وقد أصبح حديث عيسى بن هشام كتاباً مدرسياً نموذجياً خلال فترة الحكم الملكي.

(١٩) لم يكن هذا بالضرورة ناتج لعملية محسوبة. لكن من المؤكد أنها كانت على وجه الخصوص نتيجة لعملية تشكيل نخبة مصرية (تشكلت هنا من مالكي الأرض، والأفندية، والحضر، والزواج بالأتراك - الجراكسة الأرستقراطيين). ومع ذلك فإننا نعتقد أن الانتقال من المحلية، للنخبة الإقليمية والتي ينظر إليها من وجهة نظر السياسيين كفلاحين، إلى نخبة قومية لها حصتها في المؤسسات السياسية، يفسر هذا الشعبية الهائلة للالتحاق بمدرسة الحقوق، والتي بحثها دونالد مالكولم ريد في بحثه.

Educational and Career Choices among Egyptian Students 1882-1922.

الذي نشر في "المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط" ٨ (١٩٧٧): ٢٥١-٥٢. وفي حين يسهب ريد بتوسع في دور وشعبية مدرسة القانون، فشل إلى حد ما في شرح لماذا كانت مدرسة القانون لها شعبية بين النخبة من أولاد أعيان الريف.

(٢٠) حتى يصبح أحد أبناء عائلات ملاك الأراضي المصريين أفندياً، كان يرسل للالتحاق بالمدارس الحكومية، بدلاً من الأزهر، وفي النهاية إلى المعاهد العليا - ليتمكن من الانتقال من الهامشية إلى المركزية: من النخبة المحلية في الأقاليم، نحو نخبة قومية تعيش في مركز الحضر لينشأ اجتماعياً مع الأرستقراطية التركية. ومع ذلك، لم يكونوا "متساوين" مع النخبة من الأتراك - الجراكسة بعد. فكثيراً ما أطلق على سياسي مصري كلمة "فلاح"، وعلى الأخص سعد زغلول، الذي استفاد من هذه التسمية سياسياً لرفع شعبيته الوطنية. ولم تتحقق المساواة بين النخبة التركية والنخبة المصرية حتى في فترة الحكم الملكي، فلا زلنا نجد مصطلح "التركي"، ولكنه يستخدم بشكل متزايد على أنه إهانة. أما بالنسبة لنقطة الارتقاء إلى صفوف "بك وباشا" من خلال طريق الأفندي، تلك كانت الإستراتيجية المثلى والأكثر شيوعاً. ومع ذلك، تم منح لقب بك وباشا لحاملها سواء من قبل الملك أو للسياسيين بعد ١٩٢٣ وذلك مقابل دعم أو خدمات متبادلة. هذه الألقاب كان من الممكن شرائها أيضاً. انظر على سبيل المثال: "زقاق المدق" لنجيب محفوظ، ترجمة ترفور لو جاسيك (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة، ١٩٩٢).

(٢١) بينما كان لدى أبناء النخبة المصرية ثلاثة خيارات - العسكرية، وبيروقراطية الدولة والجيش - أصبح خيارهم المفضل الآن هو البيروقراطية. وكتب ريد، ص ٢٥٣-٥٤، عندما يتخذ شخص قراراً بترك الدراسة بالأزهر، تزيد احتمالات حصوله على وظيفة أفضل. كذلك وصف ريد فترة "تحول" كانت مثيرة للاهتمام، وهي الفترة التي أرسل فيها كثير من الآباء ابنه أو أبنائه لكل من الأزهر والمدارس الحديثة، وذلك لتأجيل لحظة اتخاذ القرار، كذلك نوع كثير من الآباء النظرة العامة للأسرة بإرسال أحد الأبناء للأزهر والآخر للمدارس الحديثة. ومع ذلك، فإن هذه الاستراتيجية لم تدم كثيراً، قبل أن يصبح واضحاً أن خريج الأزهر فرصته أقل في مستقبل أفضل. كذلك كتب ريد أن النخبة التركية كان لديها سلوك مختلف فالجزء الأكبر منها لم يرسل أبنائه لهذه المدارس الحديثة. فالتحول في خيارات الأسر المصرية، الأفضل حالا، فيما يتعلق بالتعليم والاستراتيجيات الوظيفية كانت متوازنة مع تصنيف الشهادات التي تمنحها المدارس، كذلك بالنسبة للحصول على الوظائف البيروقراطية، وبالتأكيد - بصورة عامة - ظهور وظائف جديدة، وهي المهن الحرة. انظر أيضاً: تيجنور، ص ٢٤، ٤٣، وألان، ص ٨٩-٩١.

(٢٢) ديفيس، ص ٤٦-٤٨ . قيم ديفيس التقدم فى الحالة الاجتماعية بين نواب الأرياف فى "البرلمان" بين عام ١٨٦٦ و ١٩١٤ ففى عام ١٨٦٦، كان ٨٪ يحملون لقب أفندى، ٤٪ بك، ولا أحد يحمل لقب باشا. فى ١٩١٤ كان هناك بالفعل ٦٦٪ يحملون لقب بك وعدد من الباشاوات. فى نفس الوقت، اختفى تقريباً اللقب الريفى مثل "العمدة"، وكذلك اللقب التركى "أغا" من السجلات، مما يعنى أن الألقاب الريفية أفسحت الطريق لألقاب ذات أهمية وطنية (كتب هنتر فى نفس الموضوع، واصفاً إياه "بترشيد البيروقراطية"). لقب الأفندى بين النواب فى المجلس بدأ بـ ٨٪ عام ١٨٦٦، ووصل لقمته فى ١٨٨٠ عندما وصل إلى ٥٨٪ من النواب ممن يحملون هذا اللقب. وبدأ الانخفاض يظهر لتقل النسبة إلى ١٣٪ فقط ممن يحملون لقب أفندى فى برلمان ١٩١٤. وعادة ما يكون هؤلاء هم نفس الأشخاص أو نفس العائلات، ويقول ديفيس إن ما نلاحظه هنا هو ظهور تغيير أساسى فى ألقاب نواب الريف.

(٢٣) وقد ناقش كثير من المؤلفين هذه النقطة، انظر - على سبيل المثال -: ديفيس، ص ٢٧-٢٩، ص ٣٩-٥٠ .

(٢٤) أول مصرى تقلد منصب رفيع كان سعد زغلول، الذى أصبح وزيراً للمعارف فى عام ١٩٠٦، وإسماعيل سرى الذى أصبح وزيراً للأشغال العامة فى ١٩٠٨، انظر ريد Educational and Career Choices.

(٢٥) من المثير للاهتمام أن معظم القادة الوطنيين فى مطلع القرن العشرين المنتمين لطبقة الأفندية كانوا من المحامين، وليسوا من البيروقراطيين. وكان العديد منهم الذين كانوا يعملون فى النيابة العامة، قد قدموا استقالاتهم وفتحوا مكاتبهم الخاصة. انظر: رى.

Rise of Professions.

(٢٦) أخذت المدارس الحكومية المدرسين من خريجي الأزهر، وأخذت المحاكم المدنية بورها القضائى، ريد Reid، ٣٥٢ . وكانت هناك اشتباكات ثقافية، فقد رأى الشيوخ أن التحديث والخطاب الإصلاحى الذى يقوده الأفندية هو تهديد للإسلام. وقد كتب المولى فى كتاب ألن، ٩٠، أن الشيوخ اعترضوا على الطريقة التى يتجرأ بها لابسوا الطرابيش "فى المناقشة، والمجادلة والاختلاف مع الشيوخ المعممين فى علمهم". أما الأفندية فقد اعتبروا، بدورهم، أن الشيوخ عنصر رجعى، ومن ثم فهم طبقة دنيا، انظر: ريد، ص ٣٥٣-٥٤. وكان من الشائع السخرية من "الشيوخ المعممين" فى الأدب الشعبى، انظر: مارلين بوث.

Bayram al-Timsi's Egypt: Social Criticism and Narrative Strategies.

(إكستر: مطبعة إيثاكا، ١٩٩٠) ص ٤٠٤، ملحوظة ١. أما المدارس الحديثة التى قبلت خريجي الأزهر وقدمت لهم مبادئ التعليم الغربى، أو إعادة "تأهيلهم" لشغل وظائف بالدولة، مثل دار العلوم أو مدرسة الحديث فقد أنشأت لتخفيف هذا الصراع. انظر أيضاً: دونالد مالكولم ريد The Rise of Professions and Professional Organizations in Modern Egypt فى: (١٩٧٤) Comparative Studies in Society and History XVI ص ٢٥-٢٦ كذلك ريد،

Cairo University and the Making of Modern Egypt.

(القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٠) ص ٢٤-٣٥، وبينما فسرت الفجوة بين الطربوش والعمامة فى كثير من الروايات على أنها شىء ثابت، كانت فى الحياة العملية أكثر سلاسة. ففى النهاية كان الأمر يتوقف على "تمويه" محض، فمثلاً، ما الذى يختاره الفرد، ارتداء العمامة أم الطربوش. ومن بين الذين تعدوا هذه الفجوة الخيالية شخصيات بارزة مثل رقاعة الطهطاوى، مجمد عبده، سعد زغلول أو طه حسين.

(٢٧) "الأيام" لطف حسين، ترجمة كنيث كريج (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٧) يرى طه حسين أن كفاحه للدخول في عالم الطربوش - مع أشياء أخرى - كالدخول في عالم الثراء والسطوة، والذي لن يصبح حقيقة خلال العقدين التاليين، كما سيتم مناقشته لاحقاً، والنقطة المهمة هنا هي الفجوة الهائلة بين الطربوش والعمامة كما كان يراها.

(٢٨) أشار كل من هنتر وتيجنور للعلاقة بين النخبة من الأفندية الجدد و"ثورة عرابي". وانصب اهتمامهم على الانفتاح الكبير للجيش والبيروقراطية أمام العناصر الوطنية. هنتر، ٣٥-٣٦، ٥١-٥٢، ٧٨-٨٠.

(٢٩) عن مشاركة الأفندية - في الواقع قيادتهم - في السياسة الوطنية في مطلع القرن العشرين، انظر: تيجنور، الفصل السابع ماريوس ويب Party Politics in Egypt: The Wafd and its Rivals, 1919-1939 (لندن: مطبعة إيثاكا، ١٩٧٩) ٤٣، ٥٢، وبينين Egypt 309-11.

(٣٠) يناقش تيجنور هذه المسألة على نطاق واسع، فعلى سبيل المثال، انظر: تيجنور ١٧٨ و ١٨٠-٨٤. فبعد أزمة ١٨٩٢-٩٤، تسارع تدفق الموظفين البريطانيين المدربين في الإدارة المصرية. وتزايد هذا الاتجاه مرة أخرى بعد عام ١٩٠٥. وعندما زارت لجنة ميلنر مصر عام ١٩٢٠ لدراسة الأسباب التي أدت إلى الاضطرابات، وجدت أن أقل من ربع الوظائف الحكومية العليا يشغلها مصريون، تيجنور ١٨١، ومورو بيرجر Bureaucracy and Society in Modern Egypt: A Study in the Civil Service (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٥٧)، ٢٢.

(٣١) بالنسبة للمشاكل التي تواجه المهنيين الجدد من أصول مصرية، انظر مرة أخرى: ريد، Educational and Career Choices 365، و Rise of Professions 25، ٢٩، كذلك تيجنور، الفصل السادس.

(٣٢) كانت الامتيازات للأجانب المقيمين والشركات الأجنبية في مصر، مضمونة بسلسلة من المعاهدات الموقعة منذ القرن السادس عشر بين الدولة العثمانية الضعيفة والقوى الأوروبية. أما في مصر فقد ألغيت بمعاهدة مونترال في عام ١٩٣٧ de facto 1949.

(٣٣) حديث عيسى بن هشام، آلن، ٨٥-٨٦.

(٣٤) أقوال / تعبيرات بينين، بينين، "Egypt"، ٣٠٩.

(٣٥) ارتفعت الوظائف البيروقراطية في الدولة بنسبة ٦١٪، مورو بيرجر.

The Middle Class in the Arab World, The Middle East in Transition.

طبعة دبلو. زد. لاکور (لندن: روتلج وكيجان بول، ١٩٥٨)، ص ٨٢، انظر كذلك روبرت فيتاليس:

When Capitalists Collide: Business Conflict and the End of Empire in Egypt.

(بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٥٥) الرابع عشر - الخامس عشر.

(٣٦) على سبيل المثال، الصحافة، وجيرشوني وجانكويسكي، Redefining، ١٢.

(٣٧) يأتي بدرأوى بأمثلة مثيرة للاهتمام للراديكالية الوطنية للأفندية صانعي التحول في الدولة. فمن بين الذين حقق معهم البوليس لإلقائهم قتابل في الأحداث قبل وبعد ثورة ١٩١٩ وجوه مثل محمود فهمي النقراشي أو عبد الهادي المليجي، والذين أصبحوا رؤساء للوزارة بعد عقدين من الزمن. ملاك بدرأوى،

Political Violence in Egypt 1910-1924 (لندن: مطبعة كورزون، ٢٠٠٠)، ١٣٥، ١٤٢، ولكن، انظر أيضاً: الصحافة المصرية الشعبية: ففي نظرة سريعة لأي نشرة يومية في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى أو بعدها مباشرة سوف يلمح القارئ بطاقات تعارف "سعد زغلول أفندي"، "محمود النقراشي أفندي"، وغيرهم. وفي عام ١٩٣٥ نشرت مجلة "كل شيء والدنيا" مقال باسم "ماذا كان يفعل قادتنا منذ ربع قرن؟" وتقع الإجابة في صفحتين مصورتين تبين بطاقات تعارف لشخصيات مختلفة بين عامي ١٩١٤ و١٩٢٥. نقرأ فيها: مصطفى النحاس بك: قاضي في محكمة طنطا الابتدائية (١٩١٤)، مصطفى النحاس باشا: رئيس حزب الوفد المصري (١٩٢٥)، وليم مكرم عبيد (أفندي): موظف بوزارة العدل (١٩١٤)، وليم مكرم عبيد: سكرتير عام حزب الوفد (١٩٣٥)، حسن فهمي رفعت (أفندي): مساعد مفتش، الأمن العام، بوزارة الداخلية (١٩١٤)، حسن فهمي رفعت: نائب وزير العدل (١٩٣٥)، "كل شيء والدنيا"، ٤٠، ٢، ٤٩١، ١٩٣٥، ٨-٩.

(٣٨) بينين، Egypt 314.

(٣٩) انظر: الفصل الذي كتبه باراك سالوني في هذا الكتاب. انظر كذلك تيجنور، ريد "جامعة القاهرة"، وجورج ستاريت.

Putting Islam to work: Education, Politics and Religion Transformation in Egypt.

(بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٨).

(٤٠) الإنفاق على التعليم ارتفع من ١٪ أثناء تواجد كرومر إلى ١٣٪ في الليلة التي بدأت فيها الحرب العالمية الثانية.

روجر أوين وسيفكيث باموك A History of Middle East Economies in the twentieth Century

(لندن: أي. بي. توريس، ١٩٩٨) ٢٣. انظر كذلك شارل عيسوي، Egypt at Mid-Century.

(أوكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٥٤) ٤٣، وروبرت مابرو The Egyptian Economy 195272.

(أوكسفورد: مطبعة كلاريدون، ١٩٧٤) ١٢، ١٦.

(٤١) بينين، Egypt، ٣١٤.

(٤٢) يانكوفيسكي، Rebels، ٢-٢.

(٤٣) انظر: تحليل أفريال بوتوفسكي Languages of the Egyptian Monarchy في:

The Languages of History: Selected Writings on the Middle East.

مقالات لأفريال بوتوفسكي في memoriam (كامبردج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٩٥).

(٤٤) انظر مرة أخرى: الفصل الذي كتبه باراك سالوني في هذا الكتاب، وجانكوفيسكي Rebels، ٢.

وسافاران وهو كاتب آخر وصف روح الليبرالية السياسية في المدرسة المصرية، نافاد سافران Egypt

in Search for Political Community (كامبردج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٦١) ١٤٨-٥٠. ومع

ذلك، يجب أن نفهم "ليبرالية" هذه الفترة كما كانت. وعلى سبيل المثال، فإن أحد كبار أنصار الليبرالية

المصرية، المفكر والكاتب أحمد أمين، يروي في مذكراته كيف ناضل من أجل الحصول على تعلم ومعرفة

اللغات الأجنبية، وأصبح من كبار المعجبين بالأفكار الغربية. ثم قرر الزواج، وذهب إلى أمه لتختار له العروس

المناسبة، والتي رآها لأول مرة ليلة الزفاف. أحمد أمين My Life (لندن: إي. جي. بريل، ١٩٧٨).

(٤٥) كاريكاتير شخصية المصري أفندى كانت في الغالب من ابتكار الفنان "رخا"، أشهر رسامي الكاريكاتير في الفترة ما بين الحربين العالميتين. يمكن ترجمة "المصري أفندى" بـ Mr. Egyptian، في ضوء معنى هذا اللقب، كما تم مناقشته في هذا الفصل. وقد ظهر الكاريكاتير للمرة الأولى بشكل منتظم على صفحات مجلة "الاثنين" (دار الهلال للنشر) في منتصف الثلاثينيات. وأصبح مشهوراً جداً خلال الحرب العالمية الثانية. وبعد انتهاء الحرب، انتشر كاريكاتير "المصري أفندى" في مجلات كثيرة أخرى، ولم يعد محصوراً على الفنان "رخا"، المبتكر الأصلي للشخصية. وفي أواخر الثلاثينيات وبداية الأربعينيات، كان يمكن أن نراه على صفحات "الصباح"، "روزاليوسف"، "الشعلة"، "آخر ساعة"، وغيرها. وشخصية المصري أفندى كانت تستخدم في التعليق على الأحداث السياسية، ولكن لم يكن ذلك حصرياً، ففي بعض الأحيان كانت تستخدم في الإعلانات التجارية - كشخصية لا تقبل الجدل في شعبيته. كما أن اسمه أطلق على الأقل على مجلة واحدة - تحت اسم المصري أفندى - نشرت في الإسكندرية في الفترة ما بين أوائل الأربعينيات وأوائل الخمسينيات. لوصف وتحليل شخصية المصري أفندى، انظر: جيرشوني وجانكوسكى ٧.

(٤٦) لأحاديث الليبراليين المثقفين انظر، على سبيل المثال: سميث، وهيكل وويليام شبارد.

The Dilemma of a Liberal. Some Political Implications in the writings of the Egyptian Scholar, Ahmad Amin (1886-1954) in Modern Egypt: Studies in Politics and Society.

طبعة إيلي قدورى وسيلفيا حاييم (لندن: فرانك كاس، ١٩٨٠). ولتقييم نقد الخطاب الليبرالي، انظر: وليد قزيجة "مجموعة جريدة الأمة" في دراسات الشرق الأوسط ١٢ (١٩٧٧)، وروال ميغر.

Quest for Modernity: Secular Liberal and Left-Wing Political Thought in Egypt, 1945-58.

(أمستردام: مطبعة جامعة أمستردام، ١٩٩٥)، وآلان روسيلون وآل.

Entre reforme sociale et mouvement national- identité et modernisation en Égypte (1882-1962).

(القاهرة: مركز أبحاث والتوثيق الاقتصادي، والقانوني والاجتماعي / CEDEJ، ١٩٩٥).

(٤٧) بالتعبير الاقتصادي - بالرغم من عدم موضوعيته - كانت النخبة المصرية منسجمة تماماً مع مصالح ورأسمال الجالية الأجنبية. انظر: فيتاليس When Capitalists Collide.

(٤٨) انظر: إسرائيل جرشوني وجيمس جانكوفسكى.

Egypt, Islam and the Arabs: The Search for Egyptian Nationhood, 1900-1930

(نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٦) لمناقشة شاملة للروح الفرعونية للشعب، وانظر: الجزء الثاني الخاص بهم.

Redefining the Egyptian Nation.

لتحليل التغيرات التي حدثت على مفاهيم الهوية المصرية في الثلاثينيات.

(٤٩) تضاعف عدد سكان القاهرة تقريباً بين عامى ١٩١٧ و ١٩٣٧، وعدد سكان أكبر عشرين مدينة فى مصر زاد بنسبة ٥٤٪. وبحلول عام ١٩٤٧، أصبح عدد سكان القاهرة أكثر من مليونين، مقارنة بـ ٩٣٩, ٧٩٠ فى عام ١٩١٧. جرشونى وجانكويسكى Redefining 12.

(٥٠) نفس المرجع ١٢، ١٣. نسبة الأميين المصريين زاد من ١٣, ٨٪ فى عام ١٩٢٧ إلى ٢٢, ٨٪ عام ١٩٤٧. انظر كذلك: عيسوى Egypt at Mid-Century 67.

(٥١) جرشونى وجانكويسكى Redefining ١٢، ويؤكدان كذلك بوجود عامل آخر حاسم وراء تورط الطلاب فى السياسة وهو خيبة الأمل الكبيرة فى جيل ١٩٢٣ السياسى، وهى حقيقة دعمها عدد من الروايات والسير الذاتية. ولمعرفة المزيد عن الطلبة المصريين فى السياسة، انظر كذلك: The Student Movement and National Politics in Egypt, 1923-73 (لندن: كتب ساكى، ١٩٨٥)، إتش. إيرليخ. Students and University in Twentieth-Century Egyptian Politics (لندن: فرائك كاس، ١٩٨٩).

(٥٢) أر. مابرو، ١٢-١٣، ١٨-٢٢، عيسوى، ٦٩، ٨٥، أوين وباموك، ٢٤-٢٥. وفى تقرير معاصر انظر: نورين وارينر.

Land and Poverty in the Middle East.

(لندن: المعهد الملكى للشئون الخارجية، ١٩٤٨) ٢٦-٥١.

(٥٣) أوين وباموك، ٢٤-٢٥.

(٥٤) يذكر المؤرخون الاقتصاديون والاجتماعيون كثيراً "عدم الاستقرار المزمّن للطبقات المتوسطة" على سبيل المثال، انظر: مابرو، ١١، وعيسوى، ٢٩-٣٠. ماذا يعنى هذا عملياً؟ عدم الاستقرار المزمّن لأسر الطبقات المتوسطة يمكن ملاحظته فى الروايات، فمثلاً، على سبيل المثال، فى قصة نجيب محفوظ "بداية ونهاية" (القاهرة: نادى القصة، ١٩٥٦) عندما مات الأب - العائل الوحيد لجميع أفراد الأسرة - كانت بالطبع لحظة حاسمة: لأنها جاءت قبل أن يتمكن الأبناء من إنهاء دراساتهم. وفى هذه القصة، كان ينبغي على الابن الأكبر التخلي عن آماله فى الحصول على مؤهل عالٍ، والبحث عن عمل. صور أخرى لمثل هذه الحالة ظهرت فى العديد من الأفلام، فى مشاهد "المزادات العلنية" التى كانت تنتشر عند انخفاض دخل الأسرة عن حد معين، فكان يعلن عن مزاد علنى لبيع ممتلكاتهم. وفى "بداية ونهاية" لم يعمل فقط الابن الأكبر فى وظيفة غير جذابة كمدرس فى مقاطعة صغيرة، بل بدأت الأم فى بيع أثاثها قطعة وراء قطعة. وفى "العزيمة" ١٩٢٩، - إحدى كلاسيكيات السينما قبل الثورة لكمال سليم، والتى يكتب عنها كثيراً - اضطر والد محمد أفندى حنفى لبيع محل الحلاقة الذى يمتلكه فى مزاد علنى. والذى كان قد استخدمه كرهن عقارى لتمويل تعليم ابنه، ولكن لم يجد محمد أفندى وظيفة فور تخرجه، مما أدى لأثار وخيمة لأسرته. "بنت الباشا المدير" ١٩٢٨، لأحمد جلال، بدأ بمشهد مزاد علنى، بعد وقوع حادث سيارة لشقيقها الأكبر البطل، ومرة أخرى، تحدث آثار خطيرة على المركز المالى للأسرة. ولإنقاذ الموقف، تتقمص نور الرجل وتتأخذ وظيفة شقيقها. مشهد آخر للمزاد فى فيلم محمد عبد الوهاب "رصاصة فى القلب" لمحمد كريم ١٩٤٤. ولا بد أن مثل هذه المواقف كانت شائعة، لأنها كانت فى الغالب تقع لأسرة لها عائل واحد (الأب، وفى قليل من الأحيان الأخ الأكبر) والتى تحدد الوضع الاجتماعى والمالى للأسرة بأكملها. فنجد أن كثير من المجلات الشعبية خصصت صفحة أو اثنتين فى كل عدد لنشر المزادات العلنية فى القاهرة ومدن الأقاليم، انظر: أى عدد من مجلة "روز اليوسف" أو "آخر ساعة" فى عام ١٩٣٥.

(٥٥) لتقييم التحول في الأعمال التجارية وتطور المنشآت التجارية في المناطق الحضرية بطريقة ممتازة، انظر: آخر أعمال رينولدز، راسل وشيشتر، منى راسل.

Creating al-Sayyida al- Istihlakiyya: Advertising in Turn-of the-Century Egypt.

جريدة الدراسات العربية العدد الثامن/ التاسع (خريف ٢٠٠٠ / ربيع ٢٠٠١): ٦١-٦٩، نانسي رينولدز.

Sharikat al-Bayt al-Misri: Domesticating Commerce in Egypt, 1931-56.

جريدة الدراسات العربية العدد السابع/ الثامن (خريف ١٩٩٩ / ربيع ٢٠٠٠): ٧٥-١١٨، ريلي شيشتر،

Press Advertising in Egypt: Business Realities and Local Meaning, 1882-1956.

جريدة الدراسات العربية العدد الخامس والسادس (خريف ٢٠٠٢ / ربيع ٢٠٠٣): ٤٤-٦٦، ومع ذلك، فإننا في بعض الحالات نميل إلى أخذ ممارسات الشراء كأمر مفروغ منه، مع افتراض أنه في حالة ظهور منتج جديد وأماكن تجارية جديدة، سيتواجد المستهلك تلقائياً (أي أن عملية التبادل التجاري بالمعنى التقليدي موجودة). وربما كانت هذه المنتجات الجديدة - بل والأهم هذه المواقع الجديدة للتسويق والعرض، مثل المجلات المصورة، السينما، أو حتى واجهات المحلات - لها تأثير أكبر على أولئك الذين لا يمكنهم شراء هذه السلع التي يتم عرضها، على عكس الذين يستطيعون، والذين هم فعلاً بطريقة أو أخرى محسوبون ضمن المستهلكين. كيف تكون هذه السلع التي تؤثر في الحياة "مغرية" فقط للذين يستطيعون استهلاكها نظرياً (وبالتالي يمرون بأبعاد مختلفة من تجربة الحرمان) على سبيل المثال، انظر: قصة حميدة في قصة محفوظ "زقاق المدق".

(٥٦) عن كيفية توظيف السينما، على سبيل المثال، كنطاق لبناء مثل هذه "الثقافة المتوسطة" والتي تظهر فيها الثقافة البرجوازية القومية الحديثة والهوية مترابطين، انظر: أرمبراست Mass Culture and Modernity in Egypt (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج ١٩٩٦) وكذلك كتابه،

"Golden Age Before the Golden Age," in Mass Mediations. Approaches to Popular Culture in the Middle East and Beyond.

طبعة والتر أرمبراست (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا ٢٠٠٠).

(٥٧) الملفات المؤيدة والمكرسة صراحة "لمشكلة الأفندي" هي ملف وزارة الخارجية ٢٧١/٢٣٦٥ هـ ،

(Relations between Great Britain and Middle East Effendis. 1946).

وملف وزارة الخارجية ١٤١/١٢٢٣ ١٩٤٧. Propaganda: British: The Effendi Class, 1947. كثير من الملفات تناقش علاقة الأفندية بالقضايا الأخرى، على سبيل المثال FO 371/6154Z Youth, Movements in the Middle East, 1947.

وملف وزارة الخارجية ١٤١/١٩٤٣ Education and student employment, 1943. بالإضافة إلى بعض الملفات التي يرجع تاريخها للعقد السابق: ملف وزارة الخارجية ١٤١/٤٣ هـ و١٤١/٦١٨ .

(Students: political activities and strikes, 1936 and 1935).

مراقب آخر دقيق، كرسيت بكثير من الاهتمام وقتاً لمشكلة الأفندية هي الكاتبة والرحالة فريا ستارك. ويبدو أن هدفها كان الأنشطة التبشيرية "لإخوانها في الحرية" (نادى للدعاية الموالية أسسته أثناء وجودها في القاهرة) الأفندية.

(٥٨) والتر سمارة، ٢ ديسمبر ١٩٤٦، وزارة الخارجية FO 371/52365.

(٥٩) نشرة بيفين بتاريخ ١٥-١-١٩٤٧، ٢٧١/٥٢٣٦٥.

(٦٠) P.G.D مذكرات آدمز، وزارة الخارجية FO 141/1223.

(٦١) من بير ليفين، بغداد، ١٠-٣-١٩٤٧، وزارة الخارجية FO 141/1223.

(٦٢) من دبليو. إي. هيوستن - بزوال ليفين، بيروت ١٥-٥-١٩٤٧، وزارة الخارجية FO 141/1223.

(٦٣) دبليو سمارة، ٣-١٢-١٩٤٦، وزارة الخارجية ٢٧١/٥٢٣٦٥.

(٦٤) من دبليو. إف. كروفورد ليفين، ٩-٦-١٩٤٧، وزارة الخارجية FO 141/1223 قضية القراءة، وخاصة تغيير عادات القراءة بين الأفندية، وعامة بين سكان المناطق الحضرية، هي قضية مهمة لا يمكن وضعها في هذا الفصل. فمعظم المجلات الشعبية (وخاصة المصورة) انتشرت في مصر منذ العشرينيات، وكانت أكثر المطبوعات شيوعاً وقراءة بين سكان الحضر المصريين. ومع ذلك، كان هناك سوق موازية تنمو للمطبوعات غير الدورية الرخيصة، مثل القصص الرومانسية وسلسلة الخيال العلمي (بالإضافة إلى الروايات البوليسية وقصص الإثارة)، والتي كانت تشبه كثيراً مطبوعات الخيال الغربية. ولكنني لا أظن أن هذا ما كان يدور في ذهن كروفورد والمستولين البريطانيين في مصر والشرق الأوسط. وفي رأيي، أن تعليقه على "مزيد من الكتب الرخيصة" لم يكن له صلة بجوهر مشكلة الأفندي كاقتراحه عن "الإكثار من مباريات انتنس". لمزيد من المعلومات حول تطور المجلات المصورة والمسلسلات الخيالية في مصر، انظر: لوسي ريزوفا،

"I Am a Whore But I Will Be a Good Mother: On the Production and Consumption of the Female Body in Egypt's Magazine Culture".

جريدة الدراسات العربية، ربيع ٢٠٠٥ (تحت الطبع). ولانتشار القراءة والكتابة وإلصاف الطابع الديمقراطي للقراءة، بصفتها نشاطاً ممتعاً وليس شيئاً مفروضاً من أعلى، انظر: والتر أرمبراست،

Ramadan, Marketing, and Heritage: Visualization and Co modification.

بحث مقدم في الاجتماع الخامس للأبحاث الاجتماعية والسياسية للبحر المتوسط، فلورانس، مونتكاتينا تيرم، ٢٠٠٤.

(٦٥) تمثل الرياضة جزءاً مهماً من ثقافة الأفندي، سواء كان ممارسة الرياضة أو مشاهدتها أو القراءة عنها. وكانت معظم المجلات الشعبية - بتصنيفاتها الأكثر غلاء مثل المصور إلى الأرخص المطبوعة بالأبيض والأسود - تقدم صفحات بصورة منتظمة للرياضة على الأقل منذ العشرينيات. ممارسة الرياضة كانت متوافرة للنخبة في أنديةهم، الآن - في السنوات ما بين الحربين العالميتين - أصبحت متاحة على نحو متزايد للشباب ذو الدخل المتوسط في المناطق الحضرية. وكانت أندية كرة القدم شائعة في الثلاثينيات، ووفقاً لبعض المصادر، كانت هناك أماكن للملاكمة في الأحياء الشعبية بعد الحرب العالمية الثانية. على سبيل المثال، انظر: فيلم "شالوم الرياضي" ١٩٣٧، لتوجو مزراخي و"المظاهر" ١٩٤٥ لكمال سليم. أما بالنسبة للسينما في الثلاثينيات والأربعينيات، كانت دور العرض الرخيصة شائعة في المناطق الحضرية ومدن الأقاليم. انظر: جاكوب لاندوا،

Studies in Arab Theater and Cinema.

(فيلاذيلفيا: مطبعة جامعة بنسلفانيا، ١٩٥٨)، انظر كذلك: الفصل الذي كتبه فليبرت في هذا الكتاب وللحصول على تقييم أولى لحال السينما بالنسبة للمراهقين في الأربعينيات، انظر: صالح مرسى "ليلى مراد" (القاهرة: كتاب الهلال، n.d.).

(٦٦) قارن السخرية من الشيخ في تنافسه بين العمامة والطربوش والمذكورة في الملاحظة رقم ٢٧، ربما تكون هذه الأغنية شائعة، حيث يوجد شبه قريب جدا لها في كتاب مليكا زيغال *Gardiens de l'Islam* (باريس: مطبعة المؤسسة القومية للعلوم السياسية، ١٩٩٦)، ص ١٧.

(٦٧) يحيى حقي، "قنديل أم هاشم" (القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠١) ص ٦، ٧. نلاحظ أن هناك ثقافتين مختلفتين بين تلاميذ المدارس: الأولى هي "أولاد الأفندية" حيث لغتهم العربية ضعيفة. فهل هذا نتيجة تعليمهم السابق في مدارس الإرساليات الأجنبية أو المدارس الابتدائية الإنجليزية؟ أو لأنهم يتكلمون الفرنسية في المنزل؟ يمكننا التخمين فقط، ولكن مفهوم تحول الأفندي إلى حد بعيد في القرن التالي إلى الغرب أصبح حقيقة. أما الثقافة الأخرى فهي التي تخص يحيى حقي، ابن تاجر الحى الشعبى السيدة زينب. فهو يعيش "كالأفندية" الآن فقط. وربما كان البطل ينطق العربية بوضوح أكثر لأنه كان يدرس قبل ذلك في "الكتاب"، وهي مدارس تدريس القرآن، والذي كان غالباً لا يحدث "أولاد الأفندية".

(٦٨) ما زالت بعض القضايا ذات أهمية، ولكنها تظل خارج نطاق هذا البحث. وقد وضحت بالتفصيل في إحدى أطروحاتي، فلكي تصبح أفندياً، أو أن يجعل شخص أحد أبنائه أفندياً، هي ممارسة اجتماعية مثيرة، تنطوي على استراتيجيات تعليمية مختلفة، وممارسات اقتصادية، وقصص لتبريرها. فعلى سبيل المثال: إرسال الابن الذكر أولاً إلى الكتاب، ثم إلى المدرسة الحكومية، وتنوع الخيارات بين الإخوة الذكور، حيث يتلقى الابن الأكبر التعليم الأساسى فقط ويبقى بعد ذلك في الحل أو الأرض ليتولى شئون العائلة، بينما يتم إرسال الأبناء الآخرين لاستكمال طريقهم للأفندية. وفي بعض الحالات، يمكن إرسال الابن إلى أوروبا للحصول على شهادة مرموقة، مثل الحالة التي في قصة يحيى حقي، سواء بمنحة من الحكومة أو على نفقته الخاصة (هذه الممارسة كانت تبدو متاحة حتى للأسر المتواضعة نسبياً نظراً لارتباط العملة المصرية بالجنيه الإسترليني)، فمن هي العائلات التي كانت تسعى لتتبع مسار الأفندي لأبنائها، ومن أى خلفية ولأى منطقة ينتمون، وأخيراً وليس آخراً، ما هي سبل الوصول للقب أفندي غير المدارس الرسمية، وخاصة نشر دور وسائل الإعلام والصحف الشعبية أفكار "أنماط الحياة الجديدة". فلكي تصبح أفندياً، لم تكن دائماً استراتيجية مبرمجة عند الآباء، بل على العكس كان يسعى إليها شباب من الرجال المحرومين، مثل ما جاء في مذكرات سيد عويس، فبعد فترة وجيزة قضاه عويس في المدارس الحكومية، عانى من العودة إلى عالم "العمامة" (في حالته كانت العودة للجلابية) عندما توفي والده فجأة. ولكنه تمكن من الانتهاء من التعليم العالي بعد عدة سنوات، وهو في الثلاثينيات من عمره، ومتزوج ويعول. تكلم عويس عن كفاحه من أجل التعليم بشروط شديدة - كآته في مهمة حضرية وعاد إلى حيه الشعبى - ولا تختلف عن كلمات يحيى حقي عندما وصف الحى الذى يقيم فيه بعد عودته من إنجلترا. كل الترجمات من قبل المؤلف ما لم يذكر خلاف ذلك.

(٦٩) حقي، ٨.

(٧٠) نفس المرجع، ١٨-١٩.

(٧١) لتصوير الحالة الاقتصادية لمختلف الفئات الاجتماعية في مصر الحديثة، انظر: أرمبراست Mass Culture and Modernism ويوث Bairam al- Tunis's Egypt، ولوسى ريزوفا L'effindiya ou la modernite contestee (القاهرة: مركز البحوث والتوثيق الاقتصادي، والقانوني والاجتماعي/ CEDEJ، ٢٠٠٤).

(٧٢) نفس التعبير "صرفت عليه دم قلبي" استخدم في فيلم آخر سبق مناقشته (ابن الحداد) يقول الأب "صرفت عليك دم قلبي، حتى يمكنك الحصول على وظيفة ميري (وظيفة حكومية)، لأراك طه أفندي" ابن المعلم صلاح، رايح جاي على الديوان (مكتب حكومي، أو وزارة) هذه المرة يقولها الأب الحرفي في المدينة لابنه. سوف أعود إلى "الوظيفة الميري" التي تعتبر المثل الأعلى فيما بعد.

(٧٣) على الرغم من أن الدكتور حلمي يحمل بالطبع لقب أفندي، فهو لا يقرن هذا اللقب باسمه، لأن هويته كطبيب حلت محل هذا اللقب. فكلمة أفندي تعني أن حاملها قد حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية، و- بين الحربين العالميتين - كان اغتصاب اللقب من أفراد لم يتموا تعليمهم في ازدياد، ولكنهم يقرءون ويكتبون ويرتدون ملابس على الطريقة الغربية. وبسبب انخفاض المركز الاجتماعي لمستخدمي اللقب، كما نوقش في هذا الفصل، فكان كل من لديه شهادة أعلى يميل إلى استخدام اللقب الذي تمنحه له بدلاً من اللقب العام "أفندي". وهكذا نرى، عند قراءة المجلات على سبيل المثال، كيف يعرف الصحفيون والقراء الذين يكتبون في صفحة الرسائل أنفسهم "بالحامي" أو "حاصل على بكالوريوس في الأدب"، بدلاً من مجرد أفندي. وينبغي أن نتذكر أن هذه الألقاب مشتقة، أساساً، من كونه حسب القواعد المرعية أفندي، ولكن في خلال الثلاثينيات والأربعينيات، كان الحال أفضل بكثير.

(٧٤) خلفية القادة المصريين معروفة للجميع، وتم مناقشتها في الأجزاء الأولى من هذا الفصل. ولأفضل المراجع انظر: آرثر جولد شमित Biographical Dictionary of Modern Egypt (بولدر: الناشر لينى رينر، ٢٠٠٠). انظر كذلك: ملاحظات ١٥ و ١٩ و ٢٠.

(٧٥) المجلات المصرية، كأسلوب، لها نهج محدد لتصوير الريف المصري. وخلال العشرينيات والثلاثينيات، لم يكن هناك فعلاً أى إشارة للريف. ومع ذلك، كان هناك الكثير من الأحاديث في شكل تحقيقات بالكلمة والصورة في البلاد الأجنبية والعواصم الأوروبية. وأعني هنا تحديداً المجلات التي تصدرها "دار الهلال" والتي كانت طليعة في هذه الصناعة، بأفضل جودة طباعة، والعدد الأكبر من المجلات المصورة والأكثر تداولاً: المصور، الدنيا المصورة، كل شيء والدنيا، الاثنين، بدون استثناء للمجلات الأخرى. هذا السلوك تغير فقط بعد الحرب العالمية الثانية، مع ظهور مشاعر شعبية داخل وسائل الإعلام المصرية الرئيسية وكذلك في الخطاب السياسي. مفاهيم مثل العمال والفلاحين والإصلاح الاجتماعي، الأرض، الريف، والتي لاحت مشاكلها في الأفق.

(٧٦) على وجه التحديد هذه الروح الشعبية عبر عنها التمثال الذي تحته مثال مصر الأول المعاصر محمود مختار واسمه "المعرفة". ويظهر ولداً يقرأ في كتاب وأمه الفلاحة تقف فوقه وتراقبه. صورة التمثال نشرت في "IMAGES" (مجلة مصرية باللغة الفرنسية تصدر عن دار الهلال)، عدد ١٢٨٧، في ٨ مايو ١٩٤٥. انظر: الفصل الذي كتبه كارولين ويليامز في هذا الكتاب.

(٧٧) أدلة أخرى عن وضعه الاجتماعي هي زوجته، الست أمينة، نموذج أصيل للمرأة "التقليدية". لم تغادر منزل زوجها قط بمفردها، والتي تطلق عليه "سى السيد"، وعندما خرجت - لزيارة مسجد الحسين في الجوار - عاقبها عقاباً شديداً. فهي بمثابة ترياق للدعوات المستمرة لتحرير المرأة من جانب الرجال المصريين المثقفين، الذين يشعرون بنقص شديد في النساء: وعلى وجه الدقة، نساء الطبقة الوسطى الحديثة، اللاتي حصلن على التعليم الأساسى ومبادئ اللغات الأجنبية، - ولديهن خلفية عن رعاية المنزل ورعاية الأطفال - بحيث يصبحن شركاء مناسبين اجتماعيين لهم. انظر: لوسى ريزوفا،

Laila the Bourgeoisie: Mass Media and the New Woman in Egypt.

بحث قدم إلى MESA المؤتمر السنوى فى سان فرانسيسكو، كاليفورنيا، ٢٠٠٤. انظر كذلك: أمنية شكرى،

"Schooled Mothers and Structured Play: Child Rearing in Turn-of-the-Century Egypt".

و

"Remaking Women. Feminism and Modernity in the Middle East".

تأليف ليلي أبو لغد (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٨).

(٧٨) حالة مشابهة تماماً استخدمها محفوظ مرة أخرى فى "زقاق المدق": التاجر كان له ثلاثة أبناء، جميعهم أفندية، ولم يكن أى منهم على استعداد لمواصلة عمل أبيه، نجيب محفوظ، زقاق المدق ص ٦٣.

(٧٩) يوجد العديد من الأمثلة التى تدل على خطأ تصور أن الشخص يمكنه ببساطة تغيير ملابسه وبذلك يصبح شخصاً آخر. فهناك عدد من الشخصيات التقليدية فى الأفلام أو الكاريكاتير الذين يحاولون ارتداء حلة عصرية، ولكنه ينتهى ليصبح صورة ساخرة: تثير الضحك ويسخر منها الجميع. وكاريكاتير شعبى آخر لرخا، مبتكر شخصية "المصرى أفندى" هو "ثرى الحرب"، الذى يرتدى حلة عصرية ويدخن السيجار، ومع ذلك يظل مجرد جلف. وأيضاً فيلم "لو كنت غنى" (لهنرى بركات، ١٩٤٢)، الذى يروى قصة مشابهة، حلاق يرث ثروة، ومن ثم يفعل ما يفعله الأغنياء: يشتري سيارة وينتقل للإقامة فى فيلا فى ضاحية فاخرة. فيصبح موضع سخيرة من الكل - فهو مجرد حلاق - ويتخلى عنه الجميع، بما فى ذلك عائلته. وفى "ليلى بنت الريف" (لتوجو مزراحى، ١٩٤٢)، تحول ليلى من فتاة ريفية إلى سيدة مجتمع فى المدينة يمكن أن يكون ناجحاً لأن ليلى كانت فى وقت ما هانم، فقد تعلمت فى مؤسسة للبنات النخبة. ولكن مرت سنوات عديدة منذ عودتها للمزرعة. وبالتالي فإن تحولها لم يكن تحول من فئة ثقافية لأخرى - من فلاحه إلى هانم ولكنها عملية تذكرة لما كانت عليه من قبل. الفئة الاجتماعية الوحيدة التى يمكنها أن تتخطى هذه الحدود بنجاح وأن تفصل بين الهويات هى الأفندى.

(٨٠) المسيرى ص ٤٨، المصرى أفندى اختفى من صفحات مجلة "الاثنين" ولكنه ظل يظهر فى مجلات أخرى بنفس القوة. واستبدلت مجلة "الاثنين" المصرى أفندى بشخصية أخرى، أطلق عليها اسم "ابن البلد"، يرتدى زياً أقرب للفلاح. هذا التغيير فى أيقونة الصفحة الأولى يتوافق مع ما قيل من قبل عن مظاهر شعبية فى الملاحظة ٧٦ أعلاه.

(٨١) انظر: الملاحظة رقم ٥١ عن ارتفاع عدد الخريجين. ولكن وضع الشهادات تغير كذلك. كان على الفرد الحصول على مؤهل أعلى، أو التخرج من إحدى الجامعات الأوروبية ليتمكن من الوصول إلى شغل إحدى الوظائف التي كانت - قبل عقدين من الزمان - شبه تلقائية لخريجي المدارس الثانوية.

(٨٢) مقتبس من حسن درويش، "من أجل أبي سيد درويش" (القاهرة: منشأة هيئة الكتاب المصري، ١٩٩٠) ص ١٧-٤١٦.

(٨٣) مقابلة مع "عزيزة عبد الجواد مصطفى" القاهرة إبريل ومايو ٢٠٠٣. ولدت عزيزة عام ١٩٢٣ في أسرة تاجر ثرى من بنها. وتنتمى أسرته لمرتبة عالية في التسلسل الهرمي للعائلات المحلية، ولكنها تختلف عن الباشاوات المحبيين، الذين تقضى عائلاتهم معظم الوقت في القاهرة. التحقت عزيزة بالمدرسة لسنوات قليلة، ولكنها لم تنه تعليمها الأساسى لأن والدها كان يعتبرها "جميلة جدا" لذلك كان يخشى أن تذهب إلى الأماكن العامة. وفي سن المراهقة تقدم لخطبتها ضابط بوليس - من مقاطعة أخرى - ولكنه يعمل في المدينة. كان هذا في عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩، وقبلت الأسرة هذا العرض المناسب، بسبب رتبة الشاب. وفيما بعد أصرت على أن جميع أبنائها يجب أن يحصلوا على الأقل على شهادة متوسطة.

(٨٤) أهمية الجيش زادت مع تطور "القضية القومية"، أو المفاوضات الخاصة بانسحاب البريطانيين من مصر (فالتوسع في الجيش المصرى المقيد الذى كان مقيداً بشدة أصبح ممكناً بعد معاهدة ١٩٣٦، وذلك عندما أنشئت أكاديمية عسكرية لتدريب الضباط المصريين، انظر: الفصل الذى كتبه ألكيمانوس فى هذا الكتاب) بالإضافة إلى التحديات الجديدة التى فرضتها كلا من الحرب العالمية الثانية وحرب فلسطين.

(٨٥) على الرغم من أسطورة تطوير الأكاديمية العسكرية عام ١٩٣٦ التى تداولت بين المؤرخين وعامة الناس على السواء، فقد ظلت رسوم القيد وشروط الالتحاق بالأكاديمية عالية وعلى كل متقدم أن يمر من كشف الهيئة، لتقييم أصوله العائلية ودخلها (انظر: ألكيمانوس فى هذا الكتاب). الروايات مثل قصة نجيب محفوظ "بداية ونهاية" تعطى لمحة عن إمكانية حدوثها نظرياً، ولكنها صعبة عملياً على شباب الطبقة الأقل من المتوسطة. وبالصدفة، كل من الرئيس "عبد الناصر" و"السادات" كانا حالات "استثنائية": كانا الوحيدين من بين زملائهم الضباط من أصول أقل نسبياً. فكلاهما ابن أفندى يعمل فى الخدمات الحكومية، بينما معظم الباقين من قيادات الضباط الأحرار جاءوا من عائلات بارزة قديمة، على الرغم من أن ما قيل بعد ذلك وأيدته الدولة يختلف عن ذلك. أشكر توفيق ألكيمانوس لهذه المعلومات.

(٨٦) من منظور تاريخى أوسع، نجد أن سبيل الارتقاء الاجتماعى تطورت من المسار الأزهرى إلى مسار الميرى والموظف، ثم إلى مسار الضابط. ومع الاحترام للقيمة الرمزية للزى العسكرى، انظر: أفلام يمثل فيها "أنور وجدى"، وهو ممثل ومخرج شهير من الأربعينيات. كان وجدى معجباً بالزى العسكرى وكثيراً ما كان يرتديه فى أفلامه، بما فيها بعض المواقف التى لا تتطلب القصة ارتداء الزى العسكرى. وكان الغرض الواضح من ارتدائه هذا الزى كان لإظهاره فى صورة أكثر جاذبية لجمهور الرجال والنساء. انظر: "لىلى بنت الفقراء" (لأنور وجدى، ١٩٤٨)، "غزل البنات" (لأنور وجدى، ١٩٤٩)، "٤ بنات وضابط" (لأنور وجدى، ١٩٥٤)، وكلها كانت من إنتاج شركة وجدى "شركة الأفلام المتحدة". جاذبية الزى العسكرى - وتأثيره على الجيران عامة وخاصة النساء - تم تصويره بطريقة جيدة فى قصة محفوظ "بداية ونهاية".

(٨٧) "عبد اللطيف بغدادى" فى كتاب لطفى حمدى "ثورة يوليو: الوجه الآخر" (القاهرة: كتاب الهلال، ١٩٧٧)، ص ٥٩.

(٨٨) "المعلم" هو لقب مرتبط بمملكة "أولاد البلد"، وهو يعنى "الرئيس" أو "القائد"، وقد صنع هذا المسار ليتناقض مع اللقب السابق للأفندى الذى كان يجىء بعد اسم "طه"، والدلالة على الانتقال من جيل لآخر ومن مكانة لأخرى، وينفس الطريقة التى استخدمت فى الدعاية لحوانى "الرشيدى الحلوانى".

(٨٩) لاحظ التناقض فى كلمة "عامل"، فطه ليس عاملاً بالطبع، وهذا التناقض نتيجة روح المشاركة التى اتصف بها طه. فهو يشير إلى عماله "بالإخوة" ويؤكد أنه نشأ بينهم لتأكيد العدالة الاجتماعية، المبنية على روابط عرقية أو بالأحرى "عائلية". هذه الروح لها بُعد آخر: فقد تم تصوير الفيلم فى وقت كثفت فيه النقابات العمالية نضالها من أجل حقوق العمال. انظر: بنين ولوكمان Workers on the Nile Tinker, Tailor, Textile Worker: Class Politics in Egypt, 1930-54 وإيللى جولدبرج بيركلى: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٦.

(٩٠) "حتفضل نصب عنيا الأمانة والإخلاص فى العمل" اختيار كلمات "أمانة" و"إخلاص" تشير إلى روح التقوى فى الأصالة المحلية، وتستخدم لإظهار التناقض بينها وبين لغة أبناء الذوات، الذين يستخدمون كلمات أجنبية على نطاق واسع. زوجة طه تلومه لأنه يتحدث مع ابنه بالعربية (هى تتحدث مع ابنها بالفرنسية).

(٩١) التقنيات السينمائية المستخدمة هنا، مثل مشاهد الشوارع الحديثة والآلات الجديدة، تعزز هذه القراءة.

(٩٢) كان هناك تمثيل سلبي للذوات، وهى الطبقة العليا المصرية، فى السينما بعد ١٩٤٥. كانت موحية - على الأقل ليس بسبب الرقابة - ولكنها ساحقة. لم تجسد بتعبيرات سياسية، ولكن بتعبيرات ثقافية وإنتاجية. فعلى سبيل المثال، الروايات التى يكون الآباء مخطئين بينما الأبناء على صواب، ويعانون من يد أبائهم الثقيلة (مثل المناقشات التى دارت فى فيلم "الدكتور"، كذلك فى العديد من أفلام ليلى مراد، حيث تتطور عادة المؤامرات لتدور حول حق الشباب فى اختيار شريك حياتهم، والاشتباك مع الآباء الذين اختاروا شريك الحياة على أساس المصالح الاقتصادية). كثير من الكوميديات تعرضت لفساد الطبقات وعبرت عنها من خلال وجود النوادى الليلية والراقصات والخمر، بينما يمكن تقديم شخصية واحدة من هذه الطبقة بإيجابية. أفلام أخرى تستخدم رموز ومواقف غير مباشرة، ومرة أخرى تشير إلى فساد الذوات، ولكن ليس من الضرورى كأشخاص. وإعطاء مثل واحد، فى فيلم كوميدي سياسى تماماً، مثل "غزل البنات" ١٩٤٩ لأنور وجدى، (انظر: أرمبراست Golden Age لإجراء تحليل دقيق للفيلم) يوجد مشهد يظهر فيه الأفندى الباشا (الذى يلعب دوره الكوميديان الكبير نجيب الريحاني) والذى فقد للتوظيفته كمدرس، يدخل فيلا الباشا لبحث عن فرصة عمل، وأول شخصية يقابلها هو سكرتير وظيفته رعاية كلب الباشا، والذى يحصل على مرتب خمسة أضعاف ما كان يتقاضاه الريحاني كمدرس. ويصور الفيلم الباشا نفسه كرجل عجوز طيب، ولكن رسالة النقد الضمني للطبقة تم تمريرها من خلال الموقف المذكور أعلاه، والذى كان هامشياً بالنسبة للخط الرئيسى للرواية.

(٩٣) أخلاق الإسلام تفهم بأنها العدالة الاجتماعية، والسعى من أجل المعرفة، فالأصالة المحلية هى الرسالة المستخلصة من فيلم "الدكتور"، الذى سبق مناقشته، وقيلت بعبارات واضحة أيضاً فى "المصرى أفندى" (لحسين صدقى، ١٩٤٩). "ابن الحداد"، "الدكتور"، "المصرى أفندى" و"المظاهر"، وكلها أفلام تنتقد بوضوح أكثر مفهوم من الأفلام المذكورة سابقاً.

(٩٤) يوسف وهبى كان ممثلاً رائداً، مؤسس وصاحب مسرح رمسيس، واحد من أكثر المسارح شهرة فى ذلك الوقت. أرسى تقراطى المولد، اختار مهنة التمثيل فى بداية حياته - وفقد بصفة مؤقتة كل ثروة عائلته بسببها - وكثيراً ما توترت علاقته بأسرته. وفى بداية عهد السينما، انتقل بنجاح إلى الشاشة، والتي ظهر فيها كممثل، وفى بعض الأوقات كمخرج (فمثلاً، أخرج "ابن الحداد"). بعض أفلامه كانت مقتبسة من مسرحياته الأولى. ويمكن القول بأن أفلامه كانت تحمل أجندة أخلاقية: كثيراً ما كان يسعى بوضوح للتعبير عن وجهة نظره باستخدام مفاهيم متعارضة مثل "الطهارة" مقابل "الفساد". وكانت أفلامه تناقش مثل هذه القضايا كسلوك "لائق أو أصلى"، واجبات المرأة المتزوجة تجاه زوجها، قيمة العمل، وحتى بالنسبة للفن، انظر "الفنان العظيم" (ليوسف وهبى، ١٩٤٥)، "الطريق المستقيم" (لتوجو مزراحى، ١٩٤٣) أو "حبيب الروح" (لأنور جدى، ١٩٥١). وبطريقته - الأرستقراطية الواضحة - كان ناقداً اجتماعياً، خاصة عندما يعزو الحكم على القيم للحدثة، سواء حدثة "جيدة" أو "سيئة" (انظر "ليلي بنت الريف"، أو "ليلي بنت مدارس"، لتوجو مزراحى ١٩٤١). كان من النبلاء تحت النظام الملكى (أصبح يوسف بك وهبى) كاعتراف بعطائه الطويل فى المسرح المصرى. انظر مذكراته: يوسف وهبى "عشت الفن" ٢ كتابات (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٣). انظر أيضاً: أرمبراست 77 Mass Culture and Modernity، ٢٠١-٢٠٢ أو أرمبراست Golden Age 313.

(٩٥) هذه الأفكار فى الواقع هى أصداء لخطاب الحركة الراديكالية، والتي كانت أهم مجادلاتهم تنحصر فى الفساد الأخلاقى الذى أتى إلى البلاد من الغرب سواء فى المصطلحات الدينية (الإخوان المسلمين) أو العلمانية (حزب مصر الفتاة). ويعيداً عن أى إحياء بنى ربط حقيقى بين صناع الفيلم (وهو مستحيل تماماً نظراً لشخصية وهبى) والحركة الراديكالية، هذه الأفلام استهدفت حساسية جمهورها.

(٩٦) كانت دار الهلال تصدر كلا من "كل شىء والدنيا" و"الهلال"، وكانت أكبر وأقوى دار نشر فى مصر (من حيث أحدث تكنولوجيا، وأكبر عدد من الدوريات وعدد العاملين، وأكبر حصة فى السوق). وكانت إصداراتها تمثل الاتجاه السائد وانعكاسات النخبة المثقفة. ولكن المجلات المطبوعة الأخرى - المجلات الدورية الصغيرة والتي غالباً تصدر عن شخص - اكتشفت "الشباب" منذ فترة طويلة. فعدد كبير من المجلات الصغيرة الدورية التى انتشرت فى الثلاثينيات، كانت موجهة خصيصاً لجمهور الشباب، وجمهور الأفندية. ولكن كُتاب المقالات فى دار الهلال الذين يكتبون عن "قضايا الشباب" لم يكونوا أنفسهم من الشباب، وبالنسبة لم يخاطروا بأرواحهم فى عام ١٩٣٥ فى المصادمات مع الجنود البريطانيين. إلا أن الشباب أنفسهم - كقوة اجتماعية وقوة سياسية - فرض نفسه خلال أحداث ١٩٣٥-٣٦، وساد اتجاه بين السياسيين والمثقفين للاعتراف بهم من خلال منحهم مكانة مهمة فى كتاباتهم، وبالتالي محاولة المشاركة فى الحركة الشبابية.

(٩٧) عبد اللطيف البغدادي فى كتاب حمدى، ٥٩ .

(٩٨) محيى الدين، الثانى. فى مذكراته، التى يفترض أنها من عمل صديقه ورفيقه "رفعت السعيد"، وهو ناشط شيوعى، وكاتب، وعضو مؤسس لحزب التجمع السياسى المعاصر (بالاشتراك مع خالد محيى الدين). وقد لا يكون هناك ضرر من هذا الاقتراض حيث إن رفعت أصغر سناً بقليل من محيى الدين.

(٩٩) مثال جيد آخر فى هذه النقطة وهو أنه بعد عام، بينما كان الجيل القديم من السياسيين يحتفل بمعاهدة ١٩٣٦ كانتصار، شجبتها الحركات الشبابية واعتبرتها خيانة.

(١٠٠) نجيب محفوظ، "طريق السكر" ترجمة، وإيم مينارد هاتشينز وأنجيل بطرس سمعان (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية، ١٩٩٢) ١٨٧ .

(١٠١) هذه العبارة المجازية، تجدها مقترحة كثيراً في الروايات. على سبيل المثال، في "زقاق المدق" لمحفوظ، قرار الشاب "حسين كرشة" بمغادرة حارته والبحث عما يعتقد أنه "حياة أفضل" تعبر على وجه التحديد عن عبارة "حقه" في أن يفعل ذلك. محفوظ، "زقاق المدق" ص ١١٦-١٧ . أفهم فكرة "أن يضع الفرد قواعده الخاصة" وكذلك حقيقة أن كثيرين من أعضاء الجماعات السرية الذين قاموا بمحاولات اغتيال في منتصف وأواخر الأربعينيات كانوا من طلبة مدرسة الحقوق.

(١٠٢) "ما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً". فيرجينيا دانيلسون A Voice Like Egypt فيلم تسجيلي عن أم كلثوم (سياتل: توزيع الفيلم العربي، ١٩٩٦).

(١٠٣) تعبير لبنين، بينين 314 Egypt.

(١٠٤) كان بينين، وسميث، وجيرشوني وجانكوبسكي هم الذين ادعوا أن "الأفندية" الجدد كانوا تقليديين وذلك بسبب أصولهم الريفية غالباً. وبالمعنى الدقيق للكلمة، الجيل السابق من الأفندية (وهم الذين أصبحوا باشاوات وبكوات في الفترة ما بين الحربين العالميتين) ربما كانوا أكثر انتماء للريف - فكثير منهم في الواقع ولد في الريف - ثم جيل الأفندية الجدد الذين أتوا من أسر هاجرت للحضر. هذه الفرضية يمكن التحقق منها فقط بعد مزيد من البحث، ولكن من المؤكد أنه ليس من المفيد التفكير في جيل "أنه ريفي" والآخر ليس كذلك. الفارق الحاسم يكمن في هويتهم وهيكمل علاقتهم بالدولة.

١- الوعي التاريخى بالمواطنة الحديثة

- التعليم المصرى ودروس التاريخ خلال الحكم
الملكى الدستورى.

باراك سالمونى

فى إعادة صياغة ما قاله عالم الاجتماع الفرنسى (الألزاسى) الشهير موريس هالبواكس، فإن التاريخ هو وسيلة معرفة الحاضر^(١). وبغض النظر عن مدى ارتباط هذه المقولة بالحقيقة المجردة أو الواقع الفعلى فإن وعى جماعة ما بالتاريخ هو الذى يفسر الأوضاع الراهنة ويضع الأطر لاحتياجات المستقبل. فاهتمامات المجتمع بالحاضر هو الذى يجعله يسترجع ذكريات جماعية للماضى يستلهم منها التعامل مع الأحوال السائدة. فالأيديولوجيات السياسية تسعى فى البداية لنشر مفاهيم الماضى داخل مجتمعاتها مما يساعدها على توجيه أداء الحاضر. وفى الشرق الأوسط - حين بدأت الأمم تتشكل فى القرن العشرين - أعطت النخبة وقياداتها الوطنية الأولوية لخلق ذكريات جماعية تستهدف التوجه إلى الحاضر، ثم تبلغها إلى المواطنين الجدد كقصص وروايات تضع خريطة طريق للسلوك المعاصر. واستهدفت هذه الجماعات "جذب أكبر عدد ممكن.... إلى مشروع خلق أمة جديدة" تملك كل المقومات الاجتماعية والسياسية الحديثة^(٢)، وفى سبيل ذلك ركز المهندسون الاجتماعيون فى الشرق الأوسط على نظم التعليم الوطنية كتعبير عن إيمانهم بأن التعليم هو المرادف العلمانى للكنيسة "تكون فيه القومية إنجيلها"^(٣).

وتجسد مصر هذا الاتجاه الجديد، فقد رأى رفاعة الطهطاوى (١٨٠١-٧٣) وهو أحد أهم المؤرخين فى مصر الحديثة، أن التعليم الذى تديره الحكومة وتشرف عليه هو ضرورة لبناء إحساس بمجتمع وطنى يتأسس على الولاء للعصر الحاكم، مع إيمان راسخ بعظمة مصر التى ترجع إلى عصر الفراعنة وما حققوه من منجزات^(٤). وفى خلال المرحلة الأولى من استقلال الدولة ما بين عامى ١٩٢٣-١٩٥٢ تجاوز المعلمون فى الدولة هذه الفرضية ليتعاملوا مع واقع ملموس من خلال استخدامهم مناهج الدراسة ليزرعوا فى نفوس التلاميذ مفاهيم خاصة بتاريخهم تغرس فى نفوسهم افتراضات ثابتة بشأن القوى الدافعة فى مصر. كما تنقل إلى المواطنين المصريين السمات الملائمة المطلوبة فى عصر الحكم الدستورى الجديد، وبذلك انتشر الوعى بالتاريخ كبرنامج اجتماعى، أو أداة منهجية للمواطنة الحديثة.

ولم يكن هذا الاهتمام العميق بالتوصل إلى إمكانيات التاريخ الاجتماعية والسياسية من قبيل المصادفة: فقد كان العديد من المساهمين الوطنيين فى تأريخ مصر فى النصف الأول من القرن العشرين يعملون فى مجال التعليم فى فترة ما. فقد كتب يعقوب أرتين، وكان وكيلا لوزارة المعارف منذ عام ١٨٨٤ وحتى عام ١٩٠٦ كتاباً تاريخياً عن التعليم العام والموارد المالية فى مصر، وكذلك فعل أمين سامى الذى استهل مؤلفاته الستة عن تاريخ مصر بدخول الإسلام إليها وصولاً إلى عصر الخديوى إسماعيل (١٨٦٣-٧٩) وكان أمين سامى عميداً لكلية دار العلوم ثم مديراً لمدرسة المبتديان لمدة ربع قرن، ولم يكن هذا الاهتمام بالتعليم بأقل مما فعله "المؤسسون الأوائل" الذين أرخوا لمصر المستقلة. حيث قام "محمد رفعت" - الذى سنتناول كتابه "تاريخ مصر فى العصور الحديثة" بتفصيل أكثر - بتدريس مادة التاريخ فى كلية المدرسين العليا، ثم التحق بوظائف عدة فى وزارة التعليم حتى أصبح مديراً عاماً للتعليم الثانوى عام ١٩٤٦، ثم وكيلا للوزارة فى أواخر الأربعينيات ثم أصبح وزيراً للمعارف عام ١٩٥٢. وبالمثل بدأ محمد شفيق غربال (١٨٩٤-١٩٦١)، وكان أول مؤرخ أكاديمى مصرى موثوق به، حياته المهنية كمدرس تاريخ فى إحدى المدارس الثانوية قبل أن يحصل على شهادات عليا من بريطانيا. ومنذ عام ١٩٤٠، انغمس شفيق غربال

فى مجال التدريس ثم شغل منصب نائب المدير المسئول فى الوزارة من ١٩٤٠-١٩٤٢، وفى عام ١٩٤٥ عمل كمستشار فنى لها ثم وكيلا للوزارة أثناء تولى رفاعة الطهطاوى مسئوليتها، وظل فى منصبه فى التعليم الحكومى حتى عام ١٩٥٤. وبالمثل كان المؤرخ الوطنى محمد صبرى (١٨٩٠-١٩٧٨) يعمل مدرساً فى كلية المعلمين فى العشرينيات من القرن، ثم مثل وزارة التعليم فى جنيف فى الثلاثينيات^(٥). وكما يقول غربال إن المؤرخين من المعلمين الذين اهتموا "ببناء الرأى العام" وأداء "الواجبات السياسية" حاولوا خلق منهجا فى التاريخ فى المدارس يمكنه أن "يجد صلة - سواء حقيقية أو مفترضة - بين مصر الفرعونية ومصر اليوم"^(٦).

كانت النتيجة أن التطلعات التى اتجهت إلى الحاضر، أملت أهداف التعليم فى مصر خلال فترة العشرينيات وأواخر الثلاثينيات. وحتى على مستوى التصريحات والبيانات، سوف نجد إذا ما قرأنا الخطوط الإرشادية التى كانت تضعها الحكومة للمدارس، أن المعلمين رأوا أن دراسة التاريخ من خلال التركيز على الشخصيات المهمة التى تمثل النماذج الأخلاقية يمكنه أن يحقق واحداً من أهم أهدافه وهو التعليم المباشر للأخلاق. بل وأكثر من ذلك، كان المسئولون التعليميون يحثون المعلمين على تدريس التاريخ "لوضع أسس مفهوم الوطنية الحقيقية.... واتخاذ القرارات المناسبة"^(٧). وبالتالي أصبح الهدف الواضح من منهج الدراسة المصرى هو وضع برنامج لمستقبل الطلبة بوصفهم مواطنين يعتمدون على الوعى التاريخى الذى يمكنه أن يغذى طموحاتهم الأخلاقية والمدنية، بل إنه فى منتصف الثلاثينيات عمدت المدارس الثانوية إلى مزج التاريخ وعلم التربية المدنية والأخلاق فى مناهجها.

ورغم أن المادة التعليمية التى كان يتلقاها النشء فى المدارس لم يتم فحصها بجدية فى مصر الحديثة، فإنه من الضرورى لنا نحن أن نفعل ذلك، فمن خلال فحص المحاضرات التعليمية والمناهج الدراسية يمكن لنا اكتساب فهم أعمق بكيفية صياغة المؤرخين المحترفين وشبه المحترفين وصناع السياسة التعليمية والمعلمين لذاكرة جماعية لتحفيز أسلوب الأداء السائد فى ذلك الوقت والتأثير فى التطلعات المستقبلية للجيل الناشئ، وبالتالي تمكين التلاميذ المصريين فى المرحلة ما بين ١٩١٩-١٩٥٢ من تفهم رغبة طبقة المجتمع من نوى النفوذ، وممن يعتنقون أيديولوجية معينة فى طرح

أفكار جديدة يعتنقها المواطنون. وبالمثل فإنه من خلال تقييم المواد التعليمية التي كان الطلبة المصريون يتلقونها بالفعل يمكن لنا أن نفهم الآراء والأفكار التي أثرت بوعي أو بلا وعي في أعداد غفيرة من المواطنين خلال سنوات الملكية الدستورية وأيضاً صناع ثورة ١٩٥٢، والذين رحبوا بها. وأخيراً فإن هذا الفحص يفتح الطريق أمامنا لتقييم العلاقة بين التاريخ الذي يدرس في المدارس، والاتجاهات المؤثرة في كتابة تاريخ مصر في السنوات من ١٩٢٢ إلى ١٩٥٢ وهي الفترة التي شهدت بزوغ المؤرخين المحترفين الأوائل وشبه المحترفين الذين انتشرت مؤلفاتهم وكان لهم العديد من القراء.

أدخل المعلمون المصريون دروس التاريخ الذي يستهدف الحياة الحديثة في مصر في كل موضوعات المناهج تقريباً بما فيها اللغة والدين والتربية المدنية والأخلاق وكانت مناهج التاريخ تضم كل هذه الدروس معاً على مستوى التعليم الابتدائي والثانوي من خلال المقررات التي وضعتها الحكومة، وإرشادات المعلمين، وكتب التاريخ التي تصدرها وزارة التعليم أو تقرها، بالإضافة إلى مقالات في أصول التدريس ومجلات المدرسة التي كانت صوت المدرسين والطلبة. ومن هذه المصادر المهمة التي صاغها المسؤولون والأكاديميون الوطنيون وأصحاب الأيديولوجيات والمعلمون على مستوياتهم المختلفة أثبتت بعض الأفكار استمراريتها في المرحلة ما بين الثلاثينيات والأربعينيات لتكون صدى للأفكار التي كانت تدرس سابقاً لتحديد السلوكيات في التربية المدنية والأخلاق وحتى الأدب.

ويشير عصران في تاريخ مصر الطويل إلى الدلالات الواضحة لاستخدام التاريخ كمصدر أيديولوجي في التوجهات إلى الحاضر: عصر الفراعنة الذي امتد حوالي ٤٠٠٠ سنة، وعصر محمد علي من (١٨٠٥-١٨٤٨). وكان محمد علي قد حضر إلى مصر كضابط عثماني ألباني في أعقاب الغزو الفرنسي لمصر عام ١٧٩٨، وبدأ غزواته لإخضاع أجزاء كبيرة من سوريا العثمانية والأناضول ليؤسس حكماً وراثياً في مصر المستقلة. ورغم أن العصور الأخرى في تاريخ مصر كانت تدرس أيضاً، فإن عصر الفراعنة منذ ٣٥٠٠ عام قبل الميلاد وعصر البطالة ثم فترة حكم محمد علي من ١٨٠١-٤٨، كانت أكثر المقررات كثيفاً في النصوص المدرسية التي وضعت ما بين ١٩١٩ و ١٩٤٠.

وفى التعليم الثانوى كانت آثار مصر تأخذ عاماً كاملاً فى تدريسها ونفس الحال بالنسبة إلى السنوات المائة وثمانين بعد عام ١٧٥٠ غطت العقود الأربعة من حكم محمد على ٢٠٪ من المقرر. وقد أبرزت مناهج المدارس الابتدائية هذين العصرين أيضاً. ومن الملاحظ أن المناهج التى وضعت عام ١٩٣٠، ١٩٣٥ قفزت فى السنة الأولى من الدراسة من العصر الفرعونى إلى عصر محمد على متجاهلة الحقبة الرومانية والإسلامية والعثمانية، فى حين أن مناهج المدارس الابتدائية الخاصة بالسنوات ما بعد ١٥١٧ كان اهتمامها أكبر بعصر محمد على الذى خصصت له مساحة من ضعفى إلى أربعة أضعاف المساحة المخصصة لبقية منافسيه^(٨).

ملامح التاريخ المصرى فى المدارس

إبان الحقبة الدستورية

فيما بين سنوات ١٩١٩ و ١٩٥٢ تعرضت المناهج الدراسية المصرية إلى التعديل عدة مرات نتيجة لما أدخل عليها تدريجياً وبصورة متزايدة من مفاهيم وطنية متعمدة. وعكس ما كان سائداً فى دول الشرق الأوسط، لم تكن التوجهات الأساسية بعد الاستقلال ذات أيديولوجية واضحة فى إلهامها. فقد كانت المناهج فى المدارس الابتدائية فى عام ١٩٢٤ تكاد تتطابق تماماً مع مناهج ١٩٢١ والتى كانت مبنية على توجهات السنوات من ١٩٠٧ إلى ١٩١٣. ومن المثير للانتباه أن المقررات لم تكن تتضمن مواد التربية الوطنية والأخلاق فى حين كان مقرر اللغة العربية بعيداً عن السياسة^(٩). وبالمثل كانت مناهج المدارس الثانوية عام ١٩٢٤ تتشابه مع مناهج ١٩١٣ رغم أنها كانت تدرس مادة التاريخ فى السنتين الأوليين من الدراسة. وقد شملت المناهج الابتدائية أهدافاً اجتماعية بصورة مباشرة تعزز الصلة بين الدروس الأخلاقية فى المدرسة والسلوك اليومي فى الحياة. والآن نصت المناهج على المدرسين أن يُعرفوا النشء بالعصور القديمة حتى تتشكل بداخلهم عاطفة "الاحترام للماضى" والإحساس بالواجب تجاه المستقبل^(١٠).

وما إن حلَّ عام ١٩٢٥، حتى كان مخططو المناهج المدرسية قد تجاوزوا بكثير الإرشادات البعيدة عن السياسة التي سادت في أوائل العشرينيات، بحيث انحصر اهتمام العملية التعليمية في كونها مصدر إلهام للشباب بروح العظمة والفضيلة من خلال التركيز على إنجازات عظماء الأشخاص في تاريخ مصر لتلعب حصص التاريخ بعد ذلك الدور الرئيسى فى العملية التعليمية^(١١). وفى نفس العام - وبعد مراجعة رئيسية لمناهج التعليم الثانوى بقيادة نجيب الهلالي وزير المعارف آنذاك - أصدر المسئولون تعليماتهم إلى المعلمين بأن يرتفعوا إلى مستوى واجبهم كرؤساء روحية تستهدف "تشكيل وعى أخلاقي وطني" بين التلاميذ، مع التركيز على الديناميكية التاريخية فى مضمون الحقائق المعاصرة^(١٢). وقد علق أحد مدرسي التاريخ وكتاب النصوص على ذلك بقوله بأن أى شىء عدا ذلك "سوف يمنع التلميذ من أن يكون عضواً مميزاً فى المجتمع المصرى"^(١٣). ورغم تغير الموضوعات عام ١٩٤٨-٤٩ فى المناهج فإن هذه المشاعر ظلت ثابتة^(١٤) خاصة وأن المناهج الابتدائية والثانوية لم تتضمن التربية الوطنية كمادة مستقلة حتى الثلاثينيات والأربعينيات على التوالى مما استتبع أن يكون لفصول مادة التاريخ نصيب الأسد فى لعب دور التنشئة السياسية فى المدارس المصرية. بالإضافة إلى أن مادة التاريخ فى المدارس الثانوية حين اتجهت إلى تدريس "تاريخ العظماء من الأشخاص" برز ملوك الفراعنة العظام، ومحمد على كنماذج ودروس للشباب فى الحياة المعاصرة. وفى نفس الوقت مكنت دراسة الأسلاف فى العصور الحاكمة السابقة بهذا القدر من التمجيد من تحدى رؤية المناهضين لمحمد على من الكتاب الأوروبيين، وفى نفس الوقت أكدت على قوة تأثير ميراث الفراعنة فى نفوس الشباب أكثر مما فعله علماء الآثار الأوروبيون^(١٥).

وربما كان من أهم الأساسيات فى دروس التاريخ للشباب المصرى فى الفترة ما بين ١٩٢٠-١٩٤٠ هو أن مصر كانت من أقدم الممالك حضارة^(١٦). وكما ورد فى الكتب المدرسية فى المدارس الابتدائية عام ١٩٢٨ "لا تكاد توجد تقريباً بلاد حولنا تضارع مصر فى آثارها التاريخية، ففي العصور المتناهية فى القدم كان يقطنها قوم متقدمون فى أسلوب حياتهم ومعارفهم، يسيطرون على أراضيهم ويتجاوزون بحضاراتهم

التي تمتد إلى آلاف السنين الدول الأخرى^(١٧). وفي نفس السياق كانت التعليمات للمدرسين في المدارس الثانوية تتضمن أن الهدف الأول هو "جعل التلاميذ على وعى تام بأن مصر رغم أنها كانت تحت حكم متتالي من غير المصريين منذ القرن السادس قبل الميلاد - فقد ظلت دولة مستقلة تحت حكم البطالمة، والطولونيين، والإخشيديين، والفاطميين والأيوبيين والمماليك، كما تمتعت أيضاً باستقلال ذاتي حتى مجيء حكم الدولة الرومانية الشرقية، والخلفاء المسلمين، والدولة العثمانية"^(١٨).

ومن هذا المنطلق، فإن رواية التاريخ ربطت ما بين مصر الفراعنة، وعصر محمد علي، وقدر مصر في القرن العشرين من خلال تقديم الحقائق الخالدة والدروس التي وفرت بوضوح القيم والدلالات الإرشادية للتلاميذ. وكان من أهم ما تضمنته هو العلاقة ما بين الوحدة، والحكم المركزي القوي والسيادة الوطنية، والتي تستوجب الطاعة للحكام السياسيين والاجتماعيين مما يمنع شيوع الفوضى. كما تعرف التلاميذ أيضاً على قوة تحمل المصريين الوطنية خلال عصور التاريخ والتي كانت تحقق استقلالها وسيادتها على المنطقة إذا ما تولى حكمها حكام أقوياء. وقد أحدث هذا التوازن ما أظهره المصريون دوماً من قدرتهم على صياغة أقدارهم السياسية. بل والأكثر من ذلك فإن مادة التاريخ عرفت النشء أيضاً بالميزات الحضارية وحتى العرقية للمصريين فيما يتعلق بصلاتهم بجيرانهم القريبين أو البعيدين، وحذرتهم من مخاطر الاندماج في الشعوب الأخرى. وأخيراً فإن التلاميذ في عصر الملكية الدستورية تعرفوا أيضاً على الواقع الرئيسي لمصر بعد ١٨٥٠ والذي تمثل في خطواتها المستمرة المنظمة تجاه الديمقراطية، والمشاركة الشعبية في الحكم. وارتبط مفهوم هذا التقدم بضرورة الشعور بالاحترام والوفاء لحكم التزم بتحسين شئون مصر إلى الحد الذي طمس جنورها الأجنبية. وكما ذكرت هذه المناهج للطلبة فإنه - فيما عدا الرومانيين والعثمانيين - فإنه منذ الهكسوس كان جميع من تولوا حكم مصر يتطبعون بال شخصية المصرية^(١٩).

دراسة التاريخ فى التعليم الابتدائى

(١٩٢٤-١٩٤٨)

واجهه الطلبة تلك الدروس منذ بداية دراسة التاريخ الفرعونى فى المدارس الابتدائية. فمنذ عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ضمن الملك مينا - وهو رجل شجاع كانت له سياسات جيدة - استمرار وحدة مصر الوطنية من خلال سيطرته على النيل وتأسيسه حكماً يربط ما بين الأقاليم المتباينة فى مصر مع نهيراتها الأساسية. وبذلك أدرك التلاميذ أن الحكم القوى والوحدة ما بين هذه الأقاليم تضع مصر دائماً فى طريق التقدم^(٢٠)، فقد أشارت كتب التاريخ أيضاً إلى أنه فى خلال العصور الأربعة التالية "استمرت مصر فى طريق التقدم" كما يبدو واضحاً فى ازدهار التجارة الإقليمية، والقوة التكنولوجية، خاصة وأن بناء الأهرامات قدمت للمعاصرين ومن أتى بعدهم "رمزاً عبقرياً للحضارة المصرية... ومعياراً لنظام الحكم الذى يتوخى خير الأمة"^(٢١). بينما كانت انتصاراتها التى تجاوزت وادى النيل تعزز ثروة مصر القومية. إلا أن هذه المرحلة الأولى من ازدهار الأمة انتهت حين تسبب أحد الحكام الضعفاء فى تدهور الحكومة المركزية فى الأسرة السادسة لتكشف التحولات الفارقة فى التاريخ المصرى المتمثلة فى النتائج بين الفوضى والنظام.

وفى الدولة الوسطى استحق أمنمحاتب الثالث على وجه الخصوص ثناء المصريين الجدد المعاصرين بالإضافة إلى محاولة محاكاتهم حيث إنه "استوعب فكرة أن خلاص مصر يكمن فى تحسين الرى بها"^(٢٢) ومن ثم أشار المنهج وبتركيز كبير إلى أهمية بناء السدود والخزانات و"بحيرات" ماريوس" خلال حكمه^(٢٣)، كما أشار أيضاً إلى براعتهم الفنية المتمثلة فى قصر لابرانث الذى اشتهر فى الأزمنة القديمة "بروعة بنائه". وهنا كان من المهم لمؤلفى المناهج أن يذكروا التلاميذ بما قاله المؤرخ اليونانى هيرودوت عن هذه الإنجازات حيث إنها أكدت مصداقية حضارة المصريين من خلال ما قاله أعلى مستوى أدبى، وبألفاظ أطلقها مصدر أجنبى غير متحيز. بالإضافة إلى أن الهكسوس المغيرين أنفسهم أكدوا حقائق مهمة عن مصر، لأن "الشخصية المصرية تركت بصمتها

عليهم" فى إشارة أنه حتى فى هذا العصر القديم كانت الأسر الحاكمة فى مصر تتشبع تماماً بالشخصية المصرية^(٢٤). وهنا تذكر المناهج المناقشات التى دارت فى أوائل القرن العشرين بين القيادات الوطنية آنذاك التى خدمت بعد ذلك كوزراء للتعليم فى أواخر العشرينيات والثلاثينيات^(٢٥).

أما بالنسبة للمملكة القديمة، فقد أشادت الكتب المدرسية الأساسية بإنجازات حكام بعينهم مثل أختاموس وهو مؤسس الأسرة الثامنة عشرة الذى كان واحداً من أعظم ملوك مصر، فألى جانب إنقاذ وطنه من نير الأجانب، وحد السلطة فى يد قائد واحد. كما كان تحتمس الثالث يعتبر "أعظم ملوك الدولة القديمة" بسبب انتصاراته فى المشرق وبرنامج البناء. وأخيراً أشار مؤلفو الكتب المدرسية بأسلوب أدبى أصبح نمطياً إلى رمسيس الثانى "كأعظم ملك فى الأسرة التاسعة عشرة بلا منازع لأنه أنقذ أمته... ولأنه أعاد ضم أغلب بلاد آسيا إلى ممتلكاته". وفى الثلاثينيات والأربعينيات عززت اللغة العربية فى الفصول هذه الدروس، وأشارت إلى رمسيس بصفته هذا "الشاب الشجاع المحب لوطنه" حتى توثق الروابط بصورة مباشرة بين التلاميذ والعصر الفرعونى^(٢٦).

طرح التاريخ الفرعونى أمام التلاميذ أفكاراً واضحة وهى أن وحدة البلاد تحت حكم فرد عسكري واحد قوى يمكن مصر من الاحتفاظ باستقلالها ضد الأجانب، وسيطرتها على المنطقة كمركز للتجارة والزراعة والعلوم. فقد أثبتت القدرة العسكرية أنها ضرورة لتحقيق الاستقلال، وأنه بعد رمسيس الثانى، تسبب فقدان الشجاعة الحربية فى انتصار الآشوريين واستيلائهم على مصر. وفى هذا الصدد أعطت المناهج دروساً لها قيمة عصرية. فقد كانت استجابة حكم بسمتيك المركزية لاحتلال الآشوريين قد جعلت منه "واحداً من أقوى فراعنة مصر، وأكثرهم إثارة للرعب، وفى فترة حكمه نهضت مصر من غفوتها وبدأت فى استعادة مجدها القديم" وخاصة فيما يتعلق باهتمامها المتزايد بقوتها العسكرية.

وفى العشرينيات من القرن السابق، حين بدأت مصر تخرج عن دائرة ظل المحتل الأجنبى، كانت الدروس لها أهميتها الكبرى للمواطنين الجدد. وبدلاً من أن يكون التاريخ الفرعونى مجرد مصدر للفخر والتباهى، كان بداية الدورات التاريخية التالية ومعيار للحكم على حكام مصر اللاحقين فى ضوء مدى التزامهم بالاستقلال، والتقدم التكنولوجى، وإعلاء الثقافة بدءاً من محمد على ومن جاء بعده حتى يتمكنوا من تحقيق قدر الأمة القديم^(٢٧).

وعلى المستوى الفردى، كانت عظمة مصر القديمة تحمل فى طياتها مضامين أخلاقية يمكنها أن تؤثر فى سلوك النشء. فقد كان أبطال مصر القديمة يتميزون بالشجاعة، وقوة الإرادة، والالتزام بالنظام فى حياتهم، بالإضافة إلى نشاطهم ومثابرتهم والحرص على الاحتفاظ بكرامتهم الشخصية دون تعالٍ أو غطرسة. ولكى نتعرف على تأكيد النموذج المثالى الفرعونى لما يجب أن يكون عليه التلميذ المصرى المعاصر نرجع إلى تلك النصيحة التى أبداها الآباء فى العصور القديمة: "كرس حياتك للمعرفة، وأحبها كما تحب أمك... لا تنفق وقتك فى المتعة والكسل حتى لا تتعرض للسيئات... ولا تنس أن تحترم من هم أكبر منك سناً أو مقاماً... ولا تجلس أمامهم وهم واقفون"^(٢٨). وبالتالى يتعلم المصريون الجدد من التاريخ كيف يكونون جادين يعتمدون على أنفسهم، ويلتزمون بأساليب الحداثة فى نفس الوقت الذى يحترمون فيه قيادات مجتمعهم ويمجدون تاريخ الأمة العريق. ومن المثير للاهتمام أن هذه الصفات التى تميزت بها مصر الفرعونية كانت تسير متوازية مع ملامح الصفات التى كان يطالب بها المعلمون المصريون التلاميذ فى المدرس والتى كانت تتضمنها الصحف التعليمية فى العشرينيات والثلاثينيات بالإضافة إلى ما كان يعرضه قراء اللغة العربية من مفاهيم مماثلة^(٢٩). وبالتالى - كما سنرى لاحقاً - فلم يكن وصف محمد على يختلف كثيراً عما سبق وذكرناه.

وتلُقى نهاية العصر الفرعونى الضوء على الدورات التاريخية لمصر فى نفس الوقت الذى توفر فيه الدروس عن كيفية تحمل المخاطر، فمملكة البطالمة كانت "مصرية شكلاً" من حيث احتفاظها بالعديد من التقاليد المصرية، وكان بطليموس الأول على وجه

الخصوص "يتبع خطى الإسكندر فى معاملته الطيبة للمصريين، وتبجيله لديانتهم وبالتالي فقد نال حبهم، واستمرت الدولة فى طريق الرقى." وعلى عكس من ذلك بدأ العصر الرومانى بفكرة الحماية، التى سرعان ما تحولت بعد ذلك إلى السيطرة بسبب تزايد ضعف الفراعنة. وانتهى الأمر بانتصار الرومان واستيلائهم على مصر، وفى حين ما كانت مصر سابقاً مركزاً للحضارة والسياسة بحكم حقها الشخصى والتاريخى، إلا أنه بعد سنة ٣١ قبل الميلاد أصبحت "مجرد مقاطعة رومانية" (٢٠).

التاريخ الفرعونى فى الدراسة الثانوية

كما تشير ميساكو إيكيدا فى أحد فصول هذا الكتاب، فإن المسئولين التعليميين فى عصر الملكية الدستورية المصرية احتفظوا بالأسلوب الإرشادى فى السياسات التعليمية التى وضعها المحتل البريطانى بشأن درجات السلم التعليمى، فالمدرسة الابتدائية من جانب كانت طريقاً يمهّد الدخول إلى المدرسة الثانوية، ومن جانب آخر، كانت الامتحانات المتتالية التى تشترط الحصول على شهادة الانتقال من المدرسة الابتدائية إلى المرحلة الثانوية تعنى أنه كانت هناك الكثير من نقاط التسرب قد تمنع التلميذ من الالتحاق بالمدرسة الثانوية. كما أن التعليم نفسه كان بعيداً بالنسبة للكثيرين سواء لأسباب مادية أو بسبب الهجرة، وبالتالي كانت المدرسة الابتدائية بالنسبة للكثيرين هى الخبرة التعليمية الوحيدة (٢١).

ومع ذلك فقد كان منطق الدراسة يفترض استمراريتها، واعتبر هؤلاء الذين ينهون تعليمهم الابتدائى والثانوى جنود المشاة فى الحداثة الوطنية. ومن ثم كان التلاميذ الذين ينتقلون إلى مرحلة الدراسة الثانوية فى الفترة ما بين ١٩٢٠-١٩٤٠، يتلقون أفكاراً مماثلة لتلك التى اعتنقوها فى المرحلة الابتدائية والتى غطت مصر الفراعنة مع شىء من الاختلاف فى التركيز على المواعظ الأخلاقية والتى رأى المعلمون أنها تتلاءم مع فترة المراهقة والشباب. وكانت المناهج تبدأ بتعزيز رسالة المدارس الابتدائية فى أن "النيل هو مصدر الحياة الرئيسى لمصر والذى بدونها كانت مصر ستتحول إلى صحراء جرداء".

وكان المسئولون يوجهون المعلمين ليكرسوا اهتماماً كافياً بتاريخ مصر فى الدولة القديمة والوسطى لنقل مفهوم توحيد مصر^(٣٢). ومع ذلك فما كان موضع الاهتمام الأكبر فى مناهج ١٩٣٥-١٩٤٨ كانت الدولة الحديثة (١٥٨٠-١٠٧٥ قبل الميلاد) والتي بدأت باستقلالها بعد حكم الهكسوس. وطبقاً لأحد الكتب المدرسية التى كتبها أحد المعلمين ووافقت عليها وزارة التعليم أن أحمر "أنقذ مصر من احتلال الآسيويين البغيض الذى شكل كابوساً ثقيلاً عليها". وبالمثل كان مؤلفو المناهج يوجهون المعلمين إلى التركيز على أهمية عسكرية المجتمع وما يتبعه من الانتصارات الأجنبية. وفى حين ما كان تلاميذ المدارس الابتدائية قد تعلموا أن مصر هى إقليم مستقل بطبيعته، إلا أن التقييم الإيجابى الواضح للعسكرية، والإحياءات العرقية فى معانى الكتب، لم تكن جزءاً من المنهج الدراسى.

وبعيداً عن توجهات المدرسة الابتدائية، فقد ركزت مادة التاريخ فى المدارس الثانوية على جوانب معينة من "الثورة الدينية" التى أحدثها أمتحوتب ونفرتيتى اللذان بشرا بعبادة الإله الواحد. وطبقاً لما ذكرته الكتب المدرسية فإن هذه التجربة الدينية سواء فى القوة الدافعة لها أو نتائجها تسببت فى انهيار الإمبراطورية المصرية فى تلك الحقبة. ورغم أن عبادة آمون "كانت عقيدة مصرية خالصة" وحدت الأمة، فإن الرعايا من البلاد التى تم الاستحواذ عليها بدأت فى "الهجرة إليها والاختلاط بشعبها". وقد جعل هذا الاختلاط الديانة الجديدة نوعاً من الملاءمة السياسية، وتسبب التأثير السياسى المفرط لكهنة آمون "الذين تركوا واجباتهم الأساسية الدينية" فى تحفيز هذا التغيير العقائدى^(٣٣) أيضاً. ولنفس السبب - وطبقاً لما ورد فى بعض الكتب المدرسية فى المرحلة الثانوية - كانت أصول نفرتيتى نصف الآسيوية وقوتها المفرطة يقع عليها جزء كبير من اللوم فى اتخاذ بعض القرارات السياسية غير الحكيمة التى أدت إلى انشقاقات داخلية وثورات ناجحة^(٣٤). والأكثر من ذلك أنه حين "أصبح فرعون مصر معلماً دينياً وليس محارباً" فقدت البلاد كثيراً من ممتلكاتها الآسيوية، وتركت فريسة للغزاة الأجانب^(٣٥).

ومن خلال التعرض لهذه الأحداث بالكثير من الشرح والتفسير، نقلت المناهج ومؤلفو الكتب المدرسية إلى التلاميذ مدى الاحتياج إلى الحفاظ على العادات الوطنية في مواجهة ما يأتى من الخارج. بالإضافة إلى أنهم استمروا في تعزيز أهمية السيطرة الإقليمية في تحقيق الخير لمصر، خاصة وقد جاء تاريخ "سقوط الإمبراطورية المصرية" بعد الأحداث السابقة مباشرة^(٣٦). كما وأن هؤلاء المؤلفون عمدوا إلى إبراز أهمية سيطرة الدولة على الشئون المدنية من خلال تقديم لتأثير الكهنة السياسى وتدخل السلطة الملكية في الشئون الدينية، وهى فكرة اعتنقها العديد من خبراء التعليم فى مجال الإدارة التعليمية^(٣٧). كما كان من الواضح أن الإشارة إلى شعب الفرس البغيض، وجذور نفرتيتى الأجنبية كان القصد منه هو طرح رؤية أخلاقية للتاريخ أمام تلاميذ المرحلة الثانوية، فى تحذير واضح ضد اختلاط الأجناس. بالإضافة إلى أنها أوصلت أيضاً المفهوم البيولوجى الكاذب الذى ورد فى كتب المدارس الابتدائية والثانوية فى فترة الثلاثينيات والأربعينيات فى مادة التربية المدنية من وصف مصر أنها أسرة نموذجية (كبيرة)^(٣٨). مما اتسع معه مستوى الاتجاه السائد فى المرحلة الابتدائية دون معارضة. وكانت النتيجة النهائية لإضعاف الشخصية المصرية، وتقليص السيطرة الإقليمية والخلط ما بين الدين والسياسة هو تخلخل الوحدة والفوضى ثم الانهيار والاستعباد.

فى دراستهم للحضارة المصرية، اكتشف التلاميذ مجتمعاً متكاملًا يملك كل مقومات الزراعة والتجارة والفن والبراعة فى الحرف اليدوية. ومثل ما حدث مع جيرانهم الأتراك والإيرانيين^(٣٩)، صور المعلمون المصريون مجتمعهم القديم كمجتمع وضع سلسلة من الأولويات أدت إلى ازدهاره، وبالتالي أوحوا إلى التلاميذ بأن مصر فى العشرينيات والأربعينيات من ذلك القرن سوف تستعيد مكانتها القديمة لو أن مواطنيها من الشباب يدرسون باجتهاد ويعملون بجدية. وقد ساهمت الصور العديدة التى امتلأت بها الكتب المدرسية للإنتاج اليدوى الذى زخرت به الحياة المصرية اليومية فى مجالات التجارة والشئون الحياتية فى ربط التلاميذ بـماضٍ يعتبرونه ملكاً لهم.

بل ولم يقتصر الأمر على التعليم الابتدائي فقط بل إن الخطوط الإرشادية للمناهج شجعت على تشكيل لوحة تاريخية ورسم صورة لما كان يصنعه المصريون القدماء فى حياتهم اليومية حتى يمكن للشباب المصرى أن يعيد خلق ميراثه بيديه. وفى نفس الوقت عمل التركيز على تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى والثقافى خلال هذه العصور على إقناع المصريين بتميزهم كشعب، فلم تكن مصر بلداً زراعية فقط بل كانت "أعظم بلد زراعية فى العالم". أما فيما يتعلق بالصناعة فقد عرف التلاميذ أن "المصريون القدماء كانوا أول من أنتج الورق" كما كانوا الأوائل فى صناعة النسيج، وفى التجارة "كان المصريون يستخدمون قطعاً من الذهب والنحاس بأوزان ثابتة لتصبح أول عملات نقدية عرفها التاريخ"^(٤٠).

وقد قدمت مصر القديمة أعظم إسهاماتها فى حضارة العالم الثقافية. فقد كان المصريون فى عصر الفراعنة "أول من عرف الكتابة" فبعد اللغة الهيروغليفية والهيراطيقية (نوع من الكتابة المصرية القديمة كتبت برموز مبسطة للرموز الهيروغليفية الأصلية)، اخترع المصريون النصوص الديموطيقية ثم القبطية. إلا أن الفينيقيين قبل ذلك كانوا يستخدمون الديموطيقية "ومنهم أخذها الإغريق، ثم تعلمها الرومان من الإغريق، وبالتالي فإن الكتابة المصرية القديمة أصبحت أساس الكتابة فى جميع الدول المتحضرة فى الوقت الحاضر". وأخيراً فحتى التقويم المصرى كان "التقويم السائد الذى ورثه العالم بعد ستة آلاف سنة، مع بعض التغيرات البسيطة" وفى خلال كل ذلك ظل المصريون "راسخين فى إيمانهم بإله يشرف على كل الأعمال والأفكار ثم يحاسبهم بعد ذلك على ما فعلوه". وتعلم النشء لماذا قال هيروdotot إن المصريين "قوم يخشون الله"^(٤١). وكان من الطبيعى أن إنجازات الماضى هذه كانت تملأ الشباب المصرى بالكبرياء والفخر، وتجعلهم يدركون بطريقة أفضل دروس التحذير فيما يتعلق بالحاجة إلى الوحدة، والنظام، والولاء للقادة وإبعاد الدين عن السياسة والتى اقتبسوها من الماضى.

أما مواد التعليم فى المدارس الثانوية فى السنوات بين ١٩٢٥ وأواخر الأربعينيات، فقد أعادت طرح النظرة السلبية "لمصر تحت الحكم الرومانى" والتي سبق تدريسها فى المدارس الابتدائية، حيث إن الحكام الجدد لم يروا فى مصر سوى أرض "توفر لشعب روما احتياجاته" من خلال ثروتها الزراعية، أما التلاميذ القادمى فى تلك المرحلة فقد تقبلوا أجدادهم حتى فى فجر العصر الفرعونى "كمصريين حاولوا من وقت لآخر إزاحة نير الحكم الأجنبى" مما هيا لشباب المصريين رؤية الأحداث فى عصر محمد على كاستمرارية لصحوة الروح الوطنية التى لا تقهر.

وأخيراً فإن ظهور المسيحية فى البلاد أعطى الفرصة لإعادة رؤية تاريخ مصر وربطها بحاضرها. فقد وجدت الديانة الجديدة استجابة حماسية من المصريين بسبب استعدادهم لاعتناق فكرة الإله الواحد. بل والأهم من ذلك، ولأنهم كانوا من الأوائل الذين أخذوا بمذهب الرهبنة، فقد ساهم المصريون فى تاريخ المسيحية بوحدة من أساسيات حضارة القرون الوسطى^(٤٢). وفى هذا الصدد تشابهت الدراسة فى المدارس الثانوية مع الدراسة فى المدارس الابتدائية فى نظرتها إلى المسيحية. وبدلاً من مناقشتها كظاهرة دينية حضارية مستقلة، تلقاها التلاميذ فى المرحلتين الابتدائية والثانوية فقط فى صورتها القبطية (ذات القومية المصرية) كمكون أساسى فى تزعم حكم الرومان فى مصر. وطبقاً لأحد الكتب المدرسية التى ذكرت أنه بعد اتباع الكثيرين فى مصر للديانة المسيحية، أراد دقلديانوس "أن يفرض على الرعايا المصريين اعتباره إلها.. إلا أن المسيحيين منهم رفضوا الخضوع له، فعذبهم وذبح الكثيرين منهم... مما ترك أثراً كبيراً عند "الأقباط" وقد وحد هذا الطرح للأحداث بين وجهة النظر التاريخية السلبية تجاه العصر الرومانى وبين صراع الأقباط أنفسهم مما يشير إلى استمرارية الإحساس بالامة منذ العصر الفرعونى. أما الحكام التاليين فقد دعموا أشكالاً مختلفة من المسيحية "التي لا تمثل الامة مثل ما كان يمثلها الأقباط الوطنيون". وكان من الطبيعى إذن أن "يرحب المصريون بالعرب عند غزوهم مصر ونشرهم للحرية والعدالة تحت قيادة البطل الكبير "عمرو بن العاص"^(٤٣).

مصرية محمد على

والشعب المصرى فى المناهج الابتدائية

قبل أن نصل إلى عصر محمد على - هذه الشخصية العملاقة التى أسست مصر الحديثة - تجدر بنا الإشارة إلى أن التلاميذ تعلموا فعلاً شيئاً عن فترة الألف وثلاثمائة عام التى مرت، فقبل الدولة العثمانية الإسلامية، استرجعت المناهج النمط الفرعونى مع التركيز على استقلالية مصر كنزعة تاريخية متوارثة لرفض الحكم الأجنبى. وهنا نجد أن تاريخ مصر بعد استقلالها عن الدولة العباسية كان بارزاً فى مناهج التعليم الابتدائى والثانوى فى إشارة إلى أن مصر استردت مكانتها القديمة وسيطرتها الإقليمية^(٤٤). وكانت تغطية سنوات حكم الطولونيين والفاطميين والأيوبيين تشير إلى اتجاه اعتبار هذه العصور المتتالية مصرية مثلما كانت الإشارة إلى العصر الفرعونى، والتى ستنطبق أيضاً على عصر محمد على. أما بالنسبة لسنوات ما بعد ١٥١٧ فإن مصر العثمانية كانت "العصر التركى" المظلم. وفى حين ما كانت العصور السابقة تمثل الدولة المستقلة، كانت سنوات الحكم العثمانى تسترجع زمن استيلاء الرومان على مصر وسيطرة الحكم الأجنبى. فقد كانت مصر دائماً تسودها الفتنة والاضطرابات^(٤٥) بما يعنى نقيض النظام. وبالتالي كان التأكيد من مؤلفى الكتب المدرسية فى الفترة من العشرينيات والثلاثينيات على أن الفقر، والفجوة ما بين المدن والريف، والجهل وعدم اتباع تعاليم الإسلام - وهو ما يبدو واضحاً فى مصر المعاصرة - كان نتيجة حتمية ليس لأخطاء فى الشخصية المصرية الأصلية، ولكن نتيجة للإهمال الذى استشرى فى فترة الحكم العثمانى^(٤٦). وبشكل عام فإن التخلف الحضارى لم يكن أصيلاً فى الشخصية المصرية بل إن اللوم كله يقع على عاتق "الأجانب" الآخرين.

وبحساب ما ورد فى المناهج المصرية فقد بدأ عصر محمد على مع وصول الفرنسيين إلى مصر حين برزت شخصية مصر الحقيقية. وكان أول درس - وربما أهم درس تلقاه التلاميذ - أنه حتى عند مجئ نابليون إلى مصر، لم تكن مصر وشعبها أبداً المساحة الفارغة التى يلعب فيها الآخرون، بل إن المصريين أنفسهم حددوا مسار

بلادهم فى مرحلة ما بعد العثمانيين. ففى السنوات الأولى التى أعقبت الحملة الفرنسية على مصر توسط أعيان البلد عند نابليون لضمان أمن وسلامة الشعب. وفى إحدى الكتب المدرسية نرى صوراً لبعض الشيوخ البارزين^(٤٧)، ومجموعة من الأعيان المصريين الوطنيين يضمهم المجلس النيابى الذى أنشأه نابليون وهم يؤكدون على "اعتماد المصريين على أنفسهم ومشاركتهم فى إدارة البلاد". إلا أن "عدم اهتمام الفرنسيين بمشاعر المصريين الدينية" بعد ذلك استدعى صوراً جديدة من اعتماد المصريين على أنفسهم حين اشتعل لهيب الثورة فى القاهرة، وهب مواطنوها للدفاع عن حريتهم^(٤٨). وفى فصل المراجعة فى إحدى الكتب لخص المؤلف مغزى أفعال المصريين لتحقيق التطور السياسى:

"أحس المصريون بالمسئولية التى وقعت على عاتقهم، والتى تتبلور فى طرد الفرنسيين من بلادهم - وبالتالى قاموا بالثورة على نابليون - وكانت هذه هى المرة الأولى التى يقف فيها المصريون أمام الأوروبيين والمحتلين منذ أن فقدوا استقلالهم. فبدءوا يحسون بقوتهم كما حدث عندما بدءوا يتأثرون أيضاً بالأساليب والوسائل الغربية، فتمكنوا من وضع أساس الصحوة الحديثة التى بدأها محمد على."

ظهر الشعب المصرى على مسرح التاريخ كلاعب واع "مدرك لدوره فى الحكم النيابى خلال فترة نابليون مما جعله لا يرضى بما هو أقل"^(٤٩) وبالتالى كانت المرحلة النابليونية بالنسبة للمعلمين قد أطلقت شرارة إعادة إحياء الشخصية المصرية، ورسم طريقها وتداعياتها الثقافية فى المستقبل. والأهم من ذلك كله أن التلاميذ المصريين أصبح فى إمكانهم اعتناق فكرة قدرة المصريين على الاعتماد على أنفسهم وقوتهم، والتزامهم بمبدأ الاستقلال، وإيمانهم بتاريخهم الطويل فى الحياة النيابية. بل إنهم - فى واقع الأمر - اكتشفوا أن أجدادهم كانوا يمهدون أنفسهم لقدم محمد على من خلال المطالبة بتقرير مصيرهم بأنفسهم، تماماً مثلما يعتقد البعض أن الحياة النيابية فى مصر فى العشرينيات والثلاثينيات كانت تطوراً حتمياً لأفعال المصريين ونزوعهم إلى هذه الفكرة.

وإذا عدنا إلى محمد على نفسه، لوجدنا أن مؤلفى الكتب المدرسية صوره كمؤسس لحكم مصر بطريقة مغال فيها... وأصبحت الصفة المتكررة الثابتة فى المناهج الدراسية فى العشرينيات وما بعدها "أن محمد على هو مؤسس مصر الحديثة، وأنه باعث نهضتها، وأنه رفع من مكانتها خلال فترة حكمه بحيث أصبحت تضاهى أكثر الدول الأوروبية تحضراً"^(٥٠). وبالتالي تعرف التلاميذ على قائد من الطراز الأول الذى وضعته صفاته الشخصية فى مكان بعيد عن الجميع وأن تلك الصفات يمكن للتلاميذ محاكاتها على المستوى الفردى. وفى تعاملاته مع الأوروبيين، والعثمانيين، وذوى الشأن من المحليين، تشير المناهج إلى بسالة الباشا، وبعد نظره، وبصيرته وثاقب فكره ودهائه وحسن الطالع الذى مكّنه من استغلال الأحداث لكل ما فيه الخير لمصر^(٥١).

ومن أهم ما كانت تشير إليه المناهج الحكومية هو طبيعة العلاقة بين الشعب المصرى وقائدهم الجديد الأجنبى المولد. وبدلاً من علاقة التابع بمغامر أجنبى، وجد الطلبة رابطة متماسكة بين محمد على والشعب المصرى. فقد تمكن محمد على من اكتساب تقدير المصريين وتقبلهم له خلال أشهر القلق التى تلت رحيل الفرنسيين عن مصر، فقد أدركوا "أنه كان المدافع الوحيد ضد ظلم الوالى العثمانى، واضطهاد المماليك للشعب"^(٥٢). وبالمثل وفى المقابل فإن محمد على كان يشعر بالآفة تجاه الشعب المصرى الذين "شعروا بداخلهم بالقوة التى ظهرت خلال ثورتهم ضد نابليون وذاقوا طعم الانتصار والحكم أيضاً... والرغبة فى استقلال بلادهم". كما أن القائد الجديد لمصر فهم مغزى "أن قوة الشعب المصرى خالدة، ولذلك كان يبذل جهده منذ البداية حتى يحقق لتلك القوة الانتصار، كما حاول أيضاً أن يحميها ويحتمى بها". وقد أخذ محمد على على عاتقه - بدلاً من طموحاته الشخصية - أن يكون حكمه استجابة إلى مطلب الشعب المصرى. ومن ثم فإنّه بالإضافة إلى تأكيد مجموعة العلماء وأعيان مصر على مكانة هذا القائد الجديد اجتماعياً فإن الأهالى أنفسهم أظهروا تشجيعهم ودعمهم له بكل قوتهم، وبدلاً من أن يكون النصر فقط لهذا المتطفل الألبانى، فإن صعود

محمد على إلى الحكم "حقق للشعب المصرى انتصاراً آخر فى تاريخه، وارتفعت مكانته" فى الوقت الذى أثبت فيه محمد على أنه "الرجل الوحيد الذى يمكنه أن يخلص البلاد من هذه الفوضى التى خلفها الصراع بين العثمانيين والمماليك"^(٥٣).

ومن منطلق هذه الرؤية فإن المناهج المدرسية فى العشرينيات والثلاثينيات تعارض ما ذكره المؤرخون الأوروبيون المعاصرون بخصوص محمد على، حيث رأوا أن مصر لم تكن فى نظره سوى إحدى ممتلكاته يستغلها لأهدافه الشخصية السياسية والمادية. وقد أدى هذا التقديس المفرط لمحمد على غرضه. ففى نظام سياسى جديد تأسس ظاهرياً على مبدأ الديمقراطية والمشاركة الشعبية السياسية حاول المعلمون الحكوميون أن يزرعوا فى نفوس المواطنين تقبل حكم له جذوره الأجنبية، وأن يرسموا لمحمد على صورة الحاكم الذى يهتم برعاياه المصريين، ويتبنى قضاياهم الوطنية، وأنه جاء إلى الحكم من خلال إرادتهم، وكان هذا هو الرد على وجهة النظر القائلة بأن عصر محمد على ما هو إلا حلقة فى سلسلة حكم الأجانب لمصر - وفى نفس الوقت نقلوا إحساساً بتماسك الوحدة الوطنية والتى ظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر.

ويواصل مؤلفو التاريخ فى المرحلة الابتدائية كتابة المنهج بتضمينه وصفاً تفصيلياً لحملات محمد على العسكرية على الجزيرة العربية، والسودان وموريا (الاسم الذى كان يطلق على شبه جزيرة البيلوبونيز فى جنوب اليونان فى العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث) وأخيراً ضد السلطنة العثمانية نفسها. وأرجعت المناهج هذه الأحداث إلى أنها كانت من منطلق الاهتمام بالمصريين أو رفع شأن الأمة المصرية أمام العالم، رغم ما كبدهت هذه المغامرات من مشاق مالية وجسدية للمصريين. وبالتالي فرغم ما أظهره العلم الحديث من أن كثيراً من مبادرات محمد على التى استهدفت المركزية والتوسعات تسببت فى اضطرابات وقلقل ومعارضة فى مصر^(٥٤) فإنه طبقاً لكتاب المناهج فى العشرينيات وأوائل الثلاثينيات كانت بعض هذه التداخلات التى أرهقت حياة المصريين تلقى القبول. وكانت تغطية هذه التحركات العسكرية بما تفرضه من

التجنيد الإجبارى والاعتقال عن العائلات والموت فى أغلب الأحيان - تتم فى صالح هذه الأحداث "حصد تشكيل الجيش المصرى فوائد ثقافية ووطنية لا يمكن تقديرها حيث كان الجيش هو رمز وحدة مصر وروح نظامها"^(٥٥). وفى نفس السياق، فرغم أن تأميم الحكومة المصرية الحقيقى للزراعة قيدت الملكية الزراعية، واختيارات سلع الإنتاج والأسعار، فإن الكتاب عمدوا إلى التركيز على اهتمام الحاكم بالرى والمواصلات والتدريب الزراعى. "كما أنه مد يد العون للفلاح بالإضافة إلى إمداده بما يحتاج إليه من أدوات وماشية".

وفى نهاية الأمر، كان التلميذ يتخرج بعد سنوات الدراسة وقد استقر فى مفهومه أن محمد على هو قائد اهتم برعاياه، وأن إصلاحاته لم يضعها فى مأزق سوى التدخل الأجنبى، وبالتالي صور التعليم فى مصر فى مرحلتيه الابتدائية والثانوية الصراع ضد التدخل الأجنبى وتأثيره كحراك ديناميكى رئيسى منذ انتهاء عصر المماليك. وقد رجعت الأحداث الجارية أمام التلاميذ فى تلك الفترة صدى تلك المرحلة حيث كان المصريون يبذلون محاولات كثيرة لإعادة التفاوض فى العلاقة بينهم وبين البريطانيين فى سنوات العشرينيات وحتى الخمسينيات وفى هذا السياق ظهرت فكرة مسيطرة فى تاريخ مصر بعد عام ١٨٥٠ وهى أن مصر تتعرض دورياً لمرحلة اختراق قوى أجنبية لها تتبعها ردود أفعال وطنية تمكنها من الاستحواذ على حرية الفعل إلا أنها تتوقف قبل تحقيق أهدافها النهائية بسبب اهتمامات إمبريالية. إلا أن هذه الفكرة لم تطمس حقيقة أنه فى نهاية عصر محمد على "استحوذت مصر على حجر الزاوية فى استقلالها، حيث استطاع محمد على أن يؤسس حكماً حرص فيه أفراداه على تمجيد مصر والرفع من شأنها ثقافياً ومادياً"^(٥٦). وكان هذا ما فعله جميع حكام مصر الوطنيين منذ عهد مينا. وبشكل عام يمكن القول بأن تمجيد حكام مصر منذ مينا إلى محمد على كان يهدف إلى تدريب الشعب على تقبل الحكام الأقوياء وبالتبعية فؤاد وفاروق.

تعميق صورة محمد على فى المدارس الثانوية

ما إن حلت مرحلة الثلاثينيات حتى كان لدى تلاميذ المدارس الثانوية كتاباً مدرسياً معترفاً به لدراسة حقبة محمد على بعنوان "تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة". وقد كتبه محمد رفعت بتوجيه من وزارة المعارف آنذاك وصدرت الطبعة الأولى منه فى عام ١٩٢٠. وبعد ذلك بسبع سنوات كان يُدرس أيضاً فى كلية المعلمين العليا والذى كان محمد رفعت أحد الأساتذة بها، وظل الكتاب يدرس حتى عام ١٩٥٢. وفى عام ١٩٣٢ أعاد رفعت مراجعته ليتسع محتواه ويشمل مرحلة ما بعد الاحتلال البريطانى فى تاريخ مصر، ليصبح بعد ذلك الكتاب المقرر فى مادة التاريخ على السنة الرابعة فى المدارس الثانوية. وكان رفعت أحد رواد الجيل الأول من المؤرخين المعلمين المصريين: فبعد حصوله على شهادة الماجستير فى التاريخ من جامعة ليفربول، جمع بين التدريس والأبحاث الأكاديمية أثناء خدمته لفترات فى وزارة المعارف قبل أن يلتحق بوظائف قيادية بها ابتداء من الأربعينيات ليصبح وزيراً لها بعد ذلك عام ١٩٥٢. وفى أوقات كثيرة من مسيرته العلمية كان يساهم فى تأليف الكتب المدرسية^(٥٧)، كما مثل أيضاً وزارة المعارف فى مؤتمرات المعلمين التى عقدت فى الأربعينيات^(٥٨). وكان مؤلفه "تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة" ينقل مباشرة رؤية الدولة التعليمية فى مغزى التاريخ الوطنى المعاصر.

عرض رفعت على قرائه صورة لمؤسس الأسرة الحاكمة بوصفه يمتلك "العبقرية، والتصميم، والشجاعة" ليحقق النجاح الذى فشل فيه الماليك، والفرنسيون، والعثمانيون حيث يقول أيضاً "ولقد نجح شخص واحد... لأنه أدرك بحكمته وثاقب نظره ظهور الوطنية المصرية التى بزغت آنذاك، وعمل معها ولها". وفى خلال مراحل حكمه الأولى فى مصر أثبت محمد على للشعب المصرى فى سلوكه تجاه المتنافسين على السلطة أنه "ليس لديه أى أطماع شخصية... وأنه يعمل لصالح المصريين". وقد نجح هذا الكتاب الذى تم إقراره للدراسة فى المدارس الثانوية فى خلق رباط عاطفى بين الحاكم والشعب؛ ففى بادرة من جانب أعيان القاهرة عرضوا على محمد على أن يكون قائدهم

المصري تماماً مثلما حدث فى السنوات اللاحقة حين ظهرت هوية الاهتمام بصالح مصر لتربط بين محمد على وأجدادهم الفراعنة. وتعلم التلاميذ أن محمد على لا تحركه أية أهداف شخصية بل إنه يطمح فقط فى "أن يبنى لمصر وله مكانة مميزة ويحفر لها مجداً عميق الجذور".

ويبرز رفعت فى تحليله لتفوق محمد على فى تعاملاته مع حملة البريطانيين القصيرة فى الفترة من ١٨٠٧-١٨٠٨ هذه الأفكار. "فقد تمكن محمد على من التغلب على أكبر خطر هددته حتى تلك اللحظة فى حياته الجديدة، فتضاعف حب المصريين له إلى الدرجة التى أصبح فيها بطل مصر فى أعينهم وحامى شرفها الذى يعتزون به". ويتجاوز المؤلف منهج المدرسة الابتدائية ليؤكد أن محمد على "أعاد لمصر مكانتها الحقيقية فى العالم حتى وصل اسم محمد على إلى أسماع أوروبا"^(٥٩).

استخدم رأفت فى تحليله لتلك الفترة عنصراً مهماً تمثل فى مناقشة الأهداف والنتائج لمبادرات محمد على، وبصفة عامة كان التلاميذ بحاجة إلى فهم أن الرغبة فى الإصلاح وتوخي الخير لمصر كان وراء كل أعمال محمد على، خاصة بالنسبة للمبادرات غير الشعبية المكلفة. فمثلاً رغم معرفتهم بأن الحملة ضد الوهابيين كلفت مصر الكثير من مواردها المالية والإنسانية، فإن تلاميذ المدارس الثانوية تم توجيههم إلى أهمية التخلص من المماليك والألبانيين "الذين تسببوا فى خراب مصر، وتدميرها، بالإضافة إلى الحروب والمجاعات... وكل من كان يقف عقبة أمام طريق محمد على للإصلاح".

كانت الحملات فى السودان أكثر تكلفة للمصريين، ومع ذلك فمن خلال التركيز على النوايا، أثار رفعت شعوراً إيجابياً فى تقييمه لعصر محمد على حيث رأى أن السبب وراء الحملة - مثلما حدث مع الوهابيين - هو إزاحة القوة العسكرية الألبانية من مصر "حتى لا يعطلوا مسيرة إصلاحاته"، بل والأكثر من ذلك أن رفعت وجه تحذيراً إلى التلاميذ "بأن لا ينسوا اهتمام محمد على بنهر النيل... الذى تعتمد عليه مصر فى الري... وكذلك اهتمامه بأهلها"... أما نتائج الحملة فقد أشار رفعت أنها فشلت

فى الحصول على الذهب، أو جنود جدد، ولكنه وازن بين كل ذلك مع الفوائد التى حصل عليها، وهى أن "البحر الأحمر أصبح بحيرة مصرية، وأن محمد على أكد سيطرة مصر على منابع النيل، وفتح أمام المصريين مساحة عريضة للتجارة والاستثمار"^(٦٠).

ومن خلال ما ذكره عن بعض أخطاء محمد على التى حاول أن يبررها بعد ذلك بسرد الفوائد التى عادت على مصر والتي بلورت اتجاه رفعت فى تناول سيرة محمد على، كان المنهج الذى وضعه للتلاميذ متماسكاً يستحق المديح والإطراء من المواطنين فى الفترة من العشرينيات وحتى الأربعينيات، وبالتالى قلل من شأن الصعوبات، والمشاق التى جرها تشكيل الجيش من حيث التجنيد الإجبارى للمصريين مقارنة بالفائدة التى عمت على جموع المواطنين:

"اكتسبت مصر من الجيش فوائد أدبية ووطنية جمة. فقد كان هو رمز وحدتها حيث كان المسلمون والمسيحيون متساوين فيه، كما أنه بث فى البلاد روحاً نظامية قومية كانت قد تاهت لسنوات طويلة بالإضافة إلى تأمين البلاد من جماعات الظلم والفوضى. كما لا يجب أن ننسى الروح الوطنية التى تولدت بعد تشكيل الجيش لتشعر المصريين بإمكانية التنافس فى ساحة الحرب، وأيضاً لتملأ قلوبهم إحساساً بالثقة والكبرياء".

من هذا المنطلق كان يمكن للتلاميذ تفهم أن محمد على هو الذى يمكن أن يتوجهوا له بالشكر على وحدة الوطن، وإحياء الروح العسكرية، والمساواة أمام القانون مما يعزز النظام الاجتماعى، وكان الأهم من ذلك - وربما ليس بهذا الوضوح - أن شعر التلاميذ أن هذه الملامح هى من سمات الشخصية المصرية الأصيلة الممتدة فى جذور الماضى والتى أعاد إحيائها مؤسس الحكم الحالى - وبالمثل فإنهم - أو مؤلفو تلك الكتب يمكنهم أن يشيدوا بهذه الإنجازات كحقيقة تعود إلى العشرينيات من القرن التاسع عشر.

وفى نفس السياق فإن الحوار حول القيود التى فرضها الإصلاح الزراعى على الفلاحين توازى مع التفاصيل التى ذكرت عن زيادة الثروة القومية واستقلالية الاقتصاد. وكان رفعت على استعداد أيضاً لنقد الجهود التعليمية، وإن كان الأهم من ذلك عنده فى هذا الصدد هو رغبة محمد على فى أن يمتلك الوطنيون كل الفوائد الثقافية والفكرية التى يختص بها الأجانب، بالإضافة إلى أنه رغم تدخل الدولة وضغوطها "فلا يجدر بنا أن ننسى أن الفضل يعود إلى محمد على فى تقسيم أنشطة الحكومة، وبذل كل جهد فى العمل والتصميم على التقدم والارتقاء." مما استتبع فى النهاية أن تقيم سنوات حكم محمد على بدا أنه تحليل موضوعى غير منحاز مع التأكيد على تبرئته مما يقوله عنه الغربيين والاحتفال به والتركيز على رغبته فى مساعدة المصريين فى شئونهم الخاصة.

"ليس من العدل الحكم على محمد على من خلال المعايير التى يفرضها الغرب... فإن نظام الاحتكار والتجنيد الإجبارى كان ضرورياً للأسف... ولم يكن هناك من سبيل آخر لحماية مصر ومنعها من السقوط فى براثن حكم الأتراك ثانية... وفى النهاية نرى أنه - إذ أخذنا فى الاعتبار الظروف الخاصة لمصر عند ظهور محمد على، وعظم الواجبات التى أخذها على عاتقه ليسيّط على الفوضى والجهل، والظلم، والمؤامرات التى كانت سائدة فى مصر وتركيا آنذاك - فيجب أن نقرّ بأن نجاحه فى حكم مصر كان نتيجة عبقريته، بالإضافة إلى تلك الإصلاحات الخالدة، والدور الذى لعبه فى عالم الدبلوماسية الأوروبية"^(٦١).

وإذا جمعنا كل ما قيل فإن التلاميذ كانوا مدفوعين إلى رؤية محمد على من منظور أنه حاكم لا منافس له، بعيد النظر ومهتم برعاياه، وفى نفس الوقت تكونت لديهم فكرة إيجابية عالية عن تقييم الأداء العسكرى، ورغم أن الاحتفال بالصفات العسكرية وخدمات الجيش لم يكن لها توجه فى ذهن المصريين فى ذلك الوقت فإن الكتب المدرسية، والمقالات التى كانت تحرر فى المجلات التى يجمعها التلاميذ كانت تشير إلى ذلك كما سنرى لاحقاً. كما أنهم رأوا أيضاً أن طبيعة مصر التى لم تعتنق

تماماً السمات الأوروبية وكذلك طريقها إلى التحديث لم يكن غريباً بل كان ملائماً تماماً لها - فى نفس الوقت الذى رأوا فيه مصر أكثر أوروبية وأهم للعالم الغربى عن جيرانها سواء جنوباً أو غرباً. وأخيراً فربما كانت رؤية التلاميذ لتاريخهم وعالمهم المعاصر تتشعب ثنائياً ما بين الفوضى والنظام، الجهل والرقى - كصدى للدروس التى يتلقونها فى مادة التربية الوطنية فى المدارس الابتدائية والثانوية.

وتجاوزاً عما كان موجوداً فى المدارس الابتدائية، صورت مناهج المدارس الثانوية الجدود الأوائل كشركاء فى تحديد مصير الأمة منذ بداية فترة حداثتها. وفى هذا الصدد، يشير رفعت إلى أهمية مرحلة وجود الفرنسيين فى مصر حيث أسس نابليون "الديوان الوطنى" لتشارك العناصر الوطنية فى الحكومة لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث. "ومع ذلك ففى فترة لاحقة تسببت قسوة تصرفات الفرنسيين فى اندلاع قوة وطنية فى الشعب القاهرى الذى "اتخذ المبادرة بيديه... فى سبيل الأمة." ومن ثم كان من أهم نتائج الحملة الفرنسية أن أدرك المصريون "إمكانية الاعتماد على أنفسهم وليس على المماليك... والأخذ بمبدأ الانتخاب وليس التعيين فى الوظائف... وبهذه الطريقة تدرب المصريون أثناء وجود الفرنسيين على ممارسة المشاركة فى الحكم، مما كان له أثره فى الأحداث المستقبلية"^(٦٢). فقد اختار المصريون أنفسهم محمد على قائداً لهم، وبذلك تميزوا بين النول الأخرى فى المنطقة بالدفاع عن قضاياهم السياسية الخاصة، تماماً مثل ما أورى محمد رفعت وهو يصور تاريخ مصر فى تلك الفترة كسلسلة طبيعية من مراحل التقدم توجت بثورة ١٩١٩ وما تلاها من استحداث النظام البرلمانى، مما دفع المصريين إلى اعتبار أنفسهم مميزين عن جيرانهم فى إفريقيا الشمالية والعالم العربى الذين لا يستطيعون مثلهم أن يفخروا بما حققوه فى القرن التاسع عشر من تقدم فى طريق الاستقلال وما تلاه من حكومات نيابية تضمن أدواراً لهم فيها.

وكما نرى هنا ونحن نناقش شئون الجيش والأحوال الأخرى فى عصر محمد على نجد أن رفعت ركز أيضاً على مساهمة الأقباط فى نهضة مصر. وبالمثل وهو يناقش مرحلة الحملة الفرنسية أشار إلى "أن الناس من مختلف الفئات كانت ممثلة حماساً... وساعدوا الآخرين فى انتهاز الفرصة للثورة ضد الفرنسيين... ولم يكن الأقباط أقل.."

حماساً أو وطنية من المسلمين." وتبدو الرسالة هنا واضحة وإن كانت ملتبسة بعض الشيء. فمن ناحية قد يرى التلاميذ أنه رغماً عن الاختلافات الدينية فقد توحد المصريون جميعاً تحت قضايا عامة وطنية، إلا أنه من جانب آخر فإن اختيار الأقباط للتأكيد على القراء بولائهم الوطنى فريماً تشير المناهج عن غير قصد أو (متعمدة) إلى أن هذا الولاء لا يمكن افتراضه، بل وإنه فى تلك الحقبة ما بين ١٩١٩ و ١٩٥٢، قد يظل الأقباط قضية خاصة فى مصر المسلمة، وأن مؤلفى المناهج حين يبرزون أمام الطلبة أهمية الوحدة الوطنية فلن يستطيعوا تجنب خصوصية الأقباط أنفسهم.

الخاتمة

لم يكن يفصل العصر الفرعونى عن عصر محمد على فقط على فجوة امتدت إلى ثلاثة آلاف سنة ، ولكنهما كانا بعيدين زمنياً عن عصر الملكية الدستورية كما مارسها المراهقون والشباب من المواطنين. وفى ضوء ما يمثله هذان العصران من قمة الإنجازات الوطنية، فإن المناهج الدراسية الشاملة تشير إلى أن الشباب المصرى فى خلال العشرينيات إلى الأربعينيات كانوا يعيشون فى ظل مجدهم الوطنى. وهذا الاتجاه يختلف عما كان يحدث فى الدول المجاورة مثل جمهورية تركيا، وفلسطين الصهيونية، وإيران بهلوى، حيث كان التلاميذ فيها يرون أنفسهم متعايشين مع أو مساهمين فى أهم عصور بلادهم ديناميكية^(٦٢). ومع ذلك، ورغماً عن هذه الفجوة الزمنية التى تفصل الشباب المصرى عن عصر الفراعنة ومحمد على ، ورغم ما أشارت إليه المناهج من أن هؤلاء الشباب ولدوا بعد فترة توهج هذه الإنجازات الوطنية، فإن التعليم الحكومى استخدم هاتين الفترتين لتوصيل دروس مهمة عن الحاضر فيما يتعلق بالقوى التاريخية المؤثرة التى تشكل سلوك المواطنين.

ورغم أنه من المؤكد أن المناهج الدراسية الحكومية لا "تثبت" ما كان يعتقد التلاميذ حقيقة، فإن الرسالة التى كانت تنقلها هذه المناهج ومقررات الدولة والكتب المدرسية تشير بكل دقة إلى المعتقدات التى كان يعتنقها خبراء التعليم،

وواضعو التخطيط والكتاب الأكاديميون، والمعلمون أنفسهم الذين كانوا يشجعون على إحياء مشروعات التعليم الوطنية في مصر الملكية الدستورية. وفي مقابل ذلك نرى أن تقييم مدى استجابة وتقبل هذه الرسالة من قبل التلاميذ مغامرة خطيرة. فمذكرات التلاميذ في ذلك الوقت بعيدة عن متناول أيدينا، بالإضافة إلى أن اللقاءات مع هؤلاء الذين كانوا تلاميذ في تلك الفترة الممتدة من ١٩١٩-١٩٥٢ بدلا من أن تلقى الضوء على الاتجاهات والخبرات المعاصرة في ذلك الوقت، أو تحاول إنعاش ذاكرتهم للعودة إلى تجاربهم وخبراتهم، فهي تثير التساؤل عن مدى تأثير العقود الفاصلة في تحريف الذاكرة^(٦٤).

ومع ذلك يوجد مصدر آخر في هذا السياق لم يتم دراسته جيدا، يتمثل في مجلات الطلبة التي نشرت آنذاك والتي توفر بعض المعلومات عن وجهة نظرهم. ففي خلال السنوات من ١٩٢٠ إلى ١٩٥٢ كان التلاميذ في المدارس الابتدائية والثانوية يحررون العديد من المجلات. وسواء أكانت هذه المجلات بمبادرة من النوادي الأدبية المدرسية أو الإدارات نفسها فقد كانت تصدر فصليا أو سنوياً. إلا أن مصداقيتها في تفسير اتجاهات الطلبة محل مناقشة: فقد كان المعلمون هم القائمون على تحريرها، وكانت الإدارة المدرسية تدقق في ضرورة الخضوع إلى توجيهاتها التي تبلورت في مقالات في اللغة، أو التاريخ، أو دروس التربية المدنية. ومع ذلك فرغم تغطيتها لسلسلة عديدة من الموضوعات العامة، فإن المادة المستقاة منها أثبتت تميزها من ناحية أنها كانت صدى لكل الأفكار التي تعرضنا لها سابقاً. فرسوم الغلاف في هذه المجلات كانت تشمل صوراً تجمع ما بين الأشكال الفرعونية وممثلى العصر الحاكم^(٦٥). وبالمثل كان التلاميذ يكتبون كثيراً عن الحضارة المصرية القديمة وأثارها الباقية بناءً على الرحلات المدرسية لمناطق الآثار التي كانوا يقومون بها^(٦٦). وكانت هذه المقالات عادة مصحوبة بقصائد وطنية^(٦٧) وموضوعات عن عصر محمد علي، ثم مناقشات ممتدة عن معنى الأمة وقدر مصر الحضاري مع التأكيد على الرباط الذي يجمع بين الفراعنة والعهد الحاكم، والوطنية والحدائق^(٦٨). هذا بالإضافة إلى أن المقالات عن الجيش

المصري كان لها مكان بارز في تلك المجالات أكثر من المفاهيم السائدة التي يثيرها العصر الدستوري^(٦٩). وفي هذا المعنى يمكن القول بأن التلاميذ في الفترة ما بين ١٩٢٠ وحتى ١٩٤٠ أظهروا اهتماماً مفرطاً بجوانب معينة من مناهجهم القومية.

وربما كان أكبر دليل على استيعاب التلاميذ المصريين للرسالة التي كانت تبثها المناهج يبدو واضحاً من خلال تلك القصيدة التي تعدد أبطال مصر وصفاتهم، والتي نشرت في مايو ١٩٣٩ في مجلة مدرسة حلوان الثانوية. فمن ضمن الأبطال الذين أشارت إليهم وهم عمرو بن العاص وصلاح الدين الذين ساهموا في رفعة شأن مصر كدولة إسلامية، وفي تحقيق سيطرتها "الاستقلالية" في العالم الإسلامي، كان يوجد أيضاً مينا وتحتمس ومحمد علي. وتكمن عظمة مينا في توجيه مياه النيل "لرى الوادى كما نراه الآن، وهى خطوة جبارة، تتحقق لنا الفائدة منها سنوياً". أما بالنسبة لتحتمس - رغم أن حكمه كان منذ أمد بعيد - فإن اسمه "كان يتردد دائماً في كل العصور" بسبب فتوحاته وانتصاراته التي حققت له المجد "وأصبحت مصر جوهرة الأمصار وملكة البحار في ذلك العصر". أما محمد علي فقد كان أعظم عظماء المصريين:

"كان من عظماء الرجال، يمتلك قوة عزم وتصميم، ورؤية ثاقبة، بنى الخزانات والسدود، وقضى على المماليك عندما أحس بأنهم تسببوا في ظهور الفوضى، كما جارب في المشرق وفي اليونان، وأخضع الحجاز والسودان"^(٧٠).

ومثل الفراعنة، فإن مؤسس هذا العصر الذي استمر حتى عام ١٩٥٢ نظم السياسة الداخلية للبلاد، وساهم في نهضتها المادية والصناعية، وأعاد لمصر سيطرتها الإقليمية بفضل صفاته الأصيلة التي تستحق المحاكاة. وقد تبنى التلاميذ هذه الأفكار التعليمية في شكلها الأولى. وكما تشير هذه التعليقات القليلة، فإن مزيداً من تلك المادة يصبح مطلباً حيوياً، حيث إنه يمكنه أن يربط بين دروس التاريخ للمواطنين المصريين خلال الفترة الدستورية.

ويستبين من خلال هذه المناهج أن الدرس الرئيسى المستخلص يتضمن الربط بين حكم مركزى قوى - سواء أكان فرعونياً، أو ملكياً أو برلمانياً - وبين السيادة الوطنية، فالطاعة للسياسيين الأرفع مقاماً فى المجتمع أو الكبار داخل الأسرة سوف يضمن التماسك والقوة وبالتالي الحفاظ على النظام ومنع الفوضى. وعلى نفس المستوى من الأهمية، فقد تعرف التلاميذ فى المرحلة ما بعد ١٧٩٨ على حقيقة مصرية وهى التقدم المنظم فى اتجاه حكومة ديمقراطية، بمعنى أن ما شاهدوه فى مصر خلال مراحل عمرهم لم يكن أجنبياً أو أوروبياً فى جوهره، بل كان خاصية مصرية برعوا فيها منذ زمن، وعبرت عنه المناهج تماماً استناداً إلى معتقدات خبراء التعليم وصناع السياسة^(٧١). ومع ذلك فلم يكن التقدم نحو الديمقراطية ليتحقق إلا عن طريق الأخذ بالنظام فى مقابل الفوضى، رغم أنه بعيداً عن سنوات حكم محمد على - فإن هذا المطلب برز بصفة خاصة فيما كتب عن القائد أحمد عرابى الذى ظهر فى مناهج المدارس الابتدائية كبطل لا منازع فيه أثناء ثورة ١٨٨٢ ضد الإنجليز. وفى نفس السياق، فطبقاً لما يقوله رفعت، كانت حركة عرابى قد ظهرت بهدف "إرساء حكم دستورى فى البلاد، وضمان مبادئ الحرية والعدالة والمساواة للجميع، "متوازنة مع الثورات الدستورية التى اندلعت فى أوروبا والتى تميز تاريخ القرن التاسع عشر". مما يؤكد القول بأن مصر انضمت فعلاً إلى الحضارة الغربية.

ومع ذلك فإن نظام العمل للشعب وللحاكم الذى يستهدف الاستقلال الوطنى أصبح أيضاً المعيار للحكم على عرابى. فقد فشلت الحركة لأنها وقفت جهاراً ضد الخديوى. وقد حاولت مادة التاريخ أن تنتقل إلى التلاميذ لإحساس بأن الخاصية الأولى فى تاريخ مصر الحديث - والأكثر ملاءمة لأحوال الدولة - هى السعى السلمى المنظم للشعب والحاكم لتشكيل حكومة يتشارك فيها الطرفان وتسعى إلى تحقيق الاستقلال الوطنى. وفى الواقع أن الوطنية - إذا تم تفسيرها بدقة فهى تشمل الحكم الديمقراطى الشعبى والملائم فى نفس الوقت. وبصفة عامة فإنه منذ أن استقر حكم راسخ على ضفاف النيل تميزت مصر عن بقية دول الشرق (مثل العثمانيين والعرب) التى كانت تحكمها الاضطرابات والقلق. واستمر هذا الانحراف عن شرق عاجز سياسياً خلال

القرن العشرين حين بدأ مجتمع سياسى مصرى واع له إرادة عامة فى العمل بتناغم، وبالتالي أصبحت مصر مماثلة للدول الأوروبية وتستحق سياسة تشابه تلك التى توجد فى أوروبا، وكان هذا يعنى مناصرة الحرية، والمشاركة السياسية الديمقراطية والسيادة الوطنية. ومع ذلك فبدلاً من الانقلابات العسكرية التى تطيح بالقيادة الشرعية، كان يجب على المواطنين من الشباب المصرى أن يتذكر أن السياسات المؤثرة هى التى تحتضن جميع طبقات المجتمع فى نفس الوقت الذى تحترم فيه النظام، والملكية والنخبة السياسية.

درس تاريخى ثانى يتكرر فى المناهج الدراسية ليستوعبه التلاميذ شمل الاحتياج إلى استمرارية وجود رابطة الاحترام والولاء الذى احتضن ميراث الفراعنة واستحوذ على مشاعر السلف والذى جسّد أهداف الوطن والسعى إلى صالح الشعب المصرى. ومرة ثانية تعلم تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية هذه الدروس التى امتدت آثارها أيضاً إلى أبناء وأحفاد محمد على. وقد تكررت هذه الدروس على مستوى مرحلتى التعليم متزامنة مع بقية المواد الأخرى غير التاريخ.

ثالثاً، وبالعودة إلى الوراء وإلى زمن الفراعنة، حاول كتاب المناهج أن ينقلوا إلى المواطنين الجدد الإيمان بالمقومات الثابتة للشخصية المصرية التى يمكنها أن تحقق السيطرة الإقليمية. وقد سمحت هذه الصفة الوطنية للشعب المصرى نفسه أن يشكل مصيره، فى نفس الوقت الذى يميزه جوهره عن بقية جيرانه. ومن المهم أن تكون هذه الصورة واضحة فى الأذهان فى علاقة مصر ببقية الدول العربية، فالثقافة الحالية تؤكد الابتعاد عن فكرة الفراعنة والوطنية المصرية التى تمجد عصر محمد على وتوجه إلى سلوك عربى إسلامى عام اعتنقه المثقفون والمفكرون فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن^(٧٢). ومع ذلك ظلت المواد الدراسية تركز على هوية مصر الفرعونية حتى الخمسينيات مع ربط العصر القديم بعصر محمد على لتشكيل سلوك الشباب المصرى. أما من ناحية العرب فإن المناهج الدراسية الحكومية فى السنوات ما بين العشرينيات وحتى الانقلاب العسكرى فى ١٩٥٢، لم تغتبرهم من أقارب المصريين. واكتفت المناهج

الابتدائية فى العشرينيات وما بعدها بتصوير العرب "كأمة لها أمجادها، ولها جنورها العريقة، وتتميز بالقوة والثقافة الرفيعة، وتجنح إلى الحرية واحترام الذات" ومع ذلك فقد كان العرب قبل الإسلام مختلفين عن المصريين، بل إن تناول تاريخهم كان يأتى فى أجزاء من الكتب المصرية بحيث لا يندمج تاريخهم مع تاريخ المصريين. ومن هنا كانت نظرة التلاميذ إليهم كشعوب مختلفة عنهم وإن تكن لها صفات مميزة تخلق بينهم الكثير من الألفة.

وفى المدارس الثانوية أوردت المناهج فوارق لا تكاد تُحس بين العرب ومصر، فقد كان تناولها للعرب قبل الإسلام وفى عصوره الأولى يحمل الكثير من الإيجابية. ورغمًا عن "تأسيس الدولة العربية ووصف الحضارة الإسلامية" والتأكيد على أن الإسلام "جعل من العرب أمة واحدة... تتشابه فى الأصالة واللغة والمشاعر" فإن المناهج المصرية فسرت العصر الأول للإسلام وعصر الدولة الأموية بأنها ظاهرة عربية تمامًا. وبمعنى آخر بقدر ما كانت الديانة الفرعونية تعنى بالنسبة لقدماء المصريين، أصبح الإسلام بنقائه الأصلية تجربة العرب الوطنية. وإذا نحينا جانبًا ما عرضه المعلمون، فإن الرسالة المهمة التى تم توصيلها أن العرب كانوا يتصفون بالشهامة والكرم، وتجمعهم وحدة اللغة والدين والتاريخ. ولكن فى نفس الوقت فإن المصريين شعب مميز. ورغم الطبيعة المشتركة بينهم فإن المناهج الدراسية لم تشر إليهم ككونهم أقارب للمصريين، وبالتالي فقد كانت الأفكار التى تركز على الفراعنة، وتميز المصريين، وعلى الإسلام والحداثة والمودة والتقارب مع العرب بالنسبة لوجوده للمعلمين الوطنيين والمدرسين بصورة أكثر مما كان مفترضًا فى الثقافة المعاصرة.

ورابعاً - كما نرى هنا - فقد أكدت المناهج للتلاميذ أن أجدادهم بدلاً من وصمهم بالسلبية، كانوا مشاركين نشطاء فى تاريخ مصر وخاصة فى العصر الحديث، وبالتالي فإن المناقشة هنا تراجع المحاولات الحديثة فى تحليل المناهج^(٧٣). مما يستبين معه أهمية ملاحظة أن رواية التاريخ فى المناهج المدرسية والتى أبرزت مساهمات المصريين العامة فى رصد تاريخ مصر تعارض أيضاً اتجاهات المؤرخين المصريين الأكاديميين

فى السنوات ما بين العشرينيات والأربعينيات من القرن العشرين. ويمثل هذا الاتجاه كتاب محمد شفيق غربال "بدايات القضية المصرية"، فهو يتفق فى نواحٍ عدة مع طريقة عرض المناهج التى تقول بأن "محمد على هو منشئ مصر الحديثة"، كما أنه يعلن بصراحة أن "محمد على صنع مصر الحديثة"، وبالمثل فكما جاء بالمناهج التى غطت فترة حكم محمد على وعصر الفراعنة وأشارت إلى ما تميزت به تلك الفترتان من وجود حكومة مركزية قوية، فإن كتاب "بدايات القضية المصرية" أثنى على "النظام المنهجى فى الحكومة" و"السلطة المركزية المحكمة" والتى أمكنها أن "تخلق اتجاهًا عامًا صحيحًا فى السلوك الأخلاقى". كما اتفق الاثنان أيضًا على أن عصر ما قبل محمد على كان عصرًا طويلًا مظلمًا بعد فترة العظمة والازدهار التى تميز بها عصر سنوات حكم الفاطميين والأيوبيين^(٧٤).

أما فيما يتعلق بالشعب المصرى نفسه فقد كانت رؤية أطفال المدارس والشباب المراهق لتاريخ مصر تختلف عن رؤية قراء غربال. ففي حين ما كانت المناهج تعزز فكرة اهتمام شعب وادى النيل بالنواحي السياسية والاجتماعية، وإحساسهم بالهوية المصرية بدءًا من عام ١٧٩٨، إلا أن هذه الرؤية كانت غائبة إلى حد بعيد فى كتاب غربال، حيث جاءت الإشارة إلى أن الشعب كان فاقد التمييز، يتسم بالفتور واللامبالاة والرجعية، ويقف عقبة أمام محمد على، وطريق التقدم. وكان المصريون بما فيهم "من لا مبالاة... وهى سمة من سمات الشرق" لا يرقون إلى مستوى الظروف التى هياها قدوم الفرنسيين إلى مصر، وحتى تلك الرموز الوطنية والقيادات الدينية - التى أثنت المناهج على زعامتهم ومناصرتهم لمحمد على - كانت تطفئ عليهم "الرغبة فى جمع الثروات والاستحواذ على السلطة"^(٧٥). وفى مواجهة مثل هذا "الشعب البائس" فإن "الحكم الجديد لم يأل جهدًا فى فرض نظم صارمة عليهم" رغم اتجاههم الغريزى إلى الكسل^(٧٦). وباختصار، فى حين ما كان الأكاديميون ومخططو التعليم يثنون على العهد الحاكم ويؤكدون تقدم مصر نحو الحداثة، ألقى غربال نور المصريين أنفسهم. وعلى النقيض من ذلك فإن مادة التاريخ المدرسى وصداها الذى تردد فى فصول مادة

التربية الوطنية واللغة جاهدت لأن تصع السلف فى الماضى القريب فى دور الفاعل وليس مجرد المفعول به، فى حين وفرت المؤشرات التى تتطلبها المواطنة فى المستقبل. وبالتالى فنحن نرى هنا تعدد المفاهيم بل تعارضها بشأن التاريخ الوطنى لمصر فى تلك الفترة من قبل مشاهدين مختلفين. وبالنسبة لتلاميذ المدارس فإن التاريخ الوطنى كما استقبلوه كان يتشكل بصورة منهج سردي مبرمج عن عمد مركزاً اهتمامه أكثر من الدقة التاريخية فى تدريس الاتجاهات الاجتماعية والسياسية التى تتواءم مع دولة يسيطر عليها حكم ملكى يستحق الولاء والشعور بالرابطة العاطفية، بالإضافة إلى نظام برلمانى يعزز النظام والمشاركة فى الحكم.

الهوامش

(١) موريس هلبواتس، On Collective Memory، طبعة، ترجمة، وتقديم لويس أ. كوسر (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٩٢).

(٢) ميروسلاف هروش،

From National Movement to Fully- Formed Nation: The Nation-Building Process in Europe, New Left Review 1998,1993, 4-6.

(٣) إيريك هوبسبون Mass-Producing Traditions: Europe, 1870-1914 في طبعات هوبسبون وتي. رينجر The Invention of Tradition (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٣) ص ٢٦٤-٦٥. انظر كذلك: كتاب هوبسبون Nations and Nationalism since 1780 (الطبعة الثانية، كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٢)، ديفيد ميلر، On Nationality (أكسفورد: مطبعة كلاريندون، ١٩٩٥) ١٤١-٤٤، ايتيان باليار،

The Nation Form: History and Ideology في كتاب باليار وايمانويل فاليرشتاين، Race, Nation. Class: Ambiguous Identities.

لندن: فرسو، ١٩٩١) ٩٠-٩٦.

(٤) انظر: أنطوني جورمان، Historians, State and Politics in Twentieth-Century Egypt: Contesting the Nation (لندن: روتلج كورزون، ٢٠٠٢) ١٣، وألبرت حوراني Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939 (لندن: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٣) ٦٧-٨٢.

(٥) أنتوني جورمان Historians, State and Politics in Twentieth-Century Egypt 22-27 وباراك أ. سالموني،

Pedagogies of Patriotism: Teaching Socio-Political Community in Twentieth Century Turkish and Egyptian Education.

(رسالة دكتوراه للمناقشة، جامعة هارفارد، ٢٠٠٢) ص ١٢٥-٤٧، انظر كذلك: الفصل الذي كتب آرثر جولدميت في هذا الكتاب.

(٦) شفيق غربال تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية، الجزء الأول (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٢)، شفيق غربال،

The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali: A Study in the Diplomacy of the Napoleonic Era.

(لندن: جي. روتليدج، ١٩٢٨) ٢١٠.

(٧) وزارة المعارف العمومية "منهج التعليم الابتدائي للبنين والبنات" مؤقت (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٣٠) ٤٧-٤٩ .

(٨) انظر: باراك سالموني، Pedagogies of Patriotism 842، ١٩٩٩، ١٠٠١، ١٠١١ .

(٩) وزارة المعارف العمومية "مدارس الحكومة المصرية: منهج التعليم الابتدائي للبنين والبنات" (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٢٤) .

(١٠) وزارة المعارف العمومية "منهج التعليم الابتدائي للبنين والبنات" مؤقت (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٣٥) ٤٧ .

(١١) وزارة المعارف، الحكومة المصرية "منهج التعليم الابتدائي للبنين والبنات" (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٢٥)، وبالتالي "ابتدائي للبنين والبنات" ٢٥ .

(١٢) "تقرير وزير المعارف عن التعليم الثانوي (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٣٥) ٢٥ .

(١٣) محمد أمين حسونة "تقرير مهم" مجلة التربية الحديثة ٩: ١ أكتوبر ١٩٣٥، ٤ .

(١٤) انظر: وزارة المعارف العمومية، "مناهج المدارس الابتدائية للبنين والبنات" (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٤٩)، وشرحه "منهج التعليم الثانوي للبنين" (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٤٧) وشرحه "مناهج المرحلة المتوسطة للبنين والبنات" (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٤٩) .

(١٥) انظر: بونالد أم. ريد،

Who's Pharaohs? Archeology Museums and Egyptian National Identity from Napoleon to world War One.

Indigenous Egyptology: the Decolonization of a Profession? (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٢) وشرحه

مجلة المجتمع الشرقي الأمريكي ٢: ١٠٥ (١٩٨٥) ٢٣٣-٤٦ .

(١٦) وزارة المعارف العمومية، مدارس الحكومة المصرية: التعليم الابتدائي للبنين والبنات ٧، ١٤، ومن بعدها الابتدائي ٢٤ .

(١٧) ميجور سافاج، سليم حسن أفندي، الشيخ أحمد الإسكندري، "عمر الإسكندري أفندي، صفوة تاريخ مصر والنول العربية، الجزء الأول" (القاهرة: مطبعة المعارف، ١٩٢٨) ٥، صفوة تاريخ مصر STMI. وهي الطبعة الحادية عشر للنص، والذي يرجع إلى عام ١٩١٩ .

(١٨) وزارة المعارف العمومية، منهج التعليم الثانوي (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٣٥) ١٥٥، ومن بعدها ثانوي ٢٥ .

(١٩) صفوة تاريخ مصر STMI .

(٢٠) ابتدائي ٢٤، ١٤ .

(٢١) صفوة تاريخ مصر STMI 13-14، ١٥-١٦ .

(٢٢) نفس المرجع، ٢٢، ٢٤ .

- (٢٣) ابتدائي ٢٤، ١٤، ١٥ .
- (٢٤) صفوة تاريخ مصر STM 24، ٢٧ .
- (٢٥) ويشمل هذا أحمد لطفى السيد ومحمد حسين هيكل، انظر: إسرائيل جرشوني وجيمس جاكوفسكى Egypt, Islam, and the Arabs (أوكسفورد: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٨٦)، ١١-١٥، ٣٣-٣٩ .
- (٢٦) أحمد العوامري، أحمد على عباس، عوض لطفى أحمد، عباس حسن، المطالعة المختارة للمدارس الابتدائية الجزء الثالث، السنة الثالثة (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٤٦) ١٥٢-١٥٤، ٣٣٥ انظر كذلك: أ. مصطفى، م. أ. الإبراشي، م. ص. عبد اللطيف، أ. م. الشافعي، عبد العظيم، ح. عبد القادر، المطالعة العربية للمدارس الابتدائية، الجزء الثالث السنة الثالثة (القاهرة: مطبعة المعارف، ١٩٤٥)، ٣٩ .
- (٢٧) صفوة تاريخ مصر STM ٢٩، ٣٦-٣٧، ٤٦-٤٧ .
- (٢٨) نفس المرجع، ٣٦ .
- (٢٩) محاضرة للمعلمين، انظر: أمير بقطر، "أهم مبادئ التربية"، مجلة التربية الحديثة ١:٧ (سبتمبر ١٩٣٣)، ١٩، جرجس ميخائيل، "النظام في مدارسنا"، مجلة التربية الحديثة ٢:٢٢ (ديسمبر ١٩٤٨)، ١٢٧-٢٩، ولنفس القيم والمبادئ التوجيهية للدولة وكالتصوص التي تشير إلى نفس المعنى، سواء في الإشارة للعصر الفرعني، أو الواجبات العصرية للمصريين، انظر: "ابتدائي البنين والبنات" ٣٥، ٢٤-٢٧، العوامري وآخرون، "المطالعة المختارة للمدارس الابتدائية، الجزء الثالث، السنة الثالثة، ٣٩-٤٠، ٦٥، ٧٦-٧٥، ١٤٠، أحمد العوامري، أحمد على عباس، عوض لطفى أحمد، عباس حسن، المطالعة المختارة للمدارس الابتدائية، الجزء الثاني، السنة الثانية (القاهرة: مكتبة الهلال (n.d.)، ٩٥-٩٦ .
- (٣٠) نفس المرجع، ٨٣، ٨٧، ٩٠، ٩١ .
- (٣١) مثلما ناقشت ميساكو إيكيدا في الفصل الخاص بها، يوجد مسار مختلف تماماً في التعليم الابتدائي (الأولي/الإلزامي). المجانية، كانت تستهدف الفئات ذات المستوى الاقتصادي الأقل سواء في الحضر أو الريف. كان في استطاعة المؤهلين استكمال دراستهم في المدارس الثانوية ولكن بصنعوية كبيرة. لسياسات التعليم في فترة الاحتلال البريطاني، انظر: ديفيد سي. كينزي، Egyptian Education under Cromer: A Study in East-West Encounter in Educational Administration and Policy, 1883-1907.
- (مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة هارفارد)، وأم. ريتشارد فان فلاك، British Educational Policy in Egypt Relative to British Imperialism in Egypt, 1882-1922.
- (مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة ويسكونسن، ١٩٩٠).
- (٣٢) ثانوي، ٣٥، ١٥٨ .
- (٣٣) إبراهيم نمير سيف الدين، زكي نجيب هاشم، مصر في العصور القديمة (القاهرة: مطبعة المعارف، ١٩٣٩-٤٠)، ٩، ٣، ٧٣، ٨٧، ٨٨ .
- (٣٤) انظر: ج. إيجار، م. شفيق غريال، كتاب التاريخ القديم، لتلاميذ السنة الأولى الثانوية (القاهرة: مطبعة المعارف، ١٩٣١)، ٤٥-٤٨ .

- (٣٥) سيف الدين على هاشم "مصر في العصور القديمة"، ٩١.
- (٣٦) ثانوى، ١٥٩، ٣٥.
- (٣٧) انظر: "حديث النجاح مع رجل ناجح: ويصا واصف" الهلال ٤:٣٦ (فبراير ١٩٢٨)، ٣٩٧، محمد على علوية، "مبادئ في السياسة المصرية" (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٢)، ٢٠٢-٢٠٥، محمد حسين هيكل، "مذكرات في السياسة المصرية، الجزء الثانى، عهد الفاروق" (القاهرة: مطبعة النهضة المصرية، ١٩٥٣)، ١٠٤-١٠٦.
- (٣٨) انظر: عبد العزيز البشرى، "التربية الوطنية" (القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٩٢٨)، ٦-٢، محمد رفعت وعبد العزيز البشرى، "التربية الوطنية للمدارس الثانوية" (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٣٧/١٩٤٩)، ٣-٢.
- (٣٩) انظر: باراك سالمونى "Pedagogies of Patriotism" 780-819، ٩٤٠-٩٤١، ٨٢-٩٧٤، فيروزيه كاشانى ثابت.
- Frontier Fictions: Shaping the Iranian Nation, 1804-1946 (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٠).
- (٤٠) سيف الدين على، هاشم، "مصر في العصور القديمة"، ١٢٨، ١٤٣، ١٤٥.
- (٤١) نفس المرجع، ١٥٥، ١٥٨، ١٧٤.
- (٤٢) نفس المرجع، ١٥٩، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٧.
- (٤٣) صفوة تاريخ مصر STMI، ٨٣، ٨٧، ٩٠، ٩١.
- (٤٤) ميجور سافاج، سليم حسن أفندى، سيخ أحمد الإسكندري، عمر الإسكندري أفندى، "صفوة تاريخ مصر والدول العربية، الجزء الثانى" (القاهرة: مطبعة المعارف، ١٩٣٠)، ٤٤، ٤٥، ٤٨، وبالتالي صفوة تاريخ مصر STM2.
- (٤٥) صفوة تاريخ مصر STM2، عمران فرج الجمل، "تاريخ مصر الحديث، لسنة رابعة ابتدائى" (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٣٠)، ٢، وبالتالي THM.
- (٤٦) تاريخ مصر الحديث THM، ٨٣، عيد الرحيم محمد عثمان وشحاتة عيسى إبراهيم "تاريخ مصر الابتدائى، الجزء الثالث لسنة رابعة ابتدائى" (القاهرة: مكتبة المطبعة الحديثة ١٩٢٨-٢٩)، ١٤، ١٥، وبالتالي تاريخ مصر الابتدائى TMI.
- (٤٧) تاريخ مصر الحديث TMI، ٢٨.
- (٤٨) تاريخ مصر الابتدائى TMH، ٣٠، ٢٥.
- (٤٩) تاريخ مصر الابتدائى TMI، ٣٧.
- (٥٠) تاريخ مصر الابتدائى TMI، ٧٠.
- (٥١) تاريخ مصر الحديث TMI، ٤٠، ٤٢، ٤٦.
- (٥٢) تاريخ مصر الابتدائى TMH، ٣٥.
- (٥٣) TMI، ٤١، ٤٥.

(٥٤) انظر: خالد فهمي All the Pashas Men: Mahomet Ali, His Army, and the Making of Modern Egypt (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٧)، ف. روبرت هانتز،

Egypt Under the Khedives, 1805-1879: From Household Government to Modern Bureaucracy

(بيتسبورج: مطبعة جامعة بيتسبورج، ١٩٨٤)، كنيث كونو،

The Pashas Peasants: Land, Society, and Economy in Lower Egypt, 1740-1858

(كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٢)، جوديث تاكر Decline of the Family Economy in

Mid-Nineteenth Century Egypt," Arab Studies Quarterly 1, 1980. 245-71.

(٥٥) تاريخ مصر الحديث TMH، ٤٢ .

(٥٦) تاريخ مصر الابتدائي TMI، ٦٧ .

(٥٧) انظر على سبيل المثال: محمد رفعت ومحمد أحمد حسونة، "معالم طريق العصور الوسطى" (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥١)، محمد رفعت وعبد العزيز البشري "التربية الوطنية للمدارس الثانوية.

(٥٨) انظر: أنتوني جورمان، Historians, State and Politics in Twentieth-Century Egypt 22-23، خير الدين الزركلي "العلم" (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٦)، ١٢٨ .

(٥٩) محمد رفعت "طريق مصر السياسي في الأزمنة الحديثة، للمدارس الثانوية" (القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٩٤٣)، ٥٠-٥١، ٥٥، ٥٢، ٥٩ .

(٦٠) نفس المرجع، ٦٥، ٦٩، ٧٠، ٧٣ .

(٦١) نفس المرجع، ٧٨، ٨٦، ٨٨، ١٢٨-٢٩ .

(٦٢) نفس المرجع، ٢٧، ٢٩-٣١، ٣٧، ٤٢ .

(٦٣) لجمهورية تركيا، انظر باراك سالوني .

Turkish Knowledge for a Modern Life: Innovative Pedagogy and Nationalist Substance in Primary Schooling, 1927-1950 "Turkish Studies 4:3 (2003)

103-44، بالنسبة لفلسطين الصهيونية، انظر زيرويا فيل،

Recovered Roots: Collective Memory and the Making of Israeli National Tradition.

(شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٩٥) ٢٩-١٤٤، راشيل البوين درور،

Israeli Education: Changing Perspectives," Israel Studies 6: 1 (2001).

76-100، بالنسبة لإيران انظر: رودي ماثي،

Transforming Dangerous Nomads into Useful Artisans, Technicians, Agriculturalists: Education in the Riza Shah Period.

The Making of Modern Iran: State and Society under Riza Shah في طبعة ستيفاني كروني (لندن: روتلج، ٢٠٠٣).

(٦٤) لاستخدام مدروس لمذكرات في هذا الغرض، انظر: بنيامين سى. فورتنا

Imperial Classroom: Islam, the State. and Education in the Late Ottoman Empire.

(لندن: مطبعة جامعة أكسفورد ٢٠٠٢).

(٦٥) على سبيل المثال، مجلة مدرسة المحلة الكبرى، مجلة مدرسة النهضة المصرية بالقاهرة، مجلة المدرسة الخديوية.

(٦٦) صلاح الدين محمد حمري "حساب القبر عند قدماء المصريين" المنصورة: مرآة البيئة المدرسية والإقليمية، مدرسة المنصورة الثانوية ١٣ (١٩٣٨)، ٦٠-٦٢، جرجس فراج "أدب الفراغة"، مجلة مدرسة الأقباط الكبرى ١٠ (١٩٤٦)، ٩٦-١٠٠، أحمد صفوت "قادش...."، صحيفة مدرسة الأهرام ١ (١٩٣٢)، جبران نصيف محروس، "التاريخ: قدماء المصريين" مجلة مدرسة الفيوم الثانوية (١٩٣٣)، ٧٤-٧٦، عبد المجيد عمار، "مصر ومجدها الخالد بآثارها" مجلة المدرسة مدرسة الثانوية الأميرية ٢:١ (١٩٢٧)، ١٦-١٧، عائشة قنديل، "وقفه أمام النيل"، مجلة مدرسة الأميرة فائزة الثانوية ١:١ (١٩٣٥)، حسن عبد الحليم اليماني، "مصر القديمة" مجلة المدرسة الخديوية ١:٥ (١٩٢٥)، نجيب سليمان، "قدماء المصريين: أخلاقهم، عقائدهم، عنايتهم بوطنهم"، مجلة صبورة الثانوية الأميرية للبنين ٢ (١٩٢٩)، ٦١-٦٣.

(٦٧) على سبيل المثال، على شاهين، "يا مصر نحن لك الفدا" مجلة المدرسة الخديوية ٣:٥ (١٩٢٥).

(٦٨) انظر حلوان م.، "الوطنية"، محمد وحيد الدين الرالى، "التدريب العسكرى"، نفس المرجع، "جولة في مدينة رمسيس"، كلها في مجلة مدرسة حلوان الثانوية (مايو ١٩٢٩)، ٤٩، ٦٠-٦١، ٧٠-٧٣.

(٦٩) جمال الدين سيد، الجيش المصرى، المنصورة مرآة البيئة المدرسية والإقليمية، مدرسة المنصورة الثانوية ١٣ (١٩٣٨)، ٨٢-٨٣، "التدريب العسكرى"، مصطفى سمير حيدر "حياتنا الاجتماعية: الحفل العسكرى"، محمد عبد الرحمن، "الجندي أحق بالعناية من الفلاح"، نفس المرجع، "مع جيش إبراهيم"، كلها في صحيفة مدرسة الخديوى إسماعيل ٣ (١٩٣٩)، ٧-١٠، ١١-١٢، ٣١-٣٢، ٥٢-٥٤، محمد عريفة البشرى، "لماذا أحببت أن أكون جندياً"، مجلة مدرسة المحلة الكبرى الثانوية (١٩٣٩)، ١٥-١٦، هنرى إبراهيم رزق، "الجندي المجهول"، مجلة المدرسة الأبدية، القسم المصرى ١ (١٩٣٦-٣٧)، ٧٠-٧١، رياض توفيق، "دمعة على قبور الشهداء"، مجلة المدرسة الإبراهيمية الثانوية الأميرية ١:١ (١٩٢٦)، ١٥-١٦.

(٧٠) عبد الحميد أبو سمارة، "عظماء الرجال"، مجلة مدرسة حلوان الثانوية (مايو ١٩٢٩)، ٣٦-٣٧.

(٧١) انظر: أمير بقطر، "الحرية: ما لها وما عليها" الهلال ١:٤٥ (ديسمبر ١٩٣٦)، ٧٧-٨١، محمد حسين هيكل، "الحرية ومدلولها الإنسانى"، الهلال ١:٤٥ (ديسمبر ١٩٣٦)، ١٢-١٣، نفس المرجع، "الديمقراطية في مصر"، الهلال ٣:٣٤ (ديسمبر ١٩٢٥)، ٤٦-٤٧.

(٧٢) انظر: إسرائيل جرشونى وجيمس جانكويسكى، Egypt. Islam, and the Arabs, and defining the Egyptian Nation.

(كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٥). للاقتراب أكثر من الموضوع، انظر: ناداف سافران،

Egypt in Search of Political Community: An Analysis of the Intellectual and Political Evolution of Egypt, 1804-1952.

(كامبريدج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٦١).

(٧٣) لوصف السلبية في المناهج المصرية، انظر: جابريل بيتربرج،

The Tropes of Stagnation and Awakening in Nationalist Historical Consciousness.

في طبعة جرشوني وجانكويسكي، Rethinking Nationalism in the Arab Middle East

(نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٩٧)، ٥٨-٦٠.

(٧٤) شقيق غربال،

The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali: A Study in the Diplomacy of the Napoleonic Era 209, 73, 284.

(٧٥) نفس المرجع، ٢٠٧-٢٠٩ :

(٧٦) يوسف م. شقيري Modern Arab Historiography: Historical Discourse and the Nation-State

(لندن: روتلدج كودزون، ٢٠٠٣)، ٨٧، ٩٣.

٧- حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢

والتفسير التاريخى

آن كلير كريوف

كان هذا اليوم كابوساً حقيقياً، بل وكان أسوأ
الأيام فى تاريخ القاهرة الحديث

(R.T. Almanach du Progrès Egyptien, 1953)

كان حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ حدثاً مسيطراً فى تاريخ مصر الحديثة ومثار مناقشات عنيفة بين المؤرخين والصحفيين، وحتى الآن ما زال السؤال الذى يتردد هو: من أشعل النار فى القاهرة، ومن كان المسئول السياسى الذى يمكن إلقاء اللوم عليه. فمنذ البداية كانت النظرة إلى حريق القاهرة تعتبره مؤامرة سياسية. كما وأن كون المتظاهرين من الناس العاديين كانوا اللاعبين الأساسيين الذين فجروا هذه المؤامرة نفاهم المؤرخون المصريون تماماً مما أكد غياب الدراسات التاريخية للمظاهرات الاجتماعية التى كانت تنشب فى مصر الحديثة. ومن ثم فإن التحرك الوطنى فى ٢٦ يناير ما زال ينظر إليه على أنه "تحرك الأمة المصرية كشخص واحد". وعلى العكس من ذلك، فإن هذه الفصل يؤكد كيف أن اهتمامات لاعبين مختلفين وأفعالهم يمكن أن يضمهم تحرك واحد. فقد كانت التفاعلات بين المتظاهرين والسياسة قائمة^(١) إلى الدرجة التى كانت أحداث ٢٦ يناير ١٩٥٢ بمثابة ضربة قاصمة للأمة بأكملها. بل إن حريق القاهرة كان رمزاً لإدانة الشعب لفشل النخبة الليبرالية المصرية فى تحقيق الاستقلال أكثر من كونه مؤامرة بريطانية. (شكل ١/٧-٢/٧)

يستهل هذا الفصل رؤية لصاحبة الإسماعيلية من خلال ما يتذكره مواطنوه قبل حريق القاهرة، ثم يستطرد بعد ذلك ليصف الجمهور الذى استهدفه الشغب والمتظاهرون وبعدها تحليل المخاطر السياسية التى كانت وراء أزمة ٢٦ يناير. وفى ضوء إلى التفسيرات المختلفة لهذا الحريق أثناء حكم عبد الناصر وأنور السادات وحسنى مبارك سوف يشرح هذا الفصل تأثير الأيديولوجيات على كتابة التاريخ. ولأن استخدام حريق القاهرة أعطى شرعية لإعادة ترميم وسط القاهرة فإن هذه الفكرة يظل لها مغزاها.

الإسماعيلية: الهدف المدينى

حتى ٢٦ يناير ١٩٥٢، كانت ضاحية الإسماعيلية "أجمل منطقة فى مصر وقطعة من باريس": اجتمعت فيها الثروة والنخبة من القاهريين. فقد أراد الخديوى إسماعيل (١٨٦٣-٧٩) - والذى أعطى اسمه لهذا الحى - أن يبنى مدينة تعكس طريق التحديث الذى انتهجته البلاد. وعلى النقيض من مبانى وسط العاصمة التاريخية كانت هذه الضاحية الجديدة تتضمن طرقاً عريضة، وميادين للمرور، ومبانى على الطراز الأوروبى، بالإضافة إلى مظاهر أخرى لفيض الثقافة المدنية (غير المألوفة فى أحياء المدينة القديمة) مثل الأوبرا، والقهوى والفنادق وميادين سياق الخيل والحدائق العامة^(٢). ومن خلال هذه المدينة الحديثة، كان الخديوى ينوى استقبال الشخصيات العالمية التى دعاها لافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ بما يتفق والأسلوب الغربى الملائم والسليم.

ومنذ البداية جسدت الإسماعيلية طموحات النخبة المحلية للحدثة. إلا أن تطورها توقف بعد إفلاس الدولة، والرقابة المزدوجة لكل من الفرنسيين والبريطانيين على وزارة المالية ووزارة الهندسة المدنية وبعدها بدأ التوسع فيها مع الاحتلال البريطانى (١٨٨٢)، وما تبعه من هجرة أهل الشام والأوروبيين إلى العاصمة المصرية. وما بين عام ١٨٦٦ و١٨٨٢ كان تعداد السكان قد تزايد من ٢٨٢,٠٠٠ إلى ٣٧٥,٠٠٠ منهم ١٩,٠٠٠ من الأجانب^(٣). وفى العقود الأولى من القرن العشرين، أصبحت الإسماعيلية

حتى الأعمال التجارية الحديث في القاهرة وفي نفس الوقت أيضاً المركز السياسى الأساسى الذى يضم قصر عابدين، ومعسكرات وأماكن إقامة البريطانيين، والمركز التجارى الأنيق بما فيه من محال وأندية مرموقة عدا كونها مركزاً مالياً وإدارياً يضم البنوك ومقار الحكومة والمكاتب الرئيسية للشركات. واستتبع ذلك وجود منطقة متميزة اجتماعياً للنخبة تحمل كل علامات التميز من اللغة إلى الأزياء. وأصبح من المفترض أن كل من يدخل المتاجر أو المقاهى بها يجب أن يكون أفندياً (يرتدى الحذاء والبذلة والطربوش) وأن يتحدث أيضاً بلغة أجنبية. كما كانت المادة أيضاً من المتطلبات بالتبعية. وكما يتذكر أحد العاملين فى إحدى المحلات "جروبي، والأمريكين! لقد كانت محلات متميزة... وكان يمكن لكل من يملك نقوداً أن يدخلها... وبدون نقود فلا يوجد مجال لدخولها... وكان ارتداء ربطة العنق ضرورياً أما الطربوش فلم يكن مطلوباً... ولكن كان يجب أن تكون حليق الذقن"^(٤).

فى ضوء كل هذه المستحدثات كانت الإسماعيلية مجتمعا أوروبياً صغيراً لا يجتازه إلا القليل من المصريين. "فلم يكن من الممكن رؤية المصريين هناك... فلم يعيشوا فيها بل كانوا يقطنون أماكن أخرى. وكان يمكنك أن تسير فى شوارع القاهرة فلا يصادفك سوى الأوروبيين، وحتى بالنسبة للمصريين الذين يرتدون ملابس أنيقة فلا تستطيع أن تصفهم بأنهم مصريون فعلاً... أما العرب فلم يكن هناك مكان لهم على الإطلاق!"^(٥). أما الأفراد الزائرون فكانوا يكتفون بالتجول فى الشوارع فى الإجازات يتطلعون إلى فترينات المحلات التى كانت محل الإعجاب، والحسد، والإحباط والكراهية. وأكثر من ذلك أن أحد أفراد الطبقة الوسطى عبر عن مشاعره بقوله "حين علمنا بأن وسط المدينة قد احترق. أصابنا الحماس! لقد كانت أمى هى الوحيدة التى تستطيع التجول هناك لأنها تتحدث الفرنسية. وكان ذلك بمثابة احتفال لها حيث كانت ترتدى أغلى الملابس التى تملكها"^(٦).

كانت هذه الصورة الشعرية لوسط المدينة التى وصفها عضو من الطبقة البرجوازية (التي تتحرق شوقاً الآن إلى نظافة الشوارع والمباني السابقة) لا يشارك فيها الجميع. فقد كانت هناك رؤية أخرى مختلفة سلبية عبر عنها الأدب الواقعى المعاصر.

فمثلاً نجد أن تجيب محفوظ الذى ولد فى القاهرة يصف هذه "المدينة الأوروبية" فى مؤلفاته بأنها كانت تعج بالفساد فى نظر الرجال الحقيقيين وقيمهم^(٧). أما ألبرت قصيرى الذى كان يسكن هذه المدينة الأوروبية فكان يراها "قلعة المظلومين"، أو كمدينة شرهة يغذيها بؤس الفقراء. وفى عام ١٩٤٦ نشر قصيرى مجموعة من القصص القصيرة بعنوان "Les Homes Oubliés de Dieu" الرجال الذين نسيهم الله "وأشار فى أجزاء كثيرة منها إلى مظاهرات ١٩٥٢. فمثلاً فى قصته:

"Le Coiffeur à Tué sa Femme"

لقد قتل الحلاق زوجته ترى أحد الرجال المتواضعين من المدينة القديمة يفكر فى القيام بإضراب للكناسين فى شارع فؤاد الأول، إلا أنه يكتشف الغضب الذى يحيط به والذى سوف يكتسح الجميع ويفرز أفعالاً شنيعة. وفى قصة "Danger de la Fantaisi" "The Threat of Fantasia" خطر الفانتازيا "فى نفس المجموعة الأوروبية يرى" المستقبل ملطخا بالدماء فى وسطها"^(٨).

بؤاد الثورة

طبقاً لمن تم اللقاء بهم سواء من القاطنين فى وسط المدينة أو العاملين بها، فإن شئون الدولة السياسية كانت بعيدة تماماً عن أذهانهم حتى قبل حريق القاهرة بوقت قصير. فقد كانت ذاكرة المواطنين تختزن ذكرى الحى فى تألقه وجماله "فى العصر الذهبى" أكثر من المظاهرات الواسعة المتكررة التى اندلعت فيه. ومع ذلك فما بين يناير ١٩٥٠ ويناير ١٩٥٢، نُظمت مظاهرات عديدة ضد المحتل البريطانى^(٩)، وكانت عودة حزب الوفد إلى الحكم فى يناير ١٩٥٠ قد حملت معها آمالاً عظيمة فى تغييرات اجتماعية وسياسية. إلى جانب أن التشكيلات السياسية ووسائل الإعلام استغلت حرية التعبير الواسعة الممنوحة لهم. ومع ذلك كان حزب الوفد فى موقف صعب بالنسبة لوعوده الانتخابية خاصة فيما يتعلق بإلغاء معاهدة ١٩٣٦^(١٠)، وأحقية المدنيين فى حمل السلاح والعفو العام عن المسجونين السياسيين. وسرعان ما انخفضت شعبيته

حين بدأت الصحف تهاجمه وتتهمه بالفساد وفتور وطنيته، وتعاونه مع القصر. وفى داخل الوفد نفسه كان شباب المناضلين الذين تأثروا بالأفكار الاشتراكية قد فرضوا على القيادات القديمة من المحافظين القيام بحملة وطنية شرسية، وما إن جاء خريف ١٩٥١ حتى كان الضغط المتزايد داخل وخارج الحزب قد أجبر الحكومة على اتخاذ موقف إيجابى، وبالتالي فى ٨ أكتوبر ألقى النحاس باشا رئيس الوزراء من جانبه المعاهدة التى كان قد أبرمها منذ خمسة عشر عاماً مع الحكومة البريطانية. وكانت هذه الخطوة التاريخية الفريدة فى تاريخ الوطنية المصرية قد فتحت الطريق أمام حرب عصابات للسيطرة على منطقة القنال التى كان يحتلها الإنجليز.

وفى القاهرة اشتد عنف المظاهرات بعد أن قتل الإنجليز "الشهداء" المصريين فى قناة السويس، وبدأت أيضاً حملات مقاطعة البضائع الإنجليزية والمؤسسات بعد أن ساندتها صحف المعارضة وخاصة صحف جماعة الإخوان المسلمين والحزب الاشتراكى. فقد نشرت الأخيرة فى صحيفتها الناطقة باسمها "قائمة سوداء" تضم الشركات البريطانية، والشركات المصرية "غير الوطنية"^(١١). وتضامن الفدائيون معهم فطالبوا بإغلاق البارات ودور اللهو. وفى رسالة وجهها المرشد العام حسن الهضيبى فى ديسمبر ١٩٥١ إلى الحكومة قال: "ليس من العدل أن يحارب المناصرون لجماعة الإخوان المسلمين ويضحوا بأرواحهم من أجل بلدهم فى حين يقضى الباقيون أوقاتهم فى أماكن اللهو"^(١٢). ولأن الحكومة لم تتخذ أية إجراءات حيال ذلك فقد شجع الحزب الاشتراكى الشعب على اتخاذ موقف إيجابى؛ "تستمر القاهرة فى الازدهار وكذلك دور السينما. وهذا يشير إلى أن الناس ليست مستعدة حتى الآن، لذلك يجب أن يقوم هؤلاء الأفراد الذين لديهم وعى سياسى بالتصرف، وأن تقوم الجماعات المشرفة عليهم بإيقاظ هؤلاء الجالسين على القهاوى، والسكرارى فى البارات والكباريات، والذين يرتادون دور السينما. أما هؤلاء الذين لا يشاهمون بأموالهم، فبيننا وبينهم حساب يجب تسديده"^(١٣). ولأن التجار وعملاء هذه المحال لم يصفوا إلى هذه النصائح والتهديدات فقد بدأت هذه الجماعات فى التجول فى الشوارع وخاصة وسط البلد حيث تتركز المنشآت البريطانية وأماكن اللهو. وبدأت فى تشكيل حوائط بشرية سلمية. وقامت جماعة من الحزب

الاشتراكي بتشكيل حاجز بشرى أمام سينما ريفولى^(١٤)، فى حين قامت درية شفيق بنت النيل بسد المدخل إلى بنك باركليز^(١٥). وعمد الإنجليز إلى إخفاء أرقام السيارات باللغة الإنجليزية وتغييرت اللافتات من الفرنسية والإنجليزية إلى اللغة العربية. وتوقفت إذاعة البرامج الموسيقية فى الراديو، وحل محلها قراءة آيات من القرآن تترحم على شهداء قناة السويس - ولكن بعد أن هاجم مائة من شباب المناضلين بعنف واحدة من الاستوديوهات فى الأوبرا الملكية فى شارع إبراهيم، وقد دمرت نفس هذه المجموعة تقريباً أوبرج دى تورف فى شارع عماد الدين لاحقاً فى وقت متأخر^(١٦). وقد أقنعت هذه الهجمات أصحاب البارات والكباريهات بغلق محالهم فى ذلك اليوم^(١٧).

وفى حين ما كانت أعمال العنف تتصاعد فى العاصمة، كان أحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكي يهدد الحكومة بمصيرها "هل ستستمرن أيها الوزراء؟ هل ستستمر يا مصطفى النحاس فى العيش فى الفضيحة، والثروة، والمتعة والتتوير؟ هل ستظل السينما والمسرح والملاهى الليلية مفتوحة؟ إن الغضب الذى يحرك الشعب الآن لم يبدأ بعد أو ينتهى، بل هو يبحث عن مخرج يعبر عن نفسه... ولو استمرت الحكومة لمدة أسبوع على النهج الذى تبنته حتى الآن فإن الانفجار سيأتى ضدها وسيزيحها جانباً. هل تسمعنى الحكومة؟ أنا أقول أسبوعاً واحداً وليس شهراً أو اثنين بل هو أسبوع أى سبعة أيام فقط"^(١٨). وأخيراً فى ٢٤ يناير ١٩٥٢ وخلال انعقاد مؤتمر فى مقر قيادة الحزب أعلن أحمد حسين أنه سوف "يطلق العنان للجماهير" ضد الحكومة وأن "جرائم فظيعة سوف ترتكب". وبعد ذلك بيومين كانت "الجماهير" قد أطلقت لها العنان فعلاً.

السبت الأسود

بدأ السبت الأسود بالفعل يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢ فى حي الإسماعيلية بمنطقة القنال حيث كانت القوات البريطانية محاصرة لمدة أربعة أشهر. ورغم أن حرب العصابات لم تكن منظمة فى بدايتها، فإنها - بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ - أصبحت مشكلة حقيقية أمام الجيش البريطانى الذى كان يفقد أعداداً متزايدة من جنوده

فى هذه المعركة. وكان الجنود الإنجليز منعزلين فى منطقة القتال حيث كانت الطرق مسدودة والسكك الحديدية تتعرض للتخريب، بالإضافة إلى أن المئات من العمال المصريين أضربوا وتركوا العمل، ونتيجة لذلك انتهز الإنجليز الفرصة لوضع حد بوحشية لحرب العصابات. فاختاروا حى الإسماعيلية حيث كان البوليس المصرى يجمع الفدائيين. وفى فجر ٢٥ يناير استيقظ مساعدا الشرطة (بلوكات النظام) ليجدوا أنفسهم محاطين بالدبابات البريطانية، وكان عدم توازن القوة واضحاً فطلب الإنجليز استسلامهم دون قيد أو شرط. إلا أن فؤاد سراج الدين وزير الداخلية آنذاك أمر بلوكات النظام بالقتال حتى آخر رصاصة: وقتل حوالى خمسون من البوليس كما جرح تقريباً ثمانون، وتم اعتقال ١٠٠٠. وأشعلت هذه الأخبار الغضب فى القاهرة، فتم التخطيط للقيام فى الجامعات والشركات والمعسكرات ليلاً باحتجاج وطنى ضخم، وفى خلال ذلك كان موظفو مطار فاروق، والعاملون بإدارة الهجرة والجوازات قد قرروا الإضراب أيضاً. وبدأ من الساعة الثانية وحتى الساعة صباحاً منعوا أربع طائرات تابعة للخطوط الجوية البريطانية من الطيران حتى تدخل الجيش^(١٩).

بدأت المظاهرة فى القاهرة يوم ٢٦ يناير بطريقة عادية، وانضم البوليس إلى طلبة جامعة فؤاد، وتقدمت جموع المتظاهرين الغاضبين إلى قلب المدينة حيث تقابلوا مع متظاهرين آخرين من العمال وطلبة الأزهر. ثم تجمع المحتجون أمام ساحة مجلس الوزراء حيث قابلهم وزير الشؤون الاجتماعية والحرب عبد الفتاح حسن وألقى فيهم خطاباً يحرضهم على التقدم، وبعد ذلك تفرق الحشد فى قلب الإسماعيلية. أما أعمال الشغب فقد بدأت من خلال مشاجرة بين المتظاهرين والجالسين أمام كازينو بديعة فى ميدان الأوبرا. وانتهزت مجموعة مكونة من ثلاثين شاباً الفرصة، وهاجمت الكازينو وحطمت أثاثه ثم أشعلت النار فيه. وفى الساعة الواحدة كان كازينو بديعة كتلة من اللهب، دون أن يتحرك أحد سواء من المتظاهرين أو البوليس أو رجال المطافئ. وبعد ذلك بدقائق التهمت النيران أيضاً سينما ريفولى فى شارع فؤاد... وخلال الساعات التالية كانت دور السينما والبارات والكباريهات والفنادق والمطاعم والقهاوى والمتاجر قد تم نهبها وإشعال النيران فيها. وامتد الحريق إلى بولاق وشبرا والعباسية وطريق الهرم.

وفى غضون تلك الفوضى قتل عشرة من الأجانب داخل نادى سباق الخيل (turf club)^(٢٠). وفى خلال ذلك اليوم الطويل كان دور البوليس إما المشاركة عمداً فى هذا الحريق أو مفضياً النظر عنه. وحين تم استدعاء فرق الطوارئ فى المساء لم يتحمس الجيش وانتشر ببطء كما رفض إطلاق النار على المتظاهرين.

بين المتآمرين والغوغاء

بعد إصداره للأحكام العرفية، ألقى النحاس باشا خطاباً إلى الأمة أعرب فيه عن حزنه لما حدث، واتهم "العناصر المخربة" و"الخونة" بالتسلل داخل صفوف الأمة والإتيان بهذه الأعمال الفظيعة. وأدان هذا الشغب، واعتبر ما حدث جريمة ومؤامرة سياسية. وكانت نتائجها قاسية بالنسبة لحزب الوفد حيث تحمل مسئولية ما حدث من فوضى. وفى اليوم التالى أقال الملك حكومة الوفد لعجزها عن حماية أمن الشعب، وعين "على ماهر" رئيساً للوزراء، وعهد إليه بتشكيل حكومة تساند الملك، وتوقف القتال الدائر فى منطقة القنال^(٢١). ومع ذلك فقد رفض رؤساء الوفد تحمل مسئولية هذا الحدث، وأنكر فؤاد سراج الدين المتهم بمسئولية هذه الفوضى جميع التهم. وفى ١٠ فبراير ١٩٥٢ أعلن براءته فى صحيفة "المصرى" المتحدثة بلسان الحزب. وصرح بأن تعليماته لم تنفذ، وأنه منع من الاتصال بالملك فور وقوع الأحداث (فقد حاول أن يحادثه تليفونياً، ثم حضر بنفسه إلى القصر)، كما وأن الجيش كان بطيئاً فى انتشاره.

أثارت هذه الاتهامات غضب القصر والجيش، ونتج عن ذلك فتح مجال تحقيق فى "المسئولية الإدارية عن أحداث ٢٦ يناير"، وفى تقرير للنائب العام فند الاتهامات الموجهة للجيش بالتقاعس عن أداء الواجب، وأن المسئولية تقع على عاتق وزير الداخلية والهيئات المسئولة عن الأمن العام^(٢٢). وبالتالى تم توجيه الاتهام إلى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية والمالية، وعبد الفتاح حسن وزير الشؤون الاجتماعية، والدفاع، ومحافظ القاهرة وبعض من الضباط بصفقتهم المسئولين عن حريق القاهرة.

كما وجه الاتهام أيضاً إلى بعض القيادات السياسية، فقد حوكم أحمد حسين وخمسة آخرون من أعضاء الحزب الاشتراكي بتهمة "التحريض على حريق القاهرة" من خلال الجريدة الناطقة باسم الحزب، كما تارت شكوك أيضاً فى ضلوعهم فى الشغب حيث أقر بعض الشهود بأنهم كانوا يساندون المتظاهرين وسط المدينة يوم ٢٦ يناير. وبالإضافة إلى وجهة النظر المشوشة تلك فقد عمد بعض السياسيين إلى التراشق بالاتهامات وتغذية الشائعات وتقديم التفسيرات الكثيرة لما حدث. ونتيجة لذلك برزت فكرة المؤامرة البريطانية. وخلال أداء الشهادة فى محاكمة أحمد حسين فى يوليو ١٩٥٢ أعلن على ماهر باشا "أن الوطنية الأصيلة لا تعرف الأنانية أو الفوضى، ولكنها تعرف الحرية فى إطار القانون". وأكد أن الشغب الذى اندلع لم يكن عفويًا أو تلقائيًا بل إنه كان مخططاً له بيد أجنبية - وهى يد الإنجليز" (٢٣).

وقد تلقف هذا التأكيد النخبة "المثقفة" التى أصابها الهلع جراء ما حدث وبالتالي ارتاحت إلى هذا التفسير للمأساة. فقد كان حريق القاهرة شىء لا يمكن تحمله أو فهمه من منظور تعارضه التام مع "صورة الشعب المصرى" المعروفة لديهم. فقد كانت نظرة المصريين والنخبة الأجنبية على حد سواء أن الشعب المصرى طيع وسهل الانقياد ومرحب دائماً بالأجانب كما ذكر الملك فاروق فى الخطاب الملكى يوم ٥ فبراير ١٩٥٢. وبالتالي حين بدأت محاكمة مثيرى الشغب، كانت الصحف تنشر مقالات متعارضة "نحن نعلن للعالم أن من ارتكب هذه الجرائم ليسوا منا، ولكنهم هنا بيننا، وفى وسطنا، حتى يتم القبض عليهم ومحاكمتهم.... إن مصر فى ذلك اليوم قد أُسقطت من الدول المتحضرة... والشعب المصرى الذى كان يطالب بحريته قد أحرق بيديه عاصمة بلاده... ونحن نود أن يعرف العالم أن الشعب المصرى لم يكن هو المسئول، بل ما حدث هو من أعمال بعض المجرمين" (٢٤).

بعد ذلك بأشهر تغيرت الصورة: فمصر المتحضرة وقعت فى أيدي القائمين على التعذيب، وتحول المجرمون إلى أبطال. فبعد ستة أشهر من الفراغ السياسى عقب حريق القاهرة تولى الحكم ثلاثة رؤساء وزارات عجزوا عن إعادة النظام والاستقرار، حتى قامت مجموعة "الضباط الأحرار" بالاستيلاء على السلطة فى ٢٣ يوليو.

وعقب ذلك أعيدت المحاكمة من جديد، واعتبر التحريض على حريق القاهرة جريمة سياسية، إلا أنه تم تبرئة الحزب الاشتراكي، فقد قبل القضاء دفاع أحمد حسين الذي قال "إن أحداث ٢٦ يناير ١٩٥٢ كانت نوافعها سياسية بسبب أعمال العنف التي ارتكبتها المحتل البريطاني ضد البوليس المصرى فى منطقة القنال فى اليوم السابق. وإن هذا الحادث (حريق القاهرة) تسبب فى إثارة الفوضى وأشعل مشاعر الشعب الذى فقد سيطرته وبدأ فى أعمال تدمير ونهب على نطاق واسع. وفى غضون ذلك كان من الصعب التفرقة بين الأعداء وأعضاء الحزب"^(٢٥). وتم أيضاً تخفيف الأحكام على المتمردين من الشرطة وأفرج عن مائة من مائة وواحد وثمانين من بلوكات النظام، وتلقى أربعة وثلاثين حكماً بالسجن ثلاثة أشهر فى حين حكم على سبعة وأربعين بالأشغال الشاقة لمدة سنتين^(٢٦). أما الضباط المتهمون فقد أعفوا من المسئولية الإدارية^(٢٧)، وبالنسبة لمتسببي الشغب فقد صدر حكم بالعفو العام عنهم فى فبراير ١٩٥٩^(٢٨).

وهذه الأحكام السابقة كانت لها أهميتها، حيث أحييت ذكرى حريق القاهرة والذى كان قد توارى إلى حد ما فى الظل حتى ذلك التاريخ. فقد نشرت "الأهرام" فى صفحتها الأولى مقالة فى الذكرى العشرين للحريق وأشارت إلى أن غضب الشعب العظيم كان حادثة رهيبة إلا أنها "من جميع الوجوه كانت رمزاً للقمع الذى كان الشعب يتعرض له"^(٢٩)، ورددت الصحف ما قاله جمال عبد الناصر فى خطابه فى البرلمان عام ١٩٦٠: "كان حريق القاهرة هو أول بادرة للثورة الاجتماعية ضد المؤسسات الفاسدة، وقد عبر هذا الحريق عن غضب الشعب حين كانت مصر ترزح تحت نير النظام الإقطاعى، والمضاربات فى البورصة والرأسمالية"^(٣٠).

إلا أن الرقابة والأيدولوجية الاشتراكية مع ذلك لم تستطع أن تمحو فكرة المؤامرة. ففي نهاية حكم عبد الناصر، كتب سعد زهران - وهو صحفى شيوعى مناضل - مقالة عن الصراع الوطنى فى منطقة القنال^(٣١) فقال إنه رغم انعدام الأدلة فإنه يشك فى أن المصريين هم الذين قاموا بهذه الأعمال التخريبية بمبادرة من جانبهم، وأن المخابرات البريطانية بالتحالف مع القصر هى التى أعدت تلك المؤامرة.

وأثناء حكم أنور السادات عزز محمد أنيس هذه الفكرة في دراسة قصيرة له عام ١٩٧٢ بناها على تقارير خضعت للرقابة لمراسل الإذاعة البريطانية بي. بي. سي. في القاهرة وأيضاً على بعض سجلات وزارية^(٣٢). ورغم أهمية ما جاء في هذه الدراسة، وعلى الأخص فيما يتعلق بالدور الذي لعبه الحزب الاشتراكي، فإن هذا التحليل يظل سطحيًا.

بدأ جمال الشرقاوي دراسة أخرى في تلك السنوات. وكان إصداره الأول مبنياً على سجلات محاكمة "المحرضين على حريق القاهرة"، وعلى أربعين لقاء تقريباً مع شخصيات سياسية وثقافية^(٣٣). وكان الشرقاوي - مثله مثل كثيرين من الخبراء - رافضاً لفكرة قيام المصريين بحرق عاصمتهم، وانتقد بشدة المؤرخ عبد الرحمن الرافعي الذي دافع عن وجهة النظر هذه في كتاب نشره عام ١٩٧٥^(٣٤). ومثل محمد أنيس ساند الشرقاوي وجهة النظر القائلة بأن الإنجليز والقصر خططا لحريق القاهرة. وقد انتهى رأى المؤلف لهذه النتيجة بعد مواجهة التفسيرات القائمة لدور اللاعبين السياسيين (الحزب الاشتراكي، جماعة الإخوان المسلمين، والشيوعيين، والضباط الأحرار والقصر والإنجليز). وبرغم ذلك فقد رفض تماماً الرأى بأن أحمد حسين قد شارك في حريق القاهرة بحجة أن الحزب الاشتراكي كان حزباً سلمياً^(٣٥). وقد أنهى المؤلف بحثه عام ١٩٨٠. وبعدها نشر له كتاب آخر استناداً إلى سجلات بريطانية عامة^(٣٦) عززت فرضية المؤامرة البريطانية. وقد تلقت الصحافة بترحيب أعمال الشرقاوي التي كانت مؤثرة ومقنعة رغم أنها أحييت الجدل حول هذه القضية أكثر من الإجابة عن السؤال في من هو المتسبب في حريق القاهرة. وخلال التسعينيات ظل حريق القاهرة موضوعاً قريباً من الصحافة. أما الإجابة على السؤال من الذي أشعل النار، فإن المقالات والدراسات انتهت إلى نفس الإجابة سيظل حريق القاهرة لغزاً، وظل التصميم على هذا الرأى لغزاً أيضاً، وإن كان حريق القاهرة أصبح مع مرور السنوات تاريخاً لذكرى الملكية الدستورية السابقة "والعصر الذهبي" للبرالية المصرية الاقتصادية والسياسية.

حين تلهم النخبة العنف

كان اهتمام المؤرخين والصحفيين دائماً منصباً على جانب واحد من حريق القاهرة، فقد ركزوا على محاكمة "التحريض على حرق القاهرة" الذى أشار إلى اتهام الحزب الاشتراكي، باعتبارها "جريمة سياسية" بون الاهتمام بمحاكمات المشايخين فى أحداث ٢٦ يناير ١٩٥٢. ويمكن تفسير ذلك بأن المصريين أنفسهم اختاروا تطبيق الرقابة الذاتية على موضوعات "مخزية" من منطلق تعارضها مع الصورة المثالية لمصر، وتؤكد حقيقة بأن الذين قاموا بأعمال الشغب لا مكان لهم فى تاريخ مصر هو غياب الدراسات الاجتماعية عن دور المظاهرات فى التاريخ المصرى، وبالتالي فإن تجاهل الخلفية الاجتماعية لحريق القاهرة يفسح الطريق إلى التحليل المنوى (عقيدة دينية ثانوية قوامها الصراع بين النور والظلام) ولنظرية المؤامرة التى تفرق بين اللاعبين "الطيبين" واللاعبين "الأشرار"، وتتجاهل التفاعل بينهما. ومع ذلك فقد كانت العلاقات اليومية أحياناً قائمة بين ضحايا حريق القاهرة ومحدثى الشغب، وهى حقيقة كانت تصدم البرجوازيين.

عقب حريق القاهرة بدأ البوليس فى البحث عن البضائع التى تم نهبها فى ذلك اليوم، وكانت الصحف تنشر أخباراً يومية عن نتائج هذه الحملات فى حى الإسماعيلية، وتم الكشف عن هوية المشايخين واللصوص أثناء عمليات القبض عليهم مع بدء محاكمتهم فى مارس ١٩٥٢. وبالرجوع إلى المقالات الصحفية التى نشرت هذه المحاكمات^(٣٧) يتبين أن ٢٥٪ من المقبوض عليهم كانوا من البوليس، و٣٠٪ من الطلبة والأحداث، و٣٠٪ من العمال المهرة والمهنيين (ماسحى الأحذية والحائكين) ثم أصحاب المحال الصغيرة، وبعض المستخدمين (جرسونات القهاوى، والكتبة وموظفى محطات البنزين) والخدم فى المنازل (اليوايين والسفرجية والفراشيين)^(٣٨). واهتمت الصحف كثيراً بهذه الفئة الأخيرة، فمثلاً أشارت جريدة الإسكندرية والبورصة المصرية،

Le Journal d'Alexandrie, et la Bourse Égyptienne.

إلى الطباخ والبواب فى إحدى البنايات والذين اشتركوا فى الجريمة فى مقالة بعنوان "القبض على طباخ وبواب، والعثور على صناديق من الويسكى تم سرقتها يوم ٢٦"، وكما ذكرت المقالة "قام عبد السلام على وهو طباخ إحدى العائلات التى تسكن فى البناية رقم ٨ شارع طلعت حرب بإخفاء بعض المسروقات التى تم نهبها يوم ٢٦ يناير فى مكان أمين... وقد ألقى الطباخ المسئولية على بواب العمارة، إلا أن هذا الأخير ذكر بأن الطباخ هو الذى حمل المسروقات مساء يوم ٢٦ يناير، وأن يديه كانتا تنزقان" (٣٩). كما أشارت مقالات أخرى إلى أن الموظفين بالعقارات المتهدمة شاركوا أيضاً فى أعمال السرقة والنهب. وقد ألقى القبض على موظف بسينما مترو فى محطة السكك الحديدية وهو يحمل معه الستائر الخاصة بالسينما (٤٠) وادعى مالك كباريه العروسة The Doll Cabaret فى شارع عدلى باشا إنه تعرف على أحد موظفيه السابقين ضمن المشاغبين الذين هاجموا البار التابع له (٤١).

وقد أثارت هذه القصص المنشورة الرعب فى النخبة الوطنية حيث أشارت إلى مدى تدهور العلاقة بين الموظفين ورؤسائهم، وكيف أن هؤلاء الرؤساء قد فقدوا شرعيتهم. فعقب الحريق ظهرت مقالات فى الصحف تشير إلى تدهور هذه العلاقة، فمثلاً فى جريدة "الأخبار" بيدي مصطفى أمين قلقه من الأحوال المعيشية للخدم، مهاجماً النخبة لتجاهلهم لهم:

"إن هؤلاء الذين استغلوا فوائد الحرب العالمية يمثلون الأقلية، فى حين أن الأغلبية لم تحقق أية فوائد، ورغم أن العامة لم يستمتعوا بالثروة كما فعل الأغنياء والحكام، فإنهم لا يجب أن يتحملوا أية اتهامات إلا إذا اشترك هؤلاء الأغنياء مع الشعب فى مواجهة المحنة. إن أندية القمار التى يلعب فيها الأثرياء ويخسرون آلاف الجنيهات فى ساعة واحدة يجب أن تغلق... ولا يكفى مطالبة الصحافة أن تكف عن الحديث عنها، فإن السفرجى والجرسون أكثر ثرثرة وأكثر قدرة على خلق الإشاعات من الصحافة نفسها" (٤٢).

إلا أن بعض أعضاء النخبة رغمًا عن ذلك عجزوا عن استيعاب مدى عمق الأزمة السياسية والاجتماعية السائدة، فقد كان "وعيهم الرأسمالي قد حل محل وعيهم السياسى:

"إن أحداث ٢٦ يناير من الأهمية بحيث إننا لا نستطيع أن نتجاهل نتائجها على حياتنا الاقتصادية... فقد تعرضت منازل كثير من التجار الكبار للخراب... فهل يمكن أن يشكك أى شخص فى أن التجارة ما زالت أحد أهم المستويات الحضارية؟ فمن المؤكد أن وقف الاستيراد سوف يخفض من مستوى المعيشة الذى نحاول بكل جهدنا أن نرفع منه حتى نلحق بركب الأمم العظيمة... لقد هدمت دور السينما بالقاهرة وكذلك مسارحها... فكيف لنا أن نشعر بالاسترخاء والمتعة البريئة بعد مجهود يومى كثيف؟ نحن لن نجرى وراء من يحاول تدمير عاصمتنا، ويمنعنا من تجديدها وإلا فسوف نكون مسئولين عن انتحارنا. كيف لنا أن نتجاهل أن قوتنا الاقتصادية هى المصدر الأول لاستقلالنا السياسى" (٤٣)؟

أدرك أعضاء النخبة أنه بعد ٢٦ يناير ١٩٥٢ سيفقدون شرعيتهم. فالهجوم على وسط المدينة لم يكن موجهاً فقط ضد البريطانيين ولكن ضد الأوروبيين وأهل الشام والمصريين أيضاً. كان الهجوم ضد النخبة بأكملها التى استفادت من الرأسمالية. وكان الهجوم على حى الإسماعيلية هو رمز رفض الهوية الغربية لمصر. فالرأسمالية والتحديث، والعولة لم تستفد منها سوى الأقلية من الشعب المصرى، والأكثر من ذلك أن الاقتصاد الحر أعاق تقدم مصر فى مشوار الاستقلال.

لقد تقبل المصريون الرأسمالية طالما كانوا مقتنعين أنها سوف تؤدى بالبلاد إلى الاستقلال السياسى، وكانوا واثقين فى المشروعات القومية لطلعت حرب الذى أسس أول بنك وطنى وأول شركات وطنية (شركات مصر) فى العشرينيات من القرن (٤٤). إلا أن النخبة المصرية الذين استثمروا أموالهم فى الاقتصاد القومى والذين أثاروا الآمال فى إنقاذ مصر من طريق مسدود اجتماعياً وسياسياً أثبتوا أنهم يهتمون فقط بمصالحهم الاجتماعية والمالية. وكانت هذه النخبة تتشكل من مجموعة من ملاك

الأراضي الذين قرروا التنوع في استثماراتهم في مطلع نشوب الحرب العالمية الثانية حين وضّح أن الدخل من القطن ليس آمناً. فبدأوا الاستثمار في قطاع المال والتجارة والصناعة وهي مجالات كان يحتكرها البريطانيون وأهل الشام. وقد ساندتهم الدولة في ذلك حيث كانت تطبق سياسة بديلة للاستيراد تستهدف تنشيط الصناعات المحلية وتعويض نقص البضائع نتيجة الحرب.

نتيجة لذلك أسس المصريون فيما بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٨ ٨٤٪ من الشركات، كما قاموا بالتوسع في الشركات المشتركة^(٤٥)، وفي دراسة مثيرة يؤكد روبرت تيجنور على التحولات الرئيسية في مجالس إدارة الشركات: فمن ٣٥١ شركة مساهمة مسجلة في كتاب "البورصة المصرية عامة مكان لمائة وثلاث وستين شركة مجلس إدارة متعدد الجنسيات يضم أهم رجال الأعمال المصريين (ومنهم قادة سياسيون). وعلى النقيض من ذلك في عام ١٩٢٣ كان القطاع الاقتصادي والمالي يشمل فقط ثلاثين شركة من بين خمسة وثمانين شركة تضم مجالس إدارتها جنسيات متعددة^(٤٦). وقد نتج هذا التغيير عن قرارات حكومية منذ العشرينيات تفرض على الشركات الأجنبية ذات المشاريع المشتركة تعيين اثنين من المصريين في مجلس الإدارة^(٤٧). وفي ١٩٤٧ صدر قانون يعزز تمصير الاقتصاد وينص على وجود ٤٠٪ من المصريين في مستويات الإدارة و ٧٥٪ من الموظفين و ٩٠٪ من العمال^(٤٨).

ومن الأشياء المتناقضة ظاهرياً أن هذه الوسائل لحماية مصالح الدولة لم تساعد على خلق قطاع اقتصادي وطني له سيادة مطلقة، بل نتج عنه اعتماد حاد على رأس المال الأجنبي. فمن ناحية كانت هذه الظاهرة "المختلطة" في القطاع الاقتصادي سطحية في أساسها: فقد كان المديرون المصريون يتم اختيارهم في أغلب الأحيان لتأثيرهم السياسي وكانوا يتقاضون مرتبات عالية. ومن ناحية أخرى كان لهذه الظاهرة مردود اجتماعي.. فلم يكن الأمر قاصراً على وجودهم في مجالس الإدارة بل كانوا يشتركون مع الأجانب في الهوية الثقافية والرؤية الاجتماعية^(٤٩). فقد كانوا يتقابلون في الأندية مثل نادي السيارات أو نادي الجزيرة اللذين فتحا أبوابهما بسهولة أمام باشاوات مصر بعد ١٩٣٦^(٥٠).

كان أعضاء هذه النخبة الملتحمة مع بعضها البعض قد درسوا في الخارج، وكانوا نتاج نظام التعليم الجديد في مصر^(٥١)، ومع صعودهم في السلم الاجتماعي أصبحوا منافسين لملك الأراضي. وهذه نقطة مهمة يجب التركيز عليها من حيث إن المجتمع المصري كان ما يزال يحكمه الإقطاعيون المحافظون والمناهضون للإصلاح. ورغم أن ذلك فإن النخبة المدنية لم تكن تمثل قوة معارضة للنخبة الحاكمة. فنجد مثلاً أن أحد السياسيين ذوي النفوذ والمبشر باقتصاد وطني مثل إسماعيل صدقي لم ينجح في الاستحواذ على المساندة السياسية الضرورية^(٥٢). كما كان الكثيرون من أصحاب النفوذ السياسي والاقتصادي لا شعبية لهم، بل كانوا قريبين من الإنجليز، ومنغمسين في الاهتمام بأحوالهم الشخصية دون المبالاة بتطوير سياسة اقتصادية وطنية^(٥٣). وكان أغلب هؤلاء السياسيين من الوفديين المنشقين الذين التحقوا بالأحزاب الصغيرة المعارضة القريبة من الملك أو الإنجليز^(٥٤). ولأن تلك النخبة المدنية أصبحت مشاركة للإنجليز في اهتماماتهم وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، فقد تجاهلت تماماً الأولويات الوطنية.

التنافس السياسي، والمؤامرات والتزج

في مضمون تزايد حمى الوطنية، والشعور العام بالاستياء وعدم الرضاء، رأى الإنجليز ضرورة إبعاد الوفد عن الساحة. وبالتالي لجئوا إلى الوسطاء المقربين منهم في داخل القصر للضغط على الملك فاروق الذي كان تردده واضحاً في هذا الشأن، فقد كان يشارك فؤاد سراج الدين في الاهتمام بمصالح أصحاب الإقطاعيات، ولم يرغب في تزايد نقص شعبيته. ومع ذلك فقد اضطر إلى الاستجابة للضغوط البريطانية وعين حافظ عفيفي المنحاز لهم والذي كان يفتقد الشعبية لدى الجماهير، وعبد الفتاح عمرو باشا في الديوان الملكي في ديسمبر ١٩٥١^(٥٥). ولعب الإنجليز أيضاً على الشرخ الذي أحدثته الحملة الوطنية بين الوفديين والملكيين. وكان الملكيون تجمعهم مصالح مشتركة مع الإنجليز (خاصة من خلال الشركات المشتركة التي تأسست بعد الحرب)

أكثر من مصالحهم مع الوفد. وبالتالي كان لديهم الكثير مما يفقدونه في هذه الأزمة، فانحازوا إلى سقوط حكومة الوفد. وعبر الملكيون عن انتقادهم لها من خلال حملات صحفية في جرائد مختلفة مثل "أخبار اليوم" و"آخر لحظة" و"الأساس" عارضتها حملات فاشلة من جانب الوفد تطالب بالوحدة الوطنية في صحيفة "المصرى". أما بالنسبة لصحيفة الحزب الاشتراكي فقد انتقدت كلا من القصر والوفديين. فقد كان زعيم الحزب أحمد حسين مدركاً بصفة خاصة بمخاطر التيارات السياسية آنذاك بل كان يفكر في استغلال التنافس بين النخبة^(٥٦).

وكان حزب "مصر الفتاة" الذي أسسه أحمد حسين عام ١٩٣٣ واحداً من تلك القوى البرلمانية التي تستخدمها الأحزاب التقليدية لإحداث شقاق في حركة الطلبة الوطنية. وكان القصر يستغل أصحاب "القمصان الأخضر" (كتائب شبيبة مصر) في حين كان أصحاب "القمصان الزرق" يستغلهم الوفد^(٥٧). وبعد تفكك هذه المجموعات العسكرية عام ١٩٣٨، ظل حزب أحمد حسين يبيع خدماته للأحزاب التقليدية. وفي عام ١٩٥٠ ورغم حصول الحزب على أول مقعد له في البرلمان من خلال إبراهيم شكرى، ومع ذلك أصيب أحمد حسين بخيبة أمل في الحكم البرلماني، وإمكانية الحصول على الاستقلال في ظل وجود السلطة في أيدي النخبة الحاكمة - سواء الملكيين أو الوفديين. وبالتالي فيمكن أن يكون قد اتخذ قراراً متعمداً بإفساد خطط الملك فاروق ووزير الداخلية فؤاد سراج الدين وبخيانة الاثنين وإشعال الحريق.

عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦، تولى الوفد قيادة كتائب التحرير وقاموا بتسليحها. وفي هذا الصدد التقى وزير الداخلية والمالية بزعيم الحزب الاشتراكي للتفاوض معه، واتفق الاثنان - فؤاد سراج الدين وأحمد حسين - على إثارة المتاعب لإقناع الملك فاروق بعدم إقالة حكومة الوفد. وبالتالي فمن الممكن أن تكون أحداث ٢٦ يناير بسبب رغبة فؤاد سراج الدين في حدوث أعمال شغب لإثارة الخوف في نفس الملك ومقاومة الضغط البريطاني المتزايد. وفي الواقع، وطبقاً لتقرير مكتب الخارجية البريطاني بناء على حوار له مع أحد المقربين إلى جماعة الإخوان المسلمين يقول "أخبرني هذا

الشخص أن الحزب الاشتراكي تلقى مساعدة كبيرة من سراج الدين على شكل تمويل وأسلحة وأجهزة حرائق وحماية البوليس مما جعل الاستعداد لحريق القاهرة أمراً سهلاً. وحتى النهاية كان سراج الدين من الغباء بحيث اقتنع أن استخدام كل ذلك سوف يكون في منطقة القنال. ولكنه بالطبع كان يأمل ويرغب في نفس الوقت في حدوث شغب في القاهرة يوم ٢٦ يناير ولكن مجرد شغب عادي^(٥٨). وقد عزز نفس المصدر اشتراك المجموعة المتطرفة داخل الإخوان المسلمين في أحداث الشغب رغم معارضة الهضيبي المرشد العام للجماعة: "بعض من تلك العصابات التي ساهمت في الحريق كان ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين. وقد هاجموا البارات والقهاوى ولكنهم لم يقتربوا من دور السينما. وقد تركهم الهضيبي، ولم يستطع السيطرة على بعض الأعضاء رغم أنه كان يأمل في استعادة سيطرته عليهم في ضوء الأحداث الجارية"^(٥٩).

كان يمكن للملك أن يتجه إلى أحمد حسين ليوقف ضد الوفد، فلو بدأ الحزب الاشتراكي الحريق، وتلقى الوفد اللوم فيمكن للملك أن يتناسى ذلك. وفي السبب الأسود احتفظ الملك بـ ٨٠٠ من قيادات البوليس والجيش في قصره خلال الشغب احتفالاً بعيد ميلاد ابنه. وكانت هذه المأدبة قد أعدت للغداء بدلاً من العشاء كما جرت عليه العادة، ولم يتم إلغاؤها رغم الظروف، بل والأكثر من ذلك أن مستشاري الملك أقنعوه بأن يسمح لفؤاد سراج الدين بالحديث معه بالإضافة إلى أن الحوار الهامس الذي دار بين الملك وبين حيدر باشا قائد القوات المسلحة خلال المأدبة^(٦٠) يشير إلى أن الملك كان على علم بالتطورات التي حدثت ولكنه أخر تدخل الجيش عن عمد.

وفي جميع الأحوال فإن المخابرات البريطانية كانت بالتأكيد على علم بهذه الأحداث. وفي تقرير لها بتاريخ ١ فبراير ١٩٥٢ كتب أحد الدبلوماسيين الذين يعملون في القاهرة يقول "إن مستر فاي، وهو قائد "إخوان الحرية" قد أكد لي أغلب أحداث ذلك اليوم. ورغم أنه - المدعو مستر فاي - غادر القاهرة قبل الشغب فقد كان لديه مجموعة من التقارير تشير إلى سير الأحداث"^(٦١). وفي القاهرة، ورغم صدور قرار

البرلمان فى ١٤ يناير ١٩٥٢ بحل هذه الجمعية المغمورة، فقد كان من الممكن مساعدة بعض أعضائها من العملاء البريطانيين لأحمد حسين فى إعداد الحريق^(٦٢). وفى خلال ذلك كان الجيش البريطانى فى منطقة القنال على استعداد للتحرك فى اتجاه العاصمة: وكان هذا التهديد دافعاً للملك ليأمر بتدخل الجيش^(٦٣).

ورغم أن المخابرات البريطانية شاركت فعلاً فى تنظيم هذا الشغب لمصلحتهم فى المدى القصير، فإن القيادات المصرية تحملت جزءاً مهماً من المسؤولية. فقد تسبب تنافسهم واشتراكهم فى مؤامرات سياسية مستمرة كممارسات عادية ليس فقط فى إهدار التحرك الوطنى بل فى إضعاف جهاز الدولة أيضاً. بل إنه فى واقع الأمر فإن كبار المسؤولين فى وزارة الداخلية والقصر أساءوا إلى البلاد يوم ٢٦ يناير باستخدامهم الأعمى للمؤامرات السياسية، وبالتالي التخلّى عن سيطرتهم على القطاع الاستراتيجى الذى يتحكم فى النظام فى الدولة - ومن ضمنه البوليس والجيش^(٦٤). وكان ذلك جزءاً من السياسة المشوشة التى طبقها الوفد فى خريف ١٩٥١ .

بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦، واجهت الحكومة مأزق محاربة الإنجليز دون استخدام السلاح^(٦٥). فلم يكن فى استطاعة البوليس مواجهة الجيش البريطانى، ولذلك قرر الوفد نقل أغلب الكفاءات للقطاع المدنى، وفى ١٠ ديسمبر ١٩٥١ قننت حكومة الوفد حرب العصابات من خلال السماح للمدنيين بحمل السلاح. وبذلك كان فى الإمكان تداوله بسهولة فى داخل البلاد، إلى جانب إمداد المدنيين به من خلال الأحزاب السياسية والمنظمات. وأخيراً تحرك المدنيون للقتال فى حين ظل الجيش بعيداً عن الصراع. وقد تسبب هذا الوضع غير الفعال فى إحساس الجيش بالهانة. وفى أوائل ١٩٥٢ بدأت بوادر العصيان ثم الثورة تظهر داخل الجيش. وكما ذكر توفيق أكليماندوس فى الفصل الثالث من هذا الكتاب، وفى يوم ٦ يناير، اكتسح المرشحون من الجيش انتخابات نادى الضباط وتفوقوا على رجال الملك فاروق، وبعدها بعشرين يوماً حين أرسلت الحكومة الجيش فجراً لإنهاء إضراب موظفى المطار حذر أحد الضباط ممثلى شركة الطيران البريطانية أنها سوف تكون آخر مرة يساعدونهم فيها^(٦٦).

كان البوليس الاحتياطي يعاني نفس سوء المعاملة. فقد قرر وزير الداخلية التضحية بقواته من خلال الامتناع عن صرف مرتباتهم أو تسليحهم بما فيه الكفاية. "إن الاحتلال يعنى القتل بالنسبة لنا، وإذا قُدر لنا أن نموت فلنمت ورأسنا مرفوعة دون استسلام منا. وحين ألغينا المعاهدة كنا واعين تماما لنتائجها الوخيمة وللتضحيات التي نقدمها". وكان هذه ما أعلنه فؤاد سراج الدين في سياسته^(٦٧). ونتيجة لذلك اندلع الغضب داخل البوليس، وخاصة عندما تمت محاكمة أفراد الاحتياطي الذين استسلموا للقوات البريطانية التي كانت تتفوق عليهم بتهمة الخيانة^(٦٨). وفي القاهرة تم الاعتداء على رجال البوليس أيضاً ولكن من قبل المواطنين أنفسهم. وساد العنف في التعامل مع المتظاهرين، وفي يناير ١٩٥٢ وجد رجال البوليس أنفسهم يحاولون تحاشي طلقات الرصاص والحجارة، وقد كتب السفير البريطاني رالف ستيفنسون في تقريره إلى وزارة الخارجية بعد اضطرابات ٢٦ يناير "كانت تصرفات الحكومة في الأشهر الأخيرة قد أدت إلى محاولة البوليس تفادي طلقات الرصاص خلال تلك المظاهرات وسوف نرى إلى أي مدى يمكن أن تتحمل حالتهم النفسية هذه الأوضاع"^(٦٩).

وفي ٢٦ يناير كانت مؤامرات الحكومة قد شجعت قيام حركة تمرد بين صفوف البوليس والجيش. وقد شارك البوليس في المظاهرات وأعمال الشغب والحرائق بعد أن اجتاحت حالة من الغضب العنيف. ورغم حالة العصيان المحدودة التي ظهرت في الجيش بالمقارنة بما حدث في بلوكات النظام، فإن علامات التمرد كانت واضحة، فلم يظهر الجيش أي حماس للتدخل، وتحرك ببطء وهو يرفض توجيه نيرانه صوب المتظاهرين، بل إنه اكتفى بمراقبتهم^(٧٠).

التعبئة

شملت التعبئة الاجتماعية في ٢٦ يناير إلى جانب البوليس والجيش قطاعات عديدة اجتماعية ومهنية، ورغم أن الطلبة والعمال كانوا يتظاهرون خاصة منذ بدايات ١٩٤٠ فإن المهنيين، وأصحاب المحال، وصغار الموظفين والباعة الجائلين والخدم لم يكونوا مشاركين فيها عادة، وكان المضمون الأيديولوجي والاقتصادي والاجتماعي

والذى ظهر من خلال الحرب العالمية الثانية قد غير من سلوكيات الجماعات المدنية. وكما يشرح جويزلان دينو Guislain Denoeux:

أدت هذه العملية إلى تهميش أو اختفاء بعض اللاعبين الذين كان لهم أدوار رئيسية فى الثورات المدنية حتى القرن العشرين (مثل الوجهاء، وقيادات النقابات، والشيوخ الصوفيين وصغار العلماء، والطلبة المتدينين واللصوص والعصابات المدنية). وبرزت طبقة اجتماعية جديدة مثل (المهنيين المحترفين، وموظفى الدولة، والمتقنين نوى الميول الغربية، والعمال فى المؤسسات الصناعية) التى جذبتها الاتجاهات الأيديولوجية التقدمية الجديدة (الاشتراكية، الشيوعية، البهائية، والوطنية القومية العربية) فتبنت أشكالاً جديدة من التحركات الجماعية، ومنها المظاهرات والإضرابات والمقاطعة، والأهم من ذلك كله أن هذه الفئات، والتى كانت تدور فى نطاق الجامعات والمدارس العليا والمصانع والمكاتب الحديثة، لم تكن تشارك فى السياسة من خلال الشبكة القديمة التى كانت موجودة حول المساجد والأحياء وأصحاب الحرف والتجارة. فبدلاً من ذلك جذبتهم كيانات تأسست حديثاً كانت أكثر تنظيماً وحدائية مثل الأحزاب السياسية، والاتحادات العمالية والنقابات... ونتيجة لذلك شهد النصف الأول من القرن العشرين اتجاهاً لا تخطئه العين ناحية تشكيل تحركان ذات قاعدة عريضة للمعارضة السياسية^(٧١).

ورغم أن الطلبة والعمال فى المصانع كان لهم دور فى الأحزاب السياسية أو الاتحادات العمالية، فإن انضمام المهنيين فى الخدمات المختلفة فى أوائل القرن العشرين عادة ما كان يتم تجاهله، ومن ثم كانت مشاركتهم العنيفة فى أحداث ٢٦ يناير مفاجأة للنخبة، ولكنها أبرزت بصورة لا تدع مجالاً للشك كيف أن بعض القوى خارج البرلمان مثل جماعة الإخوان المسلمين ومصر الفتاة تمكنت من تشكيل أعضائها من تلك الفئة التى تجاهلتها الأحزاب السياسية التقليدية.

وبعد ١٩٢٦، وعلى وجه التحديد فى ١٩٣٨، اتجهت سياسة حزب أحمد حسين - الذى كان يجند الطلبة سابقاً - إلى العمال والفلاحين، والعمال الكادحين المدنيين، وأصحاب الحرف، وموظفى الدولة والعاطلين^(٧٢). وقبل حريق القاهرة بأيام شجع

أحمد حسين أعضاء الحزب لتنظيم القيام بأعمال سلمية ضد الإنجليز بين "الشباب من غير أعضاء الأحزاب أو الجماعات المنظمة الذين يمكنهم القيام بأعمال غير مشروعة"^(٧٣). والأكثر من ذلك أن الكوماندوز الذين اشتركوا في الحريق وأشارت إليهم التقارير البريطانية كانوا يرتدون أزياء متنوعة إما أزياء الطبقة الوسطى والأفرو (رداء عمال المصانع) والجلاليب أو أزياء رسمية (بل ربما كان أحدهم يرتدى بذلة مصر للطيران)^(٧٤). وبالتالي فإن أحمد حسين عمد إلى تعبئة وإثارة هذه الشرائح المتنوعة من الشعب - والتي تجاهلها سابقاً - للتحرك وممارسة العنف.

حقق حريق السبت الأسود بعض أهداف الحكومة البريطانية القصيرة المدى. فعلى النقيض من بقية اللاعبين السياسيين، أدرك أحمد حسين هشاشة النظام الحاكم، وأن ضربة واحدة كافية لانتهياره. ففي خلال عشرين عاماً كانت أيديولوجية أحمد حسين السياسية تتحول عدة مرات: فقد كان ملكياً، وإسلامياً، وديمقراطياً ثم اشتراكياً. ومع ذلك ففي المرحلة ما بين "مشروع القرش" في عام ١٩٣١ إلى برنامج الاشتراكية عام ١٩٥٠^(٧٥)، احتفظ أحمد حسين بصفة دائمة بخط سياسى يشجع الصناعة الوطنية كطريق للوصول إلى الاستقلال السياسى. إلا أن النخبة الاقتصادية - التي زاد ارتباطها بالإنجليز بعد الحرب العالمية الثانية - لم تتفق معه فى الرأى. وفشلت عملية استقلالية الاقتصاد القومى وبقيت سيادة وسيطرة الأجانب. وعندما جاء قانون ١٩٤٧، كان الوقت قد فات ولم يتم تفعيله قبل عام ١٩٥٦. وقد كشف الجدل الدائر حول هذا القانون أن عدداً قليلاً من المصريين فقط قد انتفع من الأنشطة الصناعية ومشروعات الأعمال. ولذلك فإن حريق القاهرة الذى شمل حى الأعمال كان يعنى بالنسبة لأحمد حسين وبقية أعضاء حزبه إنكار مشروعية النخبة الليبرالية، وإدانة الرأسمالية التى احتفظت لهم بكل الامتيازات.

لم يكن حزب أحمد حسين منظمة سلمية كما قال محمد الشرقاوى، بل كان دائماً منظمة عسكرية غير شرعية رغم أن أعمال العنف التى قام بها ظهرت فى مطلع اندلاع الحرب العالمية الثانية، ثم تكررت ثانية بعد توقف أعمال القمع التى صاحبت حكومة الحرب^(٧٦). وقد استغل أحمد حسين فرصة التعاطف الاجتماعى الكبير معه والذى

أعطاه نوعاً من الحصانة لتدبير تلك الأعمال. فعمد إلى بناء شبكة اتصالات ومعلومات متعددة داخل الطبقة السياسية، والبوليس والجيش (فمثلاً كان أنور السادات أحد أعضاء مصر الفتاة)، واستخدم هذه الشبكة للحصول على الأموال والسلاح والحماية. وبعد حريق القاهرة تم القبض عليه وحكم عليه بالسجن ثمانية عشر شهراً^(٧٧). ثم تدخلت ثورة يوليو في محاكمته وأفرج عنه بعد عدة أشهر. أى أنه في حقيقة الأمر كان زعيم الحزب الاشتراكي هو الذي مهد للثورة وفتح الطريق أمام الجيش.

ذكريات مختارة

تم الاحتفال بذكرى مرور خمسين عاماً على حريق القاهرة في يناير ٢٠٠٢ . وأثارت هذه الذكرى عدة آراء متباينة. فلأول مرة منذ ثلاثين عاماً بدأ بعض المثقفين في تحليل مضمونها السياسي في محاولة للوصول إلى الأسباب التي تدعو الناس إلى حرق القاهرة^(٧٨). ومع ذلك لم يصلوا إلى هوية هؤلاء الناس فيما عدا أن بعض اللصوص وأفراد من قوة مكافحة الحرائق استغلوا الموقف، وقد ناقش أحد مؤتمرات اليوم الواحد والذي نظمته جمعية الدراسات التاريخية المصرية في ٢٦ يناير ٢٠٠٢ هذه القضية^(٧٩) لينتهي المؤرخون إلى تحميل مسئولية الحادث على الملك، والإنجليز أو الصهاينة^(٨٠).

ومع ذلك فقد ظهرت رؤية أخرى جديدة في النصف الثاني من المؤتمر، حيث انتهزت مجموعة من المهندسين والمؤرخين والمثقفين الفرصة ذريعة لعرض مشروع إعادة ترميم وسط المدينة. وكان حريق القاهرة في نظرهم نقطة فاصلة في تاريخ الإسماعيلية. فمنذ ٢٦ يناير ١٩٥٢ فقدت منطقة وسط البلد أماكنها الفاخرة وأثارها وتحولت إلى منطقة أصابها الانهيار والترهل. ولأن مصر في نظر النخبة المثقفة تعتبر بلداً عصرياً، وملتقى الحضارات العالمية فإن هذه المنطقة كواجهة للحكم كان يجب أن يعاد إليها رونقها وازدهارها.

وتشير هذه التفسيرات والتبريرات لحريق القاهرة إلى مدى ثبات تأثير الأيديولوجيات على التاريخ والذاكرة الجماعية. كما أنها تشير أيضاً إلى أن المعالجة المبهمة لموضوع حريق القاهرة في التسعينيات تمثل إحياء ذكرى الملكية البرلمانية، وتحرر مصر الاقتصادي والسياسي^(٨١). وفي الواقع، فلأن نظرية تحرير الاقتصاد سادت في جميع الخطب والمقالات في عصر مصر مبارك، فإن النخبة الليبرالية الأولى سُمح لها بالتعبير عن حنينها إلى الملكية. ومن خلال الخطب التي كانت تأتي على لسان المهندسين والمؤرخين والسياسيين في عام ٢٠٠٢، كان واضحاً أن إعادة ترميم وسط المدينة يتضمن "إعادة الاستثمار" في هذا الحي الراقى السابق، والذي تزايدت شعبيته وتدفق الجمهور عليه بعد ثورة ١٩٥٢. وربما خلق مشروع الترميم مكاناً يمثل الذاكرة الجماعية للبرجوازيين ويحفرها في المدى البعيد. وفي الفصل السادس يبدأ باراك سالوموني بحثه بالرجوع إلى موريس هالبواخ Maurice Halbwachs الذي تستحق آراؤه أن نسجلها هنا. فهو يقول: "إن الذاكرة الجماعية لا يمكن أن تتحقق دون إطار مكاني"^(٨٢). وتشير مساهمة الحكومة المصرية في هذا المشروع إلى دخول البرجوازية الليبرالية رسمياً في التاريخ الوطني وإثارة الذاكرة الجماعية. وهذه الشرعية المستردة تؤكد السياسة الثقافية الجديدة التي انتهجتها الدولة والتي شملت أيضاً افتتاح عدة متاحف تاريخية وطنية في الفيلات المقامة على الطراز الأوروبي والتي تم ترميمها -أيضاً- أخيراً^(٨٣).

وفي الاحتفال الخمسين بحريق القاهرة، عبر بعض المثقفين عن اهتمامهم الجديد بمن قاموا بأحداث الشغب، في حين عبر آخرون عن تعاطفهم مع الضحايا. وهذا الاختلاف في الآراء يتردد دائماً حين تواجه مصر بأزمة اقتصادية واجتماعية حادة. وقد تُذكر الصعوبات الحالية بعضاً من الأشخاص بأزمة ١٩٥٢، وربما يكون من الأوفق إبراز مل قاله أحد علماء الاجتماع في مؤتمر ٢٠٠٢، فقد أشار إلى أن العشوائيات التي تحيط بالقاهرة تهددها وربما أدت إلى اندلاع حريق مرة أخرى.

الخاتمة

إذا اعتبرنا أن حريق القاهرة ما هو إلا "مؤامرة سياسية" أو "لغز" فإن هذا يعنى أن نتغافل عن فشل التجربة الديمقراطية، وبالتالي رفض الدروس المستفادة منها. ومع ذلك فإن الأزمات الاجتماعية والاقتصادية سبقت وانتهت إلى السبب الأسود، الذى كان الضربة الحقيقية لجهاز النظام القائم وحدد اللحظة الحاسمة لسحب الشرعية من النخبة المدنية المصرية الليبرالية. فمن خلال الهجوم على وسط البلد، أنكر مثيرو الشغب شرعية تلك النخبة المتحررة، التى فشلت فى أن تجعل من نفسها بديلاً عن النخبة التقليدية من الملكيين وملاك الأراضى (الإقطاعيين)، الذين لم يهتموا بتطبيق الإصلاح الاجتماعى والزراعى، وأثبتوا بذلك أنهم محافظون مثل أعيان الريف، والأكثر من ذلك أن نخبة المدينة لم تنجح فى تحقيق استقلال الاقتصاد بسبب المصالح المشتركة مع الإنجليز. ومع ذلك لم تكن هناك أى قوة أخرى سياسية يمكنها أن تحكم البلاد. فلم يكن الحزب الاشتراكى أو المنظمات الشيوعية أحزاباً شعبية، كذلك كان قمع الحكومة للإخوان المسلمين قد أضعفهم. وبالتالي لم يتبق سوى الجيش الذى تمكن من الاستيلاء على السلطة فى ٢٢ يوليو - وكما يشرح أكليماندوس كان يجب أن يكون جيشاً مستقلاً عن التشكيلات الاجتماعية الأخرى. وبذلك أصبح حريق القاهرة فى نهاية التسعينيات "يوم الاحتفال" بذكرى نهاية عصر الملكية البرلمانية وارتداء البرجوازية المصرية ثياب الحداد على الانهيار الدرامى لتاريخهم. بالإضافة إلى أن الترميم الحديث لوسط المدينة يعتبر اعترافاً من الحكومة بالذاكرة الجماعية للطبقة البرجوازية. فالنخبة الليبرالية المعاصرة كانت تستهدف إعادة إحياء المنطقة التى نشبت فيها الحريق، وربط مصر "بالعصر الذهبى" الليبرالى السابق. ومع ذلك فعندما نتحدث هذه النخبة عن ماضى وسط المدينة المتألق فهى تتناسى الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى أدت إلى أحداث ٢٦ يناير.

الهوامش

- (١) بنيت هذه النظرية على كتاب ميشيل دوبري Sociologie des crises politiques (باريس: مطبعة المؤسسة القومية للعلوم السياسية، ١٩٩٢)، للتحليل السياسى والاجتماعى للمظاهرات، انظر كذلك: أوليفيه فيليول، Stratégies de la rue: les manifestations en France (باريس: مطبعة العلوم السياسية، ١٩٩٧) وطبعة بيير فافر، La manifestation (باريس: مطبعة المؤسسة القومية للعلوم السياسية، ١٩٩٠).
- (٢) الأعمال الحضرية للبارون هوسمان ألهمت الخديوى أثناء زيارته لباريس عام ١٨٦٧ .
- (٣) أندريه ريمون، "Cairo" فى L'Égypte d'Aujourd'hui (باريس: طبعة المركز القومى للأبحاث العلمية، ١٩٧٧)، ٤١-٢٢١ . انظر كذلك أندريه ريمون Cairo (لندن: هاردكافر، ٢٠٠١)، وجون لوك أرنو Le Caire. Mise en place d'une ville moderne 1867-1907 (باريس: أكت سود، ١٩٩٨).
- (٤) مقابلة فى المحل التجارى الصالون الأخضر (القاهرة، ٢٠٠٠).
- (٥) مقابلة مع مغنية إيطالية كلاسيكية (القاهرة، ٢٠٠١).
- (٦) مقابلة مع ابن موظف مدنى سابق (القاهرة، ٢٠٠١).
- (٧) انظر على سبيل المثال: نجيب محفوظ، "زقاق المدق" (واشنطن: مطبعة القسارات الثلاث، ١٩٧٧)، "بداية ونهاية" (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٨٥).
- (٨) ألبير قصيرى Les hommes oubliés de Dieu (باريس: جويل لوسفلد، ١٩٩٤).
- (٩) هذه المظاهرات لم تكن منظمة من الأحزاب التقليدية (الوفد، الأحرار الدستوريين، القوميون) بل أيضاً الأحزاب الجديدة مثل بنت النيل، والحزب الاشتراكي ومنظمات مثل الإخوان المسلمين، وجمعية الشبان المسلمين، والمناصرين للسلام، والشيوعيين... إلخ.
- (١٠) بناء على الاتفاقية الموقعة لمدة عشرين عاماً، كان على الجيش البريطانى تخفيض أعدادهِ وأن يصبح الجيش تحت السيطرة المصرية.
- (١١) مصر الفتاة، ٥١/١١/١١، ٥١/١١/٢٥ .
- (١٢) الإيجيشن جازيت، ٥١/١٢/١٦ .
- (١٣) الشرق الجديد، ٥١/١١/٢٢، منقول من الاتهام فى محاكمة "التحريض على حريق القاهرة، ميكروفيلم ١٠٠٠١، المركز القومى للدراسات القانونية (القاهرة).
- (١٤) الشرق الجديد، ٥١/١١/٢٢، ٥١/١١/١٩ .

- (١٥) المصري، ٥٢/٠١/٢٤ .
- (١٦) المصري، ٥٢/٠١/١٤ .
- (١٧) نفس الأعمال نظمت فى وسط مدينة الإسكندرية، تم نسف سينما مترو وريفولى (المصري، ٥٢/٠١/٠٢، ٥٢/٠١/٢١).
- (١٨) مصر الفتاة، ٥١/١٢/٠٩، منقول من الاتهام.
- (١٩) تقرير لجنة السفارة البريطانية عن أعمال الشغب فى القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢، ١٩٥٢/٠٢/١١، القاهرة، وزارة الخارجية JE 101/86, PRO, FO 371/968.
- (٢٠) رالف ستيفنسون لفريق العمل FO، ١٩٥٢/٠١/٣٠، القاهرة، وزارة الخارجية JE 1018/34, PRO, FO 371/98671.
- (٢١) الحكومة استغلت هذه الفرصة لقمع الشيوعيين على وجه الخصوص.
- (٢٢) البريد المصري، ٥٢/٠٣/٠٨ .
- (٢٣) الأهرام، ٥٢/٠٧/٢٣ .
- (٢٤) الأهرام، منقول من استعراض صحيفة Journal d'Alexandrie et La Bourse Égyptienne 20/02/52.
- (٢٥) المصري، ٥٣/٠٥/١٧ .
- (٢٦) الأهرام، ٥٢/١٠/٢٠ .
- (٢٧) الأهرام، ٥٣/٠٥/١٤ .
- (٢٨) الأهرام، ٥٩/٠٢/٠٩ .
- (٢٩) الأهرام، ٦٢/٠١/٢٦ .
- (٣٠) جمال الشرقاوى "حريق القاهرة: قرار اتهام جديد" (القاهرة: دار الجيل للطباعة، ١٩٧٦)، ٢٧٨ .
- (٣١) الطليعة، يونيو ١٩٦٥، ٦٩-٧٩ .
- (٣٢) محمد أنيس، "حريق القاهرة" (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢).
- (٣٣) الشرقاوى، "حريق القاهرة".
- (٣٤) عبد الرحمن أرافعى، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧)، ربما يكون المؤلف غاضب من الشرقاوى لأنه استخدم ألفاظ تحقير لتقييم الناس ("رعاع"، "عناصر مريضة"). وكان ابناً لأحد الأسر البرجوازية التى شهدت أحداث ٢٦ يناير.
- (٣٥) كذلك يبرى الشرقاوى حزب الوفد. المؤلف يدرس إعادة الشرعية لحزب الوفد الذى عاد للظهور فى منتصف السبعينيات.
- (٣٦) جمال الشرقاوى، "أسرار حريق القاهرة فى الوثائق السرية البريطانية" (القاهرة: دار الشهدى للنشر، ١٩٨٥).
- (٣٧) جمعت معلومات عن مثبرى الشغب من الصحف المصرية (المصري، الإيجيشيان جازيت)، Le Journal d'Alexandrie et La Bourse Égyptienne.

- (٣٨) الباب هو بالمعنى الدقيق للكلمة الحارس على العقار، والسفرجى هو كبير الخدم، والفراش هو الخادم.
- (٣٩) "Le Journal d'Alexandrie et La Bourse Egyptienne" 28/02/1952 ترجمتى من اللغة الفرنسية.
- (٤٠) الإيجبشن جازيت، ١٤/٠٢/٥٢.
- (٤١) الإيجبشن جازيت، ١٧/٠٢/٥٢.
- (٤٢) الأخبار، منقول فى استعراض الصحافة لجريدة Le Journal d'Alexandrie et La Bourse Egyptienne 17/06/52.
- (٤٣) الأهرام، منقول لجريدة Le Journal d'Alexandrie et La Bourse Egyptienne، ٠٨/٠٢/٥٢.
- (٤٤) انظر: روبرت آل. تيجنور،
Bank Misr and Foreign Capitalism," International Journal of Middle Eastern Studies.8:1 (1977) 81-161.
- (٤٥) انظر: ملك زعلوك Power, Class and Foreign Capital in Egypt: The Rise of the New Bourgeoisie (لندن ونيو جيرسى: كتب زد، ١٩٨٩)، ١٨.
- (٤٦) روبرت آل. تيجنور،
The Economic Activities of Foreigners in Egypt, 1920-1950: From Millet to Haute Bourgeoisie," Comparative Studies in Society and History. 22:3
(يوليو ١٩٨٠)، ٢٤-٤٣١.
- (٤٧) جيسلان ألوم،
La production d'une économie: remarques sur l'histoire des sociétés anonymes par actions en Egypte de 1856 a 1956.
- سجلات الدراسات الإسلامية الحادى والثلاثين (١٩٩٧)، القاهرة، IFAO، ١-١٦، ٩٠٪ من العمال و٥٠٪ من الموظفين يجب كذلك أن يكونوا مصريين.
- (٤٨) ألوم، نفس المرجع.
- (٤٩) تيجنور، The Economic Activities of Foreigners in Egypt، ٤٤-٤٤١.
- (٥٠) ماجدة بركة، The Egyptian Upper Class between Revolutions, 1919-1952 (أكسفورد: مطبعة إيثاكا ١٩٩٨)، ٩٣-١٩٢.
- (٥١) يطلق تيجنور على هذا الخليط من النخبة "البرجوازية العليا".
- (٥٢) كان إسماعيل صدقى وزيراً للخزانة، ووزيراً للداخلية، ورئيس وزراء، ونائب رئيس ثم رئيس اتحاد الصناعات المصرية على التوالى.
- (٥٣) سأنكر على سبيل المثال: حافظ عفيفى باشا، الطبيب، ورئيس بنك مصر فى ١٩٢٩، ورئيس شركة، ومستشار له تأثير على الملك فاروق، وعميل بريطانى، وأيضا أحمد عبود باشا، مهندس نظم فى اسكتلندا، نائب فى مجلس الشيوخ، مدير فى شركة صناعية، وعميل بريطانى.

(٥٤) حتى نهاية الثلاثينيات، كان ممثلو "الجناح الحضرى" (مكرم عبيد، محمود فهمى النقراشى) والذي كان يقودهم النحاس باشا يحكمون حزب الوفد، ولكن فى الأربعينيات، تم إحلالهم "بالجناح الريفى" بقيادة فؤاد سراج الدين باشا.

(٥٥) التعيينات أغضبت رأى العام لأن هذه الشخصيات كانت مشهورة بموالاتها للبريطانيين.

(٥٦) "الاشتراكية"، منقول من الإيجيبشون جازيت، ٥١/١١/٠٩، أعلن أحمد حسين: "لسنا بحاجة إلى الإعلان، إن لدينا معلومات خفية إذا قلنا للشعب بأن الدسائس بدأت لإسقاط الحكومة المصرية... وبالتالي يجب علينا أن نأخذ ذلك فى الحسبان أثناء متابعتنا لتلك الدسائس وهى تتحرك لتحويل انتباه الشعب بعيداً عن المعركة الكبرى التى تجرى الآن والنزاعات الداخلية والصغيرة. ولكن هل يجب على الحكومة أن تظل سلبية أو مترددة، هذا سيجعل مصيرها أسوأ. وسوف يتسبب أعداء الشعب فى سقوطها ولن يستطيع الشعب حمايتها. وحتى إذا لم يتسبب الأعداء فى سقوطها، فالشعب نفسه سوف يخلعها من السلطة".

(٥٧) عن القصر ومساندة على ماهر لمصر الفتاة، انظر: جيمس جانكوفسكى،

Egypt's Young Rebels. "Young Egypt" 1933-1952.

(ستانفورد: مطبعة معهد هوفر، ١٩٧٥)، الفصل ٣، بالنسبة "للقمصان الزرق" انظر: هاجاي ايرليخ،

Students and University in 20th-Century Egyptian Politics.

(لندن: فرامد كاس، ١٩٨٩)، ٢٣-١٥.

(٥٨) مستشارية وزارة الخارجية FO، ٥٢/٠٢/١٨، القاهرة، وزارة الخارجية PRO، FO 376/96872، JE 1018/78.

(٥٩) المستشارية لفريق العمل FO، نفس المرجع: فى أعقاب جريمة قتل مرشد الإخوان المسلمين حسن البنا (فبراير ١٩٤٩) (انتقاماً من قتل الإخوان المسلمين للنقراشى)، طبق المرشد الجديد سياسة حكيمة. وكان يقصد بذلك إعادة الشرعية للإخوان المسلمين.

(٦٠) انظر على سبيل المثال: شهادة محمد نجيب Egypt's Destiny: a Personal Statement (لندن: دابلداي، ١٩٥٥)، ٩٢.

(٦١) محضر، لندن، ٥٢/٠٢/٠١، وزارة الخارجية PRO، FO 371/96871، JE 1018/36.

(٦٢) المصرى، ٥٢/٠١/١٥.

(٦٣) ستيفنسون، وزارة الخارجية FO، ٥٢/٠١/٢٧، القاهرة، وزارة الخارجية PRO، FO 371/96870، JE 1018/21. أثار تهديد الجيش البريطانى الملك الذى اشتكى للسفير الأمريكى عندما عقد معه لقاء الساعة الرابعة بعد الظهر، وحذر بأنه لن "يتعاون" إذا تحرك الجيش لبريطانى نحو الدلتا. ومع ذلك تنازل تحت الضغط البريطانى لأنه كان مقتنعاً بأن النحاس باشا بنفسه سوف يعلن حالة الطوارئ.

(٦٤) دوبرى، Sociologie des crises politiques، يرى المؤلف أن قوات الأمن فى الدولة "كقطاعات استراتيجية"، يجب أن تظل معزولة عن باقى القطاعات الاجتماعية والمهنية فى المجتمع، خاصة خلال فترة التعبئة الاجتماعية الموسعة. وعلى عكس ذلك، فإن جهاز الدولة يصبح فى خطر.

(٦٥) لم يرغب سواء الوفد أو القصر في استخدام الجيش. وخاصة أن هزيمة ١٩٤٩ من إسرائيل أظهرت مدى قلة التجهيزات والتدريب في الجيش المصري.

(٦٦) تقرير لجنة السفارة البريطانية عن تحرياتها عن أعمال الشغب في القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

(٦٧) الإيجيبيشن جازيت، ٥١/١٢/١٨ .

(٦٨) تقرير لجنة السفارة البريطانية عن تحرياتها عن أعمال الشغب في القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ . حاكت وزارة الداخلية ١٢٠ من رجال الشرطة وقياداتهم بسبب استسلامهم للقوات البريطانية في "الحمادة" Al-Hamada .

(٦٩) ستيفنسون، وزارة الخارجية FO، ٥٢/٠١/٢١، القاهرة، وزارة الخارجية JE, PRO, FO 371/9873 1018/5.

(٧٠) تقرير لجنة السفارة البريطانية عن تحرياتها عن أعمال الشغب في القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

(٧١) جيلان دينوه،

Urban Unrest in the Middle East. A Comparative Study of Informal Networks in Egypt, Iran and Lebanon.

(نيريورك: مطبعة جامعة ولاية نيويورك، ١٩٩٣).

(٧٢) جاكوفسكي، Egypt's Young Rebels، الفصل الثالث.

(٧٣) الاتهام في محاكمة "التحريض على حريق القاهرة"، فعقب الحادث الذي وقع عندما شُكّل جدار بشري أمام سينما ريفولي، كتب أحمد حسين في جريدة "مصر الفتاة"، ٥١/١٢/٢٣: "أكثر ما نخشاه هو بقاء الشرطة. فإذا فقدت الشرطة السيطرة وازداد غضب الشعب، فإن الشباب غير المنضمين لأي حزب أو جماعة منظمة سوف يقومون بأعمال غير قانونية. هذه هي آخر مرة نتعامل فيها مع هذه المسألة. بعد ذلك سوف نمتنع عن الاشتراك في هذه الكوميديا، وسوف نترك سينما ريفولي لغضب الشعب وشباب المتطرفين".

(٧٤) تقرير لجنة السفارة البريطانية عن تحرياتها عن أعمال الشغب في القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

(٧٥) انظر: جاكوفسكي، Egypt's Young Rebels، ١١-١٢، في أواخر عام ١٩٣١ شكلت لجنة من طلبة الجامعة برئاسة أحمد حسين نظمت حملة تبرعات لتطوير الصناعة المصرية. النجاح والمبالغ التي تم جمعها في هذه الحملة مكنتهم من إنشاء مصنع للطرايش.

(٧٦) انظر: جاكوفسكي، نفس المرجع، ٣٨-٣٩: "الهدف الأول للحزب كان محاربة المظاهر الاجتماعية الغريبة وغير إسلامية السائدة في المدن المصرية... ففي يناير وفبراير ١٩٣٩ هوجمت أكثر من اثنتي عشرة حانة في القاهرة والإسكندرية والمدن الرئيسية في المحافظات، بدءاً من دخول شباب المقهى وتدمير مخزونها من الخمر إلى الحرق الفعلي للحانات. وفي نفس الوقت بدأ أصحاب الحانات في تلقي رسائل تهددهم بنفس المصير إذا لم يتوقفوا عن بيع المشروبات الكحولية".

(٧٧) ستيفنسون إلى فريق العمل FO، ٥٢/٠٣/١٨، القاهرة، JE 1018/114, PRO, FO 371/96873.

(٧٨) انظر على سبيل المثال: مقال لطيفة محمد سليم (مؤرخة) في وجهة نظر، العدد ٣٧، فبراير ٢٠٠٢، ومقالة قاسم الطاهر (كاتب) في الوفد، ٢٥/١/٢٠٠٢، وجهة نظره مثيرة للاهتمام حيث يصمم على حقيقة أن ضحايا حريق القاهرة لم يقصدوا ما حدث، وينتقد الاستخدام المفرط لنظرية المؤامرة.

(٧٩) "خمسون عاماً مرت على حريق القاهرة"، لحظة على العمارة والحياة الثقافية في القاهرة في منتصف القرن العشرين، ٢٦/١/٢٠٠٢، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة. الرجوع لتفصيل التقرير لهذا المؤتمر، انظر: "آخر ساعة"، ٢٠٠٢/٢/٠٦.

(٨٠) أدلى عالم الاجتماع على فهمي بشهادة مثيرة للاهتمام، مؤكداً فيها أن عامة الشعب المصري شارك في أعمال الشغب، ولكنه أنهى شهادته بقوله إن الصهاينة أضرموا النار في المدينة لأن اليهود كانوا يعملون في المتاجر التي أحرقت.

(٨١) هذا التفسير الأخير يختلف تماماً عن التفسير الناصري، الذي اعتبر يوم حريق القاهرة "ثورة".

(٨٢) موريس هالبووش، La Mémoire Collective، (باريس: مطبعة جامعة باريس، ١٩٥٠)، ١٤٦.

(٨٣) لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر: آن كلير كربوف،

"La restauration du centre ville: enjeux sociaux et historiques d'un projet urbain,"
La Lettre d'information 4, April 2003; Observatoire Urbain du Caire Contemporain
(OUCC), CEDEJ.

الجزء الثالث

السلوك الاجتماعي ،

الخطاب الاجتماعي

٨- نحو ديمقراطية التعليم العام

"الأفندية الجدد"

(المناقشات التي دارت في آخر برلمان مصرى

١٩٤٣-١٩٥٢)

ميساكو إيكيدا

شكّل التعليم العام فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى قضية لها أهميتها فى الحركة الوطنية المصرية، وكان التوسع فى التعليم العام واحداً من أهم أهداف الحكومة المصرية. وكان للسياسة البريطانية التى استهدفت خلال الاحتلال العسكرى منذ عام ١٨٨٢ وحتى عام ١٩٢٢ الإبقاء على مستوى التعليم العام فى أدنى صورة تأثيراً عميقاً معوقاً لتطوير نظام حديث للتعليم فى مصر. ولعلاج هذا النقص عمدت المدارس الأجنبية والمصرية الخاصة إلى توفير بعض المدارس التى تغطى المرحلة الابتدائية والثانوية، كما وفر الأزهر تعليمًا إسلامياً فى مختلف مستوياته^(١). ولذلك كان التغلب على هذه العقبة من أهم الأولويات لدى الحكومة المصرية والشعب المصرى ابتداء من العشرينيات وما بعدها.

وحين أعلنت بريطانيا من جانبها استقلال مصر عام ١٩٢٢، سلمت الإشراف الكامل على التعليم العام للحكومة المصرية مع احتفاظها ببعض السلطة فى مجالات

أخرى حيوية. وبالتالي وجدت الحكومة المصرية نفسها فى مواجهة ضرورة خلق نظام تعليمى وطنى جديد بعد حوالى نصف قرن من الانقطاع عنه. وكانت المهمة تشمل إعادة تنظيم المدارس الحكومية فى مراحلها الابتدائية والثانوية، وبناء مدارس جديدة والتوسع فى المدارس القائمة لمجابهة الطلب المتزايد من التلاميذ الذين يرغبون فى الالتحاق بالمدارس العامة، بالإضافة إلى تنظيم أنواع مختلفة منها، سواء كانت العامة أو الخاصة أو الأجنبية أو الدينية تحت رقابة الدولة، كما شملت أيضاً تأسيس جامعة وطنية. وكانت القضية الخطيرة التى واجهتها أيضاً هى محو الأمية التى كانت تقتضى اهتماماً خاصاً بالمستوى التعليمى الأولى. وطبقاً للإحصاءات الرسمية منذ عام ١٩١٧ كانت نسبة الأمية فى مصر تصل إلى ٩٢,١٪ وكانت أمية الرجال ٨٦,٤٪ والنساء ٩٧,٧٪^(٢). وقد نص دستور ١٩٢٣ على إتاحة التعليم بالمجان لجميع المصريين وفق مبادئ الديمقراطية، وتشير المادة ١٩ من الدستور على أن التعليم الابتدائى إجبارى ومجانى لجميع التلاميذ المصريين من الجنسين.

أرقام وأفكار

تشير الإحصائيات عن التعليم فى مصر فى مرحلة ما بين العشرينيات والخمسينيات إلى الجهود التى بذلتها وزارة المعارف، وإلى الحماس الذى سيطر على العامة للتوسع فى فرص التعليم. واستمرت ميزانية الدولة المخصصة للتعليم فى الزيادة منذ ذلك الوقت من ١٪ فى السنوات الأولى من الاحتلال البريطانى إلى ٦,٤٪ فى ميزانية الدولة ١٩٢٥/١٩٢٦، ثم ارتفعت إلى ١٠,١٪ فى عام ١٩٣٥/٣٦. ومنذ منتصف الثلاثينيات وما بعدها استقرت على ما بين ١٠٪ إلى ١٣٪. فعلى سبيل المثال وصلت فى السنة المالية ١٩٥١/١٩٥٢ إلى ١٢,١٪ من الميزانية بأكملها^(٣). كما كانت زيادة عدد التلاميذ فى جميع مستويات التعليم قوية ومؤثرة حيث تزايد ستة أضعاف العدد خلال

أربعين عاماً من ٣٤٠,٠٠٠ عام ١٩١٣ إلى ١,٩٠٠,٠٠٠ عام ١٩٥١^(٤) وارتفع عدد
المتحقين بالمدارس الابتدائية والإلزامية العامة من ٢٣٢,٤٥٨ (منهم ٢٦,٥١٤ من
الفتيات) في عام ١٩١٣/١٤ إلى ٨٩٥,٠٨٩ (منهم ٤١٨,٢٥٤ فتاة) في عام ١٩٤٤/٤٥،
في حين أن المتحقين بمدارس النخبة الابتدائية (ومن ضمنها رياض الأطفال) ارتفع
من ١٣,٩٧٨ (٢,١٦٨ فتاة) في عام ١٩١٣/١٤ إلى ٥٩,٩٣٩ (منهم ١١,٦٢٠ فتاة)
في عام ١٩٤٤/٤٥^(٥). وكانت الزيادة في المدارس الثانوية والتعليم العالي أكثر إثارة،
حيث ارتفعت أعداد التلاميذ في المدارس الثانوية العامة من ٢,٥٠٠ (كلهم أولاد) في
عام ١٩١٣ إلى ٣٧,٠٠٠ (منهم ٣,٠٠٠ فتاة) في عام ١٩٤٤/١٩٤٥. وما إن هل عام
١٩٥١ - بعد إلغاء التعليم في المدارس الثانوية عام ١٩٥٠ حتى كان العدد قد وصل
إلى ١٢٢,٠٠٠ (منهم ١٩,٠٠٠ فتاة)^(٦). وارتفع عدد التلاميذ في التعليم العالي من
١٥٥٤ في عام ١٩١٣/١٤ إلى ١٣,٩٢٧ (شكلت الفتيات نسبة ٥٪) عام ١٩٤٥. ثم
وصل العدد أخيراً إلى ٤٢,٤٩٤ (٨٪ فتيات) في عام ١٩٥٢^(٧). والملاحظ أن أعداد
السكان كانت تتزايد بصفة عامة، وبلغت نسبة التعداد إلى ٦٥٪ ما بين أعوام ١٩١٧
و١٩٥٢ من ١٢,٧٥٠,٠٠٠ إلى ٢١,٠٠٠,٠٠٠. ومع وضع زيادة السكان في
الاعتبار، إلا أن الزيادة النسبية في عدد التلاميذ ما بين ١٩١٣ وأوائل الخمسينيات
والتي وصلت إلى ٥٠٠٪ لا تعتبر مؤثرة (انظر: جدول ١).

جدول ١ : عدد الملتحقين بالمدارس ونسبتهم إلى عدد السكان

عدد التلاميذ	١٤/١٩١٣	١٩٢٣	٤٥/١٩٤٤	١٩٥١
جميع المدارس	٣٢٤,٠٠٠	٩٤٢,٠٠٠	-	١,٩٠٠,٠٠٠
في ١٠٠٠	٢٧	٦٢	-	٩١
المدارس الأولية والإلزامية العامة	٢٣٢,٤٥٨ (٢٦,٥١٤)	-	٨٩٥,٠٨٩ (٤١٨,٢٥٤)	-
في ١٠٠٠	١٩ (٢)	-	٤٩ (٢٣)	-
المدارس الابتدائية العامة	١٣,٩٧٨ (٢,١٦٨)	-	٥٩,٩٣٩ (١١,٦٢٠)	-
في ١٠٠٠	١ (٠,٢)	-	٣ (٠,٦)	-
المدارس الثانوية العامة	٢,٥٠٠ (أولاد فقط)	١٥,٠٠٠ (١٥٠٠)	٣٧,٠٠٠ (٣,٠٠٠)	١٢٢,٠٠٠ (١٩,٠٠٠)
في ١٠٠٠	٠,٢	١ (٠,١)	٢ (٠,٢)	٦ (١)
التعليم العالي	١,٥٥٤	*٤,٢٤٧ (%٠,٥)	١٣٩٧٢ (%٥)	*٤٢,٤٩٤ (%٨)
في ١٠٠٠	٠,١	٠,٣	٠,٨	٢
مجموع السكان	#١٢,١٨٦,٠٠٠	١٥,٢٧٥,٠٠٠	##١٨,١٣٤,٠٠٠	٢٠,٨٧٢,٠٠٠

ملحوظة: الأرقام والنسب بين القوسين تمثل الفتيات

* سنة ١٩٣٠ ** سنة ١٩٥٢ # سنة ١٩١٣ ## سنة ١٩٤٤

(المصادر: أحمد عبد الله: حركة الطلاب والسياسات القومية في مصر ١٩٢٣-١٩٧٣ (لندن: كتب الساقى ١٩٨٥)، ٢٦، شارلز عيسوى: مصر في منتصف القرن: مراجعة اقتصادية (مطبعة جامعة أكسفورد - لندن ١٩٥٤) ٦٧، وروبريك. ماثيوز ومتى عكراوى: التعليم في الدول العربية في الشرق الأدنى (مجلس التعليم الأمريكى ١٩٥٠ - واشنطن العاصمة) ٢٤، والحكومة المصرية ووزارة المالية: إحصائية سنوية عن مصر ١٩٥٦، ١١).

إلا أن هذا الإنجاز الواضح لوزارة المعارف لا يجب أن يغفل المشكلات الجادة فى التعليم خلال مرحلة وجود البرلمان. فقد تمخض عن هذا التوسع السريع فى التعليم أسئلة متعددة لم تجد لها إجابات على جميع المستويات. فرغم هذا التبنى الاسمى لمبدأ الديمقراطية فى التعليم فى دستور ١٩٢٣ فإنه لم يتم تطبيقه على مستوى التعليم الأساسى. فقد أُلقت محاولة إعادة بناء هذا المستوى فى الأربعينيات والخمسينيات بوزارة المعارف فى خضم عملية طويلة معقدة. حيث نشأت صعوبات كثيرة أمامها نتيجة عوامل عديدة: وهى الأمية السائدة بين الأغلبية العظمى من الشعب، وغياب منظومة التعليم الحديث بين العامة قبل الحرب العالمية الأولى، وضعف الالتزام الحكومى الجاد والنخبة الحاكمة تجاه القضايا الاقتصادية والاجتماعية التى تتعلق بجموع الشعب المصرى مما أدى إلى عدم كفاية الأموال المخصصة للتعليم العام.

وحتى بعد نقل الإشراف على التعليم العام إلى الحكومة المصرية، انقسم مستواه إلى نظامين: مستوى تعليم النخبة فى المدارس الابتدائية والتى شملت رياض الأطفال وإعادة التعليم العام فى المدارس الأولية، والنظام الآخر هو المدارس الإلزامية. وكان خريجو مدارس النخبة الابتدائية فقط هم المسموح لهم بالالتحاق بالمدارس الثانوية والتعليم العالى. وحتى عام ١٩٤٢ كانت المدارس الابتدائية تفرض رسوماً على التعليم فأفرخت مجموعة صغيرة من الشباب من الطبقة العليا والمتوسطة أصبحوا بعد ذلك مسئولين فى الحكومة ومهنيين. وفى المقابل كان أغلب الأطفال المصريين يتوجهون إلى المدارس الأولية أو الإلزامية التى كانت بالمجان. ومع ذلك كان خريجو هذه المدارس غير مؤهلين لمتابعة دراستهم الثانوية أو العليا، وبالإضافة إلى هذه العقبات كان الطلبة بحاجة إلى النجاح فى امتحان يحصلون بعده على شهادة تؤهلهم للالتحاق بالمدرسة الثانوية.

كان الاختلاف الأساسى بين المدارس الأولية والمدارس الإلزامية أن الأولى كانت توفر دراسة طوال اليوم فى حين أن الثانية كانت الدراسة بها نصف اليوم فقط، كما كانت الدراسة بالمدارس الإلزامية تحقق الحد الأدنى من التعليم للأطفال فى المناطق الريفية. ومع ذلك كانت الفوارق بين التعليم الأولى والإلزامى غائمة أحياناً. وكان ٤٥٪ فقط من التلاميذ الذين يصلحون للتعليم يترددون على هذه المدارس عام ١٩٤٢^(٨).

انعكس إهمال الدولة للمدارس الأولية والإلزامية على ما خصص لميزانية التعليم. فمثلاً في عام ١٩٤٢ خصصت لهذه المدارس ٢٣٪ من ميزانية التعليم في حين حصلت المدارس الابتدائية على ١٦٪^(٩) رغم أن عدد المدارس الأولية والإلزامية كان يفوق المدارس الابتدائية بخمس عشرة مرة^(١٠). ويبدو انخفاض ميزانية تلك المدارس في مصر آنذاك واضحاً إذا ما قورنت بمقدار ما كانت تصرفه الدول الأوروبية على التعليم الأولي. فقد كان يصل إلى ٦٠٪ أو ٧٠٪ بعد الإنفاق على المباني والتجهيزات^(١١).

وبدأ من أوائل الأربعينيات بدأ خبراء التعليم يتحدثون عن فشل هذا التعليم الأولي ويقدمون الحلول الممكنة. وكان من ضمن الحلول المقترحة الشاملة هو توحيد الدارسة في المدارس الأولية والإلزامية، وكان من المتوقع أن يكون لهذه الخطوة أثرها الكاسح في نظام التعليم المصري. وقد قدمت وزارة المعارف خطة هذا الاقتراح أوائل عام ١٩٤١، إلا أن البرلمان لم يقره إلا عامي ١٩٤٩، ١٩٥١ ولم يكن التطور خلال هذه السنوات العشر سهلاً. فقد كان نقص وجود سياسة تعليمية وطنية، والتنافس داخل وزارة المعارف والتغيرات الكثيرة في الحكومة قد عقدت مسار هذا الاتجاه بالإضافة إلى أن تغيير الحكومات خلال الأربعينيات كان يستتبع بالتالي تغييراً في السياسة التعليمية لتحل سياسات جديدة بدلاً من القديمة.

إلا أن أكثر العناصر المؤثرة في تلك الفترة كانت الطبيعة المحافظة للدائرة الحاكمة في تلك الفترة. فلأن هذا التوحيد المقترح كان يعنى بالضرورة انقلاباً شاملاً في نظام التعليم على المستوى الأولي مما ينعكس بالتالي في صورة تغييرات هيكلية في المجتمع المصري فقد اتخذت العناصر المحافظة موقفاً حذراً من هذه القضية، ورغماً عن كل هذه العقبات فإن قانون توحيد الدراسة صدر في ١٩٥١، وهو ما يعتبر إنجازاً كبيراً في تاريخ التعليم الحديث في مصر. وبعد الانقلاب العسكري عام ١٩٥٢ تمكنت حكومة الثورة من تبني هذه السياسة وتطبيقها في صورتها المتكاملة.

وكان الموضوع الآخر المهم محل النقاش خلال الأربعينيات والخمسينيات هو التعليم المجاني. فقد قررت الحكومة إلغاء التعليم في المدارس الابتدائية عام ١٩٤٢، وفي المدارس الثانوية عام ١٩٥٠. وكانت مشكلة التعليم الابتدائي المجاني بطبيعتها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية توحيد التعليم الأولي، ونظرياً لم يكن من الممكن تحقيق

هذا التوحيد دون إلغاء المصروفات، وبالتالي طمس التعليم الابتدائي المجاني الفوارق بين النظامين. ولكن في حقيقة الأمر أنه رغم أن القضيتين كانتا ماثرتين في وقت واحد تقريباً في بداية الأربعينيات، فإن وزارة المعارف تعاملت مع كل منها على حدة، وبمعنى أدق فإن هذه الأهداف اعتبرت حصرياً من الجانبين، وحتى بعد قرار الحكومة في عام ١٩٤٣، لم تتأكد مجانية التعليم الابتدائي خلال النصف الثاني من الأربعينيات بسبب تغير الحكومات. بل إنه في وقت ما تم إلغاء هذا القرار بصورة غير مباشرة. ومع ذلك فقد قوبلت هذه الخطوة إلى الوراء بكثير من المعارضة الشعبية العنيفة ولم يستقر الرأي على التعليم المجاني في مستواه الأولي إلا في نهاية الأربعينيات.

أما المشكلة الثالثة المهمة في التعليم، فكانت ما يتعلق بقضية الكم مقابل الكيف، حيث كانت لكل منهما مدرسته الخاصة في التفكير. وكانت مدرسة الكم تعتقد فكرة أن كل طفل له الحق في الحصول على التعليم في جميع مستوياته، في حين أن مدرسة الكيف على الجانب الآخر كانت تؤمن بأن الاستعدادات المالية واللوجيستكية يجب أن تتم قبل التوسع في التعليم بصورة غير عشوائية والسماح بشيوع الفوضى في التأسيس والإدارة والتدهور في مستويات التعليم. وبالطبع ظهرت هذه القضية - الكم والكيف - خلال المناقشات عن توحيد التعليم، والتعليم المجاني في المدارس الابتدائية والثانوية لارتباطها الوثيق بهاتين القضيتين.

بداية المناقشات الخاصة بالتعليم المجاني وتوحيده

تقرير نجيب الهلالي عام ١٩٤٣

في منتصف الثلاثينيات، بدأ اهتمام المصريين الذين انغمسوا في المشكلات الاجتماعية والسياسية بالمشاكل الاجتماعية الداخلية، وكانت قضية التعليم من أهم الموضوعات الرئيسية المثارة في تلك الفترة. وتركزت المناقشات عن التعليم بصفة خاصة حول التوسع في التعليم الأولي بالإضافة إلى البطالة التي كان خريجو المدارس الثانوية يعانون منها^(١٢). إلا أن هذا الجدل المثار عن التعليم انقطع لفترة مؤقتة بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية. وفي فبراير ١٩٤٢ أجبر الإنجليز القصر على استبدال

الحكومة المناهضة للإنجليز بحكومة الوفد التي كان يرأسها مصطفى النحاس. وبالتالي فقد تم التخلي عن السياسات التعليمية محل اهتمام الحكومة السابقة.

وضع نجيب الهلالي وزير المعارف في حكومة الوفد سياسته التعليمية الخاصة والتي تعتبر أول سياسة شاملة منذ دستور ١٩٢٣^(١٣). وفي عام ١٩٤٣ كتب "تقريراً عن الإصلاح التعليمي في مصر" الذي استند إلى النماذج العالمية وخاصة البريطانية والأمريكية والتي وردت في خطة الإصلاح التعليمي التي جاءت بعد الحرب في ضوء المبادئ الديمقراطية. وفي تقريره اقترح الهلالي أن تتبع مصر نفس المنهج الإصلاحي حتى تصبح عضواً في المجتمع الديمقراطي العالمي. وكان مبدأ تكافؤ الفرص هو الذي حدد الرؤية الأساسية لهذه السياسة التعليمية الجديدة، وأعلن الهلالي اعتزام الحكومة إلغاء المصروفات في المدارس الابتدائية.

في الجزء المعنون "اتجاه جديد في السياسة التعليمية - تكافؤ الفرص"، وبعد مناقشة مستفيضة في كيف تم تطبيق هذا المبدأ في الولايات المتحدة وبريطانيا، اقترح الهلالي مجانية التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية في مصر، وأشار إلى أن الإصلاح التعليمي هو ضرورة ملحة لمنع الانقسام الاجتماعي الذي كان متعارضاً مع خطة التعليم الوطنية الواسعة التي وضعت في الثلاثينيات والأربعينيات، وكما يكتب باراك سالوموني عن ذلك باستفاضة في الفصل السادس، كانت الدولة لها رؤيتها التعليمية الواضحة والمتمثلة في خلق إحساس من التوحد والوعي الوطني في شباب مصر.

واستشهد الهلالي بالمشكلة العامة المتعلقة بفقر الآباء وعجزهم عن دفع المصروفات المدرسية، كما عبر عن قلقه من النتائج: "هذه الأحوال السيئة سوف تخلق بالضرورة كراهية طبقية، وتولد العداء"^(١٤).

"سوف يتولد شعور بالمرارة في نفس التلاميذ ويتفاقم تجاه زملائه وأقرانه الأغنياء. مما سوف ينتج عنه تمزق الروابط الروحية المقدسة وبالتالي فإن مواطني الدولة الواحدة الأم - بدلاً من أن تجمعهم وحدة المشاعر، والعقل وأسلوب التفكير سوف يدفعون إلى تشكيل حزب عدائي"^(١٥).

وقد حاول الهلالي أن يبرر إلغاء المصروفات المدرسية، وتطبيق نظام المجانية فى المدارس الابتدائية والثانوية على أرضية أن هذه المصروفات التى تؤخذ من التلاميذ لا تشكل إلا جزءاً يسيراً من ميزانية التعليم الكلية. وأكد أن فرض الرسوم المدرسية يتعارض مع "الليبرالية الاجتماعية" و"مبادئ الديمقراطية" حيث إن ميزانية الدولة الكبيرة تنفق فقط على هؤلاء الأطفال الذين يمكنهم أن يتحملوا هذه الرسوم.

وقضية أخرى ناقشها فى خطته لإصلاح التعليم وهى التعليم الإلزامى. فقد هاجم السياسة السائدة، واقترح امتداده حتى لمدة ست سنوات مع يوم دراسى كامل، "مع تخصيص أكبر قدر من الإنفاق تسمح به الميزانية والموارد"^(١٦). كما اقترح أيضاً توجيه التعليم الإلزامى بصورة واقعية تتلاءم مع بيئة التلاميذ، بمعنى تدريب الأطفال على "الزراعة فى المجتمعات الزراعية، والتجارة والصناعة فى المدن الكبرى، والملاحة والدراسات البحرية فى المدن الساحلية". وفى تعامله مع التعليم الابتدائى، والتعليم الجماعى والإلزامى كقضايا منفصلة، ينكر الهلالي إمكانية توحيد النظامين، بل ويؤكد الطبيعة الخاصة للتعليم الإلزامى بربطه بالبيئة المحلية.

كتب الهلالي تقريره عن "إصلاح التعليم فى مصر" فى شهر ديسمبر ١٩٤٣ وبعدها قدم إلى البرلمان، وافتتح الهلالي الجلسة يوم ٣ يناير ١٩٤٤، بإلقائه شرحاً مفصلاً للتقرير أمام مجلس النواب الذى أشار بعض من أعضائه إلى إغفال بعض القضايا المهمة فى التقرير مثل تساوى الفرص فى التعليم الإلزامى، وتوحيد التعليم الابتدائى مع التعليم الأولى الإلزامى.

وفى استجابة للتقرير المقدم أشار النائب محمد فريد زعلوك - وكان زعيماً للطلبة الوفديين أثناء فترة دراسته^(١٧) - إلى انحياز الهلالي إلى تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص قائلاً: "إن صاحب المعالى الوزير قرر أن يطبق هذا المبدأ بحرفيته على التعليم الابتدائى والثانوى، وخاصة بتطبيق التعليم المجانى على جميع المدارس فى هاتين المرحلتين، وعلى الجانب الآخر أهمل تطبيق هذا المبدأ على التلاميذ فى التعليم الإلزامى رغم أن أعداد التلاميذ فى التعليم الابتدائى والثانوى تقل عن تلك الموجودة فى التعليم الإلزامى"^(١٨).

وأشار النائب زعلوك إلى التناقض مع اتجاهاته نحو التعليم الابتدائي والثانوي من جانب والتعليم العام من جانب آخر. وكان حماس الوزير على أشده وهو يدعو إلى تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم الابتدائي والثانوي. ومع ذلك فحين أثير موضوع التعليم الإلزامي تغيرت نظرتة وأصبح أكثر حذراً وتردداً. وكان زعلوك يؤمن بأن "التلاميذ في المدارس الإلزامية فقراء وبحاجة إلى اهتمام أكبر من غيرهم، وأنهم الأجدر بتطبيق المبدأ عليهم"^(١٩) وبالتالي فإن تعامل الهلالي مع التعليم الإلزامي يعتبر غير كافٍ.

وقبل الرد على النقاط التي أثارها تعليق زعلوك على التعليم الإلزامي، أشار الهلالي إلى أن وجهة نظر زعلوك تماثل تلك التي أبداهما أحد المسؤولين في وزارة المعارف والذي سبق له أن ألقى محاضرة بهذا الشأن تحت رعاية الوزير^(٢٠). وأضاف الهلالي بأن الوزارة تجابه ضغوطاً من جبهتين متعارضتين وأنها "أصبحت بين المطرقة والسندان". فأمثال هؤلاء المسئول وأيضاً زعلوك يدعون بأن "وزارة المعارف ليست عادلة من حيث إن المدارس الابتدائية محدودة في فئة قليلة من المصريين في حين أنها يجب أن تتسع لتشمل القرى والمجتمعات الصغيرة بحيث يتسنى للمصريين أن يحصلوا على فرص متساوية." وعلى الجانب الآخر كان في رأى الكثيرين أن "المناطق الزراعية سوف تتدهور إذا امتد التعليم الابتدائي إلى الريف"^(٢١). وكان الهلالي ينحاز إلى هذا الرأى الأخير فقد أورد في تقريره أنه يفضل إصلاح التعليم الأولى الإلزامي عن إدخال المدارس الابتدائية في القرى والمدن.

كانت لجنة التعليم قد أعدت بياناً عن تقرير الهلالي للعرض على مجلس النواب وفي هذا البيان حث إبراهيم تكلا رئيس اللجنة ومقررها وزير المعارف على دراسة إمكانية بقاء التعليم الابتدائي والإلزامي كما هو أو توحيدهما. وبعد ذلك بقليل أثار عبد العزيز الصوفاني - أحد نواب الحزب الوطني - أيضاً قضية توحيدهما وخاصة في ضوء إلغاء المصروفات المدرسية في المدارس الابتدائية، وبعد إعلانه دعمه لفكرة التوحيد طلب رأى الهلالي فيها^(٢٢).

وفى رده أوضح الهلالي أنه يهدف إلى التفرقة الكاملة بين المدارس الريفية والمدارس الابتدائية، واعترض على فكرة دمج النظامين المختلفين.

"هذا الموضوع المهم لم يغيب عن اهتمامي، وليس من الدقة القول أن التقرير لم يشر إلى هذا السؤال الذي هو لب هذه القضايا. وحين شرح التقرير السياسة المستقبلية وفرق ما بين نوعين من التعليم الأول وهو التعليم الريفى والثانى وهو التعليم الابتدائى، فقد كان هذا يعنى أنه سوف لا يكون هناك دمج بين التعليم الريفى والابتدائى".

وقد دافع الهلالي عن موقفه مشيراً إلى ظهور فكر جديد يساند التنوع فى التعليم الأولى ويرفض فكر المدرسة القديمة التى تسيدت فى فترة ما والتى كانت تؤيد وتدافع عن منهج واحد فى التعليم الأولى "حتى يتسنى تعليم أبناء وبنات الوطن الواحد وحدة الفكر والعادات والاتجاهات والميول". وأنه يؤمن بأن التماثل فى التعليم الأولى لا يأتى بنتائج إيجابية جيدة^(٢٣).

رد القبانى

فور ظهور تقرير الهلالي، أعطى إسماعيل محمود القبانى^(٢٤) - وهو أحد الخبراء المؤثرين فى التعليم - محاضرتين فى ٢٦ ديسمبر ١٩٤٣، وه يناير ١٩٤٤ تحت رعاية اتحاد خريجي معهد التعليم، وقد نشرت هاتان المحاضرتان - الذى من المحتمل أنهما اللتان أشار إليهما الهلالي فى مجلس النواب - فى كتاب "سياسات التعليم فى مصر"،

The Policy of Education in Egypt.^(٢٥)

وكان القبانى قد عمل لفترة طويلة فى وزارة المعارف، ولكن حين نشر كتابه عام ١٩٤٤ كان عميداً لمعهد التعليم. وحين استقالت حكومة الوفد وجاءت الحكومة الائتلافية بعد ذلك بسنة كان القبانى مستشاراً فنياً لوزارة المعارف، وكان واحداً من أبرز خبراء التعليم فى تلك الفترة كما كان يمثل مدرسة معينة فى الفكر فى مجال التعليم والتى ستناقشها لاحقاً. بالإضافة إلى أنه كان يعتبر المهندس الرئيسى فى وضع السياسة التعليمية فى الحكومات غير الوفدية وبالتالي كان اختلافه مع الخبراء التعليميين الوفديين ومن ضمنهم الهلالي والأديب طه حسين.

ويتضمن الفصل الثالث من هذا الكتاب "تعليم العامة" رد القباني حيث يتفق مع الهلالي في تركيزه على مبدأ تكافؤ الفرص والتعليم المجاني في المدارس الابتدائية، ولكنه ينتقد اتجاهه نحو التعليم الإلزامي (الأولى). ويشير إلى أنه لتحقيق تطبيق تكافؤ الفرص فإن القباني يركز على أهمية توحيد التعليم الابتدائي والأولى^(٢٦).

وفي بداية هذا الفصل، يعرف القباني "تكافؤ الفرص" بأنها التوسع في التعليم إلى أبعد مدى ليشمل جميع طبقات الشعب. ويقول "إنه من الضروري توجيه الاهتمام إلى التوسع في التعليم العام بين الناس قبل الاتجاه إلى تعليم النخبة الذي يؤثر فقط في مجموعة محدودة^(٢٧)". وهنا يوضح القباني استخدامه لتعبير "التعليم العام"، الذي يعنى بالنسبة له "التعليم الذي يعم الجميع" أو "التعليم الإلزامي" كما يطلق عليه. أما ما جرى عليه العرف في استخدام هذا التعبير ليشير إلى التعليم الابتدائي والثانوي فهو تفسير خاطئ^(٢٨).

ونظرة إلى الوراء لرؤية التطور في التعليم الإلزامي خلال العشرين عاماً الماضية، كما قال، تؤكد الفشل الكامل للجهود التي بذلت فيما يتعلق بالكم والكيف، وعلى هذا فقد حدد نفس المشكلة التي انتهت إليها الهلالي، إلا أن الحل الذي توصل إليه القباني كان مختلفاً في أساسه، كما أنه شكك في النظام السائد في تلك الفترة قائلاً:

"أين هو تكافؤ الفرص؟"

ما هي مبررات هذه التفرقة الواضحة بين أبناء الأمة الواحدة؟ وهل يملك تلاميذ التعليم الخاص (النخبة) صفات مميزة لا توجد في المدارس الأولية العامة^(٢٩)؟

وبالنسبة للسؤال الأخير فهو يؤكد أن كثيراً من تلاميذ التعليم الخاص (النخبة) يكونون متوسطي الذكاء أو أقل من المتوسط، ثم يشير القباني والذي عرف عنه أنه الطفل الوحيد الذي حصل على منحة حكومية خلال الاحتلال البريطاني^(٣٠)، إلى أن "كثيراً من الأطفال الفقراء لديهم مستوى مرتفع من الذكاء والمواهب العالية". وبعد أن أعطى قائمة بأسماء رموز بارزة من عائلات فقيرة يتساعل "ما هو أعداد العباقرة التائهين والضائعين في المدارس الإلزامية في قرى ومدن مصر^(٣١)".

ولأن التعليم الإلزامى كان نهاية المطاف بالنسبة لخريجيه الذين لم يكن فى إمكانهم استكمال تعليمهم فى المدارس الثانوية أو التعليم العالى فقد أكد القبانى على أهمية دمج التعليم الابتدائى والإلزامى، من منطلق أن الإبقاء على النظامين مفترقين ينتج عنه آثار سيئة سواء على المستوى الفردى أو القومى. فعلى المستوى القومى يخلق هوة سحيقة بين الطبقة المتميزة والطبقة الشعبية وتمنع "البلد من الاستفادة من الكثير من الموهوبين من أبنائها" (٢٢).

وبهذا أكد القبانى على أهمية التوحيد دون نقد الهلالى أو التعرض إليه بالاسم أو لبعض مقتطفات من تقريره. وقد أشارت محاضراته إلى اعتراض كامل قوى على رأى الهلالى، خاصة فيما يتعلق بسياسة التعليم الأولى. وكانت اعتراضات القبانى واضحة: "إذا لم نحقق التوحيد بين النظامين، فإن جملة "تكافؤ الفرص" ستظل بلا معنى" و"لا يمكن تطبيق قرار التعليم الابتدائى المجانى دون هذا التوحيد" (٢٣).

توحيد المنهج الدراسى فى ظل الحكومة الائتلافية عام ١٩٤٥

مشروع طويل الأجل

بعد أكثر من سنة بقليل، وعلى وجه التحديد فى مايو ١٩٤٥، قدم القبانى مذكرة بعنوان "السياسة العامة لتوسع التعليم فى مصر" إلى وزير المعارف، وكانت حكومة الوفد قد أقيمت حينذاك، وبعد اغتيال أحمد ماهر رئيس الوزراء الذى تولى رئاسة الحومة بعدها لأشهر قليلة، شكل محمود فهمى النقراشى حكومة ائتلافية فى فبراير ١٩٤٥. ولم يكن الهلالى وقتها وزيراً للمعارف، فكان المسئول الذى تلقى مذكرة القبانى هو "عبد الرزاق السنهورى" وتطابقت محتويات المذكرة بما ضمنه محاضراتيه اللتين ألقاهما فى السنة السابقة بصورة واضحة، إلا أنه ظهرت بعض الاختلافات فيما يتعلق بنقطتين: حرية أكثر فى نقد اعتراض الهلالى على فكرة التوحيد ووجهة نظره المعدلة فى التعليم الابتدائى المجانى.

بعد شرحه فشل التعليم الإلزامى وما يستتبعه من الاحتياج إلى توحيد النظامين الأوليين، انتقد القباني اقتراح الهلالي قائلاً:

"فى العام الماضى، اتخذ وزير المعارف خطوة إلى الأمام للإسراع فى تطوير النظام الموحد حيث قرر إلغاء المصروفات فى التعليم الابتدائى لمبدأ تكافؤ الفرص فى التعليم. وفى هذه الحالة فإن المنطق يتطلب توحيد المدارس الابتدائية والإلزامية حيث إن هذا المبدأ يفرض تلقى جميع الأطفال تعليمهم فى ضوء نظام واحد. إلا أن الوزارة، بدلاً من سعيها لإزالة هذا الاختلاف عملت جاهدة لتعزيزه. فقد قررت أن يكون التعليم الإلزامى تعليمًا "مهنيًا"^(٣٤).

وأكد القباني أن قرار الوزارة "أهدر مبدأ تكافؤ الفرص من أساسه، وتسبب فى زيادة الحواجز التى تعوق بشدة متابعة تلاميذ المدارس الإلزامية للتعليم وتحسين مستوى معيشتهم"^(٣٥).

أما التغيير الثانى حسب آرائه فقد تبلور فى رفضه مساندة قرار الهلالي الخاص بمجانية التعليم فى المدارس الابتدائية، ولو أنه - من الوجهة النظرية - لو كان القباني يرغب فى توحيد الدراسة، فقد كان عليه ألا يعترض على فكرة مجانية التعليم. ومع ذلك فلو كان توحيد المدارس خطة طويلة الأجل وتحتاج إلى خطوات عديدة لكان من الممكن أن تظل المدارس الابتدائية تحصل نفقات دراسية حتى المرحلة الأخيرة، وربما كان هذا ما يدور فى ذهن القباني. ولذلك فبعد استبعاد الهلالي وعودة القباني كمستشار فنى للوزارة أعلن بصراحة نقده لسياسة الهلالي. وكان اعتراضه الرئيسى أن الزيادة المفاجئة فى أعداد الدارسين سوف يزيد من الضغط على المدارس الابتدائية التى كانت تعاني أساساً من زيادة الأعداد بحيث إنه كان من الصعوبة بمكان - على حد قوله - القيام بالتدريس ومتابعة التلاميذ بصورة سليمة فى آن واحد. "نحن نفترض أن قرار مجانية التعليم فى أى من أشكاله يتوقف فقط على توفير المكان المخصص لكل من يريد الالتحاق بالمدرسة". ثم أضاف "إلا أن الحالة السائدة الآن فى التعليم الابتدائى مستحيلة"^(٣٦).

وتفصح اعتراضات القبانى عن اتجاهه الحذر للتوسع فى التعليم. وكانت هذه القضايا هى أساس المناقشات المهمة التى دارت بعد ذلك: القضية الأولى تتعلق بمجانية التعليم الابتدائى، والتى لم تكن قد استقرت عام ١٩٤٣ وظلت تشغل بال الكتاب حتى عام ١٩٤٨، والثانية نظرية الكم مقابل الكيف. وقد أعطى القبانى الأولوية للكيف أكثر من الكم حتى يتجنب الفوضى فى المدارس وتدهور مستوى التعليم. إلا أن الأغلبية من المهتمين بالتعليم تحدوا هذه الفكرة.

لم تكن فكرة توحيد المدارس الابتدائية والأولية الإلزامية والتى ناصرها القبانى قضية جديدة فى وزارة المعارف. ففي عام ١٩٤٠ بدأت الوزارة فى التفكير فى هذا الاحتمال. بل ووضع خطة مبدئية لتنفيذه^(٣٧). إلا أن هذه الخطة وضعت على الرف حين تولت حكومة الوفد السلطة عام ١٩٤٢. وكما سبق وذكرنا فإن الهلالى - الذى كان وزيراً للمعارف فى ذلك الوقت قدم تقريراً عام ١٩٤٣ كان مختلفاً تماماً عن التقرير الذى عرض عام ١٩٤١. وتكررت القصة عام ١٩٤٥ حين جاءت الوزارة الائتلافية فى الحكم.

وفى لقاء مع عبد الرزاق السنهورى نشرته جريدة الأهرام ١٩٤٥^(٣٨) شرح السنهورى سياساته التعليمية طويلة الأجل^(٣٩) والتى تتركز فى اتساع آفاق التعليم وتوحيد نظمته على المستوى الأولى، وكانت سياسات السنهورى عام ١٩٤٥ مماثلة للأفكار التى طرحها القبانى فى محاضراته عام ١٩٤٤ ومذكرته عام ١٩٤٥ والتى تظهر تعاونه مع السنهورى. وقد نشرت الأهرام قول السنهورى "لا يوجد ما يبرر وجود أنواع مختلفة من التعليم مثل التعليم الإلزامى والأولى والابتدائى" وأضاف أن النظام المنفصل "أصبح لا يساير العصر ولا يتواءم مع الديمقراطية" وأن الدول المتقدمة هجرته تماماً.

إلا أن تحفظه تجاه فكرة توحيد المدارس ظهر بعد شهر حين ناقش ثلاثة مشروعات إصلاحية فى التعليم الأولى أمام مجلس النواب:

"إن هذه المهمة الثالثة "التوحيد" تأتى فى المرحلة اللاحقة فى الأهمية للمهمة الأولى والثانية وهما التوسع فى التعليم الأولى وتحويل المدارس الإلزامية إلى مدارس أولية، وهاتان المهمتان تتطلبان جزءاً كبيراً من مجهود الوزارة وميزانياتها. أما باقى الجهد والأموال فسوف يتم إنفاقها على تحويل المدارس الأولية إلى مدارس ابتدائية"^(٤٠).

وسواء كان اعتراضه مستمداً من رغبته فى تجنب فوضى التطبيق العشوائى أو راجعاً إلى التردد فى قراره أو نقص حماسه فإن هذا الاعتراض يلخص اتجاه وزارة المعارف فى فكرة توحيد المدارس فى الأربع السنوات اللاحقة. ورغم قسمها بتطبيق الديمقراطية فى التعليم، فإن هذا التقاعس أربك الشعب المصرى وأصابه بالإحباط، وتفاقم الوضع نتيجة تناقض الآراء حول إلغاء المصروفات من المدارس الابتدائية، وهو نظام أدخلته حكومة الوفد. وعلى النقيض من ذلك فقد كان كثير من الخبراء والغالبية من الشعب متحمسين لمشروع توحيد المدارس، وإلغاء المصروفات فى المدارس الابتدائية والثانوية بل وتوقعوا تنفيذ الحكومة لهذه المشروعات.

المناقشات حول المصروفات المدرسية فى المدارس الابتدائية

(١٩٤٥-٤٨)

فى ديسمبر ١٩٤٥، قدمت وزارة المعارف مقترحاتها حول التعليم العام، وخاصة فيما يتعلق بتوحيد المدارس على المستوى الأولى إلى "المجلس الأعلى للتعليم" لإبداء الرأى^(٤١). وتمحور الاقتراح حول استمرارية كل من التعليم الأولى والإلزامى لمدة ست سنوات على أساس يوم دراسى كامل، مع وضع نفس المنهج للثتين فيما عدا تدريس اللغات الأجنبية. وإلى أن يتم تطبيق هذا التغيير يبقى التعليم الابتدائى كما هو. وبعد استكمال الدراسة فى هذا المستوى، يؤدى التلاميذ فى كلا النظامين نفس الامتحان، ويتأهل الناجحون للالتحاق بالتعليم الثانوى^(٤٢). وبذلك يكون المشروع المقترح لا يستهدف دمج هذين النظامين ولكن توحيد مدة الدراسة والمناهج إلى أن يتم الدمج فى المستقبل.

أحال المجلس الأعلى للتعليم تلك الخطة إلى لجنة التعليم العام للدراسة والفحص. وبعد شهرين وافقت اللجنة على المبادئ الواردة بالخطة مع إدخال بعض التعديلات عليها، والتي تلخصت فى إعادة فرض الرسوم على الكتب ووجبة الغداء التى كانت موجودة فى المدارس الابتدائية، فيما عدا الطلبة المتفوقين الذين انتقلوا من المدارس الأولية ولم يكن فى مقدورهم تحمل هذه الرسوم.

وللوهلة الأولى قد يبدو أن هذا التعديل تافهاً، ولكن واقع الأمر أنه كان له مغزاه الواضح، فقد عكس القضايا والمشكلات الرئيسية التي أحاطت بالتعليم فى تلك الفترة. فلم يكن له تأثيره على قضايا مجانية التعليم العام وتوحيد مستوى الدراسة فى المراحل الأولية فحسب، ولكنه ألقى الضوء بصورة واضحة على التضارب فى سياسات وزارة المعارف، بالإضافة إلى أن هذا الجدل حول المصروفات المدرسية عكس الصراع حول قضية الكم والكيف، وأظهر التنافس الحاد بين خبراء التعليم. وفى النهاية أثبتت استجابة الحكومة لطلبات المواطنين لإلغاء المصروفات فى المدارس الابتدائية قوة الشعب فى التأثير على سياسة الحكومة.

وكما اقترحت مذكرة القباني عام ١٩٤٥، اهتمت الحكومة الجديدة بتكديس التلاميذ فى المدارس الابتدائية والذي كان يسير من سيئ إلى أسوأ كل عام، وفى ملاحظاته على سياسات التعليم فى ١٩٤٥-١٩٤٧، استخدم القباني هذا التكديس كسبب يبرر قرار اللجنة بتعديل المصروفات الخاصة بالكتب والوجبات الغذائية.

إن الضغط المشكل عليهم (المدارس الابتدائية) سوف يزداد سنة وراء أخرى مما سينتج عنه لا محالة تدهور مستوى التعليم فى المدارس الابتدائية. وقد قررت اللجنة طلب تحديد أعداد التلاميذ من خلال قصر وجبات الغذاء المجانية على الطلبة المتفوقين من المدارس الأولية والذين انتقلوا إلى السنة الثالثة فى المدارس الابتدائية^(٤٣).

وامتدت تعديلات اللجنة على مقترحات الوزارة الخاصة بالمصروفات خلال المناقشات التى دارت فى المجلس الأعلى وقرار وزارة المعارف الأخير. وبعد مناقشة تقرير اللجنة على مدار ثلاث جلسات، أعلن المجلس الأعلى قراره فى يونيو ١٩٤٦ والذي يتضمن موافقته على توحيد الدراسة. ولكنه فرض قيوداً جديدة: إن التلاميذ المعفيين من المصروفات لا يجب أن يكونوا "متفوقين" بل "ممتازين" فى نتائج امتحاناتهم.

وفى عهد وزير المعارف الجديد محمد حسن العشماوى، وضعت الوزارة قيوداً إضافية على التعليم الابتدائى المجانى. وفى المذكرة التى قدمتها لمجلس الوزراء فى نفس الشهر^(٤٤)، لم تفرض المصروفات فقط على الوجبات والكتب، بل على الأدوات

المكتبية والعناية الصحية، والأنشطة الاجتماعية، والرياضية وامتحانات الشهادات. ووافق مجلس الوزراء على قرار الوزارة^(٤٥). وقد اعترف القبانى فى مذكرته "ملاحظات على المشروعات الخاصة بنظام التعليم العام منذ عام ١٩٤٥-١٩٤٧" بأن قرار المجلس الأعلى للتعليم بفرض مصروفات هو "عودة إلى المصروفات المدرسية فى صورة غير مباشرة".

وحين أعلن عن المصروفات الجديدة فى المدارس الابتدائية واجهت الحكومة ضغطاً قوياً من الخبراء وأولياء الأمور وآخرين. وفى يونيو ١٩٤٥، انتقد المواطنون الاتجاهات المتعارضة داخل وزارة المعارف تجاه مجانية التعليم الابتدائى. وكان أحد المنتقدين هو طه حسين الذى كتب مقالة فى جريدة "البلاغ" اليومية. فقد أحس بالنية الحقيقية للوزارة، وأدان بشدة محاولاتها تقويض مجانية التعليم فى تلك المرحلة. فيقول "إن حقيقة الأمر أن الشعب قد حصل فعلاً على مجانية التعليم الابتدائى ولذلك فهى جريمة فى حق الشعب وإنكار لحقوقه أن يلغى التعليم المجانى سواء أكان هذا الإلغاء مواجهة صريحة أو خدعة ملتوية"^(٤٦). وفى ديسمبر عام ١٩٤٥ عرضت قضية التعديلات فى مجانية التعليم فى المدارس الابتدائية على مجلس النواب فى الجلسة السنوية الخاصة بخطبة العرش، وانتقد محمد حنفى الشريف - وهو نائب وفدى - تغيير سياسة الحكومة كاشفاً عن أن المصروفات الجديدة تكاد تماثل المصروفات الرسمية الأولى^(٤٧).

وفى سبتمبر ١٩٤٦ بعد قرار المجلس الأعلى بفرض رسوم إضافية على التعليم الابتدائى، ظهرت ثلاث مقالات متتالية تناقش فكرة مجانية التعليم الابتدائى فى مجلة الثقافة. وكان محررو هذه المقالات ثلاثة من أبرز خبراء التعليم فى مصر، محمد فريد أبو حديد وأحمد عبد السلام الكردانى ومحمد حسن العشماوى، وكانت المقالة الأولى بقلم محمد فريد أبو حديد عميد معهد التعليم بعنوان "رسالة خاصة: إلى معالى وزير المعارف" موجهة إلى "العشماوى" الوزير فى ذلك الوقت^(٤٨). وفى حين ما كانت المقالة تثنى على إنجازات الوزيرين السابقين فإنها وجهت نقداً لسياسة العشماوى الجديدة:

"ليس من المفيد لنا أن نتجه اتجاهًا جديدًا مرة ثانية، وليس من صالح البلد أن نوقف المسار الطبيعي الذي تؤدي إليه أحوال حياتنا الواقعية".

ولم يكن العشماوى هو الوحيد الذى حاول إحداث هذا التغيير، فكما قال طه حسين كانت وزارة المعارف قد بدأت هذه العملية برئاسة السنهورى. إلا أنه كان من المؤكد أن العشماوى خطأ خطوة إلى الأمام نحو قلب هذه السياسة.

وفى العدد التالى من مجلة "الثقافة" وفى مقالة بعنوان "بالبريد العادى: إلى الأستاذ فريد بك أبو حديد" جاء رد فعل عبد السلام الكردائى^(٤٩)، الذى كان واضحاً أنه يؤيد اتجاه الوزارة إلى تغيير المصروفات، وكانت لهجته مليئة بالتحدى^(٥٠). ففى رده على اقتراح أبو حديد للاستمرار فى المسار الأصلى الذى حددته حكومة الوفد أعلن الكردائى أن هذا الوضع سوف لا يشجع على الأفكار الخلاقة فى التعليم بالإضافة إلى عرقلة حرية التفكير.

قام الوزير العشماوى بالرد على هاتين المقاتلتين فى الأسبوع التالى لنشرهما^(٥١). ففى "رد معالى وزير المعارف" أنكر اتهامات أبو حديد له بمحاولة إلغاء سياسة التعليم المجانية بل وادعى تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص "بمعناه الحقيقى" إلا أنه ذكر بوضوح أن فرض المصروفات كان بفرض الإبقاء على النظام السائد فى المدارس الابتدائية دون أن يمس، على الأقل فى الوقت الحاضر "إنه لمن الخطأ التفكير فى أن التعليم الابتدائى الحالى نوع من التعليم الأولى الذى يجب أن يفتح الباب على مصرعيه لكل التلاميذ". وقارن بين أعداد الطلبة فى المدارس الابتدائية وأعدادهم فى مدارس أولية أخرى: لا يوجد أكثر من ٥٠,٠٠٠ فى المدارس الابتدائية فى حين أن عدد الملتحقين بالمدارس الأخرى يصل إلى حوالى مليون تلميذ من ثلاثة ملايين مهينين للدراسة، مبدئياً رآيه فى القضية بأكملها:

"واقع الأمر أن هذا المستوى من التعليم الابتدائى هو مستوى "خاص" من حيث إنه يقبل طبقات معينة من المواطنين فقط. وليس من المعقول أن تقبل كل ابن من عامة الشعب فى المدارس الابتدائية حتى يتسنى لهم المضى فى مستويات التعليم المختلفة التى تؤهلهم للحصول على شهادات جامعية".

كانت وجهة نظر العشماوى فى الحقيقة محافظة إلى حد كبير، خاصة فى استخدامه للطبقة الاجتماعية كمعيار وحيد لإلحاق التلاميذ بالمدارس الابتدائية. وهو يتجاهل تماماً إعطاء الفرصة للتلاميذ الأذكى من العائلات الفقيرة للالتحاق بالمدارس الابتدائية، بل ويقتصرها فقط على "طبقات معينة". وتضعه هذه الآراء بعيداً عن قيادات تعليمية أخرى مثل القبانى الذى كان يناصر وجود مستويات عالية من المدارس الابتدائية، وفى نفس الوقت إعطاء الفرصة للتلاميذ المتميزين من العائلات الفقيرة فى الالتحاق بها. وبالتالي فرغم أن وزارة السنهورى هى التى أدخلت سياسة مجانية التعليم الجديدة فى المدارس الابتدائية، فإن العشماوى تقدم بها خطوة إلى الأمام رغم أنها أثبتت تناقضها مع محاولة تحقيق ديمقراطية التعليم.

ورغم دفاع العشماوى عن موقفه فى تلك المقالة، فإنه اضطر إلى تعديل سياسة المجانية فى مواجهة ضغط رأى العام القوى. وفى أغسطس ١٩٤٦ أعربت إحدى الجرائد اليومية الوفدية "المصرى" عن اعتراضها على هذه السياسة فى مقالة بعنوان "النظام الجديد لمجانبة التعليم يعيد التعليم الابتدائى إلى نظام التعليم بمصروفات"^(٥٢) ورصدت المقالة التذبذب فى سياسة التعليم منذ عام ١٩٤٥، كما أبدت اعتراضها القوى على القرار الأخير الخاص بتحديد عدد التلاميذ المعفيين من المصروفات، وألحّت على الوزارة فى إعادة مناقشة هذا النظام "حتى يمكنها أن تدرك أن هذه القضية يجب أن تعود إلى حيث كانت". وفى مواجهة هذه المعارضة القوية اضطرت الوزارة إلى تعديل سياستها من خلال إعفاء التلاميذ غير القادرين على دفع مصروفات الكتب والأدوات المدرسية والامتحانات - والتى كانت قد فرضت على جميع التلاميذ - بون تحديد عدد التلاميذ المؤهلين^(٥٣).

استمر ضغط رأى العام على الحكومة إلى أن جاءت حكومة النقراشى وعينت السنهورى وزيراً للمعارف مرة ثانية^(٥٤). وفى ديسمبر ١٩٤٧ دعا مجلس النواب السنهورى لاستجوابه مرة ثانية من قبل محمد حنفى الشريف أحد النواب. وتناول الشريف - ضمن قضايا أخرى - قضية مجانية التعليم الابتدائى وأشار إلى "هذا

السلوك الخطر" أى "التذبذب بين قرار التعليم الابتدائى المجانى وفرض مصروفات".
وتأييداً لقوله ضرب مثلاً بنفسه، إنه حين التحق بالمدرسة الابتدائية كانت مصاريف
الدراسة ٦ جنيهات مصرية فى حين أن المصروفات الحالية تبلغ ٥ جنيهات فى مجموعها
تغطى عدداً من الرسوم المختلفة. وفى رد السنهورى حاول أن يضع مصروفات الوجبات
فى إطار من التوافق البسيط مع السياسة الأصلية^(٥٥).

ورغم استمرار المعارضة الشعبية للمصروفات فى المدارس الابتدائية، فإن
الحكومة استطاعت أن تحتفظ ببعض منها فى تلك المدارس. بل إن هذه الرسوم وردت
كأحد الاشتراطات فى الاقتراح الخاص بقانون المدارس الابتدائية والذي قدمته وزارة
المعارف للعرض على البرلمان عام ١٩٤٨، وجاء فى المسودة استمرار تحصيل مصروفات
الكتب والأنوات المدرسية والوجبات ورسوم أخرى من تلاميذ المدارس الابتدائية^(٥٦).
ومع ذلك، وأثناء إعداد هذا القانون سحبت لجنة التعليم البند الخاص بتحصيل هذه
المصروفات وقدمته إلى المجلس للموافقة عليه، ووافق السنهورى وزير المعارف آخر
الأمر على هذا التعديل لتتم الموافقة على المذكرة فى نهاية الجلسة^(٥٧). وفى الصيغة
النهائية لهذا القانون والذي أقره مجلس النواب أوائل عام ١٩٤٩ ألغيت المصروفات
تماماً عدا عشرة قروش شهرياً مقابل الأنشطة الدراسية أو أنشطة أخرى إضافية قد
يلتحق بها التلاميذ^(٥٨).

كان الضغط الشعبى عاملاً أساسياً فى قرار البرلمان إلغاء كافة المصروفات فى
المدارس الابتدائية، فقد شعرت الحكومة أنه من الحكمة على الأقل إرضاء الشعب فى
هذا الموضوع. ويبدو أن الغضب الذى اجتاح الشعب ضد الحكومة فى أعقاب هزيمة
الحرب الفلسطينية كان من أهم الأسباب الملحة التى دفعت البرلمان ووزارة السنهورى
لتصحيح القانون وتهدئة العامة. وكان جو من العنف السياسى قد ساد البلاد فى
عام ١٩٤٨ ووصل إلى ذروته بمقتل النقراشى رئيس الوزراء فى ديسمبر، وكانت كل
هذه الأجواء عوامل مهمة وراء انتصار الشعب.

قانون المدارس الابتدائية ١٩٤٩

أنهى قانون المدارس الابتدائية والذي صدر أوائل عام ١٩٤٩ أربع سنوات من الجدل الشعبى حول قضية المصروفات فى المدارس الابتدائية. ويلور هذا القانون أبحاثاً ونقاشاً دام أربع سنوات فى وزارة المعارف بدءاً من عام ١٩٤٥ تحت إشراف السنهورى بصفة رئيسية. وقبل جلسة مجلس النواب التى انعقدت فى ١٩٤٨ لمناقشة المذكرة، كتب السنهورى مقالة تشرح النظام الجديد المقترح فى القانون^(٥٩) وفى هذه المقالة التى نشرت فى "صحيفة التربية" - وهى جريدة تحت رعاية وزارة المعارف - شرح أهمية دعم الشعب المصرى لصدر هذا المشروع. وطالب - ليس فقط بتفهم مدى وهدف الإصلاح بل مساندته أيضاً بكل قوة، وكان هذا التركيز على الدعم الشعبى ناجماً جزئياً من طبيعة المشروع الديمقراطى، ولكنه على الجانب الآخر كان نتيجة حسبانته لتأثير الشعب القوى على السياسة التعليمية. وفى جزء من مقالته يقول "إن وزارة المعارف تتوقع دعم الشعب لهذه الحركة الإصلاحية من منطلق ثقتها بالحكومة"، كما يقول أيضاً فى نهاية المقال "إن الوزارة تعتمد بالكامل على مساندة الشعب، فمن خلال هذه المشروعات تستهدف الحكومة فائدة الشعب ومصلحته".

كان هذا القانون هو أول قانون عام شامل تعليمى يصدر منذ أخذ المصريون على عاتقهم مسئولية التعليم العام قبل ثلاثة عقود سابقة. وفى مقال آخر فى "صحيفة التربية"، أعلن عن صدور القانون بالإضافة إلى قانون المدارس الثانوية مع إشارة إلى أن هذين القانونين يعتبران "أحداث مهمة فى تاريخ التعليم فى مصر... فلأول مرة فى تاريخ مصر الحديث يتأسس نظام وطنى شامل للتعليم"^(٦٠). ويمثل هذا القانون معلماً قانونياً مهماً حيث وضع مساراً محدداً لتوحيد التعليم الابتدائى والأولى، وقد تم الانتهاء من توحيد المدارس - على الورق على الأقل - فى حكومة الوفد عام ١٩٥١، ورغم أن التطبيق الفعلى لهذا المشروع وقع على عاتق حكومة الثورة عام ١٩٥٢.

ورغم أن ذلك فإن قانون ١٩٤٩ الخاص بالمدارس الابتدائية كان يجسد الاتجاه الحذر للوزارة القديمة، وحتى يتسنى الحفاظ على المستويات الأكاديمية السائدة فى

التعليم الابتدائي، وبالتالي رفع مستوى التعليم الأولي إلى مستوى المدارس الابتدائية كان يحتم أن يظل النظامان منفصلين في ذلك الوقت، وفي كلا النظامين اشترط القانون الدراسة لمدة ست سنوات للتلميذ تبدأ وعمره ست سنوات، على أن يكون المنهج واحداً فيما عدا اللغة الأجنبية. وفي ذلك الوقت - عام ١٩٤٩ - توقعت الوزارة تطبيق نظام التوحيد خلال عشرين أو خمسة وعشرين عاماً^(٦١). ورغم هذه المعايير الحذرة فإن القانون استند إلى مبدأ الديمقراطية وخاصة تكافؤ الفرص كما أنه عكس أيضاً رغبة الشعب في التعليم بغض النظر عن الحالة الاقتصادية.

أزمة التعليم في عام ١٩٤٩

معسكر الكم في مقابل معسكر الكيف

مع صدور القوانين الخاصة بالتعليم الابتدائي والثانوي، أصبح الشعب أكثر حماساً لمطالبة الدولة بتوفير التعليم والتوسع في نظامه. وساهم الجو السياسي العام في مصر في أواخر الأربعينيات في ازدياد جرأة الشعب في مطالبه. فبعد الهزيمة البائسة في حرب فلسطين بدأت سلطة المؤسسات السياسية - بما فيهم القصر - تنهوى في أعين كثير من المصريين. ولذلك يجب تفهم ضغط الشعب على الحكومة للتوسع في فرص التعليم في ضوء هذه المضامين الاجتماعية والسياسية الواسعة في تلك الفترة. وبالتالي - فكما أشار فريد لوسن في الفصل الثاني من أن السياسات الأجنبية كثيراً ما تتأثر بالأحداث المحلية، يشير هذا الضغط الشعبي على الحكومة لتوفير المزيد من فرص التعليم إلى المدى الذي تصل إليه توقعات السياسة المحلية وإمكانية تأثرها بالسياسة الأجنبية.

استمد الشعب قوة جديدة من دعم رموز شعبية له مثل طه حسين. الذي كان شعاره "التعليم كالماء والهواء" يبلور فكرته في أن التعليم يشكل جزءاً حيوياً من حياة الإنسان. ويناقد محمد فريد أبو حديد "قصة الماء والهواء" في مقال نشر له بجريدة "الثقافة" عن الحالة النفسية السائدة في الشعب^(٦٢) موضحاً قوة هذا الشعار الحي في جذب الناس، واصفاً بداية السنة الأكاديمية وما فيها من توتر.

"لقد كرسست نفسي لتحمل مسئوليتي في مجال التعليم، ولقد أمضيت أياماً وليال متخوفاً من السنة الأكاديمية إلى درجة أن عملي هذا أثر على عائلتي وصحتي. ثم جاءت بداية هذه السنة، وارتفعت الصيحات من كل ركن تهاجم وزارة المعارف على عدم قبولها كل من يرغب في التعليم".

ثم شرح سيطرة عبارة "الماء والهواء" على عامة الشعب في الجدل السائد:
"استحدث بعض من أصدقائي المحترمين تعبيراً رائعاً عن التعليم في كتاباتهم ثم أحاديثهم مثل الماء والهواء حيث لا يمكن حرمان أي شخص يتطلع إلى التعليم من رغبته أو غلق الباب في وجهه. فإذا منعت وزارة المعارف تلميذاً واحداً فكأنما تحرمه من الماء وتترك معدته تحترق، أو كأنما تمنعه من الهواء وتترك أنفاسه تتوقف. وأنا أعتقد أن هذا الاختراع جديد، وطريف، ولطيف ومقبول. ويشعر الإنسان بالسعادة وهو يستمع إليه، والفرحة حين يتحدث عنه. وما إن قرأ الناس ما يكتبه هؤلاء الأصدقاء المحترمون حتى انقضوا عليه، وأعادوا قوله وكرروه مراراً وتكراراً بحيث أصبح مثل أغنية شعبية أو قصة جميلة أو مثل سائر معروف لا يتساعل الناس من أين جاء أو من ألفه".

كان الجدل حول "الماء والهواء" من القوة بحيث اعترف أبو حديد "أن هذا الحماس يكاد يأخذ بتلابيب قلبي. ولقد حاولت تهدئة روحى بهذه الكلمات. ولذلك تحالفت مع كل من قال "إن التعليم حق كالماء والهواء".

وعلى ذلك كان الجدل الشعبي عام ١٩٤٩ نابعاً من مطالبة الشعب العارمة بأن تقبل المدارس الابتدائية والثانوية أكبر عدد ممكن من التلاميذ ويكمن في لب هذه المطالبات القضايا المألوفة التي تتعلق بالكم مقابل الكيف والتي نستخدمها حالياً. وكان لكل جانب متحدثه البارز: فكان طه حسين يناصر الكم، وإسماعيل القباني يناصر الكيف، ويشير أحد المؤرخين المصريين للتعليم وهو سيد إسماعيل على أن الصراع بين مدرسة طه حسين المتمثلة في مدرسة الماء والهواء، ومدرسة القباني احتدم في السنوات ما بين ١٩٤٠-١٩٥٠. أما الرأي العام في بداية السنة الدراسية عام ١٩٤٩ فكان مؤازراً تماماً لمدرسة "الماء والهواء"^(٦٣).

هذا وقد نشرت جريدة الأهرام فى نوفمبر ١٩٤٩ تعليق القبانى فى مؤتمر للمدرسين عن مأزق الحكومة فى هذا الشأن^(٦٤). وطبقاً لما قالته "الأهرام" فقد قال القبانى "إن الوزارة - بل الوزارات على وجه الدقة - لم تستطع توجيه الرأى العام إلى الواقع والحقائق. بل إنها - فى مواجهة الضغط الشعبى القوى والمناقشات التى دارت فى البرلمان اضطرت إلى فتح أبواب المدارس والمعاهد دون تنظيم لأى متطلبات تحتاجها". أما طه حسين - الذى حصل على شعبية فائقة من خلال مدرسة الماء والهواء - فقد عرض وجهة نظره فى "الأهرام" فى صيف ١٩٤٩ كتب مقالة بعنوان "قصة التعليم" انتقد فيها عجز الحكومة عن تلبية مطالب الشعب فى التعليم، وحجتها فى أن ميزانيته محدودة^(٦٥). وقال إنه رغم صرخات الشعب سنوياً فإن الحكومة تستمع إلى النقد ولكنها لا تفعل شيئاً أو "تضع أصابعها فى أذنيها فى أوقات أخرى خوفاً من الاستماع".

وقد نشرت المناقشات بين "مدرسة القبانى" و"مدرسة الماء والهواء" فى سلسلة من المقالات فى الأهرام فى أكتوبر ١٩٤٩. وكان القبانى يمثل الوزارة فى ذلك الوقت بالإضافة إلى مدرسته الخاصة، أما محمد مندور فكان يتحدث باسم مدرسة "الماء والهواء". وفى المقالة الأولى بعنوان "أزمة التعليم" والتى نشرت فى ١٤ أكتوبر دافع القبانى عن موقف الوزارة^(٦٦). وحاول أن يثبت أن الحكومة حققت تطوراً ملحوظاً فى التوسع فى المدارس العامة وأن مطالب الجماهير لا تركز على تقييم منطوقى للإمكانيات المتوافرة. وأكد القبانى أن كثيراً مما كتب عن "أزمة التعليم" خلال العشر سنوات السابقة يعتمد على العاطفة ويسىء إلى تطور التعليم.

واستطرد بعد ذلك ليعتقد المطالب غير المعقولة التى تطالب الحكومة بتوفير عدد كاف من المدارس والمدرسين لكل التلاميذ. وحتى يمكن تحقيق هذا الهدف فى التعليم الثانوى خلال خمس سنوات، فالأمر يتطلب إنشاء ٤٠٠ مدرسة جديدة تستوعب أماكن ٢٥٠,٠٠٠ تلميذ فى حين أن الذى كان متوفراً آنذاك اثنان وستون مدرسة عامة، وثلاثة وخمسون مدرسة ثانوية خاصة تستوعب ٨٤,٠٠٠ طالب. ثم يضيف بكثير من السخرية:

"كيف لوزارة المعارف والمسؤولين بها الحصول على عصا سحرية لتضاعف هذه الأعداد من التلاميذ والفصول خلال خمس سنوات؟ هل يعتقد الكتاب المحترمون أنه يكفي الوزارة أن تقول للمدارس "كن فيكون؟"

ويحذر القبانى من تطبيق هذا المنطق على الاحتياج للمدرسين فيطالب بتخفيف الضغط فى هذا الاتجاه حيث لن يسفر إلا على تدهور فى المستوى وخاصة فى التعليم الثانوى مما سوف يعرض مستقبل البلد للخطر. وحتى يؤكد هذا المعنى فهو يشير إلى حديث "مثلنا كمثل فارس لم يصل إلى مقصده كما لم يستطع الاحتفاظ بفرسه"^(٦٧).

بعد ثلاثة أيام وعلى وجه التحديد يوم ١٧ أكتوبر، نشر محمد مندور رده على القبانى فى جريدة الأهرام^(٦٨). وفى مقالة بعنوان "الأزمة وسياسة التعليم"^(٦٩) والتي كرر فيها الإشارة إلى القبانى بصفته "المعلم المحترم" حاول مندور أن يظهر تعارض سياسة القبانى مع الحقوق العامة فى الحصول على التعليم. وأكد مندور على ما ورد بالدستور من أن "لكل مصرى الحق فى الحصول على التعليم بمستوياته المختلفة طالما أنه ينفذ الاشتراطات التى يوجبها القانون". ويستطرد مندور فيقول إنه يأسف لأن هذه "الحقائق الثابتة" والدولية لا يعترف بها شخص مثل القبانى.

ويرفض مندور تبريرات القبانى فى عدم التوسع فى التعليم بحجة نقص عدد المدارس والمدرسين ويؤكد قدرة الوزارة على تأكيد سلطتها والوصول إلى حلول. فمثلاً كان يؤمن بأحقية الوزارة فى الاستيلاء على مبانٍ قائمة وتشيد مبانٍ جديدة. أما فيما يتعلق بالمدرسين فيؤكد مندور وجود مصادر أخرى للمدرسين منها خريجو المدارس الدينية، ولكن الوزارة ترفض الاستعانة بهم وتحفظ بوظائف معينة فقط للخريجين من معاهدها. كما يقترح أيضاً جعل مهنة التدريس مهنة جذابة عن طريق رفع مرتبات المدرسين لتتساوى مع الموظفين الرسميين المعيّنين فى الحكومة.

عاد القبانى إلى هذا الجدل مرة ثانية بعد أسبوعين فى ٣٠ أكتوبر^(٧٠). فرغم هجوم مندور المباشر على القبانى، فإن هذا الأخير لم يستجب على الإطلاق لمقالة مندور أو الرد على النقاط التى أثارها. وكما يشير عنوان المقالة "أزمة أماكن المدارس

وسياسة ١٩٤٤"، يركز القباني على بيان الهلالي في البرلمان فور اتخاذ قرار مجانية التعليم الابتدائي عام ١٩٤٤ واستند منطقته إلى أن جميع المشكلات التي تندرج تحت عنوان "أزمة التعليم" كانت تابعة من هذا القرار. وكما يقول فهو لم يفعل أكثر من تتبع خطى الهلالي في تعريفه مبدأ تكافؤ الفرص والسياسة الأساسية التي وضعها. ونقل تعريف الهلالي لهذا المبدأ الذي يمثل حجة القباني^(٧٨):

"لا يعنى مبدأ تكافؤ الفرص خلق الفرصة لكل إنسان إلى الحد الذى تتجاوز فيه التكلفة والمسئولية قدرة الدولة التى يحد منها ميزانيتها وثروتها، وقدراتها وأعداد المدرسين بها".

وبعد ما أشار القباني إلى بعض الأقوال الأخرى التى جاءت فى مذكرة الهلالي، أضاف ملاحظة أخيرة "هذا هو ما ورد فى تقرير وزير التعليم - المسئول عن الأزمة الحالية - والذى صدر فى ١٩٤٤. وحين أشير إليه فإنما أريد أن أوضح الأمور، وأن أنير الطريق أمام من يبحثون عن الحقيقة." وبذلك يكون القباني قد حدد بوضوح أسباب الجدل السائر وموقفه الحقيقى.

رئاسة طه حسين

فى حكومة الوفد ١٩٥٠-١٩٥٢

جاءت حكومة الوفد فى يناير ١٩٥٠ بعد غياب خمس سنوات، وجاءت معها سياسات جديدة للتعليم بقيادة طه حسين الذى عين وزيراً للمعارف. وكما سبق وذكرنا فقد كان طه حسين يمثل مدرسة "الماء والهواء" الشائعة بين عامة الناس فى مقابل "مدرسة القباني" التى طرحت المبادئ الأساسية لوزارة المعارف السابقة. وقد تبنى طه حسين رغبة الشعب فى التوسع فى فرص التعليم، التى تحققت مع إعلان الحكومة الجديدة عن مجانية التعليم فى المدارس الثانوية والمهنية كما جاء فى خطاب العرش فى يناير ١٩٥٠.

ألقى طه حسين خطابه الأول في البرلمان في ٢٠ يناير، معرباً عن رأيه الصريح في السياسة التعليمية للحكومة الائتلافية السابقة، وشرح المحاولات الفاشلة للحكومات السابقة لإلغاء مجانية التعليم والذي شرعته حكومة الوفد.

"إن هؤلاء الذين تعاقبوا على وزارة المعارف بعد الهلالي باشا كانوا في قلق من مجانية التعليم. فكانوا يدورون حولها كما تدور فيالق الجيش حول قلعة بحثاً عن منفذ خلفي لاختراقها. إلا أنهم أدركوا آخر الأمر أنه لا سبيل إلى استبعاد ما حصل عليه الشعب. ولا يستطيع أحد أن يقول إن مجانية التعليم يجب أن تلغى" (٧٢).

كما ناقش أيضاً اتهام حكومة الوفد بأنها سبب الأزمة التي حدثت في العام السابق. ومن المحتمل أن تكون إشارته إلى من أيد هذا كان الاتهام كان القباني الذي انتقد قرار الهلالي في الأهرام.

"فقد قال من أيد الحكومات السابقة في العام الماضي حين حدثت أزمة التعليم، إن هؤلاء الذين أسسوا مجانية التعليم هم سبب الأزمة.. هل من المعقول أن يكونوا مسئولين عن الأزمة بعد مرور خمس سنوات على تركهم الحكم" (٧٣)!

كان هذا الخطاب الأول الصادر من مفكر حر بارز ومؤيد صريح للديمقراطية والعدالة يتضمن اتهاماً للحكومات السابقة، ودفاعاً عن حكومته. ومع ذلك فإن هذا البيان أسعد الكثير من المواطنين، وساهم في زيادة شعبية طه حسين وشعبية سياسته التعليمية.

وبالإضافة إلى شعبيته التي استقرت، كان لأسلوب طه حسين السلس وتعبيراته الحية وهو يعرض مبادئه أثره في شعبيته أيضاً. ومن خلال هذا الأسلوب ومحتوى سياسته التعليمية كان لطه حسين ميزة التفوق على القباني بصورة عالية، حيث كان أسلوب القباني في الكتابة أو الحديث هو أسلوب التكنوقراطي الكفاء الذي يتصف بالإيجاز، والعقلانية ومنطقية المناقشة، إلا أنه كان يفتقد الجاذبية والعاطفة. ولذلك لم تسعفه تحليلاته في فرض رؤية الحقائق المجردة على مستمعيه.

كان شعار "التعليم كالماء والهواء" من أكثر التعبيرات شيوعاً. ومثل آخر يعبر عن أسلوب طه حسين هو مقولته عن "الجهل والنار"، ففي إحدى اللقاءات التي تمت بينه وبين "الأهرام" والتي سبقت إعلانه، لخص وجهة نظره للتعليم وهو يتحدث عن الحاجة الملحة لزيادة عدد المدرسين^(٧٤) بقوله:

"أنا أعتبر الجهل في مصر مثل النار التي تدمر والتي يجب إطفائها بكل الوسائل الممكنة. ومن السخف القول بأن النار لا يجب أن تطفأ إلا بمياه نقية صادرة من مضخات لها نظامها الخاص. فالنار يجب أن تطفأ بمياه نقية أو غير نقية، بمضخات أو بدونها، المهم بأن وسيلة تحمل المياه".

وأضاف طه حسين أيضاً كثيراً من التعبيرات التي ما زال يذكرها الكثيرون. ففي لقاء آخر في "الأهرام" في مايو ١٩٥٠ ذكر "إننا نعيش في عصر لا يبيع العلم"^(٧٥)، و"التعليم هو دفاع روحى"، ويشرح قوله:

"إن الدولة لا تساوم المواطنين في الأمور التي تمس الدفاع عن الأمة، وبالمثل فلا يجب أيضاً أن تساوم في الأمور التي تتعلق بالدفاع عن "روح الأمة". والجهل خاصة في بلد مثل مصر يعتبر تهديداً لا يقل عن تهديد العدو الأجنبي".

كانت الفكرة العامة وراء هذه التعبيرات واضحة: إن التعليم حق لكل مواطن، وكان طه حسين يعنى تماماً التزام الحكومة ببذل كل الجهد لتهيئة فرص التعليم.

وفى نفس هذا اللقاء صرح طه حسين بأن هؤلاء المهتمين بتطور التعليم في مصر يتشاركون في الهدف رغم الاختلافات الظاهرة في آرائهم. وفى رده على سبب تأخير مناقشة مجانية التعليم في البرلمان قال:

"نحن نعتقد أن المعارضة تتفق معنا على مجانية التعليم، ولكنها في واقع الأمر تعارض الحكومة. وهذا سلوك عادى بين المعارضة والحكومة. ولكن المهم هو أن القانون تمت الموافقة عليه. مما لا شك فيه أن المعارضة والحكومة اتفقا بصفة خاصة على ضرورة وضع قضايا التعليم في مصر فوق الخلافات بين الأحزاب، وفوق أى مساومات بين الحكومة والتلاميذ أو أولياء الأمور"^(٧٦).

واللهة الأولى يبدو أن هذا البيان يتعارض مع حديثه في البرلمان في شهر يناير الذي كشف عن تنافس عنيف. وقد يمكن اعتباره أيضاً خطاباً سياسياً منمقاً لهدم قوة المعارضة. إلا أن ما جاء على لسانه يعبر عن طبيعة الجدل التعليمي الذي أثير في تلك الفترة. وتسببت المنافسة، وسوء الظن، والعداء بين الأشخاص والمجموعات المختلفة داخل وخارج وزارة المعارف في تأخير وتعقيد وارتباك في تطور التعليم^(٧٧). فقد كان لكل مسئول وكل خبير أسلوبه وأولوياته. فمثلاً كان الجدل حول مبدأ الكم والكيف يمس بالضرورة أسلوب التعامل مع قضية التعليم خاصة بعد أن تفاقم في ظل تغيير الحكومات المتكرر. ورغم ذلك فمع هذه الاختلافات والصعوبات، كان أغلب المشاركين في هذا الجدل يتفقون على بعض الأهداف الأساسية ومنها ديمقراطية التعليم. وتداخلت الحقائق مع الأولويات المختلفة والأهداف العامة لتخلق في نهاية الأمر عملية تطوير معقدة إلا أنه في نهاية الأمر كان التعليم يتجه فعلاً نحو الديمقراطية.

وبالإضافة إلى قرارها الخاص بمجانية التعليم في المدارس الثانوية والمهنية قامت حكومة الوفد بتشريع قانون ينص على توحيد التعليم على المستوى الأولي في عام ١٩٥٢. وكان قانون ١٩٤٩ قد وضع اللجنة الأولى نحو توحيد التعليم، إلا أن الحكومة السابقة اعتبرت أن الخطوة الأخيرة لتوحيد المدارس الأولية والابتدائية لم تنضج بما فيه الكفاية، وأنها لا تتوقع إتمامها قبل عشرين سنة. ثم جاءت حكومة الوفد لتسرع بها.

تضمن القانون الجديد إكمال توحيد المدارس، وأطلق على هذه المرحلة من الدراسة الأولية "المدارس الابتدائية". وبالتأكيد لم يكن هذا يعني أن جميع المدارس أصبحت ما بين ليلة وأخرى مدارس ابتدائية، فقد كان تطبيق هذا القانون يحتاج إلى وقت طويل، ومع ذلك فإن قانون ١٩٥١ كان يعتبر إنجازاً لحكومة الوفد يتجاوز ما حققه قانون ١٩٤٩ للحكومة السابقة. وبصفته أيضاً وزيراً للمعارف بدأ طه حسين يفكر في مجانية التعليم في الجامعة. ولكنه واجه معارضة شديدة، ولم توضع الفكرة في حيز التنفيذ حتى عام ١٩٦٢ حين تولى عبد الناصر الحكم^(٧٨).

الخاتمة

خلال العشر سنوات الأخيرة من الحكم البرلماني في مصر طرأ على نظام المدارس العامة تغييرات أساسية. فقد وضعت خريطة جديدة تعتمد في أساسيتها على مبادئ الديمقراطية والقومية، وبدأ تطبيق هذا النظام الجديد. فطبقت مجانية التعليم في المدارس الابتدائية وتم توحيد المستوى التعليمي الأولي، بالإضافة إلى أنه أصبح من حق جميع الأطفال في الدولة الذين يلتحقون بالمدارس الابتدائية العامة أن يحصلوا على نفس التعليم، وأنه يمكنهم جميعاً بغض النظر عن خلفيتهم المادية أو الاجتماعية مواصلة حتى المدارس الثانوية إذا ما تأهلوا لذلك.

ومع ذلك لم يكن تطبيق هذه السياسات الجديدة سهلاً. فالتغييرات المتكررة في الحكومات خلال هذه الفترة أدت إلى تراجع حادة في سياسة التعليم فمع كل تغيير في الحكومة كانت الحكومة الجديدة تأتي بمجموعة من خبراء التعليم يسيطرون على وزارة المعارف ويتم تعديل سياسة الحكومة السابقة بصورة واضحة أو ضمنية. وبالتالي تسببت المنافسة العنيفة بين الآراء المختلفة وتغير المسؤولين في تأخير وتعقيد تطور السياسة التعليمية. بالإضافة إلى أن الميل لتجاهل التعليم العام بالمقارنة بالتعليم الخاص رغم الأهمية السائدة صعب من تطبيق السياسات الجديدة، وانعكس ذلك على التفاوت في تخصيص ميزانية التعليم.

ومع ذلك - ففي نفس الوقت - كان الطموح إلى التعليم العام فكرة يعتنقها كل من خبراء التعليم والشعب المصري كافة، فقد كان الكثير من المعلمين يأملون في تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم العام في حين كان المصريون يطمحون في تسهيل الطريق لهم إلى المدارس الابتدائية والثانوية العامة دون اعتبار لخلفيتهم المادية والاجتماعية. وقد وصل طموح العامة إلى مداه وأصبح يشكل قوة ضاغطة أمكنها - بدعم من المثقفين ذوي التأثير - تغيير سياسات الحكومة. فمثلاً في أواخر الأربعينيات أجبر الضغط الشعبي الحكومة على إلغاء المصروفات التي فرضتها على المدارس الابتدائية.

ومع مرور الوقت أصبح الفارق بين المعسكرين التعليميين واضحاً: معسكر الكم الذي ناصر سرعة تطبيق حق جميع الناس فى الحصول على التعليم ومعسكر الكيف الذى ركز على نوعية التعليم والنظام فى العملية التعليمية. ورغم ما بدا واضحاً من تفوق المعسكر الأول فإن الاختلاف بين وجهتى النظر كانت واضحة فى جميع المناقشات حول التعليم العام، دون أن يتفق الاثنان على رأى واحد. وحين دخلت مصر عصراً جديداً عام ١٩٥٢ كان الاتجاه نحو التوسع الكمى فى التدريس قد اتخذ مكانه فى القوانين وسياسة التعليم الوطنية.

وأخيراً فمن الضرورى النظر إلى الجدل حول التعليم من زاوية المناقشات السياسية والاجتماعية الواسعة فى تلك الفترة وخاصة فى ضوء مبدأ تكافؤ الفرص والتى تقبلها الجميع. ففي الثلاثينيات بل فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية كانت المشاكل الاجتماعية الداخلية محور مناقشات الشعب. وكان الفقر والفجوة بين الطبقات، ومستوى معيشة الأفراد، والتعليم الجماعى والصحة العامة ضمن أهم الموضوعات التى تناولها النقاد الاجتماعيون والسياسيون والصحفيون والمثقفون. وكانت مفاهيم "العدالة الاجتماعية" و"الإصلاح الاجتماعى" يتم تداولها كأساس للمناقشات الدائرة. كما كانت قضية التعليم واحدة من ثلاثة اهتمامات رئيسية شغلت الأذهان وبلورتها هذه الجملة التى استخدمت كثيراً وهى "الفقر، والجهل، والمرض".

وفى عام ١٩٥٢ استولى الضباط على الحكم رغم التحذيرات داخل تلك المؤسسة بتوقع إحداث تغيرات جذرية. وقامت حكومة الضباط الأحرار بقيادة عبد الناصر بتطبيق سياسات اجتماعية عديدة لم يكن من الممكن الأخذ بها فى عصر الحكم الملكى وأولها الإصلاح الزراعى. فإن الفحص الدقيق لهذه السياسات يكشف أن جذورها، ومناقشات الشعب حول هذه القضايا يمكن إرجاعها إلى العصر السابق.

ولم تكن السياسة التعليمية استثناء من هذه القاعدة، فمجانبة التعليم ودمج مستويات التعليم الأولى مثلاً كان قد خطا خطوات ثابتة إلى الأمام قبل ثورة ١٩٥٢

بعشر سنوات. ولم يفعل الحكم الجديد أكثر من استكمال الجهود السابقة والتي تبلورت أولاً فى قانون التعليم الجديد عام ١٩٥٣، والذي شُرِع دون أى منافسة بين الأحزاب السياسية أو خبراء التعليم حيث كانت الأولى قد أُلغيت، والثانية مؤيدة بالكامل للأفكار الناصرية. وعلى ذلك يكتننا القول بأن سياسة التعليم تدين بالكثير للمناقشات التي دارت فى البرلمان عصريين يبدوان مختلفين تماماً، واستمرت بعد ذلك.

ملحوظة للمؤلف: هذه نسخ منقحة من مقالة بعنوان "المناقشات التي دارت فى البرلمان المصرى الأخير ١٩٤٣-١٩٥٢، والتي نشرت فى:

Annals of Japan Association for Middle East Studies (AJAMES) 16, 2001, 265-307.

بعد الحصول على تصريح من AJAMES بالنشر.

الهوامش

(١) لا يمكن إنكار دور المدارس الأجنبية في التعليم الابتدائي والثانوي، ولكن عدد التلاميذ في هذه المدارس كان محدوداً، وتفاوت بين الأجانب المقيمين والمصريين من غير المسلمين. وبنفس الأهمية، التي كان يتم تجاهلها كثيراً، كان دور المدارس الخاصة أثناء الاحتلال على مستوى الابتدائي والثانوي، والتي كانت تدار من أفراد أو جمعيات خيرية أو دينية، وتبنت هذه المدارس نفس نظام ومناهج المدارس العامة وظلت تلعب دوراً مهماً بعد الحرب العالمية الأولى كبديل للمدارس العامة. ولأن المدارس العامة كانت تقبل عدداً محدوداً من التلاميذ، كانت المدارس الخاصة تعلم عدداً أكبر من التلاميذ. ولكن على وجه العموم كانت نوعية التعليم الخاص أقل من التعليم العام. انظر: هـ. م. عمار،

An Enquiry into Inequalities of Educational Opportunities in Egypt.

(رسالة ماجستير، معهد التعليم، جامعة لندن، ١٩٤٩)، ١٨٣-٨٤. وبعد ذلك تأثرت المدارس الخاصة كثيراً بالسياسات الجديدة ونظام التوحيد. وقد تم عمل دراسة شاملة عن المدارس المصرية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. بالنسبة للمدارس المصرية أثناء الاحتلال، انظر: سعيد إسماعيل على "دور التعليم المصري في النضال الوطني (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥).

(٢) الحكومة المصرية، وزارة الخزانة The Census of Egypt Taken in 1917، الجزء الثاني، ١٩٢١، ٥٦٥ .

(٣) أحمد عبد الله،

The Student Movement and National Politics in Egypt 1923-1973.

(لندن: كتب الساكي، ١٩٨٥)، ٢٥ .

(٤) شارل عيسوي، Egypt at Mid-Century: An Economic Survey (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٥٤)، ٦٧ .

(٥) رودريك دي، ماثيوس وماتا أكرأوي Education in Arab Countries of the Near East (واشنطن العاصمة: مجلس التعليم الأمريكي، ١٩٥٠)، ٢٤، يأتي فيما بعد شرح للاختلافات بين مدارس التعليم الأولى، والإجباري، والابتدائي.

(٦) عيسوي، Egypt at Mid-Century، ٦٧، ماثيوس وأكرأوي، Education in Arab Countries، ٢٤ .

(٧) نفس المرجع، عبد الله، The Student Movement، ٢٦ .

(٨) هـ. م. عمار، An Enquiry، ١٢٨-٢٩. ربما تتضمن الأرقام المسجلة عدد الأطفال في المدارس الخاصة والأجنبية.

- (٩) نفس المرجع، ١٤١ .
- (١٠) تم حساب هذه الأرقام من عدد التلاميذ في ١٩٤٤/٤٥، في ماثيوس وأكارى Education in Arab Countries, 43.
- (١١) عمار، An Enquiry، ١٤٣-٤٤ .
- (١٢) من بين المطبوعات المهمة عن التعليم والقضايا الاجتماعية الأخرى في أواخر الثلاثينيات، انظر: طه حسين "مستقبل الثقافة في مصر" (القاهرة: مطبعة المعارف، ١٩٣٨)، ميريت غالى "سياسات الغذاء" (القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٣٨)، وحافظ عفيفى "على هامش السياسة" (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٨).
- (١٣) تخرج من مدرسة الحقوق الخديوية في ١٩١٢، وكان وزيراً للمعارف في وزارة توفيق نسيم في ١٩٣٤-٣٦ . وبعد انضمامه لحزب الوفد عام ١٩٣٨، أصبح مرة أخرى وزيراً للمعارف في حكومة النحاس باشا في ١٩٣٨-٣٩ و١٩٤٢-٤٤ . ورأس مجلس الوزراء مرتين في ١٩٥٢ قبل ثورة الضباط الأحرار.
- (١٤) بدأ في هذا الوقت يظهر مفهوم التطبيقية في ذلك الوقت يظهر في الجدول العام في مصر. واستخدمه الليبراليون التحذير من خطر الصراع الطبقي الاضطرابات الاجتماعية ومنع انهيار النظام الليبرالي الاجتماعي.
- (١٥) فخامة نجيب الهلالي، Report on Educational Reform in Egypt (القاهرة: مطبعة الحكومة، ١٩٤٣)، ٢٢ .
- (١٦) نفس المرجع، ٣١ .
- (١٧) كان زعيم الطلبة الوفديين أثناء ثورة الطلبة في منتصف الثلاثينيات، انظر: عبد الله، The Student Movement 86.
- (١٨) مضابط (سجلات البرلمان)، مجلس النواب، ٢ يناير ١٩٤٤، ٢٢٩ .
- (١٩) نفس المرجع، ٣٣٠ .
- (٢٠) المحاضرة التي ذكرها الهلالي غالباً تخص إسماعيل القباني، والذي كان المروج الرئيسي لتوحيد التعليم الأولى في وزارة المعارف. ألقى الهلالي المحاضرة في الجمعية الجغرافية الملكية (نفس المرجع، ٣٣٢)، في حين ألقى القباني محاضراته عن توحيد التعليم الأولى في ٢٦ ديسمبر ١٩٤٣ وكذلك ٥ يناير ١٩٤٤ (الأهرام، ٢٧ ديسمبر ١٩٤٣). ويبدو أن الهلالي حاول أن يقلل من شأن زعلوك بالتلميح بأنه سجل فحسب آراء المحاضرين. وعندما قال زعلوك إنه لم يسمع عن هذه المحاضرة، قال الهلالي متهمًا "مهما كان الأمر، فهو معروف - خاصة بين الأشخاص المهمين". وتسبب هذا في إضحاك المستمعين.
- (٢١) "مضابط"، مجلس النواب، ٢ يناير ١٩٤٤، ٣٣٢ .
- (٢٢) نفس المرجع، ٣٣٧، ٣٣٨ . طلب زعلوك رأي تكلا، ولكن قطع رئيس المجلس إجابة تكلا، وطلب منه عدم الانحراف عن مهمته كمقرر اللجنة.
- (٢٣) نفس المرجع، ٣٣٨، ٣٣٩ .

- (٢٤) كان متورطاً في إنشاء معهد التعليم في عام ١٩٢٩ وقام بالتدريس فيه. وعمل كذلك في وزارة المعارف كمستشار فني ووكيل وزارة. وفيما بعد أصبح وزيراً للمعارف في الحكومة العسكرية في عام ١٩٥٢-٥٤ .
- (٢٥) إسماعيل محمود القباني "سياسات التعليم في مصر" (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٤).
- (٢٦) كان القباني قد أعرب من قبل عن اقتناعه فيما يخص توحيد التعليم الأولي. في ١٩٥٢، ألقى محاضرة بعنوان "توحيد التعليم الأولي والابتدائي" عندما دعته نقابة المعلمين واقتبس من محاضراته في ٤٤/١٩٤٣ . النص الكامل للمحاضرة التي ألقاها في عام ١٩٥٢ في كتاب إسماعيل محمد القباني "دراسات في مسائل التعليم" (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١)، ٤١-١١٨ .
- (٢٧) القباني "سياسات"، ٣٢ .
- (٢٨) نفس المرجع.
- (٢٩) القباني "سياسات"، ٣٥ .
- (٣٠) عندما كان سعد زغلول وزيراً للمعارف، زار مدرسة في قرية في أسيوط عام ١٩٠٨ ووجد طفلاً موهوباً من أسرة فقيرة، هو إسماعيل القباني. وضد سياسة التعليم البريطانية، قدم زغلول منحة للطفل للدراسة في المدارس الحكومية. انظر: سعيد إسماعيل على "وجهات نظر في فكر إسماعيل القباني التربوي" (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٤)، ٨ .
- (٣١) القباني، "سياسات"، ٣٥ .
- (٣٢) نفس المرجع، ٣٦، ٣٨-٣٩ .
- (٣٣) دحض القباني حجتين ضد مخطط التوحيد. الأولى أن التعليم الإلزامي لا يجب أن ينفصل عن البيئة التي يعيش فيها الأطفال، وإنما يجب أن يتضمن تدريباً عملياً في الزراعة والصناعة في القرى، وقد عارض ذلك بشدة، وقال إن خبراء التعليم وافقوا على أن التدريب المهني يجب ألا يبدأ في المرحلة الأولى. الحجة الثانية، وهي التعارض مع تعليم اللغات الأجنبية، جادل القباني وأجاب بأن تدريس اللغات الأجنبية في المدارس الأولية لم تعد من بقايا الاستعمار الأجنبي. وأكد كذلك أن خبراء التعليم في الدول الأخرى وافقوا على أن تعلم اللغات الأجنبية يجب ألا يبدأ إلا في سن العاشرة أو الحادية عشرة.
- (٣٤) القباني "دراسات"، ١٨٨-٨٩ .
- (٣٥) نفس المرجع.
- (٣٦) نفس المرجع، ١٩٢-١٩٣ .
- (٣٧) نفس المرجع، ٢٣٨ .
- (٣٨) كان فقيهاً بارزاً. ولد في عام ١٨٩٥، وحصل على الدكتوراه في القانون من جامعة باريس. كان مدعياً عاماً، وقاضياً، وعميداً لكلية الحقوق (١٩٣٦). وأصبح وكيلاً لوزارة المعارف في ١٩٣٩ ووزارة العدل في ١٩٤٤ . وكان ضد الوفد.
- (٣٩) الأهرام، ٥ يونيو ١٩٤٥ .
- (٤٠) "مضابط"، مجلس النواب، ٩ يوليو ١٩٤٥، ١١٦٢ .

(٤١) أعيد نشاط المجلس الأعلى للتعليم بعد ثلاث سنوات من التوقف في ديسمبر ١٩٤٥، برئاسة وزير المعارف، وكان جميع الأعضاء الآخرين وزراء معارف سابقين، ومستشارين فنيين ومساعدتهم، ورئيسي الجامعتين الحكوميتين، ووكلاء وزارة دائمين وموظفين رسميين من الوزارات الأخرى، وبعض أعضاء البرلمان. انظر: ماثيوس وأكاوي،

Education in Arab Countries -5.

(٤٢) القباني "دراسات"، ٢٢٨-٣٩ .

(٤٣) نفس المرجع، ٢٤٢-٤٣ .

(٤٤) كان العشماوي وزيراً للمعارف في حكومة صدقي، والتي تولت الحكم من فبراير حتى ديسمبر ١٩٤٦ .

(٤٥) نفس المرجع، ٢٤٦ .

(٤٦) "تعليم أولى مجاني: حق اكتسبه الشعب المصري"، "الفجر الجديد"، ١٦ يونيو ١٩٤٥، ١٤ . الجمل المقتبسة من مقالة طه حسين المنشورة في "البلاغ" في ١٠ يونيو من هذا المقال.

(٤٧) "مضابط" مجلس النواب، ٢٤ ديسمبر ١٩٤٥، ٣٥٦ .

(٤٨) محمد فريد أبو حديد "بالبريد الخاص: إلى معالي وزير المعارف"،

By Special Mail: To His Excellency the Minister of Education.

"الثقافة"، ٤٠٢، ١٠ سبتمبر ١٩٤٦، ١٠١١-١٣، أبو حديد كان عالماً تربوياً، وروائياً، وناقداً اجتماعياً. أصبح وكيلاً لوزارة المعارف في عام ١٩٥٠ .

(٤٩) أحمد عبد السلام الكرداني "بالبريد العادي: للأستاذ فريد بك أبو حديد"،

By Regular Mail: To Professor Farid Bey Abu Hadid.

"الثقافة" ٤٠٣، ١٧ سبتمبر ١٩٤٦، الكرداني كان عميد معهد التعليم في ١٩٣٧ وسكرتير عام في جامعة فؤاد الأول في ١٩٤٥-٤٧ . وأصبح وكيلاً لوزارة المعارف في عام ١٩٤٩ .

(٥٠) كان كل من أبو حديد والكرداني أعضاء مؤسسين أصليين في لجنة الإنشاء، والترجمة، والنشر، ومن المفروض أن كل منهم يعرف الآخر منذ فترة طويلة.

(٥١) محمد العشماوي "تصريح من معالي وزير المعارف"،

A Statement from His Excellency the Minister of Education.

"الثقافة" ٤٠٤، ٢٤ سبتمبر ١٩٤٦، ١٠٦٨-٧٠ .

(٥٢) "المصري"، ٢٨ أغسطس ١٩٤٦ .

(٥٣) القباني "دراسات"، ٢٤٧ .

(٥٤) حكومة النقراشي الجديدة، التي خلفت وزارة صدقي في ديسمبر ١٩٤٦، ظلت في الحكم حتى اغتيال النقراشي في ديسمبر ١٩٤٨ . كان السنهوري وزيراً للمعارف في حكومة النقراشي وظل في منصبه حتى يوليو ١٩٤٩ في الحكومة التي كان يرأسها إبراهيم عبد الهادي.

- (٥٥) "مضابط" مجلس النواب، ١٥ ديسمبر ١٩٤٧، ١٦٥ .
- (٥٦) عوض توفيق عوض "علاقة مجانية التعليم المرحلة الأولى في مصر بالعدالة الاجتماعية بين التلاميذ: دراسة تاريخية من ١٩٢٣ إلى ١٩٨١" (رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، ١٩٩٢)، ٢٠٥ .
- (٥٧) الأهرام، ٧ يوليو ١٩٤٨ .
- (٥٨) عوض "علاقة مجانية التعليم"، ٢٠٦ .
- (٥٩) عبد الرازق السنهوري، "تطوير نظام التعليم العام"، The Reform of the System of General Education "صحيفة الطابية، يونيو ١٩٤٨، ٤-٧ .
- (٦٠) "النظام الجديد في التعليم"، The New System for Education صحيفة الطابية، فبراير ١٩٤٩، ٤ .
- (٦١) الأهرام، ٢٧ أكتوبر ١٩٤٨ .
- (٦٢) محمد فريد أبو حديد "قصة الماء والهواء" The Story of Water and Air الثقافة ٥٦٩، ٢١ نوفمبر ١٩٤٩، ٥-٦ .
- (٦٣) سعيد إسماعيل على، "وجهات نظر في فكر إسماعيل القباني"، ٤-٥ . إسماعيل على استشهد بتقييم القباني في ١٠٤٥ بأن الكم كان لديه دائماً اليد العليا على الكيف باستثناء الفترة من ١٩٣٥-٤١ . ربما يكون تقييم القباني حقيقى في الفترة ما بعد ١٩٤٥ (نفس المرجع، ١٣).
- (٦٤) الأهرام، ٤ نوفمبر ١٩٤٩ .
- (٦٥) الأهرام، ١١ يوليو ١٩٤٩، كتب طه حسين بعد شهر مقالة أخرى بحجة مشابهة تحت نفس العنوان، يوم ٢ أغسطس في الأهرام.
- (٦٦) الأهرام، ١٤ أكتوبر ١٩٤٩ .
- (٦٧) الفارس دفع حصانه بعيداً، لأنه كان في عجلة من أمره.
- (٦٨) محمد منور (١٩٠٧-٦٥) كان ناقدًا أدبيًا، ومحامياً، وأستاذًا، وصحفيًا. كان رئيس تحرير "الوفد المصري"، جريدة حزب الوفد اليومية، والتي كان لها صلة وثيقة بالشيوعيين. تم انتخابه عضواً في البرلمان في ١٩٤٩ . وفي العشرينيات درس مع طه حسين في جامعة القاهرة.
- (٦٩) الأهرام، ١٧ أكتوبر ١٩٤٩ .
- (٧٠) الأهرام، ٢٠ أكتوبر ١٩٤٩ .
- (٧١) استشهد بها من تقرير اللجنة المالية لمجلس النواب في ١٩٤٤ .
- (٧٢) "مضابط"، مجلس النواب، ٢١ يناير ١٩٥٠، ٢٨ .
- (٧٣) نفس المرجع، ٢٩ .
- (٧٤) الأهرام، ٢٣ يناير ١٩٥٠ .
- (٧٥) الأهرام، ٨ مايو ١٩٥٠ .
- (٧٦) نفس المرجع.

(٧٧) أشار إلى ذلك طه حسين فى وقت مبكر فى النصف الأول من الثلاثينيات، على أساس السنوات العشرين التى قضاها فى الملاحظة، لم يكن هناك أى وزير عانى من المنافسة، والكراهية، والخداع، وعدم الثقة على جميع المستويات مثل وزير المعارف. طه حسين، مستقبل الثقافة فى مصر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٢) ١٠-١٠٩ .

(٧٨) على أية حال، بحلول عام ١٩٥٥ كان ٧١٪ من طلاب الجامعات معفيين من الرسوم سواء بسبب احتياجهم المادى أو بسبب حصولهم فى الامتحان على الدرجات التى حددتها الجامعة للإعفاء من الرسوم. مالكولم دونالد ريد،

Cairo University and the Making of Modern Egypt

(كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٠)، ١١٠ .

٩- تمكين المرأة

وإحداث التغيير

عزيزة حسين والإصلاح الاجتماعى
فى مصر^(١)

إيمى جى . جونسون وسكوت دافيد ماكنتوش

من الحقائق البديهية الآن أن مشروعات التطوير تحقق أفضل نجاح حين يشارك المستفيدون منها فى مراحل تنظيمها وتخطيطها وتنفيذها بل وتقييمها أيضاً. كما أنه من المعترف به أيضاً أن الإصلاحات لا يمكن فرضها، بل يجب أن يكون لدى هؤلاء المستفيدين الرغبة فى تحقيقها، وبالمثل فإنه من المتوقع كذلك أن يكون للرجال والنساء معا دورا فى التنمية القومية، بمعنى أن تكون النساء أيضاً عضوات فاعلات فيها إلى جانب استفادتهن منها حتى ينجح الإصلاح.

لم تكن هذه الحالة هى السائدة يوماً، فقد دشن بداية القرن العشرين تحرك المرأة للمرة الأولى لتمارس نشاطاً سياسياً على مستوى كبير. ورغم وجود بعض النماذج البارزة للنشاطات من النساء فى المراحل الأولى من التاريخ المصرى، فإن هذه الفترة هى التى شهدت مشاركة متزايدة لها فى مجال الكتابة والنشر، والمطالبة بحقوقها السياسية، والمناقشات حول دورها الخاص فى الأسرة والحياة العامة بالإضافة إلى مساهمتها فى الأعمال الخيرية على مستوى واسع، فإن مفهوم المعاونة فى المشروعات الذاتية كأسلوب حاكم للإصلاح الاجتماعى ولبوابر التنمية فى مصر فلم

يلق قبولاً حتى ثلاثينيات القرن العشرين. وقبل تلك الفترة كانت مشاريع "الإصلاح" مجرد مشروعات خيرية تتم على نطاق ضيق ويتوجه إلى المدى القريب، متجاهلة البرامج طويلة الأمد التي تمكن الناس في منطقة معينة من المشاركة الفعالة التي تستهدف إنجاز التنمية أو التغيير على المدى الطويل.

ولدت عزيزة حسين سنة ١٩١٩، وشبت في هذه البيئة المتغيرة، في فترة علا فيها صوت المرأة، وزاد نشاطها وتوجهاتها السياسية. وتلقت تعليمها في الوقت الذي كانت تدرس فيه أفكار جديدة عن الإصلاح الاجتماعي، وحين كان الجدل حول الإصلاح شائعاً ومواكباً لاستراتيجيات التنمية الوطنية الجديدة. وفي عام ١٩٥٠ وفي ضوء هذين الاتجاهين في الحياة السياسية المصرية، اختطت عزيزة حسين منهجاً جديداً في النشاط الاجتماعي: مشروعات تعتمد على المعاونة في المشروعات الذاتية التي تتولاها المرأة لمساعدة المرأة. وكانت نتيجة عملها الرائد في نادي سيدات القاهرة، والمراكز الاجتماعية الريفية هو تأسيس أول مركز للعلاج الصحي الريفي في قرية سنديون، الذي قام عليه نشاط المرأة بعد ذلك في الريف بأكمله.

ويبدأ هذا الفصل باستعراض نمط نشاط المرأة في أوائل القرن العشرين ودور عزيزة حسين في هذا المضمون. ثم بعد ذلك تحليل مشروع سنديون وكيف أن هذا المشروع كان يمثل اتجاهاً متفرداً وجديداً لنشاط المرأة في مجال الإصلاح الاجتماعي، ويختتم الفصل بتبني فكرة دمج الاتجاهين، بمعنى دمج نشاط المرأة مع المعاونة في المشروعات الذاتية لإحداث التنمية الاجتماعية. وبذلك تكون عزيزة حسين قد أرست قواعد فلسفة جديدة للتنمية، ونحتت أيديولوجية كانت دليلها خلال مسيرة حياتها بالإضافة إلى أنها أسست النمط الذي سوف تسير عليه بعد ذلك المنظمات غير الحكومية IGO، NGO والجهود التي بذلتها الحكومة لاحقاً. وبذلك تبرز عزيزة حسين كشخصية متميزة في تاريخ التنمية المصرية، وتعطى مشروعاتها نموذجاً يرفض فكرة أن جهود الإصلاح الاجتماعي في مصر قبل عام ١٩٥٢ اقتصر فقط على محاولات شخصية تتجه إلى أعمال الخير على نطاق ضيق.

نشاط المرأة ومبادرات الإصلاح الاجتماعى

منذ بداية القرن العشرين، تزايد نشاط المرأة المصرية فى المجالات العامة^(٢). وبدأن فى إصدار المجلات والجرائد، وأصبحن كاتبات ناشطات واشتركن فى الصراع الوطنى للاستقلال التام عن بريطانيا. وفى نفس الوقت كن مشاركات موضع الجدل حول الحجاب والتفرقة بين الجنسين، بالإضافة إلى تأسيس منظمات كقوة ضاغطة تنادى بمزيد من الحقوق السياسية لامرأة، وبتغييرات فى قوانين الأسرة وتفسيرات أكثر ليبرالية فى تفسير التشريعات الدينية^(٣).

ومنذ عام ١٨٩٠ وحتى الحرب العالمية الأولى، اتسعت مساهمات المرأة فى الصحافة، وكما سجلت بث بارون كانت هذه الإسهامات فى الكتابة الصحفية واحدة من الأسس التى بنيت عليها نشاطات المرأة. وقد أفسح ظهور "ثقافة الأدب النسائى" الساحة أمام المرأة لمناقشة قضايا مهمة مثل الزواج والطلاق والحجاب والتعليم والعمل^(٤). وتؤكد بارون أن هذه الفترة شهدت أيضاً "توسعاً فى التعليم، وظهور الجمعيات، وتحركاً أوسع للمرأة". وفى خلال ذلك كله أثبتت الصحف والمجلات الدورية أنها أدوات مهمة لطرح أفكار جديدة فى مصر^(٥). ومن المثير للاهتمام أنها سجلت أن عام ١٩١٩ - الذى ولدت فيه عزيزة حسين - كان العام الذى:

"بدأت فيه قصة تاريخ المرأة المصرية وتحركها. ومع ذلك فإن مشاركة المرأة فى ثورة ١٩١٩ يجب أن يُنظر إليها كامتداد لتحركان أخرى بدأت فى عقود سابقة. وأكثر من ذلك فإن البذور التى أثمرت فى العشرينيات والثلاثينيات - والتى من أهمها تأسيس المنظمات النسائية، والإصلاح التعليمى والتشريعى ومزيد من التكامل فى المجتمع - كان قد تم طرحها بداية من عام ١٨٩٠، وتسجل صحافة المرأة المصرية عاملاً رئيسياً فى هذا الحراك، حيث كانت تسجل وتدافع عن مجالات واسعة لنشاط المرأة فى بعض الدوائر الحضرية"^(٦).

وانطلاقاً من انغماسها فى الثورة الأدبية، بدأت مشاركتها أيضاً فى الثورة السياسية. ففى عام ١٩١٩، وبعد مناداة حزب الوفد بالاستقلال التام عن بريطانيا، ورفض مطالبهم ثم نفى زعمائه^(٧)، استمرت زوجات زعماء الوفد فى استكمال ما بدأه أزواجهن، فأنشئوا لجنة للمرأة فى الوفد وقاموا بمسيرة فى الشوارع مطلقين شعارات الاستقلال والحرية من الاحتلال الأجنبى. كما نظمن المظاهرات والإضرابات بالإضافة إلى حملات مقاطعة البضائع الإنجليزية. باختصار كان تحركهن بجوار رجالهن جنباً إلى جنب^(٨). أى أن المرأة كانت مشاركة نشطة فى ثورة ١٩١٩.

امتدت مشاركة المرأة فى هذه الثورة السياسية إلى المجال الاجتماعى لتصبح الداعية إلى التغيير الاجتماعى، وكانت الكثيرات من النساء المصريات البارزات فى ذلك القرن من الرموز التى كان لها دورها فى هذه الاحتجاجات، واشتركت هدى شعراوى مع نساء أخريات مثل ماري كحيل ونبوية موسى فى تأسيس "رابطة المرأة" عام ١٩٢٢. وبدأت شعراوى ومعها عضوات الرابطة فى الصراع ليس فقط فى من أجل الاستقلال عن بريطانيا، ولكن للحصول على حقوقهن السياسية، والصراع من أجل الاستقلال ومن أجل دور اجتماعى متزايد للمرأة فى الحياة السياسية - التى تشمل أزواجهن وأقاربهن - للحصول على الاعتراف بحقوقهن فى التعليم والمساواة السياسية^(٩).

ومع وجود هذه التجمعات مثل رابطة المرأة، بدأ تشكيل أحزاب خاصة بالمرأة خلال عشرين عاماً، وكانت هذه الأحزاب النسائية الجديدة - وهى خطوة متقدمة عن الأجيال السابقة - "تعتنق أفكاراً راديكالية، وعلى استعداد لتبنى استراتيجيات قوية للتغيير. وكان أسلوبهن أكثر شعبية، وأهدافهن أكثر شمولية ونبرتهن أكثر قوة"^(١٠). وكان الإصلاح السياسى يشكل أساس أحزاب مثل الحزب النسائى المصرى الذى أسسته فاطمة نعمت راشد عام ١٩٤٤ وكان ينادى بتقنين الإنجاب والإجهاض، وحزب "بنت النيل" لدرية شفيق الذى بدأ بحملة للمساواة بين الرجل والمرأة فى المجال السياسى^(١١).

ويعنى آخر فإن أوائل القرن العشرين شهد نشاطاً سياسياً للمرأة مفعماً بالحيوية كما شهد أيضاً نشاطاً اجتماعياً مماثلاً، وبالتالي امتلأت هذه الفترة بمجموعات ومنظمات مختلفة نشطة فى تقديم المساعدة والأعمال الخيرية لمن يحتاجها. ولم تكن هذه المجموعات مستحدثة فى تلك الفترة، ففى واقع الأمر أن الحكومات والأفراد والمؤسسات الدينية كانت توفر هذه المساعدات خلال تاريخ مصر الطويل^(١٢). ومع ذلك ففى أوائل القرن العشرين، ظهرت كيانات متزايدة كرسّت عملها للحد من مستوى الفقر فى المدن والريف، والتوسع فى فرص التعليم ومحاربة الأوبئة والأمراض المستوطنة. وقد شكّلت هذه المجموعات لمجابهة المشاكل الثلاث التى كان المجتمع يواجهها فى تلك الآونة وهى "الفقر والجهل والمرض"^(١٣). وأدارت المرأة الكثير من هذه الجمعيات فى تلك المرحلة.

كانت الأوقاف التقليدية ضمن هذه المجموعات التى حاولت مجابهة مشكلة الفقر (وهى جهات مانحة فى مجال الخير: المفرد وقف). وكانت النساء الثريات اللاتى يملكن مصادر ثروة خاصة بهن قائدات فى أعمال النشاط الخيرى من خلال استخدام أموالهن فى وقف ما يملكن^(١٤). وأصبح النشاط الخيرى بمعناه الواسع نمطاً موجوداً فى الحياة الأرستقراطية أعطى لجهود الإصلاح بعداً إضافياً^(١٥). وكانت الجمعيات الخيرية تقوم بتطعيم الأفراد وتوزيع الأدوية فى المدن والريف، كما كانت تقدم معونات عاجلة فى حالات الكوارث، وباختصار كن يحاولن تحسين مستوى المعيشة للفلاحين والفقراء من أهل المدن.

شهد عام ١٩٤٤ تأسيس رابطة طالبات وخريجات الجامعة والمعاهد المصرية، والتى طالبت الحكومة بإنشاء بيوت حضانة للمرأة العاملة^(١٦) مما سهل لهؤلاء النساء العمل خارج بيوتهن والمساهمة فى نفقات الأسرة، ومع ذلك كان اهتمام هذه المجموعات - كما تلاحظ بوتمان - مثل مثيلاتها فى تلك الفترة منصباً حول الجدل الدائر حول هذه القضايا بدلاً من تطبيق برامج الإصلاح الفعلية. فقد كانت ترى نفسها تجمعات للشابات الصغيرات اللاتى كان يهمن فى المقام الأول المشكلات النسائية المتعلقة بالنوع (ذكر/أنثى)، والصعوبات الكبرى التى تتحدى مصر كدولة. أى أنه تجمع لتبادل الآراء بدلاً من تنفيذها^(١٧).

وفى حين ما كانت القضايا التى تتعلق بالمشكلات فى المدينة محل تركيز لهذه الجهود، لم تحل فترة الأربعينيات إلا وكانت المشكلات فى المناطق الريفية من الشدة بحيث استحققت اهتماماً قوياً من عدد من هذه الجمعيات الخيرية. وكانت إحداها جمعية "أعمال المدارس المجانية فى قرى صعيد مصر" التى كانت تزور القرى فى فترات متتالية تقوم فيها بتدريس مبادئ الصحة والتعليم كما كانت تقوم بتوزيع النقود والملابس وأدوات النظافة على الفقراء من أهل الريف^(١٨). بالإضافة إلى مد يد العون فى خلال الأزمات مثل أوقات الأوبئة أو الكوارث الطبيعية.

أما الجمعيات التى ركزت نشاطها فى المشكلة الثانية وهى "الجهل" فقد كانت فى أغلبها غير حكومية، كما أن الكثير منها والذى ذكرناه سابقاً كان مهتماً بجهود تخفيف الفقر - كن يحاولن أيضاً نشر التعليم ومحو الأمية^(١٩). وفى خلال فترة احتلال البريطانيين لمصر والتى بدأت عام ١٨٨٢ واستمرت حتى ١٩٢٢ حين نالت مصر استقلالها، لم تكن الحكومة تشجع التعليم. وحتى بداية الاحتلال كان التعليم مجانياً ولكن مع الاحتلال حدثت بعض التغييرات الجذرية فى نظمه لتشمل صدور الأوامر بتحصيل مصروفات مدرسية بسبب قلق الحكومة على الأحوال المالية للدولة - من منطلق أن أحد أهدافها الرئيسية هو استقرار الاقتصاد حتى تضمن مصر دفع ديونها الأوروبية. إلا أن بعض الأسباب الأخرى كانت سياسية - فمن وجهة نظر لورد كرومر الذى كان القنصل العام لبريطانيا، كان التعليم يشكل خطراً حيث سيخلق طبقة من الشباب المتعلم قد يهدد سلطة بريطانيا^(٢٠). وفى واقع الأمر لم تكن توجد فى تلك الفترة سوى ثلاث مدارس حكومية سمحت بها إدارة كرومر، ورغم أنه "فى العقد السابق للحرب العالمية الأولى تزايد إنفاق الدولة على التعليم فإنه وصل فى ذروته إلى ٤, ٣٪ فقط من الميزانية القومية"^(٢١). وبالتالي فحتى عام ١٩٢٢ كانت الجهود المبذولة لمحاربة "الجهل" غير رسمية فى أغلبها، بل كانت ثمرة انشغال الجمعيات المهتمة بقضية الفقر أو المتمركزة فى المدارس الدينية المعروفة باسم "الكتاب"^(٢٢).

حين تأسست مبرة محمد على فى القرن التاسع عشر، كان هدفها الأساسى هو قضايا الصحة العامة والمساعدة فى الكوارث والتى كانت تبلور "المشكلة الكبرى" الثالثة فى الريف المصرى. وحينما أسست هذه المنظمة بعض العيادات الدائمة فى ريف مصر^(٢٣)، انحصرت نشاطها أساساً فى الاستجابة إلى ما يهدد الصحة العامة مباشرة وذلك من خلال تحريك أعضائها نحو مناطق الأزمة لتقديم المساعدة ثم التوجه إلى مناطق أخرى بعدها^(٢٤). ورغم الأعمال الطيبة التى قدمتها المبرة فإن برامجها بطبيعتها كانت قصيرة الأجل، وكانت أساليبها يشوبها الكثير من المشاكل الداخلية. وكما سبق وذكرت نانسى جلاجر فى الفصل الثانى عشر وناقشه الكثيرون من المثقفين، كان اتجاه المبرة فى تعاملها فوقياً، بمعنى أن أعضاءها كانوا يضعون خطة ثم يبحثون عن مانح لقطعة أرض تمكنهم من بناء عيادة أو مستوصف عليها. ثم بعد ذلك يتجهون إلى العمدة فى محاولة لإقناعه بأهمية هذا المشروع للقرية، ليتجه العمدة بدوره إلى أهالى القرية لإقناعهم. وبمعنى آخر "فإن أهالى القرية، تنفيذاً لاقتراحات المسئول عنهم فى الوظيفة الهرمية، يتعاونون فى بناء المستوصف مما يجعل المشروع برمته يفتقد الطابع "الخيرى" ليتحول إلى مشروع قروى تعاونى"^(٢٥). وبذلك ابتعدت الصورة النهائية لهذه المشروعات الخيرية عن المشاركة الإيجابية لأهالى القرية ليتحولوا إلى مجرد مستقبلين سلبيين للمعونة "ينفذون اقتراحات المسئولين فى السلطة" و"منساقين إلى تقبل إحسانهم"^(٢٦).

وفى حين ما كانت نوايا هذه المؤسسات الخيرية تستحق الاستحسان فإنها لم تنجح فى إحداث أى نوع من الإصلاح الواقعى الدائم فى المناطق التى كانوا يمارسون فيها عملهم، بل ولم يكن هذا هدفها، فلم يشارك الأهالى فى تلك المناطق فى أى من برامجها بل كانوا فقط محل إحسانها. وبالتالي كانت أجندة الإصلاح مفروضة، وبتوايا محددة ونتائج إيجابية على المدى القصير، ولكن دون خلق أى فرص لمشاركة فعلية من جانب الأهالى أنفسهم. وبدلاً من الاستماع إلى أولويات مطالبهم، وإشراكهم فى عملية التفسير الاجتماعى، فرضت تلك المؤسسات أجندتها الإصلاحية وأوصلت المعونة إليهم. وحتى الجمعيات النسائية التى كانت مهتمة بمبادرات التطوير كان هدفها يتوجه إلى تسليح القرى والمدن الفقيرات ليشملهن الإصلاح من تظايرهن الثريات فى المدن.

ومع ذلك بدأت جهود الإصلاح تتزايد فى أعدادها وقوتها وأهميتها فى الثلاثينيات والأربعينيات حين تحملت مصر سلسلة من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كدولة شبه مستقلة^(٢٧). وفى مواجهة الكساد الاقتصادى العالمى الذى ساد آنذاك والنفوذ البريطانى المتزايد والاحتلال فى بداية الحرب العالمية الثانية، وعدم الاستقرار الحكومى نتيجة تغير الوزارات، وحادثة عابدين عام ١٩٤٢ (انظر: ملاك بدروى فى هذا الكتاب)، والهزيمة العسكرية فى فلسطين عام ١٩٤٨ كان الجدل حول مشكلات مصر الداخلية يأخذ اهتماماً متزايداً، فقد شملت برامج عدد من الأحزاب التى تشكلت فى تلك الفترة برامج سياسية اعتمدت على الإصلاح الاجتماعى. وكان حزب "مصر الفتاة" برئاسة أحمد حسين^(٢٨) وفلسفته الفاشية، ونشاطه الدينى واشتراكيته، يجذب الكثير من المناصرين له، بالإضافة إلى أن جماعة الإخوان المسلمين التى كانت قد تأسست حديثاً أصبحت جماعة سياسية واجتماعية لها نشاطها الواضح والذى بدأ يجذب الأعضاء إليها بسرعة، ورغم أن الحركة الشيوعية أيضاً لم تكن تضم الكثير من الأعضاء فإنها بدأت تأخذ وضعها فى المجتمع.

وفى تلك المرحلة أيضاً بدأ وعى المثقفين فى مصر بالحاجة إلى تناول مشكلات مصر الداخلية وخاصة الأحوال المعيشية للفلاحين. وفى بداية الثلاثينيات من القرن العشرين صدرت كتباً عديدة فى القاهرة تتناول حالة الفلاحين وأوضاعهم وأصبح الاقتصاد الزراعى مجالاً واسعاً للدراسة، كما بدأ تجميع الإحصاءات عن سكان الريف، وتأجير الأراضى، وحجم ملكيتها، ونوع المحاصيل التى تنتجها^(٢٩).

ولم يمض وقت طويل حتى بدأ المسئولون الحكوميون يشاركون فى الجدل العام، فأصبح الإصلاح الزراعى والخدمات الاجتماعية فى المناطق الريفية محل مناقشة فى البرلمان، كما بدأت الصحف تنشر مقالات متعددة تحت فيها على الإصلاح وتلوم مجموعات مختلفة لفشل الحكومة فى التصدى لهذه المشاكل، بالإضافة إلى أن وباء الكوليرا والمalaria الذى اجتاح ريف مصر فى أوائل الأربعينيات أظهر الأوضاع القاسية للحياة فى الريف^(٣٠). واغتتم السياسيون فرصة احتياجهم وأحزابهم إلى التوحد مع

أهالى الريف للمسارة فى مدح الفلاحين بصفتهم العمود الفقرى للأمة. وما إن حل منتصف الأربعينيات حتى كان من الصعب أن تجد سياسياً ضد الإصلاح، بل وصل الأمر ببعض البارزين منهم بإطلاق اسم "فلاح شرفى" على الملك فاروق.

ورغم انغماس كل طبقات المجتمع المصرى فعلياً فى الجدل حول هذه القضايا ورغم توفير الجماعات الدينية والمدنية بعض الخدمات الاجتماعية فى كل من المدن والمناطق الريفية^(٣١)، فإن الحكومة لم تنشط بفاعلية فى توفير تلك الخدمات إلا فى عام ١٩٣٩ حين أنشأت وزارة الشؤون الاجتماعية^(٣٢). وقام أحمد حسين - الذى تزوج عزيزة حسين فيما بعد - بإنشاء "إدارة الفلاح" فى الوزارة الجديدة، ووضع برنامجاً متكاملًا لتنمية القرية وقد أصبح فيما بعد حجر الزاوية فى خطة طموح لتطوير الريف وإحداث تغيير اجتماعى وسياسى به على المستوى القومى^(٣٣).

كانت الفكرة وراء الخطة الجديدة المسماة "برنامج مراكز الريف الاجتماعية"^(٣٤). نابعة من المشروع الإرشادى الذى طرحته الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية عام ١٩٣٦ والذى كان تحت إشراف أحمد حسين^(٣٥). ورغم أن أهدافه كانت مماثلة للجماعات الخيرية التى سبق لنا الإشارة إليها (والتي كانت أهدافها التغلب على مشاكل الريف المصرى الثلاث وهى الفقر والجهل والمرض)، فإن مراكز الريف الاجتماعية تبنت فلسفة جديدة تعتمد على مفهوم المعاونة فى المساعدة الذاتية حيث يشجع الفلاحون أنفسهم على وضع أجندة الإصلاح الخاصة بهم مما يستتبع بالتالى مشاركتهم الفعلية فى كل مراحل التطوير فى قريتهم فى نفس الوقت الذى يمكنهم فيه الوصول إلى الوسائل التى تحسن من مستوى معيشتهم. وقد ركزت هذه المراكز على فكرتين رئيسيتين: أولاهما مشاركة الفلاحين فى جميع خطوات التنمية، وثانيهما أهمية تكامل جهود الإصلاح لتشمل قضايا الصحة، والعلاج، والاقتصاد، والاجتماع، والزراعة، والثقافة فى القرية فى نفس الوقت. وقد شرح أحمد حسين فلسفة هذا المشروع كالتالى:

"فوق كل شيء، فإن الاستراتيجية تعتمد على مبدأ أن الأهالي يجب أن يساعدوا أنفسهم إذا أرادوا المساعدة من الغير. فالفكرة الأساسية وراء دفع عملية الإصلاح إلى الأمام هي مواجهة جميع الجبهات فوراً. فلا فائدة من التصدي لمشاكل الصحة لعائلات يعانون من الجوع، أو أن ننادى بالاهتمام بالصحة العامة والنظافة لهؤلاء الذين تنقصهم وسائل شراء أبسط الأشياء مثل الصابون أو الملابس الكافية"^(٣٦).

كانت الهيئة المصرية للدراسات الاجتماعية قد أنشأت مركزين اجتماعيين ريفيين لهذا المشروع الرائد، وفي عام ١٩٤٢ أضيفت لها ستة مراكز أخرى أنشأتها إدارة الفلاح في وزارة الشؤون الاجتماعية. ثم توسع البرنامج بنسبة متواضعة، وفي عام ١٩٤٩ وقع الاختيار على قرية سنديون بجوار القاهرة لإنشاء مركز اجتماعي ريفي. ومثل بقية المراكز الأخرى كان المركز يهدف إلى تطوير حالة القرية من خلال المعاونة في المشروعات الذاتية. وفي سنديون تكاملت كل جهود الإصلاح الاجتماعي وتناسقت واتحدت. وقد أعطيت الأولوية لزرع الإحساس بالملكية والمسئولية في نفوس أهالي القرية تجاه هذه الجهود من خلال مشاركتهم الفعالة في التخطيط والتنفيذ والإدارة والمسئولية المالية ثم تقييم المشروع مع التقليل من تدخل الحكومة.

تم إنشاء هذا المركز في سنديون بمساعدة وزارة الشؤون الاجتماعية استجابة إلى رغبة الأهالي والتزامهم بهذا النظام الجديد لبرنامج تنمية الريف. وفي الواقع فإن هذا كان منهج إنشاء كل المراكز الجديدة لتكون القوة الدافعة وراء تأسيس كل منها - بعد المراكز الستة الأولى التي تأسست عام ١٩٤٢ - والنابعة من الأهالي أنفسهم. حيث كانت مساهمتهم المالية تعبيراً عن جدية مطالبهم بإنشائها والأهم إحساسهم بأنهم شركاء فيها. وبهذه الطريقة أصبح المركز ملكهم وليس مشروعاً مفروضاً من الحكومة. وكان تخطيط هذه المراكز يؤكد على أن يكون التطوير بسيطاً ويمكن استمراره والحفاظ عليه حتى يتيح للقرية الاستمرار في المشروع بعد تنفيذه.

ومثل كل المراكز الاجتماعية الريفية، كان لدى مركز سنديون موظفان دائمان، خبير متخصص في النواحي الزراعية والاجتماعية وزائرة صحية^(٣٧). وقد أسس الخبير الاجتماعي الزراعي خمس لجان (لجنة الصحة، واللجنة الاجتماعية

والثقافية، واللجنة الزراعية والاقتصادية، ولجنة المساعدات الخيرية والعامة وأخيراً لجنة التوفيق) وجميع أعضائها متطوعون وتم اختيارهم من البالغين فى القرية. وكانت هذه اللجان مسئولة عن التخطيط والتنفيذ وتقييم المشروعات الجديدة فى سنديون بمساعدة موظفى المركز والذين كانوا ضباط الاتصال بين سكان القرية ووزارة الشؤون الاجتماعية فى القاهرة.

ورغم التفاوت القائم فإن برنامج المركز كان يعتبر جديداً ومبتكراً ويحمل الكثير من إمكانيات النجاح^(٣٨)، وقد اعتنقه الكثير من الشباب المثقف فى مصر، والمنظمات الدولية، والمصادر الدبلوماسية^(٣٩). ورغم أن ذلك فقد كانت لهذه المراكز - مثل الهيئات الخيرية التى سبق الإشارة إليها - مشاكلها الخاصة. فرغم أن هذه البرامج والمراكز التى كانت تديرها الجمعيات الخيرية النسائية أفادت المرأة بطريقة غير مباشرة، فإنه أى واحدة منهما لم تستطع أن توفر للمرأة الريفية فرصة متابعة اهتماماتها الاقتصادية والتعليمية، أو فرصة وضع أولوياتها الإصلاحية الخاصة.

استفادت المرأة فى سنديون بطريقة غير مباشرة من البرنامج والتحسين العام لمستوى المعيشة فى القرية، إلا أن الفائدة المباشرة التى عادت عليها كانت من خلال الخدمات الصحية التى وفرتها عيادة صحة الأم والطفل بالمركز. وكان تصميم البرنامج هو الملوم جزئياً فى اختلاف التوازن، فبينما سمحت لجان التخطيط بمشاركة المرأة، فإن مستوى مشاركتهم كان بنسبة أقل من مشاركة الرجل^(٤٠). وكانت النتيجة المتوقعة أن مشروعات التنمية التى خطط لها المركز وقام بتطبيقها تولوها رجال القرية ولمصلحتهم. فأتجهت برامج المركز نحو شراء معدات زراعية حديثة، وتدريب أساليب زراعية جديدة ثم تطوير بعض الصناعات الريفية الصغيرة. ولأن العضو الآخر العامل بالمركز وهى الزائرة الصحية كان يقع على كتفها سلسلة طويلة من المسئوليات التى تتركز على رعاية الأم والطفل^(٤١)، فقد كان من الصعب عليها من الناحية العملية أن تلعب دوراً مؤثراً فى التوسع فى الخدمات غير الصحية والتى كانت بالضرورة تستهدف نساء القرية، بالإضافة إلى أنها لم تكن مؤهلة لأن تلعب دوراً فى أعمال الخدمة الاجتماعية بعيداً عن مجال خدماتها الطبية.

نوع جديد من الأنشطة: مشروع سنديون

فى سنوات الأربعينيات، ومع تزايد اهتمام المجموعات السياسية والخيرية بالأحوال المعيشية للفلاحين، ومع تزايد أعداد النساء المشاركات فى الجدل حول هذه القضايا، بدأ مجال السياسة فى مصر يتحول عن مساره. وفى ذلك الوقت بدأت عزيزة حسين - التى كانت على وعى بعدم المساواة بين الرجل والمرأة حتى فى أكثر الجهود الإصلاحية تقدماً تخطط طريقاً خاصاً بها. فتأسيساً على النشاطات التقليدية للمرأة، ومن منطلق تجربتها الشخصية وتدريبها بدأت عزيزة حسين تحركها نحو هدف معين - المعاونة فى المشروعات الذاتية من المرأة ولأجلها. وقد وضعت نجاحات برامجها المستمرة منهج مشروعات الإصلاح الاجتماعى فى العالم.

ولدت عزيزة حسين شكرى سنة ١٩١٩ فى قرية زفتى فى أسرة غير تقليدية^(٤٢)، وكان والدها سعيد شكرى ثائراً سياسياً إلى حد ما، عرف عنه معارضته للاحتلال البريطانى، ومآثره العسكرية فى ليبيا^(٤٣) مما أثر بصورة خاصة على مسيرة ابنته. ورغم ثراء عائلته وامتلاكها للعديد من الأراضى فى الريف فإن اهتمامات شكرى كانت بعيدة عن ثروته أو وضعه الاجتماعى فقد اتجه إلى قضايا أخرى. ويعد أن أنهى دراسته الطبية فى أيرلندا وفرنسا على نفقته الخاصة^(٤٤)، عاد إلى مصر - ولكن ليس إلى القاهرة حيث كان من المتوقع أن يمارس مهنة الطب لصالح الطبقة العليا - ولكن إلى قريته حيث أقام عيادة طبية حديثة للفلاحين. وخلال مسيرة حياته قام شكرى بإنشاء العديد من العيادات فى قرى مصر وأطلق على أول عيادة أنشأها "عيادة شكرى" تيمناً باسمه. ورغم أن هذه العيادات لم تأت له بثروة كبيرة، فإنه حاز من خلالها على كثير من الاحترام والسمعة الحسنة كمصلح اجتماعى نشط.

وبسبب مرض زوجته المزمّن، كان لشكرى الدور الرئيسى فى تربية عزيزة وشقيقاتها الأربعة^(٤٥). وعكس ما هو متوقع من رجل مصرى له جنوره الريفية فى أوائل القرن العشرين، كان شكرى يؤمن بقوة بالمساواة بين الجنسين بل كان يذهب إلى أبعد من ذلك فى اعتقاده بأن المرأة تتفوق على الرجل عقلياً^(٤٦). وكان لمعتقدات

شكرى السياسية والاجتماعية الخاصة تأثراً عظيماً على أولاده وخاصة على عزيزة^(٤٧). فقد شبت فى عائلة منغمسة فى عملية الإصلاح، حيث النظرة إلى الأفعال أهم من الثروة الشخصية، وفى وقت انتشرت فيه الأفكار الإصلاحية بين المثقفين، والنخبة المتعلمة. وتؤكد دراستها الأساسية الخاصة على مدى تأثير نشأتها والجو الإصلاحي الذى ساد فى تلك الفترة على حياتها. وتوافقاً مع معتقدات أبيها فى أن الأولاد والبنات يجب أن يتلقوا نفس التعليم فقد درست عزيزة فى المدارس الفرنسية والأمريكية^(٤٨) وواصلت تعليمها فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة حتى تخرجت عام ١٩٤٢ من كلية العلوم الاجتماعية.

ولأنها كانت فتاة متعلمة تتميز بالجاذبية ومن عائلة لها سمعتها الطيبة تلقت عزيزة الكثير من عروض الزواج. إلا أن والدها كان قد علم بناته عدم التسرع فى اختيار الزوج، وكان يؤمن بأن المرأة يجب أن تتعلم أولاً وتكون قادرة على إعالة نفسها اقتصادياً قبل أن تقدم على الزواج. كما أنها لا يجب أن توافق إلا إذا اقتنعت تماماً بشريك المستقبل من جميع النواحي. وبالتالي فرغم تلقيها الكثير من عروض الزواج فإن أحداً منهم لم يكن جديراً بهذه الفتاة المتعلمة، الحديثة، ذات الأفكار المتحررة - حتى تقدم إليها أحمد حسين، وكان رجلاً إصلاحياً نابها يحظى بالكثير من الاحترام ويتمتع بسمعة معروفة فى وزارة الشؤون الاجتماعية فتوافقت أهدافه الشخصية والاجتماعية مع مسيرة عزيزة^(٤٩). وتزوج الاثنان عام ١٩٤٥ قبل سنوات قليلة من إنشاء مركز الريف الاجتماعى فى سينيون وكانت موافقتها على الزواج تعنى اكتسابها لزوج ولشريك فى مهنتها فى نفس الوقت. وبدأ الاثنان بعد الزواج يتعاونان فى مجال مشروعات الإصلاح الاجتماعى وحفرت عزيزة اسمها كقائدة فى مجتمع الإصلاح الاجتماعى فى مصر^(٥٠).

وكما كان متوقفاً من امرأة متعلمة من هذه الطبقة، أصبحت عزيزة حسين ناشطة فى عدد من المنظمات والجمعيات الخيرية ومنها نادى سيدات القاهرة يعد زواجها بقليل^(٥١). وعند هذه النقطة توقف تمسك عزيزة بالتقاليد، فقد كانت خلفيتها الطبقية، وتدريباتها

التعليمية، بالإضافة إلى ميولها الشخصية قد دفعتها للبحث عن فرصة جديدة لنشاطها وبرامجها^(٥٢). وكما أشار حسين في سنة ٢٠٠٣ أنها "كانت تؤمن بالقطاع غير الحكومي كوسيلة ملائمة لخدمة البلد والإنسانية"^(٥٣) وفي رأيها "أن الهيئات المتطوعة تهتم بالإنسان على مستوى احتياجاته الأساسية". وبالتالي فهم القاطرة المؤثرة بفاعلية في التغيير الاجتماعي"^(٥٤).

وفي عام ١٩٤٩ - أثناء انغماس أحمد حسين في تطوير برنامج المركز الريفي الاجتماعي أدرك تماماً عدم قدرة البرنامج على تلبية احتياجات ورغبات المرأة الريفية. وكما كان يفعل بعد ذلك خلال عمله، لجأ أحمد حسين إلى نصيحة زوجته في كيفية تحسين البرنامج ومعالجة جوانب النقص به. واتفق الاثنان على ضرورة البحث عن وسيلة لمزيد من إشراك المرأة في تنمية مشروعات القرية. وفي ذلك الوقت كان نادي سيدات القاهرة يبحث في وسائل المساهمة في تطوير الريف، وقضايا المرأة ولكنه لم يكن قد توصل بعد لتحديد أي من الطرق المحتملة المؤثرة لتناول هذه المشكلة. وكما قالت عزيزة حسين "ليس من المتصور أن السيدات اللاتي يعشن بعيداً عن القرية، وليس لديهن الوقت الكافي للسفر إليها في مقدورهن تقديم أي نشاط فعال في أي مجال من مجالات تحسين الخدمة الاجتماعية"^(٥٥). ومن ثم قرر الزوجان أن أحد الوسائل التي تمكن نادي سيدات القاهرة من أن يكون أداة للإصلاح الاجتماعي في الريف هو ربط النادي ببرنامج المركز الاجتماعي الريفي، ولأن قرية سنديون كانت تقع بجوار القاهرة وكان المركز بها جديداً، فقد اقتنع الزوجان بأن هذه القرية هي الفرصة المثالية للقيام بهذه التجربة.

ولأن عزيزة حسين كان لديها تاريخ في اتجاه المرأة إلى النشاط الخيري في مجال الإصلاح الاجتماعي مع قلة الخبرة في مشروعات الإصلاح الريفي في نادي سيدات القاهرة فمن المحتمل أنها لو لم تصمم على مبدأ المعاونة في المشروعات الذاتية الواردة في برنامج المركز الاجتماعي الريفي لكانت الجهود المبذولة قد اتبعت نفس الطريق التقليدي في تقديم الأعمال الخيرية - والتي تنحصر في تقديم المعاونة من

السيدات الثريات، والنخبة من قاطنات المدن لأخواتهن الفقيرات الريفيات. ولكن بدلاً من ذلك، ومع تطور مشروع نادى سيدات القاهرة تمكنت عزيزة حسين من التمسك بفكرة المعاونة فى المشروعات الذاتية والتي بلورها برنامج المركز الاجتماعى الريفى. وبذلك خلقت الرابطة الأولى بين الاتجاه الجديد فى المساعدة الذاتية ونشاط المرأة التقليدى الطويل فى مصر، ليبرز بذلك اتجاهاً جديداً فى وضع المشروعات الذاتية، وتطبيقها وتقييمها من المرأة الريفية أساساً ولصالحها.

بدأت التجربة فى عام ١٩٥٠ بزيارة نادى سيدات القاهرة إلى القرية ثلاث مرات أسبوعياً ولمدة ثلاثة أشهر. وفى خلال تلك الفترة اقتضرت علاقة سيدات القاهرة على العلاقة الاجتماعية بينهن وبين نساء القرية دون عرض أية مشروعات أو الإشارة إلى أنهن أتىن لمساعدة القرية، وكان هذا الاتجاه نابغاً من إشعار نساء القرية بأن عضوات النادى كن جادات فى صداقتهن لهن. وتصف عزيزة حسين هذه العملية كالتالى:

"بدأنا العمل ببطء وحذر، وقمنا بتنفيذ جميع تعليمات الخبراء الاجتماعيين فيما يتعلق بديمقراطية الاتجاه، والتمسك بالصبر والوقت المناسب لتدعيم صداقتنا مع نساء القرية قبل أن نشركهن فى أى مشروع. فكنا نقوم بزيارة العديد من البيوت أسبوعياً، بحيث تأخذ هذه الزيارات الطابع الاجتماعى، ثم الإصغاء إليهن جيداً دون فرض أى أفكار منا. وقد أبدى أغلبهن - خاصة اللاتى كان أزواجهن يعملون فى لجان المركز الاجتماعى الريفى - حماسهن وإحساسهن بالجميل لمساعدة المركز لهن فى نشاطهن داخل المجتمع فى خلال فترة قصيرة بلغت ثلاث سنوات. واستطردن بعد ذلك فى الحديث عما يستطعن - كنساء - أن يقدمن لأنفسهن أيضاً. وفى تلك اللحظات كنا نعرض خدماتنا لمساعدتهن فى أى مشروعات يجدن أنها فى صالحهن"^(٥٦).

أثبتت فكرة تأسيس صداقة مع نساء القرية والاستحواذ على ثقتهن فاعليتها، فقد أحست نساء القرية بالراحة وهن يعبرن عن أولوياتهن التنموية.

"اكتشفنا أن أكثر ما يثير اهتمامهن هو تعلم أشغال الإبرة والخياطة وأشغال التريكو. إلا أنهن لم يكن يمارسن مهنة الخياطة، كانت من تملك بعض النقود تعطى

ملابسها لخياطة، وبالتالي فقد تم فتح فصول لتعليم الخياطة بمساعدة بعض عضوات النادي، أما أشغال التريكو فقد خصصت للفتيات من سن السابعة إلى العاشرة، وأشغال الإبرة للفتيات من سن العاشرة إلى الرابعة عشرة^(٥٧).

وتتذكر عزيزة حسين: "فى نهاية العام كان لدى سنديون أول لجنة نسائية للقرية تمارس أنشطة مختلفة منظمة مثل الخياطة وأشغال الإبرة والتريكو، بالإضافة إلى إعداد المربى والمعلبات... إلخ"^(٥٨). ورغم أن هذه الأنشطة لا تعد ثورية فى حد ذاتها، فإن الأسلوب الذى اتبع كان كذلك. وكان نجاح المشروع الأول قد علم نساء سنديون أن فى إمكانهن إقامة وتنظيم وإدارة مشروعات خاصة بهن. وتعاملت سيدات نادى القاهرة مع نساء سنديون كشركاء يسعون نحو أهداف المرأة فى القرية بصرف النظر عن نوعيتها. وخلال هذه العملية كانت نظرة نساء القرية إلى عضوات النادي باعتبارهن مصدراً لموردهن ولسن كغرباء من الطبقة العالية جئن لفرض أجندتهن المدنية عليهن.

وكانت النتيجة أن أنشطة لجنة المرأة فى سنديون لم تستمر طويلاً فى قصر نشاطها على الصناعات الريفية على نطاق ضيق، بل بدأت تتعاون مع نادى سيدات القاهرة فى تخطيط لمشروعات إضافية على نطاق أوسع فى سنديون. فقررت أن أكثر ما سوف يفيد أهالى القرية هو إقامة مدرسة حضانة أو مركز للرعاية اليومية للأطفال قبل التحاقهم بالمدارس بحيث يوفر لأطفالهن مكاناً للتعليم واللعب بالإضافة والأهم هو تحرير نساء القرية أيضاً من مسئولية رعاية الأطفال لعدة ساعات يومياً لتابعة أنشطة أخرى من اختياراتهن. ونتيجة لذلك بدأت عزيزة حسين وزميلاتها من عضوات النادي وبالتعاون مع نساء سنديون فى إقامة أول مدرسة حضانة ريفية فى مصر^(٥٩).

ولأن المدرسة لم يكن فى استطاعتها الاستجابة إلى الطلبات الأولى للالتحاق بها كانت الاختيارات صعبة. فقد كان اختيار الأطفال الخمس والعشرين الأوائل - والذى استند إلى مسح اجتماعى اقتصادى قام به العاملون بالمركز الاجتماعى الريفى - من العائلات الأكثر فقراً والذين كان أبائهم يقضون أغلب أيامهم فى الحقول. وبصفة مبدئية كانت مدرسة الحضانة توفر ببساطة مكاناً يمكن للأطفال فيه من سن الثالثة

إلى السادسة ممارسة اللعب فى بيئة نظيفة، مع توفير غذاء صحى، وتلقى دروس تعليمية. وفى السنوات اللاحقة توسعت المدرسة فى نشاطها عن طريق إضافة مكتبة للأطفال من سن السادسة إلى الرابعة عشرة، وأيضاً إقامة ورشة لتصنيع الكليم والسجاد، ثم عيادة خاصة بها للصحة العامة وتنظيم الأسرة، مع التوسع فى ورشة المصنوعات اليدوية. وبعد ذلك مدت أنشطتها أيضاً لتخدم حوالى خمس وثلاثين قرية مجاورة. والآن ما زالت المدرسة تعمل ومكتبتها تتوسع والأنشطة اليدوية بها تزداد كما أضيفت إليها أيضاً فصول لتعليم الحاسب الآلى سواء للأطفال أو البالغين^(٦٠).

وفى متابعة لهذا النشاط فى عام ١٩٥٦ أشارت دراسة قام بها أحد الباحثين بالجامعة الأمريكية فى القاهرة، إلى أن الأطفال الذين التحقوا بمدرسة الحضانة فى سنديون حصلوا على درجات عالية مع أقل نسبة غياب فى المدارس الابتدائية، كما اشتركوا فى النشاطات الإضافية وكانوا يتمتعون بمستوى صحى أكثر من أطفال القرية الذين لم يتسن لهم الالتحاق بالحضانة. وقد عزت الدراسة نجاحهم إلى الخدمات الصحية والاجتماعية ومستوى التغذية فى الحضانة^(٦١).

وبالإضافة إلى الفائدة المباشرة التى عادت على هؤلاء الأطفال وأسرهم أصبحت الحضانة مسرحاً لتوسع نشاطات المرأة داخل القرية. فقد أعطت فصول الأعمال اليدوية، والمشاركة فى برامج الحضانة داخل المركز الفرصة لخروج النساء من بيوتهن والتوجه إلى المركز مرتين أسبوعياً والذى أصبح بعد ذلك نهجاً مقبولاً اجتماعياً كجزء من نشاط النساء المنتظم. وعن طريق قبول وارتضاء هذا الوضع من نساء ورجال القرية فتحت مشروعات الحضانة النوافذ لمشاركة المرأة فى أنشطة أخرى بالقرية. وكما تشرح عزيزة حسين "لقد أصبحت هذه الحضانة مركزاً جاذبياً لإسهامات المرأة. وأثبتت أنها من الوسائل الفعالة للوصول إلى المرأة والأسرة من خلال الطفل. كما أصبح من السهل تنظيم الأمهات فى مجموعات للمشاركة داخل الفصول التعليمية للبالغين، والعناية بصحة الطفل، والعادات الصحية بصفة عامة^(٦٢). وبدأت نساء القرية فى رؤية استيعاب أدوار جديدة لهن داخل القرية واستيعابها، فبدأت بعضهن فى الالتحاق بفصول محو الأمية. والأشغال اليدوية فى حين لجأت الكثيرات منهن إلى العمل فى الحضانة مقابل أجر.

بدأت الثورة الهادئة بنجاح مركز الرعاية اليومية - وميلاد تقليد جديد لنشاط المرأة. وربما كان أحد أبرز الجوانب في هذه التجربة وتناجها هو أن هذا التجديد في حياة أهل قرية سنديون كان محل تقبل وترحيب من الرجال والنساء. وبدأت النساء في القرى المجاورة يطلبن النصيحة لإقامة مراكز الرعاية اليومية في قراهم بحيث لا تقتصر فقط على رعاية الطفل ولكنها تشمل أيضاً فصولاً لتعليم المصنوعات اليدوية، والتوسع في الرعاية الصحية وفصول محو الأمية. ثم بدأت المدرسة في طلب مشرفات بالأجر من القرية في نفس الوقت الذي بدأت أيضاً فيه القرى المجاورة طلب مساعدة نساء سنديون لهن في إقامة وتدريب عاملين في مدارس الحضانة لديهن^(٦٣).

استحقت قدرة المشروع على سد احتياج اقتصادي في مجالات مختلفة الثناء والتقدير، ووضع كمشروع مثالي. وتتذكر عزيزة حسين أن "اسم سنديون بدأ في الشروع في القرى المجاورة، وبدأت ممثلات عن القرى المختلفة تتوسل إلينا لإقامة مشروعات مماثلة في مجتمعاتهن، مما أظهر لنا أننا نجحنا فعلاً في التوجه العملي لتلبية احتياجات أساسية حادة"^(٦٤). وبالتالي أقيم مشروع ثان في قرية "تيرسا" التي تبعد عشرة أميال من سنديون. ومثل ما حدث في سنديون أقيم المشروع بمساعدة نادي سيدات القاهرة، وأدير بالاشتراك مع المركز الاجتماعي الريفي المحلي. وحال إقامة مشروع ترسا بدأت الحكومة في إنشاء مراكز الرعاية اليومية في جميع المراكز الاجتماعية الريفية التابعة لها متخذين من مدرسة سنديون نموذجاً أمثل. وفي يونيو ١٩٥٤، كان قد أقيم ستة مراكز أخرى بعض منها بواسطة مجموعات من النساء داخل القرية، والأخرى بالتعاون مع الزائرة الصحية للمركز الاجتماعي الريفي^(٦٥).

أثنت مجتمعات الإصلاح المصرية والدولية على الفلسفة التي بلورها مشروع سنديون، وجذب النجاح الذي حققته مدرسة الحضانة اهتمام الأمم المتحدة التي تبنته كمشروع مثالي للإصلاح الريفي في الخمسينيات^(٦٦). وبعد ثورة ١٩٥٢، امتدح جمال عبد الناصر أيضاً هذا البرنامج وألزم حكومته في عام ١٩٥٤ بتوفير مائتي حضانة ريفية إضافية^(٦٧)، وحين عرض عبد الناصر برنامجه عن الخدمات الاجتماعية الريفية الجديدة - وهي الوحدات المجمع - ضَمَنَ مدارس الحضانة البرنامج وجعلها جزءاً

رئيسياً منه^(٦٨). وما إن حلت سنة ١٩٧٠ حتى كان عدد مدارس الحضانة التي تديرها وزارة الشؤون الاجتماعية قد ارتفع إلى السماء فأصبح عددها ٦٠١ في المناطق الريفية، و٣٥١ في المدن، و٢٦ في المناطق الصحراوية. وبلغ عدد الأطفال الذين التحقوا بتلك المدارس ٩٩٨، ٤٦، كما بدأت وزارة التعليم أيضاً وضع برنامج لتلك المدارس، حتى وصل عدد الأطفال بها إلى ١٢، ٤٦٩ في نفس العام^(٦٩).

قبول نموذج سنديون والتوسع فيه

يمثل نجاح مشروع مركز الرعاية اليومية بسنديون نموذجاً جيداً لنجاح عزيزة حسين الشامل في المعاونة في المشروعات الذاتية في مصر قبل الثورة. ففي مشروع الحضانة بسنديون دمجت عزيزة حسين اثنتين من التقاليد الموجودة آنذاك، نشاط المرأة القديم الثابت، والاتجاه الجديد في المساعدة في تطوير الريف لتوجه الاثنتين إلى اتجاه ثالث هو المعاونة في المشروعات الذاتية التي تقوم بوضعه وتنفيذه المرأة الريفية نفسها ولصالحها. وفي نجاحها لتحقيق ذلك أصبحت عزيزة حسين رائدة في الحركة النسائية في مصر. وفي حديث لها عام ٢٠٠٢ أشارت إلى أن هذا المشروع أعطاها درساً قيماً في الإصلاح الاجتماعي.

"كان أحد الدروس الأولى التي تعلمتها من القرية هو أهمية الإصغاء إلى الأهالي قبل بدء أى فعل. تعلمت منهم جميعاً، من الشباب وكبار السن، من الجدات، والقابلات، وفتيات القرية، وزائراتها، والممرضات والمدرسات ورجال الدين. كنا نلعب دور المسهلين، ووكلاء التغيير الاجتماعي. وكان نجاحنا في المساهمة في هذه المشروعات الرائدة راجعاً إلى الثقة التي حصلنا عليها من خلال الإقناع، والمثابرة، والإيثار والحب"^(٧٠).

أصبحت فلسفة مساندة المشروعات الذاتية والدروس المستفادة من مشروع سنديون نموذجاً لمشروعات عزيزة حسين الإصلاحية بعد ذلك خاصة في مجال تنظيم الأسرة. وهنا أيضاً تتبعت الدولة خطواتها. فرغم أن مشكلة مصر بالنسبة لسرعة تزايد السكان كانت ضمن اهتمامات حكومة الثورة، فإن عبد الناصر لم يبدأ في المناداة

بتنظيم الأسرة إلا في منتصف الستينيات، وحتى في ذلك الوقت كانت خطوات حكومته في هذا الشأن قليلة وغير متماسكة. وفي عام ١٩٦٢ وتوافقاً مع التزامها بالإصلاح وانطلاقاً من خبراتها في مشروع سنديون بدأت عزيزة حسين وعضوات نادى سيدات القاهرة في عقد جلسات مناقشات حول تنظيم الأسرة، ضمت هذه الجلسات محاضرات من متحدثين في شئون الديموجرافيا (الدراسات الإحصائية للسكان)، وخبراء في الصحة، والمسؤولين الدينيين مثل الشيخ الشرباصى. وبعدها بقليل أنشأت عزيزة حسين اللجنة المشتركة لتنظيم الأسرة التى ضمت اثنين وعشرين منظمة افتتحت أعمالها بإنشاء عيادات تنظيم الأسرة وحددت توجهاً متكاملأ لها يشمل المشاركة والتخطيط المحلى^(٧١). ولم تبدأ المشاركة الفعلية لجهود الحكومة فى تنظيم الأسرة إلا عام ١٩٦٦ من خلال قرارها بإنشاء ٢٢٠٠ عيادة لتنظيم الأسرة والحد من الإنجاب^(٧٢).

ومع إيمانها بضرورة تزايد الجهود فى هذا المضمار عن طريق الأساليب والمناهج الملائمة، أسست عزيزة حسين فى عام ١٩٦٧ هيئة تنظيم الأسرة بالقاهرة والتى تعتبر تطوراً للجنة المشتركة لتنظيم الأسرة. وأعطى منهج هذه المنظمة، وما نتج عنه من إقامة العيادات الريفية صوتاً مسموعاً للفلاحة المصرية، ومركزاً مؤثراً داخل قراهم. ولوعيتها بأن تلك العيادات لن تكون ذات فاعلية بدون تشغيل نساء القرية أنفسهن بها بدأت الهيئة برنامجاً لاختيار فتاة من القرية للعمل بكل عيادة. وكانت مسئوليات هؤلاء الرائدات تغطى جميع الاحتياجات التنموية فى المجتمع بدءاً من التعاون مع المشروعات الأخرى وحتى الحوار مع قيادات القرية. وقد أشارت عزيزة حسين إلى أن استخدام الرائدات اللاتى كن أهم الأنابات الفاعلة فى التغيير الاجتماعى "يعتبر ثورة فى ضوء خاصية تسلط الرجل التقليدية فى المجتمع الريفى"^(٧٣). وبمعنى آخر كانت عيادات تنظيم الأسرة، مثل حضانة سنديون الريفية، هى برامج تديرها النساء الريفيات لصالحهن^(٧٤).

ومع اعتبار عزيزة حسين إحدى الثائرات فى هذا المجال، فهى الآن واحدة من أهم وأبرز رائدات الإصلاح بل هى مؤسسة فى حد ذاتها، فقد كان توجهها الأول بالإضافة إلى خمسين عاماً من مشروعات الإصلاح قد جلب لها الاحترام من المجتمع الدولى، وكقائدة فى مجال الإصلاح الاجتماعى على المستوى المحلى والقومى فى نصف القرن الماضى، فإن إسهاماتها والجوائز التى حصلت عليها أكثر من أن تعد أو تحصى هنا. ومن إسهاماتها الأخرى إنشاء لجنة المرأة العربية، وهى منظمة فى جامعة الدول العربية، ومثلت هذه اللجنة فى الندوات التى كانت تقام حول وضع المرأة وتنظيم الأسرة، كما مثلت أيضاً مصر فى هيئة الأمم المتحدة. وكانت أول امرأة تعطى هذا الحق. بالإضافة إلى عملها فى لجان مختلفة بالأمم المتحدة منها لجنة المرأة، ولجنة دراسات الإنجاب والمواليد (الخصوبة) وخبيرة فى دور المرأة فى التنمية، وعضوة فى مؤتمر عدم التعصب ضد المرأة، ولجنة قضايا الإنسان الدولية ثم المؤسسة الدولية للتدريب والبحث فى تقدم المرأة، وانطلاقاً من عملها فى الصحة الإنجابية، انغمست عزيزة حسين فى محاولات مصر الأولى لمنع الختان^(٧٥)، ونظراً لجهودها فى مجال تنظيم الأسرة وأسست الاتحاد الدولى لتنظيم الأسرة منذ ١٩٧٧-١٩٨٣ كما أسست أيضاً لجنة المنظمات غير الحكومية المصرية فى مؤتمر السكان والتنمية عام ١٩٩٣-٩٤ وتولت عملية تنظيمها، وبعد ذلك أصبحت رئيسة هيئة المنظمات غير الحكومية للسكان والتنمية، وهى منظمة غير حكومية قومية تعمل تحت مظلة ICPD. واليوم ما زالت عزيزة حسين تناصر قضية التنمية والإصلاح وحياة أفضل للمرأة فى مصر^(٧٦).

ولما كانت عزيزة حسين شخصية ثائرة فى نفسها، فقد كانت فكرة مساندة المشروعات الذاتية خطوة ثائرة أيضاً، وجذبت قبولاً عالمياً ومحلياً كبيراً، ورغم أن الهيئات الخيرية ما زالت تمارس نشاطها فى العالم، فإن هذه المؤسسات لا تعتبر كافية لإحداث تغيير دائم، فالتنمية الحالية أدمجت فى برامجها فكرة مساندة المشروعات الذاتية، من منطلق إيمانها بأن الطريقة الوحيدة التى تؤكد التغيير الدائم هو أن يكون الناس أنفسهم هم أدوات هذا التغيير. والواقع أن المنظمات الدولية مثل

الأمم المتحدة تركّز حالياً على أن مشاركة الناس أنفسهم هو مفتاح فاعلية البرامج الإصلاحية كما تشير بذلك تقارير برنامج التنمية للأمم المتحدة: "إن البلاد النامية تعمل على خلق استراتيجيات قومية خاصة بها لمحو الفقر تعتمد على الاحتياجات والأولويات المحلية. ويؤيد برنامج التنمية بالأمم المتحدة هذه الحلول التي تتبناها الدولة وتساعد على فاعليتها من خلال التأكيد على صوت مسموع أكبر للفقراء"^(٧٧). وكما يقول تقرير آخر إن هذا معمول به في فكر المعونات الدولية الآن. "إن السياسات التي تستهدف معاناة الفقير لن تكون مؤثرة أو مجدية إلا إذا تضمنت تحليلاً فنياً قوياً يواكبه دعم سياسى شرعى ينبع من الفقراء أنفسهم. وهذه طريقة أخرى للتعبير عن فكرة "المشاركة الشعبية والملكية الوطنية" التي تستخدم دائماً في استراتيجيات معونات التنمية"^(٧٨).

الخاتمة

ذكرت عزيزة حسين في إحدى المرات "إن المشكلة الحدية في مصر هي أن المرأة لا تفكر لنفسها، فالرجال دائماً هم الذين يفكرون ويعملون وفقاً لما يرونه. وهذا يسلب المرأة أى تقدم ذهني..."^(٧٩)، وكان الأسلوب الذي تنتهجه البرامج الاجتماعية للمرأة قبل ثورة ١٩٥٢ يؤيد هذه المشكلة من خلال استخدام رجل القرية كقاطرة للأفكار الإصلاحية بدلاً من نساؤها. وثارَت مشاكل مماثلة أيضاً حين حاولت جماعات المرأة المدنية وضع أولويات الإصلاح للمرأة الريفية.

انسلخت عزيزة حسين من هذا التقليد حين أنشأت حضانة سنديون تلبية لمطلب نساء القرية وبمشاركتهن الحيوية في هذا المشروع. وكان من أهم الأشياء أن الفكرة نبعت من داخلهن - أى أن المرأة في القرية وضعت أولوياتها وأدارت المشروعات بنفسها. وكان دور عزيزة حسين وزميلاتها في نادى سيدات القاهرة هو تسهيل تنفيذ مشروع كان سيظل هدفاً بعيداً وربما دفيناً لديهن. ومنذ مشروع سنديون عام ١٩٥٠

استمرت عزيزة حسين فى التزامها نحو خلق أدوات تمكن المرأة الريفية والنساء من الطبقة الدنيا من التعبير عن أولويات الإصلاح لديهم. وفى خلال خمسة عقود، ومع كثير من الحكومات التى كان لها توجهات متشعبة، ظلت برامجها ثابتة، كما ظلت فلسفتها لا تتغير. ورغم أن النظريات حول الإصلاح الاجتماعى كانت دائمة التفسير فإن التزامها بفلسفة مساندة المشروعات الذاتية كانت ثابتة لتثمر نجاحاً واستمرارية لأشكال متنوعة من البرامج الاجتماعية.

وفى دمجها لهذين الاتجاهين أسهمت عزيزة حسين بقوة فى نشاطات المرأة، ومسار برامج التنمية فى مصر، وبالتالى فهى تعد واحدة من أهم الرموز البارزة فى حركة المرأة المصرية وتاريخ التنمية، كما أن أيديولوجيتها، ومبادئها، ومنهجها تعتبر جزءاً من نتاج البيئة الإصلاحية الحيوية فى مصر فى مرحلة ما قبل الثورة. أما بعد حكم الثورة عام ١٩٥٢ فقد كانت العلاقة مع عزيزة حسين وبرنامجهما التنموى معقدة بعض الشيء. وكان عبد الناصر نفسه معجباً بها، وكما قال أحد الصحفيين "كان عبد الناصر كثيراً ما يقول إنه يود لو أن بناته يشبهن مثل "عزيزة حسين"^(٨٠). وكانت حكومة ناصر نفسها تؤكد على الأفكار "الحديثة" مثل الأسرة النووية، وتنظيم الأسرة، والتوسع فى تعليم المرأة، وحقوق المرأة السياسية، وفرص العمل المتاحة لها. ورغم تحرك الدولة فى مشروعات التنمية، فإن الحكم الجديد فشل فى التركيز على دورها ووضع أولوياتها فى المشروعات التنموية. وتوافقاً مع الفلسفة العامة للثورة كان توفير الخدمات الاجتماعية من جانب الحكومة الجديدة هو تعبير عما تقدمه للشعب الذى عانى من فساد الحكم السابق. ومع توالى الأيام، كانت أفكار التنمية الدولية والحكومية ثم المنظمات الحكومية والدولية NGO & IGO تستند أساساً ليس على اتجاه عبد الناصر فى رؤية الحكومة للتنمية كأنها منحة وأن الشعب ليس إلا متلقٍ لهذه المنحة، ولكن على الاتجاه الذى يعزز دور الدولة فى مساندة المشروعات الذاتية كعامل مسهل لها فى حين يكون الشعب هو أداة التغيير^(٨١). أما الجمعيات النسائية فتبنت اتجاه عزيزة حسين الجديد، وعملت على أن تحدد المرأة أولوياتها والمشاركة معها فى الوصول إلى أهدافها بدلاً من فرض أولويات هذه الجمعيات.

ورغم توسع جهود عزيزة حسين وتطورها ظلت أساليبها راسخة لا تتغير. فكل برامجها كانت تتأسس على رؤيتها في مبدأ المساعدة في المشروعات الذاتية من المرأة ولأجلها. وحين كانت الحكومات والهيئات الإصلاحية الأخرى تحاول أن تفرض عليها التغيير كانت عزيزة حسين تتساعل عن نوعية التغيير المطلوبة. وسواء أكانت تقيم عيادة في سنديون أو تضع أجندة إصلاح لمنظمة غير حكومية دولية، فهي دائماً تعطي المرأة الفرصة للتعلم في نفس الوقت الذي تعطي أذنيها للإصغاء لهن.

الهوامش

(١) يود الكتاب أن يقدموا الشكر إلى بيرى كولاج، من جامعة هارفارد، والمؤسسة الوطنية للعلوم الإنسانية، ومركز البحوث الأمريكى فى مصر لتمويل أجزاء من البحوث التى يقوم على أساسها هذا الفصل. بعض أجزاء هذا الفصل عرضت فى سياق الوثائق البحثية المقدمة فى المؤتمر السنوى لجمعية دراسات الشرق الأوسط المنعقد فى سان فرانسيسكو، كاليفورنيا عام ١٩٩٩، والمؤتمر السنوى لجمعية دراسات الشرق الأوسط الأسترالية المنعقد فى سيدنى، أستراليا عام ١٩٩٩، ومؤتمر دراسات العالم الثالث المنعقد فى سافانا، جورجيا عام ٢٠٠١، ومؤتمر دراسات العالم الثالث المنعقد فى أوماها، نبراسكا عام ٢٠٠١. ويعرب الكتاب عن امتنانهم للمساعدة المقدمة من السيدة/ عزيزة حسين بالسماح لجونسون بالإطلاع على أرشيف العائلة والموافقة على سلسلة طويلة من المقابلات.

(٢) أبرز هؤلاء النشطاء الذين ظهروا فى وقت مبكر، نساء مثل هدى شعراوى، نبوية موسى، ودرية شفيق، كن منظمات ماهرات ولديهن استراتيجيات للمحاربة فى سبيل الحصول على المساواة السياسية للمرأة المصرية.

(٣) حدث جدال حول ظهور أول سيدة نشطة فى مصر كرد فعل على الاحتلال الفرنسى فى أوائل القرن التاسع عشر، عندما رأت بعض النساء المصريات النساء الفرنسيات يسرن فى شوارع القاهرة بدون حجاب، فبدءوا فى خلع الحجاب والاختلاط بالرجال الفرنسيين. فإذا كانت هذه ثورة اجتماعية، فقد كانت قصيرة الأجل. فبعد خروج نابليون (وخروج المستوطنين الفرنسيين معه)، بدأ ظهور رد عنيف ضد المرأة وتوقفت الثورة، انظر: غادة هاشم تلهامى،

The Mobilization of Muslim Women in Egypt.

(جينسفيل: مطبعة جامعة فلوريدا، ١٩٩٦).

(٤) بيث بارون The Women's Awakening in Egypt: Culture, Society, and the Press (نيو هافن: مطبعة جامعة ييل)، ٢.

(٥) بارون، ٢.

(٦) بارون، ٣-٤.

(٧) كان الوفد حزباً سياسياً أسسه سعد زغلول الذى طالب بالاستقلال التام عن بريطانيا. تشكلت المجموعة فى الأصل لتمثل القوميين المصريين فى مؤتمر باريس للسلام بعد الحرب العالمية الأولى، وأصبح حزباً سياسياً فى عام ١٩٢٣. وفاز الحزب بتسعين فى المائة من مقاعد أول انتخابات برلمانية عام ١٩٢٤ بعد الاستقلال الأولى. كما أصبحت زوجة سعد زغلول، صفية، ناشطة سياسية بارزة.

(٨) عفاف لطفى السيد مارسو، السيدات النبيلات الثائرات فى مصر Women in the Muslim World (مراجعة لوا ونيكى كيدى (كمبريدج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٧٨)، ٢٦٩ .

(٩) نفس المرجع، على الرغم من أن عزيزة حسين كانت تبدو عكس هذا الاتجاه (وعملت مع زوجها، الذى كان نفسه من طبقة النخبة الاجتماعية والاقتصادية، وعضوا فى الحكومة)، ولكن فى الواقع لم تكن هذه هى القضية. يمكن النظر لأحمد حسين على أنه من "مؤسسة المتمردين" لأنه رفض الانضمام لآى حزب سياسى، وكان مستقلاً تماماً أثناء وجوده فى الوزارة، وعلى النقيض من كثير من السياسيين المحافظين المتشددى فى ذلك الوقت، كان حسين متطرفاً فى أيديولوجيته. وقد تطورت وجهة نظر أحمد حسين فى قضية الجنسين لتصبح متشابهة جداً مع وجهات نظر سعيد شكرى مما لم يكن معتاداً. للتفاصيل، انظر: إيمى جى. جونسون،

Reconstructing Rural Egypt: Ahmed Hussein and History of Egyptian Development.

سيراكيز: مطبعة جامعة سيراكيز، ٢٠٠٤).

(١٠) سلما بوتمان Engendering Citizenship in Egypt (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٩٩)، ٤٢ .

(١١) لم يصبح بنت النيل حزباً رسمياً حتى عام ١٩٥٣ . وتذكر بوتمان كيف أن درية شفيق رفعت دعوى فى مجلس الدولة المصرى قبل ثورة ١٩٥٢ "تطلب تعديل قانون الانتخابات. ورغم أنها لم تنجح فى ذلك، فإنها وضعت أساس أن المواطنة يجب أن تمنح الرجل والمرأة حق الاشتراك فى النظام السياسى على قدم المساواة". بوتمان، ٤٣ . انظر كذلك: سينثيا نيلسون Doria Shafik, Egyptian Feminist: A Woman Apart (جينزفيل: مطبعة جامعة فلوريدا، ١٩٩٦).

(١٢) بحلول ذلك الوقت أصبح كل من الرجل والمرأة أكثر ارتباطاً وهذا لا يعنى أن النساء والمجموعات النسائية كن غير مباليات بالقضايا الاجتماعية قبل الأربعينيات، ولكن، شهدت هذه الفترة الزمنية زيادة كبيرة للأنشطة النسائية والجماعية وخاصة التى كانت موجهة نحو الأعمال الخيرية، وتقديم الخدمات الاجتماعية، وجهود الإغاثة.

(١٣) "الفقر، الجهل، المرض"، جملة تلفت النظر استخدمت فى أوائل الثلاثينيات من جانب كثير من الإصلاحيين لوصف مشاكل الحياة الريفية، بما فىهم عالم الاجتماع الأمريكى واندل كلياند فى مناقشته عن مشكلة السكان فى مصر عام ١٩٣٧، وأصبحت تدريجياً مصطلحاً يدخل من قبل جميع المعنيين بمناقشة الإصلاحات الريفية المقترحة. لمزيد من التفاصيل انظر: جونسون.

(١٤) هذه الموارد كانت تحصل عليها النساء سواء من ميراث أو من الصداق (المهر)، إلى الحد الذى كان على زوج المرأة الاستئذان منها للتصرف فى ممتلكاتها. وليس من المستغرب، أن هذه الفرضية كانت تخص فقط نساء الطبقة العليا اللائى كانت لديهن ممتلكات خاصة بهن. انظر: عفاف سيد مارسو، ٢٦٢ وفى حين كان الرجال يوقفون أوقافاً أيضاً إلا أن كثيراً من الأوقاف المهمة كانت تديرها نساء. كذلك أنشأ الرجال والنساء جمعيات خيرية بمعناها الواسع. وبعض النساء البارزات نظمن وأدرن جمعيات خيرية مثل مبرة محمد على، جمعية السيدات القبطية لتعليم الأطفال، و

Oeuvre des Ecoles Gratuites des Villages de Haute-Egypte.

(١٥) السيد مارسو، ٢٦٤ .

(١٦) بوتمان، ٤٦ .

(١٧) بوتمان، ٤٦ .

(١٨) مارجو بدران *Feminists, Islam, and Nation: Gender and the Making of Modern Egypt*

(برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٥)، ١٢١ على الرغم من قيمة هذه المشاريع، فإن جهودها لم تكن قابلة للتطبيق على المدى الطويل، حيث إن المشروعات كانت تنظم وتترك في القرية بدون أى إشراف دائم أو موظفين مدربين.

(١٩) أحد هذه الأمثلة كانت "المهمة" *Oeuvre* والتي خصصت جزءاً منها لدروس نحو الأمية لنساء القرى المحيطين، وجمعية السيدات القبطية لتربية الطفولة. وقد شارك الاتحاد المصري للمرأة، بقيادة هدى شعراوي، في إنشاء مدارس لكل من البنين والبنات، كما أشار بدران، ١٢٠-٢١ .

(٢٠) جونسون، ٤، سير ايفلين بارينج، لورد كرومر، كان عميلاً بريطانياً وقنصلاً عاماً من ١٨٨٢-١٩٠٧ . لسيرة ذاتية أكاديمية بارعة ورائعة، انظر: روجر أوين *Lord Cromer: Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul* (لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد، ٢٠٠٤).

(٢١) جونسون، ٤ .

(٢٢) انظر: إيمي جى. جونسون. "تشجيع التعليم، يعنى زيادة الدخل: مدرسة قرية المنايل كنموذج للتعليم فى الريف بمصر فى *Education and the Great Depression*، طبعة توم ايوينج ودافيد هيكس، (نيويورك: بيتر لانج، ٢٠٠٥) لمزيد من التفاصيل حول تطوير نظام التعليم فى مصر. انظر كذلك: باراك سالمنى،

Pedagogies of Patriotism: Teaching Socio-Political Community in Twentieth-Century Turkish and Egyptian Education

(مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة هارفارد، ٢٠٠٢).

(٢٣) شارك الإخوان المسلمين ووزارة الصحة فى الرعاية الصحية فى المناطق الريفية، ولكن جماعات الإخوان المسلمين كانت متحركة وجهود وزارة الصحة كانت ضئيلة. انظر: جالاهار وريتشارد بى. ميتشيل *The Society of the Muslim Brothers* (لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد).

(٢٤) السيد مارسو، ٢٧٣ .

(٢٥) السيد مارسو، ٢٧٣ .

(٢٦) السيد مارسو، ٢٧٤ .

(٢٧) هذا يتعارض مع وجهات نظر بعض المؤرخين الذين يروا أن البداية الحقيقية للإصلاح الاجتماعى ظهرت فى المقام الأول بتعليمات من الحكومة بعد عام ١٩٥٢ .

(٢٨) كان هناك اثنان من الرجال عرفا بنفس الاسم وفى نفس الفترة الزمنية: أحمد حسين *Hussein*، زوج عزيزة حسين، الذى تم ذكره من قبل، وأحمد حسين *Husayn*، رئيس حزب مصر الفتاة ونستخدم هنا هجاء مختلفاً لكل منهما للفرقة فيما بينهما.

(٢٩) انظر: ميساكو إيكيدا Sociopolitical Debates in Late Parliamentary Egypt (مناقشة رسالة دكتوراه: جامعة هارفارد، ١٩٩٨). وقد عرضت قوائم الكتب التالية كدليل على زيادة الاهتمام بالحياة الريفية "سياسات الغد" ١٩٢٨ لمزيت غالى، "مستقبل الثقافة فى مصر" ١٩٢٨ لطف حسين، "على هامش السياسة" ١٩٢٨ لحافظ عفيفى، "الريف المصرى" (مكتبة ومطبعة الوفد، ١٩٢٦) و"قضايا الفلاح" (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٢٨) لبنت الشاطى (الاسم المستعار لعائشة عبد الرحمن). انظر كذلك جاك بيرك Egypt: Imperialism and Revolution (نيويورك: بريدجر للنشر، ١٩٧٢)، الفصل السابع، ولزيد من التفاصيل Emergent Groups and Latent Classes.

(٣٠) لزيد من التفاصيل عن الاهتمام السياسى لمثل هذه المشاكل، انظر: إيكيدا، ونانسى إليزابيث جلاجر، Egypt's Other Wars: Epidemics and the Politics of Public Health.

(سيراكيز: مطبعة جامعة سيراكيز، ١٩٩٠). إغراء الأغلبية الريفية الفقيرة ومحاولة المسئولين الحكوميين تقديم أنفسهم كمتحدثين باسم هذه المجموعات استمرت بعد ثورة ١٩٥٢. للتفاصيل انظر: جونسون.

(٣١) كثيراً ما كان يذكر، على سبيل المثال، الإخوان المسلمين وهى مجموعة دينية كانت تقدم الخدمات الاجتماعية فى فترة ما قبل الثورة. الإخوان المسلمين كانوا يركزون أساساً على القضايا الاجتماعية، حتى اندلعت المظاهرات فى فلسطين عام ١٩٣٦ بدأت تدخل فى الشؤون السياسية، ولم تعرف نفسها بصراحة على أنها منظمة سياسية إلا فى عام ١٩٣٩. وفى عام ١٩٤٥، ونتيجة لصدور قانون رقم ٤٩ (الذى ينظم المنظمات الاجتماعية والخيرية)، انقسم الإخوان المسلمون إلى قسمين، أحدهما كان للتعامل مع الخدمات الاجتماعية مثل التعليم، وتشجيع الصناعات الصغيرة، وعيادات الرعاية الصحية، والأعمال الخيرية للفقراء، وخطة الإصلاح الريفى، والتي رغم أنها لم توضع أبداً حيز التنفيذ، فإنها كانت مشابهة فى بنائها مع برنامج RSC. لمزيد من التفاصيل انظر: ميتشيل.

(٣٢) فى نهاية الثلاثينيات، كانت الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية EASS مشارك نشط فى مناقشة الإصلاح الاجتماعى، وكان أعضاؤها على وعى متزايد، أنه بينما كانت برامجهم مفيدة فى نطاق محدود، إلا أنه كان على الحكومة أن تأخذ المبادرة لمواجهة المشاكل الاجتماعية لشعبها. وفى عام ١٩٣٦ شكل على ماهر باشا هيئة رسمية حكومية، وهى المجلس الأعلى للإصلاح الاجتماعى، كخطوة أولى فى طريق مجهودات الإصلاح. كان ماهر، والذى كان يشغل منصب رئيس الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية، محافظاً وملكياً، ولكنه كان أيضاً مهتماً بالمشاكل الاجتماعية المتفاقمة فى مصر. وقدم أحمد حسين وزملاؤه فى الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية تصوراً لما يمكن أن تقوم به الحكومة من دور إيجابى فى تقديم الخدمات الاجتماعية، وبالتالي تتحرك بعيداً عن الخدمات الاجتماعية الخيرية التى تقدمها المنظمات غير الحكومية. وأعربوا عن اعتقادهم بأن الحكومة لا يجب فقط أن تشارك فى المجال الاجتماعى بل يجب أن تكون رائدة فى تنمية البلاد. ووفقاً لذلك، وضعت هذه المجموعة خطة لإنشاء هيئة حكومية كبيرة يكون هدفها معالجة جميع القضايا الاجتماعية والعمالية فى كل من الحضر والريف فى مصر. هذه الهيئة كانت "وزارة الشؤون الاجتماعية". على فؤاد أحمد "علم الاجتماع الريفى" (القاهرة: دار الثقافة والعلوم الاجتماعية والنشر، ١٩٦٠). ويقول روبرت بيانكى وآخرون بأن السبب الرئيسى لإنشاء وزارة الشؤون الاجتماعية كانت رغبة الحكومة فى السيطرة. وربما كان هذا رأى على ماهر، أما بعض الآخرين المشاركين، مثل أحمد حسين، فقد كانوا يعتقدون بصدق فى مهمة هذه الوزارة.

(٣٢) كانت هذه المراكز لتعويد الفلاحين على المشاركة فى الحكم، وفى تحديد الأولويات واتخاذ القرارات، وتنفيذ مشاريعهم الخاصة، لكنها لم تكن تعمل من فراغ. وبالإضافة إلى مراكز الريف الاجتماعية، خطط حسين لشبكة واسعة النطاق للتعاونيات الزراعية، وتحديد الإصلاح الزراعى، ووضع حد أدنى للأجور الزراعية، وتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر. رأى حسين أن كل هذه العناصر مهمة بالنسبة لإصلاح الريف المصرى. وكانت نتائج مشروع مراكز الريف الاجتماعية إيجابية للغاية. فارتفع المستوى العام للصحة فى القرى التى تقع بها المراكز، وتحسنت ظروف الصرف الصحى، وانخفضت الأمية، وارتفعت مستويات التعليم، وزادت الحصة الزراعية وبخل الفلاح، كما أن الحرف اليدوية التى كان يمارسها أعضاء المراكز ولدت لهم دخلاً إضافياً. لخص حسين نتائج هذه المراكز فى خطاب ألقاه عام ١٩٥٥ فى واشنطن العاصمة، فقال "إن نجاح المركز الاجتماعى كمؤسسة أكثر ملاءمة لتلبية الاحتياجات المدنية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية للقرية المصرية معترف به تماماً الآن. وهى دليل على أن التعاون الصادق بين الحكومة والناس يمكنه عمل الكثير من أجل التوصل إلى رفع حقيقى للمعايير الاجتماعية فى المناطق الريفية. فالحماس الذى غمر الناس فى بعض هذه المراكز يثلج الصدر. فبقليل من المساعدة المالية والتوجيه الفنى من الحكومة، استطاعوا ردم المستنقعات، وإنشاء الطرق، وبناء المدارس، وتقديم ملاعب وحدائق عامة. فهم يناقشون احتياجاتهم بطريقة ديمقراطية، ويخططون لكيفية تغطيتها، ويطوعون قدراتهم المتنوعة لخدمة مجتمعاتهم. وقد استطاعوا تحسين الإنتاج الزراعى وإدخال بعض الصناعات المنزلية. وشكلوا فرقاً للدراما والرياضة. وفى إحدى القرى التى زرتها... نظم أعضاء المركز ١٨ فصلاً مسائياً لمحو الأمية." أحمد حسين،

Some Aspects of Agricultural and Rural Life in Egypt.

(واشنطن العاصمة: وزارة الزراعة للولايات المتحدة، ١٩٥٥)، ٩، للحصول على ملخص للتقييمات المستقلة للمشروع، انظر: جونسون، ولأن التحسن فى قرى مراكز الريف الاجتماعية أصبح واضحاً بشكل متزايد، زاد الطلب فجأة وبسرعة لإنشاء مراكز جديدة. فسعت القرى إلى جمع الأموال اللازمة وتحديد مواقع مناسبة من الأرض حتى يمكنهم المشاركة فى البرنامج. كتب حسين فى عام ١٩٥٠، أنه لاحظ ما يلى: "إنهم (القرى) الآن جميعهم حريصون على إنشاء مراكز فى مناطقهم. كل منهم يقدم نصيباً، بعضهم بمساهمات مالية، آخرون بقطعة أرض، وغيرهم يقدم مواد بناء بالإضافة إلى العمالة اللازمة، ويؤمن الجميع بأن لديهم مصلحة فى هذا المخطط وبالتالي لا داعى للصراع. أحمد حسين،

Rural Social Welfare Centers in Egypt.

(القاهرة: وزارة الشؤون الاجتماعية، ١٩٥١)، ١٤. برنامج مراكز الريف الاجتماعية بدأ عام ١٩٤٢ بستة مراكز تخدم ٥٠,٠٠٠ فرد فقط. وبحلول عام ١٩٥٠ كان يوجد ١٢٦ قرية بها مراكز فى جميع أنحاء مصر، تخدم ١,٥ مليون فرد، وبحلول عام ١٩٥١ وصل عدد المراكز إلى ١٢١، وبينما لا يمثل عدد الذين تخدمهم المراكز واحد على عشرة من سكان الريف (وهم جزء مهم من فى حاجة إلى خدمات)، ففوائد البرنامج، وشعبية بين الناس، والتوسع المستمر فيه، وتبنى الأمم المتحدة له كنموذج يمكن تطبيقه فى الدول النامية الأخرى هو خير شاهد على فاعليته ومنهجية الثورية. لقد أثر تدريب أحمد حسين الألمانى فى فلسفته التنموية، وعلى أية حال، لم يكن حسين مقلداً أعمى للطرق الغربية. بل تبنى ما رآه مفيداً للظروف المصرية. ناقش جونسون هذه القضية لخلفية إصلاحات أحمد حسين ذات الأصول الأجنبية بالتفصيل.

(٢٤) انظر: جونسون Reconstructing Rural Egypt.

(٢٥) كانت الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية جمعية تطوعية فى القاهرة كان هدفها صياغة نموذج لمشروعات الإصلاح فى المناطق الحضرية والريفية. لمزيد من المعلومات عن الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية انظر: "الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ماضيها، حاضرها، مستقبلها، ١٩٢٨-١٩٩٤" (القاهرة: الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية، ١٩٩٤).

(٢٦) أحمد حسين Egypt's War on Poverty الأمم المتحدة (مارس ١٩٥١).

(٢٧) طلب المركز من القرية اختيار طبيب واتخاذ الترتيبات اللازمة ليزور القرية ثلاث مرات أسبوعياً على الأقل.

(٢٨) اعتبر القيذان الرئيسيان لهذا البرنامج أحد العوامل التى لا يمكنها تغييره واقعياً: عدم المساواة فى توزيع الأرض والنمو السريع للسكان. ومع ذلك، دفع حسين بحلول لهاتين المشكلتين.

(٢٩) انظر: جونسون، الفصل الثالث.

(٤٠) لم يكن هذا مستغرباً حيث إن المرأة كانت مستبعدة من الحياة السياسية حتى قيام ثورة ١٩٥٢، ولكن كثير من المشاركين فى برنامج مركز الخدمات الريفية، بما فى ذلك أحمد حسين نفسه، دعوا إلى توسيع دور المرأة الريفية فى التنمية. وقد انتقد عباس عمار - وهو أحد أتباع حسين - مراكز الخدمات الريفية فى عام ١٩٤٥ لعدم قيامها بما يكفى لنساء القرية. وكجزء من خطته لإعادة تنظيم القرية المصرية، دعا عمار إلى وجود مركز فى كل قرية، مع وجود امرأة ورجل كخصائين اجتماعيين فى كل مركز. وتعليقاً على أنشطة المرأة، قال عمار إنها اقتصررت إلى حد كبير على المسائل الصحية وأن "العمل الاجتماعى نعى إلى الخلف، ويقوم به هواة وعلى فترات متقطعة" عباس م. عمار،

Reorganization of the Egyptian Village on the Basis of Regional Decentralization.

(سرس الليان: مركز التعليم الأساسى للدول العربية، ١٩٥٤)، ٢٠، واستشهد بتجربة سنديون كنموذج ناجح للعمل الاجتماعى مع نساء القرى فى المستقبل. للتفاصيل عن برامج تدريب عبد الناصر للقيادات النسائية فى المناطق الريفية، انظر: Training for Social Welfare (القاهرة: الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الشؤون الاجتماعية، ١٩٦٧).

(٤١) كما يلاحظ جونسون، ركزت "الزائرة الصحية" نشاطها على المرأة والطفل فى القرية. وكان واجبها الرئيسى هو رعاية النساء الحوامل والأطفال حديثى الولادة. واجباتها الأخرى كانت تتضمن زيارة كل منزل بصفة منتظمة وتعليم نساء القرية الأساليب السليمة للتدبير المنزلى، والنظافة العامة، وطرق زيادة دخل الأسرة من خلال التطريز، وحياسة الملابس، والصناعات المنزلية الأخرى، والإشراف على نظافة أبنائهم، وكذلك زيارة مدارس القرية وتعليم الأطفال النظافة الأساسية الشخصية، مثل قص الشعر للبنين، وتسريح الشعر للبنات، وتقليم الأظافر، وإرسال الطفل المريض للطبيب، وإعطاء دروس صحية لنساء القرية، وتدريب عدد من نساء القرية الشابات على التمريض والتوليد، وتنظيم مجموعات من بنات القرية لدورات فى التطريز والحياسة والإسعافات الأولية. جونسون، ٨١.

(٤٢) تقع زفتى فى محافظة الغربية، المعلومات الخاصة بأسرة حسين، حياته الخاصة، خلفيته، وفلسفته جاءت من مجموعة من اللقاءات لجونسون مع حسين فى القاهرة من ١٩٩٥-٢٠٠٢.

(٤٣) احتلت القوات البريطانية مصر عام ١٨٨٢، وظلت تحت الحماية حتى الإعلان الرسمي لنشوب الحرب العالمية الأولى. في نفس الوقت كانت ليبيا كذلك تكافح الاستعمار الأوروبي في أوائل القرن العشرين وفي عام ١٩١١، وكانت جزءاً رسمياً من الإمبراطورية العثمانية، تعرضت ليبيا للغزو الإيطالي، وسعت الدولة العثمانية إلى السلام في عام ١٩١٢، ولكن المقاومة المحلية للمستعمر الإيطالي استمرت خلال الحرب العالمية الأولى.

(٤٤) شكرى تخصص في أمراض النساء.

(٤٥) كان لدى عزيزة حسين أربعة إخوة: محمد وحسين وعصمت وليلى. اتبع محمد طريق والده وأصبح طبيب أمراض نساء. وولد حسين أصم وأبكم ولم يمارس أى مهنة. عصمت تزوجت وكونت أسرة. وليلى أصبحت أستاذة أنثروبولوجى (علم الإنسان).

(٤٦) في حين كانت النساء في الريف غالباً ما يملكن المزيد من حرية الحركة عن المرأة الحضرية، والكثيرات منهن كن يعملن في المجالات المتصلة بالزراعة، والفكرة التي اعتنقها شكرى أن النساء متفوقين على الرجال لم يكن لها صدى.

(٤٧) كموضوع مشترك بين كثير من النساء الناشطات، كان لوالد عزيزة حسين تأثيراً واضحاً في حياتها، فقد كان مستشاراً لها ومعلماً ويطلاً.

(٤٨) انتظمت عزيزة حسين في مدرسة المير دى ديو حتى السنة قبل النهائية في الثانوية، حينما انتقلت إلى الكلية الأمريكية للبنات بناء على توصية من أصدقاء الأسرة ظناً منها ومن والدها أن طرق التدريس في المير دى ديو كانت قديمة وغير فعالة. وتشير جلاجر في الفصل الخامس بها في هذا الكتاب، أنه غالباً ما يستشهد بهذه المدرسة أنها تفرس في ذهن تلاميذها الاعتقاد في العمل الجماعي.

(٤٩) حصل أحمد حسين على درجة الدكتوراه في الاقتصاد الزراعى عام ١٩٢٧ من Landwirtschaftliche Hochschule ببرلين. وانضم لوزارة الزراعة كمفتش في ١٩٢٨، وفي نفس الوقت كان يدرس الاقتصاد الزراعى في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد). في ١٩٣٦ شارك في إنشاء الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية وشارك في العديد من برامجها الإصلاحية. وفي عام ١٩٣٩، ساعد في إنشاء وزارة الشؤون الاجتماعية وشغل عدة وظائف في هذه الوزارة (بما فيها فترة توليه كوزير لفترة قصيرة من ١٩٥٠-١٩٥١) حتى تقديم استقالته في عام ١٩٥١. شغل كذلك منصب سفير مصر في الولايات المتحدة من ١٩٥٣-٥٨). انظر: جوتسون لتفاصيل حياته المهنية.

(٥٠) على الرغم من أنه ليس من العرف في مصر أن تأخذ الزوجة اسم زوجها، استخدمت عزيزة اسم حسين كلقب لها. وأشارت تقارير الصحافة الأجنبية إليها بصفتها السيدة حسين أو مدام حسين، مما جعلها تعتاد على ذلك. لم يكن والدها راضياً عن هذا التطور على الرغم من أن عزيزة قالت له إنه بما أن اسم والده كان حسين، فإن استخدامها اسم حسين (حتى إذا كان مخالفاً للعرف) كاسم ثالث هو شئ شرعى. ومن المثير للانتباه، أن والد عزيزة قد غير اسمه كذلك، فقد كان اسم العائلة بحروج، وكان يطلق عليه في المدرسة سعيد بحروج. ولكن مدرسه أخبره بأن اسم بحروج ينم على "أنه فلاح" واقترح عليه تغييره إلى "سعيد شكرى" (اسم ينم على أنه من أصول تركية، وبالتالي يعطى انطباعاً بأنه من الطبقة العليا). فوافق،

كما أن أحد إخوته غير اسمه إلى حلمى لنفس السبب. وعلى الرغم من أن مدرس شكرى كان يعتقد على ما يبدو أن اسم العائلة يوحي بعدم انتمائه إلى الطبقة العليا، فإن العائلة كانت من النخبة الاقتصادية وكانت تمتلك حيازات زراعية كبيرة نسبياً.

(٥١) تأسس أول نادى للسيدات فى مصر عام ١٩٣٤ كمنظمة اجتماعية وثقافية. كانت منظمة بولية، لهذا دعيت السيدة الأولى من كل سفارة فى القاهرة للانضمام إلى النادى. بالإضافة إلى أن المنظمة انتسبت إلى الاتحاد الدولى لنوادى السيدات ومقره الولايات المتحدة. ورغم أن النادى كان به أعضاء من الأجانب، ورغم أن أعضائه كن من الطبقة العليا، فإن المنهج الذى استخدم فى مشروع سنديون جاء من مشروع مركز الخدمات الريفية، وهو برنامج مصرى.

(٥٢) لم تحصل عزيزة حسين على وظيفة مدفوعة الأجر، على الرغم أنها كانت تتسلح بالعلم والتدريب للقيام بذلك. وكانت وجهة نظر والدها أن المرأة يجب أن تكون قادرة على إعالة نفسها، على الرغم من اعتقاده بأنها ليست مطالبة بذلك. بل جاء إصراره على أن الشخص يجب أن يعتمد على نفسه جاءت من كراهيته أن تخضع المرأة كلياً لسلطة الرجل أو أن تضطر إلى الاستمرار فى زواج غير مستحب فقط لأسباب اقتصادية. ولم يكن من المعتاد فى ذلك الوقت أن تعمل المرأة من طبقة مثل الطبقة التى تنتمى لها عزيزة، وبالتالي فعلت ما تفعله نساء الطبقة العليا - بدأت العمل كمتطوعة. وشجعها زوجها الذى نشأ فى طبقة أكثر تقليدية، على البقاء كمتطوعة طوال حياتهما معاً، بدلاً من أن تصبح موظفة تحصل على أجر. وفى رأيه ينبغى على المرأة ألا تخضع لسلطة رجل رئيس لها، لأن ذلك قد يؤدى إلى عواقب أخلاقية غير مرغوب فيها.

(٥٣) "معلومات عن حياة عزيزة حسين" وثيقة غير منشورة، كتبها حسين وقدمها إلى جونسون، ٢٠٠٣.

(٥٤) عزيزة حسين The Population Question and NGOs خطبة لم تنشر ألقيت فى الاتحاد الدولى للمنظمات غير الحكومية، القاهرة، ١٦ ديسمبر ٢٠٠٢.

(٥٥) عزيزة حسين Women in the Moslem World (واشنطن العاصمة: قسم مطبعة السفارة المصرية n.d)، ٢٣.

(٥٦) Women in the Moslem World، ٢٤-٢٥.

(٥٧) نادى سيدات القاهرة A New Life for Rural Children in Egypt, n.p., n.d.

(٥٨) Women in the Moslem World، ٢٤-٢٥، انظر كذلك: جيسى أشى أرندت،

Women Around the World Build Better Communities.

(كريستيان سينس مونيتور، ١٦ مايو ١٩٥٦).

(٥٩) Women in the Moslem World، ٢٥-٢٦.

(٦٠) زيارات جونسون لمركز الرعاية اليومية فى عام ٢٠٠٠ و ٢٠٠١.

(٦١) عزيزة حسين، مقابلة مع جونسون، القاهرة، مصر، ١٢ نوفمبر ١٩٩٦، أجرت الدراسة سامية صدقى فى ١٩٥٦. ولخصت فى A New Life for Rural Children in Egypt وهى محاضر مكتوبة عن رد فعل القرويين على المشروع من الصعب الحصول عليها. ومع ذلك فقد كان الطلب لىلتزايد على مثل هذه المدارس من القرى المجاورة هو دليل على قبول المشروع ونجاحه.

(٦٢) Women in the Moslem World، ٢٥-٢٦ . فاز مشروع دار الحضانة بالجائزة الأولى في مسابقة إنجاز المجتمع للاتحاد الدولي لنوادي السيدات عام ١٩٥٦، ونشرت تقارير عديدة عن نجاح المشروع في وسائل الإعلام المصرية ووسائل الإعلام الأمريكية خاصة بعد أن عين أحمد حسين سفيراً لمصر في الولايات المتحدة عام ١٩٥٢ وانتقال الأسرة إلى واشنطن العاصمة.

(٦٣) عزيزة حسين، وثائق لم تنشر، وغير مؤرخة، قدمتها إلى جونسون، "دار الحضانة في قرية سنديون" وتجربة دار الحضانة الأولى في قرية سنديون بمديرية الدقهلية عام ١٩٥٠.

(٦٤) Women in the Moslem World، ٢٥ .

(٦٥) في خطاب ألقته عزيزة حسين في واشنطن العاصمة عام ١٩٥٤، ذكرت مدى التقدم الذي أحرز في مشروع مركز الخدمات الريفية في سنديون، قائلة: "ما يبعث على التفاؤل هو أنه في مؤتمر نظمته أخيراً الإدارة الصحية في قسم الفلاح، بنادي سيدات القاهرة، بالإضافة إلى منظمات أخرى التي عملت بعد ذلك في دور الحضانة في القرى تم توجيه الدعوة لهم لجمع جميع المعلومات التي اكتسبوها من خلال تجربتهم، بهدف وضع برنامج أساسي لسرعة انتشار دور الحضانة في جميع أنحاء مصر. وكان مكتب منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة في مصر قد أعجب به بشكل إيجابي مما جعله يعتمد هذه الحركة، وتولى مسئولية إنشاء ثلاث عشرة حضانة كدفعة أولى في مقاطعة واحدة." عزيزة حسين في مقابلة مع الكاتب، ٢٤ أكتوبر ١٩٩٦ و Women in the Moslem World.

٢٦-٢٧ . أصبحت منظمة الصحة العالمية مهتمة بمراكز رعاية اليوم الواحد في سنديون وتيرسا بسبب قدرة المراكز على الحد من انتشار البلهارسيا، والأمراض المستوطنة الناتجة عن الطفيليات في مصر وذكرت عزيزة حسين في كلمتها التي ألقته أنها سألت مسئول منظمة الصحة العالمية عن سبب التزامهم بمشروع رعاية اليوم الواحد: "كما شرحوا، فقد اكتشفوا أن شباب القرية ما بين ٢ و٦ سنوات هم أكثر الفئات عرضة للإصابة بدودة البلهارسيا، وأن دور الحضانة عن طريق رعايتهم وتعليمهم وأمهماتهم العادات الصحية السليمة، خفض معدل الإصابة إلى حد كبير، وبعبارة أخرى، نتيجة لدور الحضانة هذه زودنا منظمة الصحة العالمية والبلد ببرنامج إيجابي قد يحقق أخيراً القضاء على مشكلة صحية خطيرة دمرت إنتاجية الفلاح وتكلف مبالغ لا تحصى لسنوات عديدة. Women in the Moslem World، ٢٧ . مراكز الرعاية اليومية في المناطق الحضرية لم تتطور في نفس الوقت، ومع ذلك، في خطاب عزيزة حسين عام ١٩٧٤ انتقدت عدم وجود مراكز رعاية يومية في المناطق الحضرية، قائلة أن ذلك يعد عقبة رئيسية في العمل بالنسبة للمرأة. انظر: باريو بلومبرج،

I Egypten Finns Kvinnans Rättigheter Bara pa Papperet.

(أريقت ١٤ أغسطس ١٩٧٤).

(٦٦) أقرت الأمم المتحدة هذه المراكز بوصفها جزءاً لا يتجزأ من إقرارها لبرنامج مركز الخدمات الريفية. صدر هذا القرار ٣٩٠ (XIII) D. "استخدام مراكز الرعاية المجتمعية كأداة فعالة لتشجيع الاقتصاد والتقدم الاجتماعي في جميع أنحاء العالم" الذي أقره المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة في ٩ أغسطس ١٩٥١. يمكن الإطلاع على نص القرار من السجلات الرسمية للمجلس الاقتصادي والاجتماعي، الاجتماع الثالث عشر، ملحق رقم ١٢، وقد أكد أحمد حسين على أهمية هذا القرار، مشيراً إلى أن

”مصر أصبحت، ولأول مرة، بلداً تقدم الخبرة الفنية على نطاق واسع، في حين كانت في الماضي بلداً متلقياً فقط”. كما أشار إلى أن الأمم المتحدة عرضت وظائف على عدد كبير من موظفي مشروع مركز الخدمات الريفية، وأن هؤلاء الموظفين التحقوا ببعثات للأمم المتحدة أو حصلوا على وظائف بمكاتب الأمم المتحدة في بلاد مثل الأردن، والعراق، والمملكة العربية السعودية، وباراجواي. أحمد حسين Summary of Qualifications and Positions Held.

(وثيقة لم تنتشر، باللغة العربية، من أرشيف أسرة أحمد حسين).

(٦٧) التزام الحكومة بالتوسع في برنامج مراكز رعاية اليوم الواحد في الريف بلغت ذروتها بقرار في عام ١٩٥٤ بتوفير ٢٠٠ دار حضانة أخرى مجهزة للمراكز الاجتماعية في المناطق الريفية “Women in the Moslem World”.

(٦٨) برنامج الوحدات المجمع لم يكن له نفس القدر من النجاح الذي حصل عليه برنامج مراكز الخدمات الريفية، ولكن بدلاً من إشراك القرويين في العملية، تم تقديم الخدمات بدون مداخلتهم أو مشاركتهم. وكان النجاح الكبير لمشروع الحضانة لعزيزة حسين في سنديون، وعدم فاعلية الوحدات المجمع وحضاناتهم دليلاً على أهمية المنهج الفلسفي لعزيزة حسين. لمزيد من التفاصيل انظر: جونسون. في ١٩٥٤ قرر المجلس الدائم لخدمات الرعاية العامة إنشاء برنامج جديد لمراكز الخدمات الاجتماعية في الريف المصري أطلق عليه الوحدات المجمع. تتضمن كل وحدة مجمعة حضانة ريفية. انظر: إدارة المعلومات The Permanent Council for Public Welfare Services (القاهرة: الجمعية الشرقية للدعاية، ١٩٥٥).

(٦٩) عزيزة حسين ونجيب عبد الحميد Report on Egypt (أعد للمؤتمر الإقليمي عن “التعليم، والتدريب المهني وفرص العمل للفتيات والنساء في الدول الإفريقية ١٧ مايو ١٩٧١، ١٥-١٦) ورغم أن هذا دليل على نجاح الفكرة، فإن في نفس الوقت دليل على فشل الحكومة في الالتزام بمبادئ المساعدة الذاتية. الوحدات المجمع حلت محل مراكز الخدمة الريفية، وقدمت ببساطة مع حضانات الحكومة إلى القرى من قبل الحكومة. وبعبارة أخرى، التغييرات التي أحدثها عبد الناصر على برامج عزيزة حسين الناجحة أثر على التوسع في البرنامج وأكد فشلهم بإنكار منهجهم. حلت التنمية الموجهة محل المساعدة الذاتية، وتحول القرويون إلى حالة متلقى المعونة الحكومية. انظر: جونسون Reconstructing Rural Egypt. وجيمس بي. مايفيلد Rural Politics in Nasser's Egypt (أوستين: مطبعة جامعة تكساس، ١٩٧١) وكيث ويلوك Nasser's New Egypt (نيويورك: الناشر بريجر، ١٩٦٠).

(٧٠) "The Population Question and NGOs".

(٧١) تأسست منظمات غير حكومية أخرى واشتركت في الحملة كذلك - مثل، الجمعية المصرية للدراسات السكانية، وهي منظمة لجميع الجمعيات التطوعية المهتمة بتنظيم الأسرة في مصر.

(٧٢) فشلت الحكومة مرة أخرى في دمج وإشراك المجتمع المحلي، ومجهوداتها مرة أخرى لم تكن ناجحة. كان يجب أن تتبع نهج متكامل ليس فقط توفير وسائل منع الحمل ولكن توفير التعليم والاستشارات، وكذلك مواجهة القضايا مثل صحة الأم والطفل، وتعليم النساء، ومحو الأمية، والتنمية الاجتماعية والاقتصادية العامة.

(٧٣) عزيزة حسين The Role of the Village Girl Leaders in Family Planning (خطاب غير منشور ألقته في الاتحاد الدولي لتنظيم الأسرة IPPF) حلقة دراسة محلية، ١ مايو ١٩٧٣ .

(٧٤) في حديث لها عام ٢٠٠٢، لاحظت عزيزة حسين أن الحكومة ركزت فقط في البداية على توفير تكنولوجيا وسائل منع الحمل، وفي نفس الوقت كانت النصائح مهمة ولم يبذل أى جهد للتعليم من التجارب السابقة للمنظمات غير الحكومية، خاصة في مجال المشاركة المحلية والجهود التعاونية بين القادة الرسميين وغير الرسميين - نساء، وشباب، ومسنين، ومدرسين، ورجال دين إلخ.... وحتى لم يتبها لمفهوم التسويق الاجتماعي. "The Population Question and NGOs"

(٧٥) أسست عزيزة حسين الجمعية المصرية لمنع الممارسات الضارة ضد النساء والأطفال (ESHP)، وهي أول منظمة غير حكومية في البلاد لمكافحة ختان الإناث. ومع ذلك لم تشكل حتى ١٩٩٢، وإن كان لها جذور في حلقة دراسية عقدتها CFPA في عام ١٩٧٩ تحت عنوان "التشويه الجسدي لصغار الإناث". انظر: عزيزة حسين "الأدوات القانونية لمنع ختان الإناث" ورقة لم تنشر، ٢٠٠٣ .

(٧٦) ظلت عزيزة حسين رئيسة NCPD وعضو مجلس إدارة نشطة للعديد من المنظمات الأخرى، بما فيهم CFPA والجمعية المصرية لمنع الممارسات الضارة ضد النساء والأطفال.

(٧٧) برنامج الأمم المتحدة للتنمية، Promoting National Initiatives to Help the Poor متاح على الموقع التالي <http://www.undp.org/poverty>, accessed 25 يناير ٢٠٠٤ .

(٧٨) تقرير مؤتمر Poverty Reduction Strategies: What Have We Learned المنعقد في بيرجن، النرويج، ١٥-١٧ مارس ٢٠٠١ (نيويورك: برنامج الأمم المتحدة للتنمية، ٢٠٠١) متاح على الموقع التالي، http://www.undp.org/poverty/publications/docs/Poverty_Bergen%20Report.pdf, accessed

٢٥ يناير ٢٠٠٤ .

(٧٩) بوتمان، ١٧ .

(٨٠) عزيزة سامي Hot line to Washington، الأهرام ويكلي، ١٣-١٩ يونيو ٢٠٠٢ .

(٨١) عن مقالات عزيزة سامي Hot line to Washington، الأهرام ويكلي، ١٣-١٩ يونيو ٢٠٠٢، نقلت عن عزيزة حسين قولها "أحد إنجازات ناصر الكبيرة هي الحقوق التي منحها للمرأة، وتوسيع نطاقها إلى حد لم يسبق له مثيل في مصر. المرأة لها الحق الآن في التصويت، ولكن كم عدد الذين يصوتون؟ النهج من أعلى إلى أسفل تغفل في جميع جوانب حياتنا. والباب لم يفتح ليسمح للأفراد الذين ليسوا جزءاً من السلطة أن يكون لهم تأثير على المجتمع. وعندما يحدث ذلك تكون ثورة ٢٣ يوليو قد صححت مسارها من الداخل".

١٠- الفلاحون: حملة الطين فى العصر الليبرالى فى مصر

سامية خلوصى

"إن واجب المجتمع الحقيقى هو تحرير روح الفلاح من الطين الخانق الذى يزرع تحته، وتخليصه من شوائب الأرض فى نفس الوقت الذى تمنحه فيه خيراتها".

هنرى حبيب عيروط

رغم التصاقه بطين الأرض، فإنه استمد منه القوة التى ساندته، وكافأته بسخاء أحياناً. فتولد بداخله نحو هذا الطين الغنى حباً فاق كل حب آخر، فكرس حياته له. فقطعة الأرض بالنسبة للفلاح هى ذروة العطاء، ومن أجل الاستحواذ عليها يمكنه أن يفعل أى شىء. إلا أنه من المثير للسخرية الشديدة أن الفلاح الذى أحب الأرض وحرثها أنكرت عليه ملكيتها، وكان الملاك الشرعيون دائماً هم من عاشوا بعيداً عنها واعتبروها مجرد مصدر لدخلهم.

عفاف لطفى السيد مارسو

على مر التاريخ فى مصر كان أغلب السكان يتشكلون من مجموعات من قاطنى الريف، أى الفلاحين. كانوا يعيشون فى صعيد مصر وفى الدلتا حول الشريط الضيق من وادى النيل حيث تتوافر الأرض الخصبة والمياه. ويبرز عالم الفلاح كأنه صورة

مصغرة من الدولة، والمكون الأساسى لموروثها الثقافى. وتحدد نعمات فؤاد قضية الفلاح باختصار بقولها: "إن مصر هبة النيل، وشعبها وفلاحوها هم أحد الأعمدة الأولى الرئيسية فى رفاهيتها، أما الثانى فهو نهر النيل". وأصدق ما يمثل الشخصية المصرية هم الفلاحون. وتشرح مارسو: "حتى يمكننا أن نتفهم جوهر ومنطق المصريين يجب أن نفهم الفلاح ومجتمعه، وأن نتتبع قيمه ومعتقداته داخل نسيج الدولة السياسى، فصورة مصر هى نتاج التفاعل بين الفلاحين، والمواطنين المصريين والحكام أياً كانوا^(١). ولأنهم كانوا بمنأى من التأثير الأجنبى لحكم غير وطنى لمدة قرون عديدة فهم يمثلون شريحة من السكان تتسم بالفطرية والنقاء، بل إن مصطفى كامل عرف الأمة المصرية وأسباب عراققتها واستمرارية تاريخ الإنسان المصرى من خلال اتحاد الإخوة المسلمين والأقباط الذين تجمعهم رابطة العرق والثقافة واللذين ينحدران من سلالة الفلاحين نوى الكبرياء"^(٢).

ويركز هذا الفصل على عرض لأوضاع الفلاحين منذ عام ١٩١٩ وحتى الثورة العسكرية فى ١٩٥٢، وتصف سلما بوتمان هذه السنوات "بالعصر الليبرالى فى مصر" والذى "لم يتكرر بعد ذلك"^(٣). فقد كانت ثورة ١٩١٩ حدث فريد، حركة تمت وتشكلت من جميع طبقات الشعب فاندмجت فيها الطبقة الرئيسية وتلك المهمشة. "كانت كل الطوائف والمجتمعات تعتبر نفسها أول من أحدث هذا الحراك، وأول من أحس بالشعور المتأجج الجديد الذى ساد فى تلك الفترة. ولكن غاب عنهم أن هذا الإحساس قد تولد فى قلوب الجميع فى نفس الوقت لأنهم كانوا أبناء مصر، وأنهم جميعاً على قلب واحد"^(٤). وفيما عدا ثورة عرابى ١٨٨١، ١٨٨٢ كانت الثورات السابقة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد حركت طبقات معينة فقط من المجتمع، وكانت محدودة فى مواقعها. ويعبر طه حسين وهو أحد الأدباء المثقفين فى تلك المرحلة عن الاتجاه الذى كان سائداً فيها، فيقول: "خلال الحرب العالمية الثانية، قامت ثورة لا مثيل لها فى التاريخ فيما عدا الثورة التى قامت فى أمريكا، وتلك التى نشبت فى فرنسا فى القرن الثامن عشر. كانت ثورة تستهدف تنظيم أوضاع يقرأ عنها الناس فى الكتب،

ولكنهم يعتبرونها مثاليات فى الحياة لا يمكن تحقيقها"^(٥). أما ثورة ١٩١٩ الوطنية فقد كانت ترمى إلى تخليص مصر من الاحتلال الأجنبى، ومن الحكومة التى فرضها الاحتلال وجثمت على أنفاس الشعب. وكانت النتيجة ظهور دولة شبه مستقلة من خلال معاهدات ١٩٢٢، ١٩٢٣ و١٩٣٦ .

العصر الليبرالى فى مصر: "مراجعة تاريخية"

شهدت العقود التى توالى بعد ثورة ١٩١٩ إحساس الشعب بالنشوة نتيجة الإيمان بأن الاستقلال وشيك الحدوث. ورغم كثرة توالى الحكومات فى السلطة، والاضطرابات الداخلية المستمرة فإن روح العصر التى غلفت هذا الحراك الوطنى أشارت إلى تحولات جذرية فى بنية المجتمع. فما إن تشكلت صورة رسمية للدولة برزت من خلال الضباب الذى فرضته السلطة البريطانية، حتى بدأ السياسيون المصريون تجربة غير مسبقة فى الحكم الليبرالى. فلأول مرة فى تاريخ مصر الطويل، ظهر دستور ١٩٢٣، وبرلمان منتخب ليشكل ملامح الديمقراطية فى بيئة كان يسودها الحكم الملكى الأوتوقراطى ممتزجاً ببقايا النفوذ الأجنبى. وكان تشكيل الأحزاب فى الساحة السياسية قد وضع أسساً أيديولوجية ومؤسسية لنظام تعددى وفرقنات لأغلبية الشعب والطبقات من غير النخبة (طبقة الرعاى) للمشاركة فى السياسة واتخاذ القرار.

وفى مجال السياسة الزراعية، لم تتح برامج العمل العام الفرصة لمناقشات أساسية حول مشاكل الريف المصرى إلا بعد ثورة ١٩١٩، حين ظهرت قضية الملكية الخاصة فى الريف، وتزايد الظلم جراء اتساع هذه الملكية، بالإضافة إلى التأثير العكسى لسياسة بريطانيا الاقتصادية التى حولت مصر إلى بلد ذات محصول واحد يغذى مصانع القطن فى لانكشاير، ومن هنا بدأ الحوار والمناقشات حول الريف، وبدأ الكثيرون من السياسيين فى مصر فى وضع خطط تفصيلية لإصلاح زراعى^(٦).

الفلاح فى عين العاصفة

نتيجة عصور طويلة من السيطرة الأجنبية على الحكم فى مصر وسنوات من استغلال الحكومات الاستبدادية للشعب، كان الجسد الحاكم كياناً أجنبياً فى عقول أهل الريف. "كان غياب شخصية مصرية تحكم مصر لأكثر من ألف سنة يسبغ على الحياة السياسية سمة واضحة وهى عدم توحيد الشعب مع الحكومة"^(٧). وأبعدت الشكوك فى السلطة وعدم ثقة الفلاح فى بلده، وولدت فيه ردود أفعال متباينة تراوحت ما بين الرغبة فى استرضائها والتغلب عليها بدهاء أو تحديها واستنكارها.

وفى هذا المنعطف التاريخى وقع الفلاح فريسة لصراعات أيديولوجية وحماس متقد وطنى، وثورات وطنية. وارتبط انتشار الريف من حالته لتحسين أوضاع الأمة بأفكار وطنية مثل تعظيم دور الريف فى تماسك المجتمع وإعطائه الصلابة والشخصية. "وكان نمو روح الديمقراطية والوطنية فى مصر بعد الحرب قد زرع فى الأمة وعياً بأن مساعدة الفلاح ليس فقط واجباً قومياً بل هى تأكيد أيضاً على ضمان عدم حدوث أية اضطرابات اجتماعية"^(٨). وكان الزعماء الوطنيين من الفلاحين فى تلك الفترة من نتاج القرية الذين أمضوا سنوات شبابهم فى بيئة ريفية، والتحقوا بالكتاب (المدرسة الريفية)، وامتلكوا سمات الفلاحين، واستخدموا لهجاتهم الريفية، كما حافظوا على الروابط العاطفية مع البيئة الريفية بدرجة أو بأخرى طوال حياتهم^(٩). وفى إحدى خطب سعد زغلول عرّف قضية الفلاح بأنها قضية محورية فى تحقيق أهداف الحرية، فيقول:

"إن أهم نتائج الثورة هى تمصير الاقتصاد المصرى، وإزاحة الحجاب عن المرأة، ومشاركتها فى الحركة الوطنية، والقضاء على طبقة الباشوات، واستحواذ الفلاحين على السلطة، واختفاء العنصر التركى من السياسة المصرية، ويأتى الاستقلال نتيجة لذلك حيث إن الاستقلال الخارجى لا قيمة له بدون تحرر داخلى"^(١٠).

كان سعد زغلول يمثل للفلاحين النموذج المتكامل لحقيقة الفلاح، فقد كان يفهم الفلاح كفلاح، وبالتالي كان لصيقاً بهم وبفهمهم، فتوحدوا معه. ومع وجوده فى الحكم، شعر الفلاح بأن الحكام فى العاصمة متعاطفون معه^(١١). ورغم أن ما تعرض له الفلاحون من مشاق خلال الحرب العالمية الأولى حين أجبر الكثيرون منهم على العمل فى زراعة المحاصيل كان من الأسباب الرئيسية لمشاركة الفلاحين فى ثورة ١٩١٩، فإن القبض على سعد زغلول عام ١٩١٩ فى واقع الأمر كان هو الحافز على المظاهرات التى اندلعت فى الكثير من العواصم الريفية. فقد هاجم الفلاحون السكك الحديدية، وقطعوا خطوط التلغراف. وفى غمار استيائهم من اضطهاد الأجانب قاموا بضرب الكثير من الأوروبيين بالإضافة إلى حرق الممتلكات^(١٢).

ومع إنشاء النظام الدستورى، لعب الفلاحون دوراً بارزاً فى الحياة السياسية. فشاركوا فى الانتخابات الوطنية، واعتمد المرشحون على أصواتهم. وثبت الوفد أقدامه من خلال شبكة من اللجان انتشرت فى القرى وامتدت من الوجه البحرى إلى صعيد مصر، واستمدت قوتها من دعم مجتمعات ريفية عديدة. وعزز ذلك تشكيل هيئات ريفية تعتمد على فهم كامل لنظام القرية، وكان انضمامهم لحزب الوفد سبباً فى تزايد قوتهم وسلطتهم.

فلاح محاصر فى زمن الرفاهية

كان الازدهار الاقتصادى للبلاد فى الفترة من ١٩١٩ وحتى ١٩٥٢ - والذى لم يستمر طويلاً - مرحلة من الضيق والشدة والحرمان بالنسبة للفلاحين الفقراء، وقد سارت الأوضاع بعد ذلك من سيئ إلى أسوأ خلال الثلاثينيات والأربعينيات. فقد تحمل الفلاحون وطأة جميع الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فالمشروعات الاقتصادية والتحولات الاجتماعية التى أعقبت ثورة ١٩ لم تضع فى اعتبارها أية وسائل فعالة لتحسين أوضاع الفلاحين الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من الشعب المصرى. فقد كانت الطبقة المدنية الوسطى الجديدة التى كانت تشكل الأمل

فى الإصلاح الزراعى؁ لها اهتماماتها الأخرى التى ارتبطت بأصحاب الإقطاعات فلم تلتفت ناحية الفلاحين. أما الزعماء الوطنيون فقد انغمسوا فى الإعداد للمعركة بعيداً عن المشاكل المحلية التى كان من العسير معالجتها؁ أو خشية مخاطر التغيير فى النظام الاجتماعى.

كانت أسباب استمرار المحنة التى يعانى منها الفلاحون أسباباً إنسانية وأخرى طبيعية. وتشير مارسو إلى أن المجتمع الريفى تحمل "قروناً من الاستغلال وسوء المعاملة من قبل الحكام الأجانب والمسؤولين المحليين على السواء. فقد كان تحت رحمة عناصر الطبيعة التى لها القدرة على تدميره من خلال مواسم القحط أو الفيضانات التى تخلف وراءها الأوبئة والمجاعات وكأنما تأمرت عليه الأشياء والأشخاص لتجعل من حياته بؤساً؁ وتحيل أوضاعه إلى مأساة؁ دون أن يشفق عليه أى من حكامه"^(١٣). فدفع الفلاحون ثمن موجة حركة التصنيع التى تجسدت فى جشع الأغنياء؁ وإهمال وتجاهل صالح أغلبية الشعب.

كما كان للحرب العالمية الأولى والثانية تأثيراً عكسياً على الأغلبية العظمى من الشعب؁ ووصلت أوضاع الفلاح إلى الدرك الأسفل؁ ففى خلال الحرب العالمية الأولى "كان العديد من الفلاحين ومواشيهم مجندة تماماً لخدمة قوات الحلفاء؁ وكان الطلب العالمى على القطن قد حقق بعض الثروات؁ ولكنه تسبب فى تخصيص أغلب الأراضى الزراعية لزراعة القطن؁ وترك القليل منها لزراعة المحاصيل الغذائية حتى إنه فى السنة الأخيرة من الحرب بدأ الطعام يشح"^(١٤). وفى بعض الحالات كانت ممتلكات الفلاح سواء من الماشية أو المجوهرات ترسل إلى الهاشميين فى الخليج العربى لضمان ولائهم للبريطانيين^(١٥). وبعد عودتهم لقراهم كان الفلاحون يواجهون بمشكلة تزايد السكان وما ترتب عليها من تقلص الأرض الزراعية وارتفاع قيمة الإيجار مع انخفاض الأجور. وبدأت حياة الفلاح وعائلته تتدهور أكثر وتزداد بؤساً^(١٦). ورغم أن بعض الفلاحين نالهم نصيب من الازدهار نتيجة الطفرة فى زراعة القطن خلال الحرب العالمية الأولى؁ فإن تذبذب الاقتصاد الضعيف فى أعوام ١٩٢١؁ ١٩٢٢؁ ١٩٢٣

خفض من سعر القطن بصورة حادة، وتصاعدت الديون على الفلاح بصورة مخيفة، فواجه أسوأ التحديات لحياته فى تلك الفترة.

وخلال وبعد الحرب العالمية الثانية تصاعدت التوترات الاجتماعية جراء عدم تنفيذ وعود الإصلاح الزراعى وتحسين الحالة الاقتصادية. ووصلت الحالة المتردية للفلاح إلى ذروتها فى ظل الإرهاب الذى مارسته حكومات محمد محمود (١٨٧٧-١٩٤١) والذى أطلق عليه "الرجل ذو القبضة الحديدية"، وإسماعيل صدقى (١٨٧٥-١٩٥٠) والتي استمرت من عام ١٩٣٠ وحتى عام ١٩٣٣. وكان أعضاء البرلمان من النخبة التى صمت أذانها عن قضية العدالة الاجتماعية وحياة الفلاحين البائسة. وحتى يتمكن الوطنيون الليبراليون من تطبيق أفكارهم بالنسبة للإصلاح الاجتماعى، لم يكن أمامهم سوى اللجوء إلى رموز الاستبداد فى النظام السياسى الذين دائماً ما كانوا يواجهون هذا الصدع الاجتماعى والاقتصادى العميق بلا مبالاة. وفى حين ما كان الفلاحون الفقراء يتمرغون فى براثن الفقر والإفلاس، كانت الحكومة تحاضرهم عن الفاعلية المزعومة لسياساتها الاقتصادية.

كان ملاك الأراضى يسيطرون تماماً على مستأجريهم، وزورت الانتخابات، وأصبحت الضرائب المفروضة أكثر تعسفاً، كان الاقتصاد متثاقلاً، وتحمل الفلاح العبء وهو يزداد فقراً عن ذى قبل^(١٧).

ولأن أهالى الريف لم يجدوا أى مكافأة مقابل ما تحملوه، بدأ الإحباط يثور بداخلهم فلجأت الحكومة إلى وسائل القمع المختلفة، فاستخدمت الهراوات لإخضاعهم، وبنادق البريطانيين لقمع مظاهراتهم. وشهدت سنوات ما بعد الحرب نشوب ثورات عنيفة فى الإقطاعيات الكبيرة، حيث هاجم الفلاحون الحراس، وأضرمو النيران فى المكاتب، واحتلوا الأرض، وتسلموا بالبنادق مطالبين الحكومة ببيع الأراضى لهم^(١٨).

اشترك الفلاحون فى معركة أخرى أشد شراسة نتج عنها أعداد كبيرة من القتلى. فقد ظهر وباء فى تلك الفترة؛ الأول وباء الملاريا من ١٩٤٢ وحتى ١٩٤٥، والثانى وباء الكوليرا عام ١٩٤٧. وخلال ظهور وباء الملاريا وقفوا عاجزين أمام تدفق المعتدين من

السودان على وادى النيل^(١٩). وارتفع عدد الوفيات حتى لم يصبح هناك أعداد كافية من الأصحاء لحمل الموتى. فكانوا يحملونهم على ظهور الجمال حتى مقابرهم^(٢٠). كانت وسائل الدفاع ضعيفة، وكان الفقر وسوء التغذية والأحوال غير الصحية فى القرى مرتعاً مفضلاً للطفيليات التى كانت تقضى على المئات يومياً.

تآمرت القوى المعادية فى أحوال الريف على تعميق البلاء وزيادة حدة الأمراض، فقد تفاقم مرض البلهارسيا نتيجة استبدال الرى بالأحواض بالرى الدائم، والاعتماد على طعام قليل ينقصه المغذيات الضرورية، ثم الاستحمام والشرب من مياه النيل الملوثة وأخيراً العيش فى بيوت غير صحية من الطين مع مواشيهم، وتسببت هذه الأمراض المتوطنة فى وهن الفلاح وإضعاف قوته، بالإضافة إلى أن الأمية التى وصلت نسبتها إلى ٩٠٪ فى ذلك الوقت لم تؤهل أهالى الريف للانغماس فى الشئون العامة والتعبير عن حقوقهم. كانت طبقة الفلاحين غير قادرة على التعريف بنفسها أو إظهار غياب العدالة بالنسبة لهم، ورغم قوة إرادتها وشجاعتها الأخلاقية فإنه كان ينقصها وسائل الاتصال المؤثرة. فظلت لسنوات طويلة عاجزة عن الإفصاح عن أحوالها، تتوق إلى عرض معاناتها وتنبيه الرأى العام إليها، ولذلك ظلت مظالمها منسية بطريقة آلية ومدفونة بعيدة عن أى اهتمام.

ولقرون طويلة كان تطبيق نظام الإقطاعيات الاستبدادى فى مصر يشكل الجوهر الأساسى فى فقر الفلاح. فقد كان ١١٪ من العدد الإجمالى لملاك الأراضى يمتلك وحده ٧٠٪ من أراضى مصر. وكان العدد القليل من الفلاحين يملكون قطعاً صغيرة من الأرض لا تكاد تكفى أودهم^(٢١). أما الأغلبية فكانت لا تملك شيئاً، حيث كانت الأرض إما ملكاً للدولة أو الحاكم، فلم يكن أمام الفلاح سوى حرثها مقابل أجر زهيد. ويصف أحمد لطفى السيد القسوة فى تحصيل الضرائب والعقاب الذى ينزل بالفلاحين فيقول "لقد كنت شاهداً على ضرب عمدة القرية للفلاحين بالسياط حين يعجزون عن دفع الإيجار. وحين كنت تلميذاً فى المدرسة كنت أتردد على منزل أحد أصدقاء والذى يوم الجمعة ورأيت واحداً من المشرفين جالساً فى الفناء الأمامى للمنزل وحوله اثنان من الحراس جاهزين بسياطهم لضرب المتخلفين عن الدفع"^(٢٢).

الجدل حول الوضع السائد فى الريف خلال سنوات ما بين الثورتين

بعد معاهدة ١٩٣٦ الإنجليزية - المصرية، بدأ المفكرون من القيادات السياسية المدنية والدينية يواجهون بناء اجتماعياً واقتصادياً خرباً^(٢٣). وكانت إعادة تنظيم المجتمع المصرى تتطلب إعادة تصحيح الوضع الزراعى بسبب أهمية الدور الذى يلعبه فى تماسك النظام الاجتماعى والاقتصادى. وكانت القرية هى المفتاح الذى "يُمكن مصر من التوافق مع روح العصر ومتطلباته"، وتحقيق أى تقدم^(٢٤). فقد كان من المتعذر إعادة بناء برامج جديدة بمعزل عن اقتراحات الإصلاح الزراعى. وكما كتب أحد السياسيين الاقتصاديين المصريين يقول: "إن تشكيل وزارة للصحة عام ١٩٣٦، وكذلك إدارة مستقلة فى وزارة الداخلية متخصصة فى تخطيط وتطبيق الإصلاح الريفى، لهما خطوة نرحب بها كمؤشر للاهتمام الشعبى العام المتزايد بالفلاح"^(٢٥). واعتبرت النخبة فى القاهرة أن أوضاع أهالى الريف السيئة مشكلة وطنية. وأن الكتابة عن العامة وطرح قضاياها يمكن أن يكون له احتمالات ثورية، وأصبحت الأعمال الفنية أعمالاً إصلاحية تزيد من وعى الأمة بأمراض الفلاح وبالتالي المناذاة باتخاذ الوسائل لتحسينها.

وما بين عام ١٩١٩ وعام ١٩٥٢ اتخذت المناقشات حول أوضاع الريف اتجاهين؛ الأول الاقتراحات المقدمة من أعضاء البرلمان، والثانى خارج نطاق البرلمان. إلا أن إثارة الجدل حول هذا الموضوع كان فى رأى الحزب الحاكم الذى يمثل مصالح أصحاب الإقطاعيات الكبيرة نوعاً من التهديد لمصالحهم المادية. وبالتالي كان الاهتمام بمعالجة أوضاع الفلاحين وحرمانهم من الأراضى، أو مهاجمة تركيز الثورة فى أيدي كبار الإقطاعيين محصوراً فى دائرة ضيقة من السياسيين. وفى حقيقة الأمر كان الاتجاه الواضح للأحزاب السياسية هو عزوفها عن منازعة سلطة ملاك الأراضى الزراعية، أو تصحيح للأوضاع السائدة فى الريف. فقد كان هؤلاء المسيطرون فى البرلمان والمؤثرون فى الأعضاء هم بدورهم الذين اعتمدوا فى قوتهم السياسية على ملكيتهم للأراضى. إلا أنهم حاولوا أن يوفقوا بين المبادئ المتصارعة فى تلك المتاهة.

فمع تسليمهم بحقهم الراسخ الذى يريدون الاحتفاظ به، كان فى مواجهتهم أيضاً التفرقة المزمنة بين القوة والأخلاق. إلا أن اتجاههم فى أغلب الأحيان كان التأكد من أن الأوضاع تسير كما هى دون تغييرات أو تحديات، وبالتالي كان من المحال نجاح تمرير أية قوانين تحد من إقطاعياتهم الواسعة أو تشجيع تشكيل إتحادات عمالية ريفية، وسوف نرى أنه مضى وقت طويل بعد ذلك حتى صدرت تشريعات تحدد الأجر الأدنى للعمال الزراعيين^(٢٦).

بعيداً عن أعضاء البرلمان الذين يملكون تحديد المواقف أدار السياسيون وعلماء الاجتماع والناشطون فى المؤسسات المختلفة حواراً ومناقشات حول الريف وفق أجندتهم وتوجهاتهم الأيديولوجية. فظهرت كتب عديدة خلقت لغة جديدة عن الكيانات الريفية. فمثلاً ركز كتاب ميريت بطرس غالى (١٩٠٨-١٩٩١) "سياسة الغد" (١٩٣٨) وكتاب حافظ عفيفى "على هامش السياسات" (١٩٣٨) على الروح الوطنية والحس القومى، وكما أشارت ميساكو إيكيدا فى الفصل الخاص بالجدل حول التعليم، حذر هؤلاء المؤلفون من أن سكان الريف كانوا "أمواتاً بالنسبة لممارسة الحياة الصحية" وأنهم بحاجة إلى تعليم اجتماعى سياسى لإشعارهم بالوعى الوطنى والذى يمكن أن يغذى رأياً عاماً ناضجاً. ويقرر غالى وهو يكتب عن تهميش دور الفلاحين فى المسيرة الوطنية للبلاد "إن هؤلاء الأشخاص يفتقدون كل فوائد حركة وحماس الشعور الوطنى، فهم أموات فيما يتعلق بالحياة الوطنية السليمة، فحق الانتخاب لم يعلمهم شيئاً"^(٢٧). ثم نادى بتدخل الدولة فى التفاصيل الدقيقة لحياة الفلاحين اليومية، مع إشراف مستمر عليهم مما يتيح لها الاحتفاظ بالسيطرة على الحياة الاجتماعية بهدف جذب الفلاحين إلى الساحة ودمجهم فى الحياة الوطنية. وبالمثل يشرح عفيفى كيف أن الفلاحين أبعادوا تماماً عن المجتمعات الحديثة بسبب تخلفهم الكامل، فى نفس الوقت الذى اقترح فيه تحولات فى المجتمع الريفى لتشجيع التكامل الاجتماعى والسياسى. وبعد أن أسهم فقر الخدمات العامة فى مجال الصحة والإسكان والتعليم فى تخلفه ومنع الفلاحين من التعرف على الوسائل المؤدية لرفاهية الشعوب، كما أحبط اشتراكهم فى الحياة الوطنية وتسبب فى تدهور مجتمع قوى. فالقرى التى تتميز بالنظافة والنظام

تخلق مشاعر الكبرياء والوعي القومي والإحساس بالمسئولية الاجتماعية، وبالتالي فيمكن للاستقلال السياسى بالإضافة إلى التغيير الاجتماعى أن يحدث تحسناً فى نوعية الحياة بها^(٢٨).

كان السياق الاستعماري الذي شمل الدراسة الأولية عن الريف المصري قد شجع وجود خطة تنصهر فيها الأنثروبولوجيا العلمية الاجتماعية مع مذهب الاستشراقية . وقد وضع هنرى عيروط فى مؤلفه "الفلاح المصرى" (١٩٣٨) رؤيته للفلاح وتطوره داخل منظومة الصور الشرقية التى تتوالى فى كتابات الرحالة الأوروبيين. ومن خلال صورة الريف المصرى منذ البداية فى المؤلف الفرنسى "وصف مصر Description de L'Égypt"، يرى عيروط أن شخصية الفلاح المصرى وأسلوب حياته تعاني الكثير من النقص مما يستدعى تدخل النخبة لإحداث صحوة فى أهالى الريف. "وأن بوادر هذه الصحوة لن تبدأ من خلال مجتمعه الخاص الذى يتميز بفقدان الحس وانعدام القوة، ولكنها ستبرز من تلك الطبقات التى تتفوق عليه وتبعده وهى النخبة التى يمكنها من خلال ثراء عقولها، وثرواتها أن تعيد إحياءه، وفى هذه العجينة يجب أن تضاف خميرة من الذكاء والتعاطف"^(٢٩). ويتشخيص أوضاع الفلاحين من خلال نظرة بيئية، فإن ديناميكية الريف المصرى تعود إلى العقلية الريفية الخالدة وليس إلى التغيرات فى القوى السياسية والاقتصادية.

تبنت الحركات الشيوعية والاشتراكية وجماعة الإخوان المسلمين قضية العدالة الاجتماعية والتحرر من الفاقة والتى ظهرت على السطح فى الثلاثينيات من القرن، وركزت على حقوق الملكية للفلاح والإصلاح الزراعى^(٣٠). ومن خلال تملق ومداهنة المؤسسات التطبيقية، والمناداة بالإصلاح الزراعى - والذى شمل أساليب راديكالية (متطرفة) مثل المصادرة - غازلت هذه الحركات أهالى الريف لضمان مساندتهم ودعمهم لتوجهاتها الأيديولوجية المختلفة. وكانت مناقشات التيار الشيوعى الخاصة بإعادة توزيع الأراضى الزراعية توزيعاً عادلاً تتجه نحو المبادئ الاشتراكية^(٣١)، فشملت دراسة مشكلات الاقتصاد الزراعى، والأوضاع الاجتماعية والمادية للفلاحين،

والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية فى نظام الإقطاع الزراعى بالإضافة إلى أسلوب الاحتكار. واقترح أحمد صادق سعد (١٩١٩-١٩٨٨) فى كتابه "مشكلة الفلاح" (١٩٤٥) بنية جديدة ضمن منهج تدخل الرأسمالية والإمبريالية فى مصر. وفى بحثه عن تحرير المنتج الزراعى من الاستغلال يؤكد "أن المصدر الرئيسى للتخلف هو الاحتكار الذى يمارسه أصحاب الإقطاعيات الكبيرة، فهم طبقة طفيلية سُمح لها بزيادة دخولها دون أى إسهامات منها فى التنمية الاقتصادية للبلاد"^(٣٢). وقد هاجمت برامج التغيير الزراعى واحتكار ملاك الأرض للسياسة المصرية، فقد كانوا أعدى أعداء الحركة الوطنية، ومصدر التخلف الاقتصادى فى الدولة.

ورغم أن كلاً من الشيوعيين وجماعة الإخوان المسلمين كانت لهم برامجهم المحددة لإلغاء الإقطاعيات الكبيرة، وإزاحة وطأة النظم الزراعية المستغلة، فإن الإخوان المسلمين - أكثر من الأيديولوجية الغربية المستوردة للشيوعيين - هم الذين رسخوا جذورها فى القرى، ونجحوا فى جذب تعاطف ودعم الفلاحين اليوساء. فمثلاً طالبت منشورات الجماعة الحكومة بمراعاة تعليمات النبى باعتبارها مخرجاً وحيداً لتأكيد العدالة الاجتماعية. وفى عام ١٩٤٨ اقترحت قانوناً لإعادة توزيع الأرض الزراعية على الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً وبسعر معقول حتى يتمكنوا من شراء الفائض من الأرض بشروط ميسرة، مع وضع حدود لعدد الأفدنة التى يملكها الفرد، وضمان حصول كل من الملاك والمستأجرين على أنصبة متساوية من ناتج الأرض مع مراقبة قيمة تأجيرها^(٣٣).

ورغم محدودية السياسات الزراعية التى وضعتها مجموعات الإصلاح المختلفة، فإن البحث عن نماذج تطوير بديل طرح تحديات قوية أمام القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمالكى الإقطاعيات الأرستقراطيين، وبدلاً من استخدام السلطة السياسية لجأ السياسيون وعلماء الاجتماع إلى وضع دراسات رائعة منظمة اتسمت بشرح الأوضاع الحقيقية المتعددة الأبعاد للمشكلة. وتراوحت الاتجاهات التفسيرية ما بين دراسات تجريبية تأخذ بالتجارب التاريخية والحقائق المعاصرة من جانب ومفاهيم التحليل والمناقشات النظرية من جانب آخر.

نماذج للفلاح

التعددية فى صور الفلاح من خلال نماذج خيالية لصورة الفلاح

رغم أنها كانت تعكس صورة صادقة عن حقيقة ملموسة، فإن النماذج التى قدمت للفلاح تحمل أجندة سياسية صارخة. وقد حاولت الصور التى رسمت للفلاح المصرى أن تجمع ما بين الصدق والحقائق التاريخية من جانب، وإعادة التشكيل الأيديولوجى من جانب آخر. وظل الريف المصرى فى الفترة ما بين ١٩١٩، ١٩٥٢ يعاد تفسيره. وكمثال قديم يعتبر كتاب يوسف الشربينى "إزاحة القلنسوة فى قصيدة أبو شادوف علامة بارزة بسبب ما جاء فيه من صور لاذعة للفقر فى الريف، وقد دشنت بعد ذلك تعبير "حملة الطين" التى صاحبت الفلاح لفترة طويلة. ويسخر الشربينى - الذى كان نفسه صبياً ريفياً غادر قريته متوجهاً إلى القاهرة ليدرس فى الأزهر ويصبح شيخاً - بقسوة من أهل الريف الذين نشأ بينهم. ويمزج النص بين السخرية والطعن فى شخصية الفلاح ويصفه بصفات تحمل معانى الازدراء. فهو يقلل من قيمة الموضوع من خلال التهكم منه واحتقاره وازدراءه والاستخفاف به والسخط عليه. ويقول المؤلف أن الفلاحين خانعون "فإذا قدمت لهم معروفًا ينكرونه، وإذا كنت رقيقاً معهم فهم يكرهونك، وإذا لم يتم قمعهم فهم يلجئون لقمع الغير"^(٣٤). وتبرز أهمية كتاب "إزاحة القلنسوة" كتجميع للأفكار التى تغص بها الحكاوى لقرون طويلة: أشكال من مقاومة الفلاح اليومية لكل صور الاستغلال، الخوف القانط من محصل الضرائب الذى يحيل الفلاح إلى مخلوق مرتعد، ثم تشويهه وسخرية من أهالى الريف لأخلاقهم الفظة وصعوبة مراسهم، بالإضافة إلى انعدام الأمل فى تحسين حال الفلاح "سوف يظل الفلاح فلاحاً ولن يتغير أبداً"، ثم الصراع بين بيئة الفلاح الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وبين أهل المدينة.

مع ظهور الروايات الأولى عام ١٨٨١، استجاب السرد القصصى لإحساس جديد تكون نتيجة الاحتياج إلى التوجه نحو العامة من خلال تناول الموضوعات الاجتماعية.

فجمعت هذه الروايات بين المواعظ والاهتمام بأمور الحياة اليومية للأشخاص العاديين، واستهدفت إثارة وعى القراء وتغيير مواقفهم. واتخذ تصوير عبد الله النديم (١٨٤٥-١٨٩٦) لحالة الفلاحين المتدنية منحى إصلاحى واضح أسفر عن رؤية جديدة للكاتب كمصلح اجتماعى. ومع استخدامه للحوار والتقاليد الشفاهية تمكن من ربط كتاباته بالحقيقة، وإثارة مشاعر أصيلة قوية لمشاهد وخبرات حميمية. وتوحد النديم مع الفلاحين، وأظهر اهتماماً عميقاً بالأمهم وفسر مقالاته على أنها "كتنهيدات عميقة لإثارة ردود فعل عاطفية"^(٣٥). ومن خلال رغبته فى التقرب إلى عامة الشعب حتى يستحث دعمهم لفكرة العدالة الاجتماعية كانت توجهاته إلى العامة من غير المتعلمين من أهل الريف. وكانت جريدة "التنكيث والتبكيث" الفكاهية (١٨٨١) تستخدم اللغة المصرية العامية كأسلوب لإثارة الوعى. كما كانت أغلب كتاباته الأدبية الموجزة فى مجلته الدورية "الأستاذ" تناقش قضايا مثيرة عن واقع الفلاح المنبوذ^(٣٦). وكشف عتابه الملىء بالاتهامات، ونقده اللاذع للقسوة والاستغلال والإذلال الذى يتعرض له أهالى الريف. كما اتهم النديم أيضاً الخديوى إسماعيل ومجموعة الأجانب المحيطين به بأنهم مستبدون ظالمون، وأرجع الفساد والاستبداد فى الريف إلى طغيانهم وجشعهم وإجرامهم.

ولدت مأساة دنشواى صوراً عاطفية لهذا الحدث فى قصص وروايات الكتاب المصريين. وحصل كتاب طاهر حقى (١٨٨٤-١٩٦٤) "فتاة دنشواى" ١٩٠٦ على أكثر الكتب مبيعاً حين نشر أول مرة بسبب واقعية الموضوع المروع. وزاد من عمق هذه المأساة اتهام الفلاحين الأبرياء الذين لا حول لهم من قبل أحد المحامين المصريين والقسوة الوحشية التى تعامل بها المسئولون البريطانيون مع الفلاحين لإخضاعهم^(٣٧). وحتى يتجنب حقى عقاب الحكومة المستعمرة لجأ إلى تضمين قصة حب خيالية فى هذه الحادثة التاريخية التى بلورت الصراع بين الفلاحين والضباط الإنجليز. ولأنها كانت واحدة من أقوى القضايا المصرية، فقد أحوالت الفلاحين إلى قوة مؤثرة تستهدف طموحات قومية.

الفلاح كجوهر الوطنية المصرية

فى أعقاب ثورة ١٩١٩، احتضن التطور التدريجى للوطنية المصرية ومفهوم الأمة المصرية هوية كانت راسخة فى وادى النيل ولها جذورها الريفية، وارتبط بعث ميلاد مصر ارتباطاً وثيقاً بالريف - الذى هو أصل الأمة. وأصبحت صورة الفلاح المصرى الشجاع القريب من الطبيعة قريبة من قلوب الكثيرين من الوطنيين، وكانت طيبة قلب الفلاح ونقاؤه تتوافق مع المشاعر الوطنية الحقيقية، وازدادت الشعارات الوطنية مثل "مصر للمصريين" والجدل الصاخب حول تفرد الشخصية المصرية قوة من خلال الرؤية الجديدة للفلاح كتجسد للشخصية الوطنية الأصلية.

استجاب الجو الثقافى الذى ساد مصر منذ ١٩٢٠ إلى ١٩٣٠ لهذا الوعى الجديد بدور الهوية المصرية فى تعزيز حركة الصحوة الوطنية والاستقلال السياسى، واحتضن الأدب المصرى الريف وسكانه كانعكاس صادق لهوية مصرية واضحة. وبدأ الناشطون فى السياسة والاجتماع والمجالات الأدبية حملة احتفال بفضائل أهل الريف لم توجد من قبل، فألهجوا بالثناء على شخصيتهم، وأشادوا بكفاحهم البطولى فى الحياة خلال قرون من الاضطهاد والاستغلال، وبدأ الفلاحون يظهرون باعتبارهم نماذج لكل ما هو مصرى أصيل: نظرتهم إلى العالم، معتقداتهم وطقوسهم ونمط تفكيرهم وسلوكياتهم التى جسدت فى مجموعها الشخصية المصرية النموذجية. واستمد أدب النقد، والكتابة المبدعة إلهامهما من نمط حياة الفلاحين لتصوير روح الأمة: "التي يتمثل جوهرها بصورة متكاملة فى حياة الريف"^(٣٨). فلكى تكون مصرياً يجب أن تعى جيداً مفهوم ريف مصر الخالد الذى لا يتغير أبداً.

صُور الفلاح أيضاً كمثال بالغ الكمال يجسد الصفات التى تحتاجها مصر فى بعثها الجديد لاستعادة ماضيها المجيد. وبالتالي وجد الدافع لإعادة تشكيل صورته بعد أن تم تحقيقه فى الكتابات السابقة. فأعيد للفلاح اعتباره بعد تفسير سلبياته، وتحويلها إلى إيجابيات بل ونقاط قوة أيضاً فأصبحت لامبالاته نوعاً من الثبات وقوة الأخلاق

القادرة على التعامل مع الصعاب. وآلية دفاع ضد الخراب الذى أحدثه الزمن، وتحولت البدائية أيضاً إلى حياة تلقائية، ومنهجاً لا يتغير للاحتفاظ بجوهر مصر القديمة. وتميز الفلاحون أيضاً بالجلد: "حين نظرت إلى الفلاح الأوروبى مقارنة بالفلاح المصرى اكتشفت من خلال هذه المقارنة أن الفلاح المصرى أقوى فى عمله وأكثر صبراً"^(٣٩). وفى واقع الأمر أصبحت الوطنية المصرية أكثر شعبية بسبب هذا التركيز على الفلاحين. ويرى سلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٨) أن الفلاح يجسد الحضارة المصرية القديمة "إن مصر الفرعونية ما زالت تحيا من خلال الفلاحين" الذين يتعلقون بحميمية بالأرض. فهم الورثة الأصليين للكمال المصرى القديم^(٤٠).

جسدت "الهيئة القومية للآداب" (١٩٢٩-١٩٣١) دعوات المثقفين لجذب الاهتمام إلى الهوية المصرية. وقد أرجع فشل الأدب القديم فى إعطاء الصورة الحقيقية للحياة فى الريف إلى إهماله وتجاهله لأهله الذين يشكلون قلب الوطن. فقد كان يتعين على الكتاب حتى يقدموا أدباً مصرياً خالصاً حقيقياً أن يفهموا طبيعة وشخصية الفلاح. وكان محمد زكى عبد القادر - وهو القوة الدافعة فى الهيئة - يشجع الأدب الريفى كنوع جديد من الكتابة يرى فى الريف مصدراً للخيال. وناصر كتاب تلك الفترة ثقافة المجتمع الريفى. فى حين زواج أحمد محمود سليمان بين تكامل الموروثات الريفية مع الجدل والمناقشات والكتابات المسيطرة على الأدب التقليدى السائد. وكان هذا الاتجاه أسلوبياً مثالياً لتدشين مرحلة تستهدف تطوير الريف. أما عباس محمود العقاد فقد رأى أن "تمصير" الشعر يمكن أن يتم من خلال الأغاني الشعبية للفلاحين حيث إنها تعتبر الموروث الشفهى الذى ظل محتفظاً بملامح المزاج الخاص وحس الدعابة التى تميز المصريين الأصليين^(٤١). فالأصالة المصرية يمثلها أهالى القرية. ويذهب سلامة موسى إلى أبعد من ذلك فيعزى "لغة الشعب" التى يمكن أن تخلق "أدباً شعبياً" يحمل أفكاراً وثيقة الصلة بحياتهم وأزمانهم. أما إبراهيم المصرى فقد وضع برنامجاً للكتاب من أهل المدن لمعالجة النقص فى معرفتهم بالحياة الريفية بدءاً من التخلّى عن عجرفة أهالى المدن إلى خلق أبطال من عامة الشعب، ثم وضع الفلاح فى بؤرة الاهتمام حيث تتجمع

فيه كل القوى الأيديولوجية المختلفة. وناشد أهالى المدن "اتجهوا إلى الريف... تخلوا عن عجرتكم تجاه الفلاح"^(٤٢). فحتى يتمكن الكاتب من الوصول إلى معرفة أعمق بشخصية الفلاح وآلامه وكفاحه يجب عليه أن يقترب من حقيقة الفلاحين ويختلط بهم.

وتبلغ ذروة الاهتمام الوطنى فى تصوير العناصر المكونة للشخصية المصرية الواضحة فى كتاب توفيق الحكيم "عودة الروح" (١٩٣٣) حيث تبرز واضحة تماماً كنموذج للرؤية "المصرية" فى تمجيدها لإمكانات أهل الريف. كما جسدت تسامى القوة الدفينة فى أرواح الفلاحين وكذلك الروح الأبدية الغامضة التى تجلت فى تحركهم فى ثورة ١٩١٩. وتبلور القصة أصدق مثال للرواية المصرية الوطنية. فقد ملك الحكيم روح هذا العصر ورغبته الملحة فى خلق صورة ووعى ذاتى مصرى متفرد. فنرى محسن - بطل الرواية - مدفوعاً بالرغبة فى أن يكون اللسان الناطق للشعب المصرى، والمعبر عن ضمير الوطن. وأرجعت القصة إعادة ثقافة الأمة الأصلية إلى تعظيم دور الهوية المصرية الأصلية مقارنة بالاتجاهات السلبية فى الشخصية العربية. كان محسن مؤمناً بتفوق الفلاح الكريم النبيل الذى أثنى عليه بإفراط "لطيبته، وهدوئه، وحبه للسلام وهى السمات المميزة للحضارة والاستقرار"^(٤٣). وفى خلال إجازة قصيرة أمضاها محسن فى مزرعة بالقرب من دمنهور، اعتنق فكر "الفلاح البسيط" الذى يزرع أرضه. وعلى النقيض من والديه - السادة الذين يمارسون الاضطهاد وتخلو مشاعرهم من التعاطف أو الإنسانية - توحد مع أسلوب الحياة فى الريف، فنراه يعجب بأسلوب التعبير عند المزارعين، والفرحة الخالية من الهموم فى تقبلهم للحياة، ثم يحسدهم على الانتماء القوى للأرض وتعلقهم بها.

وتبرز صورة الفلاح كأيقونة وطنية فى مجال الفنون البصرية. وكما تشرح كارولين ويليامز بصورة متميزة، جسّد محمود مختار (١٨٩١-١٩٣٤) فى تمثاله "نهضة مصر" روح هذا العصر. ويصف هنرى عيروط موقعه الأول "فى الميدان الفسيح أمام محطة القاهرة يقف تمثال منحوت من الجرانيت المستجلب من أسوان يمثل أبو الهول وهو راibus على قدميه الأماميتين، وبجانبه تقف امرأة واضعة يدها على مؤخرة

عنقه بعد أن أزاحت خمارها جانباً" (٤٤). ويمثل التمثال الفرعوني النصفى والفلاحة المصرية - بحجمها الذى يزيد ثلاثة أضعاف الحجم الطبيعى - الاتجاه إلى الجذور الأصلية. كان تجسيدا لمعتقد راسخ بأن "الفلاح هو تاج مصر وسر قوتها، وأن الحقيقة الوحيدة التى لم تتغير فى العالم خلال ستة آلاف سنة هى أن الفلاح هو الشيء الوحيد الذى أبقى على حيوية وقوة مصر حتى الآن" (٤٥). وقد نحت مختار هذا التمثال فى جو مفعم بروح الثورة والصحو، فكان تعبيراً حقيقياً عن صحو الأمة فى مرحلة ما بعد ١٩١٩، والتى تمزج بين المجد القديم والشخصية المعاصرة التى تتمثل فى الفلاحين.

مخاطر فكرة الوطنية "الرومانسية"

كان التركيز الحصرى على فكرة الريف المثالى تغلب عليه المصلحة الذاتية وطنياً وسياسياً، فترسم رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦) مشاهد من الحياة المصرية فى الريف وسلوكياته (١٩١٣) فى صورة بديعة لريف رائع فى مصر، فقصة الحب الرومانسية لفتاة فقيرة جميلة هى ابنة الطبيعة المثالية تدور فى خلفية ريفية تبدو كالجنة. ويعترف هيكل "أنا مبهور بريف ابتدعه خيالى" (٤٦). ويبدو الريف من خلال روايته كأرض من نسج الخيال لها ثقافتها الخاصة، ومحملة بعاطفة مثقلة بحنين طاغ. إلا أنه بعد رواية "زينب" يأتى بطل الشرقاوى فى "الأرض المصرية" فيخترق هذا اللمعان الخادع للرومانسية ويعلق عليه قائلاً:

"كم أتوق لأن تكون قرىتى ... بدون مشكلات مثل القرية التى نشأت فيها زينب... فلم يكن للفلاحين فيها أية مشكلات مع مياه الري، ولم تستول الحكومة على أرضهم، أو أرسلت إليهم نوى الملابس الكاكية لتضربهم بالسياط... والأطفال هناك لا يأكل الذباب عيونهم، وفى قرية زينب لا يختلط الرجال بالدم والصيد، أو تتلوى أجسادهم ألماً بحيث لا تتركهم إلا وهم أموات... لم تذوق قرية زينب طعم السياط... أو تهديدات القدر المتمثلة فى الأجنبى، والعمدة، والحكومة، ولا لذة التحدى والمكسب أحياناً" (٤٧).

رسم هيكل النظام الاجتماعي عبر خلفية أرض رائعة، ويعلق على أسباب اختيار العنوان التبادلي مع روايته "فلاح مصرى" قائلاً: "لقد أردت أن أظهر شعور الفلاح المصرى العميق بقيمه وقيمه الذين يستحقان الاحترام، وشعوره بالفخر لأنه يتخذ من مصريته وكونه فلاحاً علماً يلوح به أمام العامة، مطالباً الآخرين باحترامه وتكريمه" (٤٨). وكان هذا الفخر الذى يشعر به فى توحده مع أهل الريف مثل الضربة القاضية لعجرفة ووقاحة الأتراك فى معاملتهم للفلاحين. ومتواكباً مع المقالات الليبرالية الوطنية التى انتشرت آنذاك، ويغلف هيكل قصته عن قسوة الحياة فى الريف برومانسية واضحة كما يمجّد من بساطة أهله.

ويعزز من أسباغ المثالية على الفلاح اللغة التى استخدمها هيكل. فهو يكتب باللغة العامية الريفية، ويدور الحوار كله باللهجة التى يستخدمها أهل الريف بغض النظر عن مكانة المتحدث. ولاستخدامه هذه اللغة والحوار فى وصف الحياة فيها، اضطر المؤلف إلى أن يعتذر لقرائه عن ابتعاده عن الأسلوب التقليدى. فقد كان هيكل متمسكاً بالميراث الأثير لدى الكتاب المتمثل فى استخدام اللغة الكلاسيكية المنمقة والتى تشكل أساس إبداع الأدب العربى (٤٩).

ويرتبط هذا الموضوع بالدراسة التى قدمها أندرو فليبر فى الفصل السادس عشر من هذا الكتاب حيث كانت الأفلام السينمائية التى تصور الريف تضع غلالة من الوهم على واقع القرية. وفى خيال العامة كانت الحياة الريفية ينظر إليها كقصيدة رعوية وثيقة الصلة بالطبيعة، لتبدو الصورة كما لو كانت هى الحقيقة بأكملها. ومن ثم ظلت جاذبية الخيال أمام قاطنى المدن لها فعل المغناطيس. فأصبح الريف هو المكان الذى يمكن اللجوء إليه هرباً من سرعة الخطى المتزايدة للحياة فى المدن، وبالتالي كان علاجاً لأمراضها. ويستحضر فيلم "زينب" (١٩٣٠) الذى يعتبر علامة فى تاريخ السينما المصرية صورة للريف مستمدة من قصص الريف الغربى الرومانسية. فتبدو الرؤية فوقية وليست من الداخل ويتذبذب المخرج بين تمثيله للعالم فى صورته الحقيقية، وبين طرحه لعالم مثالى فى صورة العالم الحقيقى. غير أنه بعد زيارته للقرية يستغرقه التفكير فى قضايا رئيسية:

"لقد صدمت حين عرفت حقيقة الحياة فى الريف، وكان ذلك أسوأ خيبة أمل أصبت بها فى حياتى. لقد عدت من هذه الزيارات وأنا أحمل معى حقائق مؤلمة عن حياة الفلاح. لقد زرت بنفسى بيوت الفلاحين التعساء... والذى أخجل من أن أحتفظ بداخلها بحيوانات... لقد شاهدت صوراً منفرة للجهل، وغياب العدالة والفقر والسذاجة... وشعرت بشيء من الاشمئزاز حين قدم لنا طعام العشاء... كان عشاء فقماً قدمه لنا مضيف يعانى من سوء التغذية... كان الظلم الإنسانى فاحشاً! ولكن كان من المحال على أن أقدم بلدى فى هذه الصورة السيئة. ما جدوى الحقيقة إذا كانت تهدم سمعة بلادى؟ إن حياة الفلاح يجب أن تطرح كما يجب أن تكون لا كما هى" (٥٠).

كان رد الفعل التقليدى لسكان المدن على مباهج الطبيعة فى الريف مزيفة لواقع الفلاح الذى يزرع الأرض ويرزح تحت وطأة القذارة والفقر. إلا أن المخرج تعمد تجاهل مظاهر البؤس فيه، فهو لا يعترف فقط بجهله بالحياة الريفية فى مصر، بل يقر أيضاً بخداع نفسه، ورفضه للحقيقة عن عمد، وإساءة تصوير حياة الريف عن قصد، فأخذ على عاتقه تحسين الواقع عن طريق إخفاء آلامه وقسوته.

وعلى نفس المنوال نرى أسمهان فى فيلم "غرام وانتقام" (١٩٤٤) وكانت مطربة مشهورة فى ذلك الوقت تتغنى بحب - مثل عبد الوهاب قبلها - بمشاهد الريف، وتثنى على الفلاح الكادح المجتهد الذى يشعر بالسلام والرضا رغم فقره. وتبرز صورة الفلاح كشخص بسيط نقى، لا يعرف شيئاً سوى الحرية فى الهواء الطلق وأغاني الحقل. وعلى مستوى آخر نرى فيلم "ليلي" (١٩٢٧) وهو فيلم قديم صور فى بيئة ريفية تتميز بجمال الطبيعة يقابله ردود فعل سلبية حين ظهر فى السينما. فقد انتقدت الجماهير المنتج والمخرج لانشغالهما بتصوير أهل الريف المتخلفين بدلاً من مشاهد حياة الطبقة المثقفة فى القاهرة. وبالتالي فقد أجبرت الرقابة صناع الفيلم على إلغاء المشاهد التى تسمى لسمعة المصريين كشعب متحضر. وكان تصوير الموائد المستديرة المنخفضة (الطبلية) والتى يستخدمها الريفيون فى تناول طعامهم يعتبر مشهداً همجياً يبعث على الخجل. أما المشاهد المحسنة والإنسانية فقد كانت تتواءم أكثر مع روح العصر، وأحاسيس الوطنية المزدهرة السائدة (٥١).

ورغم أن أفلاماً أخرى مثل "عاصفة على الريف" و"ليلى بنت الريف" كانت تبشر بعرض صورة حقيقية لمعاناة الريف، فإن المضمون يشي بإغراق فى نوع من الوطنية الرومانسية. فقد ألفت صورة الفلاح التى تجسد الأمراض الاجتماعية والاقتصادية ليحل محلها مشاهد نمطية مكررة: فتاة القرية الفقيرة التى تقع فى براثن التغيير من الحياة الريفية إلى الحياة المدنية بعد أن يقع صاحب الأرض فى غرامها ويحملها معه إلى المدينة. أما الفلاح فهو إما الخادم الساذج الغبى، أو الحرامى الشرير أو القاتل، ثم مشاهد أخرى تصور العمدة المتهتك الذى ينفق أمواله على موائد القمار ثم يقع فريسة للنصابين فى المدينة، بالإضافة إلى زيارة مالك الأرض لضياعه والتى تقابل بالفرحة والزغاريد من عبيده الفلاحين.

وقد شهدت العشرينيات من القرن انتشار "الكاريكاتير" المصرى فى المجالات والجرائد. وكانت الأمية السائدة فى ذلك الوقت قد نتج عنها تعظيم قوة الصورة عن الكلمة وإعطائها الأسبقية، وكما يشير جيمس هييدن فى الفصل الأول من هذا الكتاب فقد أصبحت الرسوم الساخرة استمراراً للبرنامج السياسى ووسيلة إعلامية مهمة للنقد الاجتماعى. وقد ساعد صاروخان - وهو من أبرز رسامى الكاريكاتير آنذاك - فى تعرية زيف حقيقة الفلاح. فقد كان تصويره للفلاح المريض وهو محاط بأرض جافة مشقوقة ثم وهو يتغنى بجمال وجاذبية حياة الريف محاكاة ساخرة للمثالية الرومانسية المعتادة. وفى الواقع فإنه فى ترجمة حياة الفلاح على هذا النحو الخيالى، كان ذلك مدعاة للطبقة الأرستقراطية لرعاية المحتاجين والتعامل مع الفلاح كشخصية رومانسية تثير الشفقة والعطف.

الواقعية: شعاع من الحرية

مع ظهور "الأدب الواقعى" والتركيز على الأشخاص الحقيقيين فى المواقف المنطقية، تطورت الصورة التى تمثل الفلاح من خلال كتابة خلاقة تتضمن تحليلاً دقيقاً لكل جوانب شخصيته وحياته. وقد وصل الاهتمام بالواقعية إلى ذروته مع ظهور جماعات

المدرسة الحديثة والتي استهدفت إعادة صياغة العلاقة بين الأدب والواقع الاجتماعي "حتى يمكن إقامة علاقة متبادلة بين الأدب والمجتمع وبطريقة يصبح الأدب فيها انعكاساً حقيقياً، ومرآة صادقة للمجتمع"^(٥٢). كما حاولت هذه الجماعة أن تضع القصة الروائية في دائرة اهتمام القارئ اليومية وتتخذ منها وسيلة لتغيير رؤية المجتمع وأفكاره المسبقة. وحتى يتمكن الكتاب من إبداع أدب مصرى أصيل، كان يتعين عليهم الأخذ بالاتجاه الواقعي. فخضع بذلك واقع الفلاح إلى هذه التقاليد الروائية الجديدة حيث تقنع التفاصيل الفنية الدقيقة الحية القارئ بصدق القصة والتصاقها بالحياة الواقعية، وبالتالي تم قبول القرية طبقاً لمواصفاتها الحقيقية وليس ضمن الشروط التي يفرضها عليها أبنائها في المدينة. وكانت الواقعية أيضاً تتطلب الاتصال الحى بالبناء الذهني والوعي الجماعي لأهالي القرية بحيث تكون الأحداث الروائية انعكاساً مباشراً لوجهة نظرهم تجاه العالم. فنرى أن قصة محمود طاهر لاشين القصيرة "القرية واللغو في الحديث" Village Small Talk (١٩٢٩) تعكس وجهة نظر فئة من المجتمع لا يرتبط بأي علاقة بها. ولم يحدد لاشين في قصته اسم القرية التي تجري فيها الأحداث، ولكنها في ضعفها وقلة حيلتها تمثل القرى المصرية. فتجربة الأهالي مع اثنين من زوار المدينة كانت "استراتيجية شاملة للنص"^(٥٣) فانتهاكهما لحرمة اللقاءات المسائية للأهالي تشكل جوهر القصة. فالشيخ الذي هو محور الدردشة العامة كان المحفز لهجوم القرية. في حين أن الراوي الذي يصل لقضاء يوم إجازة في قرية أحد أصدقائه كان يأمل في مساعدة الفلاحين المضللين:

"كنت مصمماً أن أدحض أكاذيب الشيخ، وأهدم النقاط التي أثارها أثناء حوار، وحين لاحظت ترده في المناقشة انتهزت الفرصة لمناقشة أحوال الفلاح المعيشية... وبعد ذلك توسعت في الحديث عن حرية الإرادة المرتبطة بالأفعال وإنهم يمكنهم تحقيق المعجزات إذا ما أحسوا بأنهم أحياء وصمموا على إثبات ذاتهم... ومع ذلك ففي كل مرة كنت أتوقف فيها عن الحديث لمعرفة تأثير كلماتي، كنت أجدهم فاغري أفواههم في دهشة صامته وهم ينقلون النظر بيني وبين ناصحهم المخلص"^(٥٤).

كان الفلاحون كالكورس، يرددون ما يقوله الشيخ الذى كان يزاوج ما بين حديثه وردود أفعالهم. كانوا يستمعون إلى شرح وسائل التنمية ولكنهم عاجزون عن استيعابها، وكانت عدم قدرتهم على التوفيق بين القديم والحديث، أو بين التحكم الإلهى والشوق الإنسانى يحبط أى محاولات للتغيير. والواقع أن استجابة الفلاحين المستمعين للشيخ أثارت مناقشات متصارعة. وتحولت الرواية بعد ذلك إلى ساحة لوجهات نظر متناقضة: الصراع بين المعتقدات والقيم التقليدية وبين الاتجاهات الحديثة، ومجابهة التقدم والتخلف، والمعرفة والجهل بالإضافة إلى الصراع بين دنيوية المدينة وتدين الريف، وبين الحرية الشخصية والضغط ثقيلة الوطأة للدين، ثم بين الاستسلام للمصير، وممارسة حرية الإرادة.

وعلى صعيد آخر يأتى كتاب محمد تيمور (١٨٩٢-١٩٢١) بعنوان "فى القطار" (١٩١٧) والذى يعتبره النقاد أول قصة قصيرة محلية تكرر شكوى النديم من فقر الفلاح المدقع وعذاباته^(٥٥). وتتكامل الرؤية فى عرض الأبعاد المختلفة للفكرة. وفى حوار يدور بين المستقلين للقطار فى اتجاه الريف يثير سؤال حول أحسن الوسائل لتعظيم إنتاجية الفلاح ردود أفعال متباينة. والمشاركون فى هذا الحديث يمثلون شخصيات مصرية نمطية - فمنهم الأفندى - وهى شخصية مثيرة للجدل كتبت عنها لوسى ريزوفا فى هذا الكتاب - ومنهم العمدة، والباشا الجركسى وشيخ الأزهر. وتراوحت الاقتراحات حول إصلاح حال الفلاح ما بين التعليم واستخدام السوط. ويميل رأى الأغلبية نحو هذه الوسيلة الأخيرة بصفتها أقل تكلفة لعملية الإصلاح. "لا تنسوا أن الضرب بالسياط كان الوسيلة الناجحة لإخضاع الفلاح منذ قرون. فهو معتاد عليها من المهد إلى اللحد"^(٥٦). ومن المثير للسخرية أن هذا الاقتراح كان مردوده سلبياً من قبل المؤلف الذى يمثل المثقفين المتعلمين، وهو ينسحب من الإجماع فى إذعان واستسلام دون أن يقدم حلاً بديلاً بناءً وأكثر إنسانية.

وتعكس هذه الرواية اتجاه عدم التدخل أو "دع الشئ يكن" فى شئون الفلاحين السائد فى ذلك الوقت. إلا أن النظرة الرومانسية لجمال الريف المصرى وأفاقه المتسعة والسذاجة النقية الريفية كان دائماً ما يقابلها احتقار هذه المشاعر الرومانسية،

والسخرية اللاذعة منها ورؤية مساوئ الفلاحين فقط. وكانت هذه النظرة الساخرة - إن حالة الفلاح المزرية توافقه تماماً لأنه فاقد الإحساس بما فى حياته من إذلال - تعكس وجهة نظر أن الفلاح فى هذه البيئة الطبيعية أحسن حالاً رغم أميته وجهله. وإنه من المفروض عليه أن يعبر عن تقبله لفقره وهوانه. وبالتالي فقد شكل هذا المزيج من الطبيعية والواقعية فهماً ناضجاً أعمق وأنضج لوصف تصوير حياة وسلوك الفلاح الإنسانى بعيداً عن الرومانسية المبالغ فيها أو الخيال الواسع.

إن تصوير البيئة التى تخرج منها الشخصيات هى من أهم متطلبات الفن الروائى، لأن لها تأثير هائل فى تشكيل شخصياتهم وأحاسيسهم. بالإضافة إلى أن حيوية القصة واستخدامها لوصف دقيق واقعى لها تأثيرها القوى فى نفس القارئ، فهى تقنعه بصدق القصة وعلاقتها بالحياة الحقيقية^(٥٧).

واستناداً إلى هذا الفهم للواقعية، حاول محمود تيمور (١٨٩٤-١٩٧٣) إعادة تصوير الحياة المصرية. وتبدو واقعيته أساساً فى وصف تأثير العواطف والمشاعر الإنسانية على سلوك الشخصيات مع التقليل من أهمية تأثير المجتمع عليها. ويصف "الشيخ جمعة" (١٩٢٥) أمراض الريف فيركز على الأشخاص العاديين الجاهلين الذين تحولوا إلى شيوخ بالصدفة. وكانت فكرة الفساد فى الشيوخ تعكس الصراع بين الجيل الجديد من المثقفين العرب، والجيل القديم من المحافظين التقليديين^(٥٨). كما كان الهجوم على الشيوخ يمثل موقفاً عاماً للجيل الجديد، حيث دأب الخريجون فى نظام التعليم الحديث على معارضة الشيوخ الذين تعلموا فى المعاهد اللاهوتية القديمة، وعلى رفض تقبل الاحترام المغالى فيه، والسمعة العالية التى يتمتع بها هؤلاء الشيوخ بين الرأى العام، واعتبار هذا التقدير لا مبرر له.

"... ففى حين كان العلماء فى القاهرة يتحدثون بإفراط فى جميع مجالات التعليم فى حضور تلاميذهم فقط... كان العلماء فى الريف يذهبون ويجيئون محاطون بهالة من الاحترام والتقدير. وحين كانوا يلقون مواظهم، كان الناس يصغون إلى كل ما يقولونه، وقد امتلأت نفوسهم بالرهبة والإعجاب... وهذا الاتجاه يضع العلماء على قاعدة تمثال مؤمنين بأنهم من طينة أخرى أنقى وأعظم من بقية البشر"^(٥٩).

وقد كشف الشيخ جمعة عن زيف هذه الطبقة الاجتماعية في الريف، واستخدم تيمور قصصه لهدم وتدمير المعانى الملتصقة بهذه الأوضاع. فرجال الدين الذين يفترض فيهم العلم كانوا يتصرفون بطريقة تدعو إلى السخرية. ولا ترحم الرواية الشيوخ الذين يتبوءون مكانة عالية بصفاتهم المتحدثين باسم أهال القرية وأنهم الصلة التي تربطهم بالعالم الخارجى، فقد عمد هؤلاء الناصحون من رجال الدين إلى إرضاء الفلاحين وتضليلهم^(٦٠)، فثوب التقوى والإيمان والعلم لم يكن سوى قناع يخفى الدجل والشعوذة، فقد كانت نصائحهم كاذبة، كما كانوا يسيئون فهم الفارق بين الحوار والسفسطة، ويشوهون المضامين المقدسة بحيث تتفق مع أغراضهم، ويستغلون الجهلة من العامة لفائدتهم. فهم لا يثيرون فى قصة تيمور أى شفقة أو تقدير فى نفس القارئ.

قلصت أخلاقيات الانتماء الوطنى التى تمجد الفلاح بصفته العامود الفقرى للمجتمع من التوترات التى صاحبت التقسيمات الطبقية والفوارق الاجتماعية، وأضيف إليها مشاعر الاستقلال الوطنى كقضايا سياسية تتكامل مع الوعى الثقافى للبلاد، ومع الإحساس المتنامى بالاختلال الوظيفى داخل مجتمع تتمتع فيه حفنة قليلة من الأشخاص بثروات طائلة فى حين تعمل الأغلبية لقاء أجور لا تكاد تسد رمقهم، ظهرت نخبة من المثقفين تنتقد بشدة الأجواء السائدة، فاهتموا بالصراع الطبقي الدائر والمناداة بالعدالة الاجتماعية. وفى ضوء الاهتمام بالصيغة الواقعية تعرضت الأوضاع الاجتماعية والسياسية إلى التحليل والمراجعة^(٦١).

وبدأ من عام ١٩٣٩، كشفت الروايات والقصص القصيرة التى صدرت آنذاك عن القلق والاهتمام بالعدالة الاجتماعية. ورغم أنها كتبت تحت تأثير اتجاهات سياسية، فإن رواية عصام الدين حفنى ناصف "عاصفة على مصر: قصة اجتماعية" كانت أول رواية تتمحور حول علاقة الفلاح بمالك الأرض حيث ركزت على استغلال أحد أصحاب الإقطاعيات للفلاح فى مضمون اجتماعى سياسى قوى. فنرى أحد أصحاب الأرض من الأثرياء نوعاً يزداد ثراءً على حساب الفلاحين من خلال قسوته وعدم أمانته، وحين يرقد على فراش الموت يعترف بما فعل أمام مجموعة من الفلاحين تحيط بسريره:

"أنا أعرف أنكم لن تنسوا أبداً أنكم لم تكونوا جزءاً من الثروة التي تمتعت بها طوال حياتي... والتي حصلت عليها من عرقكم. فلم تتحسن أحوال معيشتكم، وكانت فخامة القصر الذي أقطنه تظهر بشاعة الأكواخ التي تسكنونها. وبغض النظر عن وفرة المحصول لم أرفع من أجوركم رغم ارتفاع تكاليف المعيشة... وحين كنتم تطالبون ببعض حقوقكم، تجاهلتكم وأعلنت عليكم الحرب... ولم أضع في اعتباري العاصفة التي سوف تهب بهذه القوة"^(٦٢).

ومن خلال هذه النبذة الحادة الناقدة يصور هذا المشهد الهجوم على لذات الحياة التي لا جدوى منها للبائسين من الفقراء بشكل يثير الشفقة. ويتوجه هذا العمل إلى الطبقة المميزة ليحثهم على استيعاب مظاهر الطمع والفقر حولهم. فهو يعكس الإحباط تجاه حالة الرضا السائدة في الطبقة العليا الثرية والتي أغضت عينيها عن الأغلبية من المصريين الفقراء.

إلا أننا نلمس في بعض الكتاب الآخرين شعوراً قوياً من الانتماء إلى القرية دفعهم إلى محاولة اكتشاف عالم الريف بقصد توصيفه في صورته الحقيقية، وبالتالي ظهرت كتب السير الذاتية لمن لهم جذور ريفية كنتاج لإيقاع وثقافة بيئتهم. وقد وصفت هذه السير الذاتية طفولتهم كما حلت التجربة الريفية كما عاشوها في مستواها الدنيوى. ويشير حامد عمار إلى أهمية هذه السير الذاتية. إلا أنه يلاحظ أن المؤرخين وجهوا اهتمامهم إلى القوى الحاكمة في حين أن "عادات وتقاليدهم المسؤولين المحليين كانت هي القوة المحددة النهائية"^(٦٣).

كان أحد أهم المفاتيح الرئيسية في روايات السير الذاتية الريفية هي الرؤية الأنثروبولوجية التي أدت إلى حكم نقدي للأحوال الاجتماعية في الريف. وفي كتاب "طفل من القرية" (١٩٤٦) عرض سيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦) واحدة من محاولاته الأولى لإعطاء صورة عن القرية المصرية من وجهة نظر واحد من أهلها. فكتب يقول "إن كثيراً من صور الحياة في القرية ترجع إلى طفولتي منذ ربع قرن مضى أسترجعها دون أن أحاول تجميلها أو صناعتها، ولكنى نقلتها من صفحات ذاكرتي لأسجلها على صفحات الورق".

ولأنه كان واحداً من أهل القرية، فالمؤلف الراوى يضع نفسه حكماً بالنسبة للتفصيلات الإثنوجرافية المتعلقة بالمكان ومؤسساته، وممارساته، وأحواله المعيشية بالإضافة إلى تركيبة الدينية والطبية وأعمال السحر به. ثم يواذر الإحساس بمصر كدولة فى وعى الفلاحين. وفى وصفها لعلاقة الفلاحين بالبيئة الخارجية، تظهر الرواية التناقض بين التعاطف العميق مع عبودية الفلاحين، وأسلوب تعامل الرسميين المدنيين معهم أثناء التفتيش والإدارة وتحقيق النظام بها والذى يخلو من المشاعر فيصبح وصف الغرباء مثل الطبيب، وكيل النيابة، وضابط البوليس ومندوب الحكومة فى وعى الطفل مثار سخرية القارئ. ويشكل عرض الفجوة فى أسلوب الحياة بين أهل المدن وأهل الريف ملمحاً شائعاً فى قصة قطب. فهو يصور الأوضاع المتدنية فى الريف فى مواقف عدة. ويقول وهو يصف الوسائل البدائية لإخماد النيران وقت جمع المحصول "وقد يتسائل الكثيرون من ساكنى المدن: لماذا لا يلجأ الفلاحون إلى خراطيم إطفاء الحريق أو الاتصال بعمال الإطفاء؟ عمال إطفاء! يا سيدى الفاضل هذه الأشياء لا توجد سوى فى المدينة، وأقرب محطة إطفاء تقع على مبعده من القرية." وينقل استهلال الرواية أفكاراً إصلاحية حول نوافع المؤلف لتصوير الحياة فى الريف فى طفولته:

"إن كثيراً من هذه الصور ما زالت حقيقة واقعية. إلا أن الناس فى المدينة الذين اعتادوا على حياة الرفاهية لا يصدقون أنها موجودة سواء فى العالم الحقيقى أو عالم الخيال. ولكن عرضها هنا سوف يضع أمام الجيل الجديد صوراً من الريف المعتاد بجوانبه الحسنة والسيئة. وإنى أمل أن يكون لديهم رأياً فيما يتعلق بما يجب أن يستمر وما يتعين عليه أن يزول"^(٦٤).

وتكشف الأحداث التى تمر بطفولة المؤلف عن التخلف العام المتمثل فى فقر التعليم وسوء الحالة والإمكانات الصحية، وفساد المسؤولين، وقسوة وجمود العادات الأخلاقية، واستغلال أصحاب الأرض، وغياب العدالة فى توزيع الأرض والسلع. ويرحب العمل بالتغيرات الاجتماعية الثورية فى مصر فتتطور فكرة تحرير القرية من الجهل والمعتقدات الخرافية الشائعة لتصبح الفكرة الرئيسية فى السيرة الذاتية.

وتبرز صورة ناقدة أخرى من خلال كتاب الأيام لطفه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣) فترى الريف من منظور طفل أعمى يشب في عائلة فقيرة في إحدى قرى مصر، ويبدو الظلم الاجتماعي والتخلف الريفي واضحاً في تجربته الشخصية في معاناته الفقر والجهل والمرض الذي يسود صعيد مصر. فتموت شقيقته المحبوبة الصغرى جراء نقص العناية الصحية، ويصبح هو ضحية الجهل المدمر حين يفقد بصره نتيجة معالجة سيئة من أحد الأشخاص المحليين الجهلة لعدوى بسيطة في عينيه. وتبرز "الأيام" كرواية متميزة من خلال مناصرتها قضية العدالة والمساواة بصفتها مبادئ إسلامية، وأيضاً لعرضها وسائل التغيير. ويركز طه حسين على الجهل كسبب جذري لمعاناة الريف الذي يغطي على الصفات الحميدة في شخصية الفلاح، ويعيق أى خطوات للتقدم. وحين ماتت شقيقته أدان طه حسين جهل الأهل الذي تسبب في وفاتها وفي إصابته بالعمى.

"فالنساء فى القرى... لديهم فلسفة قاتلة، ومعرفة لا تقل إجراماً عنها. فالطفل يشكو ولكن الأم نادراً ما تهتم... وإذا اهتمت فهي إما تحتقر الطبيب، أو أنها جاهلة بوجوده أصلاً. وبالتالي فهي تعتمد على المعرفة القاتلة للنساء والأخريات من أمثالهن" (٦٥).

ويقدم طه حسين الحل الذي يتمثل في ديمقراطية التعليم من خلال مدارس مجانية ترعاها الحكومة. وكما يشير الفصل الذي كتبه ميساكو إيكيدا، فقد حارب بعنف كأديب ووزير للمعارف كى يعم التعليم الذي اعتبره حق طبيعى لكل إنسان مثل "الماء والهواء" (٦٦). فالعدالة والتعليم فقط هما اللذان يحولان بين حياة ممثلة تعاسة وجوعاً ومرضاً وانحطاطاً.

وفى تسجيلات لبعض السير الذاتية للمهنيين الذين يخدمون فى القرية يتم تفسير حقيقة الريف من وجهة نظر غرباء لديهم خلفية مدنية. وتتصف هذه الروايات بعدم معرفة الراوى بالحقيقة التى يعرضها. فالراوى غريب عن حياة الفلاح أى أنه شاهد بعيد، أو مراقب غير منغمس فى حياته. وبالتالي تصبح مصداقيته فى الحقائق التى يرويها قضية محل نقاش. وفى رواية توفيق الحكيم "متاهة العدالة" (١٩٤٧)

نرى الفلاحين - فى نظر وكيل النيابة الذى يحاول تحقيق العدالة فى المناطق الريفية - لغزاً غامضاً، حيث لا يمكن اختراقهم مثل الأحداث المعقدة فى القضايا التى يحققها. وحين يدرك عدم جدوى تحرياته يوقف التحقيقات، ويدفن القضية فى الملفات. وعكس رواية "طفل القرية"، فإن الصراع بين ممثلى السلطة والأهالى الريفيين يظهر من خلال وجهة نظر متميزة لأحد المسؤولين الغرباء عن القرية التى يمارس فيها عمله بأسلوب سلطوى.

ومثل قصة "الفلاح الفصيح" تصور الرواية المجموعتين التقليديتين فى المجتمع الريفي المصرى: الحاكم والمحكوم. إلا أنها تبرز هنا كخلفية مغايرة لـ "مناهة العدالة"، فالمحكمة فى رواية الحكيم تكشف عن انعدام الضمير عند القضاة، ونقص الأمانة عند الموظفين الذين يبنون قراراتهم على دلائل سطحية. فهم يتعاملون مع قضايا الريف دون أن يستمعوا إلى دفاع المتهم. وتتحول لهفة واشتياق طه حسين للعدالة إلى متهاتها فى أعمال توفيق الحكيم. فنرى وكيل النيابة محبطاً جراء فشله فى تحقيق النظام والعدالة فيه. ولأن القوانين والإجراءات المتبعة كانت موضوعة لمجتمع آخر وهو المجتمع الأوروبى حيث تم استيرادها دون تغيير، وفرضها دون مراعاة الخلفية أو التقاليد للمجتمع الجديد، فقد واجه وكيل النيابة حيرة الأهالى فى الريف الذين لم يستطيعوا استيعاب هذه الإجراءات القانونية والعقاب الذى لا سند له... وتصور واحدة من جلسات المحاكمة هذا الموقف:

"أنت متهم بغسل ملابسك فى التربة" ولكن يا سيدى - رفع الله قدرك - هل ستوقع على غرامة لأنى فقط غسلت ملابسى؟" بل لأنك غسلتهم فى التربة" حسناً وأين كنت تريدنى أن أغسلهم؟ وتردد القاضى وقد استغرق فى التفكير فلم يجد جواباً. فهو يعلم جيداً أن هؤلاء البؤساء ليس لديهم أى حمامات فى القرية تمتلئ بمياه متدفقة من الصنابير. فقد تركوا ليعيشوا مثل الماشية طوال حياتهم، ومع ذلك يفرض عليهم الانصياع إلى قوانين مستوردة من الخارج. وهنا استدأ القاضى إلى قائلاً: "ما هو رأيك يا رجل القانون؟" "قالولة لا يعنيتها أين يغسل هذا الرجل ملابسه. كل ما يعنيتها هو تطبيق القانون" (٦٧).

ويشير هذا الحدث إلى القصور فى عرض رؤية شخص ليس له دراية بمشاكل الفلاح وكفاحه الصامت، فالمؤلف يفتقد التوحد عاطفياً معه والإحساس بالزمالة والذي كان من الممكن أن يجعله يتفهم فكره ومشاعره.

ورغم تحمل الفلاح مصائبه دون شكوى، فإن الفلاحين المصريين كانوا دائماً يستجيبون إلى التحركات السياسية. فالنمط التقليدى للفلاح المدحور المطيع دائماً كان يخفى تيارات عنيفة من التمرد على الاستغلال والسلطة ثقيلة الوطأة. ففي الفترة ما بين ١٩١٩ و ١٩٥٢ كانت الجريمة فى الريف لها أبعادها الاجتماعية والسياسية التى تعكس رفضه للنظام السياسى الذى حاول الحكام فرضه، بالإضافة إلى الثأر من السلطة الاستبدادية. وفى كتابه "الجريمة فى مصر: أسبابها ووسائل معالجتها" يعرض محمد البابلى - وهو أحد القانونيين - رؤيته الشخصية عن الجريمة فى الريف والتى تحولت إلى قضية وطنية فى ذلك الوقت أشاعت الخوف فى نفوس الحكام. فقد عكست تحدى الأهالى لفرض الضرائب، ومصادرة الأرض الزراعية أو المحصول، وطرد المستأجرين، ورفع قيمة تأجير الأرض أو حتى "رفض تخفيض قيمة الإيجار الذى سبق الاتفاق عليه أو تأخير سداد الديون"^(٦٨). وكان تكرار اعتداء الأهالى على ملاك الأرض ووكلائهم من المسؤولين المحليين يومياً يكشف عن مقاومة الفلاح، وبراعته ودهائه فى التعامل مع أساليب القمع.

وواقع الأمر أن الاتهام الذى وجهته السلطات لما أسمته قوة الجريمة التدميرية، كان فى نظر أهالى القرى بطولة ومبادرات فردية لمواجهة الظلم. وكان تمرد الفلاحين يشكل مكوناً لا غنى عنه فى الأدب الشعبى الذى يفسره أحمد شوقى عبد الحكيم بأنه "مرآة للأحوال السائدة بين الأهالى، وانعكاس حقيقى لوجهة نظر الفلاحين فى الحياة"^(٦٩). ويكشف التراث الثقافى عن كيفية ممارسة الفلاحين للسياسة، فالملمحة التى أطلق عليها أدهم الشرقاوى أثارت تقليداً فى ريف مصر فى مواجهة الأحداث الاجتماعية والسياسية "بدعة أشخاص أو مجموعات ينقصها التناسق... تقوم بالهجوم على أعدائهم والتغلب عليهم"^(٧٠). وكانت هذه الأفعال تهدف إلى محاربة الأعداء فى

النظام القائم. وكان الدعم السلبي الذى تتلقاه هذه المجموعات من المجتمع الريفى، والاتفاق الجماعى الذى يشجع الانتقام، ورفض التعاون مع ممثلى الدولة قد حول هذه النشاطات إلى لحظات درامية ثورية فى تاريخ الفلاحين الذين كانوا أكثر من أى قطاع آخر فى المجتمع فى انتظار بزوغ مخلص لهم^(٧١).

وقد تركت قصة أدهم الشرقاوى - هذه الشخصية الفوضوية الريفية - أثراً لا يمحو فى وعى المصريين. انفجرت فى حياة أهالى القرى التى كانت تغلى كالمرجل، وهددت أفعاله العلاقات بين الدولة والفلاحين. "ثم جاءت ثورة ١٩١٩، وتحول أدهم وشريكه بدران إلى لصوص أمراء على طراز روبن هود من خلال محاربتهم للقوات البريطانية المحتلة، وملاك الأراضى الإقطاعيين المصريين. وبدلاً من السرقة من أجل السرقة، كانوا يسرقون من الأغنياء ليعطوا الفقراء"^(٧٢). ويدافع من تمرده على السلطة، وبحافز من استيائه مما كان الفلاحون يتعرضون له من آلام منذ مطلع القرن العشرين، كانت غارات أدهم الشرقاوى على منازل ملاك الأرض الأثرياء قد تجاوزت حدود الاهتمام الشخصى لتشمل اهتمامات اجتماعية وسياسية. كان مدفوعاً بقوة هائلة للبحث عن عدالة مفقودة، وتوزيع متوازن للثروات. فبرز كنموذج لثائر نبيل صنعتته صفاته الشخصية وليس مولده. ومن هذا المنظور فإن الأفعال العامة والحراك الذى حدث تحول من كونه عملية هدم اجتماعى ليصبح خبرات تعليمية فى تنظيم وتطوير الذات.

كانت إعادة الكتابة عن الفلاح أو إعادة تصويره قضية انغمس فيها كُتاب تلك الفترة محل الدراسة بمزيد من الجهود صاحبها الكثير من الخيال، وأدى ذلك إلى تأسيس واقع للريف تندمج فيه الأربع قواعد الأساسية للحبكة النموذجية فى الرواية الأدبية والتى يعرفها نورثروب فراى بأنها الكوميديا، والرومانسية، والتراجيديا ثم السخرية^(٧٣). فقد طرح واقع الريف أمام العديد من المثقفين صوراً ناقدة، وانطباعات من الحنين تتلاحم فيها الرؤية الذاتية - وإن كانت مجردة - مع الواقع بشكل ديناميكى.

بنت الشاطىء

أنثى مثقفة تتعامل مع المهمشين

فى نظرية النقد العربى، لا يعمل المثقفون من خلال فراغ اجتماعى سياسى. فقد كان دورهم الشائع يتحدد فى كونهم شخصيات ثائرة تتحرك لإيقاظ وعى مناهض للسيطرة، وكانوا رموزاً لقضايا الشعب كما كانوا آباءً للحركات الوطنية. ومن الصعوبة بمكان أن نجد ثورة رئيسية أو حركة تناهض الثورة دون أن يظهر فيها قياديون أو متحدثون باسمها يمثلون أدوات التحول الاجتماعى والتقدم. وقد أخذ هؤلاء على عاتقهم تحديد وتغيير النغمة السياسية والاجتماعية والأخلاقية السائدة فى تلك الفترة، على حساب المخاطرة بالسجن أو النفى أو الاستبعاد.

وتجسد عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء ١٩١٣-١٩٩٨) دور المثقفين الذين حاولوا تغيير الأوضاع السائدة ورفض وجهة نظر الآخرين^(٧٤). فقد أمضت ستين عاماً من حياتها فى كتابة مقالات بجريدة الأهرام، حيث بدأت عملها وهى فى الرابعة والعشرين من عمرها. فكانت تتناول القضايا المثارة فى زمنها ومنها الهجوم على الحكومة لأخطائها وأفكارها الرجعية. ورغم أن شعبيتها كانت تستند إلى إسهاماتها فى تفسير القرآن، والشهادات التى حصلت عليها فى الثقافة الإسلامية، فإن الهموم التى حملتها بشأن ما يتعرض له الفلاح من أهوال حددت بدء مهمتها الثقافية.

الريف المصرى

رؤية من الدخل

مع صدور كتابها "الريف المصرى" عام ١٩٣٦، و"مشكلة الفلاح" (١٩٣٨) برزت بنت الشاطىء كأول كاتبة مصرية تناصر قضية الفلاح فى أعمالها الطويلة. ويشمل كتابها مجموعة المقالات التى سيق نشرها فى الأهرام عام ١٩٣٥. وقد ساهمت هذه المقالات فى الجدل الصحفى حول الإصلاح الريفى والأحوال الزراعية فى أواخر الثلاثينيات والأربعينيات. وتعلق بنت الشاطىء على تأثير نشاطها فى هذا المجال بقولها:

"بدأت سنتى الثانية فى الكلية، وكتابى "الريف المصرى" يملأ المكتبات فى البلد، ودارت مناقشات فى الأوساط الثقافية حول حصولى على الجائزة الأولى فى المسابقة التى أقامتها الحكومة عن موضوع إصلاح الريف والفلاح، فى حين كان مجتمع الريف يصفق لانتخابى عضواً فى المؤتمر الأول للزراعة الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٣٦، والذى ضم كثيراً من الشخصيات القيادية فى هذا المجال"^(٧٥).

ولأن جذورها كانت تنتمى إلى القرية، فقد عرضت بنت الشاطىء رؤية من داخل الريف. ويجمع كتاب "الريف المصرى" ومشكلة الفلاح ما بين ملاحظات تجريبية عملية، وتوجه إلى فهم متعاطف مع الفلاحين. فنجد أن مقدمة كتابها تعرض صورتين: الأولى للحكم السلطوى والثانية للفلاح المهزوم. وتبدأ كتابها بإهداء إلى بطل روايتها فتقول: "إلى الفلاح المصرى الذى سيكون أول من يرى الحقيقة فى كلماتى، ويلمس القلق الذى يحتوى هذه الصرخة التى تأتى من أعماق روح كانت شاهدة على آلام لن تنساها أبداً". إلا أنه مع اعتماد المثقفين على الدولة لتحقيق أجندتهم، كان من المحتم عليها الاعتراف بمكانه الدولة فى مواجهة موضوع البحث. وبالتالي فهى توجه تحية إلى الملك فاروق (١٩٣٦-١٩٥٢) - بعد إهدائها للفلاح - لجهوده المتواصلة لدعم الفلاحين^(٧٦). فقد كانت الكتابة عن الفلاح فى ذلك الوقت لها قيود تفرضها السلطة، وكان الكشف عن بشاعة معاناتهم تعنى إدانة للنظام. مما استتبع أن يتم ذلك بطريقة غير مباشرة لتجنب العقاب. فكان استرضاء السلطة وسيلة لتحاشى اللوم.

وفى مرحلة من تاريخ مصر تتميز بوعى متزايد بالذات وبالأمة، وفترة كانت الدولة فى سبيلها إلى العثور على طريق التطور والتقدم، كانت بنت الشاطىء الصوت المعبر عن الجماعات المهمشة فى المجتمع، أى الشريحة البعيدة عن المسار الرئيسى، وكان الوقت قد حان أمام هؤلاء الذين يريدون المساعدة فى هذا المجال أن يعمقوا فهمهم لمن يريدون مساعدتهم. ولذلك كانت أعمالها تتناول سياسات التهميش الاجتماعى، خاصة فيما يتعلق "بالتمييز بين الطبقات، والإعالة، والتهميش"^(٧٧).

ويقدم كتاب "الريف المصرى" و"مشكلة الفلاح" خبرة بأساليب التهميش الاجتماعى ترتبط بالفقر وغياب العدالة الاجتماعية، كما يقدمان استراتيجية لقراءة المناطق الريفية تتوجه إلى المواطن الذى كان صامتاً طوال التاريخ. وتعتبر بنت الشاطىء عن ذلك بقولها فى أسى:

"ماذا فعلنا للريف، وما هى الخدمات التى قدمناها له؟ فمن المثير للسخرية أن الحكومة والمواطنين ساهما سوياً فى اضطهاده. لقد جعلناه موضوعاً للتهكم والاحتقار، ونسينا أن حملة الطين - كما أطلقنا عليهم - هم الذين جعلونا نستمتع برفاهية الحياة. ماذا قدمت الحكومة لهم؟ هل أمدتهم بمياه نظيفة يشربونها؟ هل أنشئت مستشفيات لعلاجهم أو مدارس لتعليم أولادهم أو مساكن صحية يعيشون فيها؟ كلا لم يحدث شئ من ذلك".

دافعت بنت الشاطىء عن هؤلاء الذين لا حول لهم ولا قوة، وعن القضايا التى تم تجاهلها بطريقة روتينية "لقد حان الوقت لأن نخرج الأحياء من ريف مصر من قبورهم"، وأن نوقظ وعى الجماعات الخاضعة التى تعرضت للقمع. ثم تلاحظ بخيبة أمل:

"لقد كنا عاقين إلى أبعد الحدود... فقد مجدنا النيل الخالد، وقدرنا قيمة عطائه، ولكننا نسينا تلك الأيدى التى زرعت الأرض وأنتجت المحاصيل... هؤلاء الذين جعلونا نستمتع بخيرات النيل، لقد أهملنا الفلاحين الذين كان ولائهم للأرض وكدهم سبباً فى ازدهارنا وتقدمنا... الناس الذين جسدوا معجزة النيل، وحولوا شواطئه إلى جنة على الأرض"^(٧٨).

ووسط التناقض بين القوى الحاكمة وأهالى الريف تصفى بنت الشاطىء إلى حنين تلك الفئة من أفراد المجتمع الذين عجزوا عن التعبير عن طموحاتهم^(٧٩)، وتركز على الأحوال التى جعلت أصواتهم تذهب سدى. وقد عكست صورها الوصفية المليئة بالتفاصيل إيقاع نمط الحياة فى الريف، كما أنها هاجمت جميع قطاعات المجتمع لفشلها فى تقدير تضحيات الفلاح، وإغماض عيونهم على الخراب الذى يحدث لهم.

كان لظهور المرأة المفكرة فى الساحة الثقافية أثره العميق فى عرض حقيقة أوضاع الفلاح. وقد حددت كتابات بنت الشاطىء مرحلة بارزة فى تطور وعى مصر بأهالى الريف. وكانت مقالاتها النقدية تتبع ثلاثة محاور: "معاناة الفلاح" - متى سيصحو؟، و"إصلاح القرية" والتي شخّصت أمراضها وأهمية علاجها، بالإضافة إلى اقتراح المشروعات الإصلاحية الزراعية، والصحية والتعليم. والملاحظ أنها تلح فى طلب حلول عاجلة لحالة الفلاح السيئة فتكتب بكل عنف وقوة:

"لا أستطيع أن أظل سلبية معقودة اللسان حين أرى هذا الطوفان من البؤس الذى يغرق حياة الفلاح فيخنق بداخله كل الحيوية والأمل... فأنا أقدح زناد فكرى حتى أجد كلمات أقوى أعبر بها عن محنته، ولكنى لا أجد شيئاً يقال، استمعوا إلى صرختى وشكواى! أتوسل إليكم أن تنتقدوا ريفنا".

وهنا تبدو لنا بنت الشاطىء كواحدة من أهم المفكرين وعياً بالتحليل الاجتماعى. وحينما نصحبها طبيبها المعالج بالتوجه إلى إحدى القرى التماساً للهدوء والتغلب على قلق وتوتر حياة المدينة، كانت تجربتها فى الريف مصدر توتر أكبر:

"لقد وصلت إلى الريف وأنا أحس بالاستنزاف والإرهاق. وغادرت وأنا مثبّطة الهمة محملة بشعور من الاكتئاب... ورغم أن جمال الطبيعة فى الريف ألقت بسحرها على، فإننى أزحت هذا الشعور جانباً ونظرت حولى لأفحص هذا المشهد البغيض: فبجوار الزراعات المزدهرة المحملة بالزهور والفواكه اكتشفت أجساداً هزيلة أثقلتها الأمراض، واكتشفت الإرهاق والعذاب، فوسط الحقول الياضعة تنتشر المستنقعات التى تهدد الحياة وهى تملأ الجو المنعش برائحة كريهة منفرة"^(٨٠).

وهذا التناقض بين فكرتها المثالية المسبقة عن الريف والواقع الحى للحياة به، فتح عينها على الحقيقة فبدأت فى محاولات لإعادة تأهيل أحوال الفلاح من خلال الكشف عن محنته وبلائه. وما بين تذبذبها أحياناً بين الرومانسية والواقعية الاجتماعية تتبنى كتاباتها اتجاهاً مدروساً لمشاكل الفلاح. فهى تعتقد أن: "أجمل إشراقة للشمس تسطع

على أكثر الناس بؤساً... فبدلاً من أن ترتبط كلمة "فلاح" بثراء لا ينقطع، وبكنوز وموارد كثيرة أصبحت الكلمة مرادفة لكل ما توحى به معانى الفقر المدقع، والإذلال، والخزى، والجوع، والمرض. "كما تصف وتحلل أيضاً الجوانب المختلفة للبناء السلطوى فى نفس الوقت الذى تمكن فيه واقعية الكتاب القارئ من امتصاص خبرة الفلاح التى يكتسبها فى عالمه الشخصى.

حاولت بنت الشاطى أيضاً أن تثير فى نفس القارئ الإحساس بالذنب حتى يبدأ التغيير. وكانت أول رؤية لها لمعاناة الفلاح قد أصابتها بالفزع، فتقول "يا للهول! يا للهول! يجب أن أفعل شيئاً، فلا يمكننى أن أتغاضى عما رأيته". وتتكرر تحذيراتها خلال أعمالها فتكتب: "فليرحم الله الفلاح! بل فليرحمنا نحن وليرحم الجيل القادم الذى سوف يواجه بمستقبل مخيف إذا ظلت أوضاع الريف كما هى... بأسفة مهمة... وسوف نضمن مستقبلاً أحسن لأولادنا وأحفادنا إذا أدينا واجبنا نحو الفلاح."

"إن أغلب الأغنياء ونوى السلطة لديهم اهتمام شخصى بالفلاح الذى يزرع أراضيهم وبالتالي يحافظ على تدفق الثروات فى حساباتهم بالبنوك... ومع ذلك فلنا أن نتعجب ونتساءل، لماذا لا تدفع هذه العلاقة ملاك الأرض إلى تصحيح أوضاع الفلاح، وتحفزهم على الاهتمام بصحته ورعايته فى حين أنه مصدر ثروتهم"^(٨١).

وتستمر بنت الشاطى فى مناقشة الأفكار المسبقة، فالمثقفون هم مرآة المجتمع، ثم تصور بحدة المشاعر الأبية والنفاق فى الأغنياء:

"يجب علينا أن نفهم أن تعديل أوضاع الفلاح لن يكتمل أو يصبح ذا فائدة طالما أن المخططين له بعيدون عن واقع الريف. فهم يناقشون الكفاف والحرمان الذى يعانى به الفلاح وهم جالسون حول موائد تمتلئ بأطايب الطعام، أو وهم مسترخون فى مقاعدهم المريحة فى منازلهم الأنيقة".

وترسم بنت الشاطى صورة لحياة الطبقة العليا التى تمارس حياة الكسل والفراغ على حساب الفقراء: "لقد أخذنا كفايتنا من المحصول دون أن نلقى بالاً إلى الشخص الذى أنتجه". فالأمراض الاجتماعية المهيمنة والناجمة عن غياب العدالة كانت السبب

فى تفاقم الفقر والمرض والجهل فى حياته، إلا أن عملية التطوير كانت بحاجة إلى تأكيد تحقيق التوازن الديناميكي بين النظام والتغيير والعدالة الاجتماعية. فتجاهل هذا التوازن كان من الممكن أن يؤدي إلى تفسخ اجتماعى. وتؤكد بنت الشاطىء أن "الغالبية العظمى من الفلاحين الضعفاء المرهقين يُستعبدون ويكحون تحت أشعة الشمس الحارقة لتلبية رغبات القلة... فإذا لم نهتم بتعاستهم، وإذا انهارت مقاومتهم تحت وطأة ما يعانونه من شدة، فسوف نهلك جميعاً" (٨٢). وبهدف تعديل الأوضاع الريفية المهمة حاولت كتاباتها التأثير على قرارات صناع السياسة الأقوياء للتدخل بفاعلية وإقناع السلطة اللامبالية بتوجيه اهتمامها إلى احتياجات الفلاح. وتذكر بنت الشاطىء قراءها:

"كم منا يعى أن حفر قناة المحمودية عام ١٨١٩ تسبب فى وفاة اثنى عشر ألف فلاح بسبب استخدام العمال السخرة فى الأعمال العامة والزراعية... وهذه حقيقة دامية... ومع ذلك تسير الحياة كعادتها... فقد تعودنا أن نقرأ عن تكلفة المشروعات ولكننا لا نعرف شيئاً عن الأرواح التى تزهق، والمخاطر الناجمة عن أعمال السخرة والتى تتعرض لها العائلات نتيجة اضطراب عائلها للعمل دون أية مكافآت أو تعويضات" (٨٣).

كرس "الريف المصرى" و"قضية الفلاح" موضوعاتهما على تصوير معاناة أهل الريف وألامهم وكفاحهم ضد كل ما هو فى غير صالحهم. إلا أن الهدف النهائى للكتابين كان تقويم الوسائل التى استغلت ضعف الفلاح. وقد جاهدت المؤلفة لتلفت نظر المسؤولين على جميع المستويات إلى أوضاع الفلاحين كشريحة مهمة تم تجاهلها من المجتمع. ويطرح "الريف المصرى" أيضاً الصورة البشعة للقدارة التى يعيش فيها الفلاح فى مقابل توقعات مشجعة وممتلئة بالأمل تستقيها المؤلفة من نماذج محلية وغربية... وتصنع بنت الشاطىء رؤية لحل الكثير من المشكلات عن طريق تجديد الريف من خلال إعادة بناء القرية، وبالتالي تجد نموذج بهتيم التى شيدتها الجمعية الزراعية الملكية عام ١٩٢٢ الصورة المثالية للريف فى خيالها. وكان هذا المشروع رائداً استبدلت فيه البيوت المظلمة القذرة المصنوعة من الطين والتى تنقصها النوافذ والمراوح والمياه

النظيفة والتي تشارك الحيوانات فيها ساكنيها بمبان أخرى جيدة التهوية، وصحية وجذابة. وكان تخطيط هذا النموذج الأولي:

"يضع فى اعتباره المشاكل التى تعاني منها البيوت الريفية. وكانت بداية هذا المشروع من خلال شخص وثيق الصلة بواقع الريف، فقد نشأ فيه، وتحمل كطفل كل قسوة ومعاناة الفلاح. وكان هذا التقمص العاطفى هو الذى زرع بذرة مشروع واقعى نشأ ونما مع تقدم الطفل فى العمر"^(٨٤).

وبدلاً من أن تبدو الدولة فى صورة المغير على الأحوال الداخلية للفلاح ومحاولة تدمير تقاليده وأسلوب حياته، كانت التصميمات نابعة من داخل القرية، متناسقة مع احتياجاتها وبالمشاركة مع أهلها أنفسهم. وقد أدى تدشين بنت الشاطىء لبرنامج وطنى لإعادة بناء الريف إلى بعث جديد للفلاح ولتقديره لذاته.

ويعبر كتاب "الريف المصرى" عن العلاقة بين مضمون الكتاب والوعى العام. وفى إحدى الفصول تشير بنت الشاطىء إلى قضية النوع (ذكر/أنثى) فتقول: "أخشى أن يتهمنى البعض قد بالمبالغة بحجة أن الفتيات لديهن خيال خصب ويجنحن إلى التهيؤات"^(٨٥). فهى تدرك تماماً أهمية تركيز القراء فيما تكتبه، وأهمية مساهمتهم فى الأسئلة المثارة، كما أنها تعتبر ردود أفعال القارئ واستجاباتهم للعمل حين نشر لأول مرة جزءاً أصيلاً فيه. وفى "إصلاح الريف المصرى" يعلق أحد القراء قائلاً:

"فى زيارتها للقرية، استطاعت بنت الشاطىء أن تتعرف تماماً على مأساة الفلاح، ومع ذلك فإن ما تصوره لا يعدو أن يكون جزءاً ضئيلاً من حقيقة الكارثة التى نتحملها نحن الذين نعيش فى ريف مصر... وبصفتى واحد من الأطباء الذين شبوا فى القرية واهتموا بدراسة الأوضاع الصحية بها، أريد أن أكمل الصورة بنتيجة أبحاثى".

وقد تبلورت الأبعاد المتعددة لهذا الموضوع من خلال ردود الأفعال التى حملت رؤى متغيرة، ومفاهيم وذكريات بالإضافة إلى بعض الأحكام والنقد. وكان التوجه إلى ما يربط القارئ بالمضمون هو الذى جسد مدى حجم الاستجابة لهذا العمل. وقد شجع هذا الاكتشاف المفاجئ أحد القراء ليعلق قائلاً: "إنى أضم صوتى إلى صوت بنت الشاطىء،

وأناشد ضمير الشعب، ألم يحن الوقت للنهوض والتحرك قبل فوات الأوان؟" ويطالب الكتاب القراء التخلي عن حماية المفاهيم المسبقة المعتادة. وينقل الجزء المعنون "صوت الفلاح" تطابقاً بين أهداف الكتاب وتوقعات الطوائف الاجتماعية. فيقول واحد من سكان القرية:

"لقد تابعت في الماضي المقالات التي نشرت في الأهرام والتي تتناول مشكلات الريف، وللأسف لم تتضمن واحدة منها حلولاً عملية أو حتى تقنع القراء بأن لها اهتمامات حقيقية بمعاناة الفلاح. وقد انتهيت إلى أن كل هذه الكتابات ما هي إلا مجرد خطب تبحث فقط عن استرضاء وتهدة الرأي العام. حتى وقعت عيناى على أعمال بنت الشاطىء، وفي تلك اللحظة فقط استطعت أن ألمح بصيصاً من الأمل فى حدوث تغيير ما" (٨٦).

وبذلك تمكن المثقفون من خلال إنجازاتهم الثقافية وشهرتهم فى حشد الآراء حول الصراع الدائر لإصلاح المجتمع. وكانت روح التنافس فى "الريف المصرى" وقضية الفلاح وراء هذا الحراك، حيث لعبت هذه النوعية من الأدب دوراً سياسياً مهماً فيما يتعلق بسيطرة الثقافة، وصراعها من أجل الجماعات المهمشة سيئة الحظ.

الخاتمة

ما بين عام ١٩١٩ و١٩٥٢، يبرز الواقع الريفى فى مصر كمكان يحمل الكثير من المتعارضات أكثر من كونه منطقة إقامة وسكن. وقد ساعدت رياح الإصلاح والبعث الجديد على تأكيد عزلة وتبعية الفلاح، كما وسعت الفجوة بين قوى سلطات الدولة آنذاك والشعب سيئ الحظ الذى يرزح تحت وطأتها. وقد شملت استراتيجية سلطة تقرير المصير لديهم منهجين متشعبين، فتراح ما بين ثورات الأهالى العنيفة ضد الظلم والمعاناة الاقتصادية من جانب وبين المقاومة السلبية من خلال صبر الفلاح وتحمله وزهده واستسلامه من جانب آخر. وكان تعامل الفلاح الدائم مع ضعفه أمام الخراب

الذى يقع عليه، وقلة حيلته أمام الحكومات الظالمة المتتابعة قد ولد لديه أشكالاً مختلفة من مهارات القدرة على البقاء حياً. ويبدو أن الفلاح يلخص داخل ذاته كل الشقاء الذى تعرض له الإنسان بعد طرده من الجنة، ومع ذلك فقد منحه الله هبة إلهية تتمثل فى القدرة على البقاء حياً^(٨٧). فرغم تعرضهم المستمر للتهديد، فإن الفلاحين المصريين كانوا دائماً يتجاوزون محنتهم فقد ظلوا هادئين ساكنين كأعماق البحر أثناء هبوب العاصفة... فهم يملكون القدرة على الصمود والتحمل مثل الجرانيت الذى يشكل معابدهم^(٨٨). بل إن النشاط السياسى الحقيقى كشف فى واقع الأمر عن طبيعة الفلاح المستسلمة ولكنها تقاوم، والتي تتحلى بالصبر ولكنها تتميز بالصلابة.

وينسب الحوار الدائر حول الريف بصفة عامة إلى العصر الليبرالى فى مصر، ففى مواجهة ندرة التفسير النقدى للمجتمعات الريفية، تولد احتياج ملح لوجود دراسات تساعد فى فهم الفلاحين إلى الدرجة التى تمكن من فاعلية التغيير، وإيجاد تواصل مؤثر مع الفلاح بصفته المستفيد المباشر من اقتراحات الإصلاح الزراعى. فقد كان أهالى الريف بحاجة إلى المثقفين الذين لديهم الخبرة فى عرض الموضوعات ليكونوا الأصوات التى تدعو لقضيتهم، والوسطاء بينهم وبين السلطة الحاكمة. وقد أثر سيل الدراسات التى تعرضت للبيئة الريفية وتحليلها فى جيل من المثقفين المصريين الذين خاضوا هذا المجال، كما استفادت القضية أيضاً من الدور الذى لعبته الصحافة فى نشر الأفكار والخبرات خلال تلك المرحلة ما بين الثورتين.

وقد تصاعد اهتمام المهنيين فى جميع المجالات بأهل الريف وأوضاعهم كمفتاح لفهم وتطوير مصر. فقد كان إصلاح المجتمع يعنى ضم الطبقات المهمشة داخل المنظومة السياسية، كما كان الطريق إلى الحداثة يفرض دمج الطبقات الريفية الدنيا فى مراحل خطواتها. فظهر الاهتمام بواقع الريف "كحقل للتجارب والمعرفة" و"هدف واضح لمجموعة من النظريات والتوصيف"^(٨٩) ضمن إطار المنهج الليبرالى لسياسات البرلمان ونظام التعددية الحزبية الذى يدور فى إطار تجميع الشعب حول مبادئ عامة،

والتوسع فى المجال المتنامى للإصلاح القوى، وأيضا متطلبات النهضة، وظهور الوطنية. وكان تناول هذا الموضوع ضمن الحراك الذى استهدف إعادة إحياء الأمة كما كان تزايد الاقتراحات حول تحسين أوضاع الفلاح نابعاً من الحوار حول الحداثة وأفكارها النموذجية السياسية والاقتصادية ومفهوم العدالة الاجتماعية الذى تغلغل فى الجو العام السائد فى هذه الحقبة.

إلا أن محاولات الإصلاح كانت فى أغلبها غير مؤثرة، فمن جانب المصلحين كان الولاء للحزب وليس للحكومة. أما المصلحون من ملاك الأرض فقد كانت مشاعرهم تتجه أكثر للمؤسسات المالكة مما أعاق قدرتهم على اعتبار الفلاح فاعلاً وليس مفعولاً به. ويقول لويس عوض "إن النظرة إلى البلوريتاريا (طبقة العمال) كمجموعة من الفوائد المادية يجعل المثقفين يتناسون أن أهم صفة فى العامل أو الفلاح أنه إنسان"^(٩٠). هذا بالإضافة إلى أن صياغة الوسائل الرسمية المؤدية لذلك كانت صياغتها بعيدة عن حياة وأفكار الفلاح، وتتفق أكثر مع نماذج سابقة. ويعلق عيروط بقوله: "وسواء كان اهتمامهم بالصحة أو التعليم، والزراعة أو العدالة، فقد كانت كلها نابعة من نظريات دول أخرى ومن محاولات محاكاتها أكثر من كونها وليدة معرفة عملية بالأوضاع القائمة فعلاً"^(٩١). وواقع الأمر أن الجهود التى بذلت لتعديل أوضاع الفلاحين كانت بادرة من سياسة الدولة وليس من خلال الفلاح نفسه، وأن السبب فى تضيق تنفيذ مشروعات الإصلاح الزراعى كان "سياسة النخبة فى البلاد" و"النظام السياسى الشخصى" الذى كان يتحدى نظام الحكم الدستورى^(٩٢). ورغم ظهور الحركة الليبرالية فإن اتخاذ القرار كان يتم من خلال حفنة من الأشخاص نوى النفوذ القوى وبأقل تفاعل مع الجماعات المتباينة.

ويعكس ولع الطبقة المثقفة باكتشاف عالم الريف، الهوية الجماعية القوية التى تطرحها القرية أمام مجموعة المثقفين. وفى مضامين الكتب التى نشرت فى هذا الصدد، يخضع عالم الفلاح لأشكال عدة من الشرح والتفسير، ويبدو أن تأسيس بناء كل شكل

منها فى ظل صور سابقة حيث كان تمثيل الريف فى القصص الروائية يشكل مساحة واسعة تبحث عن اكتشاف حقيقة متعددة الأبعاد. كما يشير إلى محاولات استيعاب المفاهيم المتغيرة لأهل الريف سواء على المستوى الاجتماعى أو الثقافى أو السياسى... ومن خلال تصفية وعى الكاتب الذى يقف بين القارئ والفلاح، كانت الصور والأشكال تحمل جزءاً من الحقيقة، وتعكس شريحة من خصائص كل ظاهرة دون أن تسمح للحقيقة الأصلية بالظهور كاملة، فقد كان واقع الفلاح أكثر ثراءً وأكثر تعقيداً من أن يمثل فى صورة واحدة.

كانت الصور المعبرة عن جغرافية الريف المهمة متخمة باتجاهات تقصى الفلاح بعيداً... فقد عزلت الفلاح اقتصادياً عن بقية المجتمع. وكانت سلسلة المشاهد له تعبر عنه كموضوع له معانٍ ثابتة، وتعبر أيضاً عن واقع الريف كبناء مكون من مجموعة من الأفكار التجريبية، وكان التذبذب بين وضع الفلاح فى صورة مثالية وبين الانتقاص من قدره تفرز منظومة خاصة لوصف الحياة فى الريف أما بما يوحى بجو من الرضا والطمأنينة أو برسم صورة أخرى ساخرة تتعامل مع الفلاح باستعلاء وعجرفة بصفته واحداً من الرعاى الجهلة. وفى سياق آخر كان الفلاح يوضع فى مكانه المناسب فى القصص التى تتناول التحرير الوطنى، فقد كان صورة للشخصية المصرية الحقيقية حين يشكل ذلك ضرورة سياسية أو وطنية. فإذا استقطعنا من حسابنا مصالح الفلاح المختلفة، وتجاوزنا عن أحمالهم ومعاناتهم المضاعفة، نجد أن الأحاديث والخطب القومية لمجموعة من الشخصيات الجدد، ترفع الفلاح إلى مرتبة وطنية عالية، وتصور الفلاحين كطبقة أصلية فى المجتمع، بالإضافة إلى أنها تمجد ثقافة الفلاح كمصدر للثقافة الوطنية.

ولأن بنت الشاطى كانت تمثل ظهور المرأة المثقفة ذات الجذور الريفية فى طبقة المفكرين، فقد أخذت على عاتقها رفع معاناة أهل الريف وتخلفهم. وقد ساعدها ذلك على الدخول فى عالم الرواية التى تتناول المهمشين. كما أن ربود الفعل عن كتاباتها

عن ريف مصر أكد مدى احتياج مجتمع القرية إلى المثقفين للمساهمة في تنميته. وكانت بنت الشاطئ دائمة البحث عن نظام اجتماعي متطور، فكانت الخدمات النموذجية، والتعبير عن قضية الفلاح الحافز لها لمانشدة المجتمع اختيار الوسائل المناسبة للتحرك. فأصبحت محاولاتها الثقافية قوة تجميعية لمنهج تنفيذي جماعي. ومع ذلك تبقى واحدة من القضايا الملحة أمام مصر في عصرها الليبرالي وهي كيفية الوصول بالمثقفين الذين أعطوا هذه القضية اهتمامهم وولاءهم بصورة متواصلة إلى نقطة اتخاذ القرار، وكيفية وصول النتائج المنطقية، والحكم الأخلاقي إلى حيز التنفيذ وتحقيق الثمار المرجوة.

الهوامش

- (١) نعمت أحمد فؤاد "شخصية مصر" (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢)، ١٩، عفاف لطفي السيد مارسو Egypt's Liberal Experiment: 1922-1939 (لوس أنجلوس: جامعة كاليفورنيا، ١٩٧٧)، ١٠.
- (٢) عبد الرحمن الرافعي "مصطفى كامل"، الطبعة الرابعة (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢)، ١١٣.
- (٣) سلما بوتمان Egypt from Independence to Revolution, 1919-1912 (نيويورك: مطبعة جامعة سيراكيوز، ١٩٩١)، ١٣٦، ٣.
- (٤) توفيق الحكيم "عودة الروح"، الجزء الثاني (القاهرة: مطبعة الرغائب، ١٩٣٣)، ٢١٤.
- (٥) طه حسين The Days ترجمة إى. إتش. باكستون وآخرين (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية، ١٩٩٧)، ٣٩٨.
- (٦) عبد الرحمن الرافعي "فى أعقاب الثورة المصرية" الجزء الثاني (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٩)، ٢٦٩-٧١، ٢٨٣-٨٧، ٢٩٠-٩١، ٢٣٤-٣٥، ٣٥٢-٥٧، ٢٦٠-٦٤.
- (٧) عفاف لطفي السيد مارسو Egypt's Liberal Experiment، ٢.
- (٨) حسين كامل سليم، Twenty Years of Agricultural Development in Egypt (القاهرة: وزارة المالية، مصر، ١٩٤٠)، ٦٦-٦٧.
- (٩) محمد عبد الجواد، "فى كُتاب القرية" (القاهرة: دار المعارف، ١٩٣٩)، الرافعي "فى أعقاب الثورة المصرية ثورة ١٩١٩" الجزء الأول (القاهرة: كتاب الشعب، ١٩٦٩)، ٢١٧، مارسو Egypt's Liberal Experiment، ١١١.
- (١٠) قدرى حلاجى "سعد زغلول" (بيروت: n.p.، ١٩٤٨)، ٩٦.
- (١١) سيد العشماوى "الفلاحون والسلطة فى ضوء الحركات الفلاحية المصرية" (القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠١)، ٦٩-٧٠.
- (١٢) على بركات "الملكية الزراعية بين الثورتين ١٩١٩-١٩٥٢" (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاقتصادية، ١٩٨٧)، ٨٩.
- (١٣) السيد مارسو Egypt's Liberal Experiment، ١٠-١١.
- (١٤) ألبير حوراني، Age Arabic Thought in the Liberal 1798-1939 (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٢)، ٢٠٩.
- (١٥) حسن محاسب "قضية الفلاح فى القصة المصرية" (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٧١)، ٥٠.

- (١٦) على بركات "الملكية الزراعية بين الثورتين"، ٨٨-٨٩ .
- (١٧) حسن محسب "قضية الفلاح في القصة المصرية"، ٦١، عبد الرحمن الرافعي "في أعقاب الثورة المصرية" الجزء الثاني، ٧٢ .
- (١٨) الرافعي، الجزء الثاني، ١٢٠، ١٢٧، جيمس مايفيلد Rural Politics in Nasser's Egypt: A Quest for Legitimacy .
- (أستين: مطبعة جامعة تكساس، ١٩٧١)، ٥٢، على بركات "الملكية الزراعية"، ٩٤-٩٥، فتحي عبد الفتاح "القرية المصرية" (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١)، ١٨٧، تيموثي ميتشل، Rule of Experts: Egypt, Techno-Politics, Modernity .
- (لوس أنجلوس: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٢)، ١٢٧-٢٨ .
- (١٩) عبد الرحمن الرافعي "في أعقاب الثورة المصرية ثورة ١٩١٩"، الجزء الثالث (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٩)، ١١٨-١٩، ٢٤٢ .
- (٢٠) تيموثي ميتشل Rule of Experts: Egypt, Techno-Politics, Modernity، ٢٠ .
- (٢١) فتحي عبد الفتاح "القرية المصرية"، ١٦١ .
- (٢٢) أحمد لطفى السيد "قصة حياتي" (القاهرة: دار الهلال، ١٩٨٢) .
- (٢٣) حافظ عفيفي "على هامش السياسة" (القاهرة: مكتبة دار الكتب المصرية، ١٩٣٨) .
- (٢٤) ميريت بطرس غالى "الإصلاح الزراعي، الملكية، الإيجار، الأمل" (القاهرة: دار الفصول، ١٩٤٥)، ٣ .
- (٢٥) حسين كامل سليم Years of Agricultural Development in Egypt (القاهرة: وزارة المالية، مصر، ١٩٤٠)، ٦٦-٦٧ .
- (٢٦) للتحليل المفصل والتقييم الإحصائي لملك الأراضي وجهات النظر للإصلاح الزراعي من أعضاء الأحزاب الممثلين في البرلمان، انظر: جابريل بير A History of Landownership in Modern Egypt 1800-1950 (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٢)، ٢٠١-١٥ .
- (٢٧) ميريت بطرس غالى The Policy of Tomorrow، ترجمة إسماعيل الفاروقى (واشنطن العاصمة: المجلس الأمريكى للجمعيات العلمية، ١٩٥٣)، ٩٩-١٠٠، ١٠٢ .
- (٢٨) حافظ عفيفي "على هامش السياسة"، ١٠ .
- (٢٩) هنرى أيروط، "الفلاحين" The Fellaheen (١٩٣٨)، ترجمة هيلارى ويمان (القاهرة: مطبعة آر. شيندلر، هايبيريون، ١٩٤٥)، ٢٢ .
- (٣٠) ناثن براون Peasant Politics in Modern Egypt: The Struggle Against the State (نيوهافن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩٠)، ١٥٩، ١٦١-٦٢، فتحي عبد الفتاح "القرية المصرية" ١٨٨-٩٠ .
- (٣١) بدأ ظهور جنين الشيوعية وحزب العمل الاشتراكي في عام ١٩٢٠، ونجحوا في استقطاب دعم العمال في الحضر. وفي الواقع ظهر الاهتمام بقضية الفلاحين بعد سنوات الحرب العالمية الأولى عندما بدأت الحركة العمالية الصناعية في مصر تدعو عام ١٩٢٢ ولأول مرة للإصلاح الزراعي وتحسين نصيب الفلاح. وأكد نضال العمال للحصول على حقوقهم وعلى الظلم الواقع على العمال الزراعيين. وقامت منظماتهم بصياغة خطط واضحة وعملية لعبت دوراً حيوياً في إثارة الغضب على الظلم.

- (٣٢) أحمد صديق سعد "مشكلة الفلاح (القاهرة: دار القرن العشرين، ١٩٤٥)، ٢٧-٢٨ .
- (٣٣) جيمس مايفيلد Rural Politics in Nasser's Egypt، ٥٢، كريستينا فلبس هارس، Nationalism and Revolution in Egypt: The Role of the Muslim Brotherhood. (لندن: موتون وشركاه، ١٩٦٤)، ٢٠١ .
- (٣٤) يوسف الشربيني "حظ الكهوف في قصيدة أبي شادوف (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٠٦٣)، ٥: ٢٦-٢٩، ٦: ٢ .
- (٣٥) مقتبس لصبرى حافظ، The Genesis of Arabic Narrative Discourse: A Study in the Sociology of Modern Arabic Literature. (لندن: كتب ساكى، ١٩٩٣).
- (٣٦) كأتمثلة قليلة، تشمل مواضيع اهتمام النديم وقوع الفلاحين فريسة للدجالين والنصابين، وإغفال المحاكم عن سكان الريف، والآثار المترتبة عن الهجرة إلى المدينة على المرأة الريفية، بما في ذلك مشاكل التحول الاجتماعى والثقافى. وكثيراً ما كان يعرف الفلاح كمركز للمرض أو العدوى كما فى "المشعوذ المحتال والفلاح" The Crafty Swindler and the Peasant، و "المرابى الغبى والفلاح الماكر" The Stupid Usurer and the Cunning Peasant فى "التنكيت والتبكيك"، ٦، ١٧ يوليو ١٨٨١، و"الحامى الجاهل والفلاح الأحمق" Ignorant Lawyer and Foolish Peasant.
- فى "التنكيت والتبكيك" ٨، ٢١ يوليو ١٨٨١ .
- (٣٧) سعد الخادم History of the Egyptian Novel, Its Rise and Early Beginnings (فريدريكتون NB: مطبعة يورك، ١٩٨٥)، ٢٣ .
- (٣٨) يوسف حنا "الدعوة إلى الأدب القومى" السياسة الأسبوعية، ٩ أغسطس ١٩٣٠، ١٠ .
- (٣٩) مقتبس لإسرائيل جرشونى وجيمس جانكوفسكى Redefining the Egyptian Nation, 1930-1945 (نيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٥)، ١٠٧ .
- (٤٠) سلامة موسى "مختارات سلامة موسى" (القاهرة: ١٩٢٦)، ١٩٥، توفيق ميخائيل تويج "تطور الأدب المصرى وأغراضه" السياسة الأسبوعية، ٢٥ مايو ١٩٢٩، ١١٨ .
- (٤١) إسرائيل جرشونى جيمس جانكوفسكى، Egypt, Islam. and the Arabs: The Search for Egyptian Nationhood, 1900-1930. (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٧)، ٢٠٦، عباس العقاد "ساعة بين الكتب" (القاهرة: n.p.، ١٩٢٩)، ١٠٦-١١٢، ١٣ .
- (٤٢) إبراهيم المصرى "وحى العصر" (القاهرة: n.p.، ١٩٣٥)، ٦١ .
- (٤٣) توفيق الحكيم "عودة الروح" الجزء الثانى (القاهرة: مطبعة الرغائب، ١٩٣٣)، ٢٣-٢٤ .

- (٤٤) هنرى عيروط "الفلاحين"، ١٤١ .
- (٤٥) "الصخرة" ٢١ أكتوبر ١٩٣٣، ٥ .
- (٤٦) حسين هيكل "زينب، مناظر وأخلاق ريفية" (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧)، ١١ .
- (٤٧) عبد الرحمن الشرقاوى The Egyptian Earth ترجمة ديزموند ستيوارت (دلهى: كتب الجيب الهندية)، ١٩٧٢، ٢٢٤-٢٥ .
- (٤٨) حسين هيكل "زينب"، ٨ .
- (٤٩) نفس المرجع، ٢٠٦-٢٠٨ .
- (٥٠) رضا الطيار "الفلاح فى السينما المصرية" (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، ٢٠ .
- (٥١) نفس المرجع، ١٨ .
- (٥٢) محمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس "فى الثقافة المصرية" (القاهرة: دار الفكر الجديد، ١٩٥٥)، ٢٧ .
- (٥٣) صبرى حافظ The Genesis of Arabic Narrative Discourse، ٢٣٥ .
- (٥٤) نفس المرجع، ٢٦٤ .
- (٥٥) عباس خضر "محمد تيمور: حياته وأدبه" (القاهرة: الدار القومية، ١٩٦٦)، ٧١-٨٥، محمد يوسف نجم "القصة فى الأدب الحديث" (بيروت: المكتبة الأهلية، ١٩٦٦)، ٢٧١-٨٤ .
- (٥٦) حسن محاسب "قضية الفلاح فى القصة المصرية" ٥٠ .
- (٥٧) عيسى عبيد "إحسان هانم" (القاهرة: ١٩٢١)، ٦ .
- (٥٨) محمد جبريل "دراسات فى القصة والمسرح" (القاهرة: n.p., n.d.)، ١٤٦، صبرى حافظ، The Genesis of Arabic Narrative Discourse 202-203.
- (٥٩) لويس عوض The Literature of Ideas in Modern Egypt الجزء الأول (أطلانتا: مطبعة التلاميذ، ١٩٨٦)، ١٣٦ .
- (٦٠) السيد مارسو Egypt's Liberal Experiment، ١٠-١١ .
- (٦١) انظر: ريمون ويليامز Realism and the Contemporary Novel فى طبعة ديفيد لودج، Twentieth Century Literary Criticism: A Reader.
- (لندن: لونمان، ١٩٧١)، ٥٨٢ .
- (٦٢) عصام الدين حفتى ناصف "عاصفة فوق مصر: قصة اجتماعية" (القاهرة: دار العلم الجديد، ١٩٣٩)، ١٤٢ .
- (٦٣) حامد عمار Growing up in an Egyptian Village: Silwa, Province Of Aswan (لندن: روتلج وكيجن بول، ١٩٥٤)، ٧٠-٧١ .
- (٦٤) سيد قطب "طفل من القرية" (القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٣ (١٩٤٦))، ٥، ٨٠ .
- (٦٥) طه حسين "الأيام"، ٧١ .

- (٦٦) لويس عوض The Literature Of Ideas in Modern Egypt ، ١٣٤ .
- (٦٧) توفيق الحكيم The Maze Of Justice ترجمة أبان (لندن: مطبعة هارفيل، ١٩٤٧)، ٢٠-٢١ .
- (٦٨) ناثن براون،
The Conspiracy of Silence and the Atomistic Political Activity of the Egyptian Peasantry, 1882-1952.
في طبعة فورست دي. كولبورن Everyday Forms Of Peasant Resistance (نيويورك: إم. أي. شارب، ١٩٨٩)، ٩٦ .
- (٦٩) أحمد شوقي عبد الحكيم "أدب الفلاحين" (القاهرة: (n.p., n.d.، ١٣ .
- (٧٠) ناثن براون Peasant Politics in Modern Egypt: The Struggle Against the State (نيوهافن ولندن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩٠)، ٨٣، ينتمي أدهم الشرقاوي إلى قصة فلكورية شعبية، نتجت عن الكساد الاقتصادي والفساد الاجتماعي والسياسي، وحيث كان ما لا يؤخذ بالقانون يؤخذ بالعنف وكانت هذه الشخصيات تعتبر أبطالاً في نظر العامة (شاهين ٨٣).
- (٧١) سيد العشماوي "الفلاحين والسلطة"، ٤١ .
- (٧٢) سيد عكاشة Friends for Life، كايرو تايمز، ٤: ٢٩ (٢٨ سبتمبر - ٤ أكتوبر ٢٠٠٠)، ٦ .
- (٧٣) نورثروب فراي Anatomy of Criticism (نيوجيرسي: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٥٧)، ١٦٢ .
- (٧٤) الاسم الذي كانت تكتب به وهو بنت الشاطي، كان مرتبط بمكان ميلادها، شاطي دمياط، حيث يصب الفرع الشرقي للنيل في البحر المتوسط.
- (٧٥) بنت الشاطي (عائشة عبد الرحمن) "على الجسر: أسطورة الزمان" (القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٧)، ٩٣ .
- (٧٦) بنت الشاطي "الريف المصري" (القاهرة: مكتبة ومطبعة الوفد، ١٩٣٦)، ٣ .
- (٧٧) تيودور شانين،
Defining Peasants: Conceptualization and De-conceptualization: Old and New in a Marxist Debate.
في طبعة جون منشر Social Anthropology of Peasantry (بومباي: سيميا للنشر المحدودة، ١٩٨٣)، ٦٩ .
- (٧٨) بنت الشاطي "الريف المصري"، ١٤، ٤٦، ٨ .
- (٧٩) نفس المرجع، ٧٧ .
- (٨٠) نفس المرجع، ٤٧، ١٥، ٣٠ .
- (٨١) نفس المرجع، ٢٨، ٤٦، ٧٧، ٤٤، ٣٣ .
- (٨٢) نفس المرجع، ١٢٠، ٨-٩، ٤٧ .
- (٨٣) نفس المرجع، ٥٤ .
- (٨٤) نفس المرجع، ١٠١-١٠٢ .

- (٨٥) نفس المرجع، ٤٨ .
- (٨٦) نفس المرجع، ١٩٤، ٢٣٠، ٢٠٥ .
- (٨٧) مارسو Egypt's Liberal Experiment، ١١-١٠ .
- (٨٨) هنري عيروط The Fellaheen، ١٩-٢٠ .
- (٨٩) تيموثي ميتشل Rule of Experts، ١٢٤ .
- (٩٠) م. م. بدرأوى Commitment in Contemporary Arabic Literature فى طبعة عيسى جى. بولاتا، Critical Perspectives on Modern Arabic Literature 1945-1980.
- (واشنطن العاصمة: مطبعة ثرى كونتينانت، ١٩٨٠)، ٢٥ .
- (٩١) هنري عيروط The Fellaheen، ١٥٤ .
- (٩٢) سلما بوتمان Egypt from Independence to Revolution, 1919-1952، ٢٠ .

الجزء الرابع

نشأة أمة حديثة

١١- تنظيم وتقنين الزواج فى مصر الملكية^(١)

حنان خلوصى

رغم أن المفكرين والمثقفين الوطنيين فى عهد الملكية فى مصر وما بعدها أدركوا أن "الأمة تتشكل من خلال منظومة الأسرة"^(٢) فإنهم استمروا فى تجاهل دور الدولة فى تشجيع تكوين الأسرة النووية الحديثة^(٣). وحتى هؤلاء الكتاب الذين سجلوا دور المرأة فى قصصهم ورواياتهم الوطنية التقليدية، كانوا يركزون على المرأة ولكنهم فى نفس الوقت يعززون فكرة التعارض بين الحركة النسائية المصرية والحركة الوطنية^(٤). فمثلاً نجد أن بث بارون أشارت إلى أن مساهمة المرأة فى السياسة منذ عام ١٩٢٠ وما بعدها ما هى إلا استمرار لنشاطها فى الصحافة فى العقود الأولى السابقة، وأنه فى حين ما كانت الصحافة الوطنية التى يحررها الرجال تركز على السياسة، كانت صحافة المرأة تتناول الموضوعات التى تخص الشئون المنزلية^(٥). ورغم أن هؤلاء الكتاب جذبوا الأنظار إلى ما تساهم به الكاتبات المصريات بصورة منفصلة فإنهم فعلوا ذلك من فراغ مؤكدين عن غير عمد الفصل بين المجال العام للدولة ودور الرجال فيه، والمجال الثقافى "الخاص" بالمرأة والأسرة.

وفى ضوء تأييد فكرة الفصل بين العام والخاص، عمد الكتاب فى أوائل القرن العشرين لترديد مقولة بارثا شاترجى عن المجال الوطنى الداخلى والخارجى فى الدول المستعمرة الذى حاول أن يحصر "المرأة" فيه فى قيمة روحية معينة تتمركز داخل منزلها^(٦). ويوحى هذا الفصل أن "هذا المجال الداخلى" للمرأة والأسرة بعيد تماماً عن الساحة الوطنية فى سياسة الدولة ولا يكشف عن الدور الجوهرى الذى يريد الوطنيون المصريون والمسئولون الرسميون أن تلعبه الأسرة فى تشكيل الأمة الحديثة.

وعلى النقيض من أفكار هؤلاء المثقفين، كانت الأسرة أحد أهم العقائد فى أجندة الوطنيين والدولة، وليس فقط فى أجندة المناصرين لقضايا المرأة. وحتى هؤلاء الكتاب الذين بحثوا أخيراً فى الانفصال القائم بين المجال السياسى "العام" للرجل، والمجال الثقافى "الخاص" للمرأة والأسرة لا يعتبرون حملة الدولة القانونية الداعية إلى تنظيم رعاياها لتكوين أسر نووية حديثة أساس للدولة الناهضة^(٧).

وبفهم كامل يشير أيتين اليبار إلى أن تدخل الدولة غير المسبوق فى الأسرة استقلالية الزواج^(٨) يتركز فى سنّها لقوانين الزواج والطلاق. فلم يكن فى إمكان المثقفين التحدث عن الأسرة والدولة دون فحص القوانين التى تحكم الزواج والطلاق، من منطلق أن الكثير من المصريين خلال عهد الملكية كانوا يعتبرون مؤسسة الزواج الحجر الأساسى للدولة الناهضة. وقد أدى الجدل العام الذى دار فى تلك الفترة إلى سلسلة من مشروعات وقوانين حكمت إجراءات الطلاق والزواج خلال الثلاثة عقود اللاحقة. وكانت القوانين التى صدرت فى عهد الملكية فى مصر هى آخر القوانين التى صدرت فى هذا الشأن حتى ظهر القانون ٤٤ لعام ١٩٧٩، والذى وفر للمرأة حقوقاً متزايدة للطلاق، وقلص من تعدد الزوجات^(٩).

ورغم أن كثيراً من الكتاب القانونيين والمهتمين بشئون المرأة قد تعرضوا لقوانين الزواج والطلاق فى مصر الحديثة، فإن القليلين منهم - إن وجدوا - قاموا بشرح كيف تم اقتراح هذا القانون وكيف كان مردوده عند عامة الشعب، بل كيف توافق مع التعبير عن الوطنية المصرية، واكتفوا بالتركيز على تأثير هذا القانون فى وضع المرأة فقط^(١٠). فمثلاً يؤكد جيمس إن. دى. أندرسون وجون أل. أسبوزيتو بالتوالى على أن "الأوضاع المهيمنة لكثير من الزوجات المسلمات والرغبة فى تحسين أحوالهن فى المجتمع المصرى كان الحافز الأساسى وراء سن هذا القانون الجديد^(١١). وعلى الجانب الآخر ترى أميرة الأزهرى سنبل أن هذه القوانين ساندت نظاماً ذكورياً جديداً كان السبب فى استعباد النساء المصريات حالياً^(١٢). فى حين أن مارجو بدران ترى أن هذه التشريعات حافظت على البناء القانونى للثقافة الأبوية القديمة^(١٣).

وفى المقابل تشير مرفت حاتم وسلما بولتمان إلى أن هذه القوانين تمثل أقل تدخل من الدولة فى السلطة الأبوية داخل الأسرة^(١٤). فالمشرعون فى الدولة لم يكن فى نيتهم بالضرورة تحسين وضع النساء أو تعريضهن للظلم ولكنهم لم يتبنوا حلاً وسطاً أو معتدلاً.

وفى مقابل هذه الدراسات التى أشرنا إليها، فإن هذا الفصل يناقش محاولات الحكومة المصرية إصدار قوانين للزواج تلعب دوراً أكثر فاعلية فى خلق الأسرة النووية الوطنية. وفى صياغة أخرى لما قالته باليبار، كان هدف الحكومة هو "تنظيم وتقنين الزواج" بمعنى إيجاد نوعية من المتزوجين تكون أسراً بالغة، مستمرة ومستقرة ومن الأفضل ذات زوجة واحدة تشكل بدورها قاعدة أساس دولة حديثة خالية من الأمراض الاجتماعية. لذلك حاول المسئولون فى الدولة إلغاء أو تحديد قوانين الزواج والطلاق الإسلامية التى رأت أنها غير صالحة لأى دولة عصرية حديثة. ويشرح هذا الفصل كيف برزت - فى خلال تلك السنوات الحيوية التى غطاها جيمس هويدن فى الفصل الأول - آراء عن الزواج فى عهد الملكية احتلت مساحة من الأفكار الأيديولوجية المتصارعة الساخنة حول صياغات مختلفة تناقش معانى وأهداف الزواج والأسرة فى الدولة المصرية الحديثة.

ورغمًا عن وجود فكرة تشكيل نموذج لزواج البالغين تسانده الدولة بحيث يكون مستقراً وعلى أساس زوجة واحدة، فإننا يجب أن نلاحظ أن الدولة أو هذا النموذج لم يكن لهما السيطرة أو التناغم المطلوب. فلم يقتصر الأمر فقط على اقتراح بعض الأفراد فى الدولة العديد من القوانين التى كانت متعارضة فى كثير من الأحيان، إلا أنه ظهر عجزهم الواضح عن تمرير عدد من التشريعات التى تحد من زواج القاصرات، وتقلص من حرية الرجل فى الحصول على الطلاق بسهولة، أو تقييد تعدد الزوجات التى كانت محل نقاش وجدل حاد خاصة فى مجتمع كانت هذه الممارسات فيه تتمتع بحماية الشرع. وكما يشير ب. ف. مسلم، فإن الزواج الإسلامى من المنظور التاريخى والتشريعى، ليس مؤسسة ثابتة تعتمد على فكرة الزواج بامرأة واحدة حيث إنه يسمح بتعدد الزوجات، وسهولة تطليق الرجل للمرأة فى أى وقت يشاء^(١٥). ومع ذلك ففى خلال

عصر الملكية حاول المسئولون في مصر تمرير قوانين تحد من زواج القاصرات والطلاق وتعدد الزوجات. ومن خلال فحص هذه الحملات القانونية التي تبنتها الدولة، وردود الأفعال داخلها، وداخل الحكومة، وبين الحركات النسائية والكتاب الصحفيين، يمكننا أن نتفهم تنافس صياغات مفهوم الوطنية المصرية الحديثة. فإذا ما عمدنا إلى تحليل المناقشات القانونية وما أثارته الصحف في تلك الفترة فإن ذلك سوف يكشف بوضوح عن التحديات المختلفة لنماذج الزواج الذي ساندته الدولة. كما تكشف أيضاً كيف اختلف الكتاب المصريون في رؤيتهم لصورة الزوج المعاصر وزوجته. ولأن كثيراً من الوطنيين كانوا يرون أن هوية الزواج يعتبر مكوناً أصيلاً في الهوية الوطنية فإن هذا الفصل من الكتاب سيشرح ليس فقط محاولة المسئولين الرسميين والمشرعين من الفقهاء، والمؤلفين الوطنيين وكتاب الحركة النسائية صياغة نمط الزواج بين الرجال والنساء، بل محاولة الدولة أيضاً تشكيله في قالب يمثل الوطنية الحديثة. وبالتالي نجد أن "الزواج" تم معاملته كما حدث أيضاً بالنسبة "للفلاحين" أو "حملة الطين" الذين أشارت إليهم سامية خلوصي في الفصل العاشر والذين كان لهم صورة خاصة في الأدب المصري خلال العشرينيات وحتى الأربعينيات من ذلك العصر.

تقليص ظاهرة زواج القاصرات

مع مطلع القرن العشرين كانت المحاكم الشرعية في مصر تختص في أغلبها بالنظر في قضايا الأحوال الشخصية أي الزواج والطلاق وحضانة الأطفال والميراث والوقف^(١٦). وفي عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ حاولت وزارة العدل تقديم مشروعات قوانين تستهدف تحسين قانون الأحوال الشخصية، بون أن تسفر هذه التوصيات عن نتيجة^(١٧). ورغم صدور بعض القوانين الإصلاحية في هذا الشأن في بعض أقاليم أخرى من الدولة العثمانية مثل القانون العثماني الخاص بحقوق الأسرة والذي صدر في عام ١٩١٧^(١٨)، فإن التشريع الذي طالبت به الدولة لم يصدر في مصر حتى سنة ١٩٢٠^(١٩). وقد أسفرت محاولات الدولة في هذا الصدد عن معارضة قوية لاعتقاد الكثيرين أن

الشريعة الإسلامية تصلح "لكل زمان ومكان" ولا تسمح بأي اجتهادات أو تفسيرات جديدة^(٢٠). ورغمًا عن ذلك فقد نجحت الحكومة المصرية في عام ١٩٢٣ في إصدار قانون يحدد السن الأدنى للزواج. وتعتبر هذه الخطوة التي أجبرت المسؤولين في الدولة على اتخاذها في ذلك الوقت لها مغزاها حيث إن هذه النوعية من الزواج كانت قد بدأت تنقلص في أوائل القرن العشرين^(٢١). وهذا يشير إلى أن بعض المصريين كانوا يريدون من الحكومة أن تطرح وسائل جديدة تنظم عادات الزواج بين المواطنين المصريين وتؤكد أن البالغين فقط هم الذين في مقدورهم الزواج والإنجاب بصرف النظر إذا كان هذا النظام هو السائد فعلاً من عدمه.

كان هذا الجدل غير المسبوق الذي أدى إلى تنظيم زواج القاصرات جدير بالاهتمام حيث سبق وأن فشلت محاولات سابقة لسن هذا القانون، ففي مارس ١٩١٤ قدم زكريا بك نامق أحد أعضاء مجلس النواب مذكرة إلى الجمعية التشريعية^(٢٢) الخاصة بقضايا الزواج تتضمن اقتراح فرض الحد الأدنى لسن الزواج بستة عشر عاماً. وقد أشعلت هذه المذكرة جدالاً عنيفاً امتد إلى أشهر طويلة من المناقشات في الصحف شملت المحررين والقراء الذين أبدوا رأيهم في العديد من القضايا ومنها زواج القاصرات، وعزوف الشباب عن الزواج، وواجب موظفي الدولة في ضرورة الزواج، وأخيراً هدف ومغزى الزواج نفسه^(٢٣). وكان سن الزواج على وجه الخصوص هو الذي أثار ردود فعل ساخنة بين القراء حيث أبدى كثير منهم رأيهم في السن الملائم للزواج في مقالات تصدرت الصفحات الأولى، وفي خطاباتهم إلى المحررين التي تضمنت اقتراحاتهم الشخصية وآراءهم القانونية.

ورغم أن الكتاب من الرجال هم الذين أثاروا هذا الجدل في عام ١٩١٤، فإن هذه المناقشات حول السن المناسب للزواج كانت سائدة وسط الكاتبات أيضاً في السنوات السابقة التي أدت إلى تقديم مذكرة زكريا نامق. فقد أشارت الكثيرات منهن إلى أن زواج الفتيات في سن مبكرة يعرضهن إلى صعوبة الحمل التي قد تؤدي إلى الوفاة وأيضاً إلى أمراض كثيرة منها الهستيريا (الأمراض العصبية)^(٢٤). وكان نامق

يؤمن أيضاً بأن الفتاة تعرض صحتها للخطر في حالة زواجها في سن مبكرة بل إنه استشار العديد من الأطباء لتقرير صلاحية سن السادسة عشرة "وهي سن معقولة" رغم إدراكه أن هذه السن التي اقترحها سوف لا يكون لها مناصريها بين المسلمين^(٢٥). فحسبما يشير بارون، فإن الهيئات الإسلامية لم تجد في الشريعة الإسلامية ما يبرر تحديد حد أدنى لسن الزواج حيث إن النبي محمد (ﷺ) اقترن بزوجته الصغيرة قبل أن تصل إلى سن البلوغ^(٢٦). بل إن كثيراً من الأطباء المسلمين حاولوا تنفيذ النتائج الطبية التي انتهت إلى أن الزواج المبكر محفوف بالمخاطر^(٢٧).

أما الوطنيون الذين كانوا يؤيدون وثيقة نامق، فقد كتبوا إلى الصحف بأن السن النضوج لزواج الفتاة يزيد من قدرتها الإنجابية لمواليد يشكلون في المستقبل مواطنين قادرين على تأسيس دولة قوية صحية في فترة ما بعد الاستعمار. وكما كتب محررو الأهرام "أن الدولة القوية لا تتأسس إلا على نسبة عالية من المواليد الذين يتلقون تربية صحيحة وتعليماً متقدماً، وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت الأمهات ناضجات سناً، فالأمة ليست بحاجة إلى فتيات صغيرات بقدر حاجتها لنساء ناضجات"^(٢٨). وفي الواقع فإن الدور الذي أراد الكثيرون للدولة أن تلعبه في تحديد وتقنين سن الزواج مدعماً بالنتائج التي توصل إليها الأطباء يعزز تأكيد ميخائيل فوكو أن تشكيل الأسرة الحديثة كان بصورة عامة نتيجة تدخل الدولة القانوني والطبي الذي حاول أن يعزز فكرة الأسرة النووية كأداة لخلق جسد صحي نظيف وسليم، ومنزل نقي يتمتع بالنظافة و"نقاء الهواء"^(٢٩).

تعرضت وثيقة نامق لنقد حاد من المحكمين المسلمين، ومن الأطباء والأشخاص العاديين حتى اضطر لسحبها^(٣٠). إلا أن هذا السحب لم يمه الجدل حول سن زواج الفتيات، وقد ظهر ذلك بوضوح عندما صدر القانون رقم ٥٦ لسنة ١٩٢٣ الذي نص على أن سن الزواج القانوني للفتيات هو السادسة عشرة وللرجال الثامنة عشرة. كما نص القانون على تسجيل كل عقود الزواج وأعطى تعليماته للمحاكم بعدم الاستماع إلى أي دعاوى للزواج أقل من الأعمار السابقة^(٣١). وكما تقول مريانا لايني سبنا فإن

محاولات الهند المستمرة فى تنظيم زواج القاصرات لم يكن هدفها الاهتمام بتحسين صحة الفتاة ووضعها الاجتماعى بقدر ما كان راجعاً إلى اهتمام الدولة بالالتزام بخطة التحديث الوطنى لكونها نقطة فاصلة فى إنهاء شرعية الاستعمار كوسيلة للحدثة، ومجىء حداثة وطنية "هندية جديدة"^(٣٢). وكان الجدل حول مقترحات ١٩١٤، وما انتهى إليه من صدور قانون ١٩٢٣ يحمل نفس التوترات حول الحدثة الوطنية التى تناهض الاستعمار فى المضمون المصرى.

وقد ذكر بول رابينو أنه لا جدوى من تعريف مصطلح الحدثة، بل إنه من الأجدى البحث فى كيفية استيعاب واستخدام هذا المصطلح من قبل المطالبين بممارسته^(٣٣). كما يمكن أيضاً تتبع ادعاء المصريين بأنهم أصبحوا دولة حديثة. فقد كانت المناقشات والجدل حول زواج القاصرات دليلاً مقنعاً على القلق السياسى والثقافى الذى كان ينتاب المصريين حول فكرة الحدثة التى تناهض الاستعمار. بل الواقع أن مؤسسة الزواج كانت تُستخدم كثيراً كساحة تمتلئ بآراء وأفكار العديد من المصريين داخل الدولة وخارجها عن الحدثة الوطنية بصفتها شرطاً "للتتوير" و"التقدم" للدولة المصرية المزدهرة ومواطنيها. ويكشف الجدل الذى كان دائراً فى الصحافة كيف أن الكتاب المختلفين استخدموا موضوع زواج القاصرات لنقد المجتمع المصرى، وبناء رؤى مختلفة "عن الأزواج المعاصرين" والزوجات والقضايا الوطنية.

لم يمر نجاح الدولة فى تحديد سن الزواج لضمان الصحة الإنجابية للرعايا الوطنيين المتزوجين دون معارضة من كثير من المصريين رغم تأييده من جمعية الاتحاد النسائى المصرى E.F.U^(٣٤). ويلاحظ بدران أن قانون ١٩٢٣ "كان نصراً سهلاً نسبياً للحركة النسائية" حيث إن تحديد الحد الأدنى لسن زواج الفتيات بستة عشر عاماً كان من أولى مطالب الاتحاد الذى قدمه إلى الحكومة المصرية فى يونيو ١٩٢٣^(٣٥). وكان الاتحاد النسائى قد تبنى خطة لإصلاح قانون الأحوال الشخصية دون المطالبة بقوانين مدنية، بل إنه أصر على أن يتم الإصلاح فى إطار إسلامى^(٣٦). فقد عرض "إصلاح القوانين الحالية التى تختص بالعلاقة الزوجية، على أن تتطابق تماماً مع روح الشريعة

وذلك من منطلق تحقيق العدالة داخل الأسرة وتنظيم الروابط الأسرية^(٣٧). ويشير وجود مشروع قانون مشابه منذ عقد سابق إلى أن الاتحاد النسائي لم يكن هو الوحيد الذي قاد الحملة لتحديد سن الزواج.

ومع ذلك انتقد أعضاء الإتحاد الثغرات الموجودة في قانون ١٩٢٣^(٣٨). فقد سمحت وزارة سعد زغلول التي تولت الحكم في مارس ١٩٢٤ بقبول شهادة ولي أمر العروس كبديل عن الوثيقة المطلوبة لتحديد سنها^(٣٩). وأيضاً سمحت الدولة للمأذون الذي يعقد القران بقبول شهادة شاهدين يؤكدان سن القاصر بدلاً من شهادة الميلاد^(٤٠). وأمام هذه الثغرات ثار الاتحاد وأصر على ضرورة تقديم شهادة الميلاد الأصلية تأكيداً لسنها^(٤١). فإذا ما تعذر ذلك، يجب الحصول على شهادة طبيين تابعين للحكومة بعد فحصها^(٤٢). ومن المثير للاهتمام أن المناصرين للحركة النسائية في عصر الملكية - على الأقل بصفة أولية - كانوا يعتبرون الدولة أداة لفرض التغييرات الاجتماعية، وإنه باللجوء إليها فإن ذلك سوف يتحقق، أو على الأقل أن يأملون في أن يتحقق. ورغم أن ذلك فحين وضعوا أنفسهم في موقف المناصرين لقضية تحرير المرأة من خلال تصميمهم على تقييد سن الزواج، كانوا في واقع الأمر يشجعون تدخل الدولة الطبي والقانوني وسيطرتها على الأوضاع.

وقد واجهت الحكومة في آخر الأمر هذه المطالب بإصدارها قانون ٧٨ لسنة ١٩٣١ بعد ثماني سنوات والذي أكد على مواد قانون ١٩٢٣ مع تعليمات بمنع المحاكم من النظر في أي مطالب متعلقة بالزواج إلا بعد التأكد من توثيقه من جهة رسمية. كما منعت أيضاً الاستماع إليها إلا بعد التأكد من بلوغ الزوجين سن الزواج القانوني وقت عرض هذه المطالب على المحكمة^(٤٣). ومع ترحيبهم بهذه التغييرات إلا أن الاتحاد النسائي اعترض على شهادة الأطباء الذي ادعى أنها تزيف أحياناً سن الفتاة وبالتالي طالبوا الدولة باعتبار المأذون الذي يعقد زواج القاصرات إنما يرتكب جريمة يعاقب عليها القانون^(٤٤) كما وأن الزوج والزوجة القاصر قد يتحايلون على القانون بإقناع الطبيب أو الشهود بتزيف سن الزواج حتى يتمكنوا من توثيق العقد. وقد حاول

القانون ٤٤ لسنة ١٩٢٢ تقليص تلك المحاولات عن طريق تقديم الأطباء والشهود والمأذون إلى المحاكمة إذا ثبت "تدليسهم"^(٤٥). ورغم أن هذه الإجراءات لم تمنع زواج القاصرات بصفة نهائية فإنها قللت من حوادثها^(٤٦).

كانت هذه القوانين محاولة غير مباشرة للحد من زواج القاصرات عن طريق رفض توثيق عقود الزواج الخاصة بهم أو منحهم شرعية الاعتراف به حيث إن الكثيرون سوف يرفضون إتمام الزواج دون حماية القانون لهم في المستقبل^(٤٧). وكما تشرح جوديث تاكر "إن مزايا هذا التوثيق تتمثل في وجود وثيقة زواج ثابتة مكتوبة. فهذا التوثيق يعنى وضع الزواج ونتائجه والتزاماته بصورة واضحة أمام المحاكم الإسلامية توقعاً لقيامها بدورها لإنهاء أية خلافات بين الزوجين"^(٤٨). وأن أى اعتراف صريح بعدم شرعية زواج القاصرات قد يعتبر نوع من الاجتهاد الذى يعوق تمرير هذه القوانين لابتعاده عن الشرعية الإسلامية^(٤٩).

وفى واقع الأمر، فإنه بعد صدور قوانين عدة بشأن سن الزواج، فإن كثيراً من المصريين ما زالوا يعارضونها. وقد هاجم الشيخ محمد بخيت - المفتى السابق لمصر - قانون ١٩٢٣ بحجة أن سلطة المحكمة الشرعية لا يمكن تقييدها إلا فى حالات المنفعة العامة^(٥٠). ولم يكن فقهاء المسلمين وحدهم هم المعارضون لهذا القانون، فقد اعترض عضوان فى مجلس النواب على تقنين السن الأدنى للزواج مطالبين بإلغاء القانون من أساسه. ففي الثلاثينيات تقدم كل من "عثمان صاوى بك" و"عبدى محمود البرتقالى" باقتراحين منفصلين لإلغاء القانون^(٥١)، مما يعنى أنه حتى داخل الدولة كان بعض الأعضاء يعارضون سياستها فيم يختص بقوانين الزواج. وبالتالي فإن زواج القاصرات بالإضافة إلى الثغرات الموجودة فى القانون وفشل تمرير وثيقة ١٩١٤ تعتبر مؤشراً إلى أن رؤية الدولة وتصوراتها للأسرة لم تكن تسير فى خط مستقيم أو لها سيطرتها، وأن النموذج الذى وضعتة الدولة لصورة "الزواج الحديث" صادف الكثير من التحديات.

لم يستطع الجدل المثير للنزاع حول قوانين الأحوال الشخصية فى تلك الفترة أن يمنع تدخل الدولة فى ما يسمى "بالأوضاع الخاصة بالأسرة" فلم يجد المشرعون طريقاً فى عام ١٩٢٣، ١٩٣١ ثم ١٩٣٣ للتحايل على الشريعة الإسلامية التى تبيح زواج القاصرات فحسب، ولكنه نجح أيضاً فى فرص تسجيل عقود الزواج ووضعها فى إطار قانونى. وكانت عقود الزواج فى مصر قبل ١٩٢٣ لا تتطلب توثيقها^(٥٢). وفى حين ما كان الزواج الإسلامى يمكن عقده فى أى مكان نظرياً وإن كان يعقد عادة فى بيوت المسلمين، بدأت الدولة تتدخل فى مجال كان أغلب المصريين يعتبرونه مسألة شخصية بحتة. ولكن بإعلان الدولة أن المحاكم لن تنظر فى أية مشاكل زوجية إلا فى ضوء وجود وثيقة رسمية حكومية أصبح هذا القانون يشكل خطورة أمام الراغبين فى الزواج بعيداً عن قوانين الدولة، بالإضافة إلى تعقيد إجراءات الطلاق سواء بالنسبة للزوج أو الزوجة.

تقييد إجراءات الطلاق

فى محاولة من وزارة العدل - كجزء من جهود الدولة لتحديث الأمة المصرية الناهضة - وتحت إشراف لجنة مشكلة من الشيوخ عرضت قانونين للأحوال الشخصية عام ١٩٢٠، ١٩٢٩ بهدف الحد من الطلاق. وفى نفس الوقت الذى كان عدد من الكتاب يشيدون بهذا التشريع الذى يوسع من حقوق المرأة، والبعض الآخر ينتقد حرية المرأة فى السعى وراء الطلاق، فإن الاستقصاء الدقيق يظهر أن هذه القوانين لم تزد من حقوق الزوجات أو الأزواج. بل العكس هو الصحيح فإن تدخل الدولة فى عالم العلاقات الزوجية أدى إلى مزيد من التعقيد فى لجوء المرأة أو الرجل إلى الطلاق. وكان الحافز وراء تدخل الدولة غير المسبوق هو استقرار الزواج وتدعيم الروابط الأسرية مع استمرار وجود السلطة الهرمية، وتقليص ما اعتبره المصريون والغربيون على حد سواء ارتفاع كبير فى نسبة الطلاق. وكانت إحصائيات الطلاق فى أوائل القرن العشرين قد أشارت إلى نسبة من ٣٠٪ تصل إلى ٩٠٪^(٥٣). ورغم أن هذه الإحصائيات مشكوك

فيها والبعض منها غير موثق، فإنها تستحق النظر إليها حيث إنها تعكس وجهة نظر المراقب للواقع الاجتماعي^(٥٤). والأكثر من ذلك أن كينيث أم. كونو يشير إلى أن نسبة الطلاق في مصر في النصف الأول من القرن العشرين فاقت النسبة في أى بلد أخرى "مستقلة"^(٥٥). وطبقاً لمشرع القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩، فإن الرجال المصريين - وعكس ما تفرضه روح الإسلام - كانوا يستسهلون ممارسة حقهم الوحيد في الطلاق بدلاً من استخدامه كآخر حل لمشاكلهم ولحماية استقرار الأسرة والمجتمع عامة فمن الضروري الحد وعلاج "هذه الأمراض الاجتماعية" ومنها سهولة الطلاق عند الرجل^(٥٦).

وفى كتاب "تحرير المرأة" لقاسم أمين الذى يعتبر واحداً من أبرز المفكرين القانونيين والوطنيين فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى مصر، نجده يعبر عن اهتمامه بكثير من القضايا المماثلة. ورغم أن الكتاب صدر فى عام ١٨٩٨، فإن أفكاره لإصلاح نظام الطلاق تعتبر قاعدة لقانون الطلاق الذى صدر فى عهد الملكية فى مصر ومع ذلك فمن المهم أن نأخذ فى اعتبارنا أن قاسم أمين لم يكن أول مصرى يقترح نظاماً إصلاحية لممارسات الطلاق وقوانينه^(٥٧). وفى حين أظهر حزنه على كثرة وقوع حالات الطلاق، وطالب باستقرار أوامر الزوجية "كأمل يحقق مجتمعاً صحيحاً" إلا أنه فى الوقت نفسه يعترف بضرورته أحياناً^(٥٨). وبالتالي عرض أمين نموذجاً لحالة المرأة التى تطلب الطلاق فأوصى بعدم اتباع المذهب الحنفى الذى يسمح للمرأة بطلب الطلاق فقط فى حالة عجز الزوج، أو ارتداده عن الديانة الإسلامية أو حين تصل الزوجة القاصر إلى سن الرشد وتدعى بأن الوصى عليها - فيما عدا الأب والجد - قد أرغمها على الزواج بدون موافقتها^(٥٩). واقترح قاسم أمين على الدولة أن تتبنى المذهب المالكي الذى يعطى الزوجة الحق فى طلاقها "فى أى من الحالات التى قد يتسبب الرجل فى إضرارها"^(٦٠).

ورغم أن قاسم أمين قد اعترف به "كمؤسس الحركة النسائية العربية"، ورغم أن كتبه تعتبر عادة أساس هذه الحركة فى مصر بما فيها من المطالبات بإصلاح أوضاع المرأة^(٦١)، فإن العديد من المفكرين والكتاب انتقدوا هذا التركيز الشديد على أفكاره

بحجة أنه لم يكن مناصراً للمرأة إلى درجة اقتناعه بمساواتها بالرجل^(٦٢). ومع ذلك فإن رؤية أمين عن الزواج والطلاق والأسرة^(٦٣) تستحق البحث والدراسة حيث تبنتها مجموعة من الوطنيين وأنصار الحركة النسائية ومشروع القوانين بعد ذلك بعقدين. وتشير وجهة نظر قاسم أمين في طلب المرأة للطلاق إلى أنه لا يؤمن بالمساواة القانونية بين الرجال والنساء، فهو يؤمن بأن للرجل الحق في تطليق زوجته لأي سبب، أما المرأة فهو يحدد طلبها للطلاق إذا كانت متزوجة "بشخص شرير أو مجرم أو ملحد لا يمكنها أن تتعايش معه"^(٦٤) بل والأكثر من ذلك أنه رغم توصيته بإعطاء الحق للمرأة المسلمة في طلب الطلاق في وثيقة زواجها - والتي يبيحها المذهب الحنفي^(٦٥) - فإنه حثها على التوجه أولاً إلى القاضي "لأنه إذا كان الطلاق مقيداً برأى القاضي، فإن حدوثه سوف يقل، وتزداد مؤسسة الزواج قوة"^(٦٦). وبالتالي فإن هدف قاسم أمين لم يكن مساندة حق المرأة في الطلاق بقدر ما كان راجعاً إلى الحفاظ على مؤسسة الزواج.

تبنى المشرعون المصريون في العشرينيات من القرن اقتراح قاسم أمين بالابتعاد عن المذهب الحنفي والأخذ بالمذهب المالكي والشافعي حتى يمكن توفير أسباب قانونية أكثر لطلب الطلاق^(٦٧). وقد ابتعدت قوانين الطلاق في عهد الملكية في مصر عن المذهب الحنفي وتبنت بعض الأفكار من المذاهب الثلاثة الأخرى عن طريق الاختيار، أو تجميع بعضها من هذه المدارس المختلفة^(٦٨). فمثلاً نجد أن القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ يعترف بثلاثة أسباب يمكن للمرأة من خلالها أن تحصل على الطلاق:

(١) فشل الرجل في إعالة امرأته (مادة ٤).

(٢) فشل الرجل في إعالة امرأته بسبب تغيبه أو اختفائه (مادة ٥، ٧).

(٣) إصابة الرجل بمرض مزمن أو لا علاج له مثل مرض الجزام أو الجنون دون أن تعلم زوجته به وقت زواجها، أو أصيب به بعد عقد الزواج (مادة ٩)^(٦٩).

ويرجع السببان الأولان إلى الالتزام الإسلامي المعتاد بضرورة توفير الزوج لزوجته وسائل الإعاشة المادية، في حين أن السبب الثالث يقدم شرطاً جديداً وهو المرض. ففي المذهب الحنفي كان السبب الصحي الوحيد الذي يتيح للزوجة طلب الطلاق هو العجز الجنسي، وبالتالي يصبح المرض - في رأى المشرعين القانونيين - سبباً كافياً للطلاق.

وكما ورد فى المناقشات حول زواج القاصرات، فإن الأجسام العليلة لا تتواءم مع بزوغ الأمة المصرية الجديدة. ولم تكن هذه المناقشات جزءاً من الحركة العالمية لتحسين النسل، أو الجدل بين المصلحين المهتمين بالبلاد المستعمرة فحسب^(٧٠)، بل كان لها جذورها أيضاً فى أوائل القرن التاسع عشر. فإبان حكم محمد على (١٨٠٥-١٨٤٨) تشكلت حملات تستهدف الصحة العامة لبناء الدولة، وللمشروعات العسكرية التى تحتاج إلى أجسام قوية البناء يمكن تشغيلها فى أعمال السخرة، ويكون لها أثرها الفعال فى الأمة^(٧١). وقد استمرت المناقشات حول احتياج الأمة إلى المواطنين الأصحاء الأقوياء فى التزايد فى عهد الملكية^(٧٢). فمثلاً فى عام ١٩٢٣، نصحت إحدى المجلات النسائية الشباب المقبلين على الزواج بالفحص الطبى لشركاء حياتهم حيث إن ضعف الصحة "سوف يؤثر على صحة الأطفال، وسوف يصبح الزواج جريمة فى حق الذات، والنسل، والأمة"^(٧٣). وطالب البعض الآخر بدور رقابى للدولة فى منح حق الزواج للأصحاء فقط. وقد اقترح أحد الكتاب الذين أدانوا زواج الأبناء والبنات "المصابين بالأمراض" - أن تتبنى الدولة فكرة تقديم شهادة خلو من الأمراض موثقة من طبيب معتمد حيث إنها تعتبر ضرورية "من أجل نسل صحى"^(٧٤). ولأن الأسرة القوية السليمة هى حجر الزاوية فى الأمة، فإن كثيراً من الوطنيين كانوا يرون أن الأصحاء فقط هم الذين يحق لهم الزواج.

لم تتضمن المناقشات حول صحة الأسرة ما يتعلق بالأمراض والإنجاب فقط، ولكنها تضمنت أيضاً حواراً حول القدرة المالية. وفى حالة تعذر الزوج أو رفضه إعالة زوجته مالياً يمكن طلب الطلاق طبقاً للقانون. ومع ذلك فقبل الموافقة عليه اشترطت الحكومة على القضاة ضرورة فحص الأوضاع المالية للزوج^(٧٥). وفى مجتمع لا يميل إلى أن تكون الزوجة هى البادئة بطلب الطلاق، رأى المشرعون ملاءمة تطبيق المحكمة للزوجة إذا كان ذلك يستهدف صالح الأسرة مادياً. وكما كتب أحد الكتاب يقول إن الزوجات اللاتى يرفض الأزواج طلاقهن ينتهى بهن الأمر إلى حياة قصيرة، دون إمكانية قانونية فى الحصول على نفقة أو الزواج مرة أخرى، وأن الأمة المصرية سوف تستفيد إذا سمحت لهؤلاء النساء فاقدرات الأمل فى الطلاق والزواج مرة أخرى^(٧٦).

ورغم أن المشرعين فى آخر الأمر استجابوا لهذه الدعوة إلى الإصلاح، فإنه ظهر فى العقد التالى عنصر آخر اعتُبر سبباً من أسباب الطلاق، وهو التعسف فى استخدام العنف من أحد الزوجين. وفى حين لم يتناول قانون ١٩٢٣ اقتراح قاسم أمين بأن للزوجة حق الطلاق "فى حالة إيذاء الزوج لها" إلا أن قانون ١٩٢٣ تعرض لتلك الحالة^(٧٧) فقد جاء فى المادة ٢٥ منه أن القاضى المسلم يمكنه أن يطلق المرأة طلاقاً بائناً إذا ما أثبتت وقوع ضرر عليها واستحالة التوفيق بينها وبين الزوج^(٧٨). ولم يتحدد مفهوم "الضرر" على وجه الدقة، إلا أنه كان يعنى ضمناً كل ما يؤدى إلى شقاق يستحيل معه استمرار العلاقة الزوجية بهدوء وسلاسة، وترك للقاضى "الرجل" تحديد مداه^(٧٩). ورغم أنه من الصعوبة بمكان تأكيد تفسير كل قاض لهذه القوانين الجديدة، فإنه من المحتمل أن السلطة التى كان يتمتع بها القضاة فى مصر العثمانية حيث كانت المذاهب الإسلامية الأربعة متاحة أمامهم، لم تعد كذلك بعد صدور قوانين الأحوال الشخصية^(٨٠). والأكثر من ذلك أن القضاة فى القرن العشرين أحسوا بالضغط المشكلة عليهم لتطبيق تلك القوانين الجديدة حيث أصبحوا هم أنفسهم موظفين فى الحكومة يتقاضون مرتباتهم منها وينالون ترقياتهم ويتم نقلهم أو إحالتهم إلى المعاش من خلال دولة مدنية واسعة^(٨١).

وفى ضوء هذا الدور الذى لعبه النظام القضائى فى تنظيم الزواج والطلاق فى حياة المرأة (والرجل) فى مصر، ومن خلال طبيعة التعقيدات التى واجهتها المرأة فى طلبها الطلاق فإنه من الصعب القول بأن قوانين الطلاق هذه قد شكلت مكاسب أساسية للمرأة. فمثلاً نجد فى الشرط الثانى لطلب الطلاق أن الزوجة التى غاب عنها زوجها أو فقد، يمكنها أن تطلب الطلاق فقط فى حالة إثباتها أنه عجز عن دفع "النفقة" بمعنى أنه يجب عليها إثبات أنه لم يرسل إليها أى نقود أو ترك لها ما يعولها^(٨٢). فإذا لم يدفع الزوج المستحق عليه فى نهاية المدة التى حددها القاضى فيمكن للقاضى حينئذ تطليق الزوجة^(٨٣). ومع ذلك فقد كان يمكن إلغاء الطلاق إذا عاد الزوج وأبدى استعداداً لإعالتها مادياً^(٨٤). وفى حالة ما إذا فقد الزوج ولم تتوفر أية معلومات عن مكانه، فعلى الزوجة أن تمكث أربع سنوات من بدء رفع قضية الطلاق حتى انتهاء مدة

العدة (وهى المدة اللازمة التى يجب على الزوجة أن تنتظرها حتى يمكنها الزواج مرة أخرى) والتى حددها القانون بأربعة شهور وعشرة أيام ويعدّها يمكن للقاضى نظرياً إصدار حكم الطلاق^(٨٥). وبعد قضائها مدة العدة، يحق لها الزواج بغيره، أما إذا ظهر الزوج السابق قبل تفعيل الزواج الجديد فعليها أن تعود إلى الزوج الأول^(٨٦).

كما استخدمت وزارة العدل أيضاً قانون الأحوال الشخصية لفتح طريق آخر يمكن الحكومة من خلال تنظيم أسلوب حياة رعاياها من الرجال والتدخل فى حياتهم الزوجية. فقد تعرض كل من القانون ١٩٢٠، ١٩٢٩ الخاص بالطلاق إلى موقف زوجات السجناء، حيث كان قاسم أمين قد اقترح أحقية الزوجة المتزوجة من مجرم فى الطلاق. بل إن كثيراً من المصريين كتبوا عن ظلم النظام القانونى الذى "ينكر على المرأة طلاقها من زوجها حتى لو حكم عليه بالسجن مدى الحياة، وبذلك تنهار حياتها وتتطخ سمعتها بسبب جرم لم ترتكبه"^(٨٧) فى حين أن المادة رقم ٥ من القانون ١٩٢٠ أوردت بأنه حتى لو كان معلوماً أن الزوج يقضى مدة عقوبة فى السجن فلا يمكن للزوجة أن ترفع قضية طلاق طالما أنه يستمر فى الإنفاق عليها^(٨٨). أما القانون ١٩٢٩ فتنص المادة ١٤ منه أنه فى حالة سجن الزوج لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات، فإن الزوجة يحق لها رفع قضية طلاق بعد فراق على الأقل مدة سنة^(٨٩).

ثار بعض المصريين على هذه المادة، وكتب المحامى الوطنى المصرى البارز محمد حسين هيكى الذى كان وزيراً للمعارف وعضواً فى البرلمان فى الأربعينيات مقالة فى الأهرام ينتقد هذا القانون "لأنه يعتبر خطراً يهدد الأخلاق بالفساد من جانب، ومن جانب آخر يقوض حياة الأسرة" لأنه سوف يجبر الزوجات على الادعاء بخشية الفتنة على أنفسهن إذا استمر زواجهن من أشخاص محكوم عليهم بالسجن لإقناع القاضى بالموافقة على الطلاق^(٩٠). ومن وجهة نظر هيكى - أحد المثقفين المؤيدين لتغريب المجتمع المصرى بصورة واسعة فى العشرينيات من القرن^(٩١)، فإن المرأة لا يجب أن تعطى لها أحقية طلب الطلاق حيث إن ذلك سيهدد الأخلاق العامة ووحدة الأسرة^(٩٢). ومن الجدير بالملاحظة أنه لم يعتبر أن الرجل الذى يبادر بالطلاق يهدد أخلاق الأمة أو يقوض أساسها.

ويعارض عبد الحميد حمدي رئيس تحرير "السفور" آراء هيكمل بأن الزواج يجب ألا يكون رابطة مفروضة لا يمكن حلها إلا من قبل الزوج فقط، وأثنى على وزارة العدل لمحاولتها تحديث قوانين الأحوال الشخصية التي كانت "مدعاة للسخرية" و" لا علاقة لها بالوقت الحاضر"^(٩٣). ورغم أن حمدي كان ينتقد قوانين الشريعة التي لا تعطي المرأة حق طلب الطلاق، فإنها كان حريصاً على ألا يهاجم الإسلام صراحة. بل بالعكس فقد كان يرى أن المشرعين في الدولة يمكنهم أن يجدوا في الإسلام ما يؤيد دعاوى الإصلاح في الزواج حتى يتحقق الهدف الحقيقي والأساسي من مغزاه وليس المعنى المعاصر له الذي يتحدد في أنه عقد يمتلك فيه الرجل المرأة^(٩٤). وتؤيد مطالبة حمدي بالإصلاحات داخل التقاليد الإسلامية رؤية أمينة شكرى التي تقول فيها "حتى الإصلاحيون المغتربون الحديثون..... يقترحون مشروعاتهم الخاصة بصفقتها دفاعاً عن الإسلام ونقداً للتقاليد العمياء. وكانت رؤيتهم في أغلب الأوقات تتمحور حول أن "الإسلام الحقيقي" يتوافق تماماً مع الحداثة"^(٩٥).

ويوافق أحد الكتاب الآخرين على رأى حمدي من منطلق أن نسبة حدوث حالات الانتحار، وقتل الزوجات البائسات لأزواجهن والتي دأبت الصحف على نشرها باستمرار - بالإضافة إلى انتحار الزوجات بصفة عامة - كما أبرزت شون لوبيز في الفصل الثالث عشر سوف تظل تتزايد إذا لم تعط المرأة الحق القانوني في إنهاء زواج لا يمكن تقبله أو تحمله^(٩٦). ورغم أن هؤلاء الكتاب الرجال قد ناصروا حق المرأة في الطلاق ليس من منطلق مساواتها بالرجل، ولكن كوسيلة تستهدف صالح الأمة الاجتماعي، فإن كثيراً منهم كانوا أكثر إلحاحاً وصلابة من غيرهم في المطالبة بالإصلاح. فمثلاً طالب عبده البرقوقي الحكومة بسن قانون موحد يعطي للمرأة والرجل والمسلم والقبطنى على السواء حق الطلاق، معطلاً ذلك بأن الزواج إذا لم يكن مقترناً بحق الطلاق فإنه يتساوى مع العبودية والرق، وإن الأمة التي تمنع الطلاق إنما تؤدي بأبنائها إلى الخشية من الزواج تتساوى مع الخشية من السجن^(٩٧). إلا أن أصوات كالبرقوقي كانت نادرة حتى بين المطالبين بالمساواة بين الجنسين.

ورغم أن قانون ١٩٢٠ تدخل فعلاً في الحياة "الشخصية" للرجال وخاصة المفقودين والمحبوسين والمرضى، فإن تنظيم تطليق الرجل للمرأة لم يتم حتى صدور القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩، وقد اختلف هذا القانون عن قانون ١٩٢٠ ليس فقط من حيث اتساع مساحة الشروط التي تبيح للمرأة طلب الطلاق، ولكن لأنه حاول أيضاً تقليص تفعيل طلاق الرجل. فمثلاً لا يعتبر الطلاق نافذاً إذا كان الرجل في حالة سكر أو تحت ضغط (مادة ١)، أو الطلاق كتهديد للمرأة لإجبارها أو إجبار طرف ثالث على الإتيان بعمل من الأعمال (مادة ٢) وحتى لو ألقى الزوج يمين الطلاق ثلاث مرات في جلسة واحدة فهي تعتبر طليقة واحدة (يجب أن يوقع يمين الطلاق ثلاث مرات في ثلاثة أوقات مختلفة حتى يصبح ساري المفعول (المادة ٣) بالإضافة إلى أن التعبيرات الضمنية أو الرمزية لا يعتد بها إلا إذا كانت الرغبة الشخصية متوفرة (مادة ٤)^(٩٨). وفي تجاوز جوهري عن أي قاعدة في تفسير المذاهب السنية الأربعة - جاءت صياغة المشرعين للمادة ٢، ٣^(٩٩). بل إنهم دعوا القضاة إلى ترك المذهب الحنفي الذي يقول بأن طلاق الرجل ملزماً للمرأة في جميع الأحوال حتى ولو ألقى اليمين بطريقة غير مباشرة، أو تحت إكراه، أو إهمال أو كمزحة أو وهو واقع تحت تأثير الخمر.

وقد رحبت الكثيرات من الكاتبات النسائيات في عهد الملكية في مصر بالقيود القانونية التي أقرتها اللجنة بشأن إطلاق حق الطلاق للرجل وحده، ومثل الكتاب من الرجال الذين ذكرناهم سابقاً، كانت عضوات الاتحاد النسائي ينشرن في جرائدهن مقالات عن إساءة استخدام الرجل للطلاق^(١٠٠)، في حين كانت كاتبات أخريات يتحسرن على سهولة إلقاء الرجل ليمين الطلاق بسرعة دون تفكير جدي بل وذهبت إحداهن بعيداً لتقترح عدم قانونية إلقاء اليمين "بالثلاث" فتقول "لو أحس الزوج أن باب الطلاق مغلق أمامه، وأنه ليس سهلاً عليه أن يتخلص من شريكة حياته، فسوف يلتزم بالقانون..... ولكن إذا كان الباب مفتوحاً على مصراعيه لأي رجل متهور يجافيه المنطق.... فإن معدل النساء المطلقات سوف يتزايد، وتنتشر الفوضى في الأسر، وتزداد حالة الأطفال الذين سوف يشبون دون رعاية سوءاً، ومن ثم يتحولون إلى متشردين جهلة"^(١٠١).

ابتعد المشرعون الوطنيون أيضاً عن تفسير المدرسة القانونية التي تقول بأن الطلاق يعتبر طلاقاً بائناً إذا ألقى الزوج اليمين ثلاث مرات فى أوقات مختلفة خلال فترة العدة. والطلاق البائن يعنى أنه على الزوج عقد زواجه على زوجته من جديد، ودفع مهر لها حتى تعود العلاقة الزوجية مرة ثانية. أما الطلاق الرجعى على الجانب الآخر فيعنى أن يحتفظ الرجل بحق إعادة زوجته إليه خلال فترة العدة رغماً عنها، ودون عقد زواج جديد أو دفع مهر جديد^(١٠٢). ورغم ما يبدو مما تستهدفه هذه المحاولات من تقييد حرية الطلاق من فائدة للمرأة، فإن نظرة مدققة أخرى تكشف أن نوايا المشرعين الوطنيين لم تكن حماية المرأة من توقيع طلاق متسرع من أزواجهن، بل فى الواقع أن الطلاق الرجعى (الذى يمكن التراجع فيه) يحفظ مؤسسة الزواج أكثر من الطلاق البائن. وبالتالي فإن مشرعى القانون ١٩٢٩ كانوا يستهدفون استقرار أكثر للعلاقة الزوجية من خلال المادة رقم ٥ التى تفيد بأن أى طلاق يمكن الرجوع فيه إلا إذا وقع ثلاث مرات أو وقع قبل تفعيل الزواج، أو كان الطلاق على مال^(١٠٣).

ومن الأشياء المثيرة أن من صاغوا القانون ١٩٢٩ لم يتبنوا منهج قاسم أمين فى الطلاق من حيث ضرورة إعلان الزوج رغبته فى الطلاق أمام قاض مسلم، أو موظف رسمى الذى يعين بدوره أحداً من المحكمين. فمن وجهة نظر قاسم أمين - إذا لم ينجح الوسطاء فى التوفيق بين الزوجين، فعليهم رفع تقرير إلى القاضى أو الموظف المسئول الذى يسمح بعد ذلك للزوج بتطليق زوجته، وبالتالي فإن الطلاق فى هذه الحالة يعتبر شرعياً إذا تم أمام القاضى أو المسئول الرسمى وأمام شاهدين مع التوقيع على وثيقة رسمية^(١٠٤). وكان من الواضح أن قاسم أمين لم ير فى اقتراحه سلب حق الرجل فى الطلاق، حيث إن الزوج غير مطالب بتفسير أسباب رغبته فيه ولكنه كان يستهدف - من خلال المنهج الذى وضعه - حماية الأسرة والمرأة المصرية من أزواج يتصرفون بوحى من ثورة غاضبة أو بدون رغبة صادقة فعلاً فى توقيع الطلاق.

ويشير عدم استجابة المشرعين فى الدولة لتقنين هذا النموذج - الذى كان سوف يحد بشدة من حرية الرجل فى الطلاق - إلى أنهم لم يكونوا مهئين تماماً لتقييد حق الرجل فى الطلاق. ومع ذلك ففى عام ١٩٤٣ ومرة ثانية فى عام ١٩٤٥، أعدت وزارة الشؤون الاجتماعية مشروع قانون يبيح الطلاق من جانب الرجل فقط إذا ما وافقت

المحكمة وبعد فحص القاضى لأسباب الطلاق وفشله فى محاولة التوفيق بين الزوجين. وبموجب هذا القانون يتعين على الزوج دفع غرامة أو السجن أو كليهما. إلا أن هذا المشروع لم يقن نتيجة الاعتراض الواسع عليه^(١٠٥). ويكشف فشل تقنيته بأن هذه المحاولة الصارخة لاستمرارية الزواج لم تلق القبول من الكثيرين.

ويبدو هنا أن هدف المسئولين فى الدولة لمنع الطلاق إلا عن طريق القانون، قد نجح. فقد لاحظ كثير من الكتاب والعلماء أن نسبة الطلاق فى مصر انخفضت بمعدل ثابت خلال القرن العشرين من ٢٦,٩٪ فى عام ١٩٢٥ إلى ١٦٪ فى عام ١٩٩١^(١٠٦). ورغم انخفاض النسبة من ٢٦,٢٪ فى الثلاثينيات إلى ٢٢,٢٥٪ فى الأربعينيات، فإن المفارقة الظاهرة أن المصريين استمروا فى التحسر على ما رأوا أنه ارتفاع فى نسبة الطلاق فى تلك الفترة^(١٠٧). فمثلاً، فى عام ١٩٢٣، انتقد المصلح الاجتماعى البارز محمد فريد جنىدى ارتفاع نسبة الطلاق الذى ادعى أنها بسبب سوء استخدام الرجل حقه فى الطلاق^(١٠٨). وكانت مشكلة الطلاق بالنسبة له "أنها إحدى أهم المشاكل الاجتماعية التى تؤرق المجتمع حيث إنها السبب الأساسى فى تدهور الأخلاق وخاصة بالنسبة للأطفال"^(١٠٩). وبالمثل ناقشت درية شفيق المناصرة لحقوق المرأة فى عام ١٩٤٩ قضية أن مصر تعاني من أكبر نسب الطلاق فى العالم فتقول "إن ثلث الأسر التى تكونت فى بداية العام قد أصابها الانهيار فى نهايته.... وإن حياتنا مهددة دائماً بلفظ واحد قد يطلقه أى مغفل أو سكير أو شخص آخر جاهل بالسلوك الاجتماعى والدينى السليم"^(١١٠)، ورغم أن درية شفيق كانت تتحسر على نسبة الطلاق المرتفعة، فإنها فى الوقت نفسه كانت داعية إلى حقوق المرأة فى طلب الطلاق. وحين طالبت الملكة فريدة بالطلاق من الملك فاروق (١٩٣٦-١٩٥٢)، أشادت درية شفيق بما فعلته الملكة التى كانت تعاني من تصرفات الملك الخارجية "لقد تخلت الملكة عن عرشها مقابل حريتها، وهى خطوة بارزة سامية فى تاريخ المرأة المصرية... ملكة تنزل من على سلالم القصر بمحض إرادتها، تاركة وراءها الإمتيازات والعظمة والأبهة وأيضاً بناتها الثلاث، لتتوجه إلى منزل أسرتها باحثة عن أجمل العروش "الحرية"^(١١١) ولم تكتف درية شفيق بالمناداة بحق المرأة فى الطلاق، بل طالبت بإلغاء تعدد الزوجات وهى ممارسة حاول بعض المسئولين المصريين فى الدولة أيضاً الحد منها.

الاتجاه السائد فى منظومة الزواج الاحادى

فى عام ١٩٢٦ شكل مجلس الوزراء لجنة برئاسة وزير العدل زكى أبو السعود والشيخ مصطفى المراغى، لوضع مسودة اقتراح لتعديل قانون الأحوال الشخصية وتلخصت أكثر اقتراحات اللجنة فى تحديد مبدأ تعدد الزوجات^(١١٢) وحق العروس فى وضع شرط فى وثيقة الزواج يمنحها حق طلب الطلاق إذا تزوج الزوج بأخرى، أو أن يطلق أى زوجات أخريات يكون قد تزوج بهن قبل زواجه بها^(١١٣). بالإضافة إلى اقتراح اللجنة بمنع توثيق الزواج الثانى دون الحصول على موافقة القاضى الذى يقرر مدى إمكانية الزوج المساواة بين زوجاته، وقدرته على الإنفاق على زوجة ثانية^(١١٤). ورغم عدم تقنين هذه الاقتراحات التى تستهدف الحد من تعدد الزوجات فإن الاقتراح فى حد ذاته والجدل الواسع الذى ثار حوله فى المجتمع يمثل الخطوة الأولى فى تاريخ مصر التى حاولت فيها الدولة منع تعدد الزوجات، كما أنه يشير إلى أهمية ظهور مناقشات وطنية فى الصحف التى حاولت أن تدخل الزواج بامرأة واحدة فى منظومة الدولة الحديثة.

وكانت محاولات تقنين فكرة تحديد مبدأ تعدد الزوجات تتخذ معنى ذا أهمية كبيرة من زاوية أن تعدد الزوجات لم يكن ممارسة عامة بل إنه تقلص فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. فقد جسدت الإحصائيات الرسمية انخفاض نسبة تعدد الزوجات، حيث أشارت إحصائية ١٩٠٧ إلى نسبة ٦٪^(١١٥)، وبعدها بعقد واحد أى فى ١٩١٧ إلى أن ٨، ٤٪ من الأزواج ربما مارسوا التعدد فى الزوجات^(١١٦). واستناداً إلى سجلات المحاكم الشرعية والتسجيلات الإحصائية على التوالى يلاحظ تاكر وكونو أن هذا المبدأ لم يكن منتشرًا فى القرن التاسع عشر. ويرى تاكر أن هذا الانخفاض فى معدله فى الأرياف هو نتيجة الأحوال المادية حيث لا تسمح الموارد المالية للمواطنين بإعاشة زوجة ثانية^(١١٧). وبالمثل يلاحظ كونو أن الأسر التى لا تنتمى إلى النخبة فى الريف لم تلجأ إلى تعدد الزوجات^(١١٨). وحين كان الأزواج من

أصحاب النخبة في الريف يمارسون هذا المبدأ، فقد كان ذلك نتيجة زيادة ثروتهم "ووسيلة لزيادة عنصر العمل في الأسرة، وزيادة إمكانية الحصول على أبناء ورثة من الذكور" (١١٩).

وفي أوائل القرن العشرين لاحظ الكثير من الأوروبيين مزيداً من انخفاض النسبة في تعدد الزوجات في مصر. فكتب وينيفريد أس. بلاكمان الذي كان يعد دراسة عن مصر العليا في منتصف العشرينيات من القرن أن "الزواج من امرأة واحدة أصبح هو السائد في مصر، وأن الزواج بأكثر من واحدة ينظر إليه كعادة بربرية حتى بين الفلاحين" (١٢٠). وتؤكد الرحالة الأمريكية إليزابيث كوبر "أن أكبر شر اجتماعي كما تشير إليه المعايير الغربية وهو تعدد الزوجات قد بدأ يتلاشى" (١٢١). ومن المثير للاهتمام أن بلاكمان بالإضافة إلى إى. أل، بوتشر يشيران إلى أن الرجال المصريين يفضلون طلاق زوجاتهم ليتزوجوا ثانية بدلاً من أن يلجئوا إلى تعدد الزوجات (١٢٢). ورغم الشك في هذه المصادر (١٢٣)، فإن هذه الملاحظات ربما تكشف لماذا جنحت آراء بعض المصريين إلى أن ممارسة تعدد الزوجات سوف تمنع من طلاق الزوجة الأولى للزواج بأخرى. بل إن بعض الأكاديميين المصريين لاحظوا أنه خلال فترة الثلاثينيات كان تطبيق الرجال لزوجاتهم "يحل محل تعدد الزوجات بين الفقراء" (١٢٤).

ورغم أن بعض المصريين كانوا يدافعون عن مبدأ تعدد الزوجات، فإن العديد من الوطنيين كانوا قد بدأوا ينشرون فكرة الزواج بامرأة واحدة كنموذج مثالي للهوية الوطنية. وتشير كلاريسا لى بولارد إلى أن هذا الزواج أصبح النموذج الأمثل في مصر الحديثة بدءاً من أواخر القرن التاسع عشر، وتستطرد بأن الخديوى توفيق (١٨٨٣-١٨٩٢) حين تزوج بامرأة واحدة، فقد وضع شكلاً جديداً للعلاقة الأسرية الملكية أمام "الشعب" بحيث ارتبطت ممارسته للزواج بامرأة واحدة بصورة بناء الأمة - الدولة. وحسبما يقول بولارد فإن الإعلان عن العلاقة الزوجية على أساس زوجة واحدة كان يرتبط بشئون الشعب (١٢٥). وبالمثل، فحتى قبل أن يكتب لورد كرومر عن التأثير "المميت" لتعدد الزوجات على الحياة الأسرية في مصر، كان الإصلاحيون قد بدأوا

فى انتقادها علانية، مشيرين إلى تشابه مناقشات الوطنيين فى الدول المستعمرة وتلك التى تناهض الاستعمار^(١٢٦). وفى عام ١٨٩٨ طالب الشيخ محمد عبده الذى كان المفتى الأكبر لمصر من عام ١٨٩٩ وحتى ١٩٠٥، ومن بعده قاسم أمين فى عام ١٨٩٩ على التوالى بتقييد حرية تعدد الزوجات، وأثتوا على مبدأ الزوجة الواحدة كنموذج إسلامى، وأن القرآن حين قنن تعدد الزوجات فقد كان ذلك فى أضيق الحالات وفى نفس الوقت حذر الرجال منه^(١٢٧).

لم يكن شجب تعدد الزوجات محصوراً فى الإصلاحيين القانونيين البارزين فقط. ففى الفصل الرابع عشر تغوص مرفت حاتم فى الذاكرة الوطنية لملك حفنى ناصف. فقد تقدمت الكاتبة المعروفة والمناصرة لحقوق المرأة - وكانت تحرر عموداً أسبوعياً يتناول العديد من قضايا المرأة فى مجلة "الفريدة" - بعدد من المطالب إلى مجلس النواب المصرى من خلال بعض من فوضتهم فى ذلك تطالب بوضع قيود قاسية على تعدد الزوجات. وقد فجرت هذه الطلبات جدلاً عنيفاً حاداً انتهى إلى رفضه^(١٢٨). وفى عام ١٩١٧، حين كانت وزارة العدل تفكر فى إعداد مشروع لإصلاح قانون الأحوال الشخصية، طلب أحمد صفوت تقييد تعدد الزوجات حتى يسود الزواج الأحادى^(١٢٩). وعلى نفس المنوال سار عبد الفتاح السيد عام ١٩٢٢، وهو أستاذ فى القانون أصبح بعد ذلك رئيساً لمحكمة النقض - حيث طالب بأن يكون السماح بتعدد الزوجات قاصراً على حالات معينة منها مرض الزوجة، أو كبر سنّها أو إصابتها بالعقم، شريطة أن يستطيع الزوج إعالة زوجة ثانية^(١٣٠). وربما كانت المقاومة الضعيفة لهذه المحاولات الأولى هى التى دفعت بالمشرعين فى الدولة إلى عدم بذل جهود مجمعة لتقييد تعدد الزوجات إلا فى عام ١٩٢٦.

ومرة ثانية، فإن اللجنة التى شكلتها الحكومة لبحث قضية تعدد الزوجات تأثرت بالشيخ محمد عبده، وقاسم أمين^(١٣١)، اللذين اقترحا بأن الرجل الذى له زوجة واحدة يجب أن يمتنع عن الزواج بأخرى إلا فى حالة اقتناع المحكمة بأنه سوف يساوى بينهما، ويقوم بكل التزاماته المالية حيالهما. ومثل "عبده وأمين" حاولت اللجنة أن تحد من تعدد الزوجات لصالح النسل، أو الجيل الجديد فى الأمة. وتضمنت المذكرة التفسيرية

التي صاحبت مشروع القانون أنه يجب الحد من تعدد الزوجات خاصة وأن أغلب الأطفال المهملين كانوا ثمرة زواج عجز الرجل فيه عن الإنفاق حتى على أسرة واحدة^(١٣٢). ومرة ثانية فالمشروعون الوطنيون لم يسعوا إلى تحسين الحياة الزوجية للنساء، بل الأصح أنه تحت دعاوى تحسين النسيج الاجتماعي، وحسن تربية النشء لصالح مستقبل الأمة، بحثوا عن مدخل قانوني كوسيلة لتشكيل الشعب وتنظيمه على خطى الوطنية الجديدة.

سار دعاة المساواة بين الرجل والمرأة وكذا الكاتبات النسائيات على نفس الخطوات التقليدية للدعاة السابقين وذلك من خلال نشر التأثيرات السلبية لتعدد الزوجات على المرأة^(١٣٣). وكان من ضمن المطالب المتكررة للاتحاد النسائي والتي قدمتها الحكومة هو وضع قيود قانونية أمام التعدد، والمطالبة بأن يسمح للزوج بالزواج بامرأة ثانية في حالة ما إذا كانت الزوجة الأولى عقيماً أو مريضة بمرض لا شفاء منه^(١٣٤). وخلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن امتلأت صفحات الجرائد الرسمية للاتحاد النسائي، واتحاد بنت النيل، وبقية الجرائد النسائية الأخرى بحملات واسعة نشطة لتقييد تعدد الزوجات^(١٣٥). وكما يقول بدران، فإن هؤلاء الكاتبات كن يعتبرن تعدد الزوجات أداة ذكورية لقمع النساء^(١٣٦). وليس ذلك فحسب، فكما فعل المشرعون الوطنيون صوروا ظاهرة تعدد الزوجات كتهديد للأسرة في حدودها الضيقة، وتهديد للأمة بنظرة أوسع وأشمل، وربما من أجل الحصول على مساندة الحكومة والشعب كانت الكاتبات أكثر مباشرة في ربط العلاقة بين الزواج وتطور الأمة.

وفي العشرينيات وما بعدها بدأت الناشطات النسائيات في نقدهن لتعدد الزوجات بصورة أوضح داخل مناقشتهم للحدثة والوطنية. ويكشف الجدل الذي كان دائراً في الصحف في تلك الفترة أن كثيراً من المثقفين الوطنيين، والناشطين السياسيين في عهد الملكية، اعتبروا الزواج بامرأة واحدة هو الطريق إلى الحدثة في دولة شبه مستقلة. فمثلاً صرحت هدى شعراوي للأهرام بأن تعدد الزوجات "يشكل عقبة أمام "خلق" أسرة متناغمة تولد القوة المعنوية التي تستطيع أن تشكل وتوجه المواطن الصالح"^(١٣٧).

وأعلنت سيزا نبراوى أيضاً - وهى إحدى تلميذاتها - أنه إذا أرادت مصر أن تعتبر نفسها أمة متقدمة، فيجب عليها أن تحذو حذو بعض الدول الإسلامية الأخرى التى ألغت تعدد الزوجات، أو وضعها فى أضيق الحدود^(١٣٨). وتقول أيضاً: "إن هذه المقاومة للتيارات الحديثة داخل أمة تفتخر بأنها على رأس كل الحركات التقدمية تذهلنى تماماً"^(١٣٩).

وقد لاحظ المثقفون بالمثل تلك الروابط التى انعقدت بين مفهوم الحداثة والزواج، والتى تضمنها الجدل المثار حول تعدد الزوجات. فمثلاً تقول بارون إن نظرة جديدة إلى الزواج كزواج يتأسس على الاختيار والعاطفة فى مقابل الزواج التقليدى، بدأت تظهر فى مصر فى أوائل القرن العشرين فى وقت كان تعدد الزوجات والمعاشرة من غير زواج شرعى هى العقبة الأساسية أمام النموذج المثالى الجديد للزواج^(١٤٠). وبالنسبة لبارون فإن إلغاء المعاشرة دون زواج شرعى والرق طبقاً لما جاء فى المؤتمر الإنجليزى - المصرى الذى عقد سنة ١٨٧٧ قد قوى من مؤسسة الزواج، وشكل الخطوة الأولى فى الطريق إلى النموذج المثالى للزواج وهو الزواج بامرأة واحدة^(١٤١). ثم تستطرد لتقول إن قوانين الزواج والطلاق فى مصر الحديثة "حاولت أن تنهى العلاقات التى لا تتوافق مع النموذج المثالى للزواج المتوافق"^(١٤٢)، وفى حين ما كانت فكرة الزواج المتوافق تعتبر إحدى المبررات لرأى اللجنة فى الزواج بامرأة واحدة والتى سادت فى تلك الفترة، إلا أن ذلك لم يكن الهدف المعلن لتقييد تعدد الزوجات، فكما ذكرنا سابقاً ذكر المشرعون المصريون أن تقييد هذا التعدد يستهدف صالح الطفل والأسرة. ومع ذلك فحين استخدم أنصار المساواة بين الرجل والمرأة والوطنيون والكتاب العديد من التفسيرات لإدانة تعدد الزوجات، إلا أن هدف اللجنة الأساسى كان إخضاع طرفى العلاقة الزوجية وممارستها داخل حيز صغير من زواج بالغ يضم زوجة واحدة.

وتعزز مارلين بوث نظرة بارون فى أن صحافة المرأة، وسيرتها الذاتية بدأت تنحاز إلى فكرة الزواج المتوافق فى مصر الحديثة. وترى بوث أن إعادة طرح الزواج على هذا الشكل ساعد على تقديم صورة لأسرة نووية تعتبر حجر الأساس فى بناء الأمة.

وتستطرد لتقول إن هذا النموذج المثالي للزواج والأسرة كان جانباً من محاولة الطبقة المتوسطة من النخبة في مصر تحديد شخصيتها في مقابل شرائح أخرى اقتصادية واجتماعية داخل المجتمع، بالإضافة إلى تأكيد سلطتها كشريحة سوف تقود الأمة إلى الاستقلال^(١٤٣). واستطراداً لما قالته دنيس كانديوتي، ترى بوث أن البرنامج الوطني الرئيسى للنظام الاجتماعى رسم صورة للأسرة النووية بصفتها وحدة الإنجاب الأساسية فى الأمة، وأن هذا البرنامج لم يضعف الاتجاهات الأخرى المشابهة فى أساسها، ولكنه أسبغ كثيراً من المثالية على دور المرأة فى إدارة الأسرة النووية من خلال عرض سيرها الذاتية، وصحافتها، بحيث أصبحت قوة وطنية يمكنها إعادة توجيه آراء ومعتقدات الجماعات المهمة فى المجتمع^(١٤٤). وقد عرض مثقفون آخرون عدة أسباب للتحويل الذى طرأ على المناقشات والحوار حول مفهوم التقدم والممارسات الفعلية له والتي انعكست فى أمثلة عديدة مثل ظهور أسرة نووية تضم زوجة واحدة بدلاً من نموذج الأسر الممتدة فى القرن التاسع عشر مما يعد نهاية لنظام الحريم، وكذلك استخدام النمط الغربى فى الهندسة المعمارية، والتطور المعاصر فى المنتج الاجتماعى فى ظل الرأسمالية وظهر الملكية الخاصة والأخذ بأساليب التحضر^(١٤٥). ومع ذلك فلم يحاول أحد تفسير كيف أن المسؤولين الرسميين فى مصر حاولوا مساندة نموذج الزوجة الواحدة، كما لم يحاول أحد - فيما عدا بوث - أن يشرح أسباب ظهور هذا الجدل حول تكوين الأسرة النووية فى ذلك الوقت.

وكما يتبين من خلال تقدير النسبة المرتفعة لزواج القاصرات، فقد كانت نسبة تعدد الزوجات أكثر مما تشير إليه البيانات الإحصائية. وهذا يطرح سؤالاً: لماذا حاول المسؤولون والكتاب فى الصحف الحد من تعدد الزوجات إذا لم تكن ممارسة عادية. ففى خلال عهد الملكية على الأقل، يبدو أن محاولات الحد من هذا النمط من الزواج، كان بدافع من رغبة الدولة فى تشجيع وتعزيز فكرة الأسرة النووية التى لن تستطيع أن تشكل تهديداً لسلطاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فمن خلال تشجيع هذا النموذج والذى يتأسس على زوجة واحدة تمثل الاتجاه الحديث، أدان الكتاب الوطنيون والمسؤولون الرسميون بناء شبكة من الأسر الممتدة قد يكون من المحتمل أن تؤدي

إلى أعمال تخريبية ضد الدولة. وكما بذلت محاولات الحد من زواج القاصرات والطلاق بطرق قانونية، حاول بعض المسؤولين بالدولة أيضاً إلى جانب كثير من الوطنيين والمناصرين لقضية المرأة الحد من تعدد الزوجات كإحدى الوسائل الأخرى للتحكم فى تقاليد الشعب فى الزواج، وإخضاعها للإشراف المنظم للدولة. وبطرح صورة الأسرة النووية كأفضل وحدة إنجابية للدولة المزدهرة، يمكن لها أن تؤمن سيطرتها على الشعب.

ومن المهم أن نشير هنا إلى أنه فى حين أن بعض المشرعين الإصلاحيين، والكتاب فى الصحف كانوا يشجعون الاكتفاء بالزوجة الواحدة كخطوة فى طريق تحديث مصر، واستقلالها الوطنى، إلا أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للكثيرين. فمثلاً رغم موافقة مجلس الوزراء فى عام ١٩٢٧ على المشروعات التى قدمت للحد من تعدد الزوجات عام ١٩٢٦، إلا أن الملك فؤاد (١٩١٧-٣٦) رفضها جميعاً وبالتالى لم يتم إقرارها فى قوانين. وادعى أندرسون بأن الملك اضطر إلى رفضها حيث كانت النظرة إلى تعدد الزوجات بالنسبة للكثيرين وسيلة لمزيد من العمالة، والتى تعتبر مؤسسة اقتصادية تساعد أهل الريف المعدمين^(١٤٦). ومع ذلك فإن هذا التفسير يتعارض مع الحوار الذى كان يسود الشعب المصرى فى ذلك الوقت، وأيضاً مع النتائج التى توصل إليها تاكر وكونو من أن تعدد الزوجات كان يمارس فى محيط الأغنياء وليس الفقراء^(١٤٧). والأكثر من ذلك - وكما لاحظ العديد من المثقفين - أن التزايد فى عدد السكان الذى بدأ يلقي الاهتمام الشديد من الشعب، أسفر عن المطالبة بالحد من زيادة نسبة المواليد^(١٤٨).

وتفسير آخر أصدق لرفض الملك لمشروعات هذه القوانين يرجع إلى أن الملك لم يكن يتمتع بشعبية تذكر، وكانت تخامره تطلعات فى أن يصبح خليفة المسلمين، وبالتالى كان يهتم بمساندة الشعب له ولذلك لم يكن فى مقدوره تبرير الموافقة على مثل هذا القانون الذى يحد من الحقوق الدينية للرجل^(١٤٩). كما أن المعارضين من المسلمين كانوا يشجبون هذه التجديدات التى تدعمها الدولة والتى تمنع ما حلله الله من جهة، ومن جهة أخرى تدخل الدولة فى علاقة حللها الله بدلاً من فرض قوانينها بواسطة

المحاكم^(١٥٠). وقد عرضت وزارة الشؤون الاجتماعية اقتراحات مشابهة لتقييد تعدد الزوجات فى عامى ١٩٤٣، ١٩٤٥ ولكن دون جدوى^(١٥١). ويجب أن نلاحظ هنا أن المذهب المالكي بشأن إساءة المعاملة، والذي تشير إليه المادة ٢٥ فى قانون ١٩٢٩ كما ناقشنا آنفاً، تم تفسيرها بصورة أعم من بعض القضاة بما يسمح للمرأة التى تلح فى طلب الطلاق إذا ما تزوج الزوج بامرأة أخرى فى نفس الوقت، وإذا أثبتت أنه لا يعاملها مالياً أو عاطفياً كما يعامل الزوجة الثانية^(١٥٢). ورغم ما يبدو من اتساع مفهوم سوء المعاملة كمحاولة غير مباشرة ومراوغة قانونية من الحكومة المصرية لوضع المعوقات أمام تعدد الزوجات، فإن مادة القانون أو المذكرة التفسيرية التى صاحبت القانون لا تشير بطريقة مباشرة إلى تعدد الزوجات^(١٥٣).

ومع ذلك لم يمنع هذا الجدل بعض المناصرين لقضية المرأة من المصريين من الضغط على الحكومة لاتخاذ وقفة ضد تعدد الزوجات. فقد نادت درية شفيق وبصورة مباشرة بأكثر مما فعل الاتحاد النسائى المصرى بالإلغاء التام لتعدد الزوجات، وطالبت أعضاء البرلمان المصرى بالموافقة على هذا الإلغاء مما تسبب فى هجوم شرس عليها من شيوخ الأزهر وأعضاء جماعة الإخوان المسلمين^(١٥٤). وقد نتج عن حملتها ضد تعدد الزوجات حملة مضادة للدفاع وحماية ظاهرة كانت فى سبيلها إلى الأفول، بالإضافة إلى اتخاذ نفس الموقف أمام مطالب المناصرين للمساواة بين الجنسين بعد ذلك. حتى إن المراغى - الذى سبق ورأس اللجنة الأساسية عام ١٩٢٦ والتى بحثت فى تقييد هذا القانون - كتب بعد ذلك فى الصحف مؤيداً لمبدأ تعدد الزوجات بعد أن أصبح شيخاً للأزهر^(١٥٥). ويتبين من ذلك أن الآراء لم تختلف فقط حول قانون الأحوال الشخصية داخل الدولة نفسها ولكن بين مواقف المسئولين أنفسهم المتناقضة. وقد أورد خلفه بعد ذلك نفس المبررات بأن تعدد الزوجات يساعد الفلاحين الذين يحسبون كم الإنتاج وفقاً لعدد الزوجات والأطفال لديهم^(١٥٦). وقد أدت ربود الفعل الغاضبة على محاولات الدولة تقييد هذا النوع من الزواج ليس فقط إلى المزيد من مواقف الدفاع عنه، ولكن أكد أيضاً أن مفهوم الزواج فى عصر الملكية فى مصر كان يشغل مساحة تشتعل فيها معركة أيديولوجية ساخنة.

الخاتمة

إذا وضعنا ما تم نشره بصورة غير مسبقة عن القوانين التي سنتها الدولة بشأن الزواج والطلاق في عصر الملكية في مصر في مضمونه العام، يتضح لنا أن المشرعين في الحكومة حاولوا أن يحكموا سيطرتهم على الشعب عن طريق تنظيم وتقنين مؤسسة الزواج، وإدخال الأسرة في المنظومة القوية الثابتة لدولة مزدهرة. وبصورة أوسع وأشمل وضع قوانين تنظم تقاليد الزواج التي كانت تمارس على نطاق واسع، وكما لاحظ الغربيون، وكما تشير الإحصاءات الرسمية للسكان، كان زواج القاصرات وتعدد الزوجات في طريقهما إلى الأفول قبل محاولة الدولة تقييد هذه الممارسات. وفي هذا الخصوص، فإن مصر تتشابه مع إستانبول في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حين كان الزواج يتم في سن متأخرة سواء بالنسبة للرجال أو النساء، وكانت الأسر في الأساس هي أسرة تضم زوجة واحدة وتعدد الزوجات لا يكاد يذكر. وفي ضوء الدلالة السكانية التي كانت تشير إلى غلبة النموذج المثالي للأسرة في إستانبول، يحار آلان دوبين وكيم بيهار في اهتمام الصحافة الحديثة بظاهرة تعدد الزوجات، وزواج القاصرات، والأسر المشتركة والتي يمكن ترجمتها فقط كنوع من إساءة رؤية الممارسات السائدة^(١٥٧). ومع ذلك، فكما تشير كانديوتى، حتى نفهم أسباب هذا الاهتمام أن نبحث عن التفسير من خلال الرغبة في صياغة ونشر مبادئ أخلاقية جديدة. كما تساءلت لماذا راهن الإصلاحيون في الصحف في مطالبتهم بالحدثة والاستقلال السياسى على هذا الشكل "الجديد" للأسرة^(١٥٨). أما في مصر فيوجد العديد من الأسباب التي تبرر محاولات رجال الدين والمشرعين الوطنيين والمناصرين لقضايا المرأة والكتاب نشر رؤيتهم لمنظومة الأسرة البالغة ذات الزوجة الواحدة، والزواج المستقر كأساس للدولة المصرية الناهضة.

ورغم أن الرسميين الغربيين والمسافرين إلى مصر أدانوا في كثير من الأحيان نسب الطلاق المرتفعة فيها، والممارسات المختلفة والمتمثلة في زواج القاصرات وتعدد الزوجات، فإننا يجب أن نتذكر أن المقترحات المصرية لإصلاح قوانين الزواج لم تكن

ببساطة رد فعل أو بسبب انتقاد الغرب لها، كما أن المطالب المصرية للإصلاح والتي ظهرت فى المقالات والخطب الدينية ضد الاستعمار جسدت تأكيدها ورغبتها فى وجود هوية وطنية كانت ضرورية فى مشروع بناء الدولة المناهض لمشروع الاستعمار. ومع ذلك ففى نفس الوقت كانت الجهود الرامية لإصلاح ممارسات الزواج من قبل الدولة، ورجال الدين، والإصلاحيين الوطنيين والكتاب الصحفيين نابعة من عدد من العمليات المعقدة كانت وراء نمو المؤسسات القانونية والطبية، والأخذ بأساليب التحضر والمطالبة بالتحديث، وباختصار بدأت النظرة إلى زواج القاصرات، والطلاق الذى يبادئ به الرجل من جانبه فقط، وتعدد الزوجات كممارسات لا تتواءم مع دولة مصرية قوية "حديثية". وبالتالي كانت محاولاتها للحد من كل هذه الممارسات تهدف إلى جعل الزواج أكثر صحة واستقراراً حتى يشكل قاعدة صلبة لدولة تتمتع باستقلالها وخالية من أى أمراض اجتماعية.

ورغم أن الدولة أخذت على عاتقها دوراً غير مسبوق فى مجال الأسرة "الخاص"، فإن الكثير من المصريين شجعوها بإيجابية على ذلك، من منطق أن المسؤولين فى الدولة، والعديد من المصلحين الاجتماعيين، والمعلقين الوطنيين، والمناصرين للمرأة كانوا يؤمنون بأن الزواج البالغ المستقر الذى ينبنى على زوجة واحدة هو الطريق الأساسى الذى يؤدى فى النهاية إلى تشكيل الأمة المصرية الحديثة. ومع ذلك فإن الزواج فى عصر الملكية ظل ساحة صراع لتشكيل الهوية الوطنية التى حاول الكتاب والمثقفون إعادة تعريفها مرات ومرات وبدرجة غير مسبوقة. كما أن الجدل القانونى والصحفى حول أسباب الزواج وأهدافه ومعانيه فى تلك الفترة كان دلالة مقنعة على القلق السياسى والثقافى الذى غالباً ما يصاحب تجارب الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار.

كان الزواج ساحة امتلأت بالأفكار الوطنية التى طرحتها الدولة وأعادت طرحها مراراً وتكراراً، كما زخرت أيضاً بآراء المواطنين الذين كانوا يهاجمون المجتمع المصرى ويعرضون رؤى متعددة لدور الدولة، ومنظومة الزواج والأسرة فى الأمة الناهضة.

وفى حين ما كان بعض الوطنيين المدنين، وهؤلاء المناصرين للمساواة بين الجنسين ينادون بزواج البالغين الذى يتأسس على زوجة واحدة والذى يتسم بالثبات والاستقرار ليكون الطريق إلى الاستقلال الوطنى، نجد أن هذه الفكرة لم تكن فكرة جماعية اتفق عليها الجميع، بل إن بعضاً من طوائف المجتمع وخاصة الدينية كان يعتنقون أفكاراً مناهضة لها. وكانت المعتقدات الاجتماعية والثقافية التى يدور حولها الجدل فى منظومة الزواج تظهر جلية - ليس فقط فى تنوع الصيغ المختلفة للوعى القومى المصرى الذى كان سائداً فى الدولة والصحافة وبين الطبقة العليا من النخبة - ولكنه بدا واضحاً أيضاً فى تنظيم فكرة الزواج وتقنينها غير المسبوقة. وتظهر هنا الحاجة إلى مزيد من الأبحاث لفهم مدى وتأثير القوانين الوطنية الجديدة على المجتمع المصرى. وربما تكون الدراسة الموسعة لسجلات المحاكم الشرعية فى عهد الملكية فى مصر عاملاً للكشف عن نظرة الرجال والنساء المصريين الذين لجئوا إلى المحاكم إلى تدخل الدولة فى صراعاتهم الزوجية بالإضافة إلى تفسير كل قاض لقوانين الزواج والطلاق الجديدة وكيفية تطبيقها. والأمر يحتاج إلى فحص هذه السجلات بدقة لتقدير إلى أى مدى أثرت قوانين الدولة أو لم تؤثر فى فهم ما تعنيه كلمة الزوج والزوجة والرعايا الوطنيين المصريين فى بلد شبه مستعمرة ما زالت تناضل لتحقيق كامل استقلالها.

الهوامش

(١) أود أن أشكر برنارد هيكل، ليات كوزما، زخاري لوكممان، ماري تولان، ماريو آر. روينز، كاتايون شافعي وشاريا تلغاني على تعليقاتهم ووجهات نظرهم على هذا الفصل والتي لا تقدر بثمن.

(٢) جيوف إيلي ورونالد جريجور صني،

Introduction: From the Moment of Social History to the Work of Cultural Representation," in idem, *Becoming National: A Reader*.

(نيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٩٦)، ٢٦ .

(٣) انظر على سبيل المثال: جويل بنين وزخاري لوكممان،

Workers on the Nile: Nationalism, Communism, Islam, and the Egyptian Working Class, 1882-1954.

(برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٨٧)، رالف أم. كوري،

Who 'Invented' Egyptian Arab Nationalism?

المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ١٤ (١٩٨٢): ٨١-٢٤٩، إسرائيل جرشوني وجيمس بي. جانكويسكي،

Egypt, Islam, and the Arabs: The Search for Egyptian Nationhood, 1900-1930

(نيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٨٦)، كذلك *Redefining the Egyptian Nation, 1930-1945*

(نيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٥).

(٤) انظر على سبيل المثال: ليلي أحمد،

Women and Gender in Islam: Historical Roots of a Modern Debate.

(نيوهافن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩٢)، مارجو بدران،

Feminists, Islam, and Nation: Gender and the Making of Modern Egypt.

(برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٥)، بيت بارون،

The Women's Awakening in Egypt: Culture, Society, and the Press.

(نيوهافن: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٩٤)، سلما بوتمان *Engendering Citizenship in Egypt*

(نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٩٩)، جوان كول *Feminism, Class, and Islam in*

Turn-of-the-Century Egypt المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ١٣ (١٩٨١): ٢٨٧-٤٠٧،

توماس فيليب،

Feminism and Nationalist Politics," in Women in the Muslim World.

طبعة لوا بيك ونيكي آر كيدي (كامبريدج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٧٨)، ٢٧٧-٩٤ .

- (٥) بارون Baron, The Women's Awakening, ١٢-١٤ .
- (٦) بارثا شاترجى The Nation and Its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٢)، ١١٦-٢٤ .
- (٧) مع التركيز على بناء المرأة المصرية باعتبارها أمّاً للأمة، تستعرض تيموثى ميتشل وأمنية شكرى كيف حاول القوميون المصريون دفع وتطوير المرأة سواء في مجال الثقافة الداخلية أو التقدم الخارجى على حد سواء. انظر: تيموثى ميتشل، Colonising Egypt.
- (بيركلى: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩١)، ١١٣، أمنية شكرى، "Schooled Mothers and Structured Play: Child Rearing Turn-of the-Century Egypt,".
- طبعة ليلي أبو لجود Remaking Women: Feminism and Modernity in the Middle East.
- (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٨)، ١٢٦-٧٠، انظر كذلك: بيث بارون، Mothers, Morality, and Nationalism in Pre-1919 Egypt.
- في طبعة رشيد خليدي، ليزا أندرسون، محمد مصلح وريفا أس. سايمون The Origins of Arab Nationalism (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٩١)، ٢٧١-٨٨، مارلين بوث، May Her Likes Be Multiplied: Biography and Gender Politics in Egypt.
- (بيركلى: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠١)، ربيكا جوبين، Creating the Modern Professional Housewife: Scientifically Based Advice Extended to Middle- and Upper-Class Egyptian Women, 1920-1930S.
- مجلة الدراسات العربية ٤، ٢ (خريف ١٩٩٦): ١٩-٤٥، كلاريسا لى بولارد، Nurturing the Nation: The Family Politics of the 1919 Egyptian Revolution.
- (مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة كاليفورنيا، بيركلى، ١٩٩٧).
- (٨) إيتيان باليار The Nation Form: History and Ideology، كذلك في إيمانويل والرشتاين، Race, Nation, Class: Ambiguous Identities.
- (فرسو، لندن، ١٩٩١)، ١٠١، ١٠٢ .
- (٩) انظر: طبعة عبد الله أ. النعيم Islamic Family Law in a Changing World: A Global Resource Book (لندن: كتب زد، ٢٠٠٢)، ١٦٩-٧٠، جون أل. اسبوزيتو Women in Muslim Family Law (سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ٢٠٠١)، ٥٩-٦٠، ميرفت حاتم، The Enduring Alliance of Nationalism and Patriarchy in Muslim Personal Status Laws: The Case of Modern Egypt.
- قضايا المرأة ١، ٦ (١٩٨٦)، ١٩ .

- (١٠) جيمس أن. دي. أندرسون Islamic Law in the Modern World (نيويورك: مطبعة جامعة نيويورك، ١٩٥٩)، كذلك.
- Law Reform in Egypt: 1850-1950," in Political and Social Change in Modern Egypt.
- طبعة بي. أم. هولت (لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٦٨)، ٢٠٩-٢٠، كذلك.
- The Problem of Divorce in the Shari'a Law of Islam: Measures of Reform in Modern Egypt.
- مجلة الجمعية الملكية لمجتمع آسيا الوسطى ٢٧ (١٩٥٠): ١٦٩-٨٥، كذلك.
- Recent Developments in Shari'a Law II: Matters of Competence, Organization and Procedure.
- العالم الإسلامي ٤٠، ١ (يناير ١٩٥٠): ٢٤-٤٨، كذلك.
- Recent Developments in Shari'a Law III: The Contract of Marriage.
- العالم الإسلامي ٤١، ٢ (أبريل ١٩٥١): ١١٣-٢٦، كذلك.
- Recent Developments in Shari'a Law IV: Further Points Concerning Marriage.
- العالم الإسلامي ٤١، ٣ (يوليو ١٩٥١): ١٨٦-٩٨، كذلك.
- Recent Developments in Shari'a Law V: The Dissolution of Marriage.
- العالم الإسلامي ٤١، ٤ (أكتوبر ١٩٥١): ٢٧١-٨٨، كذلك.
- "The Role of Personal Status in Social Development in Islamic Countries," Comparative Studies in Society and History 13, 1.(1971): 16-31.
- بدران Feminists الفصل السابع، بيت بارون،
- The Making and Breaking of Marital Bonds in Modern Egypt.
- في طبعة نيكي آر. كيدي وبيت بارون،
- Women in Middle Eastern History: Shifting Boundaries in Sex and Gender.
- (نيوهافن: مطبعة جامعة ييل)، ٢٧٥-٩١، نويل جي. كولسون A History of Islamic Law.
- (ادينبورج: مطبعة جامعة ادينبورج، ١٩٦٤)، الفصل ١٢-١٤، اسبوزيتو Women الفصل الثالث، حاتم،
- The Enduring Alliance 19-43، أميرة الأزهرى سنبل Introduction كذلك،
- Women, the Family, and Divorce Laws in Islamic History.
- (سيراكيز: مطبعة جامعة سيراكيز، ١٩٩٦)، ٢٠-١.
- (١١) أندرسون Islamic Law، ٢٦، اسبوزيتو Women، ٥٠.
- (١٢) سنبل Introduction، ١١.
- (١٣) بدران، ١٣٥.

- (١٤) بوتمان Engendering Citizenship، ٢٢، ٤٩، حاتم The Enduring Alliance، ٢٦ .
- (١٥) بي. أف. مسلم Sex and Society in Islam: Birth Control Before the Nineteenth Century (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٢)، ١١ .
- (١٦) لتلخيص الجهود للحد من اختصاصات المحاكم الشرعية في مسائل الأحوال الشخصية، انظر: أندرسون Shari'a Law II، ٣٥، ناثن براون "World : Courts in Egypt and the Gulf (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٧)، ٢٨-٣٩، جي. بي. فاتيكوتس، The Modern History of Egypt: From Muhammad Ali to Mubarak.
- الطبعة الرابعة (بليمور: مطبعة جامعة جون هوبكنز، ١٩٩١)، ١١٩، ٢٩٩، في عام ١٨٩٧ صدر قانون ينظم إجراءات المحاكم الشرعية، وعدل في عام ١٩١٠ و ١٩١٢، لإعادة تنظيم المحاكم الشرعية، واستمرت حتى عام ١٩٥٥ عندما ألغى الرئيس جمال عبد الناصر المحاكم الشرعية ونقل ولايتها للمحاكم المدنية. انظر: أندرسون Law Reform، ٢٢٢، رون شاهان، Family and the Courts in Modern Egypt: A Study Based on Decisions by the Shari'a Courts, 1900-1955.
- (اليد: إي. جي. بريل، ١٩٩٧)، ١٠-١٢ .
- (١٧) أندرسون Shari'a Law V، ٢٧٢، ٢٨١ .
- (١٨) لتحليل مفصل للقانون العثماني ١٩١٧ لحقوق الأسرة، انظر: جوديث أي. تاكر، Revisiting Reform: Women and the Ottoman Law of Family Rights, 1917.
- مجلة الدراسات العربية ٤، ٢ (١٩٩٦): ٤-١٧ .
- (١٩) ضمت اللجنة التي وضعت ومرت أول قانون مهم للزواج كل من شيخ الأزهر وشيخ مدرسة Maliki للقانون الإسلامي ورئيس المحكمة الشرعية العليا ومفتي مصر ووزير العدل أحمد ذو الفقار ورئيس مجلس الوزراء محمد توفيق نسيم وسلطان مصر أحمد فؤاد، الذي اعتلى العرش عام ١٩١٧، وأصبح ملكاً لمصر عام ١٩٢٢ . انظر: "قانون نمرة ٢٥ لسنة ١٩٢٠" في "مجموعة القوانين المتعلقة بشئون الأمة للثلاثة أشهر الأولى من سنة ١٩٢٠" (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٢١)، ٣٦، الموجودة في دار الوثائق المصرية. وقد قمت بكل الترجمة من العربية للإنجليزية، ما لم يرد غير ذلك، وفيما بعد صدر قانون الزواج والطلاق مزيل فقط بتوقيع الملك والمذكرة التفسيرية موقعة من رئيس مجلس الوزراء. على سبيل المثال، انظر: "مرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩" في "مجموعة القوانين والأوامر الملكية للثلاث أشهر الأولى من سنة ١٩٢٩" (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٣٠)، ٢٠٣، ٢٠٨ . الموجودة في دار الوثائق المصرية.
- (٢٠) فرحات زيادة Lawyers, the Rule of Law and Liberalism in Modern Egypt (ستانفورد: معهد هوفر، ١٩٦٨)، ١١٦ .
- (٢١) تشير سجلات التعداد السكاني لعامي ١٩٠٧ و ١٩١٧، على سبيل المثال، بأن معظم زيجات الفتيات كانت بين سن العشرين والتاسعة والعشرين، وأن الفتيات اللاتي تزوجن في سن مبكرة كن أقل من ١٠٪ من تعداد النساء. انظر: يارون، The Women's Awakening.

١٦٤- للدراسات التاريخية عن زواج القاصرات، انظر: أميرة الأزهرى سنبل

Adults and Minors in Ottoman Shari'a Courts and Modern Law.

كذلك Women،

٢٣٦-٥٦، وجوديث أى. تاكر Women in Nineteenth-Century Egypt (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٥)، ٥٣. تقدير الزوار الأوروبيين للانخفاض فى عدد زيجات القاصرات، انظر: أى. أل. بوتشر Things Seen in Egypt (لندن: سيلي للخدمات وشركاه المحدودة، ١٩٣١)، ٢٨، إليزابيث كوبر The Women of Egypt (نيويورك: أف. ايه. ستوكس، ١٩١٤)، ٢٠١-٢٠٢، إدوارد ويليامز لين An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians (لندن: إيست ويست للنشر، ١٩٧٨) ([1836])، ١٦٠، ويليام ناسو سنيور Conversations and Journals in Egypt and Malta الجزء الثانى (لندن: أس. لوه، مارتسون، سيرل وريفيجتون، ١٨٨٢)، ٢: ١٦٩.

(٢٢) تم إنشاء الجمعية التشريعية بقانون ١٩١٣، بإعلان من اللورد كيتشنر القنصل العام البريطانى فى مصر من ١٩١١ حتى ١٩١٤، والذي ينص على دمج الجمعية العامة والمجلس التشريعى. كان يتألف من الإصلاحيين القوميين، ومحامين، وملوك الأراضي الذين كانوا يسعون للإصلاح الداخلى كطريق لاستقلال مصر. وعلى الرغم من عمره القصير (١٩١٣-١٥)، كثير من زعماء ثورة ١٩١٩ انبثقوا منه، بما فيهم عبد العزيز فهمى، وسعد زغلول، وعلى باشا شعراوي، والذين شكلوا حزب الوفد فى عام ١٩١٩. انظر: بارون The Women's Awakening، ٢٢، عفاف لطفى السيد مارسو،

Egypt's Liberal Experiment: 1922-1936.

(بركلى: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٧٧)، ٤٥-٤٨، فاتيكوتس The Modern History 213.

(٢٣) يوجد العديد من المقالات التى يمكن الاستشهاد بها، ولكن فى "الأهرام"، على سبيل المثال، كانت المقالات تكتب بطريقة شبه يومية خلال شهر مارس ١٩١٤.

(٢٤) انظر على سبيل المثال: ملك حفى ناصف "سن الزواج" فى "النسائيات: مجموعة متكاملة نشرت فى جريدة فى موضوع المرأة المصرية" الجزء الثالث (القاهرة: ملتقى المرأة والذاكرة، ١٩٩٨ [١٩١٠])، ٧٩-٨٢.

(٢٥) "اقتراح مشروع قانون لزواج القاصرات"، الأهرام ٢٩ (٢ مارس ١٩١٤)، ٧.

(٢٦) بارون The Making، ٢٨١.

(٢٧) انظر على سبيل المثال: محمد توفيق صدقى "سن الزواج للبنات: دراسة علمية، دينية، وقومية"

الأهرام ٢٩ (١٢ مارس ١٩١٤)، ١.

(٢٨) "زواج البنات الصغيرة"، الأهرام ٢٩ (١٨ مارس ١٩١٤)، ١.

(٢٩) ميشيل فوكولت،

The Politics of Health in the Eighteenth Century," in Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writing, 1972-1977.

The History of Sexuality: An Introduction انظر: ٧٦، -١٧٣، (١٩٨٠)، هارفستر، (برايتون: هارفستر، ١٩٨٠)، ٧٦، كذلك انظر: The History of Sexuality: An Introduction الجزء الأول، ترجمة روبرت هرلى (نيويورك: كتب بانثيون، ١٩٧٨ [١٩٧٦]).

- (٣٠) "مشروع تزويج البنات"، الأهرام ٢٩ (١٨ مارس ١٩١٤)، ٥ .
- (٣١) أندرسون Shari'a Law III، ١١٣-١٥ . تجدر الإشارة إلى أنه قد سبق صدور قانون عام ١٨٩٧ يتطلب عقد زواج مكتوب من أجل سماع دعاوى الطلاق وبعض المطالب في الميراث. قانون ١٩٢٣ اختلف عن قانون ١٨٩٧ بأنه وجه صراحة إلى المحاكم ألا تسجل عقود زواج بين عريس وعروس لم يبلغا الحد الأدنى لسن النضج. انظر: أندرسون Law Reform، ٢٢٥ .
- (٣٢) مريئالينا سينها،
- The Lineage of the 'Indian' Modern: Rhetoric, Agency, and the Sarda Act in Late Colonial India," in Gender, Sexuality, and Colonial Modernity.
- طبعة أنطوانيت بورتون (نيويورك: روتليدج، ١٩٩٩)، ٢٠٧ .
- (٣٣) بول رابينو French Modern: Norms and Forms of the Social Environment (كامريدج: مطبعة معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ١٩٨٩)، ٩ .
- (٣٤) أسست هدى شعراوي جمعية الاتحاد النسائي المصري عام ١٩٢٣، لدراسة تفصيلية لجمعية الاتحاد النسائي المصري، انظر: بدران Feminists.
- (٣٥) بدران Feminists، ١٢٨، ١٢٧ .
- (٣٦) نفس المرجع، ١٢٦ .
- (٣٧) "جمعية الاتحاد النسائي المصري"، فتاة الشرق، ٢٤، ٤ (فبراير ١٩٣٠)، ٢٤٧ .
- (٣٨) بدران Feminists، ١٢٨ .
- (٣٩) حاتم The Enduring Alliance، ٢٧ نقلاً عن هدى شعراوي "مذكرات رائدات المرأة العربية الحديثة" (القاهرة: دار الهلال، ١٩٨١)، ٢٥٣ .
- (٤٠) بدران Feminists، ١٢٨ .
- (٤١) نفس المرجع، ١٢٨ .
- (٤٢) انظر على سبيل المثال: Une victoire féministe، و L'Égyptienne (ديسمبر ١٩٢٨): ٣٧، سيزا النبراوي،
- Une loi n'a de valeur que par son application، و L'Égyptienne.
- (يناير ١٩٣١): ٨-٥ .
- (٤٣) أندرسون Shari'a Law III، ١١٥، زيادة Lawyers، ١٢٣ .
- (٤٤) انظر على سبيل المثال: "زواج القاصرات"، المصرية (١٥ أكتوبر ١٩٢٩) ٢٨-٢٩، "زواج القاصرات"، "اتجار بالرقائق الأبيض"، المصرية (١ أغسطس ١٩٢٨)، ٢١-٢٢ .
- (٤٥) أندرسون Shari'a Law III، ١١٥ .
- (٤٦) نفس المرجع، ١١٣-١٥، وبارون The Making، ٢٨٢، واسبوزيتو Women، ٥٠ . وتجدر الإشارة أنه على الرغم أن متوسط سن الزواج للفتيات ارتفع من ١٨،٧ إلى ٢١،٩ سنة بين الثلاثينيات والتسعينيات،

- استمر زواج القاصرات في مصر، خاصة في المناطق الريفية، حيث أظهرت التقارير أن النسبة تبلغ من ٢٠٪ إلى ٣٠٪ في صعيد مصر. انظر: فيليب فارجه Terminating Marriage في The New Arab Family طبعة نيكولاس أس. هويكينز (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٣)، ٢٦٣ .
- (٤٧) أندرسون Shari'a Law III، ١١٤، اسبوزيتو Women، ٥٠، زيادة Lawyers، ١٢٤ .
- (٤٨) جوديث أي. تاكر In the House of Law: Gender and Islamic Law in Ottoman Syria and Palestine (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٨)، ٧٢ .
- (٤٩) أندرسون Shari'a Law III، ١١٤-١٦، اسبوزيتو Women، ٥٠ .
- (٥٠) شيخ محمد يخيت "تحديد سن الزواج" و"المحامة" ٤، ٤ (يناير ١٩٢٤): ٣٩٩-٤١١ .
- (٥١) انظر: "برلمانيات"، المصرية (١٥ فبراير ١٩٣٧)، ٢٩ .
- (٥٢) بموجب الشريعة الإسلامية، كل ما هو مطلوب لإتمام عقد زواج رجل وامرأة هو موافقتهم أمام اثنين من الشهود الذكور (أو، بدلاً من ذلك، رجل وامرأتان)، سواء شفاهة أو كتابة، حيث يذكر اسميهما ولقب العروس والعريس وقيمة المهر الذي دفعه العريس لعروسه. انظر: تاكر In the House، ٢٨ .
- (٥٣) في أوائل القرن العشرين، ذكرت الرحالة الأمريكية إليزابيث كوبر أن "نسبة الطلاق كبيرة جداً، البعض يقول إنها تصل إلى ٩٠٪". انظر كوبر The Women، ٢١٤، ٢١٩. ووفقاً لإحصائيات قاسم أمين، وهو قاضى مسلم وزعيم وطنى، والمستمدة من سجلات المحكمة الشرعية، فإن ثلاث نساء من كل أربعة في القاهرة تم طلاقهن بين عامى ١٨٨٠ و ١٨٩٨، بينما النسبة في القطر المصرى كله هي واحدة من كل أربع زيجات تنتهى بالطلاق. انظر: قاسم أمين،
- The Liberation of Women and the New Woman: Two Documents in the History of Egyptian Feminism.
- تقديم وترجمة سميحة سيدهم بيترسون (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٠، [١٨٩٩])، ٩٨ .
- ومع ذلك، ففي نفس الوقت، عام ١٩٠٢، كشفت السجلات الشرعية للزواج والطلاق، كما ذكره لورد كرومر، أظهرت نسبة طلاق تصل إلى ٣٠٪، ولكن كما أشارت بث بارون، أن هذه الأرقام لا تسجل حالات الزواج والطلاق التي تحدث خارج المحكمة. انظر: بارون The Making، ٢٨٦، fn، ٥٤ . والواقع أن جوديث أي. تاكر تشير إلى أن الشكل السائد للطلاق هو طلاق من جانب واحد لزوج من قبل زوجها، بكلمة يقولها خارج المحكمة. انظر: تاكر Women، ٥٣-٥٥ . يقول الباحث الفرنسى فيليب فراجه إن نسبة الطلاق كانت تمثل حولى ٥٠٪ من الزيجات في بداية القرن العشرين. انظر فراجه Terminating، ٢٥٨ .
- وتجدر الإشارة بأن الشكوى من ارتفاع نسبة الطلاق في مصر ليست بشيء جديد. في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وقد لاحظ إدوارد لين سهولة الطلاق الذى سمح لعدد من المصريين، رجال ونساء، الزواج عدة مرات في حياتهم. انظر: لين An Account، ١٨٣ . لورد كرومر، القنصل العام لبريطانيا في مصر من ١٨٨٢ إلى ١٩٠٧، ناقش كذلك "التسهيلات الكبيرة التى ينفذ بها الطلاق والتى، بالطبع، تضعف الروابط الأسرية" في مصر "حيث عندما يشبع رغبته، يمكنه إذا أراد إلقاء زوجته مثل قفاز قديم." انظر: إيفيلين بارينج كرومر Modern Egypt (الجزء الثانى (لندن: ماكميلان وشركاه، ١٩٠٨)، ٢: ١٥٩، ١٥٧ .

(٥٤) كما يقول كينيث أم. كونو، إحصائيات أمين ليست بالضرورة دقيقة، من ضمن أسباب أخرى، فهي تشمل حالات الطلاق الرجعى، لأنه يعتبر فصلاً قانونياً بين الزوجين ولكنه كثيراً ما يعود بالمصالحة. انظر: كينيث أم. كونو،

Divorce and the Fate of the Family in Modern Egypt.

بحث مقدم لمؤتمر،

Institutions, Ideologies, and Agency: Family Change in the Arab Middle East and Diaspora.

جامعة نورث كارولينا فى شابل هيل، ١١ أبريل ٢٠٠٣، ٤-٥. وفيما يتعلق بالملاحظات الغربية، يقول كونو إن القواعد فى الغرب - حيث كان الطلاق صعباً طبقاً للقانون حتى القرن العشرين - استخدم كمعيار لقياس ما إذا كانت نسبة الطلاق مرتفعة أم منخفضة. انظر كونو Divorce، ١٤-١٥.

(٥٥) كونو Divorce، ٥، ١٥ انظر كذلك: شاهام Family، ١٠٢.

(٥٦) "مرسوم"، ٢٠٨-١١.

(٥٧) فى عام ١٨٩٢، اقترح القاضى أحمد محمد شاكر بأن الزوجات الشاباات اللاتى يحكم على أزواجهن بالسجن لفترة طويلة يجب أن يمنحن حق الطلاق بسبب الوحدة والخوف من ارتكاب المعصية. وفى عام ١٨٩٩، قدم مذكرة إلى المفتى محمد عبده، يدعوهُ إلى تبني مبادئ المذهب المالكي الذى يعطى الحق للزوجة رفع دعوى طلب الطلاق، ولكن هذا الطلب رفضه شيخ الأزهر. انظر: أحمد محمد شاكر "نظام الطلاق فى الإسلام" الطبعة الثانية (القاهرة: دار الطباعة القومية، ١٣٨٩ هجرية [١٩٦٩-١٩٧٠]، ٩-١١. بالنسبة لدعم محمد عبده لبدأ حق المرأة فى الطلاق، انظر: محمد عمارة "الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده" (القاهرة: دار الهلال، ١٩٧٩)، ٢٥-٣١، ٧٨-٩٥.

(٥٨) أمين The Liberation، ٨٧.

(٥٩) المذهب الحنفى، أحد المذاهب الأربعة فى الفكر القانونى، وكان المذهب الرسمى للزواج فى الإمبراطورية العثمانية، وبالتالي أصبح هو المذهب الذى اتخذته الإدارة المصرية والنخبة التجارية. وكما تلاحظ أميرة سنبل فإن المذهب المالكي والشافعى كانا مفضلين فى المحاكم الشرعية فى الوجه القبلى والوجه البحرى على التوالى. انظر: سنبل Adults، ٢٢٨.

(٦٠) أمين The Liberation، ٩٩. انظر كذلك: أندرسون The Problem of Divorce، ١٦٩-٧٠، محمد قدرى باشا "الأحكام الشريعة فى الأحوال الشخصية" (القاهرة: مطبعة الهندية، ١٩٧٨ [١٨٧٥])، ٥٠-٥١، سنبل Adults، ٢٢٩-٤٦.

(٦١) انظر على سبيل المثال: سهى عبد القادر Egyptian women in a Changing Society, 1899-1987 (لندن: دار لينى رينر للنشر، ١٩٨٧)، ٨، كول Feminism، ٤٠١، إيفون حداد،

Islam, Women and Revolution in Twentieth-Century Arab Thought.

العالم الإسلامى ٧٤ (١٩٨٤)، ١٦٠، روبرت تيجنور Modernization and the British Rule in Egypt, 1882-1914 (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٦٦)، ٢٤١.

(٦٢) انظر على سبيل المثال: ليلي أبو لغود،

The Marriage of Feminism and Islamism in Egypt: Selective Repudiation as a Dynamic of Postcolonial Cultural Politics.

وكذلك Remaking Women، ٦٩-٢٥٥، أحمد Women، ٦٣-١٦٢، بدران Feminists، ١٩-١٨،
بارون The Womens Awakening، ٦-٤، ميتشيل Colonising Egypt، ١٣-١١١.

(٦٣) باستثناء كونو Divorce، ٢. تغاضى العلماء عن هذه القضايا لصالح وجهات النظر التي تدعو إلى
تعليم المرأة وإلغاء الحجاب وعزلة المرأة.

(٦٤) أمين The Liberation، ٩٩.

(٦٥) لأن الزواج الإسلامى هو عقد، فللطرفين الحق أن يضعوا شروطاً معينة، شريطة ألا تكون متعارضة مع
جوهر عقد الزواج، فحسب تعريف الفقهاء، على سبيل المثال، يمكن أن تعطى المرأة حق تطليق نفسها،
ولكن العقد الذى يسلب حق الزوج فى الطلاق يعتبر لاغياً. انظر: زيبا مير حسيني Marriage on
Trial- A Study of Islamic Family Law (لندن: أى. بى. توريس، ١٩٩١)، ٣٢.

(٦٦) أمين The Liberation، ١٠٠.

(٦٧) أندرسون Shari'a Law، ٨٨-٢٧٨، بارون The Making، ٢٨٥، اسبوزيتو Women، ٥١.

(٦٨) شاهام Family، ١٤.

(٦٩) "قانون"، ٢٧-٢٨.

(٧٠) ميتشيل Colonising Egypt، الفصل ٤-٥، أمنية الشاكرى،

The Great Social Laboratory: Reformers and Utopians in Twentieth Century Egypt.

(مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة برينستون، ٢٠٠٢)، الجزء الأول.

(٧١) كمران اسدار على Planning the Family in Egypt: New Bodies, New Selves (أوستين:
مطبعة جامعة تكساس، ٢٠٠٣)، ٢٥، ولورا بيير،

From Birth Control to Family Planning: Population, Gender and the Politics of
Reproduction in Egypt.

، بحث قدم إلى مؤتمر

Institutions, Ideologies, and Agency: Family Change in the Arab Middle East and
Diaspora.

جامعة نورث كارولينا فى شابل هيل، ١١ إبريل ٢٠٠٣، fn 2 ٤. لدراسة تفصيلية عن الضوابط التنظيمية
فى نظام محمد على، انظر خالد فهمى،

All the Pashas Men: Mehmed Ali, His Army and the Making of Modern Egypt.

(كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٧).

(٧٢) لإجراء دراسة موسعة عن اهتمامات مصر حول الصحة، والنظافة، والنشاط للسكان أثناء الحكم الملكى،
انظر: شاكرى The Great Social Laboratory الجزء الثالث.

- (٧٣) "تدبير المنزل: الزواج"، فتاة الشرق ١٨، ١ (١٥ أكتوبر ١٩٢٣)، ٢٣ .
- (٧٤) إلياس الغضبان "زواج المرضى وحل من الإمكان منعه" الأهرام ٢٩ (٢١ مارس ١٩١٤)، ٢ .
- (٧٥) انظر: المادة الرابعة كما وردت في "القانون" ٣٧ . وبالمثل، إذا كان الزوج في عداد المفقودين، كان على القاضي إبلاغ تغيبه إلى وزارة العدل، والتي ستتولى البحث عنه ربما لفترة قد تصل إلى أربع سنوات. انظر: المادة السابعة كما وردت في "قانون" ٣٧ . ورغم صعوبة تحديد حدوث ذلك، فإن الزوج الغائب لا يمكنه من الناحية النظرية الهروب بسهولة من يقظة الدولة الحديثة، حيث ستقوم بتشكيل فريق للبحث عن مكان تواجدته.
- (٧٦) جلال حسين "قانون الأحوال الشخصية" الأهرام ٤٦ (٢٩ يونيو ١٩٢٠)، ٢ .
- (٧٧) أمين The Liberation، ٩٩ .
- (٧٨) "مرسوم"، ٢٠٤ .
- (٧٩) نفس المرجع، حاتم 27 The Enduring Alliance، ٢٩ .
- (٨٠) على الرغم من أن المذهب الحنفى كان المذهب الرسمي القانونى فى مصر العثمانية، كما تلاحظ أميرة سنبل، كانت المذاهب الأخرى تطبق "فحقيقة أن النظام كان يقبل مختلف المذاهب مما يظهر أنه كان قدرًا كبيراً من المرونة القانونية والاجتماعية أكثر مما حدث لاحقاً فى الإصلاح القانونى فى مصر (بدءاً من عام ١٨٩٧) عندما وضع المذهب الحنفى كمصدر أساسى للشرعية. كما يشير أيضاً إلى القدر الكبير من الاستقلال الذى كان يتمتع به القضاة قبل الإصلاحات لإيجاد حلول قانونية." انظر: سنبل Adults 238 .
- (٨١) سنبل Reforming، ٩٧ .
- (٨٢) لم يكن الهجر، حتى صدور المادة ١٢ من القانون ٢٥ لسنة ١٩٢٩، فى حد ذاته سبباً كافياً لطلب الزوجة الطلاق. فقد استخدم المذهب الحنفى لإصدار مرسوم بأنه فى حالة تغيب الزوج لمدة عام أو أكثر بدون سبب كاف، مثل العمل أو الدراسة، يحق لزوجته رفع دعوى للطلاق لا رجعة فيه على أساس الضرر الناجم عن غيابه الغير مبرر. وقد تولد عن قانون عام ١٩٢٠ ما ينص على أن الالتماس المبني على الهجر يمكن البدء فى تقديمه حتى لو كان للزوج ممتلكات يمكن منها للزوجة الحصول على نفقات معيشتها. فإذا أمكن الوصول لمكان الزوج، يجب على القاضي إخطاره بالقضية المرفوعة ضده، فإذا فشل الزوج فى العودة أو اتخاذ اللازم لتلحق به زوجته يصدر قرار بتطبيقها. أما إذا تبين استحالة الاتصال بالزوج، يجب على المحكمة منح الزوجة الطلاق فوراً (المادة ١٣). انظر: "مرسوم"، ٢٠٤-٢٠٥ .
- (٨٣) المادة الخمسة والسابعة من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠. انظر: "قانون" ٣٧ .
- (٨٤) المادة السادسة من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩، انظر: "قانون" ٣٧ .
- (٨٥) نفس المرجع، الطلاق يتم فى حالة عدم وجود معلومات عن مكان وجود الزوج المعتبر فى عداد المفقودين لفترة أربع سنوات. يجب على القاضي فى هذه الحالة إبلاغ وزارة العدل بالزوج المفقود، لتتولى البحث عنه.
- (٨٦) نفس المرجع.

- (٨٧) عبده البرقوقي "الطلاق"، مجلة المرأة المصرية، ٦ (يونيو ١٩٢٠)، ١٩٣ .
- (٨٨) نفس المرجع.
- (٨٩) "مرسوم" ٢٠٥ .
- (٩٠) محمد حسين هيكل "قانون الطلاق الجديد: وجه الخطر فيه"، الأهرام ٤٦ (٢٤ يونيو ١٩٢٠)، ٢ .
- (٩١) جرشوني وجانكويسكى Redefining، ٤١ .
- (٩٢) هيكل، ٢ .
- (٩٣) عبد الحميد حمدي "قانون الأحوال الشخصية"، الأهرام ٤٦ (٢٩ يونيو ١٩٢٠)، ٢ .
- (٩٤) نفس المرجع.
- (٩٥) شاكري Schooled Mothers، ١٤٨ .
- (٩٦) حسين "قانون"، ٢ .
- (٩٧) البرقوقي "الطلاق"، ١٩٢-٩٥ .
- (٩٨) "مرسوم"، ٢٠٣ .
- (٩٩) نفس المرجع، ١٠-٢٠٨ .
- (١٠٠) بدران Feminists، ١٢٧ .
- (١٠١) أى. أف. "الفراق" مجلة المرأة المصرية ٥ (مايو ١٩٢٠)، ٨٤-١٨٣ .
- (١٠٢) أمين The Liberation، ٩٢ .
- (١٠٣) "مرسوم"، ٢٠٣ .
- (١٠٤) أمين The Liberation، ٩٧ .
- (١٠٥) أندرسون Shari'a Law V، ٢٨٧-٨٨، زيادة Lawyers، ١٢٦، fn. 52 .
- (١٠٦) فارغ Terminating 271-73. انظر كذلك، أحمد عمار Growing up in an Egyptian Village الطبعة الثانية (لندن: روتليدج وكيجان بول المحدودة، ١٩٦٦ [١٩٥٤])، ١٩٩-٢٠٠، كوتو 1, Divorce، ١٨-١٩، هاني فخوري،
- Kafr El-Elow; An Egyptian Village in Transition.
- (نيويورك: هولت، رينشار ووينستون، ١٩٧٢) ٧٢-٧٣، اينيد هيل،
- Mahkama! Studies in the Egyptian Legal System.
- (لندن: مطبعة ايثاكا، ١٩٧٩)، ٨٦، اندريا بى. راف،
- Family in Contemporary Egypt.
- (سيراكيز: مطبعة جامعة سيراكيز، ١٩٨٤)، ١٧٧، شاهام Family، ١٠١ .
- (١٠٧) كوتو Divorce، ١٨، فارغ Terminating، ٢٧١ .
- (١٠٨) طبعة محمد فريد جنيدي "أزمة الزواج في مصر" (القاهرة: حجازي، ١٩٣٣)، ٥٦ .

- (١٠٩) نفس المرجع.
- (١١٠) درية شفيق Let Our Enemies Listen، بنت النيل (يونيو ١٩٤٠)، على نحو ما ذكرت سيتثيا تلسون، درية شفيق Egyptian Feminist: A Woman Apart (جينزفيل: مطبعة جامعة فلوريدا، ١٩٩٦)، ١٥٣.
- (١١١) تلسون "درية شفيق"، ١٤٣-١٤٤.
- (١١٢) الرجل المسلم مرخص له بالزواج من أربع زوجات كما يأتي ذلك في آيتين في القرآن (٤:٣ و ٤:١٢٩).
- (١١٣) فكرة أن العروسة يمكنها وضع شرط يمنحها حق طلب الطلاق إذا تزوج زوجها امرأة أخرى لم يكن اختراعاً من أعضاء اللجنة. في بحثه في عقود الزواج في مصر العثمانية، اكتشف عبد الرحيم عبد الرحيم عقود بها نص يحق للزوجة الطلاق التلقائي في حالة اتخاذ الزوج زوجة أخرى أو محظية. انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم،
- The Family and Gender Laws in Egypt During the Ottoman Period.
- وفي سنبل Women، ٩٨-١١٠. وعلى أية حال، يجب ملاحظة أنه بسبب أن معظم العقود لم تكن تسجل في المستعمرة المصرية طالما أن القانون لم يكن به نص يلزم ذلك، فإنه من الصعب تحديد إذا كانت هذه القضية كانت قاعدة. في العينة التي قمت بدراستها لمائة حالة عقد زواج، وجدت أنه لا يوجد واحد منها به هذا الشرط. انظر: "قوانين سجلات الزواج لمحكمة الإسكندرية الشرعية"، رقم ٢٢، مسلسل رقم ١-١٠٠ (١٩٢٧/٢/٢-١٢٢١/٢/١٩ هـ، ١٤/١/١٨٨٠-١٧/٥/١٩٠٣ ميلادية). محفوظة في دار الوثائق المصرية
- (١١٤) أندرسون Shari'a Law III، ١٢٤، بدران Feminists، ١٢٩-٣٠، اسبوزيتو Women، ٥٧.
- (١١٥) فارغس Terminating، ٢٥٣. ومع ذلك، يشير كلا من بوث وويليامز وبيث بارون إلى أن الإحصائيات يمكن ألا تكون دقيقة لأنها مبنية على عدد النساء المتزوجات في التعداد مقابل الرجال المتزوجين. انظر: بارون،
- The Women's Awakening.
- ١٦٥، ويليام جي. جود World Revolution and Family Patterns (نيويورك: مطبعة فري، ١٩٦٣)، ١٠٤.
- (١١٦) كينيث أم. كونو Joint Family Households and Rural Notables المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ٢٧، ٤ (١٩٩٥)، fn. 9 499.
- (١١٧) تاكر Women، ٥٣.
- (١١٨) كينيث أم. كونو وميتشل جي. ريمر،
- The Census Registers of Nineteenth-Century Egypt: A New Source for Social Historians.
- المجلة البريطانية لدراسات الشرق الأوسط ٢٤، ٢ (١٩٩٧)، ٢٠٨.
- (١١٩) نفس المرجع،
- A Tale of Two Villages: Family, Property, and Economic Activity in Rural Egypt in the 1840S," in Agriculture in Egypt From Pharaonic to Modern Times.
- طبعة ألن كي. بومان ويوجين روجان (أوكسفورد: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٩٩)، ٣٢١.

(١٢٠) وينيفريد أسي. بلاكمان،

The Fellahin of Upper Egypt: Their Religious. Social and Industrial Life with Special Reference to Survivals from Ancient Times.

(لندن: فرانك كاس وشركاه المحدودة، ١٩٦٨ [١٩٢٧])، ٢٨ .

(١٢١) كوبر The Women، ٢٢٠، ٢٢١ .

(١٢٢) بوتشر Things Seen، ٢٧-٢٨ .

(١٢٣) في حين أن تقارير الزوار هي مثار جدل يمكن استخدامها لإلقاء الضوء على الطرق المختلفة التي يقدم بها الغربيون الآخرين، إلا أنها تتضمن كذلك وصفاً تفصيلياً وغنياً يمكن استخلاصه من عظات واستبدادية الكتاب. لوجهات النظر في استخدام تقارير الزائرين، انظر: إدوارد سعيد Orientalism (نيويورك: كتب بانثيون، ١٩٧٨)، بيلي ملمان،

Woman's Orients: English Women in the Middle East, 1718-1918: Sexuality, Religion and Work.

(أن أربور: مطبعة جامعة ميتشجان، ١٩٩٢).

(١٢٤) فارغ Terminating، ٢٥٦ .

(١٢٥) بولارد Nurturing، ١٢٧-٢٨ .

(١٢٦) كرومر Modern Egypt، ٢: ١٥٨ .

(١٢٧) محمد عبده "حكم الشريعة في تعدد الزواج"، "تعدد الزواج"، فتوى في تعدد الزواج، في "الأعمال الكاملة لمحمد عبده: الكتابات الاجتماعية"، الطبعة الثالثة طبعة محمد عمارة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠ [١٩٧٤])، ٧٨-٨٣، ٨٤-٨٩، ٨٩-٩٥، على التوالي، أمين The Liberation، ٨٢-٨٧ .

(١٢٨) بارون The Women's Awakening، ٨٤-١٨٣ .

(١٢٩) أحمد صفوت "بحث في قضية إصلاح قانون الأحوال الشخصية للمحاكم الشرعية: صورة المحاضرة التي ألقاها أحمد أفندي صفوت" (الإسكندرية: مطبعة جورجى جرزوى، ١٩١٧). وفقاً لما رجو بدران وفرحات زيادة، أثار كتاب صفوت معارضة قوية، انظر: بدران Feminists، ١٢٩، زيادة Lawyers، ١١٨-٢٢ .

(١٣٠) زيادة Lawyers، ١٢٢-٢٣ .

(١٣١) أندرسون Shari'a Law III، ١٢٤، اسبوزيتو Women، ٥٧ .

(١٣٢) أندرسون Shari'a Law III، ١٢٥، اسبوزيتو Women، ٥٧-٥٨ .

(١٣٣) خلال العقدين الأولين من القرن العشرين، الكاتبات من النساء بدأت بنقد خفيف لمؤسسات تعدد الزوجات على صفحات المجلات النسائية. ومع ذلك، وبدلاً من الدعوة المباشرة لإلغائها، صوّز هؤلاء الكاتبات المشاق التي تعانيها النساء الضحايا اللاتي تعرضن لتجربة تعدد الزوجات. انظر: على سبيل المثال: شجرة الدر "الطلاق وتعدد الزوجات"، "أنيس الجليس"، ١، ٧ (١٨٩٨): ٢٠٣-٢٠٦، زكية الكفراوي "ما وراء al-khudur"، "العفاف" ١، ١٩ (١٧ مارس ١٩١١): ٢، ملك حفنى ناصف "تعدد الزوجات"، في النسائيات ٧٦-٧٩، ناقشت بيت بارون كذلك انتقادات تعدد الزوجات بين الكتاب في العقد الثاني من القرن العشرين. انظر: بارون The Women's Awakening، ١١٣ .

- (١٣٤) بدران Feminists، ١٢٧ .
- (١٣٥) انظر على سبيل المثال: Hors-texte (ما وراء النص) L'Égyptienne (أكتوبر ١٩٣١): ٢،
La nouvelle loi sur le statut personnel musulman, L'Égyptienne
(مارس ١٩٢٩): ٢٢: ٢٧، "رأى الأستاذ الأكبر: رد مقترحات السيدة الفاضلة منيرة ثابت"،
المصرية (١ يناير ١٩٤٠)/=: ٧-٩، "تعدد الزوجات ورأى الفاضلة الأنسة منيرة ثابت"، المصرية (١ مارس
١٩٤٠): ٥-٧، سيزا نبراوى،
Examen du nouveau projet du statut personnel musulman.
المصرية (إبريل ١٩٢٧): ٢-٧، وكذلك La polygamie trouve encore des défenseurs en Egypte
المصرية (نوفمبر ١٩٣٥): ٩-١٤، وكذلك
La situation juridique de la femme égyptienne: Conference de Mademoiselle
Ceza Nabarouy.
المصرية (فبراير ١٩٣١)، ٦، درية شفيق "حزب بنت النيل"، بنت النيل (فبراير ١٩٤٩)، كما ورد فى
كتاب نيلسون Doria Shafiq، ١٥٤، 22. fn.
(١٣٦) بدران Feminists، ١٢٠ .
- (١٣٧) Une interview de Madame Hoda Charaoui المصرية (إبريل ١٩٢٧)، ١١-١٤، وكما ورد عند
بدران Feminists، ١٢٨ . للنص الأصلي للمقابلة انظر: "رأى السيدة هدى شعراوى فى مشروع
قانون الزواج والطلاق الجديد"، الأهرام ٥٢ (٩ إبريل ١٩٢٧)، ١ .
- (١٣٨) كانت تركيا قد ألغت تعدد الزوجات فى عام ١٩٢٦، وإيران وضعت له شروطاً فى عام ١٩٣٢ .
وفى أفغانستان بعد عام ١٩٢٨، أى موظف حكومى يتخذ زوجة ثانية يفقد وظيفته. انظر: بدران
Feminists، ١٢٩ .
- (١٣٩) نبراوى La polygamie، ١٠ .
- (١٤٠) بارون The Making، ٢٨٢ .
- (١٤١) نفس المرجع، ٢٨٣ .
- (١٤٢) نفس المرجع، ٢٨٥ .
- (١٤٣) بوث May Her Likes، ٢٠٧ .
- (١٤٤) نفس المرجع التاسع والعشرين - الثلاثين. كما أشارت مارلين بوث، لاحظ دنيس كانديوتى بأن لجنة
الإصلاح للإتحاد والتقدم فى تركيا عرفت الأسرة النووية وهى الأسرة ذات الزوجة الواحدة "بالأسرة
الوطنية". انظر: دنيس كانديوتى Introduction كذلك Women, Islam, and the State
(فيلادلفيا: مطبعة جامعة تمبل، ١٩٩١)، ١١ .
- (١٤٥) بارون The Making، ٢٨٧، كونو Joint Family، ٢٨٤، شكرى Schooled Mothers 137، ١٦٤،
fn. 59.

- (١٤٦) أندرسون Shari'a Law III, ١٢٦ .
- (١٤٧) من الجدير بالذكر أن المراقبين الأوروبيين، في المقابل، زعموا بأن تعدد الزوجات عندما ظهر، كان يمارس بين الطبقات الدنيا في مصر في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. انظر: كوبر The Women, ٢٢٠، ٢٢١، كرومر Modern Egypt 2: 258، لين An Account 184، ١٢٨، ١٨٠ .
- (١٤٨) على Planning 24-28، بدران Feminists 129، بيير From Birth Control 2-7، نافاد سفران، Egypt in Search of a Political Community.
- (كامبريدج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٦١)، ١٩٦ .
- (١٤٩) بشأن طموحات الملك فؤاد لتولى الخلافة الإسلامية، انظر إيلي قدوري، Egypt and the Caliphate, 1915-52," in The Chatham House Transactions and Other Middle Eastern Studies.
- (لندن: ويدنفالد ونيكولسون، ١٩٧٠)، ١٧٧-٢١٢ . ولوجهة نظر أخرى لتطلعات الملك، انظر: رالف أم. كوري.
- Who 'Invented' Egyptian Arab Nationalism?
- ، 249-81 و ٧٩-٤٥٩ .
- (١٥٠) أندرسون Shari'a Law III، ١٢٥ . كذلك ربط اسبوزيتو رفض الملك لتلك الاقتراحات بنتيجة لرد الفعل الحاد في الصحافة. انظر اسبوزيتو Women 58.
- (١٥١) أندرسون Shari'a Law III 126، اسبوزيتو Women 58.
- (١٥٢) كولسون A History، ٢٠٧، ١٨٧-٨٨، هيل "محكمة" ٨٩ .
- (١٥٣) كولسون A History، ١٨٧-٨٨ .
- (١٥٤) نلسون "درية شفيق" ١٤٧-٤٩، ١٦٢ .
- (١٥٥) في عام ١٩٣٥، كتب شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي مقالة دافع فيها عن تعدد الزوجات نشرت في أكثر المجلات الاجتماعية انتشاراً "مجلتى". انظر نيراوى La polygamie، ١٠ .
- (١٥٦) انظر: "رأى الأستاذ الأكبر"، ٧-٩ .
- (١٥٧) ألب دوين وسيم بيهار Istanbul Households: Marriage, Family and Fertility, 1880-1940.
- (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩١)، ١٣٩-٤٠ .
- (١٥٨) دنيس كاديوتى، Gendering the Modern: On Missing Dimensions in the Study of Turkish Modernity," in Rethinking Modernity and National Identity in Turkey.
- طبعة سيبيل بوزدوجان وريسات كاسابا (سياتل: مطبعة جامعة واشنطن، ١٩٩٧)، ١١٦-١٧ .

ملحق للصـور

(شكل ١/١)

المجلة الساخرة "كشكول" تصور
البرلمان كفصل دراسي، وسعد
زغلول يرتدي زي الأفندي "البدة
والطربوش" يلقي محاضرة على
طبقة عديدة من وجهاء المناطق
الريفية المرتدين الجلابية
والعمامة.



(شكل ١/٥)

"سجائر محمد علي الكبير... مع
الشباب تحيي ذكرى المجد
والعظمة". واحد من العديد من
الإعلانات التي تمثل الأفندي.
وتتوجه إليه وكالة لوتس للدعاية
لسجائر شركة محمود فهمي،
مجلة الصريح ١٨ مايو ١٩٣٣





(شكل ٣/٥)

"أسرة الرشيدى الحلوانى" تعلن عن منتجاتها
وتتمثل ثلاثة أجيال" مجلة الاثنين - عدد ٥٦٢ /
١٩ مارس ١٩٤٥ .



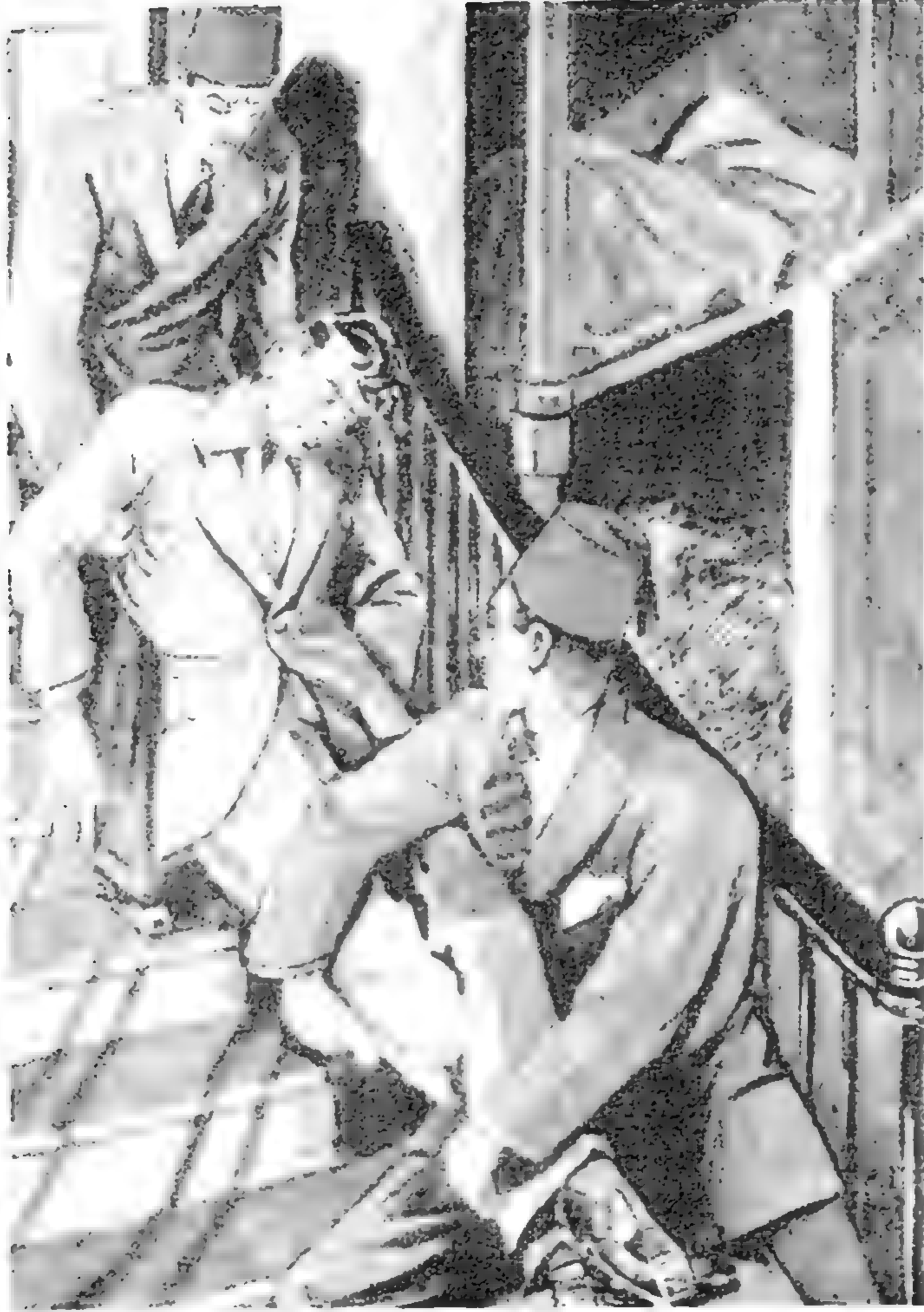
(شكل ٢/٥)

وأخيراً.....!
المصرى أفندى يركل السفير
البريطانى سير مايلز لامبسون
فى مؤخرته.
مجلة روز اليوسف
١٢ أكتوبر ١٩٤٤

(شكل ٤/٥)

'عناق بين الطلبة بمناسبة تعديل
الاستور" مجلة كل شىء والدنيا
عدد ٥٢٨ خاص بالطلبة - ١٨
ديسمبر ١٩٣٥ .





(شكل ٥/٥)

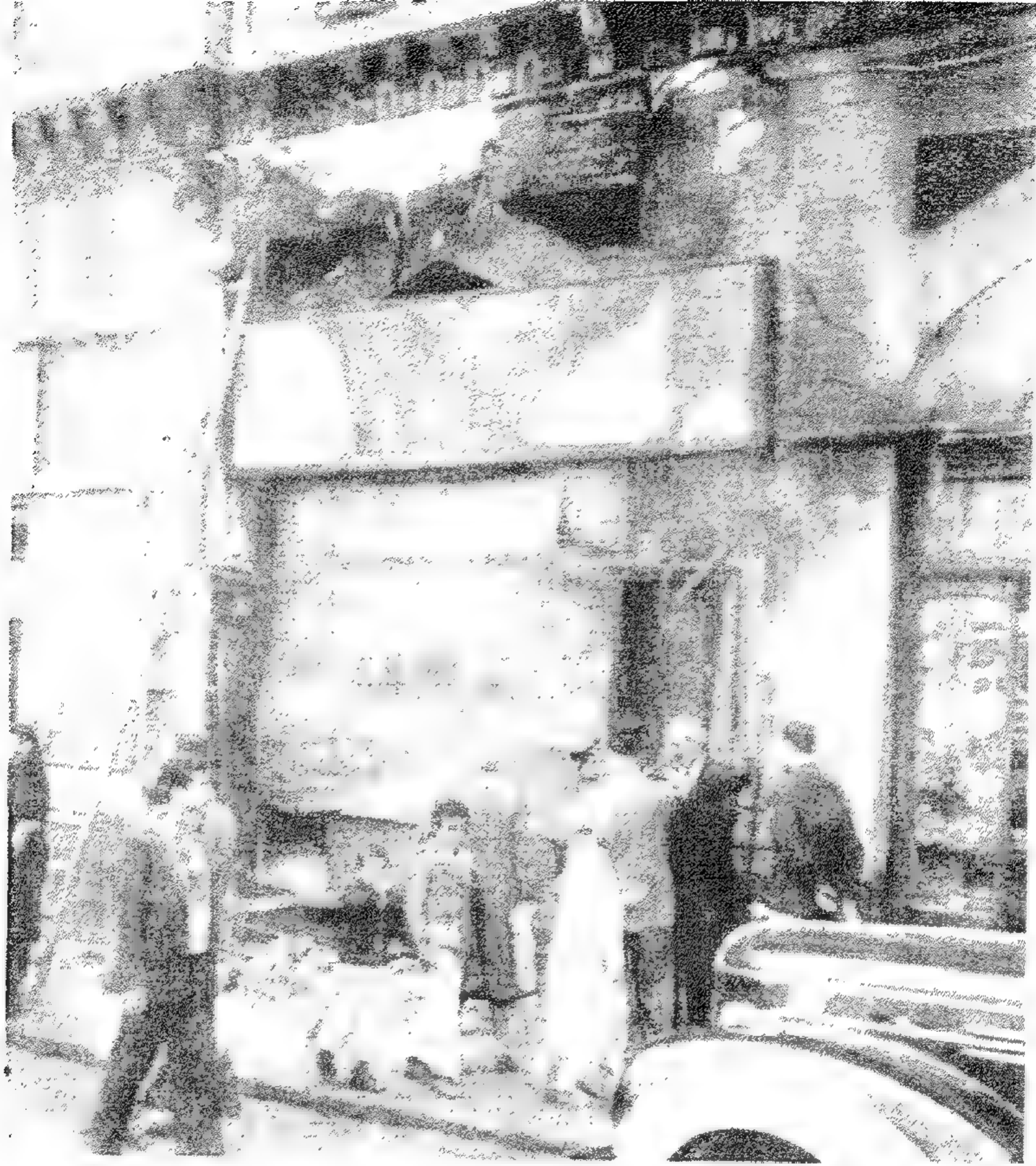
"أروع السرقات الوطنية"

الطلبة الشهداء عقب موجة مظاهرات ١٩٣٥، طالبان يسرقان جثة ناشط زميل لهما من مشرحة القصر العيني وكان قد أصيب بطلقة رصاص في معركة مع الإنجليز لتشييعها في جنازة وطنية. حدثت هذه الواقعة في نوفمبر ١٩٣٥ . ووزع هذا الرسم على قراء مجلة المصور بعدها (n.d.).



(شكل ١/٧)

”سيارات مهشمة في وسط القاهرة في أعقاب حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢”



(شكل ٢/٧)

"واجهة محل مهشمة في الأزهر في أعقاب حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢"



(شكل ١/١٣)
 "ريا وسكينة"
 (من أرشيف الأهرام)

في حادثة الإسكندرية
 (ريا وسكينة)



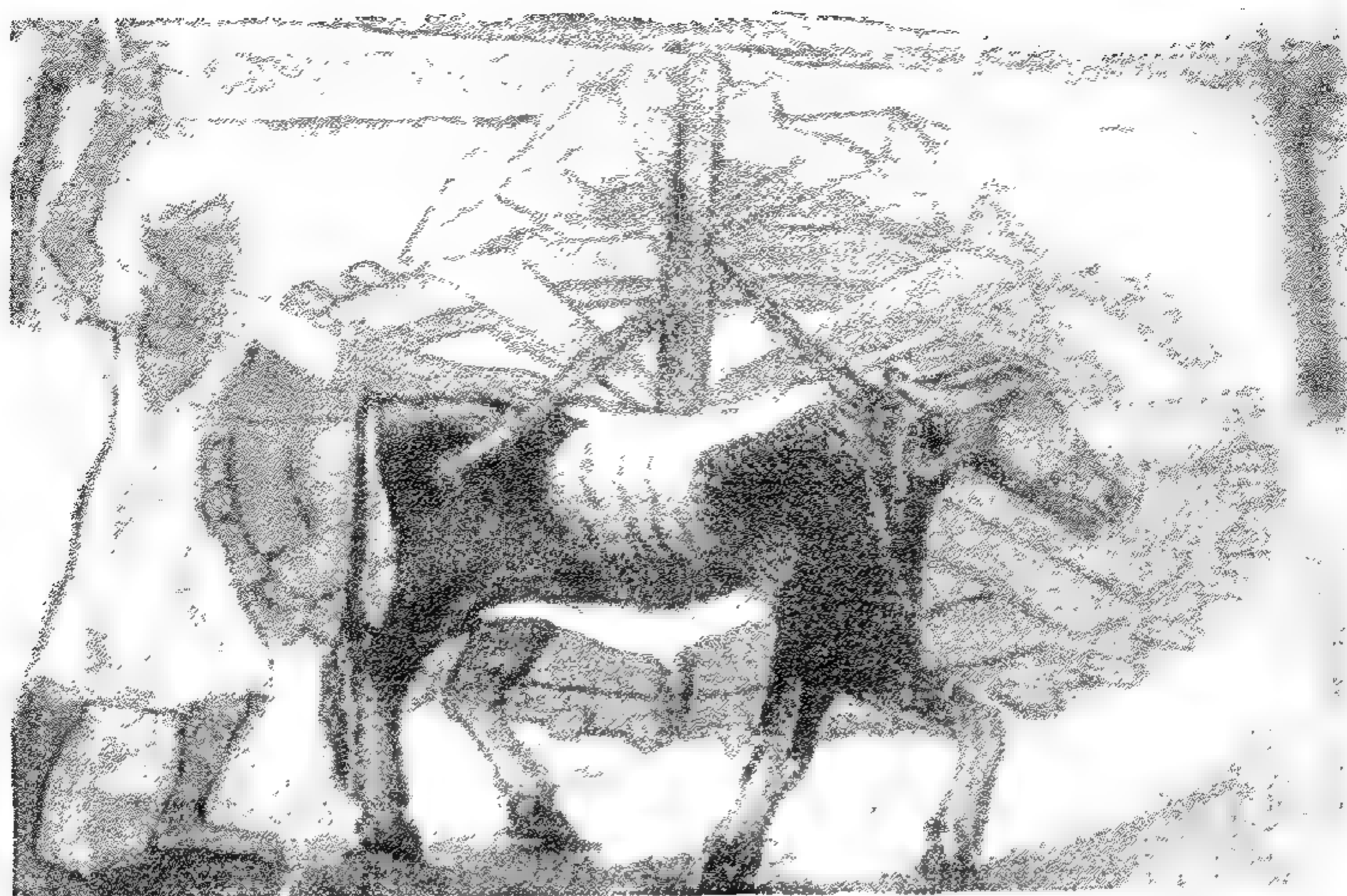
(شكل ٢/١٣)
 جريمة الإسكندرية - ريا وسكينة
 ريا في صورة وحش يقول لضحيته
 "لا مهرب من مخالبي".
 مجلة الرشيد - ٩ ديسمبر ١٩٢٠ / ٢٩١

(شكل ١/١٥)
 "محمود مختار - تمثال نهضة
 مصر ١٩٢٨".



(شكل ٢/١٥)
 "يوسف كامل: درب اللبانة
 ١٩١٩".





(شكل ٣/١٥)
راغب عياد: الساقية ١٩٦٠



(شكل ٥/١٥)
راغب عياد: القهوة في أسوان ١٩٣٣



(شكل ٤/١٥)
راغب عياد: الأم وابنها

(شكل ٦/١٥)
راغب عياد: الدير



(شكل ٧/١٥)
محمد ناجي: معبد الكرنك ١٩١٤



(شكل ٩/١٥)

محمد ناجي: "الراعي يحمل حملة ١٩٢٥"



(شكل ٨/١٥)

محمد ناجي - صورة ذاتية



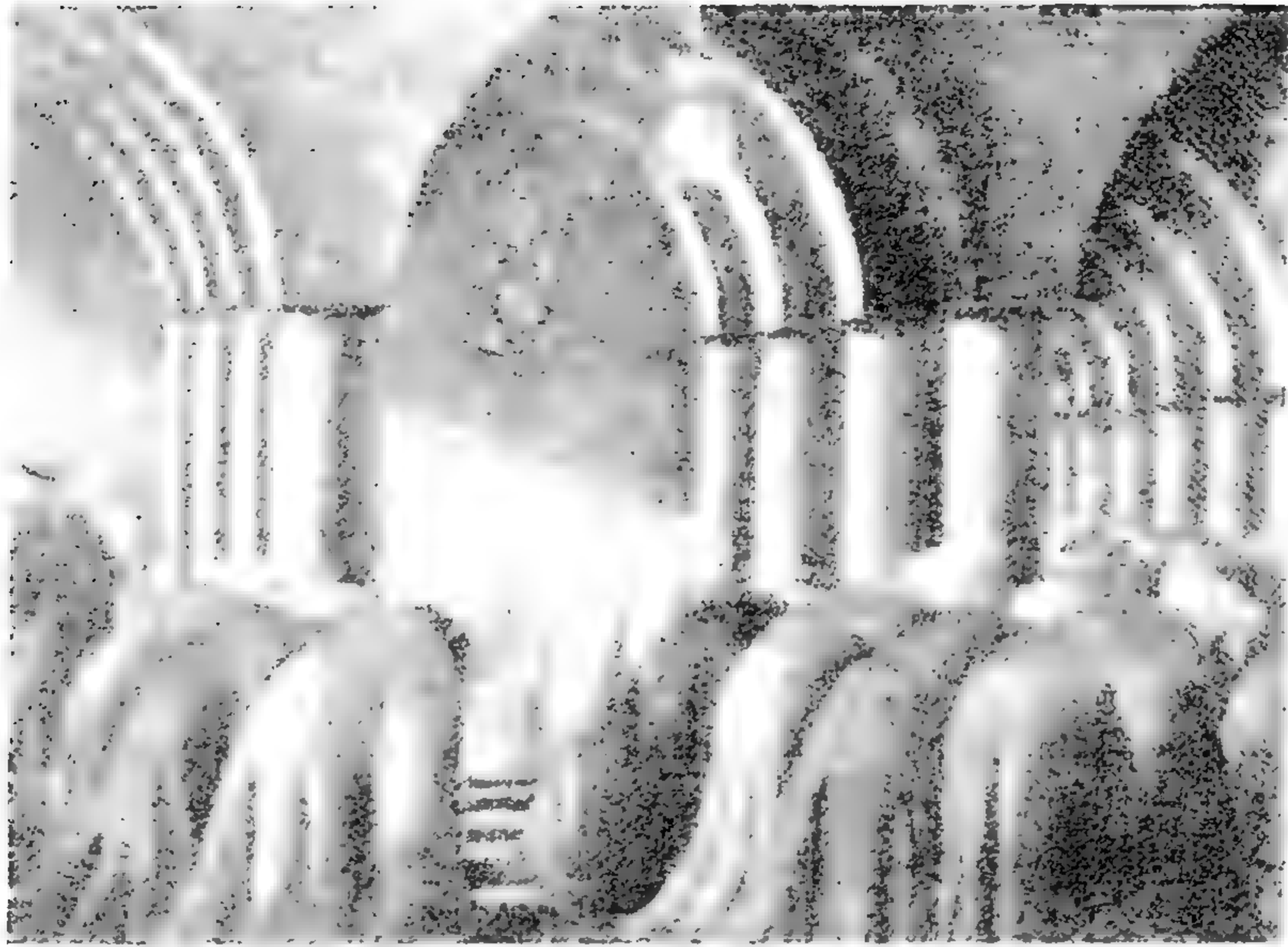
(شكل ١٠/١٥)

محمد ناجي "قسم الولاء لمحمد علي" ١٩٤١



(شكل ١١/١٠)

محمود سعيد: صورة ذاتية - ١٩١٩



(شكل ١٥/١٢)

محمود سعيد: الصلاة ١٩٣٤



(شكل ١٥/١٣)

محمود سعيد: حياة المدينة ١٩٣٧



(شكل ١٤/١١)

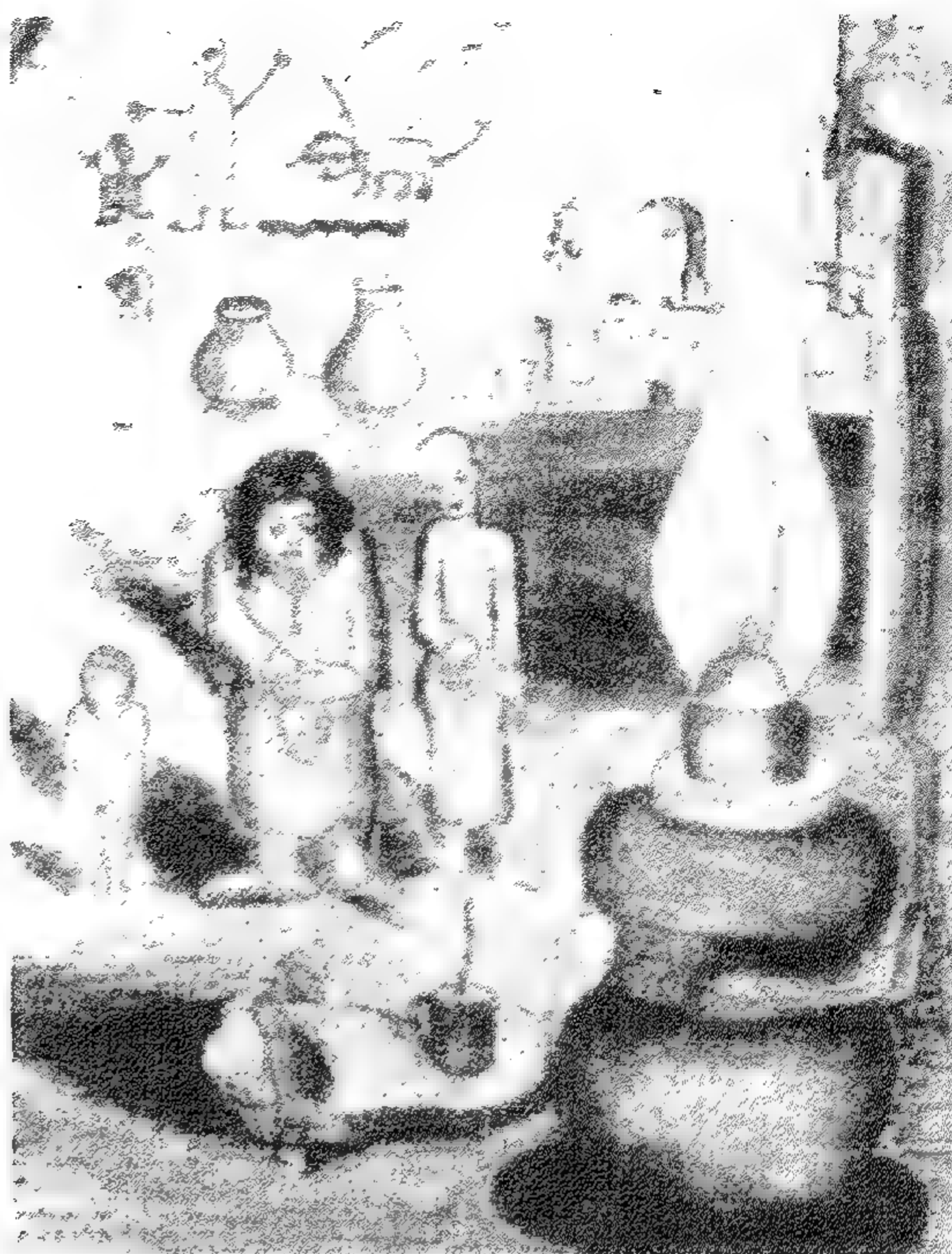
محمود سعيد. المرأة الحامل (n.d.)

(شكل ١٥/١٥)
عبد الهادي الجزار: القدر ١٩٤٩



(شكل ١٥/١٦)
عبد الهادي الجزار: الأحرق الأخضر ١٩٥١

(شكل ١٧/١٥)
حامد ندا: قنديل الظلام ١٩٤٦



(شكل ١٨/١٥)
حامد ندا: السيدة والسمكة ١٩٧٠



(شكل ١٥/١٩)

محمود سعيد: افتتاح قناة السويس ١٩٤٩



(شكل ١٥/٢٠)

عبد الهادي الجزار: حفر قناة السويس ١٩٦٥

١٢- تسجيل لنشاطات المرأة الطبية فى تاريخ مصر الحديثة

نانسى جلاجر

دخلت المرأة المصرية مجال الطب الحديث فى زمن متقدم نسبياً مقارنة بالنساء فى مناطق أخرى من الشرق الأوسط وشمال إفريقيا - وحتى فرنسا وبريطانيا. وفى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر التحقت النساء فى مصر بالتعليم الطبى الذى كان ينتهج الأسلوب الغربى، وأصبحت الخريجات حكيماًت، أو طبيبات فى حين كان العسكريون يديرون نظام الصحة العامة الجديد الذى أسسه محمد على. وفى أوائل القرن العشرين، تركت النخبة من النساء منازلهن، واستخدمن مهارتهن التعليمية والتنظيمية فى تأسيس العيادات والمستشفيات ووضع برامج لتطعيم وعلاج العامة. وكما أشارت أمى جونسون، وسكوت ماكينتوش فى الفصل التاسع فإنه من خلال تجارب عزيزة حسين، تقدمت النساء كرأس حربة فى هذه المبادرات فى الأربعينيات من القرن الماضى، وقد أذهلت هذه التطورات البارزة العلماء الذين كانوا يهتمون بالنوع (ذكر/أنثى) ودوره فى تاريخ مصر. ومع ذلك فقد اختلفوا فى تقييم أدوار النساء. ويناقش هذا الفصل الطرق المختلفة التى يمكن من خلالها "إدخال" دور النساء العاملات فى مجال الصحة فى منظومة التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة.

الحكيمات

فى عام ١٨٢٢ أسس محمد على مدرسة لتدريب العاملات فى مجال الصحة، أو بمعنى أصح "الحكيمات". وحين ترددت كثير من الأسر فى إرسال بناتهن لهذه المدرسة، تم تجنيدهن من الطبقات الدنيا اللاتى لم يكن يتمتعن بأى حماية عائلية. وكانت التلميذات يتلقين تدريبات لمدة تتراوح من أربع إلى ست سنوات فى القراءة والتوليد، وصحة المرأة بعد الوضع، والإسعافات الأولية والتطعيم والإدارة، وبعد تخرجهن كان يتم تعيينهن ضابطات فى الجيش ويتزوجن من رجال فى نفس المستوى، وكانت الحكيمات يعملن فى برامج الرعاية التى توفرها الدولة، كما كن يوفرن العناية الطبية الأولية للنساء والأطفال، ويسجلن المواليد والوفيات، ويفحصن ضحايا الاغتصاب، ويشهدن أمام المحاكم.

ولسنوات طويلة اعتمد المؤرخون لمصر المعاصرة على كتاب نجيب بك محفوظ "تاريخ التعليم الطبى فى مصر"^(١) والذى صدر عام ١٩٣٥، وقد كتب محفوظ - الذى استقى مصادره من الوثائق الحكومية ولقاءاته مع المسؤولين الحكوميين - فى الفصل الأول:

"حين أسس كلوت بك مدرسة الطب فى أبو زعبل عام ١٨٢٧ أدرك أهمية وجود قسم للولادة ملحق بالمستشفى، بالإضافة إلى مدرسة لتخريج الموليدات. إلا أنه اكتشف سريعاً مدى التحامل الذى يتعين عليه أن يواجهه ويتغلب عليه، فقد كان من المستحيل إقناع أى تلميذات بالالتحاق بالمدرسة، وللتغلب على هذه المشكلة لجأت الحكومة إلى وسيلة قد تبدو فيها بعض الغرابة الآن. فقد جلبت عشرة من النساء الحبشيات والسودانيات من سوق النخاسة وألحقتهن بالمدرسة بالإضافة إلى اثنتين من الخصيان من قصر نائب الحاكم فى القلعة. وقد شكلت هذه المجموعة الدفعة الأولى من التلميذات، وفى عام ١٨٢٥ انضمت إليها عشرة أخريات ليصل المجموع إلى اثنتين وعشرين، وزاد العدد بعد ذلك بإضافة عشر فتيات يتيمات كن نزيلات فى البيمارستان وأرسلن إلى المستشفى للعلاج. وبعد شفائهن لم تطالب عائلاتهن بهن وأخذتهن الحكومة وألحقتهن كتلميذات بالمدرسة"^(٢).

وبسبب صعوبة الحصول على تلميذات، طلبت إدارة المدرسة من المسؤولين مخاطبة البوليس لإحضار فتاة من سن ١٢ إلى ١٣ سنة لاستكمال العدد المطلوب. وفي عام ١٨٤٥، أخطرت الإدارة البوليس بأنها أمسكت بفتاة تبين بعد الفحص الطبى لها أنها ليست "عذراء"، وأنها صغيرة جداً فأطلقوا سراحها وبالتالي طلبت البحث عن فتاة أخرى مناسبة على شريطة أن تكون عذراء^(٣). وطبقاً لما ذكره محفوظ، فبعد تخرج التلميذات من مدرسة الحكيمات بدأن فى العمل فى المنازل الخاصة، ووجدن وظائف فى العائلات الأرستقراطية مما سهل للحكومة بعد ذلك العثور على تلميذات للمدرسة. ومن بعدها أصبحت أغلب التلميذات من بنات الجنود أو من اليتيمات^(٤). ويلاحظ محفوظ أن الحكيمات لم يكن محجبات مما يشير إلى أن السبب قد يكون تدنى مستواههن الاجتماعى، أو لإحساسهن بموقعهن المهنى الجديد. ويصف محفوظ نوعية هؤلاء الحكيمات كالآتى:

"(أ) الدايات أو المولدات اللاتى كن إلى عهد قريب أميات جاهلات تعلمن مهنتهن من الدايات الأخريات وكانت الحكومة تدربهن لمدة أسبوعين من خلال إرشادات نظرية ثم تعقد لهن بعد ذلك امتحاناً صورياً ويحصلن بعده على ترخيص بمزاولة المهنة، وكانت تلك الفئة هى التى تمثل الشريحة الأكبر فى المهنة.

(ب) أو الحكيمة خريجة المدرسة الملحقة بمستشفى القصر العينى والتى كانت تمارس مهنتها مع الطبقة الوسطى من الشعب.

(ج) أو خريجات كلية الطب، وهؤلاء لم يكن لهن دور فى ممارسة الولادة الطبيعية، وإنما كن يتدخلن عادة فى عمليات الولادة المتعسرة التى تتطلب استخدام الآلات الجراحية حين لا يوجد الأطباء الأخصائيون"^(٥).

ويوضح محفوظ أكثر الشريحة "ب" فيقول: "تشمل هذه الفئة خريجات مدرسة "المولدات" الملحقة بكلية الطب. التى كانت مناهجها تراجع أكثر من مرة من منطلق رفع مستوى التلميذات. أما خريجات المدرسة فيتم اختيارهن الآن من خريجات مدرسة "التمريض"^(٦). ومن الملاحظ أن دراسة أوضاع "الحكيمات" فى القرن العشرين كانت قليلة، ولكن السجلات تشير إلى أنه فى الثلاثينيات أصبحن دايات مرخصات.

وتتصدر كتابات محفوظ فى التعليم الطبى، فلم يحاول أن يتعرض بالتحليل إلى وضع الحكيمات أو النساء الأخريات اللائى يعملن فى المجال الطبى. وفى مقال نشر عام ١٩٧٤ بدأت لافيرن كونكى وهى مؤرخة طبية وأستاذة متقاعدة نقاشاً واسعاً حول دور المرأة فى التاريخ المصرى^(٧). وقد لاحظ العلماء ذلك حيث إن الحكيمات كن ضمن القلة من النساء المهنيات اللائى ذكرهن السجل الأرشيفى للقرن العشرين، وتقول كونكى إن مدرسة الحكيمات كانت بداية مؤثرة فى تعليم المرأة فى مصر، وقد راجعت فى ذلك السجلات الأرشيفية فى الدولة المصرية والتي تتضمن معلومات عن مدرسة الحكيمات، ومقالة كلوت بك "Mémoires" وهى مقالة تاريخية نشرت فى جريدة الإيجيبشيان جازيت، ومصادر أخرى ثانوية تضمنت ما كتبه محفوظ^(٨) فتقول: "كانت مدرسة الحكيمات هى أول معهد تدريس حكومى للمرأة فى الشرق الأوسط، وكانت تجربة غير مسبوقة فى جذب النساء إلى ممارسة نشاط اجتماعى بعد أن كن بعيدات عن أى نشاط عام أكثر من أى نساء أخريات فى أنحاء العالم"^(٩). وعمل النقيض من الأنظمة الطبية فى بريطانيا وفرنسا والتي كان التسجيل فيها والسماح بالممارسة للأطباء من الذكور فقط مما دفعهن إلى رفض هذه الفئة من الموليدات غير المتعلقات فى مصر، فإن رعاية محمد على - كما تضيف كونكى - لمدرسة الحكيمات رفعت من شأن هذه المهنة التى كانت تمارسها المرأة منذ أمد بعيد. وفى حين ما أكدت كونكى مبادرة محمد على، إلا أنها أوضحت أن الطبيب الفرنسى كلوت بك هو الذى أدخل نظام تدريب المرأة لتصبح "ضابطاً صحياً" وأضافت أن محمد على "لم يستطع أن يتناسى منطق كلوت بك الذى كان مديراً للخدمات الصحية فى "أن اهتمامه بالموارد البشرية فى المستقبل يتطلب تطويراً فعالاً فى الرعاية الصحية للأم وأولادها من خلال المرأة العاملة فى هذا المجال"^(١٠).

وكان من المفترض أن الموليدات المدربات يمكنهن تجنب العديد من المشاكل التى كانت تعوق زيادة نمو السكان فى مصر. وتؤكد كونكى أن الأعوام الستة التى فرضها التعليم فى المدرسة الطبية لتخريج الحكيمات كان يمكن أن تكون مؤثرة فى أى مكان آخر فى العالم. كما أنها تشير أيضاً إلى أن التلميذات كان يطلق عليهن "حكيمات"

بما يعنى "المرأة الطبيبة" بدلاً من المصطلح المعتاد "القابلة" أو "الداية" إشارة إلى مستوى تعليمهن المرتفع. وتعتقد كونكى أن الحكيمات أضفن إلى مهنة التوليد "ممارسة مدربة عقلانية". ومع ذلك تعترف أنه رغم رغبة كلوت بك فى أن تحل الحكيمات محل "الطب القديم" الذى كانت تمارسه الدايات غير المدربات "فإن القليلات كن يلجأن إلى خدمات الحكيمات فى التوليد ولأن مدرستهن كانت تقع بجوار المستشفى العسكرى فقد اقتصر عملهن على النساء اللائى لهن علاقة بالجيش واللائى قد يترددن على مركز رعاية الأمومة^(١١)، وحين انتقلت المدرسة إلى المستشفى المدنى أشارت كونكى إلى أن الحكيمات كن نواة مؤسسة الصحة العامة الناهضة وخدمات التطعيم والوقاية ضد الجدرى. وفى المجال الجديد للوقاية من مرض الجدرى كانت الحكيمات يذهبن إلى المنازل الخاصة بالنخبة لتطعيم أطفالهم، وفى المناطق المدنية والريفية كن يقمن بتطعيم عشرات الآلاف من الأطفال والنساء. كما كن يُلحَقن أيضاً بالحجر الصحى لفحص النساء، وتسجيل المواليد، وفى البداية لتحديد أسباب الوفاة فى القاهرة، وبعد ذلك على مستوى مصر. وبصفة عامة تسهيل الحصول على الإحصائيات الحيوية. وترى كونكى أن جمع الإحصائيات الخاصة بالوفيات "كان مطلباً ضرورياً للتعرف على مشاكل الأمراض المتوطنة، ووضع برامج الطب الوقائى"^(١٢). وتأسف كونكى لأن المدرسة عجزت عن استقبال أكثر من ستين تلميذة فى وقت واحد. ورغم أن هؤلاء التلميذات كن من العبيد واليتامى والأطفال غير الشرعيين من مستوى الطبقة الدنيا، فإنهن منحوا رتب عسكرية وتزوجن من أشخاص عسكريين.

وطبقاً لما ذكرته كونكى كانت رئيسة مدرسة الحكيمات هى سوزان فويلكويين من مدرسة سان سيمونيان^(١٣). وفى القرن التاسع عشر منحت سلسلة من التحركات الاجتماعية المرأة مساحة للحصول على بعض حقوقها. ورغم أن هذه الحركات تلاشت بسرعة فى فرنسا فإنها ظهرت بصورة جزئية فى مصر حين كان محمد على يؤسس مجتمعاً صناعياً جديداً. وكانت سوزان فويلكويين واحدة من المنتمين لسانت سيمونيان (١٧٩٤-١٨٧٦/٧٧). وكانت قد افترقت عن زوجها فى وقت كانت فرنسا تعطى القليل من الحقوق للمرأة التى تفترق عن زوجها حتى ولو كان زواجاً قانونياً. وقد التحقت

فويلكوين بمدرسة سانت سيمونيان عام ١٨٢٠ حين كانت فى الرابعة والثلاثين من عمرها وكتبت فى جريدة أونيسست تقول "تحرير المرأة الكامل يجب أن يكون المبدأ الأساسى... للنظام الاجتماعى الجديد الذى نجاهد فى تأسيسه"^(١٤). وحسبما قال جويمارد فى كتابه "الإصلاح فى مصر Réform en Egypt"^(١٥) فإن فويلكوين توفيت أثناء وباء الطاعون فى عام ١٨٢٥. فعين كلوت بك محلها بالمير جولت، وهى خريجة برنامج التوليد فى مستشفى الولادة بباريس.

وتؤكد جويمارد أن كلوت بك أسس مدرسة الولادة تحت إشراف "مدام جولت المخلصة" النشطة التى أتت إلى مصر عام ١٨٢٦ حاملة معها شهادتها، وخبرة عشر سنوات. وقامت جولت بتعليم أساليب الولادة للعديد من العبيد الحبشيات صغيرات السن، وكانت جولت هى التى توفيت حين داهم الطاعون مصر فى ١٨٤٠، ويشير جويمارد فى إحدى ملاحظاته إلى أن فويلكوين كانت هى التى سبقتها^(١٦). وقد استند فى أقواله على طبعة ١٨٦٦ فى مذكراتها، ولكنه يبدو أنه أساء فهمها.

وفى طبعة ١٨٦٦ من مذكراتها تصف سوزان فويلكوين - والتى كانت تعمل كمساعدة للأطباء الفرنسيين فى المستشفيات المصرية - المدرسة فى فقرة واحدة فى نهاية الفصل الخاص بحياة النساء فتقول:

"أنشئت كلية الطب، وكلية الطب البيطرى فى أبو زعبل، وهى نوع من القلاع يقع على بعدة سبعة فراسخ من القاهرة، وهناك كان يتم تدريب بعض صغار الفتيات الحبشيات فى قسم خاص للولادة، حيث يعقد امتحان فيه بعد ذلك لجميع المدارس. وفى كل عام كان يتم تفويض بعض من القيادات المسلمة للحضور ومتابعة التقدم فى الدراسات، وحتى يكون لهذا العمل جديته، كان يدعى إلى حضوره أيضاً عدد من الضيوف، وبعد مراسم الامتحان، يقدم كلوت بك رئيس المجلس الصحى وجبة غذائية للمدعوين"^(١٧).

وتضيف فويلكوين أنه فى يوليو ١٨٢٦ أخطرها كلوت بك أن بناء المستشفى الذى كانت تطمح إلى العمل فيه قد تأجل إلى أجل غير مسمى^(١٨) وأضاف أن السيدة "فيرى"

العجوز التي كانت تشرف على مدرسة الولادة في أبو زعبل قد تقاعدت، ولكن فويلكويين لم تكن مؤهلة لوظيفتها حيث تنقصها بعض الأوراق المعتمدة. وبدلاً منها تم التعاقد مع مدام جولت. فقررت فويلكويين حينذاك - وبعد خيبة أملها في شغل تلك الوظيفة - العودة إلى فرنسا لاستكمال تدريبها الطبي هناك، وتمكنت من الحصول على خطابات توصية من دكتور ديلونج وكلوت بك تشهد بأنها أمضت عاماً من التدريب في قسم الولادة في مصر وأنها تتمتع بالكثير من الذكاء والجدارة^(١٩). وبعد ذلك عادت إلى فرنسا وحصلت على شهادتها عام ١٨٣٧^(٢٠). وبالتالي فلم تكن فويلكويين أبداً مديرة لمدرسة الحكيمات أو القديس سانت سيمونيان. وبرغم اهتمامها الشديد بطب المرأة وصحتها، ووجودهما في مصر فإنهما لم يكن لهما أى تأثير مباشر على المدرسة. وفي عام ١٨٤٤، عُين عيسوى النهاروى، وهو طبيب قبلى مديراً للمدرسة، وتبعه بعد ذلك اثنان من الخريجات "تمر حنة عام ١٨٥٨" و"عريفة عمر ١٨٦٣".

كانت كونكى تكتب في وقت حاول فيه المثقفون المتعاطفون مع شعوب الشرق الأوسط إثبات أن النمط السلبي المكرر للمرأة المسلمة خطأ وأن النساء المسلمات لم يكن فئة منعزلة تتعرض للظلم كما أظهرت معظم الصحف العامة، وأشارت إلى أن محمد على كان عبقرياً ومهماً في عملية التحديث وأن إصلاحاته كان يمكن أن تؤدي إلى تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية سريعاً لولا تدخل القوى الأوروبية.

كانت مقالة كونكى مرجعاً مهماً في أوائل القرن التاسع عشر لإظهار أوضاع المرأة في تلك الفترة فلم تكن النساء كلهن يستكن في "الحريم" بل إن بعضاً منهن كن يلعبن أدواراً أساسية في القطاع الطبي الحديث قبل نظائرهن في مناطق أخرى بعقود طويلة. وكان هذا التفسير قد ساهم في رسم صورة مضادة للنمط السلبي للمرأة والذي كان سائداً في السبعينيات من القرن كما أنه شجع العلماء الباحثين عن دور المرأة في المجتمعات الإسلامية لدراسة نشاطها في المجال الطبي.

وتعتبر جوديث تاكر مدرسة الحكيمات نقطة مضيئة في أوضاع سيئة، لذلك كتبت في عام ١٩٨٥ تأسف على قلة اهتمام محمد على بتحقيق الضمان الاجتماعي، ولكنها تلاحظ "أن الاستثناء الواضح (في ضوء محدودية تدخل الدولة في الصحة العامة) يتمثل في محاولات الدولة المتكررة لضبط مهنة التوليد، وهي نشاط أساسي في حياة النساء في المجتمع"^(٢١). وبعد وصف موجز للمدرسة تشير إلى أن الفريق الطبي الذي كان يعمل خلال الأوبئة كان يضم حكيماً بصفة روتينية. وفي الثمانينيات من القرن التاسع عشر التحق ١٤٢ طبيباً بخدمة الحكومة، كان منهم ثلاثة وأربعون امرأة^(٢٢). إلا أن خريجات المدرسة - كما تقول - فقدن مكانتهن المهنية بعد تأسيس "الخدمة الصحية" عام ١٨٨٤، ولم تتخذ تاكر موقفاً ما حيال فوائد إدخال الطب "الغربي التقليدي"، ولكنها اعترفت بأن المدرسة والمعهد "استثناء بارز" في نقص الخدمات الصحية العامة والاجتماعية الحكومية. وتعتمد تاكر بصفة أساسية على تقارير الفرنسيين، ومكتب السجلات العامة البريطاني. ولكنها لم تشر إلى كونكي في بحثها عام ١٩٨٥ .

وفي عام ١٩٩٨، توسعت تاكر في الكتابة عن مدرسة الحكيمات قائلة "إن تاريخ مدرسة الحكيمات التابعة للدولة والتي تقوم في نفس الوقت بتخريج الضابطات الحكيمات تظهر طموحات ومحدودية هذه الغزوات في تاريخ تعليم المرأة"^(٢٣). ثم عكبت على ما قالته كونكي مع إضافة تفسيراتها الخاصة، فأشارت إلى أن الدولة أخذت المبادرة بتطوير الرعاية الصحية والتعليم لتحسين صحة الأم والطفل من منطلق الصراع مع انخفاض معدل السكان. ولأن النساء فقط هن اللاتي كان يسمح لهن بالدخول في الأماكن الخاصة في البيوت سواء في المناطق الحضرية أو الريفية فقد وقع على كاهل الحكيمات عبء إطلاعهن على الممارسات الحديثة في الطب. ولكن تاكر ترى أن النساء لم يكن أدوات للتغيير، وأن الدولة هي التي لعبت الدور التاريخي الأساسي في مصر في القرن التاسع عشر. وحتى يتسنى لها تحقيق برنامجها للإصلاح الاجتماعي كان يجب عليها تدريب وتحريك المرأة. أما محمد على ومن خلفه بعد ذلك فقد اتجهوا إلى برامج الإصلاح ليس بهدف فائدة المرأة العادية، ولكن لتوسيع سلطة الدولة.

وترى تاكر أن التوسع فى العلاقات الاقتصادية الرأسمالية فى مصر تسبب فى تدهور البناء الاجتماعى والاقتصادى السائد فى ذلك الوقت والذي جاء على حساب فائدة النساء والرجال العاديين. وفى كلتا الحالتين ركزت على الدور الذى لعبته السلطات الإنجليزية فى انهيار مدرسة الحكيمات، "فقد أدى احتقار الدول الغربية لمساعدى الخدمة الصحية مع رفع قيمة الطب العلاجى فى المستشفيات، إلى التقليل من قيمة الحكيم وموات التدريب المهنى للنساء"^(٢٤). وفى حين ركزت كونكى على حصول المرأة غير المسبوق على التدريب الطبى الغربى، ركزت على دور التدخل الغربى فى تقويضه.

وتناقش أميرة سنبل فى أحد إصداراتها عام ١٩٩١، كيف كان يتم تلبية احتياجات الجيش الطبية حتى قبل إصلاحات محمد على فى هذا المجال، وأن ما أراده محمد على كان توفير "الخدمات الناقصة فى الدولة بصفة عامة"^(٢٥). وتضيف "حين وصل كلوت بك إلى مصر قادماً من مرسيليا فى عام ١٨٢٥، كانت الخدمات الصحية تتكون من مستشفى واحد للجيش مقام فى أبو زعبل، وبیمارستان المنصوري الذى كانت حالته متدهورة"^(٢٦). فقد أوقف الإنجليز "مدرسة الحكيمات" وبدلاً منها شجعوا الأقاليم على إنشاء مدارس للموليدات، وحلت كلمة "الداية" بدلاً من "الحكيم"^(٢٧). وفى ملاحظة أخيرة لها تتبنى على كونكى لأنها "أطلقت لقب حكيم على هؤلاء السيدات، وهى تتساوى إلى ما مع الطبيبة"، وترى كونكى أن هذا اللقب أكثر ملاءمة من "الداية" حيث إنهن قد دربن ليس فقط على عمليات الولادة على أسس ملاءمة، بل لأنهن كن يذهبن إلى القرى لممارسة أنواع أخرى من المهام الطبية^(٢٨). وتستشهد سنبل بما كتبه هيوارث دون عام ١٩٣٨ فى كتابه: "مقدمة إلى تاريخ التعليم فى مصر الحديثة"،

An Introduction to the History of Education in Modern Egypt.

فتقول إن أربعة من الخصيان أصبحوا تلاميذ فى عام ١٨٣٥، وأن محمد على أرسل اثنين من القصر ليصاحبيا المجموعة الأولى من الفتيات إلى مدرسة الولادة، وأضاف أن الخصيان "درسوا أيضاً المناهج"^(٢٩) واستشهدت على ذلك بنجيب محفوظ.

ويشير انضمام الخصيان إلى المدرسة إلى صعوبة العثور على تلميذات ووضعهن داخل التسلسل الهرمي للنوع (ذكر/أنثى) في مصر في القرن التاسع عشر. ومثل الحبشيات والجواري السودانيات اللاتي كان يتم شراؤهن لهذا المشروع، كان الخصيان عبيداً أيضاً ويعتمدون على الدولة تماماً. ولأنهم كانوا يعتبرون "بدون جنس"، ومسموحاً لهم بدخول الأماكن التي تقيم فيها النساء، فقد كانوا بالتالي تلاميذ مؤهلين للالتحاق بالمدرسة.

وتعتقد سنبل أن "المدرسة هي التي كانت تختار (الأزواج) إلا أنه كان يترك للطرفين الخيار في القبول أو الرفض"^(٢٠)، ومع ذلك تشير السجلات أنه لم يكن للحكيما دوراً كبيراً في اختيار أزواجهن. وبصفة عامة تقول سنبل إنه يجب علينا أن نتفهم أن الحكيمات كن أحد وجوه مهنة الطب في مصر بل وفكرته الأساسية، فلعلّود كثيرة كانت الحكيمات جزءاً أصيلاً من مؤسسة الصحة العامة.

وتعتمد ليلي أحمد في كتابها الذي نشر عام ١٩٩٢ على مقالة كونكي، وتنتهي إلى أن محمد علي فتح مدرسة "للنساء الطبييات" لتدريب تلك الفئة التي يمكنها التردد على النساء، وكان هدفه القضاء على الأوبئة والأمراض المتوطنة لتقوية العمالة في مصر. وكان أهم شيء بالنسبة ليلي أحمد أن التدريب في المدرسة - والذي كان يركز على التوليد - كان يستغرق نفس مدة التدريب في مدرسة الطب التي كانت مخصصة للرجال. وأن المدرسة كانت تجد صعوبة في الحصول على عدد كاف من التلميذات في بادئ الأمر، لكن بعد ذلك امتلأت على سعتها عام ١٨٤٦ وظلت على هذه الحال حتى نهاية القرن. ثم تركز ليلي بعد ذلك على القيود التي وضعها كرومر على تعليم المرأة، فلم يكتف فقط برفع رسوم الالتحاق بالمدارس العامة، ولكنه عمد أيضاً إلى تقليص نشاط مدرسة الحكيمات: "ففي ظل الحكم البريطاني تقلص نشاط مدرسة الحكيمات وتحدد في عمليات الولادة فقط رغم أن التدريب الطبي بها كان يماثل في عدد سنواته الدراسة في مدرسة الطب للينين" فقد كان كرومر يعتقد أنه "في العالم المتحضر يظل الأطباء الرجال هم القاعدة"^(٢١). ومرة ثانية تعزز رأي كونكي في أن سوزان فويلكوين

كانت مديرة كلية الطب النسوية^(٣٢). ومن وجهة نظر ليلي أحمد - التي استندت في بحثها على مقالة كونكي واستشهاد تكر بما فعله كرومر، كانت النقطة المهمة التي أبرزتها هي أن الإنجليز كانوا ضد التطور الذي بدأه محمد علي.

وفي المقابل تقول سهير مرسى - وهي إحدى طبيبات الأنثروبولوجيا - في عام ١٩٩٣ إن التطور الصناعى الذى أحدثه محمد علي كان أساسه جهد الرجال والنساء، وإن تدريب الحكيمات كان يستهدف ضبط قدرة المرأة على العمل^(٣٣). ويستند تحليل سهير مرسى على دور المرأة فى العمل فى مجال الصناعة فى عصر محمد علي، وأن هدف مدرسة الحكيمات كان حماية صحة النساء العاملات البالغات، وتؤكد أنه رغم تدخل الدولة فى حياة المرأة قبل عهد محمد علي بمدة طويلة، فإن هذا التدخل أصبح الآن بصورة مباشرة^(٣٤). ثم تركز مرسى على الطبقة الجديدة العاملة وما تحققه من أجور وعلى الدور الرئيسى الذى تلعبه النساء العاملات بدلاً من المؤسسات التى ترعى المرأة أو تلك التى تحظى بالاهتمام الغربى الإمبريالى، ورغم أنها تستند تماماً إلى دراسة كونكى كمصدر لمادتها فإنها تختلف بصورة جوهرية عن تفسيراتها.

وفي عام ١٩٩٧، انتقدت مرفت حاتم وجهة النظر التى تقر بأن دخول التعليم الطبى الغربى وإنشاء معاهد الصحة العامة فى مصر تسبب فى تطور المرأة^(٣٥). وتشير إلى أن إصلاحات محمد علي فى مجال الطب والصحة العامة لم تكن فقط وسيلة لتوسيع سلطة الدولة، ولكنها كانت أيضاً وسيلة للسيطرة على النساء. وتقول حاتم "كانت المناهج الطبية الحديثة التى تدرس فى مدرسة الحكيمات تهتم بإدراج أشكال جديدة من السيطرة على أجساد النساء "... فقد كان على الدولة أن تلعب دوراً جديداً ومهماً فى تحديد استخدام المرأة لمهاراتها الإنجابية... وكانت النتيجة هي ترويض أنوثة المرأة التى تعلو من شأن الأمومة فى نفس الوقت الذى تنكر عليها فيه استقلاليتها. وعلى النقيض من ذلك كانت المناهج تمجد جسد الرجل وحيويته، واستخدمته للتفرقة بين مفهوم الرجولة ومفهوم الأنوثة"^(٣٦). وباستخدام تحليل فوكالديان ، تشير حاتم إلى أن خريجي المدرسة أصبحوا تابعين للدولة، وخاضعين "لعلاقات قوى جديدة، وأشكال أخرى من المفاهيم، وأنواع من السلطة أصبحت أساس

الحكم على الذات وعلى الآخرين" (٣٧). وكانت خدمات الرعاية الصحية تدور حول ما يهم الدولة من أعمال الرقابة والإشراف والنظام. وتستترشد بما كتبه بسيم مسلم فى دراسته عام ١٩٣٨ (٣٨)، من أن منهج ممارسة الطب قبل خطوات التحديث أعطت الرجال والنساء الحرية الشخصية فى عملية الإنجاب أو منع الحمل. إلا أن كلوت بك - مؤسس المدرسة الفرنسية - حاول أن يقلص من هذه الحرية، وشكا من أن الدايات كن مؤهلات تماماً "لعمليات إجهاض سريعة فعالة" وأنهن كن "يفعلن ذلك بصفة يومية" (٣٩). ففى ذلك الوقت لم تكن الداية أو الأم الحامل تنظر إلى عملية الإجهاض باعتبارها جريمة، كما أنه لم يكن هناك قانون يحرمه بل كان الرأى السائد بأنه يمكن إجهاض المرأة الحامل حتى الشهر الرابع. وكان اختيار الرجل والمرأة للإنجاب يستند على رأى الفرد والأسرة وليس على احتياجات الدولة.

وتشير حاتم إلى أن الدايات كان لهن وظائف متعارضة حيث كن يقمن ببعض العمليات الجراحية مثل ختان البنات والذي كان يستهدف ضبط قدرات المرأة الإنجابية. أما الحكيمات فلم يقمن بهذه العملية، ولكنهن كن يسجلن المواليد والوفيات والتي وسعت سلطة الدولة فى مجالات جديدة. وقد طورت حاتم من الرأى الذى نادى به تيم ميتشل عام ١٩٨٨ (٤٠) وقالت فيه إنه فى أواخر القرن التاسع عشر توسعت السلطات البريطانية فى تسجيل المواليد فى المناطق الحضرية والريفية فى مصر بهدف تسهيل تجنيد الرجال فى الجيش والرقابة والسيطرة على الشؤون المحلية. ولأن جميع الإحصائيات الخاصة بالمواليد والوفيات - هو جانب آخر فى الطب الحديث والصحة العامة فقد أصبح من الوسائل المهمة فى ضبط النظام الاجتماعى، كما كان أداة مهمة أيضاً للعاملين فى قطاع الصحة العامة تمكنهم من تتبع ظهور الأمراض والأوبئة ونسبة انتشار المرض والوفاة. وقد أشارت حاتم إلى أنه قبل بدء الإنجليز فى تطبيق حركة الإصلاح، كان محمد على وخلفاؤه من بعده يعتمدون على الحكيمات لإبلاغهم بحالات الإجهاض والذي كان قد صدر قانون بمنعه حينذاك وبالتالي كان يمكن للدولة اتهام الداية بهذه الجريمة. أى أن الدولة من خلال هذا القانون "خلقت" عن قصد

مفهوما للأنوثة يتمثل في تقديس معنى الأمومة^(٤١). وتشير حاتم إلى أن كلوت بك كان يعتبر الإجهاض جريمة وخطيئة، وأن الإنسانية سوف تنتهى إذا سمح للمرأة بالمضى فى هذا الطريق، وتقول حاتم إنه من منطلق ذلك قام كلوت بك بتأسيس مدرسة الحكيمات بهدف أساسى هو تثقيف الدايات حتى لا يمارسن عمليات الإجهاض.

كان كلوت بك يعتبر ختان الإناث عادة إسلامية كانت موجودة قبل الإسلام واستمرت حتى الوقت الحاضر، وأنها عادة مضللة ولكن لا ضرر منها، أما عملية إخضاع الرجال فهي انتهاك لقانون الطبيعة والأخلاق وتنزيل من وضع الرجل الاجتماعى وحرية. وكان النقد اللاذع الذى وجهته حاتم أن المرأة خسرت الكثير من استقلالها بحياتها أكثر مما حصلت عليه من فائدة من خلال خدمات الحكيمات. فقد فقدت المرأة حريتها فى الإجهاض، وأصبحت ممارستها الطبيعية المألوفة لا قيمة لها بالإضافة إلى أن فشلهن فى تسجيل المواليد والوفيات كانت له عقوبته، واعتمادهن على الداية بدلاً من الحكيمة يعتبر جريمة. وتستطرد حاتم قائلة بأن الحكيمات الجدد كن ينشرن الأخلاق الغربية الجديدة التى تمكن الدولة من التحكم فى أجساد وأرواح النساء الأخريات. وقد وقع على عاتق النساء المهنيات من الطبقة الوسطى الإشراف على تنظيم الطبقة العاملة من الدايات وزبائنهن من الطبقة الوسطى والعاملة^(٤٢). وقد اعتبرت مهنة الطب الحديثة أن الممارسات الأهلية الطبية أقل من المستوى المطلوب، وبالتالي أصبح الاعتماد على الدايات، والممارسين الأهليين الآخرين فى نظر الكثيرات وسيلة للتمرد على الدولة الحديثة المستبدة. ورغم أن حاتم اعتمدت على ما ذكرته كونكى فإنها أعادت تفسير دور الحكيمات، ولكنها لم تتعرض لبرامج التطعيم والرعاية الصحية العامة التى تقوم بها الحكيمات، بل ركزت على دورهن فى مراقبة وتنظيم عمليات الإجهاض، وتعتبر حاتم أن الحكيمات لسن نماذج إيجابية فى رعاية النساء أو أنهن يلعبن الدور السلبي فى مقابل الاهتمام الغربى بحياة المرأة، أو أنهن يبرزن أهمية دور النساء من الطبقة العاملة، بل كانوا نماذج لحكم محمد على الذى تدخل فى الحياة الشخصية للمرأة بأساليب جديدة ضارة.

وفى عام ١٩٩٨ أعلن خالد فهمى أن محمد على لم يكن يهدف إلى نشر التعليم الحديث بين النساء المصريات، أو زيادة تعداد السكان من خلال تحسين مجال رعاية الأمومة أو التوسع فى سيطرة الدولة على أجساد النساء^(٤٣). بل إن فهمى ذكر أن انتشار مرض الزهري والجدرى بين الجيش كان الدافع لمحمد على إلى تأسيس المدرسة. وكان مرض الزهري قد تفشى فى الجيش، وكان يريد من النساء المدربات الإبلاغ عن البغايا الحاملات للمرض. كما كان بحاجة أيضاً إلى نساء يقمن بتطعيم عامة الشعب ضد مرض الجدرى حيث إن الرجال لم يكن فى استطاعتهم التردد على أماكن المرأة. ولم يكن مرض الجدرى يفتك بجيشه فقط، بل كان يتسبب فى وفاة الكثير من الأطفال وبالتالي تقليص حجم الجيش فى المستقبل. بالإضافة إلى أن محمد على - بناء على نصيحة كلوت بك - كان يعتقد أن الدايات غير المدربات يتسببن فى وفيات الأطفال عند الولادة. ولذلك كانت الحكيمات يقمن بالإبلاغ عن الدايات اللائى لا يخضعن لرقابة الدولة. كما تم تدريبهن أيضاً على فحص جثث النساء بعد الوفاة، وفحص المرأة فى حالة اغتصابها. أى أن الحكيمات كن يقمن بدور مفتش البوليس أو المندوبين عن الدولة، ففي حالات الاغتصاب مثلاً عليهن فحص النساء والإدلاء بشهادتهن أمام المحكمة وهن بهذا يخدمن الدولة التى "بدأت فى الرقابة على كرامة المرأة وجنسها وهو دور اضطلعت به الدولة بدلاً من الآباء والإخوة والأسرة"^(٤٤). ومن ذلك يتبين أن الدولة كانت تتوسع فى فرض سيطرتها على أوضاع المرأة الجنسية من خلال مدرسة الحكيمات. وربما كان لذلك فائدته بالطبع لبعض النساء على الأقل ممن يخضعن لسيطرة الذكور فى عائلاتهن. وينهى فهمى بحثه أنه رغم سيطرة الدولة القوية، والتى كانت تفرض على الحكيمات الزواج من ضباط تختارهم الدولة، فإن النساء تمكن من اكتساب بعض القوة من خلال المناورة داخل النظام. فقد مكنت المدارس التلميذات من ترك أوضاعهن المتدنية خلف ظهورهن ليصبحن نساءً متعلمات لهن وظائفهن. ثم يؤكد فهمى أن الوضع الاجتماعى للحكيمات كان مثيراً للجدل، فمثل كونكى، ركز على قوة المرأة حيث اكتشف أن النساء يمكن أن يتخذن خطوات لتحسين حياتهن فى مجتمع يمنحهن القليل من الاختيارات.

وحيث كتب كامران أسدر على في عام ٢٠٠٢ عن الحكيمات، استند إلى ما كتبه سهير مرسى وأشار إلى أنه كان يتم اختيارهن وتدريبهن منذ زمن محمد علي باشا على قواعد الصحة العامة، والجراحة، وأمراض النساء، والتوليد لخدمة المواطنين في مصر. ويؤكد أنه بنهاية القرن العشرين سمح للحكيمات فقط بممارسة مهنة التوليد وبعدها حلت الممرضات الأوروبيات والأطباء الرجال بدلاً منهن. أما النقطة الأساسية التي اتفق فيها أصدر على مع ليلي أحمد فهي أن المسئولين البريطانيين همشوا من وضع الحكيمات حتى يحتكروا مهنة الطب لأنفسهم^(٤٥).

مصطلحات

إن المصطلحات التي استخدمها سلسلة الباحثين هنا لها بالطبع مغزاها. فتكتب كونيكي مقالة مؤثرة تحت عنوان "طبيبة تركب حملاً" *Doctress on a Donkey* ويتحول هذا العنوان في كتابها ليصبح "ضابطات الصحة *Women Health Officers*" ويعتبر تاكر أن مصطلح حكيمة هو "اللقب المهني *Professional Title*" ولكنه يفضل استخدام لفظ "المولدة الرسمية *Official Midwives*" تأكيداً على دورها في عملية الولادة وتقليلاً لدورها في برامج التطعيم، والحجر الصحي، وأعمال البوليس. واستخدمت سهير مرسى أيضاً لفظ الحكيمات، كما أطلقت عليهن أيضاً "المهنيات من الطبقة الوسطى" مما رفع من شأنهن. أما مرفت حاتم فقد تجنبت تماماً مصطلح الحكيمات، وأشارت إليهن بصفتهم "المولدات الجدد"، أو "المولدات المحترفات" مما قلل من مركزهن الاجتماعي. أما خالد فهمي فقد استخدم مصطلح حكيمات، وهو لفظ محترم لم يحفظ فقط اللغة العربية المستخدمة في مصادر أرشيف الدولة، لكنه توافق أيضاً مع حجته في أن التعليم أعطاهن نوعاً من القوة. وسواء كن طبيبات أو مولدات (دايات) أو ممرضات للصحة العامة فإن ذلك يتوقف على تفسير المؤرخين، والمصادر وترجمة تلك المصطلحات. والملاحظ أنه لو كان المؤرخ متأثراً بهؤلاء النساء كان يطلق عليهن لفظ حكيمات، أو "ضابطات صحة"، وإذا كان له رأى آخر فهن "مولدات" أو "دايات". أما المجموعة الثانية من النساء العاملات في مجال الطب والصحة العامة فكانت من المتطوعات من أعلى طبقة في المجتمع.

النساء المتطوعات

فى إحدى مقالاتها التى نشرت عام ١٩٧٨ تقول عفاف لطفى السيد مارسو "إن تاريخ الشرق الأوسط يغص بالقوالب والصيغ المبتذلة التى تتواجد أكثر ما تكون فى الدراسات والأبحاث عن عالم المرأة"^(٤٦). وحتى تتحاشى هذه القوالب والصيغ ركزت على الأميرات من الأسرة المالكة وسيدات النخبة اللائى أسسن "مبرة محمد على الكبير" فى عام ١٩٠٨. وقد بدأت هؤلاء السيدات عملهن برعاية عيادة صغيرة فى عابدين، وخلال عقود قليلة أصبح تحت إشرافهن حوالى اثنى عشر مستشفى، وثمانية عشرة مستوصف كانت تخدم ملايين المرضى. وكانت لديهم اعتمادات مالية ضخمة، كما شجعن كل من النخبة والأشخاص العاديين على دعم ومساندة مجهوداتهن. ولم يكن يمارس العمل الفعلى كطبيبات أو ممرضات، ولكن دورهن انحصر فى جلب التبرعات، وتأسيس المستشفيات والمستوصفات وإدارتها. وفى الأربعينيات، فى خلال ظهور وباء الكوليرا والملاريا كن يتركن منازلهن لتقديم خدمات الرعاية للمرضى الفقراء. وتكتب مارسو:

"كانت المبرة ناجحة كمؤسسة لأنها كانت تتميز بالكفاءة. ولم تكتف العضوات بالتبرع بالأموال، ولكن بتخصيص جزء من أوقاتهن لها أيضاً. فقد تشكلت لجنة من العضوات تتولى التفتيش على الغرف والمطابخ والاستماع إلى أية شكوى من المرضى والإشراف على كل مستوصف وعيادة. ومع ذلك لم يكن مجبرات على التطوع بوقتهن ولكن كان الدافع لهن ينبع من داخلهن، وربما كان هدفهن هو تحويل طاقتهن إلى هدف سامى فعال حين عجزن عن المشاركة فى الأنشطة العامة الأخرى، وربما كان لديهن كثير من الوعي، الذى لا يكتفى بمجرد التبرع بالأموال...."^(٤٧).

وبالتالى كانت هذه المؤسسة تجسد الصفات المتميزة للتفانى والمبادرة والقدرة التنظيمية ومهارة الإدارة. وكانت المرأة المسلمة قد ساهمت طويلاً فى الأعمال الخيرية، ومن خلال ممثليها كانت تدفع الأموال للمؤسسات الدينية وغيرها، عكس ما تفعله الآن من العمل بنفسها فى خدمة المجتمع. فلم يكن هذا ممكناً فى أوائل القرن التاسع عشر

ولكن مع مطلع القرن العشرين كانت العادات والتقاليد قد تغيرت، فقد كانت النساء يتعلمن فى منازلهن أو فى مدارس الراهبات الأجنبية وكانت أمامهن اختيارات عدة فى الحياة.

وعلى النقيض من كل ما ذكرنا تشجب نوال السعداوى عام ١٩٨٠ - وهى طبيبة وكاتبة وناشطة - هذا النشاط الخيرى لسيدات البلاط فى أنشطة المرأة فتقول:

"لم تكن هذه الحركة تمثل الأغلبية الكاسحة من النساء العاملات، وبالتالي انتهت قيادتها تماماً مثلما انتهت قيادتها السياسية بسبب تكيفهن فى علاقاتهن بالإنجليز والقصر والقوى الرجعية. وأصبحت الحركة النسائية لعبة تُستخدم لصالح القصر والأحزاب الرجعية. وابتعدت بذلك عن التدخل الفعال فى الحياة الوطنية والسياسية للبلاد، وانحصرت أنشطتها فى الأعمال الخيرية وأنشطة الضمان الاجتماعى" (٤٨).

وترى السعداوى أن نساء المبرة كن يوزعن أعمال الخير بدلاً من العمل على إصلاح الغبن السياسى والاقتصادى الواقع عليهن فى مصر، فقد كن يستهدفن الحفاظ على النظام وتعزيز مراكزهن المجتمعية العالية ولهذا لم يكن نماذج إيجابية لفاعلية المرأة فى العالم الإسلامى. ولم تتوسع السعداوى فى دراستها عن النساء المتطوعات، ولكن وجهة نظرها كانت مؤثرة إلى حد كبير.

وعنصر آخر مهم تمثل فى التأثير السياسى للنساء المتطوعات، فبسبب علاقتهن الوثيقة بالقصر لم تشر الجرائد الوفدية المعارضة للسراى إلى أنشطتهن، بل كان ينظر إليهن "كسيدات يلهون". ويقول الصحفى إحسان عبد القدوس إن الأوبئة لم تكن هى أس البلاء فى مصر بل كانت الطبقة العليا، وإن عدد المتطوعات من النساء أقل من الاحتياج الفعلى. وأضاف أن المجتمع يجب أن يعاد تشكيله من القاعدة إلى أعلى. أما الصحافة التى كانت تساند القصر وكذلك الصحف الأجنبية فقد أثبتت على المتطوعات اللاتى أكدن عجز حكومة الوفد عن التعامل مع مشاكل الصحة العامة، ومن ضمن ما ذكر:

"كانت مهامهن غير مسبقة. ورغم أن الممرضات الزائرات أو النساء الفاعلات للخير لم يكن ظاهرة جديدة في مصر، فإنهن لم يعتدن السفر مسافات طويلة لتأسيس وتقديم برامج رعاية واسعة النطاق بأنفسهن. لقد عملت الحكيمات في الخدمات الحكومية الصحية تحت إشراف مسئولين رسميين، أما النساء فاعلات الخير قبل القرن العشرين فكان يقدمن المساعدة وهن في منازلهن من خلال وسطاء رجال كانوا يمثلوهن في المهام الرسمية... وخلال وباء الملاريا، كانت نساء المبرة والهلال الأحمر يسافرن وحدهن ودون أسرهن لتنظيم برامجهن في الرعاية على نطاق واسع في محاولة لجذب اهتمام الشعب ومساندته لهن"^(٤٩).

ومع ذلك، فرغم ما أظهرته من نشاط واضح، فإن اهتمامهن كان منحصراً في أعمال الخير وليس في الإصلاحات الاجتماعية التي كان من الممكن أن تقلل من أوضاعهن الاجتماعية. كانت المتطوعات نساءً عصريات يشجعن تطبيق الرعاية الطبية داخل العيادات وليس في منازلهن، كما كن يناصرن الوسائل الجديدة في الرقابة الاجتماعية وأردن أن يكون لهن دور في الحياة العامة، وعلى ذلك يتبقى على المثقفين أن يستخدموا تحليل فوكولديان أو تحليل أوضاع ما بعد الاستعمار وتطبيقها على النساء المتطوعات وأنشطتهن.

واستناداً إلى مارسو، تشير ليلي أحمد (١٩٩٢) إلى أنه: "من ضمن المنظمات التي أنشأتها النساء من الطبقة العليا وقمن بإدارتها لعب بعض منها دوراً حاسماً في الخدمات الطبية في البلاد. فمثلاً وفرت مبرة محمد علي - التي أسسها اثنتان من الأميرات عام ١٩٠٨ - عدداً من العيادات، والمستشفيات والمستوصفات"^(٥٠). وكانت ليلي متأثرة بما فعلته هذه المؤسسات من علاج ما يقرب من ١٣ مليون مريض خلال فترة واحد وعشرين عاماً قبل تأميمها في عام ١٩٦٤ .

وفي عام ١٩٩٥، ركزت مارجو بدران على نوافع النخبة من النساء الناشطات وخلفيتهن التعليمية، فأشارت إلى أن الحافز لنشاط سيدات مبرة محمد علي كان

التقاليد الإسلامية التي تستهدف العناية بالفقير، وتعرضهن للأفكار الأوروبية الخاصة بالأعمال الخيرية من خلال الدراسة في مدرسة المير دى ديو، أو الدروس الخاصة التي تلقينها من المدرسات الأوروبيات. وفي حين ما ركزت مارسو على الدور الرئيسى للأميرات فى إنشاء مبرة محمد على، ركزت بدران على دور الحركة النسائية المطالبة بالمساواة بين الجنسين.

"لقد كانت النساء هن اللاتى حررن الخدمة الاجتماعية من قبضة المؤسسات الدينية (الأساسية والفرعية) فى مصر حين أسسوا أول جمعية مدنية خيرية بالإضافة إلى جمعيات أخرى غير دينية ترتبط بمشروعات الخدمة الاجتماعية. وقد أسست هدى شعراوى الإتحاد النسائى المصرى، وأسس غيرها مبرة محمد على وما تبعه من مستوصفات للنساء والأطفال، وكان الدافع الملح السريع هو النسبة المرتفعة لوفيات الأطفال فى السنة السابقة. ومع ذلك فقد كان هناك دافع وطنى آخر، فقبل ذلك كانت النساء البريطانىات قد أسسن جمعية الليدى كرومر التى كانت تدير داراً للقطاء ومستوصفاً للنساء الفقيرات والأطفال. وقد انضم إلى هذه الجمعية بعض من سيدات الأسر الراقية ومنهم إقبال هانم، ووالدة هدى شعراوى. أما هدى شعراوى نفسها فقد رفضت الانضمام إليها لأسباب وطنية وهى أن أعمالها ترتبط بجمعيات خيرية استعمارية"^(٥١).

وتضيف بدران أن المؤسسات الخيرية المدنية أبعدت الرعاية الاجتماعية عن مضمونها الدينى، وأدخلتها مجال الرعاية الوطنية المدنية. وفى حين ما ركزت بعض المتطوعات على تقديم الخدمات الخيرية فقط، كان البعض الآخر منهن يأمل فى أن يساهم عملهن فى إعطاء النساء من الطبقة الدنيا حقوقهن. فقد وجدت الكثيرات من الطبقة العاملة وظائف فى مستشفيات المبرة وعياداتها ومع مرور الوقت أصبح العمل التطوعى فى المستشفيات والعيادات نشاطاً مقبولاً من نساء الطبقة العليا فى المجتمع^(٥٢). وربما كانت مستشفيات المبرة تستخدم الحكيمات، إلا أن سجلات المستشفى لم يتم

الإطلاع عليها. وترى بدران أن النساء كن أنوات للتغيير فى مصر فقد حفز نشاطهن فى مجال الطب والصحة العامة الدولة وشجعها على إنشاء وزارة للشئون الاجتماعية^(٥٣). وبالتالي خضعت المستشفيات والعيادات إلى إشراف ورقابة الوزارة الجديدة، ولكنها ظلت بدون تمويل حكومى. وأتاح هذا للنساء أن يمتصين فى إدارة هذه المؤسسات كما كن يفعلن سابقاً^(٥٤).

وكمصادر رئيسية استقى المؤرخون معلوماتهم عن المؤسسات التطوعية من المقالات الصحفية، والنشرات التى كانت تصدرها المؤسسات، وكذلك المذكرات، والأوراق الخاصة والصور ثم اللقاءات الشخصية مع النساء أنفسهن أو معارفهن أو أقربائهن وأخيراً من خلال عدد محدود من السجلات البرلمانية وأرشيف وزارة الصحة. ومرة ثانية تظهر معانى المصطلحات. فمثلاً أثناء المناقشات حول متطوعات المبرة تشير مارسو إلى "ما يسمى بالمؤسسات الخيرية" والتى تعنى فى واقع الأمر "الخدمات الاجتماعية على نطاق واسع". أما المتطوعات أنفسهن فكن "سيدات ثائرات" فى حين كان بعض منهن من "سيدات الخير" والبعض الآخر من "الناشطات الاجتماعيات"^(٥٥). وقد ركزت مارسو على واحدة منهن بالذات وهى هدية هانم بركات لتكون نموذجاً للالتزام الجاد غير الأنانى. وعلى العكس فإن نوال السعداوى تستبعد هذه الأنشطة وتعتبرها "صدقة" أو عملاً خيرياً رجعياً فى أساسه. أما بدران فتري أن المتطوعات كن جزءاً من الحركة النسائية، وفى بعض الحالات من الناشطات فى حقوق المرأة. ومع ذلك فربما كان الدافع لهؤلاء المتطوعات هو رغبتهن فى تقديم خدماتهن، وربما كان من الأفضل أن نقرر أنهن حددن الخدمة كهدف لهن وإن كانت خدمة للقصر أولاً ثم بعد ذلك لأسرهن ولأنفسهن، وبسبب مراكزهن الاجتماعية فقد كان من السهل عليهن التواصل مع المستويات العليا فى الحكومة وبالتالي الحصول على دعاية واسعة. وقد أصبحت القليلات منهن - عكس أى من الحكيمات - ناشطات نسائيات بارزات^(٥٦).

الخاتمة

كيف لنا أن نفرز الآراء التاريخية المتعارضة حول تقييم دور الحكيمات ومتطوعات المبرة؟ فى عام ١٩٧٠ حين بدأت الحركة النسائية العالمية تكتسب أرضاً جديدة، بحث كثير من العلماء عن الهيئات الأهلية والنسائية وعن الحركات الاجتماعية التقدمية فى المجتمعات الإسلامية. ومن وجهة نظر كتاب السبعينيات، كانت مدرسة الحكيمات فى المقام الأول نموذجاً للتطور الأصيل الذى حدث للمرأة المصرية والذى لم يوجد فى أى مجتمعات إسلامية أو أوروبية أخرى، ولذلك كانت مدرسة الحكيمات لها أهمية كبرى فى الخدمات التعليمية والصحة العامة فى مصر، وفى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات اتخذ العلماء منحى اقتصادياً سياسياً وركزوا على تأثير اتساع السوق العالمى فى المجتمعات غير الغربية. وكان المناصرون له معارضين لسيطرة دعاة التحديث الذين كانوا يؤكدون على فوائد الأخذ بأساليب الغرب، ودافعوا عن موقفهم بالقول بأن التحولات السياسية والاجتماعية فى القرن التاسع عشر كانت ضارة بالرجال والنساء العاديين فى الأمة. أما مدرسة الحكيمات فقد كانت إلى حد ما استثناءً من هذه القاعدة. ومع ذلك كان بعض من الآخرين على وعى بأهمية الطبقة العاملة فى الإصلاحات الاجتماعية وكانوا مهتمين بإلقاء الضوء على أهمية الحكيمات فى تحسين أوضاع المرأة العاملة من خلال خدماتهن الطبية والصحية العامة. وفى أواخر الثمانينات أصبحت نظريات فوكولديان لها تأثيرها الواسع، وأصبحت إصلاحات محمد على فى مجال الطب بصفة عامة ومدرسة الحكيمات بصفة خاصة وسيلة لتوسيع سيطرة الدولة. وكان هذا التوسع ضاراً بمصالح المرأة لأنه تسبب فى تقليص اختياراتهن المعتادة فى عملية الإنجاب. فقد كانت الحكيمات وسائل مساعدة للدولة فى الرقابة عليهن ولسن أفراداً يستهدفون صالهن. وفى الفترة الأخيرة ركز الكتاب على نوافع محمد على فى السيطرة على الأمراض والأوبئة، وانتهوا إلى أن الحكيمات رغم مراكزهن الاجتماعية المتدنية فإنهن نجحن فى الاستفادة من تعليمهن بالمبادرة لإيجاد وضع لهن داخل النظام.

وقد دأب العلماء على اعتبار سيدات المبرة المتطوعات دليلاً على أن المرأة المصرية - إذا ما أعطيت الفرصة - سوف يكون لديها المبادرة والمهارة الكافية للإسهام فى الحياة العامة. وذكر آخرون أنهم كن يلجأون إلى الأعمال الخيرية حتى يتجنبوا مواجهة الإصلاح الاجتماعى والسياسى الأساسى والذى قد يقلص من ثروة وقوة عائلاتهم. ومع ذلك تبقى آخرون ممن ركزوا على النساء كائنات مؤثرة فى التغيير الاجتماعى، ولأنهن غادرن منازلهن للانخراط فى مشروعات رعاية الصحة العامة على نطاق واسع، فقد صرن نماذج تحتذيها النساء بعد ذلك. وكانت النظرة إليهن تتمحور حول كونهن أميرات، ونساء من البلاط الملكى أو المتشييعات للملكية ممن أظهرن مدى سخاء القصر فى مقابل حكومة الوفد المدنية، وأيضاً كنساء ناشطات فى مجال الخدمات الاجتماعية، التى هى جزء رئيسى من الحركة النسائية. ويمكن هنا أن نمد هذا التحليل الفوكالديانى ليشمل المتطوعات فى المبرة اللائى استخدمهن القصر وحلفاؤه كممثلات له لرقابة وإشراف الدولة فى هذا المجال.

ويبدو من ذلك كله أن العلماء انحرفوا عن التفسيرات الإيجابية إلى تفسيرات أخرى سياسية واقتصادية ومناصرة للمرأة بعد فترة التحديث والتخلص من الاستعمار - ليعودوا بعد ذلك إلى التفسيرات الإيجابية مرة أخرى. ولكن الأهم أن هؤلاء العلماء كانوا بحاجة إلى التفكير بحرص فى ما يكتبونه من مضامين سواء داخل الأطر التحليلية، أو فى اختيار مصطلحاتهم، وأهدافهم. فهل يمكن لهم أن يبتعدوا عن النظرة إلى المرأة كمجرد وسيط وأن يحاولوا فى تحليلهم للنوع (ذكر/أنثى) أن يدمجوا دورها فى مجال الطب والصحة العامة فى منظومة تاريخ مصر الحديثة فى تلك الفترة؟ وهل يتعامل المؤرخون معهم من منطلق احتياجاتهم التعليمية والأيدولوجية؟ ولنستعير ملاحظة بارعة وتنسأل هل يحتاج المؤرخون إلى هذا التعبير الساخر "أضف لفظ المرأة فقط وانطلق" أم أنهم فى استطاعتهم أن يدخلوها ضمن منظومة تاريخ النوع فى الشرق الأوسط الحديث؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل يعنى ذلك أن المؤرخين إنما يحتفلون بسلطة المرأة، وصراع الطبقة العاملة، وإصلاحات محمد على، والسلطة البريطانية فى عهده، أم توسع الضباط الأحرار فى السيطرة على الدولة، أو التأثيرات

الضارة لمركزية الدولة بصفة عامة؟ هل يحاول العلماء بناء مجتمع خيالي للنساء العاملات في مهنة الطب دون إعطائهن أية أهمية تاريخية تذكر؟ وإذا كانت القضية هي سلطة المرأة فهل كانت الإصلاحات سبباً في تقدمها فعلاً؟

إن التاريخ الاجتماعي لمن مارسن مهنة الطب قبل وخلال عصر الملكية الدستورية يجب أن يبدأ بمقارنة دقيقة بين المصادر التاريخية الأساسية والفرعية، مع الوضع في الاعتبار من الكاتب، ولن يكتب والنتيجة التي انتهى إليها. وإن كان من الواضح أن كلا من الحكيمات وسيدات المبرة يمكنهن أن يستحوذن على مساحة تتوسع فيها اختياراتهن وفرصهن في الحياة العامة وربما الخاصة وإن كان ذلك في مضامين تاريخية مختلفة. ومع ذلك فإن هؤلاء الحكيمات وسيدات المبرة نجحن بالتأكيد في تعزيز مصالح الدولة أو مصالح بعض الأحزاب داخلها. وكانت الحكيمات يتم اختيارهن من الطبقة الدنيا في المجتمع المصري في القرن التاسع عشر، في حين أن سيدات المبرة وهن من الطبقات العليا في المجتمع كن يخترن للعمل بمحض إرادتهن. وكانت الحكيمات من عبيد الحبشيات والسودانيات اللاتي تم تحريرهن، أو من الطبقة الدنيا من بنات عسكر الجيش، أو من الأيتام وحتى اللقطاء والخصيان. أما المتطوعات من النساء فقد كن من الأسر الثرية المسلمة في أغلب الأحيان، وإن كان بعض منهن من القبطيات واليهوديات اللاتي وجدن سبيلهن إلى التعليم أو السفر كثيراً إلى أوروبا. وكانت الحكيمات لهن حقوق المواطنة أو ممن تحولن إلى الإسلام من الأسر الفقيرة، أو ممن لا أسر لهن. ولم يصبحن من الناشطات أو ممن يكتبن مذكراتهن. فقد ظلن في هذه الشريحة الدنيا من المجتمع، فلا يوجد لهن أي صور أو لوحات، أو مقالات صحفية أو مذكرات أو سير ذاتية، أو أوراق شخصية أو تاريخ شفهي يمكن الرجوع إليه. أما السيدات المتطوعات أو بناتهن أو حفيداتهن فقد كان لديهن الوسيلة للاتصال بالكتاب والمثقفين ووسائل الإعلام. وكانت الطبقة الاجتماعية أهم بكثير من الدين أو الدولة في تحديد أوضاع كل منهن في النشاطات الصحية الاجتماعية وفي قدرتهن على تشكيل تسجيل التاريخ.

الهوامش

- (١) نجيب بك محفوظ The History of Medical Education in Egypt (القاهرة: المطبعة الأميرية، بولاق، ١٩٢٥).
- (٢) محفوظ، ٧١ .
- (٣) نفس المرجع، ٧٢، ما ذكر عن محفوظ في المستندات الحكومية رقم ٢٠٨١ .
- (٤) نفس المرجع. في إحدى الحالات تم البحث عن مكان لفتاة فرنسية يتيمة قتل أبويها بوباء الطاعون. انظر: سوزان فوالكين،
Souvenirs d'une fille du peuple: ou, La saint-simonienne en Égypte.
(باريس: ف. ماسبيرو، ١٩٧٨).
- (٥) محفوظ، ٨٥ .
- (٦) نفس المرجع، ٣٦ .
- (٧) لافيرن كونكي The 'Doctress' on a Donkey: Women Health Officers in Nineteenth Century Egypt كيو مديكا، ١: ٣، ١٩٢-٢٠٥ . أصبح المقال المتق فصلاً في كتابها،
Women Health Officers," Lives at Risk: Public Health in Nineteenth-Century Egypt.
(بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٠)، ١٢٢-٣٣ .
- (٨) نفس المرجع، ١٢١ .
- (٩) نفس المرجع، ١٢٢ .
- (١٠) نفس المرجع.
- (١١) نفس المرجع، ١٣٠ .
- (١٢) نفس المرجع، ١٢٢ .
- (١٣) نفس المرجع، ٢١٩، n. 23 .
- (١٤) ليندا آن كيلي ألكانا Suzanne Voilquin, Feminist and Saint-Simonian (مناقشة رسالة دكتوراه،
جامعة كاليفورنيا برفين، ١٩٨٥)، ١٥٢ .
- (١٥) جابريل جيمار Les réformes en Égypte d'Ali bey el kébir d Méhémet Ali, 1760-1848 (القاهرة: بي. باربي، ١٩٢٦)، ٢٣٣ .

- (١٦) نفس المرجع.
- (١٧) فوالكين، ٢٣٥ .
- (١٨) نفس المرجع، ٣٧٨ .
- (١٩) نفس المرجع، ٣٧٨-٧٩ .
- (٢٠) نفس المرجع، ٢٩٥ .
- (٢١) جوديث أى. تاكر Women in Nineteenth-Century Egypt (نيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٥)، ١٢٠ .
- (٢٢) نفس المرجع، ١٢١ .
- (٢٣) جويتى نشأت وجوديث أى. تاكر،
Women in the Middle East and North Africa: Restoring Women to History.
(بلومينجتون: مطبعة جامعة إنديانا، ١٩٩٨)، ٨٢ .
- (٢٤) نفس المرجع.
- (٢٥) أميرة الأزهرى سنبل The Creation of a Medical Profession in Egypt, 1800-1922 (سييراكيوز: مطبعة جامعة سييراكيوز، ١٩٩١)، ٢٤ .
- (٢٦) سنبل، ٣٥ .
- (٢٧) سنبل، ١٢٩-٣٠ .
- (٢٨) سنبل، ١٥٦، n.7 .
- (٢٩) جى. هيو ارث دون An Introduction to the History of Education in Modern Egypt (لندن: لوزاك، ١٩٢٩)، ١٣٢ .
- (٣٠) سنبل، ٤٧ .
- (٣١) ليلي أحمد Women and Gender in Islam: Historical Roots of a Modern Debate (نيوهافن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩٢)، ١٢٤، ١٤٣، ١٥٣ .
- (٣٢) نفس المرجع، ١٢٣ .
- (٣٣) سهير مرسى،
Gender, Sickness, and Healing in Rural Egypt: Ethnography in Historical Context
(Conflict and Social Change).
(بولدر: مطبعة ويست فيو، ١٩٩٣).
- (٣٤) نفس المرجع، ١٦ .
- (٣٥) ميرفت حاتم،
The Professionalization of Health and the Control of Women's Bodies as Modern
Govern mentalities in Nineteenth-Century Egypt.

فى طبعة مادلين زيلفى،

Women in the Ottoman Empire: Middle Eastern Women in the Early Modern Era.

(لیدن: إى. جى. بريل، ١٩٩٧)، ٦٦-٨٠ .

(٢٦) نفس المرجع، ٦٧ .

(٢٧) نفس المرجع، ٦٩ .

(٢٨) بى. أف. مسلم Sex and Society in Islam (نيويورك: مطبعة جامعة كامبردج، ١٩٨٢).

(٢٩) حاتم، ٧٠ .

(٤٠) تيموثى ميتشيل Colonizing Egypt (نيويورك: مطبعة جامعة كامبردج، ١٩٨٨).

(٤١) حاتم، ٧٥ .

(٤٢) نفس المرجع، ٧٩ .

(٤٣) خالد فهمى Women, Medicine, and Power in Nineteenth-Century Egypt فى طبعة

ليلى أبو لحد،

Remaking Women: Feminism and Modernity in the Middle East.

(برينستون: مطبعة جامعة برينستون)، ٢٥-٧٢ .

(٤٤) نفس المرجع، ٦١ .

(٤٥) كمران اسدر على Creating Bodies, Organizing Selves فى طبعات سينثيا تلسون وشانهاز روس،

Situating Globalization.

(بيلفيلد: نسخة فيرلاج، ٢٠٠١)، ٢٤١ .

(٤٦) عفاف لطفى السيد مارسو The Revolutionary Gentlewomen in Egypt فى طبعات لوى بيك

ونكى كيدى،

Women in the Muslim world.

(كامبريدج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٧٨)، ٢٦١ .

(٤٧) نفس المرجع، ٢٧٤ .

(٤٨) نوال السعداوى The Hidden Face of Eve (لندن: مطبعة زد، ١٩٨٠)، ١٧٦ .

(٤٩) نانسى جلاجر Egypt's Other Wars: Epidemics and the Politics of Public Health

سيراكيز: مطبعة جامعة سيراكيز، ١٩٩٠)، ٥٣ .

(٥٠) ليلى أحمد Women and Gender in Islam، ١٧٣ .

(٥١) مارجو بدران Islam, and the Nation: Gender and the Making of Modern Egypt

(برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٥)، ٥٠ .

(٥٢) نفس المرجع، ١١٦-١٧ .

(٥٣) لنشأة وزارة الشؤون الاجتماعية، انظر: إيمي جي. جونسون،

Reconstructing Rural Egypt: Ahmed Hussein and the History of Egyptian Development.

(سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ٢٠٠٤).

(٥٤) مارجو بدران Islam, and the Nation، ١٢٢-٢٣ .

(٥٥) عفاف لطفى السيد مارسو The Revolutionary Gentlewomen in Egypt، ٢٦١ .

(٥٦) جلاجر، ٥٤ .

١٣- القوادات، والجريمة، ووسائل الإعلام

أخبار الحوادث وظهور الثقافة الجماهيرية
فى مصر فى العشرينيات^(١).

شون تى. لوباز

من المحال تقريباً أن تجد مواطناً مصرياً لم يسمع عن ريا وسكينة، وأى سائق أجرة، أو رجل أعمال، أو طفل فى مدرسة يزيد عمره على اثنى عشر عاماً سوف يتذكر شيئاً على الأقل عن هاتين المرأتين اللتين حكم عليهما بالإعدام فى عام ١٩٢١ بتهمة قتل سبع عشرة امرأة فى الإسكندرية. فقد كانت الأمهات يحذرن أولادهن من التأخير فى العودة إلى منازلهم حتى لا "تلحق بهم ريا وسكينة"، كما كانت أخريات ممن يشكون من بعض الأفعال المجرمة فى أحيائهن يشرن إلى هذه الأعمال بأنهم "بيعملوا ريا وسكينة"^(٢) وبسبب أفعالهما الإجرامية كان مجرد اسميهما بعيدين عن اختيارات الآباء والأمهات المصريين لبناتهم، وبفضل الأفلام السينمائية الثلاثة على الأقل التى تناولت هذه القضية بالإضافة إلى النص المسرحى والذين شاهدتهم ملايين المصريين على شاشة التليفزيون أو الفيديو، أصبحت ريا وسكينة من أعتى المجرمين فى تاريخ مصر الحديثة، ومكوناً ثابتاً فى الثقافة العامة للمصريين (شكل ١/١٣).

ويسرد هذا الفصل قصة الجرائم التى ارتكبت فى عام ١٩٢٠ فى الإسكندرية، والتى عرفت لدى الكثيرين "بجرائم ريا وسكينة"، كما يناقش كيف لعبت هذه الجرائم دوراً مهماً فى بناء الثقافة الوطنية المصرية عام ١٩٢٠. فقد تسبب اكتشاف سبع عشرة جثة مدفونة تحت أرضيات المنزل الكائن فى حى اللبان بالإسكندرية فى إثارة أول

وأكبر ضجة إعلامية فى تاريخ مصر الحديث، وكتبت مئات بل آلاف المقالات فى الصحافة فى الأشهر التى تلت اكتشاف الجثث، وعلق الكثيرون بقولهم إن مصر وقعت فى براثن "أزمة أخلاقية"، وحاولوا تقديم الطول - إضافة إلى اللوم - لوقف هذا التدهور فيما أسموه فى "القيم المصرية". وكانت أهمية وجود "المرأة" سواء فى حوار الإنجليزى المستعمر أو فى مضمون الصياغة الوطنية المصرية قد أدخل النساء فى قضية كن فيها المجرمات والضحايا من خلال جريمة شنعاء ارتبطت ليس بالمستوى المحلى الذى حدث فيه فقط، بل المستوى الإقليمى أيضاً. فبعد هذه الجرائم صاغ المعلقون هوية ثقافية مصرية تأسست على فكرة وحدوية وطنية لمنظومة الأخلاق فى مصر. فقد اعتبروا أن هذه النماذج من الأعمال اللاأخلاقية التى اتسمت بها أفعال المشاركين فى تلك الجرائم وأنها تجسد التأثير السلبي الأوروبى على المجتمع المصرى، مما يشير إلى الحاجة إلى ضرورة صياغة حداثة تحترم الممارسات الثقافية للأمة المصرية.

أما بالنسبة لآلاف المقالات التى ربطت ربا وسكينة بالأجندة السياسية والثقافية للأمة المصرية فلنا أن نتساءل هنا عن مدى تأثيرها فى طبيعة الأمور وسوف يوضح هذا الفصل أن التوسع فى تلك المقالات فى الصحف المصرية بعد ١٩١٨، والتغيرات فى شكل ومحتوى هذه الإصدارات كانت له دلالاته فى التطور الذى حدث والذى تجسد فيما يشبه ثقافة جماهيرية فى مصر. وكانت الدراسات السابقة للفترة ما بين ١٩١٩-١٩٥٢ قد افترضت أن أفكار وتصرفات العامة لا يمكن استرجاعها أو إعطائها أية أهمية فى صياغة الهوية المصرية، أو فى تشكيل أوضاع النوع (ذكر/أنثى)، أو فى أية تيارات أخرى تسيدت تأريخ تلك الفترة. فقد كانت الأعمال المهمة التى شملت هذه الفترة مثل كتاب مارجو بدران *Feminism, Islam and Nation* أو مؤلف إسرائيل جرشونى وجيس جانكوفسكى *Egypt, Islam and the Arabs* تركز على المقالات والكتابات المستمدة من طبقة النخبة الصغيرة. ورغم أن هذه الفئة من المصريين بالإضافة إلى الطبقة المتوسطة كانت هى المستهلك المستهدف من الصحافة اليومية والأسبوعية والشهرية، فإن أخبار الحوادث أحالت الموضوعات المحلية التى تلتصق بالشعب المصرى بفئاته المختلفة، ودياناته وجنسه إلى موضوعات تثير اهتمام العامة والأمة بأكملها. وبالتالي فإن

الروايات اللاأخلاقية التي تتعلق ببعض الأفراد من الشعب، والتي انتشرت من خلال وسائل الإعلام الجديدة أصبحت "تجارب مشتركة" لقارئى الصحف. وبالتالي كان المعلقون والسياسيون كثيراً ما يشيرون إلى حياة ريا وسكينة وضحاياهما وهم يصفون رؤيتهم الجديدة فيما يجب أن تكون عليه الهوية المصرية. وكانت النتيجة تأثيرهما الواضح فى الجدل الدائر فى محيط النخبة حول الهوية المصرية والنوع (ذكر/أنثى).

والأهم من ذلك كله أن هذا الفصل سوف يتناول كيف أن تأثير هذه الأحداث لم يقتصر فقط على النخبة المثقفة فى مصر، وأن الشريحة الدنيا من المصريين لم تصبح فقط الموضوع الرئيسى فى أعقاب أكثر الحوادث إثارة، ولكنها أصبحت أيضاً أحد المستهلكين لها. فمن خلال قراءاتها، وقنوات الإشاعات، والدلائل المصورة، أصبح الجمهور بصفة عامة على وعى بما يحدث بل ويتأثر بالقصص التى أصبحت تروى بعد جرائم ريا وسكينة. وقد خلقت هذه القصص اهتماماً واضحاً بوجود أزمة أخلاقية فى الطبقة الدنيا من المصريين، والتى يشير ردود فعلها أنها ساعدت الأفكار المطروحة حول نظام أخلاقى وطنى فى تشكيل قاعدة لثقافة جماهيرية حقيقية فى مصر الحديثة.

ويبدأ هذه الفصل بموجز تاريخى عن تطور الصحافة فى مصر ودورها فى رسم رؤية سياسية وثقافية واضحة لها، ودور المرأة فى الحوار داخل النخبة من السياسيين والمفكرين المصريين. ثم ينتقل بعد ذلك إلى جرائم ريا وسكينة ومناقشة كيف أن هذه القضية ساهمت فى تجسيد ثقافة جماهيرية جديدة فى مصر الحديثة تعتمد على أفكار تحدد سلوكيات الشعب بأكمله.

الصحافة والأمة

رغم الضجة التى أثارته طبيعة هذه القضية، فإن لم يكن متوقعاً أن جرائم الإسكندرية عام ١٩٢٠ ستستحوذ على هذا الاهتمام الإعلامى الضخم. ورغم أن الصحافة الحديثة ظهرت فى مصر فى السبعينيات من القرن التاسع عشر، فإن التغطية الصحفية للجريمة بشكل عام لم تكن جزءاً مهماً من مكونات الصحف قبل

الحرب العالمية الأولى. فعلى سبيل المثال، منذ ظهور الأهرام عام ١٨٧٦ - وكانت أول وأهم جريدة خاصة تصدر في مصر- كانت الشئون الوطنية والأخبار العالمية هي التي تتصدر صفحاتها. وكانت الجريمة تعتبر شأنًا محلياً وليس مثار اهتمام وطني، وبالتالي فلم تكن لها الأهمية التي تستدعي الاهتمام بها أو إثارتها في الصحيفة الناهضة. وكان اختيار الأولوية للشئون القومية أو الأخبار العالمية على حساب الموضوعات المحلية يعود جزئياً إلى النسبة المتدنية للتعليم في مصر خلال القرن التاسع عشر، حيث كانت الصحف تستهدف الشريحة العليا من الطبقة الاجتماعية التي يمكنها القراءة. ورغم أن نسبة المتعلمين ارتفعت من ١-٢٪ عام ١٨٠٠ إلى ٧٪ عام ١٨٩٧ فإن القراء كانوا من الطبقة العليا، وأغلبهم من المدن ويقدر كول أن نسبة قراء الصحف من المصريين في عام بلغ في عام ١٨٨٠ ٧٥,٠٠٠ على مستوى الأمة، دون حساب عدد القراء الذين كانوا يترددون على القهاوى، وكانت قراعتهم لها من خلال وسيلة عامة بدلاً من القراءة الخاصة^(٣). ورغم أن هذا العدد من القراء له اعتباره فإن التوزيع المحدود للصحف أثر بالضرورة على محدودية فاعليتها في خلق ما يشبه ثقافة جماهيرية تتأسس على أمور تكون محل اهتمام الشعب بأكمله.

كان وصول القوات البريطانية إلى مصر عام ١٨٨٢ قد عجل ببدء أربعين سنة من الاحتلال الكامل^(٤). ورغم أن الاستعمار البريطاني وضع الصحف تحت رقابته وكان أحياناً يصادر بعض المقالات التي كانت تهاجم حكمه، فإن أعداد الجرائد والمجلات ظلت تتزايد في تلك الفترة الاستعمارية^(٥). ومع مطلع القرن الجديد، ظهرت إصدارات صحفية أخرى أسبوعية وشهرية بالإضافة إلى الأهرام تمثل اتجاهات ووجهات نظر متنوعة. فأصبحت الصحف القانونية، والدينية، والاقتصادية في متناول أيدي المتعلمين من الشعب مما ساهم في الإسراع في تطوير ما عرفه بنديكت أندرسون بالثقافة المطبوعة^(٦). ومع ذلك فلم يكتب الكثير عنها في مطلع القرن باستثناء ما كتبه أمي أيالون "The press in the Arab Middle East" وبث بارون :

"The Women's Awakening in Egypt: Culture, Society and the press"

ومارلين بوث Marilyn Booth :

May Her likes Be Multiplied: Biography and Gender Politics in Egypt.

ويلاحظ أيا لاون مثلاً أن سنوات التسعينيات من القرن التاسع عشر شهدت صدور أكثر من تسعين صحيفة ومجلة في القاهرة وحدها، رغم أن أغلبها اختفى بسرعة بعد ظهورها، كما يلاحظ أن الجرائد الثقافية والعلمية والدينية صاحبت الصحافة السياسية في تلك الفترة^(٧). وتركز بارون وبوث على الصحافة النسائية بصفتها أدباً سلوكياً، أي الكتابة التي تستهدف تثقيف النساء من النخبة القليلة ومن الطبقة الوسطى على كيفية أداء وظائفهن كزوجات وأمهات طبيبات. ويعتقد أن هذه النوعية من الصحف كانت ركيزة أساسية في خلق مجتمع من صفوة النساء اللاتي استطعن وضع الأساس للحركة النسائية التي بزغت في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين^(٨).

تجسدت الثورة ضد الاحتلال البريطاني في أوائل القرن العشرين في أساليب عدة لم يكن أقلها هو التوجه السياسي لكثير من الصحف والمجلات. وكان الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل، وحزب الأمة برئاسة أحمد لطفى السيد ملتزمين ضمن أحزاب أخرى بالسعى وراء الاستقلال سواء داخل الحدود القومية المصرية أو كجزء من الإمبراطورية العثمانية. وخلال السنوات ما بين ١٩٠٦ و ١٩١٤ انضمت إلى الصحف والمجلات المصرية صحف حزبية تمثلها أشهر صحيفتين آنذاك هما "الفريدة" التي كان يصدرها حزب الأمة، و"اللواء" التي كانت الجريدة الرسمية لحزب مصطفى كامل^(٩). ومن الواضح أن الصحافة في ذلك الوقت لعبت دوراً مهماً في نشر رؤية الوطنيين الأوائل في مستقبل مصر. وواقع الأمر أن صورة مصر كدولة بارزة ذات حيوية سياسية في خلال الحرب العالمية الأولى كانت موضع مناقشات وخيال كتاب الصحف بصورة يومية^(١٠).

وفي بداية الحرب، كانت الصحف لها محدوديتها، فظلت بصفة أساسية ميداناً للنخبة المصرية المدنية والمفكرين فقط بحساب أنها كانت الفئات الوحيدة التي يمكنها قراءة ما يكتب. وكما ذكرنا سابقاً ظلت الصحافة المصرية تركز على الشؤون القومية

والأخبار الخارجية وما يهم حياة الصفوة في مصر على حساب الأحداث المحلية التي كانت في أغلب الأحيان تمس حياة الفرد المصري "العادي". وربما كان النمو المتزايد للصحف المصرية سواء في أعدادها أو نسبة توزيعها قد خلق ما يمكن تسميته "بالشفافة المطبوعة"، وإن كانت قد نحت جانباً الأغلبية من المصريين واهتماماتهم الحياتية اليومية التي كانت تسيطر على حياتهم.

الحرب العالمية الأولى وبزوغ وسائل الإعلام

كان للحرب العالمية الأولى نتائجها المهمة على المصريين من وجوه متعددة، أولها وأهمها وضع مصر كإحدى ممتلكات بريطانيا، واستخدامها كقاعدة حربية للقوات البريطانية في وقت الحرب مما كان له تأثيره القاسي على حياة أغلب الشعب المصري. فقد عانى الكثيرون من النقص في أوجه عدة من حياتهم، ولم يكن أصحاب الصحف استثناءً من ذلك الوضع^(١١). فقد اختفت الكثير من الصحف والمجلات جراء عجزهم عن الحصول على كمية كافية من الورق لبيع إنتاجهم في تلك الفترة العصيبة. أما هؤلاء الذين صمدوا، فقد لجئوا إلى تقليل أيام صدورها، وحجمها وعدد صفحات كل طبعة^(١٢). ومع ذلك حدثت تطورات مهمة في الصحافة أيضاً في تلك الفترة، فقد ظهرت فيها أول جريدة مصورة في مصر، فمثلاً صدرت "اللطائف المصورة" عام ١٩١٥، ووفرت لقرائها غذاءً ثابتاً من الصور والرسومات اليدوية. وكانت الحرب في أوروبا وبعض مناطق الشرق الأوسط توفر نصيب الأسد من هذه الرسومات، كما أن المد الثابت من أخبار المعارك والخرائط الحربية كان يتصدر صفحات "اللطائف" حتى نهاية الحرب عام ١٩١٨. وكان نقص حجم الجرائد بالإضافة إلى أخبار الحرب المثيرة تعنى أن تغطية أخبار الجريمة في مصر وبقية الأحداث الأخرى أصبحت هامشية ولا تمثل أهمية للمحررين، وكانت تأخذ حيزاً متواضعاً داخل الصحيفة حين نشرها.

في نهاية الحرب بدأت هامشية الأحداث المحلية تتغير. فمع حركة ازدهار الجرائد والمجلات، وزيادة إصداراتها بجانب الصحف الأخرى التي استمرت، بدأ المحررون يبحثون عن أخبار أخرى بدلاً من تلك التي كانت تغطيها أحداث الحرب قبل ذلك.

وبالتالى انصرف كثير من الإصدارات وخاصة الجرائد المصورة مثل "اللطائف المصورة" إلى أخبار الجريمة، وإن كان ما ينشر قبل ١٩٢٠ كان أغلبه تحقيقات عن الجريمة فى أوروبا وليس فى مصر. وتزامناً مع ذلك زادت الصحف الرئيسية مثل الأهرام من جرعة الاهتمام "بأخبار الحوادث"، رغم أن ما كان ينشر قبل ١٩٢٠ كان موجزاً للجرائم التى تتم فى الأحياء والمدن والمقاطعات المختلفة بصفة عامة أكثر من تركيزها على أحداث بعينها.

كان للحرب أيضاً نتائجها وتأثيرها فى تطلعات الشريحة من النخبة الأكثر نفوذاً. فكانت الوفود المصرية تحضر المؤتمرات التى انعقدت بعد الحرب، وتضامنت بشدة لإنهاء الاحتلال البريطانى على أساس مبدأ تقرير المصير الذى أشار إليه وودوارد ويلسون رئيس الولايات المتحدة، كما أن نهاية الحرب سمحت بإعادة ازدهار الصحف والمجلات التى تمحورت موضوعاتها الرئيسية حول جهود الضغط المتزايد الساعى وراء تحرير مصر من الحكم البريطانى. وكان من الطبيعى أن ما تحمّله الشعب المصرى من الشدة والحرمان خلال زمن الحرب بالإضافة إلى رؤية القوات البريطانية المتمركزة داخل البلاد، قد عجل بإسراع المواطنين إلى مساندة الوفد الذى كان يناضل بقوة لتحقيق طموحات الوطنيين. ومع حلول سنة ١٩١٩ لعبت تغطية الأحداث فى الصحافة دوراً مهماً فى طموحات الوطنيين التى اتسعت إلى أبعد من الفئة المتعلمة الصغيرة التى بدأت تنمو. فمن خلال القراءة العامة للصحف التى كانت توجد بصفة مستمرة فى القهاوى فى مصر وكذلك الأخبار التى كانت تنتقل شفاهة، كانت أنباء المفاوضات تتسرب إلى جمهور وطنى واسع. وكما تشير سامية خلوصى فى الفصل الذى كتبه فى هذا الكتاب عن الفلاحين، فإن ثورة ١٩١٩ التى شملت شرائح عديدة من الشعب كالفلاحين، وعمال المصانع، والنساء إلى جانب النخبة من ملاك الأراضى، ربما كانت تكون قد تشكلت وتم استغلالها من قبل حزب الوفد، ولكنها مع ذلك أكدت بدايات ثقافة جماهيرية كانت اهتماماتها المشتركة على الأقل نتيجة التأثير المتنامى لوسائل الإعلام بعد نهاية الحرب^(١٣).

دور النساء فى المخيلة الوطنية

رغم أن الرؤية السياسية لمصر كدولة تتمتع باستقلالها ولها ثقافتها الخاصة لاقت قبولاً واسعاً من المصريين عام ١٩١٩، فإن المناقشات حول أساس هذه الهوية كان المجال الخاص للنخبة فقط. وكانت "قضية المرأة" كما أطلق عليها أى الجدل حول وضع المرأة أو دورها فى المجتمع المصرى جزءاً من اهتمام الاستعمار البريطانى من جانب، والاهتمام ببناء الهوية القومية المصرية من جانب آخر، وبالتالي موضع خلاف ونزاع بين المسئولين الإنجليز من ناحية، والمصريين من ناحية أخرى، بل وبين المصريين أنفسهم. وكان هذا الخلاف المنطقي نابعاً من الأفكار الغربية عن الحداثة، والمعتقدات الإسلامية فيما يتعلق بالنوع (ذكر/أنثى) والتي تلاقت فى هذا الجدل الوطنى الذى دار فى تلك الفترة. وكانت المناداة بتحرير المرأة من بعض الكتاب التقدميين مثل قاسم أمين، والنساء الحقوقيات الناشطات مثل باحثة البادية وهدى شعراوى يدور داخل نطاق المشروع الوطنى لمصر قبل وبعد ١٩١٩. فمثلاً كانت الكاتبات النسائيات بصفة عامة تقريباً يطالبن بتعليم المرأة مع الاعتراف فى نفس الوقت بأن دورهن الرئيسى هو كونهن أمهات وزوجات طيبات^(١٤). وبذلك كانت المطالبة بحقوقهن قبل ١٩١٩ تصنف فى إطار احتياجات مصر فى مشروعها الوطنى. وفى عشية قضية ريا وسكينة عام ١٩٢٠، نوقش دور وضع المرأة فى المجتمع، إلا أنه ظل فى المرتبة الثانوية ضمن احتياجات الدولة الوليدة.

ورغم أهمية دور المرأة فى المناقشات الوطنية، فإن تأثير هذه الأفكار كان محدوداً وربما لم يكن أيضاً جزءاً من النظرة الشمولية للشعب تجاه سلوك الرجل والمرأة. فلم تكن قضية المرأة أحد العوامل المحفزة لقيام ثورة ١٩١٩، كما لم تكن أيضاً من الأهمية بحيث تشغل بال الغالبية العظمى من المصريين. ورغم أن فكرة "الأمة المصرية" كانت تطفئ على المجتمع المصرى عبر طبقاته ومتعلميه، فإن فكرة الثقافة الموحدة كانت نابعة من النخبة وبغرض استهلاكها من جانبهم. وكان الأمر يحتاج إلى اكتشاف جريمة ومحاكمة مثيرة فى عام ١٩٢٠، ونظرة جديدة إلى "الأزمة الأخلاقية" حتى يتحول الاهتمام المحلى بالسلوك الأخلاقى إلى ضرورة وطنية ملحة، ولحظة فارقة فى تشكيل ثقافة جماهيرية يشارك فيها الرجل والمرأة فى مصر^(١٥).

جريمة قتل فى حى اللبان

كان اكتشاف جثث مدفونة تحت بعض المنازل فى حى اللبان بالإسكندرية سنة ١٩٢٠ قد حول هذا الحى المهمش إلى بؤرة اهتمام المئات، إن لم يكن الآلاف، من المقالات المنشورة فى الصحف والمجلات. وكانت سمعة هذا الحى كمعقل للجريمة والانحراف قد وضعته فى مكان مهمش من المجتمع، ولكنه تحول - عقب اكتشاف هذه الجرائم - إلى رمز لأمة وقعت فى قبضة أزمة أخلاقية. فمع ظهور صحافة وطنية متنوعة وبزوغ حركة قومية قوية، ونصيب المرأة من الجدل السياسى فى الحركة، كل ذلك خلق أحوالاً استثنائية لعبت فيها هذه السلسلة من الجرائم دوراً مهماً فى إثارة الاهتمام الوطنى بها. وكان من الواضح أن محررى الصحف أدركوا الإمكانيات المادية الهائلة التى توفرها مثل هذه القضية المثيرة على الأرض المصرية. وكما سبق وذكرنا، كانت الصحف والمجلات قد بدأت فى نشر أخبار الحوادث من الصحف الأوروبية، وبالتالي فإن الجرائم المماثلة التى قد تقع فى مصر وفى نفس السياق سوف تجتذب جمهوراً أوسع.

ورغم كل هذه الحقائق، فقد كان من المحتمل أن يكون فقد أربع نساء من حى اللبان مجرد رقم فى إحصائية ما من سجل الجرائم الذى ينشر بصفة منتظمة فى جريدة "الأهرام" وبقية الجرائد الأخرى، خاصة أن البوليس فى الإسكندرية لم يجد أى أولوية فى الاهتمام بالعثور على هؤلاء النساء المفقودات، وبالتالي تساوت نتيجة بحثهم مع جهودهم فى هذا الشأن، ولكن تغير كل ذلك صباح يوم من منتصف شهر نوفمبر حين كان بعض العمال يحفرون فى حى اللبان واكتشفوا بقايا جسد امرأة تحت أحد المنازل القريبة من مكان الحفر. وتم إخطار البوليس الذى حضر وقام بتفتيش المنزل الذى كانت تسكنه إلى وقت قريب امرأة تدعى سكيئة بنت على همام وزوجها محمد عبد المرزوق. وبفتيش غرف المنزل عثر البوليس على بعض الأشياء التى أثارت شكوكه ومنها الملابس التى كانت ترتديها إحدى النساء المفقودات من الحى. وفور العثور على

هذا الدليل ألقى القبض على سكيئة وزوجها، وتم استدعاء دكتور سيدنى سميث رئيس مفتشى المباحث الجنائية فى القاهرة للإشراف على البحث عن جثث أخرى تحت المنزل^(١٦).

وساعد الحظ البوليس حين أخطره بعض من سكان منطقة أخرى من حى اللبان بانبعث رائحة كريهة من إحدى الشقق. واكتشفت السلطات أن ريا بنت على همام وهى شقيقة سكيئة الكبرى تقطن مع زوجها حسب الله فى هذه الشقة. وأمام شكوك البوليس فى وجود رابطة بين القضييتين قام بالقبض عليهما وبدأ الحفر فى أرضية المنزل. وفى خلال الأسبوعين التاليين اكتشف البوليس العديد من جثث الضحايا مدفونة تحت أرضية المنزلين، بالإضافة إلى منازل أخرى سبق أن أقامت فيها الشقيقتان وزوجاهما. وأكد هذا الاكتشاف الصلة بين الأربع نساء المفقودات والجثث التى تم العثور عليها، وإن كان البوليس قد عثر على أكثر من أربع جثث. ولكن من كن هؤلاء الضحايا اللاتى لم يتم التعرف عليهن؟ لقد أسفرت التحريات المبدئية أن ريا وسكيئة كانتا تعملان كقوادات فى هذا الحى، وأن المنزلين اللذين تم العثور على الجثث بهما كانا يستخدمان كبيوت دعارة. فى حين ما كان زوجاهما وغيرهم ممن يترددون كثيراً على المنزلين من المجرمين المعروف عنهم أنهم يهيمنون على مهنة الدعارة المربحة فى الحى. ومن خلال اللقاء مع الجيران توصل البوليس إلى معرفة أن ريا صادقت إحدى النساء المفقودات فقام باستجواب الأخت الكبرى التى اعترفت بعدها أنها قتلت النساء الأربع بالاشتراك مع شقيقتها الصغرى. وطبقاً لاعترافها المبدئى كان المال هو الهدف من القتل مما يشير إلى أن تلك الجرائم كانت عن عمد. وتضمن الاعتراف أنهما كانتا تلتقيان بضحيتهما المحتملة فى شوارع حى اللبان ثم تدعوانها إلى منزلها وهناك تعطيانها جرعات من المخدرات والكحول حتى تضعف مقاومتها. وفى تلك اللحظة يقوم حسب الله زوج ريا ومحمد عبد المرزوق زوج سكيئة ومعهما على الأقل رجلان آخران بخنق الضحية، وتجريدها من ملابسها ومجوهراتها وأموالها وأى شئ آخر له قيمة ثم دفنها بعد ذلك فى أرضية المنزل. وبعد ذلك تقوم الشقيقتان بتغطية مسرح الجريمة وإشعال البخور فى محاولة للقضاء على الرائحة الكريهة للأجساد المتعفنة^(١٧).

وفى خلال الأيام القالية صُنع البوليس حين اكتشف جثثاً أخرى تحت أرضية المنازل التى كانت تسكنها ريا وزوجها حسب الله، أو سكينه ومحمد عبد المرزوق. وتلقفت الصحافة هذه القصة المثيرة وخلال أيام من نشر المقالات الأولى عنها كان كل من يستطيع القراءة، أو يعرف شخصاً يعرف القراءة، على علم بهذه الجرائم. ورغم أن اهتمام الرأى العام بهذه القصة كان بسبب الطبيعة الاستثنائية لهذه الجرائم، فإن المعلقين فى الصحف ربطوها بصراع مصر من أجل الاستقلال، والشخصية الحقيقية للشعب المصرى. وبالتالي تحولت هذه الجرائم الاستثنائية إلى دروس لكل المصريين من جميع الطبقات.

التحقيقات وما قبل المحاكمة

بصرف النظر عن التوجهات السياسية والاجتماعية أو الثقافية أو الدينية للصحف والمجلات التى كان عددها يربو على المائة عام ١٩٢٠ كانت جميعها بلا استثناء تغطى أحداث هذه الجريمة أو تنشر بعض التعليقات عليها^(١٨). ولأن هذه القصة كانت مختلفة عن قصص أخرى سواء فى الشكل أو المضمون، فقد أكدت أهميتها فى صلاحية عرضها وتسويقها للقراء المصريين. ورغم أن محررى الجرائد واسعة الانتشار مثل الأهرام والبلاغ ومصر ووادى النيل والبصير لم يعطوها الاهتمام الكافى مثل الموضوعات السياسية الأخرى - بالإضافة إلى أن الصفحة الأولى كانت مخصصة تماماً لشئون الدولة - فإن جرائم ريا وسكينة "لم تُدفن" فى داخل تلك الصحف اليومية، بل اتخذت موقعاً رئيسياً فى الصفحات الداخلية مثل صفحة أخبار الحوادث فى الأهرام، وأيضاً فى الجرائد الأخرى. والأكثر من ذلك أنه حين نشرت الأهرام صور المتهمين فى نوفمبر ١٩٢٠، كانت هى المرة الأولى التى تنشر الجريدة المصرية فيها صور المجرمين^(١٩)، كما أن المجلات المصورة مثل "اللطائف المصورة" نشرت العديد أيضاً من الصور للمتهمين، والجثث، ومسرح الجرائم والمحققين من البوليس^(٢٠). وبالنسبة للقارئ

العادى، كانت أخبار هذه الجريمة تحمل الكثير من الإثارة، كما أن نشر الصور يشير إلى أن قراءتها لم تكن قاصرة فقط على من يعرفون القراءة أو من يستمعون إلى من يقرأها بصوت عالٍ فى المقاهى أو الأماكن العامة، وإنما امتد إلى أى مصرى تصل إلى يده الصحيفة فيستطيع أن يتعرف على الأقل على أهمية هذه الجرائم.

التركيز على المرأة

كانت أهمية "قضية المرأة" فى المناقشات حول الوطنية قد أكدت أن نوع الجنس سوف يلعب دوراً مهماً فى المقالات التى نشرت عن هذه الجرائم، وربود أفعالها. فرغم الدلائل الكثيرة التى أشارت إلى أن المتهمين من الرجال مثل حسب الله سعيد، ومحمد عبد المرزوق وآخرين كانوا ضليعين فى تخطيط وتنفيذ قتل حوالى سبع عشرة امرأة اللاتى عُثر عليهن فى حى اللبان، فإن معظم الصحف ركزت بشدة على الشقيقتين. ويُعتبر ما نشر فى العناوين الرئيسية فى جريدة البصير السكندرية اليومية نموذجاً لتحقيق الصحف فى هذا الشأن، فحين تفجرت القضية حملت الجريدة العناوين التالية "اختفاء النساء" و"جريمة قتل النساء" وركزت على طبيعة هذه الجرائم، وفى ٢٧ نوفمبر - أى بعد عشرة أيام من نشر أخبار الجريمة فى الصحف - أشارت العناوين فى جريدة البصير إلى التركيز الشديد على الأختين؛ فنشرت المقالات بعنوان "ريا وسكينة" مع صورتها فقط مما أظهر بوضوح اتجاه الصحيفة إلى من سوف تكتب عنه، ومن تعتقد أنه موضع فضول القارئ^(٢١). وتبعتها جريدة الحقائق القاهرية الأسبوعية التى كانت تنشر فى البداية المقالات بعنوان "ذبح النساء" و"الجرائم البشعة فى الإسكندرية" ومع أواخر شهر ديسمبر بدأت "الحقائق" تنشر مقالاتها تحت عنوان "ريا وسكينة" فقط^(٢٢). ورغم كل الدلائل التى أشارت إلى أن المتهمين من الرجال شاركوا فى هذه الجرائم فإن جميع الجرائد والمجلات التى كانت تتناول هذه القضية سارت على نمط واحد وهو التركيز على دور المرأة فيها، مع تهميش أو تجاهل دور الرجال.

ويبدو هذا الاتجاه محيراً في بادئ الأمر. فالدلائل الثابتة على أن الشقيقتين كانتا زعيمتا عصابة اللصوص التي خططت للجريمة لم تكن دامغة، وأيضاً لم يكن هناك فروق بين المتهمات من النساء والمتهمين من الرجال في الدوافع أو الوسائل المستخدمة. كما كانت الشقيقتان وزوجاهما من أهل صعيد مصر الذين هاجروا إلى مدن كثيرة في شبابهم ومارسوا مهنة الدعارة قبل أن يستقر بهم المقام في الإسكندرية بوقت طويل. وفي الإسكندرية بدءوا في امتهان تلك المهنة من خلال سلسلة من بيوت الدعارة التي كانوا يديرونها في الأحياء الفقيرة^(٢٣). وبالتالي كان قتل البغايا وسرقة مجوهراتهم هو ببساطة مجرد امتداد لطموحاتهم، وأخيراً لم يكن هناك أيضاً اختلاف يُذكر في طريقة إنفاق المال سواء من المرأتين أو زوجيهما. فطبقاً لما ورد بالتحقيقات كان الرجال والنساء المتهمون يبعثون بجزء كبير من الثروة التي اكتسبوها من هذه الجرائم إلى عائلاتهم في صعيد مصر. وبالتالي فإذا كان يوجد القليل من الفوارق بين ما يميز دوافع كلتا المرأتين، أو دوريهما في الجرائم فكيف يمكننا أن نفسر التركيز عليهما في الصحف؟ يشير الواقع إلى أن الاهتمام برياً وسكينة فقط يرجع إلى أسباب متعددة أهمها أن سلوك المرأتين قد خلق نوعاً من الاهتمام والقلق بأزمة الأخلاق في مصر، مما نتج عنه بالتالي بناء منظومة أخلاقية وطنية اختلفت أساليبها من حي لآخر ومن قرية لأخرى ومن مدينة أو مقاطعة لما يجاورها.

تخيل مصر الفاضلة

ساعدت طبيعة هذه الجرائم المثيرة بالتأكيد على تفسير الأسباب التي أدت إلى هذا الاهتمام الواسع الفوري بها من قبل الجرائد والمجلات، ولكن لنا أن نتساءل كيف يمكن لهذه الأحداث المنعزلة والاستثنائية أن تغذي بدايات ثقافة جماهيرية في مصر الحديثة؟ ويتبلور الرد في الحوار الذي دار في وسائل الإعلام حول منظومة الأخلاق عقب هذه القضية. وكما يحدث في جميع أنحاء العالم فإن الأخلاق، والشرف، والعار كانت قيماً مهمة بالنسبة للمصريين من جميع طبقاتهم قبل ١٩٢٠. فالأفكار الخاصة

بالأخلاق أو آداب المجتمع بالنسبة للجنس كانت تستند إلى المعتقدات الدينية أو التقاليد الثقافية المتوارثة. ولكن ماهية هذه الأفكار وأسلوب ممارستها كان يختلف باختلاف النوع، والطبقة الاجتماعية، ومكان الإقامة. فمثلاً في نهاية القرن التاسع عشر كانت نساء المدينة من الطبقة العليا يرتدين الحجاب ويمكنن في بيوتهن. أما نساء الريف فقد كن يعملن في الحقول جنباً إلى جنب مع الرجال بصفة يومية، وكانت ملابسهن - أو سلوكهن - يتواءم مع بيئتهن المحلية دون أن تكون زياً وطنياً متعارفاً عليه^(٢٤).

في أعقاب جرائم الإسكندرية ظهرت رؤية موحدة "لمصر الفاضلة" كانت سائدة قبل أن تقع تحت التأثير الفاسد لأوروبا والغرب. واحتلت هذه الرؤية موقعاً مركزياً في منظومة الوطنية. وبسبب القلق الذي كان يساور المثقفين والكتاب جراء تأثير الثقافة الأوروبية في مصر كانت التعليقات بعد حدوث هذه الجرائم تسترجع عصر ما قبل الاستعمار؛ حيث كان كل أفراد الأمة يتبعون نفس النمط الأخلاقي، وكان هذا الاتجاه المنطقي المرتبط بتلك الأحداث قد ظهر بالتوازي مع الاتجاه الذي أشارت إليه سامية خلوصي في الفصل العاشر حين أصبح الفلاح ومجتمعه يمثلان الأخلاق المصرية الأصيلة التي تمتد جذورها إلى عصر الفراعنة في الزمن القديم، والتي أصبحت الآن تحت حصار التأثير الأجنبي والتمدين. وقد حدث تحول بسيط بعد جرائم ريا وسكينة؛ فأصبحت هذه الرؤية تتشكل بصورة أكثر تحديداً في أن مصر أولاً وقبل كل شيء مجتمعاً إسلامياً. وقد أكد هذا المعنى أحد المحررين بصحيفة "الأمة" اليومية القاهرية الذي كتب بعد هذه الجرائم يقول:

"نحن مجتمع شرقي إسلامي؛ لأن ديننا يمنع المرأة المسلمة من أن تشهد خارج منزلها إلا إذا كانت بصحبة أحد أقاربها اللصيقين بها من عائلتها بما يكفي لحمايتها من التعرض لأي هجوم، وبحيث تبتعد عن مواطن شكها أو الشك فيها، كما يجب أن تستقر في منزلها، ولا تبدى فتنتها عن جهل، وأن تغطي وجهها وتتأى بنفسها بعيداً عن الفتنة والخطيئة والمحرمات. ونحن شرقيون لأن المرأة الشرقية لها عاداتها وتقاليدها التي تختلف عن نظيراتها الغربية"^(٢٥).

وتذكر آخرون أيضاً الأوقات الأولى التي كانت الفضيلة سائدة في مصر وتحسروا على تدهور هذه القيمة. فكتب أحد المعلقين يقول "يوجد في مصر نظام يعلم الآداب والأخلاق، أما الآن فالكل يتجاهلهم تماماً"^(٢٦). ومن ذلك يتضح أن الكتاب المصريين - مثلما ظهر في الأمثلة السابقة - كانوا يتخيلون أن مفهوم النظام الأخلاقي كان جماعياً ويتعارض مع مفاهيم الغرب. وكانت النساء المصريات يختلفن عن النساء الغربيات بسبب المعتقدات الدينية والثقافية التي كانت تحميهن من النزعات الجنسية الأنثوية، بالإضافة إلى أنه في هذا الجو المشبع بالإحساس بوحدة الوطن في صراعه ضد الاحتلال البريطاني، كانت الفروق الدينية بين الأغلبية من المسلمين والأقلية من المسيحيين قد تقلصت. فمثلاً في المظاهرات الوطنية كانت الجماهير تحمل أعلاماً عليها علامة الهلال والصليب دلالة على تهميش الفوارق بين أية ثقافات يمكنها أن تؤثر في فكرة "مصر الفاضلة"^(٢٧). وبالتالي كتبت الصحف عن التوجهات الأخلاقية المصرية للمجتمع ككل في نفس الوقت الذي اختلفت فيه الفوارق الثقافية بشدة وفق اختلاف الطبقات والأقاليم. ومن الملاحظ أنه قبل عام ١٩٢٠ لم يهتم المصريون أو يلقوا بالاً إلى المستوى الأخلاقي الوطني، حتى بداية انفجار الغضب القومي لمساندة الأخلاق والذي غير مفاهيم عدة في المجتمع.

ما أفضى إلى غضب قومي أخلاقي

في ضوء ما تخيله الكتاب لبناء رؤية "مصر الفاضلة" يمكننا أن نتفهم لماذا كانت جرائم ريا وسكينة انتهاكاً للمنظومة الأخلاقية في مصر، ولماذا ثار المعلقون على تداعيات هذه الجرائم وتأثيرها في المجتمع المصري. وكان الهدف الذي وُجّهت إليه الاتهامات هو تزايد وجود المرأة في الأماكن العامة والتي كانت عالم الرجال فقط قبل ذلك. فقد كان أغلب المصريين يؤمنون بأن وجود الرجل مع المرأة التي لا تربطه بها أية صلة شرعية سوف يصل حتماً إلى أفعال جنسية تؤدي بدورها إلى الفتنة أو الفوضى الأخلاقية. وكما تلاحظ بث بارون فمع مطلع القرن كان كثير من النساء يعتقدن أن الحجاب

وانعزال المرأة بعيداً هو حفاظ على تواضعها ومكانتها، وهو ركن من أركان الممارسات الإسلامية. وتسترشد بارون بما قالت سارة الميهى وهى تسخر من النساء اللائى يظهرن فى الأماكن العامة فى المجتمع المصرى حيث تتساعل "من أين أتى هؤلاء النساء اللائى تذرعن الشوارع جيئةً وذهاباً؟ هل ألفت بهن السماء أم خرجن من باطن الأرض؟ أليست لهن عائلات؟" (٢٨). وكانت التحولات الاجتماعية بعد الحرب العالمية الأولى قد تركت الأفكار حول العموميات والخصوصيات قابلة للتحلل وغير محددة. وتشير بعض فصول هذا الكتاب التى عرضتها خلوصى، وإيكيدا، وجونسون، وماكنتوش إلى أن المناقشات حول المساواة بين الجنسين أو انعزال المرأة الملحوظة حدثت على خلفية تدخل الدولة نفسها فى مجال العلاقات بين الجنسين من خلال التعليم والقانون. وقد كتب الكثير من نساء الطبقة العليا والمتوسطة مثل "الميهى" مقالات عديدة وأصدرن صحفاً، وطالبت الناشطات منهن بمشاركة أكبر فى الحركة الوطنية، أما الطبقة العاملة من النساء فقد كانت تعمل فى الشارع المصرى كبائعات أو فنانات أو بغايا.

كانت جرائم الإسكندرية وانفجار الإعلام حولها فى واقع الأمر لحظة اختلطت فيها مجالات الخطابة والكتابة بحقائق الحياة اليومية فى مصر. فلم تكن القاتلات أو ضحاياهن من القابعات فى منازلهن، بل كن مثل الآلاف من غيرهن من نفس المستوى يعشن ويعملن فى أفقر الأحياء المدنية فى مصر. وكان أكثر المنغمسات فى هذه الجرائم من البغايا، وإن كان بعضهن يتكسبن عيشهن بطرق أخرى. فمثلاً كانت "زنوبة" كما وصفها جريدة الأهرام بائعة دجاج، وأخرى "فاطمة أم عين واحدة" دالة خادمت (٢٩). وكان وصف حى اللبان خلال التحقيقات فى الجرائم يشير بوضوح إلى أن النساء من غير الصفوة كن فعلاً جزءاً من النسيج الاجتماعى فى مدن مصر عام ١٩٢٠. ومع ذلك ففى أعقاب هذه الجرائم درجت الصحف على الربط ما بين خروج النساء من بيوتهن والتقاءهن بالرجال فى الحياة اليومية والمتهمات فى هذه القضية وضحاياهن. وفى ضوء هذه الصياغة أصبحت تلك الجريمة الشنعاء ترجع على الأقل إلى وجود المرأة فى الأماكن العامة. وبالتالي فرغم أن الحياة فى حى اللبان لم تعكس أبداً صورة "مصر الفاضلة"

التي حاول أن يرسمها الكتاب عقب هذه الجرائم، فإن النساء فى المناطق المجاورة أصبحن تهديداً للمنظومة الأخلاقية فى مصر، وقد استغل الكتاب هذه النظرة لمهاجمة السلوك والممارسات الأجنبية التي تسمح للنساء بالتحرك بحرية فى الأماكن العامة فى المدن، أى أن بناء السلوك المثالى لما يجب أن تفعله المرأة أصبح مرتبطاً فى نظر الوطنيين بالأفكار القومية الواسعة الجديدة عن المنظومة الأخلاقية.

ولأن فئة البغايا كن الشخصيات البارزة الرئيسية فيما تحمله الصحف من أنباء عن هذه الجرائم، بدأ اهتمام المعلقين بهذه الطائفة من النساء، وأولهن ريا وسكينة. ولأنهن كن يتاجرن بالجنس للحصول على المكاسب، فلم يكن وجودهن فى مجتمع "مصر الفاضلة" كما يتخيلها بعض الكتاب مرحباً به. لذلك ركز كتاب الصحف بسرعة على التعارض بين ما هو مطلوب فى سلوك المرأة وأخلاقياتها، والعنف والقسوة اللذين صاحبهما ارتكاب هذه الجرائم. وعلقت التحقيقات الصحفية والمحرون على فظاعة ووحشية الشقيقتين. ففى مقالة من جريدة "الحقائق" يقول الكاتب: "لم تسمع مصر أبداً فى تاريخها عن مثل هذه الجرائم، كما لم يسبق أبداً لأى امرأة أن تصل إلى هذا المستوى من البشاعة التي وصلت إليها هاتان المرأتان وما ارتكبتاه من خطايا"^(٣٠).

وقد كانت وجهة نظر أغلب الكتاب - سواء فى الصحف المدنية أو الدينية - أن جشع ريا وسكينة وسعيهما وراء المتعة ما هو إلا سمات نسائية خرجت عن السيطرة فى غياب الرقابة الذكورية، وبالتالي يصبح الرجال والنساء على السواء مسئولين عن هذه الجرائم العنيفة التي كان للنساء ضلع كبير فيها. وكانت النتيجة تحويل مظهر من مظاهر الضعف النسائي إلى عمل لا إنسانى. وتصف مقالة نُشرت فى جريدة "وادي النيل" هاتين المرأتين بأن الشر استحوذ عليهما حتى سلب آدميتهما وتملك الشيطان منهما تماماً. فى حين نُشرت مقالات أخرى تحريرية وأدبية كانت ترصد هذه الجريمة فى صحيفة "الرشيد" فتقول: "أنت لست إنسانة يا ريا... بل وحش فى الصحراء، وذئب غادر يحتضن الخديعة". بالإضافة إلى مقالات لا تُحصى أخرى مثلتهما بأشكال مختلفة من الحيوانات مثل النمرات ومصاصات الدماء، والوحوش. ومن خلال هذه

المقالات أصبحت رياء وسكينة رمزاً أمام كل المعارضين لمطالب المرأة بالاندماج فى الحياة العامة فى مصر على أساس أن النساء أضعف من أن يسيطرن على طبيعتهن وغرائزهن الجنسية. (شكل ١٣/٢)

لم تخل التعليقات أيضاً من الاهتمام بالضحايا للإشارة إلى خطورة خروج المرأة إلى الأماكن العامة، فكتبت الصحف أن من تم قتلهن من النساء لسن ضحايا بل قتلن لأنهن انتهكن النمط الأخلاقى فى مصر. وتوالت المقالات التى ألفت بجزء كبير من اللوم على الضحايا من البغايا وفتيات الشوارع، على الأقل بسبب وجودهن فى أماكن تحتمل ارتكاب مثل هذه الجرائم. فمثلاً نشرت مقالة فى جريدة "الحقائق" تعزو ارتكاب تلك الجرائم إلى سلوك الضحايا أنفسهن "لم تبحث رياء عن أية امرأة، ولكنها وجدت نساء ضعيفات الروح لا يتصفن بالشرف والأخلاق. ويعلم الله أن هؤلاء النساء ما كن قتلن لو كن فى بيوتهن وتحت الحماية ويتمتعن بالأخلاق الفاضلة. وبهذا تكون المشكلة التى تواجه المجتمع الآن مشكلة أخلاقية قبل أن تكون جريمة جنائية"^(٣٢). وكانت صحيفة الأمة أكثر وضوحاً فى إلقاء اللوم على الضحايا فتتشر "ما هى القوة التى دفعت هؤلاء النساء إلى الدخول فى بيوت دعارة ليدفعن الثمن من حياتهن على أيدي هؤلاء المجرمين؟ إن الرد سهل واضح فهو عدم الاحتشام والالتزام بالآداب العامة من قبل الرجال والنساء"^(٣٣).

لقد أدانت أغلب الصحف الضحايا مثلاً أدانت القتلة أنفسهم، فقد تجاوز هؤلاء النساء الحدود التى تفرق بين أماكن الرجال وأماكن النساء، وبالتالي كن يغارزن تلك الكارثة. ورغم أن هذه الحدود كان يمكن اختراقها ولم تكن محددة بل كانت تتشكل حسب مواقعها وأمكنتها فإنها لم تكن جزءاً من النقاش. فقد أصبحت "مصر الفاضلة" فى نظر الكثير من المعلقين - والتى تتمثل فى تفرقة موحدة - واضحة التخطيط بين الجنسين كما كانت قبل وصول الحداثة الأوروبية، حقيقة بديهية تاريخية.

ألفت وسائل الإعلام مسئولية جرائم القتل على تصرفات النساء التى تعدت الحدود الاجتماعية والمكانية الفعلية التى تمنع الفتنة. ورغم أن هذه السلسلة من جرائم القتل كانت أحداثاً استثنائية، فإنها أصبحت لحظة فاصلة للجدل حول وضع الرجل

والمرأة فى مصر الحديثة، وتأثير الأفكار الأجنبية الخاصة بالحدائث والمساواة بين الجنسين على المجتمع المصرى، ثم حول فكرة تأسيس رؤية وطنية تحدد السلوك الأخلاقى. وتحولت التقارير التى تشير إلى أن ربا وسكينة كانتا تختاران فريستهما من النساء اللائى تقابلانهم فى سوق حى اللبان، وفى القهاوى، والشوارع إلى ناقوس خطر يدق أمام السماح لأى امرأة بالذهاب إلى تلك الأماكن. وكانت النتيجة أنه فى أواخر سنة ١٩٢٠ وكرد فعل لهذه الجرائم ووضعت الحدود التى لا تسمح باتصال الرجل بالمرأة. وكانت بيوت الدعارة، والشوارع والأسواق والمدارس ضمن الأماكن العامة الجديدة التى أصبح تردد المرأة عليها يعرضها للتهديد. وتعاقبت المقالات الواحدة تلو الأخرى تتهم المرأة باستثارة تلك الفتن عن طريق "التردد على الأماكن العامة والقهاوى" (٣٤).

ولم يكتف كثير من الكتاب بمهاجمة وجود المرأة فى تلك الأماكن العامة التى قد تجعلها عرضة للمخاطر، ولكنهم هاجموا أيضاً التساهل فى التقاليد الثقافية التى تفرض ارتداء الحجاب. وكما سبق وأشرنا سابقاً فإن الحجاب والفصل الكامل بين الجنسين كانت عادات تمارس فى أوساط النخبة فى المدن رغم أنها لم تكن واقعية أو اعتيادية فى الأوساط الفقيرة خاصة هؤلاء الذين يقطنون المناطق الريفية. وبحلول العشرينيات من القرن أصبحت قضية ارتداء المرأة للنقاب الكامل محل جدل متزايد فى الدوائر المصرية. فتكتب هدى شعراوى الزعيمة المناصرة لحقوق المرأة مثلاً فى عام ١٩٢٥ أن الحجاب أصبح "أكبر عقبة أمام مشاركة المرأة فى الحياة العامة" (٣٥). وفى المقابل كانت تعليقات الكتاب عقب جرائم الإسكندرية تلقى اللوم على التحرر فى ملابس النساء كعنصر مؤثر فى الجرائم فتسأل جريدة "الأمة" مثلاً قراءها "أين هم المؤيدون لخلع النقاب فى غمار هذه الأحداث" (٣٦)؟

ولأن المرأة لعبت الدور الرئيسى فى مصر - سواء فى مرحلة الاستعمار أو مرحلة النقاش حول الوطنية - فإن سلوكها الخطر أو المنحرف كان من الطبيعى أن يستأثر باهتمام كتاب المقالات فى الصحف بجانب القراء العاديين من الطبقة الوسطى المثقفة

والطبقة العليا، أما ما كان جديداً فهو أن تتحول حياة الطبقة الدنيا من المجتمع إلى موضع جدل حول السلوك الملائم للجنسين، بالإضافة إلى أن الحوادث التي شملت تلك الفئة لعبت دوراً مهماً في تحويل فكرة الأخلاق إلى قضية قومية. فقد ولدت أزمة أخلاق في البلاد، ولم يتوان معلقو الصحف عن انتهاز الفرصة لعرض الحلول التي تمكن مصر من استعادة بوصلة الأخلاق الضائعة.

ابتداع مصر الفاضلة

لم يكتف هؤلاء الذين رصدوا تأثير هذه الجرائم على المجتمع المصرى بالإشارة إلى أسباب الخطأ الذى حدث، بل اقترح الكثيرون الوسائل والطرق التي يمكن لمصر من خلالها أن تستعيد منظومتها الأخلاقية. وطالب الكتاب بالعديد من الإصلاحات، وحثوا الأسرة المالكة، والحكم الاستعماري، والأهم الأفراد من الذكور للتحرك لإنقاذ مصر من هذه الوصمة. فمثلاً نشرت مقالة في جريدة "وادي النيل" تسترجع الأيام التي كانت الفضيلة سائدة في مصر، وتحسرت على انهيار هذه الصفة الأخلاقية: "يوجد في مصر نظام لحماية الآداب العامة، إلا أنه تم تجاهله تماماً اليوم" (٣٧).

ومع ذلك فماذا كانت دوافع الإغراءات التي انحرفت بالنساء في مصر على وجه الخصوص - وبالرجال بصفة عامة - بعيداً عن الفضيلة المتخيلة فيها؟ في نظر الكثير من المعلقين أن السبب كان راجعاً في المقام الأول إلى التأثير الأوروبي، والحادثة بصفة عامة. فقد عزت جريدة "الأمة" مثلاً سبب انهيار القيم الأخلاقية في مصر إلى "تناول كل ما يأتي لنا من الخارج من غث وسمين عبر البحار مثل كل القادمين الجدد. وإلى إغراء الحضارة الغربية التي تضم كل فسق ونقيصة لم يعتدها نظامنا الاجتماعي أو الأخلاقي" (٣٨). وفي مواجهة تأثير الغرب في هدم القيم المصرية بدأت جميع الصحف الأخرى تطالب بإجراءات سريعة حاسمة لممارسات ثقافية خالصة تشمل الثقافة الأخلاقية. وكان من المثير للاهتمام أن المطالبة بالرجوع إلى الأصالة المصرية ورفض الثقافة الغربية التي أثرت سلباً على المصريين جاءت في وقت بدأت فيه النخبة السياسية والاجتماعية

- كما أشير إلى ذلك فى الفصل الأول والخامس لجيمس هويدن ولوسى ريزوفا - بتبنى أوضاع ثقافية غربية وأحياناً تعديلات قانونية كما ذكرت خلوصى فى الفصل الخاص بها. وقد نشرت مقالة فى "اللطائف المصورة" تدعو إلى فرض قيود الأخلاق المصرية لتتواءم مع الحركة القومية الحديثة "لقد حان الوقت لتفعيل نهضة أخلاقية داخل المجتمع تتواءم مع النهضة السياسية وتتناغم مع التقدم الحديث"^(٣٩). وكان الإحساس بضرورة القيام بشيء ما يكاد يكون جماعياً. أما ماهية هذا الشيء، فكان ذلك مثار الجدل والنقاش فى خريف ١٩٢٠ وخلال عام ١٩٢١.

وفى هذا الجو المشحون بالجدل حول وضع المرأة فى المجتمع المصرى، ومن منطلق أن ريا وسكينة وكثيراً من ضحاياهما كن من البغايا، كان لذلك صدى فى الثقافة الشعبية من حيث خطورة إطلاق العنان للنزعات الجنسية للمرأة. وبالتالى انطلقت الصيحات فى المقالات الصحفية تطالب بإلغاء البغاء فى مصر. فقد كان البغاء مقنناً تحت الحكم البريطانى الاستعماري، من منطلق أن المتنفس الجنسى كان ضرورة لتحقيق التوازن النفسى للجنود البريطانيين المتمركزين فى الأراضى المصرية. وفى نفس الوقت كانت الإدارة الاستعمارية تعارض بشدة وجود بغاء أوروبى خوفاً مما أطلق عليه "تجارة الرقيق الأبيض" فى مصر ومناطق أخرى^(٤٠). وبالتالى كان البغاء قضية سياسية بالنسبة للوطنيين وإن تكن قضية مشتتة كان من الضرورى معالجتها بعد حصول مصر على استقلالها. غير أن قضية ريا وسكينة غيرت من أولويات الصحافة، والشعب، وفى النهاية المسؤولين الحكوميين، وكانت النتيجة - كما ذكرنا سابقاً - هى المطالبة بإلغاء البغاء فى مصر لارتباط النساء فيها بالدعارة. فمثلاً تكتب "وادي النيل" "لقد وقعت هذه الجرائم المظلمة فى ضوء الشر الذى أحاط ببيوت الخطيئة تلك، وقد جلبت هذه البيوت أفعالاً شريرة الواحد بعد الآخر، وبالتالى يمكن لنا أن نطلق عليها المنازل التى سوف تظل ملعونة دائماً"^(٤١). وكان الكثير من الكتاب يؤمنون بأن قطع دابر البغاء سيوقف حالة التدهور الأخلاقى بصفة عامة، وبالتالى فقد أصبح إلغاء البغاء - بعد جرائم ريا وسكينة - قضية أخلاقية إضافة إلى كونها قضية سياسية أيضاً.

ربط الوطنيون أيضاً ارتكاب هذه الجرائم وضعف الأخلاق بالقضية الوطنية. ويعزو فكرى أباطة - وهو أحد أبرز الصحفيين فى تلك الفترة - هذه الجرائم بصفة خاصة، وكذلك غياب القانون بصفة عامة إلى اهتمام الإدارة الاستعمارية بتحقيق الأمن فقط فى مواجهة الاضطرابات والثورات. فيتسائل فى مقال له نشر فى الأهرام فى ٢٥ نوفمبر عام ١٩٢٠:

"أين هو البوليس؟ أين سيف الحكومة المسلط على رقاب المجرمين المتعطشين للدماء؟ أين عيون العدالة الساهرة التى لا يجب أن يغمض لها جفن؟ أين يد السلطة القوية؟ لقد كانت الحكومة فى واقع الأمر تحصر اهتمامها كله فى تدريب حشود من البوليس السرى السياسى لحماية الأمن الداخلى، أو أمان بعض الشخصيات. وقد حان الوقت الآن أن نسألها مواجهة مخاطر هذا الإهمال. لقد كانت هذه الجرائم الحديثة كارثة كبرى، وسودت بشاعتها جبين القرن العشرين"^(٤٢).

وإذا كان المصريون قد اتفقوا على أن مصر كانت تعاني أزمة أخلاقية سببها جزئياً مفهوم الحداثة فى المجتمع المصرى، فإنه كان من الواضح وجود آراء متنوعة حول ما يجب أن يتم حيال هذه الأزمة. فتنامت الدعوة لإلغاء البغاء، وتعليم الفقراء والمعدمين، وزيادة تحقيق الحكومة لأمن المواطنين نتيجة جريمة الإسكندرية والتغطية الإعلامية التى حظيت بها.

انفجار الغضب الأخلاقى للجماهير فى مصر

كانت جرائم الإسكندرية فى عام ١٩٢٠ حافزاً على خلق فكرة أن السلوك الأخلاقى هو شىء يمكن تعريفه ليس فقط أمام المجتمعات المحلية المختلفة، ولكن أمام الأمة بصفة عامة. وما هو جدير بالملاحظة حول النقاش الذى ثار عقب هذه الجرائم هو أن الاهتمام بهذه الصيغ لم يتحدد فقط فى شريحة المفكرين والسياسيين من الطبقة العليا. فهناك دلائل تشير إلى أن العامة من الشعب أحست بثورة أخلاقية غاضبة، وقلق حول مدى الحفاظ على النمط الأخلاقى فى مصر. وهذه ملاحظة جديرة بالاهتمام،

حيث إن التأريخ التقليدي لمصر فى القرن العشرين أكد على النسبة المنخفضة لمستوى التعليم الذى كان من شأنه التخفيف من تأثير الصحافة على الرأى العام. فقد كان أغلب سكان المدن (حوالى ٧٠٪ من الرجال، ٩٠٪ من النساء فى القاهرة والإسكندرية)^(٤٣) غير متعلمين أساساً، كما أن أمى أيا لاون أكد أن انخفاض نسبة التعليم "كانت تعنى محدودية تأثير الصحافة السياسى وغيرها على المجتمع"^(٤٤) وكل ذلك يشير إلى أن الباحثين تقبلوا فكرة التفرقة بين ثقافة الصحف والثقافة العامة فى مصر. ومع ذلك فإن الفحص الدقيق للزوبعة التى أحدثها الإعلام حول جرائم ريا وسكينة تشير إلى أن هذه الأحداث المثيرة أثرت فى حياة وآراء غير المتعلمين فى مصر مثلما أثرت فى الطبقة التى تقرأ. وكان من الواضح أن أغلب المصريين فى المدن قد قرأوا المقالات التى نشرت عن هذه القضية. غير أن التقليد الذى كان متبعاً آنذاك وهو قراءة المقالات المهمة بصوت مسموع فى القهاوى المزدحمة، بالإضافة إلى المجلات المصورة التى صدرت فى تلك الفترة طرحت أمام المتعلمين وغير المتعلمين أكثر الروايات إثارة، كما أنه من الواضح أن المصريين على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية اهتموا بهذه القضية، بل انغمسوا إلى حد ما فى أحداثها وتداعياتها بعد ذلك.

وقد ذكرت جريدة "الحقائق" القاهرية الأسبوعية - مثلها مثل غيرها من الصحف الأخرى التى غطت أخبار هذه الجرائم - اتساع الاهتمام بتلك الجريمة، وردود أفعالها فى نفوس الجماهير "من يستحق هذه الضجة والسمعة أكثر من ريا وسكينة اللتين أصبح اسماهما على كل لسان وصحيفة فى مصر؟". كما تنشر مقالة أخرى رد فعل الرأى العام والذى كانت المقالات فى الصحف كثيراً ما تشير إليه:

"إن بائعى الصحف فى الشوارع يهللون دائماً "ريا وسكينة، ريا وسكينة بقرش" وبالتالى انتقل الشر منهم إلى كل مكان... إلى المنازل... والأطفال فى مدارسهم... والعمال فى مصانعهم وفى كل الأحياء، فقد أحست بها القلوب فى الصدور، بل إن صداها تردد عند الأموات فى القبور"^(٤٥).

وقد ادعى كُتاب الصحف أن هذه القضية أثّرت فى المصريين جميعاً على مستوى جميع طبقاتهم والمتعلمين منهم، ورغم أنه من الممكن أن تكون هذه الادعاءات قد بولغ فيها لزيادة أهمية هذه القصة وبالتالي زيادة مبيعات الصحف، فإنه توجد دلائل تشير إلى امتداد تأثير وسائل الإعلام إلى أبعد من مستويات المتعلمين والطبقات فى مصر. فمثلاً تشير "وادی النيل" إلى أنه عقب هذه الجرائم تزايد عدد المصريين المترددين على المنازل التى كانت تسكنها ريا وسكينة ويدفن فيها ضحاياهم لمشاهدتها. "إن الناس تشعر بالاشمئزاز وهم يمرون على هذه المقابر ويرتجفون ويشعرون بالقشعريرة بسبب ما يشاهدونه"^(٤٦). كما يلاحظ تقرير آخر منشور فى "وادی النيل" أنه فى الأسابيع التى تلت اكتشاف جثث الضحايا كانت الجماهير الغاضبة تلعن أى امرأة يقيض عليها البوليس فى الإسكندرية، فقد كانوا يرون فيها رمزاً لريا وسكينة، ولتدهور الآداب والأخلاق فى المجتمع المصرى^(٤٧).

كان أكثر ردود الأفعال إثارة فى الرأى العام لهذه الجريمة قد ظهر فى أواخر ديسمبر ١٩٢٠ حين امتلأت الصحف بقصص تُشَبِّه ريا وسكينة بالحيات والذئاب والعديد من الوحوش الأخرى. وطبقاً لما نشرته جريدتا الأهرام والبصير انتشرت شائعة بين العامة بأن البوليس يعرض الشقيقتين فى حديقة الحيوان بدلاً من وضعهما فى السجون. وتشير التقارير إلى أن آلاف المصريين تدفقوا على حديقة الحيوان ليتضح بعد ذلك أن الإشاعة غير صحيحة^(٤٨). ورغم أنه لا يوجد أى دليل دامغ يربط ما بين وصف الصحافة لهما بالحيوانات، والذهاب إلى حديقة الحيوان، فإن ما حدث يشير بوضوح إلى أن الطبقة الدنيا غير المتعلمة من المصريين والذين هرعوا إلى حديقة الحيوان فعلوا ذلك كرد فعل لما نشرته الصحف. فمن خلال القراءات العامة والصور، وقنوات الإشاعات التهم المصريون التغطية الإعلامية لتلك الجرائم سواء كانوا متعلمين أو غير متعلمين. وبذلك تحولت ريا وسكينة من مجرد حادثة محلية إلى تجربة مشتركة بين المصريين بكل فئاتهم وطبقاتهم بفضل جاذبية "أخبار الحوادث" والتغطية المثيرة للجريمة. وبالتالي أصبح الاهتمام بدور النوع (ذكر/أنثى) داخل إطار الصورة المتخيلة للأخلاق والآداب العامة فى مصر ليس قاصراً فقط على محيط النخبة المثقفة،

فرغم أن الذين أثاروا الجدل، وكتبوا عن هذا الدور ظلوا من النخبة (بحكم تعليمهم وعلاقاتهم بالسياسة والصحافة) فإن جرائم الإسكندرية وأبطالها استُخدمت ونوقشت في هذا الجدل السائد. وبذلك تحولت القضية إلى بؤرة اهتمام للأمة المصرية المتخيلة، مما استتبع أن تصبح أيضاً أفكاراً تلهم القيم الأخلاقية التي وُصفت بأنها سمات مصرية بدلاً من كونها محلية أو دينية على وجه التحديد.

إضفاء معنى على الجريمة والتسيب الأخلاقي: المحاكمة

رغم أن محاكمة ريا وسكينة وزوجيهما ورجلين آخرين اشتركا في الجريمة، كان إجراءً شكلياً فإن اهتمام الرأي العام بالجريمة ظل مرتفعاً طوال فترة المحاكمة. فلقد انهمر سيل من المقالات على القراء مرة ثانية تصفها وتشير إليها قبل وخلال وبعد المحاكمة التي استغرقت من ١١ مايو حتى ١٧ مايو ١٩٢١. فقد كانت "الأهرام" تنشر يومياً محاضر الجلسات بالتفصيل، مستهلكة عدداً من الصفحات كانت مخصصة سابقاً لموضوعات أخرى. في حين نشرت صحف أخرى مثل "وادي النيل" و"المقطم" و"الرشيد" و"مصر" و"البصير" مقتطفات من المحاكمة إن لم يكن كلها^(٤٩). وكان من الواضح أن هذه المقالات لم تكن مباشرة، فالأقوال المنسوبة إلى أعضاء العصابة وبعض قاطني حي اللبان كانت باللغة العربية الحديثة السائدة وليست باللهجة العامية التي يتحدثون بها فعلياً^(٥٠). ولكن الإشارة إلى صوت العامة غير المتعلمة من الشعب كانت واضحة في الصحافة، وأن هذه الشرائح من المجتمع لعبت دوراً في فهم المصريين لهويتهم النوعية.

ولم يكن من المستغرب - بعد هذا الاهتمام الإعلامي الضخم بأحداث هذه الجريمة لمدة ستة شهور سابقة - أن يزداد اهتمام الصحافة والشعب بالمحاكمة. وأشارت "وادي النيل" إلى كثافة الجمهور الذي احتشد حول المحكمة كدليل على اهتمام الشعب بها. فتقول: "كان الجمع الذي احتشد حول المحكمة أمس ضخماً رغم أنه لم يسمح لأحد بدخول القاعة إلا للذين كانوا يحملون التصاريح الخاصة التي أصدرتها الحكومة. وقد أرسلت قوة كبيرة من البوليس للمحافظة على النظام"^(٥١).

أما جريدة "المقطم" الموالية للإنجليز، فقد أشارت بدورها إلى الاهتمام الكبير الذى حظيت به بداية المحاكمة، وأن القاعات الخارجية للمحكمة كانت مكتظة بالناس، فى حين أن قاعة المحكمة نفسها: "امتلأت عن آخرها بالجمهور الذى كان يحمل تصاريح الدخول"^(٥٢). واستمرت الصحف اليومية - التى غطى جميعها أحداث القضية - فى الإشارة إلى تدفق الجماهير خلال فترة المحاكمة، مما تبين معه أن اهتمام الشعب بالقضية لم يفتر خلال الستة أشهر التى مضت منذ الإعلان عن الجريمة.

وأشارت الصحف أيضاً إلى أن القراء أبدوا رأيهم فى القضية بصفة عامة، والمتهمين بصفة خاصة. فمثلاً تكتب "الأهرام":

"إنه لمن النادر أن تواجه المحكمة قضية يتفق فيها الرأى العام فى طلب توقيع أقصى العقوبة على المتهمين كما حدث فى هذه الجريمة. فمن الملاحظ أنه يوجد أشخاص كثيرون فى ظروف عادية يشعرون بالشفقة إذا ما كان مرتكب الجريمة امرأة. بل إن طلب الرأفة وارد فى هذه الحالة حتى ولو كانت جريمة قتل. أما فى هذه القضية فلا يوجد شخص واحد يطالب باستعمال الرأفة تجاه ريا وسكينة وبقية أفراد العصابة"^(٥٣).

بعد عدة أشهر من نشر المقالات الصحفية عن "الأزمة الأخلاقية"، ووصف القضية على أنها انتهاك للقيم الأخلاقية المصرية الأصيلة، كان الرأى العام بأكمله قد انتهى إلى ضرورة أن يدفع المجرمون حياتهم ثمناً للجرائم التى ارتكبوها. وفى ١٧ مايو ١٩٢١ صدر الحكم بإعدام ريا وسكينة وزوجيهما واثنين آخرين، وتلاها تنفيذ الحكم فى ديسمبر من نفس العام. ونشر الخبر فى نفس اليوم، إلا أنه لم يكن له نفس الصدى للأحداث نفسها. إذ يبدو أن القراء المصريين - فور صدور الحكم - تركز اهتمامهم ثانية فى موضوعات أخرى مثل الكفاح الوطنى والأحداث السياسية الأخرى. أما ما ظل باقياً يتردد فهو أسطورة الأختين ريا وسكينة، وفى مسار ظهور وسائل الإعلام الحديثة بدأت بوادر ظهور ثقافة جماهيرية تستند إلى رؤية مشتركة للسلوك الأخلاقى.

الخاتمة

تلاشت أخبار ريا وسكينة بعد تنفيذ حكم الإعدام فيهما في ديسمبر ١٩٢١، وبعد موت المجرمين وذهاب الضحايا إلى عالم النسيان خبت شهرة حى اللبان فى خلفية شئون مصرىة أخرى. إلا أن أسطورة ريا وسكينة استمرت طويلاً بعد انتهاء الإجراءات القانونية وتوقف جنون وسائل الإعلام. وكان لتلك القضية أثر كبير فى كيفية معالجة الصحافة للأخبار وأسلوب نشرها. فلم يسبق لأى قضية أخرى الاستحواذ على اهتمام الناس كما فعلت جريمة ريا وسكينة. أما منذ عام ١٩٢٠ وما بعده فقد بدأت الصحف فى نشر الحوادث المثيرة بصفة منتظمة. وربما يكون السبب راجعاً إلى مبيعات الصحف، فقد كانت قضية ريا وسكينة قضية وطنية على المستوى الاجتماعى والنوعى، وبالتالي اتسع اهتمام القراء بهذه النوعية من الأحداث ليضيف بدوره إلى نسبة توزيع الصحف الكبيرة فى مصر. والواقع أن عام ١٩٢٠ شهد طفرة واسعة للصحافة سواء فى توزيع أعدادها أو ظهور صحف جديدة. ولذلك ظلت الصحف تنشر أخبار وإحصائيات الجرائم فى أعمدها اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية، حيث أدرك المحررون بلا شك مدى الاهتمام وقوة تأثير الروايات والأخبار التى تتمحور حول الحياة الشخصية للمشاركين فيها. وفيما ظلت المقالات التى تنشر تحت عنوان "حوادث" والصور والتعليقات المثيرة قد أصبحت أحد الملامح المهمة للصحافة، لم يتوقف تأثيرها عند هذا الحد فقط. فقد تطورت تكنولوجيا وسائل الإعلام مثل الراديو والسينما لتتيح مساحة أكبر للتغطية المثيرة للأحداث اليومية. وخلال منتصف العشرينيات من القرن على الأقل تحول عدد من القصص المثيرة - مثل جريمة الإسكندرية - إلى ومضات إعلامية مضيئة تثير الجدل حول الهوية الأخلاقية والوطنية فى مصر.

لم يتوقف تأثير قضية ريا وسكينة عند أسباب وكيفية تغطية الصحف لبعض الأخبار فى مصر، بل إن توقيت الجريمة نفسه لعب دوراً رئيسياً فى التعظيم من أهمية دور الأخلاق فى هوية الأمة المصرية. ورغم أن الاهتمام بالسلوك الأخلاقى فى مصر كان سابقاً للمرحلة الحديثة فإن المفهوم السائد فى هذا الشأن كان يرتبط بالمفهوم

المحلى للإسلام والمسيحية، فقد كانت العاصفة الإعلامية التى هبت بعد جرائم ١٩٢٠ قد جعلت من قضية الاهتمام بالسلوك الأخلاقى قضية قومية، وحولت مفهومها الدينى الخالص إلى مفهوم مدنى أيضاً. ومن المؤكد أن الكثير قد لاحظوا أن المناقشات الرسمية لقضية النمط الأخلاقى مثل الزواج والأسرة ارتبطت بالمفهوم المدنى، فمثلاً فى الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب تشرح حنان خلوصى بالتفصيل الجدل السياسى والقانونى حول قوانين الزواج والطلاق فى أوائل القرن العشرين فى مصر إلا أن ما أظهرته جريمة الإسكندرية هو أنه إلى جانب هذا الجدل بين النخبة المدنية والنخبة الدينية، كانت توجد ساحة أخرى أكثر شعبية للنقاش شملت اهتماماً بمدى التأثيرات السلبية للحدثة المدنية على الأسس الأخلاقية للأمة المصرية. وكانت تفاصيل القضية - وخاصة فيما يتعلق بالعنصر النسائى سواء فى مرتكبى الجريمة أو الضحايا - قد أدت بالصحف إلى إعادة صياغة السلوك المناسب للرجال والنساء، كما أن المعلقين فى الصحف وأيضاً بعض القراء على الأقل رأوا فى هذه القضية نقطة تحذير للرجال والنساء على السواء. فقد مات الضحايا لأنهم تعدوا الحدود الأخلاقية التقليدية المصرية القديمة والجديدة، وكانت ريا وسكينة هما النموذجان المتطرفان لما يمكن أن يحدث فى المجتمع إذا فشل الرجال فى مراقبة تحركات وسلوك المرأة. وبالتالي فإن فهم "قضية المرأة" فى مصر يحتاج إلى الوضع فى الاعتبار ليس فقط بعض المقالات التى حررها حفنة من المثقفين، أو السياسيين، أو رجال الدين الرسميين ولكن أيضاً تأثير بعض اللحظات المثيرة - مثل جريمة ١٩٢٠ - على الساحة الممتلئة بالجدل والتى كان يدور فيها صياغة أفكارهم وآرائهم.

أدركت الصحف بالتأكيد - بعد جريمة ١٩٢٠ - قوة إثارة نشر "الحوادث" ليس فقط على زيادة معدل توزيعها، ولكن من زاوية مفهوم الجمهور للنظام الأخلاقى والنوعى فى مصر الحديثة. وبالتالي كانت الحوادث المثيرة، وتداعياتها على الأزمة الأخلاقية، عنصراً فى الجدل السائد خلال الخمسينيات من القرن حول الحاجة الملحة إلى السلوك الأخلاقى داخل الحركة الوطنية المصرية، خاصة وأن الفضائح الجنسية، والسلوك الإجرامى كان مرجعه إلى التأثير الأوروبى السلبى للحدثة على القيم المصرية.

ولذلك فيجب أن نلاحظ أن هذا التأثير الإعلامى الواسع لعب دوراً مهماً فى خلق مناخ للجدل حول النظم الأخلاقية التى وجدت بجوار (وأحياناً بالعلاقة مع) هذه النوعية من الإصلاحات التى وصفتها إيمى جونسون وسكوت دافيد ماكنتوش فى الفصل العاشر من هذا الكتاب. وأكثر من ذلك فقد يبدو من المحتمل أنه - فى بعض الأحوال - كانت الشخصية العامة للمرأة التى تنادى بالإصلاح الاجتماعى أو تشارك فى بعض الأعمال الخيرية، تتناقض مع هذا الجدل الأخلاقى الذى أبدى قلقه للتفاعل بين المرأة والرجل فى الأماكن العامة^(٥٤).

وربما كان أكثر ملاحظة جديرة بالاهتمام عقب إثارة هذه القضية أن النقاش حول السلوك الأخلاقى خلا من الإشارة الواضحة إلى الطبقة الاجتماعية. فلأول مرة تتناول الصحف قضية تتعلق بمصريين مهمشين، وتحيطها بأهمية تشعر بتأثيرها الطبقات العليا، فمما لا شك فيه أن النخبة المتعلمة ومن كتب من الطبقة المتوسطة عن هذه الجرائم قد نشروا هذه القضية مساندة منهم لتعريف الأخلاق عند الطبقة العليا قبل ذلك. ومع ذلك ففى نفس الوقت، كان هذا النشر يمثل تطوراً ملحوظاً فى صياغة الحوار حول النوع (ذكر/أنثى) فى مصر الحديثة: أى إثارة القصص الحقيقية فى حياة عامة الشعب وتحويلها إلى بؤرة اهتمام لشرائح أخرى من المجتمع تضم النخبة وغير المتعلمين من أبناء الشعب على السواء. ولنا أن نوجه الشكر إلى هذه السلسلة من الجرائم التى انتشرت إعلامياً، لتبلور الرؤية الخاصة بضرورة وجود منظومة أخلاقية أصبحت فيما بعد ثقافة جماهيرية حقيقية فى مصر الحديثة. وفى خلال الحقبة التى امتدت من ١٩٢٠ وحتى ١٩٥٢ استمرت حركة تزايد الجرائد والمجلات، فكانت بالإضافة إلى الراديو والسينما، عاملاً فى تشكيل صورة لمصر كمجتمع أخلاقى بجانب كونه مجتمعاً سياسياً، كما أننا سوف نرى كيف أن بعض وسائل إعلام أخرى سوف تلعب دوراً مهماً فى الربط ما بين الأجندة الوطنية، والممارسات الثقافية.

الهوامش

- (١) تمكنت من إجراء الأبحاث لكتابة هذا الفصل بفضل منحة مركز البحوث الأمريكى فى القاهرة. وأود أيضاً أن أشكر ماريو رويز على تعليقاته على المسودة الأولى لهذا الفصل.
- (٢) هذه الملاحظات والاقتباسات جاءت نتيجة الأحاديث الخاصة التى أجريتها مع المصريين فى القاهرة عن هذه القضية فى عامى ٢٠٠١ و ٢٠٠٢ .
- (٣) جوان كول Printing and Urban Islam in the Mediterranean World, 1890-1920 فى طبقات ليلي تارازى فواز وسى. إى. بيلي Modernity and Culture: From the Mediterranean to the Indian Ocean (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ٢٠٠٢)، ٢٤٤-٥١ .
- (٤) الانتفاضة التى قادها أحمد عرابى عام ١٨٨١ ضد ملك مصر المولود خارج البلاد، أدت إلى إسراع البريطانيين فى احتلال مصر. فقد كان المسئولون الإنجليز قلقين بخصوص ديون مصر المستحقة لهم، والوصول إلى قناة السويس، والحقوق الإقليمية التى اكتسبوها كأجانب مقيمين فى مصر خلال القرن التاسع عشر.
- (٥) تناول عدد من الكتاب قضية الرقابة التى فرضتها بريطانيا على الصحف المصرية أثناء فترة الاحتلال. انظر على سبيل المثال: إسرائيل جرشونى جيمس جانكوفسكى، Egypt, Islam and the Arabs: The Search for Egyptian Nationhood, 1900-1930. (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩١)، ٢٦، ٢٢ .
- (٦) بينى دكت أندرسون Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism (لندن: فرسو، ١٩٩٥)، ٢٧-٤٦ .
- (٧) وفقاً لإيمى أياالون، فإن تعداد السكان فى مصر الذى أجري عام ١٨٩٧ أظهر أن من يجيدون القراءة والكتابة فى القاهرة والإسكندرية يبلغ حوالى ٢٠٪. أما رقم ٣٠٪ الذى كتبته فهو تقدير يستند إلى زيادة وسائل التعليم المتاحة فى المناطق الحضرية خلال العشرين عاماً التى تلت تلك الفترة. أياالون The Press in the Arab Middle East (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٥)، ٥٤-٥٥ .
- (٨) للمزيد، انظر: بيث بارون The Women's Awakening in Egypt: Culture, Society, and the Press (نيوهاقن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩٤)، ومارلين بوث، May Her Likes Be Multiplied: Biography and Gender Politics in Egypt. (بيركلى: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠١).
- (٩) جرشونى وجانكوفسكى Egypt, Islam. and the Arabs، ٦-٨ .

- (١٠) للمزيد عن الصحافة المصرية وعلاقتها بالقومية، وعن دورها في ثورة ١٩١٩، انظر: رمزي ميخائيل "الصحافة المصرية والحركة الوطنية، ١٨٨٢-١٩٢٢" (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦).
- (١١) سلما بوتمان Egypt from Independence to Revolution, 1919-1952 (سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ١٩٩١)، ٢٦ .
- (١٢) هذا البيان مبنى على ملاحظاتي الخاصة أثناء بحثي في دار الكتب (المكتبة القومية المصرية في القاهرة) في عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٢ .
- (١٣) للمزيد عن الصحافة أثناء ثورة ١٩١٩، انظر: رمزي ميخائيل "الصحافة المصرية والثورة ١٩١٩" (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢).
- (١٤) لمزيد من التشديد على التعليم بما يتماشى مع متطلبات الحياة المنزلية للمرأة، انظر: بارون The Women's Awakening، ١٥٥-٥٨، وأمنية شكرى، Schooled Mothers and Structured Play: Child Rearing in Turn of the Century Egypt. في طبعة ليلي أبو لحود، Remaking Women: Feminism and Modernity in the Middle East. (رينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٨)، ١٢٦-٧٠ . لمقارنة وجهات النظر في الشرق الأوسط، انظر: باراك سالوني، "Women in the Nationalist-Educational Prism: Turkish and Egyptian Pedagogues and Their Gendered Agenda, 1920-1952," History of Education Quarterly 43: 4 (2003).
- (١٥) ناقش جرشوني وجانكوفسكى أن القومية المصرية لم تجعل الإسلام محورياً مركزياً في الحياة اليومية لمعظم المصريين. وبدلاً من ذلك، فإن هذه المناقشات كان لها تأثير كبير فقط على عادات وأفكار النخبة المتطبعة بشدة بالعادات الغربية. انظر: إسرائيل جرشوني جيمس جانكوفسكى Redefining the Egyptian Nation, 1930-1945 (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٥)، ٥٤ .
- (١٦) في عام ١٩٢٠ كان البوليس والطب الشرعي في مصر يتكون من خليط من الضباط البريطانيين والمصريين. ولم تذكر الصحافة المصرية في ذلك الوقت الدكتور سيدنى سميث بالاسم، ربما بسبب المناخ السياسى الغير مؤكد الذى أوجده النضال القومى. لمزيد عن دور سميث فى التحقيقات التى جرت عن ريا وسكينة، انظر: سيدنى سميث Mostly Murder (لندن: جورج هاراب وشركاه المحدودة، ١٩٥٠)، ٧١-٧٣ .
- (١٧) هذه الروايات عن الأحداث، تم الحصول عليها فى المقام الأول من مجموعة مقالات نشرت فى "الأهرام" فى نوفمبر وديسمبر ١٩٢٠، ولكنها كانت واحدة من عدة مقالات نشرت فى مختلف الصحف المصرية فى ذلك الوقت. كانت القصة تبدو مختلفة نوعاً ما فى كل صحيفة، فمثلاً، فى بعض الروايات، أن البوليس فتش منزل ريا قبل أن يفتش المنزل السابق لسكينة. وقد درس لويس عوض مواقف مختلفة لبناء قصته عن التحقيقات. وعلى سبيل المثال، انظر: لويس عوض "أوراق العمر: سنوات التكوين" (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٩)، ١٦١-٢٠٧ .

- (١٨) مدون في سجلات دار الكتب (المكتبة الوطنية المصرية) كذلك، أن كثير من الصحف المصرية التي كانت تصدر في ١٩٢٠ لا يمكن العثور عليها. وعلى أية حال، فبالإضافة إلى الصحف التي اطلعت عليها فعلاً، هناك دليل (مثل المقالات الصحفية العادية التي تنشر في الصحف اليومية) يثبت أن معظم الصحف قامت بتغطية هذه القصة بشكل أو بآخر.
- (١٩) The Women Killers، الأهرام ويكلي، ٤٣٤ (١٧-٢٣ يونيو ١٩٩٩).
- (٢٠) لمثال للصور الصحفية المرتبطة بالقضية، انظر: Twenty Photos of the Horrible Alexandria Crime "الطائف المصورة"، ٢ ديسمبر ١٩٢٠، ٥.
- (٢١) على سبيل المثال، انظر: The Disappearance of Women "البصير"، ٢٠ نوفمبر ١٩٢٠، وRaya and Sakina "البصير"، ٢٧ نوفمبر ١٩٢٠.
- (٢٢) كمثال The Slaughter of Women "الحقائق"، ٢٨ نوفمبر ١٩٢٠، ١، وRaya and Sakina "الحقائق"، ٢٦ ديسمبر ١٩٢٠، ١.
- (٢٣) طبقاً لما ورد في الأهرام ويكلي، فإن الشقيقتين وزوجيهما فتحوا وأداروا على الأقل خمسة بيوت دعارة في منطقة الإسكندرية بمعاونة عرابي حسن. وهو الذي كان يمثل الرجل ذا العضلات لتحصيل المال من الزبون العنيد، وكان مشتبهاً رئيسياً في التحقيقات التي أجريت عن الجريمة مع الشقيقتين وزوجيهما. The Women Killers "الأهرام ويكلي"، ٤٣٤ (١٧-٢٣ يونيو ١٩٩٩).
- (٢٤) لمعرفة المزيد عن الاختلافات بين نساء الحضر والريف في مصر في أوائل القرن العشرين، انظر: عفاف لطفى السيد مارسو Egypt's Liberal Experiment, 1922-1936 (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٧٧)، ٢٢.
- (٢٥) "الامة"، ٢١ نوفمبر ١٩٢٠، ١.
- (٢٦) After the Recent Crimes، "وادي النيل"، ٢٥ نوفمبر ١٩٢٠، ٣.
- (٢٧) لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع، انظر: جى. دى. بنينجتون، "The Copts in Modern Egypt," Middle Eastern Studies 18, no. 2. (إبريل ١٩٩٢)، ١٦١.
- (٢٨) هذه العبارات مقتبسة من مقالة نشرتها سارة الميهي في صحيفة "العفاف". انظر بارون The Women's Awakening، ١١٤-١١٥.
- (٢٩) هؤلاء الضحايا الذين تم التعرف عليهم في الصحافة عادة ما كانوا يعرفوا بأسمائهم بدون لقب. انظر: The Women Killers.
- "الأهرام ويكلي"، ٤٣٤ (١٧-٢٣ يونيو ١٩٩٩).
- (٣٠) Raya and Sakina، الحقائق، ٢٦ ديسمبر ١٩٢٠، ١-٢.
- (٣١) من المثير للاهتمام، أن ما كتب عن الحياة الجنسية لريا وسكينة أنفسهم قليل جداً. فقد وصفن بأنهن قوادات وبالتالي متورطتان في جريمة فجور جنسى، ولكن الصحافة ركزت أكثر على ربط هذه الأحداث بالعواقب المحتملة على سلوك العامة من النساء بشكل عام.

- (٣٢) "الحقائق"، ٢٠ ديسمبر ١٩٢٠ (رقم الصفحة لم يكن مقروءاً في النسخة المحفوظة في أرشيف الصحيفة).
- (٣٣) "الأمة"، ٢١ نوفمبر ١٩٢٠، ١.
- (٣٤) Oh, What an Indignation to Morality، "مصر"، ١١ ديسمبر ١٩٢٠، ٢.
- (٣٥) هذه الجملة المقتبسة تجدها عند مارجو بدران،
- Feminists, Islam, and Nation: Gender and the Making of Modern Egypt.
- (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٥)، ٩٣، لمزيد من المناقشات حول الحجاب، انظر: بدران، ٩٦-٩١.
- (٣٦) Some of our Leaders، "الأمة"، ٢١ نوفمبر ١٩٢٠، ١.
- (٣٧) After the Recent Crimes، "وادي النيل"، ٢٥ نوفمبر ١٩٢٠، ٣.
- (٣٨) Some of our Leaders.
- (٣٩) Twenty Photos of the Horrible Alexandria Crime، "اللطائف المصورة"، ٢ ديسمبر ١٩٢٠، ٥.
- (٤٠) كانت البغايا الأوروبيات يثرن قلقاً بالنسبة لكل من المسؤولين المستعمرين والمسؤولين في أوروبا. فما كان يطلق عليه "تجارة الرقيق الأبيض" كانت في مطلع القرن قضية لها أبعاد بولية. لمعرفة المزيد عن هذه المخاوف والمرتبطة بمصر، والدعارة على الأرض المصرية عامة، انظر بدران: Feminists, Islam, and Nation، ١٩٢-٩٤. انظر أيضاً: بروس دون Sexuality and the Civilizing Process in Modern Egypt (مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة جورج تاون، ١٩٩٦)، ١٥٤-٧٠.
- (٤١) "وادي النيل" ٩ ديسمبر ١٩٢٠ (رقم الصفحة لم يكن مقروءاً في النسخة المحفوظة في أرشيف الصحيفة).
- (٤٢) الفقرة المقتبسة لأبازة مأخوذة من يونان لبيب رزق The Women Killers، "الأهرام ويكلي"، ٤٣٤ (١٧-٢٣ يونيو ١٩٩٩).
- (٤٣) لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع، انظر آيالون، ١٤٤.
- (٤٤) نفس المرجع، ١٤٣.
- (٤٥) "الحقائق"، ٢١ نوفمبر ١٩٢٠ (رقم الصفحة لم يكن مقروءاً في النسخة المحفوظة في أرشيف الصحيفة).
- (٤٦) "وادي النيل"، ١ ديسمبر ١٩٢٠، ٢.
- (٤٧) A Series of Crimes in the Licensed Houses، "وادي النيل"، ٢٨ نوفمبر ١٩٢٠ (رقم الصفحة غير مقروء).
- (٤٨) أعيد حادث قصة حديقة الحيوان عام ١٩٩٩ في مقال نشر في "الأهرام ويكلي"، النسخة الإنجليزية من الأهرام، ويعتمد المقال على القصة الأصلية التي نشرت في الأهرام وقت ارتكاب الجرائم. انظر: The Women Killers، الأهرام ويكلي، رقم ٤٣٤ (١٧-٢٣ يونيو ١٩٩٩). وللأسف فإن نسخ الميكروفيلم لجريدة "البصير" المحفوظة في دار الكتب، غير واضحة، مما يجعل استرجاع بعض النصوص مستحيلاً. وبالتالي أمكنني استخراج منشآت تشير إلى قصة حديقة الحيوان، ولكن ليس النص نفسه.

(٤٩) يبدو أن التغطية الكاملة ظهرت في "الأهرام"، ومن المحتمل أن بعض التقارير التي ظهرت في صحف أخرى (خاصة الصحف التي تصدر خارج القاهرة والإسكندرية) أعادت طباعة التغطية التي قام بها "الأهرام". فليس من الواضح إذا ما كان لكل جريدة مراسل في قاعة المحكمة يدون ملاحظاته أثناء المحاكمة، أو ما إذا كان قد سمح لهم بالحصول أو نسخ وثائق المحاكمة.

(٥٠) اللغة العربية الحديثة هي لغة رسمية على أساس اللغة العربية الفصحى، وتستخدم أساساً في الأدب والصحف، والإذاعة والتلفزيون. وهي ليست اللغة التي يتكلم بها رجل الشارع أو في القرى المصرية أو أى بلد عربى، وبدلاً من ذلك، يتكلم الناس لغة عامية، والتي نلاحظ بشدة في بعض الأحيان اختلافها عن اللغة العربية الفصحى. وكل ما نشر في الصحف والمجلات المصرية في عامى ١٩٢٠ و١٩٢١ كتب باللغة العربية الحديثة، وفي هذه القضية، تم تحويلها سواء في محاضر جلسات المحكمة أو عن طريق محررى الصحف.

(٥١) The Case of the Murdered Women: In Front of the Criminal Court، "وادي النيل" ١١ مايو ١٩٢١، ٢.

(٥٢) The Trial of Raya and Sakina and Their Accomplices، "المقطم" ١١ مايو ١٩٢١، ٣.

(٥٣) نفس المرجع.

(٥٤) على سبيل المثال، نتحدث بدران عن مخاوف كبيرة بخصوص وجود المرضات اللاتي تقتضى مهام وظيفتهن أن يكنَّ موجودات عن قرب مع الأطباء الذكور مما يخلق مناخاً جنسياً غير لائق. انظر بدران، ١٨١.

١٤- ثورة ١٩١٩ والبنية القومية لحياة وأعمال الرواد من الكاتبات

مرفت حاتم

اهتم المؤرخون الذين ناقشوا الأنوار التي لعبتها المرأة خلال ثورة ١٩١٩ بمشاركة النخبة من النساء فى تلك الفترة فى النشاطات الوطنية المختلفة مثل المظاهرات ومقاطعة البضائع الأجنبية ونشر آرائهن السياسية فى الصحف المصرية والبريطانية^(١). وقد قامت هدى شعراوى رئيسة لجنة المرأة فى حزب الوفد وزوجة أحد أعضائه الأساسيين بتنظيم هذه الأنشطة. ويضيف بعض المؤرخين لهذه الرواية الأدوار الأخرى التلقائية التى لعبتها المرأة فى المدن، وأيضاً الطبقة العاملة من النساء الريفيات لدعم الثورة^(٢).

وحتى الآن، لم تتطرق الدراسات إلى ما كتبه مى زيادة عن سيرة ملك حفنى ناصف وعائشة تيمور، تلك المقالات والأحاديث التى قيلت فى المنتديات العامة عام ١٩١٩، ١٩٢٢ على التوالى ثم نشرت بعد ذلك فى "المقتطف" فى عام ١٩٢٠ و١٩٢٣ كنماذج لإنتاج ثقافى وطنى^(٣). وكانت مى زيادة - التى برزت ككاتبة ومتحدثة لها صالونها الخاص الذى تجتمع فيه الشخصيات البارزة من الرجال فى الفترة من ١٩١٣ وما بعدها^(٤) قادرة على توظيف تاريخ المرأة المصرية فى خدمة المناقشات الدائرة حول مفهوم الوطنية الحديثة التى كان يطرحها أعضاء صالونها وتأييدها الثورة. وبصورة أدق، فإن السيرة الذاتية لكل من ملك ناصف وعائشة تيمور والتى كتبت فى بداية ونهاية ثورة ١٩١٩، تمنحنا الفرصة لدراسة تأثير الحركة الوطنية على النساء بصفة

عامة، وعلى مقالات وأحاديث مى زيادة بصفة خاصة من خلال دراستها لحياة كل من هاتين الشخصيتين. وقد سجلت زيادة أن حبها للطبيعة، وتقديرها لفصاحة اللغة العربية فى القرآن ثم ظهور الحركة الوطنية التى كانت استجابة لثورة ١٩١٩ قد أثرت فى كتاباتها، وأضافت أنه لولا الحركة الوطنية لما كانت كتاباتها قد تطورت بالسرعة التى تمت بها^(٥).

وسوف نستهل هذا الفصل بوصف زيادة للمضمون الوطنى الذى ألهمها كتابة هذه السير الذاتية للنساء الأوائل. وبعد ذلك سنشرح كيف أن احتضانها للرؤى المختلفة التى طرحتها كتابات الوطنيين المحدثين أثرت فى عرضها لحياة وأعمال ناصف وتيمور. كما سنشرح أيضاً كيف أن مناقشات زيادة حول الهوية الوطنية لهؤلاء النساء تعرضت لتغيرات منطقية عكست ظهور الحركات النسائية والوطنية. وفى النهاية سوف يناقش هذا الفصل كيف أن كتابات زيادة فشلت فى تقدير مدى مساهمة كتابات وبرامج ناصف وتيمور فى الجدل الوطنى الذى كان سائداً فى وقتها.

ثورة ١٩١٩، ودمج دور المرأة

فى التاريخ الوطنى

حين توفيت ملك حفنى ناصف فى ١٧ أكتوبر عام ١٩١٨ عن عمر يناهز الثانية والثلاثين، رصدت مى زيادة مشاعر الحزن العميق الذى شمل الكثيرين من الرجال والنساء العاديين، مسلمين وأقباطاً، كتاباً أو مناصرين لحقوق المرأة. وكما أشارت حنان خلوصى فى الفصل الحادى عشر، كانت ملك ناصف ناشطة حقوقية معروفة فى الصحافة الوطنية فى العقد الأول من القرن العشرين كما كان لها احترامها وتقديرها من الرجال والنساء على السواء. وبالتالي كانت التعليقات التى تشيد بها وبمساهماتها فى الأعمدة الصحفية كثيرة ومتعددة ولذلك اقترح كثير من الرجال والنساء البارزين إحياء ذكراها، وقد أخذ الرجال المبادرة بإقامة حفل تأبين لها فى اليوم الأربعين بعد وفاتها، تاركين للنساء الاحتفال بذكراها السنوية^(٦). وقد رأس الاحتفال الأول عدلى يكن^(٧)

وزير المعارف فى ذلك الوقت اعترافاً بإنجازاتها التعليمية. فقد كانت من أوائل خريجات المدرسة السنية التى كانت مدرسة البنات العامة الوحيدة فى تلك الفترة، كما أنها أنهت شهادة المعلمات عام ١٩٠٣، وعملت كمدرسة حتى زواجها عام ١٩٠٧ من عبد الستار بك الباسل^(٨).

اهتمت مى زيادة بحفل التآبين الذى أقامه الرجال رغم عدم حضورها، حيث كان احتفالاً خاصاً بالرجال فقط، إلا أنها أولت كثيراً من الاهتمام به أكثر من اهتمامها باحتفال النساء الذى كانت مشاركة فيه. وذكرت أن الاحتفال الأول ضم كلاً من الشخصيات العامة المثقفة المعروفة التى تتمتع بالاحترام والتقدير، إلا أن الأغلبية لم تكن من الجيل الصاعد الذى كان يناصر سفور المرأة، بل كانوا من المحافظين الذين يرتدون "العمم والطرابيش" وينتمون إلى الطبقة الوسطى الجديدة، وذكرت أن واحداً منهم قال: "أيها الرجال... بلغوا النساء أننا نحترم المرأة المثقفة تماماً كما نحترم الرجال العظماء"^(٩). وفى محاولة منها لتفسير هذه المقولة، تُذكر زيادة قراءها أن وفاة الرموز العظيمة يثير الاهتمام فى النفوس، والشعور بالفخر فى القضايا التى كانوا يكافحون من أجلها، واستطردت تقول أيضاً إن تاريخ الحركة النسائية المختلف فى الغرب أو الشرق يفسر هذا الاهتمام الذى أولاه الرجال لملك ناصف:

"حين بدأت المرأة الغربية حركتها النسائية، لم يساندهن سوى عدد قليل من الرجال، فى حين سخرت منهن الأغلبية. وقد انتهت هذه السنوات المؤلمة من الكفاح إلى غير رجعة، وحصدت المرأة دعم ومساندة أغلب الرجال البارزين فى أوروبا وأمريكا. أما هنا، فإن ذكر الحركة النسائية يذكرنا بأن الرجال كانوا هم المؤسسون لها، والذين دعموها، واستمروا فى تغذية أنشطتها، واحتفال الرجال اليوم ببساطة البادية (وهو الاسم الذى كانت ملك ناصف توقع به على مقالاتها بعد زواجها) لأكبر شاهد ودليل على ما أقول"^(١٠).

وفى ضوء قراءة هذا التاريخ للمرأة الغربية والمرأة المصرية، نجد أن المرأة الغربية كان عليها أن تناضل لبناء حركتها وللحصول على تأييد ودعم الرجل، أما المرأة المصرية الشرقية فلم تواجهها هذه الصعوبة، حيث إن الرجال كانوا المؤسسين لهذه الحركة ووفروا لهن دعم الرأى العام. وهذا ما يفسر مسارعة الرجال لإحياء ذكرى ملك ناصف وحضور هذا العدد الكبير من الرجال لتأييدها. ومن الواضح أن وجهة نظر زيادة كانت من منطلق تجربتها الشخصية فقد أصبحت كاتبة بارزة بسبب تأييد القيادات من الرجال فى تلك الفترة لها، وإن كان ذلك لا يبرر بوضوح أسباب حضور الكثيرين من غير المؤيدين لحقوق المرأة هذا الاحتفال.

ونتساءل هنا لماذا كرم الكثيرون من الرجال المحافظين تلك المرأة الكاتبة؟ إن هذه الحقيقة تشير إلى مدى التقدير لها سواء من الرجال المحافظين أو الليبراليين، فقد انتقدت ناصف أسلوب الضغط الذى كان يمارسه الرجال المحدثين لفرض رؤيتهم المجتمعية على المرأة، فى نفس الوقت الذى حاولت فيه أيضاً توسيع دائرة مشاركتها فى المناقشات العامة التى لم تدعمها الشريحة المحافظة، ورغم أنها لم تكن منحازة إلى أى من المعسكرين فإن كل واحد منهم وجد فى أعمالها ما يمكن مساندته. وكان تشكيلها لأجندة مستقلة لها تعكس وجهات نظر المرأة - وليس الرجل - قد ساعدها على إيجاد مساحة مستقلة لها تناقش فيها رؤيتها وحيث يمكن لقطبى المجتمع أن يتلاقيا عند حقوق المرأة. وبالتالي تمكنت من تبوؤ مركز بارز مؤيد من الاثنين.

كان يوم ٢٦ نوفمبر ١٩١٨، وهو يوم الاحتفال بذكرى ملك ناصف، يوضح أيضاً الوحدة النادرة التى جمعت بين المحافظين من الرجال والليبراليين. وقد جاء هذا الاحتفال بعد أن أنهى الوطنيون المصريون اختيار أعضاء الوفد الذى يمثل الشرائح المختلفة والعرقية من المجتمع المصرى لبدء مفاوضات الاستقلال عن بريطانيا العظمى. ولم يكن عدلى يكن وزير المعارف وحده عضواً فى الوفد، بل انضم إليه حمد الباسل باشا الذى كان من أعضاء القبيلة البدوية التى ينتمى إليها زوج ملك ناصف^(١١). ولأن الإنجليز استمروا فى فرض حصارهم على اللقاءات العامة خلال الأيام الأخيرة

من الحرب العالمية الأولى، فقد كان ظهور هذا العدد الكبير من الرجال المحافظين بجانب المناصرين لحقوق المرأة فى الاحتفال بذكرى ناصف، يمثل عرضاً للوحدة الوطنية التى تدعم ناصف وتساند الوفد.

وماذا عن مغزى ما قيل فى الاحتفال "أيها الرجال... بلغ المرأة أننا نجل النساء المثقفات تماماً كما نجل الرجال العظام."؟ إن هذه الكلمات التى طلب فيها المتحدث من الرجال إبلاغ النساء بتقديرهم لملك ناصف تشير إلى الاعتراف بالتفرقة بين الرجال والنساء فى هذا الحدث العام، وإن قائلها يريد التأكيد من إبلاغ النساء بهذه الرسالة التى قد يبدو أنها كانت جزءاً من محاولة التقرب إلى المرأة فى لحظة تاريخية حاسمة بوصفها عضواً فى الأمة. كما أنها تشير فى نفس الوقت إلى عدم المساواة بين الرجل والمرأة، ولكنها تعترف بالمكاسب الجديدة التى حققتها ناصف للمرأة فى المجتمع الحديث وتقدير الرجال للمعرفة التى حصلت عليها وتساوت مع تقديرهم للرجال العظام. وفى حين ما كانت عظمة الرجال تتجاوز مجرد حصولهم على التعليم، كان التقدير للمرأة يتحقق فقط من خلال حصولها على التعليم واكتساب المعرفة. وكان الدور المزدوج لناصر كمدرسة وكاتبة قد أهلها لمكانتها كامرأة مثقفة.

وأخيراً فلم يكن واضحاً مما قالتها من زيادة عما إذا كان مصدر المقولة السابقة رجلاً من المحافظين أو من الليبراليين، ولكنها أشارت إلى عكس ادعاءات ناصف بأن الرجال كانوا يمارسون قهر النساء. فقد كانت ناصف ترتاب فى قيادات صحيفة "الفريدة" الذين كانوا يزعمون أنهم صوت الليبرالية فى مصر وقد خصصوا لها عاموداً فى الصحيفة لتكتب مقالاتها. وأشارت إلى أن "الفريدة" ومحرريها من الرجال كانوا يعمدون إلى فرض آرائهم على النساء، وما يرتدين من أزياء، ونوعية التعليم الذى يتلقونه، ودورهن فى عملية الإصلاح، بل ونوع علاقاتهن بأزواجهن! وأن ذلك ما هو إلا محاولة واضحة لاستمرار فرض وصاية الرجل على المرأة باسم تحريرها^(١٢)، وبالتالي يكون تكريمهم لها محاولة لتبرئة أنفسهم من التهم السابقة، وإثبات أنها كانت مخطئة فى حكمها.

وفى استجابة لمشاعر الناس تجاه ملك ناصف، طلب يعقوب صروف - وكان يملك المجلة السورية "المقتطف" التي كانت تطبع فى مصر - من مى زيادة أن تكتب مقالة تلخص فيها وجهة نظر ملك ناصف فى قضايا عدة^(١٣). وفى استغلاله لهذه المشاعر استعمل صروف حقه كمالك للجريدة يختار الموضوعات التى تجذب القراء وتزيد من توزيع جريدته. ففى تلك اللحظات التاريخية انصب اهتمام القراء من الرجال على ملك ناصف وآرائها، وقد نجحت سلسلة مقالات مى زيادة فعلاً فى إرضاء هذه الطلب، مما دفع صروف إلى اتخاذ قرار بتجميع هذه المقالات فى صورة كتاب لتوقعه المزيد من الاهتمام بها عند عقد الاحتفال الثانى بذكرها الذى نظمته النساء بعد ذلك بعام.

وقد ناقش بنديكت أندرسون أهمية الدور الذى لعبته الكلمة المطبوعة عن النظام الرأسمالى فى رسم صورة للمجتمعات الوطنية الحديثة والتى انطلقت مفاهيمها وأساليب تطبيقها من خلال جماعات أخوية متساوية فى الرؤى^(١٤). ثم يتساءل كيف يمكن فى هذه الحالة التوفيق بين طبيعة الجماعات الأخوية الوطنية مع الاهتمام بحقوق المرأة فى القضية المصرية؟ ويوفر التاريخ فى العقدين الأولين من القرن الثامن عشر رداً مثيراً على هذا السؤال، ففى خلال تلك الفترة كان الاتجاه السائد فى الصحف والمجلات مثل صحيفة "الفريدة" المصرية و"المقتطف" السورية إلى جانب بعض المجلات النسائية الصادرة فى ذلك الوقت - هو استخدام دور المرأة وحقوقها فى تحريك المجتمع لمناقشة مميزات المجتمع الوطنى الحديث ومقارنته بالمجتمع السابق. وفى حين ما كانت الجرائد النسائية تعتمد على النساء سواء فى محرريها وقرائها واللائى كن يشكلن نسبة ضئيلة من القراء بصفة عامة - للتأثير فى الحوار حول التحولات التى طرأت على دور المرأة فى الأسرة والحياة العامة^(١٥)، كانت صحيفة الفريدة والمقتطف وهما من الصحف والمجلات التى كانت نادراً ما تستخدم الكاتبات من النساء، توجه مقالاتها إلى القارئ الرجل ليشارك فى الجدل الواسع حول الحداثة والوطنية، مستخدمين حقوق المرأة كمقياس لتطور ونمو الظاهرتين. وحتى اللحظة التى التحقت فيها ملك ناصف بمجلة الفريدة كواحدة من كتابها - كان النوع (ذكر/أنثى) مجال نقاش نوعى

فى صحف تلك الفترة وهو نقاش كان قاصراً على الرجال وعلى وجهة نظرهم تجاه المرأة. ففى مرحلة ما قبل الحداثة لم تجر العادة فى المجتمع على مناقشة موضوع المرأة علانية حيث كانت تعتبر كائناً له خصوصيته وتنتمى فقط إلى عائلتها. ولكن فى ضوء إقحام المرأة فى مناقشات عامة، أكد الرجال حقوقهم عليها ليس بسبب أية علاقة قربى ولكن من منطلق أنهم رجال وأعضاء فى جماعة ذكورية. وكان أول الحقوق التى يمارسها الرجل فى المجتمع الاستعماري الحديث هو حق الرقابة على مناقشة التفاصيل الدقيقة التى تخص المرأة (مثل علاقتها بأولادها وزوجها، وأسلوب إدارتها لبيتها). كما وأن آراءهم فى دور المرأة النسائي كان علامة بارزة فى تحديد التقسيمات الأيديولوجية الواسعة التى تميز بها المجتمع الإسلامى الجديد الحديث.

حين بدأت ناصف فى الكتابة فى مجلة "الفريدة"، استخدمت وضعها المميز كخريجة من مدرسة السنية، كمدرسة متدربة لتحدى هذا الجدل بكل ما فيه من التمييز الذكوري الذى افترض أن النساء لسن مؤهلات بعد للحدث عن أنفسهن، أو التعبير عن أوضاع تتحدى هذه الممارسة الجديدة لسلطة الرجل. ومن خلال هذا المنبر الحديث بدأت فى انتقاد مفهوم الحداثة، وكيف أن أسلوب المناذاة بها من قبل الرجال المصريين قد قلل من شأن المرأة وألقى عليها اللوم فيما يخص محن المجتمع المصرى^(١٦). وفى نفس السياق وبنفس الأهمية ناقشت كون هذا الحوار الذكوري الواسع حول تحرير المرأة يكشف عن انعدام الفوارق بين مجتمعات ما قبل الحداثة، والمجتمع الحديث. وفيما يلى أحد أبلغ المقالات فى هذا الخصوص:

"يجب أن يترك الرجال لنا الحرية لنتفحص آراءهم ونختار منها ما هو أكثر اقتراباً من المنطق. إذ لا يجب على الرجل أن يتخذ اتجاهًا مستبدًا تجاه تحريرنا مثلاً فعل بالنسبة لاستعبادنا. نحن لا نخشى الهواء والشمس قدر خشيتنا من عينيه ولسانه. فلو وعدنا بأن يغض بصره كما أمره ديننا، وأن يمسك لسانه كما تتطلبه الأخلاق الحميدة، فيمكننا فى هذه الحالة أن نتدبر شئونه وشئوننا"^(١٧).

ساهم هذا الجدل الذكوري الجديد فى إثارة كم هائل من آراء الرجال فى المرأة، واقترحت ناصف أن تقوم المرأة بتجميع هذه الآراء، واختيار ما يتفق منها والمنطق. حيث إنه فى مضمونه الجديد ما هو إلا جانب من الاستبداد القديم الذى كان يمارسه الرجل. وفى نصيححتها إلى الرجل بغض بصره وكف لسانه عنها كانت تهدف إلى إعطاء الحرية للمرأة لمناقشة هذه الأمور المهمة.

باحثة البادية، وآراء مى زيادة فى

حوار الوطنيين الجدد من الرجال

بعد استجابتها ليعقوب صروف بكتابة سلسلة من المقالات عن ملك حفنى ناصف فى "المقتطف"، استخدمتها مى زيادة لتضيف إلى نشاطها بعداً آخر وهو كونها ناشطة فى مجال حقوق المرأة، وهذا ما يفسر لماذا ضمنت المساحة التى خصصتها لسيرة ملك ناصف بعنوان باحثة البادية (وهو الاسم الذى اتخذته ناصف بعد زواجها من شخصية بارزة من أسرة بدوية، وانتقالها معه للعيش فى صحراء الفيوم) مساحة مماثلة لآرائها حول حقوق المرأة ولأنها كانت مهاجرة من سوريا، وأرادت أن تندمج فى محيط البيئة الأدبية المصرية، انتقدت زيادة بشدة آراء ناصف الاستقلالية لتؤكد بذلك إعادة وصاية الرجل وتسييد مناقشاته وآرائه.

كان أول نقد أدبى لهذا التشوش فى ترجمة حياة ملك حفنى هو ما كتبه هدى، السيدة التى لاحظت أن الخط الفاصل بين شخصية المؤلفة وكتابات غائماً مما يصعب معه تصنيف كتابتها. وتفسر كلماتها التالية جوهر هذه المشكلة:

"إنها ترجمة لحياة ملك، ولكنها سيرة ذاتية عن مى نفسها، فالقارئ يدرك أنه توجد رابطة قوية بين الكاتبتين وآرائهما، فحين تصف مى زيادة ملك حفنى ناصف أو تناقش أفكارها فهى تتعامل مع شخص أو شىء قريب منها، ومع ذلك فلا يوجد أى هوية تجمع بينهما... فسوف نلاحظ أن مى حين تناقش أفكار ملك فهى تنتقدها وتقدم

اقتراحات بديلة تؤدي إلى طرق أبواب أخرى، وهي تفعل ذلك بطريقة توحى بأنها تبحث عن فرصة تعبر فيها عن آرائها هي سواء بالموافقة على ما تقوله ملك أو بمعارضتها. وكما ذكرت سابقاً فإن مى تعترف بأنها لم تكن موضوعية فى كتاباتها عن ملك، فمع كل فقرة كتبتها عنها، كانت توجد فقرة أخرى عن مى^(١٨).

ويشير هذا الوصف إلى أن زيادة استخدمت استراتيجيات روائية فى ترجمتها لسيرة ملك والتي كانت حياتها وأعمالها جزءاً فقط من مضمونه فتقول بأنه رغم أن المؤلفة وموضوع كتابتها كانتا صديقتين وكاتبتين فإن الهوية المشتركة بينهما كانت مفقودة. فقد كان الصوت الأنثوي فى زيادة هو صوت المرأة القبطية المصرية القادمة من الشام التى تحس تهديداً لها من صوت ملك المصرى الإسلامى، وبالتالي فقد فضلت أن تنحاز إلى النقاش الذكوري السائد فى تلك الفترة حول قضايا النوع بنبرته الشرقية العالية. فالقارئ فى تلك الفترة وأيضاً القارئ الحالى لسيرة ملك ناصف التى كتبتها مى زيادة عام ١٩١٩ يشعر بتضامنها النسائي ليس مع الحركة النسائية - ولكن مع النقاش الوطنى الحديث آنذاك، ومع نظرة أكثر دقة يكشف اتجاهين واضحين فى تناولها لاهتمام المرأة بالنوع (ذكر/أنثى) فى تلك الفترة، وعلاقتها بالرجل.

وتقسم زيادة كتابها عن ملك ناصف إلى ستة فصول، يتناول كل فصل منها جانباً من هوية الكاتبة المعقدة التى صاغتها حقيقة كونها امرأة، ومسلمة، ومصرية، وكاتبة، وناقدة وإصلاحية. ويركز الفصل الأول على ناصف كامرأة تتمتع "بكاريزما" خاصة وذات صفات تشارك فيها النساء الأخريات بالإضافة إلى صفات أخرى تتميز بها وحدها. فمثلاً كانت لها جاذبيتها الشخصية التى تميزها عن الأخريات، ولكن مثلهن كانت امرأة عاطفية لبقة تهتم بالتفاصيل، وتتفاعل مع الآخرين وتتواعم معهم. وتفترض زيادة أيضاً أن ملك كانت بداخلها مشاعر من الإحباط تجعل إحساسها أعمق بالأشياء وتميل بها كثيراً نحو مشاعر الحزن^(١٩).

وفى هذه الفصل تعطى زيادة مساحة واسعة لآراء ناصف حول تعدد الزوجات، وفى حين ما أشارت خلوصى فى هذا الكتاب إلى وجهة نظر ناصف فى تلك القضية

داخل المضمون الواسع لاتجاهات الدولة لمنظومة الزواج، إلا أننا نلاحظ أن زيادة تبنت وجهة نظر مسيحية حتى تتعاطف مع أحزان المرأة المسلمة التي كان تعدد الزوجات جزءاً أصيلاً فيه فتقول "نحن النساء القبطيات اللأى اعتدن أن تكون أمهاتنا هن سيدات البيت الدائمات، وآلهته بلا منازع لا نستطيع أن نستوعب فكرة أن مجموعة كبيرة من إخوتنا يعيش مأساة تحت تهديد مستمر، كما لا نستطيع فهم ما يتعرضن له من إذلال... أو مهانة"^(٢٠). وبمعنى آخر فإن التقليل من قدر المرأة في المجتمعات الإسلامية والعربية كانت مشكلة تواجهها المرأة المسلمة وليست المسيحية. وكان الصمت الذي تواجه به زيادة مشاكل المرأة المسيحية يدعم موقفها المتميز في مواجهة المرأة المسلمة.

وبعد ذلك وجهت زيادة اهتمامها إلى الهوية الإسلامية ملك. فتقول إن ناصف كانت عاشقة لدينها، محبة له وفخورة به فهي "مسلمة قبل أى شىء آخر." وكدليل على ذلك ما كان مشهوداً لها من تقوى بين شقيقاتها المسلمات. وقد أثر الإسلام في اتجاهاتها ومناقشاتهما للقضايا المختلفة سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو أخلاقية كما أنه احتل مكانة كبيرة في أجندتها الإصلاحية، ولذلك نادت بضرورة تعليم المرأة المسلمة مبادئ الإسلام الذى يشمل فهم القرآن والتقاليد الإسلامية بالإضافة إلى السماح لهن بالصلاة فى المساجد حتى يتسنى لهن الاستماع إلى الخطب الدينية، وأن يكن جزءاً من الحياة والاحتفالات الدينية فى المجتمع^(٢١).

وتفسر زيادة هذا التدين من قبل ناصف بأنه كان السبب فى صرامة وجهة نظرها غير العادلة فى المدارس التبشيرية وخاصة التى تديرها الراهبات، ولأنها كانت نفسها خريجة إحدى المدارس التبشيرية فقد دافعت عنهم ضد انتقاد ملك لهم الذى أشار إلى أن التعليم فى تلك المدارس يعتمد على الاستظهار دون فهم أكثر من تعليم التلاميذ القدرة على الفهم، وكان قاصراً على تعريفهم بتاريخ البلاد الأخرى وليس ببلدهم، كما ركز أيضاً على اللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية، بالإضافة إلى اعتناق مفهوم ضيق للألوثة يعتمد على تعلم عزف البيانو والتحدث بلغة أجنبية. كما كانوا يعلمونهن التعالى على الآخرين مما يعنى أن سلوكهن لم يكن لائقاً، إلى جانب تبذيرهن فى مظاهر كاذبة تستهدف التباهى والتفاخر والاستعراض^(٢٢).

وفى رد فعل لهذا الانتقاد قالت زيادة إن هذه المشكلات لا تختص بها المدارس التبشيرية وربما تعكس أكثر مساوئ التلميذات وليس المدارس. وبصفتها واحدة من خريجات تلك المدارس فهي تؤكد بأنها تركز على المبادئ العالية والتدين. أما فيما يتعلق بتدريسهن التاريخ الإسلامى والشرقى فإن هذا هو واجب الأسرة! وفى شأن اللغة الأجنبية فهو سلاح يعطى أبناء الشرق القدرة على التعايش مع "العالم الشرقى والغربى على السواء" (٢٣).

وبعد هذا الحوار مباشرة اتهمت زيادة ملك ناصف بالتعصب فكتبت تقول: "سوف ترى مجموعة ما أن باحثة البادية شخصية متعصبة، وهذا مما لا شك فيه ولكن كيف يمكن لنا أن ننكر هذا التعصب؟ أليس هو أقرب المشاعر إلى النفس؟" (٢٤) وكان ذلك أكبر خداع فى تفسير رؤية ناصف للمدارس التبشيرية. فلم تكن مهاجمة ناصف لهم من منطلق توجهاتهم الدينية، ولكن لأسباب وطنية: فقد تجاهلوا تدريس لغة وتاريخ المجتمع الذى يعيشون ويعملون فيه، وفرضوا على نسائه أدواراً ثقافية محددة (٢٥). ومع ذلك فإن زيادة اعتبرت نقد ناصف لها بجانب تفاخرها بدينها تعبيراً عن التعصب. وإن كان من الصعب تخيل أن مسلمين آخرين يعتبرون آراء ملك فى تحيزها للإسلام نوعاً من التعصب فالأعضاء من الأقليات الدينية هى التى كان يمكنها أن تقتنع بهذه الفكرة. ومع ذلك فلم تشر زيادة صراحة إلى أن هذه وجهة نظر مسيحية، ولكنها اختارت أن تفسر التعصب بأنه غريزة إنسانية يشعر بها الجميع. وكان استخدام هذا الهجوم الشديد على ملك ناصف الذى كانت تخفقه أحياناً قد أصبح استراتيجية ثابتة استخدمتها زيادة فى كثير من فصول كتابها. ورغم أنها كانت تغذى الإحساس ب صداقتها مع ناصف وتحالفها معها فى نفس الصراع، فإنها لم تظهر تعاطفها معها. ويشير العنوان الفرعى للكتاب "باحثة البادية: دراسة نقدية" إلى أنه دراسة نقدية للمؤلفة فى حين أنه فى الواقع كان هجوماً شرساً للمؤلفة.

وفى الفصل الذى خصصته زيادة لملك بصفتها امرأة مصرية، أكدت إحساس الدعابة لديها، ودمائتها، وسهولة تعبيراتها الأنيقة واعتزازها بوطنيتها كمكونات لشخصيتها المصرية. وسواء كانت تناقش الإسلام أو الشرق فإن وطنية ناصف المصرية

كانت دائماً تطفو على السطح. كما أنها ناشدت كل الكتاب تطوير حضارة "خاصة بالشرق تتواءم مع غرائزه، وعاداته دون أن تقوض من استفادته من مساهمات التحديث"^(٢٦).
وحين تعود إلى مناقشة قضايا المرأة فهي تنحى جانباً الدول الشرقية والإسلامية كإطار مرجعي وتركز على النساء المصريات ومشكلاتهن. وأخيراً فهي تعلن - دون اعتذار - عن ولعها بكل ما هو مصري بما فيه اللون الداكن الجذاب لمعظم المصريين وأيضاً تاريخهم القديم.

وفى نهاية هذه الفصل تعرف زيادة نفسها بأنها مواطنة مصرية عضو في المجتمع المصري الوطنى - وتتوافق تماماً مع مفهوم "مصرية" وادى النيل كما ناقشها محمد حسين هيكل وآخرون فى العقود الأولى من القرن العشرين^(٢٧). وفيما يلي وصف تجريدى لوطنها وكيف حددت علاقتها بمصر:

"من ضمن الطبقات الاجتماعية المختلفة، لا يوجد ما يلهم الحماس أكثر من ذكر اسم الوطن الذى ينتمى إليه الفرد فهو خلاصة وجوده، يمثل عائلته وأحباءه، المكان الذى شهد ضحكاته وبكائه، المكان الذى يضم قبور أجداده... فهو رمز الميراث الكلى له، الأثرى والتاريخى والأخلاقى والعلمى والواقعى، فهو يحتضن خبرة الشخص اليومية بطلوع الفجر الجميل، وغروب الشمس الذى يكتنفه الجلال والمهابة".

"نحن الذين يحبون مصر نميز جمالها الطبيعى، وعظمتها التاريخية وأثارها القديمة، ولطف شبابها من الرجال والنساء. ونحن ندرك أن مصر الحقيقية الأصيلة هى تلك التى سارت بكل كبرياء وراء أعلامه المرفرفة... إنهم هؤلاء الشباب الطامحين إلى التطور، وتلك هى الأمة التى تتذكر يوماً أن طريق التقدم ليس هو الملىء بالقلقل والدمار والخراب بل هو الذى يمتلئ بالهدوء والعمل والفكر".

"إن مصر هى المرأة المصرية التى أظهرت لنا هذه الأيام أنها تمتلك كل ما كنا نأمل فيه... ما أجمل مشاهدة ابتسامات هؤلاء النساء من خلف براقعهن البيضاء خلال المظاهرات... وما أشد الفرحة التى أحسستنا بها ونحن نرى العلم المصرى الذى يحتضن الهلال والصليب، وما أجمل أن نستمتع إلى الأصوات الشجية المنخفضة التى كانت تغنى النشيد الوطنى".

"دع باحثة البادية ترقد فى أمان وسلام، فإخوتها لدين نفس الاستعداد الوطنى... أنا أحيى مصريتها وأحيى كل مصرية. وأختم هذا الفصل بالهتاف: تحيا مصر" (٢٨).

والى جانب الأبعاد العاطفية / الشخصية التى وحدت الوطن مع الأسرة والأحباب والأجداد، فإن زيادة تسترجع الذاكرة الجماعية التى تشترك مع الآخرين والتى صاغها التاريخ والآثار (٢٩) والأخلاقيات. بالإضافة إلى رموز وطنية مهمة أخرى مثل العلم والنشيد الوطنى الذى يتضمن محتوى عاطفياً. وفى خلال ثورة ١٩١٩ الوطنية كانت مصر تمثل من خلال رجالها ونسائها الذين خرجوا فى المظاهرات يحملون الأعلام التى تحتضن الهلال والصليب ورغم أن زيادة كانت تؤيد هذه المظاهرات فإنها كانت تشعر بالخطر خوفاً من التدمير والخراب الذى ينتج عن الاحتجاجات والمحتجين، مفضلة النظام والفكر والعمل كوسائل للتعبير الوطنى. وفى مقالاتها الطويلة التى بدأتها بالاعتراف بمصر كوطنها بالتبنى الذى يؤيها وعائلتها تنتهى بالهتاف الوطنى لمصر.

بعد ذلك انتقلت مى زيادة إلى وصف براعة ملك ناصف فى الكتابة، فتستهل كلامها بالاعتراف بها ككاتبة تتميز ببراعة استخدام اللغة كأداة لجمال ورشاقة التعبير، ولكنها على الوجه الآخر وبصورة متناقضة تنتقد كتاباتها لعدم قدرتها على الولوج داخل النفس، وأنها تنقصها الروح (٣٠). ويتناقض الرأيان بما أوردته سابقاً من قدرة ملك على التعاطف والتفاعل مع مشاعر الآخرين وتدينها.

وفى حين ما تعترف زيادة بدور ملك ناصف كناقدة اجتماعية، إلا أنها تقول إنها كانت تنزع إلى الانتقاد بطبيعتها، وإنه كانت لها القدرة على صقل قدراتها النقدية من خلال تعليمها والتجارب المؤلمة التى مرت بها، وسهولة وصولها إلى الشرائح المختلفة فى المجتمع. فهى تنتمى إلى الطبقة العليا من خلال والدها وزوجها، إلا أنها أثناء دراستها كانت لها صداقات مع زميلات من الطبقة الوسطى. وبعد زواجها انتقلت إلى الفيوم حيث سهل لها الوصول إلى عالم البدو والريفيات. ومن خلالهم تمكنت من التعرف على الدور الذى تلعبه طبقات المجتمع فى التمييز بين تجارب وخبرات المرأة بالإضافة إلى بعض مصادر الاختلال الوظيفى الاجتماعى والتى اشتركن فيها (٣١).

فمثلاً كان اعتراض ناصف على سفور المرأة نابغاً من إدراكها أن تعليم المرأة ما زال قاصراً، وأن الرجال والنساء على حد سواء لم يكونوا مؤهلين تماماً لهذا التحول الاجتماعي الذي ينمى جانباً العزلة بينهما. وفي رصدها للأسلوب الذي عبر عنه المجتمع المصري في التقليل من شأن المرأة وقيمتها منذ طفولتها وحتى سن البلوغ، فتحت الأبواب لنقد العائلة المصرية وخاصة فيما تتعرض له المرأة من ألم جراء تعدد الزوجات.

وفي نهاية هذا الفصل تقرر زيادة بعجزها لأنها - وهي مسيحية - لم تستطع أن تشخص الأمراض الغريبة الناتجة عن تعدد الزوجات "لأن هذه الأمراض كانت غائبة في أهلها، ورغم أن مشاعرها الأنثوية تستطيع أن تتفهمهم فإنها ظلت حقائق بعيدة عنها." كما وأنها تشعر بالحزن لأن - الأسرة وهي مصدر ومستودع السعادة - أصبحت مستنقعة للكوارث والأحزان^(٣٢). ومع ذلك فقد ظلت صامتة تجاه المشكلات التي تواجه النساء المسيحيات في أسرهن.

وفي النهاية تحتفظ زيادة بأقصى نقد لملك كمصلحة اجتماعية. فهي تذكر القارئ بما قالته عنها في فصل سابق "هي لا تعطي القارئ أجنحة يستطيع التحليق بها، ولا توفر له الخيال الكافي ليرتفع فوق جبال الأوليمب... فهي لا تهتم إلا بالمشاعر الواضحة التي تشترك فيها الجماعات... وهي دائماً قابضة داخل نطاق بيئتها تحمق في مظاهر الحزن والأسى وعيونها ممتلئة بالدموع ثم تخاطبهم فقط بألفاظ ملتهبة..."^(٣٣). وبعد مراجعة برنامج ملك ناصف فيما يتعلق بالقوانين والتي تقترح فيها فتح المجال أمام المرأة في جميع مستويات التعليم بما فيها الطب ونادت بالمزيد من تعليم الدين للمرأة، بالإضافة إلى أنها ناصرت قضية الحجاب طبقاً للمبادئ الإسلامية، كما طالبت بفترة خطوبة قبل الزواج وأيضاً تعدد الزوجات في حالات استثنائية. وتقول زيادة "أسفة يا سيدتي، فكل هذه المقترحات سيق أن نوقشت في سوريا"^(٣٤). ورغم أن مقترحات ناصف تجاوزت الإصلاحات المحدودة التي نادى بها قاسم أمين والتي اعتبرتها زيادة برنامج عمل لتحرير المرأة، فإنها لم تكن على استعداد للاعتراف بأهميتها أو بجديتها.

وكان تعليق مى أنها لم تأت بجديد حيث سيق مناقشتها فى سوريا وتتجاهل بذلك كيف أن ملك وسعت من حدود الجدل فى المضمون المصرى. وبذلك لم يكن نقدها أكثر من تأكيد حافة التنافس بين المجتمع السورى فى الشام والمجتمع فى مصر فى مجال النوع (ذكر/أنثى) دون مناقشة طبيعة الجدل الذى دار فى سوريا وحتى تؤكد هذه النقطة تقول فى نقدها للبرنامج الإصلاحى الذى دعت إليه ملك ناصف:

"وأنا أنهى هذا الكتاب "النسائيات"، تثار علامة استفهام كبيرة. أنا لا أدري كيف لم تركز ملك ناصف على اهتمام المرأة بالنساء الفقيرات، وأهمية تشكيل مجتمع يستهدف خير المرأة المسلمة؟ لقد كنت دائماً أشعر بالصدمة حيال تلك المؤسسات الخيرية التى تنظمها المرأة من كل الجماعات العرقية والدينية فيما عدا النساء المسلمات رغم أنهن يمثلن أكثر الجماعات ثراءً وكرماً. ولأنهن كن يمثلن الأغلبية، كان عدد المحتاجات منهن كبيراً أيضاً".

"إن المرأة تنجذب بطبيعتها إلى الأنشطة الخيرية ولذلك لا أفهم لماذا لم تشكل المرأة المسلمة جمعية خيرية خاصة بها. وفيما عدا ذلك، هل يعترض أحد على جدوى الإصلاحات التى تنادى بها ناصف؟ إن برنامج الإصلاح القاصر الذى عرضته يؤكد شيئين: الأول فتح جميع أبواب التعليم أمام المرأة، والثانى هو توافق كل الإصلاحات مع تعاليم الإسلام والعادات الوطنية. ومن الواضح أن تعصبها فى هذه النقطة دفع البعض إلى التعليق بأنها لا تحتاج إلا إلى "عمة" (وهى غطاء الرأس الذى يرتديه علماء الدين) لتصبح "شيخة". أما أنا فأميل إلى النظرة إلى آرائها بشكل إيجابى حيث إنها سوف تؤكد لأشد المحافظين صرامة محاسن وجدوى التغيير."

ويبدو واضحاً من الفقرة السابقة أن مى تشير إلى أن المرأة المسلمة يقع عليها الكثير من اللوم لأنها تختلف عن المجتمعات الأخرى فى فعل الخير. واستخدمت هذا الانتقاد العام أيضاً بالنسبة لأجندة ملك الإصلاحية التى وصفتها - ليست فقط بأنها ينقصها الخيال - ولكن الاهتمام أيضاً. وكأن ذلك لم يكن كافياً فقد اتهمتها بأن توجهها نحو الإصلاح كان ثانوياً وقاصراً حيث إن تركيزها على التعليم كان أساسياً

إلا أنه تميز بتعصب واضح للمبادئ الإسلامية. وفي محاولة منها للتخفيف من حدة نقدها، انتهت زيادة إلى أن تعصبها الديني كان له فائدته السياسية حيث فتح مجال الحوار للتغيرات الاجتماعية المقترحة.

وفي نهاية هذا الفصل تشير زيادة إلى الحجاب كعلامة بارزة على قهر المرأة المسلمة، وقياس لمحدودية برنامج الإصلاح الذي أتت به ملك ناصف. فالحجاب فصل المرأة المسلمة عن عالم العمل، وسمح لوكيلها أو الوصى عليها أو حراسها أن يستغلوها اقتصادياً، وهنا تقحم رأيها بأن أفكارها بالنسبة لهذا الموضوع لا طائل من ورائها لأنها قضية إسلامية. ومن المثير للاهتمام هنا أنها بدأت في نشر آرائها في هذا الشأن في مقالة بعنوان "المسلمون اليوم" في جريدة "البروجريه" المصرية، ضمنيتها حواراً بينها وبين ملك عن هذا الموضوع، ثم تحدثت في تلك المقالة وجهة نظر ملك في أن الحجاب سوف يمزق يوماً ما ولكنه في الوقت الحاضر كان ضرورياً لحماية بعض النساء اللاتي لم يكن على استعداد بعد لهذه النقلة الدرامية إلى مجتمع يضع حداً للعزل النوعي (ذكور/إناث). فلم يكن الحجاب في رأي ناصف مجرد رمز أو قطعة من القماش، ولكنه كان مرتبطاً بفهم جديد للحرية يمكن للأم أن تنقله إلى أطفالها. وفي استجابة لهذه الكلمات قالت زيادة إن الفوضى الاجتماعية قصيرة المدى هي ثمن بخس لإلغاء هذا الرمز تمهيداً لنوع من الاعتدال طويل المدى^(٣٥).

وتنتهي زيادة هذه السيرة بتخصيص الفصل الثامن والتاسع لأعمال قاسم أمين الذي وفر الحوار الوطني الحديث الذي انتقدته ناصف. وجاءت عناوين الفصلين كالآتي: "المقارنة بين قاسم أمين والباحثة". واستهلكت الفصل الأول بمقولة للدكتور شيبلى شميل^(٣٦) يؤكد المسار الذي سوف تنتهجه في هذه المقارنة. وقرر شميل في البداية بأن ناصف ساهمت مثل قاسم أمين في نقدها للمشكلات التي تواجه الأسرة، وتركيزها على أهمية التعليم بالنسبة للمرأة، ولكنه أضاف "أنها - مع ذلك - لم تتوسع في مطالبتها بتحرير المرأة لأنها لم تطالب بإلغاء كامل للحجاب رغم أن البعض اعتبر ذلك رأياً صائباً"^(٣٧).

ومثلما قال شميل أكدت زيادة أن أعمال قاسم أمين ترتبط بأعمال ملك ناصف وآخرين كثيرين، أيضاً وأنها لهذا السبب فقد قررت أن تخصص الفصلين الأخيرين لأعمال أمين. ورغم أن مى استشهدت بقصيدة كتبها ملك ناصف أنكرت فيها تبعيتها لأمين أو/و اتجاهاته... فإنها تقلل من موقف ملك فى الفقرة التالية:

"إن أفكار ملك ناصف تشير إلى أنها لم تكن منصفة لقاسم أمين وأنا لا أجرؤ على القول بأنها لم تفهمه... فكيف لى أن أفعل ذلك؟ ولكنى أعتقد أنه أثر فيها كثيراً، فهي لم تمسك بالقلم إلا بإلهام منه حيث إنه مهد الطريق أمامها وأعد الناس لاستقبال ما سوف تقوله. ولقد تعرضت هى لبعض قضايا معينة حاولت أن تصلح منهم بنفس الطريقة التى وضع هو خطوطها. فكيف يمكن إذن لامرأة رفيعة الثقافة ألا تتأثر بكتابات كانت الأولى من نوعها من شخص استهدف صالح المرأة وخير الأمة؟ ولذلك فأنا أريد أن أعلن أنها ابتته بشجاعته وثقافتها وهى تلميذته حين تطالب بإصلاح أوضاع المرأة. وهذا لا يعنى عدم وجود بعض الاختلافات الطفيفة بينهما"^(٣٨).

وهنا نجد أن زيادة تمارس نفس الاستراتيجية التى تستخدمها فى كتابها، فهى توجه التهم لملك ناصف ثم تحاول أن تخفف من حدتها. فذكرت بأن ناصف لم تكن عادلة مع قاسم أمين بل ولم تفهمه ثم تخفف من هجومها بقولها إن أعماله كان لها تأثيرها فى ملك، وأن أفكاره مهدت الطريق للناس للتجاوب مع آرائها. كما تصفها أيضاً بأنها واحدة من أتباعه لأنها سلكت الطريق الذى خطط له وأن الفوارق بين أفكارهما طفيفة.

ويعبر الفصلان اللذان كتبتهما زيادة عن قاسم أمين وأعماله عن نظرة رومانسية لهذا الكاتب الذى توفى عام ١٩٠٨ بالإضافة إلى احترامها له. ووفقاً لقراءتها لأعماله، تصفه زيادة كرجل دمث الأخلاق وإن كان يتميز بشيء من العصبية فى شخصيته، وإنه كان مأخوذاً دائماً بقضية العدالة، والحقيقة، والعدل، والطيبة والإصلاح. وكان دوره كقاض قد جعله متمكناً ومتزناً وأحسن مدافع عن المرأة^(٣٩). ولم تلق زيادة بالاً إلى

حقيقة ما ارتآه من استخدامه للصدّاقة النموذجية بين الرجال ليبرز عدم تكامل العلاقة بين الرجل والمرأة فى الأسرة. وتقول بأنّه "عرف المرأة لأنّه عرف الرجل وكانت معرفته بالاثنتين متأصلة فى جذور الطبيعة الإنسانية"^(٤٠). وتستشهد بقوله "كلّما حاولت أن أتخيل معنى السعادة أجدها تتجسد فى شكل امرأة تملك جمال جنسها وعقلية الرجل"^(٤١) وفى حين ما تقبلت مى فكرة أن معرفة أمين بطبيعة المرأة كانت نتاج معرفته بطبيعة الرجل، وأن تعريفه للنموذج المثالى للمرأة هى المرأة بطبيعتها الأنثوية وعقلية الرجل، عارضت ناصف الرأيين. فقد أشارت إلى أن هذا النموذج هو وسيلة جديدة للتحكم فى المرأة: فهو تثبيت لاحتياجات الرجل، وبصورة أقوى تشجيع المرأة على رؤية ذاتها من خلال عيون وعقلية الرجل.

وفى مجال مقارنتها بين مقترحات ملك فى الإصلاحات ورأى قاسم أمين نجد أن كفة قاسم أمين ترجح أكثر فملك تواجه الإصلاح كامرأة ترفض التخلّى عن الماضى، فى حين أن قاسم أمين يواجهه كرجل يتطلع إلى الأمام. وكانت هى أكثر تحفظاً فمع كل خطوة تخطوها إلى الأمام كانت تنظر إلى الوراء وكانت تؤكد على التغييرات التى تتوافق مع بيئتها الثقافية. وعلى الجانب الآخر كان هو واثقاً من نفسه، وقادراً على أن ينفخ عن كتفيه أثقال الماضى والاختلاف الذى يفرق بين الشعوب فنجحت تعبيراته الوطنية المألوفة ومناقشاته الذكورية العصرية فى أن يكون لها الكلمة الأخيرة فى الحوار حول آراء ناصف. وقد انحازت زيادة إلى آراء أمين فى توجيهها إلى الحركة النسائية المصرية حيث قالت عنها إنها تأسست من الرجال. ومهما كانت مبرراتها فى تلك المقولة فقد سُمحت خاتمة سيرتها عن ملك ناصف لقاسم أمين، هذا الرجل العظيم الذى ناصر قضية المرأة المصرية، فى إلقاء ظلال على رؤيتها النقدية ونجاحها فى تقديم برنامج يتمحور حول المرأة. وقد تحدّى المثقفون فى الفترة الأخيرة النظرة الشاملة إلى قاسم أمين بصفته محرر المرأة وأعطوا ملك حفىنى تقديرأ أكبر لآرائها ورؤيتها.

عائشة تيمور والهويات القومية المتعددة للمرأة

لو أن سيرة ملك حفنى ناصف التى كتبتها مى زيادة فى مستهل الثورة الوطنية عام ١٩١٩ - قد قدمت الهوية الوطنية كواحدة من السمات العديدة للكاتبة، فإن ما كتبه عن عائشة تيمور - والتى نشرت فى المقتطف عام ١٩٢٣ فى نهاية الثورة ميزت الهوية الوطنية فوق سماتها الشخصية الأخرى. ورغم أن هوية عائشة تيمور العرقية واللغوية وضعتها فى مكانة بعيدة عن أغلب مواطنيها، فإن زيادة أسبغت عليهم صبغة وطنية فى محاولة منها لجعل المؤلفة رمزاً للهوية الوطنية. وبالتالى كانت الصورة النهائية التى اعتمدت على الحوار الوطنى الحديث والتى طرحت عائشة تيمور باعتبارها رمزاً للحدثة وليس للمجتمع القديم قد ميزت الدور الذى لعبه والدها فى بروز مكانتها فى المجتمع متغاضياً عن مساهمات نساء أخريات فى نجاحها.

وفى مقدمة كتاب سيرة تيمور، تشرح مى زيادة أنه بعد تلقيها دعوة لإلقاء محاضرة على الشابات من أعضاء "جمعية مصر الفتاة" عام ١٩٢٢^(٤٢) بدأت فى البحث بدون إبطاء عن "شخصية نسائية جامعة تهيوها دراستها لأن تكون درساً فى الأخلاق والأدب والاجتماع، شخصية تفتخر بها الحركة النسائية ونموذجاً يستطيع أن يلهم الأخريات"^(٤٣) كموضوع للحوار. ولم تشرح زيادة ما هى طبيعة هذه الجمعية، إلا أننا يمكن أن نفترض أنها كانت واحدة من الجماعات التى ظهرت خلال تلك الفترة وبلورت اهتمام نساء الطبقة الوسطى بتاريخ المرأة والحركة الوطنية فى مصر. وترجع رغبتها فى دراسة شخصية أخرى تثير الاهتمام داخل الحركة النسائية إلى أنها رأت أن هذه الدراسة الجديدة ما هى إلا استمرار للمشروع الذى بدأته بكتابة سيرة ملك ناصف. وفى الفقرة التى ذكرناها سابقاً نلاحظ تحولاً ذا مغزى فى وجهة نظر زيادة فى الحركة النسائية. فقد تلاشى تمسكها بأن تلك الحركة كانت من صناعة الرجل وركزت على أنشطة المرأة خلال ثورة ١٩١٩، والتى تبلورت فى هذه المحاضرة التى نظمتها "الفتاة الشابة فى مصر الفتاة".

وفى رد فعل سريع لتلك المحاضرة، حاولت زيادة أن تتقرب إليهن من خلال البحث عن رمز نسائي آخر يستطيع أن يلعب دوراً نموذجياً فى إلهامهن. ورغم أن هذا يمثل تحولاً مهماً فى تحديد جمهورها، فإنها استمرت فى استخدام الحوار الوطنى الحديث الذى كان يؤيد الصوت الذكورى ووجهة نظره.

وتقدم زيادة أربعة أسباب لاختيارها عائشة تيمور لكتابتها الثانى عن السير الذاتية. فأولاً: كانت عائشة تيمور "من الرائدات الطليعيات فى الحركة النسائية فى البلاد". ثانياً: كان الجمهور العام على معرفة بها كشاعرة نون أن يتعرف على شعرها أو حياتها. وثالثاً: كان التقدير لإنجازاتها قد مهد الطريق لدراسة تطور مصر الحديثة، إلى جانب مكانتها بين الرموز الأدبية فى وقتها وليس فقط بين الكاتبات النسائيات. ورابعاً: كانت مضامين شعرها وكتابتها تستحق مزيداً من الدراسة لإلقائها لمحات من الضوء على الماضى والحاضر. وأخيراً كانت حياتها مصدر إثارة، فقد أعطت القارئ فرصة لمعرفة الأوضاع التى نشأت فيها قى وقت كان الجمهور العام غافلاً عنها، بالإضافة إلى العوامل التى شكلت مصدر قوتها" (٤٤).

وكما كانت دراسة سيرة ملك ناصف قد أعطت الفرصة لى زيادة لتأكيد أوراق اعتمادها ككاتبة، كانت دراسة كفاح عائشة تيمور قد عززت من سمة زيادة كناقدة أدبية جديدة. ورغم أنها أعلنت أن تيمور تعتبر من الرائدات الأوليات فى الحركة النسائية المصرية فإنها لم تفسر مغزى قولها. فظهور عائشة تيمور فى المحيط الأدبى وبين رموز بارزة فى القرن التاسع عشر كان يؤهلها لهذا الموقع المتميز رغم قلة ما كان معروفاً عن أعمالها وحياتها. وتناقضاً مع أقوالها ألححت زيادة إلى أن إنجازاتها الأدبية، وظهور نجمها كان من خلال تطور مصر الحديثة. وبالتالى أصبحت حياة عائشة وأعمالها قاعدة للمقارنة بين المجتمعات المصرية التقليدية والمجتمعات الحديثة فى نفس الوقت. وفى حين ما كانت إنجازاتها ترجع إلى الحداثة، كان فشلها يرجع إلى التقاليد.

وفى طرحها للعصر الذى ظهرت فيه عائشة تيمور حددت زيادة الرؤية الوطنية الحديثة للتاريخ المصرى والتى طرحت نهضة الغرب الاقتصادية والثقافية، وتدهور الشرق تحت الحكم العثمانى كمفاتيح مهمة لفهم المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر. واستشهدت بالحملة الفرنسية على مصر كنقطة بداية لتاريخ مصر الحديث. وكان لهذه الأحداث ثلاث نتائج مهمة. فقد وجدت المقاومة الوطنية المصرية ضد التهديد الغربى، وشهدت بداية الدراسات العلمية فى البلاد التى عرفت مصر بالحضارة الغربية، وأخيراً أضعفت من القوة السياسية للمماليك. وقد مهد هذا التطور الأخير الطريق إلى ظهور القوة السياسية لمحمد على الذى ولد - كما قيل - فى نفس العام الذى ولد فيه نابليون وولنجتون^(٤٥). وكان من ضمن من عمل مع هذا القائد الجديد أجداد والد عائشة تيمور من الأكراد والأتراك.

وتشير زيادة إلى أن عائشة تيمور - التى ولدت عام ١٨٤٠ - كانت نتاج التحول الذى أحدثه الحكام السبعة فى هذا العصر فى نظام التعليم المصرى، وفى الحكومة، والاقتصاد والجيش. وفى سياق خطي مع هذه التغيرات الايجابية التى حققها هؤلاء الحكام. أكدت زيادة على الدور المهم الذى لعبه "العباقرة السوريون الذين هاجروا إلى مصر نتيجة الكوارث (فى بلادهم) وكيف أن صدام أفكارهم مع أفكار المصريين أثمر عن فوائد لكلا الطرفين بصفة خاصة والفكر العربى بصفة عامة"^(٤٦). وقد قدم هؤلاء الرجال والنساء السوريون - إلى جانب مصريين آخرين - الدعم إلى الحركة الوطنية من خلال حضورهم محاضرات الخطيب الثائر جمال الدين الأفغانى^(٤٧). وهنا تمارس زيادة إلحاحها فى التأكيد على مساهمة الرجال والنساء السوريين فى نمو وتطور مجتمع وطنى حديث فى مصر.

كان واضحاً أن مى زيادة صممت تماماً فيما يتعلق بالاحتلال البريطانى لمصر ولم تعتبره مبطلاً لمشروع الحداثة فى ذلك العصر. واستشهدت بفقرة من رد قاسم أمين على دوق هاركورت والتى نشرت فى ١٨٩٤ وقال فيها "لقد سُمح لنا بالحرية الكاملة سواء فى الفكر أو الكتابة، فالمصريون حالياً يتمتعون بكل "حقوق الإنسان" ومنذ ثورة

عرايى ما زالوا مستمرين فى صحتهم الوطنية^(٤٨). وتتفق زيادة مع قاسم أمين فى تبرئته للحكم الاستعماري البريطاني من النتائج الاقتصادية القاسية والاجتماعية والسياسية التى نتجت عنه، والذي أرجعه إلى أنه جزء لا يتجزأ من مسيرة التحديث المطلوبة. كما وأنها استخدمت الحوار الوطني الحديث لتصريح بأن النساء استفدن كثيراً من هذه التحولات التى طرأت على المجتمع المصري فى القرن التاسع عشر مثل إنشاء مدرسة الحكيمات فى عام ١٨٣١. ومع ذلك أشارت أيضاً إلى أن تعليم الفتاة فى ذلك الوقت انحصر فى التطريز وأشغال الإبرة فى البيوت أو من خلال الزيارات إلى المدرسات القبطيات. فى حين كانت مجموعة صغيرة من الفتيات يتعلمن القرآن فى منازلهن من الشيوخ كبار السن.

ومع زيادة عدد الأجانب الذين توافدوا للإقامة فى مصر زاد أيضاً عدد مدارس التبشير مما كان له أثره فى تعليم الفتيات والشبان صغار السن. وقد افتتحت أول مدرسة تبشير للفتيات فى شبرا عام ١٨٤٤ وهى مدرسة "البون باستير"، وتبعها مدرسة التبشير الأمريكية للفتيات فى الأزبكية عام ١٨٥٦، وأخيراً الراهبات الفرنسيسكان الإيطالية للبنات عام ١٨٥٩، وفى عام ١٨٧٣ أنشئت أول مدرسة عامة للبنات وتلتها واحدة أخرى عام ١٨٧٤^(٤٩). وكان من الواضح أن مى أبرزت دور المدارس المسيحية فى التعليم الحديث - من خلال مدارس التبشير - كجزء من تطور تعلم الفتاة.

وفى حين ما تزايدت أعداد مدارس الأولاد والبنات خلال فترة عائشة تيمور حيث وصلت إلى ألف مدرسة تشمل المدارس الأولية التقليدية (الكتاب)، حدث تغيير مثير تجاه تعليم البنات حين بدأت قلة من المستنيرين فى الشكوى بين أنفسهم من جهل زوجاتهم. وقد رأت هذه الفئة إلى أن التعليم هو وسيلة لتحسين أوضاعهن كزوجات وأمّهات. ومع ذلك فلم يجرؤوا على مواجهة الجماهير المحافظة بهذا الفكر حتى جاء قاسم أمين وقاد بشجاعة الحملة المطالبة بتغيير الأوضاع الاجتماعية للمرأة، متحملاً فى ذلك عبء ردود الأفعال الغاضبة لكتابات^(٥٠).

وفى ضوء السرد السابق ترى أن الدولة ومدارس التبشير الأوروبية وفئة من المستنيرين كانوا مصادر مهمة لتغيير وجهة نظر المجتمع فى تعليم الفتيات. وقد ألفت فئة المستنيرين اللوم ليس على المجتمع أو على الرجال بل على النساء أنفسهن بسبب جهلهن وتخلف أسرهن. وعكس ملك ناصف التى انتقدت هذا الهجوم، تقبلته زيادة من منطلق رؤيتها للمرأة كمستهلك لهذا التغيير وليست المحرصة عليه.

• وعلى النقيض من ذلك فإن تعليم عائشة تيمور لم يكن متوافقاً مع الأساليب التى اقترحتها أفكار التحديث الوطنية الخاصة بالتعليم، فقد حازت تيمور على تعليمها من خلال تمردها على نظام التعليم التقليدى الذى كانت تحظى به للفتيات الثريات فى ذلك الوقت. وفى محاولتها استحضار حياة تيمور الأسرية فى مصر فى القرن التاسع عشر اعتمدت زيادة على كتاب يوجينيه لوبرين الزوجة الفرنسية لحسين رشدى الذى أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء لتصف عالم المرأة الخاص الذى يعتمد على التسلسل الهرمى كاملاً فى نظام الحريم فى الأسر الغنية فى وقت لاحق لمرحلة طفولة عائشة تيمور فى منتصف القرن التاسع عشر. وفى هذا المضمون الاجتماعى بدأت والددة عائشة - وكانت من الجوارى الجراكسة المحررات - فى تعليم ابنتها الإبرة والتطريز وهى فى السابعة من عمرها. إلا أن الفتاة الصغيرة لم تظهر أى اهتمام بتلك الدروس، ولم تجد محاولات وجهود أمها فى إقناعها أن أشغال الإبرة تمثل جانباً أنثوياً مهماً ونوعاً من التعليم الضرورى فى حياة المرأة، وأصمت أذنيها عن كل ذلك لتتجه إلى "السلامك" (وهو المكان المخصص للرجال فقط) حيث كان والدها يقابل أصدقاءه، وكانت زياراتها تزعج أمها مما ساهم فى مساجلات حادة بينهما. وتدخل والدها أخيراً ليهدئ من تمردها بتعليمها القراءة والكتابة تاركاً لوالدتها الإشراف على التعليم التقليدى لبنتيها الأخرتين.

وفى هذا السياق - كما يقول "لوبران" - اختل النظام فى الحريم جراء تمرد عائشة الصغيرة التى لم تقاوم فقط أسلوب أمها فى التعليم بل توصلت إلى الالتقاء بأصدقاء والدها. ويندو والدها هنا كأب متسامح مستتير شغل بأهمية وجود نوعية

مختلفة من تعليم البنات. والمشكلة فى هذا التفسير هو عدم اهتمام الأب الواضح بالتعليم التقليدى لشقيقتيها، فقد كان من الواضح أن عائشة فرضت قضية تعليمها القراءة والكتابة على والديها، وأن والدها قرر استثناءها من النظام المتبع آنذاك. وإذا كانت فكرة التنوير فى حالة والدها محل مناقشة فبالتالى فإن دور والدتها بصفتها الشريرة التى حاولت وأد طموحات ابنتها مبالغ فيه. ولم تحاول زيادة من جانبها تضيق وقتها فى شرح نوافع الأم وراء معارضتها لابنتها من منطلق الشعور بالاحتقار تجاه العبيد من النساء. ففى خلال تلك المرحلة كان تشجيع الابنة على الاختلاط بالكتاب من الرجال وتفضيل القراءة والكتابة بدلاً من أعمال التطريز وشغل الإبرة التى كانت تمارسها نساء تلك الطبقة، هى روشة لخبية أملهن عند نضوجهن. ففى محاولة الأم أن توفر على ابنتها ما سوف تتعرض له مستقبلاً كانت توفر عليها ألم هذه التطلعات الاجتماعية غير الواقعية من جانبها. وفى جميع الأحوال فقد توقفت دراسة عائشة بعد أربع سنوات تمكنت خلالها من إجادة اللغة التركية والفارسية والعربية وذلك بعد زواجها وهى فى الرابعة عشر من عمرها لتبدأ حياة مثل مثيلاتها من النساء امتدت إلى ثلاثة عشر عاماً وهبتها لتربية أطفالها ومراعاة شئون منزلها كعادة النساء الثريات من طبقتها.

وفى لحظة انعطاف غير متوقعة فى كفاحها لتوسيع مفاهيمها بعيداً عن الاهتمام بالشئون المنزلية فقط، وفى ضوء طموحات المرأة من الطبقة المتوسطة العليا فى القرن التاسع عشر، اتجهت عائشة نحو ابنتها توحيداً لتساندها. واضطلعت توحيدة فعلاً - وكانت فى الثانية عشرة من عمرها - بمسئولية البيت وإدارته تاركة لأمها الوقت الكافى لمعاودة دراستها ومساعدتها للتعرف على أوزان الشعر. وكانت وفاة كل من أبيها وزوجها فى غضون ثلاث سنوات قد أعطتها الحرية للتعاقد مع مدرستين هما فاطمة الأزهرية وستيتة الطيلاوية لمساعدتها فى علم النحو ودراسة أوزان الشعر^(٥١). وفى تلك المرحلة من انتصارها سقطت توحيدة ابنتها مريضة، فقد غفلت عائشة تيمور خلال انشغالها بدراستها عن الأعراض الأولى لمرض ابنتها. وكانت وفاة توحيدة وهى فى

سن الثامنة عشرة ضربة قاصمة لتيemor أسلمتها إلى سبع سنوات من الحداد عليها. إلا أن ابنها الأصغر محمود أقنعها بعد ذلك بوضع نهاية لفترة حزنها وشجعها على نشر كتاباتها باللغة العربية.

ورغم هذه العقبات وما تعرضت له من محن شخصية، فإن عائشة تيمور ظهرت كعضو بارز في بلاط أم الخديوى إسماعيل في السبعينيات من القرن، وفي عام ١٨٨٧ نشرت رواية لها بعنوان "نتائج الأوال في الأقوال والأفعال". ثم كتاب "مرآة التأمل في الأمور" وهو تسجيل للتغيرات التي طرأت على الأسرة المصرية ثم "حلية الطراز" ويضم مجموعة من أشعارها عام ١٨٩٢. وكتاب "سهوكوفا" وهى أشعارها باللغة التركية عام ١٩٨٦، وفي الثمانينيات من القرن أيضاً تبادلت الرسائل مع وردة اليازجى فى لبنان، كما كانت على صلة بزينب فواز الكاتبة اللبنانية - المصرية التى أفردت فصلاً عن عائشة تيمور فى مؤلفها "الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور".

كانت مقالات زيادة عن إنتاج عائشة تيمور الأدبى والشعرى تنحاز إلى أعمالها باللغة العربية رغم أنها نشرت بعضاً منها باللغة التركية والفارسية. فقد أسقطت من اعتبارها الأهمية التى أولتها عائلة تيمور فى تفضيل تعلم اللغة التركية والفارسية على العربية فى أواخر الثمانينيات، وكيف أن هذه اللغات كانت جزءاً من النماذج العثمانية الأدبية التى وضعتها داخل نطاق هذه التقاليد الثقافية. ولأن زيادة كانت تربط ما بين الحكم العثمانى وتدهور أوضاع المجتمعات العربية فإنها لم تستطع أن تقدر أو تعجب بهذه التقاليد، بل واقع الأمر أنها تعاملت مع التركية والفارسية والعربية كلغات تختلف معانيها بالنسبة للكاتب. فمثلاً تجدها تشرح للقارئ أن اللغة العربية هى لغة وطن عائشة تيمور، والتركية هى لغة والديها، أما الفارسية فهى مجرد لغة مدرسية كان يتعلمها بعض كتاب المدرسة القديمة. وكانت هذه الفرضية السطحية الحديثة لهذه اللغات تعطى وزناً اجتماعياً وسياسياً أقوى للغة العربية وتخلع عن اللغة التركية أهميتها السياسية، وتضفى عليها جانباً شخصياً فقط. ولسوء الحظ كان عرض زيادة أحياناً يؤكد السمات المتناقضة لهذا التفسير. فمثلاً تشير زيادة إلى أن الأميرة قدرية

ابنة السلطان حسين كامل كانت تقرأ أشعار عائشة تيمور باللغة التركية لأن هذه اللغة - وليست اللغة العربية - كانت لغتها الوطنية. وكانت الأميرة قدرية - التي أصبحت كاتبة إسلامية في العشرينيات من القرن العشرين تكتب باللغة التركية وكان القراء المصريون يقرءون أعمالها بعد ترجمتها من التركية. إلا أن إهمال زيادة لهوية تيمور العثمانية وعلاقة اللغة وبالسياسة في الأسرة الملكية المصرية، والطبقة الأرستقراطية والنظام الملكى العثمانى فى مقابل الوطنية المصرية قد تجاهل حقيقة تنافس هذه الهويات فيما بينها خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر والذي عكس انقسامات عرقية ولغوية مهمة.

ولأن زيادة لم تكن تعرف اللغة التركية أو الفارسية فقد ذكرت لقرائها أنها لن تتعرض إلا لكتابات تيمور باللغة العربية. وبالتالي برزت عائشة ككاتبة عربية رغم أن هذا كان جانباً فقط من شخصيتها الأدبية. وكانت محاولات زيادة لوضع تيمور فى التقاليد العربية الأدبية قد تعرضت لمشكلة أخرى: وهى وجهة نظر الحداثة فى أن اللغة العربية وآدابها فى القرن التاسع عشر كانت تقليدية وبالتالي غير قادرة على إحداث التغيير أو التجديد، وأنها كانت مشغولة بصفة عامة بالقوافى والصور النمطية إلى جانب الإطالة والتكرار، ونتيجة لذلك لم يكن هناك عجب فى أن زيادة - وهى ناقدة أدبية - وجدت أن شعر وروايات تيمور ليست على المستوى المطلوب، ولأنها افترضت أن الأشكال الأدبية التقليدية التى استخدمتها تيمور لم تكن قادرة على التغيير، فقد فشلت زيادة فى أن تلمح فى شعر وكتابات تيمور اهتمامها بالأفكار السياسية الجديدة مثل التحولات فى أشكال الحكومات الإسلامية واهتماماتها الاجتماعية والسياسية الجديدة. فمثلاً كانت أشعارها فى مدح الخديوى توفيق تحدد آرائها السياسية فى ثورة عرابى وفى المطالبات السياسية الجديدة التى نادى بها الخديوى العائد.

الخاتمة

امتلات الفترة ما بين عام ١٩١٨، ١٩٢٣ بجدل واسع النطاق حول الجوانب الإيجابية والسلبية لأنوار المرأة بطبقاتها المختلفة فى المجتمع الوطنى الجديد^(٥٢). فبالإضافة إلى السير الذاتية التى رصدتها مى زيادة لملك ناصف وعائشة تيمور والتى أحالتهما إلى رموز وطنية، أوضح شون لوبيز أن التغطية الصحفية التى نشرتها الصحف عن قضية ريا وسكينة عام ١٩٢٠ وصفتها بشخصيات شريرة فى إطار تحذيرى يشير إلى التأثير الفاسد والمخاطر التى تهدد النساء من الطبقة العاملة اللاتى تنازلن عن عزلتهن فى المجتمع ليواجهن مخاطر هذه الخطوة^(٥٣). وتناقضاً مع هذا الفكر كانت كتابات زيادة عن حياة وأعمال ملك ناصف وعائشة تيمور تؤكد الفوائد التى يمكن للمرأة الحصول عليها فى حالة وضع نهاية لعزله النساء من الطبقة الوسطى والعليا، واندماجهن فى المناقشات العامة والساحة الأدبية. وفى نفس الوقت تدخلت الدولة فى صياغة قوانين تحكم الزواج والطلاق مما وُصف بأنه تنظيم "للأحوال الشخصية". وفى دراسة حنان خلوصى توضح القوانين بأن الأسرة لم تعد مؤسسة خاصة بل فرضت عليها رقابة الدولة كجزء من مشروع التحديث^(٥٤).

كان الحوار الناتج عن هذا الجدل حول النوع (الجنسين) حواراً ليبرالياً وقد استخدمت مى زيادة سيرة ملك حفنى ناصف وعائشة تيمور لتطرح أمام الطبقة الوسطى والطبقة العليا نماذج لنساء لعبن أنواراً جديدة فى مساندة ودعم ثورة ١٩١٩. وفى المقابل كانت المناقشات فى الصحف حول قضية ريا وسكينة قد أعطت نماذج أخرى فردية للطبقة العاملة التى مارست أفعالاً وأنشطة أثارت استنكار القراء من الطبقة الوسطى. وفى حين ما برزت كل من ناصف وتيمور كنماذج إيجابية، كانت ريا وسكينة صورة سلبية عززت الافتراض الحديث بأن نساء الطبقة العاملة بحاجة إلى توجيهات نساء الطبقة الوسطى حتى يصرن عضوات لهن أهميتهن فى المجتمع. وفى عرض حياة ناصف وتيمور وريا وسكينة، ظهر التركيز بصورة جديدة على تجاربهم الشخصية التى تعارضت مع الأفكار الأولى فى التعامل معهن كفئة لا يميزها شىء عن بقية الشعب، وبالتالي برزن كشخصيات لها استقلاليتها وكأشخاص أحدثت اختياراتهن فرقاً فى حياتهن وطبقتهن الاجتماعية والمجتمع الكبير ككل.

وقد عزز الحوار الليبرالى المناقشات التى تارت حول قوانين الأحوال الشخصية التى ركزت على تعريف آخر للفرد. فقد أثارت هذه القوانين الاهتمام بمفهوم "الشخصية" فى العائلة وتعريفها من حيث النوع (ذكر/ أنثى) لتحديد حقوقها المختلفة. كما وأن مفهوم حقوق الإنسان احتل مساحة كبيرة فى هذه المناقشات الليبرالية. وكان عدم المساواة بين حقوق الرجل وحقوق المرأة تتطابق مع التفسيرات التى وردت فى المناقشات الحرة فى مجتمعات وتواريخ أخرى.

وبصورة أكثر تحديداً، فقد حاول هذا الفصل من الكتاب أن يشرح كيف أن ترجمة حياة كل من ملك ناصف وعائشة تيمور التى رصدتها مى زيادة - والتى اعتبرت منذ مدة طويلة أمها من الأعمال النسائية كانت وطنية فى مضمونها. فلم تكن ككتاهما فقط جزءاً من الناتج الثقافى الذى شهدته بداية ثورة ١٩١٩ ونهايتها الناجحة، بل حاولت مى دمج حياتهما وأعمالهما فى التاريخ الوطنى لمجتمعيهما. وعلاوة على ذلك كان الدور الذى لعبته فى ثورة ١٩١٩ قد أدى بمى زيادة إلى أن تهجر فكرتها الأولى من أن الرجال هم الذين أسسوا الحركة النسائية فى مصر كما قالت فى سيرة ملك ناصف، ولتبرز عائشة تيمور كرائدة لتلك الصحوة فى مصر.

كما استخدمت زيادة أيضاً تلك السير لتدمج نفسها - بصفتها سيدة لبنانية مسيحية - فى المجتمع الوطنى الجديد، وقد أبرزت دورها بوضوح فى سيرة ناصف ككاتبة رائدة تربطها علاقة وثيقة بها تؤهلها لتحدى رؤيتها والحكم على أعمالها. وبهذا الأسلوب تمكنت من أن تجد لنفسها موقعاً داخل تاريخ هذا المجتمع وبين رائداته من النساء. كما كان اعتناقها لأفكار قاسم أمين - وهو أحد رجال التنوير البارزين المصريين - أحد الأساليب الأخرى التى استخدمتها لتغزل نفسها فى النسيج الاجتماعى والتاريخى لهذا المجتمع الذى تبنته. أما ما كتبه عن سيرة عائشة تيمور فقد كان يمثل محاولة جادة منها لطرح نفسها كمؤرخة لأحداث مجتمعتها، ومساهمة فى دور المرأة المصرية فى تاريخها الوطنى.

أما محاولتها دمج خلفيتها المسيحية فى نقاشها حول المجتمع المصرى فقد كانت أقل نجاحاً، حيث توفر سيرة ناصف دليلاً قوياً على إيمان زيادة بوجود خط فاصل بين المسيحيين والمسلمين من وجهة نظر المجتمع وأجندته النوعية. وهى ترى أن المجتمع المسيحى السورى أكثر تنظيمًا وتقدمًا واهتمامًا بالشرائح المتواضعة فيه أكثر من نظيره المصرى الإسلامى. كما ترى أن المرأة المسيحية أوفر حظاً من المرأة المسلمة من حيث انعدام تعدد الزوجات فى المسيحية، والخوف من تهديد الطلاق. وفى هذا السياق تتقبل وجهة النظر الشرقية، والحكومة الاستعمارية القائلة بوجود اختلافات جوهرية بين وضع المرأة المسيحية ووضع المرأة المسلمة. كما أنها لم تعتبر صعوبة الحصول على الطلاق كمصدر لمشكلة محتملة لبعض النساء المسيحيات وعائلاتهن بل بالعكس أوردت بأن المرأة المسيحية تتمتع بحياة خالية من المشاكل.

وفى حين ما توفر هذه السير إلى صورة لمجتمع ينقسم إلى شرائح من حيث النوع والديانة، والعرق، واللغة والطبقة، إلا أن نجاح ثورة ١٩١٩ كان له أثره السلبى فى الاكتشاف الجاد لهذه الفوارق. ففى سيرة ناصف، التى كتبها فى مطلع الثورة، اعتبرت زيادة أن مصرية ناصف هى إحدى مكونات شخصيتها المتعددة والتى شكلها كونها امرأة مسلمة، وكاتبة، وناقدة اجتماعية وإصلاحية. أما فى سيرتها عن عائشة تيمور والتى كتبها بعد ذلك بثلاث سنوات عقب نجاح الثورة، فإن زيادة تضع طبقة تيمور العليا، وهويتها العثمانية اللغوية والعرقية فى قالب وطنى لتحولها بذلك إلى كاتبة عربية ورمز للحدثة المصرية. وكانت النتيجة صورة لحياتها إفتقرت مكونات المجتمع المصرى المعقدة. وفى محاولة من هذا الفصل لتحليل واستبيان هذه الروايات الوطنية النسائية التى تشير إلى قوة تماسك الرجل والمرأة، وتجانس خبرات المرأة، فإن هذا الفصل كان يأمل فى طرح مساحة جديدة لرصد كيفية مساهمة النوع (ذكر/أنثى)، والديانة، والعرق والفوارق المنطقية فى طرح رؤى واضحة عن تاريخ جماعات مختلفة وعلاقاتها بالمجتمع الوطنى.

الهوامش

- (١) لطيفة محمد سليم "المرأة المصرية والتغيير الاجتماعي" (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٤)، ٢٦-٢٤، أمل كامل بيومي السبكي "الحركات النسائية في مصر ما بين الثورتين ١٩١٩ و ١٩٥٢" (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٦)، الفصل الأول، مارجو بدران Feminists, Islam and the Nation (بريستين: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٥)، ٨٠-٨٤.
- (٢) أمل السبكي، ٢٥.
- (٣) تتبع دراسة مارلين بوث عن السير الذاتية التي كتبتها في زيادة القصص العائلية التي عبرت فيها عنهن كنساء متغيرات. انظر: مارلين بوث، Biography and Feminist Rhetoric in Early Twentieth-Century Egypt: Mayy Ziyada's Studies of Three Women's Lives," Journal of Women's History 3: 1. (ربيع ١٩٩١)، ٦٤-٣٨.
- (٤) الأعضاء الأصليون في الصالون في عام ١٩١٣ كانوا إسماعيل صبري، الدكتور شبلي شميل، نجيب هواويني، المطران ديريان، أنطون الجميل وخالد مطران. ثم انضم إليهم بعد ذلك أحمد لطفى السيد، ولي الدين يكن، الشيخ رشيد رضا، يعقوب صروف وإدريس رجب باشا، عباس محمود العقاد، طه حسين، زكي مبارك، سليم البستاني، سلامة موسى وآخرون كثيرون. انظر: سلمى الغفار الكسبري "في زيادة ومسألة النبوغ" الجزء الأول (بيروت: مؤسسة نوفل، ١٩٨٧)، ٢٩٠-٩١.
- (٥) سلمى الكسبري، الجزء الأول، ١٨٢.
- (٦) في زيادة "باحثة البادية" (بيروت: مؤسسة نوافل، ١٩٨٣)، ١٤٨.
- (٧) آرثر جولد سميث جون يور Yakan: Adli" in Biographical Dictionary of Modern Egypt (بولدر: الناشر لين رينار، ٢٠٠٠)، ٢٢٩.
- (٨) نفس المرجع، ١٥.
- (٩) نفس المرجع.
- (١٠) نفس المرجع.
- (١١) عبد العظيم رمضان "تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨-١٩٣٦" (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، n.d)، ٩٩.
- (١٢) هدى السادة "باحثة البادية ١٩٩٨" في "النسائيات" (القاهرة: والذاكرة المرأة، ١٩٩٨)، ١٠.
- (١٣) نفس المرجع، ٩.
- (١٤) بنديكت أندرسون Imagined Communities (لندن: فرسو، ١٩٩١)، ٧.

- (١٥) بيث بارون The Women's Awakening in Egypt, Culture, Society and the Press (يوهافن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩٤)، الفصل ١-٢ .
- (١٦) انظر: التحليل النافذ البصيرة لهدى السادة عن كتابات ملك حفنى والذى يتضمن: هدى السادة "ملك حفنى ناصف: حلقات مفقودة من تاريخ النهضة" حجار، ٢ (١٩٩٤)، ١٠٩-١٩، ونفس المرجع،
- Women in Egypt: Education and Modernity," in The Self and the Other, Sustainability and Self Empowerment.
- طبعة إسماعيل سراج الدين وعفاف محفوظ (واشنطن العاصمة: البنك الدولي، ١٩٩٦)، ١٨-١٩، ونفس المرجع،
- Notions of Modernity: Representations of the 'Western Woman' by Female Authors in Early Twentieth Century Egypt," in The Arabs and Britain: Changes and Exchanges, Proceedings of a Conference.
- (القاهرة: المركز الثقافى البريطانى، ١٩٩٨).
- (١٧) هدى السادة "ملك حفنى ناصف: حلقات مفقودة من تاريخ النهضة"، ١١٢ .
- (١٨) هدى السادة "تطور نظرية السيرة الذاتية فى "المعرض الأول لكتاب المرأة: المرأة العربية فى مواجهة القصر" (القاهرة: نور دار المرأة العربية للنشر، ١٩٦٦)، ٢٠٧، (لزيادة التأكيد).
- (١٩) زيادة "باحثة البادية"، ٢٣-٢٤ . من اللافت للنظر أن زيادة استخدمت فى وقت لاحق نفس السمات التى استخدمتها فى السير الذاتية التى كتبتها لشرح سبب تأثرها بالطابع المؤسسى من قبل عائلتها فى مستشفى العصفورية فى بيروت فى أواخر الثلاثينيات.
- (٢٠) نفس المرجع، ٢٥ .
- (٢١) نفس المرجع، ٣٩ .
- (٢٢) نفس المرجع، ٤١ .
- (٢٣) نفس المرجع، ٤١-٤٣ .
- (٢٤) نفس المرجع، ٤٣ .
- (٢٥) انتقادات ناصف للمدارس التبشيرية على هذه الأسس تعكس موضوعاً متكرراً فى المناقشات القومية عن التعليم بدءاً من العقد الثانى حتى الخمسينيات. لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع انظر: ياراك سالونى، Pedagogies of Patriotism: Teaching Socio-Political Community in Twentieth-Century Turkish and Egyptian Education.
- (مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة هارفارد، ٢٠٠٢)، ١٨٩-٢٣٤، ٢٨١-٩١ .
- (٢٦) زيادة "باحثة البادية"، ٥٠ .
- (٢٧) الباعث على تمصير كل من يدخل وادى النيل، انظر: إسرائيل جرشونى وجيمس جانكوفسكى، Egypt, Islam and the Arabs: The Search for Nationhood 1900-1930.
- (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٦).
- (٢٨) زيادة "باحثة البادية"، ٥٤ .

(٢٩) انظر: مناقشات بنديكت أندرسون عن استخدام الدول الاستعمارية تعداد السكان، والخرائط والمتاحف لتعريف المجتمعات المستعمرة. أندرسون *Imagined Communities*، ١٦٢-٨٥.

(٣٠) زيادة، ٦١.

(٣١) نفس المرجع، ٦٧.

(٣٢) نفس المرجع، ٧٧.

(٣٣) نفس المرجع، ٨٠.

(٣٤) نفس المرجع، ٨٤.

(٣٥) نفس المرجع، ٨٩.

(٣٦) كان الدكتور شميل طبيب سورى استقر في مصر واستخدم الداروينية ليظهر تفوق الرجل على المرأة. انظر: زينب فواز "الدور المتحور في طبقات رياط الحضور" (الكويت: مكتبة ابن فطية، n.d.)، ٤٩٨.

(٣٧) زيادة، ٣٩.

(٣٨) نفس المرجع، ٩٥-٩٦.

(٣٩) نفس المرجع، ٩٣-١٢٠.

(٤٠) نفس المرجع، ٩٨.

(٤١) نفس المرجع، ١٠٢.

(٤٢) "شاعرات الطليعة، عائشة تيمور" (القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٦)، ٨.

(٤٣) زيادة، ١٩.

(٤٤) نفس المرجع، ٢٠-٢١.

(٤٥) نفس المرجع، ٣٢-٣٣.

(٤٦) نفس المرجع، ٣٧.

(٤٧) نفس المرجع، ٣٩.

(٤٨) نفس المرجع، ٣٥.

(٤٩) نفس المرجع، ٤٣.

(٥٠) نفس المرجع.

(٥١) نفس المرجع، ٧٢-٧٥.

(٥٢) انظر: الفصل الحادي عشر والثالث عشر في هذا الكتاب.

(٥٣) شون تي. لوبيز *Madams, Murders and the Media* أخبار الحوادث وظهور الثقافة الجماهيرية في مصر عام ١٩٢٠، في هذا المجلد.

(٥٤) حنان خلوصي *The Nationalization of Marriage in Monarchical Egypt* في هذا المجلد.

الجزء الخامس

الفن والسينما والأدب ،

والذاكرة التاريخية

١٥ - الفن المصرى فى القرن العشرين

(الرواد ١٩٢٠-١٩٥٢)^(١)

كارولين ويليامز

عندما نفكر فى فنون مصر البصرية، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو صور من تلك الحقبة من العصر الفرعونى التى تعود إلى أكثر من ألفين وخمسمائة عام، وربما يتذكر البعض أن مصر كانت جزءاً من العالم الهيلينى - البيزنطى لمدة تقرب من تسعمائة عام، أو أنها كانت تحمل موروثةً إسلامياً لفترة امتدت إلى ألف وأربعمائة سنة، وقد يتذكر آخرون صوراً رومانسية رسمتها ريشة بعض الفنانين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر، ولكن القليلين سوف يربطون مصر بفنون الرسم والنحت الحديثة رغم أنها أحدث ما قدمته مصر الآن فى مجال الفنون البصرية، ولا عجب فى ذلك فإن الاقتراض الذى يثير الأسف هو استمرارية اعتبار الفن الذى يجسد الأشياء غريباً عن الإسلام بصرف النظر عن توافر هذه الثروة من الدلائل التى تشير إلى عكس ذلك والتى تبدو جلية فى الصور التوضيحية التى تحفل بها المفردات الزخرفية على المسطحات المختلفة. كما وأن الرسم على القماش باعتباره شكلاً جديداً من أشكال الفن المصرى ليس موثقاً بصورة جيدة، سواء فى مصر أو فى الغرب، فضلاً عن أن فناني ومبدعى هذا النوع من الفن مجهولون إلى حد ما، ويعيدون عن دائرة الضوء أو الدعاية. ومع ذلك فيمكننا القول بأن البداية تعود إلى العقود الأولى من القرن العشرين وتشكل جانباً إبداعياً آخر لهذه الحقبة من تاريخها^(٢).

ويمكن تقسيم الفترة من ١٩١٩ - ١٩٥٢ إلى مرحلتين، الأولى منذ عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٣٦، والتي دشنتها حركة الوفد الوطنية الثورية التي انتهت بإبرام معاهدة ١٩٣٦ بين المصريين والإنجليز، وفي هذه الفترة التي تميزت بنشاط ثورى وحيوية بناءً ظهر فنانون أسهموا فى إضافة أفكار جديدة إلى ما تميزت به هذه الحركة الوطنية من أصالة ومنها الفكر الفرعونى الذى سرعان ما التحم مع النزعة القومية الجديدة ليؤكد أصالة وثقافة تاريخ مصر فى الماضى. وقد ميزت هذه الأفكار بين إنتاج هؤلاء الفنانين والخلفية الأوروبية للمحتل البريطانى^(٣)، إلا أنه رغم ذلك فما طرح من أشكال الفنون فى تلك الفترة لم يتضمن فى جوهره أنواعاً جديدة مختلفة من الفنون وإن كان قد أرسى قواعد حركة فنية مصرية حديثة.

أما المرحلة الثانية والتي تمتد من ١٩٣٦ وحتى ١٩٥٢، فقد بدأت بالصخب الثقافى الذى اجتاح أوروبا فى الحرب، وانتهى بثورة عبد الناصر فى مصر عام ١٩٥٢، وشهدت هذه الفترة تحول الاتجاه الذى كان يركز سابقاً على التعبير عن المضمون القومى الظاهرى، إلى منحى جديد فردى يعبر عن مفهوم التجارب الذاتية الفطرية.

(١٩١٩ - ١٩٣٦)

بدأ ظهور الفن المصرى الحديث بظهور الرواد كما يطلق عليهم والذين قدموا أفضل أعمالهم فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن، وكانت ولادتهم قبل بداية القرن بفترة وجيزة، وقد تلقوا تدريباتهم على أيدي فنانين أوروبيين فى مصر وأوروبا. وبالتالي فإن أعمالهم لم تقدم إلا القليل الذى يختلف عن منهج فنانى ونحاتى الغرب التقليديين.

ومع ذلك فقد كان إنتاجهم الذى يعبر عن وطنهم وشعبهم أكثر اختلافاً وحميمية فى مضمونه عن أعمال المستشرقين الأجانب فى القرن الذى سبقه، وعلى المستوى الشخصى فإن هؤلاء الرواد كانت لهم نظرة خاصة فى التعبير عن أسلوبهم واهتماماتهم الفردية.

وعلى المستوى الجماعى فقد عبر هؤلاء الفنانون عن مصر التى ولدوا فيها خلال السنوات الأولى من القرن العشرين، عبروا عن بلد يبلغ مساحة أرضه الزراعية ٨٠٪ من مساحته الكلية، عن بلد تحارب لتحقيق استقلالها السياسى عن بريطانيا، ومجتمع كانت المرأة فيه قد بدأت أولى خطوات تحررها. ولم يكن هؤلاء الرواد فى الفنون جزءاً من حركة ثقافية واسعة سادت البلاد فى تلك الفترة فحسب بل كانوا يمثلون صحوة فنية تستهدف إعادة تشكيل هوية وطنية لهم، بالإضافة إلى التعبير عن مصر كبلد متميز، مستقر، وفى سبيله إلى استعادة قوته وحيويته.

أما بداية تأسيس هذه الحركة فقد كانت فى القاهرة حيث كان النمط الأوروبى والفنون اليدوية الأوروبية قد أصبحت اتجاهات متزايدة فى فكر وأسلوب حياة أفراد البلاط فى عصر محمد على فى خلال القرن التاسع عشر. وفى عام ١٩٠٨ وهو العام الذى أقيمت فيه أول جامعة قومية، أسس الأمير يوسف كمال^(٤) مدرسة الفنون الجميلة فى واحد من قصوره فى درب الجماميز^(٥) وأخذ على عاتقه مسئولية تمويلها، وتأسست المدرسة على النظام الأوروبى وتم اختيار أساتذة أول كلية بها من مجتمع الفنانين الأوروبيين، فشغل جويلوم لابلان وهو نحات فرنسى وأحد المستشارين الفنيين للأسرة الملكية منصب أول مدير لها. كما قام بالتدريس فيها جابريل بيسى الإيطالى الجنسية، وقد وفرت هذه المدرسة دراسة حرة للموهوبين من المصريين دون التقييد بأى اشتراطات مسبقة سوى الرغبة فى التعلم. وبعد التخرج كان الطلبة الناجحون يوفدون إلى أوروبا فى منح لمزيد من الدراسة^(٦).

ويدين محمود مختار - وهو النحات الوحيد فى مجموعة الرواد - بتطوره الشخصى لهذه المدرسة^(٧). وقد ولد مختار فى ١٠ مايو ١٨٩١ فى طميرة، وهى قرية صغيرة بجوار المحلة الكبرى فى الدلتا. كان والده عمدة القرية وكان طفلاً حساساً مبدعاً فقد كان يصنع من طمى القرية تشكيلات مختلفة من الأشخاص والحيوانات. وحين تزوج والده من امرأة أخرى رحل هو وأمه المطلقة إلى القاهرة حيث استقر فى حي السيدة زينب فى عام ١٩٠٢. وقد تأثر مختار كثيراً من وضع أمه السيئ وكفاحها

بعد ذلك للاحتفاظ بكرامتها، وظل تعلقة بها عميقاً قوياً. وحين تم افتتاح مدرسة الفنون الجميلة عام ١٩٠٨ كان مختار آنذاك فى السابعة عشرة من عمره، وكان شديد الحماس للعلم فتوجه إلى المدرسة وسأل لابلان - وكان أول من قابله - ما إذا كان يمكنه دراسة الفن بها، وكان لابلان نفسه نحاً فشجع مختار بعد أن رأى أعماله - وحين تخرج مختار عام ١٩١١ كان أول فنان مصرى يلتحق بمدرسة الفنون الجميلة فى باريس. وفى عام ١٩١٣ كان تمثاله الذى أطلق عليه اسم "عايدة" هو أول تمثال ينحته فنان مصرى يعرض فى معرض دولى فى باريس.

أعادت الثورة المصرية فى ١٩١٩ مختار إلى مصر وإلى نحت أكثر تماثله شهرة وهو تمثال نهضة مصر (شكل ١٠١٥) وكان مختار قد عرض نموذجاً من الرخام لهذا التمثال فى المعرض الدولى فى "الجراند باليه Grand Palais" فى باريس عام ١٩٢٠ وحصل على ميدالية ذهبية، وقد زار سعد زغلول - الذى كان برأس الوفد المصرى فى مؤتمر السلام فى باريس فى ذلك الوقت - المعرض حيث تقابل مع مختار وتأثر كثيراً بهذا التمثال الذى يمثل أبو الهول وهو رابض على قدميه الأماميتين الممدودتين أمامه وبجانبه امرأة وضعت يدها اليمنى على رأسه فى حين كانت اليد اليسرى تزح خمارها جانباً^(٨).

وفى يونيو عام ١٩٢١ عهدت الحكومة المصرية إلى مختار بإعادة نحت التمثال فى حجم أكبر. وبدأ مختار العمل فيه فى ١٥ يونيو ١٩٢٢، وفى ٢٠ مايو ١٩٢٨ أراح الملك فؤاد الأول الستار عن التمثال الذى اتخذ موقعه أمام محطة السكك الحديدية، وبعد ذلك نقل إلى ميدان الجيزة ليواجه النيل فى نهاية طريق واسع يؤدى إلى المبنى الرئيسى لجامعة القاهرة. ويواجه أبو الهول - الذى يعبر عن ماضى مصر المتفرد والمرأة التى تعبر عن حاضرها الحيوى - الشرق فى تطلعها إلى بزوغ فجر جديد ومستقبل جديد. ويجسد هذا التمثال خلاصة تاريخ مصر العريق والاستشراف إلى الأمل فى المستقبل، مصر التى تمتد جنورها عبر التاريخ بجوار النهر الخالد رمز العطاء. فهو نصب تذكارى ضخم متميز بالأصالة والانتصار.

ويعد هذا التمثال أيقونة تلك الفترة؛ فهو يحمل رسالة يسهل فهمها على كل قطاعات الشعب المصرى المثقفين والأميين والطبقة الأرستقراطية وعامة الشعب، وهو مصنوع من الجرانيت الأحمر الذى تم جلبه من أسوان والذى هو فى حد ذاته عنصر قومى راسخ، أما الصحوة التى تعبر عنها حركة أبو الهول والمرأة فهى تجسد تطلعات مصر إلى الاستقلال والنهضة من خلال شعبها لا من خلال حكامها. وفى واقع الأمر فإن مختار وراعيه سعد زغلول كانا يمثلان أصدق تمثيل الحراك الاجتماعى الجديد فى مصر، حيث وصل هؤلاء الرجال المبدعون إلى مواقعهم من خلال موهبتهم وطاقاتهم. ويعكس هذا التمثال أيضاً منذ بداية العمل فيه وحتى الانتهاء منه (١٩١٨-١٩٢٨) الأحداث القومية المهمة لهذه المرحلة الخلاقة فى تاريخ مصر. فمثلاً فى عام ١٩١٩ قام البريطانيون بنفى سعد زغلول إلى مالطة بسبب قيادته للوفد ضد حكم الإنجليز وإثارته الاضطرابات الوطنية فى تلك الفترة، وكانت العاصفة التى اجتاحت البلاد اعتراضاً على السلطة البريطانية هى الشرارة التى أطلقت ثورة ١٩١٩. وفى فبراير عام ١٩٢٢ أعلنت بريطانيا أنها سوف تنهى الاحتلال وتمنح مصر استقلالها. وفى نوفمبر ١٩٢٢ أعلن هوارد كارتر - بعد صبر ومثابرة طويلة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون - وهو فرعون صغير دفن ومعه كنوز رائعة فى مقبرته، وهز هذا الاكتشاف العالم. وفى عام ١٩٢٣ عادت هدى شعراوى من مؤتمر نسائى عقد فى روما وترجلت من القطار وقد أزاحت النقاب عن وجهها للمرة الأولى لتصبح بذلك النموذج المثالى لحركة تحرير المرأة^(٩). وفى أغسطس ١٩٢٧ توفى سعد زغلول أبو حركة الاستقلال السياسى وعاشت مصر فترة حداد بموته، أما زوجته صفية والتى لقبت بأُم المصريين عام ١٩١٩^(١٠) فقد استمرت تؤدى دوراً رمزياً داخل الحركة الوطنية، وكان تمثال نهضة مصر تجسيداً لكل تلك الأحداث.

توفى مختار - الذى كان دائماً معتل الصحة - فى ٢٦ مارس عام ١٩٣٤، ودفن فى مقبرة باب الوزير، وفى عام ١٩٣٦ نقل رفاته إلى متحف جديد وضع تصميمه رمسيس ويصا واصف تكريماً له.

ويضم المتحف سلسلة من أعمال مختار منها تماثيل نصفية لمشاهير المصريين، وصفوة النخبة من المجتمع المصري^(١١) الجديد مثل دكتور على إبراهيم، وعبد الخالق ثروت، وعدلى يكن وسعد زغلول وكلهم من رؤساء الوزراء الذين دعموا ثورة ١٩١٩^(١٢). أما بقية أعماله فنجد نماذج من الريف المصري رجالاً ونساءً في إشارة تكريم إلى أهل مصر الذين صمدوا خلال آلاف السنين دون ما تغيير في خصائصهم الأصيلة. وقد استغل مختار فرصة تدريبه في فرنسا ليخلق تجسيدات مثالية لبعض الشخصيات المصرية ومنها تمثال شيخ البلد، والفلاح وببده المعزقة، وحامى الحقول، أما المرأة فقد كانت دائماً طويلة القامة رشيقة تحمل فوق رأسها سلالاً أو جراراً من الماء، وأحياناً تكون ذات جسد مستدير مغطى تملأ زلعة من ماء النهر أو تصارع رياح الخماسين الشديدة^(١٣).

ومن رفقاء محمود مختار يوسف كامل وراغب عياد اللذين تخرجاً أيضاً من مدرسة الفنون الجميلة في الدفعة الأولى عام ١٩١١ وكانا من أوائل الفنانين الرواد، ومن خلفية طبقية متواضعة ومستوى مادي ضعيف. وقد توجهوا بعد ذلك إلى روما لدراسة الفنون^(١٤)، ويعتبر يوسف كامل (١٨٩١-١٩٧١) أحسن نموذج لهؤلاء الرواد الذين يجسدون التأثير الأوروبي في أعمالهم. وقد ولد يوسف كامل في باب الشعرية وهو حي شعبي في القاهرة، وكان له استوديو في المطرية في ضواحي الريف وقد اعترف أنه بطبيعته ينتمي إلى الفن التعبيري. وتعتبر لوحاته التي رسم فيها شوارع القاهرة الإسلامية وأزقتها (شكل ١٥-٢٠) وكذلك مشاهد من المناظر الطبيعية أكثر الرسومات تقارباً مع رؤية الفنانين الأوروبيين المستشرقين. وكانت لوحاته بما فيها من الفن التعبيري ونعومة خطوطه الأكثر جاذبية إلى الطبقة المتوسطة التي بدأت تتسيد في تلك الفترة.

أما راغب عياد الفنان (١٨٩٢-١٩٨٢) فهو يمثل التطور الفني الوطني الأكثر إثارة في أسلوبه. وقد ولد أيضاً في القاهرة، وبعد تخرجه من مدرسة الفنون الجميلة أمضى الفترة ما بين عامي ١٩٢٠-١٩٣٠ في روما. وقد حددت عودته إلى مصر بدايته الحقيقية كفنان مصري، واتجه عياد في لوحاته إلى تسجيل مشاهد من الحياة اليومية

ليسبغ عليها لمحة من الأصالة الشعبية، وتعتبر لوحاته فى الثلاثينيات والأربعينيات على وجه الخصوص عن رؤيته وأسلوبه اللذين ما إن حددهما لنفسه حتى ظلا يميزان أعماله طوال حياته^(١٥).

وقد ركز عياد فى لوحاته على المشاهد الزراعية والفلاحين فى مصر. ففي رسوماته التى رصد فيها الفلاح المصرى وهو يؤدى عمله النمطى ظل عياد يمجّد الحياة اليومية التى تميز مصر فى عصورها القديمة، فصور الفلاح وهو يعمل فى الحقل، وهو يراعى حيواناته، وهو يبيع محصوله فى الأسواق، وهو يعبر النيل بكثير من الخشونة والحيوية الدافئة، وكانت رؤيته لهذه الأنشطة الحياتية كأنها امتداد للماضى السحيق مع الإشارة إلى إفريزات فرعونية تتمثل فى المستويات الرأسية للأفعال الأفقية الخطية، والأشكال الجانبية والأحجام ثنائية الأبعاد. ويبدو هذا التكنيك واضحاً فى مشاهد لوحات "السوق" فى الفترة من ١٩٣٠-١٩٣٨، وكذلك فى لوحة "الفلاحين فى الحقل" ١٩٥٨. وجميعها فى متحف الفن المصرى الحديث فى القاهرة^(١٦). أما الرسومات التى تمثل الماشية وجاموس النهر فخطوطها مسطحة تحمل مسحة من النحول (الهزال) والكآبة. وتبدو العلاقة بين الرجل والحيوان الذى يحرث الأرض أو الذى يدور فى الساقية (شكل ١٥-٣) قوية مفعمة بالحيوية حيث يصبح الماضى هو الحاضر دون تغير سوى فى التاريخ فقط. فبدلاً من الفرعون الذى كان يصطاد فى المستنقعات ويجواره ابنته ضئيلة الحجم، يرسم عياد ألام الريفية وهى واقفة تحمى ابنها (شكل ١٥-٤)^(١٧).

وفى لوحته "القهوة فى أسوان" ١٩٣٣ (شكل ١٥-٥) و"رقصة سودانية" ١٩٣٧، يعطى عياد رؤية معاصرة لهذه الأنشطة بالغة القدم، وهو يفعل ذلك من خلال منظور جديد^(١٨). ففي لوحة "القهوة" نرى امرأة من عامة الشعب "بلدى" تتوسط اللوحة وهى تضع على رأسها منديلاً ذا ألوان زاهية وترتدى رداءً واسعاً مزركشاً ذا أكمام طويلة وفى أصابعها خواتم فضية ووشم على يديها ويجوارها نرجيلة، إلا أن ملامحها يبدو عليها التعب والإرهاق متجاهلة الرجال حولها الذين بدورهم لا يلقون بالاً إليها.

أما فى لوحة "رقصة سودانية" فيسجل فيها عياد الحركة والحدث: الحركة التلقائية العنيفة لامرأتين ترقصان على دقات عازف طبل. ولا تحمل هذه اللوحات أى تشابه مع رؤية الفنانين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر.

وفى الأربعينيات بدأ عياد القبطى الديانة يتجه إلى منحى جديد فبدأ يرسم الحياة فى الكنيسة المصرية، وفى الأسقفيات والأديرة. وتميزت هذه اللوحات بأشكال واضحة قوية الخطوط تمتزج مع إحياءات من الصور والأيقونات القبطية القديمة. وتعكس هذه اللوحات جذوره الدينية العميقة ببساطة ولكنها مؤثرة وقد أثارت هذه الفكرة الجديدة فى نفسه صور الاحتفالات والعمارة والقسس وغموض الطقوس المسيحية المصرية. فمثلاً فى لوحة "الدير" ١٩٢٦ (شكل ١٥-٦) نجد أن الستارة التى تخفى الباب المؤدى إلى المكان الذى يضم الأيقونات قد انفجرت لتظهر أحد القساوسة بجوار المذبح. كما نجد مجموعة من الرهبان بجوار الستارة أو جالسين على المقاعد الخشبية يشاركون فى الطقوس. وفى إحدى اللوحات الأخرى المسماة "ميلاد المسيح" وهى ضمن مجموعة خاصة غير متهورة بأى توقيع نجد أن خلفية اللوحة هى قرية مصرية حيث تحيط مجموعة من الحمير والماشية بالأم العذراء وطفلها الوليد، فى حين تصور عدداً من ملوك الشرق يقدمون له الطاعة، وخلف الجمال التى تنتظرهم يوجد كنيسة قبطية ذات قبة مطلية باللون العاجى.

أما الإسكندرية، وهى مدينة تقع على شاطئ البحر المتوسط، فقد كانت منافسة حية للقاهرة فى الفنون البصرية، وكانت بداية الفن المصرى الحديث فيها من خلال فنانين ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية والذين تدربوا فى مجال المحاماة. أولهم محمد ناجى (١٨٨٨ - ١٩٥٦) الذى كان فناناً ودبلوماسياً ومعلمًا ومثقفًا ورجل إدارة ويعتبر أكثر الرواد اقتراباً من العالمية^(١٩). وبعد أن أنهى الأربع سنوات من دراسته للقانون بجامعة ليون (١٩٠٦-١٩١٠) اتجه مباشرة إلى الفن يمارسه كمهنة أساسية له. وفى خلال العقد التالى تأرجح ناجى ما بين تأثير الدراسات الأوروبية واكتشافه مصر، وما بين كونه أوروبياً متحرراً من المحلية وكونه مواطناً مصرياً. وفى السنوات ما بين ١٩١٠ و١٩١٤ انفتحت أمامه آفاق جديدة حيث رصدت تعرفه على فنانى النهضة فى أكاديمية

الفنون الجميلة فى فلورنسا، وفى عام ١٩١٨ أمضى سنة فى جيفرنى مع كلود مونييه. وفى عام ١٩١١ عاش فى الجرنه / طيبة مع الشيخ على وهو أحد عائلة "عبد الرسول" فتشبع بجو العظمة والغموض الذى يغلف عصر الفراعنة (شكل ١٥-٧). وما بين عام ١٩١٤ - ١٩٢٠ كان له استوديو فى البيت الفنى على سفح القلعة فى القاهرة، وتصوره اللوحة النصفية التى رسمها لنفسه عام ١٩٢٢ كشخص يتميز بالقوة والحيوية (شكل ١٥-٨) كما تعطى الألوان المستخدمة وهى الأحمر والأسود حيوية متقدة للوجه توحى بتلك النار المتأججة داخل ذاته التى تشتعل بالنشاط والفضول.

وقد أخذ عمله الدبلوماسى فى الفترة من ١٩٢٥ إلى ١٩٣٠ إلى ريو دى جانيرو وباريس التى صادق فيها الرسام الفرنسى أندريه لوتى الذى عرفه بدوره على أعمال بول جوجان، وفى تلك الفترة كرم ناجى ومنح وسام اللجيون دونور، وبعد باريس انضم إلى الوفد الذى كان متوجهاً إلى مؤتمر الفنون الشعبية الذى كان منعقدًا فى براغ برئاسة لويس هوتكور، وكان هذا المؤرخ الفنى الفرنسى المتميز مسئولاً عن متحف الفنون الجميلة فى مصر من ١٩٢٧ - ١٩٣٠^(٢٠)، وقد أدى نقاش مثير بين ناجى وهوتكور عن وجود فن شعبى فى مصر إلى معارضته لهوتكور ثم استقالته بعد ذلك من السلك الدبلوماسى^(٢١).

وفى عام ١٩٣١، أرسل ناجى فى مهمة فنية إلى إثيوبيا، وكانت هذه الزيارة من أثرى الفترات فى حياته الفنية حيث بدأ فى التعرف على منابع النيل فى أديس أبابا ورأى أمامه كيف تتدفق مياهه فى عظمة وقوة مما ألهمه رسم عدد من اللوحات عن هذا النيل المعطاء للحياة (النيل الأزرق والنيل الأبيض ١٩٣٤) كما رسم لوحات للإمبراطور هيلاسيلاسى الأول ولبعض من أعضاء البلاط الإمبراطورى، كذلك رجال الكنيسة فى أروابهم التقليدية، وفى هذه اللوحات حاول ناجى تحقيق التناغم بين الألوان الدافئة فى مقابل ظلال إفريقيا السوداء.

وفى منتصف الثلاثينيات انغمس ناجى تدريجياً فى المشروعات الثقافية، وكان يشعر بأهمية تواجد مجموعة من الفنانين والكتاب ممن يمكنهم التأثير على الأنشطة الثقافية فى مصر. وفى عام ١٩٣٤ سافر إلى اليونان ومقدونيا حيث رسم منزل محمد

على، وفي العام التالي أسس "الأتيليه" في الإسكندرية وفي عام ١٩٣٦ تم تكريم ناجى من خلال عرض لوحاته التي رسمها في إثيوبيا في صالة عرض تيت Tate في لندن. وفي السنوات من ١٩٣٧ - ٣٩ أصبح أول مدير مصرى لمدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة^(٢٢) ثم مديرا لمتحف الفنون الحديثة بها. وفي عام ١٩٤١ أسس ورشة دراسية في الأقصر انعكست آثارها بعد ذلك على الكثير من الفنانين المصريين الشباب، وبعدها سافر إلى فرنسا وإنجلترا وإسبانيا في مهمة ثقافية تبنتها منظمة اليونسكو لإنقاذ معبد أبى سنبل في الفترة بين ١٩٤٥ و ١٩٤٦ ثم عين مديراً للأكاديمية المصرية بروما منذ عام ١٩٤٧ وحتى ١٩٥٠، وفي عام ١٩٥٢ أسس الأتيليه في القاهرة وكان أول مدير له. وقد توفي ناجى في الاستوديو الخاص به في الجيزة عام ١٩٥٦ بعد قيام الثورة وتحول الاستوديو إلى متحف تكريماً له وتم افتتاحه عام ١٩٩١ .

ويبرز من تراث ناجى الذى خلفه مجموعتان من اللوحات: المجموعة الأولى استلهمها من الريف المصرى والأخرى التى أثارها تاريخ مصر، فقد كانت السنة التى أمضاها في الأقصر وزياراته المتعددة إلى مقر عائلته في الدلتا قد أعطت بصيرته القدرة على النفاذ إلى حياة القرية التى نقلها بدوره إلى لوحاته، ففي لوحة "راعى الغنم" (شكل ١٥-٩) نرى الفلاح ذا البشرة الداكنة والجلابية القطنية البنية يلف حول رقبتة رجلى هذا الحيوان ذا الفراء الأبيض^(٢٣)، ويزيد اللون الأبيض للعمامة التى التفت حول رأسه، والصدريّة التى يرتديها من تألق الضوء على وجهه. وهذا الاختصار في الألوان - الأبيض والبني - يبرز الملامح القوية لوجه الرجل، فى حين أن العمامة حول رأسه تعطى إيحاءً بالصلة مع الأيقونة المسيحية التى تمثل "الراعى الطيب". وفي لوحة "الصبي النائم" على جاموس النيل نجد أن محصول الرسم يملأ اللوحة^(٢٤) فى حين يرقد الصبي على ظهر الحيوان العريض الذى تظهر عظامه واضحة. أما إيحاء الحقل فتلمحه من خلال الخطوط الخضراء والزرقاء والصفراء التى تشق اللوحة. وهذا المعنى البسيط للوحة ينقل إلينا بوضوح أهمية الحيوان بالنسبة للفلاح المصرى. وفي لوحة أخرى "العودة إلى الديار"^(٢٥) نرى فتاة ذات رداء أحمر تجلس على مؤخرة جاموسة وتتحدد زاوية الرؤية تحدد من الخلف، فى حين توحى الخطوط الزرقاء والحمراء

على الجانبين بقرب مجيء الغسق في حقل خصب، ويستخدم ناجي عادة خطوطاً عريضة طويلة من الألوان ليعطى شكلاً وحركة لأعماله. كما أنه يستخدم الألوان أيضاً ليوحد العناصر المختلفة في موضوعاته وإعطائها منظوراً خاصاً. كما رسم ناجي أيضاً الرجال في القرنة وهم يتبارون في لعبة العصا التقليدية^(٢٦) في حين تجلس النساء وهن يخبزن الطحين^(٢٧)، وفي رؤية غير تقليدية للقاهرة يرسم صورة للنيل ولبعض الأواني الخزفية على فلوكة، كما يمكن رؤيتها من كوبرى الجلاء في الجزيرة^(٢٨)، وتتمحور الصورة الأساسية على فكرة عبور النيل، ولكنها تبرز أيضاً جزءاً صغيراً من "الجزيرة" حيث يضيف اللون الأحمر القوى للأشجار المثمرة حيوية لسعف النخيل.

ورغم إحساس ناجي تجاه مواطنيه المصريين الأشداء فإنه لم يكن جزءاً من عالمهم، ولم يعيش حياتهم، وهو يعترف بذلك من خلال "القرية"^(٢٩) وهي لوحة غير عادية تعكس سيرته الذاتية، وتصور هذه اللوحة زيارة عائلة ناجي إلى ضيعتهم في أبى حمص، ويقف ناجي بجوار شقيقته أو زوجته على حافة اللوحة في حين يجلس الأب على مقعد والعمدة بجواره على الأرض وحول هؤلاء الأشخاص الجامدين في أماكنهم بملابس الرجال الأوروبية والمرأة التي ترتدى ثوباً وتمسك في يدها بحقيبة، تموج القرية بالنشاط الحياتي المعتاد. رجال يرتدون الجلابية والماشية تسير في طريقها إلى الحقل وصبي عار يطارد إوزة وقطة تتمسح في رجل المقعد، ونشعر هنا أن ناجي جزء من المشهد ولكنه يقف على حافته.

أما الجديد في أعمال ناجي فهو تأثيره كمؤرخ عليها، فخلال ثلاثين عاماً ما بين ١٩١٩-١٩٥٠ ظلت فكرة الحرية تستحوذ عليه، وقد ترجم هذه الفكرة إلى لوحات ملحمية وتاريخية تمجد إنجازات مصر القديمة، وتبرز إمكانياتها المستقبلية، ففي عام ١٩١٩ بعد عودته من جيفرنى رسم لوحة "بعث مصر" أو "موكب إيزيس"^(٣٠) والتي علقت في قاعة مجلس الشيوخ منذ عام ١٩٢٢. ومثل مختار فهو يحدد ويمجد هوية مصر الفرعونية. وتبلغ مساحة اللوحة ٧ أمتار x ٢ أمتار وهي أول لوحة ملحمية لمصر الحديثة تعبر رمزياً عن الأمة وشعبها في سعيها للحرية، كما أنها تمجد إيزيس الآلهة

التي يصاحبها في موكبها المنتصر الزارعون والحاصدون في مصر الخصبة. وفي نفس العام رسم لوحة لجولييت أدام ، ورغم أن هذه اللوحة كانت ببساطة صورة لامرأة ترتدي رداءً أصفر وتجلس على مقعد أزرق وتحت قدميها إناء مليء بالفاكهة فإن لها أهميتها الخاصة فجولييت أدام كانت محررة في جريدة La nouvelle revue والتي كانت تصدر شهرياً، وكانت امرأة مثقفة ذات نفوذ قوى احتضنت الوطنية المصرية وكانت راعية لمصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني ومن أوائل مؤيدي فكرة أن مصر للمصريين.

وفي عام ١٩٤١ رسم ناجي لوحة تعبر عن الولاء لمحمد علي (شكل ١٥-١٠) (٣١) ويبلغ طولها خمسة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار وتصور اللوحة محمد علي في القلعة يستقبل وفداً من وجهاء القوم يتقدمهم عمر مكرم، جاءوا لتقديم الولاء للقائد الألباني بصفته والياً عليهم بدلاً من الوالي المعين من قبل البلاط العثماني الذي فقد شعبيته وتشير هذه اللوحة إلى الأزمة التي حدثت في مصر ١٨٠٤-١٨٠٥ (٣٢). وكان عمر مكرم تاجراً من القاهرة له احترامه وله سلطته ونفوذه، وفي تجميعه للصناع والحرفيين ضد غزو نابليون تحول إلى بطل يعكس صراع مصر للحصول على استقلالها، ويشير ناجي في لوحته إلى أن الشعب الذي يمثله وجهاء القوم المدنيين يضيفى شرعية لاستيلاء محمد علي على السلطة، ويؤكد هذا المعنى بقوة استخدام ناجي للون الأحمر والأزرق والأصفر.

وفي قبرص دعم ناجي فكرة الحرية أيضاً في لوحتين رسمهما عام ١٩٥٠، وكانت زوجة ناجي قبرصية - يونانية، ورغم أن ناجي كان مسلماً فهو في دعمه للقضية اليونانية غلب الحرية على معتقداته الدينية. ولذلك ففي لوحته Enosis ناصر حق القبرصيين في اختيار اتحادهم السياسي مع اليونان. وتمجد لوحته للأسقف مكاريوس شخصية رجل كان بطل المعركة ضد الإمبريالية البريطانية دفاعاً عن حرية شعب قبرص.

بالإضافة إلى هذه اللوحات التاريخية، أبدع ناجي بعض المشاهد التي أبرزت إسهامات مصر في حضارة العالم، ففي عام ١٩٢٥ رسم خمس لوحات كبيرة لمستشفى بالإسكندرية جسدت تاريخ الطب، فصور فيها أمنحوتب، وموسى وابن سينا، وفي عام ١٩٢٧ عهد إليه بعمل الديكورات الخاصة بالقسم المصري في المعرض الدولي بباريس، فساهم بجدارية مكونة من ٧ لوحات أطلق عليها عنوان "دموع إيزيس". وما بين عام ١٩٢٩-٤٩ انهمك في رسم لوحة "مدرسة الإسكندرية" وتمجد فكرتها التغيرات الثقافية التي طرأت على دول البحر المتوسط، وتضم اللوحة مباني ذات أعمدة كلاسيكية تشكل خلفية لمجموعة الرموز التاريخية والمعاصرين والأوروبيين والمصريين الذين أسهموا في هذه الحضارة العامة سواء كانوا فنانيين أم علماء أم قانونيين، وقد عرضت هذه اللوحة في معرض البينالي في فينيسيا ثم استحوذت عليها محافظة الإسكندرية حيث تصدر القاعة الرئيسية بها، وفي إعادة تجديد النمط الزخرفي التقليدي في الرسم حاول ناجي أن يجعل للفن دوراً تثقيفياً. فقد كان يريد أن تستثير أعماله إحساس المصريين بعظمة الماضي في نفس الوقت الذي حاول فيه أن يسبغ على الفن دوراً اجتماعياً يهدف إلى تشكيا، فن وطني يتدمج فيه الفنان مع مجتمعه. ولذلك ركز على العصر الفرعوني وعصر محمد علي ليعطي رؤية مترابطة للسرد البرامجي الذي كانت تتضمنه الكتب المدرسية التي أشار إليها باراك سالوموني في الفصل السادس من هذا الكتاب.

قدمت الإسكندرية أيضاً الفنان محمود سعيد ١٨٩٧-١٩٦٤ وكان رجلاً خجولاً هادئ الطبع ينحدر من أسرة عريقة بها^(٣٢)، فقد تزوجت ابنة أخيه فريدة ذو الفقار من الملك فاروق، وكان مقر الأسرة في حي الأنفوشي بالإسكندرية بجوار مسجد أبي العباس المرسى. وقد تعلم محمود الصغير اللغة العربية والإنجليزية والفرنسية في منزله، وما بين السابعة عشرة من عمره والتاسعة عشرة درس الرسم على يد مدام إميليلا كازوناتو في نفس الوقت الذي كان يتلقى فيه دروساً في استوديو زنانيري في الإسكندرية، وفي عام ١٩١٨ أقام أول معرض له في الإسكندرية، وخلال فترة الصيف في السنوات ما بين ١٩٢٠ و ١٩٢٠ كان يتردد على المتاحف والكنائس القوطية أثناء

رحلاته إلى أوروبا، ولكنه لم يلق أى تشجيع من عائلته التى كانت ترى أن الفن لا قيمة له سوى أنه على ما يبدو محل تقدير الأجانب ونتيجة لذلك اضطر لدراسة الحقوق بناءً على أوامر أبيه ليصبح فى عام ١٩٢٢ مساعد قاض فى المحاكم المختلطة فى المنصورة. وخلال العشرين عاماً التالية كانت حياة محمود سعيد ممزقة ما بين قيم مجتمعه التى تمثلت فى وظيفته كمستشار قانونى له احترامه فى محكمة الاستئناف وبين رغبته الشخصية الجارفة فى أن يرسم. وقد انعكس هذا الصراع فى لوحتين ذاتيتين له رسمهما عام ١٩١٩، الأولى تصوره كمحام شاب ذى شعر أسود مصقول^(٣٤)، والثانية تمثله ممسكاً بلوحة ألوان الرسم وهو مشعث الشعر وفى عينيه نظرة حادة ثاقبة (شكل ١٥-١١) وحتى بعد موت والده ظل محمود سعيد يمارس القانون ولم يتركه إلا فى سنة ١٩٤٧ حين قدم استقالته كمستشار فى محكمة الاستئناف، أى أنه كان فى الخمسين من عمره حين كرس وقته كله للرسم، رغم أنه فى ذلك الوقت كانت هويته كفنان قد استقرت من خلال العديد من الأعمال المتواصلة.

وتعكس لوحات محمود سعيد الصراعات بداخله بين التقاليد والحرية الشخصية، وبين التزامه نحو مجتمعه والتعبير عن ذاته، وبين الكبت والرغبة، وبين ضبط النفس وعواطفه المتأججة. وقد رسم محمود سعيد بعضاً من اللوحات أثناء رحلة له إلى مرسى مطروح وإلى لبنان، إلا أن لوحاته الرئيسية التصقت بالإسكندرية. وكنموذج يمثل مدينته والطبقة التى ينتمى إليها كان واقعه الثقافى يرتبط أكثر بالواقع الأوروبى وكانت حياته بعيدة تماماً عن حياة أغلب المصريين. ورغم ذلك فإن موضوعات لوحاته التى يمتزج فيها الخيال والواقع كان لها قاعدة مصرية حقيقية. وهو الوحيد من رواد الفنون الأوائل الذى رأى فى عقيدته الإسلامية موضوعاً يمكنه تسجيله، ففي عام ١٩٣٤ بعد شفائه من مرض كاد يودى بحياته، رسم نفسه وهو ملتحي يرتدى جلابية بنية اللون مع خلفية لإحدى القرى^(٣٥)، وهى فكرة مثيرة تؤكد حقيقة الحياة، فوراءه إلى اليسار نلمح امرأة منهمكة فى عملها اليومي فى نشر الغسيل، وإلى اليمين موكب جنازة يتقدم نحو المقابر.

وفى العديد من أعماله التالية أظهر محمود سعيد وعياً جديداً تميز بحساسية شديدة تجاه بعض الجوانب الدينية لم يتطرق إليها فنان مصرى آخر من قبل. فمثلاً فى لوحته "الصلاة" ١٩٣٤ (شكل ١٥-١٢) نرى تجسيداً مثيراً ومؤثراً لمجموعة من الأشخاص وهم يؤدون الصلاة فى إيمان وخشوع وألوان اللوحة المصرية خالصة فاللون العاجى، والبنى، والأزرق والأخضر التى توجد فى القمريات (الزجاج الملون) هى صدى لألوان الملابس التى يرتديها المصلون وهى تضيف شعاعات من الضوء على الرجال المنحنيين بما يعطى بعداً ميتافيزيقياً للوحة. كما رسم أيضاً لوحة "الذكر" (٣٦) تمثل مجموعة من المتصوفين أثناء ممارستهم هذا الطقس حيث يدورون فى حلقة على نغمات موسيقية معينة وهم فى حالة غشية ونشوة (٣٧). كما رسم أيضاً لوحة عن "الزار" حيث يجتمع الرجال والنساء ويمارسون احتفالاً لرقيه أو تعويذة، وفى لوحة "شيخ يؤدى الصلاة" سنة ١٩٤١ يسجل سعيد الصلة المباشرة بين الرجل وخالقه ويتعارض شكل الرجل الجالس فى استدارته وثوبه الذى يضمه وقد انحنى رأسه فى تأمل مع صفوف الأعمدة الحجرية المستقيمة اللانهائية تقريباً، والألواح الخشبية للمسجد العارى من كل زينة أو زخرف والذى يمتد وراءه، فى حين ينحرف شعاع من الضوء يغمر الرجل الجالس.

وقد رسم سعيد أيضاً لوحات لعائلته، لأمه وأبيه وأخته وزوجته ثم لابنته نادية فى مراحل سنوات عمرها المختلفة، وكذلك بعض المناظر الطبيعية، أما رسوماته عن الإسكندرية فتعتبر أكثر أعماله إثارة، فقد صور الكورنيش وهو مهجور ليلاً وضوء القمر الشاحب يغلفه، ثم ضفاف القناة خلال النهار (١٩٢٩) وقد مالت عليها أشجار النخيل لتعطى توازناً مع الخط الهندسى المستقيم لأشكال المنازل وأشرعة القوارب فى تجاور حى أخاذ (٣٨). وكان سعيد يميل دائماً إلى رسم الرجال نوى الجلابيب الزرقاء وهم يمتطون حميرهم البيضاء المكتنزة.

إلا أن أكثر الموضوعات إلحاحاً عليه كان رؤيته للمرأة التى تشكل العدد الأكبر من موضوعات لوحاته. وبنظرة سطحية فإن مزج سعيد لموضوع الدين والمرأة يبدو متناقضاً إلى حد ما. إلا أن سعيد لكونه مسلماً كان له اهتمام بالبعد الصوفى للإسلام وبالتالي

كان يعى تماماً أن الخليفة كلها تخضع لسيطرة الخالق وأنه يحب كل مخلوقاته "فالإله جميل يحب الجمال"^(٢٩) والمرأة هي "شعاع من الله"^(٤٠) لذلك كان سعيد الرسام والمسلم يرى في المرأة موضوعاً له شرعيته ويحتاج إلى تقدير إضافي يعزز الجوانب المختلفة للجمال المصري. والمرأة عنده يمكن تقسيمها إلى نوعين: المرأة الخيالية نمطية الشكل، والمرأة الأخرى الحقيقية التي تتميز بالأصالة. ولذلك نرى أن النساء اللاتي رسمهن من وجهة النظر الأولى يبدون على شاكلة واحدة ويمكن التعرف عليهن من خلال عيونهن السوداء الواسعة والأنوف المسطحة والشفاه الغليظة والوجوه المستطيلة، وفي ملامح تلك النساء وأوضاعهن ينجح سعيد في تجسيد جوهر المرأة المصرية بنت البلد الملتصقة بالأرض والواثقة من نفسها ذات الذكاء الواعي وسرعة البديهة^(٤١). ومن هذه المجموعة تبرز ربما أشهر لوحاته "حياة المدينة" ١٩٢٧ (شكل ١٥-١٣) حيث يتصدر اللوحة رسم لثلاث نساء يتجمعن على شكل مثلث وقد التفت الملاية حول أجسادهن في إثارة وهن يعبثن ببراقعهن الشفافة، وعلى جانب منهن يقف شربتلى، وعلى الجانب الآخر نجد رجلاً وطفلاً يمتطيان حماراً أبيض. أما خلفية اللوحة فتتمثل النيل ومسجد محمد على في القاهرة.

أما الجسد العارى عند سعيد فهو يخضع أيضاً لهذا النوع الخيالى النمطى للمرأة فسواء كانت جالسة أو واقفة أو متمددة فى قارب فالمرأة المصرية هي فينوس سمراء جميلة على شواطئ البحر المتوسط^(٤٢)، وتمجد ريشة محمود سعيد جمال الفلاحة الذى يتميز بالقوة والبساطة وعدم التعقيد. أما اهتمامه بجسدها فهو اهتمام فنان. فهو ليس مثقفاً يختلس النظر إلى جسدها، كما أنه لا يستخدمه كما فعل كثير من الفنانين الأوروبيين المستشرقين كتعبير عن أوضاعهن السياسية أو الثقافية والاقتصادية. أما فى المجموعة الثانية فالمرأة تبرز كشخص حقيقى فى أوضاع مختلفة من خلال رؤية سيكولوجية ثابتة، فيرسم الأمهات والفلاحات والخدم والأقارب والمحظيات والنبيلات، وفى هذه اللوحات يعبر عن شخصية المرأة فى حقيقتها وذاتها ويمنحها صفاتها ودورها فى الحياة وليس مجرد كونها إحدى جوارى الحريم الشرقية.

فمثلاً يمكن مقارنة لوحته "حرم يوسف ذو الفقار"^(٤٣) بلوحته عن "الخادمة تنتظر مولوداً" (شكل ١٥-١٤) فالمرأتان على الطرفين النقيضين من الطبقة الاجتماعية، إلا أن سعيد يذيب هذه الفواصل الاجتماعية بينهما من خلال التماثل في وضع جلوسهن واللون البرتقالي لملبس كل منهما. وكان سعيد أول فنان مصرى يحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٥٩^(٤٤).

(١٩٣٥ - ١٩٥٠)

فى هذه المرحلة تكمل مجموعة ثانية من الفنانين مشوار تطور الفن المصرى الحقيقى. فبينما نجحت المجموعة الأولى فى تقديم فن اعتمدت تشكيلاته على قاعدة غربية، عبرت المجموعة الثانية عن فن تحرر من تأثير وأنماط الفن الغربى والأساليب الأكاديمية الأوروبية، فن تشرب فى جمالياته باهتمامات وأساليب مصرية خالصة.

وفى حين كانت حركة الاستقلال عام ١٩١٩ حافزاً ودافعاً قوياً لتلك المجموعة الأولى من الرواد لتستلهم موضوعات رسوماتها من أرضها وثقافتها وتاريخها، شكلت القوى الاقتصادية والسياسية التى أحاطت بالمنطقة والأحداث العالمية التى أثرت فيها والتى تمثلت فى الحرب العالمية الثانية منهج وأسلوب فنانى المرحلة الثانية. وفى حين اتسمت المرحلة الأولى عند هؤلاء الرواد بوصف مصر من منظور خارجى موضوعى واقعى أضاف الفنانون فى المرحلة الثانية "تعبيرات بصرية عن عالم الذات النفسى واللاوعى عند العامة".

ويعتبر كل من عبد الهادى الجزار (١٩٢٥ - ١٩٦٥)^(٤٥) وحامد ندا (١٩٢٤ - ١٩٩٠) اصدق نماذج معروفة لهؤلاء الفنانين الرواد فى هذه المرحلة الجديدة. وكان ظهورهما أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، وهى فترة ساهمت كثيراً فى تطور فهم وتحديث رؤيتهم. فقد كانت سنوات خلاقة صاخبة حيث أثرت الحرب العالمية الثانية على أحداث العالم سياسياً واقتصادياً، ووجدت مصر نفسها منساقة رغماً عنها إلى خضم هذه الحرب، فقد كانت قاعدة رئيسية للقوات المتحاربة من جميع أنحاء الإمبراطورية البريطانية حين

انتقلت الحرب إلى أوروبا الشرقية وشرق إفريقيا . بالإضافة إلى أن مصر كانت طرفاً في النزاع العربى فى المنطقة ففى السودان حاولت مصر أن تنهى سيطرة البريطانيين عليها، وفى فلسطين دعمت القضية الفلسطينية سياسياً واقتصادياً بعد أن أصبحت القضية الفلسطينية قضية عربية.

وفى الثلاثينيات كان دخل مصر الأساسى ونصيبها من السوق العالمى يأتى من خلال صادراتها من القطن الذى اعتمدت مصر عليه بشدة، ثم جاءت فترة الكساد الكبير الذى ساهم مع الحرب فى انهيار أسعار القطن مما كان له أثره فى شعب يتكاثر عدده بصورة واضحة. ثم ظهرت حركة الإخوان المسلمين الذين أسسوا جماعتهم عام ١٩٢٨ من خلال دعوة إسلامية متشددة للإصلاح لتتحول بعد ذلك إلى منظمة عسكرية اعتنقت الإسلام كعقيدة وأيديولوجية، وساد شعور عام بالقلق وعدم الأمان وجد فى الفن تعبيراً له.

ارتبط الجزائر وندا بصداقة قوية، وسارت حياتهما وما صاحبها من تدريب وتوجهات فنية على خطين متوازيين حتى أوائل الخمسينيات. ولم يكن الفرق بينهما فى العمر سوى سنة واحدة، وكان الاثنان ينحدران من عائليتين محافظتين لها نفس التقاليد والعادات فقد كان الأبوان مسلمين وكان والد الجزائر مدرساً بالأزهر وهو المركز الرئيسى لتدريس المناهج الإسلامية، ونشأ الصبيان فى أحياء القاهرة الإسلامية التى كانت متشبعة بالروح التقليدية. فقد عاش الجزائر فى حى السيدة زينب، وهو الحى الذى يستقر فيه مسجد السيدة زينب حفيدة الرسول محمد (ﷺ) وواحدة من الأولياء فى مصر منذ العصر الفاطمى. أما ندا فقد عاش فى حى الخليفة فى سفح القلعة حيث يوجد مسجد الرفاعى وهو ولى طائفة الرفاعية الذين يشتهرون بقدرتهم على اجتذاب الثعابين. وكانت هذه الأحياء متشبعة بالإسلام فى جوانبه الشكلية العامة حيث كان السكان منغمسين فى عالم تفسر فيه القوى الروحية كل الأفعال^(٤٦). والتحق الاثنان بمدرسة الحلمية الثانوية وكان معلمهم رجلاً متميزاً شخصية وعلماً وهو حسين يوسف أمين (١٩٠٤-٨٤)^(٤٧).

كان اهتمام حسين أمين بالفنون قد أوصله إلى أكاديمية الفنون الجميلة في فلورنسا عام ١٩٢٤ ومنها إلى البرازيل عن طريق إسبانيا حيث أمضى سنوات عديدة في تدريس الرسم. وعقب عودته إلى مصر عام ١٩٣١ هجر مستقبلاً فنياً ناجحاً كرسام ليصبح مدرساً في مدرسة الجميلة الثانوية في القاهرة. وينتمي أمين إلى مجموعة رواد تدريس الفنون والتي بدأها حبيب جورجى الذى كان مفكراً ونحاتاً. وكان جورجى أثناء دراسته في لندن قد تعرف على الأساليب الجديدة في تدريس الفن التي كان يمارسها هربرت ريد والتي كانت تؤكد على أهمية الأسلوب الطبيعي الفطري في التدريس، وبالتالي فلأنه لم يكن مقتنعاً بأسلوب تدريس الفن المصرى والذي يسير على نهج العادات الأوروبية، بدأ يمارس تجارب ذاتية في التدريس وكان يؤمن بأن جميع الأطفال لديهم مواهب فنية فطرية كامنة في أعماقهم يمكن تغذيتها من خلال تشجيعهم واستخدام الأسلوب الملائم في لقدراتهم^(٤٨). وسار أمين أيضاً على نفس هذه الخطى من ملاحظة المواهب الصغيرة وتشجيعها على التطور، وكان تلاميذه من خلفيات اجتماعية مختلفة بعيدة تماماً عن قنوات الثقافة الفنية المعروفة، ولذلك كان يحفزهم على الإبداع التلقائى. ومن خلال تعرفهم على ذاتهم، وتحليل هذه الذات تمكن من أن يساعدهم على اختراق اللاوعى ليكتشفوا أحاسيسهم ووعيمهم الخاص، ولهذا اعتمد فهمهم على الاتجاهات الثقافية والاجتماعية التي كانت تحيط بهم.

كان يوسف أمين أكثر من مدرس وناصح لعبد الهادى الجزار وحامد ندا. فلم يكن أمين فناناً مثقفاً عالمياً فحسب بل كان جزءاً من مجتمع المثقفين الذى ميز القاهرة الثلاثينيات والأربعينيات وهى فترة كانت تموج بالحوار الثقافى والمؤثرات الفنية الحديثة. وكان أمين صديقاً ليوسف عفيفى وهو مدرس آخر يتمتع بشخصية ديناميكية كما كان ملتصقاً بحبيب جورجى. وكان يوسف عفيفى من هؤلاء الذين ألهمهم تعليم هربرت ريد وجون ديوى. وكان مدرساً للرسم في مدرسة السعيدية الابتدائية وعلى شاكلة يوسف أمين يطمح فى تحرير الفن المصرى من الممارسات الغربية. ومن تلامذته كمال التلمسانى (١٩١٧-١٩٦٧) ورمسيس يونان (١٩١٣-١٩٦٠) اللذان أصبحا بعد ذلك تحت رعاية الفنان جورج حنين الذى كان بدوره واحداً من دائرة معارف حسين يوسف أمين^(٤٩).

كان جورج حنين (١٩١٤-١٩٧٣)^(٥٠) كاتباً كثير السفر والترحال متعدد اللغات درس فى السوربون وكان صديقاً لأندريه بريتون وبعض الرواد الفرنسيين الأوائل فى الفن التجريدى^(٥١)، ولأنه كان يستنكر الرقابة الفاشية وهدم الأعمال الفنية لأنها "منحلة" كما كانوا يدعون، فقد أسس حنين جماعة "الفن والحرية" فى يناير ١٩٣٩ وهى هيئة ضمت مجموعة من الفنانين كان هدفها الدفاع عن حرية الفن والثقافة ومحاولة ربط الفنون المحلية بالحركات الفنية العالمية. وقد التحق الفنان والكاتب والناقد فؤاد كامل (١٩١٩-١٩٧٣) بهذه الجماعة وكان بدوره يقوم بتدريس الرسم فى إحدى المدارس الثانوية كما كان قد تلقى تدريبه فى مدرسة الفنون الجميلة (١٩٢٩-١٩٣٩) وأصبح المتحدث باسمها، كذلك التحق أيضاً بهذه الجمعية كل من التمساني ويونان.

وتحت تأثير بشاعة الحرب العالمية الثانية وأحوالها أعلنت جمعية الفن والحرية عن أهدافها من خلال مجموعة مقالات وقرارات. وكانت البداية ثورتهم على المنهج الكلاسيكى الأكاديمى الذى اعتبروه متخلفاً وراكداً واستبدادياً. ثم سخرُوا من اللوحات التى تصور الأزهار والفواكه الطازجة الموضوعة فى أطباق نظيفة وانتقدوا أيضاً شكل الفلاحات اللائى يتميزن "بنضارة الوجه والرشاقة"^(٥٢) وكان اقتناعهم أن الفنان - إذا أراد أن يعبر عن الفن الحقيقى - يجب أن يلتحم مع حقيقة النفس الإنسانية واللوعى داخل ذاته، وهى حقيقة تأسست على نظريات فرويد وتحليلاته. كما أعلنوا أيضاً رفضهم لكل ما يحد من حرية الفرد. ونتيجة لذلك اتجهوا إلى اعتناق المذهب السريالى كتعبير عن حركة التحرير هذه. وما بين أعوام ١٩٣٨ و ١٩٤٥ وفرت لهم هذه الحركة التحرر من الاتجاه التشكيلي الذى كان متسيداً المرحلة الفنية الأولى. ففي معرضهم الأول فى فبراير ١٩٤٠، أعلن الفنانون السرياليون عن تمردهم على مجتمعهم، وعلى المنهج الكلاسيكى الأكاديمى، وكان معظم إنتاجهم فى معرضهم الأول يدور حول فكرة النفس الإنسانية وتأثير الحرب عليها. فقد شعر أعضاء الجمعية أن واجبهم هو تفتيح عقول وعيون العامة على الحقائق المفزعة عن الكوارث والقسوة التى تتمخض عن الحروب، فصدموا المتفرجين بصور تمثل التشويه والعبثية واللامعقول حيث جسدت اللوحات أشكالاً لجذوع أشجار لها أئداء، ووجوه ذات عيون فارغة محدقة، وأجزاء من أجساد بشرية مقطوعة وسط مناظر طبيعية خاوية جرداء.

إلا أن هذا التحدى لكل من الطبقة المحافظة والوطنية كان سبباً فى ابتعادهم عنهم ومن ثم فقدانهم لدعمهم المادى والسياسى. وبالتالي لم تستمر هذه الجمعية وفنّها السريالى طويلاً، إلا أن تأثيرها كان عميقاً^(٥٣)، فهذا الفن الجديد والأساليب التى انتهجتها الجماعة فى رؤية الحقيقة والتعبير عنها كان سبباً فى تغيير الأرضية الفنية وزرع بذور جديدة فيها، حيث أدت هذه الحركة السريالية إلى فتح الباب أمام الفن التعبيرى الشائع لعبد الهادى الجزار وحامد ندا.

كان حسين أمين يؤمن بأن خلق الصلة والتواصل بين الفنانين الشبان يمكن أن يشجع المواهب الصغيرة، وتحقيقاً لهذه الغاية أسس جماعة الفن المعاصر. وكان هدفها المعلن هو احتضان مدرسة فنية مصرية متحررة من تأثير الفن الغربى. وافتتحت هذه الجمعية معرضها الأول فى مايو ١٩٤٦^(٥٤) وبلغ عدد اللوحات التى تم عرضها فى قاعة مدرسة الليسيه فرنسيه فى القاهرة مائة وتسعون قطعة، وكان تأثير هذا المعرض قوياً وصادماً، فقد أدرك النقاد والعامّة أنهم يشاهدون اختراقاً جذرياً للرؤية التصويرية المصرية. وكانت جميع الموضوعات معبرة عن الحياة الشعبية، إلا أن التأكيد كان على إبراز الحقيقة خلفها، قدريتها، وحالة الخدر التى تعيشها ثم نغمة الكآبة والقسوة والإثارة التى تغلفها، فقد تمكن هؤلاء الفنانون الشبان من تجسيد عالم هؤلاء الناس الذى يشيع فيه الفقر والجهل والخرافة فيشل حركته، عالم يعرفونه جيداً وكانوا جزءاً منه. وقد عبروا عن كل ذلك من خلال رؤية رمزية تقليدية، فقد لجئوا إلى استخدام صور شائعة للسحر كرموز عن رؤيتهم لما يدور فى مجتمعهم، فمثلاً كانت السلحفاة تعبر عن الصبر والسلام، والفأر يمثل اللوعى الماكر الفاسد (شكل ١٥-١٥)^(٥٥) فى حين كان الثور رمزاً للجنس والخصوبة، أما القط فكان يعبر عن المرأة، والأشباح، والخلود. وقد جمع بين هؤلاء الرسامين الشبان الإحساس بأن الفن له دور فى المجتمع وأنه يجب أن يظهر مأساة ووحشة الإنسان^(٥٦).

وفى معرضهم الثالث عام ١٩٤٩ والذى أقيم فى جمعية الشبان المسيحيين ألقى القبض على يوسف أمين بصفته مسئولاً عن المعرض والجزار بصفته فناناً بسبب عرض لوحة "الجوع"، وقد تغير اسم اللوحة فيما بعد إلى "مسرح الحياة"^(٥٧). وتظهر اللوحة

ثمان نساء واقفات فى صف واحد، وقد ارتدت كل منهن ملابس مختلفة عن الأخريات، وتحمل واحدة منهن طفلاً، وجميعهن يتطلعن بنظرات فارغة نحو المشاهدين وتمثل كل واحدة منهن وجهاً مختلفاً للمرأة المصرية، وأمامهن جميعاً أطباق فارغة من الصفيح. والرسالة التى تصل إلى الجميع هى نقد اجتماعى سياسى، فمصر تعاني من الجوع، ونساؤها فشلن فى الحصول على تحررهن الذى كن يتطلعن إليه ويتوقعنه عام ١٩٢٣. وكان استخدام الفن كنوع من النقد وتقرير الواقع خروجاً جديداً عن المألوف. وقد تدخل محمد ناجى ومحمود سعيد مع المسئولين للإفراج عن أمين والجزار من سجنهما.

وما بين عام ١٩٤٨ و١٩٥١ كان إنتاج الجزار غزيراً فقد قدم أربعين لوحة زيتية فى معرض افتتح تكريماً له فى متحف الفن المصرى الحديث، وتعتبر لوحته "زواج زليخة" (عام ١٩٤٨)^(٥٨) صك اتهام لزواج الأطفال - فالطفلة زليخة تقف بجسدها الضئيل بجوار أمها التى تقطف بيد ضخمة (رمز القوة والسيطرة) وردة حمراء من على طبله مقلوبة رمز الأمل الذى مات قبل أوانه، وتحقق الطفلة بعيون حزينة، ورأس منحنية صامته إلى فأر أبيض كبير.

وتعتبر أشهر لوحة للجزار هى "الأحمق الأخضر" ١٩٥١ (شكل ١٥-١٦) وهى عبارة عن صورة جانبية لرأس خضراء اللون خلف أذنها وردة حمراء فى حين تتدلى من الأذن قرط يخنث الرأس وتحيط ذراعان ممتدتان مثنيتان عند الكوع بالرأس وفى منتصف كل كف "عين"، وهذا الأحمق يقوم بدور طارد الأرواح الشريرة فى الموالد والاحتفالات الدينية، ويرمز اللون الأخضر إلى الخصوبة والنماء كما كان يشير سابقاً إلى أوزوريس. إلا أنه أيضاً يشير إلى النبى محمد وآل البيت المطلوب شفاعتهم. أما اليدان المرتفعتان فى الصلاة وكذلك العينان فهما يتجنبان الشر ويضيفان على اللوحة بعداً قبطياً شائعاً. وبالتالي فإن اللوحة تؤكد فى مضمونها على الموروث الدينى الشعبى. أى أن أعمال الجزار تبرز رؤية بالغة الروعة لقوة واستمرارية تأثير الفن الشعبى. وهنا يكمن تفرداها^(٥٩).

وقد حاول صديقه حامد ندا أيضاً اكتشاف عالم العامة الغريب المليء بالخرافات والدهشة والمأسى الإنسانية، وقد جسدت لوحاته التي رسمها في أوائل الأربعينيات هؤلاء المترددين على مقابر القديسين والأولياء حيث كانوا ينامون ويأكلون ثم ينهارون في نوبات هستيرية. وقد جسدت ندا الشلل المميت لحياة هؤلاء الأشخاص من خلال أشكال صماء مكتنزة كأنها منحوتة من خشب. ولأن لا شيء يميزها عن غيرها فهي بالتالي فاقدة لفرديتها. وتعتبر لوحته "قنديل الظلمة"^(٦٠) نموذجاً لأسلوبه في تلك المرحلة (شكل ١٥-١٧) وفي هذه اللوحة نجد صورة قنديل كبير غير متوازن النسب يلقي بضوئه على ثلاثة أشخاص: الأب والأم والطفل الذين يقفون مشلولين وهم يحدقون بنظرات جوفاء فارغة في ضوءها الساطع. وقد تشتت جماعة الفن المعاصر عام ١٩٥٤، ولكن في هذه المرحلة كان عبد الهادي الجزار وحامد ندا قد غادرا حيهما الذي نشأ فيه وكان أسلوبهما قد تغير بعد ثورة ١٩٥٢ .

أمضى حامد ندا عام ١٩٥٦ في الأقصر كان خلالها يرسم في الأتيليه الذي أنشأه محمد ناجي. وقد أدى اهتمامه بالسحر ورموز الخرافات إلى رسمه لوحات خلال السبعينيات تعكس تعبيرات شعبية شديدة الخصوصية (شكل ١٥-١٨)^(٦١). إلا أنه في لوحته الأخيرة نستطيع أن نلمح بقية من تأثير السريالية في أعماله وأصبحت أفكاره وأشكاله متكررة. وتعكس تطورات سنواته الأخيرة، والصمم المفاجئ الذي داهمه، ورغباته الجنسية رؤية داخلية للعناصر التي تتشكل منها لوحاته. فنرى نساءً حسيات يرتدين ربطات ساق تتعلق فيها جواربهن وأسرة تحيط بها أعمدة من حديد، وديوك وقطط ومخلوقات غريبة تشبه سرطان البحر، وخيول وعازفي طبول (وهي صورة حاضرة دائماً في لوحاته). وقد مات حامد ندا عام ١٩٩٠ وما زال رساماً مصرياً مؤثراً ولكن دون أن يكون ناقلاً مبدعاً للاتجاهات الحديثة.

التحق عبد الهادي الجزار بمدرسة الفنون الجميلة عام ١٩٤٤ ونال شهادته عام ١٩٥٠ بمرتبة الشرف، وفي عام ١٩٥٤ حصل على منحة حكومية لدراسة الفن في إيطاليا، وامتدت دراسته أربع سنوات أخرى (١٩٥٧-١٩٦١) في روما. وعقب عودته إلى مصر تم تعيينه مساعد أستاذ في مدرسة الفنون الجميلة، وبعد عام ١٩٥٢

أصبح الجزار مؤيداً متحمساً للثورة، واتخذت رسوماته منحني جديداً تمثل في البعد عن تصوير روح الإنسان، والمجهول ليركز موضوعاته في التعبير عن مصر وعن الصلة الجديدة بين الإنسان والتكنولوجيا. وفي عام ١٩٦٢ حصل على الجائزة الأولى في مسابقة "الثورة - ما بعد عشر سنوات" عن لوحته "الميثاق"^(٦٢)، وهي لوحة تعكس بصورة رائعة "مصر" الحديثة وأهدافها السياسية الشاملة حيث نرى مصر بجلدها الأخضر الذي يرمز إلى بعث أوزوريس متوجة بشعار الجمهورية وهي تقف في منتصف اللوحة مثل آلهة الشجر الفرعونية وممسكة في يدها بميثاق الثورة، وقد جثا أمامها عامل وفلاح. وفي الخلفية يتعانق الإمام والقسيس. أما العامل فيمسك بيده مفتاح ربط وحوله أجزاء من آلة رمزاً لمستقبل مصر الصناعي في حين ينظر الفلاح إلى بذور قطن مزدهرة ويدها مليئتان بهم، وبجواره صحيفة معنونة "مالك الأرض" وحول كتفيه تلتف عباءة مكتوب على حافتها بعض آيات قرآنية (١١:١٣) "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" وتشير هذه اللوحة إلى أن الجزار قد أعطى ظهره لمن عاشوا الماضي ليحتضن إيجابيات المستقبل.

وربما تكون رؤية الجزار قد تغيرت، إلا أن اهتمامه وتركيزه على الإنسان العادي لم ينحسر، ففي عام ١٩٦٥ - قبل موته المفاجئ - اختلفت رؤيته في لوحته عن السويس عن تخليد محمود سعيد لها منذ عشرين عاماً سابقة وتعكس اللوحتان مقارنة مثيرة للاهتمام بين اتجاهين مختلفين في الأسلوب والتعبير لمجموعة الرواد الفنانين الأوائل، فمحمود سعيد الذي ينتمي إلى المرحلة الأولى يركز الانتباه على الفخامة والثراء الذي صاحب احتفالات افتتاح القناة عام ١٨٦٩ (شكل ١٥-١٩)^(٦٣) حيث يلعب الأدوار البارزة على مسرحها الخديوي إسماعيل وملوك أوروبا وضيوفه وهم جميعاً يشاهدون من خلف الستائر. وهنا نلاحظ أن سعيد يمجّد أوروبية مصر كما أنه وقع باسمه بالحروف اللاتينية. أما عبد الهادي الجزار فكان توقيعه باللغة العربية، وفي لوحته (شكل ١٥-٢٠)^(٦٤) وكان اهتمامه الأول بالعمال السخرة من الفلاحين اللذين وقع على أكتافهم عبء إنجاز هذا الممر المائي الضخم، لذلك تتوسط اللوحة مجموعتهم

فى مشهد متسع لا إطار له أو حافة بحيث يشعر المشاهد أنه يكاد يكون جزءاً من اللوحة. وللمرة الأولى منذ الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ نجح عبد الناصر فى استعادة قناة السويس عام ١٩٥٦ أى قبل رسم اللوحة بأحد عشر عاماً. ويكرم الجزار فى لوحته الجهد المصرى الذى جعل من القناة أعظم مجرى مائى بين الشرق والغرب ويظهر الفنان الفلاح المصرى بفأسه وسلته المصنوعة من القصب وهو ينحت فى الصخر ويزيح الأرض كما كان يفعل فى الماضى عند بناء الأهرامات.

الخاتمة

إن الرسم والنحت المصرى الحديث يمتد عمره التأسيسى إلى أقل من قرن من الزمان. وما بين عام ١٩١٩ و١٩٥٢ أمكنه التحرر من التأثير الأجنبى فى تشكيل هويته الخاصة. وقد اخترنا الإشارة إلى هؤلاء الفنانين الأوائل الذين ساهموا فى هذا التطور. وهذا لا ينفى أنه خلال هذه الفترة ظهر مبدعون آخرون لهم أهميتهم أيضاً إلا أنهم لم يكن لديهم القوة أو الإبداع المؤثر كما كان لهؤلاء الذين ذكرناهم هنا^(٦٥). مختار الذى كان أول نحات ظهر منذ الغزو العربى فى بلد تميزت بفنون النحت العظيمة، وعباد الذى اهتم بحياة الإنسان البسيط وكان أول من شد الاهتمام إلى القيمة الجمالية للفن الشعبى، ثم ناجى الذى رسم القطع الملحمية التى تعكس عظمة واستقلال مصر، وسعيد الذى عكست لوحاته دفء وجمال المرأة المصرية وأخيراً الجزار وندا اللذان نفذتا إلى اللاوعى لجسداً روح ووضوح العامة فى مصر.

وقد تمكن هؤلاء الفنانون المصريون من استخلاص أفكار قريبة من المصريين وتجسيدها ببصيرة فطرية نفاذة.

وخلال هذه السنوات ما بين ثورتين كانت قضية الهوية هى التى اقترب منها هؤلاء الرواد وحاولوا التعامل معها. وكان لهم الفضل فى تحرير مصر من اعتمادها على الأفكار والأساليب والمناهج الغربية. وقد تتقل هؤلاء الفنانون الأوائل من مرحلة

الوصف الخارجى إلى مرحلة التعبير عن النوازع الذاتية، ونجحوا فى التحول من عظمة الفراعنة إلى تعاليم وروحانية الإسلام، وقد فتح ذلك الطريق إلى أفكار أخرى، فبعد ثورة ١٩٥٢ أصبح الفن عنصراً مرئياً فى سياسة الدولة فقد شجعت الدولة الفنانين على تصوير مصر الحديثة والتعرف على أفكار جديدة أيضاً من خلال التعبير عن الجذور العربية فى الفن الإسلامى التجريدى والخطوط الإسلامية. بالإضافة إلى أنه خلال فترة عبد الناصر وكنتيجة لأحداث العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات ظهرت موجة من الفنانات المبدعات ومنهن على سبيل المثال: عفت ناجى (١٩٠٥-١٩٩٤) وهى شقيقة محمد ناجى، وتحية حليم (١٩١٩-٢٠٠٣) وأنجى أفلاطون (١٩٢٤-١٩٨٩) ثم جاذبية سرى (١٩٢٥) وهى الفنانة التى ما زالت تمارس الرسم حتى الآن. وأخيراً فإن ازدهار الفن خلال النصف الثانى من القرن العشرين ما كان قد تحقق لولا وجود فناني المرحلة الأولى من هذا القرن.

١- أتاححت المنحة الممنوحة من مركز البحوث الأمريكى فى مصر فى فبراير ١٩٩٨ القيام بالبحث فى هذا الموضوع. وقد كان كل من السيدة كريستين روسيلان، والدكتور عبد الغفار شديد، وخالد حافظ ومحمود منيسى كرماء فى المشاركة بتبادل المعلومات والأفكار. كذلك العديد من الفنانين، وأصحاب المعارض، والنقاد وهواة جمع اللوحات الذين تكلمت معهم. إن كتابة العربية بالحروف اللاتينية دائماً ما تمثل مشكل. فإذا وقع الفنان باسمه بالحروف اللاتينية، فهذا ما سوف استخدمه، وإلا سوف أكتبه كما هو بالحروف اللاتينية أو سوف أستخدم اسم الشهرة المعروف به.

الهوامش

(١) أتاحَت المنحة الممنوحة من مركز البحوث الأمريكي في مصر في فبراير ١٩٩٨ القيام بالبحث في هذا الموضوع. وقد كان كل من السيدة كريستين روسيلان، والدكتور عبد الغفار شديد، وخالد حافظ ومحمود منيسى كرماء في المشاركة بتبادل المعلومات والأفكار. كذلك العديد من الفنانين، وأصحاب المعارض، والنقاد وهواة جمع اللوحات الذين تكلمت معهم. إن كتابة العربية بالحروف اللاتينية دائماً ما تمثل مشكلة. فإذا وقع الفنان باسمه بالحروف اللاتينية، فهذا ما سوف أستخدمه، وإلا سوف أكتبه كما هو بالحروف اللاتينية أو سوف أستخدم اسم الشهرة المعروف به.

(٢) الكتب العامة القليلة باللغات الأجنبية في هذا الموضوع منها كتاب إيمي أزار La Peinture Moderne en Égypte (القاهرة: الطبعة الجديدة، ١٩٦١)، وليليان كرنوك Modern Egyptian Art: The Emergence of a Style (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٨٨)، وContemporary Egyptian Art (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٥). وتتعامل وجدان على مع تطور الفن التشكيلي المصري بشكل تخطيطي أكثر في

Contemporary Art from the Islamic World.

(لندن: دار سكريبون للنشر، ١٩٨٩)، وعز الدين نجيب The Dawn of Egyptian Modern Painting ترجمة مرسى سعد الدين (القاهرة: وزارة الثقافة، ١٩٩٢)، وCairo: A Life-Story Of 1000 Years 969-1969 (القاهرة: وزارة الثقافة، الهيئة المصرية للنشر، ١٩٧٠)، الصور رقم ٢٧٢-٣٠٢. و (1984) 2: 2 "The Arts in Egypt," Arts & the Islamic World، وEgyptian Art Scene، و (1986) 4: 1، وEgypt: the Arts in View، نسخة ٣٥، ٢٠٠٠. وباللغة العربية، انظر: طبعة عمرو البيلاسى،

Pioneers of Modern Egyptian Art: 15 Artists from Muhammad Nagy to Ahmad Abd al-Wahab.

شركة شل بمصر (إبريل - يونيو ١٩٩٦)، وModern Art شركة شل بمصر (يوليو - ديسمبر ١٩٩٥). ويعتبر كتاب فاطمة إسماعيل هو الكتاب الوحيد الذى يعتبر بمثابة كتالوج للفن فى متحف الفن المصرى الحديث ٢٩،

Artists in the Museum of Egyptian Modern Art.

(القاهرة: سنتر لاين، ١٩٩٢).

- (٣) فى الفصل السادس يلقى باراك سالمنى مزيداً من الضوء على تطور هذا الوعي التاريخى الجديد.
- (٤) ولد فى عام ١٨٨٧ ابن أحمد كمال، حفيد أحمد رفعت وابن حفيد إبراهيم باشا.
- (٥) أنشئت مدرسة الفنون الجميلة عام ١٩٠٨، وخلال القرن تغير موقعها من الجماميز إلى شبرا إلى الجيزة، وأخيراً استقرت فى الزمالك، وتغير اسمها من مدرسة إلى معهد إلى كلية الفنون الجميلة عندما أصبحت جزءاً من جامعة حلوان عام ١٩٧٢.
- (٦) يونان ليبب رزق Enlightened Royals، "الأهرام ويكى"، ٦-١٢ يناير ٢٠٠٠.
- (٧) لمزيد من المعلومات عن هذا النحات انظر: متحف النحات محمود مختار بوزارة الثقافة (القاهرة، n.d.)، ويونان ليبب رزق Egypt Incarnate، "الأهرام ويكى" ٢١-٢٧ فبراير ٢٠٠٢، وسهيل بشاره، Mahmoud Mokhtar: Memories & Modernity," Arts & The Islamic World 35.
- (٨) (٢٠٠٠) ٢٢-٢٥، وإنجريد وسمان Written in Stone، إيجيبت توداي، مايو ١٩٩١.
- (٩) يونان ليبب رزق Egypt Incarnate، "الأهرام ويكى" ٢١-٢٧ فبراير ٢٠٠٢.
- (١٠) "صفية زغلول"، آرثر جولد سميث جون يور Biographical Dictionary of Modern Egypt (الناشرون ليني راينر، ٢٠٠٠)، انظر كذلك: مارجو بدران، Feminist ترجمة وتقديم مارجو بدران (نيويورك: مطبعة فمينيست، ١٩٨٦).
- (١١) الموقف الإنسانى المعقد فى القاهرة خلال الثلاثينيات موصوف وصفاً جيداً فى كتاب مجدى وهبة Cairo Memories فى دراسات فى تاريخ العرب، طبعة دريك هوبود (أكسفورد: محاضرات أنطونيوس ١٩٧٨-٨٧، ١٩٩٠)، ١٠٣-١٥.
- (١٢) انظر: جولد سميث Biographical Dictionary، والدكتور على إبراهيم، وهو جراح بارز ومفكر، ومن هواة جمع الفن الإسلامى، ومجموعته كانت أساس مقتنيات متحف الفن الإسلامى.
- (١٣) انظر: مناقشات سامية خلوصى عن الفلاحين فى الفصل العاشر.
- (١٤) كان يتم إرسال الخريجين المتفوقين إلى أوروبا لاستكمال دراستهم فى الفن. فى الأول تناوب كامل وعياد المصروفات: واحد منهم يقوم بالتدريس والعمل فى مصر بينما الآخر يدرس فى روما، وفى عام ١٩٢٥ نظم لهم سعد زغلول منحاً حكومية بقيمة ٢٠٠ جنيه سنوياً لكل منحة.
- (١٥) فى أواخر الثلاثينيات شغل عياد عدة مناصب إدارية: ففى عام ١٩٢٧ شغل منصب مدير قسم الفنون فى مدرسة الفنون التطبيقية (تأسست عام ١٩٢٨-٢٩)، وفى ١٩٤٠ أصبح مديراً للمتحف القبطى لبضع سنوات، وحتى ١٩٤٩ كان مديراً للقسم الحر فى مدرسة الفنون الجميلة، ومن ١٩٤٩-٥٤ كان مديراً لمتحف الفن المصرى الحديث (تأسس عام ١٩٣١)، وفى عام ١٩٥٢ أنشأ متحف مختار. وكان عاملاً مساعداً فى تأسيس الأكاديمية المصرية فى روما، والتي كان له معارض خاصة بها فى أعوام ١٩٢٧، ١٩٢٧، و ١٩٤٨.

- (١٦) انظر: Cairo: The Life Story of 1,000 Years, رقم ٣٣١ و٣٣٢، وكرونوك Modern Egyptian Art، ٤٢ .
- (١٧) تناقش سامية خلوصى فى الفصل العاشر الفلاح كموضوع أدبى.
- (١٨) فى كل من متحف الفن المصرى الحديث بالقاهرة، وموضحة فى شل، Pioneers، ٧٨-٧٠ .
- (١٩) أهم دراسة عن حياته باللغة الفرنسية هى طبعة عفت ناجى وآخرين، Mohamed Nagy (1888-1956), Un impressionniste Egyptien.
- (القاهرة: كراسات شبرامانت، ١٩٨٨). مرسومه بالقرب من الهرم تحول إلى متحف يعرض الكثير من أعماله، وكذلك متحف الفن المصرى الحديث، وكلاهما فى القاهرة. واسمه الصحيح باللغة العربية هو ناجى ولكن الفنان كان يوقع باسم ناغى.
- (٢٠) ألف Les Mosquées du Caire (باريس، ١٩٣٢).
- (٢١) فى عام ١٩٣٧، تابع ناجى اهتمامه بالفنون الشعبية المصرية بإنشاء "دار الفن" لعرض إنتاجهم.
- (٢٢) تولى المنصب الذى كان يشغله جابرييل بيسييه، الذى كان يدرس الرسم عندما أنشأت المدرسة فى عام ١٩٠٨ .
- (٢٣) ١٩٢٥، متحف ناجى، القاهرة. شل، نفس المرجع، ١٥ .
- (٢٤) ١٩٤٣، متحف ناجى، القاهرة. شل، نفس المرجع، ٢٧ .
- (٢٥) ١٩٣٤، متحف الفن المصرى الحديث، القاهرة.
- (٢٦) Cairo 1,000 Years، رقم ٢٢٢ .
- (٢٧) ١٩٢٩، رسم بالزيت على النسيج، متحف الفن المصرى الحديث، القاهرة. شل، الفن الحديث.
- (٢٨) بدون تاريخ، رسم بالزيت على قماش، متحف الفن المصرى الحديث، القاهرة. شل، الفن الحديث.
- (٢٩) ١٩٢٨-٤٢، رسم بالزيت على قماش، متحف ناجى، موضحة عند كرونوك فى Modern Egyptian Art رقم ٩ . وتحدد كرونوك تاريخها عام ١٩٢٨، أما عفت ناجى فى، Chronological Index of the most important works of Muhammad Naghi Mohamed Naghi.
- ٦٣، يحدد التاريخ عام ١٩٣٧، بينما التاريخ فى بطاقة التعريف فى متحف ناجى تشير إلى عام ١٩٤٢ . وكان ناجى قد تزوج من ليليكافا فرناى عام ١٩٣٧-٣٩، ٥٧ إذا اللوحة التى رسمها فى تاريخ لاحق تمثل زوجته تقف على يمينه وليست شقيقته.
- (٣٠) كرونوك، Modern Egyptian Art، ٩ .
- (٣١) متحف الحضارة المصرية. شل، Pioneers of Modern Art، ١٦-١٧ .
- (٣٢) عقاف لطفى السيد مارسو Egypt in the Reign of Muhammad Ali (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٤) ٤٤-٤٥، ٤٧-٥٣، ٦٨-٦٩ .
- (٣٣) محمود النبوى الشال "محمود سعيد" (القاهرة: وزارة الثقافة، ١٩٨٤)، وباللغة الإنجليزية Mahmoud Said (القاهرة: صندوق التنمية الثقافية، ٢٠٠٠).

- (٣٤) متحف الفن المصرى الحديث.
- (٣٥) ١٩٣٤، رسم بالزيت على قماش، متحف محمود سعيد، الإسكندرية.
- (٣٦) ١٩٢٩، رسم بالزيت على قماش، شل *Pioneers of Modern Egypt Art*، ٨٨ .
- (٣٧) موضحة عند كرنوك *Modern Egyptian Art* رقم ٤ .
- (٣٨) شل *Pioneers of Modern Art*، ٧٤، ٩٢ .
- (٣٩) ابن حنبل "مسند"، كتاب ٤، جزء ١٣٣-٣٤ .
- (٤٠) جلال الدين رومى *Mathnawi* فى جى. أى. ويليامز *The Word of Islam* (أوستن: جامعة تكساس، ١٩٩٤)، ١٣٦ .
- (٤١) لمزيد من المراجع، انظر: إيفيلين إيرلى *Baladi Women of Cairo* (بولدر: لينى راينر للنشر، ١٩٩٣) خاصة ٥١-٨٤ .
- (٤٢) بدون تاريخ، رسم بالزيت على قماش، متحف محمود سعيد، الإسكندرية.
- (٤٣) ١٩٣٤، رسم بالزيت على قماش، متحف محمود سعيد، الإسكندرية.
- (٤٤) افتتح منزله الفخم فى باكوس بالإسكندرية كمتحف فى إبريل ٢٠٠٠ .
- (٤٥) طبعة آلان وكريستين روسيلان *Abdel Hadi al-Gazzar: An Egyptian Painter* (القاهرة: مطبعة إلياس الحديثة، ١٩٩٠): انظر كذلك: أنا بوغيجيان *An Enigmatic Presence "الأهرام ويكلى"* ٢٠-٢٦ يناير ٢٠٠٠ .
- (٤٦) نظرة ثاقبة على هذا العالم تقدمها نيرة عطية *Khul-Khaal: Five Egyptian Women Tell Their Stories* (مطبعة جامعة سيراكيوز).
- (٤٧) أنا بوغيجيان *A Lost Master "الأهرام ويكلى"*، ١٤-٢٠ أكتوبر، ١٩٩٩، تنهى مقالها بملاحظة حزينة: "ما تبقى عملياً من حياة حسين يوسف أمين لا شيء". للحصول على مراجع أخرى لأمين، انظر: إيمى أزار *La Peinture Moderne en Égypte*، ٤٣-٤٥ و٧٥-٨٠، وآلان وكريستين روسيلان *Abdel Hadi al-Gazzar*، ٧٠-٧٢، وليليان كرنوك *Modern Egyptian Art*، ٤٣-٥٠ .
- (٤٨) انظر: الشكل رقم ٢٩٩، ٢٠٠ فى *Cairo: 1000 Years*، وقد نجح صهره رمسيس ويمسا واصف فى تطبيق هذه المبادئ من الفن التلقائى فى مدرسته للنسيج فى الحرائية، ابتداءً من عام ١٩٥٢ .
- (٤٩) فى عام ١٩٣٦، نشر التلمسانى *Declaration of the Post-Orientalists*، التى تتناول الفنون الحديثة فى مصر. وأكد على الحاجة إلى رعاية هوية مصرية فنية فريدة، ودعا إلى كسر تأثير الفنون الأجنبية، "إذا تمكنت من الوصول إلى بواجر فن محلى جديد، فى هذه الحالة فقط سأعتبر نفسى فناناً" مقتبسة من أى. أزار،
- La Peinture Moderne en Égypte*.
- (٤٨) الاتجاه الجديد فى التعليم التقليدى كان موازياً للتفكير المصرى فى مكان آخر. انظر: الفصل السادس والثامن.

- (٥٠) كرنوك Modern Egyptian Art، ٢٩-٤٣، هو المصدر الوحيد الذي يشير إلى Henein as Hinayn. ولمزيد من المعلومات عن مجموعة "الفن والحرية" انظر أيضاً: أزار، ٤٨-٧٠، وروسيان، ٦٦-٦٩، وعز الدين نجيب، ٩٩-١٢٥، وسمير جبريل.
- Le Surréalisme en Égypte et les Arts Plastiques.
- (٥١) الكاتب الفرنسي (١٨٩٦-١٩٦٦) الذي أثرت كتاباته عن السريالية على السرياليين المصريين.
- (٥٢) عز الدين نجيب The Dawn of Egyptian Painting، ١٠٥.
- (٥٣) تم حل مجموعة "الفن والحرية"، بعد معرضهم الذي أقيم عام ١٩٤٥. وفي عام ١٩٤٩ سافر رمسيس يونان إلى باريس وأقام هناك لمدة عشر سنوات، وعاد التمساني للأفلام وذهب إلى بيروت، واتجه فؤاد كامل إلى الفن التجريدي.
- (٥٤) فنانون آخرون من المجموعة هم سمير رافعي، وكمال يوسف، وإبراهيم مسعودة والحبشي.
- (٥٥) الجزار Destiny، ١٩٤٩، الحبر الهندي على ورق.
- (٥٦) Woman with Khul-Khaal "امرأة بالخلخال"، ١٩٤٩، زيت على قماش، المجموعة الخاصة، روسيلان، ٤٥، كرنوك، ٤٦.
- (٥٧) رسم بالزيت على ورق مقوى، متحف الفن المصري الحديث، موضحة عند روسيلان، ٥٠، كرنوك، ٣١، شل Pioneers، ٢٠٨.
- (٥٨) رسم بالزيت على ورق مقوى، المجموعة الشخصية، روسيلان، ٤٨.
- (٥٩) انظر: روسيلان لكثير من الصور للجزار حول المعتقدات الشعبية والخرافات.
- (٦٠) رسم بالزيت، كرنوك Modern Egyptian Art، ٥٥.
- (٦١) السبعينيات، صورة بالقلم، المجموعة الخاصة.
- (٦٢) رسم بالزيت على الخشب، متحف الفن المصري الحديث. انظر: كرنوك Modern Egyptian Art، رقم ١٨، روسيلان، ١٣٧.
- (٦٣) رسم بالزيت على قماش، متحف محمود سعيد، الإسكندرية.
- (٦٤) رسم بالزيت على السيلوتكس، متحف الأحياء المائية بالإسكندرية، روسيلان، ١٥٢-٥٣.
- على سبيل المثال، سيف (١٩٠٦-٧٩) وأدهم (١٩٠٨-٥٩) وانلى شقيقان من الإسكندرية رسموا شاطئاً غربياً ومناظر من السيرك، وأحمد صبرى (١٨٨٩-١٩٥٥)، رسام أكاديمي اشتهر بلوحاته عن الوجوه، وكان يدرس في كلية الفنون الجميلة، وحسن بناني (١٩١٢-٨٨) تخرج ودرس بكلية الفنون الجميلة، ويذكر بلوحاته عن المناظر الطبيعية، وصلاح طاهر (١٩١٢-) الذي تخرج من كلية الفنون الجميلة، وبعد رحلة إلى الولايات المتحدة عام ١٩٥٠ أصبح فناناً تجريبياً، وحسين بيكار (١٩١٣-) الذي تخرج ودرس في كلية الفنون الجميلة ويعرف بأسلوبه الأكاديمي، حامد عبد الله (١٩١٧-٨٥) الذي علم نفسه وسافر بعد ثورة ١٩٥٢ واستخدم الخط في فنه، ومنير كنعان (١٩١٩-٢٠٠٠) كان مستقلاً، وذاتى التعليم وأصبح فناناً تجريبياً.

١٦- الدولة والسينما فى مصر

(ما قبل الثورة ١٩٢٧-٥٢)

أندرو فليبر

ولدت صناعة السينما فى مصر فى العشرينيات من القرن العشرين مواكبة ظهور الصوت المصاحب للأفلام الأمريكية المستوردة التى كانت تسيطر على الشاشات المصرية آنذاك. ورغم أن هذه الصناعة لم تستهدف فى بادئ الأمر أى أغراض وطنية، فإنها خلقت فرصاً جديدة لبناء وترسيخ الهوية المصرية من خلال وسيلة إعلامية تزايدت شعبيتها ونجحت فى المزج بين حتمية التجارة والمضمون الثقافى. وقد بدأ الإنتاج المحلى على نطاق ضيق محدود حتى الثلاثينيات من القرن حين وضع الرواد المصريون أساس ما سوف يصبح بعد ذلك مصدراً حيوياً خصباً لمنتج وطنى ثقافى. وقد تجاوزت صناعة السينما المصرية فى تأثيرها حدود الدولة من خلال تصدير إنتاجها عبر الدول العربية إلى بعض الدول البعيدة مثل فنزويلا وهونج كونج ومدغشقر والاندنيزيا^(١)، ومع نهاية الأربعينيات كانت شهرة هذه الصناعة قد وصلت إلى الحد الذى دفع بالمخرج الأمريكى الكبير أورسون ويلز إلى الاتصال باستوديو الأهرام فى الجيزة ليصور فيلمين مختلفين فى بعض المواقع فى مصر^(٢).

ورغم كل النجاحات الأولى التى حققتها هذه الصناعة، فإن هذا لم يحد من السخرية منها قبل الثورة بوصفها تافهة وغير ذات قيمة بالمقارنة بحالتها إبان حكم عبد الناصر^(٣) ودعم الدولة لها. فإن هؤلاء الذين يفتقدون المعرفة بالتقاليد الثقافية للسينما غير الغربية يسيئون قراءة الميلودراما والأفلام الغنائية المصرية الأولى بزعم أنها لا تقدم

إلا القليل من القيم الباقية، ويعزز هذا الرأي حقيقة أنه منذ البداية اتجهت السينما المصرية بلا جدال اتجاهًا تجاريًا وافتقدت الإحساس بأي هدف تعليمي تسعى وراءه، كانت مجرد وسيلة للتسلية عند العامة والطبقة الوسطى، كما أن هدف إنتاجها كان الربح بالدرجة الأولى رغم أن بعض الممثلين وصناع الأفلام كانوا يعتبرون أنفسهم فنانين ومؤلفين. ولتحقيق غايتهم بدءوا في تشييد الاستوديوهات الخاصة بهم والأخذ بنظام النجوم، وشبكة توزيع الأفلام والمؤتمرات الفنية إلى آخر هذه السمات التي تميز صناعة السينما. وقد حاولت مصر "هوليوود على النيل" محاكاة نظيرتها الأمريكية في اتجاهها التجاري الواضح أكثر من تقليدها للسينما الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية التي قامت بتدريب بعض روادها الأوائل.

ومع ذلك فإن رفض السينما المصرية والتعقيم عليها قبل الثورة لا يستند إلى أى أساس من وجهة النظر الواقعية، بالإضافة إلى أنه يجافى الحقيقة لإساعته فهم تلك المرحلة التي أدت إلى النجاحات التي حققتها صناعة السينما بعد ذلك. فقد بدأ العصر الذهبي للسينما المصرية قبل ثورة ناصر بسنوات طويلة، وكان الإنتاج غزيرًا وديناميكياً، ويدون الإنجازات التي تحققت في البداية، فإن صناع الفيلم ما كان يمكنهم بعد ذلك أن يمتلكوا المهارات الفنية، والبنية الأساسية أو استمرارية دعم الجمهور لتلك الصناعة الحيوية في السنوات التالية. بالإضافة إلى أنه من الصعب تصور أن المسؤولين الرسميين في عهد ناصر والذين اعتبروا صناعة الأفلام مجالاً مناسباً لتدخل الدولة ودعمها لها، فعلوا ذلك دون وجود تطورات مؤسسية سابقة لها^(٤). فضلاً عن أن الأفلام المصرية في ذروة تألقها كان لها شعبيتها حيث كانت تخاطب الدوافع الإنسانية الأساسية لرؤية تجسيد الذات كما يعرفونها ويحسونها، وكما تعبر عنها هذه الأفلام المحلية. وبالتالي فإن إنتاج هذه الصناعة منذ البداية لا يجب من خلال الجوانب الجمالية بها فقط أو حتى النجاح المادى الذي حققته، ولكن من حقيقة أن مجهودات صناع الأفلام المصرية الأولى خلفت إنتاجاً ثقافياً محلياً لم يكن ليوجد بدونها رغم ما جابهته هذه الصناعة من صعوبة في تعزيز مكانتها التنافسية بصورة متواصلة في سوق متكامل عالمي.

ويتضمن هذا الفصل إعادة الاعتبار إلى الخمس والعشرين سنة الأولى التي صاحبت صناعة الفيلم المصرى منذ ميلاده عام ١٩٢٠ وحتى حركة الضباط الأحرار عام ١٩٥٢، وقد مهدت فصول عديدة فى هذا الكتاب للقارئ الإحساس بأهمية السينما المصرية سواء كانت وسيلة للتسلية أو لتفسير وإلقاء الضوء على هذه الفترة. وقد شرحت سامية خلوصى فى الفصل العاشر كيف أصبحت الحياة فى الريف فى الثلاثينيات وما بعدها موضوعاً تهتم به السينما لأسباب أيديولوجية وترفيهية. كما وأن لوسى رايخوفنا فى الفصل الخامس تذكرنا بأن الفيلم المصرى كان وسيلة للتعبير عن تطور الطبقة الاجتماعية فى المدن، وكذلك الصراع الدائم بين الفلاحين فى الريف و"الأفندية" فى المدن فى الثلاثينيات والأربعينيات. أما فى هذا الفصل فإن بحثى يتناول الاقتصاد السياسى للفيلم المصرى لأصل إلى مناقشة ثلاث قضايا رئيسية وهى: مولد الإنتاج المصرى وتوسعه وتصديره، مدى استجابة الصناعة للمنافسة العالمية وخاصة من هوليوود، وأخيراً طبيعة القواعد واللوائح فى الدولة التى تحكم الإنتاج الثقافى مثل الأفلام.

وبدلاً من عرض تقرير تاريخى شامل، سوف أناقش كل قضية على حدة مع التركيز على تحليل الروابط التى تجمع بينهم، فبالنسبة لصناع الأفلام الأوائل فقد كانت تربطهم صلة وثيقة بصناعة السينما فى الدول الأوروبية والأمريكية، وقد حددت المنافسة العالمية الشروط التى صاحبت ميلاد صناعة السينما المصرية وكيفية تعامل المسؤولين معها ودعمهم لها أحياناً وليس دائماً. وكان صناع الأفلام من الأجانب المقيمين بمصر، ومسئولو السفارات، وممثلو شركات الأفلام يتفاعلون فى بيئة مليئة بالصراع لتحقيق فوائد شخصية. وكانت استمرارية وجود الصناعة والأزمات التى تتعرض لها تنعكس فى نجاحات وفشل سينمائية. ورغم التغييرات التى طرأت خلال عقود طويلة على المضامين العالمية والمحلية، فإن الأفلام الأولى فى مصر أسست أنماطاً معينة ما زالت واضحة حتى الآن.

الإنتاج المحلى والتصدير الإقليمى

يرجع إنتاج الأفلام المحلية المصرية إلى عام ١٩٢٢ حين عاد محمد بيومى بعد دراسة فى ألمانيا إلى مصر ليصور أولى أفلامه "فى أرض توت عنخ آمون" كما أخرج فى نفس الوقت أيضاً فيلماً قصيراً بعنوان "الباشكاتب" وكلا الفلمين يسبق الفيلم الذى يعتبر أول فيلم مصرى كامل وهو "ليلى" عام ١٩٢٧، وكان فيلماً صامتاً (لا يجب الخلط بينه وبين فيلم "ليلى بنت الريف") الذى أشارت إليه ريزوفا فى مقالها وكانت بطولته عزيزة أمير وهى ممثلة شهيرة من ممثلات المسرح. أما إنتاج الفيلم الناطق فظهر بعد ذلك ببضع سنوات عام ١٩٣٢ من خلال فيلم "أولاد النوات" الذى كتبته وقام ببطولته يوسف وهبى الذى كان ممثلاً مسرحياً على قدر كبير من الثراء، وبعدها قام أيضاً ببطولة فيلم "ليلى بنت الريف". ويعتبر فيلم "ليلى" فى واقع الأمر أول فيلم مصرى التمويل، حيث كان تمويل صناعة الأفلام قبل ذلك ينحصر فى الأجانب المقيمين بمصر الذين كانت صلتهم بمصر تضىفى عليهم نوعاً من الهوية الملتبسة^(٥). وقبل ذلك كان هناك إنتاج سينمائى متواضع لبعض الإيطاليين وبعض الجنسيات الأخرى بلغ فى مجمله ١٥٠ فيلماً قصيراً وإخبارياً^(٦). أما العدد المحدود من دور العرض فى ذلك الوقت فقد كان يفى بحاجة الأجانب المقيمين حيث كانت الأفلام الفرنسية والإيطالية تعرض فى القاهرة والإسكندرية قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة^(٧). وحين توقف استيراد تلك الأفلام جراء الحرب كون أحد المصورين الإسكندريين مع مجموعة من رجال الأعمال الإيطاليين شركة محلية لصناعة الأفلام القصيرة رغم أن الإنتاج المحلى ظل على نطاق ضيق لعقد من الزمان^(٨).

بدأ التطور الجاد فى صناعة السينما على حذر عام ١٩٢٥ حين أسس رجل الصناعة الشهير فى مصر طلعت حرب أول شركة إنتاج مصرية وهى شركة مصر للمسرح والسينما، وكانت شركة صغيرة ضمت مجموعة من المنتجين والموزعين المتحمسين^(٩). وبدءاً من عام ١٩٢٥ وما بعدها احتوت صناعة الأفلام فى مصر سلسلة واسعة من الاتجاهات والميول المضادة التى عكست تنافس اهتمامات قطاعاتها

العريضة وتأثير منافسيها وشركائها الأجانب، وكان المجال ساحة متخمة بالصراع داخل هذه الصناعة وأيضاً بالجهود المبذولة للتعاون. وقد أدت هذه الحيوية إلى نتائج ذات مغزى كان لها تأثيرها في قدرة الصناعة المحلية على تحقيق أهدافها. إلا أن القطاعات المكونة لهذه الصناعة وهي الإنتاج والتوزيع والعرض تعرضت بدرجات متفاوتة إلى متطلبات مالية مختلفة جراء تعارض الاهتمامات والمصالح تبعاً لأدوارهم المختلفة في العملية التجارية. وفي أوقات كثيرة كان تعارض هذه الاهتمامات داخل هذه القطاعات وفيما بينها يقف حائلاً دون تعاونها بل كان يؤدي إلى بعض الخلافات الهدامة. فمثلاً كان أصحاب دور العرض كثيراً ما يرفضون الانضمام إلى المنتجين للضغط على الموردين الأمريكيين لحماية هذه التجارة، حيث إن عدداً كبيراً منهم كانوا يعرضون على الأقل بعض الأفلام الأجنبية، بالإضافة إلى أن المنتجين والموزعين - الذين كان البعض منهم يشارك في إنتاج أو توزيع الأفلام الأجنبية - كانوا يجدون صعوبة أيضاً في التعاون فيما بينهم^(١٠).

أما تصدير الأفلام المصرية المحلية فلم يتطور بصورة جدية إلا بعد عام ١٩٣٥ حين شيد طلعت حرب استوديو مصر، وهو أول استوديو لتصوير الأفلام في الشرق الأوسط وإفريقيا^(١١)، وقد تصاعد إنتاج وتصدير الأفلام المصرية بصورة مذهلة في النصف الأخير من الثلاثينيات والأربعينيات حيث بزغ نجم القاهرة "كهوليد الشرق" كما أطلق عليها بعد أن أزاحت جانباً الإسكندرية التي كانت مركز الجاذبية^(١٢). وبعدها قام الرواد الأوائل ومنهم الأجانب المقيمون ببناء أربعة استوديوهات رئيسية حتى عام ١٩٤٧. وما إن جاء عام ١٩٥٠^(١٣) حتى كان عدد شركات الإنتاج المستقلة قد تضاعف خمس مرات من أربعة وعشرين شركة إلى مائة وعشرين. وكانت رؤوس الأموال المستثمرة جاهزة خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها مباشرة، حين بحث المستثمرون عن عائد سريع لأموالهم من خلال التوسع في الإنتاج والقضاء بذلك على المنافسة الأجنبية. وكان هذا هو العصر الذهبي الأول لهذه الصناعة المصرية - على الأقل مادياً - حين أصبح التردد على دور السينما أكثر وسيلة ترفيه شعبية في مصر

ويشكل غالب في معظم المنطقة^(١٤) وأصبحت بذلك تشكل ملحمة وجزءاً حيوياً مهماً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية مما أدى إلى قول بعض الناقدين المعاصرين بأن صناعة السينما أصبحت ثانياً أهم صناعة في مصر^(١٥).

كانت الأرباح التي حققها الاستثمار في صناعة الأفلام في تلك الفترة له أثره الفعال في إضفاء الصبغة التجارية على الأفلام المنتجة. فقد اتجه الرواد في هذه الصناعة إلى التركيز على التوسع في إنتاج الأفلام واتساع توزيعها في الخارج بدلاً من تحسين نوعيتها^(١٦). أما شركات الإنتاج الصغيرة فكانت تؤجر الاستوديوهات فقط لإنتاج أفلام وحيدة ثم توزيعها بعد ذلك على أوسع نطاق سواء عن طريق استئجار متعدد توزيع للتعامل مع أسواق أجنبية بعينها^(١٧) أو عن طريق بيع حقوق توزيع أفلام أجنبية محدودة. ولم يقدم المنتجون في تلك الفترة أكثر من فيلم أو فيلمين سنوياً مما يشير إلى ما اتسم به إنتاج وتمويل الأفلام في تلك الفترة من المخاطر وعدم التنظيم^(١٨)، رغم أن البعض منهم مثل توجو مزراحي واستوديو مصر فتحا الطريق أمام المنتجين من خلال مجهوداتهم المستمرة لإنتاج وتوزيع عدد من الأفلام سنوياً. ومع ذلك فقد كان إنتاج أغلب الأفلام المصرية من خلال المنتجين الذين كانوا يعملون على نطاق ضيق وكان تدخلهم في هذه الصناعة إما كمغامرة مؤقتة أو لأنهم فشلوا في البقاء في هذا المجال لمدة سنوات قليلة^(١٩).

وقد سادت في هذه الفترة استراتيجية المخاطرة القليلة التي هيمنت على اتخاذ القرار وذلك من خلال التمسك بنظام "النجم الواحد" حيث يتوالى ظهور عدد محدد جداً من الممثلين في أفلام عدة، وقد ألمحت كل من ريزونا وخلوصي في مقالاتهم إلى ذلك، وكانت شعبية هؤلاء الممثلين الخاصة تمثل ضماناً لاستمرارية تردد المجموعة المخلصة من المعجبين بهم على أفلامهم مهما كانت نوعيتها، وبالتالي تأكيد الطلب عليها وتأكيد توقعات تدفق العائد من الاستثمارات^(٢٠). ومع استمرار التنافس في هذه الصناعة خلال الثلاثينيات والأربعينيات زاد عدد دور العرض ليلبي احتياجات الطبقة الوسطى والدنيا التي كانت تهرع لمشاهدة الأفلام. وشهدت الحرب العالمية الثانية أكثر التوسعات في تلك الفترة حين تراجعت الواردات الأجنبية وارتفعت أجور العمال مما أدى بدوره

إلى نمو غير متوقع تقلص إلى حد ما بعد انتهاء الحرب^(٢١). ومع ذلك استمرت دور العرض في الزيادة بثبات رغم أن بعض دور العرض الكبرى اضطرت إلى الغلق لفترات قصيرة^(٢٢) نتيجة انخفاض الإيرادات في المواسم الضعيفة. وفي ذروة التنافس بعد الحرب عام ١٩٤٧ استمرت حوالى ثلثى دور العرض المصرية في عرض الأفلام الأجنبية أو بعضها مؤكدة بذلك أن أغلب العارضين لم يكونوا على استعداد لدعم أى اتجاه يلجأ لوضع ضوابط على مستوى الوارد من الأفلام الأجنبية^(٢٣).

ومن الجدير بالذكر أن التوسع في هذه الصناعة، وازدياد التنافس انعكس في شكل ضعف في السياسة. فبدون شبكة من الملكية أو القواعد المنظمة للصلة بين المنتجين والموزعين ودور العرض أصبح من المتوقع أن يؤدي هذا الضعف التنظيمي في قطاع الأفلام إلى موت هذه الصناعة بعد الحرب العالمية الثانية. إلا أنه في شهر أغسطس من عام ١٩٤٧ قامت وزارة التجارة والصناعة بالموافقة على إنشاء وتمويل "غرفة صناعة السينما"^(٢٤) والتي تأسست على القانون الذي يحكم الغرف الصناعية. وكان لكل قطاع فرعى غرفة خاصة بأعماله بالإضافة إلى الاستوديوهات والمعامل^(٢٥). وكان هدفها هو فض النزاعات بين المنتجين والموزعين ومالكي دور العرض، خاصة بعد أن أصبحت العضوية إجبارية^(٢٦). ورغم أن غرفة السينما لم توفر إلا رابطة ضعيفة بين القطاعات الفرعية، فإن نشاطها الإشرافي وبناءها النقابي أدى إلى رفع قيمة رسوم الانضمام إلى القطاع بالنسبة للشركات الجديدة. وكان تأسيس هذه الغرفة بداية للتغيير في تنظيم صناعة الفيلم وممهداً للطريق بعد ذلك لحركة عبد الناصر التي اتجهت إلى مزيد من الاحتكار والسيطرة النقابية على القطاع^(٢٧).

استمرت حركة تصدير الفيلم المصري في التوسع عالمياً في السنوات الأولى ما بعد الحرب تساندها بقوة جهود المنتفعين من الحرب للحصول على فرص استثمارات بلغت مئات الملايين من الجنيهات ضاعفت من ثرواتهم الجديدة^(٢٨). وامتدت حركة التصدير - التي كانت تتم من خلال مسوقين فرادى - إلى أسواق الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بل والبعض منها إلى بعض أسواق العالم. وكنتيجة لهذا التوسع

اكتسب الممثلون والمغنيون المصريون شعبية واسعة في الدول العربية المجاورة وأكدوا حضوراً إقليمياً حاكى السيطرة الأمريكية العالمية رغم كونه على نطاق أضيق، وقد ساهمت السيطرة المصرية الإقليمية على الفيلم - والتي عززتها بعد ذلك صادرات مصر الإذاعية والتليفزيونية - في انتشار اللغة المصرية العامية والتي تعتبر أكثر اللهجات العربية فهما في المنطقة. ومن منطلق هذا المعنى يمكننا القول بأنه رغم أن صناعة الفيلم التي حققت في بدايتها أرباحاً مالية كبيرة لم تدم طويلاً، فإن انتشار الفيلم خارج مصر ربما يكون قد ساهم في الجهود المبذولة من بعض القوميين المصريين ومنهم جمال عبد الناصر لتشكيل السياسة العربية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

التنافس الدولي والاستجابة الوطنية

في مصر، وفي بداية الثورة التي أحدثها مصاحبة الصوت للأفلام السينمائية عام ١٩٢٦، أبلغ ممثل التجارة الأمريكية الذي كان مقره الإسكندرية - وهي الميناء الكوزموبوليتاني - واشنطن بأن نصف الأفلام التي تعرض في البلاد أمريكية الصنع، حيث لا تجابه بأي تفرقة تجارية أو تدخل سياسي بأي شكل من الأشكال^(٢٩). وكانت الأفلام الأمريكية والأوروبية تؤجر إلى دور العرض مقابل ثمن محدد للمتر. وكان سوق الإسكندرية وحده يغطي ثلثي تكاليف التوزيع المحلي في حين أن نصيب القاهرة كان الثلث الباقي^(٣٠). وبصفة عامة فقد كانت مصر في تلك الآونة سوقاً صغيرة يتوسع باطراد. وسجلت السوق الثاني في القارة بعد جنوب إفريقيا البريطانية^(٣١). كما كان مجتمع الأجانب العريض - وأغلبهم من الأوروبيين - يشكلون نسبة كبيرة من المترددين على دور العرض السينمائية حيث إن أغلب المصريين لم يكونوا قد أدخلوا هذا النمط من الترفيه في روتينهم الأسبوعي.

كانت المنافسة الأمريكية خاصة محسوسة في السوق المصري منذ ذلك الوقت. وما إن حل عام ١٩٣٠ حتى كانت هوليوود تسيطر على سوق الفيلم، فقد شكلت الواردات ٧٦٪ من جميع الأفلام التي صورت عام ١٩٣٦، وتلها فرنسا بنسبة ١٠٪/٣٢.

وكان وضع مصر الجغرافى فى مفترق الطريق بين إفريقيا وآسيا يعظم من أهميتها فى تجارة الفيلم، حيث إن الموزعين الأمريكيين كانوا يشحنون الأفلام من الولايات المتحدة إلى أوروبا ومنها إلى أسواق أخرى عن طريق المكاتب الفرعية فى مصر. فمثلاً احتفظت شركة يونيفرسال بمقرها الرئيسى لمنطقة الشرق الأوسط فى الإسكندرية كنقطة توزيع لشحن الأفلام إلى أسواق الشرق الأوسط وإفريقيا وما بعدها^(٣٣). وكانت حركة الفيلم القوية بين مصر والسودان والتى سجلتها بيانات "الكتاب السنوى لحركة التجارة الأجنبية فى مصر" تتجه على وجه التأكيد إلى القوات الإنجليزية التى كانت متمركزة هناك^(٣٤).

ومع تزايد شعبية الفيلم الأمريكى تفوقت صادراته إلى مصر عن صادرات الأفلام الأوروبية فى ضوء سيطرتها العالمية على هذه الصناعة بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت الحرب قد أضعفت هذه الصناعة فى أوروبا إلى الحد الذى أعطى فرصة ذهبية لصناع الفيلم الأمريكى الذين بدعوا بعد ذلك يحاولون إنتاجهم إلى البلاد المحلية الواقعة على الساحل الغربى حيث كان المناخ بها يسمح بنشاط ممتد طول العام، وقبل ثورة الصوت بفترة قصيرة، وكرد فعل لتورط هذه الصناعة الجديدة فى سلسلة من الفضائح، قامت قيادات هذه الصناعة فى هوليوود بتكوين هيئة "المنتجون والموزعون لصناعة السينما MPPDA" والمعروفة أيضاً "بمكتب هايز Hays office" التى أسست "القسم الأجنبى" لتمثيل أعضائها عبر البحار بعد أن افتتحت عشرات المكاتب فى بلاد العالم ومنها مصر. وفى خلال العقود اللاحقة كان ممثلوا "مكتب هايز" يعملون بالتعاون الوثيق مع ممثلى السفارات، وملاك دور العرض، والموزعين الوطنيين لتنشيط الصادرات إلى الأسواق التى رأوا فيها أسواقاً محتملة جديدة مريحة لهم.

ومن منطلق نمو هذه الصناعة فى مصر لم يكن هناك مفر من انغماس السينما الأمريكية فى الاضطرابات السياسية المحلية التى واجهتها مصر فى الثلاثينيات والأربعينيات، وفى عام ١٩٤٦ بعد عشرين سنة من تقرير الممثل التجارى، قامت هيئة صناعة الفيلم الأمريكية بإرسال تقرير إلى وزارة الخارجية الأمريكية يضم معلومات عن هجوم بقنبلة يدوية على سينما ميامى وسط القاهرة ألقاها مجموعة من النشطاء

المناهضين لبريطانيا^(٣٥)، بالإضافة إلى أن بعض الأفلام - مثل فيلم مترو جولدين ماير "أغنية الثورة" - وهو فيلم قصير عن الثورة الفرنسية تعرض لمقص الرقيب الحكومى لتناوله موضوعات سياسية حساسة غير مريحة ولا تناسب المتفرج المصرى^(٣٦)، ومع مرور الوقت وجدت الأفلام الأمريكية نفسها طرفاً فى منافسات إقليمية سياسية، فقد أجلت الرقابة فى مصر عرض فيلم بارامونت "شمشون ودليلة" عام ١٩٥١ برغم أن الفيلم يمالئ الصهيونية، فى نفس الوقت الذى منعت إسرائيل عرضه لأنه ضد اليهود^(٣٧).

وبرغم كل ذلك فإذا ما وضعنا الحساسية السياسية أحياناً جانباً فقد ظلت واردات هوليوود من الأفلام لها شعبيتها ومرحباً بها ولا خلاف عليها، وبمعنى اقتصادى بحث، فإن المسئولين الرسميين فى الدولة تبناوا فى مرحلة كبيرة من تلك الفترة سياسات تجارية حرة تجاه الفيلم وهو اتجاه انطلق من مفهوم التجارة الحرة الذى سيطر على أوروبا، وساد أيضاً فى مصر منذ القرن التاسع عشر. وحتى عام ١٩٣٠ . ولم تكن هناك سوى قيود مهمة على واردات الأفلام، وحتى بعد أن حصلت مصر على استقلالية تحديد التعريفة عام ١٩٣٠ بعد انتهاء الاتفاقيات طويلة المدى مع السلطات الأوروبية، فقد بقيت مستويات التعريفة منخفضة نسبياً. إلا أنه ظهرت بعض الاستثناءات فى هذا الاتجاه الليبرالى فى الأربعينيات من القرن حين أحدثت الحرب العالمية الثانية طفرة فى زيادة الرسوم الجمركية على الفيلم مما ضاعفها إلى خمسة جنيهات مصرية للكيلو من عام ١٩٤١-١٩٤٥، بالإضافة إلى زيادة قيمة رسوم الإعلانات من ٣٪ إلى ٧٪. ومع هذا فقد كانت هذه التطورات بسيطة نسبياً فى ضوء اتجاه ليبرالى واضح تميز بوجود القليل من القيود على واردات الفيلم. وظل هذا الوضع سائداً حتى منتصف الأربعينيات^(٣٨).

عقب تصاعد حدة الاتجاه إلى الاحتكار فى الصناعة بعد الحرب العالمية الثانية بدأ الخناق يضيق على السوق المصرى فى ضوء فرض قيود على التحويلات وعلى متطلبات ترخيص الواردات وبعض القطاعات الأخرى التى كانت هدفاً لتحصيل الرسوم، وكان المنتجون المصريون قد خرجوا من الحرب وقد استقرت أوضاعهم المالية بقوة رغم

أن المشكلات فى البناء الاقتصادى حدثت من الأرباح التى كان يحققها صناع الفيلم. فمن ناحية أصبحت تكاليف الإنتاج فى الفترة التى أعقبت الحرب مباشرة تتراوح ما بين ٢٥,٠٠٠ جنيه للأفلام التى تدر عائداً يبلغ ١٠٠,٠٠٠ جنيه من ناتج العرض المحلى والخارجى^(٣٩)، وعلى الجانب الآخر كان الاحتياطى من العملة الصعبة والتى نتجت عن أرباحهم خلال الحرب قد بدأ ينكمش بسرعة مما أدى إلى تقليص نشاط الواردات الذى كان يمارسه الموزعون المحليون. ومن منطلق أن استيراد الأفلام إلى مصر - كما حدث فى بريطانيا وكثير من الدول الأوروبية لم يكن من الأهمية بمكان فى نظر الهيئات المسئولة بحيث يتطلب إنفاق عملة صعبة - فقد تم وضع قيود نقدية على التحويلات فيما يتعلق بالاستيراد. وبمرور الوقت أضيفت بعض القوانين الأخرى - مثل فرض وجود تراخيص استيراد - والذى كان مؤشراً لاتجاه متزايد لفرض حماية الدولة خاصة بعد أن مدت الدولة سيطرتها لتشمل المجال الثقافى. وفى أوائل الخمسينيات حددت السلطات الرسمية عدد الأفلام التى تتم ترجمتها إلى اللغة العربية سنوياً بما لا يزيد عن ثلاثة أفلام كما رفعت رسوم الجمارك على الأفلام الأجنبية بمقدار ٢٥٪^(٤٠).

ومن وجهة النظر الأمريكية فقد كان أهم قيد وضعتة الحكومة بعد الحرب العالمية الثانية هو ما يتعلق بالتحويلات النقدية، ولم تكن مصر بالتاكيد هى الدولة الوحيدة فى العالم التى تحدد أولويات الإنفاق فى توجيه العملة الصعبة إلا أن هذه المشكلات النقدية كانت شديدة الحساسية بالنسبة للشركات الأمريكية، فى ضوء عدم إمكانية الموزعين تحويل أرباحهم أو عائد استثماراتهم التى كانوا قد استثماروها فعلاً. وأدى هذا الوضع بدوره إلى القضاء على أى محاولة لتنمية هذا السوق إلى أبعد مما كان عليه. وقد فرضت هذه القيود على التحويلات بعد الحرب حين انسحبت مصر من منطقة الإسترليني عقب انتهاء الاتفاقية المالية بين مصر وإنجلترا فى يوليو ١٩٤٧^(٤١). وقد أدى عدم وثوق مصر من الحصول على الدولارات لتغطية نفقات الاستيراد إلى تجميد ثم تخفيض مقدار العملة الصعبة المخصصة للموزعين الأمريكيين لإعادتها إلى الشركات الأم شهرياً.

وكانت النتيجة خفض مستوى التحويلات من ٨٠٪ خلال الحرب إلى ٥٠٪ في مايو ١٩٤٧^(٤٢)، ثم إلى ٣٥٪ في آخر الأمر بناء على الاتفاقية التي وقعتها شركة MPPDA مع الحكومة المصرية في يناير ١٩٤٨^(٤٣) وكان نقص العملة الصعبة قد حد من قدرة الحكومة على السماح بتحويل حتى ٣٥٪ من الأرباح الشهرية على الأقل حتى انتهت أزمة الدولار الأمريكي العالمية بعد ذلك بعقد كامل.

ومع ذلك فقد ظلت بعض آثار بقايا الليبرالية القديمة حتى أوائل الخمسينيات. فلمدة عقود شكل الموزعون المصريون جماعة ضغط على الدولة بهدف وضع سياسات قوية لحماية المستهلك دون نجاح يذكر، بالإضافة إلى أنه حين حاول اتحاد قطاع صناعة الفيلم المصري وغرفة السينما البحث عن وسيلة للتحرر من المنافسة الأجنبية، فإنهم لم يكتفوا بذلك، وقد استمر هذا الاتجاه خلال فترة حكم عبد الناصر. ففي خلال السنوات الخمس الأولى من عام ١٩٥٢ لم تثمر الثورة أي تغييرات سواء في صناعة الأفلام أو سياستها. فمثلاً قدمت غرفة السينما تقريراً إلى وزارة التجارة والصناعة في أوائل عام ١٩٥٥ مناشدة الدولة اتخاذ وسائل حماية فعالة تمكنهم من مجابهة النجاح الساحق لبعض الأفلام التي كانت تحطم الإيرادات مثل "كوفاديس Quovadis". وقد علق واحد من النقاد المسؤولين على هذا التقرير بأن "التنافس هو قلب التجارة"، كما أبدى ملاحظة عن أهمية الإنتاج الأجنبي لسنوات طويلة للسوق المحلي، ودوره في تحصيل الضرائب والرسوم الجمركية. وفي واقع الأمر فإن الضرائب كانت مرتفعة فعلاً حيث إن الجهات الرسمية كانت تنظر إلى صناعة الترفيه من زاوية ما تحققه من إيرادات لها أكثر من أي شيء آخر، وقد انعكس هذا بصورة واضحة على نوعية الضرائب المختلفة التي كانت تفرض على شرائح هذا القطاع رغم أنها لم تنجح في تقييد تدفق الأفلام الأجنبية إلى مصر. وقد ظل الاتجاه السافر إلى السينما العالمية، والذي تبنته الدولة لعقدين سابقين، مستمراً حتى بعد انتهاء عصر الملكية^(٤٤).

قوانين الدولة والإنتاج الثقافى

خلال النصف الأول من القرن العشرين لم تظهر الهيئات الرسمية اهتماماً كبيراً بصناعة الفيلم سواء كقطاع اقتصادى أو كمنتج ثقافى. وكانت لوائح الدولة وقوانينها فى يد مجموعة من البيروقراطيين تتركز اهتماماتهم فى كيفية إدارة نظام الحكم، وكانت أغلب مؤسسات الدولة المهمة التى تنظم القوانين الخاصة بالأفلام هى وزارة المالية ووزارة الداخلية وهذه الأخيرة كانت اهتماماتها الأولى لا علاقة لها بالاقتصاد أو الثقافة. وقد أضيفت هيئات مسئولة أخرى للهيمنة على السياسة الثقافية تمثلت فى كل من وزارة التعليم والشئون الاجتماعية اللتين تشبعتا بتيار قوى كان يرى أن جموع الشعب المصرى فى حاجة إلى توجيه وإرشاد ثقافى. وقد كانت كل هذه الاتجاهات، التى جسدتها المؤسسات المختلفة لها جذورها الأصلية فى اهتمام المستعمر البريطانى بأمن واستقرار البلاد. فمثلاً فى ضوء القوانين التى فرضت على المؤسسات العامة، صدر قانون يركز فى أساسياته على الحفاظ على النظام العام والآداب العامة فى المجتمع مثلما نص أول قانون للرقابة على الأفلام عام ١٩١٤^(٤٥).

وفى مجال تنظيم صناعة السينما كانت سياسة الدولة واضحة فى إعطاء الأولوية للقطاع الاقتصادى والأمنى. ومع بقاء السلطة الكاملة على جميع القطاعات فى يد وزارة الداخلية، إلا أن وزارة المالية أصدرت بعض القرارات بالمضامين المقبولة فى الأفلام المستوردة أو المصدرة. وفى نفس الوقت حاولت وزارة الشئون الاجتماعية أن تحسن من إنتاجية الأفلام عن طريق رعاية مسابقات بين الأفلام وتقديم جوائز متواضعة لصناع الفيلم. ومن جانبها أيضاً قامت وزارة التعليم بإنشاء قسم ثقافى كان يرى أن أفلام السينما تلعب دوراً مرحباً به فى تنمية أخلاقيات وثقافة الشباب، أما ما تبقى من البيروقراطية فسوف يلعب دوراً مهماً بعد ذلك مع توسع الدولة فى مجال الثقافة^(٤٦). ويكفى فى الوقت الحاضر أن نقول إن الهيئات الرسمية فى الدولة كانت تعتبر صناعة الأفلام قطاعاً آخر من الأعمال يحتاج إلى الإشراف والرقابة لطبيعته الخاصة فى تجميع العامة بصورة قد تحتل تهديدات للاستقرار السياسى.

وقد عكست سياسة عدم التدخل فى صناعة الفيلم رؤية الحكم المحدود تجاه هذا النمط من الإنتاج الثقافى والذى كان دائماً بعيداً عن نطاق اهتمامات الدولة بالمقارنة بدورها فى التعليم والذى غطاه "سالمونى وإيكيدا" فى مقالاتهما، فمن ناحية فإن الدولة خلال تلك الفترة كانت تصرح بأن الأفلام السينمائية تلعب دوراً مؤثراً ومفيداً فى المجتمع حتى ولو كان ذلك ينحصر فى تشكيل الأخلاقيات وتنقيف المصريين. بل وأكثر من ذلك فمنذ بداية عام ١٩٣٣ خصصت وزارة التعليم جوائز مالية للمنتجين والممثلين لأعمالهم الإبداعية^(٤٧). وكما أبرز سالمونى فى الفصل السادس فإن وزارة التعليم عكست أفكارها الأيديولوجية الخاصة برؤيتها على أفلام الميلودراما الرائجة، والأفلام الغنائية التى سادت فى تلك الفترة كعملية تربية على نحو ما من خلال تناول مجموعة من الموضوعات التى تحافظ على العادات والتقاليد التى توافق عليها الرقابة والتى قليلاً ما كانت مترابطة بوضوح^(٤٨). وعلى جانب آخر كانت هناك قلة من المظاهر الأخرى التى اعتبرت تدخل الدولة ضرورة لتحقيق الإذعان لتلك التقاليد والعادات. ولم توجد أى حصة للأفلام المصرية فى الثلاثينيات رغم مطالبة المنتجين الصناعيين بتحديد^(٤٩). كما لم تحاول الدولة من جانبها بذل أية جهود تنظيمية لاستغلال الفيلم فى أغراض قومية واسعة. وكان الدعم الثقافى يأتى من جانب الأجانب والأثرياء والنخبة من ملاك الأراضى، أما الهيئات الرسمية فنادرأ ما كانت تتدخل على مستوى قومى فى صناعة الفيلم أو الأشكال الأخرى من المنتج الثقافى.

وقد شكل هذا التراجع الذى يحيط بموقف الدولة من المنتج الثقافى أدنى درجات الرقابة على الفيلم رغم وجود بعض قوانين الرقابة فى الفترات السابقة وخاصة فيما يتعلق بالمحظورات الثلاثة وهى الديانة والسياسة والجنس^(٥٠)، وضمن تعاملاتها مع الواردات أصدرت وزارة المالية قانوناً فى أوائل العشرينيات يقيد استيراد بعض الأفلام بسبب مضمونها الاجتماعى. وفى عام ١٩٢٨ بدأت تطالب وزارة الداخلية بمشاهدة الأفلام قبل عرضها مما أدى إلى دمجها بعد ذلك مع إدارة الرقابة على الصحف والنشر عام ١٩٣٦^(٥١) ومن ثم بدأت وزارة الداخلية تطالب بموافقة مسبقة بعد أن بدأت مصر مباشرة فى إنتاج أفلامها الخاصة فى أواخر العشرينيات بهدف

حماية سمعة وكرامة الدولة كما أعلن^(٥٢). ومع ذلك فقد انحصرت كل أنشطة الدولة في مجال فرض القيود على الإنتاج الثقافي على المنتج الذي يرون أنه غير ملائم للاستهلاك الشعبي، أو يمثل تهديداً لنظام الحكم، أو يضر بصورة وسمعة مصر في الخارج. وقد تحاشت الدولة تدخلاً أكثر من ذلك من جانبها حيث إن اهتمام الدولة بالمنتج الثقافي بصفة عامة كان ضئيلاً ولم تستشعر الحاجة إلى التدخل وتطوير ودعم جهاز إداري أو وضع سياسة قومية واضحة في هذا المضمار^(٥٣). وقد تركت هذه الخطوة الأخيرة لفترة الحكم الجديدة التي جاءت بعد الثورة.

الخاتمة: الاستمرارية والتغيير في السينما المصرية

في عشية يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ توجه أنور السادات إلى السينما دون أن يشارك في الانقلاب الذي دشن الثورة المصرية. ورغم أن رحلة السادات إلى السينما أبعدهته عن المشاركة في الساعات الأولى للانقلاب^(٥٤) فإن الثورة نفسها لم تكن في حد ذاتها مسنولة عن الإنجازات التي تحققت بعد ذلك في صناعة الفيلم. ولو عدنا إلى تاريخ مصر السابق ومتابعة أحداثه دون الرجوع إلى سينما ما قبل الثورة لوجدنا نتائج متغيرة مثيرة، بالإضافة إلى أن الإنتاج الثقافي للفيلم سوف يبدو بصورة مغايرة اليوم لو أن هذه الصناعة لم تخلق قبل ١٩٥٢. ولكن مجرد وجود سينما مصرية قبل الثورة كان له مردوده الذي استمر لفترات طويلة، كما كان لميزاتها الخاصة تأثير على التطور الذي حدث لاحقاً في هذا المجال. وأي تقسيم تاريخي حاد بين صناعة الفيلم في مرحلة ما قبل الثورة أو بعدها يثير مشكلة حيث إن عناصر استمراريته الآن ترجع جذوره إلى الأيام الأولى التي شهدت مولدها.

أثمرت صناعة السينما منذ بدايتها عن ميراث مهم يتمثل في أربع نقاط: أولها أن صناع الفيلم المصري قبل الثورة أسسوا بنية أساسية لصناعة السينما مكنت الدولة بعد ذلك من استغلالها والتي تتمثل في تشييد استوديوهات للأفلام والمعامل ودور

العرض بالإضافة إلى ملمح آخر غير مادي ولكنه يماثله في الأهمية يتركز في خلق شبكة من الموزعين ونظام "النجم" الذي ظل باقياً لسنوات. وكان استثمار مصر المادي في هذه الصناعة منذ البداية لا يجاريه استثمار مثيل في المنطقة، بل ويمثله فقط حوالى اثنى عشر بلداً في العالم. بالإضافة إلى أن هذا الاستثمار سمح للمستثمرين في عصر عبد الناصر بتأميم شركات الأفلام الموجودة آنذاك وبعض المنشآت مثل استوديو مصر، بل والتوسع في هذه الصناعة عن طريق بناء "مدينة السينما" في الجيزة بجوار المنشآت الموجودة، وما كان الاستيلاء على شبكات التوزيع الخاصة ونمو ظاهرة نجوم جدد سوف يتحقق بدون مجهودات رواد السينما الأوائل في الربع الأول من القرن.

ورغم أن تراث الماضي المادي كان قوياً، فإن نتائجه على المدى الطويل لم تكن إيجابية، فقد تدهورت معظم المنشآت الأولى وفقدت أهميتها الحيوية، وبالتالي لم يكن أمام صناع الفيلم في الدول الأخرى سوى بناء استوديوهات جديدة دون التأثير بـماضى هذه الصناعة التي لم تكن موجودة عند معظمهم. أما في مصر فقد اعتمدوا لعقود طويلة على ما هو متاح لديهم رغم عدم استمرارية كفاءتها. ومن منطلق هذا المفهوم فربما كان الميراث المادي الذي خلفته صناعة السينما في الماضي له تأثيره في الحد من قدرة الصناعة بعد ذلك على تصور نفسها أكثر من كونها سينما تجارية تعاود نشاطها من جديد. ومنذ عام ١٩٤٥ على الأقل حاول صناع الفيلم التغلب على "الأزمة المتكررة للسينما"^(٥٥)، إلا أن هذه الأزمة كان لها جذورها في البنية الأساسية التي كان من الصعب التغلب عليها في سوق عالمية تعج بالإنتاج الثقافي وبمنافسين عالميين أقوياء يتنافسون على نصيبهم في هذا السوق.

أما الميراث الثاني الذي يماثله في الأهمية فهو يتعلق بخبرات وتحارب الجيل الأول من صناع الفيلم من التقنيين والمبدعين الذين درسوا وتعلموا هذه الصناعة في أوروبا، والتي استفاد من تجاربهم السينمائية من أتوا بعدهم من المخرجين والفنيين والممثلين الذين انتقلت إليهم مفاهيمهم في صناعة السينما بمضمونها المحلي.

وحين أنشئ المعهد العالى للسينما عام ١٩٦٩، كانت هيئة التدريس به تضم هؤلاء الذين مكنتهم خبراتهم قبل الثورة من تشكيل كل أوجه هذه الصناعة. إلا أن هذه الخبرات - مثل المخزون المادى - ربما لم تستطع فى كثير من الأحوال أن تغير الأجيال اللاحقة، حيث إنها عززت اتجاهًا تجاريًا يمكن أن يحقق نجاحًا فقط فى ظروف كانت قد انتهت تمامًا، ومع ذلك فقد وفرت استمرارية وجود تقنية فنية سمحت لنقاد السينما اللاحقين من اكتشاف الكثير من الخصائص المتشابهة فى صناعة السينما عبر عدة عقود.

ثالثًا: إن صناع الفيلم فى مرحلة ما قبل الثورة ساهموا فى بناء طبقة من جمهور المشاهدين من خلال تعليمهم كيفية "قراءة وفهم" الفيلم المصرى^(٥٦). ورغم أن هذا الجمهور لم يكن ملقىً سلبياً لمضمون الفيلم الثقافى، فإن هذه الطبقة نشأت وتكونت على المستوى المحلى وعلى مستوى البلاد العربية بدءاً من ثلاثينيات القرن، ومع ذلك فقد كان وجودهم والمضمون الثقافى للأفلام التى يشاهدونها لا يمكن اعتبارها قضية مسلماً بها. فمن المعروف أن صناعة السينما المصرية تشكلت وفق نظيرتها الأمريكية، وأن سيطرة هوليوود العالمية انطلقت إلى حد ما من قدرتها على تحديد طبيعة الفيلم الخاصة كأحد الوسائل الإعلامية مع تشكيل ذوق المستهلك تجاه صناعة الفيلم من خلال الأسلوب السردى الكلاسيكى المتواصل^(٥٧). وحتى لو كانت السينما المصرية قد ترعرعت فى ظل اتجاهات السينما فى هوليوود - مع بعض الاختلافات فى النظرة المحلية للموضوعات السائدة فى تلك الفترة - إلا أن صناع الفيلم المصرى نجحوا فى تطوير نوعية متفردة، وتقاليده مميزة، ومعايير لهذه الصناعة ظلت باقية حتى بعد التدهور التجارى "لهوليوود النيل". وحتى يوسف شاهين مثلاً - وهو أشهر مخرج سينمائى حالياً - استمر فى استخدام الموسيقى بطرق كان لها منطقيتها ومعقوليتها فقط فى العقود القديمة.

رابعاً وأخيراً فإن سينما ما قبل الثورة فتحت مساحات ثقافية واسعة في خيال الجمهور المصري، وخلقت بذلك إمكانية وجود إنتاج ثقافي وطني في عصر هيمنت فيه التنافسية العالمية. ورغم أن هذه المساحة تضاعفت وانكمشت بالإضافة إلى إعادة تشكيلها في السنوات اللاحقة فإن ظهورها الأول خلق فرص إيجاد ترابط وطني من خلال وسيلة إعلامية اقتربت إلى حد كبير من الحياة العامة. ولم يكن خلق هذه المساحة العامة أمام إنتاج ثقافي من قبل مجموعة من المبدعين إلى الوطنيين تحركاً ألياً أو لا مفر منه، وهي حقيقة تشير إليها غياب هذه الصناعة في الدول الأخرى في المنطقة، ولكنها كانت ميراً لا يسهل اقتلاعه. وحتى لو كانت الضغوط الاقتصادية والسياسية المعاصرة قد ساهمت في ضعف وإفقار الحياة المدنية في مصر، وتحركها نحو مجالات اجتماعية أخرى فسوف يظل الإنتاج السينمائي في مصر يتسم بالحيوية في الحاضر بسبب الجهود التي بذلت في الماضي.

الهوامش

(١) Annual Statement of the Foreign Trade of Egypt، عدة سنوات. عشرة أفلام مصرية تم تصديرها للبرازيل عام ١٩٤٨ Cine Film، رقم ٢٦، يونيو ١٩٥٠، ٦٣.

(٢) لم يصور أرسون ويلز أفلاماً في مصر نظراً لتراجع حظه في هوليوود بعد إخراجه لفيلم "المواطن كين". ولكن حقيقة أنه كان على وشك أن يفعل ذلك يدل على مكانة مصر المؤثرة في هذه الصناعة في أواخر الأربعينيات. لمعرفة المزيد عن عقود ويلز، انظر: Echo et Nouvelles: Orson Wells va tourner en Égypte، مجلة Ciné Film رقم ١٩، ٧ نوفمبر ١٩٤٩، ٧.

(٣) يشاطر بعض الخبراء السينمائيين المصريين والأجانب في هذا التقييم السلبي، ولنفس المطالب التي طرحت أخيراً، انظر: والتر أرمبروست،

The Golden Age before the Golden Age: Commercial Egyptian Cinema before the 1960s.

في طبعة أرمبراست،

Mass Mediations: New Approaches to Popular Culture in the Middle East and Beyond.

(بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٠)، ٢٩٢-٢٧. ويصف على أبو شادي الفيلم في عصر عبد الناصر "بالإنتاج السينمائي الهادف"، ويلاحظ سمير فريد في مكان آخر أن مصطلح "الهادف" يستخدم ليصف فيلماً له هدف، أي دعابة للاشتراكية. انظر: على أبو شادي "واقع السينما المصرية في مائة عام: ١٨٩٦-١٩٩٥" (القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٩٧)، ١٨٥-٨٦، وسمير فريد،

Periodization of Egyptian Cinema," Screens of Life: Critical Film Writing from the Arab World.

طبعة عليّة أراصوغلي (كوبيك: مطبعة وورلد هيريتاج، ١٩٩٦)، ١٢. مثال عن الانقسام الشديد بين عهد عبد الناصر وأوائل عصر صناعة السينما تجده في كتاب جلال الشرقاوي History of the U.A.R. Cinema, 1896-1962 والذي يدعي فيه أن الثورة الناصرية قامت بنهضة حقيقية وجاءت بتغيير شامل لعدد من الأفكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ثم بعد ذلك شرح بالتفصيل علاقة تطور المؤسسة السينمائية تحت حكم عبد الناصر. الشرقاوي في طبعة جورج سادول،

The Cinema in the Arab Countries.

(بيروت: اليونسكو ومركز انترأراب للسينما والتلفزيون، ١٩٦٦)، ٩٢.

(٤) لمناقشة المستقبل حول كيفية اختيار "منطق الملائمة" لتحديد الشروط المؤسسية (وأخرى)، انظر: جيمس جى. مارش وجوهان بى. أولسن Rediscovering Institutions: The Organizational Basis of Politics (نيويورك: مطبعة فري، ١٩٨٩).

(٥) عندما احتفلت الصناعة المصرية بعيدها الحادى والعشرين عام ١٩٤٨، حددت مولدها فى عام ١٩٢٧ بإنتاج فيلم "لىلى". انظر al-Film Cine-Orient، رقم ٨، ١٦ أكتوبر ١٩٤٨. وتجد بدايات صناعة الفيلم المصرى فى أحمد الحضرى "تاريخ السينما فى مصر: الجزء الأول من بداية ١٨٩٦ إلى آخر ١٩٣٠" (القاهرة: نادى السينما بالقاهرة، ١٩٨٩).

(٦) أحمد الحضرى "تاريخ السينما فى مصر". المؤرخون الرسميون المصريون عادة ما يقللون من دور الأجانب فى تطور السينما المصرية، خاصة بعد عام ١٩٢٧.

(٧) "صناعة السينما: حقائق وأرقام" الهيئة المصرية العامة للسينما، والراديو، والتليفزيون، المكتب الفنى للسينما، مارس ١٩٦٤، ٢.

(٨) وزارة الثقافة: هيئة السينما والمسرح والموسيقى The Motion Picture Industry in Egypt مايو ١٩٧٩، ٢.

(٩) بدايات الإنتاج كانت بقيادة أربع سيدات: عزيزة أمير، وأسيا داغر، وفاطمة رشدى، ومارى كوينى. والشركات الرائدة فى توزيع الأفلام المصرية كانت تتضمن شركة مصر للمسرح والسينما، بنها فيلم، النحاس فيلم، تشارلز ليفشيتز، وكايرو فيلم، وكان الموزعون المحليون الأساسيين الذين يوزعون الفيلم الأجنبى هم علما فيلم وجوزى فيلم، بالإضافة إلى إيديال للأفلام السينمائية وبولار فيلم. Ciné Film، رقم ٢٦، يونيو ١٩٥٠، ٢٦.

(١٠) للمزيد من المعلومات حول الاقتصاد السياسى للصراع والتعاون الصناعى، انظر: أندرو فليبير، Commerce in Culture: Institutions, Markets, and Competition in the World Film Trade.

(مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة كولومبيا، ٢٠٠١).

(١١) عن طلعت حرب وإنشاء استوديو مصر، انظر: إلهامى حسن "محمد طلعت حرب: رائد صناعة السينما المصرية، ١٨٦٧-١٩٤١" (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦).

(١٢) لقائمة كاملة لأسماء أكثر من ١٥٠٠ فيلم أنتجت فى مصر من ١٩٢٧ وحتى ١٩٧٣، انظر: عبد المنعم سعد "السينما المصرية فى موسم ١٩٧٣"، ٢١٨-٤٦.

(١٣) توجد تفاصيل عن الاستوديو فى طبعة جاك باسكال The Middle East Motion Picture Almanac, 1946-47 الطبعة الأولى (القاهرة: مطبعة أس. أو. بى، ١٩٤٧)، ١٢٧-٣٢. أسماء وتفاصيل انطلاق إنتاج الشركات مدرجة عند جلال الشرقاوى "رسالة فى تاريخ السينما العربية (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠)، ١٠١-١٠٥.

(١٤) نكرم. م. مشرفة شعبية السينما فى Cultural Survey of Modern Egypt الجزء الأول (لندن: لون مهم جرين وشركاه، ١٩٤٨)، ٥٩.

(١٥) كان هناك مبالغة في المساهمة الاقتصادية لقطاع الفيلم في التنمية في مصر. وغالباً ما يشير جاك باسكال، رئيس تحرير مجلة الأفلام السينمائية التجارية Ciné Film، لصناعة السينما في مصر على أنها ثاني صناعة بعد القطن، انظر على سبيل المثال: Ciné Film، رقم ١٨ (١ سبتمبر ١٩٤٩)، ٢-١. ومع ذلك، يبدو أن هذه الصناعة تمتعت بعدة سنوات مربحة ولكنها لم تتمكن من ترسيخ نفسها والاستمرار في هذه الربحية.

(١٦) جاكوب أم. لاندوا Studies in the Arab Theater and Cinema (فيلادلفيا: مطبعة جامعة بنسلفانيا، ١٩٥٨)، ٨٠-١٧٩.

(١٧) متوسط إيجار الاستوديو في عام ١٩٤٧ كان يتراوح بين ١٥٠٠ و ٤٠٠٠ جنيه شهرياً. تصنيف التكلفة تجده في طبعة باسكال من The Middle East Motion Picture Almanac 3. وبالنسبة للتوزيع الأجنبي، انظر: كارين فينلون داجاني،

Egypt's Role as a Major Media Producer, Supplier and Distributor to the Arab World: An Historical-Descriptive Study

(مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة تميل، ١٩٧٩)، esp. ١٢٠-٤٢.

(١٨) إعلانات مبنية في جريدة التجارة الصناعة في عام ١٩٤٨ تشير إلى كيفية تمويل الفيلم في هذا الوقت: "مطلوب تمويل من ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ جنيه لعمل فيلم سينمائي جيد. بفترة سماح ستة أشهر. استثمار مضمون. المراسلة مع إدارة الجريدة Ciné-Orient، رقم ٢ (١ يوليو ١٩٤٨)، ٦.

(١٩) تقول The Middle East Motion Picture Almanac of 1946-47، ٢، أنه يوجد ١٤٠ شركة إنتاج في مصر. إلا أن الغالبية العظمى منها لم تكن تعمل بنشاط، حيث إن قائمة أفلام جلال الشرقاوي عن هذه الفترة لم تتضمن إلا ثلاثين منتجاً فقط أنتجوا أفلاماً في هذا العام. وهذا الاختلاف ليس خطأ في الغالب ولكنه مؤشر على تشتت المساهمة للمستثمرين الأفراد في هذه الفترة، وبالتالي وجود سوق تنافسية ومجزأة. انظر: جلال الشرقاوي "رسالة في تاريخ السينما العربية".

(٢٠) لنظرة عامة عن نظام النجوم المصريين، انظر: كريستوف عياد de la splendeur : Le star-système au voile في طبعة ماجدة واصف. gypte: 100 ans de cinema. ومؤشر آخر على التركيز المطلق على النجوم المصريين في هذه الصناعة، بالإضافة إلى عدد من المنتجين، تجدها عند مصطفى درويش، Dream Makers on the Nile: A Portrait of Egyptian Cinema.

(القاهرة: الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٨). ويناقش ويحدد الشرقاوي العدد المحدود من النجوم المصريين في "رسالة في تاريخ السينما العربية"، ١٠٥-١٠٨، وعن النوع (نكر/أنثى)، انظر: على أبو شادي، Genres in Egyptian Cinema," Screens of Life: Critical Film Writing from the Arab World.

الجزء الأول (كيبك: مطبعة وورلد هيريتاج، ١٩٦٦).

(٢١) تفسير معاصر لتوسع الصناعة في وقت الحرب وانحدارها بعد الحرب تجده في Ciné Film، رقم ١١، ١ (ديسمبر ١٩٤٨)، ٣. عدد المتفرجين نما ٢٤٥٪ أثناء الحرب Ciné Film، رقم ١٥ (مارس ١٩٤٩)، ٢٢.

(٢٢) بعد الحرب العالمية الثانية، أغلقت مؤقتاً في صيف ١٩٤٨ دور العرض الكبيرة مثل ميامي، ورويال، وكور سال وديانا. Ciné Film، رقم ٢ (١ يوليو ١٩٤٨)، ٤. ولفهم الإفراط في عدد السينما، انظر: الافتتاحية في Ciné Film، رقم ٦ (١ سبتمبر ١٩٤٨)، ١.

(٢٣) كما تشير الأرقام التالية، ارتفعت نسبة دور العرض التي تعرض بعض الأفلام الأجنبية إلى حد كبير في سنوات ما بعد الحرب. هذا النمط شمل جميع أنحاء البلاد باستثناء ملحوظ في بور سعيد، بسبب التفرقة غير العادية في دور العرض - ربما لوجود الجيش البريطاني - والتي تركت دار عرض واحدة من أربع عشرة تعرض خليطاً من البرامج في ١٩٤٥.

السنة	أجنبي %	مصري %	مختلط %	المجموع
١٩٤٦	٣٠ ٥٨	٣٠ ٧٣	٣٨ ٧٣	١٩٣
١٩٥٢	٢٠ ٦٤	٢٥ ٧٧	٢٥ ٧٧	٣١١
١٩٥٤	١٩ ٦٩	٦ ٦٩	٦ ٢١	٣٥٤

المصدر: حسب من طبعة وصف السينما لباسكال

The Middle East Motion Picture Almanac, 1946-47 19-38، وطبعة باسكال

Annuaire du Cinéma, 1951-52، ٤٩-٨٨، وطبعة باسكال

Annuaire du Cinema, 1954, 69، ١١٩

(٢٤) محمد القصاص Theater and Cinema، في طبعة مصطفى حبيب،

Cultural Life in the United Arab Republic.

(القاهرة: البعثة الوطنية للجمهورية العربية المتحدة في اليونسكو، ١٩٦٨)، ٢٤٦.

(٢٥) أحمد كامل مرسى ومجدى وهبة "معجم أفلام السينما" (القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣)، ٧٢. تم الاعتراف الرسمي بالقرار الوزاري رقم ٤٥٨ في سبتمبر ١٩٤٧. Ciné Film، رقم ١٤ (٢٤ يناير ١٩٤٩)، ٦.

(٢٦) "صناعة السينما: حقائق وأرقام"، مارس ١٩٦٤، ٣. العاملون في السينما كانوا ممثلين في اتحاد صناع السينما (نقابة السينمائيين المحترفين)، والتي عقدت أول اجتماعاتها في نوفمبر ١٩٤٣. "معجم الفن السينمائي، ٧٩، مجدى وهبة،

Cultural Policy in Egypt.

(باريس: اليونسكو، ١٩٧٢)، عن منع وزارة التجارة والصناعة أى نشاط صناعى غير مشترك في غرفة اتحاد الصناعات المصرية، انظر: Ciné Film، رقم ٦٨ (١ يناير ١٩٥٤)، ١٢.

(٢٧) خطة احتكار فعلية قررتها وطورتها شركة مصر للمسرح والسينما، والتي سعت بعد الحرب العالمية من خلالها إلى توحيد العديد من صغار المنتجين المصريين في شركة أو شركتين، على أن يسيطر استوديو مصر على كل الإنتاج. انظر: Ciné Film، رقم ١ (١ مايو ١٩٤٨)، ١٢. وقد ترددت إشاعات عن

اندماجات أخرى في الصحافة التجارية، ولكن، في كثير من الأحيان، فشلت في أن تتحقق في هذه الفترة.
انظر: Ciné Film، رقم ٣ (١ يونيو ١٩٤٨)، ٤. لمزيد من المعلومات عن النقابات المصرية الأخرى،
انظر: روبرت بيانكن،

Unruly Corporatism: Associational Life in Twentieth-Century Egypt.

(نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٩).

(٢٨) لاحظ شارل عيسوى أنه "بحلول نهاية الحرب جمع الأفراد والمؤسسات المصرية أرصدة إستراتيجية
تقدر بحوالى ٤٠٠ مليون جنيه." عيسوى Egypt at Mid-Century: An Economic Analysis 204.
في طبعة من هذا الكتاب عام ١٩٤٧ والتي كتبت عام ١٩٤٢-١٩٤٣، قدر الإنفاق السنوي على صناعة
السينما بـ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه، وكان ينظر لصناعة السينما على أنها تجارة مربحة، مما يسمح لمصر
"بإمكانية أن تكون مركز سينمائي بولى من الدرجة الأولى." عيسوى Egypt: An Economic and
Social Analysis (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٤٧)، ٩٢. ولكن ما يطلق عليهم جماعة المنتفعين
بالحرب لم يكن لديهم اهتمام بصناعة السينما إلا كونها استثمار قصير الأجل. انظر: سعد الدين توفيق
"قصة السينما في مصر: دراسة نقدية" (القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٩)، ٨٢-٨٤.

(٢٩) ريتشارد إي. ماي، الملحق التجارى الأمريكى، إلى مورتون هويل، الوزير الأمريكى، ١٣ مارس، ١٩٢٦
الأرشيف القومى Records of the Department of State Relating to the Internal Affairs
of Egypt, 1910-29 883-40 of المسائل الاجتماعية. إلا أن شحن الأفلام من الولايات المتحدة إلى
أوروبا، ومنها إلى الشرق الأوسط وأماكن أخرى عبر مصر، يشير إلى أن الإحصائيات التجارية يجب أن
تؤخذ بحذر، حيث إنها غالباً ما تشير إلى بلد المنشأ مباشرة. وكما أشار ماي في المصدر المذكور أعلاه،
"تقارير الاستيراد الرسمية لا تظهر تمتع الولايات المتحدة بحصة كبيرة من التبادل التجارى
مع مصر حيث إن كثيراً من الأفلام الأمريكية تستورد من فرنسا، وإيطاليا ودول أخرى بعد عرضها
في هذه الدول".

(٣٠) Ciné Film، رقم ٢٦، عدد خاص، يونيو ١٩٥٠، ٢٦. تقدمت شركة جومون بفكرة تعاقد بنسبة مئوية
بدلاً من تسعير الإيجار بطول الفيلم، وسرعان ما حذت حذوها الشركات الأمريكية.

(٣١) سى. جى. نورث Our Foreign Trade in Motion Pictures فى

"The Motion Picture in its Social and Economic Aspects," Annals of the American
Academy of Political and Social Science.

المجلد CXXVIII نوفمبر ١٩٢٦، ١٠٧. كان نورث يرأس قسم الأفلام السينمائية فى وزارة التجارة
الأمريكية.

(٣٢) ناثن دى. جولد Review of Foreign Film Markets during 1936 وزارة التجارة الأمريكية،
مكتب التجارة المحلية والنولية، قسم الأفلام السينمائية (واشنطن العاصمة، إبريل ١٩٢٧)، فى عام ١٩٢٤
استوردت مصر كمية كبيرة من الأفلام الناطقة. وهذا برهان على التحول السريع فى ميزان استيراد
الأفلام الناطقة والأفلام الصامتة فى بداية الثلاثينيات.

السنة	الأفلام الصامتة %	الأفلام الناطقة %
١٩٣١	٩٧	٣
١٩٣٢	٩٣	٧
١٩٣٣	٧٧	٢٣
١٩٣٤	٢	٩٨
١٩٣٥	١	٩٩

المصدر: تم حسابها من التقرير السنوى للتجارة الخارجية المصرية، عدة سنوات

(٣٣) من ماى إلى هويل، ١٣ مارس ١٩٢٦ .

(٣٤) للحصول على بيانات انتشار إعادة التصدير من مصر، انظر: جدول حركة تجارة الترايزيت فى التقرير السنوى للتجارة الخارجية المصرية.

(٣٥) من كارل إى. ميليكان، مدير بالقسم الدولى بالجمعية الأمريكية للأفلام السينمائية MPAA إلى جورج كانتى، مساعد رئيس قسم الاتصالات، بوزارة الخارجية ٨٨٣ . ٤٠٦١ أفلام سينمائية/ ٢-١٣٤٦ تتضمن "تأكيد برقية" أر. كى. أو. للراديو والأفلام المتحدة، قسم التصدير. وقد أعاد المنتجون والموزعون لصناعة السينما MPPDA تسمية الجمعية الأمريكية للفيلم السينمائى فى عام ١٩٤٥، وقام قسمها الخارجى بإعادة تنظيم القسم الدولى عام ١٩٤٢ .

(٣٦) آخر فيلم منعت الرقابة المصرية الفيلم الأخير فى ١٩٣٨ الذى كان يصف الثورة الفرنسية. جون يوجين هارلى، Worldwide Influences of the Cinema: A Study of Official Censorship and the International Cultural Aspects of Motion Pictures.

(لوس انجلوس: مطبعة جامعة جنوب كاليفورنيا، ١٩٤٠)، ١٢١ .

(٣٧) Ciné Film، رقم ٢٢، ١ فبراير ١٩٥١، ١٥ .

(٣٨) بنت هان سون وكريم النشاشيبي،

Foreign Trade Regimes and Economic Development: Egypt. Special Conference Series on Foreign Trade Regimes and Economic Development, National Bureau of Economic Research.

الجزء الرابع (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٧٥)، ٣-٥، على الجريتل،

The Structure of Modern Industry in Egypt.

التقرير السنوى للتجارة الخارجية، ١٩٣٢، وزارة المالية، قسم الإحصاء (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٣٤)، ١٣-٥ .

(٣٩) أخذت أرقام التكلفة والأرباح من سمير فريد،

"Periodization of Egyptian Cinema," Screens of Life: Critical Film Writing from the Arab World.

- طبعة عاليًا أراس وغلّى (كوبيك: مطبعة وورلد هريتاج، ١٩٩٦)، ٨. لم يقدم أى مصدر، ولكن هذه الأرقام تتفق مع التقديرات الأخرى، مثل التى وجدت فى Ciné Film.
- (٤٠) طبعة مارتن كوينجلى Motion Picture Almanac، ١٩٥١-٥٢ (نيويورك).
- (٤١) لمزيد من المعلومات عن موقف ميزان المدفوعات والتجارة الخارجية فى مصر بعد الحرب، انظر شارل عيسوى Egypt at Mid-Century: An Economic Survey (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٥٤)، وبنث هانسون وكريم نشا شيبى Foreign Trade Regimes and Economic Development: Egypt (نيويورك: المكتب القومى للدراسات الاقتصادية ومطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٧٥).
- (٤٢) انظر: المراسلات بين جيرالد أم. ماير، مدير القسم الدولى بالجمعية الأمريكية للأفلام السينمائية، وجورج جانيتى، مساعد رئيس قسم السياسات التجارية، وزارة الخارجية الأمريكية، ٨٨٢، ٦١، ٤٠٠٦١ أفلام سينمائية M.P/5-547 و٧٤٧-٥.
- (٤٣) Cairo Air gram A-719 dated 28 June 1949 from H.G. Minigerode/American Embassy to Sec State, 883.4061 M.P./6-2249.
- (٤٤) عن تقرير غرفة صناعة السينما ورد الفعل المحلى، انظر: Ciné Film، رقم ٨٢ (١ مارس ١٩٥٥)، ١.
- (٤٥) Ciné Film، رقم ٢٦ (يونيو ١٩٥٠)، ١٠، "معجم الفن السينمائى"، ٧٠.
- (٤٦) تم نقل القسم الثقافى بوزارة المعارف إلى وزارة الإرشاد القومى الجديدة فى عام ١٩٥٦، وأعيد تسميتها إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومى عام ١٩٥٨.
- (٤٧) طبعة ماجدة واصف Égypte: 100 ans de cinema (باريس: طبعة بلوم ومعهد العالم العربى، ١٩٩٥)، ٢٣.
- (٤٨) لمثل هذه التفاصيل، انظر: تقرير وزارة الخارجية الأمريكية عن القواعد المصرية الأولية فى الملفات السرية لوزارة الخارجية الأمريكية،
- Egypt: Internal Affairs and Foreign Affairs, Record Group 59, Reel 8, Motion Pictures, 883.4061.
- (٤٩) طبعة مارتن كوينجلى Motion Picture Almanac، ١٩٢٧-٢٨ (نيويورك)، ١١٢٤.
- (٥٠) مصطفى درويش Dream Makers on the Nile، ١٣. هذه المناطق لا تزال من المحرمات حتى اليوم.
- (٥١) فى عام ١٩٤٥، تم نقل الرقابة إلى وزارة الشئون الاجتماعية، إلا أنها عادت عام ١٩٤٨ عند اندلاع حرب فلسطين. طبعة واصف، ٢٠ "معجم الفن السينمائى"، ٧٠-٧١.
- (٥٢) المرسوم الصادر يوم ٢٣ أغسطس ١٩٢٨ والمنشور فى الجريدة الرسمية، رقم ٧٧، ٢٠ أغسطس ١٩٢٨، ذكر فى L'Égypte contemporaine، رقم ١١٦-١٧ (نوفمبر-ديسمبر ١٩٢٩). وأول تنظيم للسينما المصرية صدر عام ١٩١١ من وزارة الداخلية. طبعة جاك باسكال The Middle East Motion Picture Almanac "الدليل السينمائى للشرق الأوسط" الطبعة الأولى (القاهرة مطبعة أس. أو. أس.، ١٩٤٧).

(٥٢) للطلبات المماثلة التي تخص الإنتاج الثقافى على نطاق أوسع، انظر: ميشيل دبليو. ألبين،

Official Culture and the Role of the Book, Journal of the American Research Center in Egypt XXIV. (1987).

(٥٤) لم يعلم السادات الذى كان متمركزاً فى قاعدة جوية خارج مدينة العريش التاريخ المحدد للانقلاب، ولكنه تلقى استدعاء من عبد الناصر. وفى ليلة ٢٢ ذهب عبد الناصر إلى منزل السادات وعلم أنه قد ذهب إلى السينما مع زوجته جيهان. وعند عودته فى حوالى منتصف الليل، وجد ورقة تركها له عبد الناصر، فهرع إلى مسدسه، وأسرع إلى منزل عبد الحكيم عامر، ثم إلى ثكنات العباسية، وعلى الرغم من أنه كان مسئول الاتصالات فى حركة الانقلاب، لم يتمكن السادات من المرور إلى القاعدة لأنه لم يكن يعرف كلمة السر. وبالصدف وجد عامر، الذى كان قد عاد من مقر قيادة الجيش. ومع ذلك، أذاع السادات أول بيان للثورة فى صباح اليوم التالى. انظر: أنور السادات In Search of Identity (نيويورك: هاربر ورو، ١٩٧٧)، ١٠٥-١٠٧، وجيهان السادات A Woman of Egypt (نيويورك: سايمون وش وستر، ١٩٨٧)، ١٢٥-٢٧.

(٥٥) المراجع عن أزمة السينما فى وسائل الإعلام "أزمة السينما" ظهرت منذ أوائل الأربعينيات.

(٥٦) للمزيد عن هذه القضية، انظر: جيمس موناكو،

How to Read a Film: The World of Movies, Media, and Multimedia.

الطبعة الثالثة (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠٠٠).

(٥٧) عن طبيعة وتطور هذا الأسلوب، انظر: ديفيد ستجر وكريستين تومبسون

The Classical Hollywood Cinema: Film Style and Mode of Production to 1960.

(نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٨٥).

١٧- التاريخ لمصر، ١٩١٩-٥٢

آرثر جولد شميدت

بدأ تسجيل تاريخ مصر عن الفترة ما بين الثورتين اللتين اندلعتا في القرن العشرين حين شعر المصريون والأجانب المقيمون بها بالحاجة إلى تسجيل خطوات التغيير في مجتمعهم، والقوى الخارجية التي أثرت فيه، وانصب اهتمام المصريين الأكبر على قضية الاستقلال عن بريطانيا ثم وحدة وادي النيل بمعنى أن الاهتمام بالتاريخ تركّز على ما يمس الوطن وما يتعلق بالعلاقة مع بريطانيا، بالإضافة إلى تطوّرهم السياسى الداخلى وإن كان بعض المسلمين قد أبدوا اهتماماً بتاريخ الإسلام. أما الاهتمام بتاريخ العرب فقد كان نادراً منذ البداية، ثم بدأ يتزايد مع تواتر الأحداث حولهم. وانحصر اهتمام الأجانب المقيمين بمصر في الدول التي قدموا منها أو الجماعات العرقية التي ينتمون إليها، وإن كانت الأحوال الاقتصادية في مصر والتي جذبتهم إليها منذ البداية أصبحت أيضاً مثار اهتمامهم. وفي واقع الأمر فإن الاهتمام بالماضى هو اهتمام إنسانى عالمى، والكتابة عنه لا تنحصر فقط في المؤرخين المهنيين والذين افتقدتهم مصر في تلك الحقبة.

كانت السنوات ما بين عامى ١٩١٩ - ١٩٥٢ هي العصر الذهبى للكلمة المكتوبة في مصر، وقد سجلت الصحف الدورية المزدهرة آنذاك واليوميّات والمذكرات أحداث واتجاهات تلك المرحلة. وقد نشر بعض منها وحجب البعض الآخر لحساب الأجيال المستقبلية. فقد كان المصريون دائماً يشعرون بأن تجاربهم وملاحظاتهم لا يجب تعريضها أمام معاصريهم خشية ربود الأفعال من جانب الإنجليز والسراى والبوليس السرى أو منافسيهم. لذلك يعتمد المؤرخون بشدة على الصحف والمجلات والحواليات

التي صدرت فى تلك الفترة لتأكيد أحداثها وكيفية تعبير الشعب عنها وتأثره بها. وقد سجل أحمد شفيق (١٨٦٠-١٩٤٠) وهو محامى كان يخدم فى معية عباس الثانى حين كان خديوى على مصر فى المنفى كثيراً من هذه الأحداث فى نشرته السنوية "حوليات مصر السياسية" منذ عام ١٩٢٦ وحتى ١٩٣٣. وكان قد سبقها بثلاث كتابات تمهيدية تغطى المرحلة ما بين ١٨٤٠ إلى ١٩٢٦ تضمنت تفاصيل أكثر دقة^(١). أما عبد الرحمن الرافعى - وكان محامياً بارزاً وعضواً فى البرلمان ووزيراً (١٨٨٩-١٩٦٦) فقد انحاز فى تسجيله للتاريخ السياسى إلى الحزب الوطنى ضد حزب الوفد فى مؤلفيه "ثورة سنة ١٩١٩"^(٢) وفى أعقاب الثورة المصرية^(٣). فى حين يؤرخ أمين سامى فى كتابه "تقويم النيل" لأحداث كثيرة بالإضافة إلى نشر بعض الوثائق الحكومية^(٤). وقد فتح القصر أبوابه أمام بعض المؤرخين المختارين ليتعرفوا على وثائق رسمية أخرى، إلا أن نظام الأرشفة كان - وما يزال - فقيراً ويمثل تحدياً كبيراً أمام الباحثين.

وتضم الأعمال المعاصرة عن مصر بغير اللغة العربية مجموعة من الإصدارات لكتاب فرنسيين ومصريين تشمل فصولاً عن تاريخ مصر حتى عام ١٩٢٣، وعن نظام الحكم بها، والحج إلى مكة، وجامعة القاهرة، وتاريخ الآثار، والجيولوجيا والرى والزراعة والتجارة والاقتصاد والمواصلات (مع خرائط تفصيلية عن موانى الإسكندرية وبور سعيد والسويس) بالإضافة إلى الحياة الاجتماعية فى مصر وحتى السياحة بها، ولكن دون أى إشارة إلى ثورة ١٩ أو الصراعات على السلطة بين الوفد والملك فؤاد والإنجليز^(٥). فلدينا مثلاً كتب تاريخية حررها كتاب بريطانيون مثل كتاب جورج يونج Egypt - George Yong^(٦) والذي يتعاطف فيه قليلاً مع الحركة الوطنية، بخلاف كتاب ب. جى. الجود Egypt The Transit of-P. G. Elgoods^(٧) الذى يفتقد أى تعاطف معها. أما لورد لويذ الذى كان المبعوث السامى لمصر والسودان منذ عام ١٩٢٥ وحتى ١٩٢٩ فقد أصدر بعد ذلك كتاباً من كتابين يدافع فيهما عن حكم الإنجليز لمصر (وعنه هو شخصياً) بعنوان Egypt since Cromer^(٨) ورغم أنه يغطى تاريخ مصر السياسى بكثافة، فإنه نادراً ما يعبر عن أفكار واهتمامات المصريين. وعلى النقيض منه تعرف قراء اللغة الإنجليزية على نور مصر فى الصحوة الإسلامية الحديثة منذ صدور كتاب سى. سى.

أدامز "الإسلام والتجديد في مصر" C. C. Adams^(٩) وبعده بفترة قصيرة ظهرت مجموعة من الإصدارات لجماعة دارسى الإسلام بعنوان *Égypt Indépendante*^(١٠) تناقش فيها بإفاضة السياسات الداخلية، والطبقات الاجتماعية، والصلات مع بريطانيا، وشباب المصريين، ثم الأجانب المقيمين بمصر (وذلك في أعقاب مؤتمر مونترو الذى ألغى الامتيازات الأجنبية)، بالإضافة إلى الاقتصاد والصحافة. ويركز كتاب أرنولد ت. ويلسون *Arnold T. Wilson - The Suez Canal: Its Past, Present and Future* على السنوات ما قبل ١٩١٤، إلا أنه يوفر إحصائيات مفيدة حتى الثلاثينيات من العصر^(١١). أما مذكرات أمين يوسف وهو ابن شقيق سعد زغلول *Independent Egypt*^(١٢) فقد كان الهدف منها هو مساندة الوفد، فى حين يعتبر كتاب مارسيل كولومب *L'Evolution de L'Egypt, 1924-1950*^(١٣) والذى ظهر قبل نهاية عصر الملكية مباشرة تحليلاً منطقياً للسياسة فى مصر خلال المرحلة الدستورية. ورغم أن ذلك فإن هذه الكتب لا تشكل ذخيرة ثرية سواء فى مجموعها أو دقة تحليلها التاريخي. وحتى عام ١٩٥٢ كانت المكتبة التى تضم مؤلفات عن تاريخ مصر السياسى حتى عام ١٩١٩ لا تكاد تملأ سوى رف واحد بطول قدمين فقط.

وفى المقابل نجد جزءاً من تاريخ مصر المعاصر يملأ هذا الرف الافتراضى ويتضمن الشئون الاقتصادية. فقد كانت مصر مصدراً رئيسياً للقطن، وسوقاً لمصنعيه فى أوروبا وشمال أمريكا واليابان. ومنذ عام ١٩١٠ كان الرواد من رجال الأعمال ورجال البنوك المهتمين بشئون مصر يعتمدون على مجلة شهرية كانت تصدر بعنوان *L'Égypt Contemporaine* وهى تعتبر اكتشافاً مثيراً للمؤرخين الاقتصاديين، بالإضافة أيضاً إلى نشرة *Annuaire statistique* التى كانت تصدرها الحكومة المصرية سنوياً^(١٤). ومن الجدير بالذكر أنه لا توجد دولة عربية أخرى قبل الحرب العالمية الثانية وفرت مثل هذه المعلومات الإحصائية الغزيرة، فلم تلعب أى دولة أخرى عربية دوراً مهماً فى التجارة العالمية والمواصلات والاتصالات مثلما فعلت مصر. ويشمل هذا المجال أيضاً كتاب إيه. أى. كروشلى،

A. E. Crouchley - The Economic Development of Modern Egypt^(١٥).

والذى يعتبر مخزن معلومات وتحليلات إحصائية. أما مؤلف إتش. أى. هيرست

H. E. Hurst - The Nile: A General Account of the River and the Utilization of its Waters فيقدم نشرة مفصلة عن "خطة التخزين فى العصر"، مع إشارة موجزة إلى البدائل التى تحولت بعد ذلك إلى مشروع رئيسى فى عهد عبد الناصر وهو مشروع السد العالى فى أسوان^(١٦). ومن الكتب الأخرى المهمة كتاب شارل عيسوى،

Charles Issawi - Egypt: An Economic and Social Analysis^(١٧).

والذى أعيد إصداره بعد ثورة ١٩٥٢ تحت عنوان Egypt at Mid. Century^(١٨). وفور استيلاء الضباط الأحرار على الحكم بعد إبعاد الملك فاروق بدأت الإصدارات الجديدة عن أحوال مصر فى ظل النظام القديم وعن ثورة ١٩٥٢ تتدفق بغزارة. وكان من أفضلها ما نشر أولاً باللغة الفرنسية لجان وسيمون لاكتور Jean and Simonne Lacouture - Egypt en mouvement^(١٩) وهو يتميز بجودة أسلوبه رغم عدم دقته أحياناً. ثم كتاب جورج فوشيه،

George Vaucher - Gamal Abdel Nasser et son equipe^(٢٠).

الذى يتناول باستفاضة حياة وأعمال جمال عبد الناصر وإن لم يتعرض كثيراً لرفقائه من قادة الثورة. كما يمكن أيضاً الرجوع إلى كتاب جاك بيرك

Histoire Social d'un Village Egyptien au xx^e siecle^(٢١).

أما الكتاب المصريون فقد نشروا الكثير عن أحداث الثورة مثل كتاب راشد البراوى،

Rashed El Barawy - The Military Coup^(٢٢).

والذى يركز على سلبيات الملك فاروق مع بعض المعلومات القليلة عن رجال الثورة. فى حين يعطى محمد مصطفى عطا Mohamed Moustafa Ata فى مؤلفه،

Egypt Between Two Revolutions^(٢٣).

تفسيراً لخلفية الأحداث. أما من سجلوا أحداث الثورة بأقلامهم فقد كانوا جمال عبد الناصر في كتاب فلسفة الثورة،

The Philosophy of the Revolution - Gamal Abdel Nasser^(٢٤).

ومحمد نجيب في،

Egypt Destiny: A Personal Statement Revolt on the Nile - Mohamed Naguib^(٢٥).

ثم أنور السادات في Revolt on the Nile^(٢٦) ثم جاء أوستين لي مور Austin Lee Moor وهو أستاذ أمريكي حائز على الفولبرايت ليقدم كتابه Farewell Farouk^(٢٧) وهي مذكرات تسرد الاضطرابات المتصاعدة خلال عام ١٩٥١-١٩٥٢، ولكنها تغفل تماماً أسباب قيام الثورة أو تحليل شخصية الضباط الأحرار. وكان كتاب عبد الرحمن الرافعي ثورة ٢٣ يوليو^(٢٨) ضمن أعمال أخرى كثيرة توالى بعد ذلك.

وخلال الخمسينيات ظلت السياسة هي الموضوع الرئيسي في الكتابة عن مصر. فيحلل جاكوب م. لاندو Jacob M. Landau في مؤلفه Parliament and Parties in Egypt تطور المؤسسات والحركات الشعبية^(٢٩) متنبئاً بأن البلاد سوف تستعيد حكومتها البرلمانية. أما جون مارلو،

John Mrlowe - A History of Modern Egypt and Anglo-Egyptian Relations 1800-1953.

فيعتمد كلية على مصادر باللغة الإنجليزية، إلا أنه يقدم تقييماً صادقاً للرؤساء السياسيين المصريين^(٣٠). كما نجد كتباً أخرى عن مصر مثل كتاب إتش. وود. جارفيس،

H. wood Jarvis - Pharaoh to Farouk^(٣١).

وكتاب توم ليتل Tom Little - Egypt^(٣٢) والذي أعيد ونشر بعد حرب يونيو ١٩٦٧ تحت عنوان Modern Egypt^(٣٣) وقد أدت حرب السويس عام ١٩٥٦ إلى فيض من الإصدارات يتعرض أغلبها إلى ربود فعل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل والعالم الخارجى

أكثر من ربود فعلها عند المصريين، فقد كان أغلب الكتاب الأجانب يعتبرون قناة السويس حيازة دولية لا تخص مصر فقط. كما كانوا يعتبرون أن حكومة عبد الناصر تشكل في المقام الأول تهديداً لمصالح أوروبا وإسرائيل. وقد شذ عن هذه القاعدة أرسكين ب. تشايدلر،

Erskine B. Childer - The Road to Suez: A Study in Western-Arab Relation^(٢٤).

والذى أشار فيه إلى أحقية مصر فى تأميم شركة أعطيت امتيازاً فى مصر، ثم دافع عن إدارة مصر لقناة السويس.

ومنذ أواخر الخمسينيات ظهرت كتب أجنبية عن السيرة الذاتية لعبد الناصر ومنها كتاب ويلتون وين،

Wilton Wynn - Nasser of Egypt: The Search for Dignity^(٢٥).

وهو يتضامن مع عبد الناصر ويؤكد ليس فقط ما حققه الحكم الجديد من فائدة بل يشير أيضاً إلى تأثير الحكم الأجنبى على حياة المصريين. كما جاء كتاب روبرت سان جون،

Robert St. John - The Boss: The story of Gamal Abdel Nasser^(٢٦).

أكثر إنصافاً له، فهو ينتصر لإصلاحاته إلا أنه ينتقد أيضاً سياسته تجاه إسرائيل (وقد أصدر نفس المؤلف وهو صحفى مثل وين مؤلفاً عن سيرة بن جوريون). أما كتب السيرة المعادية لعبد الناصر فتشمل كتاب يواكيم جوستين

Joachim Joesten - Nasser: The Rise to Power^(٢٧).

وكتاب أحمد أبو الفتح L'affaire Nasser^(٢٨) وقد اتهم جوستين عبد الناصر بالقيام باعتداءات مبعثها نوافع سيكولوجية، وأن تحديه للسلطة يسير جنباً إلى جنب مع خشيته من العقاب. وقد قام إخوان أبو الفتح بإصدار جريدة "المصرى" وهى جريدة وفدية يومية كانت تسجل أعلى المبيعات قبل ثورة ١٩٥٢، وكانوا يأملون أن تدعم الثورة

الديمقراطية في مصر، إلا أنه تم نفيهم حين أزاح عبد الناصر محمد نجيب عن السلطة وأغلق الجريدة، أما دراسة أحوال مصر السياسية والاقتصادية بالإضافة إلى بعض الأحداث التاريخية فيمكن الرجوع إلى كتاب كيث ويلوك - Keith Wheelock Nasser New Egypt^(٢٩).

وما إن جاءت فترة الستينيات حتى تحولت مصر إلى حقل خصب للمثقفين والصحفيين وأصبح الضباط الأحرار بؤرة اهتمام كاتب مثل ب. ج. فاتيكوتس P. J. Vatikiotis - في مؤلفه،

The Egyptian Army in Politics: Pattern for New Nations^(٤٠).

وكتاب أليعازر بيرى،

Eliezer Be'eri - Army Officers in Arab Politics and Society^(٤١).

وهو عمل سيظل ذا فائدة للباحثين لما يحتويه من دراسة مفصلة عن خلفية كل عضو من أعضاء مجلس قيادة الثورة كما يقول توفيق أكليماندوس في الفصل الثالث من هذا الكتاب. وبعيداً عن التعليقات السياسية اتجه المؤرخون إلى دراسة رؤية المصريين لمجتمعهم وقيمهم. وكان العمل الأول الذي يؤرخ لأهم منظمة ظهرت في مصر وهي الإخوان المسلمين هو كتاب إسحق موسى حسيني،

Ishak Musa Husaini - The Moslem Brethren^(٤٢).

الذي حل محله بعد ذلك كتاب ريتشارد ب. ميتشل،

Richard P. Mitchell - The Society of the Muslim Brothers^(٤٣).

الذي يتضمن تاريخاً مفصلاً لحركة نمو الجماعة وتنظيمها وأفكارها. وتشمل الأعمال الأكثر حداثة مؤلف لأوليفيير كاريه وجيرارد ميشو،

Olivier Carré and Gérard Michaud - Les Frère Musulmans 1928-1982^(٤٤).

ثم كتاب "الإخوان المسلمون والتنظيم السرى" لعبد العظيم رمضان^(٤٥)،
وكتاب يرينجار ليا،

Brynjar Lia - The Society of Muslim Brothers: The Rise of an Islamic Movement,
1928-1942^(٤٦).

وأيضاً كتاب يوسف القرضاوى "الإخوان المسلمون"^(٤٧) ويشرح لنا كيف
استحدثت الجماعة تنظيمًا حديثًا ارتبط باهتمامات الطبقة الوسطى الدنيا، وكيف أنها
لم تتبع تقاليد الإسلام بصورة عمياء أو حتى تعليمات مؤسسها حسن البنا. أما أحسن
كتاب أجنبي عن أشهر حزب فى مصر فقد نشره زاهير مسعود قريش وهو هندى
الجنسية بعنوان،

Liberal nationalism in Egypt: Rise and Fall of the Wafd Party^(٤٨).

ويضم فى مقدمته مديحاً وثناء بقلم بطرس بطرس غالى الذى أصبح فيما بعد
السكرتير العام للأمم المتحدة. ثم تبعه بعد ذاك كتاب جانيس جولز تيرى،

Janis Joles Tery - The Wafd, 1919-1952: Cornerstone of Egyptian Political
Power^(٤٩).

وأيضاً كتاب محمد فريد حشيش "حزب الوفد ١٩٢٦-١٩٥٢"^(٥٠) وكلها كانت
تهدف إلى محاولة شرح وتفسير أسباب فقدان الوفد لشعبيته تدريجياً بالمقارنة ببقية
الأحزاب الأخرى فى حين كان هو المتحدث الرئيسى باسم الشعب منذ البداية.

كان الوفد منذ البداية هو المحرض على ثورة ١٩١٩ وما ترتبت عليها من نتائج.
ونتساءل هنا ما هى أسباب هذا الحديث الذى زلزل الحياة فى مصر وما هى دوافعه؟
وكيف أثر فى مسار مصر السياسى حتى عام ١٩٥٢؟ وقد ظلت هذه الأسئلة
تلهم المؤرخون حتى يومنا هذا. وتشمل المؤلفات التى صدرت عن ثورة ١٩١٩
كتاب جون د. ماكنثير الصغير (جونير)،

John D. McIntyre, Jr.- The Boycott of the Milner Mission: A Study in Egyptian
Nationalism^(٥١).

والذى يغطى موضوعاً أشمل وأعم مما يشير إليه عنوان الكتاب. أما كتاب
ملاك بدرأوى،

**Malak Badrawi - Political Violence in Egypt, 1910 - 1924: Secret Societies, Plots
and Assassinations^(٥٢).**

فهو تستقى مصادره من الوثائق الحكومية غير المعلنة، ومن المذكرات والمنح
التعليمية الحديثة لتشرح كيف أن الإرهاب لعب دوراً فى نشاط - وليس مبادئ -
الحزب الوطنى والوفد. ويقترب من هذا الاتجاه مقال دونالد م. ريد،

Political Donald M. Reid - Assassination in Egypt, 1910 - 1954^(٥٣).

أما محمد أنيس - وهو أشهر مؤرخ ماركسى مصرى - فهو ينتقد ثورة ١٩١٩
لأنها فشلت فى مواجهة غياب العدالة الاقتصادية والاجتماعية فى كتابه "دراسة فى
وثائق ثورة ١٩١٩"^(٥٤)، ويأخذ عبد العزيز الرفاعى اتجاهًا أكثر وطنية فى كتابه "ثورة
مصر ١٩١٩"^(٥٥). وفى العيد الخمسين للثورة أصدرت جريدة الأهرام كتاباً تذكاريًا
عنها^(٥٦) أما عبد العظيم رمضان - وهو المؤرخ الرئيسى للحركة الوطنية فى مصر منذ
ثورة ١٩ ثورة ١٩ وما بعدها - فقد نشر مؤلفه "تطور الحركة الوطنية فى مصر من سنة ١٩١٨
إلى سنة ١٩٣٦"^(٥٧) وأعيد نشره مرة ثانية، ثم تبعه كتابين آخرين "تطور الحركة الوطنية
فى مصر من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٨٤٨"^(٥٨). ولأن ميول واتجاهات عبد العزيز
رمضان كانت يسارية فهو يعلن بوضوح عن عدم تعاطفه مع الإمبريالية البريطانية
أو القصر أو الإخوان المسلمين.

وفى أواخر الستينيات والسبعينيات ظهرت مؤلفات عديدة تلخص سياسات هذه
الحقبة من تاريخ مصر بدءاً من كتاب جاك بيرك،

Jacques Berque - L'Egypt: impérialisme et revolution^(٥٩).

ثم ريموند فلاور Raymond Flower "من نابليون إلى ناصر"،

Napoleon to Nasser, the Story of Modern Egypt^(٦٠).

ثم كتاب ب. ج. فاتيكوتس،

P. J. Vatikiotis - The Modern History of Egypt^(٦١).

والذى يظل فى رأى الكثيرين الكتاب المعترف به standard text الذى يؤرخ لتاريخ مصر السياسى. بالإضافة إلى طرافة ما سجلته عفاف لطفى السيد مارسو تحت عنوان،

Egypt Liberal Experiment 1922 - 1936^(٦٢).

أما التفاعلات المتشابكة بين الأحزاب السياسية فيبحثها ماريوس ديب Marius Deep فى كتابه،

Party Politics In Egypt: The Wafd and its Rivals 1919-1939^(٦٣).

وفى هذا الصدد كتب المؤرخ المصرى يونان لبيب رزق مجموعة من الكتب عن الأحزاب السياسية ومنها كتاب "الأحزاب السياسية فى مصر ١٩٠٧-١٩٨٤"^(٦٤)، وفى الفترة الأخيرة أشرف رءوف عباس على إصدار مجموعة من المقالات حررها بعض المثقفين بعنوان "الأحزاب المصرية ١٩٢٢-١٩٥٣"^(٦٥). وتتضمن المقالة التى كتبها جيمس هويدن James Whidden فى هذا الكتاب شرحاً لأسباب وبوافع تشكيل حزب الأحرار الدستوريين والأحزاب الائتلافية فى أعقاب ثورة ١٩١٩. أما بالنسبة لرؤساء الوزارات فيمكن الرجوع إلى كتاب يونان لبيب رزق "تاريخ الوزارات المصرية"^(٦٦). وتشرح أيضاً إيفا تراوت باول Eva Trautt Powell سياسة مصر واتجاهاتها نحو السودان التى كانت هى وبريطانيا العظمى تشاركان فى السيادة عليها فى كتابها،

A Different Shade of Colonialism: Egypt, Great Britain and Mastery of the Sudan^(٦٧).

وتشكل مباحثات مصر وبريطانيا حول الاستقلال موضوع كتاب محمد شفيق غربال "تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية"، والذى لم ينشر منه سوى الجزء الأول^(٦٨) الذى يتضمن المفاوضات التى دارت فى الفترة ما بين ١٨٨٢ و ١٩٣٦. وقد طور غربال

- الذى تدرب فى لندن ليصبح مؤرخاً محترفاً - من المنهج التاريخى كما شغل منصب عميد كلية الآداب فى جامعة القاهرة. ولأنه كان مدرساً ملتزماً فلم ينشر إلا القليل. وكتب محمود ي. زايد Mahmoud Y. Zayid وهو مؤرخ فلسطينى Egypt struggle for Independence^(٦٩) ويركز هذا العمل على معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وإنجلترا والتي اضطر المصريون إلى قبولها بسبب تهديد إيطاليا لها بعد احتلالها لإثيوبيا، واعتقادهم بأن التحالف سوف يحسن من فرص إنهاء الامتيازات الأجنبية كما حدث فعلاً فى السنة التالية. كما يغطى أيضاً كيث م. ويلسون Keith M. Wilson العلاقات المصرية البريطانية فى النسخة المنقحة من،

Imperialism and Nationalism in the Middle East, The Anglo Egyptian Experience 1882 - 1982^(٧٠).

وكذلك كتاب هدى جمال عبد الناصر،

Hoda Gamal Abdel Nasser - Britain and the Egyptian Nationalist Movement 1936-1952^(٧١).

وأيضاً مؤلف "العلاقات المصرية البريطانية ١٩٤٥-١٩٥٤" لأمانى قنديل وسارة بن نفيسة^(٧٢).

وتلقى ثلاثة كتب الضوء على تاريخ الاتجاهات والأفكار التى سادت مصر خلال نهضتها الثقافية. وقد صدرت هذه الكتب فى أوائل الستينيات وهى على التوالى: كتاب ج. م. أحمد،

J. M. Ahmed-The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism^(٧٣).

الذى يركز على أحمد لطفى السيد. ثم كتاب ناداف سافران،

Nadav Safran - Egypt in Search of Political Community: An Analysis of the Intellectual and Political Evolution of Egypt 1804-1952^(٧٤).

وهو يظهر بوضوح تحول الكتاب المصريين من الاتجاه العلماني إلى الاتجاه الإسلامي في الثلاثينيات. وأخيراً كتاب ألبرت حوراني،

Albert Horani - Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939^(٧٥).

والذي يتضمن فصلاً عن الوطنية المصرية وينتقد فيه إلى حد ما اتجاه الوفد لدمج نفسه مع مصر. ويظهر رشيد رضا أيضاً في كتاب محمد زكي بدوي،

M. A. Zaki Badawi - The Reformers of Egypt^(٧٦).

إلا أن دوره في حياة مصر الثقافية - عدا رئاسته لتحرير جريدة المنار - يعتبر دوراً هامشياً.

ولأن هذه الفترة اتسمت بالنزاعات المثيرة في الصحف (التي كانت تعكس وجود كثير من الأحزاب السياسية في مصر) فإن أحد الجوانب المهمة في تاريخ مصر كانت الصحافة العربية. وكان العملاقان المصريان في تاريخ الصحافة المصرية هما عبد اللطيف حمزة والذي اشتهر بكتابه "أدب المقالة الصحفية في مصر"^(٧٧)، وهو كتاب يركز على الصحف ومكون من ثمانية أجزاء، ثم إبراهيم عبده الذي كتب في التاريخ العام^(٧٨) بالإضافة إلى سلسلة من الاسكتشات عن سير ذاتية^(٧٩) وكذلك تاريخ الصحافة الحكومية ثم جريدة الأهرام شبه الحكومية^(٨٠). أما كتاب إمي أيالون Ami Ayalon - The press in the Arab Middle East: A History^(٨١) فهو يتعرض بنظرة شمولية للكتاب المشاهير، والصحف، والقراء في جميع أنحاء العالم العربي، ويخصص جزء صغير منه لمصر في الفترة ما بين ١٩١٩ و ١٩٥٢. وما زال هذا المجال واسعاً أمام المؤرخين في المستقبل.

وقد أثار التزام حكومة عبد الناصر التدريجي بالاشتراكية بعض الاهتمام في اقتصاد مصر وتطورها الاجتماعي وخاصة فيما يتعلق بالصلة بين الطبقات. ومن الأعمال الأولى التي تناولت هذا الموضوع ما كتبه بعض أعضاء الحزب الشيوعي في مصر أو نظيره المحلي حدتو Hadeto، وتشمل هذه الأعمال كتاب "الأرض والفلاح"^(٨٢)

لإبراهيم عامر، وكتاب "دراسات في تاريخ مصر السياسي" (٨٣) لفوزى جرجس وكتاب شهدى عطية الشافعى "تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢-١٩٥٦" (٨٤) وقد مات فى أحد سجون عبد الناصر، وأحيا ذكره أنور عبد الملك وهو أحد الماركسيين المصريين الذى صدر له بعد ذلك كتاب،

L'Egypte Société Militaire (٨٥).

الذى يصف فيه المجتمع المصرى من خلال رؤية ماركسية ويحل فشل كل من الملكية وحكومة عبد الناصر فى حل مشاكله الاقتصادية، وكتاب آخر يحمل نفس الرؤية الماركسية هو،

La Lutte de classes en Égypte de 1945 à 1968 (٨٦).

ويقترب منه أيضاً كتاب عاصم الدسوقي "كبار ملاك الأراضي الزراعية وبورهم فى المجتمع المصرى (١٩١٤-١٩٥٢)" (٨٧). أما الأعمال غير الماركسية المقارنة فى تلك الفترة فقد أشار إليها جبريل باير Gabriel Baer فى مقال سابق عن،

Egyptian Attitudes Towards Land Reform 1922-1955 (٨٨).

بالإضافة إلى كتبه الأخرى،

A history of Land Ownership in Modern Egypt 1800-1950 (٨٩).

و (٩٠) **Studies in the Social History of Modern Egypt** ونشير هنا إلى دراسة مميزة عن العمال المصريين كتبها رءوف عباس حامد (٩١) ويعدها جاءت دراسات عديدة عن ظهور الطبقة العاملة فى مصر ومنظمات العمل مثل،

Workers on the Nile: Nationalism, Communism, Islam and the Egyptian Working class 1882-1954 (٩٢).

والذى اشترك فى كتابته جويل بنين وزخارى لوكمان Joel Beinun and Zachary Lockman ثم كتاب إليس جولدبرج،

Ellis Goldberg - Tinker, Tailor, and Textile Worker: Class and Politics in Egypt, 1930-1952 (٩٣).

راجع أيضاً كتاب جويل بينين فى الفصل تحت عنوان،

Will the Real Egyptian Working Class Please Stand Up?

فى كتاب زخارى لوكمان،

Zachary Lockman - Workers and Working Classes in the Middle East: Histories, Historiographies^(٩٤).

أما كتاب روجر أوين وسيفكت باموك Roger Owen and Sevkett Pamuk الأخير الذى يتناول اقتصاديات الشرق الأوسط فى القرن العشرين فهو يقدم تغطية واسعة متوازنة لاتجاهات الاقتصاد المصرى فى الفترة ما بين ١٩١٩-١٩٥٢ كأساس لمزيد من النقاش^(٩٥).

وترتبط الحركة العمالية بنمو الاشتراكية والشيوعية فى مصر، ويمكن الرجوع إلى كتاب والتر زد. لاکور،

Walter Z. Laqueur - Communism and Nationalism in the Middle East^(٩٦).

كذلك أعمال رفعت السعيد ومنها "تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠-١٩٢٥"^(٩٧) و"اليسار المصرى ١٩٢٥-١٩٤٠"^(٩٨)، و"تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠-١٩٥٠"^(٩٩) وكتاب طارق إسماعيل "الحركة الشيوعية فى مصر ١٩٢٠-١٩٨٨"^(١٠٠) وربما يرجع الاهتمام بهذا الموضوع بصورة ثابتة إلى سياسات الحرب الباردة، كما تقول سلما بوتمان Selma Botman فى "The Rise of Egyptian Communism 1939"^(١٠١) وجيل بيرولت،

Gilles Perrault - Un Homme à Part

أو ^(١٠٢) A Man Apart: The Life of Henri Curiel وكتاب جويل بينين،

Joel Beinin - Was the Red Flag Flying There? Marxist Politics and the Arab-Israeli Conflict in Egypt and Israel, 1948-1965^(١٠٣).

أما الكتاب الذي يتعرض لهذا الموضوع باتساع أكبر فيقدمه رويل ميجر Roel Meijer في كتابه،

The Quest for Modernity: Secular Liberal and Left-Wing Political Thought in Egypt, 1945-1958^(١٠٤).

ويبرز نموذج الوطنية المصرية المنسلخة من الدين في كتاب إبراهيم أمين غالى،

L'Égypt Nationalist et Liberale de Moustafa Kamel à Saad Zaglul 1892-1927^(١٠٥).

وهو عم بطرس بطرس غالى، وتناول العديد من المقالات "التغيرات السياسية والاجتماعية في مصر الحديثة" موضوع الوطنية قبل وبعد الحرب العالمية الأولى^(١٠٦). أما أصحاب القمصان الأخضر المتطرفون فيشير إليهم جيمس بى. جانكوفسكى James P. Jankowski في كتابه،

Egypt's Young Rebels: "Young Egypt"^(١٠٧).

ومن الملاحظ أن طلبة الجامعة لعبوا أدواراً رئيسية في الوطنية المصرية، وقد ناقش أحمد عبد الله هذا الدور بتعاطف واضح في كتابه،

The Student Movement and National Politics in Egypt - 1923-1973^(١٠٨).

ويتعامل هاجاي إريك Hagga Erlich مع هذه الحركة بنظرة ثاقبة في كتابه،

Students and Society in 20th Century Egyptian Politics^(١٠٩).

أما صورة الوطنيين في مصر فتظهر في كتاب بيث بارون،

Beth Baron - National Iconography: Egypt as a Woman^(١١٠).

أدت وفاة الملك فاروق عام ١٩٦٥ إلى ظهور إصدارات كثيرة ليس فقط عن سيرة وحياة هذا الملك التعس، بل عن مرحلة حكمه أيضاً وخاصة كتاب بارى سانت كلير ماكبرايد،

Barrie St. Clair McBride - Farouk of Egypt: A Biography^(١١١).

وكتاب هيو ماكليف

Hugh McLeave - The Last Pharaoh of Egypt 1920-1965^(١١٢).

وقد اعتمد الاثنان على أقوال من عاصروا الملك حيث لم يكن أى منهم على معرفة شخصية به. ومنذ ذلك الوقت كتب عادل ثابت وهو أحد أقاربه مذكرات بعنوان،

A King Betrayed: The Ill-Fated Reign of Farouk of Egypt^(١١٣).

ثم كتب ويليام ستاديوم William Stadiem عن سيرة الملك الذاتية بتفصيلات أدق،

Too Rich: The High life and Tragic Death of King Farouk^(١١٤).

كما كتبت لطيفة محمد سالم "فاروق وسقوط الملكية في مصر"^(١١٥) الذي يتميز بتفصيلات أكثر شمولاً. ومن الجدير بالذكر أنه لا يوجد مؤلفات بحثية عن السيرة الذاتية للملك فؤاد الأول والد الملك فاروق (١٩١٧-١٩٣٦) ولكن يمكن الرجوع إلى كتاب سيردار إقبال على شاه Sirdar Ikbal Ali Shah الذي يتضمن مدحاً وثناءً عليه Fouad King of Egypt^(١١٦) وكذلك نقد محمد أنيس في "صفحات مجهولة من التاريخ المصري أو سنوات السيرة العنيفة بين فؤاد وعباس"^(١١٧). أما نور القصر الملكي في السياسة المصرية خلال تلك المرحلة فتغطيها مذكرات حسن يوسف "القصر وبوره في السياسة المصرية ١٩٢٢-١٩٥٢"^(١١٨).

كان كتاب السير الذاتية يركزون على الشخصيات المهمة في كتاباتهم عن تاريخ مصر. ومما لا شك فيه أن الشخصية المحورية في تاريخ مصر السياسي خلال وبعد ثورة ١٩١٩ كان سعد زغلول الذي تملقه وداهنه الكثيرون في حياته من خلال كتاباتهم ثم نعوه بعد موته في عام ١٩٢٧ وقدسوه في السنوات التالية. ومن أهم هذه الكتب مؤلف عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤) "سعد زغلول: سيرة وتحية"^(١١٩) بسبب تميز هذا الكاتب وأهميته من جانب، ومن جانب آخر بسبب تغير اتجاهاته وولائه الشخصي. وحين ظهرت مذكرات سعد زغلول - والتي احتفظت بها عائلة بركات مدة طويلة - وأصبحت في متناول الكتاب والعامّة، أمكن للمؤرخين أن يتناولوا حياته ومسيرته

بصورة فارقة قليلاً. وكان أول كتاب هو "سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية" (١٢٠) لعبد الخالق محمد لاشين، وفيه يصف كيف أثرت خلفيته التطبيقية فى أفعاله. وكان نشر مذكرات سعد زغلول - التى كتبت بطريقة غير مفهومة لأى شخص ليس لديه التدريب أو الصبر لقراءتها - بطيئاً ولكن تحت إشراف عبد العظيم رمضان قام مركز تسجيل تاريخ مصر المعاصر بنشر تسعة أجزاء بدءاً من سنة ١٩٨٧ (١٢١). وكان سعد قد تعرض للنقد من بعض الكتاب الأجانب ومنهم إيلي كيدورى Elie Kedourie فى كتابه،

Saad Zaglul and the British (١٢٢).

ومن المعاصرين لسعد زغلول والذي يعرفه قراء اللغة الإنجليزية ويعرفون الكثير عن حياته وفكره الدكتور محمد حسين هيكل بسبب كتاباته المتميزة، ومذكراته عن السياسة المصرية (١٢٣) والتى أصبحت مرجعاً للكثيرين بالإضافة إلى السيرة الذاتية التى كتبها عنه بحساسية شديدة شارلز دى. سميث Charles D. Smith (١٢٤). وكانت السيرة الذاتية الوحيدة عن هيكل باللغة العربية والتى كان يعرفها هذا الكاتب هو ما كتبه أحمد لطفى السيد عنه بعد وفاته (١٢٥). وسياسى آخر من عصر الليبرالية هو النقراشى باشا الذى انتهت حياته بمأساة، وكان قد اتهم فى فترة ما بالمشاركة فى عمليات الاغتيال السياسى أو النشاط السرى للوفد لتنتهى حياته هو باغتياله. وجاءت سيرته الذاتية بعد مدة طويلة من وفاته (١٢٦). ومن السير الذاتية الأخرى المتوفرة الآن باللغة الإنجليزية حياة إسماعيل صدقى (١٨٧٥-١٩٥٠) لملك بدرأوى (١٢٧) وهو منافس سياسى هاجمه الكثير من الكتاب الوطنيين. ويرى بعض المعلقين أن المؤلف ربما يكون قد بالغ فى إنجازات صدقى وقلل من سلبياته. وينظرة أكثر شمولية يكتب فيرنون إيجير،

Vernon Egger - A Fabian in Egypt, Salama Mousa and the Rise of the Professional Class in Egypt (١٢٨).

ويمكن الجمع بين قراءة هذا الكتاب ومذكرات موسى التى تشمل مرحلة العشرينيات حين كان يرأس تحرير مجلة الهلال (١٢٩). كما نجد سير ذاتية قصيرة عن مكرم عبيد،

على ماهر، ومصطفى النحاس فى كتاب بقلم شارلز تريپ Chrles Trip يكرم فيه بى. جى. فاتيكويوتيس P. J. Vatikiotis^(١٣٠). وتشير الدراسة فى هذا الكتاب التى كتبتهـا مرفت ف. حاتم إلى ما تناولته مى زيادة عن حياة ملك حفنى ناصف مما يذكرنا بأن السير الذاتية تلقى الضوء ليس فقط على الأشخاص الذين تتناولهم ولكن عن الكتاب أنفسهم.

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخين المصريين يستخدمون السير الذاتية كأداة لأعمالهم. ويعتبر أحسن نموذج شامل لهذه القواميس قاموس خير الدين الزركلى Khayr Al-Din Al-Ziricli "الإعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين"^(١٣١). أما الأكثر تركيزاً على المرحلة الحديثة للعرب - وخاصة المصريين فهو قاموس زكى محمد مجاهد "الأعلام الشرقية فى المائة الرابعة عشرة الهجرية"^(١٣٢). وأكثر القواميس فائدة للكتاب بسبب التفصيلات الواردة فى السير الذاتية يأتى كتاب يوسف أسعد داغر المؤلف من ثلاثة أجزاء "مصادر الدراسة الأدبية"^(١٣٣). أما أنور الجندى فيكتب مجموعة من السير الذاتية الجماعية كجزء من مؤلفه عن التاريخ الأدبى والدينى ومنها مثلاً "أعلام وأصحاب أقلام"^(١٣٤). وفى خلال التسعينيات صدر اثنان من القواميس المهمة، أحدهما قاموس لمعى المطيعى "موسوعة هذا الرجل من مصر"^(١٣٥)، وهو مرجع استمد مصادره من الكتب الأوائل التى كتبها رجال من مصر، أما الثانى فهو بقلم مصطفى نجيب وهو أكثر إحكاماً وصقلاً "موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين"^(١٣٦). وقد جمع هذا الكتاب عملاً حاول فيه أن يستخلص جوهر هذه المصادر العربية لحوالى ٢٧٠ من الرجال والنساء الذين لعبوا أدواراً رئيسية فى تاريخ مصر الحديث فى مؤلفه،

A Biographical Dictionary of Modern Egypt^(١٣٧).

وكتاب آخر لنفس المؤلف بالاشتراك مع روبرت س. جونستون Robert C. Johnston، وهو الطبعة الثالثة من القاموس التاريخى لمصر The Historical Dictionary of Egypt^(١٣٨) ويشمل تواريخ الأحداث وفق تسلسلها الزمنى، ومداخلات عن المنظمات والدول والأحداث

والأشخاص التي أثرت في تاريخ مصر منذ عام ١٧٥٠، مع تركيز مناسب على الفترة من ١٩١٩-١٩٥٢ .

ومصدر آخر من مصادر كتابة التاريخ والذي ثبت أنه منبع ثرى للمعلومات عن تجارب المصريين والأجانب هو المذكرات الشخصية، وتشمل من ضمن ما تشمل مذكرات مابل كايار Mabel Caillard عن الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ A Life in Egypt 1876-1935^(١٣٩).

و س. أس. جارفيس C. S. Jarvis - Desert and Delta^(١٤٠) والذي يعكس رؤية متحاملة ضد المصريين والإسلام، ولكنه يتضمن تعليقات متعاطفة مع الحياة في سيناء، وكذلك توماس راسل باشا في مذكراته،

Thomas Russel Pasha - Egyptian Service 1902-1946^(١٤١).

والذي يشير إلى تجربته في العمل في البوليس المصرى. ثم مارى رولات،

Mary Rowlett - A Family in Egypt^(١٤٢).

وبريسيليا نابيه Priscilla Napier - A Late Beginner^(١٤٣).

ولورانس جرافتى سميث،

Laurence Grafftey Smith - Bright Levant^(١٤٤).

ثم أحمد أمين،

My Life: The Autobiography of an Egyptian Scholar, Writer, and Cultural Leader^(١٤٥).

وأيضاً جون ماكفرسون وبارى كارمن،

John McPherson and Barry Carmen - The Man Who Loved Egypt: Bimbashi McPherson^(١٤٦).

وجيهان السادات Gihan Sadat فى كتابها A Woman of Egypt^(١٤٧).

ثم مذكرات بنيلوبى لايفلى Penelope Lively - Oleander, Jacaranda: A Childhood Perceived^(١٤٨).

وليلى أحمد،

eila Ahmed: A Border Passage from Cairo to America, A Woman's Journey^(١٤٩).

ثم جلستون زنانيرى Gaston Zananiri, Enter Mer et Désert: Mémoires^(١٥٠).

وأيضاً نوال السعداوى Nawal El-Saadawi - A Daughter of Isis^(١٥١).

وهارى كيون - بويد

Harry Keown-Boyd - The Lion and the Sphinx: The Rise and Fall of the British in Egypt - 1882-1956^(١٥٢).

والذى يعتبر كنزاً من الشائعات التى انتشرت عن المغتربين الأثرياء فى مصر ويشير إلى رؤية مضادة لعبد الناصر.

وتلقى كل من المذكرات السياسية والسير الذاتية الضوء على أحداث وشخصيات ذلك العصر، إلا أنها فى نفس الوقت غالباً ما تشيد وتتحيز إلى شخصية الكاتب، بينما ربما تسيء إلى أعدائه مما يستتبع بالتالى التعامل معها بحذر. ونشير هنا إلى بعض منها لم يذكر من قبل وهى مذكرات قلبنى باشا^(١٥٣)، ومقالات يونان لبيب رزق النقدية "مذكرات عبد الرحمن فهمى"^(١٥٤)، ثم مذكرات فخرى عبد النور: ثورة ١٩١٩ ودور سعد زغلول فى الحركة الوطنية^(١٥٥)، وكانت مذكرات أحمد لطفى السيد^(١٥٦) وعبد العزيز فهمى^(١٥٧) مبنية فى الواقع على اللقاءات التى أدارها طاهر الطناحى المحرر بدار الهلال.

فى خلال تلك الفترة كانت مصر - وبخاصة القاهرة والإسكندرية ومدن القناة - تضم مجتمعات أجنبية ذات تأثير اقتصادى واجتماعى كبير، وتشمل الدراسات عن هذه المجتمعات كتاب روبير حداد Robert Hadad - Syrian Christians in Muslim Society^(١٥٨) وبيتر مانسفيلد،

Peter Mansfield - The British in Egypt^(١٥٩).

وجان جاك لوثى

Jean-Jacque Luthi - Le Français en Égypt: Essai D'anthologie^(١٦٠).

وأنتونى ساتين

Antony Sattin - Lifting the Veil: British Society in Egypt 1768-1956^(١٦١).

والكسندر كيترويف،

Alexander Kitroeff - The Greeks in Egypt 1919-1937^(١٦٢).

وفى خلال الحرب العالمية الثانية كان حوالى نصف مليون من القوات الأجنبية تحتل مصر، وغطى الكثير من المؤرخين الجوانب الثقافية لهذه الحقبة من تاريخ مصر ومنهم أرتميس كوبر،

Artemis Cooper - Cairo in the War, 1939-1945^(١٦٣).

ومرسى سعد الدين بالاشتراك مع جون كرومر،

Mursi Saad el Din and John Cromer - Under Egypt's Spell: The Influence of Egypt on Writers in English from the 18th Century^(١٦٤).

وكذلك جوناثان بولتون،

Jonathan Bolton - Personal Landscapes: British Poets in Egypt During the Second World War^(١٦٥).

ودوجر بوين،

Roger Bowen - Many Histories Deep: Personal Poets in Egypt^(١٦٦).

وكان لورانس داريل أحد الرموز البارزة في الأدب البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية ولكن رباعية الإسكندرية Alexandria Quartet تتسم بخيال واسع ولا تمس هذه الميناء إلا مساً رقيقاً^(١٦٧). أما أوليفيا مانتج Olivia Manning في مؤلفاتها عن الحرب والتي يطلق عليها Levant Trilogy فهي تصف المجتمع البريطاني في القاهرة بدقة أكثر ويمكن مقارنتها بثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة عن القاهرة^(١٦٨).

كانت النظرة إلى الأقلية الدينية في مصر تضاهي النظرة إلى مجتمع الأجانب المقيمين بها، إلا أنهم كانوا يستحقون الإشادة بتاريخهم. والأمثلة على ذلك كثيرة منها كتاب طارق البشري "المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية"^(١٦٩)، وباربارا لين كارتر Barbara Lynn Carter في The Copts in Egyptian Politics^(١٧٠) ثم جودرون كرامر،

Gudrun Krämer - The Jews in Modern Egypt 1914-1952^(١٧١).

وشيمون شامير Shimon Shamir في،

The Jews of Egypt, a Mediterranean Society in Modern Times^(١٧٢).

ثم مصطفى الفلكي Copts in Egyptian Politics^(١٧٣).

ومايكل لاسكير Michel Lashier في،

The Jews of Egypt, 1920-1970: In the Midst of Zionism, Anti-Semitism and the Middle East Conflict^(١٧٤).

بعد انتهاء اشتراكية عبد الناصر العربية، وسياسة الانفتاح على الرأسمالية والتي بدأها السادات بدأ اهتمام جديد بتاريخ مصر الاقتصادي خلال الثمانينيات. وقدمت دراسة مفصلة من آلان ريتشاردز Alan Richard عن،

Egypt's Agricultural Development, 1800-1980: Technical and Social Change^(١٧٥).

أما روبرت آل. تيجنور Robert L. Tignor فيركز على العصر الليبرالي في كتابه،

State, Private Enterprise and Economic Change in Egypt, 1918-1952^(١٧٦).

حيث يشير إلى أن الحكومة المصرية لعبت دوراً أساسياً في دعم الشركات الوليدة، كما كتب أيضاً عن تدخل بريطانيا المستمر في الصناعة الأولى في مصر،

Egyptian Textiles and British Capital 1930-1956^(١٧٧).

وهذه القضايا تناولها بتفصيل أكثر روبرت فيتاليس،

Robert Vitalis - When Capitalists Collide: Business Conflict and the end of Empire in Egypt^(١٧٨).

وكان إنشاء طلعت حرب لبنك مصر دفعة قوية لتطور الرأسمالية أشار إليها أريك دافيز Eric Davis في كتابه،

Challenging Colonialism: Bank Misr and Egyptian Industrialization 1920-1941^(١٧٩).

ويشمل تاريخ مصر الاجتماعي دراسة عن الخدمة المدنية بقلم مونتى بالمر Monte Palmer وعلى ليلة والسيد ياسين بعنوان The Egyptian Bureaucracy^(١٨٠) وفي نفس الموضوع أيضاً كتاب روبرت بيانكى،

Robert Bianchi - Unruly Corporatism: Associational Life in Twentieth-Century Egypt^(١٨١).

أما فرحات زيادة Farahat J. Ziadeh فيتناول طائفة المحامين في كتابه،

Lawyers, the Rule of Law, and Liberalism in Modern Egypt^(١٨٢).

وأيضاً دونالد أم. ريد Donald M. Reid في،

Lawyers and Politics in the Arab World 1880-1960^(١٨٣).

أما الأطباء فتشير إليهم أميرة الأزهرى سنبل Amira El-Azhary Sonbol فى،

The Creation of a Medical Profession in Egypt 1800-1922^(١٨٤).

وفىما يختص بالمرأة تكتب نانسى جلاجر Nancy Gallagher فصلاً فى هذا الكتاب يعرض تاريخاً مختلفاً للمرأة الطبيبة، فى حين يكتب كلمنت مور هنرى Clement Moor Henry عن طائفة المهندسين فى كتابه،

Images of Development: Egyptian Engineers in Search of Industry^(١٨٥).

أما كبار رجال الأعمال فتشير إليهم ملك زغلول Malak Zaaloul فى تسجيلها ونقدها فى،

Power class and Foreign Capital in Egypt: The Rise of the New Bourgeoisie^(١٨٦).

والذى يتضمن مقدمة عن تمصير الأعمال قبل ١٩٥٢ . ويصف روبرت سبرنجبورج، Robert Springborg سيد مرعى وهو سياسى تمكن من استخدام سلطته أيام عصر الملكية وخلال فترة غبد الناصر والسادات ثم مبارك^(١٨٧) . وتصف ماجدة بركة Magda Baraka حالة العائلات الثرية فى،

The Egyptian Upper Class Between Revolutions 1919-1952^(١٨٨).

فى حين يشير جلال أمين Galal Amin بلمسات خفيفة وإن كان بها الكثير من العمق عن كيفية وأسباب تغيير المجتمع منذ عام ١٩٥٠ فى،

Whatever Happened to the Egyptians?^(١٨٩).

وتبرز نقاط القوة والضعف فى المجتمع المصرى من خلال الاستجابة إلى ثلاثة أوبئة هاجمت مصر فى الأربعينيات والتى تشير إليها نانسى إليزابيث جلاجر Nancy Elizabeth Gallagr فى كتابها،

Egypt's Other Wars: Epidemics and the Politics of Public Health^(١٩٠).

وعكس الشائع، فإن فلاحى مصر كانوا وما يزالون يهتمون بالسياسة كما تذكر سامية خلوصى فى هذا الكتاب، وكما يذكرها أيضاً ناثن جى. براون Nathan J. Brown بكثير من التفصيل فى كتابه Peasant Politics in Modern Egypt^(١٩١) وحتى قبل ثورة ١٩٥٢ حاولت الحكومة تقديم خدمات للفلاح من خلال إنشاء مراكز اجتماعية كانت نتيجة لفكر الدكتور أحمد حسين (١٩٢٠-١٩٨٤) كما يشير بذلك إيمى جى. جونسون Amy J. Johnson فى،

Reconstructing Rural Egypt^(١٩٢).

ويصف مهنة زوجته فى مقالة فى هذا الكتاب بأنها امتداد لأفكاره وسياساته. أما كتاب ماين إينر Mine Ener فيغطى مرحلة القرن التاسع عشر فى،

Managing Egypt's Poor and the Politics of Benevolence 1800-1952

ولكنه يضمه أيضاً فصلاً عن سياسة الدولة تجاه المتشردين والمتسولين بين ١٩١٩-١٩٥٢^(١٩٣).

ويجب هنا تحذير الكتاب المصريين والأجانب من افتراض أن قواعد وحقائق حياة الأسرة المصرية كانت أبوية خالصة وتتسم بالجمود فى هذه المرحلة أو أى مراحل أخرى من تاريخ مصر. وتتناول حنان خلوصى فى مقالها هنا مجهودان الدولة المصرية لوضع نموذج للأسرة الحديثة مع مرجعية إلى دراسة أولية قدمتها كل من بث بارون Beth Baron^(١٩٤) وفيليب فارجويه Philippe Farguès^(١٩٥). أما قضايا الحقوق الشخصية، والوضع المدنى فقد تبنتها الدولة من خلال نظامها القانونى، كما أشار إلى تطوره وتأثيره على الدول العربية الأخرى ناثن جى. براون Nathan J. Brown فى The Rule of Law in the Arab World^(١٩٦). تميزت الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ بنمو سريع فى التعليم، وكثير من المناقشة بين معاهد التعليم العليا المصرية. هذا التنافس الذى يطرحه لويس أرمينيه أرويان Louis Arminé Aroian فى،

Nationalization of Arabic and Islamic Education in Egypt: Dar Al Ulum and El-Azhar^(١٩٧).

ويخوض كريس إيكسل Cris Excel في قضايا أخرى أوسع فيما يتعلق بدور الدين في المجتمع المصري في،

Egypt. Islam, and Social Change: Al-Azhar in Conflict and Accommodation.

حيث يغطي بكثافة التغيرات التي حدثت داخل الأزهر منذ ١٩١٩ وحتى ١٩٥٢^(١٩٨). ورغم أن تركيزه الأكبر كان على سنوات ما بعد ١٩٥٢، إلا أن كتاب جريجوري ستاريت، Gregory Starrett - Putting Islam to Work.

يتضمن فقرات قيمة عن استخدام الإسلام من ١٨٨٠ إلى ١٩٥٢ في مناهج التدريس المصرية كوسيلة لتعزيز أجندة الاستعمار البريطاني أو مصر الحديثة^(١٩٩). أما كتاب عبد المنعم الجميعة "الجامعة المصرية والمجتمع ١٩٠٨-١٩٤٠"^(٢٠٠)، وأيضا كتاب دونالد أم. ريد،

Donald M. Reed - Cairo University and the Making of Modern Egypt.

فهو يغطي مرحلة ظهور الجامعة الأولى المدنية في مصر^(٢٠١)، ورغم أنها تبدو كتسجيل لتاريخ مؤسسة في مصر، فإن ما كتبه لورانس آر. ميرفي Lawrence R. Murphy عن "الجامعة الأمريكية في القاهرة ١٩١٩-١٩٨٧ The American university in Cairo 1919-1987" كان سلس الأسلوب، واضح المعنى^(٢٠٢)، وقد اهتم جورجى دى. إم. هايد Georgie D. M. Hyde بالتعليم الثانوى فكتب،

Education in Modern Egypt: Ideals and Realities^(٢٠٣).

وكذلك أمير بقطر،

Amir Boktor - The Development and Expansion of Education in the United Arab Republic^(٢٠٤).

وحظيت كلية خاصة بالاهتمام بها والكتابة عنها بالتفصيل وهي "كلية فيكتوريا"،

Victoria College: A History Revealed^(٢٠٥).

وتتوسع المقالات في "إعادة رؤية مصر" بقلم باراك سالموني، وميساكو إيكيدا Barak Salmoni and Misako Ikeda لتتناول محتوى التعليم في تلك المرحلة وسياساته. أما بالنسبة لمحاولات المؤرخين وكتاب الكتب المدرسية إسباغ رؤية وطنية على التاريخ المصري فيمكن الرجوع إلى تفسير جابرييل بيتربرج،

Gabriel Piterberg-Tropes of Stagnation and Awakening in Nationalist Historical Consciousness^(٢٠٦).

وتأتي دراسة توماس ماير Thomas Mayer-The Changing Past لتركز على إعادة تفسير المؤرخين الوطنيين وعلماء أصول التدريس لمرحلة عرابي قبل عصر الملكية الدستورية^(٢٠٧). وعلى نفس المنوال - ولكن بنظرة أشمل - يتناول زكي البحيري السرد التاريخي في الكتب المدرسية للمرحلة ما بين العشرينيات والخمسينيات مقارنة بالفترة من الخمسينيات إلى الثمانينيات^(٢٠٨)، في حين يركز دونالد أم. ريد Donald M. Reid على علم المصريات كفرع من علوم المعرفة محل جدال بين المصريين والأجانب في كتابه،

Nationalization the Pharaonic Past: Egyptology, Imperialism, and Egyptian Nationalism, 1922-1952^(٢٠٩).

أما النتائج التي توصل إليها المؤرخون الأكاديميون المصريون فيقارنها يوأف - دي - كابوا Yoav Di-Capua بما سجله عن كتابات المؤرخ الوطنى المعروف "عبد الرحمن الرافعى"^(٢١٠).

ويأخذ تاريخ المرأة خلال التسعينيات طريقه إلى الصدارة مع ظهور الكتب التالية:

ليلي أحمد، Leila Ahmed

في ^(٢١١) **Women and gender in Islam** ومارجو بدران Mrgot Badran في،

Feminist, Islam and Nation: Gender and the Making of Modern Egypt^(٢١٢).

وسينثيا نلسون Cynthia Nelson فى،

Doria Shafik, Egyptian Feminists: A Woman Apart^(٢١٣).

وسلما بوتمان Selma Botman فى،

Engendering Citizenship in Egypt^(٢١٤).

وكذلك كتاب ماريلين بوث،

Marilyn Booth - May Her Likes be Multiplied: Biographies and Gender Politics in Egypt^(٢١٥).

ويكمن خطأ الكتاب غير المصرين فى دمج الحركة النسائية فى أجندة أغلب النساء فى مصر. فمثلاً اختلفت كثير من الناشطات المسلمات مع هدى شعراوى، ومع الاتحاد النسائى المصرى وخاصة من جانب زينب الغزالى التى كتبت مذكراتها "أيام من حياتى"^(٢١٦) تتضمن دورها التأسيسى فى منظمة الأخوات المسلمات. كما يمكن الرجوع أيضاً إلى كتاب عزة كرم فى هذا الشأن،

Azza Karam - Women, Islamism and the State^(٢١٧).

أما العمل الأخير بقلم منى راسل وباراك سالمنى Mona Russel and Barak Salmoni فهو يتصدى لنوعية الجنس فى الفترة من ١٩١٩-١٩٥٢ من خلال رؤية تعليمية وطنية^(٢١٨).

ولأن الفنون كانت من الفرص الأساسية التى أتاحت للمرأة فى المجتمع المصرى خلال تلك الفترة، فليس من عجب أن نكون بحاجة إلى الرجوع إلى الإصدارات التى نشرت فى هذا المجال مثل كتاب ليليان كارنوك Lilian Karnouk فى،

Modern Egyptian Art: The Emeergence of a National Style^(٢١٩).

وكارين فان نيوكيرك Karin Van Nieuwkerk في كتابها،

A Trade Like Any Other: Female Singers and Dancers in Egypt^(٢٢٠).

ثم فرجينيا دانيلسون Virginia Danielson في،

Artists and Entrepreneurs: Female Singers in Cairo During the 1920s^(٢٢١).

بالإضافة إلى مؤلفها،

The Voice of Egypt: Umm Kulthum, Arabic Song and Egyptian Society in the Twentieth Century^(٢٢٢).

ثم كتاب مصطفى درويش،

Mustafa Darwish - Dreams Makers on the Nile, A Portrait of Egyptian Cinema^(٢٢٣).

وشريفة زهور Sherifa Zuhur فيما كتبه عن أسمهان،

Asmahan's Secrets: Women, War and Song^(٢٢٤).

بالإضافة إلى تحرير مجموعتين من المقالات عن الثقافة الشرق أوسطية،

Images of Enchantment^(٢٢٥) و،

Colors of Enchantment: Theater, Dance, Music, and the Visual Arts of the Middle East^(٢٢٦).

والتي تشمل مقالات عن الفنان الكوميدي على الكسار، والمطرب فريد الأطرش، والراقصة تحية كاريوكا (كما يتذكرها إدوارد سعيد) وأيضا نور الكارتون (الكاريكاتير) في الصحافة. أما مساهمة كارولين ويليامز في هذا الكتاب فهو تحليل مفصل للمنتج الثقافي للفنانين والنحاتين المصريين، في حين يركز مقال أندرو فليبرت على أهمية السنوات من ١٩١٩-١٩٥٢ في تطوير السينما في مصر. أما تاريخ السينما بشكل

عام فتشير إليه ماجدة واصف Magda Wassef في،

Egypt: 100 ans de Cinema^(٢٢٧).

أما إسهام شون لوبيز Shun Lopez في هذا الكتاب فهو يشير إلى الجرائم التي أثارت الرأي العام ويتذكرها أغلب المصريون بل وبقيت كجزء من التراث الشعبي. ويتوسع في هذا الموضوع والتر أرمبروست Walter Armbrust في مؤلفه،

Mass Culture and Modernism in Egypt^(٢٢٨).

ويعتبر الأدب أكثر مظاهر الثقافة العربية في مصر، ويمكن معرفة الكثير عن حياة المصريين وأحاسيسهم خلال المرحلة ما بين ١٩١٩-١٩٥٢ من خلال قراءة الروايات والقصص القصيرة التي كتبت في تلك الفترة أو ما بعدها. وسأورد فيما يلي بعض نماذج منها: حمدي سكوت،

Hamdi Sakut-The Egyptian Novel and its Main Trends from 1913-1952^(٢٢٩).

ودجر آلان،

Roger Allen - The Arabic Novel: An Historical and Critical Introduction^(٢٣٠).

ونسخة كتاب مصطفى بدوي Modern Arabic Literature^(٢٣١). أما الرواية التي دائما ما يشار إليها في تصوير الريف المصري في الثلاثينيات فهي رواية توفيق الحكيم "يوميات نائب في الأرياف"^(٢٣٢).

لم ينفذ توقيع معاهدة إنجلترا ومصر عام ١٩٣٦ سلطة الإنجليز في مصر، وكان لآخر القناصل البريطانيين سير مايلز لامبسون Sir Miles Lampson الذي أصبح فيما بعد لورد كيليرن عام ١٩٤٢ مجموعتان من اليوميات The Killearn Diaries 1934-1946^(٢٣٣) ونسخة كتاب إم. إيه. ياب M. E. Yapp في،

Politics and Diplomacy in Egypt: The Diaries of Sir Miles Lampson 1935-1937^(٢٣٤).

أما عن دور بريطانيا في خلال الحرب العالمية الثانية فدائماً ما نرجع إلى جان لوجول Jean Lugol في كتابه،

Egypt and World War II: The Anti-Axis Campaigns in the Middle east^(٢٣٥)

وجورج كيرك^(٢٣٦) George Kirk - The Middle East in War ، ويمكن مقارنتهم بكتاب عاصم الدسوقي "في الحرب العالمية الثانية"^(٢٣٧). وقد حان الوقت ليكتب شباب المؤرخين عما كان تجربة مريرة لمصر، ونقطة تحول في الحرب بين بريطانيا وألمانيا والتي كان من نتائجها الإنذار الذي وجه للملك فاروق والذي ناقشه شارلز دي. سميث Charles D. Smith في كتابه،

4 February 1942: Its Causes and Its Influence on Egyptian Politics and on the Future of Anglo-Egyptian Relations, 1937-1945^(٢٣٨)

وجابرييل ووربرج Gabriel Warburg في،

Egypt and the Sudan: Studies in History and Politics^(٢٣٩)

وأيضاً ما سجله محمد أنيس في كتابه "٤ فبراير ١٩٤٢ في تاريخ مصر السياسي"^(٢٤٠)، وليلى أمين مرسى في،

Indicative Cases of Britain's Wartime Policy in Egypt 1942-1944^(٢٤١)

وفي هذا الكتاب يعرض ملاك بدرأوى تأثير هذه الحادثة على السياسة البرلمانية والعلاقات بين القانون والملكية، أما محاولات أرنست بيفين Ernest Bevin وإسماعيل صدقي إنهاء الخلافات المصرية البريطانية فيسجلها إتش. إيه. رحمن H. A. Rahman في كتابه،

A British Defense Problem in the Middle East: The Failure of the 1946 Anglo-Egyptian Negotiations^(٢٤٢)

أما بيتر إل. هان Peter L. Hahn فيشير إلى العلاقات البريطانية المصرية بعد تدخل الأمريكيين في كتابه،

The United States, Great Britain and Egypt 1945-1956^(٢٤٣).

ويحلل فوزى جرجس أسباب هزيمة مصر عام ١٩٤٨ في الحرب الفلسطينية. أما تحليل العاصفة الأخيرة من الإحباط التي أصابت مصر قبل ثورة ١٩٥٢، والسبت الأسود فتتناولها مقالة آن كلير كيربوف Anne-Claire Kerbf^(٢٤٤) في هذا الكتاب، كما يمكننا أيضاً الرجوع إلى كتاب محمد أنيس "حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ على ضوء وثائق تنشر لأول مرة"^(٢٤٥). والجدير بالذكر أن أحداث حريق القاهرة ملأت نشرة خاصة في إحدى الجرائد المصرية أخيراً^(٢٤٦).

وحين تراجعت سنوات عبد الناصر في الذاكرة بكل ما حفلت به من تهور واندفاع، بدأ المؤرخون وشركاؤه الأحياء في شرح وتفسير أسباب ونتائج ثورة ١٩٥٢ مما أدى إلى ظهور العديد من الكتب والكتابات المحررة والمذكرات مثل "مذكرات" عبد اللطيف البغدادى^(٢٤٧)، والكتابات الخمس لأحمد حمروش وهي رؤية شخصية وأحياناً منحازة بعنوان "قصة ثورة يوليو"^(٢٤٨)، ثم كتاب بى. جى. فاتيكيوتيس Nasser and His Generation^(٢٤٩) وكتاب صلاح نصر "مذكرات صلاح نصر - ثورة ٢٣ يوليو"^(٢٥٠)، وكتاب محمد حسنين هيكل،

Cutting the Lion's Tail: Suez Through Egyptian Eyes^(٢٥٠).

ثم مذكرات على صبرى إعداد عبد الله إمام^(٢٥٢)، وجويل جوردون Joel Gordon فى،

Nasses Blessed Movement: Egypt's Free Officers and the July Revolution^(٢٥٣).

ثم كيرك بيتى،

Kirk Beatie - Egypt During the Nasser Tears^(٢٥٤).

وشيمون شامير Shimon Shamir فى كتابه،

Egypt from Monarchy to Republic: A Reassessment of Revolution and Change^(٢٥٥).

ثم خالد محيى الدين^(٢٥٦). Memories of a Revolution: Egypt 1952.

وتوفيق أكليماندوس،

Tewfik Aclimandos - Officiers et Frères Musulmans^(٢٥٧).

ومن القضايا المستمرة التى ترتبط بثورة ١٩٥٢ التزام مصر بالقومية العربية وقضية فلسطين سواء قبل هذا الحدث أو بعده. ومن المؤلفات باللغة الإنجليزية فى هذا السياق كتاب توماس ماير،

Thomas Mayer - Egypt and the Palestine Question 1936-1945^(٢٥٨).

وجوزيف بى. لورينز،

Josef P. Lorenz - Egypt and Arabs: Foreign Policy and the Search for National Identity^(٢٥٩).

وجيمس ب. جانكوفسكى،

James P. Jankowski - Egypt and Early Arab Nationalism 1908-1924^(٢٦٠).

وغادة هاشم تلهامى Ghada Hashem Talhami فى،

Palestine and Egyptian National Identity^(٢٦١).

والتي تستخدم القضية الفلسطينية لتسجيل تحول مصر تاريخياً من الهوية الوطنية إلى القومية العربية. ثم إسرائيل جرشونى Israel Gershoni فى،

Rethinking the Formation of Arab Nationalism in the Middle East, 1920-1945^(٢٦٢).

ورالف كورى Ralph M. Coury فى،

The Making of an Egyptian Arab Nationalist: the Early Years of Azzam Pasha, 1893-1936^(٢٦٣).

وعبد الفتاح محمد العويس فى،

The Muslim Brothers and the Palestine Question^(٢٦٤).

ثم ميشيل دوران،

Michael Doran - Pan Arabism Before Nasser: Egyptian Power Politics and the Palestine Question^(٢٦٥).

أما كتاب رامى جينات Rami Ginat-The Soviet Union and Egypt 1945-1955 فهو ينفذ إلى جانب مهم فى مصر الملكية، وتزايد سياستها الأجنبية المستقلة وعواقبها فى مرحلة ما بعد ١٩٥٢^(٢٦٦).

وتتعدد الكتابات عن القاهرة، فتكتب جانيت أبو لغد،

Janet L. Abou-Lughod - Cairo: 1001 Year of the City Victorious^(٢٦٧).

ويضيف المثقفون الجدد بعض الكتب القيمة التى تتناول جوانب من تاريخ هذه الفترة منها كتاب تريفور موستين،

Trevor Mostyns - Egypt's Belle Epoque: Cairo 1869-1952^(٢٦٨).

وجون وكريستين ميللر^(٢٦٩) John and Kristen Miller - Cronicles Abroad: Cairo،

وطارق محمد رفعت صقر،

Tarek Sakr-Early Twentieth-Century Islamic Architecture in Cairo^(٢٧٠).

وسمير رأفت،

Samir Raafat - Maadi 1904-1962: Society and History in Cairo Suburb.

وأيضاً،

Cairo, the Glory Years: Who Built What, When, Why and for Whom^(٢٧١).

ثم نينا نلسون،

Nina Nelson-The Mena House: A Short History of a Remarkable Hotel^(٢٧٢).

وماكس رودينبيك^(٢٧٣) **Max Rodenbeck - Cairo: The City Victorious** ،

وأيضاً أندريه ريموند^(٢٧٤) **André Raymond - Cairo** ،

وماريا جوليا^(٢٧٥) **Maria Golia - Cairo of Sand** .

ولكن ماذا عن الإسكندرية، المدينة الأسطورة قبل سنوات عبد الناصر؟ كان آخر إصدار حديث عنها هو كتاب مايك هاج^(٢٧٦) **Michael Haag - Alexandria: City of Memory** .

ويرتبط بمدن مصر (ولكن دون تحديد) انطباعات الزائرين الأجانب عنها، ومنهما مختارات متميزة سجلها كريستوفر بيك **Christopher Pick** عن مصر في كتابه **A Traveler's Anthology^(٢٧٧)** ، أما الكتاب الرائع الجديد الذى حفل بصور عن أحداث الفترة فهو ألان بلوتر،

Alain Blottière - Vintage Egypt: Cruising the Nile in the Golden Age of Travel^(٢٧٨).

فى حين أن "جمعية دراسة رحلات إلى مصر والشرق الأدنى" والتي تجتمع شبه سنوياً فى بريطانيا، فهي بصدد نشر مجموعة عن الرحلات إلى مصر، وقد تغطى فى المستقبل المرحلة ما بين ١٩١٩-١٩٥٢^(٢٧٩) .

كيف كانت رؤية المصريين لماضيهم؟ لقد صدرت أخيراً دراسة تفصيلية ومهمة عن تاريخ مصر بقلم أنتوني جورمان Anthony Gorman تحت مسمى،

Historians, State and Politics in Twentieth-Century Egypt: Contesting The Nation^(٢٨٠).

وكذلك توجد محاولات حديثة لكتابة تاريخ مصر وتتضمن كتابين شارك فيه العديد من الكتاب ومنهم سلما بوتمان جويل بنين Selma Botman and Joel Beinin عن الفترة من ١٩١٩-١٩٥٢ بعنوان^(٢٨١) **The Cambridge History of Egypt**.

وكتاب واحد يضم أعمال مؤرخين مهمين مثل عفاف لطفى السيد - مارسو

A Short History of Modern Egypt^(٢٨٢).

وآرثر جولد شميدت،

Arthur Goldschmidt Jr.-Modern Egypt: The Formation of a Nation State^(٢٨٣).

وجيمس جانكوفسكى،

James P. Jankowski - Egypt: A Short History^(٢٨٤).

أما الحقبة التى يغطيها هذا الكتاب فمتناولها سلما بوتمان التى تكتب بكثير من العمق عن التاريخ العام^(٢٨٥) **Egypt from Independence to Revolution**.

أما سنوات ما قبل ثورة ١٩٥٢ فيمكن الرجوع إلى كتاب ديريك هوبود،

Derek Hopwood - Egypt: Policies and Society, 1945-1990^(٢٨٦).

وفى النهاية، فإن مسار كتابة تاريخ مصر الحديثة بدأ من محاولة بعض الهواة تسجيل تاريخ مصر الماضى أو المعاصر وصولاً إلى تحليل نقدى محترف بالغ التخصص فى كثير من الأحيان. ومع ذلك فإن التركيز التقليدى على سياسات مصر واقتصادها وعلاقاتها بالأجانب لم يتلاش. بل العكس هو الصحيح، فقد اتسعت آفاقه ليشمل أفكاراً، وقيماً،

كما شمل أيضاً الهيئات الدينية، والتغيرات الاجتماعية، والعلاقات بين الجنسين؛ الرجال والنساء، والتعليم والثقافة. وحتى في مجال الثقافة لم تقتصر على شعر ونثر طبقة المتعلمين، وإنما امتدت لتشمل التراث الشعبي، والشعر العامي، والأغاني الشعبية، والرقص، والدراما، والسينما والراديو والتلفزيون. ورغم أن هذا الجزء أظهر أن تناول تاريخ مصر بين ثورتين من خلال دراسة عامة scholarly كانت واسعة ومتشعبة، فإنه تبقى مساحة واسعة أخرى لتسجيل التاريخ إلى مدى أبعد من ذلك مع تفسيرات وشرح جديدين.

الهوامش

- (١) الثلاثة أجزاء من "التمهيد" أعقبهم سبعة أجزاء من "الحوليات". القاهرة: مطبعة شفيق، ١٩٢٦-٣٠. انظر كذلك: عبد العزيز الرفاعي "أحمد شفيق المؤرخ" (القاهرة: الدار المصرية، ١٩٦٤).
- (٢) القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٤-٥١. عن الرفاعي، انظر: مذكراتي ١٨٨٩-١٩٥١ (القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٢).
- (٣) القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٦.
- (٤) ٢ أجزاء في ٦، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٢-٣٦.
- (٥) L'Égypte: aperçu historique et géographique, gouvernement et institutions, vie économique et sociale, (القاهرة: مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٢٦).
- (٦) نيويورك: أولاد تشارلز سكريبنر، ١٩٢٧ هذا العمل كان جزءاً من مجموعة تسمى: The Modern World: A Survey of Historical Forces، طبعة إتش. أي. آل. فيشر.
- (٧) لندن: إدوارد ارنولد، ١٩٢٨، وأعيد طبعه في نيويورك: راسل وراسل، ١٩٦٩، وعمل آخر قصير ممكن أن يكون طبعة مختصرة، وهو كتاب الجود Egypt (لندن: اروسميث، ١٩٣٥).
- (٨) لندن: ماكميلان، ١٩٣٣-٣٤.
- (٩) القاهرة: الجامعة الأمريكية في القاهرة، ١٩٣٣. نيويورك: راسل وراسل، ١٩٦٨.
- (١٠) باريس: بول هارتمان، ١٩٣٧. كان هذا هو الجزء الأول في مجموعة: Collection du Monde Islamique.
- (١١) الطبعة الثانية، لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٣٩.
- (١٢) لندن: جي. موريه، ١٩٤٠.
- (١٣) باريس: جي. بي. منسو نوف، ١٩٥١.
- (١٤) القاهرة: مصلحة الإحصاء والتعداد، ١٩٠٩.
- (١٥) لندن: لون جمان، جرين وشركاه، ١٩٢٨.
- (١٦) لندن: Constable، ١٩٥٢.
- (١٧) لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٤٧. في طبعة توماس ناف: Paths to the Middle East.

(ألبانى: مطبعة جامعة ولاية نيويورك، ١٩٩٣)، ١٤٧-٤٨، يشرح عيسوى كيف تمت كتابة هذا الكتاب، وكيف تم حظره في مصر من نظام الملك فاروق. ويقول نفس القصة في طبعة نانسي جلاجر Approches to the History of the Middle East (ريدينج، المملكة المتحدة: مطبعة إيتشاك، ١٩٩٤)، ٥٧.

(١٨) لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٥٤. ومزيد من المراجعة،

Egypt in Revolution.

ظهر عام ١٩٦٣.

(١٩) باريس: Editions du Seuil، ١٩٥٦. ونشرت الترجمة الإنجليزية لفرنسيس سكارف في لندن: ميثوان، ١٩٥٨، ونيويورك: كتب كريتيون، ١٩٥٨.

(٢٠) جزآن. باريس: أر. جوليارد، ١٩٥٩-٦٠.

(٢١) لوهاي: موتون، ١٩٥٧.

(٢٢) القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٥٢. عن براوى، انظر: روبل ميجر:

The Quest for Modernity: Secular Liberal and Left-Wing Political Thought in Egypt, 1945-58.

(لندن: روتلج كورزون، ٢٠٠٢)، ٦٦-٩٥.

(٢٣) القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٥٥.

(٢٤) واشنطن: مطبعة الشؤون العامة، ١٩٥٥، بفالو، نيويورك: سميث كيز ومارشال، ١٩٥٨. ويعتقد أن الكاتب الحقيقي هو محمد حسنين هيكل. على أية حال، تؤكد عفاف لطفى السيد مارسو فى Survey of Egyptian Works of History, AHR 95 (1991): 1425، أن توم ليتل هو المؤلف. نظرية أخرى أن الكتاب تم كتابته عن طريق لجنة تحت إشراف عبد الناصر، أساساً أمين شاكرا، ولكن ببعض مساهمة من هيكل، مما قد يكون مبالغاً فيه.

(٢٥) جاردن سيتي، نيويورك: دبلداى وشركاه، ١٩٥٥. اعترف نجيب بمساعدة لايت وايت.

(٢٦) نيويورك: شركة جون داى، ١٩٥٧.

(٢٧) شيكاغو: مطبعة سكولارز، ١٩٥٤.

(٢٨) القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩. ناقش جاك إى. جرايز هذه المرحلة المهنية للرفاعى فى طبعة شيمون شامير،

Egypt from Monarchy to Republic: A Reassessment of Revolution and Change.

(بولدر: مطبعة ويست فيو، ١٩٩٥).

(٢٩) تل أبيب: Israel Oriental Society، ١٩٥٤.

(٣٠) نيويورك: فيدريك إى. بريجر، ١٩٥٣. لندن: مطبعة كريست، ١٩٥٤. كان جون مارلو الاسم المستعار لرجل أعمال بريطاني يسمى جورج كولارد.

- (٣١) نيويورك: ماكميلان، ١٩٥٥ .
- (٣٢) لندن: أرنست بن المحدودة، ١٩٥٨ . نيويورك: فريدريك إي. بريجر، ١٩٥٨ .
- (٣٣) لندن: أرنست بن المحدودة، ١٩٦٧ . نيويورك: فريدريك إي. بريجر، ١٩٦٧ .
- (٣٤) لندن: ماك جيبون وكى، ١٩٦٢ .
- (٣٥) كمبريدج: كتب أرنلجتون، ١٩٥٩ .
- (٣٦) نيويورك: ماك جرو هيل، ١٩٦٠، لندن: إي. بيكر، ١٩٦١، وكالة إسرائيل ستيماتسكى، ١٩٦٠ .
- (٣٧) لندن: مطبعة أولدهام، ١٩٦٠ .
- (٣٨) باريس: مكتبة بلون، ١٩٦٢ . كان أحمد أبو الفتح محرراً بجريدة الوفد اليومية الشعبية "المصرى"، والتي أغلقها نظام عبد الناصر في مايو ١٩٥٤ . وبعد إلقاء القبض عليه ومحاكمته وسجنه لفترة وجيزة، سمح له بالذهاب للمنفى. كان شقيق رئيس التحرير محمود أبو الفتح (١٨٨٥-١٩٥٨).
- (٣٩) نيويورك: فريدريك إي. بريجر، ١٩٦٠ .
- (٤٠) بلومنجتون: مطبعة جامعة أنديانا، ١٩٦١ .
- (٤١) أورشلليم: مطبعة جامعة إسرائيل، ١٩٦٩ .
- (٤٢) بيروت: خياط للكتب الجامعية التعاونية، ١٩٥٦، ترجمة جون إف. براون وجون ريسى.
- (٤٣) لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٦٩ .
- (٤٤) باريس: لارماتان، ١٩٨٣، وأعيد طبعه ٢٠٠١ .
- (٤٥) القاهرة: مطبعة روزاليوسف، ١٩٨٢ .
- (٤٦) ريدينج، المملكة المتحدة: مطبعة إيثاكا، ١٩٩٨ .
- (٤٧) بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١ .
- (٤٨) ألماباد (الهند): كتاب محل، ١٩٦٧ .
- (٤٩) لندن: مركز العالم الثالث للبحث والنشر، ١٩٨٢ .
- (٥٠) القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩ .
- (٥١) نيويورك: برن، وفرانكفورت مين: بيتر لانج، ١٩٨٥ .
- (٥٢) ريشموند، المملكة المتحدة: كورزون، ٢٠٠٠ .
- (٥٣) الجريدة الدولية للدراسات التاريخية الإفريقية ١٥ (١٩٨٢): ٦٢٥-٤٩ .
- (٥٤) القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣ .
- (٥٥) القاهرة: دار الكتب العربية، ١٩٦٦ .
- (٥٦) "خمسين عاماً على ثورة ١٩١٩" بمقدمة من محمد حسنين هيكل ولكن بدون تحديد اسم المؤلف (القاهرة: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٩).
- (٥٧) القاهرة: دار الكتاب العربى، ١٩٦٨، الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة مديولى، ١٩٨٣ . أعيد طبعه فى القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (٥٨) بيروت: الوطن العربى، ١٩٧٣ . أعيد طبعه فى القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨ .

(٥٩) باريس: جاليمار، ١٩٦٧، ترجمة جين ستيوارت باسم:

Egypt: Imperialism and Revolution.

(لندن: فبر وفابر، ١٩٧٢).

- (٦٠) لندن: توم ستيمنسي المتحدة، ١٩٧٢، وطبعة لندن، ١٩٧٦. إنديانا بوليس: فيرست بوك، ٢٠٠٢.
- (٦١) لندن: فيدنفيلد ونيكلسون، ١٩٦٩. تم إصدار طبقات لاحقة لنفس الناشر وكذلك مطبعة جامعة هويكنز في ١٩٨٠، ١٩٨٥ و١٩٩١.
- (٦٢) بيركلي، لوس أنجلوس، ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٧٧.
- (٦٣) لندن: مطبعة إيثاكا، ١٩٧٩.
- (٦٤) القاهرة: دار الهلال، ١٩٨٤.
- (٦٥) القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٩٩٥.
- (٦٦) القاهرة: مؤسسة الأهرام، ١٩٧٥.
- (٦٧) بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٣.
- (٦٨) القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٢.
- (٦٩) بيروت: خياط، ١٩٦٥.
- (٧٠) لندن: مانسل، ١٩٨٢.
- (٧١) ريدينج، المملكة المتحدة: مطبعة إيثاكا، ١٩٩٤. هدى هي الابنة الكبرى للرئيس الراحل جمال عبد الناصر.
- (٧٢) القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٩٩٥.
- (٧٣) لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٦٠.
- (٧٤) كامبريدج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٦١. لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٦١.
- (٧٥) لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٦٢. كامبريدج ونيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٣.
- (٧٦) لندن: كروم هيلم، ١٩٧٦.
- (٧٧) القاهرة: دار الفكر العربي. المجلدات الأكثر صلة بهذه الفترة هي عن أمين الرافعي (١٩٥٩) وعبد القادر حمزة (١٩٦٣)، الجزء التاسع، عن محمد حسين هيكل، في الغالب لم تنشر.
- (٧٨) "تطور الصحافة المصرية"، الطبعة الثالثة (القاهرة: مكتبة العبد، ١٩٥١).
- (٧٩) "أعلام الصحافة العربية" (القاهرة: مكتبة العبد، ١٩٤٤).
- (٨٠) انظر: "تاريخ الوقائع المصرية، ١٨٢٨-١٩٤٢" (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٤٢)، "جريدة الأهرام: طريق وفن ١٨٧٥-١٩٦٤" (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٤).
- (٨١) نيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٩٥.
- (٨٢) القاهرة: الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٨.
- (٨٣) القاهرة: الدار المصرية، ١٩٥٨.
- (٨٤) القاهرة: الدار المصرية، ١٩٥٧.

- (٨٥) باريس: طبعة دي سوي، ١٩٦٢، ترجمة شارلز لام ماركان تحت عنوان:
Egypt: Military Society: The Army Regime, the Left, and Social Change under Nasser.
(نيويورك: راندوم هاوس، ١٩٦٨).
- (٨٦) باريس: فرنسوا ماسبيرو، ١٩٦٩، ترجمة ميكائيل شيرمان وآخرين تحت عنوان
Class Conflict in Egypt, 1945-1970.
(نيويورك: استعراض الصحافة الشهرى، ١٩٧٣). "محمود حسين" كان اسماً مستعاراً لعادل رفعت
وبهجت النادى.
- (٨٧) القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٥ .
- (٨٨) في طبعة ولتز زد. لاکور The Middle East in Transition (نيويورك: فريدريك إي. بريجر، ١٩٥٨).
- (٨٩) لندن، نيويورك، وتورينو: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٦٢ .
- (٩٠) شيكاغو، لندن: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٦٩ .
- (٩١) "الحركة العمالية في مصر، ١٨٩٩-١٩٥٢" (القاهرة: دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٧).
- (٩٢) برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٨٧ .
- (٩٣) بيركلى، لوس أنجلوس، ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا.
- (٩٤) ألبانى: مطبعة جامعة ولاية نيويورك، ١٩٩٤ .
- (٩٥) روجر أوين وسيفكيت باموك:
A History of Middle East Economies in the Twentieth Century.
(كامبريدج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٩٨).
- (٩٦) نيويورك: فريدريك إي. بريجر، ١٩٥٦ .
- (٩٧) القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٥ .
- (٩٨) بيروت: شركة الأمل، ١٩٧٢ .
- (٩٩) القاهرة: دار الثقافة، ١٩٧٥ .
- (١٠٠) سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ١٩٩٠ .
- (١٠١) سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ١٩٨٨ .
- (١٠٢) لندن وأطلانتيك هايلاند، نيوجيرسى: كتب زد، ١٩٨٤ . قام بالترجمة الإنجليزية عن الأصل الفرنسى
بوب كمنج. كان هنرى كوريل هو مؤسس الحركة الشيوعية المعروفة باسم هاديتو: "Hadeto"،
أو الحركة المصرية من أجل تحرير الوطن.
- (١٠٣) بيركلى ولوس أنجلوس: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٠ .
- (١٠٤) لندن: روتليدج كورزون، ٢٠٠٢ .
- (١٠٥) لاهاي: مارتينوس نيجهوف، ١٩٦٩ .
- (١٠٦) راجعه رئيس الوزراء هولت ونشرته مطبعة جامعة أكسفورد عام ١٩٦٨، المجلد يتضمن أوراق قدمت
فى مؤتمر عن تاريخ مصر الحديث عقد تحت رعاية مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن
فى إبريل ١٩٦٥ .

- (١٠٧) ستانفورد: مطبعة معهد هوفر، ١٩٧٣ .
- (١٠٨) لندن: كتب الساكي، ١٩٨٥ .
- (١٠٩) لندن وتوتوا، نيوجيرسي: فرانك كاس، ١٩٨٩ .
- (١١٠) انظر: طبعات جيمس جانكوفسكى وإسرائيل جرشونى:
- Rethinking Nationalism in the Arab Middle East.
- (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٩٧).
- (١١١) لندن: روبرت هيل، ١٩٦٧ .
- (١١٢) نيويورك: شركة ماك كول للنشر، ١٩٧٠ . تحمل الطبعة البريطانية اسم:
- The Ten Faces of Farouk.
- (لندن: مايكل جوزيف ليمتد، ١٩٦٩).
- (١١٣) لندن: كارتير، ١٩٨٩ .
- (١١٤) نيويورك: الناشر كارول وجراف، ١٩٩١ .
- (١١٥) القاهرة: مكتبة مد بولى، ١٩٨٩، عدلت ١٩٩٨ .
- (١١٦) لندن: أتش. جنكيز ليمتد، ١٩٣٦ .
- (١١٧) القاهرة: روزاليوسف، ١٩٧٣ .
- (١١٨) القاهرة: مؤسسة الأهرام، ١٩٨٢ .
- (١١٩) القاهرة: مطبعة حجازى، ١٩٣٦ .
- (١٢٠) بيروت: دار العودة، ١٩٧٥، القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٩٧٥ .
- (١٢١) مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، ١٩٨٧ .
- (١٢٢) طبعة أيلى قنورى The Chatham House version and Other Essays (لندن: فيدن فيلد ونكس ون، ١٩٧٠، هانوفر، نيو هامبشير: مطبعة جامعة نيوانجلند، ١٩٨٤).
- (١٢٣) "مذكراتى فى السياسة المصرية" الجزء ١-٢ (القاهرة: مكتبة لأنجلو إيجيپشن، ١٩٥١-٥٢) والجزء الثالث تقديم ومراجعة أحمد هيكى (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧). لا يجب الخلط بين هذا المؤلف وبين رئيس مجلس إدارة الأهرام السابق محمد حسنين هيكى.
- (١٢٤) Islam and the Search for Social Order in Modern Egypt (ألبانى: مطبعة جامعة ولاية نيويورك، ١٩٨٢).
- (١٢٥) "الدكتور محمد حسين هيكى" (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٥٨).
- (١٢٦) سعيد عبد الرازق يوسف عبد الله، "محمود فهمى النقراشى وبوره فى السياسة المصرية (القاهرة: مكتبة مد بولى، ١٩٩٥).
- (١٢٧) ملاك بدرأوى:
- Ismail Sidqi 1875-1950: Pragmatism and Vision in Twentieth Century Egypt.
- (ريشموند، المملكة المتحدة: كورزون، ١٩٩٦). انظر كذلك: إسماعيل صدقى "مذكراتى" (القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٠).

- (١٢٨) لاتهام، ماريلاند: مطبعة جامعة أمريكا، ١٩٨٦ .
- (١٢٩) تربية سلامة موسى (القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٤٧) ترجمة أل. أو. شومان تحت عنوان:
The Education of Salama Musa.
- (لندن: إي. جي. بريل، ١٩٦٠ .
- (١٣٠) Contemporary Egypt: Through Egyptian Eyes (لندن ونيويورك: روتليدج، ١٩٩٣).
- (١٣١) طبقات كثيرة من هذا القاموس متوفرة. الكاتب استخدم الطبعة الخامسة، والتي نشرت في ثمانية أجزاء عن دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٨٠). آخر طبعة موجودة، أضاف لها كتاب عرب آخرون.
- (١٣٩) الطبعة الأولى نشرت بين عامي ١٩٤٩ و١٩٦٣ من عدة مطابع في القاهرة. وأعاد طبعها في بيروت دار الغرب الإسلامي عام ١٩٩٤ .
- (١٣٢) بيروت: جمعية أهل الكلام، ١٩٥٦ . أجزاء أخرى طبعها عدة ناشرين ما بين عام ١٩٥٠ و١٩٨٣ .
- (١٣٤) القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٦٨ .
- (١٣٥) القاهرة: دار الشروق.
- (١٣٦) القاهرة: وكالة أنباء الشرق الأوسط.
- (١٣٧) بولدر: لينى راينر للنشر، ٢٠٠٠ .
- (١٣٨) لانهام، ماريلاند، وأكسفورد: مطبعة سكاركرو، ٢٠٠٣ . القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٤ .
- (١٣٩) لندن: جرانت ريتشارد، ١٩٣٥ .
- (١٤٠) لندن: جون موري، ١٩٣٨ . كثيراً ما منعت كتب جارفيس في مصر.
- (١٤١) لندن: جون موري، ١٩٤٩ . كقائد للشرطة المصرية، شهد راسل الكثير من المواجهات بين البريطانيين والمتظاهرين المصريين. انظر كذلك: رونالد بث Russell Pasha (لندن: ويليام كيمبر، ١٩٦٦).
- (١٤٢) لندن: روبرت هيل، ١٩٥٧ .
- (١٤٣) نيويورك: ووك، ١٩٦٦ . لندن: ميكائيل جوزيف، ١٩٦٧ .
- (١٤٤) لندن: جون موري، ١٩٧٠ . أعيد الطبع في لندن: ستاسي انترناشيونال، ٢٠٠٢ .
- (١٤٥) "حياتي" (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠). لندن: إي. جي. بريل، ١٩٧٨ . ترجمة عيسى بولاتا.
- (١٤٦) لندن: كتب أريال للبي. بي. سي، ١٩٨٣ . الطبعة الورقية ١٩٨٥ .
- (١٤٧) نيويورك: سايمون وشوستر، ١٩٨٧ .
- (١٤٨) نيويورك: هاربر كولينز، ١٩٩٤ .
- (١٤٩) نيويورك: فارار شتراوس جير وكس، ١٩٩٩ .
- (١٥٠) روما: Instituto Storico Domenicano، ١٩٩٦ . باريس: طبعة سارف، ١٩٩٦ .
- (١٥١) لندن ونيويورك: كتب زد، ١٩٩٩، ترجمة شريف حتاتة.
- (١٥٢) مينييمور: The Memoir Club، ٢٠٠٢ .
- (١٥٣) جزآن، القاهرة: مطبعة مصر.

- (١٥٤) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨ .
- (١٥٥) القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٢ .
- (١٥٦) "قصة حياتي" (القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٢).
- (١٥٧) "هذه حياتي" (القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٣).
- (١٥٨) برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٧٠ .
- (١٥٩) لندن: فيدنفيلد ونيكلسون، ١٩٧١ .
- (١٦٠) بيروت: بيت نعمان للثقافة، ١٩٨١ .
- (١٦١) لندن: جى. إم. دنت وأولاده، ١٩٨٨ .
- (١٦٢) لندن: مطبعة إيثاكا، ١٩٨٨ .
- (١٦٣) لندن: هاميلتون، ١٩٨٩، لندن: ينجوان، ١٩٩٥ .
- (١٦٤) لندن: بيلوه للنشر، ١٩٩١ .
- (١٦٥) نيويورك: مطبعة سانت مارتين، ١٩٩٧ .
- (١٦٦) ماديسون، نيوجرسي: مطبعة جامعة فيرلايت ديكنسون، ١٩٩٥ .
- (١٦٧) "رباعيات الإسكندرية" Alexandria Quartet للورانس داريل تتكون من جوستين Justine (نيويورك: دوتون، ١٩٥٧)، بالثازار Balthazar (نيويورك: دوتون، ١٩٥٨)، مونتوليف Mount olive (نيويورك: دوتون، ١٩٥٨)، وكليا Clea (نيويورك: دوتون، ١٩٦٠). نشر الرواية في لندن فابر وفابر.
- (١٦٨) أوليفيا مانينج The Levant Trilogy comprises The Danger Tree (نيويورك: أثينيوم، ١٩٧٧)،
The Battle Lost and Won.
- (نيويورك: أثينيوم، ١٩٧٩)، و The Sum of Things (نيويورك: أثينيوم، ١٩٨١). ثلاثية نجيب محفوظ تتكون من "بين القصرين" (القاهرة، ١٩٥٦)، ترجمة ويليام مينا رد ولوليف كيني تحت اسم Palace Walk (نيويورك: دبلداي، ١٩٩٠)، "قصر الشوق" (القاهرة: ١٩٥٧)، ترجمة ويليام هاتشين ولورن وأوليف كيني تحت عنوان Palace of Desire (نيويورك: دبلداي، ١٩٩١) و"السكرية" (القاهرة، ١٩٥٧)، ترجمة ويليام هاتشين وأنجيل بطرس سمعان تحت عنوان Sugar Street (نيويورك: دبلداي، ١٩٩٢).
- (١٦٩) القاهرة: دار الوحدة، ١٩٨٢ .
- (١٧٠) لندن: كروم هيلم، ١٩٨٦ .
- (١٧١) سياتل: مطبعة جامعة واشنطن، ١٩٨٩ .
- (١٧٢) بولدر ولندن: مطبعة وست فيو، ١٩٨٧ .
- (١٧٣) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١ .
- (١٧٤) نيويورك ولندن: مطبعة جامعة نيويورك، ١٩٩٢ .
- (١٧٥) بولدر: مطبعة وست فيو، ١٩٨٢ .
- (١٧٦) برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٨٤ .
- (١٧٧) القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة، ١٩٨٩ .

- (١٧٨) بيركلي، لوس انجلوس، ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا.
- (١٧٩) برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٨٣ .
- (١٨٠) سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ١٩٨٨ .
- (١٨١) نيويورك وأكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٩ .
- (١٨٢) ستانفورد، كاليفورنيا: مطبعة معهد هوفر، ١٩٦٨ .
- (١٨٣) مينيابوليس وشيكاغو: المكتبة الإسلامية Bibliotheca Islamica، ١٩٨١ .
- (١٨٤) سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ١٩٩١ .
- (١٨٥) كامبريدج: مطبعة معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا، ١٩٨٠ .
- (١٨٦) لندن: كتب زد المحدودة، ١٩٨٩ .
- (١٨٧) Family, Power, and Politics in Egypt: Sayed Bey Marei- His Clan Clients, and Cohorts.
- (فيلاديلفيا: مطبعة جامعة بنسلفانيا، ١٩٨٢).
- (١٨٨) ريدينج، المملكة المتحدة: مطبعة إيثاكا، ١٩٩٨ .
- (١٨٩) القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٠ . صور جولو مبهجة مثل النص. انظر كذلك التكملة:
- Whatever Else Happened to the Egyptians? From the Revolution to the Age of Globalization.
- (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٤).
- (١٩٠) سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ١٩٩٠ .
- (١٩١) نيوهافن ولندن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩٠ .
- (١٩٢) العنوان الكامل:
- Reconstructing Rural Egypt: Ahmed Hussein and the History of Egyptian Development.
- (سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ٢٠٠٤). لا تخط بين أحمد حسين والشخص الذي يحمل نفس الاسم وقاد حزب مصر الفتاة.
- (١٩٣) برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ٢٠٠٢ .
- (١٩٤) The Making and Breaking of Marital Bonds in Modern Egypt في طبعة بيت بارون ونيكي كيدي:
- Women in Middle Eastern History: Shifting Boundaries in Sex and Gender.
- (نيوهافن ولندن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩١).
- (١٩٥) Terminating Marriage في طبعة نيكولاس إس. هويكنز:
- The New Arab Family.
- (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٣).

- (١٩٦) كامبريدج ونيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٧ .
- (١٩٧) Cairo Papers in Social Science، المجلد السادس، الدراسة الرابعة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٨٢ .
- (١٩٨) برلين: كلاوس شوارتز، ١٩٤٨ .
- (١٩٩) جورج ستاريت:
- Putting Islam to Work: Education, Politics, and Religious Transformation in Egypt.
- (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٨).
- (٢٠٠) القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٣ .
- (٢٠١) كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٠ .
- (٢٠٢) القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٨٧ .
- (٢٠٣) لندن: روتلج وكوخان بول، ١٩٧٨ .
- (٢٠٤) القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٦٣، لاحظ كذلك أعماله السابقة:
- School and Society in the Valley of the Nile.
- (القاهرة: مطبعة إلياس الحديثة، ١٩٢٦).
- (٢٠٥) كتبت سحر حمودة وكولين كليمانت عام ٢٠٠٢ بمطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة. ومن خريجي كلية فيكتوريا أمين عثمان، إدوارد عطية، الملك حسين، عمر الشريف وإدوارد سعيد.
- (٢٠٦) في طبعة جانكوفسكي وجرشوني:
- Rethinking Nationalism in the Arab Middle East.
- (٢٠٧) توماس ماير:
- The Changing Past: Egyptian Historiography of the Urabi Revolt, 1882-1963.
- (جينزفيل: مطبعة جامعة فلوريدا، ١٩٨٨).
- (٢٠٨) زكي البحيري "تاريخ مصر الحديث والميسر في مقررات المدارس المصرية" (القاهرة: دار نهضة الشرق، ١٩٩٠).
- (٢٠٩) في طبعة جانكوفسكي وجرشوني:
- Rethinking Nationalism in the Arab Middle East.
- (٢١٠) "جبرتي القرن العشرين": الملحمة الوطنية لعبد الرحمن الرافعي وقصص مصرية أخرى:
- International Journal of Middle East Studies 50-429, (2004) 36.
- (٢١١) نيوهافن ولندن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩٢ .
- (٢١٢) برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٥ .
- (٢١٣) جينزفيل: مطبعة جامعة فلوريدا، ١٩٩٦ .
- (٢١٤) نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٩٩ .

- (٢١٥) بيركلي، لوس أنجلوس ولندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠١ .
- (٢١٦) القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٢ .
- (٢١٧) نيويورك: مطبعة سانت مارتين، ١٩٩٨ .
- (٢١٨) منى راسل:
- Creating the New Egyptian Woman: Consumerism, Education, and National Identity.
- (نيويورك: بالجريف، ٢٠٠٤)، باراك سالونى:
- Women in the Nationalist Educational Prism: Turkish and Egyptian Pedagogues and their Gendered Agenda, 1920-1952.
- تاريخ التعليم الربع سنوى ٤:٤٣ (٢٠٠٢):
- The Limits of Pedagogical Revolution: Female Schooling and Women's Roles in Egyptian Educational Discourse, 1922-1952.
- فى طبعة توم أوينج Revolution and Pedagogy (نيويورك: بالجريف، ٢٠٠٤).
- (٢١٩) القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٨٨ .
- (٢٢٠) أوستن: مطبعة جامعة تكساس، ١٩٩٥ .
- (٢٢١) طبعة بث بارون ونيكى كيدى Women in Middle Eastern History (نيوهافن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩١).
- (٢٢٢) شيكاغو ولندن: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٩٧ .
- (٢٢٣) القاهرة، مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٨ .
- (٢٢٤) أوستن: مركز دراسات الشرق الأوسط، جامعة تكساس، ٢٠٠٠ . أسمهان شقيقة فريد الأطرش، كانت تعتبر خلال حياتها القصيرة منافسة لام كلثوم.
- (٢٢٥) القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية فى القاهرة، ١٩٩٨ .
- (٢٢٦) القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية فى القاهرة، ٢٠٠١ .
- (٢٢٧) باريس: معهد العالم العربى، ١٩٩٦ .
- (٢٢٨) كامبريدج ونيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج.
- (٢٢٩) القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية فى القاهرة، ١٩٧١ .
- (٢٣٠) الطبعة الثانية، سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ١٩٩٥ .
- (٢٣١) كامبريدج ونيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٢ .
- (٢٣٢) القاهرة: مطبعة لجنة التأليف، ١٩٣٧، ترجمة أوبريه (فيما بعد أبا) إيبان تحت عنوان The Maze of Justice (لندن: هافيل، ١٩٤٧).
- (٢٣٣) راجعه: ترى فور إى. إيفان (لندن: سيدجويك وجاكسون، ١٩٧٢).
- (٢٣٤) أوكسفورد: مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٩٧ .

- (٢٣٥) ترجمة إى. جى. ميتشيل (القاهرة: الجمعية الشرقية للدعاية، ١٩٤٥). النسخة الأصلية كانت *L'Égypte et la deuxième guerre mondiale* (القاهرة: أر. شنايدر، ١٩٤٥).
- (٢٣٦) لندن: نيويورك وتورنتو: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٥٢ .
- (٢٣٧) القاهرة: المعهد العربى، ١٩٧٦ .
- (٢٣٨) *International Journal of Middle East Studies* 10 (1970): 453-79 .
- (٢٣٩) لندن: فرنك كاس، ١٩٨٥ .
- (٢٤٠) القاهرة: مكتبة مد بولى، ١٩٨٢ .
- (٢٤١) *Middle Eastern Studies* 33، رقم ١ (١٩٩٤): ٩١-١٢٢ .
- (٢٤٢) ريدينج، المملكة المتحدة: مطبعة إيثاكا، ١٩٩٤ .
- (٢٤٣) شابل هيل: مطبعة جامعة نورث كارولينا، ١٩٩١ .
- (٢٤٤) فى طبعة أوجينى روجان وإيفى سليم *The War for Palestine* (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ٢٠٠١).
- (٢٤٥) القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٢ .
- (٢٤٦) ماجد م. على فرج "حريق القاهرة بعد ٥٠ سنة" مصر المحروسة ٢٦ (٢٠٠٢).
- (٢٤٧) جزآن، القاهرة: المكتب المصرى، ١٩٧٧ .
- (٢٤٨) القاهرة: مكتبة مد بولى، ١٩٧٧-٨٤ .
- (٢٤٩) لندن: جروم هلم، ١٩٧٨ .
- (٢٥٠) ٣ أجزاء، الإمارات العربية المتحدة: "مؤسسات الإتحاد" ١٩٨٦-٩٩ .
- (٢٥١) لندن: أنديه دوتش، ١٩٨٦ .
- (٢٥٢) "على صبرى يتذكر" *Ali Sabry Yatadhakkar* (القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ١٩٨٧).
- (٢٥٣) أكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٢، القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٦).
- (٢٥٤) بولدر، سان فرانسيسكو وأكسفورد: مطبعة ويست فيو، ١٩٩٤ .
- (٢٥٥) بولدر، سان فرانسيسكو وأكسفورد: مطبعة ويست فيو، ١٩٩٥ .
- (٢٥٦) القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٥ . نشرت النسخة العربية الأصلية "والآن أتكم" فى الأهرام عام ١٩٩٢ . وقد قام ديبه مونسون بتحليل هذا العمل:
- Ideology, Identity, and Commitment in the Autobiography of Khalid Mohieddin.*
- فى طبعة مارى آن فاى:
- Auto/Biography and the Construction of Identity and Community in the Middle East.*
- (نيويورك: بالجريف، ٢٠٠١).
- (٢٥٧) القاهرة: CEDEJ، ٢٠٠٢ متوفر من نفس الناشر كتابه:
- L'Égypte dans le siècle, 1901-2000, (2003).*

- (٢٥٨) برلين: كلاوس شوارتز فيرلاج، ١٩٨٣ .
- (٢٥٩) بولدر، سان فرانسيسكو وأكسفورد: مطبعة ويست فيو، ١٩٩٠ .
- (٢٦٠) في طبعة خليل رشيدى وآخرين The Origins of Arab Nationalism (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٩١).
- (٢٦١) نيويورك: برى جر، ١٩٩٢ .
- (٢٦٢) طبعة جانكويسكى وجرشونى:

Rethinking Nationalism in the Arab Middle East.

- (٢٦٣) ريدينج، المملكة المتحدة: مطبعة إيثاكا، ١٩٩٨ .
- (٢٦٤) لندن ونيويورك: توريس، ١٩٩٨ .
- (٢٦٥) نيويورك وأكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٩ .
- (٢٦٦) لندن: الناشرين فراند كاس، ١٩٩٣ .
- (٢٦٧) برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٧١ .
- (٢٦٨) لندن ونيويورك: Quartet Books، ١٩٨٩ .
- (٢٦٩) سان فرانسيسكو: كتب كرونيكال، ١٩٩٤ .
- (٢٧٠) القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٣ .
- (٢٧١) الطبعة الثانية، القاهرة: مطبعة بالم، ١٩٩٥ (المعادى)، القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٤ (سنوات المجد).
- (٢٧٢) القاهرة: مطبعة بالم، ١٩٩٧ .
- (٢٧٣) نيويورك: ألفريد آى، نوبف، ١٩٩٩ .
- (٢٧٤) كامبريدج، ماساشوسيتس، ولندن: مطبعة جامعة هارفارد، ٢٠٠٠، ترجمة ويلارد رود.
- (٢٧٥) القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٤ .
- (٢٧٦) القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٤ . مايكل هاج علق على النسخة البريطانية لإى.
- إم فرستر لعام ١٩٨٢ Alexandria: A History and a Guide بمقدمة بقلم لورانس داريل.
- (٢٧٧) لندن: جون موراي، ١٩٩١ .
- (٢٧٨) باريس: فلاماريون، ٢٠٠٣ .
- (٢٧٩) لم تكن متوفرة لهذا الكاتب طبعة يورا مانلى وسحر عبد الحكيم:

Traveling through Egypt from 450 B. C. to the Twentieth Century:

- (القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٤).
- (٢٨٠) لندن ونيويورك: روتلج كورزون، ٢٠٠٣ .
- (٢٨١) كامبريدج ونيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٨ . الجزء الثانى الذى يغطى الفترة من ١٥١٧ حتى نهاية القرن العشرين، راجعه إم. دبليو. دالى.

- (٢٨٢) كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٥ .
- (٢٨٣) بولدر: مطبعة وست فيو، ١٩٨٨، الطبعة الثانية في ٢٠٠٤ .
- (٢٨٤) أكسفورد: وان وورد، ٢٠٠٠ .
- (٢٨٥) سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ١٩٩١ .
- (٢٨٦) الطبعة الثالثة، نيويورك: هابر كولينز، ١٩٩١ .

١٨- الخاتمة

روجر أوين

فترة العصر الملكي التي يغطيها هذا الكتاب تمتد إلى ثلاثة وثلاثين عاماً فقط أى أقل من جيل ونصف، ومع ذلك، وكما يظهر المساهمون فى هذا الكتاب، فإن هذه العقود الثلاثة تعد حاسمة من أجل تفهم مسار مصر فى القرن العشرين، والخطوات التي اتخذتها أو تلك التي تراجعت عنها. وقد بدأت تلك المرحلة بروح من التفاؤل التي أثارتها ثورة ١٩١٩ وما بدا وكأنه نجاح يشبه المعجزة بتخلى بريطانية عن وصايتها على مصر والتي استمرت ثمان سنوات - وأعقبها فترة الاحتلال المتسلل منذ عام ١٨٨٢ - والذي تحول بعد ذلك إلى شكل غير مباشر لفرض سلطته. ومثل ما يحدث كثيراً فى تاريخ مصر الحديث فإن هذا الإحساس القوى بالحماس لا يلقى الكثير من الاهتمام أو الإشارة إليه فى يومنا هذا. ومع ذلك، فإنه يمكن تلمس هذا الإحساس القوى بنشوة تحقيق الاستقلال الجزئى إذا ما قرأنا الصحف والكتب التي صدرت فى تلك الفترة حين بدأ بعض أعضاء النخبة المثقفة فى مصر يطرحون بكل حماس واهتمام تلك الأسئلة التي تواجه الدول المستقلة حديثاً. من هي مصر؟ ومن هم شعب مصر؟ وماذا يجب أن تكون أهدافهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية؟ ومن وجهة نظرى الشخصية فإن محمود تيمور فى قصته القصيرة "فى القطار" ١٩١٧ يلخص هذه الأفكار جيداً من خلال الشخصيات الخمس فى القصة. فنجد اثنين منهم أفندى كاتب وطالب (جالسين متوجهين إلى الأمام (المستقبل) واثنين آخرين (شيخ أزهرى وباشا من الجراكسة) وقد أعطيا ظهريهما إلى الخلف ثم فلاح عمدة يجلس بين الاثنين وقد باعد ما بين رجليه، والجميع يتناقشون بحماس عن مستقبل التعليم فى مصر^(١).

أما ما لم يتم استيعابه جيداً فهو الإحساس بالثقة الذى كان سادا فى مواجهة الإجابة عن هذه الأسئلة. وهو إحساس تركد وتتأست قوته مع اكتشافات سبيرة توت سنخ أمون فى نوفمبر ١٩٢٢، ثم الإحساس بالانتماء إلى واحدة من أعرق - إن لم تكن - أقدم حضارة فى العالم وهى ثقافة ألهمبا أيضاً الإحساس بوجود ملك وبرلمان ودستور، ودعمها وجود طبقة قوية من السياسيين المحترفين، والدبلوماسيين، والصحفيين، والأطباء، والمحامين، والمهندسين والمسؤولين الذين برزوا خلال فترة الاحتلال البريطانى، والذين كان أغلبهم من عائلات الطبقة الوسطى التى تزايد نموها واستفادت من النجاح الذى حققته صناعة القطن قبل الحرب العالمية الأولى. وربما كانت أهم إسهاماتها لا تتركز فقط فى الحراك السياسى الذى كثيراً ما أدى إلى الأزمات المتعاقبة التى كان ينتج عنها تغيير الوزارات، وإنما فى دورها المؤثر فى تشكيل السياسة أيضاً كما فعل أحمد عبد الوهاب فى وزارة المالية.

ومثل جيد آخر لهذه النخبة من الإداريين الجدد هو الطبيب الدبلوماسى محمد الجندى الذى كان مسئولاً - بمساعدة زميله الدكتور محفوظ عن إضافة الحشيش إلى قائمة المواد المخدرة المحظورة فى عصبة الأمم خلال مؤتمر الأفيون الدولى الذى عقد فى جنيف ما بين شهرى نوفمبر ١٩٢٤ وفبراير ١٩٢٥. ويمكن لنا أن نتصور نبذة الفخر فى صوته وهو يعلن أمام الأعضاء يوم ٢ ديسمبر ١٩٢٤ بعد عشرة أيام من استقالة سعد زغلول المهينة عقب اغتيال لى ستاك - أن هذه هى المرة الأولى التى تمثل دولته فى مؤتمر تنظمه عصبة الأمم من خلال "عضوين مصريين خالصين" (٢).

لم يكن كل ذلك سوى جزء يسير من الإنجاز فقد كانت الحرب الداخلية فى الخدمات المدنية يقودها مجموعة من المسؤولين ممن لديهم القدرة ضمن أشياء أخرى على إدارة الحسابات، وإصلاح العطب الذى أصاب نظام الري بعد زيادة المستهلك من المياه قبل الحرب، وتوفير نظام كفاء للتعريفة بعد انتهاء معاهدة الإنعان التجارية عام ١٩٣٠، وإن لم يتم الاعتراف بقدراتهم تماماً. بالإضافة إلى أنهم - كما عرض ملاك بدرابى فى إسهامه فى هذا الكتاب - كانوا يؤدون أعمالهم بكثير من الدقة والإحساس بالمسئولية.

وكما يبين أيضاً مقال بدراوى، فإن الحياة البرلمانية ظلت محتفظة بثقلها رغم التقلبات العديدة التى كانت تقص بها الحياة السياسية، وليس ذلك فقط بل كانت تسير وفق إحساس بالمسئولية تجاهه كثير من الكتاب السابقين الذين تناولوا تاريخ مصر السياسى. ووسط كل هذه الأجواء السياسية، تمتعت مصر بحياة ثقافية وفنية غنية، سواء فى مجال الأدب، أو السينما، أو الأغنية مما كان مثار حسد بقية الدول العربية فى الشرق الأوسط، وإن كانت قد أصبحت مقصداً لهم يلجئون إليه فى احتياجاتهم من التربويين، والقضاة وأساتذة القانون الدستورى.

وكما هو معروف جيداً فإن هذا الإنجاز الذى حققته مصر كان مثار تساؤل نتيجة السياسات العنيفة التى اجتاحت مصر بعد الحرب العالمية الثانية والتى كانت بدايتها اغتيال أحمد ماهر رئيس الوزراء فى فبراير عام ١٩٤٥. ومن جانب آخر يمكن أن يقال إن مصر كانت تدفع ثمن موقعها الجغرافى عبر السيطرة الأجنبية على قناة السويس، وتجاورها مع فلسطين فى الشرق التى كانت تمرقها الصراعات، واستعمارها المتوقع للسودان جنوباً. بالإضافة إلى أنها كانت تعاني كثيراً من التوترات الاجتماعية التى لا تجد حلاً لها، وعدم قدرتها على إيجاد مكان فى نظامها السياسى لواحد من الإسهامات الأساسية فى الشرق الأوسط الحديث والمتمثل فى الحركة الإسلامية الاجتماعية الناجحة والضخمة للإخوان المسلمين.

ورغم كل ذلك، وكما هو معروف، فإن الحكم الثورى بعد ذلك استفاد من مجالات ثقافية وتعليمية عديدة كانت تتميز بها فترة حكم الملكية، وعلى الرغم من إبعادها لبعض الرموز المتألقة فى تلك الفترة مثل القانونى الضليع عبد الرازق السنهوري، فإن بعض كبار المفكرين والمتقنين مثل نجيب محفوظ أو الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل لا زالوا جزءاً من المشهد الثقافى فى القاهرة. كما أن بعض الآخرين مثل الصحفى والمفكر أحمد لطفى السيد، والمطرية أم كلثوم تم تكريمهم فى عهد رؤساء الجمهوريات الثلاثة الذين تعاقبوا بعد ذلك، بل إن جنازتهم كانت من الضخامة التى تنافس جنازات أشهر السياسيين العسكريين باستثناء جمال عبد الناصر نفسه. وكما يقول توفيق الحكيم

فى جملة ماثورة^(٣) عنه ليس فقط ضمير هؤلاء المفكرين هو الذى نام عام ١٩٥٢ ولكن نامت معه أشياء أخرى كثيرة، فقد ضاعت أيضاً القدرة على الإيمان ببعض بالمنجزات الحقيقية التى تمت فى الماضى.

احتفظت مصر بالموروثات الأدبية الثرية قبل الثورة فى أعمال عمالقة كبار مثل يوسف إدريس، يحيى حقي، فتحى غانم وعلى رأسهم جميعاً نجيب محفوظ. ويجب هنا أن أسجل أن كثيراً من الأعمال التى تمت فى مجال تخصصى وهو تاريخ الاقتصاد، كان معقياً من أى قيود على خلفية أنه يتوافق تماماً مع السياسات الثورية للتنمية الوطنية، كما وأن كثيراً من الأعمال المتميزة قبل ١٩٥٢ بقلم إيه. إى. كروش لى وعلى الجريتلى وشارل عيسوى وآخرين بقيت محفوظة وتوسعت فى عهد عبد الناصر ومن جاء بعده على يد حسام عيسى، سمير رضوان وعاصم دسوقي وآخرين ثم عميدهم جميعاً بنت هانسن، ولكن هؤلاء للأسف الشديد يشكلون الاستثناء الذى يؤكد القاعدة العامة.

أما الأسباب الكثيرة لهذا الوضع المؤسف فهى معروفة إلى حد ما، ولكنها تستحق الإشارة إليها لأنها ما زالت قوية وسائدة. وأحد هذه الأسباب هو أيديولوجية حكم عبد الناصر نفسه بدءاً من رؤية قائدها. هذه الرؤية التى لم تتعامل فقط مع فساد العصر الملكى والمشاكل الفاجمة عن محاولة إدارة ديمقراطية من قبل شخص واحد وصوت واحد فى دولة أغلبها من الفلاحين وإنما بصورة معبرة أكثر أيديولوجية حكم تؤكد على عدم اكتمال ثورة ١٩١٩، والحاجة إلى مكمل آخر من خلال ثورة اجتماعية مماثلة^(٤). وقد توسعت هذه الأفكار لتطرح كثيراً من التفاصيل فى الكتب المدرسية فى أواخر الخمسينيات والتى ما زالت تغذى أفكار أغلب المؤرخين المصريين^(٥).

سبب ثان هو تأكيد الثورة على الدافع الوطنى الذى كان جزءاً من تاريخ مصر والذى تحدد فى صراع مستمر ضد القوى الخارجية، وخاصة بريطانيا. ولذلك كان تقليص المؤرخين لسياسات ما قبل الثورة فيما يتعلق بالصراع الثلاثى الذى كان دائراً بين القصر والسفارة البريطانية والوفد. ويبرز أيضاً سببان مهمان آخران،

الأول هو الرغبة فى رؤية فترة الملكية كلها من منظور نهايتها المخزية وأنها كانت سبب الفساد الذى كان موجوداً. ومن هنا جاء عنوان كتاب عفاف لطفى السيد "فشل التجربة المصرية الليبرالية ١٩٢٢ - ١٩٣٦"، وحتى قرار ألبرت حورانى بإنهاء "العصر الليبرالى للعرب ١٩٢٩" ومن الأرجح أن اللوم يقع جزء كبير منه على توفيق الحكيم الذى يتذكر الحركة التى أحيت دستور ١٩٢٣ فى منتصف الثلاثينيات ليس كإعجاز رائع كما كانت فعلاً، وإنما كحركة تؤدى إلى مزيد من الأذى والإفساد من جانب الملك فاروق ومستشاريه غير المسئولين^(٦). بالإضافة إلى أنه إذا ما اعتبرنا الليبرالية أو غيابها كمحك لفترة الحكم الملكى، فإن التركيز المتكرر الزائد عن الحد على ما أطلق عليه الطبيعة الفاشية لقلّة من الحركات السياسية المصرية فى الثلاثينيات تنسّل إلى المشهد، وهو شىء آخر ينبع من القلق الحالى وليس رغبة فى استعادة حقائق الماضى^(٧). أما السبب الثانى فهو أن النظرة إلى إنجازات المرحلة من ١٩١٩-١٩٥٢ كأنها خروج على القياس ما زالت المؤثر القوى فيما يمكن أن يطلق عليه ظاهرة لورانس داريل. وهى الرؤية الغائمة التى ترى أن حياة الأجانب، والأقلية الأجنبية تفوق فى أهميتها وإثارتها حياة الأغلبية المصرية^(٨)، وهذه الفكرة لا تقتصر فقط على الكتاب من الخارج بل تؤكدتها - ضمن أشياء أخرى - استشهادات دوريل التى صاحبت الصور التى عرضت فى معرض تاريخ الإسكندرية فى مكتبة الإسكندرية الجديدة التى يثنى عليها الكثيرون.

سبب أخير جدير بالاعتبار رغم أنه لم يلق الاهتمام الذى يستحقه وهو هذا الاتجاه الذى يتبناه المثقفون المصريون تجاه تاريخهم الوطنى، وهو اتجاه يبدو فى جملته أنه ينظر إلى المرحلة الكاملة لما بعد ١٩٢٣ كجزء من حاضر من المستحسن تركه لصحفيين مثل محمد هيكى أو لهواة موهوبين مثل سمير رأفت^(٩). والواقع أنه يوجد عذر لذلك فى ضوء افتقار وجود ملفات دقيقة، والغيرة التى تتعامل بها بعض الوزارات التى تأسست فى فترة الملكية - مثل وزارة الشؤون الاجتماعية - مع هذه الملفات كأنما تحتوى على مواد سياسية متفجرة. ولكنها لا تساعد من يريدون سواء

التعرف على تاريخهم أو الاستفادة منه للبحث عن أرض صلبة تمتلئ بنماذج وإنجازات وإحساس أعمق بنقاط القوة والضعف فى شخصيات هؤلاء العظماء من الرجال والنساء.

ويأسف آرثر جولد شמידت فى هذا الكتاب لعدم وجود بحوث كثيرة عن السير الذاتية لأهم رموز السياسة المصرية فى تلك الفترة. فرغم أننا نعرف الكثير عن سعد زغلول وإسماعيل صدقى وعبد الرحمن عزمى وأحمد حسين وآخرين، فإننا نكاد لا نعرف شيئاً عن الحياة العامة لشخصيات مهمة مثل فؤاد سراج الدين ومكرم عبيد. ونفس الشيء بالنسبة لحياة هؤلاء الذين شاركوا بصورة مباشرة فى إقصاء الحكم الملكى وخاصة جمال عبد الناصر نفسه، الذى أسف الكثيرون بشدة فى صحافة القاهرة أثناء الاحتفال بذكرى الثورة عام ٢٠٠٢ ليس فقط على نقص السيرة الذاتية الدقيقة لحياته، وإنما على استحالة معرفتها فى ضوء السرية التى تحيط بمكان وثائقه وأوراقه الرسمية.

والآن - وبعد خمسين عاماً على التخلص من الحكم الملكى - فقد حان الوقت أكثر من أى وقت آخر لمحاولة إعادة تقييم شاملة لهذه العقود الثلاثة الحيوية فى تاريخ مصر. حان الوقت لطرح أسئلة جديدة، وتحدى كثير من المعتقدات التقليدية التى تدعى المعرفة التامة بتلك الفترة. حان الوقت للمقارنة بين ما حدث من قبل وما أتى بعد ذلك. وهذا الكتاب بداية موفقة بلا شك، فالمعلومات الواردة به كانت نتاج اهتمامات واسعة، ونظرة شاملة واسعة للتاريخ تتجاوز حدود النظرة السياسية أو الاقتصادية الضيقة لتشمل إسهامات مهمة فى تاريخ مصر التعليمى، والثقافى والنوعى، كما يتضمن أيضاً غزوات مهمة فى رؤى مرجعية لممارسات البرلمان والسلطة العسكرية، بالإضافة إلى أعمال المفكرين فى مجالات عديدة من فنون المعرفة ومن دول أخرى من ضمنها وأهمها مصر نفسها.

ومع ذلك، فهذه مقدمة فقط. فأولاً يتبقى البحث الأساسى فى المجالات المهمة لتلك الفترة: مثلاً الدور السياسى والاجتماعى لفترة الحكم الملكى، والصلات التى كانت

تربط بين حياة أغلب المصريين، وحياة الأقلية الأجانب الذين يعيشون بينهم، والمحاكم، وعلى سيطرة وإدارة الضياع المصرية الزراعية الكبرى والمعروفة باسم "العزب". وهذا لا ينكر قيمة أعمال عديدة مهمة تناولت هذه الأساسيات مثل ماجدة بركة التي تعرضت للجوانب الثقافية للعلاقة بين الطبقات الاجتماعية، وريم سعد التي كتبت عن "تحرير" الفلاح في ظل قانون الإصلاح الزراعي عام ١٩٥٢، وروبرت ألبرت عن الانقسامات داخل المجتمع السكندري في العشرينيات، دون ذكر كتاب روبرت فيتاليس وهو مرجعية حقيقية عن مشاريع العائلة المصرية، وكتاب إيليس جولد برج عن تأثير استخدام الأطفال في العمالة الزراعية، وكثير من مساهمين آخرين في هذا المؤلف على وجه الخصوص. ورغم الضوء الذي يلقونه على موضوعات متعددة، فإنها لا تشكل إلا جزءاً قليلاً من المشكلة التي تشمل كل المؤسسات والعلاقات والممارسات وأسلوب العمل الذي يجعل فترة الحكم الملكي بالغة الأهمية والإثارة ويسبغ عليها نوعاً من التفرد في حد ذاتها. وهذه الاعتبارات تجعل من الإسهامات التي جمعت في كتاب "رؤية جديدة لمصر" كدعوة إلى السلاح. ولذلك دعوني أخصص ما تبقى من هذه الخاتمة في عرض ما أراه من الأساليب المهمة، والاستخدامات والأفكار التي يمكن أن تساعدنا في الوصول إلى المهمة التي نحن بصددتها.

إن اقتراحي الأول يتعلق بالحاجة الملحة لوضع هذه المرحلة في مضمونها العالمي التاريخي عن طريق استخدام مقارنة حكيمة (نموذج المقارنة والضدية) بينها وبين دول أخرى تتماثل معها في التطور السياسي والاقتصادي. وقد بدأت هذه المرحلة بآمال واسعة في تعاون دولي تركز في هيئة الأمم، والعودة إما إلى الممارسات الديمقراطية أو إلى وضعها الجديد الذي يشير إليه ميشيل مازوير في كتابه:

Dark Continent: Europe's Twentieth Century^(١٠)...

كحزام من الديمقراطية يمتد من بحر البلطيق جنوباً مخترباً ألمانيا وبولندا حتى البلقان - والجميع مسلح بدساتير جديدة شرعت طبقاً لأحدث المبادئ الليبرالية. ومع ذلك يذكرنا مازوير أيضاً بأنه بعد عشرين سنة تحولت كلها إلى ديكتاتورية

شاركتها فيها أيضاً إسبانيا والبرتغال وإيطاليا غرب أوروبا. وفى خلال ذلك كانت ممارسة الانتخابات السياسية فى الشرق الأوسط نفسه ومسئولية السياسيين تجاه الشعب أكثر انفتاحاً واطراداً عنه فى تركيا وإيران وبعض البلاد القليلة المتماثلة فى نظام الحكم باستثناء لبنان.

ونستطيع أن ننتهى بالقول أيضاً إلى أن واحداً من أضرار النظام المصرى، وتكرار تغيير القواعد والقوانين التى تحدد شروط الترشيح للانتخابات، وصلاحيه المرشحين... إلخ، ترجع إلى الممارسة "الليبرالية" لمفهوم المواطنة التى كانت تدين بها إنجلترا ودول الغرب فى القرن التاسع عشر والتى أدت بدورها إلى أن حق الانتخاب مكفول للجميع بغض النظر عن السن والنوع والتعليم والملكية. ولو نظرنا إلى التجربة المصرية من خلال أى من هذه الزوايا لوجدنا أنها أقل سوءاً بكثير مما يبدو.

ونفس الشيء يمكن أن يقال عن المحاولات الأولى لوضع وسائل تستهدف الإنعاش الاجتماعى والتى وردت فى هذا الكتاب فى مقال إيمى جونسون وسكوت دافيد ماكنتوش. ومرة ثانية فإن المقارنة الشاملة بين الدول يمكن أن تكشف أن تلك الوسائل المصرية رغم تحيزها وضعف تمويلها، كانت على الأقل متساوية مع الوسائل الأخرى فى نفس المجال فى الشرق الأوسط، بل وربما تماثل فى تطورها تلك التى سادت فى بلاد كثيرة فى أوروبا قبل التركيز على مبدأ الخير والرفاهية للشعوب والذى واكب الحرب العالمية الثانية.

وأخيراً، فإن التجربة الأوروبية تشير إلى أن قيام ملكية دستورية يتطلب وقتاً طويلاً قبل أن نصل إلى التوازن الصحيح. ورغم أن إيلي قدورى كان معه الحق حين أشار إلى النسخة الأخيرة لدستور ١٩٢٣ بصفتها "حلاً وسطاً بين رغبة الملك فؤاد فى سلطة مطلقة، ووجهة نظر اللجنة المشكلة لوضع الدستور فى مطالبتها بسلطة مقيدة" فإن ذلك لا يعنى أن الحل الوسط كان مستحيلاً^(١١).

مجموعة أخرى من المقارنات الدولية تتعلق بتجربة مصر فى أهم حدثين عالميين فى تلك الفترة، وهما الكساد العالمى والحرب العالمية الثانية. ورغم أن تأثير هذه الأخيرة

معروف جيداً من خلال أعمال ناسى جلاجى، روبرت فيتالىس، وتيموثى ميشيل وآخرين كثيرين، فإن تأثير الكساد العالمى على مصر ما زال يطرح الكثير من الأسئلة التى لم تجد الإجابة عليها حتى الآن. منها مثلاً لماذا لم يؤثر على النظام السياسى كما فعل فى أوروبا؟ ورغم أن البعض قد يرغب فى رؤية نوع من المساواة التقريبية بين ديكتاتوريات إسماعيل صدقى قصيرة الأمد ١٩٢٠-١٩٢٣، وانتقال أوروبا إلى اليمين بعد ١٩٢٩، فإنه فى الواقع كان البحث عن رجل قوى قد بدأ قبل ذلك بسنوات واستهلك نفسه تماماً فى خضم الحركة القوية لتعديل الحياة الدستورية ١٩٢٥-١٩٢٦. وربما كان ذلك راجعاً - من الناحية الاقتصادية - إلى أن الكساد استمر فترة أقصر من الفترة التى عانت فيها أوروبا. وهذه المرحلة القصيرة جعلت تجربة مصر أكثر تشابهاً مع أمريكا اللاتينية التى كان استمرار تصديرها لبعض المحاصيل التى تباع نقداً (مثل القطن) أدى إلى تدفقات فى الدخل القومى بعد عام ١٩٣٥^(١٢)، وكانت مصر مثل مثيلاتها من العالم غير الغربى من حيث إن ثمن الكساد الذى دفعته - كما يقول ديتمار روثرموند - تحملته الأغلبية من الفلاحين الفقراء^(١٣)، ومن هنا ظهرت الفروق الحادة بين الأغنياء والفقراء، والتى زادت سوءاً سيطرة أصحاب الإقطاعيات على مجلس الشيوخ وكانت تداعيات هذه الفروق - مثلما حدث فى السياسات التى أحاطت بتعديل الضرائب على الأراضى فى ١٩٣٥ / ١٩٣٧ و ١٩٤٩ أقل بحثاً لاكتشافها من البحث فى تأثيرها على المحاولات العديدة التى بدأت فى أواخر الثلاثينيات وما بعدها لرفع معاناة الفلاحين الفقراء^(١٤).

واقترح ثانى يتعلق بالرؤى الجديدة - والتى يمكن اكتشافها من خلال نظرة فاحصة إلى الروابط بين عقود الملكية وتلك التى جاءت قبلها وبعدها. فمن خلال ملامحها الأساسية - كما قد يراها الكثيرون - التى تشكلت بين حرب عالمية وثورة، فليس من السهل دائماً التمييز بين ما كان جديداً ومميزاً فى ضوء الاستمرارية التى ربطت بين ما كان موجوداً سابقاً وما تلاه بعد ذلك. وهنا - على الأقل - تسنح فرصة لطرح أسئلة جديدة.

واحد من هذه الأسئلة يتعلق بملاحظة أن البرامج الاقتصادية والاجتماعية التي طرحتها الأحزاب المصرية الوطنية قبل وبعد الحرب العالمية الأولى كانت نقداً للاحتلال البريطاني، وخاصة في سياستها الصناعية والتعليمية، التي رفضت تشجيع سيطرة المصريين - بدلاً من الأجانب - على الأوضاع المالية. وكانت هذه هي الفكرة وراء إنشاء بنك مصر، والإصلاحات التعريفية عام ١٩٣٠ وما بعدها. رغم ما شرحه روبرت فيتاليس بإسهاب من أن البنك لم يكن مصرياً خالصاً كما يفترض الكثيرون^(١٥). ولكن ماذا عن نقد فشل السياسة التعليمية البريطانية؟ نفس الواقع أن الكتب المدرسية لم يطرأ عليها أى تغيير حتى منتصف الثلاثينيات، والتفرقة بين نظامين أحدهما مخصص لسكان الحضر والآخر للريفيين لم يبلغ حتى ظهرت قوانين ١٩٤٩، ١٩٥١^(١٦).

وإذا ما استدرنا إلى سؤال آخر يمكن طرحه فيما يتعلق بتراث فترة الملكية، نجد قضية مهمة لم يتم البحث فيها بشكل دقيق، وهي طبيعة المجتمع المدني كما كان موجوداً عام ١٩٥٢. فمن الواضح أن حرية القول واحترام الملكية الخاصة، وسيادة القانون كانت سائدة. كما أنها تميزت بوجود العديد من المؤسسات مثل الجامعات، والصحافة، وكثير من الهيئات المهنية المتحررة من قيود وسلطة الحكومة. ولكن من الواضح أن هذه لم تكن القصة كاملة، فقد كانت هناك محاولات من جانب السلطة الحاكمة لقمع بعض قطاعات من الصحافة منذ أول وزارة شكلها سعد زغلول عام ١٩٢٤. كما كانت هناك ضغوط على رجال الدين وأساتذة الجامعة كحادثة عزل صدقي لطف حسين من منصبه في الجامعة المصرية، وتقييد حركة العمال في تأسيس نقابة لهم. وكان ذلك قبل قانون الطوارئ الذي صمم البريطانيون على فرضه في بداية الحرب العالمية الثانية، وبالطبع لم تكن لتلك القيود التأثير الذي حدث من جراء القيود التي فرضتها ثورة الجيش عام ١٩٥٢، حيث كانت أى مطالبة لحياة تتضمن استقلالية سياسية واقتصادية واجتماعية تواجه بهجوم منظم من قبل حكم سلطوى. ومع ذلك فإن القضية لها من الأهمية ما يستحق البحث الأكاديمي خاصة وأن مصر ما زالت مصابة بلعنة قانون الطوارئ والذي صدر عام ١٩٥٨ وفرض عام ١٩٦٧ وظل سارياً منذ ذلك

الحين وحتى الآن، وما زالت المحاولات تبذل لخلق هيئات ومؤسسات قوية بما يكفى لمقاومة التأثير المشئوم للأوضاع التى كانت سائدة قبل الفترة الناصرية^(١٧).

ونشير هنا إلى اتجاهين آخرين جديرين بالاعتبار. الأول يتضمن استخدام فرضية مضادة للحقيقة تتحدى جوانب المعتقدات التقليدية. فمن ناحية فالأسلوب فى حد ذاته يوفر تحدياً مفيداً لكل تلك التفسيرات التى تستند إلى أفكار مثل حتمية الطريق الذى اختارته الأمة وانتهاء بتجاهل دراسة الطرق التى لم تسلكها، وتبدو أهمية تلك الأفكار فى الحالة المصرية بفضل الجهود الضخم الذى بذله حكم عبد الناصر فى تبريره للثورة بأنها الحل الوحيد لأزمات مصر الاقتصادية والاجتماعية. ومن ناحية ثانية فإن هذا المنهج يسمح لنا بالعودة إلى أسئلة تاريخية محددة والتعامل معها من منظور جديد.

وتعتبر فكرة جويل جور دون عن "الحراك الأخير" للوفد واحدة من المحاولات القليلة التى أعرفها والتى استخدمت هذا المنهج بنجاح^(١٨) رغم أن السؤال الرئيسى الذى طرحه جور دون - هل كان من الممكن أن تكون سياسات الوفد التى نادى بها الإصلاحيون الأربعة من رؤساء الوزارات كافية لتجنب ثورة ١٩٥٢؟ فيه كثير من السذاجة. ورغم أن جور دون أيضاً لم يتابع سؤاله الأساسى حتى حدوده القصوى ليتساءل عن شكل الحكومة الوفدية الناجحة لو كان الوفد قد بقى فى السلطة مدة كافية - ليس فقط لتجنب الثورة - ولكن لوضع بصمتها على مصر فى أوائل الخمسينيات؟ وهذا السؤال فى واقع الأمر هو السؤال الذى أطرحه دائماً على نفسى حين أمر بمجمع التحرير فى القاهرة، والذى يعود الفضل فى إنشائه ليس لحكم عبد الناصر كما يعتقد الكثيرون، ولكن إلى وزير الداخلية الوفدى فؤاد سراج الدين، الذى كان من الممكن - فى ظروف تاريخية مختلفة - أن يشكل حكومة لحزبه مسنودة من الجيش، ورغم أن ذلك فإن استخدام جور دون للمنهج المضاد للواقع لتقييم أهمية بعض المفاتيح للقضايا الاجتماعية فى تلك الفترة يثير الاهتمام بالإضافة إلى تقييم القوى التى منعت هذا التغيير الجوهري.

أما الاتجاه الأخير فهو اتجاه بدأ يلقي المزيد من الاهتمام. وهو يمثل تحدياً للفكرة القديمة عن تجانس المجتمع المصرى، وعن بلد لديه حكومة مركزية قوية، وشكل غالب للنشاط الزراعى، ثم شعب ينحشر فى امتداد ضيق من أرض منبسطة على ضفة النيل لا يميزه اختلاف إقليمي أو محلى كبير. وكما هو معروف فإن التحدى الأساسى لهذه الفكرة برز فى غضون السنوات الأخيرة إما كنتيجة لتزايد الاهتمام فى إعادة كتابة تاريخ البلاد فى عصر العولة أو بنظرة محلية فى الرؤية لأهالى الصعيد (مصر العليا) من حيث اختلافهم إلى حد ما عن أقرانهم فى دلتا مصر. ومع ذلك فإن القلة من الكتاب لم تنظر إلى هذه التداعيات فى الفترة الملكية إلا من خلال النظرة التى تشير مثلاً إلى الاختلافات فى ملكية الأراضى والإنتاج الزراعى بين الشمال والجنوب، أو إلى الدور الذى لعبه ملاك الأراضى الواسعة فى الجنوب فى تأسيس بنك مصر. كما كان هذا الاتجاه - برز دائماً اهتماماً بالأحوال الخاصة التى ساهمت فى الفقر المدقع الذى كان يسود فى قرى الجنوب والذى لاحظته هؤلاء الذين حاولوا مصارعة وباء الملاريا العظيم الذى اجتاح البلاد فى عام ١٩٤٢^(١٩). بالإضافة إلى أنه يوجد كثير من الاختلافات غير الإقليمية جديرة أيضاً بالتحليل مثل الفروق الأساسية بين القاهرة القديمة والحديثة والتى يمكن اكتشافها من خلال أعمال روائية متعددة ليوسف إدريس - رغم أن نيللى حنا^(٢٠) تتحدثها برفق. ولكن سواء كان الموضوع يتعلق بالمدينة أو الريف، الرجال والنساء، الفنى والفقير، المصرى والأجنبى كما يبين أيضاً فى مؤلفات يوسف إدريس إلا أن افتراض وجود نظام مزدوج للاختلاف الأساسى يبدو أنه أخذ بتلابيب الخيال المصرى التاريخى. بالنسبة لجوانب أخرى من تاريخ مصر الطويل فإنه يتبقى الكثير الذى يمكن إنجازه^(٢١).

ومع ذلك يتبقى الكثير من تاريخ مصر الطويل لإنجازه من جوانب عدة. فكما هو واقع الحال بالنسبة لما يحدث بنجاح فى مجال الآثار المصرية فإنه من الأهمية بمكان أيضاً أن يتم هذا الإنجاز - كلما أمكن - من خلال شراكة مع مؤرخى البلد أنفسهم. وهذا ليس بالعمل الهين لأسباب كثيرة قوية، منها أن التبادل بين المجتمع الثقافى

الداخلي والخارجي أصبح أكثر تعقيداً في العقود الأخيرة. وتشكل السياسة طرفاً في هذا الموضوع. ويمثل كل ذلك في الأهمية الحالة المحفوفة بالمخاطر للجامعات المصرية والمكتبات والتي تفتقد الأموال اللازمة لشراء الكتب والمجلات الثقافية، بالإضافة إلى عدم قدرتها على إرسال مبعوثين أكاديميين إلى المؤتمرات في أوروبا والولايات المتحدة. وقد استتبع ذلك أن مجموعة المؤرخين المحليين أو العالميين قد ابتعدوا عن بعضهم البعض، وانفرد كل منهم بأساليبه ونماذجه الخاصة فافتقدوا المعرفة بما تفعله أو تقوله المجموعة الأخرى. وربما نكون قد وصلنا إلى مرحلة داخل مصر نفسها وصلت إلى حد تحدى أى قرار لإثارة الاهتمام بالفترة الملكية باعتبارها محاولة أجنبية لتدمير جزء أساسى من التاريخ الوطنى.

ما هو العمل إذا؟ دعونا نأمل فى أن يتم ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية سريعاً. وأن تكون الأفكار وإعادة التقييم المطروحة تأخذ قدرها من الاهتمام الجدى فى مصر لاستثارة افتراضات مضادة فى نفس الوقت الذى توفر فيه للآخرين من خارج مصر معلومات عن الأفكار والبحوث الأكاديمية المعاصرة. ثم دعونا نأمل أن يكون كل ذلك موضع مناقشات مع زملائنا المصريين فى المؤتمرات والحلقات البحثية فى القاهرة، وفى جامعاتها الإقليمية وفى أى مكان آخر كقاعدة لأفكار جديدة وأبحاث جديدة.

الهوامش

(١) "فى القطار" لمحمود تيمور "الزوج الأول: وميض الروح" (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١).

(٢) مقتبسة من الإيجيبيشيان جازيت، ٢ ديسمبر ١٩٢٤.

(٣) توفيق الحكيم Return of Consciousness ترجمة بيلى ويندر (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٥)، ٢١-٢٢.

(٤) على سبيل المثال، عبد الناصر نفسه فى كتابه:

The Philosophy of the Revolution.

(القاهرة: دار المعارف، n.d.)، ٢٣-٢٥.

(٥) باراك سالونى:

Pedagogies of Patriotism: Teaching Socio-Political Community in Twentieth-Century Turkish and Egyptian Education.

(مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة هارفارد، ٢٠٠٢).

(٦) Return of Consciousness، ٨.

(٧) على سبيل المثال إسرائيل جرشونى:

"Confronting Nazism in Egypt: Tewfik al-Hakim's Anti-Authoritarianism 1938-194;," Tel-Aviver Jahr-Buch Fur Deutsche Geshichte (Tel Aviv: Institute für Deutsche Geschichte, Tel Aviv University, 1997), XXVI. 42-136.

(٨) على سبيل المثال، روبرت مابرو Nostalgic Literature on Alexandria فى طبعة جيل إدوارد.

Historians in Cairo: Essays in Honor of George Scanlon.

(القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٢)، ٢٢٧-٦٦.

(٩) على سبيل المثال، سمير رأفت:

Cairo, the Glory Years: Who Built What, When, Why and for Whom.

(القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٢).

- (١٠) Dark Continent (نيويورك: راندوم هاوس، ١٩٩٨)، ٥-٤ .
- (١١) The Genesis of the Egyptian Constitution of 1923، في طبعة بي. إم. هولت:
Political and Social Change in Modern Egypt: Historical Studies from the
Ottoman Conquest to the United Arab Republic.
(لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٨)، ٦١-٣٤٦ .
- (١٢) روز ماري ثورب:
Introduction" in Latin America in the 1930S: The Role of the Periphery in World
Crisis.
(لندن: ماكملان، ١٩٨٤)، ٢-٢ .
- (١٣) The Global Impact of the Great Depression, 1929-1939 (لندن: روتليدج، ١٩٩٦)،
٨١-٨٠ .
- (١٤) روجر أوين:
Large Landowners, Agricultural Progress and the State in Egypt, 1800-1970: An
Overview with Many Questions.
في طبعة ألان ريتشارد
Food, States and Peasants: Analysts of the Agrarian Question in the Middle
East.
(بولدر: مطبعة وستفيلد، ١٩٨٦)، ٧٢-٧٢ .
- (١٥) When Capitalists Collide: Business Conflict and the End of Empire in Egypt (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٥).
- (١٦) على سبيل المثال، ميساكو إيكيدا:
Sociopolitical Debates in Late Parliamentary Egypt, 1944-1952.
(مناقشة رسالة دكتوراه، جامعة هارفارد، ١٩٩٨)، ١٩٨-٢٠٤، ٢٣٥ .
- (١٧) انظر: القانون رقم ١٦٢ لسنة ١٩٥٨ الخاص بحالة الطوارئ (وتعديلاته).
- (١٨) جويل جور دون.
The False Hopes of 1950: The Wafd's Last Hurrah and the Demise of Egypt's Old
Order.
المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ٢١ (١٩٨٩)، ١٩٣-٢١٤ .
- (١٩) إيريك ديفيز:
Challenging Colonialism: Bank Misr and Egyptian Industrialization 1920-1941.

(برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٨٢)، الفصل الثاني، نانسي جلاجر:

Egypt's Other Wars; Epidemics and the Politics of Public Health.

(سيراكيز: مطبعة جامعة سيراكيز، ٢٠٠٢)، الفصل الثاني.

(٢٠) نيللى حنا The Urban History of Cairo Around 1900: A Reinterpretation

في طبعة إيوارد:

Historians in Cairo 189-202.

(٢١) لعمل واحد ليوسف إدريس، انظر: "قاع المدينة" (القاهرة: شركة مركز كتب الشرق الأوسط، ١٩٦٤).

مراجع مختارة

- عبد الله، أحمد،
The Student Movement and National Politics in Egypt, 1923-1973.
لندن: كتب الساكى، ١٩٨٥ .
- عبد الملاك، أنور **Egypt: Military' Society**، ترجمة تشارلز لام مار كمان. نيويورك:
ران دوم هاوس، ١٩٦٨ .
- أبو شادي، على "وقائع السينما المصرية فى مائة عام: ١٨٩٦-١٩٩٥ . القاهرة:
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٩٧ .
- أحمد، جمال محمد **The Intellectual Origins Of Egyptian Nationalism**.
لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٠ .
- على، سيد إسماعيل "وجه نظر فى فكر إسماعيل القباني التربوى" القاهرة:
دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٤ .
- على، سيد إسماعيل "تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة" القاهرة: الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩ .
- أليومى، جيلين:
**La production d'une économie 'nationale' : remarques sur l'histoire des
sociétés anonymes par actions en Égypte de 1856 à 1956," Les Annales
Islamologiques, T.XXXI.**
القاهرة: IFAO، ١٩٩٧، ١-١٦ .

● عمار، حامد،

Growing up in an Egyptian Village: Silwa, Province of Aswan.

نيويورك: كتب أوكتاجون، ١٩٦٦ .

● أندرسون، بنديكت **Reflections on the Origin and Spread of Nationalism**

لندن: فرسو، ١٩٨٣ .

● أندرسون جيمس **N.D. Islamic Law in the Modern World** نيويورك: مطبعة

جامعة نيويورك، ١٩٥٩ .

● أنيس، محمد "حريق القاهرة" بيروت: المؤسسة العربية للدراسة والنشر، ١٩٧٢

● طبعة أراس وغل، عاليا:

Screens of Life: Critical Film Writing from the Arab World.

الجزء الأول، كويك: مطبعة وورلد هيريتاج، ١٩٩٦،

● أرمبروست، ولتر **Mass Culture and Modernism in Egypt** كامبريدج: مطبعة

جامعة كامبردج، ١٩٩٦ .

● طبعة أرمبروست، ولتر **Mass Mediations: New Approaches to Popular Culture**

in the Middle East and Beyond بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٠ .

● أرنو، جون لوك **Le Caire. Mise en place d'une ville moderne 1867-1907**

باريس: أكت سود، ١٩٩٨ .

● أيالون، إيمي **The Press in the Arab Middle East** نيويورك: مطبعة جامعة

أكسفورد، ١٩٩٥ .

● بدر خان، أحمد "السينما" القاهرة: مطبعة الحلبي، ١٩٣٦ .

● بدران، مارجو **Feminists, Islam, and Nation: Gender and the Ma King of**

Modern Egypt برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٥ .

- بركة، ماجدة The Egyptian Upper Class between Révolutions, 1919-1952
أكسفورد: مطبعة إيثاكا، ١٩٩٨ .
- بارون، بث
The Women's Awakening in Egypt: Culture, Society, and the Press.
نيوهافن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٩٤ .
- بنين، جويل وزخارى لوكمان
Workers on the Nile: Nationalism, Communism, Islam, and the Egyptian Working Class, 1882-1954.
برينسيتون: مطبعة جامعة برينسيتون، ١٩٨٧ .
- بيرك، جاك Egypt: Imperialism and Revolution ترجمة جين ستيوارت، نيويورك:
فابر، ١٩٧٢ .
- بوث، مارلين:
May Her Likes Be Multiplied' Biography and Gender Politics in Egypt.
بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠١ .
- بوتمان، سلما Egypt from Independence to Revolution, 1919-1952 مطبعة
جامعة سيراكيوز، ١٩٩١ .
- بوتمان، سلما Engendering Citizenship in Egypt نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا،
١٩٩٩ .
- براون، ناثن The Rule of Law in the Arab World* Courts in Egypt and the Gulf
كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٧ .
- بحيرى، زكى "تاريخ مصر الحديث والميسر فى مقررات المدارس المصرية" الجيزة:
دار نهضة الشرق، ١٩٩٦ .

● كولفيلد، سويان

In Defense of Honor: Sexual Morality, Modernity, and Nation in Early Twentieth Century Brazil.

دورهم: مطبعة جامعة دوك، ٢٠٠٠ .

● شاترجي، بارثا

The Nation and its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories.

برينسيتون: مطبعة جامعة برينسيتون، ١٩٩٣ .

● شوپري، يوسف م.

Modern Arab Historiography: Historical Discourse and the Nation-State.

لندن: روتليدج كورزون، ٢٠٠٣ .

● كوشران، جوديث Education in Egypt لندن: جروم هيلم، ١٩٨٦ .

● كوسيري، ألبرت Les homes oubliés de Dieu باريس: جويل لوس فيلد، ١٩٩٤ .

● كوري، رالف إم. Who 'Invented' Egyptian Arab Nationalism? الجريدة الدولية

لدراسات الشرق الأوسط ٢٤٩:١٤-٨١ و ٧٩-٤٥٩، ١٩٨٢ .

● شفيتكوفيتش، آن

Mixed Feelings: Feminism, Mass Culture, and Victorian Sensationalism.

نيو يرونزويك، نيو جيرسي: مطبعة جامعة روتجر، ١٩٩٢ .

● دالي، أم. دبليو.

The Cambridge History of Egypt (الجزء الثاني)

Modern Egypt from 1517 to the End of the Twentieth Century.

كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٨ .

● درويش، مصطفى

Dream Makers on the Nile: A Portrait of Egyptian Cinema.

القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٨ .

● دي سرتو، ميشيل **The Practice of Everyday Life** ترجمة ستيفن رندال،
بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا.

● ديب، ماريوس **Party Politics in Egypt: The Wafd & Its Rivals 1919-1939**
لندن: مركز الشرق الأوسط، كلية سان أنطونيو باكسفورد، ١٩٧٩ .

● دينو، جيلان

**Urban Unrest in the Middle East: A Comparative Study of Informal
Networks in Egypt, Iran and Lebanon.**

نيويورك: مطبعة جامعة ولاية نيويورك، ١٩٩٣ .

● دوربي، ميشيل **Sociologie des crises politiques** باريس: مطبعة المنشأة القومية
للعلوم السياسية، ١٩٩٢ .

● دوران، ميشيل

**Pan-Arabism before Nasser: Egyptian Power Politics and the Palestine
Question.**

لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠٠٢ .

● دوجان، ليزا **Sapphic Slashers: Sex, Violence and American Modernity**
دورهام: مطبعة جامعة ديوك، ٢٠٠٠ .

- إيرليخ، هاجاي

Students and University in the 20th Century Egyptian Politics.

لندن: فرانك كاس، ١٩٨٩ .

- اسبوزيتو، جون أل. **Women in Muslim Family Law** الطبعة الثانية، سيراكيوز:

مطبعة جامعة سيراكيوز، ٢٠٠١ .

- طبعة فافر، بيير **La Manifestation** باريس: مطبعة المنشأة القومية للعلوم السياسية،

١٩٩٠ .

- فيليول، وليفييه **Strategies de la rue: les manifestations en France**

باريس: مطبعة العلوم السياسية.

- فرانكو، جين مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٨٩ .

- جلاجر، نانسي إليزابيث

Egypt's Other Wars: Epidemics and the Politics of Public Health.

سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ١٩٩٠ .

- جيرشوني، إسرائيل جيمس جاتكوفسكي

Redefining the Egyptian Nation, 1930-1945.

كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ٢٠٠٢ .

- جيرشوني، إسرائيل جيمس جاتكوفسكي

Egypt, Islam, and the Arabs: The Search For Egyptian Nationhood, 1900-1930.

نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٦ .

- طبعات جيرشوني، إسرائيل وجيميس جانكوفسكى

Rethinking Nationalism in the Arab Middle East.

نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٩٧ .

- غالى، ميريت "سياسات الغد" القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٢٨ (ترجمة إسماعيل الفاروقى *The Policy of Tomorrow*، واشنطن العاصمة: المجلس الأمريكى للمجتمعات المثقفة، ١٩٥٣).

- غربال، محمد شفيق "طريق المفاوضات المصرية البريطانية ١٨٨٢-١٩٢٩" القاهرة: دار الكلام، ١٩٥٢ .

- جولد شميدت، أرثر *Modern Egypt: The Formation of a Nation State*، الطبعة الثانية، بولدر: مطبعة ويست فيو.

- جورمان، أنطونى

Historians, State, and Politics in Twentieth Century Egypt.

لندن: روتليدج كورزون، ٢٠٠٣ .

- هابرماس، جورج *The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry into a Category of Bourgeois Society* ترجمة توماس برجر، كامبريدج: مطبعة معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا، ١٩٩١ .

- الحضرى، أحمد تاريخ السينما فى مصر: الجزء الأول من بدايات ١٨٩٦ إلى آخر ١٩٣٠ القاهرة: نادى السينما بالقاهرة، ١٩٨٩ .

- هالבוوٹش، مورس *La Mémoire Collective* باريس: المطبعة الجامعية لفرنسا، ١٩٥٠ .

- هاريس، كريستينا

Nationalism and Revolution in Egypt: The Role of the Muslim Brotherhood.

ستانفورد: معهد هوفر، ١٩٦٤ .

- حسن، إلهامى "محمد طلعت حرب: رائد صناعة السينما المصرية ١٨٦٧-١٩٤١" القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ .
- حسنين، نصر جلال "الأبعاد الاقتصادية لأزمة صناعة السينما المصرية" القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥ .
- حاتم، مرفت

The Enduring Alliance of Nationalism and Patriarchy in Muslim Personal Status Laws; The Case of Modern Egypt.

قضايا المرأة ٦، ١٩: ١-٤٣، ١٩٨٦ .

- هيوورث دون، جى. **Religious and Political Trends in Modern Egypt** واشنطن العاصمة، ١٩٥٠ .

- هوبوود، دريك **Egypt: Politics and Society 1945-1981** لندن: جورج ألان وانوين، ١٩٨٢ .

- حسين، طه "مستقبل الثقافة فى مصر، ١٩٣٨" القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٣ (ترجمة سيدنى جلى زر **The Future of Culture in Egypt**، نيويورك: كتب أوكتاجون، ١٩٧٥).

- عيسوى، تشارلز **Egypt at Mid-Century: An Economic Survey** لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٥٤ .

- جانكوفسكى، جيمس **Egypt: A Short History** أكسفورد: منشورات وان وورد، ٢٠٠٠ .

- جانكوفسكى، جيمس **Egypt's Young Rebels. "Young Egypt" 1933-1952** ستانفورد، كاليفورنيا: مطبعة معهد هوفر، ١٩٧٥ .

● جونسون، إيمي جى. **Reconstructing Rural Egypt: Ahmed Hussein and the History of Egyptian Development** سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز، ٢٠٠٣ .

● كيربوف، آن كلير

La restauration du centre-ville: enjeux sociaux et historiques d'un projet urbain, " La Lettre d'information 4, April 2003, Observatoire Urbain du Caire Contemporain, CEDEJ.

● قدورى، إيلي **Egypt and the Caliphate, 1915-52** فى نسخة شاتام هاوس ودراسات أخرى عن الشرق الأوسط، لندن: فيندلفيلد ونيكسون، ١٩٧٠: ١٧٧-٢١٢ .

● لاندو، جاكوب أم. **Studies in the Arab Theater and Cinema** فيلاديلفيا: مطبعة جامعة بنسلفانيا، ١٩٥٨ .

● محفوظ، نجيب **Midaq Alley** واشنطن العاصمة: مطبعة ثرى كونتينانت، ١٩٧٧ .

● محفوظ، نجيب **The Beginning and the End** القاهرة: مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٨٥ .

● مانسفيلد، بيتر **The British in Egypt** لندن: فيندلفيلد ونيكسون، ١٩٧١ .

● طبعة مرعى، فريدة "صحافة السينما فى مصر: النصف الأول من القرن العشرين" وزارة الثقافة، المركز القومى للفيلم، ملف السينما (١)، القاهرة: لوتس، ١٩٩٦ .

● مارسو، عفاف لطفى السيد **Egypt's Liberal Experiment: 1922-1936** بيركلى: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٧٧ .

● مارسو، عفاف لطفى السيد **A Short History of Modern Egypt** كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٥ .

● ماثيو، زودريك دى. ومتى عكراوى

Education in Arab Countries of the Near East.

واشنطن العاصمة: المجلس الأمريكى للتعليم، ١٩٥٠ .

● ماير، توماس

The Changing Past: Egyptian Historiography of the Urabi Revolt, 1882-1983.

جينزفيل: مطبعة جامعة فلوريدا، ١٩٨٨ .

● مزة، سارة

Private Lives, Public Affairs: The Causes Célèbres of Pre-Revolutionary France

بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٣ .

● ماك لارين، أنجوس

A Prescription for Murder: The Victorian Serial Killings of Dr. Thomas Neill Cream.

شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٩٥ .

● طبقات ماري ويذر، مارجريت وجوديث إي. تاكر

Social History of Women and Gender in the Modern Middle East.

بولدر: مطبعة ويست فيو، ١٩٩٩ .

● مرنيسي، فطيمة

Beyond the Veil: Male-Female Dynamics in a Modern Muslim Society.

بلومنجتون: مطبعة جامعة إنديانا، ١٩٨٧ .

● ميتشل، ريتشارد بي. **The Society of the Muslim Brothers** لندن: مطبعة

جامعة أوكسفورد، ١٩٦٩ .

- مرسى، سهير أ.
Gender, Sickness and Healing in Rural Egypt: Ethnography in Historical Context.
بولدر: مطبعة وست فيو، ١٩٩٣ .
- موراي، ديفيد
Colonial Justice: Justice, Morality, and Crime in the Niagara District, 1791-1849.
تورونتو: مطبعة جامعة تورونتو، ٢٠٠٢ .
- نجيب، محمد Egypt's Destiny: a Personal Statement لندن: دابلداي، ١٩٥٥ .
- نلسون، سينثيا Doria Shafik, Egyptian Feminist: A Woman Apart جينزفيل: مطبعة جامعة فلوريدا، ١٩٩٦ .
- أوين، روجر Lord Cromer: Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠٠٤ .
- طبعة باسكال، جاك The Middle-East Motion Picture Almanac, 1946-47 "الدليل السينمائي للشرق الأوسط" الطبعة الأولى، القاهرة: مطبعة S.O.P.، ١٩٤٧ .
- بولارد، ليزا Nurturing the Nation: The Family Politics of Modernizing, Colonizing, and Liberating Egypt, 1805-1923 مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٥ .
- القبانى، إسماعيل محمود "سياسة التعليم في مصر" القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٤ .
- القبانى، إسماعيل محمود "دراسات في مسائل التعليم" القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١ .

● رضوان، أبو الفتوح أحمد Old and New Forces in Egyptian Education
نيويورك: جامعة كولومبيا، ١٩٥١ .

● الرافعى، عبد الرحمن "مقدمات ثورة ٢٦ يوليو" القاهرة: مكتبة النهضة المصرية،
١٩٥٧ .

● الرافعى، عبد الرحمن "فى أعقاب الثورة المصرية" جزء ١-٣، القاهرة: دار المعارف،
١٩٥١ .

● رمضان، عبد العظيم محمد إبراهيم "تطور الحركة الوطنية المصرية" الجزء ٢-٤،
القاهرة: دار الكتاب العربى، ١٩٨٧ .

● ريمون، أندريه Le Caire فى

L'Égypte d'aujourd'hui, permanence et changements, 1805-1976.

باريس: المركز القومى للأبحاث العلمية، ١٩٧٧ .

● ريمون، أندريه Cairo لندن: هاردكافر، ٢٠٠١ .

● ريد، مالكولم دونالد Cairo University and the Making of Modern Egypt
كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٠ .

● ريشموند، جى. سى. بى.

Egypt, 1798-1952: Her Advance Towards a Modern Identity.

نيويورك: جامعة كولومبيا، ١٩٧٧ .

● راسل، مئى

Creating the New Egyptian Woman: Consumerism, Education, and National
Identity, 1863-1922.

نيويورك: بالجريف ماكملان، ٢٠٠٤ .

- سعد، عبد المنعم "موجز تاريخ السينما المصرية" القاهرة: مطابع الأهرام التجارية، ١٩٧٦ .
- طبعة سادول، جورج The Cinema in the Arab Countries بيروت: اليونسكو ومركز إنتر أراب للسينما والتلفزيون، ١٩٦٦ .
- سافران، ناداف
- Egypt in Search of Political Community: An Analysis of the Intellectual and Political Evolution of Egypt, 1804-1952.
- كامبريدج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٦١ .
- سالموني، باراك أ.
- Women in the Nationalist-Educational Prism: Turkish and Egyptian Pedagogues and their Gendered Agenda, 1920-1952," History of Education Quarterly 4:43 (2003).
- شاهام، رون
- Family and the Courts in Modern Egypt: A Study Based on Decisions by the Shari'a Courts, 1900-1955.
- ليدن: إي. جي. بريل، ١٩٩٧ .
- الشرقاوي، جلال "رسالة في تاريخ السينما العربية" القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠ .
- الشرقاوي، جمال "حريق القاهرة: قرار اتهام جديد" القاهرة: دار الجيل للطباعة، ١٩٧٦ .
- الشرقاوي، جمال "أسرار حريق القاهرة في الوثائق السرية البريطانية" القاهرة: دار الشهدى للنشر، ١٩٨٥ .

- سميث، تشارلز دي.

The Crisis of Orientation: The Shift of Egyptian Intellectuals to Islamic Subjects in the 1930s.

المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، الجزء الرابع، رقم ٤ (أكتوبر ١٩٧٣).

- سميث، سيدنى Mostly Murder لندن: جورج جى. هاراب وشركاه، ١٩٥٩ .

- سنبل، أميرة الأزهرى Introduction فى طبعة أميرة الأزهرى سنبل،

Women, the Family, and Divorce Laws in Islamic History.

سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز: ١٩٩٦ : ١-٢٠ .

- ستاريت، جورج

Putting Islam to Work: Education, Politics, and the Transformation of Faith.

بيركلى: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٨ .

- سيزوليوفيتش، جوزيف أس.

Education and Modernization in the Middle East.

إيثاكا: مطبعة جامعة كورنيل، ١٩٧٣ .

- تلهامى، غادة هاشم The Mobilization of Muslim Women in Egypt جينزفيل:

مطبعة جامعة فلوريدا، ١٩٩٦ .

- توفيق، سعد الدين "قصة السينما فى مصر: دراسة نقدية" القاهرة: دار الهلال،

١٩٦٩ .

- تيرى، جانيس The Wafd, 1919-1952: Cornerstone of Political Power مركز

العالم الثالث للبحث والنشر، ١٩٨٢ .

- ثورافال، إيف *Regards sur le cinéma Égyptien* بيروت: دار المشرق، ١٩٧٥ .
- تيجنور، روبرت
- The Economic Activities of Foreigners in Egypt, 1920-1950: From Millet to Haute Bourgeoisie.**
- دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ ٢٢ يوليو ١٩٨٠ .
- تيجنور، روبرت *Bank Misr and Foreign Capitalism* المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ٨:٢ (١٩٧٧)، ٨١-١٦١ .
- تريب، تشارلز *Contemporary Egypt: through Egyptian Eyes* مقالات تكريم لبي. جي. فاتيكويتيس، نيويورك ولندن: روتليدج، ١٩٩٢ .
- فاتيكويتيس، بي. جي.
- The History of Modern Egypt from Muhammad Ali to Mubarak.**
- الطبعة الرابعة، بلتيمور: مطبعة جامعة جون هوبكينز، ١٩٩١ .
- فاتيكويتيس، بي. جي. *Egyptian Army in Politics: Pattern for New Nations* بلومنجتون، أنديانا: مطبعة الجامعة، ١٩٦١ .
- طبعة واصف، ماجدة *Égypte: 100 ans de cinema* باريس: طبعة بلوم ومعهد العالم العربي، ١٩٩٥ .
- فالكوفيتز، جوديث
- City of Dreadful Delight: Narratives of Sexual Danger in Late-Victorian London.**
- شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٩٢ .

● زعلوك، ملاك

Power, Class and Foreign Capital in Egypt. The Rise of a New Bourgeoisie.

لندن: كتب زد، ١٩٨٩ .

● زايد، محمود **Egypt's Struggle for Independence** بيروت: خياط، ١٩٦٥ .

المساهمون في سطور :

توفيق أكليمنندوس Tewfik Aclimandos: مؤرخ ومحلل سياسى يعمل فى مركز دراسات الوثائق الاقتصادية والاجتماعية والقانونية (CEDE)، وهو مركز فرنسى متمركز فى وسط القاهرة. وكان "النشاط السياسى فى الجيش المصرى". هو موضوع أطروحة الدكتوراه التى ناقشها فى معهد الدراسات السياسية فى باريس . وقد تناول بالبحث النشاط السياسى للضباط المصريين على مدى التسعة عشرة عاماً الماضية، كما نشر العديد من المقالات حول هذا الموضوع والمواضيع الأخرى ذات الصلة وهى تتضمن:

"Officers et Freres Musulmans , Les Ingenieurs Militaires Egyptiens in Maghreb Machrek 1955"

"Regards retrospectif sur la Révolution Egyptienne"

"Nationalismes machrequins et nasserisme" "in Taguieff, Delannois:

بيرغ ، باريس. ٢٠٠١ "Nationalismes en Perspective"

***ملاك بدرأوى Malak Badrawi**: ملاك بدرأوى، زميل فخري بمعهد الدراسات العربية والإسلامية فى جامعة إكستر بالمملكة المتحدة. حصل على درجة من جامعة القاهرة وعلى الماجستير من جامعة لندن، وبدرأوى هو مؤلف كتاب:

Ismail Sidqi: Pragmatism and Vision in Twentieth Century Egypt

(كيرزون برس، ١٩٩٦)

و Political Violence in Egypt ، ١٩١٠-١٩٢٥-

و Secret Societies, Plots and assassinations (كيرزون برس ، ٢٠٠٠).

*** أندرو Andrew Flibbert:** حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية من جامعة كولومبيا فى عام ٢٠٠١. وقد صدرت أطروحته كتاباً تحت عنوان:

Commerce in Culture: States and Markets in the World Film Trade

كما تتركز أبحاثه على الاقتصاد السياسى للإنتاج الثقافى. ويعمل حالياً أستاذاً مساعداً للعلوم السياسية فى جامعة نيويورك، وأيضاً مساعداً زائراً بجامعة ترينيتى فى هارتفورد حيث يقوم بتدريس العلوم الدولية المقارنة.

*** نانسى جالجار Nancy Gallagher:** رئيس لجنة برنامج دراسات الشرق الأوسط وأستاذ التاريخ فى جامعة كاليفورنيا فى سانتا باربرا. لها منشورات تشمل: "Egypt's Other Wars" و **Epidemics and the Politics of Public Health** (مطبوعة الجامعة الأمريكية فى القاهرة ، ١٩٩٣).

Medicine and Power in Tunisia ، ١٧٨٠-١٩٠٠ (مطبوعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٣)؛
و **"Apostasy, Feminism And the Discourse of Human Rights " in Sherifa Zuhur**

ومراجعات:

"the Islamic World Women and Gender in the Middle East and" (مطبوعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٣)؛ "Learning Lessons from the Algerian War of Independence" تقرير الشرق الأوسط، ٢٢٥ (شتاء ٢٠٠٢)، و

"The Journal of ,The International Campaign against Gender Apartheid"
International Law and Foreign Affairs.

٥، ٢ (خريف / شتاء، ٢٠٠٠-٢٠٠١)

*** آرثر جولد شميدت Arthur Goldschmidt:** أستاذ فخري فى قسم تاريخ الشرق الأوسط فى جامعة ولاية بنسلفانيا. حصل على درجة الدكتوراه فى التاريخ ودراسات الشرق الأوسط من جامعة هارفارد فى عام ١٩٦٨.

مجالات أبحاثه الرئيسية هي:

Historical Dictionary of Egypt and Modern Egypt and: The Formation of A Nation State;

كان في بادئ الأمر قد تخصص في التاريخ السياسي إلا أن اهتماماته تحولت بعد ذلك إلى المجال الاجتماعي، والفكري، وكذا الاتجاهات الثقافية في مصر الحديثة.

* **مرفت ف. حاتم Mervat F. Hatem:** أستاذ علوم سياسية ، في جامعة هاورد ، واشنطن. حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة متشجان في عام ١٩٨٢. وتشمل اهتماماتها دراسة الجنس من حيث التذكير والتأنيث، والخطاب والسياسة في مصر والشرق الأوسط العربي.

Centurt Discursive Roots and the continuing debate on the social contract in today's Egypt century Nineteenth

برنامج البحر الأبيض المتوسط، روبرت شومان مركز الدراسات المتقدمة، المعهد الجامعي الأوروبي ودرقات العمل (رقم ٢٠٠٢ ! ١3)، فلورنسا، إيطاليا.

* **ميساكو إيكيدا Misako Ikeda:** إيكيدا زميل في كلية كوريو الدولية، أيشي، اليابان. حصلت على درجة الدكتوراه في التاريخ ودراسات الشرق أوسطية من جامعة هارفارد في عام ١٩٩٨ وتشمل اهتماماتها البحثية التاريخ الاجتماعي والفكر في مصر الحديثة، وخاصة المناقشات الاجتماعية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢.

* **أمي ج. جونسون Amy J. Johnson:** كانت تعمل أستاذًا مساعدًا للتاريخ في كلية بيرى. وحصلت على درجة الدكتوراه في التاريخ والدراسات الشرق أوسطية من جامعة هارفارد في عام ١٩٩٨. تشمل اهتماماتها البحثية تطوير الريف، التاريخ الاجتماعي، وقضايا المساواة بين الجنسين. وكتبت على نطاق واسع عن تاريخ منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وآخر كتاب لها هو:

"Reconstructing Rural Egypt: Ahmed Hussein and the History of Egyptian Development"

(مطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة ٢٠٠٤)

*** آن كلير كيربوف Anne-Claire Kerboeuf:** آن كلير كيربوف حاصلة على درجة الدكتوراه ومرشحة لنيل الدكتوراه في التاريخ في جامعة بروفانس (إكس مرسيليا ١). ومنذ سبتمبر ٢٠٠٢ وهي تشغل وظيفة مساعد باحث في مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية، والقانونية CEDE بالقاهرة. كما حصلت على المنحة الدراسية لوزير الخارجية الفرنسي لافوازييه، أما أبحاثها الرئيسية فهي في مجال البحوث الاجتماعية والحضرية المصرية في التاريخ الحديث. أحدث ما نشر لها دراسة مقارنة لأعمال الشغب باسم:

"La Racaille et les Intrigants"

الإسكندرية ١١ يونية ١٨٨٢ والثاني يناير ١٨٨٢ / القاهرة، ٢٦ يناير ١٩٥٢،
في مصر، العالم العربي رقم ٤-٥، ٢٠٠٣

*** سامية خلوصي Samia Kholoussi:** تشغل وظيفة أستاذ مساعد في جامعة عين شمس، القاهرة، مصر. وقد قامت بالتدريس في UCLQ وجامعة أريزونا، وحصلت على درجة الدكتوراه من جامعة عين شمس. ومن بين مؤلفاتها:

"The Revolution that Failed: A study of Radwa As hour's Siraj" and Nadine Gordimer's July's People ".

فقه اللغة التاريخي والمقارن: XXII سلسلة في الأدب وعلم اللغة، المحرر. سلامة م. سليمان. (القاهرة: مطبعة كلية الألسن ١٩٤٤).

"Cracks in the Edifice of National Consciousness":

و **"Bird of the East"** لتوفيق الحكيم، و **"The Last September"** لإليزابيث بوين،
و **Literary inter-relations: Ireland, Egypt and the far East** (جيرارد كروس:
كولين سميث، ١٩٩٦).

"Laying Bare the Artifice of Fiction:

القاضي – "The Grievances of the Eloquent Egyptian":

"The Apathy of the Wealthy"

ونابوكوف: "The Real Life of Sebastian Knight"،

"Essays in Honor of Louis Marcos"

(القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٩٨). اهتماماتها البحثية الحالية تشمل الأدب الإنجليزي والأدب العربي ودراسات الجنس والنوع، والاستعمار، والسياسة الشعرية.

* **حنان خلوصى Hanan Kholoussy**: حاصلة على دكتوراه في أقسام التاريخ / الدراسات الشرق أوسطية في جامعة نيويورك (المتوقعة ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦). وهي حاصلة على MA/B.S. في الخدمة الخارجية / الدراسات العربية من جامعة جورج تاون (1998! 1999) وتشمل اهتماماتها البحثية الجنس / النوع، والقومية، والقانون. ومن مؤلفاتها،

"Stolen Husbands, Foreign Wives: Mixed Marriage, Identity Formation, and Gender in Colonial Egypt" ١٩٢٣-١٩٠٩

، في مجلة حواء "Journal of Women in the Middle East and the Islamic World 01-2" ، يولية ٢٠٠٢.

* **فرد هـ. لوسن Fred H. Lawson**: أستاذ في كلية مايلز. حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس، في عام ١٩٨٢. خلال ١٩٩٢-١٩٩٣، وفي ربيع عام ٢٠٠١ كان محاضراً لمنحة فولبرايت في العلاقات الدولية في جامعة حلب، كما كان أيضاً محاضراً فولبرايت في العلوم السياسية في جامعة عدن.

وهو مؤلف كتب:

"The Social Origin of Egyptian Expansionism during the Muhammad Ali Period"

(مطبوعة جامعة كولومبيا، ١٩٩٢)، "Why Syria goes to War" مطبوعة جامعة كورنل، ١٩٩٦).

وهو حالياً على وشك الانتهاء من دراسة عن ظهور الدول ذات السيادة في الشرق الأوسط الحديث.

*** شون ت. لوبيز Shawn T. Lopez:** حصل على درجة الماجستير في الدراسات الشرق أوسطية من جامعة يوتا والدكتوراه في التاريخ من جامعة متشجان ٢٠٠٤. أطروحته التي قدمها تركز على العلاقة بين تكاثر أخبار الحوادث (الأخبار عن الفوضى الداخلية) وما أنجبته من تكتل الثقافة الشعبية في مصر بعد الحرب العالمية الأولى. كما أن مقالته:

The Dangers of Dancing: The Media and the Morality 1930 Egypt

قد ظهرت في الدراسات المقارنة في جنوب آسيا، وإفريقيا، والشرق الأوسط. هو الآن زميل ما بعد الدكتوراه بجامعة نورث كارولينا في شيل هبل.

*** سكوت ديفيد ماكنتوش Scott David McIntosh:** ديفيد ماكنتوش حصل على ليسانس في التاريخ واللغة الإنجليزية من كلية برى في عام ٢٠٠١، حيث تركزت دراسته على مصر والسودان. وقد عمل لمدة سنتين منسقاً لبرنامج المجلس الوطني. للعلاقات العربية في واشنطن العاصمة، وقد ساهم في الجريدة الإلكترونية الإنترنت منظور الخليج. وهو حالياً أحد العاملين في مؤسسة الإسكان التعاونية الدولية، وهي من المنظمات غير الحكومية التي توفر الخبرة التقنية والقيادة في المبادرات المحلية والتنمية في أكثر من مائة دولة.

*** روجر أون Roger Owen:** أستاذ للتاريخ في جامعة هارفارد ، وكان قد عمل مدير إدارة مركز هارفارد للدراسات الشرق الأوسطية في الفترة من ١٩٩٦ إلى ٩٩. وهو رائد في تاريخ الشرق الأوسط الاقتصادي في القرنين التاسع عشر والعشرين. كما أن مؤلفاته تشمل:

Cotton and the Egyptian Economy 1820-1914: "A study in Trade and Development" (مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٩).

"The Middle East in the World Economy" ، ١٨٠٠-١٩١٤ ميثيويين ، (١٩٨١)،

"A History of the Middle East Economies in the Twentieth Century (with Sevkett Pamuk)".

(مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٩٨)

"State Power Politics in the Making of the Modern Middle East"

(طبعة روت ليدج، ٢٠٠٠)

"Lord Cromer: Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul"

(مطبعة جامعة أوكسفورد، ٢٠٠٤)

* **لوسى ريزوفا** Lucie Ryzova: عضوة زميلة أبحاث فى كلية سانت جون، جامعة أكسفورد. تخصصت فى التاريخ الاجتماعى والثقافى لمصر فى ظل النظام الملكى، مع الانتباه إلى ظهور ثقافة الحضر الشامل ووسائل الإعلام. وهى مؤلفة:

كتاب "الأفندية والحدثة المتنازع عليها (CEDE) ٢٠٠٤.

* **باراك أ. سالمونى** Barak A. Salamon: هو نائب مدير مركز العمليات المتقدمة للثقافة والتعلم ، قيادة فيلق مشاة البحرية الأمريكية للتدريب والتعليم، فى كوانتيكو بولاية فرجينيا. حتى أيار/مايو ٢٠٠٥، كان يعمل مساعداً فى إدارة شئون الأمن القومى، كلية الدراسات البحرية العليا. وكانت أطروحته بعنوان "أساليب تربوية وطنية: تدريس الاجتماع والسياسة للمجتمع من خلال تركية القرن العشرين والتعليم المصرى" (جامعة هارفارد، ٢٠٠٢). وتشمل اهتماماته البحثية الهوية الجماعية فى الشرق الأوسط؛ العسكرية، ونظام الحكم، والمجتمع فى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى؛ العلاقات الخارجية التركية ، والمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط. وقد نشر مقالات ومراجعات لكتب فى الدراسات الشرق أوسطية، نشرته جمعية الدراسات التركية، والتاريخ والتربية والتعليم، مجلة دراسات التركية، دراسات مقارنة فى جنوب آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط، ومجلة للدراسات الاستراتيجية، المجلة السياسية وعلم الاجتماع العسكرى، والتاريخ الحالى، ومجلة الشرق الأوسط للشئون الدولية.

*** جيمس ويدن James Widden:** يعمل أستاذًا مساعدًا في مادة التاريخ والكلاسيكيات في جامعة أكاديا، في كندا، وكان يقوم في وقت سابق بالتدريس في جامعة ولاية موري في موري، ولاية كنتاكي. حصل على الدكتوراه من جامعة لندن، ويعمل حاليًا على مخطوطة كتاب عن الحياة السياسية المصرية ١٩٢٠-١٩٣٠ وهي وقيد المراجعة.

*** كارولين ويليامز Caroline Williams:** حاصلة على درجة الماجستير في تاريخ الشرق الأوسط من جامعة هارفارد وشهادة في الفنون والعمارة الإسلامية من الجامعة الأمريكية في القاهرة. عملها يتناول المعالم الإسلامية في القاهرة (مطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة، ٢٠٠٢) أدى إلى دراسة القرن التاسع عشر/ التصوير الاستشراقى والحياة الحضرية، وكان آخرها لاستكشاف مصر في القرن العشرين - تعبيرات بصرية.

المتجمة فى سطور :

د. عايذة الباجورى

- حاصلة على ليسانس فى اللغة الإنجليزية من جامعة الإسكندرية، ودكتوراه فى الفلسفة الإسلامية من جامعة السربون بباريس.

لها تراجم عديدة أهمها:

- مفاتيح أورشليم القدس/ من الفرنسية إلى العربية - للكاتب رينيه سلامبولي.
- مقدمة فى الفقه الاسلامى/ ترجمة من العربية إلى الإنجليزية - للكاتب محمد سلام مذكور.
- إنسان العصر يكرم رمسيس/ ترجمة من العربية إلى الإنجليزية - للكاتب د. ثروت عكاشة.
- الكتاب الأخضر / من الفرنسية إلى العربية - للرئيس معمر القذافى.
- فن الولادة عند قدماء المصريين- ترجمة من العربية إلى الإنجليزية / للكاتب د. محمد فياض.
- الإسكندرية عبر العصور، من العربية إلى الإنجليزية.

التصحيح اللغوى : نهلة فيصل
الإشراف الفنى : حسن كامل

يعرض كتاب "رؤية جديدة لمصر 1919-1952" جوانب جديدة من العصر الملكي الدستوري، عادة ما يتم تجاهلها أثناء دراسة تاريخ مصر، وهو يشير إلى أن كثيرا من التغيرات المحلية والإقليمية السياسية والاجتماعية والثقافية التي يعزى الفضل فيها إلى ثورة 1952 تعود في حقيقة الأمر إلى عقود ما قبل ثورة يوليو، ويناقش الكتاب وجهة النظر السائدة بأن مفاهيم تلك الحقبة تمثل جزءاً أصيلاً في تشكيل الدولة الحديثة والتحول الاجتماعي، كما يؤكد أن ثورات مصر الحقيقية كانت امتداداً لعمليات طويلة بزغت خلال عقود عديدة قبل 1952، وأن قادة ثورة 1952 استفادوا من تلك التطورات؛ حيث إن التغيرات الأولى في المجتمع المصري سهلت بصورة أساسية تحركاتهم وسياساتهم.

يتضمن هذا الكتاب أيضاً مناقشة لقضايا سياسية محلية وخارجية، كما يتناول الإصلاح العسكري والتعليمي والاجتماعي والطبقي، وذلك من منظور جديد.

